الجمهـــورية الجزائريـــــة الديمقراطيـــــة الشعبيـــة

وزارة التعليـــم العـــالي والبحـــث العـــلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- قسنطينة-

كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية
قسم الدعوة والاعلام

رقم التسجيل :..................

الرقم التسلسلي :....................

موضوع البحث:

المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الدعوة والإعلام

إعـــــداد :
الطيب برغوث

إشراف الأستاذ الدكتور:
فضيل دليو

لجنة المناقشة

1-	الأستاذ الدكتور :	عمار طالبي	رئيسا
2-	الأستاذ الدكتور :	فضيل دليو	مقررا
3-	الأستاذ الدكتور :	محمد زرمان	عضوا مناقشا
4-	الأستاذ الدكتور :	إبراهيم بحاز	عضوا مناقشا
5-	الدكتور :	نور الدين سوكحال	عضوا مناقشا

السنـــة الجامعيـــة : 1431/1430هـ
2010/2009 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجمهـــورية الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليـم العـالي والبحـث العـلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية

قسم الدعوة والاعلام

رقم التسجيل :..................

الرقم التسلسلي :..................

موضوع البحث:

المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الدعوة والإعلام

إعـــداد :

الطيب برغوث

إشراف الأستاذ الدكتور:

فضيل دليو

لجنة المناقشة

-1	الأستاذ الدكتور :	عمار طالبي	رئيسا
-2	الأستاذ الدكتور :	فضيل دليو	مقررا
-3	الأستاذ الدكتور :	محمد زرمان	عضوا مناقشا
-4	الأستاذ الدكتور :	إبراهيم بحاز	عضوا مناقشا
-5	الدكتور :	نور الدين سوكحال	عضوا مناقشا

السنـــة الجامعيـــة : 1431/1430هـ

2010/2009 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المنـهج النـبـوي
في حمايـة الدعوة ومنـجزاتـها
في مرحلة بـنـاء الدولة

تقديم الطالب
الطيب برغـــــوث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــــداء

إلى زوجتي الشهيدة العزيزة: زهية ، التي قضت نحبها في خضم المحنة الوطنية الكبرى ، وكان إنجازي لهذه الرسالة همًّا أساسيا لها .

إلى زوجتي العزيزة: سميرة ، التي عوضتني ما افتقدته من دفئ ورعاية ومساندة .

إلى ابنيتي العزيزة: نور الهدى ، التي أدعو الله تعالى أن ينير طريق الرسالية أمامها .

إلى أجيال الأمة التي تحمل همَّ النهضة الحضارية الإسلامية والإنسانية، وتمضي قدما بكل جدية وعزم واحتسابية واعتزاز ووعي.. في أداء ضريبة هذه النهضة المباركة، التي تحقق بها خلافة الإنسان في الأرض، وكرامته فيها، وسيادته عليها، وإمامة الأمة ومرجعيتها الحضارية فيها .

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل الفكري المتواضع، داعيا الله تعالى أن ينفع به، ويبارك فيه .

محبكم الطيب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة مدخلية للدراسة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين لنهجه، المجدّدين للأمة به إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن دور المرجعية والشهادة والقوامة والتكاملية الحضارية البشرية، الذي قدّر للأمة الإسلامية أن تضطلع به في الأرض، بفضل مواريث الخبرة الرسالية الراشدة التي آلت إليها، عبر استيعاب الإسلام لكل ما له صبغة سننية مطرّدة في حركة النبوات، وهيمنته، بالاكتمال والتمام، على هذه الخبرة. كما قال تعالى:[**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**]{الشُّورى:13}. وقال سبحانه:[**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**] {المائدة:48}. وقال كذلك: [**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**] {البقرة:143}.

إن هذا الدور المرجعي القيادي الخطير الذي يلقى على كاهل الأمة الإسلامية؛ في أفرادها، وجماعاتها، ونخبها الفكرية، وأنظمتها السياسية.. مسؤوليات حضارية جساماً، على المستويات الذاتية والاجتماعية والإنسانية والكونية.. يفرض على الأمة كلها أن توجّه جميع إمكاناتها وطاقاتها وخبراتها، نحو تلبية احتياجات ومستلزمات تحقيق هذا الدور الخطير في أبعاده العبادية والأخلاقية العالمية والإنسانية والكونية.

وتعظم هذه المسؤولية عندما يتطلب الموقف الحضاري، القيام بدور مزدوج، يتصل في جانب أو بعد منه بمواجهة وضع التخلف والغثائية، وتحقيق شروط النهضة الذاتية للأمة. ويتصل في جانبه أو بعده الآخر بمهمة الشهادة والقوامة الحضارية ذاتها، وإبقاء الأمة في حالة حيوية واندفاع حضاري متجدّد، يتيح لها الريادة والإمامة الحضارية المتوازنة، ولا ينزل بها عن مواقع المواكبة أو المنافسة الفاعلة، عندما يتعذر عليها أحيانا، البقاء في موقع الريادة والإمامة الحضارية.

ولعل في مقدمة من تعنيه هذه المسؤولية، وتلقي بثقلها عليه: الصفوة الجامعية خاصة، بما أتيح لها من وعي رسالي، وتوفرت عليه من تأهيل علمي؛ معرفي ومنهجي وروحي، يمكّنها من الإحساس الاستشرافي الحادّ بالواجبات وبالمشكلات، ويقدِرها على القراءة السننية النافذة إلى أعماق الظواهر، الكاشفة لسنن تفاعلها الذاتي والتبادلي أو الخارجي، واستثمارها في تخطيط وتأطيرعمليات الدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة الوقائية المبكرة، التي تحتاجها أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية حركة التجديد الحضاري للأمة.

من هذه المنطلقات المبدئية والفكرية والنفسية.. تحرّكت اهتماماتي بهذا الموضوع الحيوي الهام في فلسفة التغيير والتجديد الحضاري عامة. فقد كنت حريصاً على بذل جهدي في موضوع يستحقّ أن يبذل فيه هذا الجهد، الذي هو جزء من " **الميزانية التسخيرية الكونية** " العزيزة للأمة، بل والإنسانية، لا يحق لي تبديده خارج عمق أولويات تجديدها الحضاري؛ خاصة وأن المتأمل في السوق أو الساحة الثقافية، يلحظ كمّاً هائلاً من المادة المعرفية لا يخدم أولويات التجديد الحضاري للأمة، بل ربما يندرج جزء منه في تعويق جهود تجديدها، وهدر إمكاناتها التسخيرية الثمينة، ومضاعفة مديونيتها الحضارية، وتعميق هامشيتها وغثائيتها وتبعيتها الحضارية في صيرورات حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، الماضية في حياة البشر بلا هوادة، والمباعدة بينها وبين طموحها في المرجعية والشهادة والقوامة الحضارية الذي قدِّر لها أن تؤديه في حركة الاستخلاف البشري في الأرض.

ومن هنا فإن المطلوب هوأن تنسجم الاهتمامات المعرفية والثقافية والاجتماعية والسياسية للأمة، وخاصة بالنسبة لصفوتها الفكرية والسياسية؛ مع أولويات التجديد الحضاري للأمة، وأن تخدم بصورة مباشرة طموحاتها في المرجعية والقوامة والشهادة والتكاملية الحضارية البشرية، وأن أي إخلال بتكييف هذه الاهتمامات مع هذه الأولويات والطموحات والتحديات، يعدّ مؤشّراً متفاوت الخطورة على اختلال في الوعي الرسالي لهذه الصفوات الفكرية والسياسية، واهتزاز في نضجها الحضاري، يجب تداركه بلا هوادة قبل فوات الأوان.

وعليه فإن مؤشرات النضج الرسالي والحضاري لدى الأمة عامة، وصفوتها الفكرية والسياسية خاصة، تتجلى في مدى عمق واستجابة وعيها:

– **لأسئلة الأولويات**: أي أن إنسان الصفوة الرسالية عامة، يسأل نفسه باستمرار عن: ما هي أولويات التجديد الحضاري للأمة في عصره ومرحلته وبيئته؛ في شمول هذه الأولويات وتكاملها وتوازنها ؟ ويجعل ذلك ضمن مركز اهتماماته الرئيسة.

– **ولأسئلة الموقع والدور**: أي أن إنسان الصفوة الرسالية، يسأل نفسه كذلك باستمرار، عن الموقع الفكري والاجتماعي والسياسي الفاعل، الذي يؤدّي من خلاله، دوره المؤثر في تحقيق هذه الأولويات، بأعلى كفاءة وأصالة رسالية ممكنة.

– **ولأسئلة التقويم والتجديد**: أي أن إنسان الصفوة الرسالية، يراجع باستمرار، وعيه بالأولويات والموقع والدور، وهل هو يتحرك في عمق حركة التجديد والبناء الحضاري لمجتمعه وأمته وإنسان عصره، أم أنه يعيش على هامشها، ويتحرك في الاتجاهات وعلى الخطوط المعاكسة لها ؟ ليجدِّد وعيه، ويكيّف وضعه مع منطق الأصالة والفعالية والتكاملية المطلوبة منه، لأقدار أمته على تلبية احتياجات حركة نهضتها وتجدُّدها الحضاري، ومواجهة التحديات التي يطرحها ذلك عليها.

– **ولأسئلة المنهج**: أي أن إنسان الصفوة الرسالية، يسأل نفسه كذلك باستمرار، عن منهج الفهم والإنجاز الذي يعتمده، لخدمة أولويات مجتمعه وأمته وعصره، وأداء دوره، وتقييم وتقويم مدى أصالة وفاعلية وتكاملية ذلك المنهج ؟ أم أن هناك ما ينبغي أو يجب تغييره أو تعديله أو تجديده في منظومة المنهج، حتى تستجيب للحاجات والطموحات والتحديات بالأصالة والفاعلية والتكاملية والاطرادية المطلوبة ؟

وفي تلخيص كل هذه المعاني والأبعاد التي سبق ذكرها، في الدور المحوري للصفوة الرسالية تجاه المجتمع والأمة والإنسانية، جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:[**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**] {التوبة:122}. فالصفوة الرسالية تضطلع بدور مركزي حيوي في التخطيط الاستراتيجي لنهضة المجتمع، والوقاية المبكرة لهذه النهضة الحضارية من الأخطار والتحديات التي تحيط بها، وتعمل على المس بأصالتها الثقافية، وفاعليتها الإنجازية، وتكامليتها البنائية، واطراديتها التاريخية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

ولقد حمدت الله تعالى وأنا أبحث في الجذور الفكرية والنفسية والحضارية لهذا الموضوع،على ضوء الأسئلة السابقة، فوجدت بأن بذوره الجنينية عميقة في حياتي وفي حياة أمّتي. إذ أتذكر تماماً كيف كنّا نحسّ زمن الكابوس الاستعماري الحديث في الجزائر، ونحن لما نبارح بعد عهد الطفولة المبكرة، بثقل السؤال النهضوي: **لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم** ؟ وإن طرح في أذهاننا في نطاقه الفطري و القطري المحدود. فكنّا ونحن صغاراً نعاني ثقل هذه الأسئلة: كيف يحتل الكفار بلادنا ونحن مسلمون ؟ كيف يغلب الكفار المسلمين ؟ لماذا لا ينتقم الله سبحانه وتعالى من الكفار ؟! ماذا ينقصنا

حتى نستعيد قوتنا ودورنا ؟! فقد رسخ في أذهاننا التناقض وعدم الالتقاء بين الإسلام والتخلّف، والإيمان والضعف،والأمة والانحطاط.. فالإسلام قوّة وكمال، وإن لم نمتلك القدرة التفسيرية العلمية لذلك في هذه المرحلة المبكرة من حياتنا.

ولمّا تكاملت وترابطت في نفوسنا بعد ذلك حلقات الوعي، في أبعاده التاريخية والآنية والمستقبلية، واتسعت آفاقنا لتستوعب هموم الأمة وطموحاتها، أدركنا بأن السؤال النهضوي التجديدي يسكن ذاكرة الأمة كلها. وراحت أسئلة النهضة والتجديد تتبلور في نفسي أكثر، وتأخذ طابعها المعرفي والمنهجي والوظيفي الدقيق ؛ فكنت أتساءل دائماً، وأنا أراجع نتائج جهود حركات التجديد الحضاري الحديث للأمة، على ضوء التحديات المعيشة، والإمكانات المتاحة، والجهود المبذولة، والزمن الطويل الذي استغرقته هذه الجهود، والنتائج الزهيدة المحصلة من ذلك كله:

– ما سرّ اتسام الجهد التجديدي للأمة عموماً " **بالاستئنافية** " وعدم التواصل ؟ و " **التجزيئية** " وعدم الترابط ؟ و " **الاهتلاكية** " وعدم التكامل ؟ و " **الازدواجية** أو **الانفصالية** " وعدم الأصالة ؟ ممّا طبع مسيرتها باللاّفعالية، وأحياناً باللاّجدوى، وحكم عليها بالمزيد من الغثائية والتخلف والتبعية ؟

– ولماذا لا نجد هناك تناسباً معقولاً بين هذا الجهد التجديدي المبذول ونتيجته الثقافية والاجتماعية والحضارية الفعلية ؟ ما سرّ هذا الاختلال والمفارقة الكبيرة بينهما ؟!

– لماذا تتعرّض الفكرة أو المشروع المرجعي، وعملية تمثّله الذاتي، وحركة تبليغه والدعوة إليه، وجهود تجسيده الاجتماعي والحضاري، ومحاولات حماية ذلك كله والمحافظة على منجزاته.. إلى التشويه والتحريف، والاختزال، والتوقف، والتبديد ... بشكل يكاد يطّرد ويتحول إلى ظاهرة عامة ؟

– لماذا يحدث كل هذا الاختلال، ويفقد الجهد التجديدي – أثناء الطريق – الكثير من أصالته وفعاليته وتكامليته وقابليته للاطّراد والتجدد ؟ مع أن الله تعالى قضت حكمته بمباركة جهد المؤمن، وتعهّده بالرعاية والحفظ والتزكية والتأييد ! كما قال سبحانه: [**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**] {العنكبوت:69}، وقال عزّ وجلّ:[**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**] {النحل:128}،وقال كذلك:[**إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**] {الأعراف:128}، وقال سبحانه:[**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**] {البقرة:249}، وقوله أيضا:[**وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**] {النساء:141}.

إن كل هذه النصوص المحكمة، وغيرها كثير جدا في الكتاب والسنة، تؤكد سنة الله في مباركة جهد المؤمنين، ورفع مستويات أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية إنجازيتهم الثقافية والاجتماعية والحضارية باستمرار، وسنة الله لا تتبدل ولا تتخلف، ولكن واقع المسلمين أفرادا ومجتمعات وأمة، لا ينسجم تماما مع هذه الوعود الإلهية الجازمة، والسنن الربانية الماضية في الخلق !

فأين الخلل إذن في كل هذه الجهود الضخمة المتواصلة على امتداد الساحة الإسلامية الواسعة، تحت تأطير مقولات: " **العودة إلى الكتاب والسنّة** ". و " **لا يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها** "، و " **الخير كل الخير في الإتباع لا في الابتداع** " و " **الإسلام طريق العزة والقوة** " و " **الإقتداء بالسلف** "... ؟ إلى غير ذلك من المقولات والمقدمات المعرفية والمنهجية الصحيحة التي تستلهم الإسلام كتاباً وسنّةً، وتستوحي ميراثه الحضاري الراشد – حسب الظاهر – في فلسفة التغيير والبناء والمواجهة، التي تستلزمها عملية التجديد ؟!

إننا نقف أمام إشكال أو مفارقة حقيقية، ذات أبعاد وانعكاسات معرفية ومنهجية وحضارية بالغة الخطورة، يجب تأمّلها بعمق وشمول ومسؤولية، لأنها تمسّ مصداقية المرجعية الحضارية لحركة

التجديد من ناحية، كما تمسّ مستقبل ومصير الأمة الحضاري في معتركات حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من ناحية أخرى، وتحكم على حاضرها بالمزيد من الغثائية والضنكية من ناحية ثالثة.

ولعل أخطر هذه الانعكاسات السلبية لهذا الإشكال وهذه المفارقة، هو اهتزاز ثقة الأمة في مستقبل حركة التجديد، وامتداد ذلك مع مرور الزمن وتوالي الاخفاقات، إلى اضطراب الموقف من مرجعية التجديد ذاتها؛ عندما تظن بعض الفئات أن الخلل يكمن في المنظومة المعرفية والثقافية الموجّهة لحركة التجديد ذاتها، التي لم تعد تَفِ باحتياجات الحياة المتجدّدة ! كما يُلمس ذلك في الموقف العلماني عامة من دور الإسلام في حركة الحياة، وموقف الاتجاهات الروحية والفكرية المستقطبة بفكرتي: الخلاص الفردي، والمعرفة النظرية، المفضيتين إلى الموقف نفسه على المستوى العملي، وإن اختلفت منطلقاته العقدية والفكرية والمنهجية، وهو تهميش الدور الشمولي للإسلام في حركة النهضة والتجديد الحضاري للأمة !

فارتباط عموم تجارب النهوض والتجديد الحضاري للأمة، بطريقة أو أخرى، بمرجعية الكتاب والسنّة والسيرة، والخبرة الثقافية المنبثقة منها بصفة عامة، أفرز على المستوى النفسي والفكري والسياسي.. موقفاً من هذه التجارب ومن مرجعيتها الثقافية، كان لهذه المفارقة القائمة بين الجهود المبذولة والنتائج المحصلة، صداها السلبي العميق فيه، لدى عموم الأمة خاصة، والرأي العام العالمي عامة.

ولا تخفى مدى خطورة هذا الموقف النفسي والفكري والسياسي.. على حاضر الأمة ومستقبلها، لما ينجم عن ذلك من تزايد تهميش دور الإسلام في تأطير حركة النهوض والتجديد الحضاري بأشكال مختلفة، وانفساح المجال أمام المزيد من الاستلاب الثقافي، والتميّع الحضاري، وتضاعف وتائر " **المديونية الحضارية** " للأمة، وتعمق هامشيتها وغثائيتها، والمباعدة بينها وبين طموحاتها في المرجعية والقوامة والشهادة والتكاملية الحضارية البشرية، باستمرار.

من هذه المنطلقات التاريخية والفكرية والنفسية والحضارية.. انبثقت في نفسي فكرة هذا الموضوع الذي تتصدى له هذه الدراسة. فقد تساءلت بعد تبلور الإشكال في ذهني: كيف تتضاءل مردودية تجارب تجديدية تؤطّرها مرجعية معرفية، وخبرة استخلافية نموذجية، أثبتت التجربة التاريخية نجاعتها بما لا يدع أي مجال للريب ؟!

وكان الجواب المبدئي، بناء على منطق القوة والصلاحية الذاتية المتجدّدة في المرجعية المعرفية والخبرة الاستخلافية النموذجية الأم، الموجهة لحركة التجديد أولا، وعلى منطق التاريخ المؤكّد لذلك بكل حسم ثانيا، أن الخلل يكمن في العلاقة المعرفية والمنهجية والوظيفية أو التسخيرية بهذه المرجعية وتلك الخبرة، أي في مناهج الاستيحاء والاستثمار لها، وليس في المرجعية ذاتها. وقد كان من المفترض أن يشكل كل إخفاق أو فشل في حركة الالتزام والدعوة والبناء والمواجهة الوقائية، منطلقا لنقد الذات، ومراجعة المنهجية، وتقويم المسار، انسجاما مع المنطق القرآني الذي يؤسس لذلك في مثل قوله تعالى:[**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**] {آل عمران:165}.

وعليه فإنه يجب أن يعاد تأسيس الوعي بذلك من جذوره لدى الأمة عامة، ولدى صفواتها الفكرية والسياسية خاصة، بعد استحكام أمر هذا **التلبيس الذاتي المزمن** لدى كثير من الناس، بشأن العلاقة المعرفية والمنهجية – ومن بعدهما العلاقة السلوكية والاجتماعية – بمرجعية الكتاب والسنة والسيرة. كما يتضح ذلك جلياً على سبيل المثال في **منطق احتكار الصوابية، ومصادرة حق الآخرين فيها**، بين الاتجاهات والمجموعات المعنية بالتجديد الحضاري للأمة، بادعاء كل فريق أنه الأقرب إلى

الصواب، والأجدر بالأحقية المرجعية فيه، والأحظى بانطباق الطائفة الظاهرة على الحق، والفرقة الناجية المذكورة في السنة، عليه هو دون سواه !

وقد رأيت بعد طول تأمل في هذه الوضعية الحرجة، التي تنهك الجهود، وتستنزف الطاقات، وتضاعف الهموم والمشكلات، أن أهم العوامل المساعدة على تأسيس الوعي الصحيح بها، وكشف الزيف والتلبيس الذي يحيط بها، وتجاوزها بشكل جذري، هو العودة إلى تعميق القراءة المنهجية السننية في التجربة المرجعية النموذجية الأم لكل هذه التجارب والحركات التجديدية، وهي **الحركة النبوية القدوة المعصومة** بتسديد الوحي لها، لاكتشاف سرّ أو أسرار نجاحها، التي لم تستوعب بعمق وشمول وتكامل في عمليات التأسي بها، واستيحائها في محاولا ت التغيير والتجديد الحضاري للأمة، فجاءت نتائج هذه المحاولات ضئيلة هزيلة، لا تستجيب لاحتياجات النهوض والتجديد الحضاري وتحدياته المعقدة.

ولما كانت **مسألة الحماية لحركة التغيير والمحافظة على منجزاتها، وضمان استمرارية انشحاذ تجددها**، تعد من الإشكالات والمعضلات الكبرى في مسيرة الحركة التجديدية للأمة من جهة – كما نبهنا إلى ذلك فيما سبق – وفي أية حركة تغييرية بصفة عامة من جهة أخرى، لارتباط أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية أي تغيير ثقافي، أو إصلاح اجتماعي، أو تجديد حضاري، بمدى قدرة الحركة:

- على المحافظة على المضمون العقدي والفكري لمرجعيتها الثقافية المؤطّرة لمسيرتها.
- وعلى حركة تمثّلها الذاتي لهذه المرجعية في حياة الصفوة التي تقود هذه الحركة.
- وعلى جهود تبليغها والتعريف بها لدى كافة الشرائح والفئات المجتمعية في الأمة والعالم.
- وعلى محاولات بناء وتجسيد نموذجها الثقافي والاجتماعي والحضاري في الحياة.
- وعلى حماية المنجزات الفكرية والثقافية والبشرية والاجتماعية لذلك كله، وضمان استمرارية حركة الدعوة والبناء والتغيير دون فتور أو استرخاء.

لما كان الأمر كذلك، وكانت **فكرة الحماية لحركة التغيير والبناء الحضاري والمحافظة على منجزاتها..** تقف وراء **عملية التراكم البنائي التكاملي المتوازن** الذي يشرط نجاح أية محاولة تجديدية أو تغييرية، كما نبه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ذلك في أحاديث تربوية كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قوله إجابة على سؤال: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ فقال: (**أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ.. اكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ**) "البخاري **في الصحيح**، رقم: 5984"، وهو ما جسده عليه الصلاة والسلام في حياته بدقة، كما يتجلى ذلك في وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لعمله بقولها: (**كان عمله ديمة**) "البخاري في **الصحيح** رقم:5985"، فكان (**إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ**) النسائي في **السنن**، رقم: 754، استجابة لقانون أو سنة التراكم البنائي التكاملي المتوازن، الذي يحكم عملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري باستمرار.

لما كانت فكرة أو **قضية الحماية لحركة التغيير، والمحافظة على منجزاتها الثقافية والاجتماعية والحضارية**، تكتسي هذه الأهمية المحورية البالغة في عملية التغيير والتجديد الحضاري باستمرار، وكان ذلك من الاختلالات الكبرى التي تلحظ في مسيرة حركة النهوض الحضاري بالأمة، فقد رأيت أن أتناول هذا الموضوع من خلال السيرة النبوية، لأستكشف بعض **معالم بنية أو نسقية المنهج** الناظم " **للدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي، ولأبرز بعض جوانب العظمة والاقتدار التسخيري والاستخلافي في الحركة النبوية، ولأسلّط بعض الأضواء – عبر ذلك – على بعض أسباب ونواحي القصور والضعف والاختلال في أدائنا التجديدي الفردي والجماعي، وضعا

للادعاءات السابقة، بشأن احتكار الصوابية وزعم المرجعية فيها.. في موضعها ومكانها الصحيح من الخريطة المعرفية والمنهجية للكتاب والسنة والسيرة، ومناهج استيحائها واستثمارها في حركة التغيير والتجديد الحضاري للأمة.

ولكي أتجاوز القراءة الوصفية التجزيئية التأريخية التقريرية للسيرة النبوية بصفة خاصة، إلى القراءة التحليلية المقاصدية التفسيرية التقعيدية لها، رأيت **ضرورة الاهتمام بالمنهج** كبنية ونسقية معرفية وإجرائية منتظمة؛ في التحليل والتفسير والتوقع والتخطيط والإنجاز والمتابعة والتقويم والحماية أخيرا، باعتبارها عمليات تسخيرية إجرائية منهجية مترابطة، تفرضها أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري باستمرار، فكانت صياغة موضوع الدراسة كما يلي: " **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة** "، وهو ما يسمح بإعادة رسم معالم الخريطة المعرفية والمنهجية المرجعية الأم، لتقويم ومعايرة كل الجهود التجديدية التي تنضوي تحت لافتة " **الإسلامية** " أو " **الإسلامي** " أو " **الإتباعية** و**الاقتدائية** " بصفة موضوعية متوازنة، تفصل بشكل جذري بين الإقتدائية السننية الموضوعية المنضبطة، وبين بقية أشكال العلاقات غير الموضوعية بالسنة والسيرة النبوية.

إطار الدراسة المعرفي والزماني:

الإطار المعرفي للدراسة: ومن خلال الآفاق السابقة فإن الإطار المعرفي للدراسة، يحدّده **معطى المنهج**، الذي يشكل بؤرة اهتمام البحث، ومؤطّره المنهجي الأساس، الذي يعطي للبحث صبغة معرفية شمولية متكاملة، تنقله من القراءة أو العلاقة الوصفية التأريخية التجزيئية الآلية بالسيرة النبوية خاصة، وإطارها المرجعي الكتاب والسنة عامة، إلى القراءة أو العلاقة التحليلية التركيبية المقاصدية التفسيرية الموضوعية المنضبطة، عندما تتحول المادة المعرفية والتاريخية المتاحة عن الحركة النبوية في الكتاب والسنة والسيرة، إلى إمكان معرفي خامِّي تسخيري، لا تكمن أهميته في نموذجية شكله أو معماره ونسقه التركيبي الزمني أو التاريخي فحسب، بل في نموذجية معماره ونسقه المنهجي بالأساس، الذي كان وراء نموذجية معماره التركيبي أو العمراني الاستخلافي قبل ذلك، باعتبار أصالة وفاعلية وانضباطية المنهج، هي التي أنتجت ذلك المعمار المعرفي أو الثقافي أو السلوكي أو الاجتماعي أو الحضاري.

ومن هذا المنطلق، فإن البحث يطمح إلى الاندراج في دراسات فلسفة التاريخ والحضارة، عبر محاولة تجاوز إطار أشكال وقوالب الاستجابات النبوية لاحتياجات وتحديات حركة الدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة الاجتماعية في بيئته وزمنه وعصره، إلى **إطار المنهج** باعتباره النسقية المعرفية والإجرائية المنتظمة، التي كانت تحكم " **الدورة الإنجازية الكلية** " لتلك الاستجابات الزمنية أو الواقعية، وتؤطّرها باستمرار، لتحافظ على عمق أصالتها، وتحقق فاعلية وتكاملية أدائها التسخيري والاستخلافي، وتضمن اطراد ذلك وحماية منجزاته باستمرار، وهو ما يحقق التراكم التكاملي للجهد، كشرط أساس لنجاح عملية التغيير الثقافي، والبناء الاجتماعي، والتجديد الحضاري.

فالتركيز على قضية المنهج ينقل الدراسة من إطارها المعرفي الوصفي التأريخي التقريري، إلى النطاق المعرفي التحليلي المقاصدي التفسيري التكاملي، الذي يتخذ من المرحلة السابقة منطلقاً نحو البحث عن المؤطّرات المعرفية والنواظم المنهجية المنتظمة أو الثابتة في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل النبوي المعرفي والسلوكي والدعوي والتربوي والاجتماعي والسياسي والجهادي.. وهو المقصد المعرفي الأساس الذي يجب أن تنتهي إليه أية قراءة للسيرة النبوية أو علاقة معرفية بها.

فاكتشاف **بنية أو نسقية المنهج وروحه السننية في الفعل الدعوي أو التغييري النبوي** بصفة عامة، هو الشرط الأساس أو المفتاح في أية علاقة إقتدائية استثمارية، أصيلة وفعالة ومطردة بالخبرة النبوية النموذجية، وتخليص هذه العلاقة وتحريرها من الآلية الجامدة، والانتقائية التلفيقية المميّعة، والذوقية المخرفة، والارتقاء بها إلى مستوى العلاقة السننية الموضوعية المنضبطة، بكل ما تعنيه الموضوعية هنا من بعد عن الذاتية ومضاعفاتها السلبية، وحرص دائب على موافقة الفكر والجهد لسنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من ناحية، ولسننه سبحانه في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من ناحية أخرى، وتحقيق متوازن لمصالح الدعوة والدولة والمجتمع والأمة باستمرار.

الإطار الزمني للدراسة: هذا عن الإطار المعرفي للدراسة، أما إطارها الزماني فإنه محدّد بالفترة المدنية وبداية تحول أو انتقال الدعوة من حالة فكرية روحية أخلاقية فردية، إلى واقع اجتماعي وسياسي وحضاري متكامل. أي إلى دولة ومجتمع، ونواة أو مضغة قاعدية للحضارة الإسلامية القادمة. وهو دون شك إطار يوفر للدراسة تجربة تتكامل فيها الأبعاد الدعوية الفردية، التي تميزت بها الدعوة في المرحلة المكية، مع الأبعاد الدعوية الاجتماعية والسياسية، التي تميزت بها المرحلة المدنية، وهو ما يعطي التحليل والتفسير قوته المعرفية والمنهجية، ويمنح الاستخلاصات المنبثقة من ذلك، بعدها التعميمي الموضوعي الممكن، في حدود منطق النسبية المعرفية الواسعة أو المرنة، الذي يحكم مجال الدراسات الاجتماعية والإنسانية بصفة عامة.

ومن هذا المنطلق فإن اهتمام الدراسة ينصبّ على استخلاص قواعد المنهج العامة في الحركة النبوية، وبيان دور الانضباط المنهجي في حماية حركة الدعوة و البناء والمواجهة، والمحافظة على منجزاتها المعرفية والبشرية والسياسية والاجتماعية.. في مرحلة تحوّلها إلى دولة ومجتمع، ونواة لحضارة عالمية إنسانية كونية جديدة. ولا يكون من اهتمامها المباشر هنا، محاولة تعدية ذلك إلى دراسة وتقويم حركة التجديد الحضاري للأمة، لاعتبارات منهجية تتصل بالتزام الإطار المعرفي والزماني للدراسة، وإن كانت هذه التعدية من الأهداف الجوهرية للبحث، كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

وهذه التّعدية لنتائج الدراسة، تتحقق عبر قوة سلطة الإلزام المرجعي في الكتاب والسنّة والسيرة، إذ تشكّل هذه المصادر الثلاثة معاً، على تفاوت في حجيتها، السلطة المعرفية المرجعية المطلقة بالنسبة للمسلم؛ فرداً وجماعةً ودولةً ومجتمعاً وأمةً وحضارةً.. في كل زمان ومكان ووضع، يكفي فقط أن يستوعب المسلم مرجعية التوجيه جيداً، ويهضم منهجيتها في بناء الأحكام وتنزيلها على الوقائع، ليحقق موضوعية التأسي بها والاستثمار الفعال لها.

أهداف الدراسة وآفاقها المعرفية والعملية:

وتستهدف هذه الدراسة على المستويين المعرفي والعملي، تحقيق ما يلي:

تأكيد الدور الحيوي للمنهج عامة: كبنية ونسقية معرفية وإجرائية منتظمة، في تحقيق أصالة الفهم، وفعالية الإنجاز، وتكامل حلقاته، وضمان اطرادية التغيير، وحماية منجزاته، وكون غيابه و اضطرابه أو قصوره، يشكّل خطراً حقيقياً على أصالة الجهد وفعاليته وتكامليته واطراد حيويته.

فالمنهج كنسقية معرفية وإجرائية منتظمة؛ في التحليل، والتفسير، والتوقع، والتخطيط، والإنجاز والمتابعة، والتقويم، والحماية.. عامل أساس يشرط أصالة الجهد وفعاليته وتكامليته واطراد حيويته، بدونه تضطرب العمليات السابقة كلها، ويؤثر بعضها في بعض سلبا، ويأخذ ذلك التأثير السلبي

المتضاعف، طريقه للتأثير المركّز على أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية مجمل الجهد الإنجازي للفرد والجماعة والمجتمع والأمة بعد ذلك.

فالمنهج كما أسلفت، هو روح المعرفة، وشرط فاعلية الإنجاز، ومقوِّم أصالته الثقافية، وخيريَّته الاجتماعية والحضارية.

تأكيد الدور الحيوي للمنهج في الحركة النبوية: ومدى اتسام " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي؛ بالأصالة والفاعلية والتكاملية والاطراد. وكيف أن انضباطه المنهجي عليه الصلاة والسلام في الفهم والإلتزام والدعوة والبناء والمواجهة، بلغ أعلى مستوياته النموذجية، الأمر الذي منح جهده الإنجازي، قوته وقدرته التأثيرية أو التغييرية المركزة.

فالدراسة تستهدف على هذا المستوى، تحليل " **البنية المنهجية للدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي، ومحاولة اكتشاف النواظم النسقية المعرفية والإجرائية الكلية، التي تـؤطّر " **الدورة** " باطراد، وتآلف بين مكوناته وعناصره ومراحل تخلّقه، وآليات تفاعله وتكامله، حتى يخـرج في النهاية فعلاً متوازناً ومتكاملاً، يتميّز ويمتاز بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد باستمرار.

فالمنهج هو روح وأساس هذه الأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد في الفعل النبوي خاصـة، وحركته الاجتماعية عامة. وهو ما يجب أن تهتم به دراسات السيرة بالخـصوص، باعتبـار الـسيرة النبوية هي **مصبّ** التجسيد العملي لمفاهيم الكتاب والسنّة وقيمهما العقدية والأخلاقيـة والاجتماعيـة والحضارية في واقع الحياة. أي أنها تمثّل البعد التطبيقي العملي لـ" فلسفة " الإسلام و" نظريته " فـي تفسير حركة الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ.

كشف السمات الرئيسة للمنهج النبوي: وعليه فإن الدراسة تستهدف محاولة الكشف عن معالم وسمات المنهج النبوي في الفهم والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة، بحثاً عن موضـوعية أو سـننية التأسي به عليه الصلاة والسلام، وتحقيقاً لأصالة وفعالية الاسـتيحاء لخبرتـه فـي التغييـر والبنـاء الحضاري، التي لا تتحقق على وجهها المطلوب، إلاّ عبر اكتشاف **روح أو نسقية المنهج**، واستثماره بدقة في عملية التأسي والإقتداء والاستثمار أو الاستيحاء.

تعميق الوعي بالبعد البشري السنني في الخبرة النبوية: وكونه هو موضع الإقتداء والتأسي، بل وشرطه الجوهري. إذ الرسول عليه الصلاة والسلام رغم كونه مسدّداً بالوحي ومعصوما بتدخلاته المباشرة أو الإلهامية، إلاّ أنه لا يخرج في حركته الدعوية التغييرية الإصلاحية التجديدية.. من نطـاق السنن والأقدار التسخيرية والاستخلافية التي تحكم الصيرورة الاستخلافية البشرية عامة.

فهو عليه الصلاة والسلام تحرّك لتمثّل الدعوة، والتعريف بها وتبليغ هداياتها، وتجسيد نموذجها الثقافي والاجتماعي والحضاري في واقع الحياة، وحماية ذلك كله، والمحافظة على منجزاته، في إطار سلطان سنن الله في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من جهة، وسننه سبحانه في **الآفاق والأنفـس والهداية والتأييد** من جهة أخرى، المسخَّرة لكل الناس، والمؤطّرة لحركتهم الاستخلافية، ولم يشذ عنهم في ذلك، إلا نادراً، فيما كانت تستدعيه إقامة الحجة، وإثبات الرسولية، مـن اللجـوء إلـى اسـتثمار مستويات استثنائية من منظومة سنن الله في التأييد – المعجزات – الصادمة للوعي البشري، والباعثـة له على عمق التفكير في حقيقة الدعوة.

وضع البعد التأييدي في الحركة النبوية في إطاره السنني الصحيح: فالدراسة كما أسلفنا، وإن كانت تركز على إبراز البعد البشري في الحركة النبوية، وتأكيد كونه هو موضـع التأسـي الـرئيس بالنسبة لنا، إلا أن ذلك لا يعني إغفال البعد الرابع في " **البنية المنهجية للدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي، وهو **البعد التأييدي**، الذي تُستثمر فيه **منظومة سنن التأييد**، عنـدما يحـين

وقتها، وتُستوفى شروطها ! وهو أمر يشوبه كثير من سوء الفهم، وكثيرا ما تقع بسببه أخطاء قاتلة في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات والدول !

فنحن نشترك مع الرسول في انطباق سنن الله علينا جميعا، ولا نفترق عنه إلا في خصوصيات قليلة جدا خاصة به، وفي مقدمتها ما هو ذا طابع إعجازي خارق، يندرج في خصوصيات النبوة، أما ما عدا ذلك من مستويات التأييد، فهي مكفولة لنا بشروطها، كما كانت مكفولة له عليه الصلاة والسلام بشروطها كذلك، كما سيأتي تفصيل ذلك في موضعه من الرسالة.

إعادة بناء الوعي بالمفهوم الموضوعي للتأسي والإقتداء: فالدراسة استهدفت على هذا المستوى، إعادة بناء الوعي بالبعد أو المضمون السنني الموضوعي الشمولي المتوازن، في مفهوم التأسي والإقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام، واستيحاء خبرته في الفهم والدعوة والبناء والمواجهة، من خلال التأكيد العملي- في القسم التطبيقي من الدراسة بالخصوص - على كونه عليه الصلاة والسلام كان محكوما في مواجهة احتياجات وتحديات حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية البشرية، بمنطق وسلطان سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، ولا تخرج عنه بأي حال من الأحوال.

بيان تهافت العلاقات الآلية والانتقائية المميعة بالخبرة النبوية: وخطر القراءات الوضعية والغيبية المتنافرة أو المتلاغية، لهذه الخبرة الرسالية الفذة، التي تتكامل فيها بشكل عضوي، معطيات سنن عالم الشهادة مع معطيات سنن عالم الغيب، ولا ينفصل أي منهما عن الآخر أو يصادمه، أو يلغي دوره أو وظيفته.

لقد لوحظ في هذه العلاقات والقراءات، سيادة النظرة أو الموقف الوضعي، الذي يحاول تجريد الخبرة النبوية من بعدها الروحي الغيبي الرسولي أو النبوي، ومن ثمَّ إلغاء وتهميش استثمار **منظومتي سنن الهداية والتأييد**، وبالتالي إفقار حركة التغيير والتجديد من أعظم وأخطر إمكانين تسخيريين تحتاجهما لتأصيل وتفعيل أدائها الثقافي والاجتماعي والحضاري.

كما لوحظ بمقابل ذلك، سيادة النظرة أو الموقف الروحاني الغيبي على هذه العلاقات والقراءات، بمعزل عن البعد الشهودي، الأمر الذي نقل الخبرة النبوية من مجال التأسي والاستثمار، إلى نطاق التقديس التجريدي الذي يبعدها عن إمكانية الاستثمار تماماً، وهو ما يؤدّي إلى إلغاء وتهميش استثمار منظومتين تسخيريتين خطيرتين كذلك، وهما منظومة **سنن الآفاق** ومنظومة **سنن الأنفس** التي عادة ما يتمحور حولها الهم البشري، وترتكز عليها فاعلية التدافع والتداول الثقافي والاجتماعي والحضاري في جل الحركات الاجتماعية الوضعية أو المادية في التاريخ.

كشف الغطاء عن القراءات التبريرية: لهذا فإن الدراسة تستهدف على هذا المستوى، تعميق الوعي بتهافت القراءات التبريرية، في تفسير الصيرورات المضطربة لتجارب حركة التجديد الحضاري للأمة، استناداً إلى الاستثمار الانتقائي المتنافر للبعدين الشهودي والتأييدي في الخبرة النبوية، التي تناغم فيها البعدان والتحما ولم يتنافرا، وشكّلا معاً أساس أصالتها، وشرط فعاليتها، وقوة تأثيرها على الدوام، وهو ما غيّبته ازدواجية القراءة وهمّشته، في العلاقة الفكرية والسلوكية بالخبرة النبوية، فجاءت هذه العلاقة آلية جزئية سطحية متنافرة حيناً، وانتقائية تلفيقية مميّعة مضطربة أحياناً أخرى، الأمر الذي أثّر سلباً على أصالة وفعالية الأداء الحضاري لحركة التجديد، وحرمها من التكاملية والاطرادية، وحدّ من تراكميتها البنائية المطلوبة لإحداث التغيير والتجديد المنشودين.

وبتمكن الدراسة من تحقيق هذه الأهداف كلها، تكون قد كشفت عن معالم المنهج الذي يقف وراء حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، ووضعت بالتالي نموذجاً عملياً للتأسي والإقتداء بين يدي حركة التجديد الحضاري للأمة، لتقيّم وتقوّم أداءَها وتحسّنه على ضوئه.

الفرضيات المؤطرة للدراسة:

تنطلق الدراسة لتحقيق الأهداف السابقة، من مجموعة مقولات معرفية ومنهجية أساسية موجّهة للبحث.

وتتمثل هذه المقولات الرئيسة، التي تحاول الدراسة فحصها والتأكد من مصداقيتها، في ضوء الرؤية أو النظرية الإسلامية المتكاملة في التغيير والبناء والتجديد الحضاري، وتجسيد الحركة النبوية لها في واقع الحياة:

- استناد الحركة النبوية في **الفهم والتمثُّل والدعوة والبناء والمواجهة**، إلى **وعي عقدي وتسخيري واستخلافي سنني مكين**، كان وراء أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية أدائها الاجتماعي في معتركات حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، المهيمنة على الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف في الأرض.
- ارتباط **أصالة وفعالية** الأداء الثقافي والاجتماعي والحضاري في الحركة النبوية وتكامليته واطراديته، **بالانضباط المنهجي المحكم**، الذي كان يحكم " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي، في كل مراحل تشكلها الوظيفي أو التسخيري، بشكل مطرد لا يتخلف، تناغما مع الوعي السنني الشمولي المهيمن على حركة الحياة.
- القدرة النبوية الفذة على **تحقيق التراكم البنائي التكاملي المتوازن**، الذي يشرط نجاح أية محاولة تغييرية ذات نفس استخلافي حضاري، وذلك عبر تمكنه عليه الصلاة والسلام من **حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها**، وتجنيبها مخاطر الاهتلاك الذاتي، والاستنزاف الخارجي، وتعبئة كل قواها من أجل أهداف الحركة ومشروعها.
- ارتباط قضية **حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها**، وتجنيبها مخاطر الاهتلاك الذاتي، والاستنزاف الخارجي، وتعبئة كل قواها من أجل أهداف الحركة ومشروعها، **بصرامة المنهج ومرونته** في الوقت نفسه.
- ارتباط أصالة وفعالية الاستثمار للخبرة النبوية، في تأصيل وتفعيل حركة التجديد الحضاري للأمة، بمدى موضوعية وسننية التأسي بالمنهج النبوي، وكفاءة الاستثمار الوظيفي المنضبط لخبرته في الفهم والمثُّل والدعوة والبناء والمواجهة.

وقد اقتضى التّحقق من هذه الفرضيات – على المستوى المنهجي – تقسيم البحث إلى قسمين، أحدهما نظري يستوعب البعد المرجعي المؤطّر والموجِّه للحركة النبوية، والأخر تطبيقي يحاول قراءة هذه الحركة على ضوء ذلك. مركزاً على منهج التفاعل العملي مع الإطار المرجعي الموجّه لحركة الدعوة والتمثُّل والبناء والمواجهة، التي كانت تتم عبرها عمليات التدافع والاختراق والتفكيك للمجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية والاجتماعية من جهة، والتمكين للمنظومة المعرفية الإسلامية البديلة، والبناء لنموذجها الثقافي والاجتماعي والحضاري الجديد من جهة أخرى.

منهج الدراسة:

لمّا كان طموح هذه الدراسة هو البحث عن **روح نسقية المنهج في الحركة النبوية**، أي اكتشاف قواعد وثوابت النسقية المعرفية والإجرائية المنتظمة، التي كانت تؤطّر " **الدورة الإنجازية الكلية** " لفعله الدعوي التغييري عليه الصلاة والسلام، والذي وقفت الدراسات الوصفية فيه، عند عتبة تأكيد صحة ما أُثر عنه من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، ورسم صورة دقيقة كاملة عن بنيته أو

هيكليته المورفولوجية العامة، وبيان درجة حجيته، ومستوى إلزاميته في سلّم الواجبات والأولويات، دون العناية المكافئة بالبحث عن النسقية المعرفية والإجرائية المنتظمة، التي كانت وراء تلك البنية أو الهيكلية الكلية العامة، المجسّدة في أقوال وأفعال وتقريرات وصفات، دون أن تغفل الدراسة طبعا عن الدور المتميز لعلم أصول الفقه في مجال العناية بمنهج استنباط الأحكام الشرعية.

لمّا كانت هذه الدراسة تستهدف استثمار منجزات الدراسات الوصفية السابقة في السيرة النبوية، في البحث عن **البنية أو النسقية السننية للمنهج في الحركة النبوية**، أي عن **قوانين وقواعد صناعة وبناء الفعل** الدعوي التغييري النبوي ذاته، فإنه من الطبيعي أن يكون المنهج **تحليليا تركيبيا**، يعتمد على استقراء العوامل والأسباب والمكونات المختلفة، التي كانت تحكم بناء " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي بصورة مطردة، ومحاولة استخلاص قواعدها أو سننها الكلية العامة، عبر العملية التركيبية للمعطيات التي تمنحها إياها عملية الاستقراء المقاصدي أو الوظيفي التفسيري، لأفعاله ومواقفه وتصرفاته عليه الصلاة والسلام؛ في التمثّل الذاتي للإسلام، وفي الدعوة إليه، وفي البناء لنموذجه الثقافي والاجتماعي، وفي المواجهة للتحديات الداخلية والخارجية التي تعترض ذلك.

فالدراسة من خلال استثمار المنهج التحليلي التركيبي، استهدفت استقراء الإطار المرجعي الموجّه للحركة النبوية؛ ممثلاً في الكتاب والسنّة، واستخلاص رؤيته أو " **نظريته الكلية** " في فلسفة التغيير وتفسير حركة التاريخ بصفة عامة، ومحاولة تحليل الفعل الدعوي النبوي؛ في الالتزام الذاتي، وفي الدعوة، وفي البناء والمواجهة، على ضوء ذلك، بغية استخلاص البنية النسقية العامة لمنهجه في ذلك، والقواعد الإجرائية الكلية التي استثمرها في صياغة وبناء أفعاله ومواقفه وتصرفاته في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال مرحلة بناء الدولة والمجتمع.

وقد اقتضى- على المستوى المنهجي - استثمار هذا المنهج في استخلاص البنية النسقية الكلية للمنهج الدعوي التغييري النّبوي، والكثير من قواعده التسخيرية العامة، قراءة استطلاعية عامة لأمهات كتب السيرة النبوية. أعقبتها قراءة تحليلية استقرائية تركيبية، توسّعت لاستثمار الدراسات التحليلية المنجزة في السيرة، أفضت إلى ملاحظة هامة، وهي الدور المرجعي المحوري للقرآن في فهم المنهج الدعوي التغييري النبوي، واستخلاص قواعده. فانطلقت إلى قراءة تحليلية استقرائية تركيبية للقرآن المدني كله، في أمهات كتب التفسير القديمة والحديثة. وهو ما مكّن فعلاً من استخلاص ما أعتبره رؤية أو " **نظرية** " إسلامية كلية في فلسفة التغيير وتفسير حركة التاريخ بصفة عامة، وساعد كثيراً في فهم البنية النسقية المنتظمة للمنهج النبوي في الفهم والتمثّل والدعوة والبناء والمواجهة، واستخلاص الكثير من قواعده التسخيرية ذات القابلية العامة للاطراد.

وقد استثمرت - من أجل تحقيق قراءة تحليلية مقاصدية تفسيرية منضبطة للفعل الدعوي التغييري النبوي - أداتين منهجيتين تحليليتين وتركيبيتين هامتين هما:

سؤال **كيف** ؟ أي كيف كان عليه الصلاة والسلام يتصرف في مختلف المواقف المتصلة بالالتزام الذاتي بالإسلام، وبالدعوة إليه، والبناء لنموذجه الثقافي والسلوكي والاجتماعي، والمواجهة للتحديات التي كانت تعترض طريقه ؟ وهل هناك منهجية عامة مطردة، على مستوى البنى النسقية لهذه التصرفات ؟ أو ما أسميه " **البنية المنهجية للدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي التغييري النبوي ؟

سؤال **لماذا** ؟ أي لماذا تصرف كذلك في كل هذه المواقف ؟ وما الذي كان يحكم ذلك التصرف على صعيد المقاصد والملابسات الثقافية والاجتماعية المحيطة به ؟ وهل هناك اطرادية معينة على مستوى البنى النسقية العامة لـ" **الدورة الإنجازية الكلية** " لفعله الدعوي عليه الصلاة والسلام ؟

كنت أطرح هذين السؤالين المنهجيين باستمرار، لتحقيق القراءة التحليلية المقاصدية التفسيرية التركيبية للفعل النبوي الدعوي والتربوي والاجتماعي والسياسي والجهادي.. وهو ما أعانن فعلاً على وضع اليد على ما يمكن اعتباره الإطار العام للبنية النسقية العامة للمنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة الوقائية لمسيرة التغيير ومنجزاته الثقافية والبشرية والاجتماعية والحضارية.

مصادر الدراسة وموقع البحث منها:

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن البحث عن المنهج في الفعل الدعوي التغييري النبوي، عبر عملية التحليل والتركيب، تحتاج إلى علوم ومعارف متنوعة ومتكاملة. لأن الفعل الإنساني عامة والفعل النبوي خاصة، جهد كلي تكاملي مركّب، تفاعلت وتكاملت فيه عوامل ومعطيات شتى؛ عقدية، وفكرية، ونفسية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وثقافية، وبيئية.. يصعب تجاهل دور وأثر كل منها في صياغة الفعل وبناء " **دورته الإنجازية الكلية** "، لأن ذلك التجاهل لا يساعد على عملية الفهم الصحيح لمكامن القوة والجدارة والتميز في الحركة النبوية، ويؤثر سلباً على عمليات التأسّي بها، والاستثمار الوظيفي الأصيل والفعال والمتكامل والطرد لها بعد ذلك.

فالقراءة الوصفية التحليلية التركيبية المقاصدية التفسيرية، تحتاج بطبيعتها إلى معارف علمية متنوعة ومتكاملة. وهو ما استدعى استثمار مصادر معرفية كثيرة، تراوحت بين **القرآن، والسنّة، والتفسير، والسيرة، والعقيدة، والفقه، والأصول، وفلسفة التاريخ والحضارة، والسياسة، والثقافة، وعلوم النفس، والاجتماع، والإعلام، والإدارة**.. كما يتبين ذلك من قوائم المصادر و المراجع بالخصوص.

ويمكن تصنيف المادة المعرفية الأساسية للدراسة، والتي تأتي في طليعتها كتب السنّة والسيرة والتفسير، إلى نوعين من الدراسات:

دراسات تأريخية وصفية تقريرية.

ودراسات تحليلية مقاصدية تفسيرية.

وقد لوحظ من خلال مراحل القراءتين الاستطلاعية والاستثمارية، أن الدراسات الوصفية التقريرية تهيمن على الجزء الأكبر من كتب السنّة والسيرة والتفسير على السواء، إذ يمكن بسهولة حصر الأغراض والاهتمامات الرئيسة لجلّ هذه الدراسات على سبيل المثال في محاولات:

– توثيق النصوص والوقائع، وإثبات درجة نسبتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وتستغرق المساحة الأكبر من دراسات السنّة والسيرة بالخصوص.

– رسم وبناء البنية الهيكلية للفعل النبوي كما حدث؛ أي ضبط بنية وصورة ما أثر عنه من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.. كما هو فعلاً.

– بيان درجة حجية ذلك، ومستوى إلزاميته في سلّم الواجبات والأولويات الشرعية.

– البناء اللغوي والبلاغي والأسلوبي.. للنّص القرآني والحديثي، والقواعد المعرفية والمنهجية الحاكمة لذلك.

– بيان إعجازية وقداسة النص القرآني خاصة، وكل ما أثر عنه صلى الله عليه وسلم عامة.

– تقرير الأحكام الفقهية الجزئية، والقيم الأخلاقية الكلية، في صورها النهائية العملية المركّبة.

هذه بصفة عامة أهم المحاور التي استغرقت العلاقة المعرفية للأمة بالقرآن والسنة والسيرة خاصة، كمركز استقطاب لكل العلوم التي أنتجتها الأمة بعد ذلك. وكمرتكز معرفي – مصدري –

أساس لهذه الدراسة، أمدّها بالمادة المعرفية الأولية للقراءة التحليلية التركيبية المقاصدية التفسيرية للفعل الدعوي التغييري النبوي.

وليس من الضروري هنا، إثقال هذه المقدمة بالنماذج التطبيقية عن هذه الدراسات الوصفية التقريرية، إذ تكفي أدنى إطلالة على مكتبة السيرة النبوية الضخمة على سبيل المثال، لملاحظة مدى هيمنة المنهج التأريخي الوصفي التقريري الفروعي على الجزء الأكبر من هذه الدراسات حتى الآن، حيث ما يزال العمل متواصلا على المستوى التأريخي التوثيقي لضبط أحداث ووقائع ومضامين السنة والسيرة النبوية الصحيحة، كما نلمس ذلك على سبيل المثال في أحدث الكتب التي مازالت تصدر باسم الأحاديث النبوية الصحيحة، والسيرة النبوية الصحيحة.

رغم الأهمية الجذرية التأسيسية الكبيرة لهذه الدراسات بالنسبة للدراسات التحليلية الاستثمارية التالية، فإن الواجبات والأولويات الحضارية، تقتضي الدفع بعلاقة الحركة المعرفية للأمة، بالكتاب والسنّة والسيرة، نحو المزيد من القراءة التحليلية الاستثمارية المقاصدية الوظيفية، التي يحتل فيها التحليل والتفسير والتوقع والتركيب الوظيفي أو التسخيري، موقعاً محورياً لا معوض له. وكل ذلك هو شأن المنهج والنظرية العقدية الكونية الكلية التي تحكمه، وتؤطر فاعليته التسخيرية أو الوظيفية.

ولعل هذا الهاجس هو الذي غذى في نفسي اختيار هذا الموضوع، وحفزني على إنجاز هذه الدراسة عن: " **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة** "، كمحاولة متواضعة للقراءة الاستثمارية الوظيفية المقاصدية، المبنية على المنهج التحليلي التفسيري التركيبي، للفعل الدعوي التغييري النبوي؛ في الفهم والتمثّل والدعوة والبناء والمواجهة الوقائية المبكرة أو المرافقة أو الاستدراكية.

أما بخصوص الدراسات التحليلية المقاصدية التفسيرية التركيبية، التي كانت هذه الدراسة في حاجة ماسّة إليها، فإنها شحيحة بالنسبة للدراسات الوصفية التقريرية، خاصة في موضوع: **البنية السننية الكلية للمنهج، وقضية الحماية للدعوة والمحافظة على منجزاتها** المختلفة، في كافة مراحل عملية التغيير. وهو ما شكّل إحدى أهم الصعوبات التي واجهت البحث وحدّت من نفسه المعرفي وجعلته دون طموحي، وإن كان لذلك أثره القوي في تأكيد رغبتي في إنجاز هذه الدراسة، وسدّ بعض النقص الذي تعاني منه دراسات السيرة عامة، ومناهج الدعوة والتغيير خاصة.

فالسيرة النبوية خاصة، والقرآن والسنّة عامة، لم تدرس بعد – حسب رأيي ورأي العديد من الباحثين – من منظور فلسفة التاريخ والحضارة، مع أن ذلك شكّل مركز اهتمام واستقطاب القرآن والسنة والسيرة على السواء. وعلى الرغم كذلك من بعض المحاولات المبكرة المنجزة في هذا الاتجاه، كمحاولة ابن خلدون المعرفية والمنهجية الجادّة في القراءة السننية التحليلية التركيبية المقاصدية التفسيرية لحركة التاريخ. وكبعض محاولات التفسير الموضوعي للقرآن والسنة، التي يفترض فيها أن تطمح إلى التفسير ومحاولة التعميم، أي إلى القراءة السننية المتكاملة للظواهر الحضارية، وأن لا تتوقف عند عتبة القراءة الحُكمية – استخراج الأحكام – التي تحتاج بدورها إلى القراءة السننية التفسيرية لنصوص الكتاب والسنة، على ضوء القراءة الاستثمارية الشمولية التكاملية لسنن الوعي العقدي أو الكوني، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي، حتى تستجمع شروط أصالتها وفعاليتها وديمومتها.

فالتجزيئية، والفروعية الفقهية، والنزعة اللفظية، والسجالية المذهبية والكلامية والسياسية، والزهدية الذوقية، والدفاعية التبريرية أو الاعتذارية.. كان لها بعض صداها المتفاوت الشحنات، حتى في الدراسات التحليلية التفسيرية المقاصدية القليلة كذلك. كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في الأعمال الجليلة لكل من: ابن عطية (ت 541) في محرّره، والزمخشري (ت 528) في كشافه، والرازي (ت

604) في تفسيره، والبقاعي (ت 885) في نظمه، والنووي (ت 676) في شرحه على مسلم، والعيني (ت 855) في عمدته، وابن حجر (ت 852) في فتحه، والقسطلاني (ت 923) في إرشاده، والقاضي عياض (ت 544) في شفائه، والسهيلي (ت 581) في روضه، وابن القيم (ت 751) في زاده، والعقاد (ت 1965) في عبقريته، والبوطي في فقه سيرته..

إن جل هذه المحاولات الجادة وغيرها، التي شكّل كل منها اتجاها معرفيا ومنهجيا في القراءة التحليلية التفسيرية المقاصدية للكتاب والسنة والسيرة، أثرت في بعضها – بأشكال متفاوتة – النزعات الفقهية، أو اللفظية، أو السجالية المذهبية والكلامية والسياسية، أو الزهدية الذوقية.. في مساحات هامة من أعمالها المعرفية، وهو ما جعل هذه الأعمال الهامة مفردة أو مجتمعة، تتناثر فيها معطيات الثقافة السننية ولا تجتمع في نسق معرفي ومنهجي منتظم، في تحليل وتفسير حركة التاريخ والحضارة، وتعليل الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض بصفة عامة، ولم نلحظ في أي منها اتجاها تنظيريا واضحا، يستهدف إلى استخلاص **بنية أو نسقية المنهج** النبوي الكلية، التي تؤسس لرؤية أو نظرية إسلامية كلية في الدعوة والتغيير، أو في فلسفة التاريخ والحضارة بصفة عامة.

إن الملاحظ على الدراسات التحليلية المقاصدية التفسيرية التركيبية، للكتاب والسنة والسيرة بصفة عامة، ضمور الاهتمام بالتنظير في **فلسفة ومناهج التغيير الحضاري**، رغم المجهود المتميز الذي بذل على مستوى التنظير الأصولي والتقعيد الفقهي بصفة خاصة، ولم يكتب له الالتحام اللازم بالخبرة الثقافية العامة للأمة والإنسانية، واستثماره في بلورة نظريات جادة في فلسفة ومناهج التغيير الحضاري، تدفع بالقراءة المعرفية والمنهجية للكتاب والسنة والسيرة.. إلى أعلى مستويات الوعي السنني، الذي يتيح بدوره أعلى مستويات الاستثمار النموذجي لها، في تأصيل وتفعيل دور الفرد والمجتمع والأمة في معتركات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تحكم الوجود البشري في الأرض.

وفي هذا الإطار، تجدر الإشارة إلى الملاحظات الهامة التي أبداها الدكتور أكرم ضياء العمري في مقدمة كتابه: " السيرة النبوية الصحيحة "، لأنها تلتقي تماما مع ما ذكرته هنا. فقد قال: " إذا كان النقد يبدو ضعيفا في دراساتنا، فإن التحليل للروايات والتعامل معها يبدو أكثر قصورا، بسبب النظرة التجزيئية للقضايا، والسطحية في التعامل مع الروايات، وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ، ودور الفرد والجماعة، والعلاقة الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية، والربط بين المقدمات والنتائج. فضلا عن أن الكتب التاريخية القديمة لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور الكلي، بسبب اعتمادها على سرد الروايات فقط، إذ قلما يشير المؤرخ الإسلامي القديم إلى السنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ، رغم أن القرآن لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح. بل إن أحدا من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة القرآنية وتقديم الوقائع والتطبيقات والشواهد التاريخية عليها، بشكل نظريات كلية، حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته، رغم أن المفكرين المسلمين تعاملوا مع الفلسفة والمنطق منذ القرون الأولى، وأفادوا منها في بناء علوم اللغة وأصول الفقه بوضوح، وتصرفوا في ذلك بعقليتهم اليقظة، التي تنفي ما يناقض المعتقد الإيماني، والتصور الإسلامي، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وكان نجاحهم في تخطي التجربة يرتبط بمدى وضوح العقيدة وصفائها في عقولهم ".

وفي سياق هذه القراءة السننية التنظيرية، الحريصة على استخلاص نظرية إسلامية كلية في فلسفة التاريخ والحضارة، التي يتحدث عنها الدكتور العمري، من خلال الكتاب والسنة والسيرة النبوية، تأتي هذه الدراسة التي نقدمها اليوم، لتقوم بمحاولة علمية في هذا الاتجاه الحيوي.

وبودّي هنا أن أزيل التباسا قد توحي به هذه الملحوظات التي أبديتها على مصادر الدراسة بصفة عامة. وقد تحفظت شخصيا على بعض الأحكام العامة الكثيرة على الدراسات السابقة، التي تنقص من قيمة هذه الدراسات، بتركيزها على جوانب النقص فيها، من منظور ما ينبغي أن يكون غالبا، في الوقت الذي كان ينبغي أن لا نغفل عن التأكيد على أن كل عمل علمي جادّ قد سدَّ نقصا في بابه، وغطّى جانبا من الاحتياج المطلوب في زمنه، بل كان لبعضها سبق واستشراف متميز ملحوظ، تجاوز السقف الثقافي لبيئته وعصره، بغض النظر عمّا يحتاجه من استدراكات في المضمون والمنهج بالنسبة لمن جاء بعده، هي من مهمة الأعمال اللاحقة، ولا تقدح إطلاقا في جهد وعبقرية مبدعيها، إنما يمس القدح من جمد عليها ولم يطورها من العلماء والمفكرين اللاحقين !

لذلك فإن هذه الملحوظات العامة،لا تنقص إطلاقا من القيمة المعرفية لهذه الدراسات العلمية في ذاتها، بقدر ما تهدف إلى محاولة لحظ النقص والقصور في البناء الكلي لمنظومتنا المعرفية، الذي يحول دون تحقيق القراءة التحليلية المقاصدية التفسيرية التركيبية السننية للكتاب والسنة والسيرة خاصة، وللخبرة الإنسانية عامة، ويضعف من إمكانية استثمارها في تأصيل وتفعيل الأداء الثقافي والاجتماعي لحركة التجديد الحضاري للأمة.

من هذه المنطلقات، كان اهتمامي بمحاولة استثمار الخبرات المعرفية والمنهجية السابقة، في بلورة رؤية معرفية ومنهجية متكاملة في فلسفة التغيير والبناء الحضاري، من خلال القرآن والسنة والسيرة، اقرأ في ضوئها الحركة النبوية في مرحلة بناء الدولة والمجتمع، وأحلّل من خلالها " **الدورة الإنجازية الكلية** " لفعله الدعوي عليه الصلاة والسلام، وأستخلص بنيته النسقية المنتظمة التي تحكم ذلك وتؤطّره باستمرار، وأصل عبر ذلك كله إلى استبانة منهجه في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

والدراسة بموضوعها ومنهجها ونتائجها – في تقديرنا – نرجو أن تحتل مكانتها المعتبرة في دراسات السيرة خاصة، ودراسات فلسفة ومناهج التغيير بصفة عامة، وسدِّ بعض النقص في مناهج التأسي والاستثمار الموضوعي للخبرة النبوية، في تأصيل وتفعيل حركة التجدبد الحضاري للأمة، وضمان اطراد حيويتها واندفاعها، والمحافظة على منجزاتها.

وحسب قراءاتي ومتابعاتي، لدراسات السنة النبوية عامة، والسيرة منها خاصة، يمكن القول بأنه لأول مرة تدرس السيرة أو الحركة النبوية تحديدا، على ضوء نظرية شاملة في فلسفة التاريخ والحضارة، مستخلَصة من الكتاب والسنة مباشرة، وليست مفروضة عليها من خارجها. وهي " **نظرية التدافع والتجديد** " التي خصصت بابا كاملا للحديث عنها، باعتبارها تشكل الإطار النظري للدراسة.

الصعوبات التي واجهتها الدراسة:

أركز هنا على بعض الصعوبات الأساسية، متجاوزاً ما كان منها طبيعياً. وأشير إلى ما يلي:

- قلة الدراسات السننية المتعمّقة في فلسفة التاريخ ومناهج التغيير والبناء والتجديد الحضاري عامة، في القراءات المتصلة بالقرآن والسنة والسيرة خاصة، وتناثر مفردات المعرفة السننية في ساحات معرفية واسعة، تستوعب معظم التراث العلمي والثقافي الذي انبثق من وحي الكتاب والسنة والسيرة، بل وفي ساحات العلوم النفسية والاجتماعية والإنسانية الواسعة، مما يحتاج استيعابه واستثماره إلى جهد كبير، ووقت طويل، لا تسمح به الظروف العادية، ناهيك عن الظروف الاستثنائية التي أنجز فيها الباحث رسالته.

فقد كان طموحي أن أجد في التفاسير الكثيرة للقرآن، وفي الشروح العديدة للسنة النبوية، وفي الكم الهائل من كتب السيرة، من المادة المعرفية السننية ما يوفر لي الجهد والوقت، ويساعدني على

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تركيز اهتماماتي حول استخلاص قواعد المنهج النّبوي في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، ولكن هيمنة القراءات الفرعية، والتخصصية، والوعظية، والتأريخية، والسياسية الموجَّهة.. المستقلة عن بعضها البعض في الكثير من الأحيان، وتناثر هذه المادة المعرفية، في ثنايا علوم تخصصية عديدة كما أسلف، استدعى مني المزيد من الجهد والوقت والمكابدة، في البحث والتجميع والتبويب والتنسيق.

- اضطراب بعض المادة التاريخية من الناحيتين السندية والزمانية معاً، وخاصة في كتب التفسير والسيرة، التي يقلّ فيها الاهتمام بعض الشيء بنواحي التوثيق السّندي، وإبعاد المرويات الضعيفة والواهية. وكذا عدم العناية في كتب التفسير بالبعد الزماني تماما، واضطرابه في كتب السيرة كثيرا، رغم عنايتها به، وقيامها عليه في معظمها. وهو – أي التوثيق السندي والزماني أو التاريخي للوقائع والأحداث والنصوص– ما كانت الدراسة في حاجة ماسة إليه.

فالدراسة بحكم اهتمامها بالمنهج، وعنايتها باستخلاص قواعده الكلية، كانت في حاجة ماسّة إلى الرواية الصحيحة، لتبني عليها تحليلاتها وتفسيراتها واستنتاجاتها التقعيدية. كما كانت في حاجة ماسّة كذلك إلى معرفة تواريخ وقوع الأحداث، والمواقف، والتصرفات، وانبثاق النصوص، لما لذلك من أهمية منهجية كبيرة، في معرفة ملابسات تفاعل الأحداث، وتطوّر حركة الدعوة والبناء والمواجهة، والمنهج الكامن وراء ذلك كله، سواء في بنيته النسقية الهيكلية الكلية، أو في مفرداته الإجرائية أو الإنجازية المرتبطة بذلك.

وهذه الوضعية، كانت تلقي تبعات كبيرة وخطيرة على الدراسة، التي لم يكن من اهتمامها المباشر، صرف الجهد نحو توثيق النصوص والأحداث، والتحقيق التاريخي لها، بل كان اهتمامها منصبّاً على القراءة التحليلية المقاصدية التفسيرية التركيبية لذلك، بغية استخلاص قواعد المنهج منه، وهو ما جعلني اعتمد على ما صحّ من الروايات والأقوال، واستثمار الصحيحين بصورة مكثفة عندما تكون الرواية فيهما.

- والصعوبة الأساسية الثالثة هي مشكلة الخوف من الانزلاق في بعض القراءات الذاتية لبعض الأحداث والمواقف النبوية، وبناء استنتاجات غير موضوعية عليها، تؤثر على موضوعية ومصداقية النتائج المستخلصة على مستوى قواعد المنهج الكلية، خاصة وأن هذه الدراسة تطمح إلى استخلاص نظرية كلية في التغيير وتقرأ على ضوئها الحركة النبوية في الدعوة والبناء والمواجهة. لذلك كنت حذرا جدا من هذا المنزلق المنهجي، وحرصت على تلافيه قدر الإمكان، وأظنني وفقت في ذلك، والله أعلم، وإن بدت لي بعض الهفوات فسيتم تداركها مستقبلا بلا تواني.

- وبقي أن أشير كذلك إلى قضية مهمة تتعلق بمصادر الدراسة ومراجعها، فقد اضطررت إلى استعمال طبعات متعددة من بعض الكتب، بسبب أن إنجاز مراجعة الدراسة، تمت في ديار الغربة، حيث لا تتوفر لدي نفس الطبعات التي استثمرتها في المرحلة الأولى من كتابة الرسالة، مما اضطرني إلى الاستعانة بطبعات متعددة متوفرة في المكتبات الإلكترونية، التي كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامي لمراجعة الدراسة. وقد أشارت إلى هذه الطبعات في فهرس المصادر والمراجع.

خطة الدراسة ومبرراتها المعرفية والمنهجية:

ولقد سلكت لإنجاز البحث، وتحقيق أهدافه، وتجاوز صعوباته، الخطة المنهجية التالية:

قسّمت الدراسة إلى مقدمة مدخلية، ومدخل تمهيدي في المفاهيم المفتاحية للدارسة، وثلاثة أبواب وثمانية فصول، ومستخلص بنتائج الدراسة وآفاق الاستفادة منها اليوم.

وخصّصت التّمهيد لتحليل المفاهيم المفتاحية للدراسة، وخاصة الواردة منها في عنوان الموضوع. وقد حاولت على المستوى المنهجي، عدم الاكتفاء بالضبط اللغوي والتحديد الاصطلاحي

الفني المباشر للكلمات المفتاحية، بل حاولت تجاوز ذلك إلى وضع كل مفهوم في سياقه المعرفي والمنهجي من البناء الكلي للدراسة قدر الإمكان.

وتناولت في الباب الأول، الجانب النظري أو الإطار المعرفي المرجعي الموجِّه للدراسة، اقتناعا مني بأن المنهج باستمرار، وخاصة في الحركة النبوية، هو بنية ونسقية معرفية وإجرائية متكاملة ومتفاعلة، لا ينفصل أو ينفصم بعدها المعرفي المرجعي عن بعدها الإجرائي التطبيقي أبدا، بل يتأطّر بها باستمرار.

فالبحث عن بنية المنهج وروحه السننية، وقواعده الكلية في الحركة النبوية، يحتاج إلى ضبط الإطار المعرفي المرجعي الذي تأطرت به الحركة النبوية في مرحلة نقل الدعوة من الحالة الفكرية الروحية الأخلاقية السلوكية الفردية، إلى الحالة الاجتماعية السياسية الحضارية المتكاملة. أي إلى مرحلة تحول الدعوة إلى دولة ومجتمع وأمة، وتحركها التدريجي المنتظم، باتجاه بناء حضارة عالمية إنسانية متميزة.

فالحركة النبوية، كعملية دعوة وتغيير وبناء لنموذج ثقافي واجتماعي وحضاري جديد، لم تكن تتحرك بعفوية أو ارتجالية، أو دون خطة منهجية منتظمة ومتكاملة، بل كانت تتحرك وفق " **نظرية كلية شاملة** " في فلسفة التغيير الثقافي، والبناء الاجتماعي، والتجديد الحضاري. أي وفق رؤية كونية كلية للدورة الوجودية الكبرى للإنسان والحياة والكون، يتكيف بها المنهج، ويستمد منها عمق أصالته، ونموذجية فعاليته، وتكاملية حلقاته، واطراد حيويته.

ومن هنا كان الباب الأول من الدراسة مخصصا للحديث عن: " **الآفاق الرسالية الكبرى للدعوة الإسلامية** "، التي ستحاول الحركة النبوية تأسيس الوعي بها، وتوفير الشروط الفكرية والنفسية والبشرية والمادية الضرورية، التي تحوّل ذلك الوعي إلى مجتمع ودولة وأمة وحضارة عالمية إنسانية كونية كبرى مع مرور الزمن.

وقسّمت هذا الباب إلى أربعة فصول. تناولت في كل فصل أفقا من آفاق الدعوة الأربعة الكبرى، كما بدت لي من محاولة استقصاء أهداف الإسلام الكبرى في الحياة.

وقد خصّصت الفصل الأول منه، للحديث المركّز عن: " **مقدمات تأسيسية في أهمية الوعي بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان** ". باعتبار هذه المقدمات العقدية والفكرية والمنهجية، تشكل الإطار المرجعي الذي يبرز لنا الأهمية البالغة للوعي بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان، وكيف تؤثر بعمق وشمول على موقف الإنسان من الله والكون والحياة، وتحدد طبيعة فعاليته الثقافية والاجتماعية والحضارية في الحياة، واتجاه مصيره الوجودي في بقية مراحل " **دورته الوجودية** "، بعد نهاية علاقته التسخيرية والاستخلافية بالمرحلة الدنيوية من هذه الدورة الكبرى.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن: " **معالم الرؤية العقدية الإسلامية لمعضلة الوعي بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان** ". لتفصيل القول في أصول وكليات وثوابت الرؤية الإسلامية لله والكون والحياة والإنسان، وما في كل أصل من هذه الأصول من أبعاد ودلالات عقدية وفكرية وتربوية واجتماعية، مؤثرة على الرؤية العقدية الكونية للإنسان أولا، وعلى موقفه من المسخرات الكونية ثانيا، وعلى طبيعة فعالية حركته الاستخلافية في الأرض ثالثا.

وعرض معالم هذه الرؤية الإسلامية للوعي بالدورة الوجودية للإنسان، على ضوء المعايير العقدية والفكرية والمنهجية التي تم ضبطها في الفصل الأول، تمنحنا الكثير من شروط وإمكانات تعميق الوعي بأصالة ومصداقية الرؤية الإسلامية، ومن ثم تعميق الثقة في خلودها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وأحقيتها في الهيمنة على توجيه حركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ هيمنة تصديق واستصحاب لكل خيرية سابقة لها أو لاحقة عليها من جهة، ومراجعة وردٍّ وتجاوز لكل خبرة سابقة لها

أو لاحقة عليها، صادمت سنن الله في الخلق والتسخير والاستخلاف من جهة أخرى. كما جاء ذلك في قوله تعالى:[**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**] {المائدة:48}.

وخصّصت الفصل الثالث للحديث عن: " **بناء الوعي الإنساني بالمنظومات الكلية لسنن التسخيري** "، وبناء القدرات الإنجازية لدى الإنسان، ليحقق مهمته الوجودية بأصالة وفعالية واطراد، بعد أن يكون قد وعاها جيّدا عبر استيعابه للوعي بدورته الوجودية ؛ في المنشأ البشري، والطبيعة البشرية، والوظيفية الوجودية، والمصير المرحلي والنهائي للبشرية.

فبناء الوعي التسخيري للإنسان، أي امتلاكه رؤية شمولية متكاملة عن السنن المعَبَرية الفاعلة في الصيرورة الاستخلافية، وما يحتاجه استثمارها ومواجهة تحدياتها،من وعي بمنظومات سنن الاقتدار التسخيري ؛ في الآفاق وفي الأنفس وفي الهداية وفي التأييد.. هو الاهتمام المحوري الثاني للدعوة الإسلامية.

وخصّصت الفصل الرابع للحديث عن: " **بناء الوعي الإنساني بالمنظومات الكلية لسنن الاستخلاف** "، أي تجسيد الوعيين العقدي والتسخيري في واقع الحياة ؛ عبر حركة التّرقّي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني أو الحضاري المتوازن. باعتبار ذلك مصبّ الاهتمام البشري، ومحكّ مصداقية فعاليته العبادية والاستخلافية باستمرار.

فبناء الوعي الاستخلافي للإنسان، واقتداره على التحكم الاستثماري الأصيل الفعال التكاملي المطّرد في سنن الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني المتوازن، هو الاهتمام المحوري الثالث والأخير للدعوة الإسلامية، في سياق استكمال بنائها للوعي الوجودي الإنساني عامة، والوعي الشهودي منه خاصة، أي الوعي بسنن فعالية الحضور في عالم الشهادة.

وبعد هذا انتقلت للحديث عن القسم التطبيقي من الدراسة، الذي ركّزت فيه على منهج الرسول عليه الصلاة والسلام في استثمار هذا الوعي **العقدي والتسخيري والاستخلافي**، في عملية التمثّل الذاتي للإسلام، وفي حركة الدعوة إليه، وفي البناء لنموذجه الثقافي والاجتماعي والحضاري، وفي المواجهة الوقائية للتحديات التي تحيط به، وتحقيق الاختراق الثقافي، والاحتواء السياسي، والاستيعاب الاجتماعي للمجتمع التقليدي ومنظومته الثقافية، والتمكين للمنظومة الثقافية الإسلامية ونموذجها الاجتماعي في عصره.

وقد قسّمت الجانب التطبيقي من الدراسة إلى تمهيد وبابين. تناولت في التمهيد الربط التكاملي بين المرحلتين المكية والمدنية، وبيان موقع منجزات المرحلة المكية من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع. لأنه بدا لي أن ذلك الربط ضرورة منهجية، لتكامل المرحلتين وانبناء الثانية على منجزات الأولى بصفة عامة.

وتناولت في الباب الأول " **تنظيم قاعدة الدولة وتأمين وجودها** " الداخلي والخارجي. وقد امتدت هذه المرحلة من الهجرة إلى نهاية غزوة الأحزاب في السنة الخامسة من الهجرة، التي شكّلت منعطفاً حاسماً في مسيرة الدعوة وبناء الدولة والمجتمع، استطاع فيها الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينظم قاعدة الدولة، ويؤمن وجودها، ويحافظ على هيبتها في معترك التدافع بين المجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية من جهة، والمجتمع الإسلامي الجديد ومنظومته المعرفية من جهة أخرى.

وقسّمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول، تناولت في الأول: " **مرحلة تنظيم قاعدة الدولة** "، التي امتدت من استقراره عليه الصلاة والسلام بالمدينة حتى نهاية غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

وتناولت في الثاني: " **مرحلة تأمين قاعدة الدولة** "، التي امتدت من نهاية غزوة بدر، إلى نهاية غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة.

وتناولت في الثالث:" **مرحلة تدعيم هيبة الدولة** " التي امتدت من صدمة أحد المضادة إلى نهاية صدمة الأحزاب المرجعية في السنة الخامسة من الهجرة، التي شكّلت نقطة تحول حاسمة في حركة الصراع بين الدعوة والقوى المضادة في المنطقة العربية كلها.

أما الباب الثالث، فقد تناولت فيه:" **تحقيق الاعتراف بالدولة وتوطيد سلطانها** ". وقد امتدت هذه المرحلة من نهاية صدمة الأحزاب المرجعية، إلى وفاته عليه الصلاة والسلام في بداية السنة الحادية عشر من الهجرة، بعد أن تمكن فعلا من تحقيق الاعتراف بالدولة، واستثمار ذلك الاعتراف بسرعة ودقة في تقويض بنيان المجتمع الجاهلي التقليدي، وتوطيد سلطان الدولة الإسلامية الجديدة.

وتناولت في الفصل الأول:" **مرحلة الاعتراف بالدولة** "، التي امتدت من نهاية غزوة الأحزاب، إلى نهاية فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، والتي تمكن فيها عليه الصلاة والسلام. ليس من تحقيق الاعتراف بالدولة فحسب، بل واحتواء مضغة المواجهة – قريش – وتقرير مصير الصراع بصفة حاسمة.

وتناولت في الفصل الثاني:" **مرحلة توطيد سلطان الدولة** "، التي امتدت من نهاية فتح مكة، إلى وفاته عليه الصلاة والسلام ومبايعة أبي بكر الصديّق رضي الله عنه بالخلافة مباشرة.

أما على المستوى المنهجي، فقد حاولت الرسالة الحديث عن كل مرحلة على حدة، من خلال تحديد الإطار الزماني والمكاني للمرحلة، ثم انتقل إلى الحديث عن أهداف الدعوة في هذه المرحلة، وأعقبت بحصر التحديات التي واجهتها في هذه المرحلة، ثم تركيز الاهتمام عن قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، وأردف ذلك بحصر منجزات الدعوة في هذه المرحلة، وبيان موقعها من الاستراتيجية العامة للدعوة. وهكذا دواليك في كل فصل.

وبهذا التناول المنهجي المتكامل للموضوع لم تنحبس الدراسة، في إطار التناول الوصفي التأريخي التجزيئي الفروعي، السياسي الذرائعي.. بل استثمرت معطيات ذلك كله، في إطار ثوابت الشريعة وضوابطها المعرفية والمنهجية، لتحقيق قراءة تحليلية مقاصدية تفسيرية تركيبية للفعل الدعوي النبوي ؛ تمكّن من استخلاص البنية النسقية الهيكلية الكلية للمنهج، ولنماذج عديدة من قواعده الوظيفية العامة التي تحكم وتؤطّر " **الدورة الإنجازية الكلية** " لهذا الفعل الدعوي التغييري باستمرار، بحثاً عن تحقيق التأسي الموضوعي الأصيل به عليه الصلاة والسلام، والاستثمار الفعال لمنهجه في الفهم والالتزام والدعوة والبناء والمواجهة، وتجاوز العلاقة الحرفية الآلية، أو الانتقائية التلفيقية، أو الذوقية الخرافية.. بخبرته عليه الصلاة والسلام.

وأنهيت الدراسة بمستخلص رصد فيه نتائج البحث المعرفية والمنهجية، وآفاق الاستفادة منها اليوم، في تحقيق أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية الجهد التجديدي للأمة.

ونظرا لاستعمال مصادر ومراجع مختلفة الطبعات، بسبب الظروف الخاصة التي مر بها الباحث خلال إنجازه له، ومراجعته له، لا بد من التنويه هنا إلى ذلك، وهو ما أثبته في فهرس المصادر والمراجع .

وبعد: فإنه رغم كل ما بذلته من جهد، وعانيته من مكابدة في هذه الدراسة ولقيته من رعاية ومساعدة من أستاذي الفاضل: **الدكتور فضيل دليو** المشرف الرئيسي على الرسالة، فإني أحسّ في نهايتها بأنني لم أبلغ كل طموحي في السيطرة المعرفية على الموضوع والتحكم المنهجي فيه، إذ ما زلت أحس أن هناك ما يمكن إضافته، وهو ما أتمنى أن أنجزه في دراسات لاحقة، في إطار مشروع " **موسوعة الدراسة السننية للسيرة النبوية** " التي تأكدت لي أهميتها أثناء مراحل تحضيري لرسالتي

الماجستير والدكتوراه، وعزمت بحول الله على المضي فيها إلى آخرها، خاصة بعد أن اتـضحت لـي **معالم النظرية الكلية للتغيير في الإسلام**، والتي ينبغي أن تعاد قراءة السيرة النبوية والحركة الرسـالية خاصة، والخبرة التاريخية الحضارية الإسلامية والإنسانية عامة، في ضوئها، كشرط أساسي لتحقيـق نهضة حضارية إسلامية وإنسانية متوازنة.

لذا فإنني أضرع إلى الله تعالى أن يتجاوز عن بعض ما اعترى عملي من قـصور أو خطـأ، وأن يوفقني لتداركه مستقبلاً، ارتقاء بهذا الجهد المعرفي إلى مستوى طموحي في الإجـادة والإبـداع والخدمة لديني وأمتي والإنسانية.

ولا أنسى هنا أن أخصّ ليس بالشكر فحسب، بل بالدعاء، أخوة فضلاء كثر، كـان لهـم دور كبير في إنجازي لهذا العمل المتواضع، بما قدموه لي من مساعدات غالية، وأحاطوني به من رعايـة وخدمة وتوقير، عوّضني ما فوّتته عليّ الغربة من رعاية أسرية وامتيازات يوفرها لي بلدي الأم.

والحمد والشكر لله على ما أنعم ويسّر وألهم وهدى وسدد ووفق.

دمشق في: 1 0 محرم 1418 هــ . الموافق لــ: 7 0 مايو 1997.

الطيب بن مبارك برغوث

مدخل إلى المفاهيم المفتاحيّة للدّراسة

نحاول في البداية ضبط بعض المفاهيم المفتاحيّة التي ترتكز عليهـا هـذه الدّراسـة، تجنّبـاً للغموض وسوء التّفاعل مع الموضوع، وضماناً للقدر المعقول من الوضوح الّذي يساعد على خصوبة التّفاعل مع الأفكار المطروحة، سواء بالموّافقة والتّبني، أو بالمخالفة والاعتراض والنّقد البنّاء، الّـذي يرتقي بهذا العمل إلى المستوى المعرفي المرجو منه. وسنقتصر هنا على المفاهيم الواردة في عنوان الدّراسة، أمّا غيرها من المفاهيم المحوريّة الكثيرة، فسيتمّ تحديدها في موضع كلّ منها من الدّراسة.

تحليل المفاهيم المفتاحيّة للدّراسة:

ويتعلّق الأمر هنا بتحليل المفاهيم الأساسيّة التّاليّة:

مفهوم الدّعوة.

مفهوم المنهج.

مفهوم المنجزات.

مفهوم الحماية.

مفهوم الدّولة.

مفهـــوم الدّعـــــوة:

التّحليل اللّغوي للكلمة: وممّا جاء فيها وفي مشتقّاتها في القاموس المحيط: الدّعاء: الرّغبة إلى الله تعالى... ولهم الدّعوة على غيرهم أي: يبدأ بهم الدّعاء. وتداعوا عليه: اجتمعوا. ودعـاه: سـاقه،

والنّبي صلّى الله عليه وسلّم داعيّ الله، ويطلق على المؤذّن. وداعيّة اللّبن: بقيّته الّتي تدعو سائره ...[1].

وجاء في معجم مقاييس اللّغة أنّ: د.ع و الحرف المعتلّ أصل واحد، ومعناه أن تميل الشّيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول: دعوته أدعوه دعاء [2]. وقال صاحب لسان العرب: " ... والدّعاة قوم يدعون النّاس إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داعٍ، ورجل داعية: إذا كان يدعو النّاس إلى بدعة أو دين... والنّبي صلّى الله عليه وسلّم داعي الله وكذلك المؤذن.."[3].

وجاء في أساس البلاغة: ".. دعوت فلاناً: ناديته وصحت به، والنّبي داعي الله، وهم دعاة الحقّ، ودعاة الباطل ودعاة الضّلالة "[4].

وجاء في المعجم الوسيط: " (دعا) بالشّيء: دعوا، ودعوة ودعاء ودعوى: طلب إحضاره ... ويقال: دعا الميّت: ندبه،وفلاناً استعان به. ويقال دعا الله: رجا منه الخير. و- لفلان طلب له الخير، ودعا على فلان طلب له الشرّ، ويزيد وزيدًا:سمّاه به ولفلان: نسبه إليه و إلى الشّيء: حثّه على قصده. يقال: دعاه إلى القتال، ودعاه إلى الصّلاة، ودعاه إلى الدين، وإلى المذهب: حثه على اعتقاده الداعية: الذي كان يدعو إلى دين أو فكرة ..."[5].

ومن كلّ ما سبق نرى أنّ كلمة الدّعوة وما اشتقّ منها من معاني كثيرة متقاربة في مضمونها، تدور في جملتها حول معاني الدّعاء، أو السّؤال والطّلب، والرّغبة إلى الله، الحثّ، السّوق من ساق، الآذان والنّداء والإمالة، الانتساب، الزعم، الاجتماع، والصيّاح والنّداء ....الخ.

وقد جاء في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة الشّريفة ما يدلّ على كلّ هذه المعاني وغيرها، نكتفي بإثبات عيّنات[6] ممّا يؤكّد المعنى الأساسي والمحوري الذي تدور حوله هذه الدّراسة، وهو نداء النّاس وإمالتهم إلى الإسلام، وحثهم على الانتساب إليه، والالتزام به والاجتماع عليه. مثل قوله تعالى:**[إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا]**[7]. أي داعيا إلى توحيد الله وطاعته. ومثل قوله سبحانه وتعالى على لسان الجنّ لما سمعوا القرآن فولّوا إلى قومهم منذرين:**[يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ]**[8]. أي أطيعوا ما طلب منكم عمله، والتزموا ما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في الكتاب من الهداية.

---

(1) الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**،(دار الكتب العلمية، بيروت،1999)، ج4، ص329.

(2) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، (دار الفكر، بيروت، 1979)، ج2، ص293.

(3) ابن منظور، **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة (د.ت) ج14، ص259.

(4) الزمخشري، **الكشاف**، جار الله أبي القاسم محمود، (د. ب، 1979)، ج1، ص189.

(5) إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، (دار التراث، القاهرة، ط2، د.ت) ج1، ص286.

(6) المعاني الأخرى تنظر في: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، للراغب الأصفهاني، ص 127؛ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، لفؤاد عبد الباقي، ص157.

(7)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 45-46.

(8)**القرآن الكريم**، سورة الأحقاف: 31.

ومثل قوله عزّ وجلّ:**[وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]**(1). أي يوجّه الإنسان إلى ما به يدخل الجنّة، ويحثّه على ذلك ويدفعه إليه بكلّ وسيلة تحقق هدايته. فهوّ سبحانه لعلمه بضآلة الدّنيا أمام دار السّلام، رغّب النّاس في الاهتمام بالدّائم، وجعل الزّائل في خدمته وعدم الخطأ في التّقدير(2). ومثل قوله تعالى:**[ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ]**(3). وقوله كذلك:**[وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ]**(4). وقوله عليه الصّلاة والسّلام: (**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه** ...) (5).

وقوله أيضاً جواباً عن سؤال علي رضي الله عنه يوم خيبر، عند تسليمه له عليه السّلام الرّاية فقال علي: علام أقاتل النّاس؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: (**على رسلك حتّى تنزل بساحتهم، ثمّ أدعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم**)(6). وقوله عليه الصّلاة والسّلام لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن: (**إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أنّ لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله...**)(7).

فهذه النّصوص كلّها تؤكّد كون كلمة الدّعوة تعني في المقام الأوّل حثّ النّاس على الالتزام بالإسلام، وترغيبهم فيه، ودفعهم إليه وتوجيههم نحوه بكافّة الوسائل الشّرعيّة المتاحة، وشتّى الأساليب الممكنة، التي تحقق عمق وشمول استيعابهم لحقيقته، واستيقان فرادته وأحقيّته في قيّادة الحياة.

كما يلاحظ هنا قبل جمع كلّ هذه الاعتبارات في تعريف عام للدعوة، أنّ الدّعوة تطلق على معنيين أساسيّين هما: الإسلام ذاته كدين. والعمليّة الإجرائيّة التي تستهدف التّعريف به.

المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده: وانطلاقا من المعاني السّابقة التي أمدّنا بها التّحليل اللغوي للكلمة. واستنادا إلى المقاصد العامّة للإسلام. واستيحاء للتّجربة النّبوية المجسّدة لذلك كلّه في واقع الحياة. واسترشادا بالمحاولات التّعريفيّة السّابقة في هذا المجال(8). وبناء على تحليل مكوّنات الفعل الدّعوي ذاته وأبعاد" **دورته الإنجازيّة الكلّية** ". وانسجاما مع الرّؤية الشّاملة لآفاق الدّعوة الإسلاميّة،

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة يونس: 25.

(2) الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**،(الدار التونسية للكتاب، تونس، 1984)، 145/1؛ محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**،(دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002)، 350/11.

(3)**القرآن الكريم**، سورة النحل: 125.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الحج: 67.

(5) أخرجه مسلم في الصحيح، **كتاب العلم**، باب: من سنّ سنّة حسنة.(**شرح النووي** 227/16).

(6) أخرجه البخاري في الصحيح، **كتاب الجهاد**. باب: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام. (**فتح الباري**، 130/6)

(7) مختصر صحيح مسلم. **كتاب الزكاة**. باب: وجوب الزكاة، ص136.

(8) انظر ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج15، ص157؛ علي محفوظ، **هداية المرشدين**، ص17؛ محمد الغزالي، **مع الله**، ص14؛ عبد الرؤوف شلبي، **الدعوة الإسلامية في عهدها المكي**، ص36؛ همام سعيد، **قواعد الدعوة**، ص10؛ الديلمي، **معالم الدعوة في قصص القرآن**، ج1، ص33؛ غلوش، **الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها**، 10؛ الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها، مرحلة التأسيس العقدي والفكري للمجتمع الإسلامي بمكة.**

الّتي سيرد الحديث عنها مفصّلا في الباب الأوّل، سنقترح التّعريف التّالي للدّعوة في مفهومها الإطاري العام:

الدّعوة هي عمليّة تثقيفيّة تربويّة بنائيّة منهجيّة تكامليّة محكمة، تستهدف([1]): **تأسيس وعي الإنسان بدورته الوجوديّة الكبرى، وتكييف واقعه المعيش مع مقتضيات ذلك، تحقيقا لأفضل توافق ذاتي، وانسجام اجتماعي، وتكامل كوني في حياته، يمكّنه من المضي قدما على طريق العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة، الّتي تتيح له الاستمتاع الأمثل بالمرحلة الدّنيويّة من دورته الوجوديّة الكبرى، وتهيئة شروط استمتاعه الأشمل والأكمل في بقيّة مراحل هذه الدّورة بعد ذلك.** باعتبار المرحلة الدّنيويّة مرحلة انتقاليّة تأسيسيّة لمراحل أخروية أهمّ منها وأخطر، تفضي بالإنسان إلى الجنّة أو النّار. كما جاء ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال:**[وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ]**([2]).

والمتأمّل في التّعريف يرى أنّه يستوعب بعمق وشمول حقيقة الإسلام، ويستجيب لرسالته الحضاريّة في الحياة. لأنّه يتجاوز المعاني اللّغويّة، والأبعاد النّظريّة الأكاديميّة والإجرائيّة البحتة، والمستويات الذّاتية... الّتي استقطبت الكثير من المحاولات التّعريفيّة السّابقة، ومن ثم العديد من الجهود العمليّة الّتي بنيت عليها، إلى استيعاب المعنى أو البعد والمستوى الجوهري الآخر وهو التّغيير الفعلي لواقع الإنسان العقدي والفكري والرّوحي والسّلوكي والعمراني، باتّجاه المزيد من التّوافق الذّاتي، والانسجام الاجتماعي مع سنن الله في الوعي العقدي والتّسخيري والاستخلافي المهيمنة على الصيّرورة الاستخلافيّة للبشر.

فالدّعوة بهذا المفهوم ليست فعلاً تبليغياً نظريّا ينتهي عند عتبات تعريف النّاس بالإسلام أو ببعض حقائقه النّظريّة فقط، أو توصيل بعض النّاس إلى مرحلة الالتزام الفردي بذلك فحسب، بل هيّ فعل منهجي ثقافي تربوي اجتماعي وحضاري في الأساس والمقصد، تستهدف تغيير واقع الحياة البشريّة وتجديده باستمرار، والارتقاء به نحو آفاق الكمال الواقعي المتاح بشكل مطّرد. لأنّ المشكلة الإنسانيّة- من منظور سنن الاستخلاف- مشكلة اجتماعيّة وحضاريّة بالأساس، أي أنّ تحقيق الحاجات الإنسانيّة، ومواجهة التّحدّيات الّتي تكتنفها، مرتبط دوماً بالجماعة والمجتمع والحضارة([3])، إذ الفرد وحده عاجز بطبعه عن الاستقلال بتحقيق كلّ حاجاته الإنسانيّة بمفرده، ومفتقر دوما إلى المجتمع في ذلك([4]).

ثمّ إنّ طبيعة العلاقات الإنسانيّة في صيرورتها الاستخلافيّة التّداوليّة، محكومة بسنة " التّدافع والتّجديد "([5]). أي بالتّفاعل والتّنافس والتّواجه بين النّماذج الثّقافيّة والاجتماعيّة والحضاريّة المختلفة كما سنرى ذلك لاحقاً.

([1]) ابن باديس،عبد الحميد، **تفسير ابن باديس (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)**، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002) ص314- 320.

([2]) **القرآن الكريم**، سور القصص: 77.

([3]) ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، (دار صادر، بيروت، 2000)، ص224.

([4]) الماوردي، أبو الحسن علي، **أدب الدنيا والدين**، ط2، تحقيق: ياسين محمد السواس، (دار ابن كثير، دمشق 2002)، ص209.

([5]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 410/2.

وهذا البعد الاجتماعي والحضاري في مفهوم الدّعوة، نجده واضحا جدّا في آيات كثيرة في القرآن، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى:**[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ]**([1]). فهذه الآية أسّست للوظيفة التّربويّة والاجتماعيّة والحضاريّة للدّعوة، من خلال جعل:

- الدّعوة إلى الخير ابتداء. وهو كلّ ما جاء به الوحي من محكمات الوعي العقدي، وأصول الأخلاق، وثوابت التّشريع الاجتماعي.([2])، وما تمخّضت عنه الخبرة الاستخلافيّة البشريّة من رشد وحكمة قابلة للاستصحاب والاستثمار.
- والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ثانيّا. تعميقا للوعي بتلك الخيريّة، وتوسيعا لدائرة الانتفاع بها، وحماية لها ولمكتسباتها من أيّة أخطار تهدّد وجودها، أو تحرّف وظيفتها في الحياة.

وظيفة مركزيّة للأمّة، بها تحقق عبوديّتها وخيريّتها ووسطيّتها الحضاريّة في الأرض، كما جاء تأكيد ذلك في قوله تعالى:**[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ]** ([3]).

وعليه فإنّ الدّعوة وهيّ تتحرّك على مستوى البلاغ المعرفي أو الفكري والفردي، فإنها تستهدف باستمرار تحقيق التّحول الثّقافي والاجتماعي والحضاري في نهاية المطاف، باعتبار ذلك هو مصب حركة التّاريخ من جهة([4])، وشرط الاستجابة الفاعلة لتحدّيات سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على الصّيرورة الاستخلافيّة البشريّة في الأرض من جهة أخرى([5]).

وهذا ما نراه مجسّدا في سيرة النّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام، الذي لم يكتف بعمليّة التعريف بالإسلام، أو التّوقف عند عتبات التمثّل الذّاتي الفردي له، بل عمل على تجسيد النّموذج الثّقافي والاجتماعي والحضاري للإسلام في واقع الحياة بصورة شموليّة، وتحويله إلى دولة ومجتمع وإلى حضارة كاملة بعد ذلك.

وبناء على ما سبق، فإنّ الدّعوة كحركة تغيير وإصلاح وتجديد للواقع الإنساني، على طريق العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة، تتضمّن سلسلة من العمليّات المنهجيّة المترابطة والمتكاملة، وهيّ:

- عمليّة التّعريف بالإسلام وتأسيس الوعي به أوّلا.
- وعمليّة الحماية لمضمونه الرّسالي من التّحريف والابتسار والتّزييف والتّشويه ثانيا؛ سواء أثناء مرحلة التّعريف به، أو خلال مرحلة التمثّل الذّاتي والاجتماعي له.
- وحركة تمثّل ذاتي لهذا المحتوى الرّسالي كضرورة معنويّة لمصداقيّة الدّعوة من ناحية، وكضرورة حركيّة لفعّاليّتها التّأثيريّة أو الاجتماعيّة من ناحيّة أخرى.
- وحركة تجسيد فعلي لمضمونها الرّسالي في واقع الحياة؛ الفكري والاجتماعي والسّياسي والعمراني أو الحضاري.
- وحركة حماية لمنجزاتها الفكريّة والمعنويّة والبشريّة والماديّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، من الهدر والتّبديد.

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 104.

([2]) الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (دار الفكر، بيروت 1405)، 38/4.

([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 110.

([4]) ابن خلدون، **المقدمة**، ص39.

([5]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (دار الشروق، بيروت، ط15، 1988)، 3967/6.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- وحركة محافظة على استمراريّة وتواصل هذه العمليّات جميعا.

وأيّ فعل دعويّ لا يستوعب في "دورته الإنجازيّة الكليّة " كلّ هذه الأبعاد والمراحل والمستويات، ولا يعطيها ما تستحقه من التّأصيل والفعّاليّة والتّكامليّة والقابليّة للاطّراد، يعدّ فعلا دعويّا جزئيّا منقوص الأصالة والفعّاليّة والجدوى الثّقافيّة والاجتماعيّة والحضاريّة، ولن يكتب له النّجاح في معتركات حركة الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد، التي تطبع حركة الحياة البشريّة في الأرض، وتحكم على كلّ الأفعال الاجتماعيّة غير الأصيلة وغير الفعّالة، بقصر النّفس، ومحدوديّة التّأثير([1]).

فالفعل الدّعوي النّاجح هو باستمرار محصّلة تفاعل تكاملي مطّرد بين مرجعيّة ثقافيّة موجِّهة، تحدّد الغايات والأهداف الكبرى التي ينشدّ نحوها النّشاط الإنساني أولا. وواقع موضوعي قائم، يحدّد الحاجات والأهداف والأولويّات الإجرائيّة الوسيطة أو الانتقاليّة لحركة التّحوّل الثّقافي والاجتماعي والحضاري ثانيا. ونسقيّة منهجيّة إجرائيّة منتظمة، تحدّد خطوات الإنجاز وفقهه ثالثا. وحرص دائب على ضمان تواصل العمليّة التّغييريّة وحماية منجزاتها رابعا.

هذا هو الفعل الدّعوي الذي نقصده في هذه الدّراسة. وهذه هي أبعاد ومراحل " دورته الإنجازيّة الكلّيّة ". وهذا هو قانونه الكلّي المطّرد، كما يتجلّى في الحركة النّبويّة التي سنعرض لها في هذه الدّراسة، لنستخلص معالم المنهج الذي يقف وراء أصالة وفعّاليّة وتكامليّة واطّرادية " الدّورة الإنجازيّة الكلّية " للفعل الدّعوي النّبوي.

فالبحث على هذا الأساس، يتمحور حول منهج النّبي صلّى الله عليه وسلّم في حماية الدّعوة بهذا المفهوم، والمحافظة على منجزاتها الفكريّة والبشريّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والحضاريّة، وحسن استثمارها في تحقيق المزيد من الأصالة والفعّاليّة والتّكامليّة والاطّراد، في حركة القدوة والبلاغ والبناء والموّاجهة الوقائيّة، التي أنجز عبرها النّبي عليه الصّلاة والسّلام مشروع المجتمع والدّولة الإسلاميين.

مفهـــوم المنهـــج:

التّحليل اللّغوي للكلمة: وبالعودة إلى قواميس اللّغة نجد أنّ المنهج أو المنهاج يعني: الطّريق الواضح. ونهَج الطريق: أي أبانه وأوضحه، ونهجه أيضاً: سلكه، ونهج الطّريق: وضّح واستبان، وصار نهجا واضحا بيّنا[2]. وفي القرآن الكريم[**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**][3] أي طريقا واسعا واضحا في الدّين[4]، والسّنّة أو السّبيل التي تسهّل على الإنسان السّير نحو غايته دون زيغ أو انحراف[5]. والمنهاج الخطّة المرسومة[1]، والمنهاج: الطّريق البيِّن المستمر([2]).

([1]) ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1998) 197/3-214.

(2) الرازي، محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، ترتيب: محمود خاطر، (دار المعارف، القاهرة، د.ت)، ص681؛ ابن منظور، **لسان العرب**، 383/2.

(3)**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 50.

(4) الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، د.ت)، 153/6؛ ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، 223/7.

(5) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، (دار الأندلس، بيروت، 1966)، 588/2؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**، 413/6.

وعلى هذا الأساس يلحظ أن المنهج يدور حول معنى أساسي هو: الطّريق أو السّبيل أو الخطّة المحدّدة الواضحة للوصول إلى غاية معيّنة[3]، بكلّ ما يعنيه ذلك ويستلزمه من ثبات، وانتظام، وتناسق، وإحكام... لأنّ ذلك هو لبّ المنهج ووظيفته.

المعنى الاصطلاحي الّذي نعتمده: واستنادا إلى هذه المعاني الّتي وضعها بين أيدينا التّحليل اللّغوي لكلمة المنهج، وتماشيّا مع أهداف البحث والتزاماته المنهجيّة، وبناء على التّعريف السّابق للدّعوة، يمكننا أن نعرّف المنهج النّبوي بأنّه: البنية النّسقيّة المعرفيّة والإجرائيّة المنتظمة، الّتي تحكم " الدّورة الإنجازيّة الكلّية " للفعل الدّعوي التّغييري النّبوي، وتطبعها بالمزيد من الأصالة والفعّاليّة والتّكامليّة والاطّراد، في خضمّ تحوّلات حركة الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد، الّتي كان يتحرّك في إطار حاجاتها وتحدّياتها وشروطها وتداعيّاتها بشكل مستمر.

فالمنهج على هذا الأساس هو هذه القدرة المعرفية على أصالة الفهم، وهذه القدرة العملية على فعالية التمثّل الذاتي لهذا الفهم، وعلى فعّالية الإنجاز وتحويل المعرفة إلى واقع اجتماعي معيش، والقدرة على فعاليّة الوقاية المبكّرة أو المرافقة أو الاستدراكيّة لكلّ العمليّات السّابقة الّتي تدخل في بناء " **الدّورة الإنجازيّة الكلّية** " للفعل الدّعوي التّغييري النّبوي بصفة عامة([4]).

فإذا كانت الدّعوة من النّاحيّة الفكريّة والوظيفيّة العامّة تعتبر:

- عمليّة تعريف بالإسلام وتأسيس للوعي به.
- وحركة تمثّل ذاتي شامل ومتكامل له.
- وحركة تجسيد لنموذجه الاجتماعي والحضاري في واقع الحياة.
- وحركة حماية لمنجزات ذلك التّعريف والتمثّل والتّجسيد.
- وحركة محافظة على اطّراد عمليّة البلاغ والبناء والموّاجهة.

فإنّ الّذي يكفل تحقيق كلّ هذه العمليّات الحيويّة المترابطة والمتكاملة، ويضمن أصالة وفعّاليّة " الدّورة الإنجازيّة الكلّيّة " للفعل الدّعوي التّغييري، هو" المنهج ". فنحن عندما نتتبّع الخطوات المنهجيّة، الّتي كان عليه الصّلاة والسّلام يعرض بها حقائق الإسلام على النّاس، ويؤسّس وعيهم به، ويجسّد عبرها نموذجه الثّقافي والاجتماعي في الحياة، ويوّاجه بها مشكلات الواقع والدّعوة، ويحرك بواسطتها الأحداث لتفكيك الأسس والمرتكزات الفكريّة والعقديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة للنّموذج الثّقافي والاجتماعي للمجتمع التّقليدي الجاهلي المتخلّف، ويعيد بناءه والسّير به قدما نحو آفاق العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة. يتأكّد لدينا أنّ النّجاح الكبير الّذي حققته الدعوة في عهده عليه الصّلاة والسّلام، يعود إلى المنهج الّذي اعتمده في حركة الفهم والقدوة والدّعوة والبناء والموّاجهة، وهوّ ما تسعى هذه الدّراسة على استخلاص روحه وثوابته السّننيّة الكلّية، من خلال التّتبّع الاستقرائي

([1]) ابراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، 957/2.

([2]) القرطبي، أبو عبد الله، **الجامع في أحكام القرآن**، تحقيق: أحد عبد العليم البردوني، (دار الشعب، القاهرة، ط2، 1373هـ)، 6 /211.

([3]) صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي**، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982)، ص195؛ زيان، محمد عمر، **البحث العلمي مناهجه وتقنياته**، (دار الشروق، جدة، السعودية، ط4، 1983)، ص 48.

([4]) طه جابر العلواني، **مقدمة كتاب المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها للطيب برغوث**، (دار قرطبة للنشر، الجزائر، 2004)،ص24.

لمفردات سيرته عليه الصّلاة والسّلام في مرحلة بناء الدّولة والمجتمع*.

فالمنهج هو الأداة المثلى أمام الإنسان لمعرفة سنن الوعي الكوني، والوعي التّسخيري، والوعي الاستخلافي، وتوظيفها بأصالة وفعّاليّة وتكامليّة واطّراد، لتطوير وعيه الذّاتي، والارتقاء بحياته إلى المستوى الحضاري اللائق، الذي يتيح له أفضل شروط التّوافق الذّاتي، والانسجام الاجتماعي، والتّكامل الكوني، ويحقق له من ثمَّ أكمل وأخصب مستويات التّكيّف مع وظيفته الوجوديّة بصفة عامّة، ويجنِّبه أخطار الغثائيّة والتّبعيّة والاستضعاف الحضاري المذل، الذي يترتب على ضعف مدافعته أو موّاكبته أو منافسته الحضاريّة([1])، كما نبّه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:[**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**]([2]).

وبغير التّحكّم الوظيفي أو التّسخيري الفعّال في معطيات المنهج، والمحافظة على روحه السّننيّة الأصيلة، فإنه لا يمكن رفع مستوى أصالة وفعّاليّة وتكامليّة واطّرادية المدافعة الثّقافيّة والاجتماعيّة والحضاريّة. بينما يساعد المنهج على تمكين الإنسان من الاستعمال الأمثل لطاقته ووقته وإمكاناته، والاستغلال الأفضل للظّروف المحيطة به، والفرص المتاحة له، ويجنّبه الإسراف والفوضى والتّذبذب، ومغبّة مناقضة سنن الله في الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد من ناحيّة، وسننه سبحانه في الآفاق والأنفس والهداية والتّأييد من ناحية أخرى*.

فبالمنهج تستوعَب المرجعيّة الفكريّة والثّقافيّة الموجّهة للفعل الدّعوي، وبه يُحاط بالواقع الإنساني المراد تغييره ومطابقته مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتّأييد، وسننه سبحانه في الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد. وبه تُضبَط آليّات الإنجاز وما تستلزمه من فقه في التّخطيط، وفقه في التّحليل والموّازنات، وفقه في الأداء أو التّنفيذ، وفقه في المتابعة، وفقه في التّقييم والتّقويم، وفقه في الاستدراك والحماية. وبه تواجَه آخر وأخطر إشكاليّات الفعل الدّعوي التّغييري، وهي ضمان اطّراد تواصل العمليّة التّغييريّة، والمحافظة على مكاسبها البشريّة والماديّة والمعنويّة وحمايتها، وحسن استثمارها في تحقيق المزيد من التّرقي المعرفي والرّوحي والأخلاقي والعمراني أو الحضاري، الذي يتطلبه السقف الحضاري لحركة الاستخلاف البشري في كلّ عصر ومرحلة.

فالمنهج يؤدّي باستمرار، ثلاثة وظائف حيويّة في حياة الإنسان لا غنى له عنها، إذا قدّر لحياته أن تخرج من دائرة التّذبذب والسّلبيّة والخسران، وتتوافق ذاتيّا، وتنسجم اجتماعيّا، وتتكامل كونيّا([3])، وتترقى في مدارج الكمال الإنساني، وهي على التّوالي:

– كيفية حصوله على المعرفة بسنن التّسخير والاستخلاف، كشرط قاعدي لفعّاليّته في الحياة، وما يستلزمه ذلك من فقه في المنطق وبديهيّات العقل وفقه في الملاحظة، وفقه في التّحليل، وفقه في الاستقراء والاستنباط، وفقه في المقارنة، وفقه في التّجريب، وفقه في النّقد، وفقه في الافتراض والقيّاس والتّوقع، وفقه في التّفسير، وفقه في الموازنة والتّرجيح، وفقه في المآلات، وفقه في الاستماع،

---

* استكمالا للدراسة التي كنا قد أنجزناها عن المرحلة المكية في رسالتنا لنيل شهادة الماجستير.

([1]) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، (دار الفكر، بيروت،1301هـ)، 227/3.

([2])**القرآن الكريم**، سورة الحج: 40.

* سيرد لاحقا في الفصلين الثاني والثالث من هذا الباب، حديث مفصل عن هذه المنظومات السننية المتكاملة.

([3]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3966/6.

وفقه في المحاورة، وفقه في المشاورة، وفقه في استثمار سنن الوحي والتّأييد...إلى غير ذلك من آليّات تحصيل المعرفة كمفتاح للوعي وامتلاك القدرات التّسخيريّة الفعّالة([1]).

– كيفيّة الاستفادة من هذه المعرفة بسنن التّسخير – بعد تحصيلها – وما يحتاجه ذلك ويتطلبه من قدرات إنجازية، ترتكز على فقه التّخطيط، وفقه التّنفيذ، وفقه المتابعة، وفقه التّقييم والتّقويم.

– وكيفية المحافظة على اطّراد عمليّة البناء الحضاري وحماية منجزاتها من الهدر والتّبديد، وضمان تراكم الخبرات والمكاسب، وتكامل الجهود وتحسينها كمّا ونوعاً باستمرار. كما جاء تأكيد ذلك في الحديث: (**أحبّ العمل إلى الله أدومه وإن قلّ**)([2])، ووُصِف عليه الصّلاة والسّلام بأنّ عمله: (**كان ديمة**)([3]) أي دائما مستمرا، وأنّه كان: (**إذا عمل عملا أثبته**)([4]) أي لازمه وتعهّده وداوم عليه ليمنحه شروط النّمو والثّبات والرّسوخ والتّراكم.

ولا يخفى أن هذه الوظائف الحيويّة الثّلاثة، يؤدّي فيها المنهج دورا حاسما لا معّوض له، باعتباره إطاراً معرفيّا للمعايرة، ونسقيّة إجرائيّة منتظمة للاستقراء، والتّحليل، والتّفسير، والتّخطيط، والتّنفيذ، والمتابعة، والتقويم...بدونّه لا يمكن أن تكون للنّشاط الإنساني فعّاليّته وإيجابيّته المطلوبة، حتّى وإن اتّسم جهده أحيانا بهذه الفعّاليّة والصّوابيّة، لأنّها ستكون حينئذ صوابيّة مصادفة أو اتّفاق غير منضبط، اطّرادها ليس مضمونا. وكما قيل بحق فإنّ: " الخطأ المنهجي خير من الصّواب الفوضوي"([5])، وأنّ " الطّريق غير المنهجي هو أطول الطّرق نحو الهدف"([6])، بكلّ ما يعنيه طول الطّريق من استنزاف للجهد والوقت والإمكانات، ومن إمكانيّة التّأثير السّلبي لمكابدات الطّريق على الإرادة الحضارية للمجتمع، ومن ثم على إنجازيته الحضارية.

ومن هذا المنطلق فإن العملية التغييرية في منظور السنن الحضارية المطردة، لا ينظر إليها في نتائجها النهائية فحسب – مع أنها هي المقصودة في نهاية الأمر – بل ينظر إليها قبل ذلك وبعده، فيما كان وراءها من نظام أو منهج تمّ بواسطته تعبيد الطريق نحو تحقيق هذه النتائج، حتى يمكن إنتاج مثلها أو أحسن منها، أو تلافيها إن كانت سلبية. ويكون من السذاجة التعويل على هذه النتائج مهما كانت أهميتها الآنية، إذا لم يُكتشف المنهج الذي أنتجها، ويستطيع المحافظة عليها وحمايتها واستثمارها لإنتاج مثيلاتها أو أحسن منها مرة أخرى.

فالفعل الدعوي الذي نلحظه نحن في صورة كلية مركبة أو كاملة في نهاية " دورته الإنجازية الكلية "، يمر في الحقيقة " بدورة إنجازية " كاملة ومتكاملة؛ فيها البداية والمراحل والنهاية، وما بين ذلك كله من مخاضات ومكابدات قوامها فقه عميق ودقيق في الموازنات والترجيحات والتوفيقات، حيث يخرج عبرها، من حيز القوة إلى حيز الوجود الفعلي المشخص في شكل: فكرة أو سلوك أو منتوج ثقافي أو اجتماعي أو حضاري... وكل ذلك يخضع لإجرائية منهجية بل وسننية منتظمة.

وهذا البعد هو الذي تستهدف هذه الدراسة البحث عنه في الحركة النبوية، وهو المقصود بالبصيرة أو جوهر البصيرة، في مثل قوله تعالى: **[قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَن**

([1]) ابن باديس، **التفسير**، ص102.

([2]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، باب القصد والمداومة على العمل، تحت رقم5984،(طبعة المكتبة السلفية، 1400).

([3]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، باب القصد والمداومة على العمل، تحت رقم5985.

([4]) أخرجه النسائي في **السنن**، باب المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة، تحت رقم746.

([4]) الطيب برغوث،**موقع المسألة الثقافية في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي**،(دار الينابيع، الجزائر،1993) ص18.

([6]) مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دار الفكر، دمشق، 1981)، ص80.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ](1)، والتي شرحت آية أخرى بعض أبعادها الهامة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: [**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ**](2).

فالمنهج كما سنرى لاحقا، هو روح السنة والسيرة النبوية، ومركز القوة والثقل الأكبر فيهمـــا، قبل أن تكون هذه السنة أو السيرة مجرد ترسانة ضخمة من المعلومات والمعارف الفقهية، والتوجيهات الأخلاقية، والوقائع التاريخية.. التي نحفظها ونسترجعها، ونحرص على أخذ أنفسنا بما نستطيع منهـــا لترقية حياتنا.

مفهـــــوم الحمايـــــة:

التحليل اللغوي للكلمة:جاء في لسان العرب: حمى الشيء حميا وحماية ومحمية: منعه ودفع عنه(3). وقال صاحب مختار الصحاح: حمى حماة يحميه حماية: دفع عنه. وهذا شيء حمى: أي محظور لا يقرب، أو أحميت المكان جعلته حمى. وتحاماه الناس: أي توقُّوه واجتنبوه (4). وتحاماه: تجنبه. والحامية: الرجل يحمي أصحابه. وحمى الله: محارمه(5). وفي الحديث:(**إذا أحب الله عبدا حماه في الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء**)(6).

المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده: وتأسيسا على ما تضمنته كلمة الحماية من معـــاني: المنـــع والإحاطة والحدب والدفاع والتجنب والمحافظة والوقاية ... وهي معاني منسجمة تماما مـــع أهـــداف البحث ومقاصده، يمكننا أن نحدد المقصود بحماية الدعوة في هذه الدراســـة بأنـــه: العمـــل المنهجـــي المتكامل على وقاية المضمون الرسالي للدعوة وحمايته من أي تشويه أو تحريف أو اختزال من ناحية، وتجنيب عمليات التمثّل الذاتي له، والتبشير به، وحركة البناء لنموذجه الثقافي والاجتماعي والحضاري في واقع الحياة، كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا على أصالتها وفعاليتها ومصداقيتها واســـتمراريتها مـــن ناحية أخرى، والمحافظة على المنجزات الفكرية والبشرية والاجتماعية والسياسية المحققة من ناحيـــة ثالثة.

ولا تخفى الأهمية القصوى لعملية حماية الدعوة ؛ كمضمون عقدي ومعرفي، وكعملية تمثّـــل ذاتي، وحركة تبليغ وبناء ومواجهة، وكمنجزات فكرية وبشرية واجتماعية... في نجاح حركة التغييـــر ومصداقيتها الاجتماعية والسياسية والحضارية. ذلك لأن هـــذه الحمايـــة تحقـــق " التـــراكم التكـــاملي المتواصل للجهد البنائي " كعامل ضروري وشرط لفعالية التغيير وأصالته واطراد حيويته الحضارية، بخلاف تآكل الجهد التغييري وتقطعه، وتبدّد فعاليته وعدم تكاملها، فإنه يخلّ بشروط التراكم والبنائيـــة والتواصلية، ويؤثر بعمق على فعالية الأداء الاجتماعي والحـــضاري للفـــرد والجماعـــة والمجتمـــع، ويضعف مدافعتهم في معتركات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري المحيطـــة بهـــم، والتي لا تتيح أبدا، لأي أحد من البشر، فردا أو مجتمعا، أية الفرصة للاسترخاء أو الغفلة أو الضعف،

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة يوسف: 108.

(2)**القرآن الكريم**، سورة النحل: 125.

(3)ابن منظور، **لسان العرب**، 1014/2.

(4)الرازي، **التفسير الكبير**، 158.

(5) أنيس، **المعجم الوسيط**، 222/1.

(6) أورده الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم282**، (المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1408).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بل تدفع به إلى المزيد من الفاعلية الثقافية والاجتماعية والحضارية، أو قذفت به القهر إلى مستنقعات التخلف والغثائية والتبعية والاستضعاف.

ففعالية التغيير، ترتبط دوماً بمدى نجاح حركة التغيير في تحقيق تراكمٍ تكاملي بنائي مطرد؛ عن طريق استيفاء أفعالها الثقافية والاجتماعية والسياسية... " لدوراتها الإنجازية " بصورة أصيلة وفعالة وتكاملية ومطردة، تمكّنها – أي حركة التغيير – بعد ذلك من حماية منجزات هذه الأفعال والمحافظة عليها، وحسن استثمارها في تعميق عملية التحول الثقافي والاجتماعي والحضاري، ووقايتها من الاسترخاء والجمود والانتكاس والهدر([1]). وقد ذم الله تعالى في القرآن الجهد الذي لا يحافظ عليه صاحبه، ويعرِّضه للهدر والتبديد([2])، فقال تعالى:**[وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا]**([3]). كما قال كذلك في ذم أتباع عيسى عليه السلام الذين ابتدعوا الرهبانية لحماية أنفسهم من ضغط المحيط عليهم، وخاصة السياسي منه، ولم يستطيعوا المحافظة عليها وحمايتها من لوثات الابتداع التي أفسدت ما فيها من مقاصد حسنة([4])، فقال تعالى:**[ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ]**([5]).

وفي نفس السياق جاء التوجيه القرآني إلى النبي عليه الصلاة والسلام بأن يداوم اليقظة الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية، وأن لا يغفل لحظة عن حماية المنجزات المحققة، والمحافظة على استمرارية فعالية المدافعة الاجتماعية على كل مستوياتها؛ الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية([6]). كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى**[فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ]**([7]). أي إذا أتممت إنجاز عمل ما، فاشحذ فعاليتك في إردافه بآخر يحميه ويعزز وجوده ويضاعف مردوديته الاجتماعية، لأن منطق الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الذي يهيمن على حركة الحياة، لا يسمح لك بالفراغ أو الاسترسال في الراحة والاسترخاء، بل يفرض عليك أخذ نفسك بالجدية المتواصلة([8])، حتى تضمن لحركتك الاجتماعية القدرة المتجددة على الانطلاق أو الإقلاع، أو المواكبة، أو المنافسة، أو الريادة الحضارية، لأن من غفل أو استرخى قليلا، تراجعت وضعفت فعالية مدافعته الاجتماعية، وحكم عليه منطق السنن بالتقهقر عن مركز المداولة الذي كان فيه، ليخلفه فيه غيره من القوى الثقافية والاجتماعية والحضارية المتدافعة بلا هوادة.

([1]) مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، (دار الفكر، دمشق، ط2، 1988)، ص13.

([2]) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت)، 137/5.

([3])**القرآن الكريم**، سورة النحل: 92.

([4]) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت،1996)، 4 /182.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الحديد: 27.

([6]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 416/30.

([7])**القرآن الكريم**، سورة الشرح: 5- 8.

([8]) الألوسي، **روح المعاني**، 547/30.

مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن هذا المنطلق فإن حماية حركة التغيير والمحافظة على منجزاتها، تعدّ من أخطر المشكلات التي تواجه جهود التغيير والبناء الحضاري باستمرار، لارتباطها المباشر بمقومات التغيير الجوهرية الأربعة: الأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد، التي بدونها لا تتحقق التراكمية البنائية التكاملية الفعالة في الجهد البشري، ومن ثم تفقد حركة التغيير القدرة على مواجهة تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد التي تكتنف وجودها على الدوام، ويجد المجتمع نفسه منسلكا في عداد المجتمعات الأمّية والغثائية التابعة([1])، معرّضاً بذلك " ميزانيته التسخيرية الكونية " للهدر والتبديد والتبوير، ووجوده للمحنة والخطر كما أسلفنا.

ونظراً لأهمية وخطورة هذه القضية في الوقت نفسه، والحاجة الملحّة إلى تأسيس الوعي بها؛ تصحيحاً وتأصيلا وتفعيلا لحركة التجديد الحضاري للأمة، فقد حرصت أن ألقي عليها بعض الأضواء من خلال دراسة المنهج النبوي في مواجهتها وتجاوزها، سحبا للشرعية والمصداقية من بعض أشكال وأنواع التأسي غير الموضوعي بالرسول عليه الصلاة والسلام، المصرة على ادعاء الصوابية والأحقية والأفضلية لأطروحاتها ومواقفها الفكرية والسلوكية والحركية، دون استيفاء هذه المواقف لشروط هذه الأفضلية والصوابية الإقتدائية! التي لا يمكنها أن تتحقق لأحد من الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات، بدون الوعي المعرفي والتسخيري بروح المنهج وقواعده السننية الثابتة.

مفهـــوم المنجـــزات:

التحليل اللغوي للكلمة: ومما جاء في لسان العرب: نجز الحاجة وأنجزها: قضاها، ونجزت الحاجة إذا قضيت، واستنجز العدة والحاجة و تنجزه إياها سأله إنجازها واستنجحها. والناجز الحاضر [(2)]. قال صاحب مقاييس اللغة: نجز: النون والجيم والزاي، أصل صحيح يدل على كمال الشيء في عجلة من غير بطئ، نجز الوعد: ينجزه وأنجزه: أعجلته، وأعطيته ما عندي حتى نجز آخره، أي وصل إلى آخره [(3)].

وجاء في أساس البلاغة: نجز: أنجز وعده إنجازا، نجز الوعد. وهو ناجز إذا حصل وتم، ومنه نجز الكتاب، ونجزت حاجته [(4)]. وجاء في المعجم الوسيط: واستنجز حاجته وتنجزها استنجحها، والعدة سأل إنجازها([5]). وأنجز على القتيل أجهز. وقال صاحب مختار الصحاح: نجز الشيء: انقضى وفني، ونجز حاجته: قضاها. واستنجز الرجل حاجته وتنجزها: أي استنجزها [(6)]. وجاء في المعجم الوسيط: نجز الشيء نجزا: تمَّ وقضى، وحصل، تنجز الشيء طلب إنجازه [(7)].

المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده: ومن خلال المعاني السابقة التي تمحورت حول معاني: إتمام الشيء وإكماله وإنجاحه والوفاء به.. وهي المعاني التي يدور حولها المفهوم الذي نقصده في هذه

([1]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 34/10.

([2]) ابن منظور، **لسان العرب**، 6/ 435.

([3]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، 393/5.

([4])الزمخشري، **الكشاف**، **619/2**.

([5])الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، 677/1.

([6])الرازي، **التفسير الكبير**، ص648.

([7])أنيس، **المعجم الوسيط**، 2 /903.

الدراسة. ونحن ننطلق من ذلك لنقول بأننا نعني بمنجزات الدعوة هنا: حصيلة المكتسبات الفكرية والبشرية والاجتماعية والسياسية والحضارية.. التي حققتها حركة الدعوة والقدوة والبناء والمواجهة أو المدافعة بصفة عامة.

فكل ما تمخّض عن عمليات التعريف بالإسلام وتأسيس الوعي به، ومحاولة تجسيد نموذجه الفكري والثقافي والبشري والاجتماعي في الحياة؛ من نخبة قيادية رسالية نوعية، ورأي اجتماعي عام، ومناخ ثقافي يؤثر على تفكير الناس وسلوكهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ومن مؤسسات فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة، تجسّد قيم الإسلام ومفاهيمه في الحياة، ومن علاقات منفتحة على القوى الاجتماعية المختلفة، هو من منجزات الدعوة ومكاسبها الأساسية، التي تدل على مدى نجاحها في الاقتراب من تحقيق أهدافها في التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري.

وكما لا يخفى، فإن حجم ومستوى نوعية المنجز الثقافي والاجتماعي والسياسي والحضاري لأية حركة تغييرية، هو الذي يحكم لها أو عليها لدى الرأي العام من ناحية([1]). كما أنه هو الذي يغذي روح الحيوية والاندفاع لدى نخبة هذه الحركة وجمهرتها المرتبطة بها من ناحية أخرى. وهو الذي يمدُّ الحركة أيضا، بالمزيد من شروط وقدرات الانطلاق أو المواكبة أو المنافسة أو الريادة الحضارية الفاعلة من ناحية ثالثة([2]).

ومن سنن الله في الفاعلية الاجتماعية والحضارية للمنجز الاجتماعي، تمكُّن حركة التغيير من توفير شرط القدرة على تحقيق التراكمية البنائية التكاملية المطردة، في جهدها الدعوي التغييري، بشكل يتجاوز مرحلة تأسيس البنية التحتية لفاعليتها الفكرية والسلوكية الفردية، إلى مراحل تأسيس البنية التحتية الإنتاجية المتقدمة لفاعليتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، التي تشكل نقلة نوعية في مسيرة الحركة والمجتمع والأمة، على طريق فاعلية الإقلاع والنهوض الحضاري، أو المواكبة أو المنافسة أو الريادة الحضارية، التي تستقطب الاهتمام البشري باستمرار([3]).

وتحقيق هذه التراكمية البنائية التكاملية المطردة، التي تمنح المجتمع والأمة هذه المستويات المتقدمة من الفاعلية الثقافية والاجتماعية والحضارية، تتوقف على شرط أساس وهو القدرة على حماية منجزات حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة، وعدم تعريضها للاستنزاف والهدر والإجهاض والتراجع أو الضمور. فإذا ما استطاعت أية حركة تغييرية أن تحمي منجزاتها الثقافية والبشرية والمادية والمعنوية، وتحافظ على مكاسبها المحققة، وتستثمرها بفاعلية وتكاملية بنائية، فإنها ستحقق المزيد من تراكم القدرات الذاتية التي ترفع كفاءة مدافعتها الاجتماعية والحضارية إلى مستوياتها النموذجية، التي تدفع بها قدما على طريق الإقلاع الحضاري، أو المواكبة الحضارية، أو المنافسة الحضارية، أو الريادة الحضارية، بحسب الوضع أو المرحلية التطورية التي تكون فيها فعلا.

وفي القرآن عناية كبيرة بقضية حماية المنجز الثقافي والاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة، كما نلمس ذلك بوضوح في التحذير من مغبة الغفلة عن قيمة النعم التي حصل عليها المجتمع، ومن سوء استخدامها والعبث بها. وارتقى بذلك على مستوى القانون المطرد في حركة العمران

([1])مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص102.

([2]) الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**، (دار قرطبة، الجزائر، ط3، 2004)

([3]) ابن خلدون، **المقدمة**، ص127.

والاستخلاف البشري في الأرض([1]). كما نلمس ذلك بوضوح في قوله تعالى:**[ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]**([2]).

فالتغير المتقهقر المضعِّف لأصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية حركة الدفع الثقافي والاجتماعي والحضاري للمجتمع، على ضوء هذا القانون التسخيري الاستخلافي الخطير([3])، يحدث عندما يعجز المجتمع عن حماية منجزات تطوره، والمحافظة على المستويات المتقدمة التي حققها، فتدفع به سنن المدافعة والمداولة الثقافية والاجتماعية والحضارية إلى التراجع والضعف والغثائية والتبعية الحضارية، بعد أن يستهلك ويستنفد ما تراكم لديه من منجزات مذخورة لديه. وتلك: **[سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا]**([4]).

وبناء على هذا الدور الحيوي الحاسم الذي تؤديه فكرة الحماية للمنجز الثقافي و الاجتماعي والحضاري للحركة والمجتمع والأمة، شكّلت – أي فكرة الحماية للمنجز الاجتماعي – إحدى أخطر المشكلات بل والمعضلات الكبرى التي تواجه حركات التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري، وتساهم في تقرير مصيرها إلى حدٍّ كبير، عبر التاريخ.

فحركات التغيير تنجح ويمتد تأثيرها بعيدا في التاريخ، بقدر ما تتمكن من تحقيق الوقاية المبكرة أو المرافقة أو الاستدراكية لمنجزاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والحضارية، وتتمكن من تطويرها وتحسين تراكميتها البنائية باستمرار. ويتراجع أداؤها الفكري والاجتماعي، ويخفت تأثيرها الحضاري، بقدر ما تعجز عن تحقيق هذه الوقاية لمسيرتها، والمحافظة على منجزاتها الفكرية والاجتماعية والحضارية.

وهذه الدراسة التي نحن بصددها، تستهدف البحث عن معالم المنهج الذي واجه به النبي عليه الصلاة والسلام هذه المعضلة، وهو يعمل على بناء الدولة والمجتمع، ويؤسس للنقلة الحضارية الكبرى في تاريخ الإنسانية، على طريق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، المنفتحة على كل أبعاد ومراحل وآفاق مراحل الدورة الودودية الكبرى للإنسان.

مفهـــــوم الدولــــــــة:

التحليل اللغوي للكلمة: الدُّولة بالضم اسم للشيء الذي يتداول به بعينه. والدَّوْلة الفعل والانتقال من حال إلى حال. والإدالة: الغلبة. وتداولنا الأمر: أخذناه بالدّول، أي أخذه هذا مرة، وأخذه غيره مرة. ودالت: أي دارت [5]. وجاء بمعنى الظفر والتمكن([6]).

العلاقة بين الدولة والمجتمع في التجربة النبوية: ونظرا إلى أن الدولة في مضمونها السياسي والاجتماعي، تختزن معاني المداولة والإدارة والسلطة والغلبة والقوة.. وهي نفس المعاني التي نجدها في مفاهيم أخرى متداولة مثل الخلافة، والملك، والسلطنة.. فقد دخلت منظومتنا الفكرية والسياسية، وصارت مفهوما شائعا درج على استعماله كبار المفكرين والعلماء، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال

([1]) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير**، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، (مكتبة ابن تيمية، د.م.ت)، ج109/14.

([2])**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 53

([3]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج10، ص34.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: ص62.

([5]) ابن منظور، **لسان العرب**،(دار صادر، بيروت، د.ت)، 252/11.

([6]) الرازي، **مختار الصحاح**، 170/1.

في مقدمة ابن خلدون[1]. وتدعّم حضور هذا المفهوم أكثر بشيوع استعماله في الثقافة السياسية الحديثة، واستبحار الأبحاث والدراسات فيه، من الزوايا القانونية، والتنظيمية، والفلسفية، والاجتماعية والسياسية جميعا.

وتأسيسا على ما سبق، من كون الدولة لغة تختزن معاني: المداولة، والانتقال، والإدارة، والغلبة، والظفر، والتمكن، والقوة، والنفوذ، والنظام.. وهي كلها مفاهيم محورية مؤسِّسة للمضمون السياسي والاجتماعي للدولة[2]، وكون هذا المفهوم قد استثمر في ثقافتنا السياسية بصورة مكثفة وأصيلة، فإننا نعمّق استثماره في هذه الدراسة حول الحركة النبوية التي اخترنا مرحلة بناء الدولة والمجتمع كإطار لها.

ونظراً لتعدد المفاهيم الإجرائية لمصطلح الدولة في الثقافة السياسية والقانونية الحديثة؛ بسبب تعدّد زوايا ومنطلقات القراءة والاهتمام من جهة[3]. وحرصا مني على عدم تكلّف محاولة صبّ الحركة النبوية في المفاهيم المعاصرة للدولة من جهة ثانية. ورغبة في عدم الاكتفاء بقراءة الحركة النبوية من منظور سياسي دستوري قانوني فنّي تنظيمي تأريخي، بل تجاوز ذلك إلى قراءتها من منظور علم الاجتماع السياسي المعرفي الحضاري التكاملي، الذي يهتم بتحليل الظواهر السياسية باعتبارها ظواهر ثقافية واجتماعية وحضارية متكاملة، خضعت في نشأتها وتطورها وبنائها لحركية سننية معينة، لابد من اكتشافها وتأسيس الوعي بها من جهة ثالثة، كما يعبر عن ذلك محدّد أو معطى المنهج في عنوان الدراسة، باعتبار البحث عن المنهج في الحركة النبوية في مرحلة بناء الدولة والمجتمع، يعني الاهتمام باكتشاف الثوابت والمؤطّرات المعرفية والمنهجية أو الإجرائية العامة التي كانت تحكم وتوجّه " الدورة الإنجازية الكلية " للفعل النبوي؛ في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة، أكثر من الاهتمام بتفاصيل وجزئيات الفعل السياسي الإجرائي، الذي هو من اختصاص فقه الفروع، والاستقصاء القانوني أو التقنيني، والرصد التأريخي المتخصص.

نظراً لكل هذه الاعتبارات، فإننا سنلاحظ بأن مفهوم الدولة في هذه الدراسة لا يختلف كثيراً عن مفهوم المجتمع أو الأمة، لا لأن مفاهيمها متطابقة وغير متمايزة في الأصل، ولكن لأن الدولة في الإسلام هي أداة تنظيم وتنسيق وتوجيه لحركة التفاعل والتدافع الثقافي والاجتماعي، ومنحها الفعالية التسخيرية النموذجية اللازمة، لمواجهة تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة([4]). ولأن الدولة الإسلامية في سياقها التكويني الزماني، وفي ضوء المنطق المنهجي الإجرائي التدرجي الذي تحكّم في نشأتها وتكوّنها من جهة أخرى، يفرض علينا مراعاة هذا التداخل والتكامل بين مفاهيم الدولة والمجتمع والأمة.. وعدم التعسف في البحث عن هذا التمايز، ومحاولة فرضه على الدراسة، لمجافاة ذلك لروح المنطق المنهجي الذي يجب أن يحكم قراءة الحركة النبوية المسددة بالوحي خاصة، وسائر التجارب الاجتهادية البشرية العادية عامة. فالفعل الاجتهادي فعل تاريخي بطبيعته، لا يمكنه أن ينفك عن مؤثرات ومعطيات إطاره الزماني والمكاني، وسقفه الثقافي والاجتماعي والحضاري، بل وحتى الاعتبارات الذاتية للقائمين على إنتاج ذلك الفعل التغييري الاجتهادي، لذلك فإن الموضوعية العلمية تقتضي مراعاة ذلك عند محاولة دراسة وفهم هذه التجارب وتقييمها والحكم عليها.

([1])ابن خلدون، **المقدمة**، ص143 وما بعدها.

([2])جاك دونديبه دي فابر، **الدولة**، ترجمة: أحمد حسين عباس، (مكتبة نهضة مصر، مصر، 1985)، ص2 وما بعدها.

([3])حسن السيد بسيوني، **الدولة ونظام الحكم في الإسلام**، (عالم الكتب، القاهرة، 1405هـ- 1985م)، ص11.

([4]) أبو الحسن الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، ص217؛ ابن خلدون، **المقدمة**، ص122.

فالدولة كقوةٍ أو سلطةِ ضبطٍ وتوجيه مخطط للحراك المجتمعي، بالرغم من أنها كانت هدفا رئيسا للدعوة في هذه المرحلة، لاعتبارات مبدئية وسياسية واجتماعية، ذات علاقة وطيدة بمنطق سنن التسخير والاستخلاف المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية البشرية([1])، إلا أنها مع ذلك ظلت أداة لخدمة الدعوة، باعتبارها رؤية موضوعية* شاملة عن الله والكون والحياة والإنسان، تستهدف تأسيس الوعي " بالدورة الوجودية " للإنسان، وإدارة حياته الفردية والجماعية على ضوء ذلك. ومن هذا المنطلق جاء تركيزنا في هذه الدراسة على الدعوة كمعطى هدفي أعلى مستقل، وعلى منهج حمايتها كمعطى أو عامل أداتي تسخيري تابع لها. ثم على الدولة كمجال لتجسّد النموذج الاجتماعي والحضاري للدعوة، وكأداة حماية لها والمحافظة على منجزاتها، وضمان استمرارية اندفاعها الحيوي المتوازن نحو أهدافها في العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، بعد ذلك باستمرار؛ من خلال القوة المادية والمعنوية المتناسقة والمتجدّدة – ممثلة في الدولة – التي تمنح الدعوة فعالية الانتشار والاستيعاب السياسي والدعوي والتربوي والاجتماعي أو الاستثماري.

وإذا كانت الدولة في الثقافة السياسية والقانونية الحديثة تعني بصفة عامة البنية الفكرية التنظيمية الوظيفية المؤطّرة للفعل السياسي خاصة، والاجتماعي عامة في المجتمع([2])، بحثا عن انسجامه وفعالية أدائه الاجتماعي في حركية الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الدائبة، فإن الدولة في الإطار الثقافي والزماني والمنهجي لهذه الدراسة، تختزن كل هذه المعاني والأبعاد السابقة، ولكن في حالة تكوّن و اكتمال تدريجي، لأنها كانت في مرحلة نشوء، فتكيّفت طبيعتها التنظيمية بحسب حاجات الدعوة والمجتمع إلى حد بعيد، انسجاما مع الطبيعة الواقعية للدعوة([3])، التي كانت تنشئ وتبني الهياكل المؤسّسيّة التنظيمية للمجتمع والدولة؛ بحسب ما كانت تستدعيه حاجات وتحديات حركة الابتلاء والبناء والمدافعة الفكرية والاجتماعية من ناحية، وبحسب ما كانت تتطلبه هذه الحركة من المحافظة على أصالتها وفعاليتها واطراديتها من ناحية أخرى. فنحن هنا أمام عملية ميلاد متكاملة لمجتمع جديد بكل مكوناته وضروراته التي يحتاجها ميلاد أي مجتمع إنساني.

ومن هنا فإنه ينبغي أن يُلحَظ أن التعريف الذي يُحدَّد للدّولة الإسلامية في هذه المرحلة، عليه أن لا يغفل هذه المسألة، لأهميتها المنهجية الكبيرة في تحقيق الرؤية الموضوعية للحركة النبوية، والبعد عن التمحّل والتكلف في فرض مفاهيم غير مناسبة عليها، قد تؤدي إلى سوء الفهم لطبيعتها، وإلى تشويه حقيقتها، وتفويت إمكانية التواصل الاستثماري الأصيل معها.

وتأسيساً على هذه الملحوظة المنهجية الهامة، وانسجاماً مع أهداف الدراسة وضوابطها المنهجية، فإن اهتمامنا سوف لن ينصب حول العناية بطبيعة الدولة كنظام سياسي إجرائي متحرك ومتجدد، ولا على أشكالها التنظيمية المكيَّفة زمانيا، إلا بالقدر الذي يخدم الموضوع المحوري للدراسة،

([1]) ابن خلدون، **المرجع نفسه**، 141.

* نقصد بالموضوعية هنا تنزّه الرؤية الإسلامية عن نواقص الذاتية على اختلاف تجلياتها، واتسامها بكل سمات الكمال، لصدورها من الله سبحانه وتعالى، الذي ليست له مصلحة يتحيز لها ضد البشر أو غير البشر.

** سيرد لاحقا الحديث عن هذه الأبعاد الثلاثة لطبيعة الدعوة وآفاقها الحضارية.

([2])جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، ترجمة حسن جلال العروسي وآخران، (دار المعارف، القاهرة، ط1954،2) ج2،ص408؛ محسن خليل، **النظم السياسية والقانون الدستوري** (دون بيانات نشر)، 26/1.

([3])الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة في مرحلة التأسيس العقدي والفكري للمجتمع الإسلامي بمكة**، (دار قرطبة، الجزائر، 2004)، ص201.

ويلقي الضوء على قواعد المنهج النبوي في البلاغ والبناء والمواجهة أو المدافعة الفكرية والاجتماعية؛ حماية للدعوة ومحافظة على منجزاتها، في مرحلة تحويلها – أي الدعوة – إلى دولة ومجتمع وأمة، وتأسيس نواة الكتلة االحضارية الأم للحضارة الإسلامية القادمة. وسيأتي الحديث لاحقا* عن أهمية المؤسسة السياسية ومكانتها ودورها في المنظومة الفكرية والمنهجية للدعوة، وفي نموذجها الاجتماعي والحضاري عامة. وسنلحظ هناك كيف ركّزت الدعوة الإسلامية على القيّم العقدية والتسخيرية والاستخلافية، ذات الطابع السنني الإنساني الحضاري المطرّد، التي تمنح الأبعاد التنظيمية الوظيفية التسخيرية للفعل السياسي والاجتماعي الإسلامي، أصالته وفعاليته النموذجية بعد ذلك، حينما تتمثّل الصفوات القيادية هذه القيم، ويستحكم وعيها بها، وتأخذ طريقها إلى الثقافة المؤسسية والفقه التسخيري في الدولة والمجتمع عامة.

فالإسلام باعتباره يمثل المنظومة السننية الثالثة في " ميزانية التسخير الكونية " البشرية الكبرى([1])، وهي منظومة سنن الهداية المؤطّرة للوعي العقدي الكوني والتسخيري والاستخلافي البشري([2])، نظر إلى الفعل السياسي أو الاجتماعي والحضاري عامة، نظرة سننية شاملة ومتكاملة ومتوازنة ([3]). فأعطى البعد القيمي المعرفي الثقافي النفسي للفعل الإنساني ما يستحقه من العناية، تجاوبا مع دوره الحيوي الحاسم في أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية هذا الفعل، وربط الأبعاد التسخيرية أو الفقه الإنجازي فيه بذلك كله([4])، حتى ينأى به عن الفعالية التنافرية الاهتلاكية الهدْمية المنهكة([5])، ويقترب به باستمرار من آفاق الفعالية التآلفية البنائية التكاملية المطردة([6])، وهو ما نجد صداه العميق في الفعل النبوي السلوكي منه والدعوي والسياسي والاجتماعي على حد سواء.

من هذه المنطلقات المعرفية والمنهجية كلها، فإننا نعني بالدولة في هذه الدراسة: بناء الكيان الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي المنسجم، الذي يدير الحركية الاجتماعية العامة للمجتمع، من خلال أنظمة وآليات مؤسسية فعالة، ويتيح للدعوة الإسلامية التعبير الفعلي عن نموذج مشروعها الثقافي والاجتماعي والحضاري الجديد من ناحية، ويوفر لهذا النموذج الشروط الموضوعية الفعالة التي تساعده على مواجهة تحديات المدافعة الفكرية والاجتماعية والحضارية التي يتحرك في إطارها من ناحية أخرى، ويمكّن الدعوة في النهاية من تحقيق أهدافها الكلية في العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، كما قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ]([7]).

فالدعوة كحركة تعريف وتغيير وبناء للبدائل العقدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية الإسلامية الجديدة، كانت تقوم بذلك كله في مسار بنائي تكاملي مطرد، يخدم بعضه بعضا، وخاصة في المرحلة المدنية من مسيرتها، التي توفرت فيها للدعوة شروط الدمج والمكاملة بين كافة الأبعاد والمسارات، لاستكمال بناء نواة أو قاعدة المجتمع الإسلامي الوليد، الذي يتكفل بتلبية حاجات مواطنيه، ويوفر ضرورات الاستمرار في بناء وتطوير نموذجه الثقافي والاجتماعي والحضاري، ويسهر على

---

* في الفصل الرابع من الباب الأول.

([1])سيرد الحديث عن هذه المنظومات في الباب الأول من الدراسة.

([2]) رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، (المكتب الإسلامي، بيروت، 1391هـ).

([3])ابن خلدون، **المقدمة**، ص121– 141.

([4])فتحي الدريني، **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم**، ص206–208–375.

([5])الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج10، ص31؛ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1528/3.

([6]) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، 271/29؛ الألوسي، **روح المعاني**، 28 /387.

([7]) **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 107.

حماية الدعوة ومنجزاتها المختلفة. لذلك فإن الدعوة والدولة والمجتمع فيه لم تكن متمايزة، بل متداخلة وملتحمة بشكل كبير.

فنحن هنا نتحدث عن دولة ومجتمع ينشآن أو يولدان لأول مرة، وفق رؤية عقدية كونية ثقافية حضارية جديدة، فيها الكثير من المصادمة للأوضاع العقدية والثقافية والاجتماعية القائمة في المجتمع الجاهلي المعاصر لميلاد المجتمع الإسلامي الأول، الذي كان عليه أن يفكك ويعيد بناء هذا المجتمع الجاهلي على ضوء الرؤية الإسلامية لله والإنسان والحياة والكون.

هذا هو المفهوم الذي نعنيه في هذه الدراسة، وهو مفهوم متطابق في نظرنا مع حقيقة وواقع الدعوة الإسلامية في مرحلة التأسيس من جهة، كما أنه يستجيب لأهداف الدراسة واختياراتها المنهجية من جهة أخرى. وسيأتي مزيد توضيح لموقع الدولة أو المؤسسة السياسية من الوعي الاستخلافي عامة، ومن أهداف الدعوة الإسلامية واستراتيجيتها التغييرية خاصة، في الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الدراسة.

وقد اتضح لنا من التعريف السابق، كيف يلتحم مفهوم الدولة بالمجتمع والأمة في مرحلة التأسيس – وهي موضع اهتمام هذه الدراسة – وإن كان مفهومها السياسي المؤسساتي سيأخذ مكانته المحورية الخاصة في البنية الهيكلية العامة للمجتمع بصفة تدريجية، حينما تتمايز وظائف هذه الأبنية الاجتماعية بعد تكامل البناء، وتبرز شخصية البنية السياسية – الدولة – كمنظّم ومنسّق وموجّه لحركة التفاعل الاجتماعي والحضاري؛ في أبعاده الداخلية والخارجية.

ومن كل ما سبق يتضح لنا الغرض من هذه الدراسة، وهو محاولة البحث عن معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة كمضمون حضاري؛ عقدي وفكري وسياسي واجتماعي وثقافي من جهة، والمحافظة على مكتسبات هذه الدعوة ومنجزاتها البشرية والمادية والمعنوية من جهة أخرى، وضمان تواصل العملية التغييرية وديمومتها من جهة ثالثة. وهي الإشكاليات الكبرى التي تحطّمت على صخرتها جهود كثير من الحركات والجماعات والمجتمعات الإنسانية في التاريخ، وتمكنت الحركة النبوية، بفضل انسجام جهدها مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، من تجاوزها بصورة نموذجية فذّة، نحن بصدد إلقاء بعض الأضواء عليها في هذه الدراسة التحليلية " للدورة الإنجازية الكلية " للفعل النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة، في مرحلة بناء الدولة والمجتمع، وتجسيد النموذج الثقافي والاجتماعي والحضاري الإسلامي في واقع الحياة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الأول

في الآفاق الرسالية الكبرى للدعوة الإسلامية

تمهيـــــد:

لما كانت هذه الدراسة تستهدف البحث عن مكانة المنهج في الحركـة النبويـة، وعـن دوره المحوري الحاسم في استثمار معطيات منظومات سنن الله في **الخلق والتسخير والاستخلاف والوقاية**، لتحقيق أفضل فهم موضوعي للواقع الإنساني المعيش واستيعاب حاجاته وتحدياته وتطلعاته، وامـتلاك القدرة المتجددة على تغيير بناء العقدية والفكرية والسلوكية والاجتماعية، والسير به قدما نحـو تحقيـق ميلاد مجتمع إسلامي جديد([1])، تتحرك فاعليته الفكرية والاجتماعية والحضارية، باتجاه آفاق **العبوديـة والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، التي جاءت بها الرسالة الإسلامية للبشر .

ولما كان المنهج في بعده الوظيفي؛ كأداة فهم، وآليات إنجاز ووقاية وحماية للمنجـز الفكـري والسلوكي والاجتماعي والحضاري للمجتمع، محكوماً ومؤطّراً باستمرار، بمرجعية معرفية عقدية قيمية أخلاقية في الأساس، تستمد منها الحركة منطلقاتها ورؤاها، وموازينها المعيارية وفلسفتها الكليـة فـي الحياة([2])، وتُرشِّد بها مواقفها العملية في حركة الفهم والدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة الاجتماعية والحضارية .

ولما كان البعد المعرفي العقدي القيمي الأخلاقي، يؤدي كل هذا الدور الحيوي الحاسم في التأسيس لطبيعة الفاعلية الفكرية والاجتماعية والحضارية للنشاط البشري في الأرض، باعتبار المعرفة المطابقة لسنن الله في الخلق، مقدمة شارطة لصحة وصلاحية النشاط الاستخلافي، ومحافظة على هويته الروحية والأخلاقية ومؤصلة لها، كما جاء التأكيد على ذلك في القرآن في مثل قوله تعالى: (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**)(محمد : 19) الذي قدم العلم على العمل في كل شيء ([3]) . وقوله كذلك: (**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**)(الإسراء : 36) الذي نهى عن العمل بدون معرفة مسبقة تقود خطواته نحو الفاعلية الاجتماعية المطلوبة([4]) .

لما كان الأمر كذلك، فإن هذه الدراسة، على المستوى المنهجي، تتضمن بعداً نظرياً يتمثل في المضمون المعرفي العقدي القيمي الأخلاقي للدعوة الإسلامية، الذي يشكل الإطار المرجعي المـؤطّر

([1]) سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، دار الشروق ، بيروت .

([2]) ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير/102

([3]) الكيا الهراسي، عماد الدين بن محمد، **أحكام** القرآن ، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1985 ، ج29/5

([4]) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري 160/1

والموجِّه للبعد التطبيقي أو العملي فيها؛ المتمثل في الحركة الاجتماعية النبوية الشاملة، من خلال منهجها في عملية التمثّل الذاتي للوحي، وفي حركة البلاغ والتعريف والحوار والجدل الثقافي، وفي حركة البناء والتجسيد الميداني للنموذج الاجتماعي والحضاري للدعوة، وفي عملية الحماية لمكتسبات ذلك كله، وضمان استمرارية الاندفاع المتوازن لحركة **الفهم** و**القدوة والدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة***، نحو أهدافها الكلية في **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**([1]) .

وهذه الطبيعة النظرية والتطبيقية المزدوجة للموضوع، تفرض علينا البدء بالحديث عن البعد النظري، المشكّل للإطار المرجعي الموجه لحركة الدعوة في سعيها المنهجي الدءوب نحو تجسيد غايات الإسلام ومقاصده في واقع الحياة . ولا تخفى هنا مدى الأهمية البالغة التي يكتسيها الإلمام بالمحتوى المعرفي المشكّل لهذا الإطار المرجعي الموجه والملهم لحركة التغيير والبناء والمدافعة الاجتماعية، في مثل هذا البحث الذي يتعرض لدراسة حركة تغييرية نموذجية فذة، ارتقت – بما توفر لها من شروط الأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية* - إلى مستوى النموذجية المرجعية العامة، ذات الحجية أو السلطة المعرفية والروحية المطلقة، على كل خبرة بشرية سابقة لها أو لاحقة عليها إلى قيام الساعة([2]) ؛ في كل ما هو ثابت وكلي وسنني أو فطري، وليس عرفيا أو ظرفيا أو خصوصيا([3])، كما جاء التأكيد على ذلك في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: (**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**)(المائدة : 48).

ولما كانت السنة بوظيفتها التفسيرية والبيانية والتشريعية المنهجية المكمّلة، تمثل الوجه الآخر للكتاب، فقد جاء التأكيد كذلك على حجيتها وسلطتها المعرفية والتشريعية والمنهجية([4])، في مثل قوله تعالى: (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**)(الأحزاب : 21). ومثل قوله سبحانه: (**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)(آل عمران : 31). وكما جاء في قول رسول الله عليه الصلاة والسلام كذلك: (**إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب الله ، و سنة نبيه**)([5]). وكما جاء التأكيد على ذلك أيضا في مثل قوله: (**أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن ؟ ألا و إني و الله قد أمرت و وعظت و نهيت عن أشياء إنها لمثل هذا**

---

* نقصد **بالمواجهة والمدافعة** في هذه الخماسية السننية المتكاملة، الوعي الاستشرافي الاستباقي الوقائي الذي يحقق الوقاية المبكرة أو المرافقة أو الاستدراكية لحركة التغيير والإصلاح والتجديد، ويحمي منجزاتها من الهدر والتبديد، ويحقق التراكمية المعرفية والإمكانية المطلوبة، التي تمنح التغيير المزيد من الأصالة والفعالية والاطراد.

([1]) حبنكة، عبد الرحمن حسن الميداني، ابتلاء الإرادة، دار القلم، دمشق 1995 ، ص/47

* سنرى من خلال الأبحاث اللاحقة منابع ومكامن ومولدات هذه الأصالة والفعالية والاطرادية، التي أعطت للحركة النبوية هذه الحجية والسلطة المرجعية المتميزة .

([2]) رشيد رضا، تفسير المنار ج352/6

([3]) أنظر على سبيل المثال: الشفاء للقاضي عياض، والخصائص الكبرى للسيوطي .

([4]) الشاطبي، الموافقات 5/4

([5]) الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم/40 ، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية 1421 هـ .

القرآن ، أو أكثر ، و إن الله عز وجل لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، و لا ضرب نسائهم ، و لا أكل ثمارهم ، إذا أعطوكم الذي عليهم)([1]).

وسنلحظ من خلال هذه الدراسة، الدور الحيوي الحاسم للإطار المرجعي في اتسام الحركة النبوية بالنموذجية المنهجية والإنجازية الفذة، وتميز منهجها بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية أو الحيوية المتجددة . ذلك لأن الرؤية التي يقدمها الوحي؛ كتابا وسنة، للإنسان، عندما تُستوعَب على حقيقتها؛ فهماً وتمثُّلاً والتزاما بها في حركة البناء والمدافعة الفكرية والاجتماعية، تجعل العمل متناغماً مع سنن الله في **الخلق والتسخير والاستخلاف والوقاية**، ومتسقاً مع منطق حركة التاريخ، الأمر الذي يعطيه نوعاً من العصمة على مستوى الأصالة، ونوعا من الإعجاز على مستوى الإنجاز والاطراد*، يفقد معه الجهدُ المضاد له حيويته وقدرته، مهما توفر له من شروط القوة التنفيذية البشرية والمادية، كما سنرى في نتائج المواجهة بين الحركة الرسالية النبوية الفتية، وقوى المجتمع التقليدي بكل ثقله التاريخي والبشري والمادي الضخم([2])، الذي لم يستطع الصمود أمام عملية التغيير، وخضع في النهاية لمنطق الدفع الاجتماعي الأكثر أصالة وفعالية وطردابة، وقدرة على التجدُّد والاستيعاب([3]) .

فأصالة وفعالية وتكاملية واطرادية الجهد البشري، تتناسب باستمرار ــ سلباً وإيجاباً ــ مع طبيعة وخصوصيات الإطار المرجعي الموجه والمؤطر لهذا الجهد، ومدى قدرة هذا الإطار المرجعي على تجديد شحذ فعالية الدفع الاجتماعي للفرد والمجتمع، كما أشار إلى ذلك القرآن في القانون القاعدي للتغيير الاجتماعي والحضاري([4]) في قوله تعالى: (**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**)([5]) . وأهم ما يؤثّر في النفس وينعكس تأثيره بقوة على السلوك والأداء الاجتماعي، هو المحتوى العقدي والفكري والمنهجي الذي يحمله الفرد، ويختزنه المحيط الثقافي والتربوي الذي ينشأ فيه([6])، ويتحرك ضمن معطياته ومؤثراته الاجتماعية المختلفة([7]) .

أهمية الوعي بخصائص الإطار المرجعي الموجه للعمل: ومن هذا المنطلق حرصت هذه الدراسة على محاولة استخلاص كليات الإطار المرجعي الموجه للدعوة الإسلامية في مرحلة تأسيس المجتمع والدولة، لإدراكنا بأنه:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

([1]) الألباني في السلسلة الصحيحة برقم/ 882

* نقصد هنا الجهد البشري المسدد بالوحي، لأن الجهد النبوي تام العصمة في كل الأحوال كما هو مبين في كتب العقيدة والأصول، إذ أن الأنبياء لا يُقرُّون على خطأ أو حتى تصرف مفضول أحيانا، بخلاف الجهد البشري العادي فإن التسديد يأتيه من شمولية الاستثمار لمعطيات منظومات سنن الوجود والتسخير والاستخلاف ولوقاية، وتوسيع مجالات المشاورة والأخذ بالخبرات البشرية المتاحة .

([2]) محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997 ، ج5/84 .

([3])الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 38/16 (دون).

([4]) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط2، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة 1989 ، ج5/2746

([5]) سورة الرعد:11

([6]) يحيى بن شرف النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1392 ج16/207

([7]) نجاتي محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، ط4، دار الشروق، بيروت 1987 ، ص/260

ــ يؤدي بشكل مستمر دور المؤطّر الحيوي لحركة الدعوة، والموجه لسياساتها، والضابط لأولوياتها، والمحدد لمناهج عملها، والمحافظ على أصالتها، والضامن لحيويتها، والحامي لها من الاضطراب والاستغلال والانحراف([1]) . فبقدر ما تتسم المرجعية العقدية والفكرية والمنهجية للدعوة، بالأصالة والقوة الذاتية([2])، بقدر ما تستعصي على التحريف من ناحية، وبقدر ما تمنح الفاعلية الإنجازية للحركة الاجتماعية المنبثقة عنها من ناحية أخرى .

ــ كما يؤدي دورا هاما في فهم التجربة، وإدراك طبيعتها وخصائصها وأهميتها، وأبعاد التميز والفرادة والقوة فيها([3])، بالنسبة لمعاصريها أو لمن يأتي بعدهم من الأجيال عبر التاريخ. فبقدر ما يتسم الإطار المرجعي للدعوة بالوضوح والصدق والثبات والأصالة الذاتية بصفة عامة، بقدر ما يحتفظ بقدرته على تحقيق الاستقطاب والتأثير الخارجي القوي على الآخرين([4]).

ــ ويساعد أيضا على إمكانية مراجعة التجربة وتقييم مسيرتها، وإدراك مدى نجاحها، وعمق أصالتها، وقدرتها على إنجاز أهدافها، والمحافظة على منجزاتها، وضمان استمرارية مسيرتها . فالإطار المرجعي لأية حركة تغيير وإصلاح وتجديد، يشكل المعيار الأول لتقييم وتسديد مسيرتها، ولا يمكن أن يتحقق تقييم موضوعي لأية حركة بمعزل عن الاستيعاب الموضوعي الشامل والمتكامل لإطارها المرجعي الأصلي الموجه لها. وكما قال المنطقيون بحق فإن: " الحكم على الشيء فرع عن تصوره " .

ــ كما يساعد كذلك على عمق استيحاء التجربة، وحسن استثمار ثوابتها على مستوى المضمون والمنهج معا، في كل وقت . باعتبار الإطار المرجعي يحوي ثوابت الإسلام ومحكماته في تفسير حركة الوجود، وتحليل الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ البشري، وتأطير الفعل العمراني أو الحضاري المنتظِم لها .

ولكي نحقق شمولية وتكاملية وعمق النظرة إلى الإطار المرجعي الموجه، الذي حكم الأداء الفكري والتربوي والاجتماعي والسياسي للحركة النبوية، وأطّر مسيرتها الحضارية؛ في آفاقها **العبادية والأخلاقية والعالمية والإنسانية والكونية** الكبرى . خصصنا هذا الباب الأول من الرسالة للحديث عن هذا الإطار المرجعي الموجه للدعوة، من خلال محاولة تحديد: " **معالم الآفاق الحضارية الكبرى للدعوة الإسلامية** " التي تشكل مقاصدها وثوابتها الكلية في الخلق والتسخير والاستخلاف والوقاية، على كل المستويات، وفي كل الاتجاهات والأبعاد، التي تهم الوجود الإنساني وحركة الاستخلاف البشري في الأرض([5]). سواء تعلق الأمر برؤيتها:

ــ لله والكون والحياة والإنسان .

ــ أو للغيب والشهادة، والأسباب والمؤيدات .

ــ أو للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والهدى والضلال .

ــ أو للغايات والمفاهيم والوسائل والممارسات .

([1]) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ط2، دار الفكر، دمشق 1988 ، ص/14

([2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 75/1

([3]) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ط4، دار الشروق، القاهرة 1993 ، ص/41

([4]) سيد قطب، في ظلال القرآن 962/2

([5]) أبو القاسم محمد حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، دار المسيرة، بيروت . محمد عمارة ، معالم المنهج الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن .

ــ أو للتاريخ والواقع والمستقبل والزمن عامة .
ــ أو للفرد والأسرة، والمرأة والرجل، والمجتمع والأمة والعالم .
ــ أو للحقوق والواجبات، والجائزات والممنوعات .
ــ أو للتآلف والاختلاف، والتعايش والصراع، والتكامل والتنافر .
ــ أو للضعف والقوة، والتقدم والتخلف، والاستقلالية والتبعية...

إلى غير ذلك من القضايا والمشكلات العقدية والفكرية والمنهجية والتسخيرية أو الوظيفية الكبرى، التي تواجه حركة الاستخلاف البشري في الأرض باستمرار، وتؤثر على أصالتها وفعاليتها واطراديتها ومصداقيتها الاجتماعية والحضارية على الدوام .

ويمكن التنويه هنا ــ بين يدي هذه **الآفاق الحضارية الكبرى للدعوة الإسلامية** ــ إلى تنوع وتعدد تناولات ومعالجات هذا الموضوع. حيث نجد من العلماء والمفكرين من حاول استيعابه من خلال فكرة ومصطلح مقاصد الشريعة وكلياتها العامة،[1] . ومنهم من تناولها من خلال تقسيمها إلى عقيدة وشريعة وأخلاق([2])، أو عقيدة وعبادة وحياة[3] . ومنهم من طرحها على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، والعالم[4] . ورأى آخرون أن يعرضوها عبر تحديد خصائص التصور الإسلامي ومقوماته[5] . وركز البعض على مفاهيم ومصطلحات أساسية مثل الرب والإله، والدين والعبادة[6] ، رأوا فيها مداخل مفتاحية لفهم وظيفة الدين في الحياة.. إلى غير ذلك من المداخل الفكرية والمنهجية التي اعتمدها الباحثون في بناء الهيكل المعرفي العام لآفاق الدعوة الإسلامية وثوابتها الكلية في الحياة .

وقد رأينا، استناداً على ما تيسرت لنا دراسته من هذه الأطروحات الفكرية والمنهجية السابقة في الموضوع، أن نستوعب الحديث عن " **الآفاق الحضارية الكبرى للدعوة الإسلامية** " عبر منظور معرفي ومنهجي، لا نقول بأنه جديد أو مغاير، ولكن نزعم بأنه يتوخى النظرة الكلية المتكاملة لحقيقة المقاصد الأساسية الكبرى التي جاءت رسالات الله لتؤسس وتنضج الوعي بها على مكث، حتى استوى هذا الوعي واكتمل في الإسلام أعظم ما يكون الاستواء والاكتمال، وتجسَّد على الصعيد العملي أو الميداني؛ بعمق وشمول وتوازن، في الحركة الحضارية الكبرى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ما يكون التجسُّد ، ليكون دليلاً هاديا للبشر في حركة الاستخلاف، وحجة بالغة على كل جهد كسول أو كفور أو جهول أو عجول.. إلى قيام الساعة. كما قال تعالى: (**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**)[7] . وقال سبحانه: (**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**)[8].

([1]) كما فعل أبو إسحاق الشاطبي في: الموافقات ، والعز بن عبد السلام في: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، وابن القيم: في إعلام الموقعين، ومفتاح دار السعادة، والطاهر بن عاشور في مقاصد الشريعة الإسلامية، وعلال الفاسي في مقاصد الشريعة ومكارمها .. وغيرهم.

([2]) كما فعل محمود شلتوت، في: الإسلام عقيدة وشريعة .

([3]) كما فعل محمد المبارك في: نظام الإسلام: العقيدة والعبادة .

([4]) كما هو سائد في المشروع الفكري والثقافي لحركة الإخوان المسلمين بصفة عامة .

(5) كما فعل سيد قطب في كتابيه: خصائص التصور الإسلامي، ومقومات التصور الإسلامي، والقرضاوي في الخصائص العامة للإسلام...

(6) كما فعل المودودي في كتاب المصطلحات الأربعة .

(7) سورة الحشر:7

(8) سورة النور:61

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وينبني هذا المنظور المنهجي والمعرفي المقترح، على محاولة ملاحظة الترابط والتلاحم والشمول والتكامل في مفردات* وأنظمة الكتاب والسنة، بصورة تجعل أي إغفال لمراعاة الاستيفاء الأمثل لنِسَبِ هذه المفردات في ذاتها وفي العلاقات الوظيفية أو التسخيرية فيما بينها، ينعكس سلبا على فهم الأصالة الذاتية للإسلام، وعلى إدراك شروط فعاليته واطراد حيويته الوظيفية بعد ذلك. لأن الإسلام بشموليته وتكامليته وتوازنيته، جاء مركّبا بصورة تغطي وتلبي الترابط والتلاحم والشمول والتكامل الموجود في الحياة البشرية ذاتها؛ المادية منها والروحية والعقلية، والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية أو الدفاعية([1]).

فكما أن كل عضو في الكيان الإنساني الكلي، له طبيعته ووظيفته الذاتية الخاصة به، التي يحافظ بها على ذاتيته، ويؤدي من خلالها دوره الوظيفي في الكيان الكلي للإنسان، ولا يمكن لأي عضو أن يحل محله أو ينوب عنه بنفس الفعالية والكفاءة والانسجام بشكل دائم([2]). فكذلك المفردات والأنظمة الكلية للشريعة؛ في ذاتها وفي وظائفها العقدية والفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية المقدرة لها، فإن أي استغناء عن أية مفردة منها أو تعطيل لها، يؤدي إلى مساس مباشر بكيان الشريعة وذاتيتها من ناحية، وإلى إضعاف لفعالية أدائها من ناحية أخرى، ثم إلى سوء الفهم والاستثمار لها بعد ذلك من ناحية ثالثة، الذي قد ينتهي إلى اضطراب العلاقة الفكرية والنفسية والوظيفية بها، كما نرى ذلك على سبيل المثال في الموقف العلماني من الدين عامة . وهو ما حذر القرآن من عواقبه الاجتماعية والأخروية الخطيرة([3])، كما حذر من ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: (**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)(البقرة : 85) .

فتبعيض الفهم للدين، ولوظيفته في الحياة، وإشاعة ذلك في أنظمة المجتمع المختلفة، يشكل عامل اضطراب واهتلاك ذاتي خطير في المجتمع، بالإضافة إلى أنه يحرم المجتمع من قدرة ذاتية بالغة الأهمية، ناهيك عن التشويه بل والتحريف الخطير الذي قد يلحقه بالدين ذاته([4]). كما حذر من ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: (**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**)(المائدة : 49).

ويتأكد إعمال هذا المنظور المنهجي والمعرفي؛ الشمولي التكاملي، في عرض آفاق الدعوة الإسلامية، بالنظر إلى آثار بعض الاتجاهات المدرسية أو المذهبية أو الأيديولوجية.. على تجزئة صورة الإسلام، واتجاه كل جزء منها إلى تعميق استقلاليته عن بقية الأجزاء الأخرى([5]) . وهو ما كانت له انعكاسات سلبية على مفهوم العبادة وعلى واقع الحياة، كما يُلحظ ذلك في الصراع القائم بين الفكري

---

* أقصد بالمفردات هنا القيم والأحكام والتصورات التي جاء بها الإسلام لتنظيم وإدارة الحركة الاستخلافية البشرية في الأرض.

([1]) الألوسي، روح المعاني 186/7
([2]) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى 48/5
([3]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 175/1
([4]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت 1408 . ج 273/6
([5]) محمد المبارك، المجتمع الإسلامي المعاصر .

والسياسي، والفردي والاجتماعي، والدنيوي والأخروي، والروحي والمادي، والعقلي والنقلي[1] .. في حياتنا منذ زمن ليس باليسير ([2]) .

ومن أجل تلافي هذه التجزيئية وهذه التنافرية، وتأكيد الترابط والشمولية والتكاملية والتوازن في النظرة إلى حقيقة الإسلام، وإلى مقاصده في الخلق، وإلى منهجيته الوظيفية أو التسخيرية في الدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة الاجتماعية، رأينا أن نستوعب " **الآفاق الرسالية الكبرى للدعوة الإسلامية** " من خلال أربعة مداخل أساسية كبرى، نخص كل مدخل منها بفصل مستقل . نتناول في الفصل الأول منها: " **مقدمات تأسيسية في أهمية الوعي بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان** " ؛ منشأ، وطبيعة ، ووظيفة، ومسخَّرات أو إمكانات، ومصيراً . على أساس أن هذا الوعي يمثل أم الإشكاليات الوجودية الكبرى على الإطلاق([3])، التي ما انفكت تستأثر باهتمامات وهموم الإنسان عبر التاريخ، وتؤثر بعمق على أدائه الفكري والسلوكي والاجتماعي بشكل مطرد.

ونتناول في الفصل الثاني منها: " **معالم الرؤية الإسلامية للوعي بالدورة الوجودية للإنسان** " ، التي احتلت مكانة محورية في اهتمامات الإسلام الكلية، واعتبرها أُسَّ الوعي الوجودي كله، ومنطلق الخلافة البشرية في الأرض، وشرطها الأساس للتحقق على كمالها الذي أراده الله تعالى منها([4]). وسيركز هذا الفصل على تبيان ثوابت المنظومة العقدية الإسلامية، وما في كل ثولبت من ثوابتها من أبعاد ودلالات عقدية وفكرية وتربوية واجتماعية.

ونتناول في الفصل الثالث منها: " **بناء الوعي الإنساني بالمنظومات الكلية لسنن التسخير** " التي وضعها الله تعالى بين يدي الإنسان لإنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض، بكل ما في هذه المنظومات من شمولية وتكاملية وترابط بين مفرداتها، باعتبار الوعي بهذه المنظومات التسخيرية يشكل المعضلة الجوهرية الثانية التي تواجه حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وتحكم عليها بالفعالية أو السلبية . فوعي الإنسان بطبيعة وحجم المسخرات التي وضعت تحت تصرفه ابتداء، وموقفه الوظيفي منها بعد ذلك، هو الذي سيحدد نوعية فعاليته السلوكية والاجتماعية والحضارية، وهل هي فعالية تتحرك على خط البنائية التكاملية المطردة، أم على خط التنافرية الهدمية المنهكة ؟

ونتناول في الفصل الرابع منها: " **بناء الوعي الإنساني بالمنظومات الكلية لسنن الاستخلاف** " التي يحقق الإنسان عبرها مهمته الوجودية في الحياة، ويستثمر فيها ميزانيته التسخيرية، ويحقق من خلالها قسطاً من الاستمتاع المتكامل الذي قدِّر له في عالم الشهادة، كمقدمة شرطية ضرورية بين يدي مراحل الاستمتاع التالية، في عوالم البرزخية والقيامة والخلود، التي يتعين عليه المرور بها في طريقه إلى الجنة أو النار .

هذه هي المحاور الكبرى التي يرتكز عليها هذا الباب والتي سيتضح لنا من خلالها مدى شمول وترابط وتكاملية وعمق وحيوية وفرادة البنية أو النسقية العقدية والمعرفية والمنهجية للإطار المرجعي للدعوة الإسلامية، وتخلف الوعي البشري عنه بمراحل، ومدى حاجته الحيوية والحتمية إليه، إذا أريد للإنسان أن يستثمر ميزانيته التسخيرية الكونية في تحقيق خلافته في الأرض، بفعالية وشمول وتوازن، وتأمين مصيره في بقية مراحل الدورة الوجودية التالية لعالم الشهادة .

---

(1) محمد عبده، رسالة التوحيد/148، 149 .
(2) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة 1987 ، ص/16
(3) محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ط10، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت 1980 ، ص/ 332
(4) حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية / 30 مرجع سابق .

ونؤمل من خلال محاولة استيعابنا لهذه المحاور الثلاثة الكبرى في مشروع الدعوة الإسلامية، أن نصل إلى استخلاص المعالم الكلية لرؤية أو نظرية الإسلام الكلية في فلسفة الاستخلاف البشري، معززة بتجربة تطبيقية نموذجية شاملة، تتجلى في الحركة الحضارية النبوية الكبرى، التي أنجز النبي عليه الصلاة والسلام عبرها عملية بناء نواة المجتمع الإسلامي الجديد، ووضَعه على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، الذي تحركت عليه وباتجاهه كل الرسالات السماوية السابقة، واعتبر كل منها نفسه لبنة جديدة في الكيان الكلي لحركة الإسلامية الكونية الكبرى، التي تأسس عليها الوجود الكوني كله، كما جاء ذلك في القرآن في قوله تعالى: (**أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**)([1]).

فالحركة النبوية كانت تتويجا ناجحا لحركة الإسلامية الكونية الكبرى، في آفاقها **العبادية والأخلاقية والعالمية** والإنسانية والكونية، كما جاء بيان ذلك في القرآن في قوله تعالى: (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**)([2]). وقول النبي عليه الصلاة والسلام: (**إن مثلي مثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بيتا ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين**)([3]).

([1]) سورة آل عمران : 83
([2]) سورة المائدة : 3
([3]) البخاري برقم/3535

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول
مقدمات تأسيسية
في أهمّيّة الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان
(بناء منظومة الوعي العقدي)

تمهيد:

في ميزانيّة التّسخير الكونيّة الكبرى: أودّ أن أنطلق في مستهلّ الحديث عن دور الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان في حركة الاستخلاف البشري في الأرض، من الإشارة إلى ما أتيح للإنسان من إمكانات شاملة وهائلة في " **ميزانيّته التّسخيرية الكونيّة** " الكبرى، التّي رصدها الله له من أجل إنجاز مهّمته الاستخلافيّة في الأرض، بأصالة وفعاليّة وتكامليّة واطّراد.

فالله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان، وقرّر جعله خليفة في الأرض، أمدَّه بميزانيّة تسخيريّة كونيّة كبرى، قوامها ما في السّماوات والأرض من مسخَّرات لا حدود لها، تمت تهيئتها وتذليلها للاستثمار الفعّال([1])، عبر سنن وقوانين تسخير ذاتيّة وخارجيّة مطّردة، كامنة في كلّ مفردة من هذه المسخّرات الكونيّة، تمكّن الإنسان من الاستفادة القصوى من هذه المسخّرات في إنجاز مقاصد خلافته في الأرض.

وفي هذا التّسخير والتّذليل والتّمهيد للمكوّنات الكونيّة([2])، جاء في القرآن قوله تعالى: **[أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ]**([3])، وقوله كذلك: **[الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ]**([4]). فالمسخّرات الكونيّة مهيّأة ومذلّلة للاستعمال الإنساني بحكم الإرادة الرّبانية التي اقتضت تسييد الإنسان في الأرض([5]).

فالنّظرة التّأمّلية العامّة في فصول هذه الميزانيّة التّسخيريّة الكونيّة الهائلة، التي سترد تفاصيل إضافية عنها في الفصلين الثاني والثالث، تجعل المرء يذهل مما وُضع بين يدي الإنسان من إمكانات

([1]) الفخر الرازي، **تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير، ومفاتيح الغيب**، (دار الفكر، بيروت، 1981)، ج106/26.

([2]) محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله التركي، (دار الرسالة، دمشق، 2006)، ج78/14.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة يس: 71 ، 72 ، 73.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة الزخرف: 10.

([5]) الراغب الأصفهاني، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، (منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان 1983)، ص51.

تسخيريّة كونيّة لا حدَّ لها. وهو ما أفاض القرآن في التّذكير به، ولفت الانتباه إليه، والدّعوة القويّة إلى حسن استثماره، والتّحذير من تبديده أو تعطيله([1])، لما في ذلك التّبديد أو التّعطيل من إخلال جزئي أو كلّي بأداء واجبات الخلافة البشريّة في الأرض، واستيفاء حقوقها المقررة اتّجاه الخالق وسائر المخلوقات الكونيّة الأخرى، ذات العلاقة بخلافة الإنسان في الأرض. زيادة على ما في ذلك التّبديد والتّعطيل من إخلال خطير بموازين التّدافع والتّداول الحضاري في الأرض، ومن تبعات أخرويّة أخطر بكثير، على أساس أن طبيعة المصير الأخرويّ للإنسان، تتحدّد بناء على طبيعة أصالة وفاعليّة إنجازيّته الاجتماعيّة في المرحلة الدّنيويّة من دورته الوجوديّة الكبرى، كما تؤكّد ذلك آيات كثيرة، كقوله تعالى: [**فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**]([2]). وقوله سبحانه: [**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**]([3]).

وفي التّنبيه إلى ضخامة معطيات هذه "**الميزانيّة التسخيريّة البشريّة الكونيّة**" قال تعالى: [**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**]([4])، وقال كذلك: [**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**]([5])، وقال أيضا: [**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**]([6]).

فكلّ الإمكانات الهائلة في الأرض والسّماوات، وكثير من الكائنات الكونيّة الأخرى المغيّبة عن الإنسان، والقدرات الذاتيّة الهائلة التي أودعها الله في الإنسان ذاته([7])؛ وفي مقدّمتها القدرات العقليّة والعاطفيّة والروحيّة والاجتماعيّة... كلّ هذه الإمكانات والقدرات التّسخيريّة الهائلة([8])، موضوعة تحت تصرّف الإنسان وفي خدمة خلافته في الأرض، التّي عليها مدار حياته ومصيره الوجودي كله.

ميزانيّة التّسخير الكونيّة وتحدّي فعل الزّمن فيها: والمشكلة الكبرى التّي تواجه الإنسان هنا هي مدى قدرته على استثمار هذه " **الميزانيّة التّسخيريّة الكونيّة** " الهائلة، بصفة شاملة وفعّالة وأصيلة، في تلبية حاجات حركة استخلافه في الأرض، ومواجهة تحدّياتها المتلاحقة، وعدم تبديد هذه الميزانيّة الكونيّة الكبرى، أو هدر أجزاء منها بلا طائل([9])، أو تعريض بعضها الآخر للبوار([10]).

([1]) محمد فؤاد عبد الباقي، **معجم ألفاظ القرآن**، (دار المعرفة، بيروت، ط4، 1994)، ص441.

([2]) **القرآن الكريم**، سورة يس: 54.

([3])**القرآن الكريم**، سورة الجاثية: 28.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 32 ، 33 ، 34.

([5])**القرآن الكريم**، سورة لقمان: 20 .

([6])**القرآن الكريم**، سورة الجاثية : 13.

([7]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3380/6.

([8]) عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندون، ط2، 1993)، ص58.

([9]) عبد الرحمن بدوي، **الزمان الوجودي**، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 2، 1955م)، ص253.

([10]) من بارت الأرض إذا أهملت ولم تعمر. ينظر: إبراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 96/1.

خاصّة وأن الطّبيعة الانسيّابيّة الصّامتة للزّمن من جهة([1])، **وسنّة التّدافع والتّجديد** التي تطبع حركة الحياة البشريّة من جهة أخرى([2])، ومؤثّرات الجهل والغفلة والتّسويف والتّرف من جهة ثالثة([3])، والدّور السّلبي التّعويقي الخطير للشّيطان من جهة رابعة([4])، وسطوة الغرائز المسيطرة على الإنسان من جهة خامسة([5])، وسطوة الذنوب على النّفس([6])... تعمل كلّها على تفويت الفرص على الإنسان، وتحرمه من استغلال هذه الميزانيّة التّسخيريّة الكونيّة الهائلة، التي تتناقصُ فعاليّتها مع مرور الوقت، بسبب فعل الزّمن في الإنسان وفي هذه الإمكانات معا، كما جاء في الحديث: (اغتنم خمسا قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمِك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)([7])، وفي الحديث الآخر:(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ)([8]).

وبسبب التّأثير الحاسم للزّمن في " **الميزانيّة التّسخيريّة الكونيّة** " للإنسان، ومن ثم في وضعه الاجتماعي ومركزه الحضاري، ومصيره الأخروي([9])، فقد اعتبره القرآن من المشكلات الوجوديّة الكبرى، التي تؤثّر بعمق على حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وعلى بقية مراحل " **الدّورة الوجوديّة** " الكبرى للإنسان، التّي تعقب مرحلة عالم الشّهادة من هذه الدّورة بعد ذلك([10]). وهذا ما نلمسه على سبيل المثال بوضوح في"سورة العصر" التّي لخّصت الفلسفة الكلّية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، والسنن الكلّية الكبرى التّي تتحكم في صيروراتها التّاريخية؛ سواء في اتّجاهاتها البنائيّة التّكامليّة الصّاعدة، أو في اتّجاهاتها التّنافريّة الهدميّة المتقهقرة. وقد بدأها الله سبحانه وتعالى بالقسم بالزّمن إشعارا بأهمّيّته الكبرى والحاسمة[**وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**].

فالقسم بالزّمن هنا، ينبّه إلى أنّ نوعيّة ومستوى الخلافة البشريّة في الأرض، مرتبطان، سلبا وإيجابا، بمدى قدرة الإنسان على الاستفادة القصوى من المعطيات التّسخيريّة التّي وضعت بين يديه،

---

(1) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص147.

(2) الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، (دار قرطبة للنشر، الجزائر، 2004)، ص74.

(3) محمد عبد الجبار، **المجتمع: بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني**، (دار الأضواء، بيروت، ط2، 1987)، ص134.

(4) ابن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق: محمد حامد الفقي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1999)،ج102/1؛ وانظر كذلك: **تلبيس إبليس**، لابن الجوزي.

(5) محمد قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**، (دار الشروق، بيروت، ط2، 1983) ص271.

(6)ابن القيم، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، تحقيق: عبد الله بن عالية،(دار الكتاب العربي، بيروت؛ ط6،1999)، ص80.

(7) الحاكم، أبو عبد الله محمد، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1990)، ج306/4 ؛ كما أورده الألباني في **صحيح الترهيب والترغيب**، برقم 3355.

(8) أخرجه البخاري في **الصحيح**، باب ماجاء في الصحة والفراغ، تحت رقم 6412 (طبعة المكتبة السلفية، مصر، 1400هـ).

(9) إريك فروم، **الإنسان بين المظهر والجوهر**، ترجمة: سعد زهران، (سلسلة عالم المعرفة،كتاب140، الكويت، 1989)، ص121.

(10) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ)،ج82/22.

قبل أن يفعل الزّمن فعله الحاسم فيها([1])، وينقص من فعّالية استثماره لها، أو يحرمه منها تماما؛ سواء بالعجز الذّاتي المتنوع الأوجه، أو بالحرمان الخارجي المتنوّع الأوجه كذلك، الذي تمثله أنواع الحجر والمنع المختلفة، سواء جاءت من الطّبيعة الكونيّة([2])، أو كان مصدرها الاستضعاف والاستتباع الّذي يرافق السّلوك الاستبدادي والاستعماري عادة([3]).

إنّ سنّة التّدافع والتّجديد التي تحكم حركة الاستخلاف البشري في الأرض، بما تعنيه من احتدام واطّراد المدافعة الاجتماعيّة والحضاريّة، بين الرّغبات والطّموحات والإرادات والنّماذج الثّقافية والاجتماعيّة والحضاريّة المعبّرة عن ذلك([4])، تفرض على الفرد والمجتمع، في كلّ دقيقة وساعة ويوم وشهر وسنة ومرحلة وعصر... تحدّيات واحتيّاجات وواجبات واستحقاقات، تستدعي المواجهة والتّلبية، فإذا لم تواجَه وتلبَّ في حينها؛ بالأصالة والفعّاليّة والاطّراديّة المطلوبة، أحدثت اختلالا في مسار حركة التّدافع والتّداول الفكري والاجتماعي والحضاري في المجتمع والأمّة ابتداء، ثمّ بين المجتمع والأمّة وبقيّة المجتمعات والأمم الأخرى، المنافسة من أجل البقاء أو المواكبة أو الرّيادة الحضاريّة ثانيّا([5])، وأدّى ذلك بالضّرورة إلى مراكمة نواقص وسلبيات إضافيّة كثيرة، تعمل على إضعاف الأداء الفكري والسّلوكي والاجتماعي للأفراد والمجتمع، والحدّ من أصالة وفاعليّة واطراديّة حركة المدافعة والمداولة الاجتماعيّة والحضاريّة للمجتمع والأمّة بعد ذلك.

وفي آية أخرى ذات دلالات وظيفيّة كبيرة في هذا السّياق، جاء التّنبيه إلى ضرورة الاستثمار الأمثل للوقت، في تلبيّة حاجات حركة الاستخلاف ومدافعة تحدّياتها المتلاحقة، فقال تعالى:**[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا]**([6]). فتعاقب اللّيل والنّهار بشكل دوري منتظم، لا يمكن لأية قوّة في الكون أن توقفه أو تقدّمه أو تؤخّره لحظة، يجب أن يوحي للإنسان بأنّ الزّمن يفعل في حياته بشكل حاسم ومطّرد، وأنّ أيّة غفلة منه عن هذه الحقيقة الكونيّة الكبرى، تتسبّب في إضاعة جزء ثمين من هذه الحياة، لا يمكن تعويضه بأي حال من الأحوال([7])؛ بالنّظر إلى أنّ لكلّ مرحلة أو لحظة زمنيّة قائمة أو قادمة، حاجاتها وتحدّياتها وواجباتها التي يجب أن تلبىَّ وتوّاجَهَ بدورها، بكامل الفعاليّة والكفاءة الّتي يفرضها سقف التّدافع الاجتماعي والحضاري الرّاهن في المجتمع والعالم.

وهذا المعنى أدركه أبو بكر الصّديق رضيّ الله عنه بعمق، وضمَّنه جزءا من وصيّته لعمر بن الخطّاب رضيّ الله عنه، وهو يسلّمه زمام الخلافة بعده. فقال له:" ... إنّ لله عملا باللّيل لا يقبله بالنّهار، وعملا بالنّهار لا يقبله باللّيل"([8]). وهو معنى عميق جدّا في موازين فقه الاستخلاف والتّسخير

([1]) البيضاوي، **تفسير البيضاوي**، (دار الفكر، بيروت، د.ت)، ج526/5.

([2]) هنريك سفانسين، **النهاية قريبة. دراسة عن الكوارث الطبيعية والمجتمع**، (نيوكرد، أوسلو، 2006)، ص7.

([3]) غريغوار منصور مرشو، **مقدمات الاستتباع**، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، 1996)، ص110.

([4]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 270/1.

([5]) الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**، ص 32.

([6])**القرآن الكريم**، سورة الفرقان: 62.

([7]) ابن باديس، **مجالس التذكير**، إعداد: توفيق محمد شاهين، ومحمد صالح رمضان، (دار الفكر، بيروت، ط3، 1399هـ-1979م)، ص190.

([8]) محمد إلياس الكندهلوي، **حياة الصحابة**،(دار ابن حزم، بيروت، 2000)، ج2، ص 247.

والوقاية، يبرز مدى إحساسه كإنسان أوّلا، وكرجل دولة ثانيّا، بالتّأثير الحاسم للزّمن في حركة الحياة، وفي تقريره لمصائر الأفراد والمجتمعات. ويوصي خليفته في إدارة شئون المجتمع والدّولة من بعده، بأن يولي الوقت عناية خاصّة، وأن يحرص على المبادرة إلى أداء الواجبات واستيفاء الحقوق في أوقاتها. وأن يحذر كثيرا من الغفلة والتّقصير والتّسويف والاسترخاء، فإنّها من مقاتل الأفراد، ومهالك الدّول والمجتمعات والحضارات.

وفي مقولة أخرى للحسن البصري رضيّ الله عنه، يبلّغ هذا الوعي بالزّمن، والإحساس بتأثيره الحاسم في الحياة و مداه، فيعرضه لنا في صورة عميقة طريفة مؤثّرة، تقدم لنا الزّمن في لحظاته وساعاته وأيّامه.. وهو يصيح في النّاس ويمحّض النّصح لهم، فيقول: " ما من يوم ينشقّ فجره إلّا ومناد ينادي يا ابن آدم: أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، فتزوّد منّي فإنّي لا أعود إلى يوم القيّامة "(1). ويضيف في مقولة أخرى محذّرا من إهدار الوقت: " يا بن آدم، إنّما أنت أيّام مجموعة، كلّما ذهب يوم ذهب بعضك"(2). وهيّ المعاني العميقة التّي جعلت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قبل ذلك، يستشعر فعل الزّمن في حياته، ويعبّر عن ذلك في مقولة تربوية عميقة، فيقول: "ما ندمت على شيء ندمي على يومٍ غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي"(3). ونفس النّظرة العميقة للزّمن عبّرت عنها مقولة أخرى لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيث قالت:"إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علما يقرّبني إلى الله فلا **بورك** لي في طلوع شمس ذلك اليوم"(4).

فالزّمن ينبغي أن يتحوّل على مدار الثّواني والدّقائق والسّاعات، إلى حركة دائبة من النّشاط الفكريّ والروحيّ والسلوكيّ والاجتماعيّ الفعّال، وإلى كتل من المنجزات الثّقافيّة والاجتماعيّة والحضاريّة المجسّدة(5)، التّي تلبّي الحاجات الضّرورية والتّحسينيّة المتطوّرة للأفراد والمجتمع، وتوفّر لهما شروط الموّاكبة أو المنافسة أو الرّيادة الحضاريّة، التّي يفرضها عليهم منطق التّدافع الاجتماعيّ والحضاريّ الرّاهن، في بيئتهم وزمانهم وعصرهم.

ومن هذا المنطلق فإنّ الإنسان في حاجة إلى يقظة فكريّة ونفسيّة واجتماعيّة دائمة، تقيه من التّقصير في آداء واجبات الوقت واستيفاء حقوقه(6)، وتوفير الطّاقة اللازمة للواجبات والحقوق التّالية، حتى يتمّ أداؤها بأصالة وفعّالية في حينها(7). وهكذا دواليك تطّرد حركة الحياة، ولا يجد الإنسان نفسه في حاجة إلى الإنفاق من ميزانيّة حقوق وواجبات أخرى تاليّة، لموّاجهة تبعات التّقصير في أداء حقوق وواجبات أخرى سابقة(8). وهوّ المعنى الذي نجد القرآن يلفت إليه انتباه الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، ويشدّ إليه اهتمامه، في " سورة الشّرح " ، التّي قدّمت لنا نموذجا عمليّا حيّا عن فعل سنّة " **التّدافع والتّجديد** " في حياة الأفراد والمجتمعات، ووضعت أيدينا على المفتاح الأساس المؤثّر في هذه السّنة المحوريّة في حركة الاستخلاف البشري، وهو **فاعليّة استثمار الوقت**، في أداء الواجبات واستيفاء

---

(1) محمد الغزالي، **خلق المسلم**، (دار الشروق، بيروت، 2001)، ص 188.

(2) أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1405هـ)، 148/2.

(3) أبو محمد عبد العزيز السمان، **مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار**، (دار العبيكان، السعودية، د.ت)، 29/3.

(4) أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء**، 203/8.

(5) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص 146.

(6) ابن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999)، ج83/1.

(7) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق: ياسين السواس، (دار ابن كثير، دمشق، سورية، ط3،2002)، ص161.

(8) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 416/30.

الحقوق([1])، كما يظهر لنا ذلك من قوله تعالى في آخر السّورة: **[فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ]** ([2]).

فالإنسان إذا فرغ من أداء واجب، أو استيفاء حق له أو للمجتمع، أو للأمّة أو للإنسان عامّة، عليه أن يركّز جهده وطاقته وفاعليّته الذّاتية والاجتماعيّة، في آداء غيره من الواجبات والأولويّات الخاصّة والعامّة، بفاعليّة وحيويّة أكبر([3]). ولا ينبغي أن يسترخي أبدا أو يغفل لحظة عن ذلك، حتّى يتمكّن من موّاجهة فعل الزّمن وتأثيره الحاسم في إمكاناته التّسخيرية، وفي صيرورات حركة التّدافع والتّداول الاجتماعي والحضاري التّي يعيش في إطارها، ويتحدد وضعه فيها، وموقعه منها، وتأثيره فيها، بناء على مدى أصالة وفاعليّة وتكامليّة واطّراديّة الجهد الذي يبذله، والنّشاط الذي يقدّمه، والمنجزات الفكريّة والرّوحيّة والاجتماعيّة والحضاريّة التّي يراكمها، ويضيفها إلى الميزانيّة التّسخيريّة الكليّة للمجتمع والأمّة والإنسانيّة.

إشكاليّة الاستثمار الأمثل لميزانيّة التّسخير الكونيّة: والأسئلة المحوريّة التّي توّاجه الإنسان، بعد هذا الاستيعاب لحقيقة تحدّي فعل أو تأثير الزّمن في فاعليّة حركته الاستخلافيّة في الأرض، هي:

- ما الّذي يعين الإنسان على الاستثمار الأمثل لإمكان الزّمن في ميزانيّته التّسخيريّة الكونيّة الكبرى؟
- ما الّذي يمكّنه من موّاجهة تحدّي هدر الإمكان الزّمني في ميزانيّته التّسخيريّة الكونيّة الكبرى، وتلافي مضاعفاته الخطيرة على بقيّة مكوّنات هذه الميزانيّة، ومن ثمّ على مستقبل خلافته الدّنيويّة، وعلى مصيره الأخروي؟ على اعتبار أن فاعليّة العمل وأصالته وتكامليّته واطّراديّته، هي المحدّد الرّئيس لموقع الإنسان والمجتمع في حركة الاستخلاف أولا([4])، ثمّ لوضعهما في المراحل الأخرويّة من دورة وجودهما الكبرى، كما يشير إلى ذلك الحديث النّبوي:(... يا عبادي ! إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه)([5]).
- ثمّ ما الّذي يساعده على جعل هذا الاستثمار لإمكان الزّمن في الميزانيّة التّسخيريّة الكونيّة للإنسان، يرفع من مستوى فعاليّة وكفاءة وجماليّة وخيريّة الموقف السّلوكي للإنسان في الحياة ؟ على اعتبار أن التّفاوت في الخيريّة، ومن ثمّ التّفاوت في المقامات الدّنيويّة والأخرويّة المترتّبة عليها، يرتبط أساسا بحجم المنجزات النوعية التّي يقدّمها الإنسان لنفسه ولمجتمعه وللبشريّة عامّة، كما جاء ذلك في القرآن: **[الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ]**([6])، وجاء أيضا قوله تعالى: **[وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]** ([7]).

([1]) أبو الفرج بن الجوزي، **صيد الخاطر**، (دار الإشراق، الدوحة- قطر، ط2، 1998)، ص239.

([2])**القرآن الكريم**، سورة الشرح: 7، 8.

([3])سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، (دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1989)، ج11/ 6582.

([4])أبو الحسن علي الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، ص212.

([5]) أخرجه مسلم في **الصحيح**، بالب تحريم الظلم، تحت رقم 2577.

([6])**القرآن الكريم**، سورة الملك: 2.

([7])**القرآن الكريم**، سورة الزخرف: 72.

• ثمّ ما الّذي يحدّد طبيعة كفاءة وفعّاليّة وجماليّة هذه الفعّاليّة السّلوكيّة، ويدفع بها في اتّجاه الإيجابيّة والبنائيّة والتّكامليّة، أو باتّجاه السّلبيّة والتّنافريّة والهدميّة؟ أو ما الّذي يمنح هذه الفعّاليّة السّلوكيّة أصالتها الذّاتيّة والاجتماعيّة والحضاريّة المطلوبة، الّتي تتحرّك بها على خطّ العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة، وتنأى بها عن الحركة على خطّ الشّركيّة والضّلاليّة والعدوانيّة والنّفعيّة الدّنيويّة المضطربة بل والمتوحّشة أحيانا؟

• وقبل ذلك ما الذي يحدّد ويوجّه سلوك الإنسان في الحياة ابتداء؟ حتى يتمكّن من الاستثمار الشّمولي التّكاملي الأمثل لمزائيّته التّسخيريّة الكونيّة الكبرى، في تحقيق خلافته في الأرض، والاستمتاع بها أحسن استمتاع، وتهيئة شروط الاستمتاع الأمثل ببقيّة مراحل دورته الوجوديّة، بعد مغادرته للمرحلة الدّنيويّة من هذه الدّورة الوجوديّة الكبرى([1])؟

الأهمّية المحوريّة للوعي بالدّورة الوجوديّة للكون والإنسان: والإطار العام المحدّد للإجابة الموضوعيّة الملائمة على ذلك في نظرنا، تتوزّعه أربعة أبعاد أو مجالات أساسيّة كبرى، تغطّي وتستوعب الوعي بمراحل " الدّورة الوجوديّة " الكليّة الكبرى للإنسان والحياة عامّة، وهيّ:

- مرحلة ومجال وعي الإنسان بالماضي أو بالبداية الكونيّة عامّة([2])، والمأتى البشري خاصّة، بكل أبعاده ودلالاته([3]) التي سيأتي الحديث عنها لاحقا.
- ومجال وعيه بذاته وحقيقته وطاقاته وموقعه من الكون ودوره فيه([4]).
- ومرحلة ومجال وعيه بالمستقبل أو المصير والمآل البشري في مراحله المتعاقبة([5]).
- ومرحلة ومجال وعيه بالحاضر وبموقعه من الطّبيعة التي يجد نفسه وجهاً لوجه أمامها، ومحاطاً بها باستمرار([6]).

فبقدر ما يكتسب الإنسان من الوعي الشّمولي المتكامل اتّجاه هذه الأبعاد والمساقات التي يقف بينها في عالم الشّهادة، بقدر ما يتوازن ويتكامل موقفه الفكري، ويتكيّف وينسجم موقفه السّلوكي، وتتحدّد طبيعة فعاليّته التّسخيريّة والاستخلافيّة[7]، وتتّجه نحو الأصالة والتّجُدد والإيجابيّة، حتّى تبلغ مستويات رفيعة من النّموذجيّة والجماليّة الرّوحيّة والاجتماعيّة والحضاريّة([8]). وبقدر ما يضعف ويتجزّأ ويتنافر

([1]) الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها**، (دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004)، ص145.

([2]) خضر عبد العليم عبد الرحمن، **الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن**، (الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، 1984)، ص57.

([3]) التفتزاني، أبو الوفاء الغنيمي، **الإنسان والكون في الإسلام**، (دار الثقافة، القاهرة، 1975)، ص43.

([4]) الراغب الأصفهاني، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1319) ص 20 وما بعدها.

([5]) عبد الغي عبود، **اليوم الآخر والحياة المعاصرة**، (دار الفكر العربي، القاهرة، 1978)، ص122؛ سيد قطب، **مشاهد القيامة في القرآن**، ص 43.

([6]) عبد المجيد النجار، **العقل والسلوك في البنية الإسلامية**، (مطبعة الجنوب، مدنين- تونس، 1980)، ص73.

(7) محمد المبارك، **نظام الإسلام العقيدة والعبادة**، (دار الفكر، بيروت، 1388هـ- 1968م)، ص37.

([8]) سيد قطب، **هذا الدين**، **ص**48-63.

وعي الإنسان بهذه الأبعاد والمساقات، بقدر ما يتجزّأ هذا الوعي وينحسر ويضطرب، ويتكيّف موقفه السّلوكي مع ذلك أيضا، وتتضاءل فعّاليّته التّسخيريّة، وتتّجه نحو الاضطراب والإهتلاك والسّلبية، حتى تبلغ مستويات خطيرة من الإهدار والإنحطاط والضّنكيّة([1]).

فالإنسان منذ ميلاده وبداية تبلور وعيه بالحياة، يجد نفسه محاطا بفراغات كونيّة معرفيّة جوهريّة، تطرح عليه أسئلة عقديّة وفلسفيّة واجتماعيّة جذريّة كبرى، في حاجة ملحّة إلى إجابات مقنعة تملأ هذه الفراغات الممتدّة إلى بدايات الماضي الكوني السّحيق، وإلى نهايات المصير الكوني المفتوح على المجاهيل*، وإلى العلاقة بالواقع الكوني الرّاهن، وإلى النّظرة إلى الذّات والموقف منها، وإلى معايير الخير والشّر... وكلّما تمكّن الإنسان من الحصول على الأجوبة المقنعة بالنّسبة له، على هذه الأسئلة الكونيّة الكبرى، كلما ازداد اطمئنانا وثقة واستقرارا وفاعليّة اجتماعيّة وحضاريّة. وكلّما أعوزته الإجابات الشّاملة المقنعة، واضطرب وعيه بها، كلّما ازداد حيرة وقلقا واضطرابا وعدم استقرار، واتّسمت حياته بالعبثيّة، واصطبغت فاعليّته الاجتماعيّة بالتّنافريّة والإهتلاكيّة المنهكة له وللمجتمع.

وهذا الوضع الإنساني المزدوج، الّذي ينجم عن طبيعة الإجابات على هذه الأسئلة الكونيّة الكبرى، لخّصه القرآن في مثال واقعي رائع جاء فيه: **[ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]**([2]). يقول سيّد قطب تعقيبا على هذه الآية:" يضرب الله المثل للعبد الموحّد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزّع؛ ولكلّ منهم فيه توجيه، ولكلّ منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة الّتي تمزّق اتّجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيّد واحد، وهو يعمل ما يطلبه منه، ويكلّفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح... **[هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا]**؟.

إنّهما لا يستويان. فالّذي يخضع لسيّد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين. وتجمّع الطّاقة ووحدة الاتّجاه، ووضوح الطّريق. والّذي يخضع لسادة متشاكسين معذّب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي الجميع"([3]).

وهذا الذّي أسميناه هنا بالوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان، واعتبرناه أم الإشكاليّات الوجوديّة الكبرى وجذرها الأساس، الّذي تتوقف عليه فعّاليّة الإنسان التّسخيريّة والاستخلافيّة، بل ويتوقف عليه مصيره الأخروي برمّته، كما سنرى ذلك لاحقا.

فبقدر ما يتّسم هذا الوعي بالعلميّة والشّموليّة والعمق، والموضوعيّة والتّكامل والتّوازن والسّننيّة*، بقدر ما ينعكس ذلك على الموقف السّلوكي والبعد التّسخيري في حياة الإنسانيّة عامّة، بالفعّاليّة الإيجابيّة المتوازنة . وبقدر ما يعتري هذا الوعي " بالدّورة الوجوديّة للإنسان " من النّقص والجزئيّة والسّطحيّة والخرافيّة والتّنافر، بقدر ما يؤثّر ذلك سلبا على الموقف السّلوكي للإنسان، وعلى

([1]) القرطبي، **الجامع لأحكام التفسير**، 11/ 259.

* في عقيدتنا نحن المسلمون لا يوجد فراغ، فالإسلام بشموليته غطى كل أبعاد ومراحل الدورة الوجودية للإنسان، والمجاهيل تخص العقائد التي لا تملك إجابات شمولية مقنعة لأصحابها.

([2])**القرآن الكريم**، سورة الزمر: 29.

([3]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 5/3049.

* سيرد الحديث عن مفهوم السننية لاحقا، باعتبارها إطارا أو عنوانا عاماً لمنظومات القوانين التكوينية المطردة، التي تحكم النظام الكوني، وتُمكّن كل مفردة فيه من أداء دورها الوظيفي المنوط بها.

مبادراته التّسخيريّة، وعلى موقفه الاستخلافي، ومآلاته المصيريّة([1]).

وفي التّأثير الحاسم لطبيعة الوعي الذي يتكوّن لدى الإنسان عن دورته الوجوديّة، يقول الإمام الغزالي وهو يتّحدث عن دور العلم والفكر في تحديد وتوجيه الموقف السّلوكي للإنسان: "إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب، وإذا تغيّر حال القلب تغيّرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذن هو المبدأ أو المفتاح للخيرات كلها"[(2)]. ونفس المعنى يؤّكد عليه ابن باديس عندما يلاحظ بأن: " سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا، يستقيم باستقامته ويعوجّ باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه؛ لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة ادراكه الحاصل عن تفكيره ونظره "[(3)].

فإذا كان هذا الإدراك والعلم مستوعبين لكل أبعاد " الدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان " ولطبيعة وخصائص ومهمّات كلّ مرحلة فيها؛ بعمق وشمول وتكامل وتوازن وعلميّة مطابقة لحقائق الأشياء وسننها، جاء الموقف السّلوكي والآداء التّسخيري أصيلا فعّالا متوازنا، مخصبًا لحركة الاستخلاف ومطوّرا لها، ومرقّيا لكلّ جوانبها؛ المعرفيّة والرّوحيّة والسّلوكيّة والعمرانيّة، باتّجاه العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة. وإذا كانا منقوصين لا يستوعبان إلاّ جوانب وأجزاء من أبعاد وخصائص ومراحل هذه الدّورة ومكوّناتها، جاء الموقف السّلوكي باهتا مهتزّا، مربكا لحركة الاستخلاف ومعطلا لها، لا يقوى على تلبية حاجات حركة الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد*، ولا على مواجهة تحدّياتها التّي تطبع الحياة البشريّة باستمرار.

ويمكننا بناء على هذا، أن نلخّص لماذا يعتبر الوعي " بالدّورة الوجوديّة للإنسان " أم الإشكاليّات الوجوديّة الكبرى، وجذرها الأساس، في الأبعاد التّاليّة:

– للتّأثير الحاسم للرّؤية الوجوديّة للإنسان، على تحديد موقفه الوجودي كله؛ من نفسه، ومن غيوب الماضي، ومن غيوب المستقبل والمصير، ومن وظيفته الوجوديّة، ومن المسخّرات المتاحة له، ومن حركة التّاريخ وصيروراتها الحضارية المتعاقبة.

– ولدورها في تحديد وجهة ومصداقيّة الفعّاليّة التّسخيريّة للإنسان، وحكمها عليها بالفعّاليّة التّكامليّة النّموذجيّة، أو بالفعّاليّة الإهتلاكية الضّنكية، التّي لا تعدُو كونها حركة هدر وتبديد " **لميزانيّته التّسخيريّة** " العزيزة، التي سيحاسب عليها بدقة، ويضطرّإلى تعويضها ودفع مقابلها كما مرّ معنا في الحديث النّبوي السّابق.

– ولدورها في تحديد طبيعة ونوعية النّموذج الاستخلافي الّذي يقدّمه الإنسان في عالم الشّهادة، وهل هو نموذج خلافة وعمارة وعبوديّة وخيريّة وعالميّة وإنسانيّة وكونيّة ؟ أم أنه نموذج تبعيّة وطغيان واهتلاك وضنكيّة منهكة له ولغيره ممن ابتلوا بالعلاقة به؟

– ولأهمّيتها في تحديد موقفه من الصّيرورة التّاريخيّة لحركة الاستخلاف البشري ودوره اتّجاهها، وهل هو دور يتحرّك في اتّجاه الإلهام والإغناء والتّجديد للخبرة البشريّة الرّاشدة، أم أنّه يتحرّك في اتّجاه الهدر لهذه الخبرة التّاريخية البشريّة وتكريس لمنطق صراع الأجيال وتلاعنها ودورانها حول نفسها.

([1]) يوسف القرضاوي، **الإيمان والحياة،** (مكتبة وهبة، القاهرة، ط10، 1996)، ص61.

(2) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين،** (دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت)، 426/4.

(3) ابن باديس، **مجالس التذكير**، ص154.

* سيرد الحديث عن هذه الرباعية السننية المتكاملة في الفصل الثاني من هذا الباب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– ولأهمّيتها في توفير شروط وحدة الثقافة في المجتمع[1]، ومن ثـمّ شـروط انـسجامه الاجتماعي، وتكامل قواه وطاقاته في حركة التّغيير والبناء ومواجهة تحدّيات الإبتلاء والتّدافع والتّـداول والتّجديد، التّي تطبع حركة الوجود البشري في الأرض باطّراد.

– ولدورها الحاسم في تحديد طبيعة مصير الإنسان في مراحل الدّورة الوجوديّة التّاليـة، وعوالمها المتلاحقة؛ بدءا من عالم البرزخيّة، ومرورا بعالم القيّامة، ثمّ عالم الحساب والجزاء، وانتهـاء بعالم الخلود.

لهذه الاعتبارات كلّها، شكّل الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، المشكلة الرّئيسة أو الجذريّة في الحياة البشريّة، التّي ظلّت وستبقى شغل الإنسان الأساس باستمرار[2]، والمدخل المفتـاح لأيّ إشـباع حضاري متوازن في حياته. عندما تتوفّر – طبعاً – في هذه الرّؤية الوجوديّة المواصفات الـصّحيحة، المطابقة للواقع الفطري، أو للحقّ والحقيقة ، كما هما في واقع الحال، وليس كمـا يتوهّمهمـا الخيـال والهوى البشريّين.

وقبل الانتقال إلى الفقرة التّالية، أودّ أن أثبت هنا نصّا هامّا لأريك فرومر– رغم طوله نسبيّا – يبيّن فيه الحاجة الفطريّة إلى الرّؤية الوجوديّة، وكيف أنه لا يوجد إنسان بلا رؤية وجوديّة، وإن ادّعى بعض النّاس خلوّ حياتهم من ذلك ! يقول: " إنّ الكائن البشري. يمكن أن يصاب بالارتباك والعجز عن الفعل الهادف المتّسق إذا افتقد خريطة للعالم الطّبيعي والاجتماعي الّذي يعيش فيه. إذا افتقد صورة للكون و لمكان الشّخص فيه. صورة ذات تكوين وذات نظام وتماسك داخلي. لأنّه إذا افتقدها بات لا يرى طريقا لتوجّه ذاته. لا يرى نقطة ارتكاز ثابتة تمكّنه من تنسيق أفكاره وكافة الانطباعات التي التّي تمسّه.

إنّ الكون الّذي نعيش فيه لا معنى له في أذهاننا ، ولا ثقة لنا في أفكارنا عنه، إلا من خلال الاتّفاق العام بين النّاس الّذين نعيش بينهم وحتّى لو كانت الخريطة خاطئة فإنّها تؤدّي وظيفتها السّيكولوجيّة، ولكن الخريطة لم تكن أبدا خاطئة تماما، كما لم تكن أبدا صحيحة تماما وإن كانت دائما تفسيرا تقريبيّا يكفي لتفسير الظّواهر ولخدمة هدف الحياة. وتتّسق الخريطة مع الحقيقة بالقدر الذي تساعد على جعل الممارسة الحياتيّة متحرّرة من التّناقض واللاّمعقوليّة.

والحقيقة ا لمثيرة هيّ أنّه لم توجد حضارة خلت من إطار للتّوجه من هذا النّوع. كما لا يوجد كائن بشريّ فرد، ليس لديه إطار كهذا. وغالبا ما ينكر الأفراد أن لديهم مثل هذه الصّورة الكليّة، ويعتقدون بأنّهم يتصرّفون ويستجيبون لمختلف ظواهر الحياة وأحداثها، حالة حالة وفق ما تهديهم أحكامهم. ولكن ليس من الصّعب إثبات أن لهم فلسفتهم التي يعتنقونها كأمر مسلّم به، وهيّ بالنّسبة لهم ليست إلاّ مرادفا للفطرة السّليمة، وهم على غير وعي بأن كلّ مفهوماتهم وآرائهم تستند إلى إطار مرجعي مقبول من الكافة. وإذا حدث وصادف مثل هؤلاء الأشخاص رأيا في الحياة مختلفا اختلافا أساسيّا عن آرائهم، فإنّهم يصفونه بالجنون، أو« اللاّمعقوليّة» أو " الصّبيانيّة "، بينما يعتبرون أنفسهم مجرّد أناس " منطقيين " ويمكن، بشكل عملي، ملاحظة الحاجة العميقة لوجود إطار مرجعي لدى الأطفال. فعند سنّ معيّنة غالبا ما نرى الأطفال يحاولون بناء إطار لتوجّههم بطريقة ساذجة مستخدمين المعلومات البسيطة ا لمتاحة لهم عن العالم.

---

(1) محمد المبارك، **الإسلام والفكر العلمي**، (دار الفكر، بيروت، 1398هـ)، ص23.
(2) ميرسيا إلياد، **تاريخ المُعتقدات والأفكار الدينية**، ترجمة: عبد الهادي عباس، (دار دمشق، سورية، 1986)، 9/1،10.

غير أنّ الخريطة وحدها لا تكفي كمرشد للعمل. فنحن أيضا بحاجة إلى هدف يدلّنا على الطّريق. ولا تصادف الحيوانات مثل هذه المشكلات، فغرائزها تزوّدها بالخريطة والأهداف معا. ولكن لمّا كانت أفعالنا لا تقرّرها الغريزة، و لمّا كان لدينا دماغ يسمح لنا بالتّفكير في اتّجاهات عديدة يمكن أن نسير فيها، فإنّنا بحاجة إلى موضوع نكرّس من أجله. كلّ حياتنا بحاجة إلى نقطة مركزيّة تدور حولها كل جهودنا وتكون أساسا لكلّ قيّمنا الفعّالة، وليس لمجرّد القيّم المعلن عنها. نحن بحاجة إلى موضوع التّكريس هذا لجعل طاقاتنا تتكامل في اتّجاه واحد، ولكي نستطيع تجاوز وجودنا المنعزل بكلّ ما يكتنفه من شكوك ومخاطر، ولكي نشبع حاجتنا لأن يكون لحياتنا معنى"([1]).

محوريّة هذه الإشكاليّة في الاهتمام البشري:

والمؤكّد الموضوعي الأول لكون الوعي " بالدّورة الوجوديّة للإنسان " يشكّل أم الاشكاليّات الوجوديّة الكبرى، وجذرها الأساس، هو هذا الاهتمام البشري الممتد منذ الخليقة، بأبعاد هذه الإشكاليّة الكبرى، وبالمعاني والدّلالات العقديّة والرّوحيّة فيها[2]، كما تعبّر عن ذلك الأسئلة الفطريّة الخالدة، التي تسكن وعي البشر الباطني ولا تنفكّ عنهم أبدا، والتي تحوّلت مع مرور الوقت إلى محاور كبرى للفكر الفلسفي، ومطالب رئيسة له [3].

فالإنسان مسكون بالحاجة إلى هذا الوعي بدورته الوجوديّة([4])، التي تعطي معنى وقيمة وفاعليّة كونيّة لحياته، وترفع من مستوى إحساسه بذاتيّته وكينونته الإنسانيّة المتميّزة، وسط هذا الكمّ المهول من المخلوقات الكونيّة البديعة والمخيفة أحيانا، التي تبعث الرّهبة في النّفس وتدفع الإنسان إلى بناء علاقات غير صحيحة بها . يقول ميرسيا إلياد: " إنّ العيش بصفة كائن بشري، هو في ذاته عمل ديني، لأنّ التّغذيّة والحياة الجنسيّة والعمل، بها جميعا قيمة مرتبطة بالأسرار، وبعبارة أخرى، أن تكون – أو بالأحرى أن تصبح – إنسانا، يعني أن تكون متديّنا"[5].

فالتّرقي في مدارج الإنسانيّة، واستكمال الأبعاد الأكثر تعبيرا عن شرف وكرامة الإنسانيّة وتحقيقا لها في واقع الحياة، يقتضي شموليّة وتكامليّة وموضوعيّة الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، الذي يفضي بهذا الإنسان إلى الطّريق أو المنهج الصّحيح الّذي يحقق إنسانيّته؛ ألا وهو منهج العبوديّة لله وحده، الّذي اختاره الله طريقا ومنهجا وحيدا لاستكمال إنسانيّة الإنسان. يقول الأصفهاني: " فالإنسان يحصل له من الإنسانيّة بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خُلق، فمن قام بالعبادة حقّ القيام فقد استكمل الإنسانيّة، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانيّة" ([6]). كما سنرى ذلك لاحقا.

من هنا تمحور الهمّ والاهتمام الإنساني بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حول القضايا العقديّة الكلّيّة التّالية:

([1]) إريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ص129.

(2) ول ديورنت، **قصة الحضارة**، ترجمة: زكي نجيب محمود، (دار الجيل، بيروت، 1971) 99/1.

(3) عبد الله دراز، **الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، (دار القلم، الكويت، 1970م)، ص38-60.

([4]) جون كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة: كامل يوسف حسين، (سلسلة عالم المعرفة الكتاب رقم:199، 1995)، ص17.

(5) ميرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات**، 9/1.

([6]) الاصفهاني، **تفصيل النشأتين**، ص28 (نسخة مكتبة شبكة المشكاة الإسلامية الخالية من معلومات النشر).

- **من أين جاء الإنسان والكون؟** وهو سؤال عن البداية والمنشأ والمأتى والأصل البشري والكوني عامّة، الّذي يقود حتما إلى الله الخالق الّذي صدر عنه الإنسان والوجود الكوني كلّه.
- **لماذا جاء أو خلق البشر؟** وهو سؤال عن الدّور والوظيفة الوجوديّة، وطبيعتها وتبعاتها، ومن يحدّدها ويضع معاييرها الرّوحيّة والأخلاقيّة؟
- **ما حقيقة هذا الإنسان ذاته؟** وهو سؤال عن طبيعة وقيمة وقدرات الإنسان نفسه، ومن يحدّد هذه الطّبيعة والقيمة؟ أهوّ الإنسان نفسه؟ أم خالق الإنسان.
- **وكيف يحقّق الإنسان هذا الدّور وينجز هذه المهمّة؟** وهو سؤال عن الإمكانات والمنهج، ومن يمنحها ويحدّدها؟
- **وإلى أين يذهب الإنسان بعد الموت؟** وهو سؤال عن الجزاء والمصير والمعنى الكلي النهائي للحياة ([1]).

والملاحظة العامّة الّتي تزوّدنا بها الدّراسات الأنثروبولوجيّة والتّاريخيّة وعلم الأديان عامّة، في هذا المجال([2]) ، هيّ أنّ الفكر البشري تخبّط واضطرب كثيراً في بحثه عن تأسيس الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، خارج دائرة الهداية وبعيدا عن توجيهها وإلهامها، حيث تاه في خضمّ مظاهر الطّبيعة القويّة أو الجميلة.. واتّخذ منها معبودات لا تحصى([3]). اجتهد في ترضيتها، وأنفق عليها بسخاء من وقته وجهده وماله، وأحبّ وكره، ووالى وعادى، وحارب وسالم، وخرّب وشيّد.. بناء على ما تصوّرَه واعتقده بأنّه مجسّد لرغبة هذه المعبودات وإرادتها ورضاها عنه([4])! وهوّ ما سجّله القرآن في أكثر من آية، والسنة النّبوية في أكثر من حديث. كما يتّضح ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى:[وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ] ([5])، وفي قوله عليه الصّلاة والسّلام: (يا أيّها الناس ! اتّقوا هذا الشّرك ؛ فإنّه أخفى من دبيب النّمل . فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتّقيه وهو أخفى من دبيب النّمل يا رسول الله ! قال : قولوا : اللّهم إنّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، و نستغفرك لما لا نعلمه)([6]). لكثرة ما يسرع الشّرك إلى التّلبس بحياة الإنسان والتّأثير السّلبي فيها،

([1]) ديتر تسمرلنغ، **الهوس القيامي الألفي**، ترجمة: ميشال كيلو، (قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 1999).

([2]) يراجع هنا ما كتبه ابن حزم في " **الفصل في الملل والأهواء والنحل** " ، والشهرستاني في " **الملل والنحل** " والمسعودي في " **المقالات في أصول الديانات** " ، وأبي الريحان البيروني في " **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** " ، ": والرازي في " **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين** " ، وابن تيمية في " **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** " ، وويل ديرنت في " **قصة الحضارة** " ، و ميرسيا إلياد في " **تاريخ الأديان والمعتقدات الدينية** " ، ومبارك الميلي في " **رسالة الشرك ومظاهره** " ، و"**مقارنة الأديان**" لأحمد شلبي.. على سبيل المثال ، وما تزخر به الدراسات الأنثروبولوجية وعلم الأديان المقارن والتاريخ بصفة عامة، من رصد وصفي لمظاهر ملابسة الشرك للحياة البشرية.

([3]) أبو الحسن الندوي، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1984)، ص47.

([4]) ميشال طومسون وآخران، **نظرية الثقافة**، ترجمة: علي سيد الصاوي، (سلسلة عالم المعرفة، رقم 223، الكويت، 1990) ص112.

(5)**القرآن الكريم**، سورة يوسف: 106.

([6]) أورده الألباني في **صحيح الترغيب والترهيب**، تحت رقم36.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بمجرد أن يغفل عن نور وتوجيه الهداية الرّبانية(1)، ويستجيب لجاذبيّة الغرائز السّافلة حينا، ووسوسة الشّيطان حينا آخر، ومؤثرات البيئة الاجتماعيّة المنحرفة أحيانا أخرى(2).

فحركة الشّرك المستشري في حياة البشر، بكلّ ما فيها من انحراف عن الفطرة، ومن تعنيت لهذه الفطرة، ومن إضرار كبير بخلافة الإنسان في الأرض، وبمصيره الأخروي، ومن إخلال جديّ بحقوق الرّبوبيّة والألوهيّة والعبوديّة، قبل ذلك وبعده(3) فإنّها – أي حركة الشّرك – تعبّر من ناحية أخرى عن مدى احتياج الإنسان إلى الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للحياة، ومدى عمق واطّراد اهتمامه بهذا الوعي، الّذي يهتدي إليه حينا، ويُمسك بعراه الوثقى، ويتدرّج في سلّم الكمال الإنساني إلى ذراه العليا. ويضلّ عنه أحيانا أخرى في متاهات الشّرك ودوّاماته المرهقة(4)، وينحطّ إلى دركات سحيقة من الخرافة والأساطير والسّحر والشّعوذة والمهانة المزريّة بالكرامة الإنسانيّة(5). كما تؤكّد ذلك أنثروبولوجيا الأديان خاصّة، والتّجليات الفكريّة والسّلوكيّة والاجتماعيّة لحركة الشّرك في حياة الأفراد والمجتمعات البشريّة عامّة[6]. وهو ما لخّصه القرآن في قوله تعالى**[فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ]**(7).

فلوثات الشّرك ومتاهاته، تحمل في أعماقها جذوة الإيمان، والحنين الأبدي إلى الله الخالق. فالإيمان عميق وراسخ في فطرة البشر(8)، والحاجة إليه تشكّل ضرورة نفسيّة واجتماعيّة راسخة لا غنى للإنسان عنها بأيّ حال من الأحوال. لأنّه لا يمكنه أن يتخلّص من الخوف والقلق والحيرة، ولا تسكن نفسه ولا تطمئن، ولا يتحقق له الاستقرار الفعّال في الحياة إلّا بهذا الإيمان الّذي يشعره باستمرار بأنّه يأوي إلى ركن شديد، وإلى قوّة يرجع إليها كلّ شيء في الكون، فلا يتعقّد ولا يضعف ولا ينسحق أمام مظاهر الطّبيعة المحيطة به.

فالإيمان هو فطرة الله وصبغته التي فطر عليها الإنسان وصبغه بها في أصل خلقته. فهو مكوّن جوهري من مكوّنات هذه الفطرة(9)، وناظم أساس من نواظمها، وكلّ ما يمسّ بهذا المكوّن أو

---

(1) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرءان**، (دار الفكر، بيروت، 1408هـ-1988م)،43/21.

(2)البقاعي،برهان الدين، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، 1992)، 448/20.

(3) ابن تيمية، تقي الدين، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000)، 14/10.

(4) محمد قطب، **ركائز الإيمان**، (مركز الدراسات والإعلام دار إشبيلية، الرياض، السعودية، 1997م)، ص 144 وما بعدها.

(5) ينظر ما كتبه الشهرستاني عن ذلك في موسوعته التاريخية : **الملل والنحل**.

(6) أنظر: آرثر كورتل، **قاموس أساطير العالم**، ترجمة: سهى الطريحي، (المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، د.ت).

(7)**القرآن الكريم**، سورة الحج :30،31.

(8) ولتر ستيس ، **الزمان والأزل: مقال في فلسفة الدين**، ترجمة : زكريا إبراهيم، (المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، 1967. ص45.

(9) جفري بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، (سلسلة عالم المعرفة، كتاب رقم173، الكويت 1993)، ص7.

يعطّل دوره في حياة الإنسان، فإنّه يمسّ بصميم فطرة الإنسان مباشرة، ويخلّ بمقوّم أساس من مقوّماتها، وبالتّالي فهوّ دخيل على هذه الفطرة وغريب عنها، ومضرّ بها، ومعطّل لوظيفة الخلافة البشريّة في الأرض.

وفي هذا السّياق المعزّز لعقيدة كوّن الإيمان جزءا أصيلا من فطرة الإنسان وتركيبه النّفسي الجبلي([1])، وكون ظواهر الشّرك أو الكفر أو الضّلال.. بكلّ تجلياتها، ما هي إلاّ حالة طارئة على حياة الإنسان، تعبّر بشكل أو بآخر عن جذوة الإيمان الكامنة في أعماق النّفس البشريّة، جاء في الحديث القدسي أنّ الله تعالى أخبر نبيّه عليه الصّلاة والسّلام: (إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم. وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم. وحرّمت عليهم ما أحللت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)([2]). وهيّ الحقيقة التي تقرّرت قبل ذلك في القرآن في مثل قوله تعالى: **[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ]**([3]). ولكنّ الوصول إلى عمق هذا الإيمان واستيعاب حقائقه، وامتلاك القدرة على تجسيد مقتضياته العقديّة والفكريّة والرّوحيّة والاجتماعيّة في حركة الاستخلاف، والثبات عليها، تعترضه عوائق وتحدّيات كثيرة، بعضها ذاتي وبعضها خارجي، يشوّش على نقاوة هذا الإيمان ابتداء، ويعمل على كبته، ويحدُّ من أصالته وفاعليّته الاجتماعيّة في الحياة بعد ذلك، كما تعبّر عن ذلك ظواهر الشّرك والكفر والضّلال والنّفاق بالخصوص.

وفي القرآن إشارة واضحة إلى هذه الحقيقة العقديّة والرّوحيّة والنّفسيّة المختزنة في أعماق حركة الشّرك والكفر والضّلال، كما يتّضح ذلك في قوله تعالى:**[أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ]**([4]).

فعقيدة الرّبوبيّة والألوهيّة والعبوديّة مستكنة في عمق الفطرة البشريّة([5])، وإن تعرَّض التّعبير عنها والتّجسيد لحقائقها في الحياة، إلى انحرافات كثيرة كما أسلفنا([6])، حالت في الكثير من الأحيان دون نفاذ الإنسان، بعمق وشمول وتوازن، إلى أبعاد العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة في هذه العقيدة، وعجزه عن الاستفادة من حقائقها الفكريّة والرّوحيّة والأخلاقيّة.. في ترشيد حركة الاستخلاف البشري عبر التّاريخ. ممّا أدّى إلى طبع هذه الحركة بالصّراعية والتّنافريّة والإهتلاكيّة، والجزئيّة والسّطحيّة في الاستمتاع بخيراتها، كما قال تعالى:**[وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ]**(7). وكما تؤكّد ذلك ظواهر الاستعمار، والاستبداد، والرّق، والعبوديّة، والطّبقات، والشّرك المتعدّد الأشكال والأبعاد، الذي كان كثيرا ما يضرب بجذوره في الحياة العقديّة

([1]) هيجل، **موسوعة العلوم الفلسفية**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، (دار التنوير، بيروت، 1983)، ص 47-48.

([2]) أخرجه مسلم في **الصحيح**، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا....، تحت رقم2865.

([3])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 172.

([4])**القرآن الكريم**، سورة الزمر: 3.

([5]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 73/1.

([6]) ميرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار**، 9/1-10.

(7)**القرآن الكريم**، سورة محمد: 13.

والسّلوكيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة للمجتمعات البشريّة[1]، ويقوم بدور المبدّد والمهدر لميزانيّة الإنسان التّسخيريّة، والمهرّء للنّظام الاجتماعي والمفكّك له[2].

هكذا إذن تتجلّى فطريّة الإيمان، حتّى في أكثر الظّواهر العقديّة تعبيرا ــ في ظاهرها ــ عن مناقضة هذا المكوّن الفطري ومنافاة له، وهيّ ظواهر الشّرك والكفر على الخصوص؛ بما تعنيه الأولى من محاولة الاتّصال بالله وتحقيق العبوديّة له، عبر الوسطاء الكونيّين الّذين لا حصر لهم، كما أشارت إلى ذلك آية الزّلفى السابقة([3]). وبما تعنيه الثّانية من محاولة كبت هذا الإيمان وطمره في أعماق اللاّشعور الإنساني، كما تشير إلى ذلك الدّلالات اللّغوية لكلمة الكفر، التي تعني في العربية التّغطّية والسّتر والحجب. ويطلق الكافر على الزّارع لستره البذر بالتّراب. كما يطلق على اللّيل المظلم لأنّه يستر بظلمته كل ّشيء([4]).

وبهذا المعنى يكون الكافر في الاصطلاح الشّرعي أو الدّيني عامّة، هو الّذي يغطّى إيمانه ويحجبه ويمنعه من الظّهور والتّجلي في حياته، رغم وجوده في أعماق كيانه، بل ورغم تجلّيه في صور أخرى كثيرة في حياته، كثيرا ما يحاول عبثا نزع الصّفة الرّوحية الإيمانيّة عنها! لأنّ طاقة مثل طاقة الإيمان، وحاجة عميقة كالحاجة الرّوحية المترتّبة على ذلك، لا يمكن كبتها وإخفاؤها وطمرها نهائيّا بأيّ حال من الأحوال. فهيّ حاجة فطريّة أساسيّة، وطاقة ذاتيّة كامنة، لا بد لها أن تعبر عن وجودها، وتبحث عن طرق الإشباع والتّلبيّة الذّاتيّة الضّروريّة، بطريقة أو أخرى. مثلها في ذلك مثل سائر الغرائز والفطر الأخرى في الكيان البشري، الّتي يجب أن تُشبع وتُلبّى وتعبّر عن نفسها بشكل سوي إن أتيحت لها شروط ذلك، أو بشكل غير سوي إن لم تتح لها شروط ذلك([5]). فهي كالميّاه الجوفيّة العاتيّة، فإنّها كلّما ازداد الضّغط عليها كلما ازدادت تسرّبا وتفجّرا على سطح الأرض.

فالكفر وإن كان في ظاهره يمثّل نهاية الانفصال عن الله، ويجسد قمّة الصّدام مع فطرة الإنسان والكون، فإنّه لا يعدو أن يكون صورة أخرى من صورّ القلق والاضطراب الوجودي العميق، وامتدادا آخر من امتدادات الشّرك الزّلفي التّوسّلي، الباحث عن الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، في أشكال أخرى من الأساطير والأديان والمعبودات المتنوعة، الّتي كثيرا ما تكون متمحورة حول عبادة الذّات والهوى واللّذّة والمصلحة والقوّة([6]). وتعبّر كلّها، في النّهاية، عن مدى عمق وحدّة الفراغ والقلق الفكري والرّوحي الّذي يعيشه الكافر أو الملحد، ويبثّه من حوله في المجتمع.

ويبرّر هذا التّفسير لظواهر الشّرك والضّلال والكفر بصفة عامّة، قانون العبوديّة الّذي يحكم الوجود البشري والكوني على حد سواء([7]). والّذي يقضي بأنّ العبوديّة حاجة بل ضرورة كونيّة لا

---

(1) ميرسيا إلياد، **الحنين إلى الأصول**، ترجمة: حسن قبس، (دار قابس للطباعة والنشر، دمشق، د.ت)، ص7؛ وفي كتابه: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية** بأجزائه الثلاثة، رصد مركز لتجسُّدات الشرك وأثره في هدر وتبديد الطاقة البشرية.

(2) محمد قطب، **ركائز الإيمان**، ص140 وما بعدها.

([3]) **القرآن الكريم**، الزمر: 3.

([4]) إبراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 792/2.

([5]) القرضاوي، **الإيمان والحياة، ص**200.

([6]) الشاطبي، **الموافقات**، 2/ 130.

([7]) عبد الرحمن حبنكة الميداني، **ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة**، (دار القلم، دمشق، 1995)، ص169 وما بعدها.

ينفكّ عنها أيّ مخلوق في الوجود. كما جاء تقرير ذلك في القرآن في مثل قوله تعالى:**[وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ]**([1]). وقوله كذلك: **[إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا]**([2]). وقوله أيضا:**[تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا]**([3])، وقوله سبحانه: **[وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ]**([4]). إشارة إلى أنّ الكافر نفسه تستيقظ فيه غريزة الإيمان عند الاضطرار فيلجأ إلى الله بالدّعاء لنجدته([5])، كما في قوله تعالى على سبيل المثال: **[وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ. ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ** يُشْرِكُونَ. **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا** فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ]([6]).

فإذا كانت العبوديّة تعبّر بصفة عامّة عن كمال الافتقار، وكمال المحبّة، وكمال الهيبة والخوف، وكمال الطّاعة والامتثال والمتابعة([7])، لمن نفتقر إليه، ونحبّه ونهابه ونخافه، وهي الحاجات أو الضّرورات التي لا تخلو منها حياة أيّ مخلوق بشري، فإن النّتيجة المنطقيّة والمعيشة في الوقت نفسه، هيّ أنّ الإنسان إمّا أن يكون في حالة أو وضعيّة عبادة لله الخالق فعلا، وإمّا أن يكون في حالة أو وضعيّة عبادة لغيره من المخلوقات الكونيّة الأخرى، الّتي تندرج عندئذ في مسمّى الطّاغوت في المنظور القرآني. كما جاء بيان ذلك في قوله تعالى: **[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ]**([8]).

فعبادة الله وحده، واجتناب صرف أيّ جزء منها للطّاغوت، الّذي يعني:" ما تجاوز به العبد حده من: معبود ، أو متبوع ، أو مطاع. فطاغوت كلّ قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتّبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنّه طاعة لله"([9])، هو مقصد الرّسالات كلّها، ومدار الأديان السّماويّة جميعها كما سنرى ذلك لاحقا. فإذا لم يحقق الإنسان عبوديّته لله وحده، فإنّه حتما سينزلق في متاهات العبوديّة لغير الله بطريقة أو أخرى. بحكم قانون العبوديّة، وحاجة البشر إلى الله*، وضرورة الدّين القصوى في حياتهم، الّذي لم تخل منه أيّة جماعة بشريّة في التّاريخ ولن تخلو منه. بغض النّظر عن حقيقة هذا الدّين ومدى مطابقته للحقيقة أو قربه منها أو بعده عنها، كما يقول إريك فروم في إحدى أهم مقولاته العلميّة، وهوّ يتحدّث عن ضرورة

([1])**القرآن الكريم**، سورة الذاريات: 56.

([2])**القرآن الكريم**، سورة مريم: 93.

([3])**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 44.

([4])**القرآن الكريم**، سورة الرعد: 15.

([5]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 177/13.

([6])**القرآن الكريم**، سورة النحل: 53، 54 ، 55.

([7]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 13/10.

([8])**القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

([9]) ابن القيم، ....

* حتى ذهب بعض اللادينيين أو الدنيويين عامة إلى القول بأنه لو لم يكن الله موجودا لكان على الإنسان أن يوجده. وهو تعبير عن كون الإيمان ضرورة للحياة، وأن الإنسان لا يمكنه أن يستغني عن العقيدة الدينية بالرغم مما قد يعتري هذه العقيدة من غبش وانحراف.

الدّين للإنسان، وحضور الشّعور الدّيني المطّرد في حياة البشر عبر التّاريخ*: " والحقّ أنّه بهذا المفهوم الواسع للكلمة ــ يقصد الدّين ــ لم توجد حضارة في الماضي، ولا توجد في الحاضر، ويبدو أنّه لن توجد في المستقبل حضارة، يمكن اعتبارها بلا دين"([1]).

ولعلّ أكبر تجربة حديثة تؤكّد قوّة سلطان الدّين في حياة البشر، هو ما تعرّض له الدّين من حرب ضروس لم يشهد لها التّاريخ البشري مثيلا؛ من حيث عنف وشمول المواّجهة له، ومن حيث الإمكانات التي أتيحت لهذه الحرب، والوسائل الفعّالة التي استخدمتها، عبر مؤسّسات الدّولة الحديثة، وحركة المجتمع المدني، ونشاط المجتمع العلمي، ووسائل الإعلام، ومؤسّسات التّربية والتّعليم، والأنشطة الفنّية المختلفة... التي ظلّ جلّها يعمل على استئصال نفوذ الدّين من حياة الأفراد والمجتمعات بلا هوادة، منذ بزوغ فجر النّهضة الأوروبية الحديثة إلى اليوم، حتّى ظنّ النّاس أنّ الدّين قد أمسى أثرا من الماضي([2])، وأنّ الله قد مات كما قال نيتشة([3])! وأنّ الإنسان قد أصبح سيّد وجوده ومصيره، كما تصدّعت بذلك الشّيوعيّة والوجوديّة والفكر الحداثي عامّة! غير أنّ ما يشهده العالم من صحوة دينيّة كبيرة، ومن حضور متزايد لأشكال التّدين المختلفة، يثبت أنّ سلطان الدّين ظلّ محتفظا بحضوره بل وبنفوذه في حياة النّاس بصفة عامّة، حتّى قالت دراسة أجريت في ثمانينيّات القرن الماضي، أنّ تسعة أعشار من شملتهم الدراسة لم يفقدوا إيمانهم بالله، ولم تنطفئ في نفوسهم الحاجة إلى الدّين، وإن كانت حقيقة الله، وطبيعة الدّين، تشكّل قضيّة محوريّة أخرى في اهتمامات هؤلاء بعد ذلك([4]).

وأختم هذه الفقرة من البحث، بحادثة طريفة تؤكّد فعلا مدى عمق فطريّة التّديّن لدى الإنسان، ومدى حاجته إلى ذلك، ومدى تنوّع الصّور الثّقافيّة والاجتماعيّة والسّلوكيّة التي تعبّر عن ذلك، بغضّ النّظر عن مدى صوابيّة أو لا صوابيّة هذه التّعبيرات، من وجهة نظرنا نحن كمسلمين، فنحن هنا بصدد التّأكيد على مدى أهمية كون الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان، يشكّل أمّ الإشكاليّات الوجوديّة في الوعي البشري على الدّوام.

وتتمثّل هذه الحادثة الواقعيّة الطّريفة، في المفاجأة المدهشة التي أصابت الغربيّين الذين يقدّمون المعونة إلى " نيبال "، على سبيل المثال. فقد أفزعتهم رؤية القرويّين الفقراء ينفقــون أمــوالهم ليس على تحسين إنتاجيّة حقول الأرز، الذي يمثّل ضرورة أساسيّة أولى بالنّسبة لهم، ولكن على تجديد معبد القرية، الذي يمثّل حاجة أساسيّة أخرى بالنّسبة لهم([5]).

فموقفهم السّلوكي المبدئي ليس مستغربا، لأنّه منسجم مع حاجة فطريّة إنسانيّة كونيّــة، بغــضّ

---

* وإن كان تعريفه للدين ونظرته إليه هنا، تختلف عن نظرتنا نحن المسلمين، ولكن الذي يعنينا في هذه المقولة هو التأكيد على فطرية الشعور الديني في حياة البشر.

([1]) إريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**،ص 127.

([2]) روبرت.أغروس،وجورج.ن.ستينو، **العلم في منظوره الجديد**، ترجمة:كمال خلايلي، (سلسلة عالم المعرفة، كتاب رقم134، الكويت 1984) ص54.

([3]) نيتشه، فريدريك، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة: فليكس فارس، (دار أسامة، دمشق، د.ت)، ص32.

([4]) **حالة الأديان في العالم**، دراسة جماعية تحت إشراف: ميشال كليفنوت، (باريس، 1987)، ص502.

([5]) ميشال طوماس وآخرون، **نظرية الثقافة**، ترجمة: علي سيد الصاوي، (سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم:223، الكويت، 1997)، ص112.

النّظر عن الاختلالات التي تعتري هذا الموقف على مستوى المعايير العقديّة الصّحيحة مـن ناحيـة، وعلى مستوى سلّم أو نظام الأولويّات الحياتيّة لديهم من ناحيّة أخرى.

وهذا المنطق الذي يؤكّد كون التّديّن حاجة، بل ضرورة فطريّة في الإنسان، بحكـم قـانون العبوديّة، يزكّيه المنطق القرآني أو الإسلامي عامّة، الذي يصنّف الدّين ضمن الضّروريات أو الكليّات الوجوديّة الخمسة التي لا يمكن أن يقوم الوجود الإنساني بـدونها، بـل ويـضعه فـي مقدّمـة هـذه الضّروريّات الكليّة من حيث الأهمّية([1])، سنرى ذلك لاحقا.

محوريّة الوعي بالدّورة الوجوديّة في أولويّات الحركات الرّساليّة*:

المؤكّد الموضوعي الثّاني لكون الوعي " بالدّورة الوجوديّة للإنـسان" يـشكّل أمّ الاشـكاليّات الوجوديّة الكبرى، وجذرها الأساس في حياة البشر، هو هذا الموقع المركزي الذي احتلته وتحتلّه هـذه الإشكاليّة في الأولويّات المحوريّة لكلّ الحركات الرّساليّة على مدار التّاريخ. حيث لم تخل أيّة رسـالة سماويّة أو حركة نبويّة من الاهتمام الشّديد بتصحيح مسار الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، والتّركيز على استكمال بناء هذا الوعي، وتعزيز شروط وقايته، وتفعيل حضوره فـي إدارة وتوجيـه حركـة الاستخلاف البشري في الأرض[2]، وتمكينها من تحقيق أهدافها في العبوديّـة والخيريّـة والعالميّـة والإنسانيّة والكونيّة، التي تتأسّس عليها هذه الخلافة البشرية في الأرض، وتتوق إليها على الدّوام.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبرز محوريّة هذا الاهتمام وأولويّته في كلّ الرّسالات السّماويّة، وإن تنوّعت مداخله المنهجيّة وتكيّفت مع معطيات الظّروف الفكريّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والحضاريّة المحيطة بكلّ رسالة، أو حركة نبويّة في بيئتها وعصرها [3]. كما يؤكّد ذلك قوله تعالى على سبيل المثال:[**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**][4]، وقوله سبحانه: [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ][5]، تماشيا مع وعد الله المبدئي للبشريّة في مبدأ الخليقة، وخروج أب البشريّة الأول آدم عليه السّلام من الجنّة، أنه سيتعهدهم بالرّعاية والهداية العاصمة من الضّلال والانحراف[6].

كما يؤكّد ذلك قوله تعالى:[**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**][7]، وعن مركزيّة الوعي بصلب وجوهر الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان في أولويّات الحركات

([1])الشاطبي، **الموافقات**، 7/2.

* أقصد بالحركات الرساليةهنا حركة النبوات والرسالات السماوية التي تتالت في الأرض عبر التاريخ، لتصحح الانحرافات التي تطرأ على الوعي بالدورة الوجودية للإنسان، وتستكمل بناء هذا الوعي، وتفعّل دوره في ترشيد ووقاية حركة الاستخلاف البشري في الأرض.

(2) أبو العز، علي بن علي بن محمد، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: عبد الله بن محسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، (مؤسسة الرسالة، بيروت. 1408هـ-1987م)، ص21.

(3) الدهلوي، ولي الله محمد بن عبد الرحيم، **الفوز الكبير في أصول التفسير**، (دار مكتبة الهلال، القاهرة، 1405هـ)، 14.

(4)**القرآن الكريم**، سورة فاطر: 24.

(5)**القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

(6) الطبري، **جامع البيان**، 225/9.

(7)**القرآن الكريم**، سورة طه: 120-121- 122.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرّساليّة كلّها، جاء في القرآن على لسان نوح عليه السّلام: **[لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ]**([1]). وعلى لسان هود عليه السّلام: **[وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ]**([2]). وعلى لسان صالح عليه السّلام: **[وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ]**([3]). وعلى لسان إبراهيم عليه السّلام: **[وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ]**([4]). وعلى لسان شعيب عليه السّلام: **[وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]**([5]). وعلى لسان المسيح عيسى عليه السّلام**[وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ]**([6]).

هذا هو ناموس الرّسالات جميعا، أن تؤسّس الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان، من خلال مفاهيمها المحوريّة الكبرى؛ ممثّلة في كلّيات الرّبوبيّة والألوهيّة والعبوديّة والخلافة والتّسخير والمصير. كما لخّص ذلك القرآن في قوله تعالى:**[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ]**([7])، الذي جاء في سيّاق تبيان أن رسالة الأنبياء والرّسل واحدة، وهي تحقيق العبوديّة لله، التي تمرّ حتما عبر إحكام الوعي الشّمولي التّكاملي المتوازن بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان([8]).

ولعلّ في كثرة الأنبياء الّذين فاق عددهم 124 ألف نبي، والرّسل الّذين بلغ عددهم (315) رسولا، كما جاء في الحديث عن أبي أمامة قال: قلت: يا نبيّ الله كم الأنبياء ؟ قال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا)[9]، وما لا يقع تحت الحصر من المصلحين الرّساليّين عبر التّاريخ. لعل في كلّ ذلك ما يلقي الضّوء فعلا على أولويّة ومحوريّة العناية بتأسيس الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، ويؤكّد من ثم أهمّية هذا الوعي ومفصليته في الحياة البشريّة، وارتباط أصالة وفاعليّة وديمومة الحركة الاستخلافيّة به باستمرار.

وبجانب هذا التّأكيد على محوريّة الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان وأولويّته في الحركات الرّساليّة جميعا، ينبغي أن نؤكد حقيقة أخرى وهي أن الاهتمام بتأسيس الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، لا ينبغي أن يكون على حساب البعدين الآخرين في آفاق الحركات الرّساليّة جميعا، وهما البعد التّسخيري والبعد الاستخلافي، كما يظنّ بعض النّاس، حينما يلحظون هذه العناية المكثّفة بمواجهة

([1])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 59.

([2])**القرآن الكريم**، سورة لأعراف: 65.

([3])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 73.

([4])**القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: 16.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 85.

([6])**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 72.

([7])**القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 25.

([8]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 13/10.

(9) السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، (دار الفكر، بيروت، 1403هـ-1983م)، 746/2.

الإشكاليّة الوجوديّة الأم في حياة البشر، فيظنون أنّها مقصد الرّسالات الوحيد، ويذهلون عن عناية الوحي بالأبعاد التّسخيريّة والاستخلافيّة كذلك، مع أنّ العناية بالوعي العقدي في الحقيقة غايته هو توفير شروط وضمانات نجاح حركة التّسخير والاستخلاف في الأرض[1]، باعتبارها المحك الحقيقي لمصداقيّة ذلك الوعي أو عدم مصداقيّته. فالبعدان التّسخيري والاستخلافي هما هدف الوعي العقدي في الأساس والمقصد.

ولعلّ هذا الابتسار لمفهوم الوعي العقدي، وكبح جماحه عن استيعاب البعدين الأساسيّين الآخرين في منظومة الوعي الاستخلافي الكليّة، هو أثر سلبي من آثار المداخل المنهجيّة والمعرفيّة التّجزيئيّة ، في نظرتها إلى حقائق الوحي، واستشرافها لآفاقه في الحياة. وهوّ ما جعلني في هذه الدّراسة أطرح مفهوم الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والحياة، الذي يمنح الوعي العقدي أبعاده الشّموليّة التّكامليّة المتوازنة، المستوعبة لكلّ جوانب حياة الإنسان، وحركة الحياة والكون بصفة عامّة.

محوريّة الوعي بالدّورة الوجوديّة في أولويّات الدّعوة الإسلاميّة:

والمؤكّد الثّالث لمحوريّة الوعي " بالدّورة الوجوديّة للإنسان" في الحياة البشريّة، هو هذا الاهتمام المكثف للدّعوة الإسلاميّة به، وعنايتها الخاصّة بترسيخه في حياة النّاس. كما تدلّ على ذلك التّغطيّة الشّموليّة المتوازنة والمكثّفة جدّا، لكلّ مراحل وأبعاد الدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والكون، سواء في القرآن أو السّنّة على حدّ سواء.

فالمتأمّل في مضامين الخطاب القرآني، يجد بأنّه قد أفاض في الحديث عن الكون، وعن الإنسان، وعن الأصول الوجوديّة لكلّ منهما. وعن عوالم الآخرة التي تعقب مرحلة عالم الشّهادة مباشرة[2]. وعن التّجارب التّاريخيّة المتعاقبة لحركة التّسخير والاستخلاف البشري في الأرض([3]). وعن السّنن الكليّة المطّردة التي تقف وراء التألّق والأفول في حركة الاستخلاف البشري. وعن دور الرّسل والرّسالات[4]، والإيمان والشّرك، والمصلحين والمفسدين.. في ذلك كلّه. كما يلاحظ قبل ذلك كلّه وبعده، أنّ القرآن قد أفاض في الحديث عن الله في ربوبيّته ووحدانيّته ومالكيّته[5]، والعلاقة التّبعية لكلّ شيء في الوجود لإرادته سبحانه، وحاجة كلّ الموجودات إلى هدايته([6]).

ونكتفي هنا بهذه الإشارة المختصرة عن محوريّة الاهتمام بالوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان في الإسلام، لأنّنا سنتناول ذلك بالتّفصيل في الفصل التّالي. وما دمنا قد ذكرنا بأنّ الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان شكّل أولويّة ثابتة في اهتمامات كلّ الحركات الرّساليّة خاصّة وغير الرّساليّة عامّة. وما دام الإسلام هو خاتمة هذه الرّسالات جميعا في اعتقادنا نحن المسلمين، فإنّنا نودّ أن نبيّن هنا باختصار نظرة الإسلام إلى تراث هذا الوعي الرّسالي خاصّة والوعي البشري السّابقين عليه عامّة،

---

(1) رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، (المكتب الإسلامي، بيروت، ط8، 1391هـ)، ص267.

(2) المبارك، **نظام الإسلام، العقيدة والعبادة**، ص40، 48، 154.

([3]) أنظر: **التفسير الإسلامي للتاريخ** لعماد الدين خليل.

(4) الدهلوي، **الفوز الكبير**، ص 13، 33.

(5) ورد لفظ الجلالة "الله" وحده في القرآن (2697) مرة، ناهيك عن أسمائه وصفاته الأخرى.

([6]) ابن القيم، **تهذيب مدارج السالكين**، تهذيب: عبد المنعم صالح العلي العزي، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6، 2000)، ص63.

وموقفه منهما، وعلاقته بهما.

ثمّ نتعرّض بعد ذلك لبعض المقدّمات المنهجيّة والفكريّة الأساسيّة، الخاصّة بالمعايير التي تعيننا على الفرز بين المرجعيّات العقديّة ذات الأصل الربّاني، وغيرها من المرجعيات العقديّة ذات المصدر البشري أو المصادر المركّبة منهما، وتمكّننا في النّهاية من إبراز مدى أصالة وأهمّية ومصداقيّة ما تطرحه الرّؤية الكونيّة الإسلاميّة خاصّة، في قضيّة الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان، كقضية مركزيّة في الوعي والاهتمام البشريين كما أسلفنا. وذلك من خلال التّركيز على:

- الخصائص والمقوّمات المعياريّة الكلّية للرّؤية الوجوديّة الحق.
- أثار وانعكاسات سلامة أو قصور الرّؤية الوجوديّة على حركة الاستخلاف ومصير الإنسان.

نظرة الإسلام إلى تراث النّبوات السّابقة وموقفه من الخبرات البشريّة عامّة: ونظرا إلى أنّ الإسلام لا يمثّل قطيعة في مسار الحركة الرّساليّة الكلّية، ولا في الخبرة الاستخلافيّة البشريّة الرّاشدة، بل يعتبر نفسه امتدادا لهذه الحركة وتتويجا وتجديدا لها([1]). فإنّه يجدر بنا أن نؤكّد هنا على طبيعة العلاقة التي ربطت الإسلام بما سبقه من الرّسالات خاصّة، ومن الخبرات البشريّة عامّة. التي سبق أن أكّدنا على أنّ الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والحياة والكون، احتلّ فيها جميعا موقعا محوريّا ثابتا.

ومن أجل توضيح طبيعة هذه العلاقة بالرّسالات والخبرات السّابقة، نلاحظ بأنّ الإسلام حرص على:

1. **التّأكيد على وحدة الدّين:** فالدّين عند الله واحد في أصوله العقديّة، وثوابت أنظمته العباديّة والتّشريعيّة والأخلاقيّة الكلّية، التي جاءت جميع الرّسالات السّماويّة لتأكّد عليها، وتدعو إليها، وتعمل على صبغ الحياة البشريّة بها.

والقرآن يشير إلى هذه القضيّة منذ بداية الخلق، ويؤكّد على أن المهمّة الإرشاديّة والتّوجيهيّة والتّشريعيّة للدّين، انطلقت مع بداية المهمّة الاستخلافيّة للإنسان في الأرض مباشرة. كما يتّضح ذلك من قوله تعالى تعقيبا على خروج آدم أبي البشريّة من الجنّة وهبوطه إلى الأرض، وتعهّد الله لذريّته بالرّعاية والتّوجيه عبر حركة الرّسالات التي توالت عبر التّاريخ: [**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**](البقرة : 38)، وهذا الهدي جاء تحت عنوان رئيس وهو الإسلام([2]). كما نلحظ ذلك في قوله تعالى: [**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ**]([3]).

فالإسلام بما هو مجموع التّوجيه الإرشادي الرّباني الضّروري العام، الذي يهدي حياة البشر إلى منهج تحقيق خلافتهم في الأرض، والاستعداد للوراثة الأخرويّة([4])، هو الدّين الذي جاء به جميع

([1]) الشوكاني، **فتح القدير**، 529/4. (طبعة دار الفكر، بيروت).

([2]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 226/3.

([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 19.

([4]) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 131/3، (طبعة دار الفكر، بيروت).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأنبياء عليهم السّلام كذلك، ليبنوا به وعي الإنسان بدورته الوجوديّة، ويؤطّروا به حركته الاستخلافية في الأرض([1])، وهو ما جاء التّأكيد عليه على ألسنة كلّ الأنبياء والرّسل عليهم السّلام، كما يتّضح ذلك على سبيل المثال فيما ورد على ألسنة بعض الرّسل الذين ذكرهم القرآن الكريم([2])، ويكفي أن نذكر هنا ما ورد على لسان إبراهيم أبي الأنبياء عليه السّلام وبنيه من بعده، كما جاء ذلك في القرآن: **[رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ]**([3]) .

والقرآن لا يعرض الإسلام كدين للبشريّة وحدها، بل يعرضه كدين لكلّ الكائنات الكونيّة، من حيث أنّه يعني حركة الامتثال لإرادة الله، والخضوع لسننه في خلقه، من قبل كلّ الكائنات الكونيّة، وعد الخروج على هذه النّواميس الماضيّة في الخلائق جميعها. كما نلمس ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: **[أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ]**([4]). فالإسلام ناموس كوني عام.

2. **التّأكيد على ثوابت الوعي الرّسالي:** وهي الأصول والكلّيات التي جاءت في شؤون العقيدة والعبادة والشّريعة والأخلاق. أي في كلّيات ومقوّمات الوعي بالدّورة الوجوديّة للإنسان. لأنّ هذه الأصول والثوابت واحدة لا تتغير ولا تتبدّل، وإليها يعود الفضل في المحافظة على إنسانيّة الإنسان، وفي تمكينه من أداء مهمّته في الحياة([5]). والإسلام جاء مستصحبا لثوابت وكلّيات هذا الوعي لا ناقضا لها. قال تعالى: **[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ]**([6]) ، وقال سبحانه: **[شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ]**([7]) وقال كذلك: **[قُولُوا آَمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا**

([1]) رشيد رضا، **المرجع السابق**، 226/3.

([2]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** 18/ 79.

([3])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: من أية 128 إلى أية 133.

([4])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 83.

([5]) محمد قطب، **التطور والثبات في حياة البشرية**، (دار الشروق، القاهرة، ط9، 1993)، ص177.

[6]) **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 48.

[7]) **القرآن الكريم**، سورة الشورى: 13.

فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ] ([1]).

فكـلّ ما في الرّسالات السّابقة من فطريّة وسننيّة وخيريّة ثابتة، وكلّ ما في الخبرة البشريّة من نضج وحكمة وخيريّة ثابتة، جاءت مستوعَبَة في الإسلام؛ سواء بشكل مباشر، أو عن طريق فسح المجال للعقل البشري لإبداع وتبنّي ما تحتاج إليه حياته من إمكانات ووسائل ومناهج تسخير، ليستثمرها في تلبيّة حاجات حركة الاستخلاف، ومواجهة تحدّياتها. من خـلال قواعد " الأصل في الأشياء البراءة "، و " وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب"، **[وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا]**([2]). و" الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقّ بها "([3]) و " أنتم أعلم بأمر دنياكم "([4]).

3. **التّأكيد على المراجعة والتّصحيح للخبرات السّابقة:** أي نقد وغربلة كلّ ما حدث من تغيير وتحريف في أصول الدّين وثوابته من ناحية. ولمّا استُهْلِكَ من تشريعاته الظّرفية، أو ارتبط به من اجتهادات تشريعيّة زمنيّة استنفدت أغراضها من ناحية أخرى، وأصبحت تشكّل ثقلا على الحياة الإنسانيّة، وعائقا في طريق انطلاقتها وتقدّمها . كما جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن: **[الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ]**([5]) .

فالإسلام حرص على تعميق الوعي بعدم استصحاب إلا ما هو سنني فطري ثابت في شرائع الدّين والخبرات الاجتهاديّة المرتبطة به، وتجاوز كلّ ما هوّ مؤقت أو متغيّر في هذه الشّرائع، أو كلّ ما ثبت خطؤه في الخبرات الاجتهاديّة البشريّة المنبثقة عنها([6]). كما نبّه إلى ذلك القرآن في قوله تعالى: **[بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ]**([7]).

فكلّ ما خالف فطرة الإنسان أو فطرة الكون من حوله، أو ناقض سنن الله في خلقه عامّة، أو أصبح غير ملبيٍّ لحاجات وضرورات تدافعات الحراك الاستخلافي، يجب أن يراجَع ويُردَّ ويُتجاوَزَ، ويُعزل عن مجموع رشد الخبرة الرّساليّة والبشريّة، ويستثنى من عمليّة الاستصحاب التّسخيري أو الوظيفي لها([8]). كما أكد على ذلك القرآن في قوله تعالى: **[تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا**

([1])**القرآن الكريم**، سورة البقرة : 136- 137- 138.

([2])**القرآن الكريم**، سورة طه: 114.

([3]) ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، 283/1 (طبعة دار بن عفان، 1416). ولم أذكرها هنا كحديث، ولكن كقاعدة فكرية أو أصولية عامة، لأن حديثيته لم تثبت.

([4]) أخرجه مسلم في **الصحيح**، باب وجوب امتثال أمره ... تحت رقم 2363.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 157.

([6]) القرافي، شهاب الدين بن أحمد، **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة،(دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1995)، ص219.

([7])**القرآن الكريم**، سورة الروم: 29 ، 30.

([8]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 735/1.

كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ](1)، وهو يحدّد الموقف من كسوب الأجيال السّابقة، والعلاقة التي يجب أن تربط الأجيال المعاصرة بها، في كلّ ما أصبح غير ذي جدوى من خبراتهم وتجاربهم السابقة(2).

4. **التّأكيد على التّكامليّة في الخبرة الرّساليّة والبشريّة:** كما يؤكّد الإسلام على العلاقة التّكامليّة العضويّة بين كل الرّسالات، وأنّها معا تشكّل حلقات في سلسلة متّصلة ومترابطة، يكمّل بعضها بعضا، ويمهّد بعضها لبعض، ويجدّد بعضها بعضا؛ في سيّاق عمليّة استكمال بناء الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والحياة والكون من جهة، ومنح حركة الاستخلاف البشري أصالتها وفعاليّتها واستمراريّتها المطلوبة من جهة أخرى، ووقايتها وتعزيز مناعتها الذّاتية في وجه كلّ التّحدّيات التي تطرحها عليها حركة الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد المحيطة بها، والفاعلة فيها بقوّة(3)، من جهة ثالثة.

فالإسلام كما أسلفنا لم يشكّل قطيعة بين أصول الأديان وثوابتها، ولا مع رشد الخبرات البشريّة السّابقة، ذات النّفَس الفطري السّنني القابل للاستصحاب والانتفاع. بل اعتبر نفسه امتدادا طبيعيّا للفطريّة والسّننيّة والخيريّة، الكامنة في كلّ الرّسالات والخبرات البشريّة السّابقة عليه. وإنّما كانت القطيعة مع كلّ ما هو ظرفي ومتغيّر، أو أثبتت التّجربة خطأه أو عدم جدواه أو تبيّن ضرره(4). وفي هذا المعنى جاء في القرآن[**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**](5)، وجاء في الحديث النّبوي قوله عليه الصلاة والسلام: (مثلي ومثل الأنبياء ، كمثل رجل بنى دارا فأتمّها وأكملها إلاّ موضع لبنة . فجعل النّاس يدخلونها ويتعجّبون منها ، ويقولون : لولا موضع اللّبنة ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : فأنا موضع اللّبنة . جئت فختمت الأنبياء)(6).

فالإسلام يتبنّى ويستصحب معه كلّ خبرة رساليّة أو بشريّة سابقة عليه، بل ويرتقي ببعضها إلى مستوى السّنن العامّة العابرة للأزمة والأمكنة والثّقافات، وببعضها الآخر إلى مستوى الفروض والواجبات، ويندب النّاس إلى أخرى ويرغّبهم فيها، ويفتح المجال أمامهم واسعا في المباحات والمحسّنات، ليأخذوا منها ما يرقي حياتهم، ويعمّق استمتاعهم بالخيرات المبثوثة في الكون(7).

خاتميّة الرّسالات السّماويّة وتأكيد دور الحركة الاجتهاديّة البشريّة: والقضية الأساسيّة الأخرى في علاقة الإسلام بالرّسالات السّابقة، هي أنّه يعتبر نفسه آخر هذه الرّسالات جميعا، وخاتمتها النّهائية، وأن نبيّه هو آخر الأنبياء والمرسلين وخاتمهم(8). كما جاء تأكيد ذلك في القرآن:[**مَا كَانَ**

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 134.

(2) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 414/1 .

(3) سيد قطب، **هذا الدين**، 10.

(4) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار**، ص 146.

(5)**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 3 .

(6) أخرجه مسلم في **الصحيح**، باب ذكر كونه خاتم النبيين، تحت رقم 2287 .

(7) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 365/8.

(8) عبد الرحمن بدوي، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، ترجمة: كمال جاد الله، (الدار العالمية للكتب، لبنان، د.ت) ص53.

مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا]([1])، وكما مرّت الإشارة إلى ذلك في الحديث الآنف كذلك. وكما جاء في أحاديث أخرى عديدة، مثل قوله عليه الصّلاة والسّلام: (إن الله زوى لي الأرض . . . وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلّهم يزعم أنّه نبي، وأنا خاتم النّبيين ،لا نبي بعدي)([2]). وقوله أيضا: (أنا محمّد وأنا أحمد وأنا الماحي الّذي يمحى بي الكفر وأنا الحاشر الّذي يحشر النّاس على عقبي وأنا العاقب . والعاقب الّذي ليس بعده نبيّ)([3]).

والّذي يهمّنا في قضيّة ختم النّبوات والرّسالات هنا، هو الدّلالات الفكريّة والوظيفيّة لذلك، والّتي تتمحور أساسا حول كون الدين في أصوله العقديّة والعباديّة والتّشريعيّة والأخلاقيّة قد اكتمل بنيانه([4]). وأنّ كلّ ما يحتاجه الإنسان لتأسيس الوعي بدورته الوجوديّة أو الكونيّة الكبرى، وإنجاز مهمّته الاستخلافيّة في الأرض، ووقاية منجزاتها الحضاريّة، وضمان حركتها على خط العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة والكونيّة، قد توفّر له بما فيه الكفاية([5]). وأنّه بذلك لم يعد في حاجة إلى التّوجيه الاستثنائي المباشر للوحي، وأن هذه المرحلة الانتقاليّة الطّويلة من تاريخ البشريّة قد انتهت، وتلتها مرحلة أخرى جديدة، انفسح فيها المجال واسعا أمام العقل البشري المستنير بمنطق التّكامليّة السّننيّة([6])، ليقود حركة الاستخلاف وعمارة الأرض، في ضوء التّكامليّة العضويّة الوظيفيّة بين منظومات سنن التّسخير الأربعة الّتي تحكم حركة الحياة؛ وهيّ منظومة سنن الله في الآفاق، ومنظومة سننه في الأنفس، ومنظومة سننه في الهداية، ومنظومة سننه في التّأييد([7]). الّتي سيرد الحديث عنها مفصّلا في الفصل التّالي.

فالعقل البشري بعد أن وضعت بين يديه كلّ هذه المعطيات والشّروط والموجّهات والمؤيّدات والمؤهّلات([8])، أصبح بإمكانه أن يحقق التّوازن الفعّال في إدارته لحركة الاستخلاف، وأن يدفع بحركة " الإبداعيّة الاجتهاديّة " الّتي تتأسّس عليها هذه الحركية الاستخلافية في الأرض، إلى أعلى مستويات أصالتها وفعاليّتها واطّراد حيويّتها، وأن يتحمّل المسئوليّة الاجتماعيّة والأخلاقيّة للتّبعات العاجلة والآجلة، الّتي تترتّب على خيّاراته الاجتهاديّة والإبداعيّة الحرّة، وعلى حرّية التّصرف في الإمكانات التّسخيريّة الهائلة الّتي أتيحت له([9])، وعلى موقفه من عموم الأمانات الّتي تحمل مسئوليّتها([10]). كما قال تعالى: [**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**]([11]).

([1])**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 40.

([2]) أورده الألباني في **السلسلة الصحيحة**، تحت رقم 252/4.

([3]) أخرجه مسلم في **الصحيح**، باب في أسمائه ﷺ،تحت رقم 2354.

([4]) الألوسي، **روح المعاني**، 60/6.

([5]) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت)، 251/2.

([6]) الشاطبي، **الاعتصام**، (دار المعرفة، بيروت، د.ت)، 318/2.

([7]) ابن باديس، **التفسير**، ص103.

([8]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 367/9.

([9]) ياسين عبد الجواد، **السلطة في الإسلام**، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998)، ص127.

([10])سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2884/5.

([11])**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 72.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هكذا تبدو علاقة الإسلام بالخبرات الرّساليّة، والاجتهادات البشريّة السّابقة عليه، مطبوعة بمنطق التّكامليّة والاستيعاب والاستصحاب لكلّ ما هوّ كلّي وعام وفطري وسنني فيها، ورفض وتجاوز لكلّ ما هوّ ظرفي أو مستهلك أو خاطئ فيها*، وانفتاح على" الإبداعيّة الاجتهاديّة " المتوازنة للعقل البشري، الّذي منحه الله سلطة مطلقة على المسخّرات، ليستثمرها في رفع مستوى أصالة وفعّاليّة أدائه الاستخلافي في الأرض، إلى أعلى مستوياته النّموذجيّة القصوى([1]).

الخصائص والمقوّمات المعياريّة الكلّية للرّؤية الوجوديّة الحق:

وتأسيسا على هذه التّكاملية والانفتاحيّة المتوازنة للإسلام على الخبرة الرّساليّة والاجتهاديّة البشريّة السّابقة. ومن أجل تحقيق إدراك نقدي موضوعي متوازن، لقيمة وأهمّية ما تعج به المنظومة أو الذّاكرة الثّقافيّة للبشريّة عامّة، من رؤى عقديّة وفكريّة وتصوّريّة شتى، عن « الدّورة الوجوديّة للإنسان »، ومعايرتها والحكم عليها، والانحياز إلى ما هوّ أصيل وحقيقي ونافع فيها، والبعد عما هو خرافي ومزيّف وضار فيها. نحاول هنا استخلاص جملة من المعايير الموضوعيّة، الّتي ينبغي أن تتوفّر في كلّ رؤية عقديّة أو كونيّة تطمح إلى تأسيس الوعي " بالدّورة الوجوديّة للإنسان"، واستيعاب حركته الاستخلافيّة في الأرض، وتأطير نشاطه التّسخيري، وإقداره على الموّاجهة الواعيّة الفاعلة لتحدّيات حركة الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد الّتي تحيط به، وتؤثّر فيه بعمق وشمول وقوّة.

وبما أنّ هذه الخصائص والمقوّمات المعياريّة عديدة، فإنّنا سنقتصر على ما هو محوري وجوهري فيها، ويتمثّل في رأينا فيما يلي:

خاصيّة الرّبانيّة([2]): الرّب في الأصل: التّربية، وهو إنشاء الشّيء حالا فحالا إلى حد التّمام. فالرّب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرّب مطلقا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات. وعلى هذا قوله تعالى: **[وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا]** ([3]). أي آلهة([4]).

ونعني بالرّبانيّة هنا أن يكون مصدر الوعي الكلّي بالدّورة الوجوديّة للإنسان إلهيًّا، صادرا عن الخالق الفعلي للإنسان والكون، وليس صادرا عن المخلوقين([5]). لأنّ ربّانيّة مصدر هذا الوعي الكلّي تقتضي موضوعيّته وفطريّته وعقلانيّته وشموليّته وتكامليّته وتوازنه وواقعيّته وقدرته على التّجدد كما سنرى ذلك لاحقا. فالخالق الفعليّ للكون والإنسان، هو وحده القادر على منح الإنسان المخلوق الوعي الكلّيّ الصّحيح بدورته الوجوديّة الكبرى، ووضع النّموذج المرجعي المتوافق مع قدراته، والمنسجم مع حاجاته، والكفيل بتمكينه من تحقيق رسالته في الأرض. أمّا ما يصدر عن اجتهادات المخلوقين في هذه القضايا الكلّية الكبرى، فهو يتّصف دائما بالجزئيّة والذّاتيّة والظّرفيّة والقصور.. إلى ما هنالك من

---

* بالنسبة للخبرات الاجتهادية البشرية بالخصوص، لأن الخبرات الرسالة معصومة في عمومها، وما يحدث فيها من تصرفات مفضولة أو خلاف الأولى، يتم تصحيحها عبر الوحي مباشرة.

([1]) سيد قطب، **المرجع السابق**، 1553/2.

([2]) أنظر تفاصيل ضافية في: **المصطلحات الأربعة** للمودودي، و**خصائص التصور الإسلامي** لسيد قطب، و**الخصائص العامة للإسلام** للقرضاوي.

([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 80.

([4]) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص554.

([5]) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص71.

النّواقص الّتي تلازم الجهد البشري المستقل عن توجيه الوحي وتسديده، مهما كانت عبقريّة الإنسان الّذي يصدر عنه ذلك الوعي. وفي هذا المعنى يقول العماد الأصبهاني وهو يتحدّث عن القصور الملازم لعمليّة التّأليف على سبيل المثال : " إنّي رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا، لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النّقص على جملة البشر"([1]).

فالإنسان عندما يشرِّع أو يتصوّر نموذجا مرجعيّا ما لتحليل وتفسير وتأطير أو توجيه الحياة، يتأثر بشكل كبير جدّا بمستواه المعرفي، وبطبقته ووضعه الاجتماعي، وبمصالحه الآنية، وبطموحاته الذّاتية، وبالضّغوطات المفروضة عليه في بيئته وعصره. فالذّاتية تؤدّي دورا كبيرا في كثير ممّا يصدر عنه من مواقف وتصوّرات واجتهادات. وهو ما أشار إليه قوله تعالى: **[وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ** مُعْرِضُونَ]([2]). بينما ما يصدر عن الرّبانيّة، فإنّه يتّسم بالحيّاديّة والموضوعيّة المطلقة، والانحيّاز إلى كلّ ما فيه مصلحة الإنسان والكون. وفي هذا السّياق أشار علماؤنا إلى أنّه من مقاصد الشّريعة الأساسيّة أنّها جاءت لتخرج الإنسان من داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيّارا كما هو عبد لله اضطرارا([3]). وأنّ تلك ضرورة وجوديّة لا غنى للبشر عنها، بل لا غنى عنها للكون كله([4]). كما نبّه إلى ذلك القرآن في قوله تعالى: **[وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ]**([5]).

ومن هذا المنطلق فإنّ خاصيّة الرّبانيّة تكتسي أهمّية قصوى بالنّسبة لموقف الإنسان من الوعي بدورته الوجوديّة، لأنّها تضمن قوّة ومطلقيّة الثّقة في صدقيّة هذا الوعي، والشّعور العميق بقدسيّته، وشدة الإحساس بالحاجة إليه[(6)]، بل والحذر والخوف المتنامي من تقصيرها في استيعاب هذا الوعي أو الغفلة عن الالتزام به. وقد احترزنا بالرّبانيّة هنا – أي بإلهيّة مصدر الوعي – حتّى نخرج من الدّائرة بقيّة مصادر القداسة الأخرى الّتي تتلبّس بظواهر الوجود المختلفة، وتمارس سلطانا موهوماً على النّاس[(7)]. في الوقت الذي لا تخرج فيه عن كونها مجرّد مظاهر كونيّة مخلوقة ومربوبة ! فكيف نرتقي بها إلى مستوى استمداد الوعي الوجودي منها ! وهو ما يندرج في الحقيقة في سيّاق معضلة الشّرك الذي ينخر الحياة البشريّة، ويجرّدها من معاني الكرامة والتّسامي والفعّاليّة والخيريّة الاجتماعيّة([8]).

فالرّبانيّة هيّ الجذر الأوّل والأساس في بنية الهيكل المعياري للرّؤية الكونيّة الحقّة، لأنّها وحدها هيّ الّتي تضمن الشّعور بالقداسة، والاطمئنان إلى موضوعيّة الوعي، ومن ثم الثّقة المطلقة فيه،

([1]) هذه العبارة للعماد الأصفهاني، وقد أوردها طه عبد الرؤوف في مقدمة تحقيقه لكتاب **إعلام الموقعين** لابن القيم.

([2])**القرآن الكريم**، سورة المؤمنون: 71.

([3]) الشاطبي، **الموافقات**، 128/2.

([4]) الألوسي، **روح المعاني**، 345/18.

([5])**القرآن الكريم**، سورة المؤمنون: 71.

(6) عبد الله دراز، **الدين**، ص40.

(7) ميرسيا إلياد، **الحنين إلى الأصول**، ص7، 6.

([8]) أنظر رسالة **الشرك ومظاهره** لمبارك الميلي، (طبعة دار البعث، الجزائر)؛ **الشرك في القديم والحديث** لأبي بكر محمد زكريا، (مكتبة الرشاد، الرياض، السعودية، 2001).

والامتثال للقوّة الرّوحيّة والأخلاقيّة الإلزاميّة فيه. وذلك هو الفارق الجوهري الهائل بين سلطة الوعي الدّيني عامّة على حياة الإنسان، وسلطة الوعي الوضعي عليها. كما تؤكّده الدّراسات المختصّة من ناحية([1])، وكما يعيشه كلّ إنسان في تجربته الدّاتيّة مع سلطة الوعيين وموقفه منهما من ناحية أخرى.

خاصية الشّموليّة: أي أن تكون الرّؤية مستوعبة لكلّ أبعاد وجوانب ومراحل وحاجات « الدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان »، بحيث تستطيع أن تقدّم له تفسيرا مقنعا ومتوازنا عن كلّ الإشكالات الوجوديّة الكبرى في حياته[2]. انطلاقا من الجواب عن سؤال البداية، والطبيعة، ومرورا بأسئلة الوظيفة والمنهج، وانتهاء بأسئلة المصير والنّهاية، والمعنى الكلّي للوجود والحياة([3]).

فالرّؤية التي لا تستوعب كلّ هذه الأبعاد في الدّورة الوجوديّة للإنسان؛ استيعاب بيان وتفسير للمنطلقات والغايات، وضبط للعلاقات، وتحديد لمناهج التّسخير، وترشيد لحركة الاستخلاف، لا ترتقي إلى مستوى الصّحة والصّدقيّة والفاعليّة المطلوبة. حتّى وإن كان مصدرها ربّانيّا في الأصل! وسيظلّ مفعولها جزئيّا تنافريّا إهتلاكيّا، يؤثر سلبا على عمليّة استثمار الإنسان « لميزانيّته التّسخيريّة » ، ومن ثمّ على طبيعة وضعه وموقعه ومصيره، في خضم حركة الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد المهيمنة على حياة البشر.

وكما سبق أن أوضحنا، فإنّ الرّؤية الشّموليّة المستوعبة للأجوبة عن الأسئلة الكونيّة الكبرى، لا يمكن أن تصدر إلاّ من الرّب الخالق، الذي يحيط بعلمه وحكمته بكلّ شيء في الوجود، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء. كما جاء ذلك في القرآن:**[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]**([4]).

فشموليّة الرّؤية الكونيّة لازمة من لوازم الرّبانيّة، لا تنفك عنها بأيّ حال من الأحوال، وليس بمقدور البشر مجتمعين أو متفرقين، أن يبنوا لأنفسهم رؤية كونيّة شموليّة متكاملة متوازنة، عن دورتهم الوجوديّة الكبرى، بمعزل عن إرشاد وتوجيه الرّبانيّة وهدايتها. لأنّهم محكومين بطبائع البشريّة القاصرة عن الإحاطة بكلّ أبعاد الزّمان والمكان والإمكان، وبعموم السّنن الكلّيّة الفاعلة في ذلك كله.

وتاريخ البشرية الطّويل، يشكل مخبرا حقيقيّا عن عجز الإنسان عن الاستقلال بمفرده، ببناء رؤية كونيّة متكاملة ومتوازنة وصحيحة، عن دورته الوجوديّة الكبرى، كما يتجلى ذلك في ظواهر الشّرك والضّلال والكفر والنّفاق والأنانيّة والظّلم.. التي كثيرا ما يتورّط فيها البشر، ويرزحون تحت ثقل ووطأة مفرزاتها الفكريّة والنّفسيّة والسّلوكيّة والاجتماعيّة والحضاريّة المنهكة([5])، بل والمدمّرة في

([1]) ديل كارنيجي، **دع القلق وإبدأ الحياة**، ترجمة: عبد المنعم الزبادي، (مكتبة الخانجي، مصر، ط5، 1956)، ص359؛ بيار داكو، **الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث**، ترجمة: وجيه سعد، (مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت)، ص736.

(2) المطرودي عبد الرحمن ابن إبراهيم، **الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في** ضوء **القرآن الكريم**، (مكتبة وهبة، القاهرة، 1410) ص286.

([3]) سيد قطب، **الظلال**، ص155.

([4])**القرآن الكريم**، سور سبأ: 3.

([5]) جان ماري بيلت، **عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة**، ترجمة: السيد محمد عثمان، (سلسلة كتاب المعرفة، رقم: 189،الكويت 1994)، ص14.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكثير من الأحيان([1])، والتي دعا القرآن بقوّة إلى رصدها ودراستها واستخلاص الدّروس منها. كما يتجلّى ذلك في قوله تعالى: **[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ]([2]).**

وما دام القصور عن العلم المحيط بالمكان والزّمان والإمكان، وبعموم السّنن الفاعلة في ذلك كلّه، صفة ملازمة للبشريّة، بل ولكلّ ما سوى الله من المخلوقات، التي سيبقى علمها وقدرتها محدودين جدا([3])، بالنّسبة إلى الأسئلة الكونيّة الكبرى التي يطرحها الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والكون على البشر، مهما أوتوا من المعرفة والقدرة. فإنّ المنطق يقتضي أن تكون الرّؤية الكونيّة المؤسّسة لوعي الإنسان بدورته الوجوديّة الكبرى، متّسمة بالشّمول، وذلك لا يتوقر إلاّ في رؤية تستمد معطياتها من خاصّية الرّبّانيّة المحيطة بأبعاد الزّمان والمكان والإمكان، وبعموم السّنن الفاعلة في ذلك كلّه.

خاصّيـة الفطريّـة: الفطرة هيّ إيجاده الشّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال([4]). قال تعالى: **[فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا]([5])**. وهيّ تعني بصفة عامّة ما أودعه الله في الكائنات الكونيّة من طبائع وجبلات وأنظمة ذاتيّة، تؤهّل كلا منها لأداء وظيفته الوجوديّة في الحياة، بكفاءة واطّراد. يقول ابن عاشور: " الفطرة هي النّظام الذي أوجده الله في كلّ مخلوق، والفطرة التي تخصّ نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسديّة، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسديّة، واستنتاج المسبّبات من أسبابها والنّتائج من مقدّماتها فطرة عقليّة، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقليّة وهو المسمّى في علم الاستدلال بفساد الوضع، وجزمنا بأنّ ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود ونفس الأمر فطرة عقليّة، وإنكار السوفسطائيّة ثبوت المحسوسات في نفس الأمر خلاف الفطرة العقليّة"([6]).

وعلى هذا الأساس فإنّ خاصيّة الفطريّة هنا تعني، أن تكون الرّؤية الكونيّة منسجمة تماما مع حقائق الفطرة الكونيّة عامّة، والفطرة البشريّة خاصّة(7)، ومحققة لهذه الفطرة، ومرقّية لها في الإنسان، وفيما يقيمه ويطوّره من نماذج استخلافية، ووسائل ومناهج تسخيريّة، ومحافِظة عليها. فلا تعارض ثوابتُ هذه الرّؤية وكلّياتها، ثوابت الفطرة وكلّياتها، ولا تصادمها ولا تكبتها(8)، بل تتناغم معها؛ تحليلا وتفسيرا واستثمارا، وتدفع عنها ما يعرضّها للتّدليسيّة والإخراج لها عن وظيفتها في الوجود ونظام التّسخير والاستخلاف.

وكلّ رؤية صادمت أو صادرت أو كبتت هذه الفطرة، فإنها تعطي مؤشّرا قويّا على ضعفها

([1]) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص**35.

([2])**القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

([3]) الطبري، **جامع البيان**، 157/15.

([4]) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص 324.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الروم: 30.

([6]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 90/21.

(7) أحمد حسن فرحات، **فطرة الله التي فطر الناس عليها**، (دار البشير، عمان، الأردن، 1407هـ)، ص32-72.

(8) ابن القيم، **شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تحقيق: مصطفى أبو النصر الشلبي، (مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، السعودية، 1412هـ)، 299/2.

وقصورها وفقدان حجيتها وشرعيتها ومصداقيتها، ومن ثم أحقيتها في أن تكون مرجعيّة كونيّة حقيقيّة، وتتزل إلى مستوي الخبرات المرجعية البشريّة الجزئيّة المحدودة، التي لا يمكنها أن تفسر أو توجّه إلا جوانب محدودة من الحياة . فاتّساق أصول الرّؤية الوجوديّة وثوابتها العقدية والفكريّة والمقاصديّة والمنهجيّة.. مع سنن الله في الخلق والتّسخير والاستخلاف، أمر ضروري لارتقاء هذه الرّؤية إلى مستوى الرّؤية الوجوديّة أو الكونيّة الحقيقيّة، التي يعوّل عليها في بناء الوعي البشري بدورته الوجوديّة الكبرى.

وعلى هذا الأساس فإنّه لا يخفى أن اتسام الرّؤية الكونيّة بهذه الفطريّة الذّاتيّة الشّاملة، واتّساق مفرداتها مع فطرة الإنسان والحياة والكون، أمر متوقف على العلم المحيط بالكون وطبائعه، وعلى الحكمة المحيطة بأسرار الخلق وغاياته ومقاصده العليا، وهو ما ليس متاحا للبشر مجتمعين، ناهيك عن أن يكون متاحا لبشر واحد أو لمجموعة بشرية معينة، بمعزل عن الوحي الإلهي المكمّل والمسدّد للعبقريّة البشريّة، كما نبّه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:**[قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]**([1]).

فبناء الوعي الشّمولي التّكامليّ الفطريّ المتوازن، بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والحياة والكون، أمر فوق طاقة البشر، ولا يملك القدرة عليه إلاّ خالق الكون والحياة والإنسان فعلا، الذي يحيط علمه وحكمته بالوجود وسننه وجبلاّته وطبائعه جميعا[(2)]. وهو ما أشار إليه القرآن في سيّاق استنقاذ الجهد البشري من متاهات الشّرك ومغابّه، وقطع أمل البشر في إمكانيّة الاستقلال بهذا الوعي الكلّي، بمعزل عن الوحي الإلهي المكمّل والمسدّد للعبقريّة البشريّة، وتوجيه الاهتمام إلى ضرورة الانفتاح على الهداية الرّبانيّة وعدم تضييع الوقت والجهد في البحث عن بدائل وضعيّة لها، أو البحث عن هذه الهداية خارج نطاق ما أفضت إليه حركة الوحي في صيرورتها النّهائية([3]). فقال تعالى: **[قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ]**([4]).

خاصيّة المعقوليّة: أي أن تكون الرّؤية الوجوديّة؛ في بنيتها العقديّة والفكريّة والمنهجيّة الذّاتيّة الكلّية، قابلة للفهم والتّعقل والاستساغة من ذوي الفطر السّليمة، والعقول الرّاجحة[(5)]، ولا يوجد فيها ما يحيله العقل الموضوعي المتوازن، أو يرى أن غيره أفضل منه، حينما يوازن بين الأمور، ويقارن الأشياء ببعضها، بل يصل باستمرار إلى نفس النّتيجة عبر الأجيال، حتّى وإن احتاج إلى تدرّج زمني لإدراك حقائق الأمور.

وتكتسي خاصيّة المعقوليّة أهمّية كبيرة في الدّلالة على صحّة ومصداقيّة وحجّية الرّؤية الوجوديّة، لأنّ المعقوليّة المتوازنة في هذه الرّؤية تؤكّد لهذا العقل البشري الفطري المتوازن، ما هو كامن في جبلّته من موازين المنطق والحق والعدل والحكمة، وتشعره بأن ما تطرحه على الإنسان من تصوّرات وقيّم وموازين في الوعي والحياة، يتّسم بالمنطقيّة والمعقوليّة والسّننيّة، المنسجمة تماما مع حقائق الفطرة السّليمة، والمستجيبة لتطلّعات وحاجات الإنسان في الحياة.

([1])**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 88.

(2)عبد الله دراز، **الدين**، ص95.

([3]) طه جابر العلواني، **ابن تيمية وإسلامية المعرفة**، (الدار العالمية للكتاب، الرياض، السعودية، 1995)، ص61.

([4])**القرآن الكريم**، سورة يونس :35.

(5) الشاطبي، **الموافقات**، 15/3؛ أحمد الغمراوي، **في سنن الله الكونية**، ص9–10؛ حبنكة، **العقيدة الإسلامية**، ص33.

فإمكانيّة التّعقل والفهم والاستيعاب لحقائق الرّؤية الوجوديّة الكليّة للحيـاة، يجـب أن تكـون خاصيّة ذاتيّة أساسيّة فيها، حتى تستجيب لها الفطرة البشريّة، ويمتثّل لها العقل الإنساني الّذي جعله الله تعالى القوّة المركزيّة الذّاتيّة التي يدرك بها الإنسان ذاته وما حوله، ويمتلك القابليّات التـي بموجبهـا تجري عليه التّكاليف، ويتحمّل أمانة الاستخلاف في الأرض، ويتحقـق بمعـاني ومقاصـد التّكـريم والتّشريف والتّفضيل([1])، وبدونها لا يمكنه أن يدخل في دائرة التّكليف والحريّة والمسئوليّة، بل وتنتفي عنه المساءلة تماما([2]). كما جاء في الحديث: (رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على عقلـه حتّى يفيق ، وعن النّائم حتّى يستيقظ ، وعن الصّبي حتّى يحتلم)([3]).

وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ ما ليس معقولا أو علميا قابلا للفهم والتعقل من قبل المكلفين، فهوّ بعيد عن الفطريّة والرّبانيّة، لاستحالة تناقض سنن الله في خلقه، لصدورها جميعا عنه سبحانه وتعالى، ولاستحالة تكليف الله تعالى النّاس بما لا يُفهم أو يطاق، لأنّ ذلك منافٍ لعدله ورحمته بخلقه، وهدايته لهم([4]). وفي ذلك جاء قوله تعالى: **[لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ]**[5]. وقد جاءت كلّ شرائعه قابلة للفهم والاستيعاب والتّطبيق من قبل المكلّفين([6]). كما نلمس ذلك في قوله تعالى وهو يشير إلى حقيقة الدّين وجوهره بصفة عامّة: **[وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ]**([7]).

يقول سيّد قطب: " العقيدة الّتي لا شيء فيها إلّا المعميّات الّتي لا تدركها العقول ليست عقيـدة! فالكينونة البشريّة تحتوي على عنصر الوعي. والفكر الإنساني لا بد أن يتلقى شيئا مفهوما له، له فيـه عمل، يملك أن يتدبّره ويطيقه.. والعقيدة الشّاملة هي الّتي تلبّي هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة، وهيّ تجد في العقيدة كفاءة ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق"([8]). ولعلّ في تعريف الـدّين الـذي شاع في الفكر الإسلامي وهو أنّه: " وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الـصّلاح فـي الحال والفلاح في المآل)([9]) ، ما يؤكد كون قابليّة التّعقل والفهم والتّطبيق، تشكّل ضرورة ذاتيّـة فـي الدّين، بدونها تنتفي عنه خاصيّة أساسيّة من خواصه الذّاتيّة، ويفقد ركنا أساسيّا من أركان مـصداقيّته وفاعليّته الرّوحيّة والوظيفيّة.

([1]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 293/10.

([2]) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 229/1.

([3]) أورده الألباني في **صحيح أبي داود**، تحت رقم 4401.

([4]) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، (دار النفائس، بيروت، لبنان، 2005) 146/1.

([5])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 286.

([6]) الشاطبي، **الموافقات**، 67/2.

([7])**القرآن الكريم**، سورة الحج: 78.

([8]) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص194.

([9]) التهانوي، محمد علي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، (بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 1996)، 814/1.

فالرّؤية المرجعية الموجّهة لحياة الإنسان، ينبغي أن تكون قابلة للفهم من قبل النّاس، ومتناغمة مع فطرتهم السّليمة، ومستجيبة لتطلّعاتهم وحاجاتهم في الحياة بشكل سلس وفعّال، وقابلة للتّأثير فيهم، وكلّ ما خرج عن نطاق الفهم والاستيعاب من قبل العقول والفطر السّليمة، ودخل في المعمّيات والإعسار، فهو إمّا نموذج خاطئ، أو قاصر لا يفي بالمطلوب، يجب على الإنسان أن يحذر التّورّط في متاهاته المنهكة والمهلكة.

وتأصيلا لهذه المعقوليّة والعلميّة في وضع الشّرائع ذاتها، وفي فهم هذه الشّرائع من قبل المكلّفين، وفي قابليّتها للتّطبيق والعمل بها، جاءت القاعدة القرآنيّة المنهجيّة الذّهبيّة: **[وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا]**([1]). أي ولا تتّبع ما لم تعلم، فلا تقل رأيت وما رأيت، وسمعت وما سمعت، وابن كلّ مواقفك وأحكامك على المعرفة الموثوقة ما أمكنك ذلك([2]). فإذا كانت الرّؤية الوجوديّة غير مفهومة أو غير قابلة للتّطبيق، فإنّها تصبح بلا معنى، وتكون سببا في إبطال التّكليف، وتفويت فرصة تحقيق أمانة الخلافة في الأرض على الإنسان، وهذا ما لا يُتصوّر من الله الخالق، وما لا يصدّق على ما جاءت به النّبوّات جميعا، ويدفعنا إلى التّأكيد على كون المعقوليّة الذّاتيّة والقابلة للفهم والتّطبيق من قبل المكلّفين، لازمة أساسيّة من لوازم خاصيّة الرّبّانيّة في الرّؤية الوجوديّة، ومقوّم جوهري من مقوّمات هذه الرّؤية.

بقي أن نشير إلى أنّ الرّؤية الكونيّة ذات المصدر الرّبّاني، تتميّز وتمتاز باستمرار، ببنية معرفيّة واقعيّة دقيقة ومرنة في الوقت نفسه[(3)]، تتيح الفرصة لكلّ مستويات الوعي البشري، الأدنى والمتوسط والأعلى، ليدرك منها كلٌّ ما يعمّق إحساسه بقداستها، ويقوّي ثقته في مصدرها، ويعزّز امتثاله الطّوعي لها.

خاصيّة التّوازن: أي أن تكون البنية المعرفيّة الذّاتيّة للرّؤية الوجوديّة، منتظمة الأبعاد والنّسب والمواقف والأحكام، وفق ميزان منضبط ومطّرد، يسري على كلّ مفردة من مفرداتها الجزئية، ويجعلها تتكامل مع بقيّة مفردات البنية الهيكليّة للنّسق العام الذي تتحرّك في إطاره، وتؤدّي دورها الوظيفي ضمنه[(4)].

والرّؤية الوجوديّة التي يختلّ فيها التّوازن بين أبعادها الرّئيسة، أو بين مفرداتها الجزئيّة، ولا تحافظ على استمراريّة توازنها الذّاتي والوظيفي، تفقد أصالتها وقدرتها على الانسجام والتّماسك الذّاتي، ومن ثمّ قدرتها على التّحليل والتّفسير والاستشراف، وبالتّالي قدرتها على التّحكم والتّأثير في صيرورات حركة الحياة، وهو ما ينتهي بها أخيرا إلى فقدان سلطتها الرّوحية ومصداقيّتها الاجتماعيّة. وفي القرآن إشارات كثيرة إلى المخاطر التي تترتّب على فقدان التّوازن في الرّؤية الوجوديّة للإنسان، كما جاء ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال: **[حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ** سَحِيقٍ]([5]).

([1])**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 36.

([2]) النسفي، **تفسير النسفي**، 286/2.

(3) عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، (دار القلم، الكويت، 1970م)، ص108 وما بعدها.

(4) المبارك محمد، **نحو إنسانية سعيدة**، (مطبعة جامعة دمشق، 1381هـ)، ص121.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الحج: 31.

والصّيرورات الاجتماعيّة والحضاريّة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، تبيّن لنا كم هو عسير وعصي جدّا على الفكر الوضعي أن يحقق التّوازن في رؤاه وأطروحاته المفسّرة للدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان والحياة والكون، أو المؤطّرة لصّيرورات حركة الاستخلاف البشري في الأرض، حتّى شكل عدم القدرة على التّوازن، إشكالا رئيسا، بل ومعضلة كبرى في الوعي الاستخلافي البشري عبر التّاريخ، تحطّمت عليها جلّ جهود الإنسان ومكابداته من أجل تحقيق النّموذج الاستخلافي المتكامل في الأرض([1]).

لقد ضلّ الجهد الاستخلافي البشري الّذي تحرّك بمعزل عن توجيه هدايات الوحي، أو تعرَّضت فيه هذه الهدايات للتّجزئة والتّشويه والتّهميش، يعاني بشدّة من مضاعفات اختلال معادلات التّوازن والتّناسب بين الأبعاد الأساسيّة الّتي تنتظم الوجود البشري، وتشرط أصالة وفاعليّة واطّراديّة حركته الاستخلافيّة في الأرض. وتتجلّى لنا مظاهر هذا الاختلال على سبيل المثال، في عسر بل وعجز الموازنة والمواءمة في حياة الإنسان وحركته الاستخلافية([2])، بين:

الغيبي والشّهودي
والمادّي والرّوحي
والعقلي والعاطفي
والفردي والجماعي
والثّابت والمتغيّر
والمثالي والواقعي
والحق والواجب
والحرّية والمسئوليّة
والوحدة والتّنوع
والاستقلاليّة والتّكامليّة.

وظلّت حياته تعاني بشدّة من المضاعفات الحادّة لأنواع شتّى من الازدواجيّات التّنافريّة المنهكة، بل والمهلكة في أحيان كثيرة، الّتي طبعت حياته وحركته الاستخلافيّة بالتّذبذب والصراعيّة والاهتلاكيّة والضّنكيّة، وقلّة البركة([3]). ويأتي في مقدّمة هذه المؤثرات المؤسسّة للازدواجيّة التّنافريّة المنهكة في حياة الإنسان، مؤثّر الشّرك المذرذر للوعي والاهتمام والطّاقة([4])، كما أشارت إلى ذلك الآية السّابقة، ويشير إليه كذلك الحديث النّبويّ الّذي جاء فيه: (من كانت الدّنيا همّه فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدّنيا إلّا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيّته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدّنيا وهيّ راغمة)([5]).

وعلى هذا الأساس فإنّ التّوازن يجب أن يتوفّر في بنية المنظومة الهيكليّة للنّسق المعرفي والمنهجي للرّؤية الوجوديّة ذاتها أولا، بحيث تكوّن بعناصرها ومفرداتها وآليّاتها المنهجيّة والوظيفيّة، كلاًّ متكاملا ومنسجما، لا يطغى فيه جانب ما على جانب آخر، أو يأخذ فيه بُعد ما حجما أكثر من

([1]) إريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ص15.

([2]) محمد قطب، **دراسات في النفس البشرية**، ص73.

([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 21/9.

([4]) دراز، **الدين**، ص160.

([5]) أورده الألباني في **صحيح سنن ابن ماجة** (مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1407هـ)، تحت رقم 3329.

حجمه الطّبيعي، بل تتوزّع فيه الأدوار والوظائف بشكل متناسب مع طبيعة ودور كل عنصر من عناصر هذه الرّؤية في حركة الحياة([1]). ثم يأتي التّوازن في عملية تفسير الدّورة الوجوديّة للإنسان والكون عامة، وحركة التّسخير والاستخلاف خاصّة ثانيا، بحيث تحقق فيها الانسجام والتّكامل والفعّاليّة كذلك، وتجنّبها مشكلات التّنافريّة والإهتلاكيّة الذّاتيّة أو الاجتماعيّة أو الحضاريّة أو الكونيّة.

والخبرة البشريّة الطّويلة، تؤكد لنا استحالة ارتقاء الوعي البشري المعزول عن الوحي[(2)]، إلى الاستقلال بتأسيس رؤية متوازنة عن « الدّورة الوجوديّة للإنسان »، بل هو باستمرار في حاجة إلى مالك العلم المحيط بفطر وسنن وجبلات الوجود الكوني، والوجود البشري، والوجود التّاريخي، المهيمن عليها في كليّاتها وجزئيّاتها، وتفاعلاتها، وبداياتها ونهاياتها جميعا، ليكمل ويهدي العقل البشري في تطلّعه إلى حياة متوازنة، وفي بحثه الدّءوب عن شروط وضمانات تحقيقها.

إذا توفّرت هذه الخصائص والمقوّمات المعياريّة في رؤية كونيّة ما، أمكنها أن تؤسّس وعيا موضوعيّا حقيقيّا عن الدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان، وأن تمنحه بالتّالي مفاتيح الوعي التّسخيري والاستخلافي المتكامل، وترتقي بمستوى آدائه الحضاري في معتركات الابتلاء والتّدافع والتّداول والتّجديد، إلى درجات رفيعة من الأصالة والفعّاليّة والاطّراد. لأنّه سيتحرّك في هذه الحالة لتلبيّة حاجاته الرّوحيّة والمادّية، الفرديّة والجماعيّة، العاجلة والآجلة، وهو مزوّد بخريطة دقيقة عن نفسه، وعن الكون المحيط به، وعن الصّيرورة الوجوديّة في بداياتها وتحوّلاتها، ومصيرها، والقوّة الفاعلة في ذلك كلّه، والعلاقة التّبعيّة للإنسان والكون والحياة بهذه القوّة المهيمنة على الأقدار، وهو ما يمنحه الثّقة والوضوح واجتماع الهمّ في استثمار ميزانيّته التّسخيريّة بصورة شاملة وفعّالة ومتوازنة، كما مرّ في الحديث آنفا.

آثار أصالة الرّؤية الوجوديّة على حركة الاستخلاف البشري:

والآن نحاول تلخيص بعض آثار أصالة هذه الخصائص والمقوّمات في الرّؤية الوجوديّة، على حركة الوعي التّسخيري والاستخلافي البشري – وقد مضى طرف من هذه الآثار في مطلع الحديث عن أم الإشكاليّات الوجوديّة الكبرى – استكمالا لإبراز الأهميّة الحيويّة الحاسمة للوعي بالدّورة الوجوديّة في حياة الإنسان:

- وفي مقدّمة هذه الآثار الفهم الشّمولي الصّحيح لطبيعة الإنسان، وحقيقة وجوده، ومهمّته الوجوديّة، وموقعه في الكون، وعلاقته بغيره من مكوّنات هذا الكون ومفرداته، وحجم وحدود الطّاقات التّسخيريّة التّي منحت له... وهيّ دون شكّ إحدى المشكلات الرّئيسة التّي عانى ويعاني منها الإنسان، حينما يتحرّك بعيدا عن تسديد الوحي ورعايته[3].
- والفهم الشّمولي الصّحيح لحقيقة الإنسان ودوره في الحياة، يؤدّي إلى تحقيق التّوازن والتّوافق الذّاتي للإنسان، والتّقليل من الاهتلاكات الذّاتيّة المنهكة التّي تتعرّض لها قواه وطاقاته عند ما

([1]) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي**، ص193.

(2) رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، ص54؛ الغزالي، **المنقذ من الضلال**، (مركز الكتاب، القاهرة، 1991)، ص43.

([3]) أنظر على سبيل المثال: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** لأبي الحسن الندوي، و**جاهلية القرن العشرين**، و**الإنسان بين المادية والإسلام**، و**الثبات والتطور في حياة البشرية** لمحمد قطب، و**موسوعة الحضارة** لويل ديورنت، و**الإنسان ذلك المجهول** لكاريل، و**إنسانية الإنسان** لرينيه دوبو...الخ .

يفقد توازنه الذّاتي[1]، ويتيه في خضم التّدافعات الكونيّة المهوّلة. وهي إحدى أخطر المشكلات التي تواجه البشر كذلك، وتعرّض « ميزانيّتهم التّسخيريّة » الذّاتيّة والجماعيّة للهدر والتّبديد، وتحرمهم من الاستمتاع الأمثل بحياتهم الدّنيويّة والأخرويّة بعد ذلك.

- والنّتيجتان السّابقتان تؤدّيان إلى تحقيق الانسجام والتّكامل الاجتماعي، كشرط ضروري لفعاليّة حركة التّسخير والاستخلاف البشري في الأرض[2]. باعتبارها حركة جماعية تكامليّة([3])، قائمة بالأساس على قدرة تكتيل الطّاقات وشحذها، وتوجيه الجهود بفعاليّة وتوازن وتناسق نحو أهدافها الاجتماعيّة المحدّدة[4].

- شموليّة وفعاليّة استثمار منظومات سنن التّسخير الهائلة الّتي وضعها الله تعالى بين يدي الإنسان، في سيّاق تأهيله لوظيفته الوجوديّة في الحياة؛ وهيّ منظومات سنن الآفاق، وسنن الأنفس، وسنن الهداية، وسنن التّأييد، الّتي وضعت لتغطّي كلّ احتيّاجات الاستخلاف البشري في الأرض([5]).

- فعاليّة استثمار « الميزانيّة التّسخيريّة الكونيّة » للفرد والمجتمع، كنتيجة منطقيّة لتعبئة الجهود، وتكتيل الطّاقات على كل المستويات السّابقة([6])، وكمحصّلة منطقيّة كذلك لشموليّة وتكامليّة وفعاليّة استثمار منظومات سنن التّسخير كلّها، في تلبيّة حاجات حركة الاستخلاف وموّاجهة تحدّياتها.

- تحقيق التّناغم والانسجام مع الكون، والانتفاع بالخدمات المباشرة وغير المباشرة للكائنات الكونيّة ذات العلاقة بخلافة الإنسان في الأرض، والاستمتاع بما أودعه الله في عالم الشّهادة من نعم لا حصر لها[7]، وتهيئة شروط الاستمتاع الأشمل والأفضل والأرقى في مراحل الدّورة الوجوديّة التّالية للمرحلة الدّنيوية.

ويمكن الاستيثاق من كلّ هذه الآثار والنّتائج الإيجابيّة العظيمة، الّتي تمنحها شموليّة الرّؤية الوجوديّة للإنسان وفطريّتها ومعقوليّتها وتوازنيّتها... بالدّراسة الاستقرائيّة لتاريخ الحركات الرّساليّة، سواء تلك الّتي قادها الأنبياء والمرسلون عليهم السّلام مباشرة، أو حركات الإصلاح والتّجديد البشريّة الّتي سارت على خطاهم، واهتدت بهديهم. وقد أكّد من توفّروا على نوع من هذه الدّراسات التّاريخيّة والحضاريّة الاستقرائيّة، هذه الحقيقة ونوّهوا بها، ولاحظوا أن عصور الإيمان هي عصور الوعي والعقلانيّة[8]، والإنسانيّة المتكاملة([9]). وأنّ الدّين باعتباره المانح الحقيقي لشموليّة وفطريّة ومعقوليّة وتوازنيّة الرّؤية الوجوديّة، هو محرّك الحضارات باتّجاه العبوديّة والخيريّة والعالميّة والإنسانيّة

---

(1) رينيه دوبو، **إنسانية الإنسان**، ترجمة: نبيل صبحي الطويل، (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م)، ص24-31.
(2) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دار الفكر، دمشق، 2003)، ص38.
([3]) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، ص209.
(4) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، (دار الفكر، دمشق، ط4، 1987م)، ص84.
([5]) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، 169/5.
([6]) ابن خلدون، **المقدمة**، (دار صادر، بيروت – لبنان، 2000)، ص121.
(7) تفسير الطبري، **جامع البيان**، 227/8.
(8) هوايتهيد نقلا عن: حسن صعب، **الإسلام والإنسان**، (دار العلم للملايين، بيروت، 1981م)، ص53.
([9]) انظر: **إنسانية الإنسان** لرينيه دوبو؛ و **لماذا الدين؟** لهيوستن سميث .

والكونيّة، وناظمها ولاحمها وواقيها الأقوى باستمرار[1]، لما يحققه من وصل كلّي للإنسان بالله؛ مصدر الوعي والثقة والأمان، ولما يقيمه من علاقات تسخير وانتفاع صحيحة وفعّالة بالكون والحياة، من خلال توسيعه لدائرة الوعي الإنساني المترابط بالدّورة الوجوديّة الكبرى للحياة.

انعكاسات جزئيّة الرّؤية الوجوديّة واضطرابها على حركة الاستخلاف:

وبمقابل النّتائج الإيجابيّة الكثيرة السّابقة، فإنّ هناك نتائج سلبيّة كثيرة وخطيرة كذلك، تترتّب على جزئيّة الرّؤية الوجوديّة واضطرابها، ويمسّ تأثيرها حركة الاستخلاف البشري في العمق، بل ويمتد تأثيرها ليمس المصير البشري في مقتل، والتي يمكن أن نشير إلى بعضها فيا يلي:

- العجز المزمن عن فهم طبيعة الإنسان، وحقيقة وجوده، وعلاقته بالكون ومفرداته. كما يتّضح ذلك من مظاهر الكفر والشّرك والضّلال والنّفاق والفسوق الاجتماعي عامّة... التي تتّخذ من مفردات الكون؛ بما فيها الإنسان والملائكة والجن.. مصادر تقديس وعبادة واستعانة وموالاة[2]، تُهدر على شرفها ومن أجل رضاها، والحظوة بمعونتها المتوهّمة، أجزاء عزيزة وعظيمة من " ميزانيّة التّسخير الكونيّة " الكبرى، التي وضعت أصلا في خدمة الخلافة البشريّة في الأرض*.
- العجز عن تنميّة كلّ جوانب وأبعاد الشّخصيّة الإنسانيّة، وعدم القدرة على منحها التّوازن الذّاتي، والانسجام الاجتماعي، والتّكامل الكوني المطلوب، لتحقيق أصالة وفعّاليّة الأداء التّسخيري والاستخلافي الملائم، الذي ينبني على فهم حقيقة الإنسان، وإدراك موقعه في الكون[3]، وعلاقته بالمسخّرات الكونيّة المهولّة، وسلطته عليها أو سلطتها عليه. فجزئيّة الرّؤية الوجوديّة واضطرابها، يؤدّيان إلى تجزئة الشّخصيّة الإنسانيّة واهتلاكيّتها الذّاتيّة والاجتماعيّة([4]).
- العجز عن تحقيق شموليّة الاستثمار لكلّ منظومات سنن التّسخير الموضوعة تحت تصرّف الإنسان، بل والوقوع في السّخرة لما وجد أصلا ليكون مسخّرًا للإنسان. وما يترتّب على ذلك من امتهان لكرامته، وهدر لأجزاء عزيزة من ميزانيّته التّسخيريّة الكونيّة الكبرى، التي يتحول بعضها إلى معبودات مبجّلة، ويُسخَّر بعضها الآخر لخدمة وإرضاء هذه المعبودات الموهومة، في حين يُحرم الإنسان من خدماتها وهو في أشدّ الحاجة إليها، كما مرَّ معنا في نموذج واقعي حي، عن تفضيل إحدى المجتمعات المعاصرة إصلاح معبدها على حساب إصلاح مزارع الأرز التي تزوّدها بمصدر الغذاء الأساسي في حياتها!

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، 2/516– 525–528؛ توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، 3/148 وما بعدها؛ ويل ديورنت، **قصة الحضارة**، 1/99– 106– 117، مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص 68؛ عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ص165.

(2) ميرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ترجمة: عبد الهادي عباس المحامي، (دار دمشق، سوريا، 1986م)، ص9.

* هذا مجال جدير بأبحاث جامعية كثيرة، تستقصي الانعكاسات السلبية الخطيرة، لظواهر الكفر والشرك والضلال والفسوق والنفاق... على موارد ميزانية التسخير الكونية الكبرى.

(3) الكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة: عادل شفيق، (الدار القومية، القاهرة، د.ت)، ص12–27.

(4) اريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص** 158.

تعريض الحياة – حياة الأفراد والمجتمعات – للاهتلاك والضّنكيّة، بما يسودها من تصادم مع فطرة الوجود، وفطرة الإنسان، واصطباغها بالصّراعيّة العدميّة المنهكة والمهلكة(1). كما تعبّر عن ذلك بقوّة الظّواهر الاستعمارية، وأنظمة الطّبقات، وأشكال الاستبداد المختلفة، وظواهر الاستعباد والاسترقاق، وأمراض التّرف المتعدّدة.. فهي كلّها تعبيرات مختلفة عن الاضطراب الذي تعاني منه الرّؤية العقديّة الوجوديّة لدى الإنسان.

- حرمان الإنسان من الاستمتاع الأمثل بمرحلة عالم الشّهادة من دورته الوجوديّة الكبرى، وتفويت فرص الاستمتاع عليه بالمراحل التّاليّة من هذه الدّورة، لانبنائها على المرحلة الأولى، وارتباطها بها ارتباطا شرطيّا جذريّا. كما قرّر ذلك القرآن بحسم في مثل قوله تعالى: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ](2). وكما جاء في الحديث القدسي كذلك: (يا عبادي ! إنّما هيّ أعمالكم أحصيها لكم. ثمّ أوفّيكم إيّاها . فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه)(3).

ويمكن هنا كذلك الاستيثاق من هذه الآثار والانعكاسات الخطيرة على وظيفة الإنسان الوجوديّة، وعلى مآله المصيري، بمراجعة التّاريخ الحضاري للمجتمعات البشريّة، التي لم توجّه أو تؤطّر حركتَها الاستخلافية رؤيةٌ وجوديّة؛ شموليّة وفطريّة ومعقولة ومتوازنة، فتعرّضت للاختلال والاهتلاك والضّنكيّة وسوء العاقبة في العاجل والآجل.

ومن كلّ ما سبق تتّضح لنا مدى الأهمّيّة الحيويّة البالغة، التي يحتلها الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان، في حياة البشر عامّة، وفي المرحلة الدّنيويّة من دورتهم الوجوديّة بالخصوص، باعتبارها مرحلة إنجاز للأرضيّة الضّروريّة التي ستنبني عليها وضعيّة الإنسان في بقيّة مراحل دورته الوجوديّة الكبرى بعد ذلك، كما أوضحنا ذلك آنفا.

وبعد كلّ هذه التّأسيسات الفكريّة والمنهجيّة لأهميّة الوعي بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان، سنشرع في الفصل التّالي في استعراض المعالم الكبرى للرّؤية العقديّة الإسلاميّة للوعي **بالدّورة الوجوديّة الكبرى للإنسان**، وما في كلّ معلم من أبعاد ودلالات عقديّة وفكريّة وتربويّة واجتماعيّة مؤثّرة على الموقف التّسخيري والاستخلافي للإنسان.

(1) عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، (دار العلم للملايين، بيروت، 1975م)، ص235.

(2)**القرآن الكريم**، سورة الزلزلة: 7–8.

(3) أخرجه مسلم في **الصحيح**، باب ماجاء في تحريم الظلم، تحت رقم 2577

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

معالم

الرؤية العقدية الإسلامية

لمعضلة الوعي بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان

تمهيد: أكّدنا في مبحث من مباحث الفصل السابق، **محورية تأسيس الوعي بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان**، في أولويات الدعوة الإسلامية، وأنه شكّل المدخل الأساس في بناء **الوعي التسخيري والاستخلافي** البشري بعد ذلك، فهو وحده الذي يوفر لهما الإطار الصحيح لاستثمارهما بأصالة وفعالية وتكاملية واطرادية([1]). حيث يلحظ في النسق المعرفي والمنهجي للإسلام، أنه يشترط الانتفاع الأمثل بالوعيين والإمكانين التسخيري والاستخلافي، بالوعي العقدي أو الكوني أو الماهوي العام أولا، أي بوعي المعنى والمقصد من الوجود، وما يتّصل به من سنن ناظمة ومؤطّرة لعملية الوعي التسخيري والاستخلافي بعد ذلك. وهو ما يفهم من المسلّمة السننية القرآنية الكلية المفسّرة والموجّهة والناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض([2])، كما يوضحها قوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ](3).

فإذا كانت الصيرورات الحضارية التاريخية لحركة الوعي الاستخلافي البشري، على ضـــوء

([1]) سيد قطب، **المستقبل لهذا الدين** (الاتحاد العالمي الإسلامي للمنظمات الطلابية، 1988) ص3.

([2]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار** (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، د.ت)، 10/ 34.

(3) **القرآن الكريم**، سورة الرعد: 11.

هذا القانون الكلي للتغيير، تقوم على **نظرية التغيير الذاتي والاجتماعي الشمولي التكاملي المطّرد**، فإن الخبرة التي زوّدتنا بها حركة النبوّات خاصة، وحركة الوعي الاستخلافي البشري عامة، تؤكّد لنا – على الصعيد المنهجي – أن أهم وأوّل ما يجب أن يُغيَّر في النفس أو في وضع الإنسان عامة، هو **مطابقة رؤيته العقدية أو التصورية لدورته الوجودية الكبرى مع حقائق فطرة الكون، وفطرة الإنسان**، كما خلقها الله وقدَّرها وأرادها. وهذا يعني أن تتسم هذه الرؤية بالربانية والشمولية والفطرية والمعقولية والتوازن، في نظرتها إلى الله والكون والحياة والإنسان. تلك هي نقطة البداية الصحيحة، وحجر الزاوية الأساس في بناء الوعي التسخيري الفعال، ثم الوعي الاستخلافي الحضاري الصحيح بعد ذلك.

ونقصد بالدورة الوجودية هنا: الأبعاد والدلالات الروحية والوظيفية للمراحل الكبرى التي تربط بين نقطة أو سؤال البداية في حياة الإنسان، ونقطة أو سؤال الوظيفة والمنهج، ونقطة أو سؤال المآل والمصير في حياته الممتدة من بدايات علاقة الإنسان بعالم الشهادة، إلى آخر مرحلة أو نقطة في مآلات عالم الغيب، وهي الجنة أو النار.

فالإنسان في المنظور الإسلامي، في رحلة طويلة ذات بداية وجودية معلومة، ومهمة استخلافية محددة الأهداف والمناهج، ومآلات أخروية مرحلية متعاقبة، تفضي به أخيرا إلى نهايات معلومة. كما أوضح ذلك القرآن في آيات كثيرة جدًّا، نكتفي منها بقوله تعالى: **[...قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ]** (1) الذي لخص بكثافة كل هذه الأبعاد والدلالات والمراحل، التي تمر بها حياة الإنسان في طريقها إلى الله مرة أخرى. وقوله تعالى: **[اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]**[2]. وقوله سبحانه: **[مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى]** (3).

فالمنظور التصوري أو العقدي الإسلامي، يقدّم خريطة كونية شاملة ومتكاملة عن الدورة الوجودية الكلية للإنسان والحياة والكون، تخلّص الإنسان من خطر القلق والاضطراب والتيه الذي تسبّبه له الفراغات الكونية الكبرى المحيطة به؛ من جهة الماضي أو البداية الكونية عامة، ومن جهة الحاضر والأدوار المنوطة به فيه ثانيا، ومن جهة المآلات التي تنتظره بعد الموت ثالثا(4). ففي كل بعد من هذه الأبعاد الحيوية في الدورة الوجودية للإنسان والكون، يقدم الإسلام رؤية عقدية كونية صلبة متماسكة(5)، تسد الفراغ القاتل، وتملأ المجال، وتشحذ فاعلية الاندفاع نحو تحقيق مقاصد **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، التي تتأسّس عليها خلافة الإنسان في الأرض، وتتحرك نحوها باستمرار، كما سنرى ذلك في الفصول الثلاثة لهذا الباب من الدراسة.

دلالات وأبعاد الوعي بالدورة الوجودية للإنسان في المنظور الإسلامي: كما رأينا آنفا، فإن الملاحظ في الرؤية الكونية الإسلامية، هو هذه التغطية الشمولية التكاملية لمراحل وأبعاد الدورة

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 156.

(2) **القرآن الكريم**، سورة الروم:11.

(3)**القرآن الكريم**، سورة طه: 55.

(4) عبد الرحمن حبنكة الميداني، **العقيدة الإسلامية**،(دار القلم، دمشق، ط5، 1988م)، ص511.

(5) أنظر على سبيل المثال: **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** للعقاد، و**قصة الإيمان** لنديم الجسر، و**كبرى اليقينيات الكونية** للبوطي، و**العقيدة الإسلامية** لحبنكة الميداني، و**خصائص التصور الإسلامي ومقوماته** لسيد قطب، و**الإسلام يتحدى** لوحيد الدين خان ..

الوجودية للإنسان بصورة متوازنة ومعقولة، تتجاوب معها الفطرة البشرية السويّة بسهولة، وتندمج في عالمها بثقة، وتلتحم بها بحيوية واندفاع، كلما أتيح للإنسان منهج علمي صحيح في التأمل والتفكير والتحليل والتفسير من ناحية، وقدوة نموذجية في الممارسة الفردية والمجتمعية والحضارية لهذه الرؤية من ناحية أخرى([1]).

وتظهر شمولية وتكاملية التغطية الإسلامية لأبعاد ومراحل ودلالات الدورة الوجودية للإنسان، في حديث القرآن المتوازن عن:

المنشأ والمأتى البشري: واستيعابه عبر ذلك لمشكلة البداية الكونية والبشرية، التي يُؤسَّس عليها كل ما بعدها، ويأخذ معناه وحقيقته ومداه الوظيفي منها، بناء على إدراك مقاصد الخالق والمنشئ، ووعي خطته للوجود الكوني والبشري([2]).

الطبيعة أو الخصوصية البشرية: ودلالاتها على نوع الدور والموقع والمكانة التي حددت للإنسان في خطة الخلق، وحله من خلال ذلك لمشكلة الهوية والخصوصية البشرية وعلاقة الإنسان بالكون، وحدود سلطته عليه، ونفوذه فيه أو عليه.

الوظيفة الوجودية للإنسان والمؤهّلات التسخيرية المرتبطة بذلك: وحلّه من ثم لمشكلة مكانة المرحلة الدنيوية أو عالم الشهادة من الدورة الوجودية الكلية للإنسان، والعلاقة البشرية الوظيفية بالحياة والكون، وفاعلية الإنسان فيهما.

المصير البشري ومآلاته المرحلية والنهائية: وحلّه عبر ذلك لمشكلة الحرية والمسؤولية والتكليف، ومعنى الجزاء؛ ثوابا وعقابا، وتحقيق العدالة المطلقة في حياة البشر.

وسنحاول تتبّع دلالات كل بعد من هذه الأبعاد المشكّلة للدورة الوجودية للإنسان؛ في مأتاه، وصيرورة وجوده، ومآله ومنتهاه، لنرى مدى شمولية وتماسك وقوة هذه الرؤية، ونفاذ تأثيرها في الحياة مع مرور الزمن.

تأسيس الوعي بكلية المنشأ البشري

وهي أول مضغة أو كلية ركّز عليها القرآن منذ بداية نزول أول آية فيه، وتتابع الاهتمام بها بصورة مكثّفة إلى آخر لحظة في مسيرة نزول الوحي، باعتبارها حجر الأساس في الوعي الوجودي كله، وفي الوعيين التسخيري والاستخلافي بعد ذلك. ذلك لأن صحة بدايات الأمور وسلامة منطلقاتها، تشكّل مقدمة ارتكازية لكل ما يأتي بعدها، وهو ما اهتدى إليه علم المنهج في فكرة المقدمات والنتائج على سبيل المثال، فالمقدمات الصحيحة تفضي إلى نتائج صحيحة، والمقدمات الخاطئة تفضي إلى نتائج خاطئة.

فالوعي ببدايات الأمور، يمكّن من الوقوف على حقائقها وطبيعة هويتها، والآلية أو النسقية المنطقية الذاتية التي يخضع له وجودها، وتؤدّي عبره وظيفتها وعملها، ومن ثم معرفة وتحديد مكانها من مكونات ومفردات النسق المنتظم لمدارها، وعلاقته بالأنساق المنتظمة للمدارات الأخرى في المنظومات الكلية لسنن الله في الخلق والتسخير والاستخلاف والجزاء[3].

([1]) الطيب برغوث، **القدوة الإسلامية في خط الفعالية الحضارية** (دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1984)، ص 5.

([2]) الشاطبي، **الموافقات**، 7/2.

(3) فراس السواح، **دين الإنسان** (دار علاء الدين، دمشق، 1994م)، ص 353.

إن حديث القرآن عن البداية يرتقي بها إلى مستوى « علم تأسيس العلوم » وبناء الوعي البشري، كما يؤكّد ذلك قوله تعالى صراحة في صيغة فعل الأمر: **[قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]** (1). والطريف هنا هو تأكيد القرآن كذلك على دراسة النهايات والعواقب، والارتقاء بها إلى مستوى العلم أيضا، لعلاقته المباشرة والقوية بالبدايات والتحوّلات في حركة التسخير والاستخلاف من جهة(2)، وبالوعي الكوني العام القائم على كلية التوحيد، التي يتحرّك نحوها كل شيء في الوجود، ويرتبط بها من جهة أخرى(3). كما قال تعالى: **[قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ]** (4).

ولا يخفى هنا أن النظر في كيفية بدأ الخلق وتكوّن الظواهر، وكيفية تحوّلها وصيرورة وجودها، أمر له علاقة عضوية مباشرة بالعلم والمنهج، لأن هذا النظر يعني البحث عن السنن الفاعلة في هذه الظواهر الكونية والاجتماعية، في بدايات نشوئها ونهايات صيروراتها، والمعنى الروحي أو العقدي أو الفلسفي الكامن وراء ذلك كله(5). باعتبار إدراك ذلك هو غاية الغايات. وهذا كله متوقف على العلم أو المنهج، الذي يكشف لنا الأنساق السننية الفاعلة في الظواهر، وينقلنا إلى ما وراءها من علم وإرادة وقدرة وحكمة، لا يمتلكها إلا الله الخالق العظيم، وهو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: **[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ]** (6).

فالعلم بالبدايات والنهايات وما بينهما، يقود إلى نتيجة أو نهاية منطقية واحدة وهي التوحيد والعبودية والتزكية والعمارة التكاملية المبدعة(7). كما سنرى ذلك عبر تتبّع بعض الدلالات المفصلية لكلية البداية أو المنشأ البشري خاصة والكوني عامة.

ولعل مما يلزم الالتفات إليه وملاحظته جيدا بعد هذا، هو هذا التماسك والتلاحم والانتظام في النسق المعرفي والمنهجي القرآني، في عنايته المتوازنة بتأسيس الوعي « **بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان**»، حينما يركّز على ترابط كليات الوعي ومداخله الكبرى، وارتكاز بعضها على بعض، وتكميل بعضها لبعض. كما يتّضح لنا ذلك من دلالات وأبعاد حديثه عن كلية المنشأ أو البداية البشرية، التي تقودنا إلى التسليم الواثق بجملة من الكليات والثوابت التي سينبني عليها كل ما يأتي بعد ذلك، وهو ما سنحاول التركيز عليه في المباحث التالية:

دلالات وأبعاد الوعي بكلية البداية أو المنشأ البشري:

فالوعي بكلية المنشأ أو البداية، وعي محوري تأسيسي مستقل، مؤثر ونافذ فيما يأتي بعده من

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة العنكبوت:20.

(2) الألوسي أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، د.ت)، 471/20.

(3) سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ص 306.

(4)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران:137.

(5) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2730/5.

(6)**القرآن الكريم**، سورة فصلت: 53.

(7) طه جابر العلواني، **التوحيد والتزكية والعمران (محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة)**، (دار الهادي، لبنان، 2003) ص 43.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الوعي. لذلك فإن له دلالات وأبعادا على مستوى المُنشِئ أو الخالق والبادئ. وعلى مستوى الكون المخلوق المسخَّر. وعلى مستوى الإنسان المستخلف في الأرض. وعلى مستوى المصير البشري خاصة والكوني عامة. ونحن هنا نركّز على الدلالات الخاصة بالخالق، ونرجئ تقصّي المستويات الأخرى من الدلالات إلى مباحث لاحقة، حيث نتناول كل دلالة في مكانها المناسب من الدراسة.

وسنحاول تناول أربعة دلالات كلية للوعي بالمنشأ البشري، باعتبارها كليات محورية مؤسسة للوعي بكلية الكينونة الإلهية التي يتمحور حولها كل شيء في الوجود، ويستمد وجوده ومعناه وحقيقته وحياته منها، وهي على التوالي:

الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد الربوبية.
الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد المالكية.
الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد الألوهية.
الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد الأسماء وصفات الكينونة الإلهية.

الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد الربوبية: وهي كلية سبق أن تحدثنا عن بعض أبعادها ودلالاتها أثناء تناولنا للخصائص المعيارية العامة للرؤية الوجودية الحق. حيث رأينا بأن خاصية الربانية تأتي في مقدمة هذه الخصائص المعيارية كلها. ونتناولها هنا بشيء من الاختصار والتركيز، في سياق عرض رؤية الإسلام الكلية للدورة الوجودية الكبرى للإنسان والحياة والكون.

والمراجعة السريعة للقرآن تبين لنا أن أول دلالة جذرية استهدف القرآن بثّ وتركيز الوعي بها، في سياق اهتمامه الكبير بقضية المنشأ الكوني عامة والبشري منه خاصة[1]، هي قضية مخلوقية الوجود الكوني والبشري، ومربوبيتهما معاً للخالق الفعلي، والرب المبدع لكل شيء في الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي لم ولن ينازعه في الخلق والتدبير أحد من المخلوقات.

وفي هذا السياق، يلحظ الدارس للقرآن، كيف أنه ركّز كثيرا على حسم الموقف فيما يتعلق بسؤال البداية أو المنشأ الكوني، الذي يسكن الوعي الباطني للإنسان، وأوضح بأن الله هو وحده الخالق المنشئ للوجود والحياة، حتى تترتّب على الوعي بهذا الموقف، التبعات العقدية والفكرية والسلوكية والاجتماعية المطلوبة من الخلق، وحتى يوفّر على البشر جهودهم في البحث عما لا طاقة لهم به، ويوجّه هذا الجهد نحو ساحة فاعليته الحقيقية وهي ساحة التوحيد والعبودية والتزكية والعمارة التكاملية المبدعة في الأرض.

ولعله من الملفت هنا، ملاحظة الدلالات العقدية العميقة في تضمن فاتحة الوحي حسماً واضحاً لقضية المنشأ البشري خاصة والكوني عامة، منذ البداية الأولى لنزول الوحي[2] . كما يدلّ على ذلك قوله تعالى في أول آية نزلت من القرآن الكريم[3]: [اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .اقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ][4] . وفي هذا الترتيب تناغم مع النسق

---

(1) محمد المبارك، **نظام الإسلام، العقيدة والعبادة**، ص48.
(2) محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**،(الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984م)، 437/30.
(3) الطبري، **جامع البيان**، 251/15.
(4)**القرآن الكريم**، سورة العلق: 1، 5.

المعرفي والمنهجي القرآني في ضبط الأولويات وتأسيس المقدمات([1]).

ولسنا هنا في حاجة إلى إيراد النصوص القرآنية الدالة على محورية تأسيس الوعي بكلية المنشأ البشري، ودلالتها على كلية الربوبية، بكل ما تعنيه من الإنفراد بالخلق والإيجاد للكائنات كلها من العدم[2]، وإنما نشير فقط إلى أن كلمتي الربّ والخالق وما تصرّف منهما، وردتا في القرآن على التوالي أكثر من: (937) مرة بالنسبة للأولى، و(229)[3] مرة بالنسبة للثانية، ناهيك عما ورد عن المالكية والتدبير باعتبارهما من متضمِّنات معنى الربوبية[4]. مما يعطي ضوءاً على كثافة العناية بتأسيس الوعي بكلية الربوبية كمنطلق جذري لكل ما عداها من الكليات التالية لها. وقد سبقت الإشارة إلى تأكيد القرآن على دراسة بدايات الخلق بالنسبة لكل الظواهر الكونية؛ لأن ذلك يفضي حتما إلى تأكيد ربوبية الله تعالى لكل شيء في الوجود[5]. باعتباره الخالق والموجد الأوحد لكل شيء في الوجود؛ ما علمه الإنسان منه، وما لم يعلمه، وما يمكنه أن يعلمه، وما لا يمكنه أن يعلمه. كما قال تعالى: [الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا]([6]).

إننا عندما نعمق النظر في مضامين وسياقات الآيات الكثيرة التي ورد فيها لفظ الرب أو الخالق أو المبدع أو المالك أو المدبر أو المقدر أو البارئ... ندرك بعمق أن الله هو الفاعل المطلق في الكون؛ بالخلق والتدبير والتسيير والتغيير...[7]، وما عداه مخلوق ومملوك له سبحانه([8])، وهو ما قُصد من وراء تكثيف الوعي بكلية الربوبية كمقدمة تأسيسية لكل الكليات العقدية التالية. وعندما تُربط هذه العناية المكثفة ببناء الوعي بكلية الربوبية، بما ذكرناه قبلاً من دعوة القرآن إلى الدراسة العلمية لنشوء الكائنات والظواهر الكونية والحضارية، وما يترتّب عن ذلك من تأكيد مستمر لانفراد الله تعالى بالخلق والإيجاد والتدبير، ندرك الأهمية الجذرية للوعي بكلية البداية أو المنشأ البشري في عملية تأسيس الوعي بكلية الربوبية، وما ينبثق عنها من كليات عقدية أخرى أساسية، في سياق استكمال ضبط وإحكام علاقة الإنسان بالله تعالى، التي تنبثق منها وتنبني عليها بقية العلاقات الأخرى.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والروحية والتربوية الأساسية، لهذه الكلية المركزية الأولى في الوعي بالمنشأ البشري والكوني عامة، هي تعميق إيمان الإنسان بالله رباً وخالقاً ومبدعاً ومدبراً ومقدراً لكل شيء في الوجود ومتصرفاً فيه، ولفت انتباهه إلى الضرورة القصوى للمحافظة على هذه العقيدة في الحياة الإنسانية، والعمل الدءوب على تعميق إشعاعها الفكري والروحي في حياة الإنسان، واعتبار أي مساس بها هو مساس بأصل الحياة وقوامها، وضرب لجوهر الفطرة

([1]) التفتازاني، **الإنسان والكون في الإسلام**، ص 43، وما بعدها.

(2) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان داوودي،(دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، 1442هـ–1992م)، ص 336 ؛ الإمام الطحاوي، **شرح العقيدة الطحاوية**، 25/1.

(3) محمد صالح البنداق، **هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن**، (منشورات دار الآفاق، بيروت، 1401هـ–1981م)، ص 153،129.

(4) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص/336.

(5) عبد الرحمن حبنكة الميداني، **العقيدة الإسلامية**، ص 253.

([6]) **القرآن الكريم**، السورة الفرقان: 2.

(7) محمد نعيم ياسين، **الإيمان**، (دار الفلاح، الكويت، 1403هـ–1983م)، ص 17.

([8]) سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، ص81.

الإنسانية في الإنسان، وتجريد للخلافة البشرية في الأرض من روحيتها وأخلاقيتها وبركتها، وتعريض لأمنها النفسي والاجتماعي والحضاري والمصيري للخطر المهلك.

الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد المالكية: والدلالة الجذرية الثانية المنبثقة عن كثافة العناية بتأسيس الوعي بالبداية أو المنشأ البشري، هي تعميق وعي البشر **بكلية مالكية الله تعالى للوجود كله**؛ مالكية خلق وتقدير وتدبير وأمر وتصرف، كما يستقر ذلك فعلا في وعي الإنسان، عندما ينضج وعيه بكلية الربوبية ومقتضياتها العقدية، باعتبار الإقرار بالمالكية الإلهية للكون والحياة والإنسان، نتيجة منطقية لازمة للإقرار بربوبية الله وخالقيته لها دون سواه. كما يؤكّد ذلك القرآن نفسه في مثل قوله تعالى: [إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ **العَالَمِينَ**]([1]). فمن ينفرد بالخلق والإيجاد والتقدير والتصرّف والتدبير، من الطبيعي أن ينفرد بالملك والتصرّف، لأنه أدرى بمقاصد وغايات وطبائع ما خلق([2]) .

وبناء على هذا فإنه يغدو من الخلل الجذري في موازين التفكير والتقدير والحكم لدى الإنسان، أن تغيب هذه الحقيقة المنطقية العقدية عن ذهنه، وهو يعترف بكلية الخالقية والربوبية، ثم لا يقر بنتيجتها المنطقية الضرورية، وهي المالكية الإلهية المطلقة للكون والإنسان([3])، كما نبّه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى[أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ] ([4]). فمن ينفرد بالخلق ينفرد بحيازة الملكية والتدبير والتصرف.

وهو ما تؤكّده آية أخرى صريحة في مالكية الله تعالى لكل شيء في الوجود، بلا شريك أو منازع [5]. كما جاء ذلك في قوله تعالى:[قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]([6]). فالله تعالى هو وحده صاحب السلطان الأعلى، والتصرّف المطلق في تدبير الأمور، وإقامة موازين النظام العام في الكائنات([7]).

فالمنطق السليم يقود حتماً إلى ترتيب نتيجة المالكية على مقدمة الخالقية والربانية في عقول الناس ونفوسهم، وإشعارهم بحاجتهم إلى الهداية والرعاية الربانية. كما نلمس ذلك على سبيل المثال في النتيجة التي ينتهي إليها التفكير والتأمل العلمي المنهجي في سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق، وهي الإقرار بمالكية الله تعالى للكون ونفاذ إرادته في كل مفرداته، وما يترتّب على ذلك من نتائج حاسمة على مستوى كلّيتي توحيد الألوهية والعبودية بعد ذلك. كما يتّضح ذلك في هذا النموذج التطبيقي الذي

([1])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 54.

([2])ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، (مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، د.ت)، 11/14.

([3]) الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، **التفسير الكبير**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ-1990م)، 5/8.

([4])**القرآن الكريم**، سورة النحل: 17- 20.

(5) البقاعي، **نظم الدرر**، 310/4.

([6])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 26.

([7]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 237/3.

يقدّمه لنا القرآن في قوله تعالى[إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ. رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ] [1].

وبصفة عامة، فإن المنهجية العقدية والتربوية القرآنية تنطلق من التركيز على تأسيس الوعي بكلية الربوبية والخالقية إلى تأسيس الوعي بكلية المالكية مباشرة. وهو ما يستيقنه الإنسان وهو يدرس الوحي ويلْحظ كثافة المادة العلمية المترابطة في مجال تعميق وعي البشر بقضية انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير والتدبير، التي تقود إلى حتمية التسليم بالمالكية الإلهية لكل شيء في الوجود، وتجريد غيره من الكائنات من الحول والقوة الذاتية المستقلّة عن إرادة الله أو هدايته أو عونه. كما جاء تأكيد ذلك في قوله تعالى: [يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ]([2])، وقوله:[تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][3] .

فثنائية الخلق والملك هي المقدمة العقدية والتربوية والمنهجية الضرورية بين يدي تحقيق النتيجة الغائية للوجود البشري، وهي التوحيد والعبودية والتزكية، والعمارة التكاملية المبدعة في الأرض([4]).

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والروحية والتربوية الأساسية، لهذه الكلية المركزية الثانية في الوعي بالمنشأ البشري والكوني عامة، هي تعميق إيمان الإنسان بمالكية الله الأصلية لكل شيء في الوجود، ولفت انتباهه إلى الضرورة القصوى للمحافظة على هذه العقيدة في الحياة الإنسانية كلها، والعمل الدؤوب على تعميق إشعاعها الفكري والروحي في حياة الإنسان، واعتبار أي مساس بها هو مساس بأصل الحياة وقوامها، وضرب لجوهر الفطرة الإنسانية في الإنسان، وتجريد للخلافة البشرية في الأرض من روحيتها وأخلاقيتها وبركتها، وتعريض لأمنها النفسي والاجتماعي والحضاري والمصيري للخطر المهلك.

الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد الألوهية: وهي النتيجة المنطقية للوعي بالكليتين السابقتين، حيث يستقر في وعي الإنسان، وقد استيقن أن لا خالق إلا الله، وأنه لا مالك للكون ولا متصرّف فيه إلا هو، أن العبادة والطاعة لا تكون إلا له، والخوف لا يكون إلا منه، والرجاء لا يلتمس إلا عنده. وهو معنى « لا إله إلا الله »، أي لا معبود بحق إلا الله الخالق المالك للكون والحياة والإنسان([5]). وبذلك تكتمل الحلقة أو المقدمة الأولى، لتبدأ الحلقات أو المقدمات التالية لها، بعد أن تَحدَّد وضع الكون، وانضبطت العلاقات الوظيفية التكاملية بين مفرداته، وعُرِف موقع الإنسان في ذلك كله، باعتباره أحد أهم محاور الاستقطاب في الكون إن لم يكن أهمها، كما سنرى ذلك لاحقا.

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 190-194.

([2])**القرآن الكريم**، سورة فاطر : 13.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الملك: 1.

([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 14/ 15.

([5]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 8/425.

فتوحيد الألوهية هو رأس الأمر وعموده، وهو غاية التوحيد كله؛ لأنه يتضمّن توحيد الله في ربوبيته ومالكيته وأسمائه وصفاته. كما يؤكد ذلك ابن تيمية في ملاحظته أن شهادة لا إله إلا الله: " تتضمن إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتألّه القلب غيره، لا بحب ولا بخوف، ولا رجاء، ولا إجلال، ولا إكبار، ولا رغبة، ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى:**[وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ...]**[1]، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغيره، كان في ذلك من الشرك بحسب ذلك"[2].

ومن يتأمّل القرآن الكريم يلحظ كيف يشكّل توحيد الألوهية والتحقق بالعبودية لله تعالى، مصب العناية المكثفة بكليتي الربوبية والمالكية على مرّ التاريخ، كما لخّص ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ]**[3] وقوله كذلك:**[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...]**[4]. وفي سورتي " الفاتحة "، و" الناس " تأكيد لهذه المتوالية العقدية المنتظمة، التي تجعل العبودية الخالصة لله تعالى، هي مصب الوعي بكلية المنشأ البشري ومآله الفطري. فجاء الترتيب في سورة الناس هكذا**[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ]**([5])، متدرّجاً من الخالقية إلى المالكية إلى العبودية. يقول ابن عاشور معقباً على هذا الانتظام المنهجي التكاملي في السورة: " يعلم الناظر بادئ ذي بدء بأن له رباً، بسبب ما يشعر به من وجوده في نفسه، ونعمة تركيبه، ثم يتغلغل في النظر فيشعر أن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق، ثم يعلم أنه المستحق للعبادة، فهو إله الناس كلهم "[6].

ونفس الترتيب يلاحظ في البنية المعرفية والمنهجية لسورة الفاتحة كذلك، التي لخّصت بشكل مكثف جداً([7])، القضايا الكلية للوعي الكوني، في أربعة مداخل تكاملية كبرى([8])، هي:

مدخل توحيد الربوبية: (**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ**) .

ثم مدخل توحيد المالكية: (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) .

ثم مدخل توحيد الألوهية: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) .

ثم مدخل توحيد منهج العبادة: (**اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**).

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والروحية والتربوية الأساسية، لهـذه الكليـة المركزيـة الثالثة في الوعي بالمنشأ البشري والكوني عامة، هي تعميق إيمان الإنسان بألوهية الله ووحدانيته، وأنه هو وحده المستحق للعبادة، وأن إنسانية الإنسان تتحقق بقدر تحققه بالعبودية لله على المـنهج الذي يختاره الله ويرضاه له. ولفت انتباهه إلى الضرورة القصوى للمحافظة على هذه العقيـدة فـي الحياة الإنسانية، والعمل الدؤوب على تعميق إشعاعها الفكري والروحي والأخلاقي في حياة الإنسان

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 159.

(2) ابن القيم، **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، (دار المعرفة، بيروت، دت)، ص 452.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 25.

(4)**القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الناس: 1– 3.

(6) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 633/30.

(7) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 8/14.

(8) سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، 38/1.

كلها، واعتبار أي مساس بها هو مساس بأصل الحياة وقوامها، وضرب لجوهر الفطرة الإنسانية في الإنسان، وتجريد للخلافة البشرية في الأرض من روحيتها وأخلاقيتها وبركتها، وتعريض لأمنها النفسي والاجتماعي والحضاري والمصيري للخطر المهلك .

الوعي بالمنشأ البشري وكلية توحيد الأسماء والصفات: ولما كانت معالم الكينونة الإلهية، المعبّرة عن حقيقة الذاتية الإلهية، تحتل مقاماً كبيراً وأساسياً في الفكر العقدي البشري عامة، والفكر العقدي الرسالي خاصة، ومن ثم في تجلياته الفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية، التي تتمخّض عنها الحركية أو الفاعلية الاستخلافية البشرية في الأرض، فقد أولاها الإسلام عناية كبيرة جداً، من خلال ما عرف في العقيدة الإسلامية بتوحيد الأسماء والصفات([1])، التي استخلصها العلماء من كثافة المادة المعرفية الواردة في القرآن خاصة والسنة عامة، عن أسماء الله وصفاته وأفعاله([2]).

ونقصد هنا بتوحيد الأسماء والصفات: الاعتقاد الجازم بأن لله أسماء حسنى، سمى بها نفسه، وصفات عُلى، وصف بها نفسه وأفعاله في خلقه، أو وصفه بها أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام([3])، يجب أن نقف عندها، وأن لا نتجاوزها، بالتشبيه أو التعطيل أو التأويل الفاسد([4])، وأن نتّخذ منها دليلا ومنهجاً للمعرفة الصحيحة بالله، وبناء العلاقة السليمة به، في إطار ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والمربوب، والألوهية والعبودية أولا([5]). ثم في إطار قيم التكريم والتفضيل والتكليف للإنسان، والتسييد له على الأرض ليقوم فيها بالخلافة المطلوبة منه ثانياً([6])، كما سنرى ذلك لاحقا.

وفي سياق تأصيل المعرفة البشرية بمنظومة توحيد الأسماء والصفات، جاء في القرآن حديث مباشر عن ذلك، كما في قوله تعالى: [اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى] ([7]). وقوله كذلك: [هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ]([8]). وقوله أيضا:[قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا]([9]).

ولم تشذ السنة النبوية عن ذلك، بل أكدت بدورها، بشكل نظري وعملي، على الأهمية القصوى للوعي بكلية توحيد الأسماء والصفات، فجاء في الحديث: (**إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحداً**

([1]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 6/3.

([2]) ابن حجر، **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**،(مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، 1417هـ)، 174/4.

([3]) ابن تيمية، **المرجع السابق**، 3/ 6، وما بعدها.

([4]) ابن القيم، **بدائع الفوائد**، (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت)، ج168/1.

([5]) سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**،(دار الشروق، القاهرة، ط4، 1993)، ص/81.

([6]) الألوسي، **روح المعاني**، 386/13.

([7]) **القرآن الكريم**، سورة طه: 8.

([8])**القرآن الكريم**، سورة الحشر : 24.

([9])**القرآن الكريم**، سورة الأعراف : 180.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من أحصاها دخل الجنة)([1])، أي استوعب أبعادها العقدية والفكرية والتربوية، واستثمرها في بناء حياته الروحية والسلوكية والاجتماعية، وليس حفظها فقط، لأن قصد المعرفة هو العمل والتطبيق باستمرار، كما يؤكّد ذلك ابن القيم بقوله: " وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتضى وفعل: إما لازم، وإما متعدّ. ولذلك الفعل تعلّق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها. ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعولاته عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته "([2]).

وفي هذا البعد العملي التربوي السلوكي الفاعل في حياة البشر، جاء في الحديث النبوي كذلك، قوله عليه الصلاة والسلام: (**ما أصاب أحد قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي) . إلا أذهب الله عز وجل همه ، وأبدله مكان حزنه فرحا. قالوا : يا رسول الله ! ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟ قال: أجل !ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**)([3]).

وفي حديث آخر أصّل لآداب الدعاء، جاء فيه التأكيد كذلك على الدور الحيوي لاستثمار منظومة الأسماء والصفات، في تأمين الفاعلية الروحية والعملية للدعاء في حياة المسلم*، كما يتّضح ذلك مما روي أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمع رجلا يدعو في صلاته لم يمجِّد الله تعالى، ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**عجل هذا. ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه جل وعز والثناء عليه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو بعد بما شاء**)([4]).

وكما نرى فإن كلية توحيد الأسماء والصفات، تكتسي أهمية بالغة لكونها تقدّم للإنسان خريطة معرفية مفصّلة ومتكاملة عن حقيقة وكينونة الذات الإلهية، التي يتوجّه لها بالعبادة والمحبة والطاعة، وهو ما يعصمه من أي انحراف في أساس تصوره العقدي، وهو المعرفة بالله، التي إذا صلحت صلح بقية تصوره العقدي، ومن ثم صلحت خيريته وفاعليته الاستخلافية في الأرض، وإذا فسدت فسد تصوره العقدي، واضطربت وفسدت خيريته وفاعليته الاستخلافية في الأرض تبعا لذلك([5]).

([1]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: إن لله مائة اسم إلا واحدا، تحت رقم7392.

([2]) ابن القيم، **مدارج السالكين**، 417/1.

([3]) أروده الألباني، في **صحيح الترغيب والترهيب**،(مكتبة المعارف، الرياض، ط6، د.ت)، تحت رقم 1822، 171/2.

* سيرد الحديث عن الدعاء كسنة أساسية من سنن منظومة سنن التأييد ، في الفصل الثاني من هذا الباب .

([4]) الألباني، **صحيح سنن أبي داود** تحت رقم 1481.

([5]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 105/26.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالمعرفة بالله أساس وغاية كل معرفة([1])، كما جاء تأكيد ذلك في القرآن[فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ]([2]). وهو ما يُلحظ التأكيد عليه في أول ما نزل من القرآن([3])، من خلال الدعوة المباشرة إلى المعرفة بالله كمدخل ارتكازي لأية معرفة أخرى تستدعيها الخيرية والفاعلية الاستخلافية في الأرض([4])، كما جاء ذلك في قوله تعالى: **([اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ]([5]).** يقول سيد قطب تعقيبا على هذه الآية: " وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالملأ الأعلى، بهذا المقطع **وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة**... كل أمر. كل حركة. كل خطوة. كل عمل. باسم الله. وعلى اسم الله. باسم الله تبدأ. وباسم الله تسير. وإلى الله تتّجه، وإليه تصير. والله هو الذي خلق. وهو الذي علم. فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة.. والإنسان يتعلم ما يتعلم، ويعلم ما يعلم.. فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم... { **علم الإنسان ما لم يعلم** }... وهذه الحقيقة القرآنية الأولى، التي تلقاها قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في اللحظة الأولى هي التي ظلّت تصرِّف شعوره، وتصرّف لسانه، وتصرّف عمله واتجاهه، بعد ذلك طوال حياته بوصفها قاعدة الإيمان الأولى"([6]).

وتفاصيل هذه المعرفة المطلوبة بالله، والتي تفعل فعلها في التفكير والشعور والسلوك الإنساني، لا يمكنها أن تتحقق على وجهها الصحيح، ولا يمكنها أن تحدث تأثيراتها العقدية والفكرية والروحية والسلوكية الفاعلة في حركة الاستخلاف البشري، كما هو مراد لها فعلا، إلا عبر إحكام الوعي بتفاصيل **كلية توحيد الأسماء والصفات**، التي ترسم للإنسان معالم الخريطة المعرفية المفصّلة والمتكاملة عن حقيقة وكينونة الذات الإلهية، المفارقة لما سواها من الكائنات؛ في تميزها عنها[7]، وهيمنتها عليها، وغناها عنها، وافتقار كل ما سواها إليها([8])، واستمداد وجوده وحياته منها([9])، كما جاء ذلك في القرآن في قوله تعالى:**[**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ]([10]). وقوله كذلك: **[وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ]**([11]).

([1]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 13/2.

([2]) **القرآن الكريم**، سورة محمد : 19.

([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، 251/30.

([4]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 119/20.

([5])**القرآن الكريم**، سورة العلق: 1 – 5.

([6]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 6/ 3939.

([7]) ابن تيمية، **منهاج السنة**، تحقيق: محمد رشاد سالم،(جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية)، ص523/2.

([8]) محمد الأمين الشنقيطي، **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**، (الجامعة الإسلامية، السعودية، دت) .

([9]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 1/ 72.

([10])**القرآن الكريم**، سورة الشورى: 11.

([11])**القرآن الكريم**، سورة الإخلاص: 4.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالوعي الشمولي التكاملي بمعطيات منظومة الأسماء والصفات؛ بعيدا عن التمثيل والتشبيه والتكييف والتعطيل([1]).. هو الذي يزوّد الإنسان بالتصور العقدي الصحيح عن الله والكون والحياة، أي عن " **الدورة الوجودية الكبرى** " للإنسان بصفة عامة، ويحقّق التوازن الفعّال في تفكيره وإيمانه وسلوكه وحركته الاستخلافية، ويقيه من أخطار الشرك والضلال التي كثيرا ما ينجذب إليها الإنسان، وتنجرف في متاهاتها المجتمعات البشرية، كما أشار إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **[وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ]** ([2]). وهي الحقيقة التي تؤكدها حركة النبوات والرسالات الكثيرة، التي تتالت عبر التاريخ، لمواجهة أخطار الشرك والضلال من جهة([3])، وتعزّزها نتائج الدراسات الأنثربولوجية والتاريخية والحضارية المهتمة بحركية التدين لدى البشر بصفة عامة من جهة أخرى، والتي تشير إلى مدى استشراء وتنوّع وتباين مظاهر الشرك والضلال في التاريخ البشري فعلا([4]).

فالموقف البشري من حقيقة الإله والألوهية، وحقوق العبودية، شابه الكثير من الغبش الشركي عبر التاريخ، وسلبه الكثير من عمق روحانيته الإيمانية، ومن تكامل فعاليته الاجتماعية، وتناغم جماليته الأخلاقية، عندما تعددت الآلهة حيناً، وتعدّدت وتباينت صور وأشكال التقرّب إليها حينا آخر، وتحوّلت الكثير من أجزاء الطبيعة المخلوقة والمسخّرة للإنسان، إلى معبودات أو أشباه معبودات لهذا الإنسان، حتى ذكر ويل ديورانت أنه ليس هناك شيء جميل أو قوي في الطبيعة إلا وأصبح معبوداً لشخص أو جماعة؛ بدءاً من الجعل المصري إلى الفيل الهندي([5])!

ولو أن الوعي بمنظومة الأسماء والصفات الألهية، تأصّلت حقائقه العقدية والفكرية والروحية في حياة البشر، لما كان لهذا الشرك كل هذا الحضور وهذا التأثير في الحياة البشرية، وهو الأمر الذي أولاه القرآن والسنة عناية كبيرة جدا، كما يتجلّى ذلك على سبيل المثال في الكثافة غير العادية لحضور هذه الأسماء والصفات في القرآن، الذي لا تخلو فقرة منه؛ سواء تعلّقت بالإيمان، أو السلوك، أو التشريع، أو التاريخ، أو السنن الكونية والاجتماعية من تجليات وإيحاءات ومؤثرات هذه الأسماء والصفات.

وقد يكفي دلالة على إدراك هذه الأهمية الكبيرة التي أولاها القرآن والسنة لكلية توحيد الأسماء والصفات في منهجه التشريعي والتربوي، أن نتذكّر بأن لفظ الجلالة " **الله** " ؛ بكل ما يعنيه من انفراد الله وحده بعبودية الخلق له دون سواه([6])، قد تكرّر في القرآن ما يقرب من 2699 مرة. وأن لفظ "**الربّ** " ؛ بكل ما يعنيه من الخلق والتدبير والملك والرعاية، مضافاً إلى الضمائر، قد تكرّر في القرآن أكثر من 950 مرة([7]). وأن مجموع هذه الأسماء والصفات قد تكرّر في القرآن وحده أكثر من 10062

([1]) الشوكاني، **التحف في مذاهب السلف**، (مطبعة الإمام، القاهرة، د. ت)، ص7.

([2])**القرآن الكريم**، سورة يوسف: 106.

([3]) أنظر: ابن كثير، **قصص الأنبياء**، و عفيف طبارة، **أنبياء الله في القرآن**.

([4]) أنظر على سبيل المثال: ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، وميرسيا إلياد، **الحنين إلى الأصول في منهجية الأديان وتاريخها**، وكثير من كتب ابن تيمية وابن القيم التي حفلت بتسجيل مظاهر كثيرة لحركة الشرك والضلال في الأمة، وما رصده كل من ابن حزم والشهرستاني في الملل والنحل.

([5]) ديورانت، **قصة الحضارة**، 118/1.

([6]) عبد الرحمن بن حسن، **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**،(مطبعة أنصار السنة، السعودية، ط7، 1377هـ)، ص36.

([7]) صحيفة الراية القطرية، في 09 – 11 – 2006 .

مرة([1]).

ونفس الملاحظة تسري على السنة النبوية، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالذكر والدعاء والحياة الروحية التي تمثّل عمق العبادة، حيث تتجلّى الفاعلية التربوية الكبيرة لحضور الأسماء والصفات في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي كان يجسّد عمق المعنى الروحي والاجتماعي للإحسان في حياته فعلا، في كل أبعاده التي جاءت في حديث: (**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)([2]). وفي القسم الثاني التطبيقي من هذه الدراسة، سنقف على تجليات هذه الحقيقة في حياته الرسالية عليه الصلاة والسلام، والتي كان لها تأثيرها الحاسم والعميق، في الإنجازات الضخمة التي حققتها حركته الرسالية في المجتمع.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والروحية والتربوية الأساسية، لهذه الكلية المركزية الرابعة في الوعي بالمنشأ البشري والكوني عامة، هي تعميق إيمان الإنسان بكمالات الكينونة الإلهية، وأنه سبحانه وتعالى أحد صمد، ليس كمثله شيء، له الخلق والأمر في السماوات والأرض، هو الأول والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأنه هو وحده المستحق للعبادة، وأن الإنسان يحقق من العبودية لله، ويرتقي في مدارج الكمال الإنساني الأعلى، بقدر ما يستوعب منهج العبادة لديه من الدلالات العقدية والفكرية والروحية والتربوية والسلوكية.. في منظومة الأسماء والصفات الألهية الحسنى. ولفت انتباهه إلى الضرورة القصوى للمحافظة على هذه العقيدة في الحياة الإنسانية، والعمل الدؤوب على تعميق إشعاعها الفكري والروحي والأخلاقي في حياة الإنسان كلها، واعتبار أي مساس بها هو مساس بأصل الحياة وقوامها، وضرب لجوهر الفطرة الإنسانية في الإنسان، وتجريد للخلافة البشرية في الأرض من روحيتها وأخلاقيتها وبركتها، وتعريض لأمنها النفسي والاجتماعي والحضاري والمصيري للخطر المهلك.

بهذا التسلسل المعرفي والمنهجي المنتظم، يحكم القرآن **تأسيس الوعي بكلية المنشأ البشري**، ويقود الإنسان عبر دلالاتها العقدية والفكرية والتربوية الأربعة الرئيسة أو الكلية –ممثلة في كلية الربوبية، وكلية المالكية، وكلية الألوهية، وكلية الأسماء والصفات – نحو بناء المقدمة المركزية الأم للوعي الاستخلافي، وهي العبودية لله تعالى وحده، التي ستشكل المدخل الأساس الضابط والموجّه لعلاقات كل القوى الكونية المخلوقة، بالله تعالى، كما جاء ذلك في القرآن في قوله تعالى[تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا]([3])، وقوله تعالى[إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا]([4])، وقوله سبحانه[وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ]([5]).

فالعبودية التي أسّست لها هذه الكليات الأربعة، هي التي ستشكّل قوام العلاقة بين الخالق سبحانه وكل المخلوقات الكونية الأخرى([6])، التي يأتي في مقدمتها الإنسان؛ بطبيعته وإمكاناته ووظيفته وسلطانه في الأرض، وهو ما سيأتي مزيد بيان له في الكليات التالية.

([1]) عمر سليمان الأشقر، **العقيدة في الله**، (مكتبة دار الفلاح، الكويت، ط5، 1984)، ص60.

([2]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: سؤال جبريل نبي الله، تحت رقم 4777.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 44.

(4)**القرآن الكريم**، سورة مريم: 93.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الذاريات: 56،57.

([6]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 78/1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تأسيس الوعي بكلية الطبيعة البشرية

الكلية الأساسية الثانية التي تمحور حولها جزء كبير من اهتمام الـوحي، بعـد كليـة المنـشأ البشري وما فيها من دلالات حاسمة على توحيد الربوبية والمالكية والألوهية والعبودية، هي تأسـيس الوعي بالطبيعة البشرية، وبناء وعي الإنسان بذاته: من يكون ؟ وما علاقته بالكون ؟ وما موقعه فيه ؟ وما موقفه من مفرداته وأجزائه ومكوناته ؟ وما قدراته وإمكاناته ؟ وما حدود هذه القدرات ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحيوية الكبرى التي استقطبت اهتمام الوعي البشري وشكّلت أهم مـشكلات الـوعي الاستخلافي في حياة الإنسان على الدوام[1].

ولا يخفى ما للوعي بهذه الكلية من أثر مباشر وحاسم على حركتي الوعي التسخيري والوعي الاستخلافي، وعلى الوعي بالمصير الوجودي للإنسان بعد ذلك. فالوعي بطبيعة الشيء؛ بمعنى الوقوف على حقيقة القوى الكامنة في تكوينه[2]، والأنساق السننية المنتظِمة لهذه القوى، والمعنـى المقاصـدي الغائي الوظيفي فيها... أمر في غاية الأهمية بالنسبة للإنسان، كمكوّن محوري متميّز مـن مكونـات الوجود الكوني([3]).

فالوعي بالطبيعة البشرية على ضوء الأسئلة السابقة، يُمكّن الإنسان من وعي ذاتـه ومعدنـه بالنسبة لغيره، ومعرفة قدراته الذاتية الكامنة في تكوينه الخاص، وقدراته المستمدة من حدود سـلطانه

---

(1) الربيع ميمون، **نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية**،(الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م)، ص323- 324.

(2) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 515.

([3]) عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**،(المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ط2، 1993)، ص52.

في الكون، ومن علاقته وعلاقات الخلائق الأخرى به([1]). وهو ما يحرّره من الضعف، والخوف، والرهبة، والشعور بالنقص تجاه مفردات وعوالم الكون الأخرى، المتميّزة في بعض مظاهرها بالضخامة والقوة والشراسة من جهة، ويحرره من عقدة الاستعلاء والاستكبار والغطرسة والجبروت، في علاقته بالكون كذلك من جهة أخرى، عندما يعي ضعفه وحدود قوته، ومحدودية قدراته الذاتية، في حالة عدم احترام وظيفته، وتجاوز نطاق صلاحياته، واصطدامه بنواميس الكون وسننه الناظمة للعلاقات بين مفردات الكون، والضابطة لمصالح الخلائق والمحافِظة عليها.

وبهذا الوعي المتكامل بطبيعته، يتوازن موقفه من نفسه ومن غيره، ومن ثم تعظم فعاليته التسخيرية، وتتكامل وتتناغم وتنضج حركته الاستخلافية، وتتهيأ له الشروط الموضوعية للاستمتاع المرحلي بخيرات عالم الشهادة، والاستمتاع الأوسع والأشمل والأكمل بخيرات ومتع مراحل الدورة الوجودية التالية، بحسب قاعدة[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ][2] وقاعدة: **[فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ]**[3].

لهذا أعطى القرآن اهتماما كبيراً لتأسيس الوعي بهذه الكلية، التي ستنبني عليها كليات أخرى ذات أهمية كبيرة في حركتي الوعي التسخيري والاستخلافي معاً، ومن ثم على المآل الإنساني في العوالم الأخروية اللاحقة من الدورة الوجودية الكبرى للإنسان. فجاء في القرآن حديث مكثف جداً عن خلق الإنسان، وعن طبيعته المزدوجة، وعن قدراته الكامنة، وعن نواحي التميّز والقوة والضعف فيه، وعن وظيفته الوجودية، وعن حدود سلطانه في الأرض. وتكررت الدعوة في القرآن إلى التعمق في دراسة الطبيعة الإنسانية، وإدراك حقيقتها، كمقدمة أساسية للوعي بكلية المنشأ البشري، ودلالاته العقدية الجذرية من جهة، والوعي بكلية الوظيفة الوجودية للإنسان بعد ذلك من جهة أخرى. وهو ما سنحاول الوقوف عليه في المباحث التالية:

دلالات وأبعاد الوعي بكلية الطبيعة البشرية:

وسنقتصر هنا على ذكر بعض الدلالات التكوينية والوظيفية، أو التركيبية الخلقية والمعنوية أو الغائية الأساسية التالية:

الوعي بالطبيعة البشرية وكلية الفرادة والتميّز: إن أول دلالة جذرية تأسيسية، تُدرك من عناية الوحي بتأسيس الوعي بالطبيعة البشرية، هي كلية الفرادة والتميّز البشري، سواء على المستوى الخِلقي الخارجي، أو على مستوى تكوين الشخصية أو الهوية، أو على مستوى القدرات والقابليات، أو على مستوى الوظيفة الوجودية، أو الموقع الوجودي، حيث خلق الإنسان خلقاً مزدوجاً فريداً[4]، امتزج وتكامل فيه الروحي بالمادي، والعقلي بالعاطفي، والذاتي بالجماعي، والقوة بالضعف[5]... فجاء كائناً

([1]) من الكتب المهمة التي تحدثت بشكل مركّز عن الإنسان في الثقافة الإسلامية: **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** للأصفهاني، **والإنسان في القرآن** للعقاد، و**دراسات في النفس الإنسانية**، **والثبات والتطور في حياة البشرية**، **والتربية الإسلامية** لمحمد قطب .

(2)**القرآن الكريم**، سورة الزلزلة: 8، 9.

(3)**القرآن الكريم**، سورة النساء: 172.

(4) زهير محمود الكرمي، **الطبيعة الإنسانية**، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م)، ص34-71.

(5) محمد قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**، ص71.

* المقصود هنا البشر الأول آدم وحواء؛ لأن نظاما تناسليا آخر تحكم في عملية الوجود البشري بعد ذلك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

متميّزاً فريداً ضمن المركب الكوني المهول، بمكوناته الكثيرة والمتنوّعة والمتداخلة والمعقدة.

فالإنسان خلقه الله بشراً سوياً منذ البدء على سبيل الطفرة* الفجائية التي ينتظمها قانون[**كُنْ فَيَكُونُ**]([1])، وليس على سبيل الانقلاب التطوري الذي انحدر فيه من سلالات حيوانية أدنى حتى وصل إلى صورته الراهنة[(2)]، كما تزعم بعض الاتجاهات الفكرية التطورية([3]). ومُنح قوة الوعي عبر إمكانات الفطرة والعقل والتعلم والتجربة والوحي[(4)]. كما منح حرية الإرادة والاختيار والمسئولية، فيما يتعلق بوظيفته الوجودية التي تنبني طبعاً على هذه الطبيعة المتميّزة. كما منح مهمة متميّزة في الوجود، وهي الخلافة في الأرض بكل امتيازاتها والتزاماتها.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى ما جاء في القرآن عن هذا التميّز في الطبيعة البشرية، في قوله تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ][(5)]. وقوله سبحانه:[يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ][(6)]. وهناك آيات أخرى تضمّنت التنبيه إلى هذه التسوية وتعديل الخلقة، وإحكام اتّساقها ظاهراً وباطناً[(7)]، بصورة فذّة فريدة، كما توحي بذلك صيغة التعجيب في قوله تعالى:[فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ]. وهو المعنى الذي يؤكده قوله تعالى في سياق استعراض بداية الخلق وآليته السننية، ثم التنويه بالفرادة والتميّز البشري:[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ] إلى قوله تعالى:[ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ][(8)]. وعلّق القرطبي على الآية بعد أن استعرض مجموعة من التفسيرات الجزئية، التي حاولت حصر معنى إنشائه خلقا آخر، في نفخ الروح، أو الخروج إلى الدنيا، أو كمال الشباب، أو كمال بعض أجزاء الجسم...الخ، فقال: "والصحيح أنه عام في هذا وفي غيره، من النطق والإدراك، وحسن المحاولة، وتحصيل المعقولات إلى أن يموت"[(9)].

ولعل في ختام الآية الأخيرة ما يلفت الانتباه إلى هذه الفرادة وهذا التميّز، حينما نعي أبعاد ودلالات التعجيب في الآية، وكيف جاء أو رتّب هذا التعجيب على المقدمة المتضمنة في مراحل وآليات الخلق المعجز، الذي يفضي إلى الإقرار بعظمة الخالق وكمال علمه وحكمته وقدرته ابتداء[(10)]. ولا شك أن الوصول إلى تقرير هذه النتيجة بالنسبة لعظمة الخالق، يعني بالأصالة التبعية كذلك، عظمة

([1]) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 117.

(2) عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987)، ص37.

([3]) بيتر شارب، **بنو الإنسان**، ترجمة زهير الكرمي، الكتاب رقم:67 (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983)، ص7.

(4) الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1400هـ-1980م)، ص21- 28.

(5) **القرآن الكريم**، سورة التين: 4.

(6)**القرآن الكريم**، سورة الانفطار: 6، 7، 8.

(7) الزمخشري محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، بخدمة: مصطفى حسين أحمد، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1407هـ-1987م)، 4/716-738؛ برهان الدين البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**(دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1413هـ-1992م)، 22/75- 8؛ أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، 10/422.

(8)**القرآن الكريم**، سورة المؤمنون: 12،14.

(9) الإمام القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: محمد إبراهيم الحفناوي، (دار الحديث، القاهرة، 1414هـ-1994م)، 12/117.

(10) البقاعي، **المرجع السابق**، 13/116.

وفرادة وتميّز هذا المخلوق في طبيعته البشرية؛ سواء على مستوى الجبلات والقابليات الخِلقية، أو على مستوى القابليات الاكتسابية، أو على مستوى القابليات الإرادية الاختيارية، أو على مستوى الوظيفة الوجودية له. وهو ما أدركته الملائكة في قصة الخلق الأولى بعد أن غابت عنها أبعاد الفرادة والتميّز في الإنسان في بداية الأمر([1])، ثم استبان لها الأمر بعد ذلك، فقالت:[قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ]([2])، وبادرت إلى السجود تنفيذاً لأمر الله، واعترافاً بفرادة وتميز المخلوق الآدمي، وتقديراً واحتراماً له، وللمهمة التي يضطلع بها في الأرض([3]).

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الأولى في الوعي بالطبيعة البشرية، هي لفت انتباه الإنسان إلى أهمية نواحي الفرادة والتميز في كينونته وهويته البشرية، والتأكيد على ضرورة حماية هذه الفرادة وهذا التميز في الحياة الإنسانية والمحافظة عليهما، وتنميتهما بشكل شامل ومتوازن ودائم، واعتبار أي مساس بهما هو مساس بجوهر إنسانية الإنسان، وبمهمته الاستخلافية في الأرض، وبمصيره الأخروي، وقبل ذلك كله وبعده، هو مساس بخلق الله وحقوقه على العباد([4]).

الوعي بالطبيعة البشرية وكلية الاقتدار: ونقصد بالاقتدار هنا ما يتوفر عليه الإنسان من قابليات وقدرات ذاتية فريدة ومتميزة، وما أتيح له من مسخرات كونية هائلة، ترفع من مستوى أداء حركته الاستخلافية في الأرض إلى أقصى درجات أصالتها وفاعليتها النوعية النموذجية. كما جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن في مواطن عديدة، نذكر منها قوله تعالى على سبيل المثال:[تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ]([5]). فأفق الاستخلاف البشري في الأرض مفتوح على الاجتهادية الإبداعية النوعية التكاملية التي لا حدود لها.

ويشكّل هذا الاقتدار بهذا المعنى، الدلالة الجذرية الثانية التي تُدرك من عناية الوحي بتأسيس الوعي بالطبيعة البشرية عامة، ومن تأكيده على الوعي بكلية الفرادة والتميّز بصفة خاصة. ذلك لأن المعنى الغائي والوظيفي من إبراز الوحي لأبعاد الفرادة والتميّز لدى الإنسان، هو تحسيسه بقدراته وقابلياته الفذة التي منحت له، وتميّز بها عن غيره من كثير من المخلوقات الكونية الأخرى[(6)]، حتى يتحرّر من عقدة النقص والخوف والضعف أمام مظاهر الطبيعة ومجاهلها الكثيرة، ويدرك مقامه الرفيع في الكون، ويعي مسؤوليته الوجودية ودوره في الحياة، ويركّز جهده لأداء مهمته الاستخلافية في الأرض بكفاءة وفاعلية واقتدار وثقة في النفس([7]). خاصة وأن هذه الإمكانات التي وضعت تحت

([1])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 30.

([2])**القرآن الكريم**، سورة البقرة : 32.

([3]) الراغب الأصفهاني أبو الحسن القاسم بن محمد، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، ص 12 (النسخة الإلكترونية التي نشرتها مكتبة مشكاة الإلكترونية).

([4]) ابن القيم، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، ص89.

([5]) **القرآن الكريم**، سورة الملك: 2.

(6) ابن عطية: أبو محمد عبد الحق، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: الرحالي الفاروق وآخرون، (مؤسسة دار العلوم، الدوحة، قطر، 1398هـ-1977م)، 144/9.

([7]) بيتر شارب، **بنو الإنسان**، ص 196.

تصرفه، وهذه المهمة الوجودية التي أنيطت به، أثارت حفيظة مخلوقات كونية ذات وزن كبير في الكون، كأمة الأبالسة التي رفضت المركز الكوني للإنسان، وناصبته العداء صراحة([1]). والملائكة التي رأت أنها أهل لتلك المهمة والسلطة الوجودية المتميزة التي منحت للإنسان([2])، كما يبدو ذلك من رؤيتهم السلبية للإنسان في بداية الأمر[**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**]([3]).

وكما سنرى في الفصل الثاني من هذا الباب، فإن القرآن ركّز كثيراً في برنامجه الفكري والروحي والتربوي المتكامل، على تحرير الإنسان من أي نقص أو خوف أو ضعف أو رهبة من الطبيعة التي تحتضن وجوده، ومن الكون الفسيح الذي يحيط به، بالعمل على تعريف الإنسان بالقدرات الهائلة التي وضعت تحت تصرفه، وطوع إرادته وعبقريته الاجتهادية والإبداعية. كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى[**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**]([4]). فالكون كله مسخّر لخدمة الخلافة البشرية في الأرض([5]).

فالإنسان عندما يعي قدراته الذاتية والكونية الكثيرة والمتنوعة، يباشر مسؤوليته الوجودية بثقة وشجاعة وحماس[(6)]. لأنه يعي تمامًا أنه لا ينقصه شيء، ولا يعيقه أي شيء إعاقة استحالة أو تعجيز، فيندفع إلى استثمار قدراته وإمكاناته لإبداع الوسائل التسخيرية الفعّالة، وبناء النماذج الفكرية والسلوكية والاجتماعية والحضارية الراقية، التي تتيح له الاستمتاع الأفضل بثمرات جهده الاستخلافي في المرحلة الدنيوية من دورته الوجودية الكبرى، وتهيئة شروط الاستمتاع الأمثل بحياته في المراحل الأخروية التالية من هذه الدورة الوجودية.

وقد أثبتت التجربة التاريخية أن أخصب استثمار لميزانية الإنسان التسخيرية[(7)]، ارتبط على الدوام بوعي الإنسان العميق بقدراته الذاتية، وبالإمكانات الكونية المسخّرة له، وبالمسئوليات الروحية والأخلاقية والاجتماعية التي يرتّبها ذلك عليه، وبالتحديات العاجلة والآجلة التي تبدّد ميزانيته التسخيرية، وتهدد إنجازاته الاجتماعية والحضارية. لأن الوعي بذلك كله يحرّره من الإحساس بالحاجة والضعف أمام الضغوطات الخارجية والأوهام النفسية المتضخمة، التي كثيراً ما تدفع به إلى متاهات الشرك المبدد للجهد، والمهدر للطاقة؛ سواء اتخذ ذلك شكل عبادة للذات والهوى، أو استكبار على الخلق واستضعاف لهم، أو خضوع للآخرين من بني جنسه، أو ارتهان لمظاهر الكون المختلفة، التي لا يملك أي منها النفع أو الضر لنفسه أو غيره في حقيقة الأمر([8]).

([1]) الألوسي، **روح المعاني**، 416/8.

([2]) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**،(دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1385هـ-1966م)، 50/3.

([3])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 30.

([4])**القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 32 – 34.

([5]) الأصفهاني، **تفصيل النشأتين**، ص7.

(6) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 145/9.

(7) عبد الله دراز، **الدين**، 40.

([8]) الشوكاني، **فتح القدير** 123/4 (طبعة دار الفكر).

من هنا جاءت عناية الوحي بتأسيس وعي الإنسان بقدراته الذاتية والكونية المتعددة، التي تجعل منه قوة استقطاب مركزية في الأرض. فكثر في القرآن والسنة الحديث عن خصوصيات البشر، والتنبيه إلى نواحي التميّز والقوة الذاتية فيهم، التي يأتي في مقدمتها القوى العقلية والعاطفية، والقدرة على التعلم والفهم والإدراك، والمقارنة والاختيار بين البدائل(1). وتركّز الحديث كثيراً على السمع والبصر والفؤاد(2)، باعتبارها أساس القوة الحقيقية التي تمنح الإنسان العلم والوعي ثم القدرة على الإنجاز وتحويل الوعي إلى إرادة وعزم وفعل سلوكي واجتماعي بناء. ولم يكتف القرآن بالحديث عن الإمكانات والقدرات الذاتية للإنسان، بل استفاض في الحديث كذلك عن المسخرات الكونية الهائلة كما أسلفنا.

فالإنسان في الإسلام صاحب قدرات تسخيرية عظيمة، كامنة فيه وفي الكون المحيط به، والمسخر له، ولا ينقصه سوى الوعي بذلك، والإدراك أن هذه القوة ممنوحة ومسخرة، وذات حدود يجب أن تعرف وتحترم في عملية الاستثمار حتى تؤتي أكلها أضعافا مضاعفة.

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الثانية في الوعي بالطبيعة البشرية، هي لفت انتباه الإنسان إلى الأهمية البالغة للقدرات الإنسانية الهائلة؛ الذاتية منها والمسخرة في الطبيعة والكون من حوله، والتأكيد على ضرورة حمايتها والمحافظة عليها، والعمل الدؤوب على تنميتهما بشكل شامل ومتوازن ومطرد، واعتبار أي مساس بها، أو هدر أو تعطيل لها، هو مساس بجوهر القوة والقيمة الإنسانية، وتعطيل للمهمة الاستخلافية البشرية في الأرض، وتحريف لها عن مسارها الصحيح، وتعريض للمصير البشري الأخروي للخطر، وقبل ذلك كله وبعده، هو مساس بخلق الله وحقوقه على العباد .

الوعي بالطبيعة البشرية وكلية التكريم: وهي الدلالة الكلية الجذرية الثالثة التي تدرك من عناية الوحي بتأسيس الوعي بالطبيعة البشرية، وإبراز تميّز الإنسان، وتوفره على قدرات تسخيرية ذاتية وخارجية لم تتح لغيره من المخلوقات ذات العلاقة به؛ لأنها نتيجة منطقية لتلك الفرادة، وهذا الاقتدار الممنوحان له من الله الخالق سبحانه وتعالى.

فإذا كان التكريم يعني: التنويه والاحتفاء بهذه النفاسة والفرادة في الخلقة(3)، وبهذا التميّز في القابليات والقدرات التسخيرية الهائلة، وبالوظيفة والمكانة الوجودية السامية للإنسان. على اعتبار أن كل شيء حَسُن وشرف وامتاز وعظم وكثرت محامده في بابه، يوصف بالكرم(4)، فإن الإنسان قد حباه الله بقدْر عظيم من المحاسن والمحامد النفيسة والمتميّزة؛ في الخلقة والتكوين والوظيفة والمكانة والإمكانات والاستعدادات بين سائر المخلوقات الكونية(5). وهو ما جاء التأسيس له والتنويه به في قوله تعالى**[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا]**(6). حتى حسدته بعض هذه الكائنات الكونية ذات الشأن والمقام في الكون،

---

(1) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، **التفسير الكبير**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ-1990م)،11/21.
(2) البنداق، **هداية الرحمن**، ص68-189-271.
(3) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 165/15.
(4) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص 707.
(5) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (دار الكتب العلمية، بيروت، 2000)، 132/16.
(6) **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 70.

وانخرطت في حرب ضروس ضده([1])، وغبطته أخرى على ذلك، وتمنت لو أنها أكرمت بما أكرم به الإنسان([2]) ، قبل أن تتبين لها خلفيات وأبعاد اختيار الإنسان لهذه المهمة دون سائر المخلوقات الكونية الأخرى، وتنخرط في حركة الولاء والخدمة له، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

فالإنسان هو المخلوق الكوني الوحيد الذي أُهِّل تأهيلا متكاملا لحمل أمانة الخلافة في الأرض بجدارة واستحقاق([3])، بكل واجباتها ومسئولياتها وتحدياتها وتبعاتها، التي أشفقت منها كائنات كونية عظيمة، واعتذرت عن حملها، وتولى الإنسان حملها، كما جاء ذلك في قوله تعالى[**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**]([4]). لذلك جاء تفضيله على كثير من هذه الكائنات الكونية التي دخلت في دائرة الولاء والخدمة للإنسان([5])، بعد أن منحه الله السلطان عليها عبر قوانين التسخير التي سيأتي الحديث عن كلياتها في الفصل الثاني من هذا الباب.

يقول ابن العربي: " ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن اللّه خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيماً. وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: (إن اللّه خلق آدم على صورته)([6])، يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها. وفي رواية (على صورة الرحمن)([7])، ومن أين تكون للرحمن صورة متشخّصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني ... فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق اللّه باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب.. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه "([8]).

من هذه النفاسة والفرادة والتميز على كل هذه المستويات، يستمد الإنسان قيمته وتكريمه وكرامته[(9)]، التي ترتقي به إلى مستويات عالية من الرفعة والعزّة والشرف ووجوب الصيانة والحفظ، بحيث لا يجوز ابتذال هذا التكريم والاعتداء عليه بأي نوع من أنواع الاعتداء أو الابتذال؛ لبدنه أو لنفسه أو لعقله أو لحريته، أو لعرضه أو لأي مقدَّر من مقدراته([10])، سواء جاء هذا الاعتداء والابتذال من الإنسان ذاته أو من غيره.

ومن يعمق النظر في القرآن والسنة، وفي نظام الكون عامة، يلحظ كيف أحيط هذا التكريم الإنساني بسياج منيع من العناية والحماية والصيانة، من أجل تنمية وتعزيز إحساس الإنسان بهذه الفرادة والنفاسة والتميّز والشرف والمكانة والعلاقة المتينة بالله... لأن ذلك وحده هو الذي يمكّنه من أداء رسالته في الوجود بأصالة وفعالية واطراد، أما إذا مُسّ هذا الإحساس في نفسه، وتعرّضت

([1]) الطبري، **جامع البيان**، 115/15.

([2]) البغوي، **معالم التنزيل**، 61/1.

([3]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 1/ 230.

([4])**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 72.

([5]) ابن باديس، **مجالس التذكير**، ص 128.

([6]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب بدأ السلام، تحت رقم 2612.

([7]) قال عنه الألباني "حديث منكر" (**السلسلة الصحيحة** 811/1).

([8]) ابن العربي، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت)، 414/4 بتصرّف.

(9) عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**، (دار الأرقم، حمص، سورية، 1972م)، ص164.

([10]) الإمام الشاطبي، **الموافقات**، 134/2.

كرامته، منه أو من غيره، للابتذال والامتهان، فإن ذلك سيكون حتماً على حساب مهمته الاستخلافية في الأرض.

ومن هنا شنّ القرآن والسنة حملة شعواء على الهوى والطمع والجبن[1]، والغرور والعجب، والحقد والحسد، والتكبر[2]، والمذلّة والنفاق والشرك[3] والظلم[4] والاستبداد[5]... إلى ما هنالك من الأمراض الفكرية والنفسية والسلوكية القتّالة، لأنها جميعا تضعف في الإنسان روح الشعور المتوازن بالنفاسة والكرامة والعزّة والتشريف والقرب من الله، ومن ثم إضعاف فعاليته التسخيرية والاستخلافية في الأرض. واعتمد الإسلام – بل نرى هذا في النظام الكوني كله – نظاماً تشريعياً وتربوياً وأخلاقياً ينمي في الإنسان هذا الإحساس بالتكريم والكرامة والعزّة، ويحميه ويحافظ عليه، لتجري الحياة البشرية نحو غاياتها العليا في **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** باطراد[6]، فكثر في الكتاب والسنة الحديث عن قيّم الحرية، والمساواة والعدل، والتعاون، والشجاعة، والأنفة، والتواضع، والسماحة، والصبر، والمعرفة، والحقوق، والواجبات... لتنمية الإحساس بالكرامة والتكريم، والحماية لهما والمحافظة عليهما، وتنميتهما باستمرار، باعتبارهما أساس التكامل الذاتي للإنسان، وشرط الفعّالية الاجتماعية والحضارية والكونية.

وبالاستناد إلى هذه العناية الشديدة بالتكريم والكرامة، نقول بأن معيار الإنسانية، ومصداقية الاستخلاف: هو بقدر ما يتحقق للإنسان في النظام الاجتماعي من كرامة وإحساس بالعزّة والرفعة والأمان على حرية إيمانه، وعلى نفسه وعقله وماله وعرضه، وعلى سائر الحقوق والواجبات المرتبطة بها. فذلك وحده هو المقياس الصحيح للتقدم والتحضّر أو التخلّف والبدائية والانحطاط والتسفل.

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الثالثة في الوعي بالطبيعة البشرية، هي لفت انتباه الإنسان إلى الأهمية البالغة لقيمة الكرامة والتكريم في حياته، وكيف أنها تمثل عمق وجوهر إنسانية الإنسان، والتأكيد على ضرورة حمايتها والمحافظة عليها، والعمل الدءوب على تنميتها بشكل شامل ومتوازن ومطرد، واعتبار أي مساس بها، أو هدر لها، هو مساس بجوهر القوة والقيمة الإنسانية الذاتية الحقيقية، التي بها حاز الإنسان شرف الخلافة والسيادة في الأرض .

الوعي بالطبيعة البشرية وكلية القابلية للسمو والسفول: وهي الدلالة الجذرية الرابعة التي تُدرك من عناية الوحي بتأسيس الوعي بالطبيعة البشرية، على اعتبار أن الكيان الإنساني جاء مزدوج القابليات والاستعدادات المتكافئة([7])، التي قد تدفع به نحو التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتكامل الكوني. أي نحو الترقي في مدارج **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**

---

(1) البنداق، **هداية الرحمن**، ص 390.
(2) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 326/3.
(3) الميلى، مبارك بن محمد، **رسالة الشرك ومظاهره**، (مكتبة الإيمان للطبع، الإسكندرية، 1409هـ-1989م) ص51.
(4) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق على عبد الواحد وافي، (دار نهضة مصر، القاهرة، ط3، 1401هـ-1981م)، 741/2.
(5)الكواكبي، عبد الرحمن، **طبائع الاستبداد**، (دار الشرق العربي، بيروت، ط3، 1411هـ-1991م)، ص37.
(6) القرضاوي، يوسف، **الخصائص العامة للإسلام**، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 1409هـ - 1989م)، ص74.
(7) محمد قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**، ص71.

والفعالية الاجتماعية التكاملية النموذجية. أو تدفع به نحو الانفصام الذاتي، والاهتلاك الاجتماعي، والتنافر الكوني. أي نحو التقهقر إلى دركات الشركية والمادية والذاتية والدنيوية والفعالية الاجتماعية التنافرية المنهكة([1])، التي أدرك أخطارها على حياة الإنسان، أحد علماء النفس المعاصرين الكبار، فقال وهو يعلّق على المآلات الوخيمة التي أفضت إليها الحياة المادية في المجتمعات المتمدّنة: " إن إنسان الغابات البدائي أكثر " كمالا " بما لا يقاس، من الغالبية العظمى من المتمدّنين"([2]).

فكلية القابلية للسمو والسفول، تشكّل المكوّن الجوهري الرئيس في الطبيعة البشرية، حيث شاءت إرادة الله تعالى أن تخلق هذا الإنسان بطبيعة مزدوجة، قابلة للتكامل والتوازن والسمو، والتأثير الإيجابي الإبداعي البناء في حركة الاستخلاف البشري، كما أنها قابلة للتنافر الذاتي والاختلال والانحراف والتراجع، والتأثير السلبي الهدْمي في حركة هذا الاستخلاف البشري في الأرض، بناء على ما يغلب على النفس والسلوك من مؤثرات عقدية وفكرية ونفسية وبيئية مختلفة، تعمل على تشكيل موقف الإنسان، وتوجيه انفعالاته واستجاباته نحو الصعود أو السفول([3]).

ونظراً للدور المركزي الحاسم لهذه الكلية في الطبيعة البشرية، وتأثيراتها الحيوية الجذرية على وجهة ومسار حركة الاستخلاف البشري، فقد أولاها القرآن عناية كبيرة، وأسّس لها بشكل واضح ودقيق؛ سواء على المستوى العقدي والفكري والنفسي، أو على المستوى التربوي العملي، الذي قدّم فيه نماذج تطبيقية كثيرة جداً عن تجليات هذه الكلية في الحياة البشرية في اتجاهيها الصاعد والنازل على حدّ سواء. وفي هذا السياق جاء في القرآن قوله تعالى[**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**] ([4]).

يقول سيد قطب في تعليقه على هذه الآية: " إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه – من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه – مزوّد باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء. وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبّر عنها القرآن بالإلهام تارة: [**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا...**] ويعبّر عنها بالهداية تارة [**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**]... فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجّهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً، لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً "([5]).

وفي نص تأسيسي قرآني آخر، جاء التأكيد كذلك على هذه الاستعدادات المتقابلة في الطبيعة البشرية، مع الإشارة إلى المؤثرات الرئيسة التي تتحكّم في المسار الصاعد أو السافل لحركة الاستخلاف البشري في الأرض. كما يتجلّى ذلك في قوله تعالى:[**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**]([6]).

([1]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 7/355.

([2]) بيار داكو، **الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث**، ترجمة وجيه أسعد، (مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان ، ط2، د.ت)،ص21.

([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 15/ 424.

([4])**القرآن الكريم**، سورة الشمس: 7 – 10.

([5])سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 6/3917.

([6])**القرآن الكريم**، سورة التين: 4 – 6.

والملفت للانتباه في هذه الآية هو أن الإنسان مفطور على الخير في أصل خلقته، كما يوحي بذلك قوله تعالى: [لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ]، أي فيه استعداد بل وميل فطري إلى الخير والرغبة في الصعود إلى المدارج العليا في الكمال البشري، كما يلاحظ ذلك ابن عاشور في تعليقه على هذه الآية: " وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير وأن في جبلته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنّه باطلاً أو هلاكاً، ومحبة الخير والحسن من الأفعال لذلك تراه يسرّ بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره، ويغيث الملهوف ويعامل بالحسنى، ويغار على المستضعفين، ويشمئزّ من الظلم ما دام مجرداً عن رَوْم نفع يجلبه لنفسه أو إرضاء شهوة يريد قضاءها، أو إشفاء غضب يجيش بصدره، تلك العوارض التي تحول بينه وبين فطرته زمناً، ويهش إلى كلام الوعّاظ والحكماء والصالحين ويكرمهم ويعظمهم ويودّ طول بقائهم. فإذا ساورته الشهوة السيئة فزيّنت له ارتكاب المفاسد ولم يستطع ردها عن نفسه انصرف إلى سوء الأعمال، وثقل عليه نصح الناصحين، ووعظُ الواعظين على مراتب في كراهية ذلك بمقدار تحكم الهوى في عقله. ولهذا كان الأصل في الناس الخيرَ والعدالة والرشد وحسن النية عند جمهور من الفقهاء والمحدِّثين "([1]).

وبالرغم من أن أية أخرى تالية أشارت إلى البعد الآخر في الطبيعة البشرية، وهو بعد القابلية للتراجع والسفول، كما في قوله تعالى: [ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ] إلا أن ذلك يبقى في إطار الاستعداد الذاتي، ولا يشكّل ميلاً فطرياً أساسياً في مستوى الميل الفطري الذاتي نحو الخير والسمو والكمال، حتى وإن أخطأ الإنسان طريق ذلك أحيانا كثيرة. وهو ما ينبغي أن تُقرأ في ضوئه بقية النصوص القرآنية والحديثية التي تحدّثت عن بعض نواحي الضعف الفطري في الطبيعة البشرية([2]).

فالإنسان مطبوع على حب الخير والشوق إليه، كما جاء ذلك في مثل قوله تعالى: [إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ. وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ]([3])، الذي حصرته جلّ التفاسير في حب المال([4])، مع أن توسيع مفهوم الخير ليستوعب بقية المنافع والمصالح المادية والمعنوية التي تتوق إليها النفس البشرية عامة والسويّة منها خاصة([5])، هو أقرب إلى روح القرآن وأليق بكثافة الحمولات الفكرية التي تختزنها مفاهيمه المحورية.

فكل المؤشرات في القرآن والسنة تفيد بأن الأصل في الإنسان هو الميل إلى حب الخير فطرة، كما جاء في الحديث كذلك: **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول: " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ")**([6]). وما يلحظ عليه من ميل إلى الانحراف والشر والفساد والسفول عادة([7])، هو أمر ناجم عن المؤثرات الفكرية والتربوية والاجتماعية والسياسية والحضارية والشيطانية التي تحيط به منذ بداية نشأته، وتعمل على صياغة شخصيته وتكييف مواقفه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 426/15.

([2]) حبنكة الميداني، **الأخلاق الإسلامية**، ص333.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة العاديات: 6 – 8.

([4])الشوكاني، **فتح القدير**، 5/ 483.

([5]) سعيد حوى، **الأساس في التفسير**،6644/11.

([6]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: إذا مات الصبي هل يصلى عليه، تحت رقم/4775.

([7]) محمد قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**،338.

وتصرفاته إلى حد كبير([1])، كما هو واضح في الحديث نفسه([2]).

فالمؤثرات الخارجية الكثيرة التي تحيط بالوجود الإنساني، لها دور كبير جداً في صياغة شخصيته، وتكييف مواقفه وتصرفاته، حتى قيل بأن الإنسان ابن بيئته، كما ذكر ذلك جلبرت سيلدز: " إن الإنسان هو ابن الظروف. ولو أنك غيرت بيئات ثلاثين طفلا من الهوتنتوت (شعب في جنوب أفريقيا) وثلاثين طفلاً من ارستقراطيي انجلترا، فسيصبح الارستقراطيون هوتنتوت من كل النواحي العملية، وسيصبح الهوتنتوت محافظين صغارا"([3]).

وفي الحديث الذي ذكرناه آنفا، وكذلك في آيات (سورة التين) التي مرَّ ذكرها، ما يلفت الانتباه إلى مؤثر حيوي مهم في مقاومة عوامل السفول، وبناء شخصية إنسانية متوازنة، ذات قدرات تكيُّفية ذاتية واجتماعية فعالة، ألا وهو دور **الإيمان العملي المتجدّد**، الذي يعين على حفظ توازن الإنسان، ويقيه من أسباب وعوامل الاختلال والسفول والخسران، ويدفع به في اتجاه التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتكامل الكوني باستمرار، كما يؤكّد ذلك قوله تعالى: **[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ]**([4]). وكما تجلّى ذلك أيضا في (سورة العصر) وهي ترصد وتحلّل وتفسّر وتستشرف واقع حركة الاستخلاف البشري، وتكشف عن المؤثرات السننية الفاعلة في اتجاهاتها الصاعدة والمتقهقرة على حد سواء([5])، ليراعيها الإنسان في تخطيط وإدارة حركته الاستخلافية في الأرض، وفي وقاية منجزاتها الحضارية من الهدر والاستنزاف العبثي**[وَالعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]**.

ف**الإيمان العملي المتجدّد**، يشكّل مؤثراً فكرياً وروحياً ونفسياً واجتماعية أساسياً، لموازنة حياة الإنسان، والمحافظة على توثبها الروحي وتألّقها الفكري والسلوكي والاجتماعي، والإبقاء عليها في دائرة الصعود والحضور الاجتماعي المؤثر، ووقايتها من مؤثرات الضعف والسفول والغثائية المنهكة والمهلكة([6])، كما جاء تأكيد ذلك أيضا في آيات كثيرة في القرآن، نكتفي منها بالإشارة إلى قوله تعالى**[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]**([7]).

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الرابعة في الوعي بالطبيعة البشرية، هي لفت انتباه الإنسان إلى الأهمية البالغة لمعطى القابلية للسمو والسفول في حياته، وكيف أن ذلك يشكّل قاعدة الارتكاز في تكليفه وابتلائه ومجازاته، ومن ثم نقطة الانطلاق في تربيته وتزكيته، وتنمية قابليات وميول الخير الكامنة فيه، والدفع بها إلى أعلى مستويات كمالها الإنساني النموذجي الأقصى، وعدم إفساح المجال لقابليات الضعف والشر فيه،

([1]) إريك فروم، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ص126.

([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 425/15.

([3])ب.ف.سكينر، **تكنولوجيا السلوك**، ترجمة: عبد القادر يوسف، (سلسلة عالم المعرفة، كتاب رقم: 32 ، الكويت 1980)، ص161.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة التين: 4 – 6.

([5]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3964/6.

([6]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 24/9.

([7]) **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 96.

للتأثير السلبي على حركة ترقِّيه الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري، وخاصـة مـا أخرج منها الإنسان من دائرة التوازن والصلاح إلى دائرة الاختلال والانحراف والفساد([1]).

هذه باختصار الدلالات الكبرى أو المحورية التي تُستوحى من الاهتمام المركّز للقرآن والـسنة بكلية الطبيعة البشرية. ولا تخفى مدى أهمية وعي الإنسان بدلالات التميّز والاقتدار والتكريم، وقابليـة السمو والسفول لديه، على روحه المعنوية، وشعوره بالنفاسة والعزّة والتشريف، وآثار ذلك كله علـى موقفه من الله تعالى؛ مانح كل هذه الامتيازات والقـدرات للإنـسان. ثـم علـى موقفـه التـسخيري والاستخلافي بعد ذلك، الذي لا شك أنه سيتسم بامتثالية وانسجامية سننية رفيعة؛ على مستوى العلاقـة بالله، وبفعالية نموذجية قصوى على مستوى العلاقة بالكون والوظيفة الوجودية المركزية للإنسان.

([1]) ابن باديس ،**مجالس التذكير**، ص72.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ونلحظ هنا – على الصعيد المنهجي – كيف يتكامل الوعي بدلالات كلية المنشأ البشري، وكلية الطبيعة البشرية، في تحقيق هذه الامتثالية والانسجامية السننية الرفيعة، وهذه الفعّالية التسخيرية والاستخلافية النموذجية، كلما توفر للإنسان المنهج المعرفي والتربوي الذي يصله بحقائق ومعاني وأبعاد هذه الكليات؛ وصلاً شاملاً ومتكاملاً ومتوازناً ومتجدداً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تأسيس الوعي بكلية الوظيفة الوجودية للإنسان

الكلية الأساسية الثالثة التي تمحور حولها اهتمام الوحي بصورة مكثفة جدّا، هي **تأسيس الوعي**

بالوظيفة الوجودية المركزية للإنسان في الأرض، بعد أن تأسّس وعيه بكلية المنشأ أو البداية البشرية ودلالاتها العقدية الكلية، ثم بكلية الطبيعة أو الكينونة البشرية وخصوصياتها وامتيازاتها وإمكاناتها، والدلالات العقدية والتسخيرية والاستخلافية الكامنة في ذلك كله.

ونعني بالوظيفة الوجودية للإنسان هنا: الدور المركزي الذي قدّر للإنسان أن يؤديه في المرحلة الدنيوية من دورته الوجودية الكبرى[1]، التي يشكّل عالم الشهادة مرحلة محورية أساسية فيها[2]. وقد سبق الحديث عن سؤال الوظيفة والمنهج، أو لماذا وجد الإنسان؟ باعتباره إحدى أهم المشكلات الوجودية الكبرى التي تمحور حولها الاهتمام البشري باستمرار.

وقبل التطرّق لدلالات وأبعاد الوظيفة الوجودية للإنسان، نؤكد على أهمية الوعي بالغاية أو الهدف بصفة عامة[3]، وخطورة الذهول عن ذلك أو الغفلة عنه، على حركة الاستخلاف في الأرض، وما يعقبها من مراحل حياتية أخرى مؤسَّسة عليها، أي على موقف الإنسان في عالم الشهادة، وعلى طبيعة بالدلالات العقدية والفكرية والاجتماعية للكليات السابقة، ومن ثم على كيفية ومستوى تجسيده لذلك في تفكيره وسلوكه وأدائه الاجتماعي وعلاقاته بغيره من البشر وسائر المكونات الكونية ذات العلاقة بوظيفته الاستخلافية في الأرض.

ولا يخفى أن الوعي بالهدف عمومًا، يؤدي إلى تركيز الجهد عليه، والقصد إليه مباشرة، واستفراغ الوسع فيه، ومحورة الاهتمام عليه؛ فهماً واجتهاداً في تحرّي الخطط والمناهج الفعالة، وتعبئة الإمكانات المطلوبة للوصول إليه. وذلك كله يساعد على فعالية استثمار الوعي التسخيري في الإنجاز، ويضمن توفير الوقت والجهد والإمكانات، كما يساعد على عملية التقييم والتقويم المستمر لحركة الإنجاز. بخلاف غياب أو اضطراب الوعي بالهدف والدور، فإنه يطبع خطط ومناهج العمل بالتذبذب والفوضى وعدم الانتظام، ويسبب إهداراً خطيراً للوقت والجهد والإمكانات، ويضاعف المشكلات ويعقدها أمام حركة الإنجاز، ويتيح الفرصة للقوى المنافسة والمناوئة للنمو والقوة والتمكن على حسابها. زيادة على أن ما يُهدر من الميزانية التسخيرية للأفراد والمجتمع يصعب تعويضه أصلا؛ كإمكان الوقت مثلا[4]. كما قال عليه الصلاة والسلام: « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ** »[5]. وقد سبق أن أوضحنا أهمية وخطورة فعل الزمن في الميزانية التسخيرية للبشر، وكيف يتحوّل في حياة أفراد وفي حركة أقوام ومجتمعات وأمم، إلى عدم[6]، بل وإلى " مديونية حضارية " منهكة، تكرّس التخلف والغثائية والتبعية الذليلة. ويتحوّل في حياة أفراد آخرين، وأقوام ومجتمعات وأمم أخرى، إلى منجزات وثروات فكرية واجتماعية وحضارية كبيرة، تعزّز فاعلية نهضتها أو مواكبتها أو تنافسيتها أو ريادتها الحضارية.

من هنا أعطى الإسلام عناية خاصة **لكلية الوظيفة الوجودية للإنسان**، تأسيا بالأبعاد والدلالات العقدية والفكرية والاجتماعية للكليتين السابقتين. وركّز على تحديد رسالة الإنسان في الحياة،

---

(1) عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، ص47.
(2) محمد المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص93.
(3) محمد حسن أسير يحي، **أهداف التشريع الإسلامي**، (دار الفرقان، الأردن، 1450هـ-1985م)، ص14.
(4) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص 146.
(5) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الرقاق ، باب ما جاء في الرقاق (ابن حجر، **فتح الباري**، دار الكتب العلمية،بيروت، 233/11)
(6) مالك بن نبي، **المرجع السابق**، ص145.

بكل شمول ووضوح ودقة؛ سواء على مستوى الإطار، أو المحتوى، أو إمكانات وشروط الإنجاز، أو الجزاءات الدنيوية العاجلة أو الأخروية الآجلة. ولم يترك أي فراغ في حياته، بإمكانه أن يؤثر سلباً على أصالة وفاعلية واطرادية، تلبيته لضرورات وحاجات حركة الاستخلاف، ومواجهة تحدياتها المتلاحقة بلا انقطاع.

فالمتأمل في مضامين الوحي ومقاصده وثوابته وأولوياته – قرآنا وسنة – يلحظ بكل وضوح ودقة، أن اهتماماته تمحورت، في مجملها، حول الوظيفة الوجودية للإنسان(1)؛ تأسيساً للغايات، وتأصيلا للأهداف، وضبطًا للمناهج، واستجماعا للشروط الفكرية والنفسية والمادية المساعدة على تركيز الوعي التسخيري، وتفعيل حركة الاستخلاف، ووقايتها، وضمان اطراديتها. ويندر في الوحي موقف أو توجيه أو حكم.. لا يصب بصورة مباشرة أو غير مباشرة في خدمة حركة الاستخلاف، وتعميق الوعي التسخيري المطور والمرقّي لها بصورة شاملة ومتوازنة ودائمة(2).

فالحديث المكثف عن النشأة أو الطبيعة البشرية، أو المصير البشري، أو الأنظمة العبادية المختلفة؛ من صلاة وصيام وزكاة وحج وذكر ومراقبة ومحاسبة... عندما نتأمّله على ضوء المقاصد الكلية لكل هذه المنظومات، وارتباطاتها، ووسائلها، وآثارها، نلحظ مدى تمحورها كلها حول تأصيل وتفعيل وحماية حركة الاستخلاف وتطويرها، وترقيتها نحو الأفضل بشكل مستمر. فالاهتمام بشروط تحقيق أصالة وفاعلية واطرادية حركة الاستخلاف البشري في الأرض، شكّلت المصب المحوري لكل هذه المنظومات.

وما يلحظ في القرآن والسنة من ذم للدنيا أو تقليل من شأنها، أو تحذير منها، فإنه مقصود منه الحركة الدنيوية المنغمسة في المادية والآنية المعزولتين عن آفاقهما الروحانية والأخروية، والمتحرّكة على خط الهوى والأنانية والشرك والنفاق والضلال والطغيان والفسوق(3)... لأنها حركة تسير عكس منطق سنن الله الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وكان من الطبيعي أن يرفضها الإسلام، وأن يعتبرها أساس كل اختلال في حركة الاستخلاف، وسبب كل مآل أخروي خائب، وأن يتصدّى لها بكل قوة، وأن يقود ضدها مقاومة عقدية وفكرية وتربوية واجتماعية وسياسية شاملة، تجنّب حركة الاستخلاف أخطارها ومهالكها العاجلة والآجلة(4).

ونذكر هنا بعض الآيات على سبيل المثال، كقوله تعالى:[**اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ**](5). وقوله كذلك: [**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**](6). وقوله: [**فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآَثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى**](1).

---

(1) رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، ص257.

(2) محمد عزة دروزة، **دستور القرآن والسنة النبوية في شؤون الحياة**، (مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1386هـ-1966م)، 1/24- 29.

(3) محمد الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، (دار القلم، دمشق، ط4، 2005) ص 150.

(4) ابن باديس، **تفسير ابن باديس**،ص 50.

(5) **القرآن الكريم**، سورة الحديد: 20.

(6)**القرآن الكريم**، سورة هود: 15، 16.

أما الحركة الدنيوية المتحركة على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، فإنها شكّلت صلب اهتمام الوحي كما أسلفنا، وكما سيأتي مزيد بيان على ذلك، في الفصلين الثاني والثالث. وذهب الإسلام بعيداً في هذه العناية إلى درجة أنه جاء في الحديث النبوي قوله عليه الصلاة والسلام: (**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**)([2])، ترغيبا في عمارة الأرض، واستزادة من الخير والأجر الذين ينالهما الإنسان من ذلك في الدنيا والآخرة. كما جاء في الحديث كذلك، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر دعائه: (**اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار**)([3]). تمثّلا للمنطق القرآني الذي يدعو إلى الاستفادة القصوى من الفرصة الدنيوية، ووضعها في خدمة الغايات والأهداف العليا للخلافة البشرية في الأرض([4])، كما نرى ذلك في مثل قوله تعالى: [**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ**]([5]). وقوله كذلك وهو يحدّد المسار المتوازن والمتكامل لحركة الاستخلاف البشري، التي يجب أن تندفع قدماً باتجاه كمالات ومراضي الآخرة، عبر محاسن وكمالات العمران البشري في الأرض، كما توحي به كلمة الحسنة[**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ** النَّارِ]([6]). فالحركة الدنيوية المشدودة إلى آفاق الآخرة والخادمة لها، تعدّ هدفاً محورياً أساساً لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، يشكّل أي تفريط أو فشل غير مبرر فيها، خطراً حقيقياً مباشراً على الخلافة البشرية ذاتها، وعلى المصير الأخروي للإنسان في الوقت نفسه. على أساس أن الدنيا مزرعة الآخرة يحصد منها كل إنسان ما زرعه فيها من ناحية، كما جاء في الحديث القدسي: (**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيرا فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**)([7]). وكما جاء في آيات كثيرة، نكتفي منها بالإشارة على قوله تعالى: [**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**] ([8]). وعلى أساس أنها محكومة من ناحية أخرى بسنة **التدافع والتداول** التي تفرض على كل مستخلف في الأرض أن يجدّد أصالة وفاعلية واطرادية مدافعته أو مداولته الاجتماعية والحضارية، وإلا حكم عليه منطق السنن الإلهية بالغثائية والتبعية والمهانة الحضارية المذلة.

فمنطق سنن **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، المهيمن على حركة الاستخلاف البشري في الأرض، لا يسمح بالفراغ في حركة المدافعة والمداولة الاجتماعية والحضارية، ولا يعطي الفرصة لأية مدافعة كسولة أو مرتبكة أو ضعيفة.. لتحافظ على توازنها أو تستجمع أنفاسها، بل يقذف بها إلى الوراء، لتفسح المجال أمام المدافعة الاجتماعية والحضارية الأكثر فاعلية وأصالة واطرادية، أو الأكثر

([1])**القرآن الكريم**، سورة النازعات: 37- 39.

([2]) الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (مؤسسة المعارف، لبنان، 1406هـ) ج66/4.

([3]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ربنا آتينا ....، تحت رقم، 6389.

([4]) الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، 178/20.

([5])**القرآن الكريم**، سورة القصص : 77.

([6])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 200،201.

([7])أخرجه مسلم، في **صحيحه**، باب تحريم الظلم، تحت رقم 2577.

([8])**القرآن الكريم**، سورة الزلزلة: 7، 8.

فاعلية فحسب، لتمضي على طريق النهضة أو المواكبة أو المنافسة أو الريادة الحضارية.

وعلى هذا الأساس تبدو لنا خطورة الاتجاهات الفكرية والاجتماعية المزهِّدة في الاهتمام بالحركة الدنيوية بصفة عامة، أو الغافلة عن شروطها وسننها، دون تمييز بين الخطين المتقابلين فيها، كما نلمس ذلك في هذا " النص النموذجي "* لأبي حامد الغزالي على سبيل المثال وهو يتحدّث عن ذم الدنيا: " ... فإن الدنيا عدوة لله، وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله... وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يبعثوا إلا لذلك "([1]). ولا يخفى ما في هذه التعميمية الصارمة من إيحاءات تزهيدية إنكفائية خطيرة، فتحت وتفتح الباب واسعاً أمام موجات الفردية الانعزالية والزهدية الخرافية، التي أتاحت الفرصة بدورها للحركة الدنيوية المقطوعة عن الله لكي تستحوذ على اهتمامات الناس، وتنطلق بهم بعيداً عن خط **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، وتخنق الأبعاد الروحية والأخلاقية في حركة الاستخلاف البشري.

وتنبيها على خطورة النتائج السلبية لهذه الاتجاهات، دعا القرآن إلى العناية بمحسنات الحياة ومجمِّلاتها، وترقية مستويات المعيشة والرفاه الاجتماعي، وحذّر بوضوح من عملية التزهيد في الحركة الدنيوية المنفتحة على الآخرة والخادمة لها، لما يؤدي إليه ذلك من إخلاء ساحات المدافعة الاجتماعية والحضارية من النماذج الدنيوية الصالحة، وإفساح المجال أمام نماذج الحركة الدنيوية المقطوعة عن الله، لكي تسيطر على الموقف، وتتحكم في صياغة وتوجيه حركة الاستخلاف البشري([2]). فقال تعالى[**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**]([3]). ومن المعاني اللطيفة التي ذكرها بعض المفسرين تعقيباً على هذه الآية، قولهم بأن المؤمنين يشاركون بكل فعالية في الاستفادة القصوى من خيرية ونِعم وبركات الحركة الدنيوية الصالحة، وينفردون بالاستفادة الخالصة من خيرية وبركات المراحل التالية من الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، التي تعقب المرحلة الدنيوية مباشرة([4]).

وجاء في الحديث النبوي أيضاً التأكيد على انفتاح حركة الاستخلاف البشري في الأرض على هذه الجمالية والكمالية المتوازنة في الحياة. فقال عليه الصلاة والسلام، وهو يُرَشِّد هذه الجمالية والكمالية، ويقيها من انحرافات الدنيوية المقطوعة عن روحية الإيمان وأخلاقيته وإنسانيته: **(من سحب ثيابه لم ينظر الله إليه ! فقال أبو ريحانة: والله لقد أمرضني ما حدّثنا به، فوالله إني لأحب الجمال حتى إني أجعله في شراك نعلي وعلاق سوطي، أفمن الكبر ذاك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس)**([5]). وفي رواية:**(إن الله جميل يحب الجمال، و يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، و**

---

* أي أنه يمثل عينة نموذجية للاتجاهات الزهدية عامة.

([1]) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 197/3.

([2]) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 226/2– 391.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 31 ، 32.

([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 96/8.

([5]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 136/5.

يبــغض البــؤس و التباؤس([1]).

ولا شك أن تحقيق مستويات معيشية راقية، وتقديم نماذج اجتماعية وحضارية علــى درجــة عالية من الجمالية الروحية والأخلاقية والسلوكية، ومن الفاعلية الإنجازية النموذجية، يستلزم الاستجابة الفاعلة للضرورات والحاجات والكمالات الحياتية التي يفرضها سقف حركة " **التدافع والتجديد** " فــي كل عصر([2]). والمجتمع الذي يقصّر في تحقيق ذلك بمقاييس عصره، يعرِّض نفسه للاستلابية والإمعية والتبعية الحضارية، كما تؤكّد ذلك نظرية ولَع المغلوب بتقليد الغالب، التي أشار إليهــا العلامــة ابــن خلدون([3]).

ولا نريد هنا أن نسترسل في الاستظهار بنصوص الوحي الوافرة([4])، التي تتحدّث عن مركزية الاهتمام الإسلامي بالمرحلة الدنيوية من الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، باعتبارها مرحلة جوهرية حاسمة، بالنسبة لتقرير طبيعةِ وضعه ومركزه في المراحل الأخروية التالية من هذه الدورة. لأن الموقف من البداهة بصورة تجعل نقيضه ليس شاذاً أو غريباً فحسب، بل يشكّل خطراً كبيراً على الحياة الدنيوية للإنسان أولاً، ثم على مصيره الأخروي بعد ذلك. لأنه من غير المعقول أن يمنح الله تعالى للإنسان هذه "**الميزانية التسخيرية الكونية** " الهائلة، ويطلب منه أو يرغّبه في أن يعطلها ! أو يكتنزها ! أو يهدرها ! ثم يكافئه على ذلك، أو يتركه من غير جزاء ! وهو الذي جعل **الابتلاء يشكّل القانون الاستخلافي الكلي الأول**، في منظومة القوانين الكلية الأربعة الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض([5]). كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى:**[تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ]**([6])، وقوله أيضا: **[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]**([7]).

فالخلافة البشرية في الأرض، بكل مقوّماتها ومقدّراتها وامتيازاتها الهائلة، التي أشارت إليها هذه الآيات على سبيل المثال: **[اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ]**([8])، تمنح المرحلة الدنيوية من حياة الإنسان مكانة وقيمة مركزية خاصة، وترتّب عليها مسئوليات وتبعات عظيمة، فلا يعقل بعد ذلك أن يهدر الإنسان هذه الإمكانات، أو أن يزهد في استثمارها([9]).

إن الموقف هنا يشبه تماماً موقف اكتناز الثروات وحرمان حركة الاستخلاف منها، وهو ما ندّد

([1]) الألباني في **صحيح الجامع** تحت رقم 1742.

([2]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 338/8 وما بعدها.

([3]) ابن خلدون، **المقدمة**، ص114.

([4]) انظر **المرجع السابق** فقد استوعب موضوع محورية الدنيا في نصوص الوحي استيعابا جيداً.

([5]) حبنكة الميداني، **ابتلاء الإرادة**، ص47 .

([6]) **القرآن الكريم**، سورة الملك: 1 ، 2 .

([7]) **القرآن الكريم**، سورة الأنعام: 165.

([8])**القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 32،34.

([9]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 238/8.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

به القرآن تنديداً شديداً، ورتّب عليه جزاء شنيعا[1]، كما يتجلّى ذلك في مثل قوله تعالى**[وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ]**(2) ، لأن هذه الإمكانات التسخيرية كلها، تدخل في « **الميزانية التسخيرية** » الممنوحة من الله تعالى للفرد والمجتمع والأمة والبشرية، وهي موضع ابتلاء الإنسان؛ أيستثمرها بكفاءة وفعالية في تلبية حاجات وضرورات وتحديات حركة استخلافه في الأرض، ويوظفها بالتالي في تهيئة شروط استمتاعه بالمراحل المقبلة من دورته الوجودية، دون أن يحرم أحداً من ذوي الحقوق منه[3] ؟ أم يهدرها ويعرِّضها للتدْسِيَّة والبوار* ؟ وفي الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: " **لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم** "(4).

إن ما وضع تحت يد الإنسان من إمكانات تسخيرية عظيمة، محاسب على كيفية ونوعية ومجالات استثماره لها. واستشعار الإنسان لواجباته تجاه ذلك مرتبط دون شك بوعيه العميق بالمهمة والوظيفة الوجودية التي أنيطت به، وبقدرته على تركيز جهده على إنجاز هذه المهمة المحورية؛ بأصالة وفاعلية واطراد. وهو ما جاء الوحي ليبصِّر الإنسان به، ويعمِّق وعيه به، كما سنرى في دلالات وأبعاد تركيزه المكثف على تأسيس الوعي بالوظيفة الوجودية للبشر في عالم الشهادة.

دلالات وأبعاد الوعي بكلية الوظيفة الوجودية للإنسان:

وسنقتصر هنا على ذكر خمس دلالات كبرى، تشكّل الكليات الأساسية للوظيفة الوجودية للإنسان وموجهاتها المحورية، ومقوماتها الثابتة، التي تعطي لهذه الوظيفة أبعادها الاستخلافية الحقيقية المطلوبة. وتتمثّل هذه الكليات الخمس في:

الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية الاستخلاف.
الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية العبادة.
الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية التسخير.
الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية الهداية.
الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية السيادة.

الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية الاستخلاف: وهي أول دلالة جذرية تُدرك من اهتمام الوحي بتأسيس الوعي بالوظيفة الوجودية الكلية للإنسان في الحياة. ذلك لأن الاستخلاف بمفهومه ومضمونه الشرعي الأصلي، مفهوم محوري، محدِّد وضابط ومؤطّر للوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة. وبالتالي فإن الوعي به يشكّل مدخلاً مفتاحياً أو مفصلياً مركزياً لوعي هذه الوظيفة الوجودية للإنسان في الحياة، بدونه يكون الإنسان على خطر عظيم. كما حدث في مراحل

([1]) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 337/10.

(2)**القرآن الكريم**، سورة التوبة: 34-35.

([3]) وهم البشر كافة على تفاوت بينهم في نسب الاستحقاق، بل ويمتد الحق إلى المخلوقات الأرضية الأخرى، كما يؤكّد ذلك على سبيل المثال، حديث المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، ومنعتها حقها من ميزانية التسخير الكونية.

* من بار الشيء: أي أهمل وتعطل حتى كسد ولم يحقق الغرض منه.

(4) ناصر الدين الألباني، **صحيح سنن الترمذي**، (المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ- 1988م)، 289/2.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تاريخية كثيرة، أصيب فيها الإنسان بالإحساس بالعبثية[1]، أو ارتمى فيها في متاهات الشرك، وأحرق قواه، وبدد طاقاته على مذبح أوهامه، ومذبح أهواء معبوداته، عندما ذهل عن مفهوم الخلافة ودلالاته وأبعاده العقدية والفكرية والروحية والتربوية والأخلاقية والاجتماعية الكبرى، وعن ارتباطاته العضوية الوثيقة بدلالات وأبعاد الكليات السابقة، المنبثقة من الوعي بكليتي **المنشأ البشري، والطبيعة الإنسانية.**

وما دام الوحي الصادر فعلا، من الله الخالق الفعلي الوحيد للإنسان والكون والحياة، والمالك لمصائرها جميعا، والمدبر لأمرها كلها، هو المحدد الوحيد لهذه الوظيفة([2])، فإننا سنذكر ما جاء عن ذلك في القرآن، باعتباره النص الشرعي المهيمن على صيرورة الوحي كلها، والخاتم لها([3])، في اعتقادنا نحن المسلمين بصفة خاصة. والقرآن نص صراحة على الوظيفة الوجودية للإنسان وهي الخلافة عن الله في الأرض([4]). كما يتّضح ذلك من قوله تعالى:**[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً]** [5]، وقوله سبحانه:**[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ]**[6]، وقوله: **[هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا]** ([7]). إلى غير ذلك من النصوص القرآنية التي وردت فيها الإشارة إلى مفهوم الخلافة كوظيفة وجودية للإنسان في الحياة، سواء تعلّق الأمر بالنصوص العامة المؤسسة للخلافة كوظيفة وجودية كلية أصلية للإنسان؛ كالآيات التي سبقت. أو تعلق الأمر بالنصوص الجزئية أو الخاصة، المؤسسة للوعي بحركة الاستخلاف البشري التاريخي المستمر إلى قيام الساعة([8])، والتي يخلف فيها جيل جيلاً آخر، وتخلف فيها أمةٌ أمةً أخرى. كما يدلّ على ذلك تتبع دلالات ما ورد في القرآن عن الخلافة والاستخلاف بصفة عامة. فلفظ «خليفة» مثلا ورد في القرآن مرتين. ولفظ «خلفاء» ثلاث مرات. ولفظ «خلائف»، ورد أربع مرات. ولفظ «استخلف» ورد مرة واحدة. ولفظ «يستخلف» أربع مرات. ولفظ «مستخلفين» ورد مرة واحدة [9].

فالخلافة هي المهمة التكليفية والتشريفية الأساسية، التي ائتمن عليها الإنسان، وأنيطت به مسئولية إنجازها في الأرض، وجُعلت محَكًّا رئيسا لابتلائه ومجازاته العاجلة والآجلة([10]). وكما قال الراغب الأصفهاني فإن: " الخلافه: النيابه عن الغير، إما لغيبه المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه،

---

(1) محمد إقبال: **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1968م)، ص107؛ رينيه دوبو، **إنسانية الإنسان**، ص11- 13؛ وانظر كذلك: كولن ولسن، **اللامنتمي.**

([2]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2164/4.

([3]) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: محمود شاكر، (مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، د.ت)، 377/10.

([4]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**،228/1.

(5) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 29.

(6) **القرآن الكريم**، سورة الأنعام: 167.

([7]) **القرآن الكريم**، سورة فاطر: 39.

([8]) الألوسي، **روح المعاني**، 513/22.

(9) البنداق، **هداية الرحمن**، ص128.

([10])الأصفهاني، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الإنسان وجوده وقيمته**، تحقيق: عبد المجيد النجار، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م) ص 45.

وإما لتشريف المستخلف "([1]).

وهذا التشريف الإلهي العظيم للإنسان، تمتد مسئولياته وتبعاته، لتستوعب النشاط البشري كله، وتحرّكه باتجاه المحافظة على روحية وأخلاقية الاستئمان الذي تحمِله الخلافة في كل أبعادهـا، كمـا يشير هذا الحديث النبوي إلى ذلك على سبيل المثال: (**كلكم راع ومسئول عن رعيتـه، فالإمـام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته . قال فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال : والرجل في مال أبيه راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته**)([2]) .

ومن شمولية استيعاب الخلافة لمجمل النشاط البشري في الأرض، تتضح لنا أبعاده أكثر، مـن خلال الوعي بالمضمون العقدي والوظيفي والمنهاجي المتكامـل، الـذي يختزنـه مفهـوم الخلافـة ومشروعها الحضاري الشامل، المنفتح على آفاق **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونيـة**، وهو ما نشير إليه هنا باختصار:

المضمون العقدي الروحي للخلافة: ويتمثل في إحكام العلاقة بالله الذي استخلف الإنسان، وملّكه الأرض، وسخَّرها له، وأتمنه عليها وعلى كل مقدراتها. وابتلاه بذلك، ليمتعه بخيرات الدنيا مؤقتا، ويؤهله للاستمتاع الأشمل والأكمل ببقية مراحل دورته الوجودية الكبرى التي تعقب المرحلة الدنيوية، بعد أن يحاسب حساباً عادلاً، ويجازى جزاء مكافئا لطبيعة موقفه من أمانة الخلافة ومسئولياتها الدنيوية، كما قال تعالى:[**فَاليَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**] ([3]). وقال كذلك:[**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى. وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنْتَهَى**]([4]).

فعمق المضمون العقدي للخلافة يقتضي ربط الإنسان بالله كمستخلِف للإنسان في الأرض، وجعْل هذا الإنسان يعيش بعقيدة وروح المستخلَف الذي تتحقق خلافته، وتكتمل إنسانيته، وتتهيأ له شروط الوراثة الأخروية، بقدر وفائه بشروط عقد الاستخلاف، ومحافظته على مواثيق عهد الائتمان. وينتقص من خلافته وإنسانيته وحظوظ وراثته الأخروية، بقدر ضعف أو اضطراب عقيدة وروح المستخلَف من الله لديه أولا، وبقدر نقضه لمواثيق وعهود وشروط استخلافه في الأرض ثانيا([5]). وفي هذا المعنى جاء في القرآن قوله تعالى[**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى**]([6]). فالخلافة الإنسانية في الأرض، تقتضي ترسيخ عقيدة كون الإنسان ليس مالكا بالأصالة أو بإطلاق، وأن حرية تصرفه فيما وُكِلَ إليه وفوِّضَ له، ليست مستقلة عن إرادة الله، أو

([1]) محمد عبد الباقي، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص 157.

([2]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب الجمعة في القرى والمدن، تحت رقم 2558.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة يس: 54.

([4])**القرآن الكريم**، سورة النجم: 39- 42.

([5]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2354/4.

([6])**القرآن الكريم**، سورة طه: 123،124.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

منفصلة عن شروط استخلافه للإنسان في الأرض(1). لأن الملكية الحقيقية لكل شيء هي لله وحده(2)، والإنسان مستخلف في هذه الملكية استخلاف ابتلاء وائتمان، وتمتيع دنيوي مؤقت، وتهيئة للحياة الأخروية التي تنبني مآلاتها على طبيعة واتجاه حركته الدنيوية. وهو ما يجب أن ينعكس على الموقف العقدي والسلوكي والاجتماعي للإنسان؛ في علاقته بالله المستخلِف، وفي علاقته بالكون المستخلَف فيه أو عليه، وعلاقته بنفسه كمستخلَف، وعلاقته بمنهج الاستخلاف المحدّد من قبل الله المستخلِف له. وهو ما نبّهنا إليه في الدلالات والأبعاد العقدية لكلية المنشأ البشري في مطلع هذا الفصل.

فهذا البعد أو المضمون العقدي الروحي للخلافة البشرية، يستهدف الارتقاء بعلاقة الإنسان بالله المستخلِف له في الأرض، إلى مستوى روحية وأخلاقية وجمالية وانضباطية مفهوم الإحسان، الذي يستشعر فيه الإنسان الخليفة، إحاطة الرقابة والعناية الإلهية به، كما جاء في الحديث: (**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)(3)، فيتحرك في كل الاتجاهات السابقة بروح العبودية المنفتحة على الخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، ليكون كالغيث أينما وقع نفع.

المضمون الوظيفي أو الاجتماعي للخلافة: المرتكز على المضمون العقدي الذي يجعل الخلافة ابتلاء وائتماناً وتمليكاً مؤقتاً ومشروطاً، ومسؤولية ذاتية واجتماعية مراقَبَةً ومحاسَبةً ومجازاةً في العاجل والآجل معا(4)، كما أسلفنا. وهو ما يجعل الإنسان بعيدًا عن التسلّط والعبثية والسلبية، وحريصا على استثمار ميزانيته التسخيرية في إنجاز مهمته وأداء رسالته في الأرض، بأقصى درجات التعبئة الروحية، واليقظة الفكرية، والفاعلية الاجتماعية والحضارية التكاملية الخيِّرة؛ بكل ما يعنيه ذلك من اجتهاد وإبداع في عمارة الأرض، وتحقيق للعدل الاجتماعي المتكامل، والرفاه الحضاري المتوازن(5). وهو ما قصدناه بالمضمون الوظيفي والاجتماعي للخلافة.

فالإنسان وهو يعي كل هذه المنطلقات السابقة ويرتكز عليها في حركته الاستخلافية، بإمكانه أن يتحرك بفعالية لتجسيد المضمون السلوكي والعمراني أو الاجتماعي أو الحضاري لحركة الاستخلاف* التي تتمحور باستمرار حول تحقيق:

1 – **أمثل ترقي معرفي:** يتيح للإنسان تعميق الوعي بدورته الوجودية، ويمكنه من التوغل قدماً في اكتشاف سنن التسخير، وامتلاك القدرات المتطورة في التحكم فيها وحسن استثمارها، في الدفع بحركة الاستخلاف إلى آفاق العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية(6). باعتبار المعرفة السننية الشمولية التكاملية المتجددة، هي مفتاح الاستخلاف في الأرض، وشرط فاعلية وأصالة واطرادية هذا الاستخلاف(7).

---

(1) محمد باقر الصدر، **التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية**، (الدار العالمية للكتاب، بيروت،1989)، ص107.

(2) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 357/1.

(3) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: سؤال جبريل للنبي، تحت رقم4777.

(4) محمد المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص 189.

(5) الفخر الرازي، **التفسير الكبير** ، (دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، 1981)، 34/19.

* وهو موضع الابتلاء والائتمان والمسؤولية والمجازاة الحقيقي.

(6) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**،120/20.

(7) ابن باديس، **تفسير ابن باديس**، ص50.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – **أمثل ترقي روحي:** يتيح للإنسان الإحساس العميق بمعاني الأشياء وجمالياتها الروحية العميقة، التي ينفذ من خلالها إلى أعماق وأسرار العبودية لله تعالى، والتحقق بالمزيد من الشكر والطاعة والمحبة له، والرجاء فيه، والخوف منه، والهيبة له(1). كما جاء ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال[**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**](2). وكما جاء ذلك أيضا في حديث الولاية الذي تتدرج فيه عبودية الإنسان لله، من إحكام أداء الفرائض العينية، إلى الفرائض الكفائية، ثم منها إلى النوافل وفضائل القربات والأعمال، التي تحقق له محبة الله وعونه وتأييده، الذي يتجلى في قوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: **(وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه)**(3).

فالترقي الروحي الذي يرفع إحساس الإنسان برعاية الله له، ورحمته به، ومحبته له، وإحاطة رقابته وعنايته به، إلى قمم الإحسان، التي يعبد فيها ربه وكأنه يراه، ويشرف مباشرة على حركته الاستخلافية في الأرض، كما جاء في الحديث الإحسان: **(الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**(4).

إن هذا الترقي الروحي الذي يندفع بحركة الإنسان، نحو آفاق الإحسان البعيدة، التي تتقن وتجمّل وتجوّد كل ما تؤديه من أعمال ومواقف، تجاه الله والنفس والمجتمع والإنسان والكون عامة، هو روح المضمون الوظيفي الاجتماعي للخلافة البشرية في الأرض، كما يشير إلى ذلك هذا الحديث النبوي على سبيل المثال: **(اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن ، وإذا عملت سيئة فأضف إليها حسنة تمحها)**(5).

3 – **وأمثل ترقي سلوكي أو أخلاقي:** يدفع بالتصرفات وبالعلاقات، وبإنجاز الأعمال، وبأداء الواجبات واستيفاء الحقوق، إلى مستويات رفيعة من الفعالية والجمالية والقسط والسماحة واليسر والخيرية والإحسان... تضفي على الحياة روحانية أخلاقية عميقة، تشيع الأمن والأمان والسلام والمحبة والتواد والتراحم والسكينة والبركة بين الناس، كما جاء ذلك في الحديث: **(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد . إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)**(6). وكما جاء في حديث آخر: **(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، الموطؤون أكنافا، الذين يألفون و يؤلفون، و لا خير فيمن لا يألف و لا يؤلف)**(7).

فالارتقاء بجمالية وخيرية وسماحة وبركة السلوك الفردي والجماعي في المجتمع، مقصد كلي

---

(1) ينظر هنا حديث الولاية وأبعاده الروحية والسلوكية (**صحيح البخاري** كتاب الرقاق، باب التواضع).

(2) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 190 ، 191.

(3) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: التواضع، تحت رقم/6502.

(4) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: سؤال جبريل للنبي، تحت رقم/4777.

(5) المنذري، **الترغيب والترهيب**، 3/357.

(6) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، تحت رقم 2586.

(7) الألباني في **صحيح الجامع وزياداته** تحت رقم1231.

أساس في البعد الوظيفي الاجتماعي للخلافة البشرية في الأرض[1]، بدونه تفقد مقوماً رئيساً من مقوماتها، وشرطا أساسا من شروط تحققها الفعلي في واقع الحياة، وهو ما يؤكد عليه الحديث النبوي الجامع، الذي لخص فيه الرسول عليه الصلاة والسلام المقصد الأسمى من رسالته في الأرض، حينما قال: (**إنما بعثت لأتمم مكارم**، و في رواية (**صالح**) **الأخلاق**)([2]).

4 – **أمثل ترقي عمراني أو حضاري**: يتيح للإنسان بيئة ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية صحيَّة متطورة، تستوعب احتياجات ومطالب وطموحات الفرد والمجتمع والأمة والإنسان عامة؛ في المزيد من الوعي السنني التسخيري، والتوثُّب الروحي، والجمالية السلوكية، والانسجام الاجتماعي. وفي امتلاك المزيد من القدرات والكفاءات الذاتية المتجددة، التي تتيح للمجتمع فعالية عالية في تلبية حاجات وتحديات حركة " **التدافع والتجديد** " الثقافي والاجتماعي والحضاري، التي تتحرّك نحوها صيرورات حركة الاستخلاف البشري باطراد([3]).

5 – أمثل ترقي في التكامل الحضاري الإنساني: يتيح لبني البشر المتعاصرين، على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم وبيئاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، القدرة على إدارة الحوار فيما بينهم، لتحقيق التعارف والتواصل العميق الذي يزيل الحواجز فيما بينهم، ويدرأ الأخطار عنهم، ويقرّبهم من بعضهم البعض، ويعينهم على تبادل الخبرات والمصالح والمنافع فيما بينهم، وتحقيق التكاملية الحضارية المطلوبة، التي تدفع بحركة التطور الحضاري إلى آفاقها الإنسانية المرجوة. كما جاء التأكيد على ذلك في قوله تعالى:[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**]([4]).

– **أمثل ترقي في التكامل الإنساني مع المنظومة الكونية**: باعتبار الإنسان جزءاً من هذه المنظومة الكونية الكبرى، التي يُمدُّه بعضها بالمسخرات التي تخصّ فاعليته الاستخلافية في الأرض، ويمده بعضها الآخر بشروط تأصيل هذه الفعالية الاستخلافية ووقايتها من أية مؤثرات سلبية ضارة بها، وضمان استمرارية هذه الفاعلية واطراديتها. كما سنرى بعض تفاصيل ذلك في الفصلين التاليين.

فتكامل حركة الاستخلاف البشري في الأرض، مع بقية مكونات المنظومة الكونية العامة، قطب تتحرك نحوه حركة الكون كلها، ويؤدي الإنسان دوراً مهما في توازن هذه الحركة الكونية، بحكم خلافته في الأرض، وسيادته فيها، وائتمانه عليها، وحريته في اختيار الحركة على خط التكاملية الكونية، التي تفضي إلى التناغم والانسجام مع الكون، والاستمتاع بخدماته وبركاته([5])، كما قال تعالى:[**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**]([6]). أو اختيار الحركة على خط التنافرية الكونية، التي تفضي إلى

([1])ولي الله الدهلوي، **حجة الله البالغة**، (دار الجيل، بيروت 2005)، 121/2.

([2]) الألباني في **السلسلة الصحيحة** برقم/45

(3) الرازي، **التفسير الكبير** 23/24؛ جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، عنى بنشره: محمد فؤاد عبد الباقي، (دار الفكر، بيروت، ط2، 1398هـ-1972)، 229/12.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات: 13.

([5]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 25/9.

([6]) **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 96.

الصراع والصدام مع الكون، والحرمان من خدماته وبركاته، والمعاناة من ضراوة وطأة انتقاماته([1])، كما قال تعالى:[**ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**]([2]).

وبهذا المضمون الشامل والمتكامل لمفهوم الوظيفة الاستخلافية البشرية، يتميّز منظور الخلافة عن غيره من المنظورات الوضعية للحركة الحضارية والتاريخية للإنسان، ويمتاز باستيعابه[3] – تنميةً واستثمارًا أو تسخيرًا ووقاية – لكل أبعاد الكيان البشري والحياة العمرانية أو الحضارية له من جهة، ولجميع الإمكانات المتاحة له في " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " الكبرى ، من جهة أخرى.

المضمون المنهاجي للخلافة: ونقصد به هنا الأبعاد الآلية العملية الضابطة والموجهة والمؤطّر لحركة الإنجاز الفعلي لكل هذه المستويات من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، وتحقيق هذا التكامل الحضاري والكوني السابق ذكره. فالخلافة البشرية كحركة تجسيد لخيارات الإنسان في الأرض، لا بدّ لها من الأداة العملية الإجرائية اللازمة لذلك. وهذه الأداة هي **المنهج** في ثوابته العقدية المرجعية الموجهة، التي أوحى بها الله تعالى أولا([4])، وفي سننه التسخيرية العامة التي بثها الله في عوالم الآفاق والأنفس والهداية والتأييد ثانيا، ودعا الإنسان إلى استفراغ وسعه في الوعي بثوابت هذا المنهج جيداً، والجد والدأب في استكشاف السنن الوظيفية أو التسخيرية الكلية والجزئية التي تمنح حركته الاستخلافية في الأرض، أصالتها الفكرية والروحية والأخلاقية، وتحقق فاعليتها الاجتماعية والحضارية، واطراديتها التاريخية المتصاعدة.

والمنهج هنا بما هو ثوابت عقدية وسنن تسخيرية متلاحمة معا، يشرط عملية الاستخلاف ويتحكم فيها[5]؛ لأنه هو الذي يحدد شروط الاستخلاف، وحدود ومجالات الحركة، خاصة فيما لا طاقة للوعي البشري الذاتي للاستقلال به؛ من أمور الغيوب والفطر والمعايير القيمية والأخلاقية المطلقة... التي يحتاج فيها الإنسان إلى تلقين وتعليم وتسديد، حتى يتجاوز قصوره الذاتي الفطري[6]، ويتغلب على مؤثرات الإضعاف المختلفة، التي تربك توازنه وتشتت فاعليته الاجتماعية؛ كالأهواء، والإكراهات الخارجية الكثيرة. وسيرد لاحقا مزيد كلام عن دور المنهج في حركة الاستخلاف في مباحث كثيرة.

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الأولى للوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، هي تعميق وعي الإنسان بالأهمية البالغة لمقصد الخلافة في الأرض في حياته، وما يعنيه ذلك من ائتمان له على مقدرات الأرض، ومن إعلاء لمقامه بين المخلوقات، وما يفرضه عليه ذلك من تبعات ومسئوليات؛ تجاه مستخلِفه، وتجاه نفسه، وتجاه الآخرين، وتجاه مهمة عمارة الأرض، وتجاه مصيره الأخروي المرتبط بذلك ارتباطا شرطيا حاسما.

الوعي بالوظيفة الوجودية وكلية العبادة: وهي الدلالة الجذرية الثانية التي تُدرك من اهتمام

([1]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2773/5.

([2])**القرآن الكريم**، سورة الروم : 41.

(3) عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، **الإنسان وجوده وخلافته في الأرض على ضوء القرآن الكريم**، ص720؛ محمد عمارة، **معالم المنهاج الإسلامي**، ص37؛ نصر محمد عارف، **نظريات التنمية السياسية المعاصرة**، ص268.

([4]) الألوسي، **روح المعاني**، 777/16.

(5) عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، ص52.

(6) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ص252/2.

الوحي بتأسيس الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان(1). ذلك لأن العبادة هي قوام الاستخلاف وروحه، وشرطه وأداته العملية التي بدونها لا يمكن لحركة الاستخلاف أن تحقق مقاصدها في البشر والخلق عامة. لأن مؤثرات وتحديات كثيرة يختزنها **قانون الابتلاء** المهيمن على الحياة البشرية، والفاعل في تحولاتها وصيروراتها الاجتماعية والحضارية(2)، تعمل على إخراج حركة الاستخلاف عن مسارها الصحيح، وتحريفها عن غاياتها وأهدافها، وهو ما يؤثر بالضرورة، على أصالتها الروحية، وعلى فاعليتها الاجتماعية، واطراديتها التاريخية، ومآلاتها الأخروية المصيرية الحاسمة.

ومن يتعمّق في دراسة التاريخ البشري الضارب في القدم إلى آدم أب البشرية، يلحظ مدى فاعلية تأثير عوامل الضعف والتراجع على صيرورات حركة الاستخلاف البشري. كما نرى ذلك على سبيل المثال في إشارة القرآن إلى الضعف الذي اعترى إرادة والتزام أبي البشرية آدم عليه السلام، الذي عجز عن الوفاء ببعض شروط وقيم الخلافة، ولم يستطع المحافظة على خط الصعود فيها، واستجاب لمغريات وضغوط خارجية، أدت به إلى الخروج من الجنة وإنزاله إلى الأرض(3)، كما سجّل ذلك القرآن في قوله تعالى**[وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا]**(4).

واطرد تأثير الضعف البشري على حركة الاستخلاف، وشمل جماعات بشرية كثيرة في التاريخ، كثيراً ما جرفتها تيارات الفسوق عن أمر الله وسننه في خلقه، في دوامات الازدواجية الفكرية والعقدية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية التنافرية المنهكة. كما رصد ذلك القرآن أيضا في مثل قوله تعالى**[قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ]**(5). وفي مثل قوله كذلك:**[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ]**(6). أي منفلتون بشكل أو آخر من قانون العبودية الخالصة، ومنجرفون في متاهات أنواع الكفر والشرك والضلال والفسوق المختلفة(7). وهو ما تؤكده الدراسات التاريخية والحضارية المعمقة، كما لاحظ ذلك ويل ديورنت على سبيل المثال، وهو يتتبع أشكال حضور الظاهرة الدينية في الحياة البشرية، ويقول بأن: " المعبودات الدينية لا تقع تحت الحصر " إلى درجة أنك: " تكاد لا تجد حيواناً في الطبيعة كلها...لم يكن في بلد ما موضع عبادة، باعتباره إلها " . بل وأشار إلى عدم اقتصار المعبودات على كل ما هو حيواني فحسب، بل امتد ذلك ليشمل " ما هو سماوي، وما هو أرضي، وما هو جنسي، وما هو حيواني، وما هو بشري.. "(8) .

وكما نبّهنا على ذلك في الفصل الأول، فإن هذه الفسوقية الفكرية والعقدية والسلوكية والاجتماعية.. عن أمر الله وسننه في خلقه، تؤدي إلى إخراج حركة الاستخلاف عن خط الفاعلية البنائية النوعية التكاملية؛ جزئيا أو كليا، والدفع بها إلى الحركة على خطوط الفاعلية التنافرية

---

(1) الأصفهاني، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، ص 48.

(2) حبنكة الميداني، **ابتلاء الإرادة**، ص73.

(3) الطبري، **التفسير الكبير**، 221/9؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**319/16.

(4) **القرآن الكريم**، سورة طه: 112.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الروم: 42.

(6)**القرآن الكريم**، سورة الحديد : 26.

(7) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 419/27.

(8) ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، 114- 118 (النص مأخوذ من طبعة إلكترونية تعتمد ترقيما متسلسلا، لا يهتم بإثبات الأجزاء).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهتلاكية الهدمية المنهكة، التي تضر بالمصالح الإنسانية الدنيوية والأخروية معا([1].

والذي يُبقي حركة الاستخلاف في مسارها البنائي التكاملي التصاعدي الصحيح، ويحافظ على روحيتها وأخلاقيتها وإنسانيتها وخيريتها وحيويتها الإنجازية، ويحقق مقاصدها في الخلق، هو **العبادة**؛ باعتبارها عملية تجسيد فعلي لحقائق ومقاصد الرؤية العقدية الكونية التي سبق الحديث عنها، عبر حركة توليد وتوجيه وتفعيل مستمر للطاقة الروحية الهائلة، التي تمكّن الإنسان من الاستحضار المستمر للمقاصد والمعاني العقدية والوظيفية والمنهاجية لمهمته الاستخلافية في الأرض، وتعمل على تجديد إخلاصه، وتجريد نيته، وشحذ وعيه المعرفي وتوثبه الروحي، والمحافظة على توازن كيانه، وتعزيز بواعث الانضباط العقدي والسلوكي لديه، وتعميق أبعاد الخيرية والبركة في إنجازيته الاجتماعية والحضارية، وتقوية رغبته في مرضاة الله، وحرصه على استشراف وعوده واتقاء وعيده، في كل مراحل دورته الوجودية الكبرى.

فالعبودية هي روح الخلافة ومقوم وجودها، كما يلاحظ ذلك ابن تيمية في هذه العبارة الدقيقة الرائعة، وهو يتحدث عن دور العبادة في الارتقاء بإنسانية الإنسان إلى أعلى قمم كمالها البشري، بعد أن أشار إلى مقوميْها الأساسيين وهما: ألا يُعبد إلا الله. وأن لا يعبد إلا بما شرع ، أي بالتزام المنهج رؤية وآلية إنجاز، كما سبقت الإشارة إلى ذلك . يقول: " إذا تبين هذا، فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا لعبوديته، ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه فهو من أجهل الخلق وأضله "([2]).

فالعبادة حركة إضاءة روحية داخلية للبواعث والأعمال والمواقف، تبعدها باستمرار عن كل ما يشوبها وينقص من روحيتها وأخلاقيتها وخيريتها، وجماليتها وأصالتها وفعاليتها؛ لأنها تجعل الإنسان باستمرار في وضع روحي ونفسي وفكري متماسك، يساعده على تجاوز جاذبية الغرائز السافلة فيه، وضغوطات وإغراءات وتحديات الواقع المحيط به، والاندفاع قدما باتجاه آفاق **الخيرية والإنسانية والعالمية والكونية**، التي تتحرك نحوها حركة العبودية باستمرار([3]). كما أشارت إلى ذلك آيات وأحاديث كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:**[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ]**([4]). وقوله عليه الصلاة والسلام وهو يصف مراحل الإحسان في العبادة: (**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)([5]).

إن العبادة كحركة انفتاح على الله، واقتراب دائب منه، وتزكية دائمة للنفس، وارتقاء مستمر بإنسانية الإنسان، وتوسيع مطرد لنطاق الخيرية والبركة في مسيرة عمارته للأرض، وإشراك لكل المخلوقات في منافعها، ودفع للمضار عنها، تصل بالإنسان إلى مستويات نموذجية قصوى من التكاملية الذاتية، ومن الفعالية السلوكية والاجتماعية والحضارية، ومن التناغمية الكونية. كما يشير إلى ذلك حديث الولاية على سبيل المثال: (**من عادى لي وليا فقد أذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ،**

([1]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2355/4.

([2]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 95/10– 97.

([3]) سيد قطب، **هذا الدين**، ص10.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: 69.

([5]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: سؤال جبريل للنبي، تحت رقم 4777.

وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه)([1]).

وبناء على هذا الدور المحوري الحاسم الذي تؤديه العبادة في حياة الإنسان، وفي حركته الاستخلافية، فقد حصر الله تعالى المهمة الوجودية للإنسان في العبادة، وجعلها قواما لمنهج الخلافة البشرية في الأرض([2]). كما جاء ذلك في قوله تعالى[**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**]([3]) . وفي قوله كذلك[**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ**]([4]).

ومن أجود وأعمق ما جاء في التعقيب على هذه الآية، قول الراغب الأصفهاني: " فكل ما أُوجد لفعل، فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان في حكم العدم. ولذلك كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً، كقولهم للفرس الرديء: ليس هذا بفرس، وللإنسان ليس هذا بإنسان. ويقال: فلان لا عين له ولا أذن له إذا بطل فعل عينه وأذنه، وإن كان شبحهما باقياً، وعلى هذا قال تعالى: **(صم بكم)** فيمن لم ينتفع بهذه الأعضاء. فالإنسان يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خلق. فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية "([5]).

فالعبادة هي شرط الخلافة في الأرض، ومنهجها في الوقت نفسه، وأي إخلال بهذا الشرط، أو انحراف عن هذا المنهج أو تفريط فيه، فإنه يؤدّي إلى تقويض المهمة الاستخلافية للإنسان، ويدفع بحركته الوجودية باتجاه البلبلة الفكرية، والتيه العقدي، والتنافرية السلوكية، والاهتلاكية الاجتماعية، والصدامية الحضارية والكونية([6]). كما تدل على ذلك الصيرورات الوخيمة لحركة الشرك والنفاق والكفر والفسوق عبر التاريخ([7]).

ولكي تتحرك الخلافة البشرية في الأرض على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، وتتجنب مزالق ومتاهات وأخطار الحركة على الخطوط المنافرة لذلك... أقيم منهج العبودية على ثلاثة أركان أساسية هي:

ركن عبادة الله وحده: الذي قوامه كمال التوحيد والإخلاص والمحبة والهيبة والخوف والرجاء.

وركن عبادة الله بما شرع: الذي قوامه تحقيق الصواب في منهج عبادة الله([8])، عبر موافقة سننه سبحانه في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من ناحية، وسننه في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من ناحية أخرى، وسننه في **الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمدافعة** من ناحية ثالثة، وسننه في **الأصالة والفاعلية والتكاملية والطرادية** من ناحية رابعة، وعدم التفريط في الأخذ بها، أو الدخول في مراحل الصدام معها([9]).

([1]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: التواضع، تحت رقم6502.

([2]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 97/10.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الذاريات: 56.

([4])**القرآن الكريم**، سورة البينة: 5.

(5) الراغب الأصفهاني، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، ص79.

([6]) سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، ص186.

([7]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 121/4.

([8]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 95/10.

([9]) الشوكاني، **فتح القدير**، 391/3.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وركن ديمومة العبادة: الذي قوامه الثبات على التوحيد، والمحافظة على منهج تجسيد حقائقه ومقتضياته العقدية والروحية والسلوكية والاجتماعية في واقع حركة الاستخلاف البشري في الأرض، ورفع مستوى فاعلية العبادة إلى أقصى ما يُستطاع، والاستمرار على ذلك إلى آخر لحظة من عمر الإنسان في عالم الشهادة . قال تعالى:**[وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ]**([1]). قال القرطبي: " فإن قيل فما فائدة قوله حتى يأتيك اليقين وكان قوله: واعبد ربك كافيا في الأمر بالعبادة ؟ قيل له الفائدة في هذا أنه لو قال واعبد ربك مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا، وإذا قال حتى يأتيك اليقين كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت... والمراد استمرار العبادة مدة حياته. كما قال العبد: **[وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا]**([2]).

وفي الحديث النبوي، إشارات أخرى ذات دلالات عميقة في هذا السياق، نذكر منها على سبيل المثال قوله عليه الصلاة والسلام وهو يؤكّد على أهمية ديمومة الأعمال في تحقيق الأهداف: (**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل**)([3]). بل وذهب الحرص النبوي على تعميق وعي المسلم بهذا الأصل المنهجي العظيم، أبعد من ذلك، فنبّه إلى أن ديمومة الأعمال الصالحة، لها تأثير كبير وحاسم في حياة الأفراد والمجتمعات وعلى مصائرها العاجلة والآجلة، فقال عليه الصلاة والسلام: (**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**)([4]).

ومن يتأمل خطاب القرآن والسنة معا، يلحظ كيف تشكّل العبادة بأبعادها وأركانها الثلاثة السابقة، أولوية محورية فيهما، تتكامل جميع اهتماماتهما وفاعلياتهما العقدية والفكرية والروحية، والتربوية والسلوكية والاجتماعية.. في خدمتها. فكل شيء في القرآن والسنة ينصب حول تحقيق كمال التوحيد لله، وكمال الإخلاص والمحبة له، وكمال الهيبة والخوف منه، وكمال الرجاء فيه، وكمال الشوق إلى رضاه.

كما ينصبّ كذلك على شحذ وعي الإنسان وقدراته بسنن تحقيق صوابية وفعالية واستمرارية العبادة([5])، وديمومة اندفاعها نحو الآفاق البعيدة لقمم الإحسان والشكر والرضا، التي تستشرفها حركة العبادة باستمرار.

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الثانية للوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، هي تعميق وعي الإنسان بالأهمية البالغة لمقصد العبادة في حياته، وكيف أنه يشكل جوهر وقوام خلافته في الأرض، الذي لا يمكن لهذه الخلافة أن تأخذ وتستكمل أبعادها الروحية والأخلاقية والاجتماعية والإنسانية والعالمية والكونية بدونها.

الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية التّسخير: وهي الدلالة الجذرية الثالثة التي تُدرك من اهتمام الوحي بتأسيس الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان. ذلك لأن وظيفة الخلافة البشرية في الأرض، بكل مقاصدها ومضامينها التي سبقت الإشارة إليها، لا يمكن إنجازها إلا بإمكانات تسخيرية مناسبة

([1]) **القرآن الكريم**، سورة الحجر: 99.

([2]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 64/10.

([3]) أخرجه مسلم تحت رقم 783.

([4]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 66/4.

([5]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 96/10.

أولا، وإلا بوعي تسخيري شامل ومتكامل وفعال ثانيا، يدرك الإنسان من خلاله القدرات الذاتية والكونية الممنوحة له، والإمكانات التسخيرية الموضوعة بين يديه، وسنن الاستثمار التي تحكم عملية الاستفادة من كل ذلك، وكيفية تأسيس الوعي بها ؟ وكيفية استثمارها في التحكم في الموقف الاستخلافي وصيروراته الاجتماعية والحضارية المطردة ؟ وهو ما سيأتي الحديث عنه مركزا في الفصلين الثالث والرابع من الدراسة.

فإذا كان التسخير يعني تهيئة المسخرات الكونية([1])، وتطويعها وتذليلها لتكون صالحة وقابلة للاستثمار والانتفاع الإنساني بها([2])، في أداء مهمته الاستخلافية في الأرض على أكمل وجه. فإن المتأمل في واقع الحياة البشرية خاصة والكونية عامة، يدرك بسهولة أن الله تعالى قد منح الإنسان " **ميزانية تسخيرية كونية** " متكاملة وهائلة، تتناسب تماما مع مهمته الاستخلافية في الأرض، وتتيح له كل الشروط الموضوعية لإنجاز هذه المهمة بأصالة وفعالية وتكاملية واطراد.

وفي التأكيد على أهمية هذه **الميزانية** الهائلة من المسخرات الكونية، جاء في القرآن الكريم لفتٌ متكرر لانتباه الإنسان إلى ما وُضع بين يديه من إمكانات لا حصر لها، تساعده – إن هو عرفها، ووعي السنن التي تتحكم فيها، وأحسن التعامل معها – على إنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض بكفاءة واقتدار([3])، وتبطل أية حجة يمكنه أن يتكئ عليها لتبرير سلبيته أو انحرافه أو تقصيره في أداء مهمته الاستخلافية في الأرض، والفشل في الحركة بها على خط **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** . فقال تعالى:[**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**]([4]). وقال كذلك:[**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**]([5]).

والعجيب في أمر هذا التسخير الكوني الهائل – الذي يجب أن يلفت انتباه الإنسان أكثر – هو أنه بُذل للإنسان مجاناً وتفضلا من الله تعالى عليه، دون أي مقابل أو عوض منه . فكل هذه المسخرات الكونية الهائلة وضعها الله في خدمة الخلافة الإنسانية في الأرض، ولم يطلب من الإنسان سوى استثمارها استثماراً صحيحاً في إنجاز خلافته في الأرض، والاستفادة منها في استشراف آفاق وراثة المجد الأخروي([6]) ، الذي فيه : **(ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)**([7])، كما جاء في الحديث القدسي .

والذي نؤكده هنا في هذه المرحلة من الدراسة، هو أن الوعي التسخيري شرط جذري أساس في الوعي الاستخلافي الكلي، بدونه يكون الاستخلاف منقوصاً ومشوهاً، بل ومعكوس النتائج؛ لأنه

([1]) الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، 477/1.

([2]) الألوسي، **روح المعاني**، 125/12.

([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 174/21.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة لقمان : 20.

([5])**القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 32 – 34 .

([6]) الطبري، **تفسير الطبري**، 97/25.

([7]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: ماجاء في صفة الجنة، تحت رقم/4779.

يتحول في هذه الحالة إلى حركة اهتلاك ذاتي واجتماعي، تنعكس آثاره السلبية على غايات الاستخلاف ومقاصده في عالم الشهادة، ومآلاته في عوالم البرزخية والقيامة والمحشر والحساب والجزاء والخلود بعد ذلك.

ولأهمية الوعي التسخيري كمستلزم جذري من مستلزمات الوظيفة الوجودية للإنسان، احتل مكانة واسعة في اهتمامات الوحي[(1)]؛ عبر مجموعة من المداخل الكلية: المعرفية منها والمنهجية أو الإجرائية. ويمكن الاكتفاء في هذه المرحلة من الدراسة*، بالإشارة إلى فكرة السببية أو السننية التي أخذت مكانها الصحيح والمحوري من نظرة الإسلام إلى حركة الاستخلاف البشري، كما يتجلّى ذلك في القرآن والسنة على حد سواء[(2)]، الذين ركّزا بصورة شاملة ومعمقة، على تأصيل الوعي بالمنطق السنني السببي الفاعل في كل جزئيات حركة الاستخلاف البشري، الأمر الذي وضع حدّا نهائيا للكسل والاتكالية، والقدرية السلبية، والفكر الخرافي، والعقلية الارتضاعية التي لا تريد الانفطام وإعمال سنن الله في خلقه*.

فالفاعلية الفردية والاجتماعية والحضارية، في ضوء المنطق القرآني أو الإسلامي عامة، ترتبط بأصالة وكفاءة وتكاملية واطرادية استثمار الإنسان للمسخرات الكونية المتاحة له. وهذه الأصالة والكفاءة التسخيرية مرتبطة بدورها بمدى تمكن الإنسان من التحكم الوظيفي أو التسخيري في هذه السنن الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، كما سيرد تفصيل ذلك في الفصل الثالث من الدارسة . فكل شيء في الوجود يمضي على نسق سنني مطرد لا يتأخر ولا يتبدل([3])، كما قال تعالى: **[فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا]**([4]).

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الثالثة للوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، هي تعميق وعيه بشمولية وكفاية المسخرات التي وضعت بين يدي خلافته في الأرض، وبمسئوليته التامة على مصير هذه المسخرات الكونية الهائلة، التي سيسأل عن كل جزئية فيها ماذا عمل بها ؟ وكيف استثمرها ؟ وفي أي اتجاه من اتجاهات الخلافة استثمرها ؟

الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية الهداية: وهي الدلالة الجذرية الرابعة التي تُدرك من اهتمام الوحي بتأسيس الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان؛ لأن الإنسان وقد وعى أبعاد وظيفته الوجودية، وأدرك عمق المعنى العبادي في حركة الاستخلاف، وأيقن بالدور المحوري للوعي التسخيري في كل ذلك، فإنه يحتاج إلى بوصلة التوجيه والضبط والمراقبة والتأطير، حتى تظل هذه القدرات التي كُفلت له وتجمعت بين يديه، مستثمَرةً بأصالة وفعالية وتكاملية وتوازن وحيوية... في خدمة حركة الاستخلاف؛ إغناء لها بالإمكانات والخبرات والبدائل والخيارات، واستمتاعاً بخَيْرِيَتِها

---

(1) عبد الصبور مرزوق، **معجم الأعلام والموضوعات في القرآن**، (دار الشروق، القاهرة، 1995م)، 741/2.

* ستردِ تفاصيل كثيرة عن الوعي الاستخلافي في الفصل الثالث من هذه الدراسة .

(2) محمد المبارك، **الإسلام والفكر العلمي**، ص45.

* هؤلاء هم المعطلة الحقيقيون، لأنهم عطلوا إعمال سنن التسخير فيما وجدت من أجله وهو الاستخلاف في الأرض؛ إبداعًا وتعميراً واستمتاعاً وشكرًا لله تعالى، وتمتيعاً لكل الخلائق ذات العلاقة.

([3]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 126/4.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة فاطر: 43.

وخَيَراتها المادية والمعنوية المتعاظمة.

وهذه البوصلة الموجهة هي **الهداية الربانية**، التي تؤسّس لثوابت وموجّهات الوعي الاستخلافي الأعلى([1])، الذي يقود حركة الارتقاء بإنسانية الإنسان، ويصعد بها إلى قمم **الشكر والرضا**، ثم يدفع بها قدماً نحو مراتب الإحسان الشامل المتكامل[2]؛ بكل ما يعنيه من دقة الوعي وعمقه، وصدق العبادة وحرارتها، وشفافية الروح وإشراقها، وتسامي العلاقات الاجتماعية وتناغمها، وجمالية الأداء وفعاليته، وتعاظم الخيرية وشمول نفعها، على كل المستويات وفي كل الاتجاهات([3]).

ونقصد بالهداية الربانية هنا، الوحي الإلهي الأعلى، الذي تعهد الله به الإنسان([4])، لتمكينه من استكمال كل الشروط الموضوعية التي تحتاجها خلافته في الأرض، وخاصة فيما لا طاقة للعقل البشري للاستقلال به([5])؛ من أمور الغيوب، وشئون الروح، وقضايا القيم الأخلاقية العليا، وثوابت الوعي الاجتماعي وسننه الكلية.

فالله سبحانه لم يكتف بمنح الإنسان إمكانات تسخيرية كونية هائلة، وقدرات عقلية وعاطفية عظيمة، بل منحه كذلك قدرة تسخيرية أساسية وهي هدايات الوحي الأعلى([6])، لتكمِّل القدرات التسخيرية السابقة وترشِّدها وتحميها، وتضاعف فاعليتها الإنجازية الخيِّرة، وتدفع بها إلى أعلى مستويات نموذجيتها القصوى .

فهداية الوحي على هذا الأساس، ليست إمكاناً تسخيرياً حاجياً أو إضافياً، يمكن للإنسان أن يستغني عنه أو يستعيض عنه بغيره من الإمكانات الكونية المسخَّرة له، بل هو إمكان ضروري غير قابل للتعويض، وأي اتجاه نحو الزهد فيه، أو محاولة إدعاء الاستغناء عنه، أو سوء التعامل معه، يؤدي إلى اختلالات جذرية عميقة في حركة الاستخلاف البشري([7])، كما سبق أن أوضحنا ذلك في الفصل الأول ، وفي مواطن عدة في هذا الفصل من الدراسة كذلك.

وفي هذا المعنى جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: [قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى][8] . وفي أية أخرى ذهب القرآن بعيداً في التأكيد على ضرورة الأخذ بهداية الوحي في القيام بواجبات وشئون الخلافة البشرية في الأرض([9])، عندما أوضح بأن الوحي يشكل ضرورة حيوية بالنسبة لنظام الخلافة البشرية، كما يشير إلى ذلك المثال الافتراضي الذي ساقه القرآن للمجتمع الملائكي المستقر، الذي لو وجد على الأرض فعلا، لاحتاج إلى خدمات الوحي، ولما أمكنه

([1]) الطيب برغوث، **مقدمة في الوعي الاستخلافي الأعلى**. (مخطوط).

(2) ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403هـ – 1983م). 480/2.

([3]) ابن حجر، **فتح الباري**، 120/1.

([4]) ابن كثير، **تفسير القرآن**، 169/3.

([5]) ابن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تحقيق حسن بن علي الألمعي وغيره، (دار الفضيلة، الرياض، السعودية 2004 م)، 485/2

([6]) الشاطبي، **الموافقات**، 128/2.

([7]) بيير داكو، **الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث**، ص736.

(8) **القرآن الكريم**، سورة طه: 122–123–124.

([9]) الألوسي، **روح المعاني**، 218/15.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاستغناء عنها، فما بالك بمجتمع بشري تحكمه سنن **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، التي تؤدي فيها **سنن الهداية** دوراً محورياً حاسماً. قال تعالى:**[قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا]**([1]).

فالوحي الذي هو مصدر ومنبع سنن الهداية، شكل لازمة جوهرية من لوازم الخلافة البشرية، وشرطا أساسا من شروط الدفع بحركة هذه الخلافة باتجاه **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** باستمرار، والبعد بها عن الازدواجيات العقدية والفكرية والسلوكية والاجتماعية التنافرية المنهكة. حتى قال بعض العلماء بحق، بأنه ظاهرة كونية مطبوعة في النظام الكوني كناظم جوهري من نواظمه العضوية: " في ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونًا خاصًا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحِّد إلى أحط الوثنيات البدائية "[2].

والمتأمل في النظام العام للمسخرات الإلهية، يلحظ بأن الهداية الرسالية التي يحملها الأنبياء للبشر، تشكّل نقطة أو حلقة ارتكاز أساسية في هذا النظام. كما يتجلى ذلك في سلسلة الهدايات الضرورية التي شمل الله بها الخلق عامة والبشر خاصة[3]؛ بدءاً بهداية الفطرة، ومروراً بهداية التسخير، وصولا إلى هداية الوحي، التي تهيئ الشروط الموضوعية للنوع أو المستوى الأخير من الهداية وهي **هداية التوفيق والتأييد**([4])، التي سيأتي الحديث عنها في الفصل التالي. وبهذه السلسلة المترابطة الحلقات من أنواع الهدايات([5])، يكون الإنسان قد استكمل كل الشروط الإمكانية أو التسخيرية اللازمة، التي تكفل له أداء خلافته في الأرض بأصالة وفعالية وتكاملية واطراد.

وبخصوص المصادر الحقيقية لهدايات الوحي الإلهي، سبق أن أشرنا في الفصل الأول من هذه الدراسة، إلى ختم الإسلام لحركة الرسالات السماوية التي تتالت عبر التاريخ، وكيف هيمن الإسلام الخاتم على خلاصات ثوابت الوعي السنني فيها جميعا؛ بالحفظ والاستصحاب لها، وبتجاوز كل ما هو ظرفي أو خصوصي فيها، وكل ما ألحق بها من تفسيرات وارتبط بها من سلوكيات وأعراف زمنية تجاوزها الزمن([6])، وإضافة ما كان لا بد من إضافته من ثوابت هذا الوعي السنني الذي لم يرد فيها، وتحتاج إليه تحولات حركة الاستخلاف البشري في الأرض فيما يستقبل من أزمان، ويتعاقب من أجيال بشرية.

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الرابعة للوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، هي تعميق وعي الإنسان بمحورية هدايات الوحي الإلهي في توازن وفاعلية حركته الاستخلافية في الأرض، وبضرورة المحافظة على استثمار هذا الإمكان التسخيري الكوني الأساس، الذي يرتبط به اندفاع حركة الخلافة البشرية في اتجاه العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية.

([1]) **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 95.

(2) مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دار الفكر، دمشق سوريا)، ص100.

(3) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص835.

([4]) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 5/10.

([5]) ابن القيم، **تهذيب مدارج السالكين**، تهذيب: صالح العلي العزي، (مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط6، 2000)، 63/1.

([6]) الطبري، **جامع البيان**، 266/6.

الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان وكلية السيادة: ونقصد بالسيادة هنا، سلطة الهيمنة والنفوذ والتمكين الذي منح للإنسان في الأرض، من خلال روحية وأخلاقية وخيرية وإنسانية وكونية خلافته فيها، وما يرافق ذلك من حقوق وواجبات ومسئوليات وجزاءات عاجلة وآجلة([1]).

وتشكّل هذه الكلية الدلالة الجذرية الخامسة التي تُدرك من اهتمام الوحي بتأسيس الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، لأن الإنسان وقد منح كل ما سبق من الإمكانات والامتيازات؛ على مستوى تكريمه بالخلافة، وعلى مستوى تشريفه ورعايته بالعبادة، وعلى مستوى تمكينه بالسنن التسخيرية، وعلى مستوى عصمة حركته الاستخلافية بالوحي والهداية[2]... فإنه أصبح كامل السيادة على الأرض، يتصرّف فيها بحسب المسؤولية المنوطة به، وفي إطار حرية الاختيار الممنوحة له، ليتحرك على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، أو على الخطوط التنافرية المضادة لها والمنقلبة عليها[3]، ويتحمّل تبعات ذلك عاجلا وآجلا. قال تعالى:**[وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ]**[4] أي ملكناكم فيها، وأقدرناكم على أمورها، وخوّلناكم التصرف في مخلوقاتها[5]. وقال ابن عاشور تعليقاً على هذه الآية: " أي جعلنا لكم قدرة، أي أقدَرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التّصرف في مخلوقاتها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتّغلب على مصاعبه "([6]). وهو دون شكّ مضمون السيادة وشرطه في الوقت نفسه.

ومن هنا فإن السيادة البشرية في الأرض، مفهوم كلي أساس في الوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، ومقوم جوهري من مقوماتها، كما سنلحظ ذلك عند الحديث عن **كلية التداول** كهدف مركزي لكليتي **التدافع والتجديد** في الفصل الثالث، بدون تأسيس الوعي به، تتحوّل كل هذه القدرات الهائلة الممنوحة للبشر إلى طاقة تدميرية بين البشر أنفسهم، وبينهم وبين مفردات الكون المسخر لهم من جهة أخرى. كما يلحظ ذلك على سبيل المثال في مظاهر الكفر والشرك والنفاق والفسوق، المهينة للكرامة الإنسانية، والمهدرة للطاقات التسخيرية، وفي ظواهر العبودية والاسترقاق والاستبداد والاستكبار...([7]) المنافية لمعاني ومقاصد السيادة البشرية، كما تشرِّعها وظيفة الخلافة في الأرض.

وفي سياق بناء الوعي الإنساني بكلية السيادة البشرية في الأرض، جاء اهتمام الوحي مكثفاً جداً لتأسيس الوعي بهذه الكلية الأساسية، ووقاية الإنسان من الانحراف بها نحو الفساد والتخريب والتعطيل للوظائف الروحية والأخلاقية والاجتماعية للخلافة البشرية في الأرض. فكثر الحديث الوصفي التحليلي التفسيري النقدي عن الجهل، والظلم، والفسوق، والهوى، والكبر، والغرور، والجهل، والعجب، والأنانية، والسرف والتقليد والإمعية... إلى غير ذلك من نواقض السيادة ومفسداتها، التي وظّف الوحي التجربة التاريخية للبشرية في إبراز مخاطرها. كما أفاض كذلك في الحديث عن مؤيدات

([1]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 263/7.

(2) ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، 106/10؛ ابن كثير ، **تفسير القرآن** العظيم، 543/4.

(3) الطبري، **المرجع السابق**، 206/14.

(4) القرآن الكريم، **سورة الأعراف**:10.

(5) القاسمي جمال الدين، **محاسن التأويل**، 15/7.

([6]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 34/8.

([7]) محمد الغزالي، **الإسلام والاستبداد السياسي**، (دار القلم، دمشق- سورية 2003)، ص17وما بعدها.

هذه السيادة ومرسِّخاتها؛ فأكثر من التنويه بالعلم، والإخلاص، والصدق، والمراقبة، والمحاسبة، والتوبة، والمحبة، والرحمة، والتسامح، والتواضع، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والإيثار، والعفو، والجدية، والتجديد، والإبداع[1]... واستثمر الوعي التاريخي كالعادة، لتأكيد هذه القيم وتثبيتها في حياة الناس.

فالسيادة هنا سيادة تسخير وعدل وإحسان([2])، ورحمة وشكر، وحرص على ضمان توازن حركة استمتاع الخلائق ببعضها، دون اعتداء على حقوق أي كائن له صلة بحركة الاستخلاف، أو حرمانه من أداء مهمته الوجودية بغير وجه حق، سواء اتخذ ذلك شكل القهر والإبادة والاستضعاف والاستغلال، أو شكل التقديس والعبادة الخرافية. كما نبّه على ذلك ديورنت، عندما لاحظ أنه ليس هناك شيء في الطبيعة من الجعل المصري إلى الفيل الهندوسي، لم يكن يوما موضع عبادة؛ باعتباره إلها لدى فئة من فئات البشر[3]. وهو ما يتجاوب مع ما قرّره القرآن قبل ذلك، عندما أشار إلى سرعة انتشار الشرك في البشر([4])، في مثل قوله تعالى: **[وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ]**[5]. وما قررته السنة النبوية كذلك، في قوله عليه الصلاة والسلام: **(يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل)**([6]).

ولا يخفى ما في هذا الإشراك والتعاطي غير الصحيح مع المكونات الكونية، من اعتداء مزدوج على حقوق وواجبات الإنسان المكلف من جهة، وعلى مهام ووظائف الكائن المقدس أو المعبود نفسه من جهة أخرى، لأن في تقديسه وعبادته تعطيل لدوره الوظيفي التسخيري في الحياة، فهو وجد ليكون مسخَّراً وخادماً للخلافة البشرية والتوازن الكوني، لا أن يكون معبوداً ومخدوماً ومعطلاً، أو عنصراً لتخريب التوازن النفسي والفكري والاجتماعي للإنسان، ومن ثم لتخريب التوازن الكوني!

وعليه فإن الوعي بكلية السيادة يدخل في عمق الوعي الاستخلافي الذي هو مصب ونتيجة الوعي العقدي أو الكوني والوعي التسخيري معًا، وكلما تعمق الوعي بهذه الكلية تعمّق نضج وارتقاء الوعي الاستخلافي البشري، وانعكس ذلك على البعدين الآخرين من الوعي، وهكذا دواليك تتكامل حلقات الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطراد في الجهد البشري، ويمتد عطاؤه وتعظم خيريته مع مرور الزمن.

وخلاصة الدلالة المقاصدية التربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الخامسة للوعي بالوظيفة الوجودية للإنسان، هي تعميق وعي الإنسان بأبعاد سيادته على الأرض، ودلالات ائتمانه على مقدراتها، و تحسيسه بعظم مسئوليته المباشرة على موقفه من أمانة خلافته في الأرض، وأن أي إخلال بذلك يضعه تحت طائلة الجزاءات الإلهية العاجلة والآجلة، كما أن وفاءه بحقوق وواجبات هذه الأمانة، يعزز فرص وحظوظ استمتاعه الأمثل بحياته الدنيوية والأخروية معا.

هذه باختصار الدلالات الكبرى العقدية والفكرية والتربوية والاجتماعية.. التي تستوحى من

---

(1) ينظر هنا في كتب التزكية النفسية وفي مقدمتها: **إحياء علوم الدين** للغزالي، و**مدارج السالكين** لابن القيم، وما أنتجه الفكر الصوفي السني المعتدل بصفة عامة، من تراث تربوي ضخم في هذا المجال .

([2]) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 153/3.

(3) ديورانت، **قصة الحضارة**، 106/1.

([4]) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: مصطفى السيد وأخرون، (مؤسسة قرطبة، مصر، 2000)، 83/8.

(5) **القرآن الكريم**، سورة يوسف: 106.

([6]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 226/10.

الاهتمام المكثف للوحي، كتابا وسنة، **بكلية الوظيفة الوجودية للإنسان**، وتشكّل المفاتيح أو المداخل الأساسية للوعي التسخيري والاستخلافي الأصيل والفعال والمتجدد، عندما يتم استيعابها جيدًا، بصورة شاملة ومتكاملة، ويعي الإنسان بعمق معنى الاستخلاف وأبعاده، ويدرك مكانة العبادة في ذلك، ودورها في فهم وتذوق حقيقة الاستخلاف، والحاجة إلى الوعي التسخيري الذي يمنح البشر إمكانات التحقق العملي بذلك، والضرورة الملحة للهداية الربانية التي تحافظ على ثوابت الحياة وتبقي معانيها الروحية والأخلاقية حية في نفس الإنسان وسلوكه، وهو ما يعطي لبعد السيادة مضمونه الروحي والمادي أو الحضاري المتوازن، الذي يحقق أعلى مستويات التكامل الذاتي والاجتماعي في حياة الإنسان، ويطبع حركته بالأصالة والفعّالية والاطراد[1]، كما نوّه إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:**[وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ]**[2].

تأسيس الوعي بكلية المصير البشري

الكلية الأساسية الرابعة التي تمحور حولها اهتمام الوحي بصورة مكثفة جدّا، هي تأسيس الوعي بالمصير البشري الذي يعقب مرحلة عالم الشهادة، بعد أن تأسّس وعي الإنسان بكليات: **المنشأ البشري، والطبيعة البشرية، والوظيفة الوجودية للإنسان، والإمكانات التسخيرية** التي أتيحت له، وما في كل كلية من هذه الكليات من أبعاد ودلالات فكرية وعقدية وروحية وأخلاقية واجتماعية، يخدم ويكمل بعضها بعضا، سواء على مستوى بناء الرؤية الوجودية أو الكونية المتسقة، أو على مستوى تمثّل مفاهيمها الروحية والاجتماعية والحضارية في الحياة([3]).

ونعني بالمصير البشري هنا: مآلات الوجود الإنساني بعد انتهاء صلته بالمرحلة الدنيوية من دورته الوجودية الكبرى، وإقباله على المراحل التالية من هذه الدورة، وطبيعة وحقيقة الوضع الذي سيكون عليه في كل مرحلة من هذه المراحل الأخروية، وعلاقة هذا الوضع أو المصير الجديد بغيره من الأوضاع الدنيوية التي مرّ بها قبل ذلك([4]).

وتتصل هذه المرحلة من دورة الوجود الإنساني الكبرى، بالسؤال الفطري الأساس الذي يسكن الوعي البشري ويؤرقه على الدوام([5])، وهو: أين يذهب البشر بعد عالم الشهادة ؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة ؟ ما طبيعة هذه الحياة ؟ وما علاقتها بالحياة الدنيوية التي كنا نحياها ؟ وهو سؤال جذري ومفصلي وتأسيسي في غاية الخطورة، كما لاحظنا ذلك في بداية الفصل، لما له من انعكاسات مباشرة وحاسمة على عالم الشهادة من جهة، وعلى المآلات الأخروية للإنسان من جهة أخرى([6]).

وكما لا يخفى فإن الرؤية الكونية التي لا تؤسس الوعي بهذه المرحلة الحيوية من الدورة

---

(1) سيد قطب، **الظلال**، 2529/4.

(2)**القرآن الكريم**، سورة النور: 55.

([3]) حامد صادق قنيبي، **الكون والإنسان في التصور الإسلامي**، (مكتبة الفلاح، الكويت 1980)، ص117.

([4]) حبنكة الميداني، **العقيدة الإسلامية**، ص524.

([5]) عزت دروزة، **الدستور القرآني**، 55/1.

([6]) يوسف القرضاوي، **الإيمان والحياة**، (مكتبة وهبة، القاهرة، ط10، 1996)، ص38.

الوجودية الكبرى للإنسان، رؤية منقوصة بل مختلة، وفيها فراغ بنيوي خطير، وحظّها من التأثير التكاملي المتوازن العميق على حياة البشر، وحركة التاريخ محدود جداً بل مقلوب النتائج. لأنها تهمل تغطية جزء أساس من الحقيقة الوجودية الكبرى، ومن ثم فإنها تخسر استثمار أخطر طاقة أو فعالية ضبطية وتأثيرية في الحياة، بل وتعرّض إنسانها لفراغ عقدي وفكري ونفسي مهول، يقذف به في متاهات المادية والنفعية والعدمية، ويدفع به إلى تخريب ذاته وتدمير الكون من حوله، حرصًا منه على استثمار لحظته الدنيوية الفريدة، التي يحس بقوة أن العدم يطارده فيها مع مرور الزمن، فإما أن يغتنمها إلى أقصى حدّ مطاق، وإما أن يبتلعه العدم بين لحظة أو أخرى، ويقضي على أي أمل له، ويحرمه إلى الأبد من متعة الحياة* ! وهو ما أشار إليه الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام: **(من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة)**([1]).

وكما أن الرؤية الكونية المنقوصة من هذا البعد الحيوي، تقود إلى العدمية والعبثية وانسداد الأفق أمام الإنسان، فإن الرؤية الكونية التي تغطّي هذا البعد الحيوي في الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، ولكن بطريقة خرافية غير صحيحة، وغير مطابقة لحقائق الأشياء وفطرها التي فطرها الله عليها([2])، لا تختلف في نتائجها النهائية كثيراً عن سابقتها؛ لأن الأولى " تقتل " أو تكبت في الإنسان هذا البعد عن وعي وإرادة، والأخرى لا تعطيه اليقين والثقة والاطمئنان الذي تنعكس آثاره الإيجابية على حركته الدنيوية، فتغلبه المؤثرات السلبية الدنيوية الكثيرة، ويندفع بدوره خارج شروط وضوابط الاستخلاف، لينغمس في حركة الفسوق السلوكي والاجتماعي، ويشارك غيره في عملية تخريب الحياة وتدميرها بطريقته الخاصة، التي يمكن رؤية تجلياتها الكثيرة، في ظواهر ومظاهر الشرك المخزية([3])، التي غطت مساحات معتبرة من المسيرة التاريخية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض([4])، وطالت تأثيراتها السلبية صلب المنظومات العقدية والفكرية والسلوكية والاجتماعية لأفراد وجماعات ومجتمعات وحضارات بأكملها([5]).

أما الرؤية الكونية التي تؤسّس وعياً شمولياً فطرياً معقولاً ومتوازناً بهذه المرحلة الحيوية من "**الدورة الوجودية الكبرى للإنسان** " ، فإنها تمتلك قدرة تأثيرية قصوى على حركة الاستخلاف البشري، ومن ثم على ضمان أصالتها وفعاليتها وتكامليتها واطرادية حيويتها التجديدية المتوازنة، كما لاحظ ذلك بحق، أحد كبار العلماء المهمومين بالفعّالية التنافرية الإهتلاكية لإنسان الحضارة المادية المعاصرة – من موقع التجربة والخبرة – الفرق الشاسع بين فعالية الفكرة المستندة إلى بعد غيبي روحاني فطري معقول، والفكرة العقلية المحرومة من ذلك السند. فقال: " فالفكرة المجردة لا تصبح عاملا فعالا، إلا إذا تضمّنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمّس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على

---

* كما يتجلى ذلك في المذهب الأبيقوري قديماً والفلسفة الوجودية والمذهب الشيوعي حديثاً على سبيل المثال.

([1]) أورده الألباني في **صحيح بن ماجة** تحت رقم 3329.

([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 90/21.

([3]) سعيد حوى، **الأساس في السنة، (قسم العقيدة الإسلامية)**، (دار السلام، القاهرة، ط3، 1996)، ص618.

([4]) ابن القيم، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، 184/1، والكتاب كله دراسة أصولية نفسية وسلوكية واجتماعية عن مآلات الحيل الشيطانية الدافعة إلى متاهات ومخازي الشرك.

([5]) محمد إبراهيم الفيومي، **في الفكر الديني الجاهلي**، (دار المعارف ، القاهرة، ط4، 1988)، ص223.

المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية "[1].

وفكرة المعاد والجزاء الأخروي، من أهم وأقوى الأفكار الغيبية تأثيراً في حركة الاستخلاف البشري، بعد فكرة الإيمان بالله([2]). فإذا استحكمت هذه الفكرة في النفس الإنسانية، واستيقن الإنسان بأنه مقبل على مرحلة أخرى بعد حياته الدنيوية، يحاسَب فيها على كل ما فعله، ويجازى على الصغير والكبير([3])، فإن سلوكه الدنيوي سيتسم بأقصى وأعلى مستويات الانضباط بشروط الاستخلاف، وأن إنجازيته الاجتماعية والحضارية والكونية، ستتسم تبعا لذلك، بالمزيد من الخيريَّة والأصالة والفاعلية والتكاملية والاطراد([4]). وهو ما سنرى له نماذج تطبيقية كثيرة في القسم التطبيقي من الدراسة.

فالمرحلة الأخروية من " **الدورة الوجودية الكبرى للإنسان** " ، من الناحية السننية الناظمة للوجود الكوني، ملتحمة بالمرحلة الدنيوية من حياة الإنسان التحاماً عضوياً غير قابل للانفصام والتجزئة، لتشكلا معاً سلسلة من الحلقات المترابطة، التي يؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها ببعض، بشكل جذري عميق ومطرد، يجني الإنسان ثمراته الإيجابية والسلبية في الدنيا والآخرة معا([5]).

والإسلام كمتوّج نهائي لخلاصة الرؤية الكونية التي جاءت بها كل الرسالات السماوية، جاءت نظرته شاملة ومستوعبة لكل أبعاد ومراحل " **الدورة الوجودية الكبرى للإنسان** "، بحيث لا يُلحظ فيها أي فراغ في أية مرحلة من مراحلها، أو بعد من أبعادها، بل هي في غاية التكامل والتماسك والمعقولية. وهو ما يمنح هذه الرؤية المتوازنة، قدرات ذاتية غير عادية للتأثير الحاسم في حياة البشر* ، حين يعي الناس ذلك جيدا، ويحسنوا استثماره بشمولية وتكاملية وتوازن، في بناء عقائدهم الكونية، وتنظيم تفكيرهم، وضبط سلوكهم، وإدارة حياتهم الاجتماعية والحضارية والكونية على ضوء ذلك([6]).

ومن يتأمل البنية أو الهيكلية السننية للقرآن والسنة معا، يلحظ فعلا كيف تتلاحم فيه أبعاد ومراحل " **الدورة الوجودية الكبرى للإنسان** "، والمكانة المحورية التي تحتلها المرحلة الأخروية في اهتمامات الإسلام، بناء على التناسب الموضوعي القائم بين حدود معادلة الغايات والوسائل، التي تمثل فيها الحياة الأخروية بعد الغايات، وتمثّل فيها الحياة الدنيوية وسيلة الوصول إلى هذه الغاية[7] . كما يتجلى ذلك في قوله تعالى:[**وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ**]([8])، وقوله كذلك[**وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ**

---

(1) ألكسيس كاريل، **تأملات في سلوك الإنسان**، (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م)، ص140.

([2]) سعيد حوى، **الإسلام**، ، (دار السلام، القاهرة، ط2، 1993)، ص758.

([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، 267/30.

([4]) أبو الأعلى المودودي، **الحضارة الإسلامية**، نقلا عن سعيد حوى، **الإسلام**، (ط2، دار السلام، القاهرة،ط2، 1993)، ص761.

([5]) محمد أبو زهرة، **العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم**، (مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة)، ص89.

* تراجع هنا حياة الأنبياء والحواريين والصحابة والرساليين عبر التاريخ، حيث يقف الإنسان على دور الوعي بالمصير في تفعيل الوعي التسخيري والاستخلافي بصورة نموذجية فذة.

([6]) محمد أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، (دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت)، ص105.

(7) دروزة، **الدستور القرآني**، 54/1.

([8]) **القرآن الكريم**، سورة القصص: 77.

الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ]([1]). أي هي الحياة الحقيقية، لأنها الباقية الخالدة، وفيها الجزاء والثواب والعقاب([2]). وهو المعنى الذي أكّد عليه الحديث الذي أوردناه سابقا، والذي يعطي نتيجة المقارنة بين الحياة المشدودة إلى الهم الأخروي، والأخرى المشدودة إلى الهم الدنيوي.

فالقرآن والسنة أفاضا في الحديث عن القضايا الكبرى المتصلة بعالم الآخرة؛ بدءا من قضية تركيز الإيمان باليوم الآخر، واعتباره من أركان الإيمان الأساسية، بل الركن الكلي الثاني بعد ركن الإيمان بالله، كما يدل على ذلك كثرة اقتران وروده في سياق الحديث عن الإيمان بالله كما أسلفنا([3]). ومرورا بتفصيل القول في كلياته الأساسية، المتعلقة بحقيقة الموت، وبالحياة البرزخية ومصائر الخلق فيها، وبالقيامة وتغيير نظام الكون وما يرافقه من أهوال عظام، وانتهاء بالحساب والجزاء الذي يئول بالناس إما إلى الجنة أو النار. كما ركّز الوحي كذلك، على الصعيد المنهجي، على البعد البرهاني السنني العلمي الشمولي التكاملي*، لإثبات هذه القضايا، وإقناع الناس بها، ودفعهم إلى تبنيها والالتحام بها، وهو ما سنعرج عليه في المبحث التالي .

وهذا التركيز المكثف على الوعي بكلية المصير البشري، لم يدرك الفكر المادي، وكذا الفكر التجزيئي عموما، وإن بدرجات أقل، دلالاته وأبعاده العقدية والتربوية والاجتماعية العميقة، فرأيا في ذلك مؤشرا على اعتبار القرآن كتابَ آخرة أو دينا لا دنيا، في الوقت الذي كان اهتمام الوحي بذلك نابعا من الدور المحوري الحيوي الكبير للوعي بالمصير في التأثير على تأطير وترشيد حركة الاستخلاف ذاتها، أي تفعيل الدور الإنساني في عالم الشهادة بصورة مكثفة ومتوازنة، ومن ثم تأمين المصير البشري في كافة مراحل الدورة الوجودية الكبرى بعد ذلك، على اعتبار أن مرحلة عالم الشهادة هي مرحلة تأسيسية مفصلية لكل المراحل التالية لها كما أسلفنا، حيث سيتقرر مصير الإنسان بناء على طبيعة وحجم **فاعليته وخيريته الاجتماعية والحضارية** في عالم الشهادة([4]) .

دلالات وأبعاد الوعي بكلية المصير البشري:

ولما كانت مرحلة ما بعد عالم الشهادة، مشكَّلةً من مراحل عديدة، فسنحاول استيعابها عبر مجموعة من الكليات بشكل مركز، نستبين من خلاله طبيعة عوالم المراحل التالية من " **الدورة الوجودية الكبرى للإنسان** " ، وطبيعة كل عالم، وحقيقته، ووضع الإنسان فيه، وعلاقة ذلك كله بالفاعلية الإنسانية في المرحلة الدنيوية من هذه الدورة .

وسنتناول أبعاد هذه الدلالات من خلال الكليات التالية:

الوعي بالمصير البشري وكلية الجزاء.

الوعي بالمصير البشري وكلية الإحاطة الرقابية بالنشاط الإنساني.

الوعي بالمصير البشري وكلية الموت.

([1]) **القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: 64.

([2]) أبو زهرة، **العقيدة الإسلامية**، ص90– 111.

([3]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 96/2.

* أقصد بالشمولي التكاملي هنا، استثمار الوحي لكل معطيات سنن الله في **الآفاق**، وسننه في **الأنفس**، وسننه **في الهداية**، وسننه في **التأييد**، لإثبات وتقرير صدقية وأحقية وأفضلية ما يطرحه على الناس من هدايات.

([4]) المراغي، **تفسير المراغي**، 220/30.

الوعي بالمصير البشري وكلية الحياة البرزخية.

الوعي بالمصير البشري وكلية القيامة.

الوعي بالمصير البشري وكلية الحساب.

الوعي بالمصير البشري وكلية الخلود.

الوعي بالمصير البشري وكلية الجزاء:

وهي الدلالة الجذرية الأولى التي تُدرك من اهتمام الوحي بتأسيس الوعي بالمصير البشري. ذلك لأن الإنسان وقد شُرّف بالخلافة في الأرض، والسيادة عليها، ومنح " **ميزانية تسخيرية كونية** " عظيمة، لإنجاز مهمته الاستخلافية، وأعطي حرية الإرادة والاختيار، للتصرف في ذلك في إطار الوعي بالمسؤوليات والتبعات المترتبة على ذلك كله([1])، فإنه لا بد أن يجازى على نتائج اختياراته الحرة([2])، بالمزيد من التكريم والتشريف والتمتيع، إن هو وفّى بواجباته وأحسن فيها، أو بالمزيد من السلب والحرمان والعقوبة، إن هو خان وانحرف وأساء[3].

ومن غير المعقول أن يُمنح الإنسان كل هذه الإمكانات التسخيرية الهائلة، وكل هذه الامتيازات التشريفية والتكريمية الكبيرة، وتعطى له هذه الحرية في الاختيار والعمل، من دون سائر المخلوقات، ويتحرّك لينفّذ هذه الإرادة ويجسد هذه الحرية؛ فيصيب ويخطئ، ويستقيم وينحرف، ويعدل ويظلم، ويضر وينفع، ويبني ويهدم... ثم لا يجازى على ذلك كله بالثواب أو العقاب! اتساقا مع منطق العدالة الإلهية في عدم التسوية بين المصلحين والمفسدين، والنافعين والضارين[4]. كما جاء التنبه على ذلك في القرآن في مثل قوله تعالى[**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**] [5].

إن منطق العدل الإلهي، يقتضي أن ينال كل جزاءه الحق العادل، بحسب طبيعة موقفه العقدي، ونوعية فاعليته الاجتماعية في عالم الشهادة، كما قال تعالى:[**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**][6]، وكما قال أيضا:[**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**]([7])، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**)[8].

فنظام الجزاءات والإثابات العادلة، عنصر مركزي في النظام الكوني عامة، وفي نظام الخلافة

([1]) عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط2، 1999)،ص136.

([2]) حسن حبنكة، **العقيدة الإسلامية**، ص517.

(3) الرازي، **التفسير الكبير**، 58/32؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 150/20.

(4) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**،262/6.

(5) **القرآن الكريم**، سورة القلم: 35، 36.

(6)**القرآن الكريم**، سورة النجم: 30.

([7]) **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 47.

(8) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب البر، باب تحريم الظلم (**شرح النووي**، 131/16).

البشرية في الأرض خاصة، عليه يتوقف تحقيق القصد الوجودي منها، فإذا انخرم هـذا العنـصر أو المكون المحوري من مكونات نظام الخلافة البشرية، استحال تحقيق القصد الوجودي منها، وتحوّلـت حياة البشر إلى ملهاة بل إلى مأساة حقيقية. بسبب ما يسود فيها من تهارج وتظالم بين البشر(1)، الذين تنفلت غرائزهم الحيوانية من عقالها، فتفتك بهم وبكل من يقف في طريق إشباع هذه الغرائز التـي لا حدود لها.

إن نظام الجزاءات والإثابات العاجلة والآجلة، ضرورة لانتظام شأن الخلافـة البـشرية فـي الأرض؛ من حيث أن الجزاءت العقابية تضبط وتردع نوازع الانفلات والانحراف في الفرد والمجتمع، وتتيح الفرصة لنوازع الخير لكي تمتد وتسود وتحافظ على توازن حركة الحياة من ناحية. ومن حيـث أن الجزاءات الثوابية تشجّع على المنافسة في الخير والصلاح، وتغذي في الإنـسان إرادة المثـابرة، وروح المصابرة والمكابدة، وتدفع بحركة الحياة قدماً نحو آفاق العبودية والخيرية والعالمية والإنـسانية والكونية من ناحية أخرى.

ولعله مما ينبغي أن يدرك جيداً في قضية الوعي بكلية الجزاء، هو أن الجزاء شامل لكل مراحل الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، إذ لا تخلو مرحلة من مراحلها من جزاءات ملائمة، ولكن هذه الجزاءات تبلغ مداها الحقيقي الشامل والدقيق والعميق، في عوالم المراحل التالية لمرحلة عالم الشهادة. بمعنى أن الجزاء يستوعب مرحلة عالم الشهادة كذلك(2)، وهو ما يغفل عنه كثير من الناس* ، ولكن بصورة نسبية تستكمل أبعادها بدقة وشمولية مع توالي " مراحل الدورة الوجودية للإنسان ". وهو ما أشار إليه القرآن في مثل قوله تعالى:**[أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ]**(3).

فالجزاء الثوابي والعقابي يبدأ من عالم الشهادة(4)، حيث تفعل سنن الله في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** فعلها في حياة البشر5، وتأخذ درجاته في الاتساع والكثافة والشدة والتركيز، مع توالي مراحل الدورة الوجودية للإنسان، كما قال سبحانه:**[وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا]**(6).

ولما كان للوعي بهذه الكلية أهمية كبرى في تعميق وترشيد الوعي الاستخلافي، وتأمين مصير الإنسان في المراحل التالية من دورته الوجودية الكبرى، فقد أولاه الوحي عناية مكثفة ومركزة، وأكثر من الحديث عن الثواب والعقاب العاجل والآجل. وسخّر لتركيز الوعي بـذلك، التجـارب التاريخيـة البشرية المتنوعة؛ في خيريتها وتوازنها وتكاملها وتألقها، وفي اختلالها وتنافرها وأفولها(7). كما أفاض في الحديث عن عوالم الآخرة وخاصة القيامة والحشر والحساب والجنة والنار... بصورة حية تجعـل

---

(1) عبد القادر عودة، **التشريع الجنائي في الإسلام**، (دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت)، 609/1.

(2) الدهلوي، **حجة الله البالغة**، ج 1/ 72.

* سيأتي المزيد من الحديث عن شمولية الجزاء في الفصل الثالث عند الحديث عن خصائص سنن التسخير .

(3) **القرآن الكريم**، سورة الجاثية: 20.

(4) القاسمي، **محاسن التأويل**، 392/14.

(5) سعيد حوى، **الإسلام**، ص546.

(6) **القرآن الكريم**، سورة الجن: 16، 17.

(7) أنظر على سبيل المثال: **التفسير الإسلامي للتاريخ** لعماد الدين خليل، ، و**قصص الأنبياء والتاريخ**، لرشدي البدراوي، و**مشاهد القيامة في القرآن**، و**التصوير الفني في القرآن** لسيد قطب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآخرة ملتحمة بالدنيا في نفس الإنسان وفكره وشعوره وحياته، وهو ما يجعله يبتغي بسيادته على الأرض، السيادة في عوالم الدورة الوجودية التالية كما أسلفنا.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الأولى للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان بأن لكل فعل من أفعاله الدنيوية جزاؤه العاجل، الذي يتحدّد على ضوئه وضعه وموقعه على خريطة حركة الاستخلاف في عالم الشهادة، وجزاؤه الآجل، الذي يتحدّد على ضوئه وضعه وموقعه في بقية مراحل دورته الوجودية بعد نهاية صلته بالحياة الدنيا. فالجزاءات المتدرّجة، التي تنتهي بالجنة أو النار، ركن محوري أساس في نظام الوجود البشري في الكون، بدونه ينخرم هذا النظام وينهد بنيانه.

الوعي بالمصير البشري وكلية الإحاطة الرقابية بالنشاط الإنساني: وهي الكلية الثانية التي تدرك من اهتمام الوحي بتأسيس الوعي بالمصير البشري، إذ الجزاء الشامل الدقيق العادل الذي ينتظر البشر، في العاجلة والآجلة، مبني على حساب إلهي دقيق للبشر على نشاطهم الاستخلافي الدنيوي[1]، كما قال تعالى:**[وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ]**([2]). وهذه التوفيَّة التامة العادلة للجزاء، تستتبع رقابة دقيقة ومحيطة بهذا النشاط البشري، تحصي على الإنسان كل شيء فعله أو تسبب فيه، من قريب أو من بعيد[3]. لا لأن الله تعالى يحتاج ذلك في محاسبته للبشر، فعلمه محيط بكل شيء، كما قال سبحانه: **[وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]**([4])، ولكن ليجعل من وعي البشر بهذه الكلية، حافزاً قوياً لهم للانضباط، وشدة اليقظة والاحتياط، وتوقّي التقصير في الأخذ بسننه في الخلق، ناهيك عن مصادمتها[5]، وهو ما يرفع مستويات شحذ فاعليتهم التسخيرية والاستخلافية في الأرض، إلى أقصى درجاتها، والسير بها على خط **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، والنأي بها عما يضادها من الحركة على خطوط الكفر والشرك والفسوق والغثائية والاستكبار .

فكلية الإحاطة الرقابية الدقيقة بالنشاط البشري في عالم الشهادة، ذات أهمية بالغة في مسيرة حركة الاستخلافي البشري، وعلى مآلاتها المصيرية الأخروية بالخصوص. لأنها ترتقي بالحس الرقابي الذاتي لدى الإنسان، إلى ذرى درجات الإحسان، الذي يعبد فيه الإنسان الله وهو يستشعر تماما بأنه يراه وأن الله يراه ويحصي عليه أنفاسه، ويبارك جهده، كما جاء في الحديث: **(الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**([6]). فتتعزز لديه بواعث الانضباط والاستقامة، والإقبال على تحري فعل الخيرات والصالحات، ومجانبة السيئات والمفسدات.

ومن أجل تعميق وعي الإنسان بهذه الرقابة الربانية المحيطة به، ورفع مستوى يقظته الرقابية الذاتية، أفاض الوحي في عرض معطيات هذه الكلية بصورة شمولية، تحسّس الإنسان بأنه مكشوف

---

(1) الطبري، **جامع البيان**، 267/15.
([2]) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 185.
(3) الألوسي، **روح المعاني**، 270/14.
([4])**القرآن الكريم**، سورة يونس: 61.
(5) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 398/4.
([6]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب: سؤال جبريل للنبي، تحت رقم4777.

بشكل تام ودائم أمام الرقابة الربانية، التي جعلت الأرض[1]، والكيان الإنساني ذاتــه[2]، والملائكـــة[3]، والبشر أنفسهم[4] ... تشارك كلها في أداء هذا الدور الرقابي الشامل المحكم الدقيق، الـشاحذ للـوعي واليقظة والاستقامة لدى الإنسان، والواقي له من الفتور والغفلة والانفلات، والدخول في خطة الشيطان.

فكل هذه الكائنات الكونية المنظورة وغير المنظورة، تشارك في مراقبــة حركـــة الإنـسان، وتحتفظ بسجلات حية دقيقة عن كل أوجه نشاطه المعلن والخفي، بل إن الرقابة الربانية تمتــد لتـشمل وسوسة النفس وما يخطر ببال الإنسان من خواطر نفسية في مراحلها المبكرة جدا([5]).

والعلوم الحديثة ألقت بعض الأضواء على هذه القضية الحيوية بشكل تجريبي متقدم، يؤكد بعض ما قرّره الوحي من حقائق شاملة في أمر الآخرة عامة، وفي أمر الرقابة الكونية المحيطة بالإنسان خاصة([6]). كما نلمس ذلك على سبيل المثال في هذا النص لوحيد الدين خان وهو يتحدث عن موقف العلم من إمكان الآخرة، فيقول: " وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتّضح جلياً حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة، وبغير توقف. وللإنسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هي: نيته، وقوله، وعمله. وهذه الأبعاد الثلاثة تسجّل بأكملها. فكل حرف يخرج عن لساننا، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا، يسجل في الأثير (الفضاء)؛ ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله، لنعرف – إذا شئنا – كل ما قاله أو فعله أي إنسان في هذه الحياة الدنيا، من خير أو شر.

إن الأفكار تخطر على بالنا، وسرعان ما ننساها، ويبدو لنا أنها انتهت، فلم يعد لها وجود ولكنا بعد فترة طويلة، نراها رؤى خلال النوم، أو نذهب نتكلم عنها في حالات الهستريا أو الجنون، دون أن ندري شيئا مما نقول . وهذه الوقائع تثبت قطعيا أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب، وإنما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها، وهي ذات وجود مستقل، وذات كيان قائم بنفسه.

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل، ولسنا قادرين على محوها أبدا، وأثبتت هذه التجارب أيضا أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه (الشعور)، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الإنسانية تبقي وراء الشعور، يسميها فرويد: (ما تحت الشعور)، أو (اللاشعور). وهذه الأجزاء تشكل جانباً كبيراً من شخصيتنا، بل هي الجانب الأكبر منها؛ ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار، أجزاؤه الثمانية مسكنة تحت الماء، على حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع. وتلك هي ما نسميه: (تحت الشعور) ، الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه، أو ننتويه "([7]).

وتكفي هنا دلالة على كثافة اهتمام الوحي بتأسيس وتعميق الوعي بكليــة الإحاطــة الرقابيــة بالنشاط البشري، قوله تعالى على سبيل المثال**[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْــنُ**

---

(1) ابن العربي، **تحفة الأحوذي شرح صحيح الترمذي**، 260/9.
(2) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 213/12.
(3) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 540/13.
(4) ابن أبي جمرة، محمد بن عبد الله، **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها**، (دار الكتب العلمية، بيروت)، 269/4.
([5]) البقاعي، **نظم الدرر**، 419/18.
([6]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3362/6.
([7]) وحيد الدين خان، **الإسلام يتحدى**، ص124.

أقرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ. إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ]([1])، وقوله أيضا: [**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**]([2])، وقوله كذلك:[**وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**]([3])، وقوله سبحانه: [**اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**]([4])، وقوله أيضا: [**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا. يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**]([5])، فالأرض تكشف أسرارها، وتخبر بما عمل فوقها من خير أو شر([6]).

وكما أسلفنا، فإن كل هذه الأنواع من الرقابات الكونية المحيطة بالإنسان، ليس غرضها انتهاك حرمات الإنسان، وامتهان كرامته، أو التضييق عليه، أو حرمانه من تلبية بعض حقوقه ورغباته، كما قد يرى ذلك بعض الموسوسين بالحقوق الجزئية للإنسان، وإنما هي لتعزيز هذه الكرامة، وحماية هذه الحرمات، وحفظ هذه الحقوق، من خلال شدِّ الإنسان للحركة على خط **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، والابتعاد بحركته الاستخلافية عن السير على الخطوط المضادة لها، لأنها حركة ضد إنسانية الإنسان، وضد خلافته في الأرض، وضد مصيره الوجودي. وهو ما يدركه كل إنسان بعد انكشاف الحقائق أمامه.

وفي نفس السياق الشمولي التكاملي للرقابة الربانية، التي تستهدف شحذ الفاعلية التسخيرية والاستخلافية للإنسان، والمحافظة على ديمومة حيويتها، ينبغي أن نلحظ المستوى الآخر المباشر من الرقابة التي أسسها الوحي وأصلها، لوقاية حركة الاستخلاف من الفتور والانحراف والإهتلاك، وضمان اطراد فعاليتها، والتي يجسدها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمناصحة([7])، وما يجب أن ينبثق من ذلك من آليات إجرائية وطرائق فنية فعالة، لممارسة هذه الرقابة على النشاط التسخيري والاستخلافي البشري، حتى يمضي في طريقه الصحيح نحو المزيد من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، والتكامل الكوني في حياة البشر.

بتكامل كل هذه الأبعاد والمستويات المنتظمة في كلية الإحاطة الرقابية الشاملة بالنشاط البشري، ينضبط هذا النشاط وتعظم فاعليته الانجازية والاستمتاعية في عالم الشهادة، وهو ما يخدم مصير الإنسان، ويحدد وضعه في المراحل التالية من دورته الوجودية الكبرى. لأن الإنسان عندما يستحضر هذه الرقابة المحيطة بنشاطه، وهذا الإحصاء الدقيق لأنفاسه في الحياة، ويدرك بعمق ويقين، خطورة ذلك، فسيبذل قصارى جهده لمراقبة نفسه، والنأي بها عن كل ما فيه ضرر له ولغيره من البشر والخلائق. وهو ما يضع الإنسان في أنسب وأخصب حالات التوسط والاعتدال التي توازن حركته الاستخلافية في الأرض.

([1]) **القرآن الكريم**، سورة ق: 16- 18.

([2])**القرآن الكريم**، سورة الإسراء : 14.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الكهف: 49.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة يس: 65.

([5])**القرآن الكريم**، سورة الزلزلة: 1- 8.

([6]) محمد الأمين بن عبد الله الأرمي، **تفسير حدائق الروح والريحان**، (دار طوق النجاة، بيروت،2001)، 234/32.

(7) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 306/2.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الثانية للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان برقابة الله المطلقة عليه، وعلى كل ما يصدر منه من همٍّ أو قول أو فعل، حتى يرفع مستوى يقظته الروحية والفكرية والسلوكية، ويجدَّ في استثمار ميزانيته التسخيرية الكونية بأصالة وفاعلية وتكاملية أكبر.

الوعي بالمصير البشري وكلية الموت: وهي بوابة الإنسان إلى عوالم الآخرة، المختلفة في طبيعتها وحقيقتها عن عالم الشهادة، والمرتبطة به من حيث تأثيره الحاسم على وضعية الإنسان فيها، ارتباط المقدمة بالنتيجة، كما نعتقد نحن المسلمين([1]). وتعتبر هذه المرحلة الفاصلة في حياة الإنسان، في العقيدة الإسلامية، بمثابة القيامة الصغرى. كما جاء ذلك في بعض الأحاديث، أن بعض الأعراب كانوا قد قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: (**إن يعش هذا، لم يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم**)([2]). يقول ابن كثير: " والمراد انخرام قرنهم، ودخولهم في عالم الآخرة، فإن كل من مات فقد دخل في حكم الآخرة. وبعض الناس يقول: من مات فقد قامت قيامته. وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح "([3]).

وقد شكّلت كلية الموت باستمرار قضية إنسانية كبرى* ؛ لأن الموت هادم للذات([4])، كما جاء في الحديث، ومقتلع للإنسان من محضنه الأثير الطويل في عالم الشهادة، وملق به إلى العدم في نظر الرؤى الوضعية الملحدة، أو قاذف به إلى المجاهيل المفتوحة على كل الاحتمالات، في نظر الرؤى الوضعية الملفقة، أو ناقل له إلى مجال تقديم الحساب ونيل الجزاء في نظر الرؤى الوجودية ذات الأصول الإلهية الصحيحة، في الوقت الذي يحرص فيه الإنسان على طول العيش والاستزادة من الخير والمتعة، كما قال تعالى:[**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**]([5])، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (**لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين، في حب الدنيا، وطول الأمل**)[(6)].

والإسلام في إطار تأسيسه للوعي الشمولي المتكامل لدى الإنسان بكل مراحل دورته الوجودية الكبرى، أعطى لهذه الكلية كذلك أهمية كبرى[(7)]، واعتبر الموت مرحلة انتقال من مرحلة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر في هذه الدورة، حيث يعيش الإنسان وضعاً آخر هو امتداد مختلف في طبيعته وحجمه ومستواه لأوضاع عالم الشهادة، وإن كان مبنياً على نتائجه الإيجابية أو السلبية. فيزداد الصالحون فيه تكريماً وسعادة واستمتاعًا، والمفسدون مهانة وشقاءً وحرماناً. وهذا يخفف دون شك قوة الصدمة الفجائية التي تنزل على الميت ومحيطه، وتحدث فيه ارتباكًا بل زلزالا كبيرا، عندما يدرك

([1]) متولي الشعراوي، **الحياة والموت**، (مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة)، ص113.

([2]) أخرجه مسلم في **الصحيح**، باب قرب قيام الساعة، تحت رقم 2952.

([3]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، (مكتبة النصر الحديثة، الرياض 1968)، ج24/1.

* من مظاهر هيمنة كلية الموت على الوعي البشري، ظهور علم الثاناتولوجي المهتم بالبحث التجريبي في قضية الموت والحياة بعد الحياة، بعد محاولة الحضارة المادية الحديثة تجريد الموت من معانيه العقدية والروحية والأخلاقية.

([4]) أورده الألباني في **صحيح الترمذي** تحت رقم2307.

([5]) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 96.

(6) أخرجه البخاري في **الصحيح** كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، **(فتح الباري**، 11 /243).

(7) وردت كلمة الموت ومشتقاتها في القرآن وحده ما يزيد عن (165) مرة، البنداق، **هداية الرحمن**، ص 359.

الجميع أنه سبقهم إلى حياة أخرى، وأنهم لاحقون به عمَّا قريب، وأنه يعي وجودهم وحياتهم، وأنهم مسئولون عن وصاياه وعهوده، فيما لا يخالف شرعا أو يعطل مصلحة معتبرة.

وأنه ينتفع بعمله الصالح في الدنيا، كما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: **(إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث. إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)**(1)، وأنه يتأذى من عمله الدنيوي الطالح الذي خلفه وراءه، كما في قوله تعالى:**[لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ]**(2). وقوله صلى الله عليه وسلم: **(من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها. ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء)**(3).

ويكتسي الموت أهميته الخاصة كذلك، من كونه يشكل نقطة فاصلة في الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، إذ بموت الإنسان تنتهي بالنسبة له **مرحلة التكليف والعمل والاستدراك**(4)، وتبدأ مرحلة قطف الثمار التي زرعها في المرحلة الدنيوية من حياته، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. فالمرحلة الدنيوية هي فرصته الوحيدة لتأمين مصيره الوجودي، فإذا جاءه الموت بغتة، فقد انتهت هذه الفرصة إلى الأبد، وجاءت مرحلة الحساب والجزاء. وفي ترسيخ هذه الحقيقة الكبرى في النفوس، وتهيئتها لمواجهة أخطار ما بعد الموت، والاستعداد المبكر لها(5)، جاء في القرآن قوله تعالى**[حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ]**(6).

ولأسباب وأسرار يعلمها الله سبحانه، أخفي أجل الموت عن الإنسان، حتى يشحذ همته نحو العمل، ومسابقة الزمن في الاستزادة من الباقيات الصالحات، بلا توان ولا هوادة، فلا يشعر إلا وهو قد راكم كتلا من المنجزات التي تثقل موازينه بعد موته، وكشف حسابات أعماله الدنيوية التي تحدد مصيره الأخروي(7).

ولا شك أن هذه العقيدة في الموت، كفيلة بشحذ روح الصلاح والخيرية في الإنسان، والدفع به إلى مضاعفة الجهد في ذلك قبل إدراك الموت له. كما تشحذ في من وراءه نفس الروح، وتعمّق فيهم الإحساس بالمسؤولية تجاهه وردّ الجميل له، كما صنعه هو فيهم قبل موته. وبهذا يلحظ مدى التكامل والتلاحم بين عالم الشهادة وعوالم الغيب في المنظومة المنهاجية للإسلام. وانعكاس ذلك على حياة الإنسان وفعاليته التسخيرية والاستخلافية.

---

(1) أخرجه مسلم في **صحيحه** كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (**شرح النووي**، 85/11).

(2) **القرآن الكريم**، سورة النحل: 25.

(3) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب من سن سنة حسنة، تحت رقم1017.

(4) الشعراوي، **الحياة والموت**، 49.

(5) محمد أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، ص5117.

(6) **القرآن الكريم**، سورة المؤمنون: 99 – 103.

(7) الرازي، **التفسير الكبير**، ص 73/32.

وفي العقيدة الإسلامية منظومة فقهية كاملة حول كلية الموت([1])، تطمئن المؤمن وتحضّره لاستقباله وتجاوز صعوباته أو سكراته كما سماها القرآن والسنة. والانتقال عبره من عالم الشهادة إلى عوالم الغيب التالية. ومن يستوعب معطيات هذه الكلية عقديا وتربويا، يلحظ كيف تعمل على شحذ روح الانضباط السلوكي المؤثر جدا على حركة النشاط التسخيري والاستخلافي لديه.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الثالثة للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان بأن الموت ينتظره، وأن ساعة مغادرته إلى العوالم الأخروية التالية من دورته الوجودية الكبرى، يمكن أن تباغته في أية لحظة، فتقوى لديه بواعث الخير والصلاح، وتتعزز لديه روح المبادرة، ويعظم حرصه على فعالية الإنجاز لتقوية حظوظه في وضع وموقع أخروي رفيع.

الوعي بالمصير البشري وكلية الحياة البرزخية: وهي المرحلة التي تمتد من الموت والانخلاع من عالم الشهادة والولادة في عالم الآخرة، إلى بداية القيامة والبعث والنشور([2]). وهو عالم وجودي آخر أكثر انفساحا وأمداً من عالم الشهادة بمراحل، وللإنسان فيه حياة أخرى تحكمها قاعدة: " **ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** "[(3)]. وقد جاءت الإشارة إلى هذه المرحلة في قوله تعالى[**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**][(4)].

واستوعبت السنة الحديث عن الحياة البرزخية في أحوال الموت، وسؤال القبر، وعذابه ونعيمه[(5)]، وانفساح الآفاق الكونية أمام الإنسان في هذه المرحلة[(6)]، بعد أن كان محجوباً عنها بسنن عالم الشهادة عامة، وبمؤثرات الانحراف التي ترين على قلب الإنسان وتحرمه شفافية الروح وإشراقها([7]). وفي هذا الإنفساح قال صلّى الله عليه وسلّم عن رجل مات: (**أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها، فإن كان قد رضي فلا يَسُرُّه أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه**)[(8)]، إذ كيف يرجع من السعة إلى الضيق، ومن الراحة إلى المكابدة، وهو ما يستشعره المنحرفون حينما يستيقنون خسران مسعاهم في عالم الشهادة، ويتمنون لو أنهم أعطيت لهم فرصة أخرى ليحضّروا أنفسهم لحياة ما بعد الموت، كما أكّدت ذلك الآية السابقة.

وفي حديث نبوي آخر، يشير الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بعض ملامح هذه المرحلة فيقول: (**إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**)([9]). وفي

([1]) أنظر: محمد عبد العظيم، **الموت كيف نفهمه ونعمل له**، (دار الصحابة، مصر، 1993).

([2]) ابن حجر، **فتح الباري**، (المطبعة البهية المصرية، القاهرة، 1348 هـ)،3 /180.

(3) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الجنة، (**شرح النووي**، 166/17).

(4) **القرآن الكريم**، سورة المؤمنون: 99-100.

(5) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب صفة الجنة (**شرح النووي**، 17/ 200).

(6) الطبري، **روح البيان**، 163/13؛ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 550/13.

([7]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 446/19.

(8) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه ابن أبي الدنيا مرسلا ورجاله ثقاة (**الإحياء**، 497/4).

([9])أخرجه البخاري في **صحيحه**، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي، تحت رقم1379.

هذا دون شك بشرى ومتعة مرحلية عظيمة، لمن صلح مسعاه الاستخلافي الدنيوي، ونذير شؤم وعذاب مرحلي لمن خاب مسعاه الاستخلافي الدنيوي كذلك.

وفي حديث آخر طويل تحدث فيه النبي عليه الصلاة والسلام عن بعض مقدمات الموت، وبعض ألوان عذاب القبر ونعيمه، مبرزا الدور الأساسي لطبيعة عمل الإنسان الدنيوي، في تحديد مصيره في عالم البرزخية، وما يليه من مراحل في طريق استكمال دورته الوجودية الكبرى، حيث قال عليه الصلاة والسلام أن الميت وهو في بداية مراحل استقراره في القبر: (**يأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الحسن يجيء بالخير ؟ فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة...)**. ويضيف عليه الصلاة والسلام، متحدثا عن الصورة المعاكسة التي تبرز الانعكاسات السلبية الخطيرة للعمل الاستخلافي السيئ على صاحبه، حيث: (**يأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر! فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة)**([1]).

هذه هي النتيجة التربوية العملية الأساسية، التي يقصد الوحي تركيزها في أعماق النفس الإنسانية ابتداء، وإحداث التغييرات الفكرية والنفسية والسلوكية والاجتماعية المطلوبة في حياته على ضوء ذلك، من خلال عمق وقوة الإيحاءات الروحية التي يثيرها في النفس الحديث عن بعض معالم وقسمات عالم الحياة البرزخية، كمرحلة متقدمة في سلسلة حلقات أو مراحل مسيرة **الدورة الوجودية الكبرى للإنسان**، ومن خلال تشخيصه للأوضاع المتباينة للناس فيها؛ بين مكرّم ممتّع، ومهان معذَّب([2])، حتى يشحذ وعيهم العقدي والتسخيري والاستخلافي، في اتجاه الحركة التصاعدية التكاملية على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، التي ستقرر مصائرهم العاجلة والآجلة.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الرابعة للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان بأن هناك مساراً طويلا يعقب مرحلة الموت وتوديع عالم الشهادة، يستمر إلى مشارف مرحلة القيامة، وأن طبيعة ومستوى أصالة وفاعلية الأعمال الدنيوية التي أنجزها الإنسان في حياته، هي التي ستتحكم في وضعه ومركزه في مرحلة الحياة البرزخية.

الوعي بالمصير البشري وكلية القيامة: وهي المرحلة التي تعقب الحياة البرزخية مباشرة، بالنسبة للأموات، أما بالنسبة للأحياء الذين يعاصرون القيامة، فإنها ستكون آخر لحظة لهم في المرحلة الدنيوية من حياتهم، حيث تأتيهم بغتة فيصعقون دون أن يتمكّن أي أحد منهم من التقاط أنفاسه أو فعل أي شيء، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن: [**مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**]([3]).

وتتميّز مرحلة القيامة بانقلاب أوضاع الكون فيها بصورة مذهلة، يتحوّل فيها كل شيء في الوجود، عبر نفخة الصعق، كما قال تعالى:[**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي**

([1])المنذري، **الترغيب والترهيب**، 280/4.

([2]) محمد نعيم ياسين، **الإيمان: أركانه حقيقته نواقضه، ص**130.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة يس: 49-50.

الأَرْض إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ...][1]، ويتهيأ لمرحلة أخرى في الدورة الوجودية للحياة الكونية كلها، ومن ضمنها الإنسان. وتستغرق هذه المرحلة ما شاء الله لها كما جاء في الحديث: (**... فلا يبقى خلق في السماوات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون**)([2]). وفي رواية أخرى جاءت الإشارة إلى عدد أربعين، لكن لم يجزم أبو هريرة راوي الحديث هل هي أربعون يوماً ؟ أم شهراً أم سنة([3]).

وفي القرآن والسنة حديث مفصّل عن هذه المرحلة وطبيعتها، وما يحدث للأحياء فيها، وشدة وطأتها على الإنسان. وجاء ذلك كله في نسق منهجي تنعكس آثاره التوجيهية على مرحلة الخلافة في الأرض مباشرة؛ بالمزيد من الانضباطية الروحية والسلوكية، ومن أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية التسخير وخيريته. لأن وطأة هذا الانقلاب المذهل في النظام الكوني، على النفس البشرية، ستكون بحسب مواقف البشر من الخلافة في مرحلة عالم الشهادة، كما يوحي بذلك الاستثناء في الآية السابقة[4]، وتؤكده أحاديث عديدة كحديث: (**سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد ، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه**)[5].

فصلاح المرحلة الدنيوية من الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، يؤثر بعمق على وضعيته في بقية مراحل هذه الدورة، ويخفف عنه الكثير من ويلاتها ومتابعها، بخلاف فساد أو اضطراب الوضع الاستخلافي الدنيوي للإنسان، فإنه سيضاعف متاعبه ومكابداته.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية الخامسة للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان بأن هناك مرحلة قادمة سيتم فيها انقلاب نظام العالم كله، بشكل مذهل مرعب، يجب التهيأ له للتخفيف من وطأته الرهيبة على النفس.

الوعي بالمصير البشري وكلية البعث والحشر: وهي المرحلة التي تعقب صعقة القيامة وانقلاب النظام الكوني كله، بكل ما فيه من أهوال وفجائع، يصطلي بها كل من خاب مسعاه الاستخلافي الدنيوي، وتُخفف وطأتها على كل من نجح في مهمته الاستخلافية الدنيوية، كما جاء ذلك في القرآن:[**لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**]([6]). قال الطبري بعد أن استعرض أقوالا في تأويل الآية: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر وأمن منه، فهو مما بعدَه أحْرَى أن لا يفزَع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده "([7]).

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة الزمر: 68.

([2]) ابن حجر، **فتح الباري**، 370/11.

([3]) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب ما بين النفختين، تحت رقم 2955.

(4) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 269/15.

(5) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، (فتح الباري168/2).

([6])**القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 103.

([7]) الطبري، **جامع البيان**، 542/18.

وفي هذه المرحلة يعاد بعث وإحياء ونشر وحشر الناس وسائر المخلوقات([1])، عبر نفخة القيام والبعث والإحياء من صعقة الموت الأولى، كما جاء في قوله تعالى:**[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ]**([2])، وقوله أيضا: **[يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ]**([3]). قال ابن عباس: " الراجفة النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية "([4]).

وفي هذه المرحلة يساق الناس إلى أرض المحشر، استعداداً للحساب والجزاء الشامل العادل([5])، عن مواقفهم العملية من قضية الخلافة في الأرض، وفي أي الاتجاهات تحرّكت هذه المواقف، وكيف استثمرت ما أتيح لها من إمكانات هائلة في ميزانيتها التسخيرية الكونية الكبرى.

وفي القرآن والسنة حديث متنوّع عن طبيعة هذه المرحلة، وأحوال البشر فيها، وهم ينتظرون الحساب والجزاء، نكتفي منها بالإشارة إلى قول عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: **(يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً. قلت: يا رسول الله, الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلي بعض؟ قال: يا عائشة, الأمر أشد من أن ينظر بعضهم لبعض)**([6]).

وفي حديث نبوي آخر إشارة إلى لون من ألوان هذه الشدة والكربة التي يكون عليها الناس في المحشر، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: **(تدنو الشمس، يوم القيامة، من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل. قال سليم بن عامر: فوالله ! ما أدري ما يعني بالميل ؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين. قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق. فمنهم من يكون إلى كعبيه. ومنهم من يكون إلى ركبتيه. ومنهم من يكون إلى حقويه. ومنهم من يلجمه العرق إلجاما. قال وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه)**([7]).

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية السادسة للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان بأن هناك مرحلة تالية لمرحلة القيامة، يبعث فيها الناس ويحشرون في أوضاع قاسية، لا يخفف شدائدها إلا المواقف الاستخلافية التي تحركت على خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية، حتى يحسن الناس استثمار خلافتهم في الأرض، لخدمة شدائد أهوال وشدائد المراحل الأخروية المتعاقبة من الدورة الوجودية الكبرى للإنسان.

الوعي بالمصير البشري وكلية الحساب والجزاء: وهي المرحلة التي يعرض فيها البشر على الحساب وتقييم مواقفهم من مرحلة الاستخلاف في عالم الشهادة، ومجازاة كل إنسان بحسب ذلك، وقد جاءت تفاصيل كثيرة عن هذه المرحلة، ووضع البشر فيها في القرآن والسنة، بشكل حيّ مؤثر، يترك صدى عميقا في النفس، ويدفع بالنشاط البشري في عمق الحركة الاستخلافية، ويطبعه بالفعّالية

([1]) القرطبي، **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة،** (المكتبة السلفية، المدينة المنورة)، ص 273.

(2) **القرآن الكريم**، سورة الزمر: 65.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة النازعات: 6 – 9.

([4]) الطبري، **المرجع السابق**، 191/24.

([5]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، (طبعة دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003م)،

([6]) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب فناء الدنيا وبيان الحشر، تحت رقم 2859.

([7])أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب صفة يوم القيامة، تحت رقم/2864.

والخيرية واطراد الحيوية، لما يحدث للناس من فزع واضطراب وهلع وانخلاع من الخوف، وهم يحاسبون، وتعرض عليهم دقائق أعمالهم، وينتظرون نتائج الحساب[(1)]، وهم في حالة نفسية، انقلبت فيها موازين البشر، وبلغ بهم الأمر حدّا لا يتصور إلا في ذلك الموقف، وإن كان تصوير القرآن بذلك قد بلغ درجة الإعجاز في نقل مشاهد من ذلك، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى على سبيل المثال، في تصويره لمشهد عجيب من مشاهد الذهول الرهيب الذي يعتري موقف الإنسان من أقرب الناس إليه، وأعزهم عليه:[**وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ**][(2)].

وقوله ﷺ مجيبا عائشة رضي الله عنها وقد سمعته يقول بأن الناس سيحشرون حفاة عراة غرلا، فقالت من منطلق الفطرة البشرية، والأخلاقية الإسلامية المنسجمة مع ذلك: **ينظر بعضهم إلى بعض ؟!** فأجاب: (**الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**)[(3)].

والحساب الإلهي للبشر يتّسم بمنتهى الدقة والشمولية والعدالة، حيث ينال كل إنسان جزاءه بالقسطاس المستقيم، كما قال تعالى:[**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**][(4)]. وقد سبق أن أوضحنا في كلية **إحاطة الرقابة الإلهية بحياة الإنسان**، أن الله تعالى يحصي على الإنسان أنفاسه، وسيكشف له حساب أعماله كاملا، حتى أن الإنسان يفاجأ وهو يطلع على تفاصيل أعماله ومواقفه الدنيوية التي لا تخطر له على بال، كما جاء ذلك في قوله تعالى:[**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**]([5]).

ويختلف الوضع قليلا بالنسبة لأهل الصلاح والخيرية، في عملية الحساب، حيث تحفظ فيه كرامتهم، ويجنَّبون بعض ألوان العذاب النفسي الخطير، التي يتعرّض لها المفسدون في الأرض، كما نلمس ذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: (**يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل. حتى يضع عليه كنفه. فيقرره بذنوبه. فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب! أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. فيعطى صحيفة حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذي كذبوا على الله**)[(6)]. فالمفسدون يحاسبون بالدقة والشمولية والعدل، أما الصالحون المصلحون، فيحاسبون بقانون الرحمة.

وتفاصيل كلية الحساب والجزاء الكثيرة، الواردة في الكتاب والسنة، والمؤكدة بقوانين الكون ونواميسه، عندما تُستوعَب جيداً في التوجيه المعرفي والتربوي والاجتماعي للإنسان، لا شك أنها ستدفع بالانضباط الروحي والسلوكي والاجتماعي لدى الإنسان، إلى أعلى مستويات أصالتها وفعاليتها الانجازية، التي أشار إليها حديث الإحسان([7]).

---

(1) يراجع في هذا المقام: **مشاهد القيامة في القرآن** لسيد قطب.

(2)**القرآن الكريم**، سورة المعارج: 10- 14.

(3) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الرقاق، باب الحشر. (فتح الباري 285/11).

(4)**القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 47.

([5]) **القرآن الكريم**، سورة الكهف: 49.

(6) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، تحت رقم 2768.

([7]) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر، تحت رقم10.

وخلاصة الدلالة المقاصدية العقدية والتربوية والاجتماعية والحقوقية الأساسية لهذه الكلية المركزية السابعة للوعي بالمصير البشري، هي تعميق وعي الإنسان بأن هناك مرحلة تالية لمرحلة البعث والحشر، يحاسب فيها الناس ويجازون على مواقفهم العملية، من مهمة أو أمانة الخلافة التي أنيطت بالإنسان في الأرض، حتى يعمل كل إنسان حساب هذه اللحظة الحاسمة من دورته الوجودية الكبرى، ولا يغفل عن مراقبة نفسه ومحاسبتها وتأطيرها على الحق أطرا.

الوعي بالمصير البشري وكلية الخلود: وهي نهاية مطاف «الدورة الوجودية للإنسان»، حيث يستقر الناس بعد مرحلة الحساب في الجنة أو النار، بحسب مواقفهم من حركة الاستخلاف في عالم الشهادة، كما قال تعالى:[**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**][1] . وقال سبحانه[... **ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**][2].

وقد جاء حديث الوحي عن هذه الكلية مكثفا ومفصلا ودقيقا، ومتنوعًا[3]، ومؤثرا جدًا، وعرضت مشاهد مشرقة لحال أهل الجنة وما ينعمون به من الأمن والاطمئنان والرضا والاستمتاع... كما عرضت بالمقابل مشاهد مرعبة لحال أهل النار وما يلقونه من شدائد وعناء وشقاء متصاعد وممتد ([4]). وقد جاء هذا العرض لواقع عالم الخلود متداخلا مع عالم الشهادة، مما يؤثر بصورة جدية فاعلة على الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي للإنسان، وهو مقصود الوحي من الإفاضة في وصف واقع عالم الخلود، حتى يشحذ الفعّالية الانضباطية لدى الإنسان إلى أقصى مدياتها المطاقة [5]، ويمكّنه من استثمار " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " الهائلة، بصورة نموذجية، لتحقيق الاستمتاع بخيرية عالم الشهادة، وتهيئة شروط الاستمتاع الأشمل والأكمل في مراحل الدورة الوجودية التالية.

ومن خلال هذا العرض المركز لرؤية الإسلام " **للدورة الوجودية الكبرى للإنسان** " في مأتاه، وطبيعته، ووظيفته، ومصيره، والمسخرات التي أتيحت له، والدلالات العقدية والوظيفية أو العملية، لكل بعد من هذه الأبعاد، نلحظ كيف تتميّز وتمتاز هذه الرؤية بالأصالة والفرادة، في تغطية كل مراحل وأبعاد الدورة الوجودية الكبرى للإنسان بل والكون، كما يتضح ذلك من ربانية المصدر، وشمولية الاستيعاب، ومعقولية الطرح، وفطرية النظرة، ومن ثم توازنيتها. وهو ما يضع بين يدي الإنسان الأساس المكين الذي ترتكز عليه حركته التسخيرية والاستخلافية بعد ذلك، وهو يواجه تحديات **حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، التي تهيمن على الصيرورات التاريخية والحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وتتحكم فيها باستمرار.

ونظرا للأهمية الحيوية للوعي العقدي الكوني، وبناء تصور الإنسان عن دورته الوجودية الكبرى، بل وعن الدورة الكونية بصفة عامة، والأثر الحاسم الذي يتركه ذلك في حياته وعلى مصيره،

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الانفطار: 13- 14.
(2)**القرآن الكريم**، سورة هود: 103-108.
(3) ورد ذكر كلمة الجنة وحدها في القرآن أكثر من (130) مرة، وكلمة النار وحدها أكثر من (140) مرة، (البنداق، **هداية الرحمن**، ص 99-382).
([4]) أنظر **مشاهد القيامة في القرآن** لسيد قطب على سبيل المثال .
(5)المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص179.

فقد شكل الاهتمام المركزي الأول للوحي كتابا وسنة، ولحركة الدعوة الإسلامية، كما رأينا ذلك في فقرات هذا الفصل، وكما سنراه في بقية الفصول اللاحقة كلها، إن شاء الله.

الفصل الثالث

بناء الوعي الإنساني

بالمنظومات الكلية لسنن التسخير

تمهيد:

الإشكالية الكبرى الثانية التي تواجه البشر بعد الإشكالية الأم الخاصة بالوعي العقدي أو الكوني، الذي يمنحهم المرتكزات الصلبة للموقف العلمي الموضوعي الصحيح من " **الدورة الوجودية الكبرى للإنسان** "، ألا وهي " **الوعي التّسخيري السنني**"، الذي يمكّن الإنسان من استثمار " **ميزانيته التسخيرية الكونية**" الكبرى، بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد، في إنجاز مهمته الوجودية في الحياة، وتحويل الوعي العقدي إلى واقع فكري وروحي وسلوكي واجتماعي وعمراني متكامل، يحقق الإنسان عبره وظيفته الوجودية في الحياة، ويستمتع بها، ويهيئ لنفسه شروط الاستمتاع الأشمل والأرقى والأدوم، في بقية مراحل دورته الوجودية الكبرى التالية لعالم الشهادة.

ومنذ فجر التاريخ والإنسان يكابد مشقات تحصيل هذا الوعي التسخيري من جهة، ومشقات حسن استثماره بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد، وتجنب مضاعفاته السلبية المهلكة من جهة أخرى، كما يدلّ على ذلك مسار تطور الحضارة الإنسانية، وما احتواه في أحشائه من مظاهر المكابدات الممتدة، كما نبّه القرآن إلى ذلك في قوله تعالى:**[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ]**[1]، وقوله سبحانه: **[يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ]**[2]. سواء تحرك خط الحضارة على محور القوة والتطور الصاعد المتوازن، أو على محور الضعف والتطور السافل أو المتراجع، فدائما يعيش الإنسان المكابدة الحضارية[3] ليحافظ على الحركة في خط الصعود المتوازن، وذلك يحتاج إلى وعي تسخيري شامل ومتجدد، ليستوعب تجدد الحاجات وتنوعها وتعقدها، ويواجه ضخامة وقساوة التحديات وتنوعها وتعقدها كذلك، وإلا تحرّك به الموقف الحضاري على خط التراجع والاختلال والضعف والأفول، وما يستتبع ذلك من ألوان المكابدات المنهكة بل والمهلكة في كثير من الأحيان[4]، بحكم منطق التدافع

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة البلد: 4.
(2)**القرآن الكريم**، سورة الانشقاق: 6.
(3) النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، 525/4.
(4) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 21/19.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وضروراته([1])، الذي كثيراً ما يتجاوز نطاق المدافعة كما يطرحها الإسلام([2])، إلى مراحل الصراع، كما تطرحه جلّ الفلسفات والحضارات المادية الاستكبارية، وتمارسه في أرض الواقع([3])، بكل تداعياته الخطيرة، كما سنرى ذلك في مباحث لاحقة في هذا الفصل وبقية فصول الدراسة.

فالحركة التاريخية أو الحضارية في امتداداتها وتراجعاتها، وقوتها وضعفها، مرتبطة باستمرار بالوعي التسخيري المؤطّر بالوعي العقدي أو الكوني المتوازن، أي بمقدار ونوعية استثمار الإنسان لسنن التسخير التي تشكل عمق وجوهر " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " العظيمة، لتجسيد مفاهيم الوعي العقدي في نموذج اجتماعي وحضاري متكامل، كما سنرى لاحقا.

ومن هنا فليس غريبا أن يشكّل تأسيس " **الوعي التّسخيري السنني** " الكلية المحورية الثانية في الآفاق الرسالية الكبرى للدعوة الإسلامية، بعد كليّة الوعي العقدي أو الكوني، وهو ما سيتمحور حوله الفصل الثاني من الدراسة، من خلال محاولة تحديد المفهوم، وإبراز الأهمية، وبيان خصائص ومقومات السنن التسخيرية، وتحديد المنطلقات الكليّة الناظمة للصيرورة الاستخلافية، والكلّيات المفتاحية الناظمة كذلك للاقتدار التسخيري، الفاعل في ذلك، أي في الصيرورة الاستخلافية البشرية على مدار الزمن.

مفاهيم مفتاحية:

هناك ثلاثة مفاهيم تعتبر مفاتيح أساسية في موضوع هذا الفصل خاصة، وفي موضوع الدراسة كلها بصفة عامة، سنحاول ضبط معناها ومحتواها المعرفي الذي نستخدمها من خلاله في بناء الموضوع.

مفهوم سنن التسخير:

السنّة في اللغة: تعني السيرة والطريقة[4]، والعادة[5] أو المثال المتبّع[6]. كما تتضمّن تبعاً لذلك معاني التعبيد، والصقالة، والتمهيد، والإبانة، والتحسين، والتهذيب، والحكمة، والطبيعة، والنظام، والقانون، القاعدة الثابتة...[7]، وهي كلها معاني تؤكّد مفهوم النسق أو القانون المنتظم[8]، القائم على الثبات والاطراد والانتظام. وهو المعنى الذي نقصده هنا في هذه الدراسة.

فالسنة هي النسقية النظامية أو القانونية* الذاتية الثابتة، التي تنظم وجود أية مفردة كونية،

([1]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 410/2.

([2]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2425/4.

([3]) تعد دراسة توينبي المعنونة: بـ: **دراسة في التاريخ**، وكذلك: **قصة الحضارة** لديورنت، من الأعمال العلمية الهامة التي يمكن للمرء أن يطلع من خلالها على منطق الصراع الذي حكم الحضارات المادية في علاقتها بالإنسان والطبيعة عامة.

(4) ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (دار صادر، بيروت، د.ت)،89/17؛ بن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، 409/2.

(5) ابن تيمية ، **مجموع الفتاوى**، 69/13.

(6) الرازي، **التفسير الكبير**، 11/9.

(7) الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص429؛ أنيس ابراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، (القاهرة، ط2، د.ت)،455/1.

(8) ابن منظور، **لسان العرب**، 349/13.

* القانون هنا بمعنى الناموس أو الفطرة التي فطر عليها أي مخلوق كوني.

وتمكنها من أداء وظيفتها الذاتية والخارجية أو التكاملية، باعتبارها جزءاً من كل كوني مركب، يؤثر في غيره ويتأثر به. وهذا هو المعنى الكلي الذي ترد به السنة في المنطق القرآني بصفة عامة . فسنن الله هي قوانينه الفطرية التكوينية التي تنظم وجود وذاتيات الأشياء والمكونات الكونية عامة، سواء انتمت هذه المكونات لعوالم الأفاق، أو عوالم الأنفس، أو عوالم الهداية، أو عوالم التأييد، كما سيرد تفصيل القول فيها لاحقا.

التسخير في اللغة: يعني القهر، والتذليل، والطاعة، والانقياد، والتهيئة، والتمهيد، والتطويع، والتيسير، والتمكين[1]. فالمسخَّر هو المقيَّض والمهيَّأ، والمذلّل، والميسَّر للاستعمال والانتفاع به[2]. وكل ما ذلَّ وانقاد وتهيأ لك على ما تريد فهو مسخَّر لك... وهي كلها معاني تؤكد كذلك تطويع مفردات الكون ومكوناته، وتهيئتها للاستخدام والانتفاع من قبل الإنسان، وهو المعنى الذي نقصده في هذه الدراسة كذلك.

مفهوم سنن التسخير: وعلى هذا الأساس فإن مفهوم سنن التسخير هنا يعني: **هذه الأنساق النظامية المركبة الثابتة، المودعة في مفردات الكون، ليؤدي كل منها وظائفه الداخلية والخارجية بانتظام، في الموكب أو النسيج الكوني الكبير بصفة عامة، ويسهّل على الإنسان بصفة خاصة استثمار ميزانيته التسخيرية في إنجاز مهمته الاستخلافية، بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد** .

فالله سبحانه وتعالى، هيَّأ مفردات الكون، ذات العلاقة الوظيفية المباشرة أو غير المباشر، بخلافة الإنسان في الأرض، بما أودعه فيها من أنظمة وفطَر أو جِبِلات سننية ثابتة([3])، بحيث يسهل عليه معرفتها، والتحكم في استثمارها بفعالية، لتحقيق عمارة الأرض، والاستمتاع بنعمها المتنوعة، في إطار **منظومة العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، التي تشكل الركائز والمقاصد الكبرى للخلافة البشرية في الأرض.

مفهوم ميزانية التسخير:

الفعل: وزن يزن وزناً وزنةً، يتضمّن معاني التقدير، والحرص، والحرز، والتمييز، والترجيح، والمقارنة، والتوطين[4]... وهي كلها معاني تؤسّس لمعنى الميزانية، المراد هنا في هذه الدراسة. باعتبار وضع الميزانية يقتضي تقديرا وموازنة دقيقة بين الأهداف المرسومة، والحاجات المطلوبة، والتحديات أو العوائق القائمة أو المتوقعة، والإمكانات المتاحة أو المتوقعة.

وفي الثقافة السياسية والاقتصادية الحديثة، تعرف الميزانية بأنها جملة المصادر والموارد المخصصة لإنجاز خطة تنموية شاملة أو جزئية محددة. وعادة ما تبنى هذه الميزانية على تقديرات مدققة لمختلف الاحتياجات والمتطلبات التي يستدعيها نجاح الخطة([5]).

وإذا كان هذا هو مفهوم الميزانية في أبعاده القانونية والوظيفية في الخبرة البشرية بصفة عامة، فإن الميزانية التي تتحدث عنها هذه الدراسة، هي **ميزانية تسخير كونية**، تخص تقدير احتياجات ومتطلبات خلافة الإنسان في الأرض، من بداية صدور القرار الإلهي بجعل الإنسان خليفة في

---

(1) ابن منظور، **المرجع نفسه**، 353/4.
(2) الراغب، **المرجع نفسه**، ص402، أنيس ابراهيم، **المعجم الوسيط**، 421/1.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 90/21.
(4) أنيس إبراهيم، **المعجم الوسيط**، 1029/2.
([5]) كيت كينان، **التخطيط الإداري**، (الدار الغربية للعلوم، بيروت- لبنان، 1995)، ص7،10.

الأرض، إلى أن ينتهي أمد هذه الخلافة بقيام الساعة، وانقلاب النظام الكوني.

فالمقصود إذن بميزانية التسخير البشرية الكونية، هو ما قدره ورصده الله تعالى للإنسان من إمكانات تسخيرية كافية لإنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض؛ بكفاءة وفعالية واقتدار. بناء على علمه سبحانه وتعالى المحيط بحياة الإنسان، ومعرفته الدقيقة الشاملة باحتياجات خلافته في الأرض، كما نلمس ذلك في حديث الخلق ومراحله، الذي جاء فيه: (**... ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم يُنفخ فيه الروح...**)[(1)]. وهو ما جاء نصاً كذلك في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:[**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**][(2)]، وقوله سبحانه:[**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**][(3)]، أي أعطاه كل ما تستحقه مهمته من شروط ولوازم الإنجاز[(4)]؛ المعرفية والروحية والمادي* ' وجعله مسئولا عن ذلك على مستوى التسخير ونتائجه بعد ذلك.

وفي شمولية وتنوّع وضخامة هذه الميزانية التسخيرية الكونية، التي قوامها ما في السماوات والأرض من طاقات ومذخورات، يقول تعالى:[**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**]([5]). ويقول كذلك مشيراً إلى بعض فصول ومصادر هذه الميزانية: [**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**]([6]).

وفي أية أخرى ذات دلالات عميقة في هذا المجال، يذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الميزانية التسخيرية الكونية، التي رصدت عن علم محيط ودقيق بالكائنات الكونية كلها، تغطي الاحتياجات المتنوعة والمتجددة لكل هذه الكائنات، بما يسمح لها بأن تؤدي دورها الوظيفي في الكون بشكل مضمون:[**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**]([7]).

يقول سيد قطب معلقاً على هذه الآية: " هذه الدواب وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة. ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة، وتكمن في باطنها، وتخفى في دروبها ومساربها. ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء. إلا وعند الله علمها. وعليه رزقها، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن. من أين تجيء وأين

---

(1) أخرجه البخاري في **صحيحه،** في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (**فتح الباري،** 6 /350).
(2) **القرآن الكريم،** سورة الأعلى: 2–3.
(3)**القرآن الكريم،** سورة طه: 49.
(4) الطبري، **روح البيان،** 172/9؛ ابن عطية، **المحرر الوجيز،** 36/10؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن،** 19/20.
* يلحظ هنا كيف غيَّب التفسير التجزيئي المعاني الكلّية المتضمنة في الكلمات المفتاحية في الآيتين: سوّى، وقدّر، وأعطى كل شيء، وهدى، وأغرقها في المعاني الجزئية المفردة، التي لا معنى لها بمعزل عن المعاني الكلّية كمعنى الميزانية التسخيرية، التي يُعد ما ذكروه عناصر ومفردات فيها فقط.
([5]) **القرآن الكريم،** سورة الجاثية:13.
([6]) **القرآن الكريم،** سورة إبراهيم:32–33– 34.
([7]) **القرآن الكريم،** سورة هود: 6.

تذهب. وكل منها. وكل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق.

... ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصوره الخيال. وهذه درجة أخرى، الخيال البشري عنها أعجز إلا بإلهام من الله. وقد أوجب الله سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدبّ على هذه الأرض. فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره. ساذجاً خامة، أو منتجاً بالزرع، أو مصنوعاً، أو مركباً. إلى أخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده. حتى إن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً ممثلاً كالبعوضة"([1])!!

فالميزانية التسخيرية الكونية، التي أعدّها الله سبحانه للكائنات الكونية، ومنها الإنسان، محسوبة ومقدرة ومرصودة بدقة وإحكام وتناسب، لتستوعب وتلبي كل متطلبات خلافة الإنسان في الأرض خاصة، وحاجات سائر الكائنات الكونية الأخرى عامة، بحيث يتم حفظ التوازن الكوني بين كل أحيائه([2])، ولا يختل نظام أي حي من أحياء الكون، كما نلحظ ذلك بكل وضوح في قوله تعالى**[وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ]**([3]).

مفهوم الوعي التسخيري:

لفظة: وَعَى، يعي وعياً... تتضمن معاني: الحفظ، والفهم، والفقه، والكيس، والاستيعاب، والاستيفاء، والإحاطة بالشيء[(4)]، والاشتداد، والتجمع، والقوة، والتماسك[(5)]، وأخذ الشيء كله، وحسن التقدير، وسلامة الإدراك[(6)]... وهي كلها معاني تؤسّس للمعنى الذي نعنيه هنا بالوعي، وهو: القدرة على النفاذ إلى فهم العلل الفاعلة في الظواهر الكونية، وإدراك نسقيتها الذاتية التي تؤدي عبرها وظيفتها الداخلية والخارجية أو التكاملية مع غيرها من الظواهر الكونية* الأخرى، والمعاني الروحية أو الغائيات النهائية المطلقة الكامنة وراء ذلك، والمستقطبة له[(7)]، والتي يمنحها الوعي العقدي أو الكوني الذي سبق الحديث عنه في الفصل السابق.

وعلى هذا الأساس فإن المقصود بالوعي التسخيري هنا، هو تلك القدرة أو الكفاءة المنهجية

([1]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1856/4.

([2]) محمد حسين فضل الله، **من وحي القرآن**، 54.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة الحجر: 19- 21 -22.

(4) ابن منظور، **لسان العرب**، 596/10.

(5) الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص877.

(6) ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 45/2.

* الكونية هنا لا تعني المادية كما هو شائع، بل عامة مفردات الوجود الكوني كله بما فيها الإنسان كمفردة وجودية محورية أو قطبية.

(7) انظر المفهوم عند المدارس الفلسفية والاجتماعية والنفسية المختلفة في: **معجم العلوم الاجتماعية**، إشراف إبراهيم متلوسي، ص644؛ و**المعجم الفلسفي** لإبراهيم عبد المنعم الحنفي، ص382؛ و**الموسوعة الفلسفية** لروزنتال ويودين، ص 586.

العلمية العالية، المساعدة على فهم القوانين الجزئية والكلية التكوينية الناظمة لحركة المفردات الكونية، في عوالمها وساحاتها المختلفة، وفعالية استثمار هذه القوانين في تجديد وتفعيل وتطوير ووقاية الحركة الاستخلافية، وضمان اطراد حيويتها وتوازنها وانضباطها الغائي باستمرار، الذي يجب أن يظل مشدوداً إلى عبودية الله تعالى، باعتبارها عمق الوعي ومصبه ونهايته، كما نلمس ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال:[**سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ...**](1)، أي يصلوا عبر ما في سنن التسخير عامة؛ من المعاني الروحية أو الغائية، إلى استيقان الحق والإذعان للحقيقة التي يمثلها وحي الله، وسائر سننه الكونية التي تمثل فعله، والتي تقود الإنسان إلى معرفة الله وعبادته وحده دون سواه([2]).

والمعرفة السننية الوظيفية التجزيئية، التي لا تؤدي إلى معرفة الله، وإلى توطيد الصلة الروحية العميقة الحية به؛ عبر توحيده في ربوبيته وألوهيته وعبوديته ومنظومة أسمائه وصفاته الحسنى، وصبِّ ذلك كله، في توجيه حركة الخلافة البشرية في الأرض، نحو غاياتها المطلوبة، لا تعتبر معرفة حقيقية، بالرغم من كونها صحيحة في ذاتها، بالنسبة لتلك الجزئيات العلمية، لأنها معرفة منقوصة ومنحبسة، لا تتجه إلى غايات العلم والمعرفة الحقيقية، ولا تصل إلى المطلوب الغائي الأخلاقي الكامن فيها، والمقصود منها، والواقي لها من الغرور والاستكبار، والاستخدام المضر بالإنسان والطبيعة والكون، وهو ما يشير إليه القرآن في مثل قوله تعالى[**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**]([3]).

ومن أجود ما علّق به النسفي على ظاهرة انحباس المعرفة في ظواهر الأمور، وعدم انطلاقها إلى ما وراء ذلك من المقاصد والغايات والحكم، قوله في هذا الوصف القرآني للكافرين: " فيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا" وقولــه: [..**ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا..**]، يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهّـال مـن التمتـع بزخارفها، وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزوّد منها إليها بالطاعة وبالأعمال الصالحة "([4]).

فالمعرفة العلمية الحقيقية، هي التي تدفع بوعي الإنسان إلى قمة نضوجه الروحي، ورقيه الأخلاقي؛ من خلال تجاوز ما في الظواهر المعرفية – المسيطَر على قوانينها الوظيفية – من دقة وإتقان وإبداع وجمالية وإعجاز، وفعالية وظيفية أو تسخيرية، إلى معرفة صانع ومبدع هذه الظواهر والقوانين، وتوطيد الصلة به، ومعرفة غاياته من الوجود، ومراداته من الخلق، كما يؤكد ذلك القرآن في حديثه عن المعرفة العلمية الحقيقية التي تهدي صاحبها إلى نهايات المعرفة العلمية، وبدايات المعرفة العبادية أو الوعي العبادي([5])، في مثل قوله تعالى[**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**]([6]).

وعلى هذا الأساس فإن الوعي التسخيري الذي نقصده في هذه الدراسة، لا يقتصر على القدرة أو الكفاءة الفنية العالية، في كشف سنن التسخير والتحكم الوظيفي فيها فحسب، بل يمتد ليدرك الغايات

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة فصلت: 52.

([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 15/ 233.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة الروم: 7.

([4]) النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، 386/3.

([5]) الرازي، **التفسير الكبير** 20/26.

([6]) **القرآن الكريم**، سورة فاطر : 28.

والمقاصد الروحية والأخلاقية التي وجدت هذه السنن لخدمتها. وهذا الوعي التسخيري السنني الذي يستوعب البعد الفني الوظيفي للسنة من جهة، والبعد الغائي المقاصدي الروحي والأخلاقي لها كذلك، هو رأسمال وجوهر وروح " **الميزانية التسخيرية الكونية** " **الكبرى، والقوة الفعلية الضاربة في هذه الميزانية**، التي وضعت في خدمة الخلافة البشرية في الأرض،وبدون هذا الوعي السنني التكاملي، في النظرة إلى مكونات "**ميزانية التسخير الكونية** "، يظل استثمارها بالشكل **الأصيل والفعال والتكاملي والآمن والمستمر**، أمرا غير ممكن، كما سيأتي مزيد بيان لذلك في هذا الفصل والفصل الذي يليه.

أهمية الوعي التسخيري السنني وضرورته:

وكما سبقت الإشارة فإن الوعي بهذا المعنى هو الحاجة والضرورة البشرية العليا بعد الوعي العقدي أو الكوني، لارتباط إنجاز المهمة الوجودية للإنسان في الأرض، ومن ثم تأمين المآلات المصيرية له في بقية مراحل دورته الوجودية الكبرى، بهذا الوعي التسخيري الشمولي التكاملي المتوازن.

وتتأسس هذه الحاجة والضرورة إلى الوعي التسخيري على كون الوجود العالمي تنتظمه سنن دقيقة ومطّردة في الخلق كما أسلفنا، لا تعرف التبدل ولا التوقف، بل ماضية في أداء وظائفها الوجودية بانتظام واطراد، على ضوء الأقدار المخصوصة التي أودعها الله تعالى في كل سنّة كونية أو وجودية، كما قال سبحانه:**[إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ]**(1)، وقال كذلك:**[قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا]**(2).

فخلقُ الله تنتظمه مقادير وأقدار وتقديرات دقيقة محددة ومضبوطة، لا تنفكُّ عن الشيء المقدَّر(3)، لأنها داخلة في طبيعة وخصوصيات وهوية ذلك الشيء، بها يتميز عن غيره، وعَبْرَها يؤدي وظائفه الذاتية والخارجية أو التكاملية باطراد. وهو ما يشير إليه قوله تعالى:**[الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ]**(4). فالنظام، والتناسق، والدقة، والثبات، والتوازن، والاطراد، والنفاذ(5)... سمة وطبع وفطرة سنن الله في خلقه.

ومن رحمة الله بالخلق عامة، وبالبشر خاصة، أن حكم هذا الكون كله بنظام سنني محكم، يمكّن الكائنات الكونية كلها، بما فيها الإنسان، من تلبية حاجاتها الذاتية، والمحافظة على وجودها واستمراريته، وأداء مهمتها في المجال الحيوي المباشر لها، وفي بقية المجالات الحيوية الأخرى ذات الصلة بها. ولولا وجود هذا الانتظام السنني المطرد، لما استطاعت الكائنات أن تحافظ على وجودها، ولا أن تؤدي وظائفها الكونية، ولاختل نظام الكون! فأنظمة السنن التي قدرها الله الكائنات الكونية كلها، هي التي تحفظ توازن الكون والحياة. لذلك فإنه عندما يتم تجاوز أي نظام سنني في أي كائن من الكائنات الكونية، يحدث الاختلال الذاتي فيه وفي وظائفه الحيوية، ويمتد ذلك ليؤثر سلبا على الكائنات ذات العلاقة التفاعلية به.

فثبات السنن الإلهية واطرادها، وقابليتها الفطرية الجبلية للاستثمار، هو الذي يمكن الإنسان من أداء مهمته في الحياة، وهذا هو المعنى الأساسي للتسخير والمقصد منه، كما سبق أن أوضحنا ذلك، ولو كان لهذه السنن تكوين مزاجي اختياري متغير، لما استقام شيء في الكون أو في حياة الإنسان !

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة القمر:49.

(2)**القرآن الكريم**، سورة الطلاق: 3.

(3) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 173/14؛ الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص658.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الملك:3- 4.

(5) الزمخشري، **الكشاف**، 576/4؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 238/16.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن هذا المنطلق فإن سنن الله ماضية في الخلق وجارية عليهم، دون اعتبار لجهل أو خصوصية ما* ؛ لأن البشر أمام سنن الله سواء، فمن وعاها وأحسن استثمارها أفضت به إلى نتائجها المقدَّرة؛ لأنها مسخَّرة ومطوَّعة لخدمة الإنسان، ومن ذهل عنها وصادمها وغالبها، صدمته وغلبته مهما كان وضعه ومقامه [1] ، كما جرى للمسلمين بأُحُدٍ وحنين. وقد أصّل القرآن هذا الأمر في آيات كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى[...**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا**]. [2] . فالسنن نافذة، والأقدار المودعة فيها ماضية في الخلق [3] ؛ تربية وتأديبا وتمتيعا، بلا توان أو تأخر أو محاباة([4]).

ومن هنا فإن الوعي بسنن التسخير، يندرج في السياق الكلّي العام لعملية تأهيل الإنسان لأداء مهمته الوجودية بكفاءة واقتدار. إذ أنه من المنطقي أن يؤهَّل الإنسان لهذه المهمة الاستخلافية المتميزة، وهو ما تم له فعلا؛ عبر الطبيعة المتميزة التي خلق بها، كما مرّ الحديث عن ذلك في الفصل الثاني . وعبر التأهيل التسخيري الذي تضمنته " **ميزانية تسخير كونية** " عظيمة منحت له . وعبر التأهيل الرسالي بالوحي المؤسِّس للوعي الكوني لدى الإنسان، والمبصِّر له بدورته الوجودية الكبرى. ثم عبر الوعي التسخيري السنني المتكامل* ، الذي به يستثمر هذه الميزانية التسخيرية، بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد [5] ، وينجز مهمته الوجودية باقتدار. وهو ما استوعبه قوله تعالى: [**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**] [6] . قال البقاعي: " أي ما هو عليه مما هو به أليق، في المنافع المنوطة به، والآثار التي تتأثر عنه، من الصورة، والشكل، والمقدار، والطبع... وغير ذلك مما يفوت الحصر، ويجل عن الوصف " [7] ؛ لأنه يستوعب كل أنواع ومستويات التأهيل السابقة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى شمل واستوعب رعاية الإنسان بهذا التأهيل المتكامل، فإن الذي يبقى فقط هو دور الإنسان في استثمار هذا التأهيل، ووضعه في خدمة وظيفته الوجودية، وهو ما يحتاج منه إلى وعي تسخيري متجدد وفعّال وأصيل ومطرد. وقد سبق أن لاحظنا أن اكتساب هذا الوعي التسخيري، شكّل المشكلة المحورية الثانية* في الاهتمام البشري بعد مشكلة الوعي الكوني أو العقدي؛ إذ وجد نفسه باستمرار أمام السؤال العملي الجدي: كيف أنجز مهمتي ؟ وبماذا أنجزها ؟ كيف وبما ذا أحقق أهدافي في الحياة ؟ وكيف أدفع الأخطار عن نفسي ؟ وكيف أحافظ على منجزات عملي

---

* سيرد لاحقا الحديث عن موقع المعجزات والكرامات من منظومات سنن التسخير.

(1) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج141/4.

(2) **القرآن الكريم**، سورة فاطر: 43، 44.

(3) المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص84.

(4) سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، ص353.

** سيرد لاحقا الحديث عن منظومات التسخير الأربعة، المنتظمة للوعي التسخيري الشامل.

(5) إبراهيم المطرودي، **الإنسان وجوده، خلافته في الأرض**، ص366، 369.

(6)**القرآن الكريم**، سورة طه: 50.

(7) البقاعي، **نظم الدرر**، 194/12.

؟ واستمر هذا التحدي الحافز، يدفع البشرية إلى بناء وعيها التسخيري، عبر صيرورة حركة **التدافع والتداول** الاستخلافي أو الحضاري، وعبر عملية التجديد التي كانت تحكم ذلك كله وتشرطه. ولكن لوحظ عبر التاريخ أن الوعي التسخيري كثيراً جداً ما شابَهُ النقصُ والقصور، سواء على مستوى مجالات وحجم الاستثمار، أو على مستوى نوعية وكيفية الاستثمار، وهو ما ينعكس سلبا على حركة الاستخلاف، ويحرمها من فعاليات كثيرة، متضمَّنة في ميزانية الإنسان التسخيرية ويسمها بالاهتلاك وعدم التوازن وعدم التكامل، وما يتركه ذلك كله من آثار سيئة على عملية الاستمتاع بالحياة، واستثمارها في تهيئة مراحلها التالية لعالم الشهادة.

وهذا الوضع بالضبط هو الذي كانت حركة الوحي الإلهي تتداركه باستمرار، لتأصيل الوعي التسخيري وتأطيره بالوعي الكوني أو العقدي، الذي يحفظ توازنه، ويضمن شموليته لكل مكوّنات "**الميزانية التسخيرية الكونية الكبرى** " وليس جوانب منها فقط. وقد بلغت العناية بتأسيس الوعي التسخيري مداها في القرآن والسنّة والسيرة النبوية، وشكّلت فعلا محور الاهتمام الثاني للوحي بعد الوعي الكوني أو العقدي، كما يتجلى ذلك من خلال:

الموقف الجذري للوحي من الشرك: باعتباره حركة هدر لأجزاء واسعة من " **ميزانية التسخير الكونية الكبرى** "، عن طريق إخراجها من دائرة المسخّرات والمستثمرات الخادمة للإنسان، وإدخالها في دائرة المقدس المخدوم، وإحراق كميات هائلة من الطاقة التسخيرية في هذه الخدمة القربانية المزرية بالكرامة الإنسانية . فعمل الوحي على إزالة القداسة عن هذه الأجزاء واستعادتها إلى مواقعها في الأصلية " **ميزانية التسخير الكونية** " ، حتى يستثمرها الإنسان وينتفع بها، بعد أن ظل محروما منها أزمانا طويلة، بل وخادما لها. قال تعالى:[**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**][1]، وهو كل ما عبد من دون الله تعالى؛ من شيء أو شخص أو فكرة[2].

ومن مواجهته الحاسمة كذلك للفكر الخرافي والمعرفة اللاّعلمية: وما ترتكز عليه من مناهج واهية، يؤطرها الجهل، والذاتية والهوى، والتقليد البليد، والسطحية، والجزئية، والذهول عن القانونية أو السببية الكامنة وراء الظواهر... فقد رفض كل ذلك، وأسس المعرفة السننية، وأصّل الوعي البرهاني التحليلي التفسيري، المرتكز على المنهج العلمي الصارم[3]، كما يؤكّد ذلك قوله تعالى:[**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**][4].

والآية تؤصّل العلم كمنطلق وحيد للعمل([5])، وأكدت دور المنهج في ذلك، وأصّلت المسؤولية الأخلاقية في ذلك كله[6]؛ سواء في مرحلة ما قبل العلم، أو في مرحلة ما بعد العلم، وهو أمر في غاية الأهمية والجذرية، بالنسبة لعملية تأسيس الوعي التسخيري، الذي يرتكز فعلا على المعرفة، والمنهج،

---

* بل وكثيراً ما شكّل الاهتمام المحوري الأول للبشر، كما هو الحال بالنسبة للحضارات المادية جميعا، قديماً وحديثاً. ينظر: عبد الرحمن بدوي، **شبينجلر**، (وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، 1403هـ-1982م)، ص 287.

(1) **القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

(2) الشوكاني، **فتح القدير**، 201/3؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 101/10.

(3) الجصاص أبو بكر بن علي الرازي، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد الصالح قمحاوي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ-1985م)، 29/5.

(4) **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 36.

([5]) ابن باديس، **مجالس التذكير**، ص 102.

(6) ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله، **أحكام القرآن**، 200/3، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 100/15.

والغائية أو الهدفية الأخلاقية، هذه الثلاثية المتلاحمة التي لا ينفكّ بعضها عن بعض في الرؤية الإسلامية للوعي التسخيري واستخداماته في ترقية الوعي الاستخلافي العمراني الحضاري بعد ذلك.

ومن منطلق اعتبار المعرفة العلمية أساس حركة الاستخلاف في الأرض وشرطها الدائم، تحرك الوحي الإلهي لتأسيس الوعي بسنن التسخير، وتعميق وعي الإنسان بالقوانين المنظمة لحركة الحياة، وكيف أن الوعي بها هو مفتاح التسخير وشرط الاستخلاف ومقدمته الضرورية. وتعدى اهتمامه المركّز، مجال سنن الآفاق الذي ظل يستقطب جهود البشر وحده[1]، إلى مجالات مهملة ومنسية، رغم وجودها منذ الخليقة في " **الميزانية التسخيرية الكونية الكبرى** "، وهي مجالات **سنن الأنفس، وسنن الهداية، وسنن التأييد**[2]. فأفاض في الحديث عنها والدعوة إلى الالتفات إليها، وضرورة استثمارها، لعمق صلتها بحركة الاستخلاف، واعتبر التاريخ هو مجال تأسيس الوعي بهذه السنن[3]، فكثّف الدعوة إلى الدارسة المعرفية السننية للتجارب البشرية*، واستخلاص قوانين الوعي التسخيري والاستخلافي منها، وعدّ ذلك من أحسن ما يجب أن يعتني به بعد الكتاب والسنّة[4].

ويكفي هنا ذكر قوله تعالى:[**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ**][5]، وقوله سبحانه: [**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**][6]، أي نظيرها؛ لأن السنّة ثابتة مطّردة في الخلق، تؤتي نتائجها على ضوء طبيعة التعرض لها ونوعية العلاقة بها.

وبهذه النظرة لحركة التسخير، وارتباطها الدائم بعلل وسنن فاعلة فيها، نقل الإسلام البشرية إلى مرحلة متقدمة جداً من النضج والوعي، وكشف لها عن مكامن الاقتدار المودع فيها، والذي كثيراً ما حجبه عنها قصور المنهج، وقصور الرؤية الكونية أو العقدية، وبذلك كله أبان أهمية الوعي التسخيري، وأكّد على ضرورته الحيوية القصوى في العملية الاستخلافية.

---

(1) الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (عالم الكتب، بيروت، 1408هـ-1988م)، 178/4.
(2) يأتي الحديث عنها في فقرات لاحقة من هذا الفصل.
(3) عماد الدين خليل، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، (مطابع الدوحة الحديثة، قطر (كتاب الأمة)، 1983م)، ص51.
* مقدمة ابن خلدون محاولة مبكرة في القراءة المعرفية لحركة التاريخ، لأنها تجاوزت المرحلة الوصفية إلى مرحلة تحليل الفعل التاريخي وتفسيره، واكتشاف قانون صيرورته التركيبية، وإن لم يوفق ابن خلدون في تطبيق منهج المقدمة على استقراء تاريخ الأمة والإنسانية بعد ذلك في تاريخه بشكل مرضي.
(4) السخّاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، (مكتبة المثنى، بغداد، 1963)، ص47.
(5)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 137.
(6)**القرآن الكريم**، سورة محمد: 10.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ضوابط الوعي التسخيـري السنني ومقوماته:

وتتأكد لنا عناية الإسلام بالوعي التسخيري أكثر، من خلال تجاوزه مرحلة التأكيد على خضوع الحياة البشرية، بل والوجود الكوني كله، لسنن فاعلة ماضية في الخلق[1]، إلى مرحلة أكثر أهمية وحيوية، وهي بناء وعي الإنسان بخصائص هذه السنن، كمستوى آخر أعمق وأنضج في هذا الوعي، حتى ينضبط بها وعيه وموقفه العملي أو التسخيري، ويتقوّم به باستمرار. ذلك لأن عدم الوعي بهذه الخصائص يؤثر سلبا على الموقف التسخيري، ويطبعه بالجزئية، والاضطراب، والتناقض وعدم التكامل، ومن ثم بالسلبية واللافعالية. بخلاف الوعي بهذه الخصائص، فإنه يطبع الموقف التسخيري، أو العلاقة الوظيفية بالسنن، بشمولية الاستثمار، وتكامليته وتوازنه، ومن ثَمَّ يحقق أصالته وفعاليته واطّراد حيويته.

والنظرة الكلّية المتكاملة والمعمقة لعناية القرآن والسنّة بقضية الوعي التسخيري، تفضي بنا إلى أن السنن التسخيرية، تتميز بمجموعات من الخصائص الذاتية، ينضبط بها وجودها وكيانها ودورها باستمرار، تلقي بظلالها على الوعي التسخيري وتؤطره؛ بما تنمّيه في الإنسان من الحس القانوني أو السنني[2]، الذي يحكم تفكيره وسلوكه وموقفه من الكون والحياة بعد ذلك.

فإدراك هذه الخصائص الضابطة والمقوِّمة لهذه السنن النافذة من جهة، والمؤطّرة للوعي التسخيري البشري من جهة أخرى، له أهمية حيوية قصوى في تحقيق القراءة المعرفية النافذة إلى عمق الظواهر، ووضع اليد على السنن الفاعلة في هذه الظواهر[3]، ومن ثم امتلاك القدرة التسخيرية على تفعيل حركة الاستخلاف وتأصيلها وتجديد حيويتها باستمرار، وهو ما تنشده الجهود البشرية على الدوام، وتنشدّ إليه بقوة، باعتبار الوعي التسخيري الأداة المباشرة الضرورية لمواجهة تحديات حركة **الإبتلاء والتدافع والتداول والتجديد** التي تهيمن على الصيرورات التاريخية والحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

ولهذه الأهمية الحيوية القصوى للوعي بخصائص السنن التسخيرية، فقد عرضها الوحي بصورة مباشرة واضحة لا تحتمل اللبس والغموض، وأكد عليها بشكل مركّز ومكثّف، في إطار منهجه المعرفي والتربوي المحكم، الذي يقرِّر قيّمه وقضاياهُ ويرسّخها، عبر سنّة أو قانون التكرار المتنوع والمتجدد[4]، كما سنرى ذلك لاحقا بإذن الله.

وسوف لن نحرص هنا على الاستقصاء المستوعب لكل هذه الخصائص، لصعوبة ذلك، ولكننا نركز على ما نراه جوهريا في هذه الخصائص، وأساسا كليا أو محوريا لها، من غير توسّع.

– **الثبات والاطراد:** أي أن السنن التسخيرية تتسم بالاستقرار والدوام والرسوخ وعدم التغير[5]، ومن ثم فهي مطّردة، أي تؤدي وظيفتها وتفعل فعلها بشكل دائم ومستمر، لا يتغير ولا يتخلف[6]. بحكم النظام الذاتي الثابت المودع فيها، والمهيمن على وجودها باستمرار .

---

(1) الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 62/1، المبارك، **الإسلام والفكر العلمي**، ص40.

(2) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دار الفكر، دمشق، ط5، د.ت)، ص18.

(3) طه جابر العلواني، في **مقدمة كتاب تجديد الفكر الإسلامي** لمحسن عبد الحميد، ص13، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، 1416هـ–1996م)، ص13.

(4) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله**، (دار القلم، دمشق، ط2، 1989م)، ص307، 314.

(5) ابن منظور، **لسان العرب**، 19/2.

(6) ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 553/2.

ولا يخفى أن هذا الثبات والاطراد شرط أساسي في السنّة أو القانون من جهة، وشرط أساسي في عملية التسخير أو الاستثمار له من جهة أخرى[1]، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إذ ما لا ثبات لـه في ذاته، لا اتّساق فيه، ومن ثم لا نظام له، وبالتالي لا يمكن اطّراده على نسق واحد، وهو ما يجعـل تسخيره متعذرا. وهذا يتعارض مع مفهوم السنّة التي تعني: " العادة التي تتضمن أن يعمل في الثـاني مثل ما فعل بنظيره الأول"[2]، أي أن نظاما ثابتا ومتسقا يطبع " **السنّة** "، ويهـيمن عليهـا، ويـضمن اطراد وحدة آثارها، حينما تستوفي شروط استثمارها بصورة دقيقة.

وهذا المعنى هو الذي جاءت نصوص ومواقف كثيرة في القرآن والسنّة والسيرة، ترسخ الوعي به، وتؤكّده بقوة، حتى ينشحذ وعي البشر في اتجاه الاستيقان بانتظام حركة الوجود، وهيمنة سنن ثابتة ومطّردة عليها، وتتعمق لديهم ضرورة الوعي بهذه السنن، والحاجة الملحة للتحكم فيهـا*، وخطـورة الذهول عنها، على حركة الاستخلاف في الأرض، وعلى بقية مراحـل الـدورة الوجوديـة الكبـرى للإنسان، بعد ذلك.

وفي هذا يقول الله تعالى ،في نص كلي تأسيسي محكم، منه تنبثق الرؤية السننية للظواهر الكونية كلها**[فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ...]**[3]. فكل شيء في الوجود مفطور ومطبوع على نظام ذاتي مخصوص[4]، ومجبول على سنّة أو قدر ذاتي دقيق ومنتظم، لا يقبل التغيير والتبديل أبدا. لأن في ذلك تغيير لطبيعته وفطرته وهويته الذاتية، وإخلال بنظامه الوجودي الذاتي، وإخراج له عن وظيفته، يؤدي إلى اضطراب في بنيته وفطرته التكوينية، تكون له عواقب خطيرة على حركة الاستخلاف، كما سيأتي الحديث عن ذلك في خاصيتي: **الجزائية النافذة، والتفاعلية التكاملية**، لما تحتاج إليه عملية التسخير من تفاعل تكاملي بين السنن[5]. وهو ما نبه إليه أحد كبار الفزيائيين بقوله: "إن الجسيمات المادية المستقلة، ليست إلا تجريدات من صنيعنا، أما خصائصها فلا يمكن تحديدها وملاحظتها إلا من خلال تفاعلها مع جمل أخرى"[6].

وقد أعطى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفطرة، بُعد الثبات والانتظام والاطراد، في السنن التسخيرية معناه الجبلي القدري الحتمي*، حينما قال: **(ما من مولود إلا يولد على الفطـرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسبون فيها من جدعاء)**[7]. فالمفردات الكونية كلها مطبوعة بأنظمة ذاتية تحكم وتدير وجودها، وتجعلهـا مهيئـة باسـتمرار

---

(1) محمد أحمد الغمراوي، **الإسلام في عصر العلم**، ص46، (دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1411هـ-1991م). ص16.

(2) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 69/13.

* التحكم هنا تحكم تسخيري، أو توظيفي استعمالي انتفاعي، لا تحكم تعطيلي أو تغييري تبديلي في طبائع ونظامات هذه السنن، أو تحكم إيجادي خلقي، فذلك من شأن الله وحده .

(3) **القرآن الكريم**، سورة الروم: 29.

(4) ابن منظور، **لسان العرب**، 56/5.

(5) الدهلوي، **حجة الله الدهلوي**، 64/1.

(6) نيلزبوهر، (نقلاً عن: فراس السواح، **دين الإنسان**، ص 352).

* القدر هنا بمعنى النظام الذي أودعه الله في مفردات الكون وقدره فيها بميزان دقيق، (المبارك، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، 84).

(7) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، (**شرح النووي**، 207/16).

للتسخير وفق تلك الأنظمة، حينما تتم المعرفة بها، والإحاطة بشروط وآليات عملها، ويحسن التحكم الاستثماري أو التسخيري لها.

ومن هذه الكلية المحورية الكبرى، انبثقت التوجيهات القرآنية والسنية لتأسيس الوعي بخاصية الثبات والاطراد في سنن التسخير، كما يدل على ذلك قوله تعالى**[فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا]** (1)، وقوله:**[سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا]**(2)، وقوله:**[سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا]**(3).

فالثبات والاطراد سمة تكوينية جبلية ذاتية*في سنن الله تعالى(4)، سواء تعلق الأمر **بسنن عالم الآفاق**، أو **عالم الأنفس**، أو **عالم الهداية**، أو **عالم التأييد**، على تفاوت في طبائع هذه السنن بين طبائع سنن الآفاق، وكل من طبائع سنن الأنفس، والهداية والتأييد؛ لأن لكل منها مجالا وعالما ونظاما وخصائص، وإن كان الكل يصب في النهاية في بناء الوعي التسخيري، وتفعيل حركة الاستخلاف البشري، وتجديدها وتأصيلها باستمرار، عبر خاصية التفاعلية التكاملية بين السنن، التي سيرد الحديث عنها.

وفي معنى هذا الثبات والاطراد السنني، يقول البيهقي وهو يتحدث عن أهمية الاعتبار بالخبرات البشرية السابقة، وبسنن الله الماضية في الأفراد والمجتمعات، بأنه: " لا توجد حادثة لم يحدث مثلها من قبل "(5) . أي ما يشابها من حيث السنن التي تنطبق عليها، ويمكن أن تنتج موقفا أو وضعا مشابها لها وإن لم يكن متطابقا معها تماما . وهو ما يؤكده ابن الأثير في حديثه عن أهمية الاعتبار بما في التاريخ البشري من سنن ماضية ومطردة: " إنه لا يحدث أمر إلا تقدم هو أو نظيره "(6).

وفي تتبع لطيف للفظ السنة في القرآن، وصل ابن تيمية إلى التأكيد على أن **الثبات والاطراد وسريان المفعول**، هو جوهر مفهوم السنة في القرآن، فقال: " لفظ السنة يدل على التماثل، فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدّل ولا يتحوّل، بل هو سبحانه لا يفوت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. وهذا القول أشبه بأقوال الجمهور القائلين بالحكمة في الخلق والأمر، وأنه سبحانه يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع...

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدّمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته، لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة فاطر: 43.

(2)**القرآن الكريم**، سورة الفتح: 23.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 62.

** لا تعني الذاتية هنا الاستقلال عن إرادة الله؛ لأنها سنن مخلوقة ومسخرة بإرادة الله، فليس لها أن تؤثر أولا تؤثر بمعزل عن إرادة الله تعالى التي أودعت فيها قوة ذاتية تؤدي بها وظيفتها التسخيرية بانتظام واطّراد.

(4) أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي، **البحر المحيط في التفسير**، طبعة زهير جعيد، (دار الفكر، بيروت، 1412هـ-1992م)، 484/8.

(5) السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، ص33.

(6) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 3/1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآن"([1]) . فالاعتبار بسنن الله إذن، والانتفاع بها في الحياة، هو نتيجة طبيعيــة لثباتهــا واطرادهــا، ولولا تلك الخاصية لانتفى الاعتبار والانتفاع .

– **العمومية والشمول:** أي أن السنن التسخيرية تتسم بخاصية الشمول لكل مفــردات الوجــود الكوني، فلا تشذ أية مفردة أو تنفكّ عن الفطرة والانتظام والثبات والاطراد، مما يجعل تأثير هذه السنن يعم ويغطي كل مجالات حركة الاستخلاف ومستوياتها، ويتحكم في مسيرتها، بحسب درجــة الــوعي التسخيري، واقترابه أو ابتعاده من واقع الفطر والجبلات المطبوعة في مفردات الكون وأنساقه السننية.

فليس هناك شيء في الكون خارج عن سلطة السنن الثابتة والمطّردة، ومن ثم فإن هذه السنن يسري تأثيرها على جميع الناس؛ أفرادًا وجماعات، ومجتمعات، وأمما، وحضارات... دون استثناء، أو تمييز، أو محاباة... في كل وقت، وفي كل مكان. فهي تؤتي مفعولها في كل من يتفاعل معها سلبا أو إيجابا. لأنها مسخرة للجميع دون تمييز، ومن ثم فإن تأثيرها يكون تبعا لذلك، لا أثر فيه للامتياز اللاموضوعي[2]، كما قال تعالى:[**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**][3]. فالسنن عطاء تسخيري مسترسل من الله للجميع[4]، وقدر منه ماضي على الجميع، فمن وافق منه شيئا مُكّن بحسبه، ومن صادم منه شيئا أديل عليه، وسحب منه هذا العطاء، وحرم منه بحسب ذلك([5]).

وقد مضت في سياق تأصيل خاصية الثبات والاطراد، نصوص عديدة تؤصل وتؤكد كذلك خاصية العمومية والشمول، كقوله تعالى:[**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ**][6]. وقوله سبحانه:[**سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا**][7]، فهي عامة النفاذ في حياة البشر[8]، في كل زمان ومكان وحال، لا يتخلف تأثيرها بأي حال من الأحوال، بل تفعل مفعولها في البشر بحسب نوعية العلاقة بها، وحجم التفاعل معها، وكيفية الاستثمار لها.

– **الموضوعية:** والخاصية الأساسية للسنة الإلهية، هي خاصية الموضوعية بكل ما تعنيه من حيادية وعدالة ووظيفية صارمة لا تداخلها عاطفة أو محاباة. والسر في ذلك أنها صادرة من غير البشر، أي من الله تعالى، فجاءت في تمام الموضوعية الخالية من عوارض الغرضية والهوى والمصلحية الذاتية التي تسم الفكر البشري عادة، وتهيمن عليه مهما اجتهد في التجرد والحيادية وتحري النزاهة والعدالة، كما تؤكد ذلك الآية السابقة على سبيل المثال، وآيات كثيرة غيرها، نذكر منها قوله تعالى، تعليقا على موقف نوح من إشراف ابنه على الهلاك في الطوفان بسبب كفره، فتحركت عاطفة الأبوة في نوح دون شعور منه: [**وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ**

([1]) ابن تيمية، **جامع الرسائل والمسائل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، (مطبعة المدني، القاهرة، د.ت)، 55/1.

(2) توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، 369/2.

(3) **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 20.

(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 62/15.

([5]) ابن باديس، **مجالس التذكير**، ص59.

(6)**القرآن الكريم**، سورة فاطر: 43.

(7)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 62.

(8)الرازي، **التفسير الكبير**، 32/26.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ][1]. لأن سنّة الله قضت أن العبرة في المحبة والولاء والنصرة بقرابة الدين وموافقة السنن، لا بقرابة النسب ومصادمة سنن الله في الاستخلاف[2]. وهذا هو تمام الموضوعية والعدالة والمصلحة في الوقت نفسه.

وهو ما نجده كذلك في قوله تعالى، تعقيبا على رغبة إبراهيم عليه السلام في شمول شرف الإمامة لذريته:[**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**][3] ؛ لأن الظالمين خالفوا سنن الله وصادموها، فكان لا بد من حرمانهم من شرف الإمامة بحسب ذلك[4]، إمضاء لقانون الإمامة، المقتضي للاستقامة، والقدرة على إعمال السنن التسخيرية المؤطّرة لحركة الاستخلاف والإمامة الحضارية.

فالموضوعية سمة جوهرية من سمات سنن التّسخير في عمومها وشمولها، وهو ما يشحذ في الإنسان دون شك، روح الاعتماد على النفس، ونبذ التواكل، وتحمل مسئوليته عن وضعه ومصيره، بعد أن يستيقن بالعدالة وتكافئ الفرص بين البشر، في استثمار هذه السنن المسخرة للجميع، وفق قوانينها الداخلية، التي تشرط عملية الاستفادة منها، والانتفاع بها في تلبية حاجات حركة الإبتلاء والتدافع والتداول والتجديد، الناظمة للصيرورات الحضارية لمسيرة الخلافة البشرية ومواجهة تحدياتها المتلاحقة.

التفاعلية التكاملية: أي أن السنن التسخيرية تتسم بالإضافة إلى الثبات والاطرادية، والعمومية والشمول، والموضوعية، بالتفاعل والترابط التكاملي فيما بينها، بحيث لا يعمل أي منها باستقلال عن الآخر؛ لأنها سنن تسخيرية، أي موضوعة في خدمة الإنسان، الذي يتميز فعله التسخيري الاستخلافي بالتركيبية والكلّية، ومن ثم فهو في حاجة دائمة إلى تكامل وترابط مفردات تسخيرية كثيرة ومتنوعة[5]، حتى ينتج فعلا استخلافيا كاملا، في أصالته وفعاليته وحيويته المتجددة.

فكل فعل إنساني عندما تُحلل " دورته الانجازية "، نجده باستمرار، هو محصلة تفاعل تكاملي أو تناقضي* مع **سنن الله في الآفاق، وسننه الأنفس، وسنن الهداية، وسننه التأييد**. أي أن حركة الاستخلاف محكومة بتفاعل سنن هذه العوالم كلها. مع ملاحظة أن هذه المنظومات أو القطاعات والعوالم من السنن، مترابطة ومتكاملة في ذاتها كل على حدة أولا، وفيما بينها ثانيا، ويتوقف تفاعلها وترابطها التكاملي في المجال التسخيري والاستخلافي، على طبيعة وحجم وعي الإنسان بها، وبكيفية استثمارها وتسخيرها في حركة التغيير والبناء والإعمار والاستمتاع الذي تستهدفه وتقتضيه حركة الخلافة البشرية في الأرض.

وهذه الخاصية تعتبر من أخطر خاصيات السنن التسخيرية؛ لأن عدم الوعي بها يؤدي حتما إلى اختلال حركة الاستخلاف، واتسامها بالجزئية والاهتلاكية واللاتوازنية. بسبب الاستثمار التجزيئي التنافري الاهتلاكي لمنظومات سنن التسخير في عوالمها المختلفة، مما يفرز فعلا " استخلافيا " مختلا

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة هود: 45، 46.
(2) الرازي، **التفسير الكبير**، 4/18.
(3)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 123.
(4) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 477/1.
(5) محمود فرحات، **الدعاء رؤية جديدة**، (الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م)، ص194.

هزيلا، مشحونا بالتناقضات* التي تحرمه قوة التأثير البنائي، وتضاعف من قوة تأثيره السلبي على حركة الاستخلاف باستمرار [1]، لعدم استكمال " **دورته الانجازية** " لكل أبعادها بصورة صحية أصيلة ومتوازنة ومتكاملة.

فالفعل التسخيري الاستخلافي، يتحقق بالأصالة والفعالية والتكاملية وقابلية التجدد والاطراد، بقدر استيفاء " **دورته الإنجازية** " لأبعادها الضرورية بصورة متوازنة ومتكاملة، عبر وعي الإنسان بحاجة ذلك كله إلى المعرفة بسنن التسخير التي أودعها الله سبحانه وتعالى في عوالم **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، وإلى دقة وشمولية استثماره لها، في إعداد وإدارة وإنجاز أفعاله ومواقفه الاستخلافية اليومية.

ومن هنا نلحظ مدى عناية الإسلام ببناء وعي الإنسان بحقيقة التفاعل الترابطي أو التكاملي بين منظومات سنن التسخير كلها، سواء تعلق الأمر **بسنن الآفاق، أو سنن الأنفس، أو سنن الهداية، أو سنن التأييد،** فكلها متناغمة في ذاتها ومتسقة مع بعضها بعضًا، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:**[الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ]** [2]. فكل خلق الله منتظم في ذاته، وله قابلية تامة للانسجام والتناغم مع غيره في حركة تفاعلية متكاملة[3]، لا تعرف التوقف أو الاختلال، يكفي فقط أن تُعرف قوانين انتظامه، وتُحترم شروط استثماره وتسخيره في حركة الاستخلاف.

وقد يغني هنا تأمل هذه الآية التي جمعت بين كل منظومات سنن التسخير، في تناغمها وتكاملها، بدءا من **سنن الهداية**، إلى **سنن الآفاق**، إلى **سنن الأنفس**، إلى **سنن التأييد**. فهي جميعا مادة أولية مسخرة لخدمة حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وليس بينها تنافر أو تصادم، إلا ما تفرزه حركة التسخير والاستخلاف الخاضعة للإرادة والاختيار البشري. قال تعالى: **[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ]** [4].

وأمثال هذه الآية المؤصّلة للوعي بتناغم وتناسق وتكامل مفردات الوجود الكوني، واحتياج بعضها لبعض، واحتياج الحركة التسخيرية والاستخلافية إليها كلها، كثيرة جداً في القرآن الكريم، وسنرى تجسيدا حيًّا لها في الحركة الاستخلافية النبوية في القسم التطبيقي من الدراسة، عندما ندرس البنية أو التكوين الفكري والحركي للدورة الإنجازية للفعل النبوي، وهو يقود عملية التربية والدعوة والبناء والتغيير والحماية لمنجزات ذلك كله([5]).

فدورة الفعل البشري؛ الفردي والجماعي، الفكري والنفسي، الثقافي والاجتماعي، السياسي والاقتصادي... يحتاج إنجازها باستمرار، إلى سنن تسخيرية من **عالم الآفاق**، وسنن تسخيرية من **عالم الأنفس**، وسنن تسخيرية من **عالم الهداية**، وسنن تسخيرية من **عالم التأييد**، فإذا لم يتوفر لدى الإنسان الوعي التسخيري الشمولي التكاملي الفعال، فإن فعله سيأتي منقوصا غير أصيل ولا فعال وغير قابل

---

(1) عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ص255 وما بعدها.

(2) **القرآن الكريم**، سورة الملك: 3.

([3]) سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، 6025/10.

(4) **القرآن الكريم**، سورة الحديد: 24.

([5]) أنظر جزءا من التحليل للدورة الإنجازية للفعل النبوي، في دراستنا عن: "**المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في المرحلة المكية**" (دار قرطبة، الجزائر، 2004).

للاطراد.

- **الجزائية النافذة:** أي أن السنن التسخيرية، تتسم كذلك بكونها ذات تأثير مزدوج نافذ في الخلق، بحسب نوع العلاقة بهذه السنن. فإذا كانت هذه العلاقة التسخيرية إيجابية مستوفية لشروط استثمار هذه السنّة أو تلك، ترتب على ذلك جزاء أو أثر تسخيري استخلافي أصيل وفعّال ومتكامل وقابل للاطراد. وإذا كانت هذه العلاقة التسخيرية سلبية منقوصة، وغير مستوفية لشروط الاستثمار السليم لهذه السنّة أو تلك، ترتب على ذلك أيضا جزاء أو أثر تسخيري استخلافي مضطرب ومختل أو معتل، لا يؤثر سلبا في راهن أو حاضر الفعل فحسب، بل يمتد تأثيره ليطال المستقبل كذلك بطريقة أو أخرى([1]) .

فكل موقف تسخيري استخلافي له أثر جزائي نافذ(2)، إما على الفور، وإما على التراخي(3)، تبعا لمجال وطبيعة السنن المستثمَرة أو المسخَّرة، أو ذات العلاقة، وليس هناك موقف تسخيري على الإطلاق لا يترتب عليه أثره الجزائي؛ السلبي أو الإيجابي، العاجل أو الآجل(4)، وإلا فكيف نفسر ظاهرة التفاوت الاجتماعي، والضعف والقوة، في الأفراد والمجتمعات والحضارات ؟ إن ذلك راجع في الأساس إلى هذه الخاصية الذاتية في سنن الله التسخيرية، التي تحدث أثرها الجزائي النافذ على الفور أو على التراخي في البشر، فيحدث تبعا لذلك هذا التفاوت الاجتماعي والحضاري، الذي يدفع بأفراد ومجتمعات وأمم إلى الأمام والقوة والتمكين، ويدفع بأخرى إلى التقهقر والضعف والتبعية([5]) .

ونحن نلحظ أنه من قوانين الحياة البدهية مثلا، أن من يحجب عنه الأكسجين يختنق، ومن لا يأكل مدة معينة يموت، ومن يعرض نفسه للنار يحترق، ومن يتناول السموم القاتلة يموت، ومن يزني يصاب بأمراض عضوية شتى، ومن يسرق تسوء سمعته وتنحط قيمته عند الناس، حتى وإن تظاهروا له بالاحترام لأسباب معينة. ومن لا يعدّ عدة المواجهة ويعرِّض لها نفسه ينكسر، ومن لا ينظف يمرض، ومن يتنظف يصح. ومن يستقم ينل احترام المجتمع، ومن ينظم نشاطه ويخططه ينجح فيه... وهكذا دواليك يترتب على كل موقف تسخيري أثره السلبي أو الإيجابي، على الصعيد الاستخلافي .

هذه حقيقة مدركة بالعيان والتجربة، لا تتخلف أبدا، وهي التي تتأسس عليها حركة الاستخلاف في مدها وجزرها، وتكاملها وتنافرها، وضعفها وقوتها... تبعا لطبيعة العلاقات والمواقف التسخيرية؛ للأفراد، والمجتمعات، والحضارات، بسنن الله في **الآفاق**، وسننه في **الأنفس والهداية والتأييد** من جهة، وسننه سبحانه في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من ناحية أخرى([6]) .

ونظرًا لأهمية هذه الخاصية وخطورتها، فقد أعطاها الوحي – كتابا وسنّة –، عناية شديدة جداً، وأكد على كون الجزائية النافذة الكامنة في سنن الله، تلازم حركة الاستخلاف في عالم الشهادة ولا

([1]) ابن القيم، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، ص95 – 105.

(2) ابن منظور، **لسان العرب**، 515/3.

(3) ابن القيم، **الداء والدواء**، (تحقيق: عصام الدين الصباطي، دار الحديث ، القاهرة، ط2، 1416هـ–1996م)، ص97.

(4) مادلين غراويتز، **مناهج العلوم الاجتماعية**، ترجمة: فاطمة الجيوش ،(دار مشرق مغرب، د.ت، 1996)، 32–437.

([5]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 38/10.

([6]) الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، (دار قرطبة، الجزائر، 2004)، ص 153.

تتفك عنها أبدا([1])، وهو ما يغفل عنه الناس كثيراً، عندما يظنون أن الجزائية لا تكون إلا في عالم الآخرة، وهو خطأ خطير ينعكس بالسلبية على حركة الاستخلاف، ومن ثم على حال الإنسان في بقية مراحل دورته الوجودية التالية .

إن المتمعن في القرآن والسنّة، يلحظ بوضوح حضور هذه الخاصية القوي والبارز، في اهتمامات الوحي كله، الذي كان يستهدف تعميق وعي الفرد والأمة بهذا المعامل الشرطي الذي يحكم الوجود الإنساني كله، ويؤطر حركته الاستخلافية . وقد يغني عن الإطالة هنا ذكر قوله تعالى**[فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا..]**[2]، أي في الدنيا، وقوله تعالى:**[وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ]**[3]، وقوله سبحانه عمن يعجّل لهم العذاب كذلك: **[فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ]**[4]، وقوله عزّ وجل: **[وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ]**[5].

هكذا يستتبع كل موقف تسخيري أثرا جزائيا محتما، من طبيعة الموقف ونوعه وحجمه، ليدفع حركة الاستخلاف نحو التكامل والانسجام واطّراد النماء، أو نحو التنافر والاختلال واطّراد الضعف والقصور والتقهقر .

ويبقى أن نلحظ هنا اختلاف طبيعة " النفاذية " وحجمها بين **سنن الآفاق**، وكل من **سنن الأنفس والهداية والتأييد**، ذلك لأن السنن في المجال الاجتماعي أو الاستخلافي العمراني عامة، تعمل بوتيرة متراخية عادة، أو بوتيرة تراكمية متدرجة وبطيئة نسبيا، على خلاف وتائر عمل سنن الآفاق، المتميزة بتراكمية أكثر سرعة وفورية أحيانا كثيرة.

وفي السنّة النبوية أحاديث كثيرة عن خاصية الجزائية النافذة في سنن الله التسخيرية، نذكر منها قوله صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال: **(تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا، فأي قلب أشربّها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأض، والآخر أسود مربادا، كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه)**[6].

هكذا يعمل قانون التراكم في صياغة الفكر والنفس والسلوك والواقع الاجتماعي، في ضوء سنتي المعصية والتوبة[7]، أو الحسنّة والسيئة، اللتان يوضح حديث آخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم آلية تأثيرهما في حياة الإنسان*، جاء فيه: (**إن العبد إذا أذنب ذنبا، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلب قلبه، فذلك الران الذي ذكره**

([1]) محمد الغزالي، **الإسلام والاستبداد السياسي**، ص148.

(2)**القرآن الكريم**، سورة طه: 121، 122.

(3)**القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 9.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الزمر: 25.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الشورى: 30 .

(6) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا (**شرح النووي**، 171/2).

(7) القاسمي، **محاسن التأويل**، 92/17.

* حاول ابن القيم التعمّق في دراسة أثر الذنوب والمعاصي في النفس والمجتمع في كتابه الهام «الداء والدواء» فليراجع.

الله سبحانه في القرآن)[1]. والحديث كما هو واضح منسجم تماما مع الرؤية القرآنية لعمق التغيير وهو النفس، كما جاء ذلك في قوله تعالى[إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ][2]. لأن كل ما يغير النفس يغير المجتمع، فهي مركز ثقل التغييرات الجذرية الكبرى في التاريخ البشري، التي تتجاوز التغييرات الموجيّة العابرة .

ومن هنا يأتي الاختلاف في وتائر عمل كل من سنن الآفاق من جهة، وسنن الأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى، وإن كان لهذه الأخيرة مستويات تتسم فيها بسرعة النفاذ والتحقق، كما يظهر ذلك في المعجزات التي خص بها الله تعالى الأنبياء عليهم السلام، وفي الكرامات التي يكرم بها من يستقيم على سننه، ويحتاج في بعض الظروف إلى الإعانة والتأييد لتجاوز التحديات الاستثنائية[3]، ويحافظ على استمرارية توازن مسيرته في أبعادها الذاتية والاجتماعية، كما سنرى ذلك في القسم التطبيقي من هذه الدراسة .

ولعل هذا التدافع والتداول بين الانحراف والاستقامة، والحسنّة والسيئة، والخطأ والصواب، والمصلحة والمفسدة.. عبر آليتي الحسنّة والسيئة[4] والذنب والتوبة* ، هو الذي يحكم وتائر قانون التراكم، الذي تخضع له حركة الاستخلاف وتصطبغ بصبغته، تبعا لنوعية وحجم الجزاءات التي يفرزها الموقف التسخيري للإنسان أو المجتمع. وهي جزاءات غالبا ما تتميز أو تتسم بالتأرجح تبعا لتأرجح وتذبذب الموقف التسخيري للإنسان[5]، كما أوضح ذلك الحديثان السابقان. وهو ما يجعل عمليتي التمكين والتراجع الاستخلافي، تتم بوتيرة بطيئة، وخاصة عندما لا يتاح لحركة التغيير والبناء والتجديد والوقاية، وعي شمولي متكامل ومتوازن عن منظومات سنن التسخير الأربعة، وتفتقر إلى القدرات الاستثمارية، فينعكس ذلك كله على أصالة وفعالية وتكاملية واطّرادية عملية التغيير، التي تعيش التذبذب والإهتلاك وضعف الأداء الاجتماعي والحضاري الكلي، حتى وإن كان هناك بعض الأداء الاجتماعي الفعال، لأن تأثيره يكون محدودا في هذه الحالة .

وبالإضافة إلى هذه الملاحظات الهامة عن طبيعة وآليات عمل هذه الخاصية، ينبغي أن نلحظ كذلك شمول الجزاءات في النظام الوجودي عامة، وفي المنظور الإسلامي خاصة، حيث هناك جزاءات فطرية آلية، وجزاءات اجتماعية مطّردة، وجزاءات قانونية أو شرعية... وجزاءات أخروية، وهي تعمل كلها على تعميق وعي الإنسان بضرورة الانتباه المستمر إلى ذلك، وتكييف موقفه التسخيري على ضوء ذلك، حتى لا يطاله سلطان هذه الجزاءات السننية المتنوعة.

والإسلام بتركيزه على تأسيس الوعي بخصائص سنن الله في التسخير، فإنه وضع الأساس المتين للوعي التسخيري المتكامل، الذي ينمّي ويوجِّه التفكير الإنساني، ويضبط السلوك المنبثق عنه، ويؤطر عملية التغيير الثقافي، والبناء أو الاصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري، ويتجه بها

---

(1) السيوطي، **الدر المنثور**، 445/8 .

(2)**القرآن الكريم**، سورة الرعد: 11.

(3) الشوكاني، **قطر الولي**، تحقيق: إبراهيم إبراهيم هلال، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1397هـ)، ص427-440.

(4) الألوسي، **روح المعاني**، 72/30.

[5] هنا تاهت التفسيرات الحتمية لحركة التاريخ أو الفعل الحضاري عامة، حينما غفلت عن معطى التوبة والاستدراك المتاح للبشر لتجاوز الحتميات، وإتاحة فرص حرية التجدد والاستمرارية.

باستمرار، نحو التكامل والتوازن والفعالية والاطراد[1].

وعليه فإن وعي الإنسان جيداً لدلالات وأبعاد ثبات السنن التسخيرية واطّرادهـا، وعموميتهـا وشمولها، وموضوعيتها، وتفاعليتها التكاملية، والآثـار الجزائيـة المزدوجـة، النافـذة فـي حركـة الاستخلاف، سواء بصورة ناجزة أو متراخية ومندرجة، يزيده حرصا على مراعاة ذلك كله واحترامه في عمله، وهو ما يدفع بحركته الاستخلافية في الأرض، نحو المزيد من الترقي المعرفـي والروحـي والسلوكي والأخلاقي والاجتماعي والحضاري المتوازن.

تأسيس الوعي
بنواظم الصيرورة الاستخلافية والاقتدار التسخيـري

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخطوة المعمقة التالية التي يخطوها الإسلام على طريق تأسيس وتدعيم الوعي التسخيري، بعد تأكيده المبدئي والجذري على السننية المنتظِمة للوجود الكوني كله، وعلى خصائص وضوابط هذه السنن ومقوماتها الأساسية، هي تأسيس الوعي بالكليات المفتاحية للصيرورة الاستخلافية والاقتدار التسخيري. على اعتبار أن هناك كليات كبرى تنتظم حركتي التسخير والاستخلاف البشري، يشكل الوعي بها والتحكم فيها مفاتيح أساسية لهذا الوعي من جهة، وهذا الاقتدار التسخيري والاستخلافي بعد ذلك من جهة أخرى.

وتتوزع هذه الكليات المفتاحية الكبرى على محورين أساسيين هما:

المحور المعرفي: المؤسس للمنطلقات الفكرية المبدئية للوعي التسخيري، والكليات الناظمة والمؤطّرة للصيرورة الاستخلافية، أي القوانين الكليّة العامة التي تتم عبرها عملية الاستخلاف في الأرض.

والمحور المنهجي: أو الأداتي العملي الوظيفي، المؤسس للوعي بالكليات والقوانين العامة التي تحكم فقه الإنجاز والاستثمار، وتضمن أصالته وفعاليته وتكامليته واطّراديته.

وتشكل هذه الكليات المنتظمة في المحورين المعرفي والمنهجي، الإطار أو المنظور الفكري أو الفلسفي الكلي العام، لتحليل وتفسير وتأطير صيرورة الحركة الاستخلافية في الأرض . أي أنها بمثابة النظرية العامة في فلسفة العمران والحضارة أو الاستخلاف بصفة عامة، التي ما انفك اهتمام الفكر البشري منصبا حولها، مهموما بها على الدوام، وأخذت تتبلور بعض ملامحها في علم فلسفة التاريخ والحضارة(1).

وهنا تكمن أصالة وحيوية ومصداقية أية رؤية أو مذهبية أو فلسفة أو نظرية في الوعي الاستخلافي والاقتدار التسخيري، أي بمقدار ما تتضمن من كليات شاملة ومتكاملة ومتوازنة، ومنسجمة مع فطرة الوجود الكوني والبشري، في بعديها المعرفي والمنهجي، تستطيع أن تقدم لنا مفاتيح تفسير وتأطير الصيرورة الاستخلافية من جهة، وتمنحنا مفاتيح الإمكان التسخيري الفاعل في ذلك كله من جهة أخرى، بصورة منسجمة مع الواقع الموضوعي* ، في كل أبعاده المتنوعة والمتكاملة، وليس في بعض أبعاده أو جوانبه فقط، كما حدث مع كثير من النظريات والفلسفات الوضعية المختلفة، التي جنح بعضها إلى الروحانية على حساب المادية، وجنح بعضها الآخر إلى المادية على حساب الروحانية، في الوقت الذي لا يمكن أن يتحقق تحليل أو تفسير أو تحكم صحيح في حركة التاريخ البشري، وصيروراته الحضارية، بمعزل عن تكامل البعدين معا(2).

ونحن هنا نحاول استخلاص هذه الكليات المعرفية والمنهجية الكبرى أو المحورية في الإسلام، كتابا وسنّة، ودراسة الحركة النبوية على ضوئها، باعتبارها عملية تجسيد فعلي لذلك، لنصل من خلال

---

(1) انظر على سبيل المثال: **مقدمة ابن خلدون**، **بدائع السلك في طبائع الملك** لابن الأزرق، **حجة الله البالغة** للدهلوي، **تدهور الغرب** لشبنجلر، **مختصر دراسة للتاريخ** لتوينبي، **فلسفة التاريخ** لغوستاف لوبون، **التفسير الإسلامي للتاريخ** لعماد الدين خليل، **شروط النهضة** لمالك بن نبي.

* الواقع الموضوعي، هو الواقع الفطري أو الحقيقي الموجود فعلا، سواء أدركه بعضنا أو لم يدركه، وليس الواقع التجريبي الملموس أو المنظور فقط، كما ترى المذاهب الوضعية قديما وحديثا.

(2) محمد قطب، **الإنسان بين المادية والإسلام**، وعماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، والبوطي، **نقض أوهام المادية الجدلية**.

** تقييم الفعل الحضاري البشري عامة، والفعل الحضاري الذاتي للأمة خاصة، باعتبار التقييم عملية جذرية تأسيسية، سابقة ومؤطّرة لحركة البناء التي يفترض أن تقوم على ذلك التقييم وتستوحيه في أهدافها، ومراحلها، ومناهج إنجازها.

ذلك كله إلى بلورة نظرية كلية في تفسير حركة الصيرورة الاستخلافية والاقتدار التسخيري، تكون منطلقا للتقييم** والبناء والوقاية الحضارية باستمرار، إذا أريد لهذا التقييم أن يكون موضوعيا مستوعبا لاحتياجات حركة الاستخلافي البشري، ولهذا البناء الحضاري أن يكون أصيلا وفعالا وتكامليا ومطّردا بعد ذلك.

تأسيس الوعي بالكلّيات الناظمة للصّيرورة الاستخلافية البشرية:

وقد اعتبرناها فيما سبق كليات معرفية مبدئية مفسرة ومؤطرة لحركة التسخير والاستخلاف معا. وهي تتمحور حول أربع كليات معرفية كبرى، شكلت المضغ الأساسية، والخطوط الرئيسة في اهتمامات الوحي كله، واعتُبرت مفاتيح أو مداخل كلّية منتظِمة للصيرورة الاستخلافية ومستوعبة للنشاط البشري في قوته وضعفه، وإيجابته وسلبيته، وتألقه وأفوله، وهي:

كلّية الإبتلاء وما يتبعها من كليات فرعية، وما فيها من دلالات عقدية وتسخيرية واستخلافية.
وكلّية التدافع وما يتبعها من كليات فرعية.
وكلّية التداول وما يتبعها من كليات فرعية.
وكلّية التجديد وما يتبعها من كليات فرعية.

فالقراءة التحليلية الشمولية التكاملية، لرؤية الإسلام إلى القوانين الكلية التي تحكم حركة الاستخلاف البشري، تمكننا فعلا من استخلاص هذه القوانين الكلية الأربعة، التي تعتبر نواظم مفصلية أو محورية في حركة الاستخلاف البشري، وهي تسير أو تتحرك على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، أو وهي تتحرك على الخط المضاد لها، وهو خط الشرك والظلم والأنانية والاستكبار والعنصرية .

الصيرورة الاستخلافية والوعي بكلية الابتلاء:

نقصد بالصيرورة الاستخلافية هنا[1]: حركية التحولات العمرانية الحضارية التي تتم في إطار عملية الاستخلاف البشري في الأرض، والتي يتمحور حولها الجهد البشري في عالم الشهادة بشكل مطرد[2]، ولا ينفك عنها بأي حال من الأحوال، فهي قدره في هذه الأرض .

فالإنسان بوجوده في مرحلة عالم الشهادة من " **دورته الوجودية الكبرى** "، معني بحركة الاستخلاف مباشرة، وبصورة حتمية لا خيار له فيها*، بغض النظر عن وجهة وهوية هذا الاستخلاف، الذي ينتظم في مجموعة من التحولات المستمرة، التي تتجه حينا نحو التوازن والصلاح والقوة الإيجابية الخيرة، وحينا آخر نحو الضعف والاختلال والفساد والشر، بحسب وعي الإنسان والمجتمع بهذه القوانين الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف، أو قصور وعيه بها، وعدم قدرته على استثمارها بالأصالة والكفاءة والتكاملية والاطرادية المطلوبة .

وهذه الصيرورة الاستخلافية تتحدد وجهتها وتنفذ إلى غايتها المطلوبة، عبر مجموعة من الكليات المفتاحية، وفي مقدمتها **كلّية الابتلاء**، التي شاء الله تعالى أن يجعلها أساسا كليا لحركة

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، 477/4.
(2) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م)، 740/1.
* لأن الأمر هنا فرع عن أصل وهو قبول أمانة الاستخلاف في بداية الخليقة.

الاستخلاف كلها[1] . كما قال سبحانه:[**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**][2]. وقال كذلك: [**الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ**][3]. فهذه نصوص تأسيسية كلية محكمة، تحدد الابتلاء ناظما كليا أساسا لحركة الاستخلاف البشري في الأرض([4]).

والابتلاء هنا يعني: وضع إرادة الإنسان، وحريته، وتميزه، واقتداره، وتكريمه، وسيادته، موضع الاختبار والامتحان والتجربة والمسئولية[5]، في مهمة الاستخلاف التي شرّف بها تشريف تكريم وتمتيع مؤقت في عالم الشهادة من جهة، وتشريف تأهيل وإعداد لتمتيع أبدي خالد في مراحل الدورة الوجودية التالية لعالم الشهادة من جهة أخرى، إن تمكن الإنسان فعلا من ربح معركة الابتلاء، ووضع " **ميزانيته التسخيرية الكونية الكبرى** " في خدمة مهمته الاستخلافية، بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد .

فالإنسان بما وهب من قدرات وإمكانات تسخيرية عظيمة، وامتيازات تكريمية وتشريفية، وبما وعد به من وعود أعظم تكريما وتشريفا وتمتيعا في المراحل التالية من دورته الوجودية الكبرى، أصبح في وضع المؤتمن والمسئول عن ذلك كله، بل والمحظوظ كذلك، والذي يجب عليه أن لا تضيع منه هذه الامتيازات والتشريفات العظيمة، التي حسد عليها من طرف إبليس، بل وتحسست منه الملائكة([6]) ! وأن لا تفلت منه هذه الفرصة المصيرية، التي ستحدد وضعه في عالمي الشهادة والغيب معا، بناء على موقفه العقدي والعملي من مهمته الاستخلافية، ومن كيفية تصرفه في " **ميزانيته التسخيرية الكونية الكبرى** " ، ومن الإنجازات الحضارية أو العمرانية التي يساهم بها في إغناء تجربة الاستخلاف البشري في الأرض.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة الظروف الذاتية والموضوعية التي يؤدي فيها الإنسان مهمته الاستخلافية في الأرض، أدركنا فعلا معنى كونه مبتلى؛ واستيقنا بأن الابتلاء ليس قضية بسيطة، بل هو المشكلة الكبرى التي تواجه الإنسان في حياته، وتقوم بدور المقرر لدوره ومصيره في كل مراحل " **دورته الوجودية الكبرى**" . لأن هذه الظروف الذاتية والموضوعية المحيطة به، فيها الكثير من التنوع والتعقيد، والتشابك والتجاذب والتناقض* ، الذي يضع إرادة الإنسان وحريته ومسئوليته وسائر امتيازاته، ومن ثم كامل قوى الوعي والتسخير لديه، باستمرار في حالة استنفار قصوى، للموازنة والتفيق أو الاختيار بين الثنائيات الحرجة[7]، التي تطبع الموقف التسخيري والاستخلافي على الدوام، إذ الإنسان في ذاته يعيش باستمرار تجاذب قوى الخير والشر، والضعف والقوة، وفي محيطه الاجتماعي كذلك يعيش في ظل قانون أو **جدلية أو سنة التدافع** المهيمنة على الحياة البشرية دوما، وهو ما نبه إليه حديث الأمل والعمل والأجل، الذي جاء فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام: (**خط**

---

(1) الطبري، **جامع البيان**،29/1؛ الألوسي، **روح المعاني**، 5/29.
(2)**القرآن الكريم**، سورة الإنسان: 2، 3.
(3)**القرآن الكريم**، سورة الملك: 2.
(4) حبنكة الميداني، **ابتلاء الإرادة**،ص71.
(5) البقاعي، **نظم الدرر**، 220/20؛ أبو حيان، **البحر المحيط**، 220/10.
(6) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 222/1.
* سيأتي بعض التوضيح في كلية التدافع.
(7) محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، ص126 .

النبي صلى الله عليه وسلم **خطا مربعا ، وخط خطا في الوسط خارجا منه ، وخط خططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، وقال : (هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به – أو : قد أحاط به – وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا)**، وفي رواية: (**بينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب**)[1] أي نهاية فرصته الاستخلافية، وعنى بالأعراض هنا ما يتوالى على الإنسان من ابتلاءات متدافعة، كل منها يبحث عن الإشباع والظهور والهيمنة على حساب غيره .

ولا شك أن أية غفلة أو فتور أو ضعف في توثُّب الإرادة، أو انشحاذ قوى الوعي التسخيري وتجدده باستمرار، سيؤثر سلبا على الموازنة والتوفيق أو الاختيار والإنجاز، ومن ثم على أصالة وفاعلية وتكاملية واطراد استثمار " **ميزانيته التّسخيرية الكونية الكبرى** ". وهو ما يجعل الإنسان مغبونا[2]، وقد يؤدي به ذلك إلى صيرورة استخلافية اختلالية جزرية تراجعية بئيسة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار تأثيرات بُعد التدافع بين القوى البشرية الخيرة والشريرة على التحكم في مسار حركة الاستخلاف، كما سنرى ذلك في كلية التدافع لاحقا.

من هنا يكتسي الوعي بكلية الابتلاء أهميته القصوى في صيرورة الحركة الاستخلافية؛ لأنه هو الذي يعطي الإنسان هذه القدرة الاستنفارية القصوى المتجددة، ويمنحه هذا الوعي أو الاقتدار التسخيري الفعال، الذي يضع كل قواه وميزانيته التسخيرية، في خدمة مهمته الاستخلافية ومصيره الوجودي:

عندما يجعل الإنسان يعي معنى هذه الخطوة وأبعادها التكريمية المادية والمعنوية، التي تتعاظم عبر مراحل الدورة الوجودية، وتتنوع أشكالها وصورها وأحجامها، كما رأينا في الفصل السابق.

وعندما يعي كذلك أن هذه الامتيازات التكريمية العظيمة، التي منحت له عبر " **ميزانيته التسخيرية الكونية الكبرى** " ، تتعرض باستمرار للاستهلاك والاستغلال، فإذا لم يبادر إلى استثمارها بأصالة وفعالية واطراد، في خط الخيرية والاستمتاع المتوازن والإغناء لتجربة الاستخلاف؛ بالأفكار والمناهج والمؤسسات والقدوات المعززة للخيرية، استثمرت بالضرورة في خط المناقضة للخيرية والتوازن والتكامل، وهو ما يعرض هذه الميزانية للهدر والتبديد، ويؤثر سلبا على حركة الاستخلاف، ويجعل الإنسان يدفع ثمنا باهضا لذلك، في كل مراحل دورته الوجودية الكبرى، كما نبه إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:**[وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ]**[3]، لأن الانحراف إذا حدث ولم يقاوم، عمت آثاره المجموع، واكتوى بناره الظلمة وغيرهم ممن أقرهم على ظلمهم[4].

وعندما يعي أنه مسئول ومؤتمن، ومن ثم محاسب ومجازى على ذلك كله، فستنشحذ إرادة الاستنفار لديه، ويندفع لاغتنام فرصته المصيرية، واستثمار " ميزانيته التسخيرية الكونية " العظيمة، بأقصى فعالية أصيلة مستطاعة.

ولخطورة الابتلاء، وكونه يشكل محور ارتكاز وتمفصل الصيرورة الاستخلافية كلها بعد ذلك،

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله (**فتح الباري**، 239/11).
(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق (فتح الباري، 233/11).
(3)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 25.
(4) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 262/6.

واستبانة وجهتها، وطبيعة انضباطها ببقية الكليات المعرفية أو المبدئية والمنهجية الفاعلة فيها، أعطاه الوحي عناية مكثفة جداً[1]، وصير الوعي به الشرط الجذري لانتظام الصيرورة الاستخلافية البشرية، واتساقها مع فطرة الوجود وفطرة الإنسان .

وتتجلى هذه العناية المكثفة بتأسيس الوعي **بكلّية الابتلاء**، في تأكيد محوريته في الحركة الاستخلافية البشرية، وكونها تتأسس عليه، وتؤطَّر بحسب مستوى الوعي به. كما مرّ في آيتي سورتي:" الملك "و" الإنسان"، وكما تتابع التأكيد في آيات كثيرة، نكتفي منها بقوله تعالى:**[إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا]**[2].

كما تتجلى هذه العناية المكثفة كذلك في التأكيد على شمولية قانون الابتلاء للحياة البشرية كلها، بحيث لا يخرج أي شيء فيها عن هذا القانون، وهو ما نراه على سبيل المثال في قوله تعالى:**[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ]**[3]. أي مبتلى في حياته بديمومة الاستنفار لقواه الإرادية والتسخيرية، لتظل حياته في حالة توازن، وحركته الاستخلافية في حالة تجدد وتناغم مطّرد. وهو أمر يقتضي هذه المكابدة بكل ما تعنيه من مشقة وتعب وعناء مسترسل[4]، وهو ما نلمسه كذلك في قوله تعالى:**[يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ]**[5]، أي أن حياة الإنسان كلها محكومة ومربوطة بهذا الكدح المبدع[6]، أي السعي الدائب المشقّ المثمر*؛ أن المحافظة على توازن هذا السير، وأصالته وفعاليته وتكامليته واطّراديته، تحتاج إلى توثب الإرادة واستنفارها الدائم، وإلى انشحاذ الوعي التسخيري، كما لاحظنا ذلك مرارا. وهو ما نبهت إليه آية سورة الكهف السابقة: **[لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا]** أي أفوتَ في حسن العمل وجودته وخيريته وعموم نفعه[7]، بكل ما يتضمنه الإحسان من معاني الهدفية، والتناسق، والإجادة والإتقان، والجمالية، والإشباع، والتفوق، والوفاء بحاجات الاستخلاف بصورة متجددة ومتزايدة الصلاح والخيرية.

وتتجلى عناية الوحي المركزة أيضا بكلّية الابتلاء، في هذا العرض المستفيض لتجارب البشر الاستخلافية، وتنبيهه إلى **محورية قانون الابتلاء** في كل ذلك، ولفته إلى الأبعاد المعرفية والتربوية والاختبارية والتمحيصية والعلاجية... المنطوية في اطراد **سنّة الابتلاء** في البشر كلهم، وتعزيزه من خلال ذلك كله للوعي بقوانين الابتلاء الفرعية، وفي مقدمتها الشكر والصبر([8]).

فنحن عندما نتأمل التاريخ البشري كله، نجده سلسلة ملتحمة الحلقات من الابتلاءات المتلاحقة، سواء تعلق الأمر بحياة الأفراد أو حركة المجتمعات والأمم والحضارات، فالكل ممتَحن ومبتلًى في مقدراته وإرادته ووعيه واختياراته الاستخلافية، ويكمن الفرق في خط أو وجهة الاستخلاف فقط، هل

---

(1) انظر: عبد الله ميرغني محمد صالح، **الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين، كما جاء في القرآن الكريم**، (دار الاعتصام، القاهرة، 1983م)، ص81.

(2)**القرآن الكريم**، سورة الكهف: 7- 8.

(3)**القرآن الكريم**، سورة البلد: 4.

(4) الطبري، **جامع البيان**، 197/30، الزمخشري، **الكشاف**، 754/4.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الانشقاق، 6.

(6) أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، 1137/10.

*انظر هنا على سبيل المثال نظرية التحدي والاستجابة لتوينبي فهي على العموم تفسير لهذه الكلّية.

(7) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 257/15.

([8]) الدهلوي، **حجة الله البالغة**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 2005)، 157/2.

هو سائر في اتجاه الخيرية والتوازن؟ أم أنه متحرك على خط الاختلال والاهتلاك والضنكية ؟ وهو ما يرتبط جذريا بالوعي بقانون أو **كلّية الابتلاء**، التي كثف الوحي الاهتمام بها لتأطير حركة الاستخلاف في اتجاه التوازن والخيرية، ومن ثم الفعالية التسخيرية النموذجية القصوى.

والخلاصة العامة التي يخرج بها من يعمق النظر في عناية الوحي **بكلّية الابتلاء**، هي أن حركة الرشد الاستخلافي، وما يستتبعه ذلك من أصالة وفعالية وتكاملية وحيوية متجددة في الجهد البشري، وكذا حركة التيه والاضطراب والإهتلاك الاستخلافي، مرتبطة بطبيعة ومستوى الوعي **بكلّية الابتلاء** على الدوام. لأن الابتلاء مفهوم محوري مؤسس على رؤية عقدية وكونية خاصة للدورة الوجودية للإنسان، تجعل من يستوعبها يعي بعمق أنه في حالة ابتلاء تكريمي، وتشريفي وتمتيعي، وتأهيلي لمراحل تمتيع وتكريم وتشريف أعظم في مراحل لاحقة من دورته الوجودية الكبرى، فيعظم توثب استنفار إرادته ووعيه التسخيري، ومن ثم أصالة وفعالية وتكاملية جهده الاستخلافي.

أما إذا تأسست حركة المجتمع على مفهوم آخر غير مفهوم الابتلاء، فإنها ستضطرب وتتصادم وتهتلك وتتفكك، ويسحقها قانون الضنك والشقاوة؛ لأنها حركة لا مركز لها، ولا محور تتشدّ إليه وتتأطر به، فيصيبها التذرذر والتفتت، ويلفها كابوس الترفية والعدمية المهلك* ، كما نحسّه على سبيل المثال في هذه المقولات الفلسفية القلقة، والمواقف الفكرية والسلوكية المنفصمة، على لسان أبطال بعض روايات "سارتر"، التي جاء في إحداها قول بطل من أبطالها: " تأخذني الرغبة في السفر إلى مكان أجد فيه مكاني... ولكنني لم أجد مكانا في العالم " ! وقول آخر: " إنني خرجت من هذا العالم فبقي ممتلئا مثل البيضة، كأن كياني لم يكن له ضرورة " ! وقول غيرهما: " إنك في هذا العالم – يا مسكين – دخيل وزائد مثل شظية خشب تحت الجلد "[1] !

وهو الوضع النفسي والفكري والاجتماعي.. الذي شخّص القرآن ملامحه، ونبّه إلى أسبابه وبواعثه العميقة في مثل قوله تعالى:**[وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ]**[2]، حيث يعيش القلق، والاغتراب والانفصام، والانسحاق، بعد أن انفلت من مركز جاذبيته وتوازنه، بفعل الشرك المؤثر سلبا على مفعول **سنّة الابتلاء** في حياة الإنسان، حيث يحوّلها إلى نقمة على الفرد والمجتمع تعبر عن نفسها في صورّ وأشكال كثيرة .

فالابتلاء إذن هو السنّة الكلية الأمّ، التي تتأسس عليها حركة الاستخلاف، وتتأطر بها صيروراتها باستمرار، وتتشدّ إليها على الدوام، لتحفظ توازنها، وتضمن أصالتها وفعاليتها، وتجدُّد حيويتها. فهو القانون العام الذي يحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها[3]، بحيث تختل حياة الإنسان، عندما يبدأ مفهوم الابتلاء في فقد سيطرته على تأطير الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي للإنسان .

الصيرورة الاستخلافية والوعي بكلية التدافع:

الكلّية الثانية المفسرة والمؤطّرة لحركة التسخير والاستخلاف في الأرض، هي " **كلية التدافع** ". التي تهيمن بدورها على الوجود الإنساني في كل أبعاده ومستوياته، وأوضاعه وظروفه، ولا ينفك

---

* كما يلحظ ذلك في ظواهر الشرك والكفر عبر التاريخ، وفي الحركات الفكرية المؤطّرة بذلك، كالوجودية والشيوعية والبرجماتية... التي تنتهي كلها بعد حين إلى التفكك والانسحاق.

(1) نقلا من كتاب: **تأملات** لمالك بن نبي، ص46.

(2)**القرآن الكريم**، سورة الحج، 31.

(3) مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص 300.

عنها أي وضع من هذه الأوضاع، سواء تعلق ذلك بالأفراد، أو الجماعات، أو المجتمعات والأمم والحضارات، فالكل محكوم بمنطق التدافع وسننه .

ونقصد بالتدافع هنا: هذا التذابُّ والتواجه والتزاحم والتغالب[1] بين الرغبات والإرادات، والأفراد والجماعات، والثقافات والحضارات... الذي يهيمن على الموقف الاستخلافي البشري، ويطبعه بالحيوية والتجدد، والتنوع والاستمرارية، من خلال قانون التداول الحضاري[2] ، الذي سيأتي الحديث عنه لاحقا، كهدف مؤطر لحركة التدافع والتغالب، ومنشط لها باستمرار .

ويستمد هذا القانون الحيوي النافذ في الكون، أصالته من هذا التنوع والازدواجية أولا في التكوين البشري، الذي خلق الله فيه رغبات متعددة ومتناقضة، بعضها مادي وبعضها روحي، وبعضها عقلي وبعضها عاطفي، وبعضها مثالي وبعضها واقعي، وبعضها فردي وبعضها اجتماعي..[3] ويعمل كل منها على إفساح المجال لنفسه في حياة الفرد، وحركة المجتمع وميسرة الحضارة.

كما يستمده أيضا من التنوع في الظروف الطبيعية والاجتماعية المحيطة بالوجود الإنساني والمؤثرة فيه، وهو تنوع شديد التباين والاختلاف والتعقيد، يضغط على الحياة البشرية ويساهم في صياغتها*، وتوجيه موقفها الاستخلافي على ضوء الوعي العقدي الكوني، والوعي التسخيري الذي يتوفر عليه الإنسان في بيئته وعصره.

ويستمده كذلك من التباين والاختلاف في مصالح الناس في الحياة؛ أفراداً، وجماعات، ومجتمعات، وأمماً، وحضارات. بسبب الأوضاع والظروف السابقة، التي تفرز حاجات متنوعة، وتطرح تحديات مختلفة، تتباين أطروحات تفسيرها، وتتناقض غايات وأهداف استيعابها، وتختلف مناهج مواجهتها، وتحقيق الإشباع المطلوب فيها، من فرد إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن حضارة لأخرى، ومن مرحلة إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر.

كما تستمده من الدور التضليلي الخطير، الذي يقوم به الشيطان في ذبذبة الموقف النفسي والفكري للإنسان، وتشويش الرؤية لديه، وإضعاف توثب وانشحاذ إرادته الخيّرة [4].

كل هذه العوامل تؤسس لهذا القانون أصالته الراسخة في الوجود البشري[5]، وتجعل منه كليّة أساسية لتفسير وتأطير حركة الاستخلاف، في ضوء سلطان وحجية **كليّة الإبتلاء** المهيمنة على الحياة الإنسانية ابتداء وانتهاء، بحيث يعد التدافع آلية عملية كلية لتجسّد وتجلّي قانون الابتلاء في الحياة البشرية بصورة عملية محسوسة .

ولعل مما يجب الالتفات إليه جيداً هنا على الصعيد المنهجي، هو سريان مفعول هذا القانون أولاً على مستوى الذات، حيث يعيش الفرد في نفسه تجربة التدافع بين رغباته وحاجاته ودوافعه

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، 441/9؛ ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 288/1.
(2) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 34/3؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 99/4.
(3) محمد قطب، **منهج التربية**، ص126.
* لقد أدت الملاحظات الجزئية للكثير من المدارس النفسية والاجتماعية إلى المبالغة في التفسير الجزئي التجزيئي للفعل الحضاري، كما جرى مع الفرُودية، والشيوعية، والوجودية، والنفعية، والوضعية...
(4) ابن القيم، **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**؛ ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**؛ العقاد، **الشيطان**...
(5) النسفي، عبد الله بن أحمد، **مدارك التأويل وحقائق التنزيل**، تحقيق: مروان محمد الشعّار، (دار النفائس، بيروت. 1416هـ- 1996م)، 252/1.
* التناقض هنا ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو أمر اقتضته سنّة الله في الخلق، لإحداث عملية التفاعل والتكامل المحققة للإشباع المطلوب.

وظروفه المتناقضة* ، التي ينزع بعضها نحو الانسجام والتكامل والترقي، وبعضها الآخر نحو الانفصام والتناقض والتسفل [1] ، والانفلات من منطق سنن التسخير والاستخلاف.

وبناء على خوض الإنسان لتجربة التدافع على المستوى الذاتي، يتحدد دوره في المجتمع وتأثيره على صيرورة الحركة الاستخلافية عامة . بمعنى أن نجاحه في معركة التدافع على مستواه الذاتي أو الشخصي، يؤهله للنجاح في معترك التدافع الحضاري العام، وفشله ينعكس حتما على علاقاته الخارجية، ومستوى أدائه التسخيري والاستخلافي . وهذا ما يؤكده المنطق المنهجي التربوي للقانون الكلي للتغيير([2])، الذي وردت الإشارة إليه في قوله تعالى:[**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**] ([3]).

ومن يدرس صيرورة الحركات الحضارية عبر التاريخ، يلحظ اطراد هذه الحقيقة وتحكمها في الموقف التسخيري والاستخلافي للإنسان، والاتجاه به نحو التدافع كما في الحركات الرسالية، أو نحو الصراع كما في الحركات التي يضعف فيها أو ينعدم **سلطان الوعي بكلّية الإبتلاء**، فيتجه نشاطها نحو الصراع، ويتمحور حوله، ابتداءً من الذات، حيث يعيش الإنسان الصراع والتمزق النفسي، والازدواجية السلوكية المتنافرة، كما يتجلى ذلك في النزعات الروحانية المتطرفة، التي تتعبد بتعذيب الجسد وحرمانه من حاجاته وحقوقه الفطرية، والنزعات المادية المتطرفة، التي تحرم الروح من حاجاتها وحقوقها الفطرية كذلك، الأمر الذي يعرّض كيان الإنسان للانفصامية، ويحكم على أدائه الحضاري بالتنافرية والاهتلاكية والضعف.

ومن انفصام الذات وفشلها في تحقيق التوازن الذاتي، ينتقل التمزق والاختلال إلى كيان المجتمع، بنفس التطرف والحدّة أو أشد، فيهيمن الصراع بكل ما يعنيه من القسوة وحدّة العنف، والحرص على إلغاء الآخر وإفنائه واستعباده... على علاقات القوى الاجتماعية التي تنخرط كلها في هذا الإهتلاك المحموم، والتقاهر المهلك، كما تجلى ذلك بكل بشاعة في نظام صراع الطبقات، وفي الحروب، وأنظمة التمييز العنصري... إلى غير ذلك من المظاهر التي تجسد فيها قانون الصراع* عبر التاريخ.

وعليه فإن كل **علاقة تدافعية** بين البشر، لا يحكمها الوعي **بمنطق أو قانون الابتلاء**، الذي يضع حركة التدافع في نطاقها السنني المنضبط، ويمنعها من تجاوز مرحلة دفع الأخطار والتحديات، والمحافظة على حالة التوازن، بحكم المؤثرات والروادع الإيمانية والروحية والأخلاقية الكامنة في قانون الابتلاء، فإنها – أي العلاقة التدافعية – ستكون محكومة بمنطق وقانون الصراع، الذي يتجاوز نطاق الدفع إلى نطاق الغطرسة الاستكبارية المهلكة .

ومن هنا فإن الوحي – كتابا وسنّة – اهتم كذلك بتأسيس الوعي " **بكلية التدافع** " كقانون مفسر ومؤطر لحركة الصيرورة الاستخلافية البشرية في الأرض، حيث أصّل القرآن ذلك على الصعيد المبدئي العام، في مثل قوله تعالى:[**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ**

---

(1) القاسمي، **محاسن التأويل**، 198/17.

([2]) أنظر شرحا مفصلاً لهذا القانون في كتاب: **حتى يغيروا ما بأنفسهم** لجودت سعيد.

([3]) **القرآن الكريم**، سورة الرعد: 11

وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ].[1] وقوله سبحانه:[**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ]**[2]. فالتدافع سنّة تسخيرية تحكم حركة الاستخلاف في الأرض، وتضمن توازنها وحيويتها، بل وتوازن الأرض ذاتها بكل مكوناتها، كما يوحي بذلك لفظ الأرض، في الآية[3]، وهو ما ينسجم مع خاصية التفاعلية التكاملية في سنن التسخير، حيث تؤثر مفردات الكون بعضها في بعض سلبا وإيجابا.

وتجاوز القرآن مرحلة التأصيل المبدئي لسنّة التدافع إلى مرحلة ضبط موجهاته الإيجابية، التي تضمن بقاءه في حدود تحقيق التنافس، والذب عن المصالح الحيوية للفرد والمجتمع معا، وتنظيم التعاون والتكامل البشري[4]، أو بصفة عامة المحافظة على بقاء التدافع في دائرة الاستيعاب والتعايش، والحد من موجِّهاته السلبية التي تخرج به إلى نطاق الصراع والتقاهر والتلاغي والاستضعاف أو الاستعباد. كما تجلى ذلك في جميع مراحل التاريخ البشري، الذي لم تُؤطر فيه حركة التدافع بكلّية أو قانون الابتلاء، فاستحالت إلى صراع، وأفرزت تاريخا مرضيا، لا يمكنه أن يسعفنا وحده في بناء فلسفة متكاملة للتاريخ أو الحضارة، في منحاها الإنساني السامي، خاصة في ظل تهميش حركة النبوّة في الدراسات التاريخية، أو إغراقها في بحار الخرافة والتزييف .

ولسنا هنا بصدد استقصاء النصوص القرآنية والحديثية التي تمحورت حول بناء هيكل **قانون التدافع**، لأن الوحي بصفة عامة، تمحور بطريق أو آخر حول بناء هيكل هذا القانون التسخيري، وتأسيس الوعي به؛ بدءا من ضبط موجهات التدافع على مستوى الذات، وتحقيق التوازن الداخلي للكيان الإنساني، باعتباره موجه ومؤطر الحركة الاجتماعية بعد ذلك. كما أصل ذلك القرآن في قوله تعالى[**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**][5]. ومرورًا بضبط موجهات ومؤطرات الوعي التسخيري والاستخلافي. فتكثف التركيز على تأسيس الوعي بغايات التدافع، وكيف يجب أن تُحكم **بقانون الابتلاء** وتُوجَّه به، حتى يكون تدافع تنافس وإبداع ورشادة ورحمة وتسامٍ، وارتقاء بالإنسانية نحو قمم الإحسان في علاقتها بالله والكون والحياة.

فالوحي الإلهي يؤكد بكل وضوح وحسم، على دور البواعث أو النيات والمقاصد؛ في هذه التنافسية والإبداعية والرشادة والتسامي والإحسان[6]، كما يتضح ذلك من حديث النية الشهير، الذي كثيراً ما صدّر به علماء الحديث خاصة كتبهم، لما للنيات والمقاصد من دور حيوي في تحقيق أصالة الجهد وفعاليته وتكامليته واطّراديته[7]. قال عليه الصلاة والسلام: (**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل**

---

* اعتبرنا الصراع هنا قانونا؛ لأنه كذلك بالنسبة لكل نشاط بشري ذاتي أو اجتماعي، لا يؤطره **قانون الابتلاء** بمفهومه ومضمونه ووظيفته المحددة، فإنه سيتجه حتما نحو الصراعية، وهو ما حاولت المذاهب المادية اعتباره قانوناً كلياً لتفسير حركة التاريخ، وهو إدراك لهذه الحركة في جانبها السلبي المرضي فقط، وبالتالي أصبح الشذوذ قانونا!

(1)**القرآن الكريم**، سورة الحج: 38.

(2)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 249.

(3) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 503/2، القاسمي، **محاسن التأويل**، 309/3.

(4) المراغي، **تفسير المراغي**، 113/26.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الرعد: 12.

(6) ابن الحاج، **المدخل**، (دار الفكر، بيروت، د.ت)، 3/1 وما بعدها؛ وإن كان الكتاب بأجزائه الأربعة أُلف لغرض بناء الوعي بالنّيات والمقاصد كما صرح بذلك مؤلفه.

(7) ابن حجر، **فتح الباري**، 1/ 89.

امرئ ما نوى)[1].

وتجاوز الوحي مرحلة ضبط المقاصد والنيات، إلى مرحلة تأكيده بعد ذلك على بناء القـدرات التسخيرية المتفوقة، التي تضمن تحرك الصيرورة الاستخلافية في اتجاه التوازن والانسجام والتكامليـة والخيرية. وهنا جاءت توجيهات كثيرة جداً، بعضها متعلق بقوة الطموح وجديته، وبعضها بقوة الإرادة وتوثبها المتجدد، وبعضها الآخر يؤكد على توطين النفس على المصابرة والمكابدة، والمنطق العملـي، والدأب وروح المتابعة، والنزوع الغيري، وروح التضحية.. إلى غير ذلك من القيم والمفاهيم والآليات التي تبني القدرات الكفاءات التسخيرية التي تمنح حركة التدافع فاعليتها الإيجابية القصوى .

وقد يغني هنا قوله تعالى: **[وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ]**[2]، كنص تأسيسي محكم، في التأكيد على حيوية اكتساب قدرات تسخيرية متفوقة[3]، كشرط ضروري لاستثمار قانون التدافع بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد، في عمليات الدعوة والبناء والمواجهة الوقائية التي تحتاجها حركة التغيير والاستخلاف باستمرار.

والخلاصة هي أن التدافع قانون مفسر ومؤطر لصيرورة الحركة الاستخلافية، فـي خطيهـا الإيجابي والسلبي معا، وأن الوعي به وبقوانينه الفرعية، وبغاياته التي يحددها الموقـف مـن **قـانون الابتلاء**، ومستوى الوعي بدلالاته العقدية وأبعاده التسخيرية والاستخلافية، هو الذي يحدد ويحكم وجهة الصيرورة الاستخلافية، ويتحكم في مدى أصالتها وفعاليتها ومصداقيتها بعد ذلك .

الصيرورة الاستخلافية والوعي بكلية التداول:

الكلّية الثالثة المفسرة والمؤطّرة لحركة الصيرورة الاستخلافية البشرية، هي " **كلية التـداول** "، التي تهيمن بدورها على حركة الوجود الإنساني في مستوياته الذاتية الفردية، وفي مستوياته الاجتماعية العمرانية العامة؛ حيث يلحظ مدى اطّرادها باستمرار، وارتباط الواقع البشري بها على الدوام، في كل حالاته وأوضاعه، ومراحله ومستوياته[4].

ونقصد بالمداولة أو التداول هنا: هذا التغير والتحول والانتقال والتعاقب[5] المستمر في أحوال البشر؛ أفرادا وجماعات ومجتمعات، وأممًا وحضارات، من حال إلى حال، ومن وضع إلى آخر؛ فـي القوة والضعف، والتماسك والاختلال، والامتداد والانحسار، والتألق والأفول . فأوضاع البشر لا تستقر على حال واحدة، بل هي في تحول وصيرورة دائبة .

إن هذه الصيرورة المتحركة أو الماضية على خطي القوة والضعف، والمد والجزر، والصلاح والفساد... ظاهرة نافذة في حياة البشر، لا تعرف التأخر أبدا. وهي نتيجة طبيعيـة مباشـرة لحركـة التدافع الذي يهيمن على الوجود البشري؛ إذ ما دام هناك تدافع لا بد من تداول يعقب ذلك، في اتجـاه الخير والصلاح والتوازن والقوة والامتداد والتألق، أو في اتجاه الانحراف والفساد والاختلال والضعف والانحسار والأفول[6].

---

(1) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (**فتح** الباري، 15/1).
(2)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 61.
(3) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، 338/3؛ الشوكاني، **فتح القدير**، 400/2.
(4) توينبي، **مختصر دراسة للتاريخ**، 92/4.
(5) ابن منظور، **لسان العرب**، 252/40؛ ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 304/1.
(6) أبو السعود، **تفسير أبي السعود**، 24/4.

ذلك ما يلحظ فعلا على حياة الأفراد، حيث يعيش كل إنسان تجربة التدافع في ذاته، بين قوى التوازن والاختلال في كيانه، وبين اتجاهات الفضائل والرذائل، والترقي والتسفل، والتماسك والتذرذر... وأيما قوة من هذه القوى أمكنها التغلب على الأخرى، كانت لها الدولة والهيمنة والنفوذ على تفكير الإنسان وسلوكه وحياته[1]. وقد استوعب الوحي هذا المستوى القاعدي النفسي أو التأسيسي من التدافع والتداول عبر مفاهيم وكليات النفس: المطمئنة، واللوّامة، والأمّارة بالسوء[2].

وهو ما تعيشه الحياة الاجتماعية كذلك، ويحكم حركة الاستخلاف والعمران البشري، حيث يلحظ كيف تتبدل أوضاع المجتمعات وتتغير، على ضوء التدافع بين مكونات الخيرية وعناصرها، وقيمها، وآلياتها الاجتماعية*، وبين مكونات الشرِّ والانحراف والضعف، وعناصره وقيمه وآلياته الاجتماعية. فأيما قوة أو اتجاه من هذه القوى أو الاتجاهات، أمكنه التغلب على الأخرى، كانت له الدولة والهيمنة والنفوذ على وجهة وهوية الصيرورة الاستخلافية؛ في أضيق أو أبسط مستوياتها الاجتماعية إلى أوسع وأعقد هذه المستويات، حيث تتعاقب الكتل الاجتماعية والدول والحضارات في صيرورة تداولية لا تنقطع، وإن تباينت وتائر ذلك واختلف مداها الزماني من كتلة أو دولة أو حضارة لأخرى، بحسب قوة وفاعلية الدفع ومداه[3]، المرتبط **بقانون التجديد** الذي سيأتي الحديث عن دوره في حركة الاستخلاف لاحقا.

وفي سياق التعقيب العلمي على هذه الظاهرة التي تسم الحياة البشرية، لاحظ " لودفيج " عالم الاجتماع الشهير أنه: " كلما تلاقت مجموعتان بشريتان، برزت إحداهما على الأخرى "[4]، بغض النظر هنا عن غاية البروز، هل هو متسق مع خط الخيرية والرشادة أم مناقض له ومتضاد معه ؟ أو بعبارة أخرى، منسجم مع **منطق الإبتلاء** أو مناقض له، على أساس أن الموقف من **قانون الإبتلاء**، وطبيعة ومستوى الوعي بدلالاته وأبعاده العقدية والتسخيرية، له انعكاس جذري مباشر على طبيعة التدافع، واتجاهات وهوية التداول الاجتماعي والحضاري بعد ذلك، حيث تتسم بالطغيان والعدوانية والروح الإمبراطورية، أو بالرحمة والإنسانية والروح التكاملية التعاونية . كما نبّه إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:[**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**][5].

فالرغبة في التداول أو الحضور الفعّال في " مركز التأثير "، على صعيد الذات، والمجتمع، والكون، هو المتغير المستقل الذي يشرط حركة التدافع على كل مستوياتها، ومن ثم فهو مصب هذا التدافع ومركز استقطابه، الذي تتمحور حوله جهود البشر وتنشد إليه باستمرار[6]، سواء تعلق الأمر:

---

(1) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 45/3.

(2) ابن تيمية، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تحقيق: فواز زمرلي، (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1410هـ-1990م)، ص72.

* المقصود بالآليات الاجتماعية: قوى الوعي والرشادة في المجتمع، والمؤسسات المختلفة التي تجسد وتحمي الخيرية وتطورها باستمرار؛ عمقا وامتدادا.

(3) غوستاف لوبون، **فلسفة التاريخ**، ترجمة: عادل زعيتر، (دار المعارف، القاهرة، 1954م)، ص 86.

(4) باول لوث، **الإنسان مخلوق لا مصادفة**، ترجمة: عمر لطفي العالم، (دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1415هـ-1994م)، ص54.

(5)**القرآن الكريم**، سورة القصص: 83.

(6) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 271/1.

بقوى حضارية ناهضة، تسعى للتحرر من أوضاع التخلف والضعف والتبعية والاستضعاف .
أو بقوى حضارية منافسة على النفوذ، وتواقة لتأكيد حضورها المكافيء أو المتفوق .
أو بقوى حضارية نافذة ومهيمنة فعلا، وتسعى للمحافظة على هذا النفوذ وهذه الريادة .

فالكل يتحرك على محور التداول وبتأطير منه؛ إما سيرا نحوه، وإما محافظة عليه كما أسلفنا. تلكم هي معادلة وقصة الوجود البشري في عالم الشهادة، منذ الخليقة إلى أن يـرث الله الأرض ومـن عليها .

وقد يحسن هنا أن نؤكد على الجذر الرئيسي العميق في النفس الإنسانية، والـذي يقـف وراء **حركة التدافع** ويؤطر **صيرورات المداولة الاستخلافية**، وهو غريزة حب الذات، وما ينبثق منها ويدور حولها من غرائز وقيم كثيرة؛ كالأنانية، وحب الحياة، وحب التملك والاستئثار، والتمتع، والرغبة فـي التكاثر والزيادة من كل شيء، والغيرة، والحسد، والخوف، والشجاعة، والطمع، والكراهيـة، وحـب الانتقام[1] ... إلى غير ذلك من الغرائز والقيم التي تنتهي كلها إلى غريزة حب الذات، التي تهيمن على الموقف السلوكي للإنسان، وتقف وراء ظاهرة التداول الحضاري، وتغذي الرغبة فيها، وتعزز الحرص عليها باستمرار، وتمنح **حركة التدافع** المبررات النفسية والشروط التسخيرية التـي تعـزز فاعليتهـا الإنجازية باستمرار.

وفي هذا السياق يلاحظ الغزالي في تأملاته العميقة في الـنفس الإنـسانية، وقواهـا الحيويـة الكبرى، أن حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر، من أعظم ملاذ الدنيا. وبناء على هذا، ينبه إلـى أن الخلق لو حبسوا وقيدوا بالسلاسل والأغلال، من طلب العلوم التي **فيها القبول والرياسة**، لأفلتوا مـن الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها[2] . وفي نفس المعنى قال الشاطبي ما لحب الرياسة من لذة في نفس الإنسان: " للنفس فيها من اللذة ما لا مزيد عليه، ولذلك يعسرُ خروج حبّ الرئاسة من القلب إذا انفرد، حتّى قال الصوفية: حبّ الرئاسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين)([3]).

ولهذا فنحن عندما ندرس الظواهر الاجتماعية المرضية والصحية، فإننا في الحقيقـة نـدرس مرض " **الأنا** " وصحتها في المجتمع[4] ، أي نحلل ونفسر تجليات " **حب الذات** " وحضورها الدائم فـي مسيرة المجتمع؛ سواء كان هذا التجلي أو الحضور صحيا سـويا، تحركـت فيـه صـيرورة الحيـاة الاجتماعية على محور الخيرية والرشادة والتألق، أو مرضيا منفصما، تحركت فيه صـيرورة الحيـاة الاجتماعية على محور الاختلال والتيه والتسفل أو الأفول. وهو ما يؤكّد – على الصعيد المنهجـي – أصالة وأولوية البعد النفسي أو المحتوى الداخلي في عملية التغيير، إلى درجة لفتت انتباه كبار علمـاء النفس الاجتماعي ليقرروا بأن جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في النـاس؛ كالعوامـل الاقتـصادية والتاريخية والجغرافية، تتحول في آخر الأمر إلى عوامل نفسية [5] .

فكيف نظر الإسلام يا ترى إلى هذه الظاهرة المطّردة في حركة الاسـتخلاف البـشري فـي الأرض ؟

والوحي كعادته دائما، في استيعاب شؤون الحياة البشرية؛ رصدا وتحليلا وتفسيرا وتأطيرًا،

---

(1) لوبون، **فلسفة التاريخ**، ص 130؛ محمود الكرمي، **الطبيعة الإنسانية**، ص43 وما بعدها.
(2) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 3/324– 326.
(3) الشاطبي، **الاعتصام**، (دار المعرفة، بيروت – لبنان، 2000)، 1/122.
(4) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص 44 بتصرف.
(5) لوبون ، **فلسفة التاريخ**، ص256.

يؤكد ما هو مبدئي وكلي، مندرج في طبائع هذه الحياة وجبلاتها وفطرها، ويقرر أصالته، وينبه إلى ضرورته. كما فعل هنا مع ظاهرة أو سنة التداول، التي اعتبرها **سنّة كلّية** مفسرة ومؤطرة للصيرورة الاستخلافية، كما يدل على ذلك قوله تعالى:[**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ**][(1)].

وهناك نصوص كثيرة تندرج في سياق تأصيل **سنّة التداول**، كتلك التي تحدثت عن استبدال الأقوام والجماعات بعضها ببعض[(2)]. والتي تحدثت عن نفس الظاهرة، واستعملت فيها مفهوم الوارثة والتوريث، كما في قوله تعالى:[**وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**][(3)]، والتي تحدثت عن هذه الظاهرة كذلك باستخدام مفهوم الاستخلاف، كما في قوله تعالى:[**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ** تَعْمَلُونَ][(4)].

وهكذا تتوالى النصوص وتتعاقب، لتركز الوعي بنفاذ **سنّة التداول** في الحياة البشرية. ثم يتجاوز الوحي هذا المستوى من استيعاب الظاهرة، إلى مستويات أخرى أشمل وأعمق، فيفيض في الحديث عن ظاهرة الانحطاط والتراجع، ويحلل أسبابها المعرفية والنفسية والاجتماعية، ويحدد السنن الفاعلة فيها[(5)]، ويستعرض عواقبها الخطيرة على صيرورات الحركة الاستخلافية البشرية، ومآلاتها الأخطر في مراحل الدورة الوجودية البشرية التالية لعالم الشهادة* . ثم يلتفت بعد ذلك إلى تأسيس الوعي بالسنن الفاعلة في ظاهرة التداول، فيؤكد على مواجهة عوامل الضعف في مجالها العقدي والتسخيري والاستخلافي من جهة، ويسترسل في إبراز وترسيخ عوامل القوة والفاعلية والأصالة في هذه المجالات جميعها، حتى يمنح حركة الدعوة والبناء والمواجهة الوقائية، قوتها الاندفاعية النموذجية المتوازنة من جهة أخرى.

ويستغرق الحديث عن الأمرين معا الجزء الأعظم من القرآن الكريم، وإن رُكّز الحديث وكُثّف عن سنن القوة والضعف، والامتداد والتراجع، في استعراض تجارب الأمم السابقة بالخصوص[(6)]،

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 137-141.
(2)**القرآن الكريم**، سورة التوبة: 39، سورة محمد: 38.
(3)**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 136.
(4)**القرآن الكريم**، سورة يونس: 13-14.
(5) عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ، ص** 255، وما بعدها.
* تراجع هنا الآيات التي تتحدث عن أسباب ورود المنحرفين النار، كما يتجلى ذلك من حواراتهم وتجادلهم هناك (انظر سورة الأعراف: 44 وما بعدها).
(6) السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، (دار الكتاب العربي، بيروت، 1979م)، ص16.
* مما ينبغي أن يلحظ هنا هو غياب النظرة إلى الأخلاق في إطار فلسفة التاريخ والحضارة، واحتكار النظرة الفلسفية التجريدية، وكذا الوعظية لذلك، مما أبعد الأخلاق عن دورها الجذري الأصيل، وأغرقها في بحر المثالية العرفانية أو الروحانية الطوبوية!

بمنهج تحليلي وتفسيري بنائي أو تركيبي؛ عبر استخلاص قوانين الصيرورة الاستخلافية، في بعـديها السلبي والإيجابي.

ويلحظ هنا تعمّق وتكثف الحديث عن أخلاق القوى البشرية الفاعلة في الصيرورة الاستخلافية، باعتبارها – أي هذه الأخلاق – سنناً فكرية ونفسية واجتماعيـة*، تتحـرك عبرهـا حيـاة الأفـراد والمجتمعات على محوري القوة والضعف، والصلاح والفساد، والامتداد والتراجـع. فتكـرر وتـردد الحديث في القرآن والسنّة كثيراً جداً عن الأوصاف السلبية والإيجابية[1]، التي تشكل – مـن منظـور سنن الهداية – مفاتيح التحليل والتفسير للسنن الفاعلة في الصيرورة الاستخلافية، كما تتجلى في ظاهرة التداول، التي ما هي في حقيقة الأمر إلا محصلة لتفاعل تنافري أو تكاملي لهذه المفردات فـي فكـر الإنسان ونفسه وواقعه الاجتماعي في عملية التدافع، التي إذا ما أُطّرت بوعي سليم **بكلّيـة الإبـتلاء**، اتسمت حركة التدافع **بالفعالية البنائية التكاملية الأصيلة**، وطبعت من ثم حركة الاستخلاف بالإنـسانية والإحسان، وإن شاب الوعي **بكلّية الإبتلاء** أي اختلال عقدي وفكري، أدى ذلك إلى حركة تدافعية ذات فعالية تنافرية اهتلاكية هدمية، وانعكس ذلك على حركة الاستخلاف وطبعهـا بالـصراع والعدوانيـة والتقاهر.

وبهذا الموقف أو الطرح المنهجي لظاهرة التداول، ذهب الوحي بعيدا في استيعابها؛ تأصـيلا وتحليلا وتفسيرا، وبناء أو تركيبا واستشرافا، وبذلك وضع القانون في مكانه الصحيح مـن منظومـة الكليات المفتاحية الكبرى، التي تحكم حركة الصيرورة الاستخلافية وتؤطرها؛ في اتجاه الحركة علـى خط " **الفعالية البنائية التكاملية** " القصوى، والنأي بها عن الحركة على خـط " **الفعاليـة التنافريـة الاهتلاكية الهدمية** " ، المهدِرة والمبدّدة لميزانية الإنسان التسخيرية الكبرى، والمانعة له من الاستمتاع الأفضل بحياته في كافة مراحل دورته الوجودية الكبرى .

فالتداول كقانون مهيمن على الصيرورة الاستخلافية البشرية، مرتبط ارتباطا عضويا مباشـرا بقانوني الإبتلاء والتدافع، فإذا استحكم الوعي بهما، نضج الوعي بقانون التداول واستحكم تبعا لـذلك، وكان الظهور والتمكين الحضاري، مندرجا بشكل أصيل وفعّال ومتكامل ومطّرد، في خـط الخيريـة والرشاد، ومعمّقًا لهما، ومحققًا للفعالية التسخيرية والأصالة الاستخلافية بصورة نموذجية. لأن تحقيـق الظهور والتمكين والسيادة الحضارية في هذه الحالة، ستهيمن عليه أخلاق أو قوانين: **العدل والإحـسان والرحمة والشكر**، مما يحقق أقصى مستويات الاستمتاع في حياة الإنسان، والإحساس بعمـق الحيـاة وقيمتها، وشحذ أشواق التطلع إلى متع المراحل التالية من دورته الوجودية، حيث: (**ما لا عـين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**)([2]) كما جاء في الحديث القدسي الشريف.

ومن هنا كان تركيز الوحي المكثف على تحليل وتفسير حركة الصيرورة الاستخلافية؛ عبـر استعراض الأخلاق والقيم والسنن التي كانت وراء التداول، حتـى يتـأطر بهـا الفعـل التـسخيري الاستخلافي باستمرار، الذي يظل مستقطَبا **بقانون الإبتلاء** ومنشدا إليه، باعتباره القانون الكلي الأساس؛ المكثف للوعي، والمكثّل للطاقة، والمفعّل للحركة، والواقي لها من الانحرافات، والمحرّك لها في اتجاه العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية والرشاد باستمرار .

ونشير هنا إلى نموذجين بارزين للتداول، أحدهما كان مؤطرا في تدافعـه ومداولتـه الثقافيـة

---

(1) الحسين بن محمد الدامغاني، **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، (دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1985م).

([2]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، باب ما جاء في صفة الجنة، تحت رقم/3244.

والاجتماعية والحضارية* ، **بمرجعية الابتلاء** ومستقطبا بها، فظهرت في أدائه ونتائج عمله. والآخر كان مؤطرا في تدافعه ومداولته، بمرجعية " الأنانية والشركية " المستكفية بنفسها، أو المنفلتة من جاذبية قانون الابتلاء الابتلاء .

النموذج التطبيقي الأول: وقد مثّل الأول موقف سليمان عليه السلام من القوة التسخيرية المذهلة التي توفرت له في مواجهته مع ملكة سبأ، واستثمر فيها بصورة نموذجية كل منظومات سنن التسخير المتاحة له، في عالم الآفاق، وعالم الأنفس، وعالم الهداية، وعالم التأييد، وتمكُّنه من الظهور البيِّن عليها[(1)] . فكان موقفه وهو يرى نتائج هذه الفاعلية التسخيرية الرهيبة التي توفرت له، وحسمت المواجهة لصالح بشكل باهر غير مسبوق، أن قال أمام مجلس مستشاريه وخبرائه الفنيين والسياسيين، كما حكى ذلك القرآن في قوله تعالى:**[قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ]**[(2)] . والتاريخ البشري مليء بمواقف الطغيان والاستكبار، والطيش المجنون، في حالات الغلبة والتمكين والظهور على الخصوم، لكن التدافع والمداولة المؤطّرة **بمرجعية الابتلاء** وفقهها العقدي والروحي والأخلاقي، تمنح الموقف توازنا، وتسِمه بالرشادة والسمو، والأخلاقية العالية، وتدفع بحركة الاستخلاف إلى مداها الأقصى؛ من العدل والإحسان والرحمة والشكر. لأن استحضار المعاني العقدية والروحية للابتلاء، يؤثر بعمق وشمول في الموقف التسخيري والاستخلافي للإنسان، بما يمنحه له من سعة الأفق الذي يمتد وراء اللحظة الراهنة، بل ووراء المرحلة والعصر، ليستشرف عوالم الغيب، ويستحضر عظمة الله الذي منحه تلك القوة . وبما يضخّه كذلك في نفسه من الطاقة الروحية المتجددة، التي تغذي فيه قوة الإرادة وروح المكابدة، وبما يتمخَض عن ذلك كله من اقتدار تسخيري ووعي استخلافي رفيع.

النموذج التطبيقي الثاني: وبالعكس من هذا النموذج السوي، نجد نموذج قارون في تمكنه وظهوره، يطغى ويستعلي على قومه، ويمعن في إغاضتهم، وزعزعة ثقتهم بأنفسهم وتراثهم، وموقفهم الرسالي، من خلال أساليب الإثارة المربكة، الفاتنة المذبذبة، التي استثمر فيها القوة الإمكانية الضخمة التي تكدست عنده، وجعلته يستكبر بها[(3)] ، ويقول:**[قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي]**[(4)] ! ثم ذكر القرآن كيف راح يشبع " **أناه المنفلتة من جاذبية الابتلاء** "، بطريقة صبيانية فجة، كانت نتيجتها الانسحاق والتبدد على صخرة السنن النافذة في الخلق[(5)] . وعقب القرآن على الموقف، كدأبه دائما في استخلاص السنن الماضية في تأطير الصيرورة الاستخلافية البشرية، بقوله: **[تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]**[(6)] .

---

* أي في غلبته وتمكنه من السلطان والنفوذ.

(1) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 221/13.

(2)**القرآن الكريم**، سورة النمل: 41.

(1) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 298/5 .

(4)**القرآن الكريم**، سورة القصص: 78.

(5) عولج الموقف في هذه الحالة بسنّة خارقة، تندرج في منظومة سنن التأييد التي يأتي الحديث عنها قريبا.

(6)**القرآن الكريم**، سورة القصص: 83-84.

ومن يقرأ القرآن يلحظ كثافة المادة التاريخية(1) التي استوعب من خلالها الوحي " **ظاهرة التداول الحضاري** "، ودأبَ على تأسيس الوعي بسننها، فكثر بشكل ملفت للانتباه، استعراض النماذج والتجارب البشرية، الفردية والجماعية، على ضوء قانون التداول، وتقييم نتائجها، عبر تحليل وتفسير المؤثرات السننية التي أطّرت حركة تدافعها، واستخلاص مبررات نجاحها أو فشلها، ووضع معطياتها الكلّية أمام البشر، ليستفيدوا منها مستقبلا في إصلاح أوضاعهم وترقية حياتهم .

وكانت الغاية من كل ذلك، تأكيد الوعي باطراد سنّة التداول في الوجود البشري ابتداء، وتعميق الوعي أيضا بالسنن الكلية والفرعية الفاعلة في صيرورة المداولة في اتجاه التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتناغم مع المحيط الكوني، ومن ثم أصالة وفعالية وتكاملية واطّرادية الأداء التسخيري والاستخلافي، أو في اتجاه الانفصام الذاتي، والاختلال الاجتماعي، والتصادم مع المحيط الكوني، ومن ثم تنافرية واهتلاكية الأداء التسخيري والاستخلافي واضطرابهما.

الصيرورة الاستخلافية والوعي بكلية التجديد:

الكلّية الرابعة المفسرة والمؤطّرة لحركة الصيرورة الاستخلافية البشرية في الأرض، هي " **كلية التجديد** " ، التي تهيمن بدورها على الوجود البشري، في مستوياته الذاتية والاجتماعية على السواء . حيث يلحظ مدى ارتباط فعالية الصيرورة التسخيرية والاستخلافية بها، بصورة مباشرة ومطّردة لا تتأخر أو تتبدل .

ونقصد بالتجديد هنا: بناء على ما يتضمنه معناه اللغوي من معاني الجدة، والاستحداث، والتغير(2)، والإبداع، والتواصل والاستمرارية(3)... هذا الانشحاذ المطّرد للإرادة الحضارية، والوعي التسخيري، وقدرات الإنجاز الفني، لدى الأفراد والمجتمع.. مما يتيح لحركة مدافعتهم الثقافية والاجتماعية والحضارية، فعالية وكفاءة إنجازية عالية، وقدرة على التكاملية والاستمرارية أو الاطرادية، التي تضمن للمجتمع تلبية احتياجاته الذاتية بشكل واسع، وتطور وتحسّن شروط مواجهته للتحديات التي تطرحها عليه حركة المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية في بيئته وعصره[4] .

فالمجتمع سواء كان في وضعية أو مرحلة الإقلاع الحضاري ومبارحة الضعف والتخلف، أو في وضعية ومرحلة المواكبة الحضارية، أو وضعية ومرحلة المنافسة على المداولة الحضارية، أو في وضعية ومرحلة الريادة الحضارية والاستئثار بالقوة والنفوذ، فإنه يظل محكوما على الدوام بسنّة أو " **قانون التجديد** " ، الذي يشكل الشرط الموضوعي الضروري لأية مدافعة أو مداولة حضارية أصيلة وفعالة ومتكاملة ومطردة، بإمكانها أن تحقق له ما ينشده من أهداف ويرومه من غايات، وتقيه من أخطار وتداعيات المدافعة والمداولة الحضارية المحتدمة في الأرض، التي لا ترحم ضعيفا أو كسولا أو غافلا عن السنن الإلهية التي تحكمها باستمرار(5) .

فالفرد أو المجتمع في كل وضع من هذه الأوضاع المختلفة، يرتبط تحقيق هدفه في النهضة، أو في المواكبة، أو في المنافسة، أو في المحافظة على حضوره في ريادة الحركة الحضارية، بمدى

---

(1) عماد الدين، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ص5.
(2) ابن منظور، **لسان العرب**، 3/111– 113؛ ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 1/109.
(3) أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، (مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان. 1377هـ–1958م)، 1/483– 485.
(4) إدوارد كورنيش، **المستقبلية**، ترجمة: محمود فلاحة، (وزارة الثقافية، دمشق؛ 1994)، ص200.
(5) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 122.

أصالة وفعالية وتكاملية واطّرادية حركة مدافعته للتحديات، وتحقيقه لأهداف حركته، وحمايته لمنجزاتها. ولا شك أن ذلك كله مرتبط بشكل مباشر بمستوى وحجم ومدى ديمومة **التجديد** الذي يمس إرادته الحضارية، ووعيه التّسخيري، وقدراته الإنجازية، كما تؤكد ذلك الخبرة التاريخية المتراكمة، التي تمخّضت عنها الصيرورة الاستخلافية البشرية الطويلة. والعكس صحيح كذلك، فالجمود والرتابة وذبول الحيوية الاجتهادية الإبداعية التراكمية، وضعف الوعي التسخيري، وقصور القدرات الإنجازية، ووهن الإرادة الحضارية، يؤثر سلبًا على حركة التدافع ومن ثم على وضعية التداول، ويدفع بالمجتمعات نحو التراجع والانحطاط والغثائية[1] .

فالتجديد هو قانون الحياة الأبدي؛ لأنه لازمة من لوازم سنّة التداول الحضاري الماضية في البشر، كما رأينا سابقا. ذلك لأنه لا يوجد فراغ على مستوى القيادة الحضارية، بل هناك تواصل واستمرارية في هذا المجال، كما نبه إلى ذلك القرآن في حديثه عن " **قانون التداول** " . إذ تعني المداولة انتقال زمام المبادرة الحضارية من أمة إلى أخرى، ومن حضارة إلى غيرها، بناء على مستوى وحجم انشحاذ إرادتها الحضارية، ووعيها التسخيري، وقدراتها الإنجازية، بغض النظر هنا عن قضية الكفر والإيمان* ، والحق والباطل؛ لأن الله تعالى أمد البشر عامة بفرص متكافئة، وأجرى بين أيديهم سنن التسخير بالعدل[(2)] ، فمن أخذ بها أو ببعضها مُكّن بحسب ذلك([3])، كما قال سبحانه:**[كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا]**[(4)] .

فالدورات الحضارية المنتظِمة لصيرورة الحركة الاستخلافية البشرية في الأرض، والتي تتداول عبرها الأمم الأدوار القيادية، مبناها كلها على " **قانون التجديد** "، الذي يمنح الجماعات البشرية المبررات النفسية للعمل، ويشحذ روح المكابدة لديها، وينمي قدراتها الإنجازية شيئا فشيئا، حتى تغدو قوة جديدة غلابة، تؤسس وتقود " دورة حضارية " جديدة، تمتد في الزمان، وتؤثر في المكان والأجيال، بحسب طبيعة وحجم نَفَسها التجديدي . فإذا ما فتر نفسها التجديدي، أخذت طموحاتها تتراجع وتتبعثر، وروح المكابدة لديها تضعف وتتقهقر، والقدرة على مواكبة حركة التدافع الحضاري تتقلص.. وهكذا حتى يلفّها الوهن وتدخل ليل الانحطاط والغثائية، فاسحة المجال لجماعات إنسانية أخرى، أخذت بأسباب تجديد نفسها وتحسين فاعلية مدافعتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، لتؤسس وتقود " دورات حضارية " أخرى وهكذا دواليك تمضي حركة الاستخلاف البشري في الأرض بلا توقف .

ومن هذا المنطلق، فإننا نجد الإسلام يعير أهمية قصوى لقضية التجديد، ويرتقي بها إلى مستوى القانون الكلي، الذي يشرط فعالية التدافع، ويحكم صيرورة التداول ونفَسها الحضاري بعد ذلك، كما يقرر القرآن هذا في مثل قوله تعالى**[إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ]**[(5)] . أي أن الشحذ المستمر للإرادة الحضارية، والوعي التسخيري، وقدرات الإنجاز لدى المجتمع، شرط ضروري

([1]) الغثائية مصب حركة التراجع في مسيرة الأفراد والمجتمعات التي تعجز عن تجديد نفسها بصورة مستمرة وشاملة ومتوازنة.

* وإن كان للإيمان مزاياه الثمينة في تأصيل وتفعيل حركة التدافع والتداول كما سيأتي تأكيد ذلك.

(2) ابن باديس، **عبد الحميد**، **التفسير**، إعداد: توفيق محمد شاهين، ومحمد صالح رمضان، (دار الفكر، بيروت، ط3، 1399هـ-1979م)،ص82.

([3]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2218/4.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 20.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الرعد: 11.

لفعالية التدافع واستمرارية التمكين، كما تؤصل ذلك آيات أخرى كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى:**[وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ]**[1]. وقوله سبحانه: **[وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ...]**[2] وهي نصوص تستغرق كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تجديد حيوية المجتمع[3]، ويمنحه قدرات متفوقة، تضمن أصالة حركته، وفعالية أدائه التسخيري، والمحافظة على حضوره الحضاري المؤثر في الصيرورة الاستخلافية والمؤطّر لها، بحسب طبيعة الوعي الذي يمتلكه عن سنّة الابتلاء.

وعندما يتأمل الإنسان كثافة حضور مفاهيم: التقوى، والتوبة، والمنافسة، والمسارعة إلى الخيرات، والإحسان، والإصلاح، والتذكر والتذكير، والاستقامة، والمجاهدة، والأمر بالمعروف، والقوة... والمفاهيم المغايرة لها في القرآن والسنّة[4]، يدرك عظيم عناية الإسلام " **بقانون التجديد** "، وكيف اعتبره فعلا شرطا محوريا مؤطّرا وناظما لحركة التدافع، ولصيرورات التداول الحضاري ومداه الزماني والمكاني والعمراني. لأن هذه المفاهيم بمضامينها العقدية والتسخيرية والاستخلافية، تضع بين يدي الإنسان الكثير من شروط وأصول وسنن تحقيق التجديد الذاتي والاجتماعي أو الحضاري، عندما يتم تحويلها إلى وعي معرفي، وإلى ثقافة سننية؛ تسخيرية واستخلافية عامة.

فالإسلام من خلال رؤيته العقدية " للدورة الوجودية الكبرى للإنسان "، ومثله العليا والدنيا على مستوى عالمي الشهادة والغيب[5]، ونظامه العبادي الشامل الدقيق[6]، وآلياته النقدية والتقويمية الذاتية والاجتماعية[7]، ومحورية الدعوة إلى الخيرية والتحسب للشهادة[8]، وتأكيده على الاحتكاك والتفاعل والتكامل الحضاري[9]... يعطي للتجديد أهميته الكبرى في تفعيل وتأصيل حركة الصيرورة الاستخلافية، وضمان اطرادية حيويتها، وتعاظم مردوديتها العمرانية أو الحضارية على الدوام، كلما استوفى هذا التجديد شروطه بشمول ودقة وتوازن.

ونقصد هنا بشمولية التجديد: أن يستوعب تفعيل الوعي بالدورة الوجودية للإنسان، وتفعيل الوعي بسنن التسخير، وتفعيل الوعي بمحتوى الاستخلاف من جهة. كما نعني به من جهة أخرى أن يكون هذا التجديد " **أصيلاً** "، أي متناغما مع فطرة الإنسان والكون والحياة، ومنسجما مع عمق هوية المجتمع، ومتجاوبا مع طموحاته. وأن يكون كذلك " **فعّالاً** "، أي مؤثرا، وحيويا، وإيجابيا، وجديا، يمنح حركة التدافع سرعة الإنجاز ودقته، وتفوقه الكيفي والكمي بحسب الحاجة . وأن يكون بالإضافة إلى ذلك كله " **مطّرداً** " ، أي متتابعا، ومتراكما، ومتنوعا، ومتكاملا، وناميا باستمرار، ليضمن لحركة التدافع القدرة على تركيز النشاط، ومراكمة الخبرة، وحيوية الاندفاع.

وهذه الكليات الضابطة لخصائص ومقومات التجديد، استغرقت الجزء الأعظم من اهتمامات

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة النور: 53.
(2)**القرآن الكريم**، سورة: الأنفال: 60.
(3) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 283/19.
(4) انظر: تحليل هذه المفاهيم في **الإحياء** للغزالي؛ و**المدارج** لابن القيم؛ و**الأخلاق الإسلامية** للميداني.
(5) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص 24.
(6) عون الشريف قاسم، **الإسلام والثورة الحضارية**، (دار القلم، بيروت، 1980م)، ص241 وما بعدها.
(7) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 306/2.
(8) الرازي، **التفسير الكبير**، 92/4.
(9) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 387/6.

الوحي، كتابا وسنّة، لتعمق الوعي بكونها مقدمة شرطية لازمة لأي تجديد أصيل وفعّال وتكاملي ومطّرد، ومن ثم مؤثر في الحركة الاستخلافية ومؤطر لها. وهو ما نبه إليه حديث نبوي عظيم في هذا المجال. جاء فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: " **إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها** "[1].

فالنص – وهو حجة في هذا الباب – يعتبر تجديد الوعي بالدين هو منطلق ومحور ارتكاز " الدورات التجديدية "، ذات النَفَس الحضاري الاستخلافي، باعتبار الدين " كليّة عاصمة " لحركة الاستخلاف باستمرار[2]. كما سيأتي الحديث عن ذلك لاحقا . فهو وحده الذي يكفل للإنسان تنسيق حياته الفردية وحركته الاستخلافية مع بقية مكونات الوجود الكوني الأخرى، ومع الخبرة التاريخية الطويلة للبشرية، ومع المستقبل، بحيث لا ينفصم ذاتيا، ولا ينفصل تاريخيا وحضاريا، ولا يصطدم بمكونات المحيط الكوني من حوله، فينكسر نشاطه على صخرة السنن الماضية في الخلق[3].

فالتجديد سواء نظرنا إليه من منظور معرفي حضاري إسلامي، أو من أي منظور معرفي حضاري آخر، نجده **قانونا كليا عاما**، يشرط حركة الصيرورة الاستخلافية البشرية ويؤطرها، بحسب طبيعة ومحتوى وحجم هذا التجديد، ومدى شمول ودقة استيعابه لواقع الحياة الفطري ، وواقع الحياة المعيش، ومدى قربّه أو بعده عن سنن الله **المرجعية في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، المؤطّرة والناظمة لحركة الحياة البشرية في الأرض. فمن استطاع أن يجدد وعيه وعلاقته التسخيرية بسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، بصورة شمولية وأصيلة وفعالة وتكاملية ومطّردة، يكون قد وضع يده على القدرات الحقيقية الهائلة، التي تمنحه كفاءة عالية في إدارة معترك التدافع والتداول، ومن قصّر في ذلك، وكان تجديده جزئيا أو ظرفيا أو سطحيا، أوتي من القوة والكفاءة والمداولة الثقافية والاجتماعية والحضارية بحسب ذلك .

ومن كل ما سبق نرى أن الوعي **بكلّية الإبتلاء، وكلّية التدافع، وكلّية التداول، وكلّية التجديد**، يشكل الإطار المعرفي المبدئي الأساس، لامتلاك مفاتيح التحليل والتفسير والفهم الصحيح لحركة الصيرورة الاستخلافية البشرية، والقدرة على تأطيرها والتأثير فيها؛ بناء على وعي المؤطّر المحوري أو المركزي لها، هل هو **مرجعية الإبتلاء** بكل دلالاتها العقدية، وأبعادها التسخيرية والاستخلافية المؤطّرة بالتوحيد والعبادة والهداية، وما يترتب على ذلك كله من استثمار شامل وفعّال للإمكان التسخيري البشري، واستمتاع أمثل للإنسان بخلافته في الأرض، في كل مراحل دورته الوجودية ؟ أم أن المؤطر لها هو مرجعية الأنانية المنفلتة والمستكفية ؟ بكل دلالاتها العقدية، وأبعادها التسخيرية والاستخلافية كذلك، التي كثيرا ما تتأطر بجرعات متفاوتة من الشرك والهوى والعدمية والصراعية.. وما ينجم عن ذلك كله من هدر للإمكان التسخيري البشري، وحرمان للإنسان من الاستمتاع الأمثل بخلافته في الأرض، وتعريض لحياته في بقية مراحل دورته الوجودية الكبرى لأخطار غير مجبورة .

تأسيس الوعي بالكلّيات الناظمة للاقتدار التسخيري:

وقد اعتبرناها فيما سبق كليات منهجية وظيفية، تؤسس الوعي بقوانين الإنجاز وفقه الاستثمار، الذي يحكم **حركة الإبتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، ويطبعها بالتكاملية أو التنافرية، وبالفعالية أو

(1) أخرجه أبو داود في **السنن**، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، 109/4.
(2) الشوكاني، **تحفة الذاكرين**، ص356.
(3) البقاعي، **نظم الدرر**، 488/20.

السلبية، وبالقوة أو الضعف... بحسب حجم ونوعية هذا الإنجاز أو الاستثمار، هل هو شامل لكل منظومات سنن التسخير،أم أنه جزئي يقتصر على بعضها، أو جوانب من بعضها ؟

ونقصد بالاقتدار التسخيري هنا: قوة السيطرة المعرفية على سنن التسخير[1]، والتحكم الفعّال في استخدامها الوظيفي الراشد[(2)]، لاستثمار " **ميزانية التسخير الكونية** " العظيمة، بشمولية وتكاملية ودقة وكفاءة، في بناء نموذج استخلافي ثقافي واجتماعي وحضاري متوازن، تتحقق عبره للإنسان إنسانيته، وتتوفر له فيه شروط الاستمتاع الأمثل بحياته، في هذه المرحلة الدنيوية من دورته الوجودية الكبرى، وتهيئة ضمانات الاستمتاع الأعظم والأشمل والأكمل في بقية المراحل التالية من هذه الدورة الكبرى.

وبناء على هذا المفهوم، فإنه لا يخفى ما للاقتدار التّسخيري من أهمية بالغة في حركة الصيرورة الاستخلافية البشرية في الأرض، وتأثير حاسم ومباشر على أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية المدافعة والمداولة والتجديد . وقد سبقت الإشارة إلى أن الوعي التسخيري الذي يمنح هذا الاقتدار، استأثر باهتمامات الإنسان على مر التاريخ*، كما شكل بؤرة اهتمام الوحي أيضا، وهو ما يدل عليه هذا التراكم الهائل الممتد للخبرات، التي وصلت إلى مستويات مذهلة مع الحضارة المادية المعاصرة، في استثمارها الرائع** لأجزاء هامة من **سنن الآفاق**، وبعض الأجزاء من **سنن الأنفس**، في ترقية الحياة العمرانية والمعاشية للإنسان بصفة عامة .

فالفعالية التسخيرية ظلت على الدوام تسيطر على اهتمامات وأولويات البشر؛ سواء كانت هذه الأولويات مؤطّرةً **بمرجعية ومنطق الابتلاء**، أو بمرجعية ومنطق **الأنانية المستكفية المنفلتة**، والمتمحورة حول الغرائز السافلة للإنسان . فعلى كل محور من هذين المحورين المتعاكسين والمتصادمين، ظل البحث عن الاقتدار التسخيري يتحكم في هموم واهتمامات الإنسان، لوعيه الفطري والمكتسب، أن ظواهر التدافع والتداول والتجديد التي تطبع الصيرورة الاستخلافية البشرية، وتهيمن عليها باطراد، محكومة بالفعالية التسخيرية ومشروطة بها[(3)]، فتركز اهتمامه على اكتساب هذا الاقتدار، وتنوعت تجاربه ومساعيه، التي كثيراً ما كانت تتيه وراء الخرافة والوهم والشرك، في سبيل ذلك. كما يبدو ذلك على سبيل المثال، في ظواهر السحر، والشعوذة، والتنجيم، والمبالغة في الاعتماد على تعبير الرؤى، والاستعانة بالموتى على هموم الواقع[(4)]، بل وحتى بمظاهر الطبيعة التي تحوّل بعضها إلى معبودات... وهكذا.

ففي كل ذلك كان الإنسان يبحث عن قوة الاقتدار التسخيري، الذي يمنحه السيطرة على التحديات التي تطرحها حركة التدافع والتداول عليه، أو على الأقل تلافي مضاعفاتها عليه، ومساعدته على تحقيق الإشباع الروحي والمادي المطلوب. وسيظل الإنسان مهموما ومهتما بامتلاك الفعالية التسخيرية إلى نهاية حياته. وقد لاحظنا مرارا في مباحث سابقة، عناية الإسلام القصوى بتأسيس

([1]) السيطرة هنا سيطرة فهم وإدراك ومعرفة بالأساس .

(2) ابن منظور، **لسان العرب**، 76/5؛ ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 781/2.

* استوعب ويل ديورانت في موسوعته التاريخية الكبيرة: « **قصة الحضارة** » الكثير من مظاهر وأشكال البحث عن الاقتدار التسخيري.

** لا تعنينا هنا غائيات الاستثمار؛ لأنه سيأتي الحديث عنها لاحقا.

(3) غوستاف لوبون، **السنن النفسية، لتطور الأمم**، ترجمة: عادل زعيتر، (دار المعارف، القاهرة، ط2، 1957م)، ص83.

(4) علي زيعور، **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم**، (دار الأندلس، بيروت، ط2، 1984م)، ص281 وما بعدها.

الوعي بضرورة الاقتدار التسخيري، كشرط جوهري للتأثير في الصيرورة الاستخلافية البشرية والانتفاع بها، وتأتي في مباحث لاحقة تأكيدات أخرى على ذلك.

كلّيات الاقتدار التسخيري:

ولعل المعضلة الكبرى التي واجهت البشر على الدوام، في امتلاك هذا الاقتدار التسخيري، هي قصور وعي الإنسان بطبيعة ونوعية المسخرات، أو بالإمكانات التي وُضعت تحت تصرفه وفي خدمته كخليفة في الأرض، ومن ثم نطاق المجالات التي تحتويها أو تغطيها " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " العظيمة، التي تشكل مادة ومحور ابتلائه .

فالمستقرئ لحركة التاريخ، يلحظ هذا القصور متجليا في جزئية وتنافرية أو اهتلاكية استثمار الميزانية التسخيرية الكونية الممنوحة للإنسان؛ ذلك لأن الجزء الأكبر من البشر تمحور همه وجهده حول الجانب المادي المنظور في هذه الميزانية*، بالرغم من تتابع تأسيس الوعي باستيعاب هذه الميزانية لجوانب وإمكانات تسخيرية أخرى ذات أهمية كبرى، كما أوضحت ذلك الحركات الرسالية عبر التاريخ. ولكن الإنسان ما يلبث أن يغفل عن هذه الجوانب والإمكانات، ويتعرض لاستقطاب[(1)] مركّز وحادّ من الجانب المادي في " **ميزانيته التسخيرية الكونية** "، وهو ما يحرمه الاقتدار التسخيري النموذجي الموضوع تحت تصرفه وطوع إرادته الراشدة .

ولوحظ في تاريخ حركة الاستخلاف البشري، أن امتلاك هذا الاقتدار التسخيري، ترافق باستمرار مع الحركات الرسالية، نبوية كانت أم راشدية* . فهي وحدها التي امتلكت الوعي التسخيري الشامل، وبالتالي كانت لها العاقبة والغلبة باستمرار، حتى ولو تم ذلك عبر نظام المعجزات، الذي سيأتي الحديث عنه في " منظومة سنن التأييد " ، كمجال تسخيري وإمكان عظيم في الميزانية التسخيرية البشرية، قلما استُثمر من قبل الإنسان بصورة فعالة .

وإذا شئنا أن نحصر المجالات الكبرى للإمكان التسخيري الذي منح للإنسان، فإننا نجده موزعا عبر أربعة محاور أو مجالات تسخيرية كونية كبرى، تستوعب احتياجات الفعل الاستخلافي البشري في مستوياته الدنيا والقصوى معا، أو في حالة فعاليته النموذجية القصوى، وفي حالة فعاليته العادية المتناقصة باستمرار[2]. وهذه المجالات هي:

مجال سنن الآفاق.
مجال سنن الأنفس.
مجال سنن الهداية.
مجال سنن التأييد.

والوحي باعتباره مؤسسا ومؤصلا لقانون " **الفعالية التسخيرية النموذجية القصوى** " ومبشرا بها، جاء مستوعبا لكل هذه الأبعاد، ومغطيا لكل هذه المجالات الحيوة؛ بما احتواه من مفاهيم عقدية عن الوعي الكوني، وقيم فكرية ومعرفية عن الوعي التسخيري، وقيم وتوجيهات تربوية ومنجية عن

---

* يلحظ هنا كيف أن أجزاء هامة من الجانب المادي في «ميزانية الإنسان التسخيرية» غير مستغل، ويتعرّض للهدر والتبديد بسبب الشرك، كما نبهنا مرارا.

(1) غليزرمان، **قوانين التطور الاجتماعي، طبيعتها واستخدامها**، (دار التقدم، موسكو، 1983م)، ص65.

* الراشدية هنا تستوعب كل الجهود الاستخلافية التي تأطرت بميراث النبوة عبر التاريخ.

([2]) الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية، ص**153.

الوعي الاستخلافي، وبذلك منح الإنسان البعد الأساسي الآخر لتفسير وتأطير حركة الصيرورة الاستخلافية البشرية. فاكتمل لديه بذلك الوعي بسنن الصيرورة الاستخلافية والاقتدار التسخيري، ولم يبق إلا عمل ووعي إرادته الحرة، في اكتشاف سنن التسخير؛ في **عوالم الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، واستثمارها بفعالية وأصالة وتكاملية واطّراد، في تحقيق مستوى استخلافي راق وراشد .

الاقتدار التسخيري والوعي بكلية سنن الآفاق: وأول كلّية مفسرة ومؤطرة لصيرورة الحركة الاستخلافية هي " **كلّية سنن الآفاق** " التي تهيمن على جانب كبير من حياة الإنسان، وتحتل جزءا هاما من «ميزانيته التسخيرية» العظيمة، وتمنحه قوة الاقتدار التسخيري، ومن ثَمَّ فعالية التدافع والتداول والتجديد.

ونقصد هنا بسنن الآفاق: القوانين الناظمة لهذا الكون المادي المسخَّر للإنسان، بكل ما فيه من عناصر ومكونات برية وجوية وبحرية، وإنسية كذلك، على اعتبار أن في الإنسان جانبا ماديا كبيراً، له سننه الناظمة لمكوناته، والمتحكمة في حياته، كباقي مفردات الكون الطبيعي الأخرى، الخاضعة لأنظمة وأنساق سننية ماضية فيها، بلا تبدل ولا تحول ولا تخلف[1]، كما مرّ في مبحث سابق.

فالإنسان محكوم في حياته بهذه السنن، بحيث لا يمكن لفعله البيولوجي أو الاجتماعي أن يتم دورته الإنجازية، ويحقق وظيفته الحيوية في النفس والمجتمع، دون وعي بهذه السنن الآفاقية، واحترام دقيق لها في عملية الاستثمار. فهي – أي سنن الآفاق – أول ما يجده الإنسان أمامه حينما يشرع في إنجاز فعل بيولوجي أو نفسي أو اجتماعي، تشرطه وتتحكم فيه، وتحكم* عليه بالفعالية أو السلبية، بناء على مستوى الوعي بآلياتها السننية المنتظمة فيها، وطبيعة العلاقة الاستثمارية بها بعد ذلك؛ هل جاءت متناغمة مع هذه الآلية أم متنافرة معها ؟

وهذه السنن نافذة في الحياة بصورة حتمية قدرية، لا يملك الإنسان إزاءها إلا إمكانية الاستثمار فقط[2]، دون التغيير أو التبديل فيها؛ لأن ذلك غير ممكن . وإذا ما عاكس الإنسان هذا النظام بمحاولة الخروج عنه، أو إخراجه من مجاله التسخيري، وقع تحت طائلة العقوبة النافذة . كما يحدث مثلا في سوء استخدام السوائل، أو المأكولات عمومًا، وفي سوء استخدام الأسلحة، وفي سوء استعمال العلاقات التفاعلية عمومًا؛ كأن يحاول الإنسان مثلا إشباع حاجاته العاطفية خارج نطاق نظام الزوجية ! فإن ذلك كله تترتب عليه عواقب وخيمة على الصحة والعمران. والعكس صحيح، فإن حسن الاستثمار لهذه السنن يضمن للفعل الإنساني فعاليته وحيويته القصوى.

ومن منطلق سلطة سنن الآفاق على الفعل الإنساني؛ البيولوجي والاجتماعي، السلبي منه والإيجابي، منح الوحي – كتابا وسنّة – عناية كبرى لتأسيس الوعي بسنن الآفاق، وتأكيد نفوذها في الحياة البشرية، وارتباط جوانب ومستويات أساسية من الاقتدار التسخيري بالوعي بها، والتحكم الاستثماري الفعّال فيها، كما يتضح ذلك من:

التأكيد المبدئي على اتساق النظام الكوني وخضوعه لسنن منتظمة تحكم وجوده[3]، وقد مرّت

---

(1) اندريد داس، **من أسرار الفطرة**، ترجمة: محمد أحمد الغمراوي، وأحمد عبد السلام، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1366هـ-1947م)، 3/2.

* في المجال الخاص بسلطتها ونفوذها فقط، في الجوانب المادية للفعل الإنساني؛ لأن هناك جوانب أخرى تدخل تحت سلطة سنن أخرى، مكملة لأبعاد « الدورة الإنجازية » للفعل الإنساني.

(2) المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص83.

(3) محمد الغمراوي، **الإسلام في عصر العلم**، ص16، 44؛ توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، 84/4.

نصوص كثيرة تؤكد العناية بهذه المقدمة أو الكلّية، المؤسسة والمحددة لنطاق حجية وسلطة سنن الآفاق في الحياة البشرية.

التأكيد المبدئي كذلك على تسخير هذه السنن للإنسان ووضعها في متناوله. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:**[وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]**(1) ، وقوله سبحانه:**[وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]**(2) .

دعوة الإنسان إلى اكتشاف سنن الآفاق، كمدخل أساس للوعي الكوني(3) ، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي، ومن ثم تأمين المصير في مراحل الدورة الوجودية التالية لعالم الشهادة. كما نلحظ ذلك مثلا في قوله تعالى:**[قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ]**(4) ، وقوله سبحانه:**[أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ]**(5) ، وقوله عزّ وجلّ منبِّها إلى أن الوعي بالسنن يؤدي إلى الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي:**[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ]** (6) .

عرض سنن الآفاق باعتبارها مخلوقة ومسخرة، وتجريدها من أية قيمة أو صبغة غيبية ذاتية، تحريرًا للإنسان من مخاطر الوقوع في عبادتها، تحت تأثير ما فيها من قوة نافذة، كما نبهت إلى ذلك آيات وأحاديث كثيرة نكتفي منها بقوله صلى الله عليه وسلم ، تصحيحا لنظرة الناس إلى مظاهر الكون وظواهره: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا**»(7) .

وبهذه العناية المكثفة بتأسيس الوعي بسنن الآفاق، يوفر الوحي الأساس الأول للاقتدار التسخيري، ويضمن لفعالية الفعل الاستخلافي شرطه الفني أو الإنجازي الهام، الذي ستركز عليه الأبعاد والمراحل التالية في " **الدورة الانجازية** " لهذا الفعل؛ ذلك لأن الفعل الإنساني البيولوجي أو الاجتماعي، ينجز بواسطة، مفردات الكون المادي، وداخل هذا الكون المادي، وضمن قوانينه. فإذا تم الوعي بسنن الآفاق وأجيد استثمارها، يكون قد توفر للفعل الإنساني ركن أساس من أركانه الأربعة. ومقوم جوهري من هذه المقومات، التي إذا ما توفرت بالشكل المطلوب، منحت هذا الفعل فعالية نموذجية قد تبلغ أحيانا درجات قصوى أو استثنائية.

أما إذا لم يستوف الفعل التسخيري الاستخلافي هذا البعد من " **دورته الانجازية الكلية** "، فإنه سيؤثر سلبا على الأبعاد التالية لها، ومن ثم على مستوى فعاليته واقتداره، وبالتالي على مجرى حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد* . أي على الصيرورة الاستخلافية بكاملها، بل ويمتد ذلك التأثير ليمس الصيرورة الوجودية كلها بعد ذلك .

وهذا المجال من السنن المسخرة، مبذول كغيره من المجالات الأخرى – ضمن شروطه

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الجاثية: 13.
(2)**القرآن الكريم**، سورة النحل: 12.
(3) ابن باديس، **التفسير**، ص 154.
(4)**القرآن الكريم**، سورة يونس: 101.
(5)**القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 185.
(6)**القرآن الكريم**، سورة فصلت:53
(7) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس (**فتح الباري**، 611/2).

الخاصة به طبعا – لجميع الناس، حيث يمكن للإنسان أن يستقل باكتشاف سننه، بغض النظر عن كونه مؤمنا أو كافرا، عن طريق ما وهبه الله من قدرات عقلية، وغرائز تطلب الإشباع وتحث عليه، وتدفع بحركته نحو ذلك، وعن طريق الخبرة والتجربة، والخطأ والصواب. وقد سبق أن ذكرنا قوله تعالى:[**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**][1]، المؤصل لهذه القضية[2].

الاقتدار التسخيري والوعي بكلية سنن الأنفس: والكلّية الثانية المفسرة والمؤطّرة لـصيرورة الحركة الاستخلافية البشرية، هي " **كلّية سنن الأنفس** " التي تهيمن بدورها على جانب كبير من حيـاة الإنسان، وتحتل حيزًا هامًّا من " ميزانيته التسخيرية الكونيـة » العظيمـة، وتمنحـه قـوة الاقتـدار التسخيري، ومن ثم فعالية التدافع والتداول والتجديد .

ونقصد بسنن الأنفس هنا: السنن التي تنتظم البعد النفسي والفكري والسلوكي والاجتمـاعي أو العمراني الحضاري في حياة الإنسان[3] . ولا نحصر هنا مفهوم النفس في المفاهيم التي تمحور حولهـا علم السلوك قديما، وعلم النفس حديثا، والفلسفة قبل ذلك وبعده، بل نستخدمه بمفهومـه العـام، الـذي يستوعب علاقة الإرادة والحرية الإنسانية بالله والكون والحياة، في إطار الكليات الناظمة للـصيرورة الاستخلافية من جهة، وكليات الاقتدار التسخيري من جهة أخرى.

فهذا البعد النفسي الفكري الاجتماعي في حياة الإنسان، تحكمه بدوره سنن مطّردة* ، وإن اختلفت وتائر عملها وتأثيرها، عن وتائر عمل وتأثير سنن الآفاق[4]، لاختلاف مجال فاعلية كل منهما؛ لأنه من غير المعقول أن تنتظم جوانب أو أجزاء من النظام الكوني، بدقة متناهية، وتترك جوانب وأجزاء أخرى دون تنظيم، يضمن استمرارية أداء وظائفها في المركّب الكوني الأكبر، ثم يطلب من الإنسان أن يسخر مفرداته وسننه لأداء مهمته الاستخلافية؛ بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد. ذلك لأن التسخير يتنافى ويتعذر مع غياب القوانين في المسخرات في أي مجال من مجالات الكون والحياة . وفي هذا المعنى جاء في القرآن قوله تعالى:[**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**]([5]) ، وقوله كذلك:[**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**]([6]) ، أي جعله على مقدار وحد معين لا مجرد مصادفة . مقدرا محكما مضبوطا صالحا لما خلق لاجله، لا تفقت فيه ولا خلل([7]) .

---

* يلحظ هنا دور ضعف الوعي بسنن الآفاق في ظاهرة التداول الحضاري خاصة في عالم لا تؤطره مرجعية الابتلاء ، ويتأطر بمرجعية الصراع ، حيث تكون الغلبة للأقوى و الأقدر تحكما في سنن الآفاق.

(1)**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 20.

(2) ابن كثير، **التفسير**، 297/4؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 61/14.

(3) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 358/15؛ الزمخشري، **الكشاف**، 206/4.

* سبقت الإشارة إلى اتسام وتيرة اطراد سنن الأنفس بالتراكمية المتراخية المتدرّجة، المختلفة عن وتيرة اطراد سنن الآفاق...

(4) كارل بوبر، **بؤس الأيديولوجيا**، ص105.

(5) **القرآن الكريم**، سورة القمر: 49.

(6) **القرآن الكريم**، سورة الفرقان: 2.

(7) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 319/18.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن اعتقاد كون عالم الأنفس خِلْوٌ من الانتظام السنني وهمٌ خطير[1]، ناشئ بالأساس عن جهل الإنسان، وضعف عنايته بالبحث العلمي في مجالات سنن الأنفس[2]. بل ينبغي أن ننبه هنا إلى أن هذا الوهم له مترتبات خطيرة من المنظور العقدي الإسلامي؛ لأنه يناقض صريح الوحي في تأكيده على التناظم والتناسق الكوني كله، سواء تعلق ذلك بعالم الآفاق، أو بعالم الأنفس، أو بعالم الهداية، فالكل صنع الله وخلقه، ولكل مجال من هذه المجالات سننه الناظمة له، والنافذة فيه، بلا تبدل، ولا تغير، ولا تأخر. وهو ما نبه إليه القرآن في مثل قوله تعالى: **[أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا]**[3]، وقوله سبحانه:**[وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلَاتُ...]**[4]، أي مضت واطردت سنن الله في العباد، بحسب تناغم أو تنافر وتضاد موقفهم الاستخلافي مع هذه السنن.

ولولا خضوع عالم الأنفس لسنن مطّردة، لما نبهت الآيات إلى ذلك، ولما حذرت منه، وأكدت استمرارية نفاذ القانون في الحياة البشرية وهيمنته عليها، بلا تبدل ولا تأخر[5]. وعجز الإنسان عن الوصول إلى التحكم في سنن الأنفس المنظمة للحياة الروحية، والفكرية، والسلوكية، والاجتماعية أو العمرانية، ليس مدعاة لإنكار فاعلية هذه السنن، "فليس ميدان الروح والحياة الإنسانية بأقل خضوعا لنواميس الفطرة من ميدان المادة والطاقة، وليست نواميس الفطرة في ناحيتها الإنسانية الاجتماعية بأقل دقة وصرامة من نواميس الفطرة في ناحيتها المادية... فالفطرة في حقيقتها كل شامل متصل، وإن جزأه الإنسان ميادين وعلوما متباينة، لعجزه عن دراسة الفطرة دفعة واحدة "[6].

فالله سبحانه وتعالى منح الإنسان إمكانا تسخيريا ثانيا بعد إمكان سنن الآفاق، وهو سنن الأنفس، التي دعاه إلى تأسيس وعيه بها، واستثمارها بفعالية في تفسير وتأطير حركة الاستخلاف البشري في الأرض، خاصة وأن مجال الأنفس أو البعد الاجتماعي في الحياة الإنسانية، هو مجال تفاعل كل ما أعطي الإنسان من إمكانات تسخيرية عظيمة، تستوعب سنن الآفاق، وسنن الأنفس، وسنن الهداية، وسنن التأييد، فمجال سنن الأنفس، هو المجال الحقيقي لابتلاء إرادة الإنسان وتميّزه، واقتداره، وسيادته، واختياراته الاستخلافية، التي إما أن تتحرك في اتجاه العبودية والأصالة والفعالية البنائية التكاملية النموذجية[7]، وإما أن تتحرك نحو الشرك والانبتاتية والفعالية التنافرية الاهتلاكية الهدمية[8].

وذلك كله مرتبط دون شك بدرجة ومستوى وعي الإنسان بسنن الأنفس، أي بالوعي الاستخلافي الذي يتيح أفضل تحكم في سنن الآفاق لخدمة الإنسان.

فالفعل الإنساني يحتاج في استكمال " دورته الانجازية الكلية " ، وتحققه بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد، إلى سنن الأنفس، بعد وعيه لسنن الآفاق واستثمارها في بناء هذا الفعل، حيث يتسم هذا الفعل بالأصالة والفعالية والتكامل والاطراد، بقدر نجاحه في استثمار سنن الأنفس، أو

---

(1) دراز، محمد عبد الله، **مدخل إلى القرآن الكريم**، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، (دار القلم، الكويت. 1414هـ-1994م)، ص79.
(2) إلكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، 207/34.
(3)**القرآن الكريم**، سورة محمد: 11.
(4)**القرآن الكريم**، سورة الرعد: 7.
(5) الطبري، **جامع البيان**، 46/26؛ ابن عاشور، **المرجع السابق**، 88/26.
(6) محمد الغمراوي، **الإسلام في عصر العلم**، ص77.
(7) الإصفهاني، **تفصيل النشأتين**، ص149 وما بعدها.
(8) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 293/11؛ كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ص239-241.

تقصيره في ذلك وغفلته عنه، فيصطبغ بالسلبية والاهتلاكية والاستئنافية. وما أكثر الأمثلة المستفيضة في التاريخ البشري، عن خطورة غياب الوعي بسنن الأنفس على الحياة الإنسانية، حتى ولو بلغ التحكم في سنن الآفاق مداه. كما لاحظنا ذلك سابقا في موقف قارون، وموقف الإدارة السياسية لملكة سبأ . وكما نلحظ هذا في ظواهر الاستبداد والطغيان، والترف في التاريخ. ونلحظه بصورة أوضح في الحضارة المادية المعاصرة، التي نجحت في التحكم في سنن الآفاق وأخفقت في التحكم في سنن الأنفس إلا قليلا[(1)] . الأمر الذي أثر بعمق وشمول على الوعي الاستخلافي البشري، كما يتجلى ذلك في صراع الطبقات، والاستبداد، والاستعمار، والأمراض النفسية والاجتماعية الخطيرة .

ومن هذا المنطلق، نلحظ في القرآن إلحاحا شديداً * على القراءة المعرفية للتجربة التاريخية للإنسانية، كما سبق التأكيد على ذلك . باعتبارها مجال تفاعل سنن الآفاق وسنن الأنفس، ومحصلة لهذا التفاعل، تمنح للإنسان إمكانية التحقق العملي[(2)] من أصالة وفعالية وتكاملية وعيه التسخيري، ومن ثم استخلاص السنن الفاعلة في مجال عالم الأنفس، ومراكمة خبرته، وتوفير المزيد من شروط أصالة وفعالية وتكلملية " الدورة الانجازية الكلية " للفعل الإنساني.

فالتجربة التاريخية يعرضها القرآن كمجال أو ميدان لاختبار الوعي والتحقق من صحة منطلقاته أو مقدماته، وفعالية تجلياته في الواقع العملي، تماما كما نتحقق من صحة فروضنا العلمية مخبريا في مجال سنن الآفاق، ونعمق وعينا بها، وتحكّمنا الاستثماري فيها باستمرار. فالتاريخ هو مخبر تحليل الوعي الإنساني، وتفسير حركة صيرورته الاستخلافية، عندما يتوفر النضج المعرفي والمنهجي اللازم لذلك.

فالفعل الإنساني يتوفر له من الاقتدار التسخيري، ومن ثم فعالية التدافع والتداول والتجديد، بقدر ما تستوفي " دورته الانجازية الكلية " استثمار سنن الآفاق والأنفس بصورة متكاملة ومتوازنة. وهو الحد المتاح فطريا لكل البشر، لدخوله تحت سلطان العقل البشري ونفوذه، وبالتالي قدرته على الاستقلال به. كما نبه إلى ذلك الوحي في مثل قوله تعالى:**[كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا]**[(3)].

فالآية تؤكد سنّة تسخيرية مطّردة في الحياة البشرية، وهي أن أسباب الحياة والعمران والتقدم، مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ – بإذن الله – إلى مسبَّبه، سواء أكان برا أو فاجرا، مؤمنا أو كافرا. فالسبب في التقدم والتأخر هو التمسك أو الترك للأسباب على حد تعبير العلامة ابن باديس[(4)] .

وعلى هذا الأساس فإن هناك مستوى من النفوذ الحضاري، متاح لكل من يحسن إحكام علاقته بسنن الآفاق والأنفس من المجتمعات الإنسانية، وهو ما لاحظه ابن تيمية عندما نبه إلى أن التمكين

---

(1) كاريل، **المرجع السابق**، ص12؛ رينيه دوبو، **إنسانية الإنسان**، ص31.

* لاحظ ابن خميس أن أهم ما ينبغي أن يعتني به بعد الكتاب والسنّة هو علم التاريخ، (السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ**، ص 47).

(2) عباسي مدني، **النوعية التربوية في المراحل التعليمية في البلاد الإسلامية**، (مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، 1410هـ- 1989م)، ص13.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 20.

(4) ابن باديس، **التفسير**، ص82.

يتحقق للدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يتحقق للدولة الظالمة وإن كانت مسلمة[1]؛ لأن العدل سنّة من سنن التمكين المطّردة في العمران البشري، والظلم سنّة من سنن خرابه[2]، المدركة بالفطرة والتجربة.

وفي غزوة أُحُد انهزم المسلمون، وتلقوا ضربة موجعة، لما خالفوا سنّة الانضباط وديمومة اليقظة، وغفلوا عن أولوية الواجبات لصالح الحقوق، ودار عليهم عدوهم لما أخذ بسنن اليقظة، وسرعة المباغتة والإرباك. وهو ما نبّه عليه الوحي بعد ذلك في تعقيبه على الموقف بقوله تعالى:**[أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]**[3].

فالسنن ماضية في الخلق بحسب الوعي بها، وقدرة الاستثمار لها، وعدم الذهول عنها، أو التهاون في أمرها. وذلك من عدل الله تعالى وحسن تربيته للبشر[4]. وهي – أي السنن – متكاملة يخدم بعضها بعضا، ولا يغني بعضها عن بعض، ويجب أن يصبّ كلها في ترقية الوعي الاستخلافي، بكل ما يتضمنه ذلك من ترقٍ معرفي وروحي وسلوكي وعمراني .

الاقتدار التسخيري والوعي بكلية سنن الهداية: والكليّة الثالثة المفسرة والمؤطّرة لصيرورة الحركة الاستخلافية، هي " **كليّة سنن الهداية** " ، التي تهيمن بدورها على جوانب ومستويات أخرى من الحياة البشرية، وتحتل جزءا أساسيا من " **ميزانيتهم التسخيرية الكونية** " العظيمة، وتمنح الفعل التسخيري قوة واقتدارا إضافيا، يرقى بمستوى فعالية أداء حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** درجات كبيرة، لا تتوفر مطلقا للفعل الإنساني المؤطّر بسنن الآفاق والأنفس فقط، وهي العتبة التي كثيراً ما يقف عندها الجهد الاستخلافي الوضعي، المنفلت من جاذبية واستقطاب مرجعية الابتلاء، والمحروم من خدماتها وبركاتها .

ونقصد بسنن الهداية هنا: بناء على ما تؤسسه لنا اللغة فيها من معاني الإبانة، والدلالة، والإرشاد، والإرادة، والتوفيق، والتوصيل[5]... السنن المؤسسة للوعي بفقه البدايات، والمهمات، والكيفيات، والنهايات، في الوجود البشري، الناظمة لحركة الصيرورة الاستخلافية؛ في تدافعها وتداولها وتجدُّدها، حتى تظل مؤطَّرة بمرجعية الابتلاء، ومستقطبة بجاذبيتها، ومتحققة بالتوافق والانسجام والتكامل، أو بالأصالة والفعالية والاطراد.

وعلى هذا الأساس فإن سنن الهداية، هي سنن ما فوق العقل أو ما بعده* . أي أنها تتكفل بإعطاء الوعي ما لا طاقة للعقل للاستقلال به[6]، وهو كل ما يتعلق بكليات الدورة الوجودية الكبرى للإنسان؛ في بداياتها، وغاياتها، وصيرورة مآلاتها بعد عالم الشهادة. وبالتالي ما له صلة ناظمة ومؤطرة للوعي التسخيري الذي اكتسبه الإنسان من خبرته بسنن الآفاق والأنفس، ليستثمره بأصالة وفعالية وتكاملية واطّراد، في تعميق وعيه الاستخلافي، وتلبية الحاجات الروحية والفكرية والمادية

---

(1) ابن تيمية، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص**70.
(2) ابن خلدون، **المقدمة**، 849/2.
(3)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 165.
(4) القاسمي، **محاسن التأويل**، 285/4.
(5) ابن منظور، **لسان العرب**، 353/15؛ الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص835.
* أي ما بعد عجز العقل وتوقفه عن إدراك حقائق الأمور.
(6) محمد رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، ص 48.

لخلافته في الأرض .

فالوعي بسنن الهداية، هو الذي يمنح الإنسان القدرة على الاستثمار الأصيل الفعّال التكاملي المطّرد، لسنن الآفاق والأنفس؛ لأنه يمنحه الوعي بالغايات والمعاني، ويحدد له المجالات والضوابط الكلّية التي يفجر فيها وبها فعاليته في طريقها الصحيح، محققا بذلك توافقه الذاتي، وانسجامه الاجتماعي، وتكامله مع المحيط الكوني كله، الذي لا يمكن أن يتحقق بصورته الصحيحة المطلوبة، إلا عبر الوعي بسنن الهداية، وحسن الاستثمار لها، بعد التفريق – في عملية الاستثمار للوحي – بين ماله قوة السنّة أو القانون الذي يحتوي الزمن ولا يحتويه الزمن التاريخي، وبين ما ليس له هذه القوة، ويندرج في سياق إجرائي أو انتقالي ليس له صفة الثبات والديمومة السننية.

وقد لوحظ عبر التاريخ، أنه كلما غاب أو قصر وعي الإنسان بسنن الهداية، وتهمَّش دورها في حياته، اتسم فعله بالتنافرية والاهتلاكية وعدم التوازن، وتحولت الفعالية المتاحة، من الوعي بسنن الآفاق والأنفس، إلى قوة مدمرة للإنسان والطبيعة معًا[1] . كما يتجلى ذلك في مظاهر الصراع الاجتماعي والسياسي عبر التاريخ.

وفي هذا السياق يقول توينبي عن دور سنن الهداية التي اختصت بها الأديان، في إطار تعمقه في دراسة قوانين الحضارة: " وواضح أنه في ظل عقيدة المجاهدة على الأرض* ، تتحقق الغايات الاجتماعية الطيبة للمجتمعات الدنيوية بتوفيق أعظم كثيراً مما تتحقق في مجتمع دنيوي يرمي إلى تحقيق هذه الأهداف مباشرة، ولا يتطلع إلى ما هو أسمى من ذلك.

وبتعبير آخر؛ إن الارتقاء الروحاني للنفوس البشرية في هذه الحياة، يحمل معه –حقا– تقدما اجتماعيا أعظم بكثير ممّا يتهيأ تحقيقه باستخدام طريقة أخرى..."[2] .

ويرجع سبب قصور أو عجز الفعل الحضاري الثنائي الأبعاد، إلى أن التحكم في سنن الآفاق والأنفس وحده لا يكفي لضمان توازن الفعل وصلاحيته؛ لأن هذه السنن وإن مكنت الإنسان، كما رأينا، من قوة التأثير على الطبيعة والإنسان، فإنها عاجزة عن إمداده بسلم للقيم المعيارية التي تحدد له غايات وضوابط استخدام هذه القوة استخداما منسجما مع فطرته وفطرة الوجود من حوله؛ لأن هذه القيم المعيارية الضابطة للفعل الإنساني والموجهة له، توجد في منظومة سننية أو مجال تسخيري آخر، هو مجال سنن الهداية، التي تكفل بها الوحي عبر النبوات والرسالات السماوية. منذ فجر التاريخ البشري، إلى أن ختم ذلك برسالة الإسلام، التي استوعبت ثوابت الخبرة الرسالية كلها، وأكملت ما تحتاجه الحياة البشرية من سنن الهداية و الرشد، كما جاء ذلك صريحا في القرآن والسنّة، فقال تعالى:[**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**] [3]، وقال كذلك:[**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**][4] أي المؤمن والشاهد والحاكم عليه[5]. وقال عليه الصلاة والسلام: (**مَثلي ومَثَل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا، فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة.. فأنا موضع اللبنة جئت ختمت الأنبياء**

---

(1) رينيه دوبو: **إنسانية الإنسان**، ص56.

* أي تأطُّرُ الجهد البشري بمرجعية الابتلاء.

(2) توينبي، **مختصر دراسة للتاريخ**، 149/3.

(3)**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 3.

(4)**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 48.

(5) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 466/4؛ ابن كثير، **التفسير**، 587/2.

)[1].

ومن هذا المنطلق، فإن سنن الهداية تعتبر إمكانا تسخيريا ثالثا، وضعه الله تعالى بين يدي الإنسان، ليمنحه الاقتدار التسخيري النموذجي[2]، عبر تمحيض قواه العقلية في تعزيز الوعي بسنن الآفاق والأنفس، وعدم تبديدها في مجالات لا تدخل في نطاق سلطة العقل ولا قدراته . لقد كفى الله الإنسان مئونة البحث الذاتي عن سنن الهداية، فمنحه إياها عن طريق الوحي الأعلى، الذي حمله الأنبياء الذين جاؤوا كما قال ابن تيمية بحق: " بما تعجز العقول عن معرفته ولم يجيؤوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمجازات العقول لا بمحالات العقول "[3].

فالوحي باعتباره إمكانا تسخيريا يشكل جزءا هاما من «ميزانية التسخير» البشرية، لاحظ الدارسون أثره البيِّن في الحياة الإنسانية عبر التاريخ، وصرحوا بناء على ذلك بأنه: "إحدى الملكات الضرورية في الطبيعة البشرية "[4]، تحكم " فكر الإنسان وحضارته كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها "[5]، فالدين والعلم* هما كما قال ريتشارد جريجوري: " السببان الرئيسان اللذان أثرا على تطور الإنسان خلال مراحل الحضارة البشرية "[6].

ولهذا ليس مستغربا أن تتوإلى الرسالات عبر الزمن، كما قال تعالى:**[وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ]**[7] لتأسس وعي الإنسان بسنن الهداية، وتمنحه من ثم بعدا أو مجالا تسخيريا ثالثا، يضمن له الاقتدار التسخيري، ويحقق له بذلك التفوق على الفعل البشري الثنائي الأبعاد، الذي تؤطره سنن الآفاق والأنفس فقط، وقد جاء الإسلام ينضِّج الوعي بكون سنن الهداية بعدا ضروريا مؤسسا لجانب هام من " الدورة الانجازية الكلية " للفعل الإنساني ومتوجًا لها[8]، كما عبرت عن ذلك نصوص كثيرة جداً في الكتاب والسنّة، نكتفي منها بقوله تعالى: **[فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى]** [9].

وقوله سبحانه وتعالى الذي ينبه إلى ما يمنحه الوعي بسنن الهداية من حيوية وتوازن وفعالية للفعل الإنساني:**[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ]**[10]. فبسنن الهداية يمتلك الفعل الإنساني قدرة حقيقية على التجدد والاستدراك، والإفلات من آثار الذنوب والضعف وفتور القوى... من خلال:

---

(1) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين (**شرح النووي**، 57/15).

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، 636/2، 637.

(3) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، 312/2.

(4) توينبي، **مختصر دراسة للتاريخ**، 179/3.

(5) مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص300.

* إن الوحي هو العلم الحقيقي المطلق، المطابق لحقائق الوجود؛ في المجلات الخاضعة لسلطة التأسيسية المباشرة . لأنه صادر من خالق الوجود.

(6) نقله عميش سمير سالم في: **الحتمية العلمية وخصائص التطور**، (دار كتابكم، عمان، الأردن، 1988م)، ص44.

(7)**القرآن الكريم**، سورة فاطر: 24.

(8) دراز، **الدين**، ص98، مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص75.

(9)**القرآن الكريم**، سورة طه: 120-121-122.

(10)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 24.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نظام العبادة الشامل المتوازن، الذي يغذي في الإنسان بصورة عملية، الطاقة الروحية المتجددة، التي تصله بالله تعالى وصلا محكما، فيعيش يقظا، مراقبا لنفسه، محاسبا لها، مجداً في طلب الكمال في كل شيء يقع تحت مسؤوليته، وفي حدود طاقته، لأن من يعش هذا التواتر الذاتي الخصب، ويحس بأنه يرى الله وأن الله يراه ويشرف مباشرة على نشاطه، في سره وعلانيته، ويبارك كل خطوة صائبة فيه، بل وكل خطوة خاطئة إن صدرت عن قصد سليم واجتهاد منضبط، تقوى لديه حوافز الاستقامة، وروح الانضباط.

و**آلية التوبة المجددة لحيوية النشاط ونفَسِه**، والمقوّمة لمسيرته.

و**أنظمة الوعد والوعيد** بمستوياتها العليا والدنيا، المتظافرة لشحذ إرادة التسامي، وروح المكابدة أو المجاهدة الحضارية لدى الإنسان، حتى يظل نشاطه الاستخلافي متحققا بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد باستمرار. وهو ما يُحرم منه الفعل المؤطّر بسنن الآفاق والأنفس فقط، مما يجعله ينزلق تدريجيا نحو الاختلال والتنافر والإهتلاك[1]. الأمر الذي يؤكد فعلا كون الفعل الوضعي ذا نفس قصير على الدوام، لاصطباغه بالذاتية، والجزئية، والاهتلاكية، بخلاف الفعل المؤطّر بالهداية فإنه ذا نفس طويل وكلي وتكاملي باستمرار، وهو ما توحي به كلمة
(**يحييكم**) في الآية السابقة إذ جاءت بصيغة المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار .

الاقتدار التسخيري والوعي بكلية سنن التأييد: إلى هذا الحد، فإن الفعل الإنساني المؤطّر بسنن الآفاق والأنفس والهداية، يستثمر إمكانات تسخيرية عادية في " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " الكبرى، ولكن هناك إمكانا تسخيريا إضافيا أو استثنائيا آخر، يمكن للإنسان استثمار بعض طاقاته الجبارة في حالات خاصة، عندما يواجه تحديات أقوى من إمكاناته التسخيرية المتاحة في ذلك الظرف والمكان، وهو " **سنن التأييد** "، التي تشكل منظومة تسخيرية رابعة، يمكن الاستفادة منها في تعزيز فعالية الإنجاز في أية لحظة تتوفر فيها شروط استثمارها.

ونقصد بسنن التأييد هنا: بناء على ما يمنحه لنا لفظ التأييد من معاني: التقوية، والشدّ، والإعانة، والمؤازرة، والنصرة، والتوفيق والمساعدة، والإرفاد، والموالاة، والدفاع، والتثبيت، والإنجاء والرعاية[2]... سنن مباركة الجهد الإنساني، ومضاعفة فعاليته بصورة استثنائية غير عادية، تمكنه من المحافظة على توازنه الذاتي وانسجامه الاجتماعي، بعد أن تكون تحديات الواقع العمراني أو الطبيعي قد عرّضته، أو أوشكت على تعريضه للاختلال والخطر، وهو لا يقوى بإمكانه التسخيري العادي المستمد من سنن الآفاق والأنفس والهداية، على مواجهة ذلك، رغم استفراغ الوسع في الاستقلال بتسوية الموقف وحده، في إطار استثمار المتاح له من معطيات سنن الآفاق والأنفس والهداية .

ولا شك أن الإنسان يمرّ في صيرورته الاستخلافية، سواء كان فردا، أو مجتمعا، أو أمة... بظروف وأوضاع معقدة، يجد فيها نفسه في موقف العاجز المحتاج إلى النصرة والتأييد والمساعدة، ليحافظ على توازنه، ويستعيد قوته وحيويته وقدرته على استئناف حياته العادية[3]، والمضي في تأصيل وتفعيل وإدامة حركة تجدده الذاتي، وتطوير مساهمته في تجديد حركة التدافع والتداول الثقافي والاجتماعي والحضاري، لذلك كان هذا الإمكان التسخيري الذي يوفر له ضمانات احتياطية دائمة،

---

(1) فرنسوا ريفل، **رياح التغيير الجديدة**، ص147.
(2) ابن منظور، **لسان العرب**، 76/3؛ ابراهيم أنيس، **المعجم الوسيط**، 34/1؛ عبد الصبور مرزوق، **معجم الأعلام والموضوعات في القرآن**، 23/1.
(3) علي زيعور، **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم**، ص114.

تبارك جهده، وتضاعف اقتداره التسخيري، وترعى مسيرته الاستخلافية، فيندفع لاستثمار ميزانيته التسخيرية الأساسية بحيوية واطمئنان.

وتنتمي هذه المنظومة السننية إلى عالم الغيب، لذلك تجيء آثارها مغايرة للعادة والمعهود في منطق وعرف منظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية. كما يتجلى ذلك على سبيل المثال في المعجزات الخاصة بالأنبياء عليهم السلام[(1)]، التي تدخل في الإمكان التسخيري الرابع. وتتجلى بعد ذلك في الكرامات[(2)]، التي يتولى بها الله الأفراد والجماعات البشرية، بحسب تحققها بشروط ومقتضيات استثمار هذه المنظومة التسخيرية الاستثنائية، التي هيئت لسد " عجز غير مقدور، أو ضعف غير مقصود، أو غير ناتج عن تعمد وإهمال، أو قصور لم يتسبب من أفعّال الناس وتصرفاتهم "[(3)].

والذي يميز هذه المنظومة التسخيرية عن غيرها من المنظومات الثلاثة الأخرى، هو استحالة التصرف فيها والانتفاع بها بغير شروطها ومقتضياتها؛ لأنها تُمنح من الله مباشرة، على خلاف التصرف في غيرها، فإنه متاح للإنسان مباشرة، بتسخير ابتدائي أصلي منه سبحانه وتعالى، بشروطها الموضوعة تحت سلطة العقل والآليات التنفيذية المرتبطة به في الكيان الإنساني ذاته. مع ملاحظة ما لسنن الهداية من خصوصية هنا، فيما يتعلق بما لا طاقة للعقل للاستقلال به ، من أمر الغيوب، والغائبات الكلّية المطلقة، وبعض ثوابت الفطرة والحياة، التي استقل الوحي بها، ومنح العقل فيها إمكانية الاجتهاد الفهمي والتنفيذي فقط، محافظة على طاقته، وحماية للحياة الإنسانية من الاختلال والاهتلاك .

وقد يكون من المهم جداً هنا، ونحن نتحدث عن هذا الإمكان التسخيري الرابع، أن نشير إلى ملاحظة منهجية في غاية الأهمية، وهي ضرورة تحرير أنفسنا، هنا بالذات، من الفكرة الوضعية التي تعتبر كل ما هو غير منظور، وغير قابل للإدراك الحسي، أو العقلي المبني على ذلك، أمر غير قابل للإدراك، أو غير طبيعي، أي غير موجود، وبالتالي يُلغى من اهتمامات العلم والإنسان، لأن مثل هذا الموقف غير علمي، خاصة وأن العلم الحديث في اندفاعاته الرائعة نحو استكشاف سنن الآفاق وبعضا من سنن الأنفس، أثبت بمَا لا مجال فيه للشك، كم إن حواسنا وحدها غير كافية[(4)] للإحاطة بحقائق الكون والأسرار الغائية الكامنة في مفرداته. وكل يوم نكتشف شيئا جديدا لم يكن ليخطر لنا على بال.

وتتأكد أصالة هذا الإمكان التسخيري الرابع، من تضافر ثلاث مرجعيّات أساسية هي: المرجعية الفطرية، ومرجعية الوحي، ومرجعية التاريخ .

المرجعية الفطرية: حيث يلحظ بالاستقراء، مدى عمق إحساس الإنسان بقوة هذا الإمكان في نفسه، واستيقانه بأهميته وقدرته على حفظ توازنه[(5)]، في حالات الخطر التي تدفعه إلى الاستنجاد بالتأييد الإلهي وحده، كما يتجلى ذلك بقوة في كل الثقافات البشرية دون استثناء، بغض النظر عن تنوع واختلاف صيغ ومظاهر التعبير[(6)] عن هذه الحاجة الفطرية، المتغلغلة في عمق الوعي الباطني

---

(1) المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص121.

(2) الشوكاني، **قطر الولي على حديث الولي**، ص119، وتراجع كتب ابن تيمية وابن القيم وابن الحاج وغيرهم، لتحرير معنى الولاية الحق وشروطها.

(3) محمود فرحات، **الدعاء رؤية جديدة**، ص 110.

(4) شتاينباخ ريتشارد، **معنى الحياة والموت**، ترجمة: هدى موسى، (دار الحوار، اللاذقية، سورية، 1990م)، ص6.

(5) الكسيس كاريل، **الدعاء**، ص31-56.

(6) يراجع هنا: **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، والحنين إلى الأصول** لاميرسيا إلياد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للإنسان، والمؤكدة فعلا لاعتقاد الإنسان الراسخ بوجود هذا الإمكان التسخيري الاحتياطي الاستثنائي الذي لا حدود لفعاليته، والذي بإمكانه نجدته، وإعادة توازنه.

ومن يدرس ظواهر الشرك ومظاهره في الثقافات الإنسانية، يجد أن هذه الحاجة الفطرية في الإنسان هي التي تدفع به في حالات الاحتياج والخطر خاصة، إلى الاستعانة بالمخلوقات، من الجعل المصري إلى الفيل الهندوسي على حد تعبير (ديورنت)[1]، وبكل مظهر جميل وقوي في الطبيعة[2].

فهذا الإمكان التسخيري يحس به الإنسان بأنه موجود فعلا في " ميزانيته التسخيرية الكونية " العظيمة، التي تغطي كل احتياجاته، في جميع ظروفه، وإن لم يعرف في الكثير من الأحيان سنن استثمار هذا الإمكان اللامحدود القوة والفاعلية، كما تعبر عنه المعجزات والكرامات وأشكال البركة والعون اللامحدودة... فيتورط في الشرك .

مرجعية الوحي: والمرجعية الأخرى لأصالة هذا الإمكان التسخيري هي الوحي، حيث يلحظ بالاستقراء كذلك، تأكيد جميع الأديان لهذا الأمر[3]، وجاء ذلك أكثر وضوحا وتأصيلا وتأكيدا في الكتاب والسنّة، في آيات وأحاديث من الكثافة والغزارة بمكان، قد تغني عنها هنا الإشارة إلى قوله تعالى:**[وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا]**[4]، وقوله سبحانه للمسلمين وهم مستضعفون خائفون:**[فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]**[5]. وقوله عزّ وجلّ: **[وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ]**[6]. وتتبع معاني النصرة، والمعية، والتأييد، والدفاع، والتقوى، والدعاء[7] والشكر، والتوكل[8]... في القرآن والسنّة تبين مدى عناية الوحي بهذا الإمكان التسخيري العظيم .

مرجعية التاريخ: والمرجعية الثالثة لأصالة هذا الإمكان التسخيري هي الواقع التاريخي للإنسانية، الذي تطفح ثقافات الشعوب بشواهد ومؤيدات لا حصر لها عن استفادة البشر من سنن التأييد، وقد جاءت في القرآن إشارات كثيرة إلى ذلك، تبين تنوع، وكثافة، واطّراد استثمار البشر لهذا الإمكان التسخيري الذي لا حدود لقوته، يمكن الوقوف عليها عند كلمات النصر، والتأييد، والإنجاء، والهزيمة، والولاية، والدعاء... في تفاسير القرآن الكريم.

فكل هذه المرجعيات ذات الحجية القوية، تؤكد وجود هذا الإمكان التسخيري العظيم، الذي استأثر الأنبياء بمستوى المعجزات فيه[9]، وأتيح ما عداه من مستويات التأييد الأخرى دونه، لكل من يحقق شروط التأييد والإعانة والنصرة، بحسب حاجته ومصلحته، التي يستقل الله تعالى بتقديرها، فيعطيه من التأييد ما يحقق مصالحه الكلّية الحقيقية ، الجامعة بين الآني والاستراتيجي، والدنيوي

---

(1) ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، 106/1.
(2)أبو الحسن الندوي، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ص 104/1.
(3) محمود فرحات، **الدعاء**، 166.
(4)**القرآن الكريم**، سورة الطلاق: 2.
(5)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 26.

(6)**القرآن الكريم**، سورة غافر: 60.
(7) القاسمي، **محاسن التأويل**، 91/3 وما بعدها.
(8) ابن القيم، **مدارج السالكين**، 116/2 وما بعدها.
(9)أبو العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، 746/2.

والأخروي... في حياته، وهو ما لا يرقى إليه علم الإنسان، ولا تقديره للأمور، وموازنته بين المصالح في كل هذه الأبعاد، ويحتاج فيه باستمرار إلى تأييد الله ومعونته، التي تنفذ عبر سنن ستأتي الإشارة إليها لاحقا.

وفي حديث الولاية الشهير، تشخيص منهجي دقيق لعمل منظومات سنن التسخير عامة، وسنن التأييد منها خاصة في حياة الإنسان، والارتقاء بمستوى أدائه الاجتماعيإلى مستويات نموذجية من الأصالة والفعالية والاطراد، كما نلمس ذلك في نص الحديث القدسي الذي جاء فيه عن رسول الله: (**إن الله تبارك وتعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**)[1].

فالحديث كما نرى – على الصعيد المنهجي – يؤكد المستوى النموذجي من الفعالية القصوى التي يبلغها الجهد الإنساني، عندما يستثمر بشمولية وتوازن وتكامل، سنن الآفاق والأنفس والهداية، فترافقه بذلك العناية والرعاية والمباركة الإلهية[2]. كما يؤكد من جهة أخرى المستوى أو المستويات الأرفع من ذلك والأكثر نموذجية في فعالية الأداء وبركته، وهي التي تأتي عبر طلب

الإنسان الإعانة والتأييد المباشر، فيعطى ذلك بحسب المصالح والأولويات التي يقدِّرها الله تعالى له[3]، كما نلمس ذلك في حديث الاستخارة([4])، وفي مستويات استجابة الدعاء([5]).

وبصفة عامة فإن فكرة التأييد لها تأثير نفسي عظيم على فعالية الأداء التسخيري والاستخلافي للإنسان. لأن الإنسان المستيقن بها، يدرك بعمق، أنه لكي يوفق فيما يستقل بإنجازه، ويعان فيما لا طاقة له به، ويبارَك له في ذلك كله، لا بد له أن يستوفي شروط ذلك أولا بأول، وأن يعطي لكل مرحلة أو بعد في " **الدورة الإنجازية الكلية** " لفعله التسخيري والاستخلافي، ما يستحقه من الشروط والجهد والعناية، دون تهاون أو تفريط، وأن يستفرغ وسعه في ذلك إلى أقصى مداه المُطاق. وهو ما يكون له صداه العميق في تعاظم فعالية الإنجاز لديه دون شك، ويفسح المجال واسعا أمامه للاستفادة من خدمات وبركات المستوى المباشر من التأييد، عند الحاجة إليه بعد ذلك؛ عبر المعجزات بالنسبة للأنبياء، والكرامات وأنواع العون والمباركة الربانية التي لا حدود لها، بالنسبة لمن دونهم من البشر، وفي مقدمتهم المؤمنون الموحدون الطائعون المستقيمون على منهج الخلافة المرسوم لهم من الله تعالى .

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الرقاق، باب التواضع. (فتح الباري، 348/11).

(2) البغوي، الحسين بن مسعود، **شرح السنّة**، تحقيق شعيب الأرناؤوط،(المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م)، 20/5.

(3) ابن حجر، **فتح الباري**، (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ-1989)، 419/11.

(4) أخرجه البخاري في **الصحيح**، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، تحت رقم1162.

(5) أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء**، 225/6.

الكليات المؤثرة في فاعلية استثمار منظومة سنن التأييد: ولهذه الكلّية سنن فرعية – كما لكل الكليات الأخرى– تعتبر مقدمات شرطية لها، يمكن إعادتها إلى أربع كليات كبرى هي: **كلية التوبة**([1])، **وكلّية الشكر**([2])، **وكلّية الدعاء**[(3)]، **وكلّية التوكل**([4])، التي إذا ما استُجمعت، بعد استيفاء استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية، أمكنت الإنسان من الاستفادة من سنن التأييد بحسب حاجته، ومن ثمّ منح فعله التسخيري اقتدارا نموذجيا، قد يبلغ مستويات قصوى من الفعالية الانجازية، كما يتضح لنا ذلك في الحركات الرسالية عامة، وفي الحركة النبوية خاصة، وفي كل جهد استخلافي استوحى منها منهجه بعد ذلك عبر التاريخ.

كلية التوبة: وتشكل المدخل الأساس الأول لاستثمار معطيات منظومة سنن التأييد . لما تحققه في حياة الإنسان من يقظة فكرية وروحية ونفسية وسلوكية عميقة، تدفع به إلى مراجعة نفسه، وتقييم وضعه، وتخليص نفسه من الأخطاء والنواقص والذنوب والمعاصي، التي حدثت في حياته، وأثقلت كاهله بالهموم، وأثرت سلبا على فاعليته الفكرية والروحية والنفسية والسلوكية والاجتماعية التكاملية المطلوبة([5]) .

فالجهد التسخيري أو الاستخلافي البشري، لا تتراجع أو تضعف أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية، مدافعته أو مداولته الثقافية والاجتماعية والحضارية، إلا بقصور أو ذنب أو معصية ما، حدثت في حياته، وأثرت سلبا على تفكيره، أو إرادته، أو سلوكه، أو عمله، أو علاقته بالآخرين، فجاء أداء " **الدورة الإنجازية الكلية** " لفعله الثقافي، أو الاجتماعي، أو الحضاري، مضطربا متنافرا مهتلكا، ضارا به وبغيره([6]) .

وهذا الأمر يؤكده الواقع السنني والتاريخ المعيش فعلا؛ إذ ما استضعف إنسان أو مجتمع، ولحقت به المهانات، وفاتت عليه مصالحه العاجلة والآجلة، إلا بتقصير أو ذنب أو معصية ارتكبها، فاختلت بذلك موازين القوة في نفسه، وبينه وبين محيطه الاجتماعي والكوني. كما تؤكده نصوص الوحي وتوجيهاته الكثيرة كذلك، التي تحذر من الدور السلبي الخطير للنواقص والأخطاء والذنوب والعاصي في حياة الأفراد والمجتمعات، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى:[**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ**]([7]).

وفي السنة النبوية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أثر الذنوب والمعاصي في حرمان الفرد والمجتمع من الخير: (**لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها**)([8]).

([1]) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 3/4.

([2]) ابن القيم، **تهذيب مدارج السالكين**، 185/1.

(3) انظر: **شأن الدعاء** لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، و**الدعاء** لكاريل، و**الدعاء** لمحمود فرحات...

([4]) الغزالي، **المرجع نفسه**، 238/4.

([5]) ابن القيم، **الجواب الكافي**، ص83.

([6]) أورده الألباني في **صحيح أبي داود** برقم/3610.

([7]) **القرآن الكريم**، سورة غافر: 21.

([8]) أورده الألباني في **صحيح ابن ماجة** (ط3، مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض 1988)، برقم73.

وفي حديث نبوي آخر، إشارة هامة جدا إلى منهجية تأثير الأخطاء والانحرافات والذنوب والمعاصي على حياة الإنسان، والدفع به إلى مراحل خطيرة من فقدان التوازن الذاتي، وضعف أو تراجع الفاعلية الفكرية والروحية والاجتماعية التكاملية الإيجابية، وما ينجم عن ذلك كله، من القابلية للتأثر السلبي، والاستعداد للاستضعاف، بحكم **قانون المدافعة والمداولة** الثقافية والاجتماعية والحضارية. يقول عليه الصلاة والسلام: **(تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا . فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء . وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا . فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا ، كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من مراه)**([1]).

وهو ما أكده حديث آخر في نفس السياق، قال فيه عليه الصلاة والسلام: **(إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله " كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ")**([2]). قال الزمخشري في تفسير معنى الرين القلبي: " ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها. وهو أن يصر على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه. وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب. يقال: ران عليه الذنب وغان عليه، رينا وغينا، والغين: الغيم، ويقال: ران فيه النوم رسخ فيه، ورانت به الخمر: ذهبت به "([3]).

وهكذا دواليك تفعل الأخطاء والانحرافات والمعاصي فعلها القوي، في تراجع أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية، الإنجازية الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية للإنسان، وهو ما يعرِّضه دون شك لتحديات وأخطار كثيرة، قد تهدد وضعه الاجتماعي، أو كرامته الإنسانية، وربما وجوده كله([4]). بحكم منطق **المدافعة والمداولة** الذي يهيمن على صيرورات الحياة البشرية، ولا يقيم وزنا لكل من يغفل أو يتهاون في احترام السنن الإلهية الفاعلة في حركة الاستخلاف البشري في الأرض([5]).

فإذا أدركنا ذلك كله، وأخذنا بعين الاعتبار سنة ملازمة النقص والقصور للفعل الإنساني، واعتبار الوقوع في الخطأ وارتكاب الذنوب والمعاصي، من طبيعة الإنسان، كما جاء في الحديث: (**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**)([6])، تبين لنا مدى الحاجة الدائمة للتوبة والاستدراك، من أجل تصحيح وضع الإنسان، وإعادة بناء توازنه الذاتي، وتكيفه الاجتماعي، وتكامله الكوني .

فالتوبة على هذا الأساس سنة شرطية أساسية في النظام السنني الناظم لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بدونها يستحيل أن تتحقق هذه الخلافة البشرية كما أرادها الله تعالى، بل سيدفع بها توالي الأخطاء والذنوب والمعاصي وتراكمها، بعيدا عن **مقاصد العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، التي تستهدفها الخلافة البشري في الأرض، لذلك شرع الله سنة التوبة والاستدراك للمحافظة على تحقيق هذه المقاصد .

([1]) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا، تحت رقم144.

([2]) أخرجه الترمذي في **السنن**، باب سورة ويل للمطففين،تحت رقم3334.

([3]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخران، (مكتبة العبيكان، السعودية، 1998)، 337/6.

([4]) أخرجه أبو داود، **في السنن**، تحت رقم4297.

([5]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار** 188/4.

([6]) أورده الألباني في **صحيح الترمذي**، تحت رقم2499.

والاستفادة من خدمات وبركات منظومات سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، يستلزم التفعيل اليومي بل اللحظي لقانون التوبة والاستدراك، لأنه من غير الممكن أن يستفيد الإنسان من هذه الخدمات والبركات، وهو مستمر في الخطأ والإثم والانحراف . ولذلك ورد في السنة النبوية أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة: **(إنه ليغان على قلبي . وإني لأستغفر الله ، في اليوم ، مائة مرة)**([1]). بل روى بعض الصحابة أنهم كانوا يعدون لرسول الله في المجلس الواحد، أكثر من مئة استغفار وتوبة([2]) .

هذه هي الوظيفة الروحية والنفسية والسلوكية والتربوية للتوبة والاستدراك في حياة الفرد والمجتمع، أن تشحذ روح اليقظة لديهم باستمرار، فإذا ما وقع أي خطأ أو قصور في حياتهم، تم تداركه بسرعة، فإذا تعذر ذلك، أو كان التحدي أقوى من الطاقات المتاحة، وقَّرت التوبة بشروطها الشرعية المتكاملة([3])، أساسا روحيا هاما لاستثمار مستويات أخرى من ميزانية التسخير المتوفرة في **منظومة سنن التأييد**، كما سبق بيان ذلك .

كلية الشكر: وهي المدخل الأساسي الثاني لاستثمار سنن التأييد والاستفادة منها، باعتبار الشكر – بما يعنيه من اعتراف بالنعم، وحمد للمنعم، ووفاء له بحق الطاعة والامتثال، واستعمال لهذه النعم فيما وجدت من أجله[4] ، مؤشرا أساسيا على النضج الإيماني، وعمق الاستيعاب للمعاني العقدية والعبادية في خلافته، فتجاوز في علاقته بنفسه والكون من حوله، مخاطر الانحباس في ملاذ ومتع المسخرات المادية والمعنوية، على ما فيها من جاذبية واستقطاب شديد[5]، إلى شكر الله تعالى على ما أنعم، وأعطى، وأعان، ووفق، حتى تمت الأعمال على الوجه الذي أراد، أو قريبا من ذلك، واستمتع بها الإنسان دون بطر و استكبار أو انسحاق وذلة.

فالشكر بهذا المعنى مقدمة أساسية لاستثمار سنن التأييد والانتفاع بها، سواء في الاستزادة من الخيرات المادية والمعنوية، والتوسع في التحسينيات[6]، والارتقاء في الكمالات، أو في استكمال النواقص، ودفع الأخطار التي لا طاقة للإنسان للاستقلال بدفعها، كما نبه إلى ذلك القرآن في قوله تعالى:**[وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ]**[7] .

ونحن نشاهد في الواقع البشري العادي، كيف يُكرّم المحسنون ماديا ومعنويا، ويُرقون في مراتب السلم الاجتماعيمن قبل المسؤولين عليهم، وإذا حصل لهم ضيق أو احتاجوا إلى المساعدة، أسرعوا إلى نجدتهم. فكيف لا يكون هذا من شأن الله تعالى مع خلقه، وهو الذي وعد بذلك، ويملك وحده القدرة على الوفاء بوعوده! وقد قال سبحانه كذلك:**[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ]**[8] ، أي لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة[1]، الأكثر أصالة وفعالية في مواجهة تحديات

([1]) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب استحباب الاستغفار،تحت رقم2702.

([2]) أخرجه الترمذي في **السنن**، باب سورة محمد، تحت رقم/3434

([3]) القرافي، **الذخيرة**، 356/13.

(4)الغزالي، **الإحياء**، 81/4.

(5) المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص190 وما بعدها.

(6) الدهلوي، **حجة الله البالغة**، 177/2.

(7)**القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 7.

(8)**القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: 69.

الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، والاستمتاع بحياتهم في كل مراحل دورتهم الوجودية. وقد مرّ تأكيد هذا في حديث الولاية كذلك.

كلية الدعـــاء: إذا كان الشكر هو الإحساس العميق بالنعمة، والاعتراف بفـضل المـنعم، وزيادة المحبة له، والتودد إليه، والحرص على القرب منه، ونيل المزيد من رضـاه، والتحـرر مـن الانحباس في أسر المسخرات. وهو دون شك مستوى رفيع من مستويات التحقق بالعبودية الخالصة لله تعالى، المساعدة على مباركة الجهد، وجلب التأييد، فإن الدعاء هو الكلية أو المقدمة الثانيـة، الأعمـق دلالة على وطادة النضج الإيماني، واستحكام الوعي بالمعاني والأبعاد العقدية والعبادية فـي الخلافـة الإنسانية من جهة، والشرط الثاني الأكثر مباشرة لتحصيل المباركة والتأييد من جهة أخرى.

ذلك لأن الدعاء بما هو استدعاء للعناية الربانية، واستمداد لمعونته باسـتمرار[2]، للمحافظـة على ما تحقق من النعم، واستدراك ما فات من النواقص، ومباركة الجهد القائم، وتيسير إتمامه، وحسن الانتفاع والنفع به، فإنه يمثل الدائرة أو المستوى الأعمق في العبودية، كما يؤكد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (**العبادة هي الدعاء**) وفي رواية: (**الدعاء هو العبادة**)[3]، أي معظم العبـادة وجوهرهـا وعمقها[4]. لما يتضمنه الدعاء من معاني التوبة، والاسـتغفار، والإخـلاص، والإخبـات لله تعـالى، والافتقار الصادق إليه، والإحساس العميق لدى الإنسان بمعاني تفرده سـبحانه بالربوبيـة والوحدانيـة والقدرة على تلبية حاجاته فعلا، مما يزيده استغراقا في التحقق بمعني ومقاصد العبودية، واستحـضار الرقابة الإلهية المحيطة به، التي تنعكس على شفافيته الروحية، وعلى فعالية أدائه الاجتماعي[5]، كمـا نبه إلى ذلك حديث الولاية السابق ذكره.

ولأهمية كلّية الدعاء العقدية والتربوية والوقائية، واعتبارها من شروط استثمار سنن التأييد، فقد أولاها القرآن والسنّة عناية كبيرة[6]، وأسّسا لها منظومة معرفية وتربوية كاملة، تحقق أبعادها وأهدافها التسخيرية في الخلق، عندما يتم استيعاب شروطها جيداً، وتمثّلها بصورة أصيلة وفعالة ومطّردة([7]) .

ومما ينبغي الانتباه الشديد له هنا، لتحقيق الاستفادة التسخيرية القصوى من قانون الدعاء، هـو تعميق الوعي بمراتب أو كيفيات استجابة الله سبحانه وتعالى للدعاء، لأن هناك من لا يعي ذلك، فيظن بأن دعاءه لم يُستجب، فيغفل عن الدعاء، ويهدر إمكانية تسخيرية عظيمة التأثير على أصالة وفعاليـة وتكاملية واطرادية جهده الاستخلافي؛ في كل مراحل " **دورته الإنجازية الكلية** ". وهو ما جاء توضيح أمره في حديث نبوي قال فيه عليه الصلاة والسلام: (**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيهـا إثـم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته. وإما أن يدخرها فـي الآخـرة .**

---

(1) الطبري، **جامع البيان**، 15/21، ابن عطية، **المحرر الوجيز**،418/11، 419.

(2) الخطابي، سليمان محمد بن محمد، **شأن الدعاء**، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، (دار المأمون للتراث، دمشق. 1404هـ-1984م)، ص4.

(3) أخرجه الحاكم في **المستدرك** 491/1.

(4) الخطابي، **المرجع السابق**: 5.

(5) الدهلوي، **حجة الله** 196/2.

(6) انظر على سبيل المثال: **كتاب الدعاء** للطبراني، و**شأن الدعاء** للخطابي، وما ذكره الغزالي عنه في **الإحياء**، وابن القيم في **المدارج** ...

(7) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**20/14.

وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا: إذن نكثر قال الله أكثر)([1]).

كلية التوكل: وهي الأساس الرابع للوعي التأييدي خاصة، ومصب الوعي التسخيري كله عامة، حيث يبلغ الإنسان قمة عبوديته لله تعالى . إذ التوكل في حقيقته اعتماد على الله تعالى، وتفويض للأمر له، بعد اليقين الجازم الذي يحصل لدى الإنسان، في كونه سبحانه صاحب الأمر والنهي[2]، والعلم المحيط بالحقائق والأوضاع، والحكمة البالغة في تقدير مصالح العباد، والقدرة المطلقة في إنفاذ وعيده، وإنجاز وعوده.

فالوعي التوكّلي، هو الذي يربط في نفس الإنسان وحياته بين المسخرات كلها، ويبرز الدلالات العقدية والأبعاد العبادية في ذلك كله، ويبقيها حيّة متجدّدة باستمرار، عندما يدرك بيقين وجزم، أن إرادة الله تعالى وحكمته وقدرته وراء كل هذه المسخرات، في الآفاق، والأنفس، والهداية، والتأييد، ووراء كل خطوة في استثماره لهذه السنن في «الدورة الانجازية» لفعله التسخيري والاستخلافي، الذي بدون إعانته سبحانه وتعالى وتوفيقه، لن يتم للإنسان شيء، في أية مرحلة من مراحل «الدورة الانجازية» لأفعاله التسخيرية والاستخلافية فيتحرك لمواجهة تحديات الإبتلاء والتجديد وهو يستشعر الافتقار إلى تأييد الله تعالى، لتعظم مراعاته لأقداره وسننه وأوامره في الخلق، لاستيقانه أنها شرط التأييد في مستوياته المباشرة وغير المباشرة. وهو ما ينعكس على أدائه التسخيري والاستخلافي في أبعاده؛ المعرفية، والروحية، والسلوكية، والعمرانية، بالمزيد من الأصالة والفعالية والاطراد.

وقد تكفينا هنا الإشارة إلى قوله تعالى:[**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ**][3] وقوله سبحانه:[**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**][4] .

فالتوكل كما هو واضح مصب الجهد الإنساني، وخاتمته الطبيعية، التي تمنحه مستويات نموذجية من الأصالة والفعالية والاطراد، إذا ما استوفى دون تقصير أو إهمال مرحلة التقوى[5] والعزم[6]، المتصلة باستفراغ الوسع في الأخذ بسنن الآفاق والأنفس والهداية، في بناء " الدورة الانجازية الكلية " للفعل التسخيري والاستخلافي، ثم تفويض الأمر بعد ذلك لله تعالى ليختار للإنسان ما فيه صلاحه العاجل والآجل، مع استمرار اليقظة لاستكمال النقائص عندما تتوفر الاستطاعة والإمكان. لأن التوكل بمعناه الخاص، ليس حالة دائمة، بل هو لحظة يُعتمد فيها على الله مباشرة لاستكمال ما اعتور الجهد من نقص غير مقدور للإنسان، ريثما تتوفر له القدرة عليه ليُتكفل بإنجازه في إطار مفهوم التوكل العام الذي يرافقه باستمرار.

وعندما يبلغ الإنسان هذه المرحلة في علاقته بالله تعالى، يكون قد بلغ قمة عبوديته، وقمة

([1]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 10/ 151.

(2) أبو العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، 749/2؛ الشوكاني، **قطر الولي**، ص 282.

(3)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 159.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الطلاق: 2-3.

(5) المراغي، **التفسير**، 140/28.

(6) أبو حيان، **البحر المحيط**، 409/3.

* كما تدل على ذلك ظاهرة الشرك بمختلف تجلياتها العملية في الحياة الإنسانية، وفكرة العلم للعلم في بعض منطلقاتها وأبعادها...

اقتداره التسخيري، وكمال نضجه ورقيه الاستخلافي . لأنه بذلك يكون قد تجاوز الأبعاد التسخيرية الآلية في المسخرات، – والتي كثيراً ما ينحبس فيها الفكر الوضعي، ويُستوعَب من قبلها* – إلى استيعاب الدلالات والمعاني العقدية والروحية والأخلاقية في ذلك، والنفاذ عبرها نحو العبودية التي تجعل الإنسان في قمة توافقه الذاتي، وانسجامه الاجتماعي، وتكامله الكوني، على اعتبار أن الإنسان يترقى في مدارج الإنسانية بقدر ترقيه في مدارج أو منازل العبودية لله تعالى[1].

وباكتمال الوعي بكلية سنن التأييد، يتكامل الوعي بالكليات المفتاحية الناظمة للاقتدار التسخيري، وتتضح للإنسان أبعاد ومكونات " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " العظيمة، التي تضع بين يديه كل شروط الفعالية والاقتدار التسخيري النموذجي، ولا تبقى له بعد هذا أية حجة في تحقيق هذه الفعالية وهذا الاقتدار في حركته الاستخلافية في الأرض.

وبناء على كل ما سبق، فإننا نرى كيف تؤسس الدعوة الإسلامية الوعي التسخيري لدى الإنسان – بعد الوعي الكوني أو العقدي – بعد حسم الموقف من أهمية وضرورة هذا الوعي، وتحديد الضوابط والمقومات التي تتميز بها سنن التسخير، وتعميق الفهم للكليات المبدئية أو المعرفية الناظمة للصيرورة الاستخلافية: تفسيرا وتأطيرا، وكذا الكليات المنهجية أو الوظيفية المفسرة والمؤطّرة للاقتدار التسخيري، ومدّ هذا الوعي إلى إمكانات ومجالات تسخيرية هائلة، كثيراً ما تقاصر عنها الوعي البشري الوضعي عامة، والخرافي منه خاصة، فحُرم من خدماتها العظيمة، فجاءت فعاليته التسخيرية تنافرية اهتلاكية، وحركته الاستخلافية غير أصيلة وغير تكاملية، واستمتاعه بالحياة منقوصاً، لا يمتد ليشبع الأشواق الروحية والنفسية الفطرية العميقة لدى الإنسان .

وبهذا الوعي التسخيري الشامل المتكامل، تحل الدعوة الإسلامية المعضلة الوجودية الثانية في الحياة البشرية، وهي معضلة الفعالية التسخيرية أو الاقتدار التسخيري، الذي يتمحور حوله الهمّ والاهتمام البشري على الدوام، لارتباطه ارتباطا عضوياً بالمعضلة الأساسية الثالثة في مكونات " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الاستخلافي البشري، وهي: الوعي الاستخلافي، سواء تأطر هذا الاستخلاف " **بمرجعية الإبتلاء** " أو " **بمرجعية الصراع والأنا المستكفي**" أو المقهور، ووضعت بين يدي الإنسان الشروط الموضوعية الكاملة لأصالة وفعالية وتكاملية واطرادية الأداء الاستخلافي، وعمق الاستمتاع الروحي والمادي بالحياة الدنيوية.

والخلاصة التي ينتهي إليها هذا الفصل من الدراسة هي: أن الله سبحانه وتعالى وضع بين يدي خلافة الإنسان في الأرض، " **ميزانية تسخيرٍ كونية** " كبرى، تشكل السنن والقوانين المطردة، القوة الضاربة فيها، التي إذا ما اكتُشفت، وعُرفت آليات عملها، وتم استثمارها بكفاءة، أعطت الجهد التسخيري البشري أصالته وفاعليته وتكامليته واطراديته النموذجية القصوى.

وتتمحور فصول هذه الميزانية التسخيرية الكونية الكبرى، حول ثلاثة أنواع أساسية من الوعي السنني، هي:

- الوعي بمنظومات سنن الله في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، التي تهيمن على الصيرورة الاستخلافية البشرية على الدوام، وتتحرك بها على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** الصاعد. أو تتحرك بها على خطوط **الضلال والشرك** والأنانية والترف **والفسوق**، المتضادة لمقاصد الخلافة البشرية في الأرض .

---

(1) الأصفهاني، **تفصيل النشأتين**، ص 149 .

- الوعي بمنظومات سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، التي تحكم الفاعلية والكفاءة التسخيرية للأفراد والجماعات البشرية وتتحكم فيها باستمرار، وتتحرك بها نحو **الفاعلية البنائية التكاملية المطردة**، أو نحو **الفاعلية التنافرية الإهتلاكية الهدمية المنهكة** .
- والوعي بمنظومات سنن **الأصالة والفاعلية والتكاملية والإطرادية**، التي تختزن المعايير والخصائص والشروط الأساسية، التي يجب أن تتوفر في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل التسخيري البشري، حتى يكون فعلا استخلافيا متوازنا، قادرا على تحقيق مقاصد الخلافة البشرية في **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** .

الفصل الرابع

بناء الوعي الإنساني

بالمنظومات الكلية لسنن الاستخلاف

تمهيد:

المعضلة الثالثة التي يواجهها البشر باستمرار، في المرحلة الدنيوية من " **دورتهم الوجودية الكبرى**"، هي **الوعي الاستخلافي**، الذي يمكّن الإنسان من إنجاز مهمته الوجودية بكفاءة واقتدار، والاستمتاع بما في عالم الشهادة من نعم ومتع وبركات مادية وروحية، وتهيئة نفسه للاستمتاع بما في المراحل التالية من دورته الوجودية الكبرى، من نعم وبركات لا حدود لها.

فبعد أن يؤسس الإنسان وعيه العقدي أو الكوني، ووعيه التسخيري، تواجهه مشكلة الاستخلاف، أي استثمار الوعي السابق في بناء نموذج عمراني أو حضاري يحقق عبره إنسانيته؛ سيادة في الأرض، واستمتاعا متكاملا ومتوازنا ومكثفا بخيراتها، من خلال تأطّر حركة تدافعه وتداوله وتجديده **بمرجعية الابتلاء**، التي تمكنه من الاستثمار الشامل الفعّال المتكامل المطرد، لمنظومات سنن الاقتدار التسخيري كلها.

ومن يدرس تاريخ الصيرورة الاستخلافية في الأرض، يلحظ فعلا كيف احتل الوعي الاستخلافي مكانة محورية في الاهتمام الإنساني، كما عبرت عن ذلك المستويات العمرانية أو الحضارية المتنوعة والمتباينة، بل وكما حاولت أن تعبر عنه الطوباويات أو المثاليات المختلفة، التي حاولت تأسيس وعي استخلافي من خلال الجمهوريات أو المدن الفاضلة [1] كما كانت هذه القضية في

---

[1]) كما فعل أفلاطون والقديس أغسطين والفرابي وغيرهم عبر التاريخ.

عمق أولويات الحركات الرسالية التي امتد حضورها الفعّال في الحياة البشرية منذ وقت مبكر من تاريخها، حتى ختمت في القرن السابع الميلادي على يد محمد ﷺ، كما قال تعالى[**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**][1].

فالوعي الاستخلافي، باعتباره تجسيدا عملا؛ فكريا ونفسيا وسلوكيا وعمرانيا شاملا... للوعي العقدي والوعي التسخيري، ظل وسيبقى مركز أو محور الاهتمام الثالث في الحياة الإنسانية*، إن لم يقفز في كثير من الأحيان إلى المقام الثاني أو الأول**، كما يلحظ ذلك في حضارات كثيرة، تأطرت بمرجعية الصراع والنفعية المادية الترفية[2]، التي غدت في هذه الحضارات الاستهلاكية محرك الحياة والتاريخ[3].

والإسلام في تأسيسه للوعي الشامل " **بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان** "، والوعي بسنن الاقتدار التسخيري، كانت له عناية فائقة ببناء الوعي الاستخلافي([4])، حتى تكتمل لدى الإنسان الشروط الأساسية، والضمانات الضرورية لإنجاز مهمته الوجودية بكفاءة واقتدار، وتحمّل مسؤوليته الكاملة في كل مراحل دورته الوجودية الكبرى بعد ذلك.

وهو ما سنحاول تسليط الأضواء عليه في هذا الفصل الثالث من الدراسة، عبر تحديد مفهوم الوعي الاستخلافي، وتأكيد أهميته الضرورية، وبيان موقعه المحوري من أولويات الحركات الرسالية عبر التاريخ، واستخلاص مقوماته المقاصدية والمنهجية، ومقوماته القيميّة الوظيفية التي يرتكز عليها في تحقيق مقاصده، ثم المقومات المؤسساتية لهذا الوعي، أو آلياته العملية التي ينجز الإنسان المستخلف عبرها نموذجه الاستخلافي أو العمراني، ويقدّم شهادته على عصره، وحجته بين يدي مراحل دورته الوجودية الكبرى.

مفهوم الوعي الاستخلافي:

إذا كان الوعي بصفة عامة هو النفاذ المستمر إلى أعماق الظواهر والأشياء[5]، والوقوف على ما فيها من انتظام سنني تسخيري بديع، ودلالات غائية؛ عقدية وعبادية وعمرانية مطردة([6]).

وإذا كان الوعي العقدي، يمنح الإنسان رؤية شمولية فطرية معقولة ومتوازنة عن دورته الوجودية الكبرى، في كافة مراحل صيروراتها الدنيوية والأخروية، كما رأينا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة المائدة:4.

* الترتيب هنا مؤسس على اعتبار كون الاستخلاف مشروطا بالمستويين الآخرين من الوعي العقدي والتسخيري، وإلا فهو المقصود أصلا.

** ويحتل كذلك في الإسلام مقاما محوريا، ولكن في سياق التأطّر بمرجعية الابتلاء التي تضعه فعلا في مقامه المحوري المتوازن والمتكامل.

(2) رينيه دوبو، **إنسانية الإنسان**، ص 222.

(3) إريك فروم، **ثورة الأمل**، ترجمة: ذوقان قرقوط، (دار الآداب، بيروت، 1973)، ص11.

([4]) القرضاوي، **الإيمان والحياة**، ص57.

([5]) مذكرو، **الوعي الفلسفي**، ص215.

([6]) أحمد مختار عمر وآخرون، **المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته**، (مؤسسة التراث، السعودية، 2002)، ص1168.

وإذا كان الوعي التسخيري يمنحه القدرة على الاستثمار الأشمل والأفعل لمنظومات سنن التسخير الكونية التي وضعت بين يديه.

فإن الوعي الاستخلافي، يتعلق بهذه العلاقة الوظيفية الغائية بين الوعيين العقدي والتسخيري، أي بتحويلهما إلى واقع إنساني معيش؛ فردي واجتماعي وعمراني أو حضاري؛ تتجسد فيه غايات ومقاصد الرؤية العقدية، في شمولها وتكاملها وتوازنها من جهة، وينضبط بسنن التسخير، في شمولها وتكاملها وتوازنها كذلك من جهة أخرى.

فالوعي الاستخلافي على هذا الأساس هو هذه الحركة التغييرية التعديلية التَكْييفية الواعية المستمرة للواقع الإنساني، حتى ينسجم مع رغبات الإنسان المشروعة، ويستجيب لحاجاته الروحية والمادية الشاملة المتجددة، بصفة ارتقائية دائمة، تجعله يستمتع بحياته، ويعي بعمق الأبعاد العقدية والعبادية الشاملة لتكريمه وتفضيله، وتتهيأ له عبر ذلك شروط الاستمتاع الأشمل والأمثل في المراحل التالية من دورته الوجودية الكبرى.

وبناء على هذا المفهوم الإطاري العام، فإن الوعي الاستخلافي في عمقه، هو الإدراك العميق للأبعاد الإنسانية السامية في الحياة البشرية من ناحية، والاستيعاب الدقيق للمقتضيات السننية المُنمِّية لذلك والمحققة له من ناحية أخرى، والانشحاذ الفعّال لإرادة الإنجاز وخبرات الأداء التسخيري من ناحية ثالثة. كل ذلك في إطار دلالات الوعي العقدي ومعانيه العبادية والأخلاقية الشاملة، التي يجب أن تسري في النشاط الإنساني وتهيمن عليه، حتى يتكامل وينسجم ويتناسق، وتعظم فعّاليته العمرانية والحضارية([1]).

فالوعي الاستخلافي هو حركة ارتقاء مستمر بالحياة الإنسانية نحو آفاق التكامل والتوافق الذاتي، والانسجام والتآلف الاجتماعي، والتناغم مع الوجود الكوني، عبر الاستثمار الأمثل لسنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، في بناء نموذج عمراني أو حضاري متكامل، محكوم في صيروراته التدافعية والتداولية والتجديدية **بمرجعية الابتلاء**، التي تغذي فيه باستمرار، قيم الأصالة والفاعلية والتكاملية وديمومة الحيوية والاندفاع صوب القمم الجمالية؛ الروحية والسلوكية والمادية للإحسان[(2)]، بمفهومه الإسلامي العمراني الشامل، القائم على نشدان الكمال البشري المطلق، في كل موقف، أو فعل، أو حركة... كما جاء تخطيط ذلك في حديث: " **الإيمان والإسلام والإحسان** "[(3)]، الذي يحدد آفاق المعالم والخصائص والمراحل الكبرى لاستراتيجية بناء الحضارة الإسلامية الكبرى، المنفتحة على قيم **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**([4]).

أهمية الوعي الاستخلافي:

ومن هذا المفهوم الإطاري العام فإنه يتضح لنا مدى الأهمية القصوى التي يحتلها الوعي الاستخلافي في حياة الإنسان من جهة، وخطورة قصور هذا الوعي أو غيابه أو زيفه، على حركة الصيرورة الاستخلافية، ومصير الإنسان فيها وفي المراحل التالية من دورته الوجودية الكبرى من جهة أخرى.

([1]) أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، ص2762.

(2) عماد الدين خليل، **آفاق قرآنية**، (دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1982)، ص17.

(3) أخرجه مسلم في **الصحيح** كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (**شرح النووي**، 2/259).

([4]) الدهلوي، **حجة الله البالغة**، ص121.

فإذا كان الاستخلاف يعني عمارة الأرض، والاستمتاع بما أودع الله فيها من خيرات ونعم، وما بثه فيها من بركات؛ عن طريق استثمار سنن التسخير في التعديل الارتقائي بأوضاعه نحو الأحسن باستمرار، فإن الوعي بذلك كله، يعد ضرورة حيوية قصوى، لتوقف تحقيق غايته الوجودية على هذا الوعي، وارتباطها به ارتباطا تاما.

وقد لوحظ في التاريخ الإنساني الطويل مصداق ذلك، في ظواهر الانحطاط الذي كانت تتردى فيه الحياة البشرية، رغم ما يتوفر لها من إمكان تسخيري، كان كثيرا ما يتحول في غياب الوعي الاستخلافي، إلى عدم وشقاوة، كما يشاهد ذلك عند الاتجاهات الزهدية المتطهرة من الحياة، باعتبارها رجسا وفتنة وحجابا بينها وبين الروحانية الموصولة بالله ! أو يتحول إلى ترف مهلك، كما في الاتجاهات المادية التي تستبد بها غرائزها الحيوانية، فتسترسل وراءها إلى أسفل سافلين[1]، حيث تتردى بدورها في الشقاوة والضنكية بطريقتها الخاصة.

إن الإفلات من هذه الثنائية المتنافية أو المتنافرة، التي فرضت على الإنسان العيش على هامش مهمته الوجودية في عالم الشهادة، وحكمت عليه بهدر " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " الكبرى، بالعبث بها أو تبويرها[2]، لا يمكنه أن يتحقق، ويمكّن الإنسان من استرجاع موقعه في عمق الحياة، ومن ثم تحقيق إنسانيته وعبوديته وخيريته، إلا بوعي استخلافي أصيل وفعّال ومتكامل ومطرد، ترتكز عليه حركته التسخيرية وتستهدفه باستمرار.

إن الوعي الاستخلافي على هذا، هو محك المعايرة والقياس الصحيح لمدى عمق ونضج الوعي العقدي، والوعي التسخيري لدى الإنسان. لأنه يرتبط بالحياة ذاتها، وبالفعل الإنساني نفسه، في ساحة الابتلاء والاختبار وامتحان الإرادة، والتدرج نحو الكمالات الإنسانية، المنفتحة على روح **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، أو الانزلاق نحو متاهات ودركات الانحراف والضعف والتنافر والإهتلاك والتخلف والانحطاط([3]).

فالمهم دائما أن نعلم ونفهم ونعي الأمور[4]، والأهم من ذلك على الدوام، هو أن نحوّل الفهم والوعي إلى عمل وحركة استخلافية ارتقائية واعية ومطردة([5])، تستهدي في تدافعها وتداولها وتجدد حيويتها **بمرجعية أو قطبية الابتلاء**، ونبتعد باستمرار عن مرجعية العبثية والتيه، والأنانيات المنفلتة من مركز توازنها وجاذبيتها الفطرية، والمتردية في متاهات الفسوق اللامحدود، كما حذر من ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **[فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ]**([6]). فحركة الاستخلاف البشري عندما تنفلت من المرجعية القطبية للابتلاء، تتفكك وتتنافر وتذهب ريحها الحضارية الموحِّدة.

ولعل هذا الوعي الاستخلافي، هو أصعب المهمات والمسؤوليات بالنسبة للإنسان، كما دلت على ذلك الخبرة البشرية. لأن مرحلتي الوعي العقدي، والوعي التسخيري، سهلة التحصيل بالنظر إلى

---

(1) رينيه دوبو، **إنسانية الإنسان**، ص192؛ فاخر عاقل، **علم النفس**، (دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1982)، ص12.

(2) ابن منظور، **لسان العرب**، 86/4.

([3])سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2355/4.

(4) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، (**فتح الباري**، 192/1).

([5])الشاطبي، **الموافقات**، 41/1.

([6])**القرآن الكريم**، سورة الحج: 31.

مرحلة الوعي الاستخلافي، التي تعني تحويل الوعي المعرفي؛ العقدي والتسخيري إلى خبرة عملية، في التفكير والسلوك، ومناهج العمل والإنجاز، والعلاقات الإنسانية والكونية، التي يظهر صداها العملي في المنظومات السياسية والتربوية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وفي بناء القدرات المتفوقة والردعية لدى المجتمع.

وانتبه أحد الخبراء إلى صعوبة هذه القضية الخاصة بالمسافة بين النظرية والتطبيق، أو بين المعرفة والسلوك والعمل، فلخص ذلك في مقولة معرفية ومنهجية بليغة جاء فيها: " هناك بون شاسع بين الرغبة والإرادة وبين الإرادة والتصميم، وبين التصميم واختيار الأساليب، وبين اختيار الأساليب والتنفيذ "[1].

فالعمل الصالح الذي يحقق به الإنسان تكامله الذاتي والاجتماعي والكوني، ويجسّد به خيريّته في الأرض، عن طريق فعّالية استثماره لسنن التسخير، وحسن الانتفاع بثمراتها، هو المقصد الأساس من كل ما منح من وعي عقدي وتسخيري، كما نبه إلى ذلك القرآن في مواطن كثيرة، نكتفي منها بقوله تعالى: **[وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]**[2].

هكذا فعلا يظل الوعي الاستخلافي يشكل عمق ابتلاء إرادة الإنسان[3]، ومحك قياس نضجه، ومعايرة وعيه العقدي والتسخيري معا، وشرط إنجاز مهمته في الحياة، بدونه يفقد الوعيان السابقان معناهما ومصداقيتهما؛ لأن مجال فاعليتهما هو عمارة الأرض والاستمتاع بها، في حدود ما رسمته الرؤية العقدية، ووضعت من أجله سنن التسخير، فإذا لم يستثمر الإنسان ذلك كله في بناء نموذج عمراني متكامل ومتوازن ومنافس وبديل في كل عصر، فإنه يكون قد أخل إخلالا جذريا بمهمته ورسالته في الحياة، ويكون بذلك قد جنى على نفسه في عالم الشهادة وبقية العوالم التالية من دورته الوجودية الكبرى.

الوعي الاستخلافي في أولويات الحركات الرسالية:

والدارس لمشاريع ومناهج الحركات الرسالية عبر التاريخ، يلحظ مدى محورية بعد الوعي الاستخلافي فيها، بالإضافة إلى البعدين القاعديين من الوعي **العقدي والتسخيري**. ففي كل حركة من هذه الحركات يحتل الوعي الاستخلافي موقعا محوريا في أولوياتها واهتماماتها ومناهج عملها، لأنها جميعا وبدون استثناء، استهدفت تغيير الواقع البشري والارتفاع به إلى مستويات لائقة من التوافق الذاتي على صعيد الفرد، والانسجام والتآلف الاجتماعي على صعيد المجتمع، والتكامل والتناغم مع الوجود الكوني كله بعد ذلك. فلا يعقل أن تقوم في الأرض مثل هذه الحركة الرسالية الضخمة، التي لم تخل منها أمة على الإطلاق[4]، ثم لا يكون من شأنها تغيير واقع الحياة، أو استهداف تأسيس الوعي الاستخلافي البشري؛ بأبعاده المعرفية والروحية والسلوكية والعمرانية أو الحضارية الشاملة([5])، كما سيرد ذلك لاحقا.

---

(1) جان بيريه، **الذكاء والقيم المعنوية في الحرب**، ترجمة: أكرم ديدي، والمقدم الهيثم الأيوبي، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1986)، ص51.

(2) **القرآن الكريم**، سورة العصر.

(3) الألوسي، **روح المعاني**، 5/29.

(4) ابن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، حققه: محمد بن عبد الرحمن عبد الله،وبسيوني زغلول، (دار الفكر، بيروت، 1407هـ-1987م)، 252/6.

([5]) سيد قطب، **المستقبل لهذا الدين، ص**12.

إن الزعم بأن الحركات الرسالية – أو بعضها – عبر التاريخ، كان همها إصلاح العقيدة وبناء الوعي الكوني النظري أو التجريدي لدى الإنسان، ولم يكن من شأنها التركيز على بناء الوعي الاستخلافي بكل أبعاده ومقوماته الاجتماعية والحضارية المتكاملة، زعم عار عن الوجاهة، بل ومخالف للواقع التاريخي، ومناقض لمنطق الاستخلاف تماما، ومردود بمنطوق ومفهوم الوحي نفسه. إذ يكفي دراسة ما ورد في القرآن عن كل رسول للتأكد من محورية الوعي الاستخلافي في رسالته وحركته. لقد كانت **المسألة الاجتماعية** بمفهومها الحضاري الواسع، حاضرة في أولوياتهم جميعا، بل وكثيرا – إن لم نقل دائما – ما شكلت مداخل أساسية في دعواتهم، بناء على أحوال المجتمعات، وطبيعة الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية السائدة في كل منها.

ومن هذا المنطلق نلحظ كيف شكل الوضع الاجتماعي والاقتصادي محورا هاما في دعوة نوح عليه السلام؛ نقداً للجوانب السلبية اللاإنسانية فيهما، وتبشيرا ببدائل اجتماعية واقتصادية أكثر إنسانية وخيرية. كما يتضح ذلك من قوله تعالى على سبيل المثال: **[قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا. وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا]**(1). وقوله تعالى على لسان نوح وهو يطرح على قومه آفاق مشروعه الاجتماعي البديل: **[فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا]** (2).

وفي كل دعوة نجد اهتماما بالمسألة الاجتماعية أو الحضارية، عموما، وإن اختلفت مجالات أو مضغ هذا الاهتمام من دعوة إلى أخرى. فبرز في بعضها البعد الاقتصادي كما في دعوة شعيب عليه السلام(3). وأخذ الجانب الاجتماعي الأخلاقي مداه في دعوة لوط عليه السلام(4). وكان للمسألة السياسية(5) بروزا ظاهراً في دعوة موسى عليه السلام. وكان للأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية حضور هام في دعوة يوسف عليه السلام(6). وفي دعوة عيسى عليه السلام، جاء الإهتمام مكثفا بالمسائل الأخلاقية والروحية(7). وهي كلها اهتمامات في صميم الوعي الاستخلافي.

أما إذا بحثنا عن البعد الاجتماعي أو الحضاري في الإسلام، فإننا نجده بارزا وشاملا منذ بداية الدعوة، وتمحور همها في مكة حول بناء القاعدة القيادية التي تضطلع بإنجاز مهمة التحول الحضاري في الأرض(8). فكثر الحديث عن أخلاق الانحطاط والتسفُّل، وأخلاق القوة والتماسك والتألق والانسجام الاجتماعي، كما تكثف الحديث عن القيم الاجتماعية والثقافية والسياسية الفاسدة، وبرز التأكيد على القيم البديلة لها بشكل ملفت للانتباه جدا (9).

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة نوح: 21-22.
(2)**القرآن الكريم**، سورة نوح:10-11- 12.
(3)القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**،239/7.
(4) ابن كثير، **التفسير**، 201/5.
(5) السيوطي، **الدر المنثور**، 576/5.
(6) الرازي، **التفسير الكبير**، 90/18.
(7) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 436/14.
(8) الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في المرحلة المكية**، ص 282وما بعدها.
(9) انظر: دروزة، **الدستور القرآني**، 24/1 وما بعدها؛ محمد التومي، **المجتمع الإنساني في القرآن**، (الدار التونسية- المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس- الجزائر 1986)، 29/9 وما بعدها.

ولو طبقنا منهج تحليل المحتوى على بعض الكلمات القرآنية، مثـل القريـة[1]، والمدينـة[2]، والأمة[3]، والقوم[4]، والقرن[5]، والناس[6]... وهي كلها كلمات ذات أبعاد اجتماعية وحضارية، لرأينـا فعلا رسوخ أولوية الوعي الاستخلافي في الإسلام، وكونه هدف الوعي العقدي والتسخيري اللذين أخذا مداهما من الاهتمام في هذه المرحلة المبكرة من الدعوة، واسـتهدفا معـا بنـاء الـشروط القاعديـة الضرورية اللازمة للوعي الاستخلافي، وترقية الحياة العمرانية بكـل جوانبهـا وأبعادهـا المتنوعـة والمتكاملة، وهو ما سيتكامل وضوحه لنا مع توالي مباحث وفقرات الفصل.

ومن يدرس أثر " الفكرة الدينية " في الحضارة الإنسانية عبـر التـاريخ[7]، يلحـظ بوضـوح محورية بعد الوعي الاستخلافي في الحركات الرسالية عامة، وكيف شكّل مصبّ اهتمامات الوحي، في نقده وتقويمه لمظاهر الفساد والانحراف في الحياة الإنسانية، وتقديمه للنمـاذج الاسـتخلافية البديلـة، وكيف تلبّست جميع مظاهر النشاط الحضاري البشري بالمعتقد الديني بصفة عامة. وهو مـا يعطينـا فكرة عن الترابط الجوهري بين **الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي** في الحيـاة الإنـسانية، وإن أثرت الاتجاهات المثالية الزهدية والمادية المتناقضة على هذا الترابط والتكامل، بسبب تنافرية علاقتها التسخيرية بهذه الثلاثية المتكاملة، المتحكمة في الفعل الاستخلافي الإنساني باستمرار[8].

فالحركة الاستخلافية البشرية تتكامل أبعادها، وترتقي إنجازيتها المعرفية والروحية والـسلوكية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية، إلى أعلى مستويات أصالتها وفاعليتها وتكامليتها واطراديتها، كلما تكاملت هذه الأبعاد الثلاثة في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الإنساني. وتتنافر أبعاد هـذه الحركـة الاستخلافية وتضطرب، وتتضاءل وتـنكمش إنجازيتهـا المعرفيةالروحيـة والـسلوكية والأخلاقيـة والحضارية، كلما تجزّأت فيها هذه الأبعاد وتنافرت، ولم تأخذ حضها من العناية والتنمية والاستثمار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) ذكرت في السور المكية وحدها (45) مرة.
(2) ذكرت في السور المكية وحدها (13) مرة.
(3) ذكرت في السور المكية وحدها (47) مرة.
(4) ذكرت في السور المكية وحدها (179) مرة.
(5) ذكرت في السور المكية وحدها (20) مرة.
(6) ذكرت في السور المكية وحدها (111) مرة.
(7) ديورنت، **قصة الحضارة**، 99/1؛ علال الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، ص21.
(8) انظر: **مقال في المسألة الاجتماعية** لعماد الدين خليل؛ و**العدالة الاجتماعية** لسيد قطب؛ و**الدين والحضارة الإسلامية**.

المقومات المقاصدية للوعي الاستخلافي:

وإذا كان الوعي الاستخلافي هو مصب الجهد البشري باستمرار[1] ؛ فيه تظهر عبقرية الإنسان، وتتجلى إرادة وحرية ومسئولية الاختيار لديه، عندما يتحرك بها في اتجاه **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، أو عندما يسلك بها طرق الشرك والضلال والفسوق والتيه([2]).

وكان هذا الوعي الاستخلافي كذلك، هو محور اهتمام الوحي عبر كل الحركات الرسالية في التاريخ، التي لم يشذ أي منها عن ذلك([3]). فما هي المقومات المقاصدية أو الغائية العليا، التي يجب أن يتمحور حولها الجهد البشري، وينشدَّ إليها باستمرار، حتى يحقق هذا الوعي في حركة استخلافه ؟ أي حتى تكون حركة الاستخلاف حركة ثقافية سلوكية عمرانية عبادية متوازنة، تتميّز بالأصالة وتمتاز بالفعّالية والتكاملية والاطراد ؟

ولا تخفى الأهمية البالغة لوعي مقاصد الاستخلاف، واستيعاب أهدافه بدقة وعمق وشمول، على أصالة الجهد الاستخلافي وفعّاليته وتكامليته واطراديته بعد ذلك. لأن الإحاطة بأهداف الاستخلاف ومقاصده الكلّية، تجعل الجهد ينصب حولها، ويحرص على استيعابها بشمول وتوازن. وهو ما يؤثر بقوة على خصوبة عملية الإشباع للحاجات الروحية والمادية للإنسان في عاجله وآجله، بخلاف قصور الوعي بهذه المقاصد، فإنه ينعكس على عملية الإشباع الروحي والمادي للحاجات الإنسانية، ويؤثر بعمق على حياة الإنسان في كافة مراحل " **دورته الوجودية الكبرى** " بعد ذلك.

ومن هذا المنطلق المعرفي والمنهجي الحيوي، وجدنا الإسلام يولي عناية فائقة لضبط المقومات المقاصدية للاستخلاف، وتأسيس الوعي بها، استجماعا لهمّ الإنسان واهتمامه حول " المضغ الحيوية " التي ترتكز عليها الحياة البشرية، وتتقوّم بها باستمرار، وتركيزا لفعّاليته التسخيرية والاستخلافية في حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تمضي في حياة البشر بلا هوادة، فلا تتآكل هذه الحياة، ولا تهتلك ولا تتناقض، بل تتكامل وتتناغم وتتعاظم إنجازيتها الثقافية والروحية والاجتماعية والحضارية دوما.

وسنحاول الإشارة باختصار إلى المقومات المقاصدية الكلية للوعي الاستخلافي، من خلال الحديث المركّز عن:

- المقاصد الكلّية للوعي الاستخلافي .
- دوائر ومستويات تحقيق هذا الوعي الاستخلافي .

المقاصد الكلّية للوعي الاستخلافي:

وقد اتفقت كلمة علمائنا، الذين توفروا على دراسة الشريعة في مقاصدها الكبرى، أنّ هناك خمس كليات أو أصول كبرى، عليها مدار الحياة الإنسانية، إذا انخرم منها أصل أو كلّية اضطربت هذه الحياة، وتعطّلت الوظيفة الوجودية للإنسان[4] . وهي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

---

(1) العز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الآنام**، ص21، 32؛ ابن القيم، **إعلام الموقعين**، 14/3.

([2])القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 381/17.

([3]) ابن كثير، **تفسير القرآن**، 310/8.

(4) الجويني، **البرهان**، 923/2؛ الغزالي، **المستصفى**،286/1؛ الشاطبي، **الموافقات**، 13/2؛ ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ص 79؛ مصطفى شلبي، **تعليل الأحكام**، ص282...وغيرهم كثير.

الوعي الاستخلافي وكلّية حفظ الدين: باعتباره مؤسس الوعي " بالدورة الوجودية الكبرى للإنسان "، ومانح المعنى للحياة والموت والمصير .

وهي أمور فوق العقل، ولا تدرك إلا بالوحي، كما سبق الحديث عن ذلك في الفصلين الماضيين. فالدين حاجة فطرية، وإمكان تسخيري، وضرورة استخلافية، بدونه تفقد الحياة البشرية معناها وهويتها الإنسانية المتميزة، وتذبل المعاني والقيم الإنسانية في الإنسان، ويتقهقر نحو دركات الحيوانية المنحطّة([1]). لذلك كانت المحافظة عليه – أي الدين – من جانب الوجود ومن جانب العدم[2]، من ضرورات الوعي الاستخلافي الكبرى، بل يصنفها علماء المقاصد في مقدمة هذه الضرورات جميعا([3]). فالإنسان يستكمل إنسانيته بقدر عبوديته لله تعالى، التي لا تتم إلا بترشيد الوحي وتسديده، لأنه هو وحده الإمكان التسخيري القادر على منح الحياة معانيها الروحية والأخلاقية الضرورية لخيريتها وتوازنها وتناسقها وانسجامها.

الوعي الاستخلافي وكلّية **حفظ النفس**: باعتبارها– أي النفس – سر الحياة، ومحل التكليف، وأساس العمران الأول. بدونها لا تقوم عمارة في الأرض، بل ولانعدم التدين أصلا[4]. لأن الدين جاء للبشر، فإذا هلكوا لم يكن معنى لوجود التكليف أصلا .

ومن هنا كانت المحافظة على النفوس من مقاصد الوعي الاستخلافي الكلّية، وضرورة حيوية بالغة له، ومقوم جوهري أساس من مقوماته، بدون المحافظة عليها يفقد معناه ووجوده.

فالوعي الاستخلافي يكتسب معناه وأهميته، بقدر ما يتحقق في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية عامة، من ضمانات للمحافظة على النفوس، واحترام قدسية الحياة التي منحها الله تعالى للإنسان، ووضع في خدمتها كل إمكانات ومسخرات الكون المبثوثة في منظومات **سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، واعتبر أي اعتداء على حق الحياة، أبشع جريمة ترتكب في الوجود، كما قال تعالى: **[مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا]**[5] .

الوعي الاستخلافي وكلّية حفظ العقل: باعتباره أداة الوعي والعمل معًا، بدونه يرتفع التكليف أصلا، ولا يبقى للإنسان ما يميزه عن بقية المخلوقات إلا بعده الهيكلي الفيزيائي، الذي يفقد بدوره تميّزه تبعا لذلك، إلا ما كان من الضرورات الغريزية التي يستوي في كثير منها مع بقية دواب الأرض.

فالقوة العقلية عند الإنسان من أخطر إمكاناته التسخيرية الكثيرة[6]، التي مُنحها للقيام بوظيفته الاستخلافية في الأرض، بالنظر إلى وظيفة النقد والتمحيص والتحليل والموازنة والمعايرة.. التي

([1])رشيد رضا، **تفسير المنار**، 373/9.

(2)الشاطبي، **الموافقات**، 7/2.

([3])عبد الوهاب خلاف، **علم أصول الدين**، ص200.

(4) الشاطبي، **الموافقات**، 14/2.

(5)**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 32.

(6) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، 422/1.

يؤديها في حياة الإنسان. فهو أداته إلى المعرفة والوعي والاقتدار التسخيري والاستخلافي([1])، الذي يبلغ مداه النموذجي مع القوة الهادية والمرشدة والمسدِّدة؛ متمثلة في الوحي.

ومن هنا كانت المحافظة عليه من جانب الوجود والإنماء، ومن جانب الحماية والوقاية من التعطيل والهدر، في صميم الوعي الاستخلافي، ومن أقوى ضروراته أصلا، فكل ما يحافظ على العقل، وينمّي قدراته بشمول وتكامل وتوازن، ينمي الوعي الاستخلافي ويطوره ويخصبه([2]).

الوعي الاستخلافي وكلّية حفظ النسل: لكونه سبب استمرارية الحياة من ناحية، وعاملَ ترغيب فيها، وحماية للعواطف التي تُشدُّ بها وتطرد، من ناحية أخرى، عبر المحافظة على الأعراض والأنساب كتوابع أو مكونات لهذه الكلية[3].

فالحياة الإنسانية تستمر، والوعي الاستخلافي يتدعم ويخصب باستمرار، بقدر المحافظة على النسل من جانب الوجود، وحمايته من جانب العدم، وترقيته من جانب الكفاءة الاستخلافية النوعية.

فإذا عدم النسل توقفت الحياة بعد جيل أو أجيال، وتعطلت كل مهام الاستخلاف، التي تحتاج إلى قوة بشرية تتوارث الوعي وتطوّره، وتجابه التحديات التي تطرحها حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، على مسيرة حركة الاستخلاف البشري باستمرار.

الوعي الاستخلافي و كلّية حفظ المال: باعتباره منتوج الجهد البشري ورأسماله من ناحية، ووسيلة العمران وأساسه وقوامه من ناحية أخرى، بدونه تتعرض حياة الإنسان للهلكة، وتتعطل حركة الاستخلاف وتتراجع وتتجمّد .

فالمال كإمكان تسخيري، يتضمن كل ما تحت يد الإنسان من ممتلكات ومرتفقات، هو ضرورة من ضرورات الحياة، بدونه تضطرب حياة الإنسان فردا ومجتمعا، لاحتياج حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، المهيمنة على الحياة الإنسانية، إلى الإمكانات التسخيرية لتلبية متطلباتها، ومجابهة تحدياتها، التي قد تفضي في حالات هيمنة الباطل والانحراف، إلى عواقب وخيمة، تمس ضرورات الحياة ذاتها.

هذه باختصار هي كليات و " مضغ " الحياة الإنسانية، التي يقوم عليها وبها الوعي الاستخلافي كله، ويرتبط بالوفاء بحاجاتها الأساسية، مصير الإنسان في بقية مراحل " **دورته الوجودية الكبرى** " بعد ذلك. كما يلاحظ ذلك الشاطبي بقوله: " إن مصالح الدين والدنيا مبنيّة على المحافظة على الأمور الخمسة المذكورة فيما تقدم، فإذا اعتبر قيام هذا الوجود الدنيوي مبنيا عليها، حتى إذا انخرمت لم يبق للدنيا وجود – أعني ما هو خاص بالمكلفين والتكليف – وكذلك الأمور الأخروية لا قيام لها إلا بذلك "[4].

([1])الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، ص11–139.

([2])عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص**71.

(3) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة**، ص81.

(4) الشاطبي، **الموافقات**، 13/2.

دوائر ومستويات تحقّق الوعي الاستخلافي:

وعلى هذا الأساس انطلقت جهود البشر في البحث عن كيفية تحقيق متطلبات هذه الكليات أو المقاصد الوجودية البشرية الكبرى، وحمايتها والمحافظة على بقائها. ولاحظ العلماء المهتمون بضبط قوانين ذلك، أن تحقيق المحافظة على هذه الكلّيات التي عليها مدار حركة الاستخلاف البشري برمتها، يتم عبر ثلاث مستويات أو دوائر بنيوية كبرى متكاملة، هي:

دائرة حفظ الضروريات الوجودية للحياة للحياة البشرية.

دائرة حفظ الحاجيات المطوِّرة للحياة البشرية.

دائرة حفظ التحسينيات المرقّية للحياة للحياة البشرية.

الوعي الاستخلافي ودائرة حفظ الضروريات الوجودية للحياة البشرية: الضروريات هي التي لا بد منها لانتظام الحياة واستمراريتها([1])، ويكون هذا الحفظ لها من جانب الوجود أولا، ومن جانب العدم ثانيا، بنفي وإبعاد ما يؤثر فيها بالإنهاء أو الاضطراب المميع لطبيعتها ووظيفتها.

فالمقصد الأول للوعي الاستخلافي، هو المحافظة على الكلّيات الخمس السابقة جميعا، وعدم المساس بأي منها، بالتعطيل، أو بتحريف الدور الذي قدّر لها أن تؤديه في حياة الفرد وحركة المجتمع. ذلك لأن المحافظة هنا تعني إبقاء هذه الأصول والكلّيات على الوضع الفطري الذي خلقت عليه وعدم المساس بجوهره وهويته الذاتية من جهة، وإعمال كل منها في المجال الذي وجدت من أجل تغطيته في حركة الحياة من جهة ثانية، وما يحتاجه ذلك كله، من شروط وسائلية وجود وتنمية وحماية من جهة ثالثة.

الوعي الاستخلافي ودائرة الحاجيات المطورة للحياة البشرية: الحاجيات: وهي مستوى آخر من التوسع العمراني والتطور الحضاري، في اتجاه رفع المشقات، ودفع الحرج والضيق عن البشر، والسير نحو تيسير سبل الاستمتاع بالخيرات الدنيوية؛ المعنوية والمادية، وضمان الحقوق الأساسية للإنسان أوّلاً بأول، عن طريق استثمار ما يتاح من سنن التسخير في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من أجل ذلك.

ونظرا إلى أن الحاجات البشرية المرتبطة بالكلّيات أو الضروريات الحيوية السابقة، فيها نواحي كثيرة على صعيد الإمكانات التسخيرية، تتجدد بحسب طبيعة ومستوى التحديات التي تطرحها حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، في كل عصر ومرحلة وبيئة يعيش فيها الإنسان* فإن تلبية هذه الحاجات باستمرار، على الصورة المطلوبة، ينمّي الوعي الاستخلافي، ويعمّق المعاني الإنسانية المتكاملة لدى الإنسان، بما يحققه من مستويات أكثر شمولا وعمقا وتوازنا، في إقامة المقاصد الخمس السابقة، ورعاية أداء كل منها – مفردة ومجتمعة – لوظيفتها التسخيرية في الحياة .

الوعي الاستخلافي ودائرة التحسينيات المرقية للحياة البشرية: التي تمتد عبرها حركة التوسع العمراني، ويرتقي الوعي الاستخلافي صوب قمم الإحسان، حيث يعيش الإنسان إنسانيته كاملة، ويتذوق طعم الحياة، ويستمتع بها، وهو يتشوق إلى نعم وخيرات المراحل التالية من " **دورته الوجودية**

([1]) الشاطبي، **المرجع السابق**، 7/2.

* تنظر التفاصيل في فقه الأصول والفروع (حجة الله البالغة للدهلوي، مقاصد الشريعة لابن عاشور، تعليل الأحكام لشلبي، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ليوسف العالم، القيم الضرورية ومقاصد التشريع لفهمي علوان... وغيرهم).

الكبرى ". كما قال تعالى: **[وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...]**[1] .

فالوعي الاستخلافي يبلغ مداه المتاح، في هذه الدائرة من الرعاية لمقاصد الاستخلاف، حيث تتحقق مستويات رفيعة من الإشباع الروحي والمادي للحاجات الإنسانية، وتصل فعّالية الأداء الحضاري للمجتمع والأمة، قمة شمولها وتكاملها وتوازنها.

وبتكامل الوعي بهذه الدوائر والمستويات الثلاثة، وتحقق الرعاية الفعلية لها، تكتمل لحركة الاستخلاف البشر في الأرض، مقوماتها جميعا، ويتكامل بنيانها العمراني والحضاري، باتجاه الآفاق الغائية البعيدة **للعبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، التي تشكل لبَّ الخلافة البشرية في الأرض.

المقومات المنهاجية للوعي الاستخلافي:

والإشكال الأكبر الذي ظلت الحياة البشرية تواجهه، وتعاني من آثاره السلبية الخطيرة، هو كيف تضمن حركة الاستخلاف البشري تحركها الشامل والمتكامل والمتوازن والمطرد، من خلال هذه الدوائر، وهي تحافظ على هذه القيم أو المضغ الكلّية المؤسّسة لهيكل الكيان البشري، وتغنيها وتجدِّد حيويتها باستمرار، من غير أن تنعكس العناية بأي منها، على حساب الآخر أو تضر به أو ببقية الكليات البنيوية الأخرى ؟

كيف تضمن حركة الاستخلاف البشري، التنمية الشمولية المتكاملة والمتوازنة لكل هذه الأبعاد الهيكلّية، في كل مراحل تطورها، وخاصة في مرحلتي [2] التوسع في تحقيق الحاجيات، والتوسع لاحقا في تحقيق التحسينات، والبلوغ بمستوى الخدمات المعنوية والمادية مداه، من السهولة واليسر والسرعة والجمالية والإمتاع ؟

وكما سبق أن رأينا في الحديث عن الوعيين العقدي والتسخيري، فإن أصالة الفعل الاستخلافي وفعّاليته وتكامليته واطراديته، ومن ثم قدرته على الوفاء الأمثل بالاحتياجات الإنسانية على مستوى كل الدوائر السابقة، مرتبطة بمدى قدرة الإنسان على استثمار **منظومات سنن التسخير الأربعة**، في إطار **مرجعية أو قطبية الابتلاء** الموجّهة لتفاعلات وصيرورات حركة التدافع والتداول والتجديد، وهو ما كان له صداه في نظام الشريعة المعرفي والمنهجي والتربوي، بحيث يمكن لمن يعمق النظر في مفردات هذا النظام وآليات **تمفصلها وتناسقها وتأثيرها**، أن يلحظ بأن هناك مجموعة من المقومات المنهاجية الكلّية، يتأسس عبرها الوعي الاستخلافي، الذي يؤهل الإنسان ويمنحه القدرة على الاستثمار الشمولي المتكامل والمتوازن، لكل منظومات سنن التسخير المختزنة في " **الميزانية التسخيرية البشرية** " الكبرى، لتحقيق توافيه وتكامله الذاتي، وانسجامه وتآلفه الاجتماعي، وتناسقه الكوني، عبر الإشباع الوافي للحاجات الإنسانية الضرورية منها والحاجيَّة والتحسينية، كما تستلزمها ثوابت الأصالة، وتستدعيها تحديات المعاصرة.

وهذه المقومات التي شكلت مقاصد محورية للشريعة على الصعيد المنهاجي العام * هي:

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة النور: 55.

(2) لوحظ في دراسة تطور المجتمعات البشرية، كيف أن كثيرا من الاختلالات ومظاهر الضعف، تأتي من عدم التحكم في مسير تطور المجتمع بعد مرحلة التأسيس أو الولادة.

مقصد الترقي المعرفي.
مقصد الترقي الروحي.
مقصد الترقي السلوكي أو الأخلاقي.
مقصد الترقي العمراني أو الحضاري.

فهذه المحاور الكبرى هي المقومات المنهاجية التي تمحور حولها اهتمام الشريعة، في سعيها الدائب لتأسيس الوعي الاستخلافي، وتحقيق الرشادة في الفعل العمراني أو الحضاري، الذي يغذّي – بصورة متوازنة ومتكاملة ودائمة – **الكلّيات الخمس** الناظمة للحياة البشرية، ويحافظ عليها، ويفعّل أداءها الوظيفي باستمرار، عبر تكامل أداء دوائر الضروريات والحاجيات والتحسينيات في العملية الاستخلافية الكلية.

الوعي الاستخلافي ومقصد الترقي المعرفي: ويكتسي الترقي المعرفي أهميته المحورية البالغة في العملية الاستخلافية، من كونه الشرط القاعدي الأول لتحقيق الوعي والرشادة في حركة الاستخلاف البشري، أي ضمان أصالة الفعل الاستخلافي وفعّاليته وتكامليته واطراديته([1]) .

فالإنسان يحقق تكيّفه الفعّال، ويمتلك القدرة على استثمار " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " الكبرى، في تحقيق أصالة تدافعه وتداوله وتجديد حيوية **فعله** الاستخلافي، **بقدر ترقيه المعرفي، وتحكمه الاستثماري** في منظومات سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**. وتضعف فعّالية تكيّفه، وأصالة وتكاملية تدافعه وتداوله وتجدد حيوية فعله الاستخلافي، بقدر ما يتقلص ترقيه المعرفي، ومن ثم تحكمه الاستثماري في منظومات سنن التسخير الكلية الأربعة.

فالترقّي المعرفي، يحقق للإنسان فعّالية التكيّف الذاتي والاجتماعي والكوني، ويجنّبه التصادم مع سنن التسخير، ويحفظ إمكانه التسخيري العظيم، من الهدر والبوار. لأنه **بالمعرفة العلمية الشاملة النامية**، يقف على سنن الحياة، ويدرك أنظمة وآليات عملها، ويعي الآثار الإيجابية والسلبية لاستثمارها، فيتحرك لبناء فعله الاستخلافي، وهو مزود بالخبرة الضرورية التي تجنبه كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا على أصالة **فعله** الاستخلافي وفعّاليته واطراديته.

وعندما نستعرض تأثير الترقي المعرفي على كليات الحياة الخمس، في كل دوائر ومستويات تحقُّقها، فإننا نجده شاملا وعميقا وجذريا، سواء من جهة الإيجاد والمحافظة، أو من جهة الإعدام والإخرام. فقد لوحظ بالتجربة أن ازدهار التدين، وتعاظم سلطان الدين على الحياة، مرتبط باستمرار بالترقي المعرفي السنني المتكامل*. بينما يتعرض الدين والتدين لانتكاسات كبرى مع ضعف وتقلص الترقي المعرفي السنني في المجتمع(2)، حيث تشيع الخرافة، ويمتد نفوذ الشرك وسلطانه ليطال أجزاء

---

* نقصد بالمنهاجي هنا: البعد المنهجي المعرفي، الذي يستوعب المفهوم الأداتي الإجرائي للمنهجية، ويتجاوزه إلى الأبعاد المعرفية المقاصدية ليلتحم بها ويتأطر بثوابتها في تحقيق شمولية وتكامل الإشباع للحاجات الإنسانية السابقة.

([1]) ابن حجر، **فتح الباري**، بخدمة: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، (دار الريان للتراث، القاهرة، ط2،1409هـ- 1988م) 130/1.

* ينبغي أن نتذكر دائما أن مقصودنا بالعلم، هو العلم الذي يغطي ويستوعب بشمول وتكامل: الوعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وليس سنن الآفاق أو نتفا من سنن الأنفس فقط، كما هو واقع الحال في كل المنظومات المعرفية والحضارية الوضعية؛ المادية منها والمثالية.

(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، (**فتح الباري**، 234/1).

ومساحات واسعة من حياة الأفراد والمجتمعات، ويمسخ الدين بل والحياة مسخا، بما يحدثه من هدر خطير في " الميزانية التسخيرية الكونية " الكبرى، للفرد والمجتمع.

كما لوحظ كذلك أن قمّة التكيّف النفسي، والإحساس بالكرامة الإنسانية، واحترام حقوق الآدمية، وكذا المحافظة على العقل وإكبار شأنه، وتنزيهه عن الخرافة والمهانة، وأيضا المحافظة على النسل والعرض والمال... والإعلاء من شأنها، والاستمتاع الحق بها، **لا تتحقق إلا بالترقي المعرفي.** لأن العلم يكشف للإنسان **نظام الجزاءات النافذة**، السلبية والإيجابية، في كل قيمة أو كليّة من هذه الكلّيات، فينضبط موقفه ويتوازن سلوكه. بخلاف قصور أو انعدام الوعي بأنظمة عمل هذه الكلّيات، فإنه يعطي الفرصة لسلطة الغرائز للإشباع على حساب الجزاءات النافذة المترتبة عن ذلك. كما يظهر على سبيل المثال في الوعي بآثار الزنا والربا والخمر... العضوية منها والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية عامة.

فالترقّي المعرفي هو الشرط القاعدي الأول فعلا، لضمان أصالة الفعل الاستخلافي وفعّاليته واطراد حيويته، ومن ثم المحافظة على الكلّيات الجوهرية التي تقوم عليها الحياة، وتنعيتها وتعميق الوعي بها.

ومن هذا المنطلق فإنه ليس غريبا عن الوحي – كتابا وسنة – أن يعتبر الترقي المعرفي مقصدا ومقوما في الوقت نفسه، لصيرورة الحركة الاستخلافية في الأرض، ويمنحه عناية كبيرة، ويعلي من شأنه بصورة ملفتة للانتباه[1]، ويجعله مفتاح الاقتدار التسخيري والاستخلافي معان منذ الآيات الأولى نزولا من القرآن الكريم[2]، بل منذ الخليقة البشرية الأولى، التي استحقت الفوز بالخلافة في الأرض بالوعي المعرفي السنني المتكامل[3]، الذي يشير إليه قوله تعالى: **[وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا]**[4].

وتكفي هنا الإشارة إلى نص تأسيسي هام في هذا المجال، لخص أبعاد المسألة المعرفية كلها، بدءا من التأكيد المبدئي على القيمة المحورية التي يحتلها الوعي المعرفي في حركة الاستخلاف، ومرورا بتأصيل دور المنهج لكل ما يعنيه وينبني عليه من قدرات نقدية، وخطوات موضوعية منتظمة للوصول إلى الحقيقة[5]، وانتهاء بأخلاقيات العلم والمسؤوليات الحساسة التي تترتب على امتلاك القدرات العلمية... فقد جاء في القرآن قوله تعالى:**[وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا]**[6].

وبناء على شمولية النص واستيعابه لكل أبعاد المسألة المعرفية، فإن كل ما جاء في الكتاب والسنة من مادة معرفية هائلة في هذا المجال، تمحور كله حول تأكيد البعد المبدئي، وتأصيل دور المنهج، وضبط الأبعاد الوظيفية لاستخدامات العلم، والأخلاقية التي يجب أن تؤطر ذلك وتوجهه، حتى يتم استثمار هذا الإمكان التسخيري الخطير، بكيفية واعية بصيرة، تحافظ على كليات الحياة، وتسمح

---

(1) الشاطبي، **الموافقات**، 41/1.
(2) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 121/20.
(3) الرازي، **التفسير الكبير**، 131/2؛ البقاعي، **نظم الدرر**، 241/1.
(4) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 30.
(5) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 101/15.
(6) **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 36.

لحركة الاستخلاف البشري لتسير بعيدا في تلبية الحاجات البشرية كلها، والاستمرار في تحسين وترقية مستوى الحياة الروحية والسلوكية والاجتماعية والحضارية للناس.

فالترقّي المعرفي مقصد منهاجي أساس من مقاصد الشريعة، ومقوّم جوهري من مقومات الوعي الاستخلافي[1]، يقول الغزالي: " وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه، فيكون مطلوبا لذاته[2]، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة، وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا و الآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال "[3] لإنجاز الأعمال المحققة لمقاصد الاستخلاف.

الوعي الاستخلافي ومقصد الترقي الروحي: المقوم المقاصدي المحوري الثاني، الذي يشرط عملية وعي ورشادة الحركة الاستخلافية، هو الترقي الروحي، المتصل بالبعد الجوهري الآخر في الكيان الإنساني وهو الروح[4]، التي تشكل عمق إنسانية الإنسان، باعتبارها مركز الكيان البشري، ونقطة ارتكازه، والقاعدة التي يستند إليها الكيان كله، ويترابط عن طريقها[5].

فإذا كان الكيان الإنساني من الناحية التكوينية هو محصلة تفاعل تكاملي متناسب ومتوازن بين قواه الأساسية؛ الجسمية والعقلية والروحية[6]، فإن البعد الروحي هو محور ارتكاز هذه الأبعاد وتكاملها وفعّاليتها، مع إيماننا بأن إنسانية الإنسان كل متكامل، بين الجسمي والعقلي والروحي والاجتماعي. ذلك لأن الطاقة الروحية في الإنسان، هي أكبر طاقاته وأعظمها، وأشدها اتصالا بحقائق الوجود[7].

وقد يكون مفيدا في تأكيد الوعي بهذه الحقيقة الخطيرة، أن نذكر بأن الطاقة الروحية في الإنسان، هي منبع قوة الإرادة فيه؛ لأن البعد الروحي هو عمق الكيان الإنساني الحقيقي، الذي تستقر فيه قيم الخير والحق، وتتجمع فيه طاقاته الإيمانية الكامنة[8]، التي تمنحه قوة الاحتمال والمكابدة والتجاوز، عندما يتوفر الوعي الشاحذ لذلك، عبر الترقي المعرفي السابق ذكره.

ولأن البعد الروحي في الكيان الإنساني مرتبط مباشرة بقضية الإيمان، كطاقة جبارة، وإمكان تسخيري عظيم، فقد أكدت الخبرة البشرية أن إشباع هذا الجانب في الإنسان بصورة صحيحة، يمنحه قوة إرادية كبرى[9]، ويشحذ فيه روح الاستعلاء على الضعف، والقدرة المتجددة على إنفاذ مراده، مهما تكاثفت عوامل إضعاف نفسه، والحد من فعّاليته.

فالإنسان عندما يُشحذ إيمانه، يدرك أن ما يمضي إلى إنفاذه حق وعدل ومصلحة، صادر من آمرٍ منزَّهٍ عن الخطأ والقصور والذاتية... وهو قادر على إنجاز وعوده وإنفاذ وعيده، فتتضاءل في

---

(1) انظر ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري**، 130/1.
(2) قارن بالشاطبي، **الموافقات**، 40/1.
(3) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 12/1.
(4) ابن القيم، **الروح**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ-1982م)، ص235.
(5) محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، (دار الشروق، بيروت، ط12، 1989م)، 41/1.
(6) محمد عثمان نجاتي، **القرآن وعلم النفس**، ص23.
(7) محمد قطب، **المرجع السابق**،47/1.
(8) عز الدين إسماعيل، **نصوص قرآنية في النفس الإنسانية**، (دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1976)، ص184.
(9) دراز، **الدين**، ص14؛ كاريل، **تأملات في سلوك الإنسان**، ص104.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نفسه حوافز الاعتراض[1]، وتقوى لديه حوافز الإقدام وتتركّز، فيتجاوز ضعفه وقصوره، ويمضي إرادته بلا تردد مهما كانت العقبات.

ومن هنا نفهم لماذا لا تصبح الفكرة عاملا فعّالا، إلا إذا تضمنت عنصرا دينيا – أي روحيا – ونعي السبب في كون الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية بصورة تستحيل معها المقارنة، وندرك سر عدم تحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، وتحمسه للأخرى التي يعرف بأنها صادرة من الذات الإلهية، كما يلحظ ذلك الكسيس كاريل[2]. وهو ما ينبه إليه الدكتور دراز في استقراءاته العميقة للظاهرة الدينية، عندما يلحظ أنه لا توجد على وجه الأرض "قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه ". والسبب كما يرى: " أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية، بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية، يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه، ولا يجري في دمه ولا في عضلاته، ولا في أعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني أساسه الفكرة والعقيدة "[3].

وبالإضافة إلى ما يؤديه الترقي الروحي على مستوى شحذ الإرادة لدى الإنسان؛ فإنه يقوم بدور المرشّد والموجه لهذه الإرادة. لأن الطاقة الروحية تضيء طريق العقل[4]، وتحفظ توازنه، وتحقق للإنسان البصارة في الحكم على الأشياء، بما تؤديه من دور حاسم في إلجام الغرائز وإرجاعها إلى أوضاعها الطبيعية المطلوبة، لتفسح المجال للعقل، ليوازن ويختار بموضوعية، بين البدائل والخيارات المطروحة أمامه، في ضوء خريطة المصالح ونظام الأولويات الذي يرسمه تكامل الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي في حياة الإنسان.

وعندما نستعرض تأثير الترقي الروحي على كليات الحياة الخمس، فإننا نجده كذلك شاملا وعميقا وجذريا، سواء من جانب الوجود أو العدم، فقد تبين بالتجربة أن المحافظة على الدين تعظم بالترقي الروحي؛ لأنه تجسيد عملي للدين في جوهره وعمقه، ولذلك فإن أخصب فترات تألق الدين على الإطلاق، هي الفترات التي يشهد فيها الترقي الروحي انتعاشا وقوة في المجتمع([5])، خاصة عندما يأتي ذلك مؤطّرا بالوعي المعرفي السنني الشامل المتوازن، وموجّها به.

كما لوحظ أيضا أن أعظم فترات احترام النفس البشرية والإحساس بقداستها، والشعور العميق بحقوقها، والاحتياط الشديد من التسبب في إيذائها، والحرص على منحها إياها كاملة، سواء تعلق الأمر بالذات أو بالآخرين، أو بالخلائق الأخرى... هي فترات الترقي الروحي لدى الفرد أو المجتمع. وقل مثل ذلك في باقي الكليات الأخرى، لأن الإنسان في هذه الحالة، يعيش تحت سلطان الروح أو الإيمان، المرشّد بالمعرفة، فيكون في وضع نفسي يتميز بالشفافية وشدة التوثب الروحي، فينضبط موقفه السلوكي بما تفرضه وتستلزمه سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، فلا يصدر منه ما يضر بنفسه أو نفوس الآخرين، وعقله وعقول الآخرين، وماله وعرضه ونسله، ومال الآخرين وعرضهم ونسلهم.

---

(1) أبو اليزيد العجمي، **الأخلاق بين العقل والنقل**، (دار الثقافة العربية، القاهرة، 1409هـ–1989م)،ص199.
(2) **تأملات في سلوك الإنسان**، ص140.
(3) دراز، **الدين**، ص101.
(4) ابن الحاج، **المدخل**، (عالم الكتب، بيروت، 1999)، 19/1 وما بعدها.
(5) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص75.

ومن هنا جاء حرص الوحي على الترقي الروحي، واعتباره مقصدا منهاجيا أساسيا من مقاصد الشريعة، ومقوما جوهريا من مقومات صيرورة الحركة الاستخلافية في الأرض، كما نلحظ ذلك في النظام العقدي للإسلام[(1)]، ثم في نظامه العبادي[(2)] الممحض لشحذ الأشواق الروحية في الإنسان، والارتقاء بوعيه الإيماني إلى قمم الإحسان، حيث يعيش وكأنه يرى الله، وأن الله يراه باستمرار، ويشرف مباشرة على مراقبة وتسديد ومباركة نشاطه الاستخلافي.

ومن يراجع مفردات: الإخلاص، والنية، والتوبة، والصدق، والتوكل، والخوف، والرجاء، والدعاء، والصبر، والقلب، والنفس، والبصيرة، والتقوى، والجنة، والنار... وغيرها،ويتأمل ولا لا تما العقديةوالروحية يلحظ فعلا مدى العناية المكثفة للوحي بالترقي الروحي. وقد تكفي هنا الإشارة إلى حديث الولاية الشهير، الذي نبه إلى دور انشحاذ الفعّالية الروحية والسلوكية للفرد والمجتمع، في انشحاذ وتعاظم فعّاليتهما التسخيرية والاستخلافية، كما يتضح ذلك من قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: (... كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن استعاذني لأعيذنه...)[(3)].

هكذا إذن يوفر الترقي الروحي طاقة هائلة تنشط كل الخلايا الروحية في كيان الإنسان، وتجعلها في كامل قوتها وحيويتها المحركة لباقي طاقات هذا الكيان الإنساني، الجسمية والعقلية، حيث يتحول الفرد إلى قوة محركة للحياة، في غاية التوازن والفعّالية والعطاء.

ونختم الحديث عن أهمية الترقي الروحي في رشادة الصيرورة الاستخلافية، بنص نبوي آخر، اعتبره العلماء بحق[(4)]، من أصول الإسلام وكليات الحياة الكبرى، قال فيه عليه الصلاة والسلام: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[(5)]، لأنه مقر الإيمان والكفر، ومنبع العواطف والمشاعر والإرادات الموجهة لسلوك الإنسان[(6)]. فإذا صلح هذا القلب بالترقي المعرفي والروحي، تحول فعلا إلى " **مضغة مركزية** " توازن طاقات الكيان الإنساني، وتخرج جهده الفكري والسلوكي والاجتماعي... من نطاق الفعّالية الإهتلاكية الهدمية أو الجذبية الإنكفائية، إلى نطاق الفعّالية التكاملية البنائية الإشعاعية.

الوعي الاستخلافي ومقصد الترقي الأخلاقي: المقوم المقاصدي المنهاجي المحوري الثالث من مقومات الوعي الاستخلافي، الذي استهدفت الشريعة تأسيس الوعي به، وتأصيل مكانته الجوهرية في الحياة، هو الترقي الأخلاقي أو السلوكي، باعتباره مصب اهتمام كل من الترقي المعرفي والترقي الروحي على السواء.

انصلاح حال البشر، واستقامة شأنهم، عبر توافقهم الذاتي، وانسجامهم الاجتماعي، وتناغم حركتهم الاستخلافية مع الوجود الكوني، هو المقصد الأصلي الأول، الذي يعتبر ما عداه خادما له، بالإيجاد والمحافظة، سواء تعلق ذلك بسنن الآفاق، أو الأنفس، أو الهداية، أو التأييد، إذ كلها مسخرات

---

(1) المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص35 وما بعدها.
(2) محسن عبد الحميد، **الإسلام والتنمية الاجتماعية**، (دار المنارة، جدة، 1989م)، ص64.
(3) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الرقاق، باب التواضع. (**فتح الباري**، 348/11).
(4) ابن حجر، **فتح الباري**، 157/1.
(5) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال. (**شرح النووي**، 26/11).
(6) حبنكة، عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (دار القلم، دمشق، 1399هـ-1979م)، 245/1 وما بعدها.

لتمكين الإنسان من تحقيق وظيفته الوجودية في الحياة، وهي الاستخلاف، كما يؤكد ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **[إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا]**[(1)]. أي أقدر على تحويل القيم العقدية والمعرفية إلى سلوك أصيل وفعّال ومطّرد.

وأول ما يبدأ به انصلاح حال الإنسان هو ترقيه المعرفي، ثم ترقيه الروحي، فترقيه السلوكي أو الأخلاقي، الذي هو عبارة عن محاولة توفيق مستمرة بين وعيه العقدي ووعيه التسخيري من جهة، وإرادته الفعلية* من جهة أخرى، فالإنسان يترقى سلوكيا أو أخلاقيا، بقدر ما ينجح في عملية تحويل الوعي المعرفي، عبر قواه الإرادية الممنوحة له من توثبه الروحي، إلى قيم سلوكية أو أخلاقية راسخة، في علاقته بالله وعلاقته بنفسه وعلاقته بالمجتمع وعلاقته بالكون من حوله، ما كان منه منظورا وما كان غير منظور، وهي أبعاد أساسية لكل منها تأثير قوي على صيرورته الاستخلافية ومصيره الوجودي بعد ذلك.

وبقدر ما يترقى الإنسان سلوكيا أو أخلاقيا، عبر التحويل المستمر للمعرفة والطاقة الروحية إلى قيم عملية ثابتة ومتجددة، بقدر ما ينجح في استثمار " **ميزانيته التسخيرية الكونية** " العظيمة، ومن ثم التوفيق في الاستمتاع بحياته، وتأهيل نفسه لمراحل الدورة الوجودية التالية. والعكس صحيح، فإن الإنسان بقدر ما يخفق في تحويل المعرفة إلى سلوك، بقدر ما يؤثر سلبا على " ميزانيته التسخيرية "، ويفشل في تحقيق عملية التكيّف الذاتي والاجتماعي والكوني، ومن ثم العجز عن الاستمتاع الأمثل بحياته، وتعريض نفسه لمخاطر كبرى في مراحل دورته الوجودية التالية.

وندرك أهمية هذا التحويل المستمر للمعرفة والطاقة الروحية إلى قيم سلوكية راسخة، عندما نأخذ بعين الاعتبار تعريف العلماء للخلق، واعتباره "هيئة في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر"[(2)]. الأمر الذي يؤكد ضرورة استمرارية التحويل للقيم المعرفية إلى قيم سلوكية، حتى تصل إلى مستوى الثبات والرسوخ، الذي يجعلها من مكونات الوعي المكين في الشخصية الإنسانية، وهو ما يسهل على الإنسان استثمار " ميزانيته التسخيرية الكونية " الكبرى، والاستمتاع بحياته بصورة أصيلة وتكاملية وفعّالة ومطردة.

وهذا هو المقصود في الحقيقة بالوعي الاستخلافي في مستواه الفردي، أي أن يصل الإنسان في علاقته بالله وبنفسه وبالآخرين، إلى مستوى راق من ثبات السيرة وانتظام السلوك، واتساقه مع أعلى مستويات الجودة والإتقان واليسر والسماحة، والتكامل والفعّالية[(3)]... وأن يطرد ذلك منه ويعمّ كل أبعاد علاقاته، ولا يتأخر في أي موقف من مواقف الحياة إلا لموانع قاهرة.

ولسنا في حاجة هنا إلى استعراض تأثير الترقي السلوكي على كليات الحياة الخمس؛ لأنه تأثير إيجابي شامل وعميق وجذري، باعتبار الترقي السلوكي أو الأخلاقي في حقيقته، تجسيد عملي لكل هذه القيم الكلّية، في مستواها الضروري والحاجي، واندفاع مستمر بها نحو آفاق التحسينيات، إذ ليس هناك محافظة على هذه القيم وحماية لها أكثر أو أقوى من تحويل القيم المعرفية الخاصة بكل منها إلى واقع سلوكي راسخ ومتغلغل في الوعي المؤطر لحياة الإنسان.

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة الكهف: 7، 8.

* أي المكيّفة بحاجاته وإمكاناته المتاحة فعلا.

(2) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 53/3.

(3) ابن الأزرق، أبو عبد الله، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق:علي سامي النشار، (وزارة الإعلام، العراق، 1977م)،394/2.

ومن هذا المنطلق كانت عناية الإسلام شديدة بالتأكيد على الترقي السلوكي، وترسيخ الوعي به، عبر الإلحاح على البعد أو المنطق العملي[1]، كموقف مبدئي من جهة، والإفاضة في رسم نماذج السلوك الراقي[2] من جهة ثانية، والتنديد الشديد بالإنفصامية أو الإزدواجية السلوكية والنفاق الاجتماعي والعقدي[3] من جهة ثالثة، والعناية المكثفة بالجزاءات الترغيبية والترهيبية العاجلة والآجلة التي كثرت جدًّا في الكتاب والسنة من جهة رابعة.

ونكتفي هنا بنصين جامعين، حدد أولهما الترقي الأخلاقي كهدف محوري ثابت للحركات الرسالية كلها عبر التاريخ، وهو قوله ﷺ: **(بعثت لأتمم حسن الأخلاق)**[4]. وجمع ثانيهما كليات الوعي الاستخلافي بصورة عجيبة، وأبرز البعد العملي أو دور الترقي السلوكي في عملية الوعي الاستخلافي، وكيف أنه هو مصب العملية التكليفية برمتها، ومحك المصداقية الاستخلافية[5]، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: **[**وَالعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ **]**[6].

فالإنسان بحسب المنظور القرآني، يفلت من الخسار بكل ما يعنيه من هدر لميزانيته التسخيرية، وضنكية، وشقاوة آجلة وعاجة... بقدر ما يرتقي معرفيا وروحيا وسلوكيا، وقد بدت أهمية الترقي الأخلاقي ومحوريته من تأكيد السورة على قيم الصلاح والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهي كلها ذات علاقة مباشرة بالحياة العملية، بالإضافة إلى كونها تمثل مستويات متقدمة جدا من فقه الترقي السلوكي وقيمه الكلية الكبرى، ذات الصلة المباشرة بالوعي أو الترقي العمراني كمصب لحركة الترقي السلوكي.

الوعي الاستخلافي ومقصد الترقي العمراني: وهو المقوم المقاصدي المنهاجي المحوري الرابع من مقومات الوعي الاستخلافي، الذي جاءت الشريعة تؤسسه لدى البشر، حتى يؤدوا وظيفتهم في الحياة بكفاءة وفعّالية واقتدار، ويستمتعوا بمرحلة عالم الشهادة من دورتهم الوجودية وبقية مراحلها التالية.

والترقي العمراني في الحقيقة، هو مصب كل المستويات والأبعاد الأخرى، المعرفية والروحية والسلوكية في نهاية المطاف. ذلك لأن القضية الإنسانية باستمرار، هي قضية جماعة أو مجتمع أو حضارة[7] بالترتيب، وليس للفرد معنى[*] أو وجود بلا جماعة أو مجتمع أو حضارة. وهو ما أدركه

---

(1) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص102.

(2) انظر على سبيل المثال سور (الأنعام: 153، المؤمنون: 1-11، الفرقان: 63-77).

(3) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 424/14.

(4) أخرجه الإمام مالك في **الموطأ**، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق،(مؤسسة الرسالة، بيروت، 1412هـ-1991م) 75/2.

(5) انظر محمد التومي، **المجتمع الإنساني في القرآن**، ص38 وما بعدها.

(6) **القرآن الكريم**، سورة العصر: 1-3.

(7) مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية، ص**77-124.

[*] لا علاقة لما نقصده هنا بأراء بعض المدارس الاجتماعية المتطرفة، التي تحاول إلغاء فردية الإنسان لصالح العقل الجمعي...

الوعي البشري منذ القدم، وعبر عنه بمقولة: "الإنسان مدني بطبعه"(1)، أي أنه لا يستطيع أن يستغني عن الحياة الاجتماعية، لحاجته التربوية والمعاشية، والأمنية إلى ذلك.

فالإنسان مفتقر في استكمال إنسانيته إلى الحياة الاجتماعية(2)، أي الترقي العمراني، الذي يضمن له التربية، والمعاش، والرعاية الصحيحة، والتثقيف، والأمن النفسي والبدني والسياسي، وإمكانات تفتح عبقريته واستثمارها، وكذا تلبية حاجته الفطرية إلى العبادة، بما تستلزمه من رؤية كونية وشروط ممارسة... الخ(3).

وهو ما يجعلنا نؤكد، بأن الإنسان يستكمل إنسانيته بحسب ترقيه العمراني، الذي يلبي كل حاجاته في الأمان النفسي* والأمان الاجتماعي أو المعاشي، والأمان السياسي، بانتفاء الخوف من حياته أينما كان... وهي ضمانات جلّها مرتبط بالترقي العمراني، أي بمدى تمكن المجتمع من تحقيق ضروريات الحياة للناس أولا، وتلبية الحاجات المرتبطة بذلك ثانيا، واستمرار توسيع وتكميل وتحسين هذه الحاجات، حتى تزداد حياتهم يسرا وسهولة وجمالية وأريحية ثالثا.

وتزداد أهمية الترقي العمراني حيوية، عندما تربط بسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تفرض على المجتمع تجديد نفسه أو التعرض لخطر التجاوز والتخلف والتبعية والاستضعاف؛ ذلك لأن القضية الإنسانية على هذا المستوى، مرتبطة بمدى قدرة المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد، على الاستمرار في الترقي العمراني، وتوفير الأمان النفسي والاجتماعي والسياسي له، فإذا ما توقف أو تراجع أو ضعف مستوى الترقي العمراني، تراجع تبعا له بحسب ذلك، مستوى الأمان النفسي والاجتماعي والسياسي، وبالتالي ضعف وتراجع وتاثر استثمار " **الميزانية التسخيرية الكونية الكبرى** " للفرد والمجتمع معا، وفرض عليهما التخلي عن موقعهما، والشروع في حركة الانكماش والانحسار، التي قد تفضي بهما إلى متاهات الغثائية الحضارية.

فالترقي العمراني بما يعنيه من تطور مطرد في تعزيز الأمان النفسي والاجتماعي والسياسي، وتحقيق مستويات متقدمة من التوافق الذاتي للأفراد، والانسجام الاجتماعي للأمة، والحضور السياسي* الفاعل لها على صعيد حركة التدافع والتداول الحضاري الإنساني العام... هو مصب حركة التاريخ أو الصيرورة الاستخلافية عامة، سواء تعلق الأمر بالجماعات البشرية الصغيرة، أو المجتمعات، أو الحضارات، فالكل يندفع نحو الترقي العمراني ومحكوم به.

فالجماعة أو المجتمع أو الأمة... بقدر ما ترسّخ في واقعها المعيش، من قيم وشروط وإمكانات تحقيق اطراد تنمية الأمن النفسي والاجتماعي والسياسي الداخلي والخارجي... بقدر ما تكون قد ترقت عمرانيا، ونجحت في استثمار " ميزانيتها التسخيرية "، وأهّلت نفسها للنجاح في عمليات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، والاستمتاع الأمثل بحياتها، وتهيئة نفسها للمراحل التالية من دورتها الوجودية.

ولسنا هنا كذلك في حاجة إلى بيان تأثير الترقي العمراني على كليات الحياة الخمس ومستويات تحقيق إشباعها، لأنه إذا كان ترقيا متوازنا ومتكاملا، فهو بالغ بها درجات رفيعة من الاستيعاب والمحافظة والحماية؛ لأنه ترقٍ مؤسس عليها وخادم لها ومخدوم بها. ويكفي هنا أن نشير إلى بعض

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 46.

(2) ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1985)،ص24.

(3) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق: سليمان سليم البواب، (دار الحكمة، دمشق، 1994م)، ص209.

آثار هذا الترقي العمراني على كلّية الدين مثلا، الذي يستفيد من وسائل نشر الوعي به، وتيسير إمكانات العبادة وتحقيق الالتزام الشامل بأوامره، وتوفير وسائل الدفاع عنه والحماية له... الخ. وإذا صلح الدين صلحت بعده باقي الكلّيات الأخرى، لما فيه من قدرات ذاتية[1]، لها تأثير شامل وعميق وممتد على شحذ الفعّالية العقلية والروحية والاجتماعية لدى الإنسان بصورة نموذجية لا تتوفر في غير الدين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك([2]).

وعندما نتأمل اهتمامات الوحي- كتابا وسنة – نلحظ فعلا أن الترقي العمراني يشكل مصب اهتماماته الكبرى، كما سيتضح لنا ذلك أكثر في مباحث الفصل الباقية. ونكتفي هنا بالتذكير بنص قرآني ذي دلالة عميقة في هذا المجال، وهو قوله تعالى: **[وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ]**[3].

فالآية واضحة في اعتبار الترقي المعرفي والروحي والسلوكي مقدمات غايتها تحقيق الاستخلاف في الأرض، الذي أبرز مظاهر قوته ورسوخه[4] ومصداقيته؛ هيمنة الدين على الحياة، أي جعل حركة التدافع والتداول والتجديد مؤطرة لمرجعية الابتلاء، مما يحقق في الحياة الأمن النفسي والاجتماعي والسياسي، ويطلق طاقات الأفراد والمجتمع في عمارة الأرض، وإبداع ما تمس إليه حاجتهم من أنظمة ومناهج ومرتفقات[5] أصيلة وفعّالة ومتجددة، لترقية عبادتهم لله، وتفعيل سيادتهم في الأرض.

ومن كل ما سبق نلحظ أن المقومات المنهاجية الأساسية التي تشكل البنية الهيكلّية الكلّية العامة للوعي الاستخلافي، والتي استهدفت الدعوة الإسلامية، وكل الرسالات السابقة تحقيقها في حياة البشر عبر التاريخ تمحورت حول الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني أو الحضاري لارتباط تحقيق المحافظة على كليات الحياة الخمس، في مستوياتها الضرورية والحاجية والتحسينية، بشمولية وعمق الوعي المعرفي والاستثماري بهذه المقومات المنهاجية الأربعة.

المقومات القيْميّة الوظيفية للوعي الاستخلافي:

وإذا كان الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، يشكل المقومات المنهاجية الكلّية للوعي الاستخلافي، الذي تتوقف عليه حاجات الإنسانية في كل مستوياتها، السابق ذكرها، فما هي يا ترى المقومات القيْميّة الوظيفية المبدئية العامة التي بدون مراعاتها لا يمكن تأسيس الوعي الاستخلافي في كل أبعاده المذكورة ؟ أي لا يتحقق الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني أو الحضاري، ومن ثمّ تتأثر الحاجات الإنسانية، وينعكس ذلك سلبا على حاضر ومستقبل حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

---

* ذكرنا هنا السياسي، بناء على كون القوة السياسية باستمرار تستند على قوة معرفية واقتصادية وعسكرية...

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، 2/526-527؛ دراز، **الدين**، ص98.

(2) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، ص216.

(3) **القرآن الكريم**، سورة النور: 55.

(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 18/287.

(5) ولي الله الدهلوي، **حجة الله البالغة**، إعداد: محمد شريف سكر، (دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1413هـ-1993م)، 1/119.

وسنحاول هنا التركيز على بعض القيم المبدئية المحورية ذات العلاقة المباشرة بالمقومين الأخيرين خاصة، أي الترقي السلوكي والترقي العمراني، وإن كان لما اخترنا الحديث عنه هنا، علاقة قوية كذلك بالبعدين الأولين؛ أي الترقي المعرفي والترقي الروحي، اللذين سبق الحديث عنهما في الفصلين الثاني والثالث بشكل مفصل، ونعطي هنا الفرصة للوعي بالترقي السلوكي والعمراني، والقيم الوظيفية الكلّية المؤطّرة لذلك.

وقبل أن نشرع في الحديث عن هذه المقومات القيْميّة الوظيفية الكلّية المؤطّرة لهذين المستويين من الوعي الاستخلافي، نؤكد على كثافة المادة المعرفية المتصلة بالترقي السلوكي والعمراني في القرآن والسنة، كما يتضح ذلك على سبيل المثال من مفردات: العمل، والقوة، والإعداد، والتمكين، والإعمار، والاستخلاف، والتسامح، والرحمة، والتواضع، والسلام، والأخوة، والمحبة، والصبر، والعفو، والصفح، والأسوة، والمعروف، والإحسان، والعدل، والتناصح، والصلاح والإصلاح، والخيرية، والطيبات، وحسن الظن، والتبين، والكرامة، والحكمة، والأمانة، والوفاء، والعهد، والعزة، والإيثار، والحياء، والشكر، والحلم، والصدق، والوحدة، والتعارف، والتسامح[1]... إلى غير ذلك من المفردات المفتاحية الهامة من القيم السلوكية؛ الفردية والجماعية الهامة، وغيرها من نواقضها، المنهي عنها؛ كالكسل، والبطالة، والضعف، والإهمال، والتفريط، والظلم، والاستبداد، والاستكبار، والغرور، والأثرة، والأنانية، والتفرق، والتباغظ، والتحاسد، والخيانة، والنفاق، والإفساد، والذلة، والعجلة، وسوء الظن، والكذب، والتنازع... وغيرها من مفسدات الأعمال، ومفككات شبكة العلاقات الاجتماعية.

فهذه المادة القيْميّة المكثفة تبين فعلا مدى عناية الوحي –كتابا وسنة– بالبعدين السلوكي والعمراني، واعتبارهما مصب حركة الاستخلاف على التوالي. وإن لم تستثمر –أي هذه المفاهيم والمفردات– بعد من قبل الدراسات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية[2] بصورة عملية جادة وشاملة، في إطار مرجعية الإسلام ورؤيته الذاتية إلى الدورة الوجودية للإنسان عامة، والصيرورة الاستخلافية خاصة.

والقيم الكلّية التي اخترناها هنا، من بين هذه المجموعة الكبيرة من المبادئ والقيم الوظيفية المبثوثة في الكتاب والسنة، والمشكلة، في تكاملها الوظيفي، لعمق الوعي السلوكي والعمراني في حركة الاستخلاف البشري، هي:

كلّية المنطق العملي.
وكلّية الإحسان.
وكلّية التنافسية الاجتماعية.
وكلّية الواجبات.
وكلّية الحرية المبدعة.
وكلّية العدالة الحافزة.
وكلّية المساواة الفعّالة.
وكلّية التنوع المبدع.
وكلّية الشكر المبارك للجهد.

---

(1) انظر هنا: **الإحياء** للغزالي، و**بدائع السلك** لابن الأزرق، و**أدب الدنيا والدين**، و**تسهيل النظر وتعجيل الظفر** للماوردي، و**تيسير المالك في تدبير الممالك**، لابن الربيع، و**موسوعة أخلاق القرآن** للشرباصي، و**الأخلاق الإسلامية** لحبنكة الميداني...

(2) أقصد هنا فلسفة التاريخ والحضارة بصفة خاصة.

فهذه الكلّيات في تقديرنا* تشكل محاور كبرى في منظومة المقومات القيْميّة الوظيفية العامة، التي تكفل تحقيق الترقّي السلوكي والعمراني، وقبل ذلك وبعده الترقّي المعرفي والروحي، إذا ما تم استيعابها جيدا؛ وعيا واستثمارا وحماية.

الوعي الاستخلافي وكلّية المنطق العملي:

نقصد بالمنطق العملي هنا[1]، النزعة العملية التي يقترن فيها الوعي بالعمل باستمرار[2]، إن لم يغلب البعد العملي ذلك أحيانا، كما في حالات المبادرة وخوض معترك التجربة، عندما يضطر الإنسان إلى ذلك، ولو لم يستكمل التأسيس المعرفي للموقف أو الفعل، حيث يتحول الفعل إلى مؤسِّسٍ للمعرفة التسخيرية والاستخلافية.

فالمنطق العملي هو هذه القدرة على الإنجاز، والفعّالية والكفاءة في الأداء ومباشرة الأمور، من غير تسويف أو انتظار، أو اتكالية، أو مثالية مخدوعة بالطفرية والكلّية... بل دأب ومتابعة، وبنائية مؤمنة بقانون التراكمية ومحترمة له[3].

فالقوة والقدرة والفعّالية والكفاءة، في السلوك والعلاقات، وفي إنتاج الأفكار والقيم والأنظمة، وتطوير وتنمية إمكانات المعاش والرفاهية... والتحكم في سنن التسخير، والارتقاء الروحي والفكري والأخلاقي... كلها مرتبطة بسيادة وتأصل روح المنطق العملي في الفرد والمجتمع، أي حب العمل، وسرعة المبادرة إليه، والاستمتاع به نفسيا وفكريا واجتماعيا واعتبار ذلك عن وعي، شرطا قاعديا لتلبية حاجات الحياة، ومجابهة تحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

ومن هذا المنطلق، كان للإسلام عناية فائقة بتأسيس الوعي بهذا المبدأ الوظيفي الكلي المقوّم لحركة الاستخلاف، كما يتضح ذلك على سبيل المثال من ورود مفردة **العمل** في القرآن وحده أكثر من (300)[4] مرة. وجاء التأكيد المكثف على محورية العمل في تقييم البشر: **[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ]**[5]. كما جاء التنديد الشديد بالسلبية والانفصامية السلوكية[6]، وضعف المنطق العملي فقال سبحانه: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ]**[7].

وعموما فإن الإسلام يرتقى بالمنطق العملي إلى مستوى المقومات القيْميّة المبدئية الأساسية، التي تقوم عليها حركة الاستخلاف، وتتحقق بها إنسانية الإنسان، وتصان كرامته، ويقاس نضجه ووزنه.

---

* اكتفينا بهذه الكلّيات هنا، استجابة لداعي المنهج الذي يفرض علينا عدم التوسع من ناحية، ولتقديرنا بأنها تشكل فعلا مقومات مبدئية أساسية لتحقيق الوعي الاستخلافي في أبعاده كلها، وخاصة الترقّي السلوكي والعمراني.

(1) انظر: مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص102.

(2) الشاطبي، **الموافقات**، 31/1، 41، 47.

(3) فيكتور بوشيه، **طريق السعادة**، ص 164.

(4) حسين أبو الفتوح، **قائمة مجمعية بألفاظ القرآن ودرجات تكرارها**، (مكتبة لبنان، بيروت، 1410هـ-1990م)، ص82.

(5) **القرآن الكريم**، سورة الزلزلة: 8-9.

(6) الشوكاني، **فتح القدير**، 272/5.

(7) **القرآن الكريم**، سورة الصف: 3،2.

الوعي الاستخلافي وكلّية الإحسان: وهذه الكلّية لها ارتباط وثيق بالكلّية السابقة، بل تعتبر مقوما لها، ذلك لأن العمل كمقوم كلي للوعي الاستخلافي؛ في أبعاده المعرفية والروحية والسلوكية والعمرانية، يأخذ معناه الوظيفي الحقيقي من أبعاد الإتقان والدقة والجمالية والكفاية، والصلاح... التي تتوفر فيه من جهة، ومن الإشباعات والكفايات التي يحققها من جهة أخرى. وهذه القيم مجتمعة هي جوهر معنى الإحسان هنا.

فالإحسان باعتباره مضمونا يحتوي معاني الرحمة واليسر والرفق والتسامح والمواساة والمساعدة والصلاح[1]. وباعتباره منهجية مؤسَّسةً على الإتقان والدقة والإبداع والجمالية.. هو لبّ العمل الحقيقي، المندرج في نطاق الوعي الاستخلافي المتحقق بمستويات متقدمة من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، فإذا فقد العمل بُعدَ الإحسان، ابتعد عن الوعي الاستخلافي بقدر ذلك.

وعلى هذا فإن تأصّل منطق الإحسان في نفوس الأفراد، وفي نظام القيم والعلاقات داخل المجتمع، يعد مقوما أساسيا من مقومات الوعي الاستخلافي، وشرطا جوهريا من شروط الترقي المعرفي والروحي، ومن ثم السلوكي والعمراني. ولذا جاءت العناية به في الكتاب والسنة كبيرة، سواء على صعيد كثافة تكرره في النصوص[2]، أو على صعيد حجم الوظيفة والقيمة التي يحتلها في قوانين الوعي الاستخلافي.

وقد يكفي هنا التذكير بقوله تعالى: **[الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا]** [3]. وقوله ﷺ: (الاحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[4]. ولا شك أن من تحقق بهذا المستوى من الوعي، جاءت أعماله في غاية الإتقان والدقة والجمالية والوفاء والكفاية والصلاح والخيرية والفعّالية[5].

فالإحسان بهذا المفهوم الكلي الشامل، مقوم مبدئي للوعي الاستخلافي، وشرط لا غنى عنه لتحقيق الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، ومن ثم التحكم الفعّال في استثمار " **الميزانية التسخيرية الكونية**" الكبرى، والاستمتاع الأمثل بها في نطاق استراتيجية أو خطة: **[وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ]**[6].

الوعي الاستخلافي وكلّية الواجبات: وهي كلّية هامة، ذات علاقة نفسية ووظيفية مباشرة بالكليتين السابقتين، لأنها تشكل بالنسبة لهما الشرط النفسي والعملي، الذي يدفع إلى العمل، ويحفز على بلوغ أعلى مستويات الإحسان المستطاع فيه.

---

(1) ابن القيم، **مدارج السالكين**، 481/2.
(2) أبو الفتوح، **قائمة مجمعية**، 43/5.
(3)**القرآن الكريم**، سورة الملك: 2.
(4) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، (**فتح الباري**، 140/1).
(5) ضياء العمري، **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**، (كتاب الأمة رقم: 39، قطر، 1414هـ)، 117/1.
(6)**القرآن الكريم**، سورة القصص:77.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالإنسان عندما يكون محكوما وموجَّها أو مؤطّرا **بمنطق الواجبات**، غيره عندما يكون محكوما وموجها بمنطق الحقوق[1]. ذلك لأن الواجب يشرط الحقوق، فما لم تؤدّ الواجبات، فإنه يتعذر منح أو نيل الحقوق، وإن كانت بعض الواجبات قد يحتاج أداؤها إلى نيل الحقوق على مستوى التفاصيل الجزئية في حركة الحياة.

وتأصُّل منطق الواجبات في حياة الناس، يحل مشكلة الحقوق جذريا؛ لأن الإحساس بالواجب والاندفاع الفوري إلى تلبيته بصورة كاملة وفعّالة، يؤثر بشكل مباشر على العمل، كإنتاج للمنافع المعنوية والمادية، من حيث الكمية والنوعية، وهو ما يحقق فائضا في سوق الإشباعات، ويدفع إلى عمليات التحسين من جهة، وكفاية المجتمع وتوفير جهده ليستثمر في مجالات كفائية تحسينية من جهة أخرى، في ذلك كله ترقية للوعي الاستخلافي؛ معرفيا وروحيا وسلوكيا وعمرانيا، وإقدار للمجتمع والأمة على مواجهة تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، فعّالية وأصالة واطّراد.

وهذه القيمة المحورية الهامة، نالت حقها كذلك من عناية الإسلام، كما يتضح ذلك من فكرة الشرطية[2] التي بُنيَ عليها الوعي الاستخلافي كله في المنظور الإسلامي، الذي يجعل نيل المرغوبات ودرء المكروهات مرتبطا على الدوام، باستيفاء شروطها المنتظمة في أنساقها السنية، فكثر في القرآن، ربط النتائج بالمقدمات، كما تلمس ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: **[إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا]**[3]، وقوله سبحانه: **[وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا]**[4]، وقوله:**[قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ]**[5]... بحيث يتأصل الوعي منطق المبادرة إلى القيام بالواجبات* لنيل الحقوق، بصورة عميقة، تقضي على السلبية والاتكالية والغفلة، وتدفع بحركة العمل والإحسان إلى مستويات رفيعة من الإكثار والإتقان والديمومة[6]،وبالتالي تحقيق الكفاية للمجتمع، وحفظ كيانه، وإقداره على مباشرة عمليات التدافع والتداول والتجديد، بكفاءة وفعّالية، كما سنرى نموذجا حيًّا عن ذلك في القسم التطبيقي من الدراسة.

الوعي الاستخلافي وكلّية التنافسية الاجتماعية:وهي كلية أساسية في الوعي الاستخلافي، ذات صلة قوية بالكلّية السابقة، ذلك لأن الناس عندما يستحكم فيهم الوعي بمنطق الواجبات، ويستيقنوا بأن عمليات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تنشدّ إليها الصيرورة الاستخلافية باستمرار، مرتبطة **مستوى وفعّالية وكفاءة أداء الواجبات**، فإنهم يندفعون إلى أداء هذه الواجبات في حركة تنافسية متصاعدة، يغذيها الخوف من التقصير المؤثر على الحقوق الفردية والجماعية العاجلة والآجلة من جهة، والرغبة في الاستئثار بقصب السبق في نيل المرغوبات المادية والمعنوية، ودفع نواقضها من جهة أخرى.

ولا يخفى هنا الدور الكبير الذي يؤديه **الوعي التنافسي** في حركة الترقي المعرفي والروحي عامة، والسلوكي والعمراني خاصة، بما يضيفه باستمرار، من تعديلات وتحسينات على مستوى الأداء

---

(1) مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، (دار الشروق، بيروت، 1972م)، ص105.

(2) دراز، محمد عبد الله، **دستور الأخلاق في القرآن**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1412هـ-1991م)، ص88.

(3) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 29.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الطلاق: 2.

(5)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 165.

* الواجب هنا يستغرق الذاتي والكفائي، أو الفردي والاجتماعي.

(6) حسن الترابي، **الإيمان وأثره في حياة الإنسان**، (دار القلم، الكويت، 1974م)، ص97.

الاجتماعي للإفراد والجماعات والمؤسسات، وما يحدثه من تغييرات في الأفكار والمفاهيم والقيم، ويرسخه في النفوس والعلاقات والأنظمة، من هذه الأفكار والمفاهيم والقيم، التي تأخذ طابع العادات والتقاليد المؤطرة لحياة الأفراد وحركة المجتمع مع مرور الزمن.

ولما كان لهذه التنافسية علاقة بغريزة حب الذات والتملك والاستحواذ[1]... وكان احتدام التنافس بين الأفراد والجماعات والأمم... كثيرا ما يصطبغ بالصراعية، والإقصاء، والإلغاء، والاستعباد للآخرين، والاستفراد بالنعم[2]... فقد أولاها الإسلام كذلك عناية كبيرة، فأكد تأصيلها، وتعميق الوعي بأهميتها وضرورتها الحيوية لتحقيق الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني من جهة، وأطّرها حتى يشذب آثارها السلبية، ويقلل من احتمالات تحولها إلى حركة صراعية محمومة هادمة من جهة أخرى.

وفي هذا جاء قوله تعالى مؤكدا على المسارعة إلى الخيرات والتنافس فيها:[**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**][3]، بعد أن بين سبحانه للناس سلم الأولويات، ورشّد على ضوئه حركة التنافس، عبر التأكيد على **أهمية النيات والقصود**، والرغبة في الأولى والأفضل[4]. كما يتضح ذلك من قوله تعالى: **[تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]**[5]، وقوله سبحانه:**[وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ]**[6].

فالتنافس يجب أن يكون **محكوما بالخيرية**، وأن تكون الغاية منه خدمة هذه الخيرية والانتفاع بها، ومدّ هذا الانتفاع إلى كل البشر[*]، وإلى كل المخلوقات ذات العلاقة أو المصلحة، في الحاضر والمستقبل، ولا يكون القصد من ورائه الاستعلاء الظالم في الأرض[7]، لأن ذلك ينافي الوعي الاستخلافي، ولا يؤثر على حركة الترقي السلوكي والعمراني إيجابا، بل يؤثر عليها سلبا، باحتكار الاستمتاع بالنعم، وحرمان الآخرين منها، وتذكية روح الصراع والغلبة الانتقامية في الحياة الاجتماعية، مما يهدر ميزانية الأفراد والجماعات، ويسيء إلى المستوى أو **البعد الإنساني*في عملية** الأداء التنافسي.

---

(1) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 10/3.
(2) ابن عطية، **المحرر الوجيز**،235/13.
(3) **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 50.
(4) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **تفسير أبو السعود**، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت)، 25/7.
(5)**القرآن الكريم**، سورة القصص: 83، 84.
(6)**القرآن الكريم**، سورة المطففين: 26.
(*)وبهذا يتجه تحذير الرسول ﷺ من التنافس على الدنيا، ليأخذ فعّاليته الأصيلة في حركة الاستخلاف.
(7) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 340/11.
* لأن إنسانية الإنسان لا تتأصل ولا تتعمق ولا تتأكد في أجواء الصراع، بل تتعرض باستمرار للانتكاس والمصادرة والقمع والإهدار... ولكنها تتأصل وتتعمّق وتتوازن وتتفتح وتبدع في أجواء التنافس والحرية والمساواة والعدالة.

الوعي الاستخلافي وكلّية المساواة الفعّالة: وهي كلّية أساسية كذلك، ذات أثر جذري ممتد في الوعي الاستخلافي؛ في كلياته السابقة واللاحقة، لأنها تشكل الجذر الأساس الذي تتبني عليه فلسفة الحقوق والواجبات، كقيمتين[1] فاعلتين في حياة الإنسان ومؤطرتين لها باستمرار.

فالناس ينبعثون للعمل، ويجدّون في تحسين ما يعملون، وتسكنهم روح المنافسة في أداء الواجبات، بقدر ما يتوفر لهم من مساواة. بل ويحسّون بإنسانيتهم، ويستمتعون بها، بحسب ما يتحقق لهم من هذه المساواة، ويزال أمامهم من موانع غير موضوعية[2]، تحرمهم من حقوقهم، بل وحتى من أداء واجباتهم على الوجه المطلوب.

ولهذا فإن تحقق المساواة مقوم مبدئي أساس للوعي الاستخلافي، وشرط جوهري من شروط تحقيق الترقي العمراني الأمثل؛ لأن الحياة التي تتأسس على: " الاعتقاد بأن الناس جميعا متساوون في طبيعتهم البشرية، وأن ليس هناك جماعة تفضل جماعة غيرها، بسبب عنصرها الإنساني، وخلقها الأول... وأن التفاضل بين الناس إنما يقوم على أمور أخرى خارجة عن طبيعتهم وعناصرهم وسلالاتهم وخلقهم الأول "[3]، توفر مناخ التنافس الاجتماعي، وتفجر عبقرية الإنسان، وتفتح له مجال الترقي في مدارج الكمال الإنساني، لأنه سيعي في مثل هذا الجو، أنه يرتفع ويستمتع بالحياة، ويعظم شأنه فيها، بناء على ما تصطبغ به حياته من منطق عملي، ويتسم به جهده من قدرة على الإتقان والإبداع في هذا العمل، فيجدّ في تطوير وعيه المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني دون توان. ولا شك أن من قصد وعزم بلغ ما يريد.

وقد أعطى الإسلام لكلّية المساواة مكانها الصحيح من منظومة الوعي الاستخلافي، وقرر بوضوح وحسم أن الناس متساوون في أصل الخلقة، وفي حقوق الحياة؛ وأنه لا أثر لاختلاف الجنس واللون والموطن[4]... في ذلك، وأرجع التفاوت إلى عوامل ذات علاقة مباشرة **بإرادة الإنسان واختياره وكسبه وخيريته.** بناء على مدى استثماره الصحيح لسنن التسخير، في تحقيق ترقيه المعرفي والروحي والسلوكي، ومساهمته الجادّة في تطوير الحركة العمرانية وترقية الوعي الاستخلافي للمجتمع والأمة والإنسانية، كما قال تعالى: **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ]**[5].

وبهذه النظرة وهذا التأطير لمبدأ المساواة، ضمن له الإسلام فعّالية خاصة، لأنه أناطه بإرادة الإنسان واختياره وكسبه، كما يدل على ذلك متغير " التقوى "[6]، الذي يحدد موقع الإنسان ووضعه إزاء الحقوق والواجبات، فلا تتحول هذه المساواة إلى فرصة للسلبية والكسل والانفلات من الالتزامات الاستخلافية[*]، بل تظل حافزا قويا للعمل والمنافسة والإبداع، والوفاء بالواجبات، وشرطا أساسا للاستمتاع بالحقوق والثوابات، وأخذ الموقع الاجتماعي المناسب بناء على ذلك.

---

(1) دراز، **دستور الأخلاق**، ص136.
(2) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978)، 66- 99.
(3) علي عبد الواحد وافي، **المساواة في الإسلام**، (دار المعارف، القاهرة، 1962م)، ص9.
(4) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة**، ص95.
(5) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات: 13.
(6) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، 843/2.
(*) كما يلحظ ذلك في الفكر المزدكي و القرمطي والرأسمالي والشيوعي وحركات الاسترجال الحديثة... حيث يتحوّل مبدأ المساواة إلى كارثة على الترقي السلوكي والعمراني...

الوعي الاستخلافي وكلّية الحرية المبدعة: وهي كلّية محورية كذلك في الوعي الاستخلافي، ذات صلة مباشرة بالكليات السابقة كلها، وتتأكد أكثر ويتأصل وجودها ضمن مقومات الوعي الاستخلافي، لكونها من لوازم المساواة الفعّالة ومترتباتها الطبيعية، لأنه ما دام الناس متساوين، فلا بد أن يكونوا أحرارا، لأن عدم حريتهم يخل بمبدأ مساواتهم، كما أن عدم مساواتهم يخل بحريتهم.

فالحرية قيمة أصيلة في الوجود الإنساني، والعبودية الاسترقاقية بكافة أشكالها*، وضع اجتماعي طارئ على الحياة الإنسانية، ولذلك فإنه وضع غير شرعي تجب إزالته أبدا[1]، لما في استمرار وجوده من إهدار للكرامة الإنسانية، وتعطيل لطاقات تسخيرية واستخلافية لا تعوض، وحرمان للإنسان والمجتمع من الاستمتاع بميزانيتهما التسخيرية، وإغناء حركة الاستخلاف بعبقريتهما.

فالإنسان يكون إنسانا بقدر انتفاعه الواعي بحريته، وتنقص إنسانيته بقدر ما ينقص من حريته[2]، ويؤثر في حركة ترقية الوعي الاستخلافي بحسب هذه الحرية التي يتمتع بها، فهي رأسمال الإنسان الحقيقي، الذي إذا ما عرف كيف يستثمره، أثرّ به على كل القيم الاستخلافية الأخرى تأثيرا كبيرا. لأنها جميعا مرتبطة بهذه الحرية المتاحة من جهة، والمستثمرة بفعّالية واعية من جهة أخرى.

والسبب يكمن في جوهر الحرية ذاتها، باعتبارها انتفاء للعوائق والضغوطات التي تقيد تصرفات الإنسان، وتحرمه من إنفاذ إرادته. فهي تعني تمكين الإنسان من التصرف في شؤونه الخاصة بالأصالة، تصرفا غير متوقف على رضى أحد[3]، أو مقيد بأي قيد اجتماعي أو سياسي لا مبرر له في عرف الفطرة والأنظمة الثقافية والاجتماعية والسياسية الضابطة والموجهة لحركة الاستخلاف. فإذا توفر هذا للإنسان فإنه سيخوض غمار المنافسة الاجتماعية، ويبدع في عمله، ويضطلع بواجباته بكفاءة، لأن ذلك كله من شروط تحققه بحريته كذلك.

ومن هنا فإن الدارس للإسلام، يلحظ كيف تمحور اهتمامه حول مسألة الحرية بصورة مركزة، فقد استهدف تحرير حرية الإنسان – كرأسمال أساسي – من كل ما يؤثر عليها سلبا، سواء أتت هذه المؤثرات السلبية من نفسه[4]، أو من محيطه الاجتماعي[*]، أو من المحيط الطبيعي نفسه[5]، أو من قوى الكون الأخرى، كالشيطان وغيره[6]. ويُرى هذا بجلاء في فكرة التوحيد والعبودية، والثورة على الشرك بمظاهره ومستوياته المختلفة[7]، باعتباره انتقاص لحرية الإنسان وهدر لها. كما رأينا ذلك في الفصل الثاني.

---

* من الرق وهو السيطرة على إرادة الإنسان وحريته، وتجريده من حقوقه الآدمية التي تأتي في مقدمتها حريته وكرامته الإنسانية، وتكافأ الفرص أمامه .

([1]) الرازي، **التفسير الكبير**، 288/3.

(2) عمار طالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، (دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 1403هـ- 1983)، 480/3.

(3) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة**، 130.

(4) الرازي، **المرجع السابق**، 126/18.

(*) السياسي والثقافي والاقتصادي..الذي يضغط على الإنسان، ويدفع به ضد حريته الحقيقية.

([5]) توينبي، **مختصر دراسة للتاريخ**، 39/1- 147.

(6) انظر: **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** لابن القيم.

(7) أبو الأعلى المودودي، **الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادئها**، ترجمة: محمد عاصم الحداد، (الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1390هـ، 1970م)، ص72.

وبهذه الشمولية والتوازن في الموقف من الحرية الإنسانية، يجعل الإسلام منها قيمة إبداعية كبرى، تنعكس على كل القيم المبدئية الأخرى؛ بالتأصيل والتفعيل، واطراد الحيوية والتجدد. لأنه يُخلّصها بذلك، من آفتي: المصادرة والتعطيل من جهة، والإهدار العبثي لها من جهة أخرى، وهو ما تعاني منه الإنسانية باستمرار، ويتسبب في هدر وَبَوَار " **ميزانيتها التسخيرية الكونية** " العظيمة، إما بواسطة تجريد مجموعات من البشر من حريتها بالاستعباد والاسترقاق، والظلم، والاستبداد[(1)]. وإما بالحرية المنفلتة من كل الضوابط الفطرية، والمؤطرات الاجتماعية الموضوعية الضرورية لفعّالية الحياة، والاستلاب للأنانية والهوى .

فالإنسان تعظم فعّاليته وتبلغ مستويات نموذجية، في الأصالة والتكامل والتوازن والحيوية، بقدر ما يتحرر جهده الفكري والعملي من الكوابح اللاموضوعية، الصادرة من ذاته المريضة، أو الآتية من خارج ذاته، فذلك وحده هو الذي يمنح للحرية صفة الإبداعية، لأنها تتحول إلى نشاط بناء يغني حركة الاستخلاف ويطورها باستمرار .

الوعي الاستخلافي وكلّية العدالة الحافزة: والعدالة كمعطى وكفعل اجتماعي* يستهدف إقرار الحقوق بصورة منصفة، في ضوء خريطة الواجبات والالتزامات والمسئوليات** والظروف الموضوعية وغير الموضوعية التي تحيط بأدائها، تعتبر من المقومات الجوهرية للوعي الاستخلافي، وركنا ركينا لانتظام أمر حركة الاستخلاف واطراد ترقيها معرفيا وروحيا وسلوكيا وعمرانيا. كما دلت على ذلك الخبرة التاريخية الطويلة، التي أجمعت على أن العدل أساس العمران البشري[(2)]، وأنه " لا شيء أنفع من العدل، كما أنه لا شيء أضر مما ليس عدلا "، كما يقول الماوردي[(3)].

فالعدل يؤثر بشكل شامل وعميق على كل المقومات المبدئية السابقة واللاحقة، وغيرها مما لم نذكره هنا. لأنه بتحقيق مبدأ الإنصاف والموازنة الموضوعية الدقيقة بين الحقوق والواجبات والمؤثرات الحافة بذلك، يوفر الأساس النفسي والاجتماعي الذي يحفز على الاطمئنان في النفوس، ويقوي دوافع الجدية والشعور بالمسؤولية لدى الإنسان، فيباشر واجباته وهو مستيقن بأنه سينال حقه، بناء على قدر وفائه بهذه الواجبات، فيتأصل لديه المنطق العملي ويقوى حرصه على الدقة، والإتقان، وينشط للمنافسة الاجتماعية، ويستثمر مساواته وحريته بصورة موضوعية فعّالة ومتوازنة.

فعندما ترسخ قيمة العدالة في نفوس الأفراد، وتتوطد في واقعهم الاجتماعي، تحدث نقلة كبرى في الوعي الاستخلافي، وترتقي بمستوى الأداء المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني ارتقاء كمّيا

---

(1) إمام عبد الفتاح إمام، **الطاغية. دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي**، (سلسلة عالم المعرفة، رقم: 183، الكويت، 1414هـ، 1994م)، ص144.

* وقبل ذلك فهي فعل اجتماعي ذاتي، يتم عبره إقرار حقوق المفردات الكيانية للإنسان نفسه، كما نبه إلى ذلك حديث: **«إن لنفسك عليك حقا... فأعط كل ذي حق حقه»**

** إزاء نفسه وإزاء محيطة الاجتماعي والكوني عامة. انظر: الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**،(دار الوفاء، القاهرة، 1405هـ، 1985م)، ص 137.

(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، (دار الكتاب العربي، بيروت، 1403هـ، 1983م)،23/1.

(3) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، 62.

وكيفيا نموذجيا، عبر ما توجده من جو تنافسي متوازن، لا يدع مجالا أو فرصة للسلبية، أو العوامل اللاموضوعية(*) لتؤثر على صيرورة الحركة الاستخلافية.

وقد تجاوز الوحي – كتابا وسنة – إطار التأكيد المبدئي على محورية العدل في ارتقاء الوعي الاستخلافي، إلى العناية بتحويل ذلك إلى حاسّة أو ملكة راسخة في النفوس، أي إلى ثقافة شعبية متوارثة[1]. كما يتضح ذلك من كثرة ورود كلمات العدل[2]، والقسط[3]، والحق[4]، ونواقضها كالظلم[5] والطغيان[6]... وشدة التشنيع بالأخيرة، والدعوة إلى القسط والإنصاف في قول الحق أو منحه، حتى ولو تعلق ذلك بالقرابة، بل حتى مع النفس[7]: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ][8]. ولفظ **قوامين** في الآية، ذو دلالة هامة، توحي بحرص الوحي على البعد النفسي والاجتماعي للقضية، أي تحوّلها إلى وضع نفسي واجتماعي راسخ، "فقوامين" بصيغة الجمع أولا، ثم بصيغة المبالغة ثانيا، تعني اذهبوا إلى أبعد مدى مستطاع في التحقق الذاتي والاجتماعي بالعدل، زيادة على ما في اللفظ من معاني الإتيان به كاملا متقنا مستوفيا لكل أبعاده.

الوعي الاستخلافي وكلّية التنوع المبدع: وهو مقوّم هام من مقومات الوعي الاستخلافي كذلك؛ لأن المجتمع الإنساني بطبيعته متنوع ومتعدد، من أبسط وحداته الاجتماعية وهي الأسرة، إلى أعقد هذه الوحدات وأكبرها، كالدولة، والمجتمع، والأمة، والبشرية عامة.

ففي كل هذه المستويات يطّرد التنوع والتعدد، في البنى الجسمية، والمستويات العقلية، والألوان، والطبائع، والأذواق، والمستويات الاجتماعية، والظروف المعاشية، والأوضاع السياسية، والطموحات والإرادات... وتتنوع تبعا لذلك العادات والتقاليد والأعراف والأنظمة الاجتماعية... وتتشابك وتتعقد مع مرور الزمن وتجدد الحاجات وتلاحق التحديات والابتلاآت، التي تفرزها حركة التداول الحضاري.

وقد لوحظ عبر التاريخ، ضعف استثمار هذا التنوع، بل كثيرا ما كان عامل شقاء لفئات عديدة من البشر، ومثار صراع مرير، وهدر خطير لـ"**ميزانية الإنسان التسخيرية**"، كما تشير إلى ذلك ظواهر الاسترقاق والعبودية، والحروب الطاحنة، والطبقية الاجتماعية البغيضة، والتمييز العنصري... إلى غير ذلك من الظواهر الدالة على عجز الإنسانية في كثير من البيئات والأزمنة، عن استثمار هذا الإمكان التسخيري الخطير، في تعميق الوعي الاستخلافي، ودعم الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني المرتبط به.

ولعل الظاهرة البارزة التي يجب أن يلحظ دورها بعناية من قبل الباحثين المهتمين بفلسفة التاريخ والحضارة، هي دور الوحي في تجاوز هذا القصور الذي هيمن على الحياة البشرية، فقد كان

(*)كالعصبية، والمحسوبية، والاستبداد، والرق، والحرية المنفلتة، والمساواة الشكلية.

(1) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 456/5.

(2) وردت في القرآن (28) مرة.

(3) وردت في القرآن (27) مرة .

(4) وردت في القرآن (284) مرة.

(5) وردت في القرآن أكثر من (270) مرة.

(6) وردت في القرآن أكثر من (30) مرة.

(7) الطبري، **جامع البيان**، 207/5.

(8) **القرآن الكريم**، سورة النساء: 134.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدين[1] باستمرار عامل توحيد ومن ثم استثمار لظاهرة أو إمكان التنوع، وتحويله إلى تنوع مبدع ومخصب لحركة الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، وإغناء للوعي الاستخلافي الذي تتحرك نحوه الحياة البشرية الراشدة على الدوام.

ويهمنا هنا كيف حول الإسلام فعلا هذا التنوع إلى إمكان تسخيري هائل، وعامل إبداع فعّال ومتجدد، من خلال قيم المساواة والحرية والعدالة، والمنافسة، والنزعة العملية، ومنطق الواجبات... فقد أكد القرآن أهمية هذا التنوع[2]، وأن غايته أن يستفيد الناس من إمكانات وتجارب بعضهم بعضا في تحقيق الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني المطلوب، فقال سبحانه: [**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**][3]. وقال عزّ وجلّ: [**نَحْنُ** قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا **يَجْمَعُونَ**][4]، وقال منبّها على أهمية هذا التنوع، ومحذرا من إساءة استثماره: [**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**][5].

فالمجتمع الذي يؤسسه الإسلام، مجتمع عالمي مفتوح على التنوع والتعدد، في الألوان والأجناس والأوضاع، والتجارب، والثقافات[6]... التي يحولها كلها إلى عوامل إبداع وإغناء وقوة في حركة الترقي الاستخلافي بما يشيعه من وعي تسامحي[7]، ويؤصله من قيم ثقافية قائمة على الحق والتعاون، ونبذ العصبية والتقليد، واحترام الرأي العام، أو ثقافة الأغلبية الراشدة، وإعطاء الحوار والجدل الثقافي الجاد[8] مداه في تفكيك العقد والمركبات الموروثة، وإعادة صياغة المواقف وبناء التصورات في اتجاه الموروث الثقافي والحضاري الآصل والأنضج والأفعل والأقدر على البقاء والاستمرارية .

الوعي الاستخلافي وكلّية الشكر المبارك للجهد: ومن المقومات الكبرى للوعي الاستخلافي كلّية الشكر، الذي إذا ما توفر في أي جهد بشري طبعه بالرضى والاطمئنان والتواضع والسماحة، وأبعده عن التسخط والقلق والغرور والاستكبار والظلم... وأمكن الإنسان من الانتفاع الأمثل بما حققه جهده من مكاسب مادية أو معنوية.

ولما كان الإنسان كثيرا ما يبهره النجاح ويأسره، ويدفع به إلى الاستعلاء على الخلق[9]، واستعمال هذا النجاح في إشباع غرائزه وتدليل أنانياته، في العجب والغرور وربما الانتقام من

---

(1) دراز، **الدين**، ص101.
(2) الألوسي، **روح المعاني**، 165/12؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 187/12.
(3) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات: 13.
(4)**القرآن الكريم**، سورة الزخرف: 30-31.
(5)**القرآن الكريم**، سورة هود: 118-119.
(6) البيضاوي، ابن سعيد عبد الله، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت)، 89/3.
(7) ابن عاشور، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1985م)، ص 26.
(8) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 546/8؛ الرازي، **التفسير الكبير**، 111/20.
(9) ابن كثير، **تفسير القرآن**، 327/7.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآخرين... فإنه لا يستفيد من نجاحه في الحقيقة؛ لأنه بهذه الطريقة يعرضه للتبديد من جهة، ويحـرم نفسه من الانتفاع به من جهة أخرى، بما يثيره سلوكه الاستعلائي حوله من كراهية وعداوات وتربص به... لا يديم له النعمة، وإن دامت قليلا فإنها تسبب له متاعب كثيرة، تحرمه الاستمتاع بها.

ومن هنا جاء مفهوم الشكر بمضمونه الروحي والاجتماعي المتميز[1]، الذي أعطاه له الوحي، ليمنح الجهد الإنساني بركة أكبر، ويساعده على المحافظة على مكاسب هذا الجهد والانتفاع الأمثل بها، من خلال إرجاع الفضل في هذا النجاح لله سبحانه، واستعمال نتائجه في خدمة المجتمع بكل تواضـع واحتسابية، مما يجعل الناس يرضون عنه، ويحبونه، ويدعون له، ويتمنون له المزيـد مـن النجـاح، ويتخذون منه نموذجا للاقتداء، وذلك كله أثر لشكر الله تعالى الحاضر في كل مواقف الإنسان وأعماله.

ومن خلال النصوص الكثيرة التي تحدثت عن الشكر كمقوم مهمّ من مقومات الوعي الاستخلافي، استنتج علماؤنا قاعدة عظيمة في الوعي الاستخلافي هي أن: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها[2]، كما نبه على ذلك قوله تعالى: **[وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ]**[3].

ولا شك أن العمران البشري الذي يؤطره الشكر، سيبلغ مستويات رفيعة من الترقي المعرفـي والروحي والسلوكي والحضاري، بما يحققه الشكر من روحانية وتماسك في العلاقـات الاجتماعيـة، ويشيعه من أجواء التضامن والتراحم والإيثار في التعاملات داخل المجتمع,

ومن كل ما سبق نلحظ أن تأطر حركة الاستخلاف بهذه المقومات القيمية الوظيفية، وإعطاءها مداها التسخيري والاستخلافي في حياة الأفراد والمجتمع، يرتقي بالأداء العمراني والوعي الاستخلافي، ويمنح الحياة أصالة وفعّالية وحيوية متجددة، تمكّن الإنسان من الاستثمار الشامل المتوازن لـ"**ميزانيته التسخيرية**" والاستمتاع الأمثل بحياته.

المقومات المؤسساتية للوعي الاستخلافي:

والسؤال المنهجي الهام الذي يواجهنا الآن، بعد أن عرفنا أهمية الوعي الاستخلافي، وأدركنـا الحاجة الماسة إليه، ووقفنا على المقومات المقاصدية والمنهاجية والقيمية الوظيفية التي يرتكز عليها.. هو كيف أو عبر ماذا يتحقق للإنسان هذا الوعي الاستخلافي في كل أبعاده ومستوياته، حتـى يـؤدي وظيفته الاستخلافية بكفاءة واقتدار؟

ولا شك أن الأمر هنا متعلق بالوسائل بمعناها المنهجي الوظيفي الكلي العام، أي بالمؤسـسات الحيوية الكبرى الفاعلة في حركة التاريخ التي يتم عبرها تخطيط هذا الوعي، والـسهر علـى نـشره وتعميمه وتمثّله، وتطويره وترقيته وتجديده وحمايته باستمرار، عبر آليات إنجازيـة كثيـرة، تتنـوع وتتجدد بحسب الظروف، والحاجة، والمستوى الحضاري الذي يكون فيه المجتمع في عصره.

ولهذا استعملنا هنا مصطلحي " المقومات " و " المؤسساتية "، لنعطي للوسـيلة بعـدها الكلـي الحيوي الاستراتيجي من جهة، باعتبار **المقوم** هو ما بدونه لا يقوم الـشيء ولا يتحقـق[4]، وبعـدها

---

(1) انظر: ابن القيم، **مدارج السالكين**، 254/2.
(2) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، 543/1.
(3) **القرآن الكريم**، سورة إبراهيم: 9.
(4) الزمخشري، **أساس البلاغة**، 528.

الوظيفي المنظم من جهة أخرى، باعتبار المؤسسة[1] نسقا منتظما وهادفا[*]. إذ قصدنا هنا التركيز على المؤسسات المركزية أو المفصلية العامة، التي يتوقف عليها تحقيق الوعي الاستخلافي، في كل أبعاده ومستوياته السابق ذكرها.

فما هي يا ترى المؤسسات الحيوية الاستراتيجية التي تضطلع بشكل أصيل ومحوري مطرد بتحقيق الوعي الاستخلافي لدى الأفراد والمجتمع؟ ومن ثَمَّ إقدار الأمة على مواجهة تحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، بأصالة وفعّالية واطراد؟

وسنركز هنا على ثلاث مؤسسات محورية هي:

المؤسسة التربوية.

المؤسسة الاجتماعية.

المؤسسة السياسية.

على أن نعطي أهمية للأخيرة، لعلاقتها المباشرة بالدراسة، ولعمومية صلتها بالمؤسستين الأخريين، وحاجتهما الشديدة إليها، وتأثيرها العميق فيهما باستمرار.

الوعي الاستخلافي والمؤسسة التربوية: ونقد بالمؤسسة التربوية هنا مجال الرعاية والتكييف والصياغة المبكرة للشخصية الإنسانية وإعدادها للحياة الاجتماعية.

وهي المؤسسة القاعدية الأصيلة لبناء الوعي الاستخلافي، على أساس أن الوعي الاستخلافي منتوج عمل تربوي هادف وتدرجي وتراكمي ومنهجي مستمر، يصاحب الإنسان منذ وقت مبكر من حياته، ويلازمه بعد ذلك بأشكال وصور ومناهج أخرى، تواصل عملية تنمية فكره، وشحذ عواطفه وتنظيم سلوكه، وإغناء خبراته وقدراته الانجازية، وإشباع حاجاته الروحية والمادية.

ويندرج هنا عمل الأسرة، كمؤسسة قاعدية يقضي فيها الإنسان جزءا كبيرا من حياته وارثا لثقافة المجتمع، ومتعلما لآداب السلوك، وفنون العلاقات، قبل أن ينشئ هو بدوره أسرة، ويتحول إلى منتج للوعي التربوي، والخبرة الاستخلافية.

كما يندرج هنا كذلك عمل المدرسة [2]كمؤسسة قاعدية أخرى، تحتضن الإنسان فترة من الزمن، وتتولى تأطير وعيه المعرفي والروحي والسلوكي وصياغة شخصيته أو جوانب منها على الأقل، قبل أن يتحول إلى منتج مستقل للوعي التربوي والخبرة الاستخلافية.

ولمؤسسة الدعوة كذلك هنا أهمية كبيرة، باعتبار الدعوة مضمونا معرفيا يحوي كليات الوعي بـ"**الدورة الوجودية للإنسان**"، من جهة، وحركة تبليغ لهذا الوعي وعناية بتمثّله في كل المشاريع التربوية في المجتمع من جهة أخرى.

فالتربية المباشرة، كعملية صياغة معرفية وسلوكية لشخصية الإنسان، تؤدي فيها هذه المؤسسات القاعدية دورا محوريا كبيرا، بل يكاد دورها التربوي يهيمن على كل أبعادها الأخرى، وهو ما يجعلنا نستخلص ملاحظة هامة هنا، وهي أن أصالة الوعي الاستخلافي وفعّاليته، ترتبط إلى حد كبير بمدى العناية بهذه المؤسسات الحيوية الاستراتيجية، وبمدى تمكينها من قيامها بدورها بكفاءة.

---

(1) كيت كينان، **التخطيط الإداري**، (مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1995)، ص10.

(*) ولا يخفى أن الوعي مرتبط على الدوام بهذه القصدية والتناظم والاتساق.

(2) بغض النظر عن الشكل المدرسي التنظيمي الذي تأخذه عبر الزمن، فالمهم هنا فكرة المدرسة ذاتها كإطار لبناء الوعي الاستخلافي عبر التعليم والتربية...

ومن هنا فإننا عندما نتأمل نصوص الوحي نجد عناية كبيرة بهذه المؤسسات، كما يتضح ذلك من كثافة المادة التربوية المتصلة بالبعد المعرفي والروحي والسلوكي بالخصوص[1]، والذي لا يقوى على إنجازه بصورة مباشرة إلا هذه المؤسسات الأسرية والمدرسية والدعوية؛ لأنه يدخل في مهامها بالأصالة، كمحاضن مبكرة ودائمة للرعاية والتكييف والتأهيل الاجتماعي.

الوعي الاستخلافي والمؤسسة الاجتماعية: ونقصد بالمؤسسة الاجتماعية هنا: مجال التقاء وتفاعل وتحقق أو تلبية المصالح والحاجات الإنسانية، عبر شبكة من العلاقات الاجتماعية المنتظمة في أعراف، وتقاليد، وقواعد، وأنظمة أخلاقية وقانونية، تؤطر عملية التفاعل الاجتماعي في اتجاه التكامل والتوازن والانسجام وتمام النضج.

فكل ما يلبي هذه الحاجات الإنسانية، ويحقق المصالح الاجتماعية؛ الروحية والمادية، الفردية والجماعية... من أشكال العلائق المنظمة، بين الأفراد والطبيعة والمجتمع... فهو يندرج ضمن المؤسسة الاجتماعية، التي تعتبر بهذا المفهوم **مصب حركة المجتمع كلها**، فيها يلتقي ويتفاعل الفعل التربوي؛ الأسري والمدرسي والدعوي، مع الفعل السياسي، والفعل المعاشي.. لينتج من ذلك الوعيُ الاجتماعي أو العمراني، المعبر عن مستوى الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والحضاري الذي وصله المجتمع.

ومن هنا فإن كل ما يقوم من أشكال **التنظيم الرسمي والعرفي والأخلاقي** ليضبط عملية التفاعل الاجتماعي، وينسقها، ويحميها، ويحافظ على حيويتها واستمراريتها وأصالتها... فهو جزء من المؤسسة الاجتماعية، المتكفلة بصناعة وتطوير وترقية الوعي الاستخلافي.

وبهذا المفهوم أو المضمون، فإن المؤسسة الاجتماعية شهدت بدورها عناية مركزة جدا من الوحي -كتابا وسنة- كما يلمس ذلك من كثافة المادة المعرفية المنصبّة حول تنظيم العلاقات[في كافة أبعادها ومستوياتها،]؟ وتأطير عملية التفاعل الاجتماعي، التي تحولت في تاريخ الأمة إلى ثروة فقهية هائلة، حكمت وضبطت كافة أشكال التنظيم المؤسسي، الذي أفرزته صيرورة الحياة وتحولاتها المتعاقبة دون توقف.

وكما سبق أن رأينا، فقد ركز الوحي على البعد السلوكي كثيرا، ورفض بحزم كل أشكال الازدواجية والتناقض السلوكي[2]، الذي يؤدي إلى اضطراب الحياة الاجتماعية، وتدهور الوعي الاستخلافي، وما دام السلوك في كثير من الأحيان فعلا أو علاقة متعدية، فإن ذلك يصب في المجال الاجتماعي، الذي يجب أن تنظمه مؤسسات اجتماعية حتى يؤدي دوره الفعّال في حركة الاستخلاف.

الوعي الاستخلافي والمؤسسة السياسية: ونقصد بالمؤسسة السياسية هنا: مجال تنظيم وتنسيق[3] وتوجيه حركة التفاعل الاجتماعي، ومنحه **الفعّالية التسخيرية البنائية النموذجية**، والابتعاد

([2]) البقاعي، **نظم الدرر**، 06/20.

(3) كول. ج.هـ، **النظرية الاجتماعية**، ترجمة: عبد الوهاب الكيالي، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر،1988م)، ص62- 69.

به عن **الفعّالية التسخيرية الاهتلاكية**[1]، التي تهدر الميزانية التسخيرية للأفراد والمجتمع، في الصراع المتمحور حول المصالح الضيقة للأفراد والعائلات الاجتماعية والسياسية...

فإذا كان المجتمع الإنساني يحقق حاجات أفراده الروحية والمادية بقدر ما يتوفر فيه من وعي استخلافي يضمن تناسق جهود الأفراد والجماعات المختلفة المكونة للمجتمع، فإن الأداة التي تنسق هذه الجهود، وتحقق تكاملها، وتقلل باستمرار اهتلاك فعّالية المجتمع، وتَسيرُ به نحو المزيد من التأصل، والاطراد والاقتدار التسخيري... هي المؤسسة السياسية.

محورية الوعي السياسي في الفقه الاستخلافي: فالمؤسسة السياسية ضرورة حيوية لا غنى للمجتمع البشري عنها في أي مستوى من مستوياته الاجتماعية، البسيطة جدا، أو المعقدة جدا. فهي بمثابة الجهاز العصبي في الكائن الحي، بدونها يتفكك المجتمع وتهتلك قواه وتذهب ريحه[2]. فهي –أي المؤسسة السياسية– لازم من لوازم العمران البشري الذي لا ينفك عنه بأي حال من الأحوال[3]، كما أجمعت على ذلك الخبرة البشرية الراشدة*

وفي هذا السياق يمكن أن نلحظ مع (بوسيه) ما يمكن أن يكون عليه حال الإنسان في مجتمع لا تنهض فيه المؤسسة السياسية بدورها الحيوي، في التأطير الاستراتيجي والضبط القانوني لحركة التفاعل الاجتماعي فقد نبه إلى أن المجتمع الذي تغيب فيه المؤسسة السياسية الوازعة مجتمع يستطيع فيه كل الناس أن يعملوا ما يريدون. وحين يملك الكل فعل ما يريدون، لا يستطيع أي فرد فعل أي شيء مما يريد. مجتمع لا تجد فيه سيدا أو مسودا، وحيث لا سيد فالكل سيد، وحيث الكل سيد فالكل عبيد[4]!

ويعلل الرازي ضرورة وجود مؤسسة سياسية بكون "اجتماع الناس "في الموضع الواحد، يحصل بينهم منازعات ومخاصمات، ولا بد من إنسان* قادر قاهر يقطع تلك الخصومات، وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل، فثبت أنه لا تنتظم مصالح إلا بسلطان قاهر سائس"[5]. وهو نفس التأكيد الذي نجده عند ابن خلدون وغيره، حيث يقول: "ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر... وتم عمران العالم بهم، لا بد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان، والظلم... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم، يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك"[6].

---

(1) جورج ساباين، **تطور الفكر السياسي**، ترجمة: حسن جلال العروسي، وآخرون، (دار المعارف، القاهرة،ط2، 1954م)، 67/1.

(2) أبو حيان، **البحر المحيط**، 332/5؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 31/10.

(3) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، 89/1؛ ثروت بدوي، **النظم السياسية**، ص 12– 17.

* لا عبرة هنا بمواقف الاتجاهات الفوضوية في التاريخ، فإنها لا تستند إلى فكر موضوعي البتة.راجع: **فكرة القانون**، لدينيس لويد، (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم: 47)، ص 29.

(4) جاك شوفاليه، **أمهات الكتب السياسية**، ترجمة: جورج صدقي، (منشورات وزارة الثقافية، دمشق، 1980)ص131.

يلحظ هنا اختزال المؤسسة السياسية في الفرد القاهر، وهي نظرة محكومة بالمؤثرات التاريخية التي يؤدي فيها الفرعون والأمبراطور والزعيم.. دور المحرك الأوحد للحياة السياسية والاجتماعية..

(5) الرازي، **التفسير الكبير**، 174/26.

(6) ابن خلدون، **المقدمة**، 1 /71– 72.

وباستعمالنا للمفاهيم المفتاحية الخاصة بالدراسة، نلحظ أن **المؤسسة السياسية** تكتسي ضرورتها الحيوية -بالإضافة إلى ما سبق- من كون المقومات المقاصدية والمنهجية والقيمية والمؤسساتية، التي يقوم عليها الوعي الاستخلافي برمته، ترتبط -في وجودها الوظيفي- بـ«الوازع السياسي»، الذي يضمن إشباع الحاجات البشرية في هذا المجال، بصفة شاملة ومتطورة، ويحقق حمايتها، ودفع كل ما يمس بها من مضار. لأنه من غير الممكن أن تتحقق هذه الإشباعات وهذه الحماية، بدون **فعل سياسي**، لا يدفع الأذى عن هذه الكليات فحسب، بل يخطط ويؤطر[*] عملية الإشباع والحماية.

وقد ثبت فعلا كما بينت التأكيدات السابقة، وغيرها، أن الإشباع والحماية تستحيل مع غياب الفعل السياسي[1]. أو مع عدم نضجه وتوازنه، وشموليته لكل جوانب الحياة الاجتماعية، كما يلحظ ذلك في التاريخ، في ظواهر العبودية، والاستبداد، والاستغلال، والشرك، والعدوان على النفوس والأعراض والأموال... سواء من القوى الداخلية أو الخارجية، وما ينجم عن ذلك من هدر للكرامة الإنسانية.

ويضاف إلى هذه الضرورة أو يلحق بها، ارتباط استثمار **الميزانية التسخيرية** للأفراد والمجتمع، استثمارا أصيلا وفعّالا ومطردا، بالفعل السياسي كذلك؛ لأنه هو الذي يؤطر التوجهات العامة للمجتمع، ويتحكم في حجم النَّفَس الحضاري الذي تتحرك به وتيرة الحياة في المجتمع، ويمتلك القدرة المادية والمعنوية النافذة التي يمضي بها ما سبق في اتجاه الخيرية والتكامل والنفع العام باطراد. ومن هنا قيل بحق: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"[2]. فالفعل السياسي عندما يكون فعلا ناضجا ومتوازنا، هو الذي يضمن تحقيق أحسن استثمار لميزانية الأفراد والمجتمع[3]، ومن ثم تحقيق أمثل مستويات الإشباع للحاجات البشرية؛ الروحية والمادية، الفردية والجماعية. والعكس صحيح، فإن الفعل السياسي عندما ينعدم، أو عندما يكون غير شامل أو متوازن أو ناضج، فإنه يؤثر سلبا على عملية الإشباع والحماية للحاجات البشرية، ويؤدي إلى هدر ميزانية المجتمع التسخيرية بحسب ذلك، بسبب الاهتلاك الحادّ[4] الذي يحدث في الحركة التدافعية الفوضوية للمجتمع، وهو ما حذر منه القرآن ونبه إلى دور **الفعل السياسي** الراشد في الوقاية منه[5]، في مثل قوله تعالى:**[وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ]**[6].

فالمؤسسة السياسية، التي تنتج هذا **الفعل السياسي الشامل المتوازن الناضج**، المؤثر في أصالة وفعّالية واطرادية الفعل التربوي والاجتماعي، المؤثر بدوره على عملية الإشباع والحماية، والاستثمار الأمثل لميزانية الأفراد والمجتمع التسخيرية... تتأكد ضرورته الحيوية في ضوء منطق الفطرة أو

(*) لا نقصد هنا بالتخطيط والتأطير التدخل المباشر للمؤسسة السياسية في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الناس، بل نعني بهما هذه القدرة على استيعاب مسيرة المجتمع وضمان ترابط وتكامل صيرورته الاجتماعية في أبعادها التاريخية والآنية والمستقبلية.

(1) ماكيفر روبرت، **تكوين الدولة**، ترجمة: حسن صعب، (دار العلم للملايين، بيروت، 1966)، ص83.

(2) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، 68/1.

(3) هارولد لاسكي، **الدولة في النظرية والتطبيق**، ترجمة: أحمد محمد غنيم، وكامل زهير، (الدار المصرية، مصر، 1958م)، ص 39.

(4) ديورنت، **قصة الحضارة**، 45/1؛ توينبي، **مختصر دراسة للتاريخ**، 201/4.

(5) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 30/10.

(6) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 46.

العقل[1]، ومنطق التاريخ[2]، ومنطق الوحي[3]. فكل هذه المستويات المعرفية تأصل ضرورة المؤسسة السياسية في حركة الاستخلاف.

محورية الوعي السياسي في الفكر البشري: فالفعل السياسي الناضج، يبدو في ضوء منطق السنن وتجارب التاريخ، قانونا عاما للفعّالية التسخيرية والتوازن الاجتماعي[4]، وارتقاء الوعي الاستخلافي ونضجه. لذلك اهتم الفكر الإنساني باستمرار، بالمؤسسة الاجتماعية المنتجة لهذا الفعل، وذهب بعيدا في التعبير عن أصالة هذه المؤسسة في الوعي العمراني من جهة، وفي شوق الإنسان إلى العدالة والحرية والمساواة المخبوءة في عمق إنسانيته، والتي لا تتحقق إلا عبر هذه المؤسسة من جهة أخرى، كما يدل على ذلك الأدب السياسي المثالي أو الطوبوي، المجسد في المدن الفاضلة[*]، وكما تدل عليه في مستوى آخر أكثر شيوعا، ظواهر الخروج، والتغلب، والانقلابات، التي طبعت مسيرة التاريخ الإنساني، كتعبير عملي عن عجز الفعل السياسي القائم عن تلبية حاجات حركة الاستخلاف مرة، وعن نضجه مرة أخرى.

محورية الوعي السياسي في الحركات الرسالية: فالمؤسسة السياسية، من أية زاوية نظرنا إليها، نجدها تشكل مقوما جوهريا من مقومات الوعي الاستخلافي، الذي لا غنى له عنها أبدا. وهو مانرى صداه فعلا في الوحي الذي تعهد الله به البشرية عبر تاريخها الطويل، إضافة إلى صداه في الفكر الإنساني العام، كما ألمحنا إلى ذلك آنفا.

وقد يكفي هنا تأمل نص قرآني بالغ الأهمية في هذا المجال، نبه إلى ملازمة **الظاهرة السياسية** للحركة الرسالية عبر التاريخ، قال تعالى: **[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ]**[5].

فالرسل الذين لم تخلُ منهم أمة من الأمم كما قال تعالى**[وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ]**[6]، كان اهتمامهم الأكبر منصباً دائما حول إصلاح الأوضاع العقدية والفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية في بيئاتهم وأزمانهم، وكان اهتمامهم **بالمسألة السياسية** أشد، وإن اتخذ هذا الاهتمام أشكالا متنوعة، تكيّفا مع الضرورات الحركية التي يقتضيها منهج التغيير، في كل حركة، وهو ما تحاول بعض الأطروحات العلمانية المتهافتة التعتيم عليه، حينما تحاول تجريد العقيدة " **كمضغة** " محورية في الأديان، من أبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وتفريغها بالتالي من محتواها العمراني أو الحضاري الاستخلافي الأصيل، الذي تستهدف تحقيقه في حياة الناس باستمرار.

وهذا ما كانت المؤسسة السياسية التقليدية في زمنهم، تتنبه إليه مبكرا، وتشرع في مواجهته من وراء القوى الاجتماعية المختلفة[*]، ذات المصلحة المباشرة في المحافظة على الأوضاع، أو تلك

---

(1) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، (دار الجيل، بيروت، 1405هـ- 1985م)، 149/4.

(2) إمام عبد الفتاح، **الطاغية**، ص 18.

(3) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص 13.

(4) مايكل ليند، **الدولة الحافزة**، (مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، د.ت)،ص 8.

(*) ننظر هنا كنماذج جمهورية أفلاطون، المدينة الفاضلة للفارابي...

(5) **القرآن الكريم**، سورة الحديد: 25.

(6)**القرآن الكريم**، سورة فاطر: 24.

(*) راجع بوضوح ويؤكد ذلك موقف الملأ من دعوات الأنبياء في القرآن وموقف المؤسسة السياسية التقليدية من حركات التغيير والإصلاح عامة عبر التاريخ البشري.

المستغفلة من عامة الناس ودهمائهم، حتى إذا ما عجزت عن إيقاف حركة التغيير، لجأت إلى سلطانها المباشر في مقاومة هذا التغيير واعاقته، واستيعابه أو وضع حدّ له.

ولقد تكررت ظاهرة الاصطدام بالمؤسسة السياسية[*] مع كل الحركات الرسالية تقريبا، مما يدل فعلا على العمق السياسي في جميع هذه الحركات الرسالية، كما دلت على هذا الكلمات المفتاحية في النص القرآني السابق: «**البينات**»، «**الكتاب**»، «**الميزان**»، «**القسط**»، «**الحديد**»، «**المنافع**»، «**النصرة**»، «**الرسل**»[1]. وهي مفاهيم من صميم الظاهرة السياسية؛ لأنها تصب في تغيير الوعي وإعادة بنائه، وتغيير الوضع القانوني وإعادة تنظيم السلوك والعلاقات والقيم والنظم الاجتماعية، في اتجاه الحرية والمساواة والعدالة، وتعميق الإحساس بالكرامة الإنسانية، ونبذ الشرك والنفاق والفسوق الذي ترتكز عليه جل المؤسسات السياسية الاستبدادية[2]، وتستمد منه قوتها ونفوذها وشروط بقائها، كما يشير إلى ذلك القرآن في عدة مواطن، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى وهو يحلل ويفسر منطق المنهجية السياسية في المجتمع الفرعوني، القائمة على الدجل والكبت والإلهاء والتفريق بين المكونات الاجتماعية للمجتمع: (**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**)([3]). وقوله كذلك في رصد النتائج الوخيمة لهذه المنهجية السياسية التفكيكية التدجينية: (**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**)([4]).

فإذا اعتبرنا السلطة أو النفوذ أو السيادة: بالقانون أو القوة، هو أساس الفعل السياسي[5]، فإنه يتأكد لدينا فعلا، عمق وأصالة الوعي السياسي في كل الحركات الرسالية، فقد لاحظ الباحثون في الظواهر القانونية، أن الأديان هي التي أنشأت القانون، وأن القواعد القانونية كانت في بدء نشأتها قواعد دينية، بل وكان رجل الدين هو نفسه رجل القانون[6].

وهذا يتسق تماما مع التفسير القرآني لحركة التاريخ، وصيرورات الاستخلاف البشري، فقد اعتبر الأنبياء هم الذين جاؤوا بفكرة النظام أو السلطة أو الدولة.. وكان ذلك في صميم اهتماماتهم بتأسيس الوعي الاستخلافي. كما يبدو ذلك جليا في نصوص قرآنية كثيرة، نذكر منها قوله تعالى على سبيل المثال[**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**][7]. والهدى هنا هو هدى الشريعة بما هي نظام عقدي وحقوقي لتنظيم حياة المجتمع([8]). وقوله سبحانه:[**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا**

(*) المؤسسة السياسية هنا لا تعني شكلا معينا للسلطة والنفوذ؛ لأن الشكل اختلف وتنوع عبر التاريخ، فالمهم هو النفوذ كمضمون للمؤسسة السياسية.

(1) القاسمي، **محاسن التأويل**، 53/16.

(2) إمام عبد الفتاح، **الطاغية**، ص 138 وما بعدها.

(3) **القرآن الكريم**، سورة القصص : 4

(4) **القرآن الكريم**، سورة الزخرف: 53

(5) روبرت ماكيفر، **تكوين الدولة**، ترجمة: حسن صعب، (دار العلم للملايين، بيروت، 1966م)، ص 108-109.

(6) علال الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**،(دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط5، 1993م) ص 22-23.

(7)**القرآن الكريم**، سورة طه: 120- 121- 122.

(8)المراغي، **تفسير المراغي**، 161/16.

اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ][1].

فكلمة الهداية في النصين – والتي تكررت في القرآن بصيغ متنوعة ما يقرب من (300) مرة[2] – التي تعني ما أوحاه الله من سنن لتأسيس الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى البشر، لازمت حياة البشر منذ البداية، واستمرت معهم إلى أن ختمت برسالة الإسلام المستمرة في تأطير الوعي البشري إلى قيام الساعة.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار، ما تمخضت عنه الخبرة المعرفية في مجال دراسة الظاهرة الدينية، من كون الدين ظاهرة رافقت الإنسان في كل زمان ومكان[3]، أدركنا فعلا بأن الأديان هي التي أنشأت القانون، وبأن الأنبياء هم الذين جاءوا بفكرة السلطة والنظام والحكم والدولة... ولم يشذ عن ذلك أحد منهم. واستيقنا بـ**محورية المؤسسة السياسية** في الوعي الرسالي الذي جاءوا به لبناء الوعي الاستخلافي لدى البشر، خاصة عندما نلحظ التأكيد على فكرة الطاعة والامتثال للهداية التي نشروها في الناس، والتحذير من مغابّ التهاون في ذلك، كما مرّ في آيتي: «طه والنحل» السابقتين، أو كما يتجلى في قوله تعالى**[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ...]**[4]، أي إلا كان الامتثال للشريعة التي جاء بها فرضا حتما على الناس[5].

وتبقى هنا فكرة جوهرية في صميم الوعي السياسي المرتبط بالوحي وحده، ولا حظّ للوعي الوضعي فيها، وهي أن الرسالات السماوية جاءت بفكرة الطاعة والامتثال، أي الاحتكام لقانون أو نظام موضوعي غير ذاتي؛ لأنه صادر من جهة ليست لها مصلحة في ذلك، بخلاف ما هو صادر من أشخاص أو هيئات أو طبقات... غير موجهة ومسددة بالوحي، فإنه يعكس بطريقة أو أخرى، محدودية النظرة من جهة، والانحياز للمصالح الخاصة من جهة أخرى[6].

ولعل هذا هو جوهر الصراع بين الوعي الرسالي والوعي الوضعي عبر التاريخ، حيث عمل الأنبياء على تجسيد سلطة أو سيادة أو دولة القانون، بينما كان خصومهم يعملون من أجل المحافظة على سلطة أو سيادة أو دولة الشخص أو الطبقة، أو العرق... وهو ما يبرز لنا أكثر عمق الوعي السياسي في الحركات الرسالية، ومحورية اهتمامها بالمؤسسة السياسية في مسعاها الاستخلافي.

محورية الوعي السياسي في المنظومة المنهاجية للإسلام: والإسلام كخلاصة متوّجة لمسيرة الوعي الرسالي، نضج فيه الوعي السياسي نضجا كاملا، على الصعيد المبدئي الكلي، واحتل في منظومته المنهاجية مكانته اللائقة به. وتعزز بالبعد التطبيقي في الحركة النبوية، التي نحن بصدد استخلاص ملامح منهجها في التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والبناء والتجديد الحضاري، الأمر الذي لا يدع أي لبس في كون الوعي السياسي يشكل اهتماما محوريا للإسلام، وأن الفعل

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.
(2) البنداق، **هداية الرحمن**، ص 386.
(3) إميرسيا إلياد، **الحنين إلى الأصول**، 7–8.
(4) **القرآن الكريم**، سورة النساء: 63.
(5) الطبري، **جامع البيان**، 156/5.
(6) علال الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ص 47.

السياسي الناضج المتوازن، هو قمة أفعّاله الاجتماعية أو الاستخلافية[1]، وأن المؤسسة الاجتماعية التي تنتج هذا الفعل – بالتالي – تأتي في صميم أولوياته، على المستوى العمراني، على اعتبار أن " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب "[2].

من هذا المنطلق لم يختلف المسلمون الأول في مسألة وجوب تنظيم المؤسسة السياسية بعد وفاة رسول الله ﷺ[3]. كما لم يختلفوا في كون الشريعة هي قانون المجتمع الذي تسهر هذه المؤسسة بكل قواها على تنفيذه*وصياغة حياة الناس وفقه. فقد كان ذلك أمرا بدهيا راسخا عندهم. وهو ما مضى عليه الأمر إلى أن ابتليت الأمة بالاستضعاف والتبعية الحضارية، فظهرت بدعة «العلمنة»، لتمزق كيان الفرد والمجتمع معا وتشطرهما شطرين، أحدهما للدين والآخر للدنيا، وتعزل المؤسسة السياسية عن محيطها الثقافي المرجعي، وتجرد الفعل السياسي ــ من ثم ــ من هويته وقوته وتوازنه ونضجه وأصالته وفعّاليته وتكامليته، وتدفع بالمجتمع إلى الاهتلاك الذاتي الخطير.

وفي شأن هذا الإجماع على وجوب تنظيم المؤسسة السياسية وخضوعها للشريعة، وكون ذلك من المسلمات الراسخة يقول ابن حزم: " اتفق جميع أهل السنة والشيعة، وجميع المرجئة، وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة فرض واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ"[4].

فالسلطة أو الدولة في الإسلام لازم من لوازم الحياة البشرية أولا، ثم لازم من لوازم الوجود الحضاري للإسلام ذاته ثانيا، كما يلحظ ذلك الإمام الغزالي، في أن: "نظام الحياة لا يحصل إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليها إلا بصحة البدن وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات، من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة. فإذن أقول بأن نظام الدنيا ــ أعني مقادير الحاجة ــ شرط لنظام الدين"[5].

ومن يحلل تعاريف العلماء السابقين بالخصوص للخلافة أو الإمامة أو السلطة... يلحظ كيف تناغمت مع بدهية حاكمية الشريعة، وكونها قانون المجتمع، ومؤطّر ثقافته، وناظم وعيه الحضاري، بل وضامنة تناسق حركته مع حركة الكون من حوله[6]، وفي هذا السياق يقول الماوردي عن الخلافة: "هي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[7]. ويقول ابن خلدون: "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي، في مصالحهم الأخروية والدنيوية"[8]. ويقول ابن تيمية: "إن ولاية أمر

---

(1) انظر الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 324/3.

(2) بدر الدين الزركشي، **البحر المحيط في أصول الفقه**، تحقيق: محمد محمد تامر (دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م)، 37/1.

(3) الماوردي، أبو الحسن محمد، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، حققه: عصام فارس الحرستاني، ومحمد إبراهيم الزغلي، (المكتب الإسلامي، بيروت، 1416هـ– 1996)،ص 5– 6؛ ابن خلدون، المقدمة، ص151.

* قال أبو بكر بعد توليه الخلافة مباشرة : " أطيعوني ما أطعت الله فيكم ".

(4) ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، 87/4.

(5) الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، (مكتبة صبيح، القاهرة، د.ت) ص135.

(6) سيد قطب، **معالم في الطريق**، (دار الشروق، بيروت، د.ت)، ص 199.

(7) الماوردي، **الأحكام السلطانية في الولايات الدينية**، ص 13.

(8) ابن خلدون، **المقدمة**، ص1738.

الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالإجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الإجتماع من رأس... فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله"[1].

ولا حاجة لنا بالإكثار من آراء العلماء من مختلف الإتجاهات والمدارس الفكرية والفقهية؛ لأن الإجماع منعقد[2] على كون المؤسسة السياسية مقوما محوريا من مقومات العمران البشري، وعلى كون الإسلام مؤطرا مرجعيا أساسيا لهذه المؤسسة السياسية في: نشأتها وتنظيمها، وفي الفعل السياسي الذي يصدر عنها باستمرار، ولا عبرة هنا لوجهة النظر العلمانية المتهافتة[3]، التي تحاول إسقاط تجربة إنسانية شاذة، هي تجربة النهضة الأوروبية الحديثة على تاريخ الأمة وتراثها المختلف، بل وعلى تراث الإنسانية، الذي لم ينفك إطلاقا على حاكمية الدين وتوجيهه عبر التاريخ.

فالإسلام من خلال النماذج التعريفية الثلاثة، هو الذي يوجب قيام المؤسسة السياسية وجوبا شرعيا* لما حواه من أهداف، وانطوى عليه من أحكام قانونية، وتوجيهات أخلاقية شاملة، يستحيل تحققها بدون نظام سياسي[4]، يخطط لذلك، وينسق جهود المؤسسات التربوية والاجتماعية، ويرعى عملية الإنجاز، ويحافظ على مصالح الأفراد والجماعات، والمجتمع والدعوة، ويضمن توازن وحيوية الجهد الاجتماعي العام للأمة، ويوجه ذلك كله ويستثمره بفعّالية في تحقيق قدرة عالية على التدافع والتداول والتجديد الذاتي، الذي يحفظ للأمة اقتدارها القيادي، واطراد الخيرية الشاملة فيها.

وإذا كان الإسلام يعطي للمؤسسة السياسية وللفعل السياسي هذه الأهمية المتميزة من ناحية الضرورة المبدئية، فإنه لا يعقل كذلك أن تؤطر هذه المؤسسة السياسية التي يوجب قيامها، وهذا الفعل السياسي الصادر عنها بمرجعية معرفية وثقافية ودستورية مغايرة لأهدافه وثوابته وقيمه، وما ينبثق عنها من منظومات قانونية وأخلاقية في الفقه التسخيري والاستخلافي[5]؛ لأن هذا عبث، وموقف غير معقول، فليس يعقل أن تؤسس الشرعية باسم الإسلام، ويصدر الفعل السياسي عن مرجعية معرفية وثقافية ودستورية أخرى مناقضة له تماما في أهدافه وأصوله ومنظوماته القانونية والأخلاقية، ومن ثم في الكثير من فروعه؟! خاصة عندما نأخذ بعين الاعتبار، ظاهرة التكامل والتساند الوظيفي المحكم بين كل مفردات المنظومة المنهاجية للإسلام، وافتقار بعضها إلى بعض، في تحقيق أصالة الفعل الاجتماعي وفعّاليته وضمان اطراديته.

وقد جاءت في القرآن والسنة على السواء، تأكيدات على وجوب خضوع الفعل الاجتماعي والسياسي لتأطير مرجعية الوحي وسنن التسخير الأخرى، في الآفاق والأنفس والتأييد، وتحذيرات

---

(1) ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، (دار المعرفة، القاهرة، د.ت)، ص 138، مع بعض الحذف.

(2) يراجع: ابن حزم، **الفصل**، 149/4، فقد استوعب آراء القدماء؛ ومحمد المبارك، **نظام الإسلام في الحكم والدولة**؛ المودودي: **الخلافة والملك،والحكومة الإسلامية**؛ ومحمد اليهى، **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار**؛ ضياء الدين الريس، **النظريات السياسية الإسلامية...** وغيرهم؛ فقد استوعبوا آراء العلماء القدماء والمحدثين في مسألة الخلافة.

(3) انظر: عماد الدين خليل، **تهافت العلمانية**، القرضاوي، **الإسلام والعلمانية وجها لوجه...**

* نبه الكثير من العلماء إلى أن وجوب قيام المؤسسة السياسية وجوبا شرعيا قبل أن يكون عقليا.(انظر مثلا: **الأحكام السلطانية** لأبي يعلى، ص 2؛ **فتح الباري** لابن حجر، 208/13) وإن كان هذا التفريق يصب في مأزق معركة العقل والنقل المفتعلة في تاريخنا.

(4) محمد أبو زهرة، **خاتم النبيين**، (منشورات المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1399هـ-1979م)، 146/2، وما بعدها.

(5) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 577/1؛ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 328/2؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 264/5.

شديدة من مخاطر الإزدواجية والتلفيق والانتقائية المميّعة[1]، كما يلحظ ذلك من قوله تعالى:[**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**][2]. واعتبر في آيات أخرى هذا التبعيض كفرا[3]، فقال سبحانه: [**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**][4]. ونفى في آية أخرى الإيمان عمن يعرض عن تحكيم الإسلام في شؤون حياته؛ من الأفراد والجماعات على السواء، وجعل التحاكم إلى الشريعة محك الإيمان[5]، فقال تعالى[**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**][6]، ونفت السنة المشروعية تماما عن الفعل الاجتماعي والسياسي الذي لا تؤطره مرجعية الكتاب والسنة، وأدخلته في **دائرة البدعة والتحريف**، كما يؤكد ذلك قوله ﷺ: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)**[7].

فحاكمية المرجعية المعرفية والثقافية الإسلامية للفعل الاجتماعي والسياسي، وتأطيرها لهما، أمر بديهي مسلمّ كذلك، وهو ما كان المسلمون الأول أيضا على وعي عميق به، حينما استقر منهجهم العملي على إرجاع كل شيء إلى الكتاب، ثم بعده إلى السنة، ثم بعده إلى الإجماع، ثم بعده إلى القياس، ثم بعد ذلك إلى الاجتهاد على وفق الأصول والمصالح، التي يهدي إليها الوعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

وينبغي بعد هذا أن نلحظ أن الجدل حول ضرورة وجود المؤسسة السياسية، وضرورة خضوع هذه المؤسسة؛ في وظائفها وتقاليدها وأخلاقياتها.. للمرجعية المعرفية والثقافية للمجتمع، ممثلة في الكتاب والسنة والخبرة التاريخية الراشدة للأمة – على ضوء القواعد المنهجية الضابطة لنسب حجية كل من هذه الأصول الثلاثة – جدل في غير محله[*]، يدل على اختلال هيكلي في عمق الوعي الحضاري والسياسي، لمن يصرفون جهدهم في الحديث عن البديهيات، ويضطرون غيرهم إلى مجاراتهم في ذلك، صونا للحقيقة، وحماية للدين، ومحافظة على تماسك المجتمع واستمرارية انشحاذ فعّاليته الاجتماعية.

وقد تجاوز الإسلام نفسه الحديث عن هذه المسألة إلى ما هو أهم وألزم وأدخل في الحياة الإنسانية، كالخصائص والوظائف والشروط والموانع... إلى غير ذلك من المسائل الحيوية التي يحتاجها الوعي الاستخلافي عامة، وأداته خاصة؛ لأن الدولة والملك للعمران، بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة، أنه لا يمكن فكاك أحدهما عن الآخر،

---

(1) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 293/12.
(2)**القرآن الكريم**، سورة المائدة: 51، 52.
(3) ابن كثير، **التفسير**، 211/1؛ القاسمي، **المرجع السابق**، 2/ 182.
(4)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 84.
(5) الطبري، **جامع البيان**، 5/ 158؛ ابن كثير، **المرجع السابق**، 329/3؛ القاسمي، **المرجع السابق**، 5/ 273.
(6)**القرآن الكريم**، سورة النساء: 65.
(7) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، (**شرح النووي**، 16/12).
(*) وهو أدخل في نطاق الصراع الفكري وإفرازات الاستلاب والتبعية الثقافية والحضارية منه في نطاق الجدل العلمي الجاد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والملك متعذر، واختلال أحدهما يؤثر في اختلال الآخر، كما أن عدمه مؤثر في عدمه[1]. كما ينبه إلى ذلك ابن خلدون.

فإذا كان الإسلام، بالإضافة إلى ما يحتويه من رؤية عقدية كونية حول **الدورة الوجودية للإنسان**، وما تضمنته هذه الرؤية الشاملة من مفاهيم وقيم وتصورات عملية، تستوعب محاور وكليات الوعي الاستخلافي... قد نص صراحة على أنه: **(إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم)**[2]، فكيف لا يكون الفعل السياسي الذي ترتبط به مصالح المجتمع العليا، ومن ثم المؤسسة الاجتماعية التي تنتجه، من ضمن اهتماماته الكبرى، ومشمولاته الأساسية ؟! وهو ما كان المسلمون الأول أعمق وعيا به[3]، وأرسخ فهما لسنن الأنفس والهداية فيه، حينما بادروا إلى ضمان استمرارية المؤسسة السياسية، ومن ثم الفعل السياسي، مباشرة بعد وفاة رسول الله ﷺ وشغور منصب القيادة السياسية في المجتمع.

وقد جاءت السيرة النبوية لتُحكِم الأمر وتحسم الموقف، كحجة عملية على أصالة وعمق التوجهات السياسية الشاملة للإسلام، من خلال تجسيدها العملي لمفاهيم الإسلام وقيمه في العمران البشري[4]، فأسس مجتمعا ناضجا، كان للمؤسسة السياسية فيه دور بارز، سواء على مستوى البناء، أو على مستوى المواجهة والحماية. وهو ما نتعرض لفلسفته العملية أو **سننه الانجازية** في القسم التطبيقي من هذه الدراسة.

فالرسول ﷺ لم يكتف بإبلاغ الدعوة للناس، بل عمل على تحويل الفعل الدعوي إلى فعل اجتماعي وعمراني، بكل مقوماته وشروطه، أي بكل ما يحتاجه المجتمع أو العمران من مكونات بشرية وثقافية وتنظيمية، وقدرات تأطيرية للتوازن الداخلي والخارجي... عبر الفعل السياسي كأداة منهجية للدعوة والبناء والمواجهة أو المدافعة الوقائية. ولو كان البعد السياسي والاجتماعي ليسا من أولويات الإسلام ومن مكوناته الأساسية، لما تعرضت الدعوة إلى كل تلك التحديات طيلة حياته الرسالية كلها، ولما احتاج الأمر إلى كل تلك التضحيات، والتفكيك المنهجي للبينية العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الجاهلي، وتأسيس بنيان عقدي واجتماعي وسياسي وثقافي بديل، احتاج إلى جهاد فكري ونفسي وقتالي مضن.

فالبعد السياسي بعد أصيل وعميق ومحوري في البنية الهيكلية، المعرفية والحضارية للدعوة الإسلامية منذ بدايتها، وهو ما أدركته القوى المضادة جيدا في مكة[5]، وكان سببا رئيسا في موقفها السلبي المناهض للإسلام، كما أدركته كذلك القوى المضادة في المدينة، وناهضت على أساسه المجتمع الإسلامي الجديد[6]، لما أحس الجميع أن الإسلام ليس مجرد دعوة تبلغ للناس، بل هو حركة تغيير شاملة وعميقة في حياة الأفراد والمجتمع.

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**،883/1.
(2) أخرجه أبو داود، في **السنن**، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، 36/3.
(3) عبد الحميد أبو سليمان، **النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية**، ترجمة: ناصر أحمد المرشد البريك، المملكة العربية السعودية، 1413هـ-1993م، (دون بقية بيانات النشر)، ص 119.
(4) صبحي الصالح، **النظم الإسلامية نشأتها وتطورها**، (دار العلم للملايين، بيروت، ط 6، 1982)، ص 50.
(5) السيوطي، **الدر المنثور**، 430/6.
(6) ابن هشام، **السيرة**، 2/ 160-237.

ومن هذا المنطلق يبدو تهافت الفرضية القائلة بأن البعد السياسي والاجتماعي، تبلورًا تبعاً للظروف اللاحقة بالمدينة، وهو مالم يستوعبه حتى المستشرقون أنفسهم[*]، ولاحظوا أصالة البعد السياسي الحضاري في مشروع الدعوة الإسلامية، سواء في محتواها النظري، أو منهجها العملي. فقد قال (جيب): " في ذهن محمد كانت الكتلة الدينية الجديدة، ومنذ البداية ينظر إليها على أنها **جماعة منظمة على أسس سياسية**، وليست كتلة في إطار دولة علمانية "[1].

ولو تعمق أصحاب فرضية خلو الدعوة الإسلامية من البعد السياسي والاجتماعي، وطروء ذلك عليها بعد الهجرة إلى المدينة[2]... في دراسة مضمون القرآن المكي وحده، وتحليل الفعل الدعوي النبوي المجسد للمحتوى القرآني، تحليلا اجتماعيا وسياسيا، لتغيرت نظرتهم من أصلها، ولأيقنوا بأن الدعوة الإسلامية كانت تستهدف تحويل المجتمع الجاهلي كله، عقديا وفكريا واجتماعيا وسياسيا[**]، على ضوء استراتجية محكمة[***] تكيّفت في أبعادها العملية الانجازية بمعطيات الظروف الذاتية والخارجية، ككل جهد تغييري خاضع لسنن الله في التغيير والبناء الحضاري.

وقد يكفي هنا تأمل نص نبوي له دلالاته المنهجية والسياسية البالغة الأهمية في هذا المجال، وهو قوله –عليه الصلاة والسلام– لمن جاءه من الصحابة يشكو وطأة التحديات التي كانت تواجهها قاعدة الدعوة بمكة، ويطلب منه الدعاء والاستنصار: (**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله**)[3]. فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعي منذ البداية الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية والحضارية العالمية العميقة لدعوته وكان متحكماً في عملية تحقيق ذلك من خلال استيعابه العميق لاستراتيجية الدعوة والبناء والمواجهة في ثوابتها وأولوياتها ومنهجية عمله.

وهذه الخلاصة في أصالة موقع البعد السياسي في المنظومة المنهاجية العامة للإسلام، هي التي انتهى إلى تأكيدها الدكتور فتحي الدريني في بحث طويل ومؤصل، حيث قال: " الواقع أن الأمة أن الأمة وإن كانت في الأصل هي المسئولة عن تحقيق مصالحها العامة ورعايتهان على مستوى كل عصر، حضارة ورقيا،لكنها لا تستطيع أن تهيئ أسباب ومقومات حياتها وازدهارها على شتات، بأن يترك الأمر لاختيار كل مكلف وإرادته، إذ يصبح الأمر عندئذ فرطا، فلا بد أن تنيب الأمة عنها من يدير الأمر فيها، داخلا وخارجا، ويتولى النهوض بمصالحها،، إنشاء ورعاية، بمقدرة وكفاءة وإخلاص وتجرد في سبيل الله، وهم أهل الحل والعقد في الأمة.

ولذا كانت إقامة الدولة في الإسلام من المقاصد الأساسية التي تربو على كل مقصد ومصلحة، إذ لا يتصور إسلام بلا دولة، وهي قضية الدين، كما أنها قضية العقل، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ويزداد الواجب إلزاما، كلما ازدادت المصلحة المتعلقة به مساسا بكيان الأمة ووجودها المادي والمعنوي، ومصيرها ".

(*) المتحررون بعض الشيء من الدوغماتية الأيديولوجية المكثفة التي كثيراً ما تعيق موضوعية الرؤية للآخرين.
(1) نقله عن: الفضل شلق، **في الجماعة والدولة**، (مجلة الاجتهاد، عدد3، سنة 1989)، ص230.
(2) منتغمرى وات، **محمد في مكة**، ص 219.
(**) أقصد المجتمعات البشرية التقليدية كلها، وكان المجتمع العربي التقليدي مضغة التحول.
*** سيأتي حديث مركز عن موقع منجزات المرحلة المكية في استراتيجية بناء الدولة.
(3) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي–ﷺ– وأصحابه(**فتح الباري**، 202/7).

وأضاف في خلاصة مركزة: " فالدولة إذن من مقمومات وجود الأمة، فكانت مقصدا أسايا من مقاصد التشريع في الإسلام "([1]).

أشكال المؤسسة السياسية وأصول الوعي السياسي في المنظومة المنهاجية للإسلام: ومن المسائل الهامة ذات العلاقة المنهجية بالخصوص، بالمؤسسة السياسية، مسألة شكل المؤسسة، وهل هو من المتغيرات أم من الثوابت؟ أو ما هي ثوابته وما هي متغيراته ؟ ولعل الذهول عن هذه القضية كان له بعض التأثير السلبي على الأطروحات السابقة، وعلى أطروحات أخرى، تخص **مسألة استيحاء الحركة النبوية** عمومًا، وهيمنت عليها النظرة التجزيئية الآلية، التي تغفل **قضية المنهج، وفلسفة التفكيك والتركيب والبناء في الحركة النبوية**، وهي قضية حيوية حاسمة، لا يمكن فهم ومن ثم استيحاء واستثمار الحركة النبويةاستيحاء أصيلا وفعّالا بدون استيعابها، وامتلاك الوضوح التام فيها،على المستويين المعرفي والمنهجي.

الإسلام والأشكال التنظيمية:

أما عن قضية أشكال المؤسسة السياسية، فإن الملاحظ أن الإسلام تجاوزها ليركز على الثوابت القيمية المؤطرة لهذه الأشكال، لارتباطها بالحاجات والإمكانات والظروف في كل زمان ومكان، لتغير هذه الحاجات وتجددها[2]، وارتباط هذه الإمكانات بظروف وشروط نفسية وفكرية وحضارية متغيرة بذلك[3]. وليس من المصلحة والفائدة في مثل هذا الوضع، أن يعار الاهتمام للمتغيرات **في تشريع إنساني ممتد الصلاحية إلى نهاية الدنيا**، بل يتعين التركيز والتأكيد على القيم والمقومات الثابتة، التي يحتاج إليها في كل زمان ومكان، في بناء مؤسسات سياسية أصيلة وفعّالة، تضمن إنتاج فعل سياسي أصيل وفعّال، يُرقي الوعي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، أو الاستخلافي عامة عند الإنسان، بصورة شاملة ومتكاملة ومتوارثة.

وهذا المسلك في الموقف من أشكال المؤسسة السياسية، وكونها من المتغيرات[4] المرتبطة بالحاجات والإمكانات والظروف المتجددة، وإيلاء الأهمية للثوابت المعيارية المكيّفة لأشكال التنظيم السياسي والاجتماعي عامة، والمؤطرة للفعل السياسي والاجتماعي الصادر عنهما، من نواحي القوة الذاتية الهامة التي تمنح الإسلام نفوذا عميقا ومتجددا في حركة الحياة من جهة، كما تمنح المجتمع من جهة أخرى حركية وحيوية إبداعية متجددة، عير بحثه عن أكثر الأشكال التنظيمية أصالة وفعّالية في تحقيق تكيّفه الفعّال، وضمان حيوية وتوازن حركة تدافعه وتداولة وتجديده.

فالإسلام بهذه المرونة[5] فيما يتعلق بأشكال تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية، فسح المجال أمام الاجتهاد والخبرة البشرية، **لإبداع أو تطوير أو اقتباس** ما يضمن فعّالية الأداء الاجتماعي والسياسي، في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد في ضوء ثوابت المرجعية المعرفية والثقافية

([1]) فتحي الدريني، **المناهج الأصولية**، ص525- 528

(2) ابن القيم، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، (مطبعة السعادة، القاهرة، 1374هـ-1955م)،13/3.

(3) ابن القيم، **المرجع نفسه**، 373/4 وما بعدها.

(4) عبد الوهاب خلاف، **السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية**، ص18 وما بعدها.

(5) ابن عابدين، **مجموعة الرسائل**، 125/2؛ القرضاوي، **عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية**، ص9 وما بعدها.

للأمة، والوعي التسخيري الذي تتمخض عنه الخبرة البشرية. وبذلك جنب مسيرة المجتمع مخاطر الجمود والرتابة والشكلية واللافاعلية، التي يسببها تقديس الأشكال والقوالب الاجتماعية والسياسية، والارتباط العاطفي بها، رغم تجاوز الزمن لها، وعجزها عن استيعاب مستجدات التطورات الحضارية وتحدياتها.

وهذا يدخل في مقومات وشروط الاقتدار التسخيري والاستخلافي، التي سبق أن رأينا أن من شروطها **التجديد المستمر**، للوعي **بالدورة الوجودية للإنسان** من جهة، وللوعي **بسنن التسخير**، في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من جهة أخرى، وللوعي بسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة ثالثة، وهو ما نبه إليه حديث **الدورات التجديدية** الذي سبق إيراده[1]، ومما ينصب عليه التجديد طبعا، قوالب وأشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي، لتجاوز الرتابة والوتيرية القاتلة[2]، وضمان فعّالية الإنجاز والأداء العمراني أو الحضاري عامة، لمواجهة تحديات التدافع والتداول الحضاري، والمحافظة على التوازن الفكري والنفسي والاجتماعي للأمة، وتمكينها من الاضطلاع بمسؤولياتها الجسام في هذا المعترك، بكفاءة واقتدار.

المؤسسة السياسية ومحددات أصالة فعّاليتها الوظيفية والاجتماعية: والإسلام لكي يضمن أصالة التجديد، بعد أن ضمن فعّاليته وحيويته، عبر تأكيده على متغيرات[3] الحياة الاجتماعية والسياسية، وفسحه المجال أمام التجديد وتأكيده عليه، ركز على أصول الوعي السياسي والاجتماعي بصورة مكثفة، كما رأينا في المقومات المقاصدية والمنهاجية والقيمية الوظيفية للوعي الاستخلافي، وهي المقومات التي يتأطر بها الوعي السياسي على مستوى المؤسسات ومنهجية الأداء السياسي معا، وهو ما يحقق أصالة وفعّالية " **الدورة الانجازية الكلية** " للفعل السياسي خاصة، وحركة الصيرورة الاستخلافية عامة، عبر اطراد حيوية الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والاجتماعي والعمراني أو الحضاري عامة.

وانطلاقا من المقومات القيمية الكثيرة التي تكثفت العناية بها في الكتاب والسنة، والمؤلفات الفقهية والسياسية الكثيرة[4] التي اهتمت بالفقه السياسي أو السلطاني عامة، نضيف إلى ما سبق ذكره، بعض المحددات الأساسية التي يرتكز عليها الوعي السياسي في بناء المؤسسات الاجتماعية المنتجة للفعل السياسي الأصيل الفعّال التكاملي المطرد.

وهذه المحددات العامة، تنبثق من طبيعة وخصائص المجتمع الذي يسعى الإسلام إلى بنائه، ليجسد به محتواه الاستخلافي الراقي في الأرض، والذي تمثل فيه المؤسسة السياسية إحدى أهم وأخطر أدوات ومعايير أصالته وفعّاليته وتكامليته، فإذا كان المجتمع الإسلامي يتميز ويمتاز بكونه:

---

(1) رواه أبو داود في **السنن**، كتاب الملاحم، 109/4.

(2) ج.كورتوا، **لمحات في فن القيادة**، ترجمة: الهيثم الأيوبي، (المؤسسة العربية للدراسات، بيروت،ط2، 1980)، ص 47.

(3) ابن القيم، **إعلام الموقعين**، 27/3 وما بعدها.

(4) انظر مثلا: أبو حامد الغزالي، **التبر المسبوك**؛ الماوردي، **الأحكام السلطانية**، **وتسهيل النظر وتعجيل الظفر**؛ المرادي، **الإشارة إلى أدب الإمارة**؛ ابن الأزرق، **بدائع السلك**؛ و **ابن خلدون**، **المقدمة**؛ ابن فرحون، **تبصرة الحكام**؛ ابن تيمية، **السياسة الشرعية**... الخ

مجتمعا رساليا: أي ذا رسالة متميزة برؤيتها العقدية أو الكونية الشاملة للدورة الوجودية الكبرى للإنسان(1)، لها سلطان مهيمن على حياته، لا يصدر في أي أمر من أموره إلا عنها، أو عما لا يخالف أي ثابت من ثوابتها، أو مقصد من مقاصدها، كما قال تعالى: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا](2). وقال تعالى:[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ](3). فالإسلام هو هوية المجتمع، وهو رسالته، وهو مرجعيته المقوِّمة لذلك كله، بدونها يفقد هويته، وتتعطل رسالته، ويفقد دوره ومركزه.

فكلمة الإسلامي أو الإسلامية، ليست إضافة شكلية في أية قضية من القضايا، أو أمر من الأمور، بل هي وصف لوضع أو واقع موضوعي يصطبغ بقيم الإسلام، ويستوحي مفاهيمه وأحكامه ورؤيته في كل شيء. فالدولة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي، أو الأمة الإسلامية، أو الحضارية الإسلامية، هي الوضع أو الواقع الثقافي والاجتماعي والحضاري الذي تتجسد وتتجلى فيه حقائق الإسلام ونظرته للحياة .

مجتمعا عالميا: أي عالميا مفتوحا لكل البشر، على اختلاف أجناسهم، وبيئاتهم، وألوانهم، ومعتقداتهم(4). كما قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (5)... فالكل بإمكانه أن يعيش في المجتمع الإسلامي وأن يستمتع بكافة حقوقه الطبيعية والاجتماعية والسياسية.

مجتمعا إنسانيا: أي تهيمنه عليه القيم الأخلاقية والروحية الرفيعة، وتدفع بالعلاقات الإنسانية فيه إلى مستويات رفيعة من العدل والسماحة والرفق والإيثار والإحسان والاحتسابية والشكر والتقوى، بحيث يستطيع فيه كل إنسان أن يحقق إنسانيته، عبر ما يتاح له من انفتاح شامل ومتوازن ومتكامل على ذاته، وانسجام عميق مع إنسانيته أولا، وانفتاح تعارفي تكاملي على الآخرين، الأقرب فالأقرب ثانيا، حتى تستوعب دائرة علاقاته الإنسانية كلها(6). كما نلمس ذلك في مثل هذا التوجيه المبدئي العام[7]، في قوله تعالى:[إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ](8). ومثل هذا التوجيه الداعي إلى المبرة بالآخرين والإحسان إليهم بأفضل أنواع الإحسان:**[لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ]**(9).

ومجتمعا كونيا: أي ليس منحبسا في حدود الجغرافيا الأرضية، بل منفتحا على آفاق الكون الممتدة إلى عوالم الغيب المعلومة وغير المعلومة. فالمسلم يعتقد بأنه يحي مع كائنات كونية لا حصر

(1) ابن القيم، **التفسير القيم**، ص 228؛ الزحيلي، **التفسير المنير**، 85/6.
(2) **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 04.
(3) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 84.
(4) ابن كثير، **التفسير**، 6/ 387.
(5) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات: 13.
(6) عمار طالبي، **ابن باديس، حياته وآثاره**، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1403هـ، 1983، 3/ 134.
(7) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 153/3.
(8) **القرآن الكريم**، سورة النحل:90.
(9) **القرآن الكريم**، سورة الممتحنة: 8.

لها، ومنها الملائكة والشياطين التي تؤثر في حياته بأشكال مختلفة، كما أخبر بذلك الوحي، وكما يستشعر الإنسان ذلك ويلمسه في حياته أحيانا كثيرة([1]).

فالحياة عند المسلم، لا تنحصر في الحياة الدنيوية فحسب، بل منفتحة على ما هو أوسع وأبعد من ذلك بكثير جدا، وهو بقية مراحل الدورة الوجودية الكبرى للإنسان، التي لا تمثل الدنيا إلا مرحلة بسيطة جدا جدا منها([2]) .

ومجتمعا مرجعيا أو نموذجيا: في خيريته ووسطيته[3] وقدراته الحضارية المتفوقة، التي تجعل منه قوة تأطير وتوازن محورية، في حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الحضاري في العالم. كما قال تعالى:[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ][4]. وقال سبحانه: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا][5]، وقال أيضا: [**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**]([6]) .

ومن منطلق كون المجتمع الإسلامي مجتمعا **رساليا، وعالميا، وإنسانيا، وكونيا، ومرجعيا،** فإن المؤسسة السياسية في المجتمع الإسلامي تبعا لذلك، واعتبارا للدور الحيوي الحاسم الذي تضطلع به في تحقيق المقومات السابقة، في أبعادها المقاصدية والمنهاجية والقيمية، وأبعادها الرسالية والإنسانية والمرجعية، يجب أن تكون:

مؤسسة رسالية: أي خادمة للعقيدة ومؤطَّرة بفقهها التشريعي والأخلاقي، في كل شأن من شؤونها وموقف من مواقفها. منها تستمد مبررات وجودها، ومصدر سلطتها وسلطانها، وتستوحي أهدافها ومناهج عملها، وثوابت علاقاتها الداخلية والخارجية، سواء تعلق الأمر بالمؤسسات التشريعية أو التنفيذية أو القضائية.. فالكل محكوم في أهدافه وأولوياته ومناهج عمله، بمرجعية المجتمع، ومقوَّم بمدى قربه أو بعده عنها في وعيه العقدي، وأدائه التسخيري والاستخلافي. وقد سبق إيراد قوله عليه الصلاة والسلام: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)** [7]. المؤكد لذلك.

ومؤسسة دستورية: أي قائمة على القانون ومحكومة به في كل شأن من شؤونها، وأمر من أمورها[8]؛ سواء ما تعلق بها هي في ذاتها، أو ما يتعلق بصلاتها الوظيفية بالمجتمع كله. وليس فيها لأحد من الناس ميزة ذاتية خاصة[9]، إلا ما منحه له القانون، بناء على طبيعة عمله وحاجات وظيفته المكرسة لخدمة المجتمع الأمة والإنسان. قال تعالى:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ

([1]) انظر: **عالم الجن والشياطين، وعالم الملائكة الأبرار** لعمر سليمان الأشقر.

([2]) حبنكة الميداني، **العقيدة الإسلامية**، ص509.

(3) القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص127، وما بعدها

(4) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 110.

(5) **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 142.

([6]) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 104

(7) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، (**شرح النووي**، 16/12).

(8) الجصاص، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي،(دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، 1405هـ)، 177/3.

(9) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 242/3.

ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا][1]. فالانضباط القانوني أو الشرعي الصارم، محدد رئيس لكل أنشطة المؤسسة السياسية في المجتمع الإسلامي[2]، ومعيار أساس للنضج والأصالة والفعّالية والتكاملية، كما يوحي بذلك آخر الآية.

ومؤسسة قائمة على الاقتدار القيادي: وهو أمر تحتّمه الخاصيات السابقة، لأنها لا تتحقق إلا به، ولا تتحقق رسالية المجتمع الإسلامي وخيريته وعالميته وإنسانيته ومرجعيته النموذجية، إلا إذا كان هناك اقتدار قيادي متفوق[3]، يستوعب بشمول وعمق وكفاءة – نظريا وعمليا – شروط ومستلزمات الوعي الرسالي والتسخيري والاستخلافي، كما سبق الحديث عن أهم ملامحه في الفصلين الماضيين وهذا الفصل. وفي أدبيات الفقه السياسي أو السلطاني في تراثنا الفقهي والأخلاقي كلام مستفيض عن مواصفات القيادة المقتدرة وشروط الاقتدار القيادي، وإن كانت الشريعة الإسلامية منفتحة بطبيعتها، على كل خبرة إنسانية راشدة وفعالة في مجال الإدارة الفعالة الناجحة، كما سنرى ذلك في القسم التطبيقي من الدراسة.

ومؤسسة شورية: ولا شك أن **تحقق الاقتدار القيادي في الفعل السياسي الإسلامي** خاصة والاجتماعي عامة، يستدعي استثمار كلية* أو آلية الشورى[4]، والبحث عن الأفضل والأمثل من الأفكار والخطط والمناهج والوسائل والمواقف، والأقدر والأوعى والأصلح من الرجال والنساء، لتحمل مسؤوليات إدارة شؤون المجتمع[5]، وتحقيق **رساليته وعالميته وإنسانيته وكونيته ونموذجيته الحضارية** .

ونظرا للأهمية الحيوية لكلية أو آلية الشورى فقد ارتقى بها الإسلام إلى مستوى الواجبات، حتى قال ابن عطية: " الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب "[6]، ومن أحوج المؤسسات الاجتماعية إلى الشورى وأولى بها، المؤسسة السياسية التي تضطلع بتحقيق رسالية المجتمع الإسلامي وخيريته وعالميته وإنسانيته وكونيته ومرجعيته.

ومؤسسة خادمة للمجتمع: أي هي آلية من آليات تحقيق أمنه واستقراره الاجتماعي والحضاري الذاتي والخارجي، وحماية مصالحه الحيوية الداخلية والخارجية، وتجنيد طاقاته من أجل ذلك كله .

هذه هي الوظيفة الأساسية للدولة في المجتمع الإسلامي، بدون الوفاء بها، يصبح وجودها عبأ بل وخطرا على الأمن الاجتماعي والحضاري للمجتمع ذاته، يجب عليه أن يتصدى له بكل قواه، وأن يقوِّم مسار الدولة، ويعيد صياغة وتحديد أدوارها من جديد، بحيث تنسجم مع مقصد خدمة المجتمع أولا وأخيرا .

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة النساء: 59.

(2) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 573/1.

(3) مايكل ليند، **الدولة الحافزة**، ص 8.

* الشورى كلية قيمية وآلية وظيفية في الوقت نفسه، وليست مجرد آلية إجرائية، لأنها مرتبطة بمنظومة قيمية وأخلاقية متكاملة، تتحرك في إطارها وتؤدي وظيفتها الاجتماعية والسياسية من خلال تكاملية كل عناصر وعوامل تلك المنظومة.

(4) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 389/1؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 276/4.

(5) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، 1/ 175 وما بعدها؛ يوسف موسى، **نظام الحكم في الإسلام**، ص25–57.

(6) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 397/3.

وفي تأكيد هذا المقصد، جاءت خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: " **أيها** الناس فإني قد وليت عليكم **ولست بخيركم** فان أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله "([1]) .

يقول الفراء وهو يتحدث عن مهمات السلطان السياسي، الذي ما هو في نظر اللإسلام إلا أجير خادم للمجتمع، كما مرَّ في خطبة أبي بكر آنفا: " حماية البيضة والذب عن الحوزة، ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين ". ويقول أيضا: " تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون بها حرما، أو يسفكون فيها دما لمسلم أو معاهد "([2]).

مؤسسة خاضعة لإرادة المجتمع: أي أنها مفرَزة من إرادة المجتمع، ومراقَبة ومحاسَبَة من قبله كذلك، عبر المؤسسات والأنظمة والمبادرات؛ الرسمية والشعبية، والفردية والجماعية، الثقافية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية.. التي يتواضع عليها المجتمع، ويوجه فاعليتها لتقوية أداء الدولة وهيبتها من ناحية، ومراقبة سير عملها في الاتجاه الصحيح من ناحية أخرى.

هذه باختصار بعض المحددات المبدئية الأساسية، التي تحكم وظيفة المؤسسة السياسية في المجتمع الإسلامي وتؤطر نشاطها باستمرار، حتى تؤدي دورها المحوري الحساس في تحقيق أهداف الإسلام العظيمة في حياة الأمة، وحياة البشر عامة، عبر الارتقاء بالوعي الاستخلافي كمصب للحياة الإنسانية.

وباكتمال الحديث عن الوعي الاستخلافي نكون قد استكملنا الكلام عن المداخل الثلاثة الكبرى، التي تمحور حولها اهتمام الدعوة الإسلامية، وهي تتحرك من أجل بناء وعي الإنسان **بدورته الوجودية الكبرى**، وتمكينه من الوعي التسخيري والاستخلافي الذي يُقْدِرُهُ على إنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض، ويعينه على مواجهة تحدياتها بكفاءة واقتدار، والاستمتاع بما يحققه من عمارة في الأرض، وهو يستشرف آفاق الخلود في نهاية دورته الوجودية الكبرى.

مستخلص النتائج
التي تمخض عنها القسم النظري من الدراسة

والنتيجة الأساسية التي تستخلص في نهاية هذا الباب من الدراسة، فيما يتعلق بالمعالم الكبرى لرؤية الإسلام لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وتحليله لصيروراتها الحضارية والتاريخية وتفسيره لها، هي أن هناك ثلاثة معطيات كلية كبرى من الوعي المعرفي والوظيفي، تقف باستمرار وراء هذه الصيرورات وتتحكم فيها؛ فهما وإنجازا، وهي:

- طبيعة وعي الإنسان العقدي بدورته الوجودية الكبرى؛ في مبتدئها ومسارها ومصيرها .
- وطبيعة وعيه الثقافي **بالمنظومات الكلية لسنن التسخير** التي وضعت بين يدي خلافته في الأرض.

([1])ابن كثير، **البداية والنهاية**،6/305.

([2])أبو يعلى الفراء، **الأحكام السلطانية**، ص11-16.

- وطبيعة وعيه بالمنظومات الكلية لسنن الصيرورات الثقافية والاجتماعية والحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

وهذه المعطيات أو المستويات الثلاثة من الوعي الكلي، تتمحور من الناحية المنهجية الوظيفية أو العملية، حول أربعة منظومات سننية كلية كبرى، هي التي تؤثر بشكل مباشر على طبيعة الصيرورات الثقافية والاجتماعية والحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وهي:

- **منظومة سنن التوحيد والعبودية .**
- **ومنظومة سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد .**
- **ومنظومة سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد .**
- **ومنظومة سنن الأصالة والفاعلية والتكاملية والاطراد .**

وهذه المنظومات الكلية الأربعة، المؤثرة بشكل مباشر على حركة الاستحلاف البشري، ترجع في نهاية التحليل التركيبي المستخلِص لنظرية الإسلام الوظيفية الكلية في فلسفة التاريخ والحضارة، إلى ما يمكن أن نسميه بنظرية " **التدافع والتجديد** "، التي تمثل السنة التسخيرية الوظيفية الكلية المطردة، في حركة الاستخلاف البشري في الأرض .

فحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ في مدها وجزرها، وقوتها وضعفها، وصلاحها وفسادها.. يحكمها منطق **أصالة** و**فاعلية وتكاملية واطرادية** " **المدافعة** " **الثقافية والاجتماعية والحضارية**؛ على كل المستويات، بشكل مطرد لا يتخلف.

واطراد **أصالة وفاعلية وتكاملية** " **المدافعة** " **الثقافية والاجتماعية والحضارية**، يحكمه منطق **أصالة وفاعلية وتكاملية** " **التجديد** " الثقافي والاجتماعي والحضاري. حيث أنه كلما نجحت **عملية أصالة** و**فاعلية وتكاملية واطرادية التجديد**، أثرت إيجابا على أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، ومكَّنت المجتمع أو الأمة... من المضي قدما في طريق **النهضة الحضارية**، إن كانت في مراحل الإقلاع والنهوض الحضاري. أو **المواكبة الحضارية**، إن كانت قد تجاوزت مرحلة الإقلاع ووضع أقدامها في مرحلة المواكبة الحضارية. أو **المنافسة الحضارية**، إن كانت قد تجاوزت مرحلة المواكبة، ودخلت مرحلة المنافسة الحضارية. أو **المداولة والريادة الحضارية**، إن كانت قد تجاوزت مرحلة المنافسة، ودخلت مرحلة الريادة الحضارية، كآخر مراحل التطور الحضاري لحركة الاستخلاف البشري في الأرض.

وكلما تجزَّأت أو تنافرت وتراجعت وضعفت **أصالة** و**فاعلية** و**تكاملية واطرادية عملية التجديد**، كلما ضعفت وتضاءلت أصالة وفاعلية وتكاملية واطرادية المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، وتقهقر المجتمع أو الأمة تبعا لذلك. وهكذا دواليك يتحرك مسار الخلافة البشرية في الأرض باطراد. كما قال تعالى:[**سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا**]([1]). وقال أيضا: [**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا**]([2]).

([1]) **القرآن الكريم**، سورة الفتح: 23.

([2]) **القرآن الكريم**، سورة فاطر: 43.

فالصيرورات الاستخلافية البشرية في الأرض، في ضوء الواقع السنني الموضوعي المعيش فعلا، وفي ضوء المنطق الإسلامي المتطابق مع ذلك فعلا، يحكمها قانون كلي عام، هو قانون: " **التدافع والتجديد** " الذي حاولت هذه الدراسة، في قسمها النظري، استيعاب أهم أبعاده ومفاصله الكلية الكبرى. وستحاول تأكيد أبعاده التاريخية العملية، في قسمها التطبيقي، من خلال رصد وتحليل **منهج الحركة النبوية**، وهي تنتقل بالدعوة من مرحلة البناء العقدي والفكري والتربوي الفردي، في المرحلة المكية، إلى مرحلة البناء الاجتماعي والسياسي والحضاري للمجتمع والدولة والأمة، في المرحلة المدنية، ووضع الأساس الصلب للحضارة الإسلامية التي سيتم بناؤها بعد ذلك مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال.

إن هذه النظرية المفصلية، التي نعتقد بأنها تتناغم تماما مع المنطق السنني القرآني، وتنسجم إلى حد بعيد مع رؤيته لفلسفة التاريخ والحضارة، والقوانين الكلية التي تحكمها، ينبغي أن يتركز الاهتمام البشري حول تأسيس وتعميق الوعي بها، لدى أجيال الأمة خاصة، وأجيال الإنسانية عامة. إذا أرادت هذه الأجيال فعلا أن تتحرر من أوهام القدرية السلبية المعطّلة من ناحية، وأوهام العقلانية التنافرية المغرورة من ناحية أخرى، وترتقي بوعيها الاستخلافي إلى مستوى الشمولية السننية التكاملية الفاعلة، التي بإمكانها وحدها، وضع مسيرة الاستخلاف البشري في الأرض، على الحركة على **خط العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية** الصاعد، والنأي بها عن الحركة على **خط الضلال والطغيان والعنصرية والترف والدنيوية** الضيقة، المتقهقر، الذي يسلب حركة الاستخلاف روحيتها وأخلاقيتها وإنسانيتها وخيريتها، ويقذف بها في دوامات الضنكية الحضارية المنهكة والمهلكة، كما جاء التحذير من مغبة ذلك في القرآن، في أول توصية إلهية لبني آدم، حينما تم هبوطهم من الجنة إلى الأرض، حيث قال الله تعالى لأبويهم: **[قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى]**([1]).

الباب الثاني

تنظيم قاعدة الدولة وتأمين وجودها

تمهيد:

نشرع الآن في دراسة الجانب التطبيقي من الموضوع، على ضوء ما انتهينا إليه في الجانب النظري، حيث سنحاول تتبع مسيرة الحركة النبوية في مرحلة بناء المجتمع والدولة، وتحويل قيم الدعوة إلى واقع اجتماعي معيش، عبر جهد منهجي محكم، تكاملت خطواته بشكل أصيل وفعال ومطرد في كل مراحل الدعوة، لنستخلص من ذلك قواعد المنهج النبوي في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، ونقف من خلاله على سر نجاحه -ﷺ- في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، رغم التحديات الكثيفة المتلاحقة، التي حفت بها في كل مراحل مسيرتها.

ولما كنا قد قسمنا العهد المدني من مسيرة الدعوة إلى مرحلتين أساسيتين، تنتهي الأولى عند

([1]) **القرآن الكريم**، سورة طه: 123-124.

هزيمة الأحزاب وتصفية بني قريظة، آخر القوى المضادة الخطيرة بالمدينة، وتبدأ المرحلة الثانية عقب ذلك حتى وفاته -ﷺ-، فإننا سنخصص هذا الباب من الدراسة للمرحلة الأولى التي انصب فيها اهتمامه -ﷺ- حول **تنظيم قاعدة الدولة وتأمين وجودها**. ونتناول ذلك عبر ثلاثة فصول، يغطي الأول الفترة ما بين الهجرة إلى المدينة إلى نهاية غزوة بدر، والتي تمحور فيها اهتمامه -ﷺ- على تنظيم قاعدة الدولة وتهيئتها بسرعة للاستجابة لتحديات الدعوة والدولة والمجتمع بفعالية، خاصة في هذه الفترة الانتقالية الحساسة والحاسمة.

ويغطي الفصل الثاني الفترة ما بين بدر وأحد، والتي تمحور فيها اهتمامه -ﷺ- حول **تأمين قاعدة الدولة**، وحماية منجزات المرحلة الأولى التي توجت بضربة محكمة لمضغة المواجهة في بدر. في حين يغطي الفصل الثالث الفترة ما بين أحد والأحزاب، والتي تمحور فيها اهتمامه -ﷺ- حول **المحافظة على هيبة الدولة**، بعد الضربة المضادة التي تلقتها الدعوة في أحد، وما تلاها من ضربات جزئية موجعة، توجتها القوى المضادة بحصار الأحزاب الخطير، الذي لو قدّر نجاحه لشكل نكسة خطيرة في مسيرة الدعوة.

وقد أدرك الرسول -ﷺ- الأبعاد الاستراتيجية الحاسمة في نكسة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة، فأعلن بدأ المرحلة الثانية من مسيرة الدعوة وبناء الدولة والمجتمع، كما نلحظ ذلك في قوله عقب نهاية الحصار. «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**» [(1)].

ولما كانت المرحلة المكية من مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع غير مفصولة عن المرحلة المدنية، إذ هما معا، يكوّنان الفعل الحضاري النبوي النموذجي، الذي لا يمكن تفسيره بصورة موضوعية إلا في ضوء الرؤية التحليلية المتكاملة للمرحلتين معا، فإنه يحسن بنا أن نقيّم، منجزاتها، ونضعها في سياقها الاستراتيجي العام، باعتبارها حلقة أساسية في حركة الدعوة والدولة والمجتمع، والحضارة الإسلامية المرتقبة، قبل أن نشرع في الحديث عن قواعد منهجه -ﷺ- في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في مرحلة بناء الدولة.

موقع الدولة في أولويات الدعوة:*

انتهينا في الباب الأول إلى أن تأسيس الوعي العقدي بالدورة الوجودية للإنسان، والوعي بسنن التسخير، والوعي بسنن الاستخلاف، شكّلت المحاور الأساسية الكبرى للدعوة الإسلامية، في جهادها من أجل تحرير الإنسان من الخرافة والشرك والاستعباد والانحطاط، والارتقاء بحياته إلى المستوى اللائق بتميزه، وفرادته، وسيادته في الأرض.

ولاحظنا أصالة الاهتمام بهذه الكليات الكبرى، لكونها تشكل **مداخل الوعي الأساسية أو القاعدية**، التي تحدد أصالة الموقف الاستخلافي وفعاليته واطراديته، أو اضطرابه وسلبيته وتذبذبه؛ لأنها تؤثر بصورة مباشرة في علاقة الإنسان بالله والكون والحياة، وتتحكم إلى حدّ بعيد في كيفية استثماره لـ«**ميزانيته التسخيرية**» العظيمة، ومن ثم في طبيعة وحجم موقعه ومصداقيته في حركة الصيرورة الاستخلافية.

فالإنسان متى تأسس وعيه بدورته الوجودية، انعكس على وعيه بسنن التسخير، ثم انعكس الوعيان معا على وعيه الاستخلافي، الذي يطبع موقفه من وظيفته الوجودية ومن «ميزانيته

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، (**فتح الباري**، 7/467).
* سبق الحديث في الفصل الثالث من الباب الأول عن أهمية الدولة وضرورتها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التسخيرية»، ويؤثر مباشرة على طبيعة ومدى ترقيه المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني.

فالدعوة الإسلامية باعتبارها حركة تخطيط وتأطير مباشر للحياة البشرية، اهتمت أولا بمداخل الوعي الوجودي الكبرى، وكلياته الأساسية، التي إذا ما أحكمت واستوى استيعاب الناس لها، انصلحت تبعا لذلك حياتهم، واستقامت أمورهم، وامتلكوا مفاتيح أصالة الجهد الاستخلافي وفعاليته واطراديته. وإذا ما اختل أو تخلف وعيهم بأي بعد من هذه الأبعاد والمداخل، نقص ذلك من أصالة الجهد الاستخلافي وفعاليته واطراديته بحسب ذلك.

وإذا كانت الدعوة في جانبها النظري، تعتبر تخطيطا مؤطرا لحركة الحياة في كل مراحل **الدورة الوجودية للإنسان**، فإنها من جانبها العملي أو الانجازي تتجسد في واقع الحياة البشرية، عبر آليات **الدعوة والدولة والمجتمع** بالخصوص؛ **الدعوة** كحركة تَمثُّل ذاتي لقيم الرسالة ومفاهيمها، وكعملية تبليغ لها وإقناع بها، وكحركة تغيير للواقع العقدي والفكري والسلوكي للناس بواسطتها. و**الدولة** كمجال مؤسساتي لتمثل أوسع لقيم الدعوة، وتجسيد عملي لمفاهيمها الاجتماعية والسياسية من جهة، و أداة حماية لحركتها التغييرية ومكتسباتها الفكرية والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى.

ثم ينبثق من حركتي الدعوة والدولة، **المجتمع الرسالي المرجعي**، الذي تتجسد فيه بشكل أشمل وأعمق، أهداف الدعوة ومقاصدها الإنسانية في الخلق، فتكتمل للدعوة كمضمون رسالي، الآليات الأساسية الأولية، أي **الدعوة والدولة والمجتمع**، لتسريع وتفعيل حركة الوعي العقدي والتسخيري، والاستخلافي في اتجاه **الحضارة الإنسانية** كمصب للجهد البشري على مستوى موازين وسنن عالم الشهادة.

ونحن عندما ننظر إلى الحركة النبوية على ضوء هذه الدوائر الثلاثة(*): **الدعوة والدولة والمجتمع**، فإننا نجدها قد استثمرت آلية الدعوة في الفترة المكية، وأنجزت عبرها المرحلة الأولى في تهيئة شروط تحقيق أهداف الإسلام، في **الوعي العقدي، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي**، نظرية وتطبيقا، وجاءت مرحلة تأسيس واستثمار آليتي **الدولة والمجتمع**، بعد أن وقرت بعض شروطهما وظروفهما، لتسريع وتفعيل حركة التغيير والبناء.

ومن هذا المنطلق، نلحظ كيف أن بناء **الدولة وتأسيس المجتمع**، يندرج ضمن الأهداف الكبرى للدعوة الإسلامية، ويأخذ موقعا محوريا في أولوياتها الاستراتيجية، لتوقف استكمال أبعاد ومراحل الوعي الوجودي؛ **العقدي والتسخيري والاستخلافي** عليها، بل وتوقف استمرارية الدعوة ذاتها، كحركة تغيير، عليها كذلك؛ لأنها أصبحت مهددة** بعد ما أخذت آثارها تتجسد في واقع بشري جديد، ما فتئ يتدعم ويقوى مع مرور الزمن.

فبناء الدولة وتأسيس المجتمع، أصبحا ضرورة ملحة، لحماية الدعوة ومكتسباتها، وضمان استمراريتها من جهة، وتحقيق مراحل التغيير والتحول العقدي والنفسي والفكري والسلوكي والاجتماعي والسياسي التالية، بصورة شاملة وعميقة ومتوازنة من جهة أخرى، باعتبار ذلك هو المقصد من الوعي النظري أو الفهم الذي جاءت به الدعوة، بدونه لا يكون لذلك الفهم والوعي أي

---

*هناك كما لاحظنا دائرة رابعة هي: الحضارة وهي تتم في وقت طويل بالقياس إلى وتائر عمل الدعوة والدولة والمجتمع؛ لأنها خلاصة تراكم جهود كل هذه الدوائر في مدى زمني طويل، وإطار جغرافي كبير.

**كما تدل على ذلك مظاهر العدوان على أتباع الدعوة ، وهجرتهم ، وخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ،وتآمرهم على قتله ...الخ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معنى. لأن العبرة بالعمل[1]، فهو مطلوب طلب المقاصد أو الغايات، وغيره مطلوب طلب الوسائل .

موقع منجزات المرحلة المكية من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع:

ومن التمهيد السابق، يبدو لنا مدى عمق و**تماسك الاستراتيجية النبوية**، وتلاحم خطواتها، وتكامل أبعادها ومراحلها، ودقة فقه أو منهج الإنجاز فيها، وانسجامه المحكم مع سنن التسخير؛ في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، وفي الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى.

فالرسول ﷺ احترم سنن التغيير، واستثمر سنن التسخير بدقة وشمولية وتكامل، فجاءت خطواته العملية، مكينة متماسكة، أصيلة فعالة ومطردة، يكمّل ويقوّي بعضها بعضا. فلم يقفز على مراحل التغيير والبناء، ولم تستدرجه الضغوط والإغراءات والفرص... ليغفل عن أولويات البناء واستكمال شروطه، بل أعطى لكل بعد ولكل مرحلة في حركة التغيير والبناء، ما كانت تستحقه من التركيز والعناية والوقت، في ضوء الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، والآفاق المستهدفة، والسنن النافذة في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

ونحن إذ نستهدف في هذه الدراسة البحث عن **منهجه في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة وتأسيس المجتمع**، بعد هجرته إلى المدينة، فإنه يحسن بنا أن نضع منجزات المرحلة المكية في موقعها الصحيح، من استراتيجية بناء الدولة وتأسيس المجتمع[2]، كآليات ضرورية لاستمرارية تأسيس الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي وحمايته من جهة، وكمجالات لتجسيد هذا الوعي واستثماره في ترقية الحياة والاستمتاع بها من ناحية أخرى، بالإضافة إلى كون تحول الدعوة إلى دولة ومجتمع يوفر لها أقوى عوامل الإشعاع الخارجي[3]، لما **للنموذج الاجتماعي** من أهمية كبيرة في فعالية التعريف بالدعوة واستقطاب اهتمام الآخرين بها.

فالإسلام كما رأينا في الفصول السابقة، جاء بمشروع شامل ومتكامل، يغطي **الدورة الوجودية للإنسان** كلها، في بدايتها ومسيرتها ومصيرها، وقد كان تركيزه شديدا على عالم الشهادة[4] –مجال الفعل الاستخلافي– الذي يقرر وضع الإنسان في بقية مراحل الدورة الوجودية التالية. وكما أكدنا سابقا، فإن نجاح الإنسان في عالم الشهادة، مرتبط بثلاث مستويات من الوعي المتكامل، هي: الوعي العقدي، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي، فإذا اختل أي بعد من هذه الأبعاد أو تخلف أو قصر الوعي به، أثر ذلك على أصالة حركة الصيرورة الاستخلافية وفعاليتها واطراديتها.

والدعوة الإسلامية في **بعدها الحركي أو الانجازي**، استوعبت هذه الأبعاد كلها، وانضبطت خطواتها العملية بها؛ لأنها كانت تستند على وعي شمولي متوازن ومتكامل بسنن الله في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، وفي **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، فجاءت حركتها متناغمة مع ذلك كله، ومتكيفة به، في تأسيس الوعي الاستخلافي في أبعاده الثلاثة من جهة، وفي إنجاز نموذجها الاستخلافي على ضوء ذلك من جهة أخرى، والذي جاء متفوقاً على ما عداه من النماذج الاجتماعية التقليدية.

ونحن إذ ندرس الفعل الدعوي النبوي، ونحلل مضامينه وأبعاده، لا ينبغي أن نغفل أبدا الأسس

---

(1) الشاطبي، **الموافقات**، 1/ 41– 47.

(2) انظر: التجاني عبد القادر حامد، **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، (طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، الولايات المتحدة الأميركية، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1416هـ– 1995م).

(3) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**،ص 106–111 .

(4) دروزه، **دستور القرآن والسنة**، 1/ 24.

والمعطيات السابقة؛ لأنه تجسيد عملي متوازن لها. لا يمكن فهم حقيقة الإسلام ذاته، واستيعاب أسرار فرادته وإعجازه وخلوده، ولا فهم المنهج النبوي في تفهيمه وتمثّله وتغيير الواقع الإنساني به، وتجسيد نموذجه الاستخلافي في أبعاده المعرفية والروحية والسلوكية والعمرانية في الحياة، إلا على ضوئها، واستيعاب شامل ومتكامل لها.

وقد كان لغياب أو تغييب هذه الموجِّهات المبدئية والمنهجية، في قراءة **الفعل التشريعي المرجعي** * أولا، وقراءة الفعل الدعوي النبوي المعرّف به، والمتمثل له، والمجسّد لأبعاده الاجتماعية والسياسية ثانيا، تأثير سلبي كبير، على جزئية الفهم وتنافريته[1]، الذي انعكس على الموقف السلوكي والاجتماعي والسياسي كذلك، بالجزئية والسطحية، والتناقض والتنافرية[2]، والاهتلاك[3].

ونذكر هنا على سبيل المثال مسألة البعد الاجتماعي والسياسي للدعوة الإسلامية، لعلاقته المباشرة بالموضوع، فقد اضطرب فيها الفكر[(*)] العلماني الوضعي اضطرابا كبيرا، جردوا فيه الإسلام من بعده الحضاري وجانبه العملي، حينما همّشوا بل وحاولوا فلسفة تغييب البعد الاجتماعي والسياسي في الكتاب والسنة والسيرة معا[4]، وأصروا على حصر الدين في جانب محدود جدا من علاقة الفرد بالله، وعزله تماما عن كل الحياة الاجتماعية والحضارية، مع أن الدين عامة كان "عبر التاريخ البشري برمته، منغمسا بصورة وثيقة في مجمل حياة الإنسان في المجتمع، وليس في حياته السياسية فحسب، حتى تعاليم يسوع الدينية الخالصة، كما تعتبر عادة، ليست دون دلالة سياسية... وإن اتخذت الحركة المسيحية، الناشئة موقف الاسترخاء السياسي، فهذا ليس راجعا إلى فصل دائم للدين عن السياسية، بل لأن مثل هذا المسار كان حكمة سياسية في ظروف تلك الفترة الزمانية والمكانية"[5].على حد تعبير (وات).

ومن أجل القفز على الصخرة التي تتحطم عليها هذه الأطروحات، وهي **الفعل الدعوي النبوي**، الذي تجلى فيه البعد الاجتماعي والسياسي للإسلام أقوى ما يكون التجلي، جاءت فكرة طروء النزعة الاجتماعية والسياسية على الدعوة الإسلامية بعد الهجرة ومواتاة الظروف لها في المدينة[6]، لتؤكد على عدم أصالة الفكر الاجتماعي والسياسي، ومن ثم الحضاري في الإسلام، في نظر الموقف أو التفسير العلماني المقلد التابع.

ولو أُدركت المنطلقات المبدئية والموجهات المنهجية السابقة، بشأن المهمات الثلاثة المترابطة والمتكاملة للإسلام؛ في **تأسيس الوعي العقدي، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي**، لما كان

---

* أي نصوص الكتاب والسنة.

(1) عبد الحميد أبو سليمان، **النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية**، ص156 وما بعدها.

(2) أكرم ضياء العمري، **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**، (قطر، سلسلة كتاب الأمة 39 ، 1994م)، 69/1.

(3) انظر آثار الموقف العلماني في المجتمعات الإسلامية المعاصرة: في **الدولة والدين**، غليون، و**الإسلام والمجتمعات العلمانية وجها لوجه**، للقرضاوي.

* نقصد هنا المتأثر من أبناء المسلمين بأطروحات الفكر الغربي في الدين والحياة.

(4) علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت)، ص 136، وما بعدها. وقد توالت بعده كتابات كثيرة تمذهبت بالعلمانية والوضعية.

(5) منتغمري وات، **الفكر السياسي الإسلامي، المفاهيم الأولية**، ترجمة: صبحي حديدي، (دار الحداثة، بيروت، 1981)، ص 42.

(6) جولد زيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة: محمد يرسف موسى، (دار الكاتب المصري، القاهرة، 1947)، ص10 وما بعدها، مونتغمري وات، **محمد في مكة**، 17.

لهذه الأطروحات الشاذة مكان أبدا؛ لأنها مناقضة عندئذ لأبسط بديهيات المنطق العقلي، والمنطق الشرعي، والمنطق التاريخي، ولوُضِعَ الجهد النبوي في المرحلة المكية من دعوته في سياقه الكلي المتكامل، كمرحلة تأسيسية بنائية للوعي الاستخلافي النظري الشامل من جهة، وكمرحلة تمثّل وتجسيد اجتماعي متدرج، لما أمكن من ذلك الوعي في الواقع الفكري والنفسي والسلوكي والاجتماعي، بحسب ظروف الدعوة وإمكاناتها من جهة أخرى.

فالفترة المكية، من منظور الوعي العقدي والتسخيري، والاستخلافي، مرحلة أساسية من مراحل التغيير والبناء والتجديد، الذي جاء الإسلام لينجزه في حياة الناس، وإذا كان البعد السياسي والاجتماعي، بمعناه المؤسساتي الفني، أو الثقافي الحضاري، لم يبرز في تلك المرحلة، فليس معنى ذلك أنه غير موجود، أو أنه غير مقصود؛ لأن الموقف من الناحية العملية أو الانجازية خاضع لسنن يتكيف بها، من العبث تجاهلها أو القفز عليها، بالنسبة لكل حركة ناضجة وجادة، ترتكز على وعي عميق وشامل بسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وآلياتها الانجازية في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد. فالرسول -ﷺ- وإن كان نبيا يتلقى الوحي والتسديد من الله، إلا أنه كان يتحرك في إطار سنن التسخير والاستخلاف التي أجراها الله في الخلق كبقية البشر،[1] كما سنرى ذلك باستفاضة في هذا القسم التطبيقي من الدراسة بحول الله.

والموقف العلمي الصحيح في الحكم على أية حركة، يأتي من النظرة التحليلية الشاملة المتكاملة، للإطار النظري والبعد العملي لهذه الحركة، في زمان ومكان معينين، وعبر **دورة إنجازية كاملة**، وليس لبعض جوانب أو مراحل الدورة فقط، وهو ما وقع فيه من خفي عليهم البعد السياسي والاجتماعي في الكتاب والسنة والسيرة، عندما حاولوا تجزئة " **الدورة الانجازية** " للفعل النبوي الكلي[*]، ونظروا إلى كل جزء أو مرحلة بمعزل عن سياقها الكلي التكاملي العام، كما فعلوا مع المرحلة المكية والمرحلة المدنية، حتى بدتا كأنهما حركتان منفصلتان بل ومتناقضتان[2]، مع أنهما شكلتا معًا، كلا متكاملا ومنسجما في استراتيجية الدعوة الإسلامية، المرتكزة علىالتكامل العضوي الوظيفي بين منظومات الوعي العقدي، والتسخيري، والاستخلافي، أي على التغيير الفكري والنفسي والسلوكي والاجتماعي والسياسي والحضاري.

من هذه المنطلقات ننظر إلى المرحلة المكية، ونقيّم منجزاتها، ونحدد موقعها من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع باختصار، معتمدين المقاييس الثلاثة السابقة: الوعي العقدي، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي، التي تُحتوى فيها المقاييس الخاصة بالدولة؛ كالشعب، والأرض والقانون، والسيادة[3]... وتأخذ أبعادًا أكثر إنسانية وأصالة وفعالية، على المستوى التطبيقي، عندما تُستلهم في المرجعية الدستورية والقانونية أولا، وفي الثقافة الاجتماعية والسياسية ثانيا، لتعطي لعناصر ومكونات الدولة السابقة مداها التسخيري الوظيفي الحقيقي، الذي تأخذ معه الحياة الإنسانية معنى آخر، غير الذي تمنحه المرجعية القانونية والثقافية والاجتماعية المادية الوضعية.

ولعل أخطر نتيجة حققتها الدعوة في المرحلة المكية، وكانت الأساس المكين الذي انبنت عليه

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 148.

*) ونفس الموقف الإعلامي، نجده في النظرة الانشطارية إلى الفعل التشريعي، الذي فصلت فيه الدنيا عن الآخرة، والآخرة عن الدنيا، والروح عن الفكر، والفكر عن الجسد... وهكذا.!

(2) جولد زيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ص 10- 12.

(3) ثروة بدوي، **النظم السياسية**، ص28، حامد سلطان، **أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية**، ص212.

الدولة والمجتمع... بمضمونهما الاجتماعي والسياسي والعمراني أو الحضاري، هي **التحول العقدي الحاسم**، الذي جرّد الإنسان والطبيعة والكون من أي معنى غيبي مقدس[1]، وأعاد كلاً منها إلى مكانه وحجمه الحقيقي، ومحّض القداسة لله تعالى وحده، ونزع القوة والإرادة اللتين كانت مؤسسة الشرك تضفيهما على بعض الناس، وعلى أجزاء من الطبيعة[2]، وعلى بعض الكائنات الغيبية الأخرى، ليعيدها للإنسان مرة أخرى، باعتبارها من مفردات «ميزانيته التسخيرية» التي وضعت بين يدي مهمته الاستخلافية في الحياة.

فالفترة المكية أنجزت هذه المهمة، وحققت هذه النتيجة الحاسمة، على المستويين النظري والعملي معًا، عبر تأسيس الوعي بالدورة الوجودية للإنسان: في مأتاه، وفي طبيعته، وفي وظيفته، وفي مصيره[*]. وهو ما ينعكس مباشرة على الوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي بصورة حاسمة، كما لوحظ ذلك في التغير العميق[3] الذي مسّ البعد النفسي والفكري والسلوكي والاجتماعي للصفوة التي أعدت في المرحلة المكية، والتي تعتبر كذلك من منجزات الدعوة الحاسمة في هذه المرحلة، على طريق استكمال بقية مراحل التحول الاجتماعي والحضاري في استراتيجية الدعوة.

ونؤكد هنا على التأثير الشامل للوعي العقدي كما تجلى في قيم:

- الربوبية، والمالكية، والألوهية أو التوحيد، والعبودية، على مستوى العلاقة بالله.
- وقيم المخلوقية، والتميز، والاقتدار، والسيادة، والاستخلاف، والتسخير، والمسؤولية، والجزاء... على مستوى الإنسان ووظيفته الوجودية ومصيره[4].

تأثيره العميق على مكونات الدولة المتعارف عليها، حيث تصبح الأرض ملكا لله[5]، ويصبح الإنسان أو الشعب مسخَّرًا لها بتمليك مؤقت من الله[6]، وبشرط العبوديةله سبحانه[7]. ويصبح القانون والسلطة خادمين لوظيفة الإنسان الاستخلافية[8]، ومحققين لسعادته كإنسان مكرم بإنسانيته وصلاحه، لا بلونه أو جنسه أو طبقته أو قوته الجبروتية... أي يندرج كل هذا في إطار قانون الابتلاء[9]، ويحكم بسنن التدافع والتداول والتجديد، المؤطرة بدورها بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد. ولا نحتاج هنا، بعد ملاحظة هذه التأثيرات العميقة والشاملة للوعي العقدي على الوعي التسخيري والاستخلافي، إلى إبراز وتأكيد التأثير على البعد السياسي والاجتماعي؛ لأنه حاصل بالضرورة، بل هما مصب هذا التأثير أصلا، ما دامت الدعوة **نزعت حق التشريع من الكهنة، والهوى، والطبقة، والقوة، والجهل...**

---

(1) برهان غليون، **نقد السياسة: الدولة والدين**، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان،ط2، 1993)، ص 26 وما بعدها.

(2) المبارك، **العقيدة والعبادة**، ص40.

* استوعبنا الحديث عن دلالات كل بعد من هذه الأبعاد في الفصل الأول من الباب الأول.

(3) انظر عيّنات من هذا التحوّل في: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، و**صفوة الصفوة** لابن الجوزي، و**حلية الأولياء** لأبي نعيم، و**حياة الصحابة** للكندهلوي.

(4) انظر الفصل 1،2 من الباب الثالث من هذه الدراسة.

(5) الرازي، **التفسير الكبير**، 2/ 142.

(6) الزمخشري، **الكشاف**، 2/ 407.

(7) حبنكة، **ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة**، ص 201.

(8) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 14/ 323؛ الشوكاني، **فتح القدير**، 5/ 220.

(9) عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**، (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ- 1993م) ص 80.

وأبطلت الخضوع لغير الحق والصواب، ووضعت السلطان كله بيد الله، ومن آتاه سبحانه الحكمة وفصل الخطاب؛ من الأنبياء وأولي الأمر من العلماء وأهل الخبرة من صفوة المجتمع وخيرته، وتجاوزت في إقرار هذه المرجعية النطاق النظري، إلى المجال العملي، وراحت تحلل الواقع المعيش وتفسر حركة التاريخ، وتغير العواطف والأفكار والسلوكات، وتبني العلاقات الاجتماعية والسياسية على ضوء ذلك أولا بأول، وتنشئ صفوة متميزة على ذلك، أخذ حجمها يكبر مع مرور الوقت، ووزنها يتعاظم شيئا فشيئا.

ومن يريد تتبع آثار هذا التحول العقدي والنفسي والفكري، في السلوك الاجتماعي والموقف السياسي، فعليه أن يدرس مواقف الصفوة الإسلامية في مكة، من تاريخها الذاتي، ومن علاقاتها بقيم وأعراف المجتمع وتقاليده، التي أخذت تتفكك وتنهار، ومواقف الزعامة السياسية والاجتماعية لقريش من الرسول ﷺ وهذه الصفوة، وسيلحظ من يتتبع آثار هذا التحول، عمق ومحورية البعد السياسي والاجتماعي في ذلك كله، ويدرك كيف شكلت المرحلة المكية نقطة الارتكاز الأقوى في استراتيجية الدعوة الإسلامية، وفعالية بروز وتأكّد أبعادها السياسية والاجتماعية في المرحلة المدنية بعد ذلك بسرعة كبيرة.

فالمرحلة المكية هي التي أنجزت التحول الفكري والنفسي، وأرست الأساس العقدي للوعي السياسي والاجتماعي، وضربت في العمق مضغة الصراع الأساسية في المنطقة وهي قريش، حيث أخذت قوتها في الضعف والوهن مع مرور الزمن، كما تمخضت عن الأساس المادي الأول المكون للدولة والمجتمع وهو الإنسان المسلم الجديد، الذي لم يكن مجرد فرد أو مجموعات أفراد عاديين، انتقلوا من وضع اجتماعي إلى وضع آخر، بل كان **صفوة متميزة في غاية الامتياز**[1]؛ معرفيا وروحيا وسلوكيا. كما تمخضت بالإضافة إلى ذلك عن الأساس المادي الثاني للدولة والمجتمع، وهو الأرض التي تملك الدعوة السيادة عليها[2]، ممثلة في منطقة المدينة المنورة، التي ستكون نواةً لمجال جغرافي يتسع مع مرور الزمن لتقوم عليه الدولة الإسلامية.

بالإضافة إلى الأساس الدستوري القانوني الموضوعي، الذي تبلورت أصوله العقدية والأخلاقية وبعض مفرداته في السياسة والاجتماع... في الكم الكبير من الآيات القرآنية التي نزلت في المرحلة المكية* ؟!.، وغلب عليها الطابع التأصيلي **لكليات الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي**[3] وهو ما أخذ يبلور أساسا آخر يعد في منظور سنن الاستخلاف، ليس مقوما من مقومات الدولة والمجتمع فحسب، بل مقياسا أساسيا من مقاييس النضج السياسي والاجتماعي وشرطاً بالغ الأهمية من شروط الفعالية الحضارية ، وهو **الأساس الثقافي أو الوعي الاجتماعي**، الذي يضمن وحدة الدولة والمجتمع وتماسكهما، ومن ثم قوتهما في استيعاب التحديات، وقدرتها على التأثير في مجريات الأحداث.

فالدعوة نجحت من خلال تعميم وتعميق الوعي بكليات الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي ،في بناء أساس الوحدة الثقافية للصفوة القيادية الجديدة التي ستقوم على أكتافها وجهادها الدولة الإسلامية الجديدة ، والمجتمع الإسلامي الجديد بخصائصه الرسالية والإنسانية والمرجعية المتميزة .

ولم تقتصر إنجازات المرحلة المكية على ما سبق فقط، بل حققت مكسبا آخر في غاية الأهمية

---

(1) سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص10.
(2) ثروت بدوي، **النظم السياسية**، ص32.
* القرآن المكي كله وجزء هام من القرآن المدني لم يستثمرا بعد بعد هيمنة الاهتمام بآيات الأحكام على النشاط المعرفي للأمة ،رغم ما فيها من وعي سنني بالغ الأهمية؟!.
(3) الشاطبي، **الموافقات**، 3/304-312.

على الصعيد السياسي، وهو إحداث صدى كبير للدعوة في أجزاء واسعة و مناطق هامة، امتدت إلى الحبشة واليمن وغفار [1]... وشغل الرأي العام بها، وجعله يترقب نتائج المواجهة[2]، ويتهيأ تدريجيا لاستقبال الدعوة والإقبال عليها، كما حدث ذلك بعد فترة وجيزة بعد الهجرة.

إننا عندما نأخذ هذه المنجزات بعين الاعتبار، نلحظ فعلا أن المرحلة المكية تشكل حجر الأساس في استراتيجية بناء الدولة والمجتمع؛ لأن المراحل التالية ارتكزت فيها الدعوة في إنجاز أهدافها، على ما تم تحقيقه من مكاسب، وتوفيره من شروط بشرية ومادية ومعنوية، أعطت لحركة التغيير والبناء والمواجهة فعالية نموذجية، وضمنت أصالتها واطراديتها.

الفصل الأول

مرحلة تنظيم قاعدة الدولة

الإطار الزماني والمكاني للمرحلة:

الإطار الزماني: يمتد الإطار الزماني لهذه المرحلة ستة عشر شهرا تقريبا، يبدأ من وصوله ﷺ إلى المدينة، في 12 ربيع الأول، واستقراره بها بعد ذلك[3]، حتى غزوة بدر التي وقعت في 16 رمضان من السنة الثانية للهجرة[4]، ومع أن مدتها قصيرة، فإن الإنجازات التي تحققت فيها على كل المستويات كبيرة وعميقة، كما سنرى في تقييم هذه المرحلة في نهاية الفصل. وقد اعتبرنا غزوة بدر قمة منحنى هذه المرحلة، وبداية مرحلة أخرى في مسيرة الدعوة الإسلامية، لما أحدثته بدر من تأثيرات حاسمة في الموقف الداخلي للدعوة، وفي موقف الرأي العام بالمدينة ومحيطها وأجزاء واسعة من الجزيرة العربية، وفي موقف قريش كمحور للمواجهة.

فبدر كانت منعطفا هاما في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، أوجدت ظروفا جديدة، وفرضت

---

(1) الطيب برغوت، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها خلال الفترة المكية**،(المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، الولايات المتحدة الامريكية 1416هـ- 1996) ص441 وما بعدها.

(2)ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**،7/398.

(3) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين** 8/3، ابن حجر، **فتح الباري**، 7/238.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، (دار القلم، بيروت، (د .ت) 2/257.

واقعا جديدا على المجتمع الإسلامي الناشئ، وعلى الرأي العام عامة، وعلى قريش التي سيتحكم الوضع الجديد تحكما حادا في موقفها بعد ذلك.

الإطار المكاني : يشمل الإطار المكاني للدعوة في هذه المرحلة، المدينة المنورة ومحيطها بالخصوص، بالرغم من أن سراياه ﷺ وصلت إلى جهات عديدة[1]، وعقد الصلح مع بعض القبائل[2]، إلا أن حالة عدم الاستقرار كانت سائدة، إذ كان الأعراب يتربصون بالمدينة الفرص[3]، خاصة وأن حالة من الغموض كانت تسود الموقف، فيما يتعلق بمستقبل الدعوة بعد إخراج قريش للرسول ﷺ، في مؤامرة سارت بأخبارها الركبان، زيادة على التبعية السياسية لكثير من القبائل لقريش، واستعدادها للتعاون معها ضد الدعوة.

إن هذه الاعتبارات المختلفة جعلت الإطار المكاني للدعوة في هذه المرحلة، محصورا بالمدينة ومحيطها، وإن كانت الدعوة قد انتشرت في جهات عديدة قبل ذلك كما رأينا في تقييم منجزات المرحلة المكية، ولكن ظل العديد ممن أسلموا أفرادًا موزعين في مناطق كثيرة في الجزيرة العربية، بل وذهب عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة كما هو معروف[4]، وقد كان لسياسته ﷺ بمكة، تأثير على ذلك؛ لأنه كان حريصا على الانتشار الهادئ للدعوة، وإبعاد أتباعه عن مواقف ومواطن الاستفزاز[5]، و تأمين العمل الفردي المدروس لهم.

أهداف الدعوة في هذه المرحلة:

إن تتبع صيرورة أحداث الدعوة في هذه المرحلة، على ضوء الأهداف الكلية العامة، في الوعي العقدي، والوعي التسخيري، والاستخلافي من ناحية، ومنجزات المرحلة المكية من ناحية وثانية، والتحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة الانتقالية السريعة بالمدينة من ناحية ثالثة، يمكّننا من استخلاص المحاور الكبرى لأولويات الدعوة في هذه المرحلة، والتي يمكن بلورتها في ثلاثة أهداف كبرى، شكلت معا عمق الإطار الكلي لاستراتيجية الدعوة في هذه المرحلة، وإن كان كل منها ينطوي في ذاته على أهداف فرعية عديدة يمكن للدراسات الاستقصائية تتبعها:

- مواجهة التحديات التي طرحها الوضع الانتقالي الجديد للدعوة بالمدينة خاصة ومكة عامة.
- ضمان استمرارية حركة الدعوة والبناء والمدافعة الاجتماعية.
- الشروع في خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة.

مواجهة تحديات الوضع الانتقالي الجديد للدعوة: ونقصد به، ما أفرزته حركة المواجهة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية مع محور المعارضة الجاهلية: قريش- وأولياؤها من مشكلات من جهة، وما نجم من مشكلات جديدة إضافية بسبب تحول مركز الدعوة السياسي والاجتماعي إلى

---

(1) البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**،تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت،1405هـ- 1985)، 3/8-17.

(2) البيهقي، **دلائل النبوة**، 3/10.

(3) ابن سيد الناس محمد بن محمد بن محمد اليعمري، **عيون الأثر في المغازي والسير**، تحقيق: محمد العيد الخضراوي، ومحيي الدين مستو ،(مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1413هـ 1992)، 227/1.

(4)الطيب برغوث، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها**، 441/1؛ ابن هشام، **السيرة**، 344/1.

(5)برغوث، **المرجع السابق**، 362/1-366.

المدينة من جهة أخرى.

فالدعوة في هذه المرحلة معنية بشدة بمواجهة المشكلات القديمة، التي تراكمت من المواجهة الطويلة مع قريش في مكة، وجلها اجتماعي كما سنرى في التحديات، كما أنها معنية بمواجهة الأوضاع الاجتماعية والسياسية القديمة والجديدة بالمدينة، وهي كثيرة ومعقدة، لضمان تماسك المجتمع الناشئ، وتعبئة إمكاناته البشرية والمادية والمعنوية، وشحذ فعالية آدائه في الدعوة والبناء والمواجهة.

ويندرج في هذا السياق كذلك، مواجهة الإفرازات الخارجية -السياسية- للموقف، والتحسب لما يمكن أن يتمخض عنه موقف قريش والقوى الأعرابية المحيطة بالمدينة، من تأثيرات سلبية على وضع المجتمع الناشئ، المحفوف بتحديات داخلية كثيرة. زيادة على ضرورة حماية صدى الدعوة السياسي، الذي تحقق في المرحلة المكية، وكان من مكاسب الدعوة الهامة، التي يجب أن تثمّن وترعى وتستثمر، كرصيد في غاية الأهمية، ترتكز عليه الدعوة في حركة التوسع والانتشار والاستيعاب والوقاية كذلك.

وكما هو واضح، فإن هناك محاور عديدة تتحرك عليها الدعوة في هذه المرحلة، بعضها داخلي، اجتماعي وسياسي، وبعضها خارجي: سياسي وأمني، والكل يندرج في أولويات المرحلة، ويحتاج إلى سرعة التحقيق ودقته من جهة، وإلى تكامليته وانسجامه مع بقية مكونات وعناصر الخطة العامة للدعوة والبناء والمواجهة من ناحية أخرى.

ضمان استمرارية حركة الدعوة والبناء:وبالإضافة إلى الأولوية السابقة التي كانت تلقي بثقلها على قيادة الدعوة ، فإن الدعوة لم تُستوعب كلية من هذه التحديات المكثفة والمعقدة، الضاغطة بقوة على قيادة الدعوة وقاعدتها[1]، وعلى الرأي العام أو قاعدة المجتمع بصفة عامة، بل تمحور همها كذلك حول الأهداف الاستراتيجية الأصيلة للدعوة، فحرصت على ضمان استمرارية تأسيس وتعميق الوعي العقدي، والتسخيري والاستخلافي، وأعطت لذلك أهمية كبيرة جدا، وربطت على الصعيد الانجازي، بين الهدفين والأولويتين، فخدمت كل منهما الأخرى، ولم تؤثر فيها سلبا، وهو الأمر الصعب الذي لا يتاح تحقيقه بسهولة حتى لكبار القادة والساسة والمصلحين الذين كثيراً ما تستوعبهم التحديات الآنية وتستهلك جل اهتماماتهم وأوقاتهم ، على حساب الأهداف والمقاصد الكلية للحركة .

لقد استهدفت الدعوة في هذه المرحلة -كما في كل المراحل- **تعميق وعي قاعدة الدعوة** -الصفوة- وشحذ فعاليتها المعرفية والروحية والسلوكية، والارتقاء بها إلى مستوى المهام الرسالية الإنسانية المنوطة بالأمة الجديدة، وإلى مستوى التحديات الكبرى التي تطرحها حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد باستمرار. فلم يغفل ﷺ لحظة عن تأسيس الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، لقاعدة الدعوة، وتعميق إحساسها بمسؤولياتها الذاتية والرسالية الجسيمة.

كما لم تغفل الدعوة كذلك عن حركة **البلاغ والتبشير والاستيعاب**، بل ظل حرصها شديدا على تحقيق الانتشار المستمر، واحتواء أفراد وجماعات جديدة، وضمان تواصل عملية التعريف بالإسلام، واستقطاب اهتمام الناس به، مهما كان بعدهم عنه ونفورهم منه أو عداؤهم له[2].

كما اهتمت الدعوة في هذه المرحلة أيضا، بالشروع الجدي في **البناء المؤسساتي للدولة والمجتمع**، وتحويل القيم المعرفية والفكرية تدريجيا إلى قيم ثقافية واجتماعية وسياسية حية، مجسدة في العلاقات، والأنظمة، والمواقف، والأعراف، والتقاليد، والعادات المهيمنة على حياة الناس وسلوكهم في

---

(1) القسطلاني، أحمد بن محمد، **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، تحقيق: صالح أحمد الشامي،(المكتب الإسلامي، بيروت، 1411هـ- 1991)، 236/1.

(2)رؤوف شلبي، **الدعوة في عهدها المكي، مناهجها وغاياتها**، (دار القلم، الكويت، ط3، 1402هـ-1982م)، ص232.

المجتمع. فقد حرص عليه الصلاة والسلام منذ البداية ،على استحداث مؤسسات وأنظمة دستورية[1] واجتماعية وثقافية وعسكرية[2]، بحسب حاجة الدعوة والدولة والمجتمع، وإعادة النظر تدريجيا في الأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة في مجتمع المدينة التقليدي، لتبني واستصحاب ما هو مفيد منها، وإدراجه في بنية المجتمع الإسلامي الجديد، والتّخلي أولا بأول عن كل ما هو غير مفيد ومتناقض مع سنن التسخير والاستخلاف، واستثمار بعضها الآخر مرحليا في التمكين للدعوة، مع التخفيف من مضاعفاته وتقليص ظله على الحياة الجديدة مع مرور الوقت*

الشروع في إنجاز خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة: والمحور الثالث لأولويات الدعوة في هذه المرحلة ،هو الشروع في إنجاز خطة **التطويق والتفكيك للقوى المضادة للدعوة**، سواء تعلق ذلك بمراكز القوى المناهضة للدعوة بالمدينة ذاتها؛ كاليهود والمنافقين... أو بالكتلة الرئيسة للمواجهة، التي كانت قريش تشكل نواتها الصلبة، المحيطة بالقوى الأعرابية الشرسة، والمعززة بقبائل عديدة ذات أهمية كبيرة كثقيف وهوازن وخزاعة...

فالدارس لاستراتيجية الدعوة في هذه المرحلة، يلحظ مدى التوازن الدقيق في عملية إنجاز الأولويات الثلاثة، رغم إلحاح وضغط الأولويات الداخلية ذات الطابع الاجتماعي بالخصوص -كما سنرى ذلك في التحديات لاحقا- فقد حرص الرسول ﷺ على ضمان توازن حركته على هذه المحاور جميعا، وجعلها تخدم بعضها بعضا، وتعزز أداء الدعوة في مواجهة تحديات المرحلة، وتحقيق أهدافها بفعالية.. ولذلك أعطى أهمية للحركة الخارجية بجانب الحركة الداخلية، فبادر إلى تطويق القوى المضادة وتفكيك وحدتها، وشل فعالية أدائها السياسي والعسكري تدريجيا، من خلال **الاستيعاب والتحييد والمواجهة** ، كما سنرى لاحقاً

وقد كان ﷺ دقيقا فيما يتصل بمحور الصراع ومضغته الأساسية، حينما ركز على تطويق قريش وتفكيك فعاليتها الاجتماعية والسياسية، ولم ينتظر، ولم يستعجل النتائج في الوقت نفسه، فبادر إلى إنجاز عملية التطويق والتفكيك بسرعة ودقة وتدرج وشمول، بعد وقت قصير من استقراره بالمدينة، واستثمر بفعالية، ما أتيح له من ظروف، وتوفر له من إمكانات بسيطة، آتت ثمارها المدهشة، كما سنرى في تقييم منجزات المرحلة فيما بعد.

وعلى المستوى الداخلي استهدف كذلك تطويق وتفكيك القوى المضادة للدعوة والدولة والمجتمع بالمدينة، وفك الارتباط فيما بينها من جهة، وبينها وبين مضغة الصراع ومحوره -قريش- من جهة أخرى.

تحديات الدعوة في هذه المرحلة: أكدنا في فصل سابق* أن عملية الاستخلاف محكومة في صيرورتها التاريخية بسنن **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من الناحية المبدئية العامة، وبسنن **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من الناحية الانجازية. ولاحظنا كيف يشكل **الابتلاء ناظم الحركة الاستخلافية** ومؤطرها المحوري، الذي ينعكس الموقف منه والوعي به على باقي السنن الأخرى بعد ذلك، بحسب طبيعة هذا الوعي ومدى شموليته ومطابقته لواقع الفطرة الكونيةكما خلقها الله، أو جزئيته وبعده عن هذه الفطرة ومناقضته لها.

---

(1) برهان زريق، **الصحيفة ميثاق الرسول**، (دار النمير، دمشق، 1996)، ص342.
(2) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**،315/1؛ شيت خطاب، **الرسول القائد**، ص85.
* كما حدث بالنسبة للنظام القبلي الذي كان سائداً، فوظفه مرحلياً.

ومن هذا المنظور نتحدث هنا عن التحديات التي واجهت الدعوة الإسلامية في مرحلة بناء الدولة والمجتمع؛ لأن الإسلام يحلل ويفسر الفعل الاستخلافي البشري، في أصالته وفعاليته وتجدد حيويته، أو في قصوره وسلبيته واضطرابه واهتلاكيته، في ضوء طبيعة ومستوى الوعي **بقانون الابتلاء** وانعكاساته على بقية المنظومات السننية الأخرى المذكورة آنفاً.

ونقصد بالتحدي[1] هنا: ما يعترض طريق الإنسان من صعوبات تحول بينه وبين تحقيق تكيّفه وتوازنه الفعال ، ويمنعه أو يحجزه عن الاستثمار الأمثل لميزانيته التسخيرية، في تحقيق وظيفته الوجودية في الحياة، والاستمتاع بها، سواء أتى ذلك من عوامل ذاتية أو خارجية: نفسية أو فكرية أو اجتماعية أو طبيعية أو كونية عامة... فكل ما يحدّ ويقلل من أصالة وفعالية وتجدد حيوية الفعل الاستخلافي الإنساني، يندرج في مفهوم التحديات التي تطبع الحياة البشرية، وتشكل **أساس الفرز والتمايز** بين البشر في عالمي الشهادة والغيب كما سبق بيان ذلك أثناء الحديث عن كلية الابتلاء.

فالدعوة الإسلامية كحركة تأسيس للوعي العقدي والتسخيري، والاستخلافي، وتغيير للواقع الإنساني على ضوء ذلك، شملها قانون الابتلاء، وتعرضت لتحديات متلاحقة في كل مراحل مسيرتها، وهو ما جعلنا نهتم بإبراز هذه القضية في الخطة المنهجية المعتمدة في دراسة المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة بناء الدولة.

وقبل أن نتحدث عن أهم التحدياتالتي واجهت الدعوة في هذه المرحلة، نلحظ أنه يمكن استيعاب هذه التحديات –على المستوى المنهجي– من خلال تقسيمها* إلى:

تحديات خاصة بالدعوة وقيادتها.

وتحديات خاصة بقاعدة الدعوة.

وتحديات خاصة بقاعدة المجتمع أو الرأي العام.

وهو ما سنحاوله هنا، ولكن دون تقيد بشكلية هذا التقسيم، للتداخل الكبير الذي لاحظناه بين هذه التحديات، مما قد يؤثر سلبا، بعض الشيء على عملية الاستيعاب لهذه التحديات من جهة، وعلى استيعاب قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة بعد ذلك من جهة ثانية.

هشاشة الوضع الانتقالي للدعوة بالمجتمع المدني: وأول مشكلة شكلت تحديا جدّيا للدعوة بعد الهجرة، هي هشاشة الوضع الانتقالي لها بالمدينة، وحاجتها العاجلة إلى توطين نفسها، وتعزيز موقعها لمواجهة الأخطار المحدقة بها داخليا وخارجيا.

فالمسلمون في بداية هذه المرحلة الانتقالية مازالوا قلة، والوضع السياسي والاجتماعي بالمدينة هش جدّا، بسبب التنافر المستحكم بين القوى الاجتماعية الثلاثة؛ الأوس والخزرج واليهود[2]،.بالإضافة إلى القوى الرابعة التي أخذت تبرز تدريجيا ممثلة في المنافقين[3] الذين تحسسوا من الدعوة، وراح تذمرهم يتصاعد، خاصة بفعل تغذية اليهود له بطرق شتى[4]، زيادة على تعدد مراكز القرار السياسي

---

*الفصل الثاني من الباب الأول.

(1) توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، 1/275–406.

* أشرنا إلى هذا التقسيم من باب الاستفادة منه في دراسات مماثلة ، وقد طبقناه في دراسة سابقة عن المرحلة المكية .

(2) ابن عبد البر، **الدرر**، ص67.

(3) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 1/351.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، 2/160.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالمدينة[1] تبعا لهذا التعدد الاجتماعي المتباين والمتناقض.

إن كل هذه الأوضاع المتباينة، كانت تشكل خطرا كبيرا على الدعوة في بداية تحولها وتشكلها السياسي والاجتماعي، خاصة وأن قريشا وحلفاء ها من الأعراب ظل أمر الرسول ﷺ وقاعدة دعوته يؤرقهم ويستأثر باهتمامهم، وكان من المحتمل جدًّا أن تنتهز هذه القوى المتربصة بالدعوة في الداخل والخارج، هشاشة الوضع الاجتماعي والسياسي للدعوة والمجتمع، وتقوم بأعمال عسكرية أو سياسية تربك بها قيادة الدعوة، كاغتياله ﷺ مثلا[2]، أو الهجوم على المدينة، كما حدث فعلا حينما أغار (كرز بن جابر الفهري) على ضواحي المدينة[3]، وكما فعلت قريش في غزوة بدر[4]، حينما قررت تأديب المسلمين وكسر شوكتهم، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار، أن أحد كبار القادة الروحيين بالمدينة (أبو عامر الراهب)، قد التحق بمكة مبكرا، احتجاجا على إتباع قومه للرسول ﷺ ومعه جمع من الناس[5]، أخذوا يعدون أنفسهم مع القوى الرئيسة الأخرى لأعمال ضد الدعوة والدولة والمجتمع.

حساسية الموقف الاجتماعي والسياسي للدعوة في هذه المرحلة: والتباين والاختلاف الحاد في أوضاع المجتمع المدني في هذه المرحلة الانتقالية، من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية، يطرح بحدة مشكلة التعامل مع هذه القوى الرئيسة:

المسلمون الموزعون بين الأوس والخزرج بمرجعيتهما التاريخية المتنافرة، التي ما تزال حية في الذاكرة الجماعية للفئتين، كما يدل على ذلك حادث «باث» الأليم، الذي شكل إحدى الحوافز المهمة في إقبال الأنصار على الإسلام في بداية الأمر[6].

واليهود بتراثهم الثقافي والديني، وسلوكهم السياسي الانتهازي، وحرصهم على المحافظة على مركزهم[7] الاقتصادي والاجتماعي المتميز.

والمنافقون كقوة اجتماعية وسياسية ثالثة، توظف الجميع، ولها القابلية للتوظيف من الجميع.

فبالإضافة إلى الصراع الاجتماعي والسياسي والثقافي بين هذه القوى المتباينة، وما يتركه ذلك من أثر على الدعوة والدولة والمجتمع، فإن التعامل معها كان مشحونا بالحساسية والدقة؛ لأن كل فئة من هذه الفئات حريصة كل الحرص على تعزيز مركزها الاجتماعي في الأوضاع الجديدة، التي أخذت تتبلور معالمها شيئا فشيئا. وأي خطأ في التقدير لهذا العامل سيترك بصماته السلبية على حاضر الدعوة والدولة و المجتمع ومستقبلهما.

ونلحظ هذه الحساسية في التنافس الحاد بين جماعات الأنصار في إيواء[8] الرسول ﷺ، ولجوئه إلى وسيلة ذكية تجنبه آثار هذه الرغبات المتباينة[9]، التي كان على وعي تام بها. كما نلحظه في

---

(1) نبيه عاقل، **تاريخ العرب القديم وعصر الرسول**،(دمشق، د.ن، ط2، 1992)، ص437.

(2)شراب، محمد محمد حسن، **المدينة المنورة في فجر الإسلام والعصر الراشدي**،(دار القلم, دمشق، الدار الشامية، بيروت، 1415هـ 1994م)، 132/1.

(3)ابن هشام، **السيرة النبوية**، 251/1.

(4)ابن هشام، **المرجع نفسه**، 257/2.

(5)**المرجع نفسه**، 71/3.

(6)**المرجع نفسه**، 70/2.

(7)القسطلاني، **المواهب**، 332/1.

(8) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (عيسى الحلبي، القاهرة، ط2، 1389هـ- 1973م)، 27/2.

(9) ابن كثير، **المرجع نفسه**، 273/1-280.

الموقف الظاهري لليهود الذين كانوا يوظفون بعض القضايا المشتركة بين الإسلام واليهودية[1]، وبعض المواقف الحركية للدعوة، لتعزيز موقفهم لدى الرأي العام، خاصة وأنهم كانوا قبل ذلك يتوعدون اليثربيين بظهور نبي يكون معهم ضد خصومهم[2].

مشكلة الاندماج والانسجام الاجتماعي: إذا كانت فعالية الأداء الاجتماعي للمجتمع، مرتبطة بتماسكه النفسي والفكري والاجتماعي، فإن الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة بالذات، كانت تعاني من عدم الانسجام الاجتماعي، بسبب هذا التباين والاختلاف التنافري بين المكونات البشرية والثقافية والاجتماعية للمجتمع، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا دون شك من المعوقات الكبيرة في وجه الاندماج والانسجام والتلاحم الاجتماعي الذي تحتاجه حركة التحول في مثل هذه المرحلة الحاسمة في مسيرة الدعوة الإسلامية.

ونخص بالذكر هنا مشكلة الاندماج الاجتماعي للمهاجرين، وتسوية أوضاعهم الاجتماعية الصعبة، بسبب ما لحق قاعدتهم المادية والاقتصادية عامة، من تدمير كبير في مكة، من جراء المصادرات والاستحواذ والتخريب[3] الذي تعرضت له من طرف خصوم الدعوة قبل الهجرة وبعدها[4]. لذلك كانوا في حاجة ملحة إلى تسوية أوضاعهم الاجتماعية، وتأسيس موقعهم الاجتماعي مجددا، وتخليصهم من الإحساس بالدونية والحرج والممنونية والكَلّية، حتى يتفرغوا لمهام الدعوة والبناء والمواجهة، ويمنحوها جهدهم، في وقت هي أشد ما تكون احتياجاً إلى فعالية الصفوة الأولى من قاعدتها البشرية.

فالمهاجرون الذين أخذت أعدادهم تتزايد مع مرور الوقت، كانوا في حاجة إلى إعادة تكييف نفسي واجتماعي مع الوضع الجديد، وإلا تعرضت فعاليتهم الثمينة لخطر التبديد، وحرمت الدعوة من أعظم طاقة تسخيرية لها، خاصة أن ظروف بعضهم قد بلغت مستويات صعبة، كما يلحظ ذلك في وصف طعام ولباس بعض أهل الصفة، الذين كانوا يوصفون من قبل الأعراب بالمجانين من شدة ضعفهم وهزالهم[5]، وكانوا يخجلون من الظهور بملابسهم أحيانا لأنها لا تسترهم سترا كاملا؛ ولأنها متسخة من طول الاستعمال[6].

ولعل في دعائه ﷺ للمهاجرين بقوله: «**اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم**»[7]، ما يشير فعلا إلى الأوضاع النفسية والاجتماعية الصعبة التي كانت تجتازها هذه الصفوة الممتازة في هذه المرحلة الانتقالية من مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع.

مشكلة تطويق المستضعفين وتعويق حركة الهجرة: المشكلة الأخرى التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة بالخصوص، هي مشكلة تطويق المستضعفين في مكة خاصة، والعدوان عليهم وعلى أرزاقهم ونفوسهم، وتشديد الرقابة العائلية والاجتماعية عليهم، ومنعهم من الهجرة والالتحاق بقاعدة

---

(1) الطبري، **جامع البيان**، 5/2؛ ابن كثير، **التفسير**، 332/1 وما بعدها.

(2) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 339/1.

(3) ابن سيد الناس، **المرجع نفسه**، 287/1- 290.

(4) ابن كثير، **السيرة**، 223/2.

(5) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 68/8- 119؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (دار الفكر، بيروت، د.ت)، 339/1.

(6) أخرجه البخاري في **صحيحه**، 114/1؛ الأصفهاني، **الحلية**، 1/ 341- 342.

(7) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، (**فتح الباري**، 316/7)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدولة الجديدة، ومحاولة فتنتهم والتأثير على التزامهم الرسالي، وإعادة استيعابهم ثقافيا واجتماعيا، وتكثير سواد القوى المضادة للدعوة بهم، كما حدث لبعض من اضطرتهم قريش للخروج معها في بدر ليلقي مصرعه هناك[1].

فقريش بعد أن أفلتَ منها عدد من المهاجرين، وصدمت بخروج الرسول ﷺ إلى المدينة، عَدَتْ على ضعفاء المسلمين بمكة، وعملت على منعهم من الهجرة، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك، عندما كانت تحتال لاسترجاع بعض المهاجرين[2]، وتهدد بقيتهم بأنها ستذهب إليهم وتستأصلهم وتبيد خضراءهم بالمدينة[3]، وترهب الأنصار وأهل المدينة عامة بإيوائهم المسلمين، وتستعديهم عليهم[4]، وتدأب في تنفير الناس عامة والمسلمين خاصة من الهجرة، عن طريق إشاعة صورة مزرية ومخيفة عن محنتهم الاجتماعية بالمدينة، وما لحق بهم من العنت والإهانة والخوف والفاقة والتدهور الصحي[5]...

ولا يخفى ما لتعويق حركة الهجرة من آثار سلبية على حركة بناء الدولة والمجتمع وضمان حمايتهما، وعلى حركة استكمال بناء وعي الصفوة الرسالية وتوحيد رؤيتها، في ظرف دقيق بالنسبة للدعوة، تحتاج فيه إلى تجميع قواها، وتكثير سوادها، وشحذ وعي قاعدتها القيادية، وضمان حماية وجودها، ومنجزاتها، وهو ما كان ﷺ يقصده من وراء التأكيد على الهجرة[6]، وكانت القوى المضادة بالمدينة ومكة بالخصوص على وعي كبير به، فعملت بكل قواها على تطويق قاعدة الدعوة وتعويق حركة الهجرة.

المضاعفات السلبية للجدل الثقافي والحرب النفسية: وهي مشكلة قديمة، عانى منها المسلمون كثيرا في المرحلة المكية، لكنها في هذه المرحلة الانتقالية، أخذت أبعاداً أكثر شمولية وحدة، وأشد وقعا على النفوس، لهشاشة الوضع في بداية الأمر كما لاحظنا ذلك سابقا. زيادة على أن المواجهة الثقافية والحرب النفسية، تولى كبرها اليهود، بتراثهم الديني الكبير، وتاريخهم الرسالي الطويل، ومركزهم المعنوي والاقتصادي المتميز[7] بالمدينة والمنطقة عامة، يشايعهم في ذلك وينفذ مخططاتهم المنافقون الذين كانوا يمثلون بدورهم قوة نفوذ لا يستهان بها، لانتماء أكثرهم إلى الفئات الغنية[8] ذات المصالح الكبرى بالمجتمع المدني من ناحية، ولكون هذه الفئات أصيلة في المجتمع، ترتبط بعشائره وبطونه الأوسية والخزرجية بروابط الدم والقرابةوالصلات الاجتماعية المختلفة، وهو ما يعقد عملية التصدي لهم[9] من جهة أخرى، ويمنحهم مرونة فعالة في إنجاز مهمتهم الخطيرة.

---

(1) ابن هشام، **السيرة النبوية**، 294/2؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، 2/ 456.
(2) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 120/2.
(3) البيهقي، **دلائل النبوة**، 6/3.
(4) أخرجه أبو داود في **السنن**،كتاب الخراج والإمارة، باب خير النغير، 156/3.
(5) ابن عبد البر، **الدرر**، ص208.
(6) ابن حجر، **فتح الباري**، 313/7.
(7) عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص 326.
(8) إبراهيم بيضون، **الأنصار والرسول**.

فالجدل الثقافي المؤطّر بالحرب النفسية المكثفة، أخذ يحتد بين الرسول ﷺ وقاعدة دعوته من جهة، وبين جماعات التعويق والبلبلة في المدينة منذ وقت مبكر من جهة أخرى، وتركز حول ضرب مرجعية الدعوة والتشكيك فيها، وهزّ مركز قيادتها[1]، وامتد ليطال شخصية المجتمع الإسلامي الوليد، من خلال وصم أفراده بالسفة والدونية والسذاجة العقلية والإمعية والعمالة[2] .. كما يوحى بذلك في تسجيل القرآن لإحدى مشاهد الصراع الثقافي مع القوى المناوئة للدعوة والدولة والمجتمع، والتي تبدو فيها مضاعفات الحرب النفسية وصداها السلبي في نفوس بعض المسلمين من جراء الطنين المستمر قال ذلك:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

إلى قوله تعالى:﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[3].

وتذكر كتب السيرة وقائع صرف فيها الرسولﷺ بعض أصحابه عن إشغال أنفسهم في هذه المرحلة بأخبار بني إسرائيل الدينية، كما فعل مع عمر بن الخطاب، ومع غيره حينما تكرر سؤالهم له عما كان يحدّث به اليهود، فقال لهم في توجيه عام يخفف به آثار هذا الجدل الثقافي عليهم: **{لا تصدقوهم ولا تكذبوهم}**.

فالجدل الثقافي والحرب النفسية الموجهة لضرب التماسك الفكري والنفسي والسّلوكي والاجتماعي للفرد والدولة والمجتمع، أخذت وتائرها تحتد مع مرور الزمن، وتأخذ أشكالا متنوعة، وتستثمر كل المبادرات والممارسات التي تنهض بها الدعوة لتغيير الواقع، وبناء الدولة والمجتمع، لزرع البلبلة، وإشغال الناس، وصرف طاقة المجتمع خارج مسارها الصحيح، كما يبدو ذلك على سبيل

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة البقرة، الأية: 104-109 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المثال في الموقف من تحويل القبلة، وكيف أثير حوله جدل كبير، وكما يظهر أيضا في التحرُّيش بين الأوس والخزرج عبر استدعاء تاريخ الصراع بينهم، واستثماره في فصم عرى الوحدة بينهم. وكما في استغلال الفعل الجهادي الذي قام به عبد الله بن جحش في الأشهر الحرم[1]، في التشنيع على الدعوة وقيادتها، ومحاولة تشويه سمعتها لدى الرأي العام. وكما في إشاعة مقتل الرسول ﷺ وانهزام المسلمين هزيمة منكرة ببدر[2]... وغيرها من وقائع وأحداث تدل فعلا على مدى الصعوبات التي كانت تواجهها الدعوة والدولة في هذه المرحلة الحساسة من مسيرتها.

خطر المواجهة المبكرة غير المتكافئة مع القوى المضادة: بجانب كل هذه التحديات السابقة، كان هناك تحد آخر أكثر خطورة وهو المواجهة المبكرة غير المتكافئة بين قريش وحلفائها في الداخل*والخارج من جهة، والدولة الإسلامية «الجنينية» الناشئة من جهة أخرى خاصة وأن قريشا أدركت جيدا المخاطر الجدية التي باتت تهدد مركزها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.. من جراء آثار الهجرة، ومضاعفات تزايد نفوذ القوة الإسلامية الوليدة، التي راحت تهدد تجارتها[3] وسمعتها، وتضرب تماسك المجتمع المكي وتفرغه من قواه الحيوية مع مرور الوقت.

فالمسلمون بالمدينة في هذه المرحلة بالخصوص، كانوا كما وصف حالهم أبي بن كعب:"... رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه"[4]. من شدة ما كان يحيط بهم من تحديات ويكتنف وجودهم من مخاطر، وقد كان الرسول نفسه محروسا من قبل الصحابة خوفا عليه[5]، خاصة وأن قريشا توعّدتهم بضربهم في عقر دارهم، واستعدَت عليهم المنافقين واليهود بالمدينة[6].

وفي تعقيب القرآن على أحداث بدر، نلحظ مدى إحساس المسلمين الحاد بمخاطر المواجهة المبكرة في هذه المرحلة، لإدراكهم أن موازين القوة بينهم وبين القوى المتربصة بهم غير متكافئة تمامًا، وهو ما يعرض وجود الدعوة والدولة والمجتمع لمخاطرجمة[7]، كما يؤكد ذلك القرآن في وصف الحالة النفسية لفئات من المؤمنين، وهم يفاجؤون بما كانوا لا يتمنون وقوعه إلا بعد حين كما قال تعالى:﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ ﴾[8].

وقد وقعت المواجهة فعلا بعد فترة وجيزة من الهجرة، وكانت تحديا حقيقيا، كما كان المسلمون

---

(1) القرطبي ،**أحكام القرآن**، 44/3.

(2) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، **أنساب الأشراف**، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، مصر،1959)، 294/1.

* اليهود والمنافقون بالمدينة.

(3) ابن هشام، **سيرة ابن هشام**، 252/2–257.

(4) البيهقي، **دلائل النبوة**، 6/3.

(5) الطبري، **جامع البيان**، 308/4.

(6) أبو داود، **السنن**،كتاب الخراج، باب خبر النغير، 165/6؛ البيهقي، **دلائل النبوة**، 179/3.

(7) السيوطي، **الدر المنثور**، 47/4.

(8) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 5–6.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يستشعرونه فعلا؛ لأن تفاديه له ثمنه السياسي الباهظ ومواجهته كذلك، بحسب موازين القوة المعهودة. فالتراجع يضر سمعة الدعوة والدولة والمجتمع، ويجرّئ عليها القوى المناوئة في الداخل والخارج، كما توقع ذلك أبو جهل حينما برّر ضرورة المواجهة بقوله: "تسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها"[1]، وكما توقعت كذلك القوى المضادة بالمدينة، وراحت تشيع البلبلة والهلع في نفوس المسلمين وتفرح لهزيمة الدعوة[2]. والمواجهة مغامرة أخطر. لأن الانكسار فيها -في الظروف المعقدة التي تعيشها الدعوة والدولة والمجتمع- أمر لا ينجبربسهولة، وعواقبه مميتة.

إفرازات الفراغ القانوني وسلطان المواريث الثقافية:ومن المشكلات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة كذلك، إفرازات الفراغ القانوني أو التشريعي، الذي كان يترك المجال لهيمنة المواريث النفسية والثقافية والاجتماعية الجاهلية لتفعل فعلها السيء في شبكة القيم النفسية والعلاقات الاجتماعية لقاعدة الدعوة والدولة والمجتمع.

فالدعوة في هذه المرحلة وهي تتحول إلى واقع اجتماعي وسياسي منظم، كانت تواجهها مشكلات ميدانية كثيرة، لم يتم ضبطها تشريعيا، أو استيعابها تربويا بعد، فتتم مواجهتها عمليا بالمواريث النفسية والثقافية والاجتماعية السابقة، التي كثيرا ما تفضي إلى التوتر النفسي والاجتماعي السلبي، الذي قد يؤثر على الفعالية الاجتماعية للدعوة والدولة والمجتمع؛ لأنه موروث مؤسّس على ثقافة نفسية واجتماعية مؤطرة بالمعطى الذاتي والقبلي بشكل حادّ، وهو لا يتناغم في كثير من الأحيان مع معطى الدعوة والدولة والمجتمع، المؤطر بقيم الغيريّة والواجب الاجتماعي، والوعي المآلي[3]، والانضباط الرسالي...

ولا يخفى ما لهذه التوترات النفسية والاجتماعية، من آثار سلبية على المراحل المقبلة من حركة الدعوةو مسيرة الدولة والمجتمع، سواء تعلق الأمر بتفاعلاتها الداخلية، أو بتوظيف القوى المضادة لها، لمضاعفة مفعولها السلبي داخليا، والإساءة إلى سمعة الدعوة والدولة والمجتمع على مستوى الرأي العام.

ونشير هنا على سبيل المثال إلى مفعول موقف تأطر بمواريث الثقافة النفسية والاجتماعية التقليدية[4]، وكان له وقع سيء أحس الصحابة أنفسهم به بعد ذلك[5]، وهو تنازعهم في غنائم بدر، ورغبة كل فئة أو فرد الاستئثار بها، وثار بينهم نقاش وجدل حول مبررات هذا النزوع الاستئثاري، لم يخل من آثار سلبية على النفوس ثم بعدها على العلاقات.. كما حذر من ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ﴾[6].قال القرطبي: "... فدل هذا على التصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، أو مالت النفوس إلى

---

(1) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 389/1.
(2) البيهقي، **دلائل**، 132/3.
(3) الشاطبي، **الموافقات**، 140/4.
(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 248/9.
(5) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 377/2.
(6) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 1.

التشاحّ"[1] والتنافر، ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة[2].

ولخص عبادة بن الصامت رضي الله عنه الموقف النفسي والسلوكي للعديد من الصحابة بقوله: "فينا نزلت أهل بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا"[3]. وفي مجيء الفعل «يسألونك» بصيغة المضارع دلالة على تكرر السؤال وتعدده[4]، فاستدعى ذلك نزول الوحي لمعالجة الموقف وتدارك الوضع بتقنين الأمور واستيعابها تربويا.

وبصفة عامة فإن الاستيعاب التشريعي والتربوي لحركة التحول النفسي والفكري والاجتماعي، كانت تواجهها مشكلات كثيرة في هذه المرحلة الحساسة، وفي مقدمة هذه المشكلات سلطان العادات والتقاليد والأعراف النفسية والاجتماعية... التي ما يزال الناس مرتبطون بها، ومنجذبون إليها في مواقفهم وتصرفاتهم واستجاباتهم عمومًا، مما يصعب مهمة الدعوة ويسهل مهمة خصومها نسبيا، كما نلحظ مثلا في استثمار قريش ومناوئي الدعوة بالمدينة لحادثة القتال الذي وقع في رجب الحرام بقيادة عبد الله بن جحش باجتهاد منه ومن أصحابه، دون أن يراعوا هذا العرف، ودون أن يؤذن لهم في ذلك، فاستُغل ذلك ضد الدعوة وأحدث ارتباكاًفي الموقف الداخلي للمسلمين، خاصة حينما توقف الرسول ﷺ في الأمر، وراح الناس يعنفون أصحاب السرية، وأخذ الموقف يتفاعل حتى نزل الوحي[5].

هذه بصفة عامة مجمل التحديات الفكرية و الاجتماعية والسياسية والأمنية التي واجهت الدعوة في هذه المرحلة الانتقالية الحساسة من مسيرتها،وشكلت عوائق حقيقية بإمكانها شل فعالية تحقيق أهداف المرحلة،وبالتالي تعقيد أوضاع الدعوة وموقفها في المراحل التالية .فكيف واجه عليه الصلاة والسلام هذه التحديات و فسح المجال أمام تحقيق أهداف المرحلة ؟

منهج الدعوة والبناء والمدافعة في هذه المرحلة:

نشرع الآن في الحديث عن **قواعد المنهج النبوي** في الدعوة والبناء والمواجهة، باعتبار ما يعني البحث بالدرجة الأولى هو **المنهج**، أي القواعد والكليات العقدية والتسخيرية والاستخلافية التي كانت تحكم «الدورة الانجازية» للفعل النبوي وتؤطرها باستمرار، وتضمن أصالة وفعالية واطرادية هذا الفعل في أبعاده المعرفية والاجتماعية والسياسية، ومن ثم قدرته على تحقيق أهداف الدعوة، واقتداره على مواجهة التحديات التي كانت تكتنف مسيرتها باستمرار.

وكما سبق أن نبهنا إلى ذلك، فإن الدعوة باعتبارها:

- مضمونا عقديا ومعرفيا وتشريعيا وأخلاقيا، شاملا لأصول الوعي بالدورة الوجودية للإنسان، ومستوعبا لكليات الوعي التسخيري والاستخلافي...
- وحركة بلاغ وبيان لهذا المضمون وتعريف به...
- وعملية تمثّل ذاتي شامل ومتوازن له...

---

(1) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 348/7.
(2) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 205/6.
(3) النسفي، **مدارك التأويل**، 134/2.
(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 248/9.
(5) ابن هشام، **السيرة**، 254/2.

– وحركة تجسيد وبناء لنموذجه الاجتماعي والحضاري في واقع الحياة الإنسانية...
– وحركة حماية لمنجزات ذلك كله وضمان لاستمراريته هي أداة التغيير والبناء والتحول الفكري والنفسي والاجتماعي والسياسي الأساسية، التي تعتبر الدولة وكذا المجتمع والحضارة في مراحل تالية، من آلياتها الاجتماعية والسياسية الأساسية، التي تجسد نموذجها الحضاري، الذي يمنحها فعالية إشعاعية أكثر شمولا وعمقا وامتدادا عبر الزمان والمكان، ويضمن حمايتها والمحافظة على منجزاتها البشرية والمعنوية والمادية..بفضل القوة التسخيرية الهائلة التي تتوفر للدعوة من خلال ذلك أي من تحولها إلى دولة ومجتمع وحضارة.

وإذا كانت الدعوة كمضمون رسالي، وكحركة تغيير وبناء ؛معرفي وروحي وسلوكي واجتماعي مطرد، ومن ثم منجزات فكرية واجتماعية وسياسية مجسدة، فإن من أهم ما تجب ملاحظته ورعايته هنا، هو قضية الحماية للدعوة والمحافظة على منجزاتها؛ لأنه بدون ذلك لا يمكن أن تتم عملية التغيير والتحول الفكري والنفسي والاجتماعي أبدا، خاصة عندما نضع في الحسبان أن عملية التغيير هذه، تتم في إطار **سنن التدافع والتداول والتجديد**، التي تجعل حركة البناء عسيرة أو مستحيلة، إن لم تحط برعاية مكثفة، ولم ترفع أمامها العوائق، ولم تحم من الاهتلاك الذاتي ومؤثرات التدافع الخارجي، ولم يحافظ على منجزاتها البشرية والمعنوية والمادية.

فعملية التغيير والبناء قائمة في الأصل السنني لها على **قوانين تراكم الجهود وتتابعها وتكاملها**، فإذا اختل أو تأخر أي منها، أثر سلبا على أصالة وفعالية واطرادية حركة التغيير والبناء، وهو ما يجعل عملية الحماية للدعوة والبناء مسألة حيوية جدًّا، لا تنفك عنهما أبدا، بل تتلازمان تلازما تاما ومطردا، بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال التفكير في الدعوة والبناء بمعزل عن الحماية لهما والمحافظة على منجزاتهما، في كل مراحل وأبعاد «**الدورة الانجازية**» للفعل الدعوي في أبعاده المعرفية والاجتماعية والسياسية ،وآفاقه الحضارية.

وهذه النظرة أصيلة وعميقة في الإسلام، وقد اهتدى إليها الفكر الأصولي مبكرا، واستخلصها من النظرة الكلية المتكاملة للقرآن والسنة والسيرة، ونبه في سياق الحديث عن الحفظ لمقاصد الشريعة في الخلق، إلى أن هذا الحفظ يكون بإقامة ما يوجدها أولا، ثم بدرء ما يسبب اختلالها ثانيا[1]. وهو قانون كلي مطرد في عملية التغيير والبناء عامة، إذ يجب أن يحافظ عليها من جانب الوجود، وتحمى من جانب التأثير السلبي في أصالتها وفعاليتها واطراديتها، وإلا دخل الجهد التغييري متاهة التآكل والاهتلاك الذاتي أو الاهلاك الخارجي، الذي لا يدع لحركة البناء أية فرصة **للتتابع والتكامل والتراكم** والنمو والتطور.

وفي القرآن والسنة اهتمام شديد بهذه المسألة، قد يكفي هنا التذكير بما جاء في ذم من عاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه كما يتجلى ذلك من قوله تعالى[2]:﴿ **وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا** ﴾[3]. فكل ما يؤثر في أصالة الجهد التغييري وفعاليته واطراد حيويته، قد أصل النص دفعه ورفعه وضرورة تجاوزه، توفيراً لشرط **التراكم البنائي المتدرج**، الذي تتوقف عليه

---

(1) الشاطبي، **الموافقات**، 7/2.
(2) القاسمي، **محاسن التأويل**، 153/10.
(3) **القرآن الكريم**، سورة النحل: 92.

عملية التغيير والتحول الفكري والنفسي والسلوكي والاجتماعي، وهو ما نبه إليه حديث رسول الله ﷺ عن أهمية بُعد الديمومة والاستمرارية في العملية التغييرية، والذي جاء فيه: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[1]؛ لأن القليل الدائم يزيد على الكثير المنقطع أضعافا مضاعفة[2] مع مرور الوقت.

والدعوة لكي يُحافظ على محتواها الرسالي، وتُضمن حركة تمثلها الذاتي وتبليغها إلى الآخرين وتجسيد نموذجها الاجتماعي في واقع الحياة، وتُحمى منجزاتها البشرية والمعنوية والمادية، وتُحقق بالتالي أصالتها وفعاليتها واطراد حيويتها، في ضوء سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من ناحية، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية أخرى ولابد لها من **منهج** في الفهم والتمثل والبلاغ والبناء والمواجهة، باعتبار المنهج أداة الاستيعاب والتحليل والتفسير ،والتوقع كمرحلة أولى في «**الدورة الانجازية**» للفعل الدعوي، ثم التخطيط لإعداد مشروع الفعل بناء على ذلك، بكل ما يستلزمه ذلك من فهم وموازنة بين الأهداف والعوائق والإمكانات والتوقعات كمرحلة ثانية في هذه **الدورة الانجازية**، ثم التنفيذ ومباشرة إنجاز الفعل، بكل ما يحتاجه ذلك من تنظيم وبرمجة وقدرات تسييرية وإشرافية ومتابعة، كمرحلة ثالثة، ثم الحماية لكل العمليات والمراحل السابقة، والمحافظة على نتيجة الفعل بعد ذلك، وضمان اندراجه الأصيل والفعال في حركة التغيير والبناء الكلية الفكرية والنفسية والسلوكية والاجتماعية والسياسية كمرحلة رابعة.

إن كل هذه العمليات والمراحل التي يمر بها إنجاز الفعل الدعوي، والشروط المرافقة لذلك لا يمكن أن تُستوفى، وتحقق أصالة هذا الفعل وفعاليته، وتضمن اطراد حيويته، بدون منهج ،أي **نسق معرفي وإجرائي منتظم في بنائه الداخلي، وتناغم مع كليات الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي،** يجعل الفهم والتخطيط والتنفيذ والحماية، منسجمة مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الاستخلافية، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد التسخيرية.

ونحن نعتقد أن الفعل النبوي صادر عن منهج محكم، يتميز ويمتاز بالأصالة والفعالية والاطراد، في نيته المعرفية والاجرائية الداخلية، وفي تطبيقاته العملية لإنجاز الأفعال الدعوية التغييرية، سواء تعلق ذلك بأفعال التمثل الذاتي لمفاهيم الدعوة وقيمها، أو بأفعال الإبلاغ لها والتعريف بها، أو بأفعال البناء والتجسيد لنموذجها الاجتماعي، أوبأفعال الحماية لذلك كله والمحافظة على منجزاته، فالكل عنده محكوم بمنهج، أي صادر عن نسقية معرفية وإجرائية منتظمة، في الوعي العقدي والتسخيري،والاستخلافي، لا تتخلف ولا تضطرب أو تتبدل، في أصولها وكلياتها وقواعدها الأساسية.

وهذا الذي نبحث عنه نحن في هذه الدراسة، التي تستهدف، ليس مجرد إبراز جوانب العظمة والإعجاز في حركة تغيير نموذجية فذة على المستوى الرسالي كله[3] فحسب، ولكن تحقيق التعميم بالدرجة الأولى، أي تجاوز نطاق الحركة الزماني والمكاني والإجرائي التنفيذي التكيّفي المرتبط بذلك، إلى تجريد ما فيها من سمات أو طبائع أو **روح سننية كلية عامة منتظمة**، تتميز بالثبات والعمومية والاطراد، التي تبدو معها أو في ضوئها أحداث ووقائع السيرة الجزئية، تجسيدًا زمنيا نموذجيا حيا لهذه الروح السننية أو القانونية العامة المطردة في الدعوة والبناء والمواجهة التي يجب أن تُستصحب[4] في تحقيق **المعاصرة الاستخلافية** النموذجية الأصيلة الفعالة المطردة، كما عناها القرآن في مثل قوله

---

(1) **صحيح مسلم** بشرح النووي، كتاب صلاة المسافر، باب: فضيلة العمل الدائم، 72/6.

(2) **المرجع نفسه**، 71/6.

(3) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 355/7.

(4) وهذا هو معنى التأسي الموضوعي به ﷺ (ابن القيم ، **التفسير القيم**، 318/3، البقاعي، **نظم الدرر**، 10 /243).

تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[1].

فالمقصود إذن من منهج الدعوة والبناء والمواجهة هنا، هو البحث عن هذه **الروح السننية الكلية المطردة** في فعله الدعوي ﷺ الذي أنجز عبره عملية التغيير والتحول الفكري والنفسي والسلوكي، والاجتماعي والسياسي.. وبنى به الدولة والمجتمع، وهيأ بواسطة ذلك كله مرحلة ظهور الحضارة الإسلامية بعدذلك.

وكما سبق أن لاحظنا في حديثنا عن التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة، فإن التقسيم المنهجي الذي نعتمده هنا في الحديث عن **قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة**، لا نراعي فيه ما يخص الدعوة وقيادتها على حدة، والدعوة وقاعدتها على حدة، والدعوة وقاعدة المجتمع على حدة، بل سنورد نماذج من هذه القواعد المنهجية بغض النظر عن الجانب الشكلي لهذه التقسيمات، لما لاحظناه من تداخل وترابط تفاعلي متكامل بين هذه القواعد، أي أن كل قاعدة تقريبا لا تخلو من تأثير وظيفي -وإن تفاوتت نسبته- في المجالات الثلاثة السابقة؛ لأن ما يؤثر على الدعوة وقيادتها يؤثر على قاعدة الدعوة كذلك، والعكس صحيح أيضاً. وما يؤثر فيهما معا يؤثر على قاعدة المجتمع، للتفاعل المستمر بين هذه الأطراف والمجالات جميعا في الواقع العملي المعيش.

ونظرا لكثرة هذه القواعد، فإننا سوف لن نحرص على استيعابها كلها؛ لأن ذلك متعذر علينا الآن من جهة؛ ولأن غرضنا هو تأكيد دور المنهج وأصالته في الفعل الدعوي النبوي، والبحث عن ثوابته المبدئية والإجرائية من جهة أخرى، عبر تحليل الأفعال النبوية، والبحث عن المؤثرات الكلية المؤطرة «لدورتها الانجازية» باستمرار، وذلك يغني عن الاسترسال في استقصاء القواعد الجزئية الكثيرة، التي تتسلك في مجال الدراسات الفروعية الفقهية والتأريخية والاجتماعية والسياسية الاستقصائية.

محاور منهج الدعوة والبناء والمواجهة: وقبل الشروع في ذكر عينات من قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، نشير إلى المحاور العامة لفلسفة المنهج النبوي في التغيير والبناءو المواجهة ، من جانبها الانجازي بصفة خاصة، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

الموقف المنهجي الإجرائي على المستوى الداخلي:

وتمحور بصفة عامة حول الأبعاد والعمليات التالية:

-**الاستيعاب التشريعي:** عبر تغيير الأوضاع القانونية التي لا تنسجم مع أهداف الإسلام وقيمه، ووضع تشريعات جديدة تستوعب حركة الاستخلاف بشمول وعمق وتوازن.

-**الاستيعاب التنظيمي:** عبر تنظيم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، ووضع المؤسسات الكفيلة بتلبية حاجاته الروحية والاجتماعية والسياسية، وضمان فعالية أدائه الاجتماعي ذاتيا وخارجيا.

-**الاستيعاب التربوي:** عبر الارتقاء المستمر بالمستوى المعرفي والروحي والسلوكي لأفراد المجتمع، وتأهيلهم للاضطلاع بمهامهم الرسالية داخليا وخارجيا.

-**الاستيعاب الوقائي:** أو الدفاعي، عبر المحافظة على اطراد عملية الدعوة والبناء داخليا وخارجيا، وحماية منجزاتها من سوء الاستثمار أو الهدر أو التبديد.

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة البقرة :143.

-**الاستيعاب الاجتماعي:** عبر تحقيق الاندماج والتكيف والانسجام بين العناصر البشرية والثقافية المكونة للمجتمع، وتحويل تعدده الاجتماعي والثقافي والسياسي... إلى تعدد تكاملي مبدع ومخصب لتجربته الاستخلافية.

-**الاستيعاب التدريبي أو القيادي:** عبر تكوين نظري وميداني يؤهل كلا لما خلق له، ويصقل خبرته ويجعله قابلا لتحمل مسؤولياته الرسالية بكفاءة واقتدار.

-**الاستيعاب التعبوي:** عبر شمولية وديمومة شحذ القدرات المعرفية، والأشواق الروحية، والانضباط السلوكي، والتوثب الرسالي لقاعدة الدعوة والدولة والمجتمع، حتى يظل أداؤها الاستخلافي أصيلا وفعالا ومطرد الحيوية والتجدد.

الموقف المنهجي الإجرائي على المستوى الخارجي:

وتمحور بصفة عامة حول الأبعاد والعمليات التالية، بعد تصنيف موضوعي دقيق للقوى السياسية والاجتماعية والثقافية المختلفة، في الدولة والمجتمع، وفي المنطقة والعالم:

-**القوى المضادة:** وتمحور الموقف العملي منها حول:الاستيعاب، فإن تعذر فالتجميد، فإن تعذر فالمواجهة الثقافية والسياسية والعسكرية، بحسب الموقف في الميدان.

-**القوى المحايدة:** وتمحور الموقف العملي منها حول:الاستيعاب كذلك، فإن تعذر فالإبقاء على الأوضاع القائمة، ثم الاستثمار إن أمكن في تعزيز موقف الدعوة والدولة والمجتمع، وتوهين موقف القوى المضادة لهم.

-**القوى الموالية أو الحليفة:** وتمحور الموقف العملي منها أيضا حول: الاستيعاب والاستثمار والتعاون الدفاعي المشترك.

- **القوى الخامّية المستقبلية البعيدة الآن عن الصراع:** ولم تحط به علما، ولكن سيأتي وقت قريب يكون لها موقف من الدعوة والدولة والمجتمع، وتمحور الموقف العملي منها حول: الحرص على الوصول إليها وتعريفها بحقيقة الدعوة مباشرة، دون ترك فرصة لخصوم الدعوة ليعرّفوا بها ويشوهوا حقيقتها ويضعوا بينها وبين الآخرين حواجز من أي نوع.

فالحركة النبوية في عمومها تمحورت -على المستوى الانجازي- حول هذه الأبعاد والعمليات، في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، وتحقيق أهدافها في الدعوة والبناء والمواجهة، بحيث لا تخلو أية قاعدة من قواعد المنهج العملية، من علاقة بهذه الأبعاد والعمليات، أو تأثير مباشر أو غير مباشر فيها، وتأثر أو تكيف بها. كما سنلحظ ذلك في بعض القواعد التي اخترنا التركيز عليها في هذه المرحلة وكل المراحل التالية.

عيّنات من قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة: سنحاول هنا استخلاص مجموعة من قواعد المنهج النموذجية، التي استثمرها الرسول ﷺ في الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة الحساسة من مراحل الدعوة، وهو ينظم قاعدة الدولة والمجتمع، ويبني أسسها الفكرية والتشريعية والاجتماعية والسياسية. علىأن يكون معيار هذا الاستخلاص هو مدى تأثير القاعدة الإيجابي في تحقيق أصالة جهد الدعوة والبناء والمواجهة وفعاليتها من جهة، وضمان اطرادية ذلك من جهة أخرى. أي مدى قدرتها على ضمان فعالية تجاوز التحديات، وتحقيق أهداف الدعوة في هذه المرحلة بكفاءة.

القدرة على استثمار قاعدة المضغة في الدعوة والبناء والمواجهة:ونقصد بقاعدة المضغة هنا[1]، المعنى المعرفي المنهجي العام الذي يعطيه حديث: « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت**

---

(1) الحديث النبوي طرحها كنظرية كاملة في فلسفة التغيير والبناء.

صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[1]، الذي نأخذ منه فكرة جوهرية في فلسفة التغيير والبناء الاجتماعي، وهي أهمية وضع اليد في عملية التغيير على **جذور القضايا ومفاصل ارتكازها المحورية**، التي يرتبط بها مجال واسع من العلاقات والقضايا والمصالح، ويتأثر بها سلباً وإيجاباً باستمرار. فمضغة الشيء أو الأمر هي ما يتوقف عليه وجوده ، وينشرط به أداؤه لوظيفته التسخيرية بأصالة وفعالية واطراد.

فقاعدة المضغة بهذا المفهوم، أمر حيوي جدًّا في عملية التغيير والبناء والمواجهة؛ لأنها توفر شروط وإمكانات نجاح العمل، إذا ما تم التوفيق فعلا في اختيار مضغة العمل أو الاهتمام بدقة، وتوفّر الجهد والوقت والحماية لعملية التغيير والبناء كذلك، بخلاف ما إذا أخفقت حركة التغيير في استثمار قاعدة المضغة ولم تهتد إلى المؤثرات الأكثر فاعلية ومحورية في العملية التغييرية، وراحت تركز اهتماماتها على المضغ أو المحاور الثانوية، فإنها تهدر وقتها وجهدها، وقد تضاعف متاعبها وتضيّع فرص النجاح على نفسها دون طائل، خاصة في المواقف الحرجة، والمراحل الصعبة في عملية التغيير والبناء والمواجهة ، حيث يحتاج الأمر إلى دقة الاختيارات ومحوريتها ،لاختصار الزمن ،واقتصاد الجهد، وتأمين مكاسب العمل.

والرسول ﷺ استثمر هذه القاعدة بدقة، في مجالات ومواطن كثيرة في حركته، وكان لذلك تأثيره الكبير في فعالية الدعوة والبناء والمواجهة. وسنكتفي هنا بنموذجين تطبيقيين بارزين لهذه القاعدة التسخيرية الهامة في هذه المرحلة ، نلحظ من خلالهما كيف يسهم حسن استثمار هذه القاعدة في فعالية الإنجاز والوقاية معاً.

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من مكوثه الطويل بمكة، بالرغم من وصول الصراع بينه وبين زعامتها السياسية ومن ورائها قاعدة المجتمع العريضة بصفة عامة إلى مستويات متقدمة من التأزم، تجمدت معه عملية الاستيعاب الدعوي تقريبا، بل وأخذت حدة الصراع تؤثر على قاعدة دعوته، كما تدل على ذلك شكوى بعض الصحابة من شدة ما يلقونه[2]، وتعرض هو نفسه لحصار محكم، اضطره للخروج إلى الطائف[3] لطلب النصرة هناك، ومع ذلك ظل فترة طويلة من دعوته بمكة.

ولعل من خلفيات هذا الإصرار على المكوث بمكة، تقديره الدقيق عليه الصلاة والسلام لوضع مكة المتميز بالنسبة للدعوة ومستقبلها، حيث كانت تشكل **المضغة المحورية للمنطقة** كلها[4]، بسبب مركزها الديني والاقتصادي والسياسي والثقافي، فحرص على استثمار ذلك كله لصالح الدعوة[5]، ومنافسة خصومه في ذلك وعدم تركهم ينفردون باستغلاله ضده، وتقديم صورة غير صحيحة للعرب عنه وعن دعوته، يصعب تجاوزها مستقبلا. وقد أثبتت الأيام أن حضوره الفعال بمكة، ساعده على خدمة الدعوة وحمايتها وتأمين مستقبلها، عبر خلخلة المجتمع المكي واستقطاب العديد من رجاله ومراكز قواه[6]، واستقطاب رجال ومراكز قوى أخرى خارج مكة[7]، من خلال حضوره الفعال بها،

---

(1) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (**شرح النووي**، 26/11).

(2) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الخلق ،باب ما لقي النبي –ﷺ– وأصحابه (**فتح الباري**،202/7)

(3) ابن هشام، **السيرة**، 60/2.

(4) إبراهيم بيضون، **الحجاز والدولة الإسلامية،دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة**، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ،بيروت ،1403هـ 1983م) ص 104.

(5)محمد حسين فضل الله، **خطوات على طريق الإسلام**، (دار التعارف، بيروت، ط2، 1399هـ– 1979م)، ص472.

(6)ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 195/1–216.

(7)ابن هشام، **السيرة**، 21/2.

واستثماره لتوافد خيرة الناس عليها في مواسم العبادة والتجارة والثقافة، ليعرفهم بنفسه وبدعوته مباشرة، وكان الكثير منهم يُعجبون به وبرسالته، وإن حالت دون اتباعهم له عوائق آنية، كان ﷺ يقدّر زوالها مستقبلا، ولا يأبه بها، بل يواصل تركيز جهوده في عملية البلاغ والحوار والاتصال مع كل فئات الناس.

النموذج التطبيقي الثاني : لهذه القاعدة، ونراه في اختياره المدينة مهجرا له، وحاضنة لدعوته، ومركزا لدولته، ونواة لميلاد المجتمع الإسلامي الأول. بعد أن استثمر المضغة الأولى إلى أقصى حدّ ممكن له. فمن يدرس خلفيات وأبعاد هجرته إلى المدينة، يلحظ فعلا مدى قدرته الفذة عليه الصلاة والسلام على استثمار قاعدة المضغة في الدعوة والبناء والمواجهة.

فالمدينة على المستوى الاقتصادي، كانت تعتمد على الزراعة[1]، مما يمكنها من الصمود في وجه الحصار الاقتصادي المحتمل، كما كانت من ناحية أخرى ممرًا رئيسا للتجارة بين الشام في الشمال واليمن في الجنوب،مما يتيح لها قدرا هامًّا من التأثير السياسي. وعلى المستوى العسكري، تعتبر موقعا حصينا محاطا بموانع طبيعية هامة من جهات ثلاث، تسهل عملية الدفاع عنها، كما تصعب مهمة أي حصار لها، كما سيحدث للأحزاب في العام الخامس من الهجرة[2].

وعلى المستوى الاجتماعي تميزت كذلك بضعف التماسك الاجتماعي فيها، بسبب التنوع القبلي المتصارع فيها[3]، مما يتيح للدعوة مجالا واسعا للحركة والتفاعل والتأثير المستقطب للقوى المتصارعة، خاصة وأن التركيب الديني والثقافي متنوع، وغير مرتبط كثيرا بالحياة الاقتصادية والسياسية، بخلاف الحدة التي كان عليها الموقف في مكة، حيث كان الارتباط كبيرًا بين الوضع الديني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

إن كل هذه الاعتبارات الهامة، كانت وراء اختياره ﷺ للمدينة كمضغة جديدة لمرحلة حساسة في مسيرة الدعوة، وهي مرحلة تجسيد نموذجها الاجتماعي والسياسي المتميز في واقع الحياة، وقد أثبتت الأيام مدى توفيقه عليه الصلاة والسلام في استثمار قاعدة المضغة في توفير أحسن الشروط الموضوعية لضمان فعالية الدعوة والبناء، وتحقيق الحماية لمنجزات ذلك كله، كما سنرى في تقييم هذه المرحلة والمراحل التالية، فقد كانت المدينة بأوضاعها وظروفها عاملاً هاماً في مواجهة الدعوة لتحديات المرحلة الانتقالية، والتقلب عليها بسرعة، وضمان استمرارية حركة البلاغ والبناء، وتطويق القوى المضادة وتفكيك وجودها الثقافي والسياسي.

فالقدرة على وضع يده ﷺ على المضغ الحساسة والمحورية في عملية الدعوة والبناء والمواجهة، كانت من سمات منهجه البارزة، سواء تعلق الأمر بالاختيارات الاستراتيجية الكبرى، أو بالاختيارات المرحلية، ففي كل وضع كان يركز على المضغ والمفاصل الرئيسة، ولا شك أن ذلك كان نتيجة شروط موضوعية كثيرة كان يستجمعها في كل جهد يقوم به، كما سيتضح ذلك من قواعد أخرى لاحقة في هذا الفصل وفي الفصول التالية، بحيث يصل من يدرس مواقفه واختياراته على ضوء هذه القاعدة، إلى قناعة أساسية وهي أنه من الصعوبة بمكان، أن يقال عن أي موقف اختاره لو اختار غيره

---

(1) عبد الله عبد العزيز إدريس، **مجتمع المدينة في عصر الرسول** -ﷺ- (مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ط2 ، 1412هـ-1992م) ص203.

(2) ابن هشام، **السيرة**، 224/3.

(3) ابن كثير، **السيرة**، 177/2.

لكان أفضل، إلا فيما ندر من الجزئيات[1] المتعلقة بجزئيات الفكر التسخيري أو الانجازي الاجتهادي .

القدرة على استثمار قاعدة المآلات في الدعوة والبناء والمدافعة:ونقصد بالمآلات هنا[2] ما يمكن أن تتمخض عنه المواقف الفكرية والسلوكية من آثار سلبية أو إيجابية، من شأنها أن تعزز موقف حركة الدعوة والبناء والمواجهة وموقعها في عملية التدافع من أجل التداول، أو تضعف موقفها وتهز موقعها ، وتعرض فعاليتها الاجتماعية إلى الاهتلاك والهدر.

فقاعدة المآلات أو العواقب، مؤطر أساسي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة بصفة مستمرة، بل وتتوقف أصالة الجهد وفعاليته واطراد حيويته على مدى القدرة على استثمار هذه القاعدة بدقة، وحساب العواقب المحتملة، والاحتياط المسبق أو السريع لها، وعدم ترك الأمرللصدف والمفاجآت المربكة، التي تؤثر سلبا على حركة الدعوة والبناء والمواجهة، بل ينبغي التحسب لكل موقف بدقة، عبر الاستيعاب الموضوعي لشروط عديدة، ذات علاقة مباشرة بالوعي التاريخي من جهة، ووعي الواقع الموضوعي المعيش من جهة أخرى، والوعي التفسيري التنبُّئي الاستشرافي من جهة ثالثة... أي ذات علاقة مطردة بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، في شمولها وتكاملها الوظيفي.

والخبرة التاريخية المتوازنة ،تدل فعلاً بأن البعد المآلي مكوّن ومؤطّر أساس للفعل الاستخلافي ،بدون الالتفات إليه والعناية اللازمة به – بعد البعدين التاريخي والآني– يضطرب الفعل الاستخلافي وتتضاءل أصالته وفعاليته في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد،لأن «**دورته الانجازية**» افتقدت بعداً جوهرياً مؤسساً ومؤطراً لها.

ولهذا فإننا نجد في القرآن حديثاً مكثفاً ومركزاً عن هذه القاعدة، عبر مفاهيم: التقوى، والعاقبة، والحذر، والفتنة، والبصيرة... التي تؤكد كلهاعلى ضرورة التحسب للنتائج والآثار وإدخال ذلك كمعطى أساسي في بناء «**الدورة الانجازية**» للفعل الاستخلافي، من خلال النظر في المآلات والعواقب بعد إحكام المقدمات والشروط الانجازية، وهو ما استوفت الحركة النبوية تطبيقه في الدعوة والبناء والمواجهة – كما نلحظ ذلك على سبيل المثال من النماذج التطبيقية التالية – وكان له تأثير كبير على أصالة وفعالية واطرادية حركة البناء في هذه المرحلة.

النموذج التطبيقي الأول: ونراه في موقفه –ﷺ– من تنازع الأنصار زمام ناقته، حرصا من كل واحد منهم على الفوز بكرامة النزول في منزله[3]. فاحتاط عليه الصلاة والسلام للمآلات الاجتماعية والسياسية لذلك، في بيئة قبلية يتنازع أفرادها وجماعاتها النفوذ الاجتماعي والسياسي[4]، ويلتمسون كل سانحة تخدم ذلك فحرص على إخراج الأمر من دائرة الاختيار الشخصي، عندما قال للمتسابقين إلى زمام ناقته: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**»[5]. وفي هذا الموقف الحكيم قال ابن المنير: "الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة، أن يكون تخصيصه لمن خصه الله بنزوله عنده معجزة، تطيب بها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئا"[6] وبذلك حرر عليه الصلاة والسلام الدعوة من أي ضغط أو استغلال اجتماعي وسياسي ،بفضل إعماله لقاعدة المآلات .

---

(1) الشاطبي، **الموافقات**، 61/4.
(2) الشاطبي، **المرجع نفسه**، 102/4.
(3) البيهقي، **دلائل النبوة**، 501/20.
(4)ابن هشام، **السيرة**، 70/2.
(5)ابن هشام، **المرجع نفسه**، 104/2.
(6)القسطلاني، **المواهب اللدنية**، 810/1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النموذج التطبيقي الثاني: ونلمسه في حرصه عليه الصلاة والسلام على الاحتياطات الأمنية اللازمة لحمايته أثناء دخوله المدينة، فقد روي أن الأنصار حفوه بالسلاح[1]. وأنه كان يحرس في هذه المرحلة، وعمم ذلك على المدينة، احتياطا مما يمكن أن تقدم عليه القوى المضادة في الداخل والخارج ضده[2]، زيادة على أنه ﷺ رغب في النزول عند أخواله بني النجار[3] وتحقق له ذلك بتوفيق من الله. ولا يخفى ما في هذه الرغبة من أبعاد إحتياطية هامة في هذه المرحلة الحساسة، التي حنقت فيها قريش[4] واليهود[5] عليه حنقاً شديداً.

النموذج التطبيقي الثالث: ونراه في حرصه على دفع ثمن أرض المسجد الذي شرع في بنائه عقب وصوله إلى المدينة، ورفض هبتها[6]، احتياطا كالعادة لما قد ينجم عن ذلك من مشكلات للدعوة، سواء بشعور المانحين الخفي أو المعلن بالفضل والكرامة والامتياز، أو شعور غيرهم من البطون القبلية الأخرى المتنافسة بالحرج أو الضيق. فنزع ﷺ الأمر من الجميع وابتاع أرض المسجد ليحرر الدعوة والناس جميعاً من أية إمكانية للحرج والتضايق أو الاستغلال السلبي.

ولو رحنا نستعرض مواطن إعماله لهذه القاعدة لطال بنا الأمر، وقد اكتفينا بهذه العينات كنماذج تطبيقية عن استثماره ﷺ لقاعدة المآلات في ضمان أصالة الدعوة وفعالية البناء وحماية منجزاتهما من المؤثرات السلبية، التي يمكن أن تنجم عن الغفلة عن التحسب للعواقب. ومن يتتبع المزيد من المواقف على ضوء هذه القاعدة، يلحظ فعلا كيف شكل **الوعي المآلي** معلما بارزا من معالم المنهج في دعوته عليه الصلاة والسلام، ويتأكد من دور هذه القاعدة في حماية الدعوة والدولة والمجتمع من التوترات السلبية المبدّدة للإمكان التسخيري، والموفرة لأجواء تفريخ الفتن وتفعيل نشاط القوى المضادة.

ولعل في اختيارنا لهذه العينات، التي يبدو بعضها بسيطا جدا، ولا يحتاج إلى كل هذا الاهتمام منه ﷺ، ما يدل فعلا على شدة عنايته بإعمال **قاعدة المآلات** في كل شؤونه الدعوية، ولا يغفل عنها حتى في الأمور البسيطة، وقاية لجهده البنائي من كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا في أصالته وفعاليته واطراديته وهو ما يلقى الضوء على أن الفعل التسخيري والاستخلافي في الحركة النبوية، كانت «دورته الانجازية» تستوعب وتستوفي باستمرار أبعادها التكوينية ، وشروطها الانجازية ،فيجيء بالتالي أصلاً فعالاً مطرد الحيوية ،له كامل القدرة على تحقيق أهداف الدعوة واستيعاب التحديات التي تعترض طريقها، كما رأينا في النماذج التطبيقية السابقة، التي تكامل فيها الوعي التاريخي مع الوعي الآني أو الواقعي ،في ضوء الوعي المآلي.

القدرة على استثمار قاعدة الأولويات في الدعوة والبناء والمدافعة :ونقصد بالأولويات هنا: الموازنة الدقيقة بين الخيارات التسخيرية والاستخلافية المتاحة، التي كثيراً ما تحتاج إلى الاختيار بين

---

(1)البيهقي، **دلائل**، 499/2.

(2)أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ،باب فضل سعد بن أبي وقاص،(شرح النووي، 182/15)؛ الحاكم، **المستدرك**، 401/2.

(3)البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي -ﷺ- وأصحابه المدينة، (**فتح الباري**، 8/7)؛ البيهقي، **السنن**، 539/2.

(4)ابن كثير، **السيرة**، 246/2.

(5)ابن هشام، **السيرة**، 160/2.

(6)ابن عبد البر، **الدرر**، ص87؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 315/1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصالح والمفاسد، أوبين المصالح في ذاتها، أوبين المفاسد في ذاتها[1]، لجلب أعظم المصالح ودرء أعظم المفاسد، على ضوء قاعدتي المضغة والمآلات السابقتين من جهة، وبحسب الإمكان المتاح في الزمان والمكان والمؤطر بأهداف الدعوة وثوابتها من جهة أخرى.

وهو فقه عميق، ومستوى رفيع من الوعي التسخيري والثقافة القيادية التي تحتاج إليها حركة التغيير والبناء باستمرار، وتمس الحاجة إليها في مراحل الانتقال الحرجة، حيث تكثر التناقضات، وتتشابك المصالح، وتتسارع الأحداث وتتدافع، ويحتاج الأمر إلى دقة التصرف وتوازنه، وأحيانا كثيرة إلى سرعته في الوقت نفسه. فإذا لم توفق حركة التغيير والبناء إلى موازنات دقيقة في اختيار أولوياتها وتحديد مضغ اهتمامها المحورية، أثر ذلك سلبا على أصالة وفعالية واطرادية عمليات الدعوة والبناء والمواجهة، وتعثرت بالتالي عملية التغيير والبناء.

ولأن استثمار قاعدة الأولويات يحتاج -كما أسلفنا- إلى وعي تاريخي، ووعي بتفاعلات الواقع المعيش، ووعي بأهداف حركة التغيير والبناء، وبإمكاناتها وحجمها وظروفها... فإنه ليس من اليسير استثمار هذه القاعدة بأصالة وفعالية، بل ذلك لا يتاح إلا لذي حظ عظيم من الوعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد. أي لمن تنبثق أولوياته من وعي شمولي متكامل بسنن التسخير والاستخلاف في مستوياتها المختلفة، فيتحرك ويستجيب للأحداث بمرونة وسرعة وتوازن، وموازنة شمولية دقيقة بين الخيارات والأولويات، وهو ما نراه في منهجه ﷺ بوضوح في كل مواقفه في الدعوة والبناء والمواجهة، كما تدل على ذلك هذه العينات على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونراه في كل النماذج التطبقيةالمذكورة سابقا، ثم في موقفه من نبش قبور المشركين[2] لبناء المسجد في بداية الهجرة، فقد قدر ﷺ أن موقع الأرض المختارة هو أنسب المواقع[3] لهذه المؤسسة «المضغية» الحيوية في الدعوة والدولة والمجتمع، فلم يوقفه وجود مقابر بالمكان، بل أجاز نبشها[4] وبناء المسجد مكانها، رغم حساسية الموقف من الناحية الاجتماعية، ولكنه لا يرقى في ميزان الأولويات إلى مستوى الأهمية والضرورة التي تحتلها هذه المؤسسة الاستراتيجية في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، فاحتمل الضرر الأخف من أجل المصلحة الأوْلى والأعظم [4].

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه مثلا في التريث بعض الوقت في تحويل القبلة، مع أنه أمر ديني بالأساس، إنضاجا للظروف النفسية والاجتماعيةوالسياسية [5]، خاصة وأن الأمر يكتسي أهمية روحية كبيرة بالنسبة لليهود بالمدينة، يمكن أن يؤثر سلبا على موقف الدعوة في بداية توطين نفسها هناك، فلما نضجت الظروف بعض الشيء أقدم على إنفاذ الأمر دون تردد، رغم ما لاقاه ذلك من معارضة شديدة، واستثمار له من قبل القوى المضادة داخليا وخارجيا. حيث أشاعت اليهود بأنه ﷺ اشتاق إلى بلد أبيه. وأنه يريد أن يسترضي قومه. وأرجفت قريش بأن محمدًا تحير في دينه، وأنه

---

(1) ابن عبد السلام، **قواعد الأحكام**، ص32وما بعدها.

(2) ابن عبد البر، **الدرر في اختصارالمغازي والسير**، تحقيق: شوقي ضيف، (دار المعارف، القاهرة، ط2، 1983م)، ص88؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 315/1.

(3)السمهودي، **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، 717/2.

(4) ابن القيم، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط،(مؤسسة الرسالة، دمشق، 1349هـ- 1979م) 62/3.

(4) ابن حجر، **فتح الباري**،313/7؛ محمد سعيد رمضان البوطي، **فقه السيرة**، ص154.

(5) ابن القيم، **المرجع السابق**، 67/3.

أدرك بأن دين قريش أهدى ولن يلبث إلا يسيرًا حتى يرجع إلى دينكم.

فالأولويات اقتضت التريث في بداية الأمر، ثم اقتضت بعد ذلك الصيرورة بالأمر إلى وضعه العادي المطلوب لما نضجت بعض ظروفه ،تأصيلا للدعوة وإبرازاً لذاتيتها، واستثمارا لذلك في تعميق الوعي التاريخي والثقافي والسياسي والاجتماعي لقاعدة الدعوة، من خلال الجدل الواسع الذي أطّره القرآن لصالح الدعوة، في مواجهته لأراجيف اليهود ومحاولاتهم لتزييف الوعي الإنساني، حيث انتقد القرآن موقف القوى المضادة وبين زيفه وضعف وعي أصحابه،ومناقضته لحقائق التاريخ التي يعملون على طمسها وهم يعلمون، وكَشَف جوانب من نفسية اليهود

المضطربة، التي تقف وراء معاكستهم للدعوة وكيدهم للدولة والمجتمع[1]، ونبه قاعدة الدعوة إلى الدور القيادي الذي تضطلع به رسالتهم في العالم [2] ، حتى لا يضطربوا أمام حملات الإشاعة والإرجاف وتشويه الحقائق.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من موقف القرآن من سرية عبد الله بن جحش وقتاله في رجب الحرام، واستثمار القوى المضادة لذلك، وإثارة ضجة كبيرة ضد الدعوة والدولة والمجتمع، في الحواضر والبوادي [3] ، واتهام المسلمين بخرق الأعراف السائدة وتهديد السلم الاجتماعي بالمنطقة، ورميهم بازدواجية الخطاب والسلوك الانتهازي، الذي ظاهره الدعوة إلى الدين والحدب عليه، وباطنه الإساءة إليه كما في انتهاك حرمة رجب الحرام [4] !.

وجاء الوحي يحلل الموقف ويفسره ويؤصل قاعدة الموازنة بين الأولويات ويحرر المسلمين من الضغوط النفسية والاجتماعية الحادة التي تعرضوا لها، ويمنحهم المبررات النفسية والفكرية والسياسية التي تشحذ فعاليتهم في الدعوة والبناء والمواجهة. كما يدل على ذلك قوله تعالى:**[يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ]**. أي مع مخالفة ما وقع من المسلمين في الشهر الحرام للمشروع والأولى ما بدئ وعرف، فإن ذلك يهون إزاء ما لحق بهم من الفتنة والإخراج ، وحرمانهم من حرية الرأي والمعتقد والعمل، لإشاعة القيم الإنسانية الفاضلة في الفكر والسلوك والحياة .

وإذا تأملنا المزيد من النماذج التطبيقية، وجدنا **قاعدة الأولويات** معلما بارزا من معالم المنهج النبوي، الذي كان يعطي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة أصالة وفعالية مطردة، ويعمق وعي قاعدة الدعوة بأصول المنهج وقواعده من جهة، ويؤصل مبادراتها، ويحرر فعاليتها من كوابح الثقافة التقليدية وضغوطات الواقع الجاهلي المتحفز للدفاع عن وجوده بكل شراسة من جهة أخرى.

ونضج الوعي بقاعدة الأولويات واستثمارها التسخيري الدقيق، مكّن حركة الدعوة من تجاوز الكثير من تحديات المرحلة الانتقالية الصعبة، إلى عملية البناء المعرفي والروحي والسلوكي

---

(1) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 2/2 وما بعدها.

(2) ابن كثير، **السيرة**، 347/2.

(3) أكرم ضياء العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، ط6، 1415هـ-1995م)، 347/2.

(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 324/3، وما بعدها.

والاجتماعي، وإنجاز مراحل هامة في تحصين الدعوة والدولة والمجتمع، وتفكيك وحدة القوى المضادة وإضعاف موقفها، في معترك التدافع بين مرجعية الدعوة ونموذجها الاجتماعي من جهة، ومرجعية المجتمع التقليدي ونموذجه الاجتماعي من جهة أخرى،كما دلت على ذلك النتائج الهامة للنماذج التطبيقية السابقة ،والتي تمخض عنها ثلاثة أفعال استخلافية في غاية الأهمية، صبت جميعها في عمق الأهداف المرحلية والاستراتيجية للدعوة ،بمنح الأول المجتمع مؤسسة سياسية روحية وثقافية واجتماعية و سياسية خطيرة ،ممثلة في المسجد ، ومنح الثاني له مكاسب سياسية واجتماعية هامة ممثلة في كسر كبرياء قريش والانتفاع من الغنيمة ،ومنح الثالث له دفعاً جديداً على طريق تميزه الثقافي والحضاري، ممثلاً في تحويل القبلة.

القدرة على استثماره قاعدة حشد إمكانات الدعوة والمجتمع في البناء والمواجهة:ونقصد بحشد الإمكانات[1] هنا: وضع كل ما هو متاح بين يدي الدعوة والدولة والمجتمع، من إمكان بشري ومادي، أووضع سياسي أو ثقافي أو اجتماعي... قابل للاستثمار، في خدمة حركة الدعوة والبناء والمواجهة، تحقيقا لأصالتها وفعاليتها، وضمانًا لاطراد تجدد حيويتها، من غير زهد في أية إمكانية أو استنكاف من أي وضع بإمكانه المساهمة في عملية تأصيل جهود التغيير والبناء وتفعيلها، مع الأخذ بعين الاعتبار دور قواعد المنهج السابقة، لأهميتها القصوى في عملية التأصيل والتفعيل.

ولا يخفى مدى الأهمية الحيوية الحاسمة التي يؤديها الحشد الفعال لإمكانات الدعوة والدولة والمجتمع، في تحقيق أصالة وفعالية الدعوة والبناء والمواجهة؛ لأن الحشد يعني، كما لاحظنا سابقا، تعبئة كل الإمكانات[2] والفرص المتاحة، ووضعها في خدمة عمليات الدعوة أوالبناء أو المواجهة، وذلك دون شك يعزز موقف الدعوة والدولة والمجتمع، ويقوي موقعها في حركة التدافع والتداول الثقافي والاجتماعي والسياسي؛ لأن القوة والنفوذ يأتيان أولاًمن القدرة على تعبئة إمكانات البناء المادية والبشرية والمعنوية، وثانياً من شحذ فعالية أدائها[3] الاجتماعي إلى أقصى حدّ مستطاع، بخلاف الضعف فإنه قرين العجز عن حشد إمكانات المجتمع، والإخفاق في استثمارها جيدا بعد ذلك.

ولأن حشد الإمكان الحضاري للمجتمع حشدا جيدا وتعبئته تعبئة فعالة، شرط أساس من شروط الاقتدار التسخيري ومن ثم الاستخلافي، فقد أولاه الوحي عناية كبيرة تتضح من التوجيه الإلزامي الجامع إلى العناية بأسباب القوة والنفوذ في قوله تعالى –على سبيل المثال: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ][4] . أي كل ما من شأنه أن يمنح المجتمع في حركة تدافعه من أجل المداولة الحضارية، قوة فعالة تمكنه من فعالية التحديات وتجاوزها إلى أهدافه في الحضور والنفوذ والقوامة الحضارية.

والرسول ﷺ استثمر بفاعلية هذه القاعدة في دعوته، وكانت معلماً بارزًا كذلك من معالم منهجه في الدعوة والبناء والمواجهة، وعاملا هاما من عوامل مغالبة جهده التغييري البنائي ومن يدرس سيرته يلحظ مدى الاقتدار المتميز الذي اتسم به جهده في هذا المجال[5]، وكيف استطاع ﷺ أن **يحشد ويستثمر** بفعالية نموذجية ،كل ما أتيح له من إمكان بشري ومادي واجتماعي وسياسي.. في تعزيز

---

(1) شيت خطاب، **الرسول القائد**، (دار الفكر، بيروت، ط5، 1394هـ-1974م)، ص453.

(2) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص84.

(3) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 2/421.

(4) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال:61.

(5) ينظر على سبيل المثال: **الرسول القائد** لشيت خطاب.

موقف الدعوة والدولة والمجتمع، وحماية منجزات عمله، وضرب تماسك القوى المضادة وإضعاف موقفها في معترك التدافع بين الدعوة ونموذجها الاجتماعي من جهة ، والمنظومة الثقافية التقليدية ونموذجها الاجتماعي من جهة أخرى .

ونورد هنا بعض النماذج التطبيقية لاستثماره الفعال ﷺ لهذه القاعدة في الدعوة والبناء والمواجهة، والتي يمكن ملاحظة اطرادها في جوانب كثيرة من حياته.

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من حرصه الشديد عليه الصلاة والسلام على حشد الإمكان البشري ومن ثم المادي والاجتماعي للدعوة بالمدينة، لاستثماره في حماية الدعوة والدولة والمجتمع، في مرحلة حساسة تظافرت فيها جهود القوى المضادة بالداخل والخارج ضد حركة التغيير، فكان قرار الهجرة الإجبارية[1] إلى بيضة الدولة بالمدينة، وخاصة من القاعدة البشرية للمجتمع القرشي، لتجريد القوى المضادة من إمكان بشري بإمكانها التكثر به، ولإرباك الموقف الاجتماعي لقريش خاصة، من خلال ما تطرحه حركة **تفريغ المجتمع** القرشي من قواه البشرية من اضطراب اجتماعي مستمر، يقابله نمو وتصاعد مطرد لقوة الدعوة والدولة الإسلامية الوليدة.

وهو ما أثر فعلا تأثيرا عميقا في المجتمع القرشي، وإن حاولت زعامته تدارك الموقف دون جدوى، وخاصة بعد تكرار التأكيد على وجوب الهجرة وضرورتها[2]، والتحذير من مغابّ التخلف عن تلبية نداء الواجب، مع الترغيب في الهجرة[3]. كما أثر كذلك في موازين القوى بالمدينة تدريجيا، حيث أخذ الوجود البشري الإسلامي يتعزز[4]، ونفوذ الدعوة يقوى مع مرور الوقت، وتلاحق أفواج المهاجرين من الرجال والنساء، وهو ما كان عليه الصلاة والسلام يهدف إليه كذلك من وراء التأكيد على الهجرة.

النموذج التطبيقي الثاني: ونلمسه في استثمار كل القوى الاجتماعية بالمدينة ومحيطها في تحقيق أمن الدعوة والدولة والمجتمع، عبر مواثيق الدفاع الاجتماعي، التي عقدها بين سكان المدينة، مسلمهم ومنافقهم ويهوديهم، حيث ربط الجميع باتفاقات حسن الجوار، والدفاع عن الدولة، وتأمينها داخليا بعدم إيواء الخارجين عن القانون[5]، بل وتجاوز نطاق استثمار كل القوى الاجتماعية بالمدينة، إلى استثمار القوى الأعرابية المحيطة، بعقد اتفاقات التعاون وعدم الاعتداء، كما فعل مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة[6].

---

(1) ابن حجر، **فتح الباري**، 313/7.
(2)الطبري، **جامع البيان**، 234/5؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 345/5.
(3)ابن عطية، **المحرر الوجيز**،190/4وما بعدها.
(4)أحمد إبراهيم الشريف، **الدولة الإسلامية الأولى**، (دار القلم، القاهرة، 1965م)، ص96.
(5)ابن هشام، **السيرة**، 148/2.
(6)البيهقي، **دلائل النبوة**، 12/3.

النموذج التطبيقي الثالث: ونجده مثلا في مواجهته -ﷺ- لآثار الهجرة المكثفة إلى المدينة، من خلال استنفار روح البذل [1] في الناس، واستثمار عواطف القرابة والتقاليد المبنية عليها في التضامن والمواساة، والتكفل الاجتماعي بذوي قرابتهم [2] من المهاجرين.

كما نجده في توزيع الأراضي البور المحيطة بالمدينة على المهاجرين [3]، وتحويل المسجد وصّفته إلى مدرسة مفتوحة لبناء وعي قاعدة الدعوة [4]، واستثمار وقتها قبل الإنشغال بالأعباء الدعوية والاجتماعية والسياسية. ونلحظه أيضا في حركة السرايا التي كانت لها أبعاد تربوية وتدريبية ووقائية [5]. كما نلحظه في تعبئته القصوى [6] للإمكان البشري والمادي والروحي المتاح له في مواجهة تحدي قريش ببدر ،كما نلمس ذلك مثلاً في ميثاق المدينة،الذي عبأ سكان المدينة للدفاع المشترك عنها.

إنه ﷺ لا يترك أي إمكان مادي أو بشري أو اجتماعي أو سياسي... لا يعبئه لتحقيق فعالية الدعوة والبناء والمواجهة، وضمان أصالتها واطراد حيويتها. ومهما حلل الإنسان مواقفه على ضوء هذه القاعدة، سيجد أن قدرته على حشد الإمكانات المتاحة واستثمارها، كانت تشكل إحدى أهم أبعاد المنهج لديه، ومن ثم أهم عوامل الاقتدار القيادي الذي حقق به أصالة الأداء الدعوي وفعاليته.

لقد كانت الإمكانات البسيطة بين يديه تتحول بسرعة إلى مواقف وأعمال، وعلاقات، ومكاسب ضخمة، بل وما يبدو للقوى المضادة، أو حتى لقاعدة الدعوة، هزيمة أو ضعفا، أو تنازلات... لأول وهلة، سرعان ما تكتشف أنه منجزات حقيقية، وأنه تعزيز ملموس لموقف الدعوة والدولة والمجتمع، كما يلحظ ذلك من القراءة السياسية لحادث الهجرة ذاته، ولتحويل القبلة، ولموقفه من اليهود والمنافقين في بداية الأمر، وكيف سلك مع الجميع سياسة الحوار والاحتواء ما أمكنه إلى ذلك سبيل.

---

(1) ابن كثير، **السيرة**، 294/2.
(2) ابن خياط، **الطبقات**، ص64-65.
(3) البلاذري، **أنساب الأشراف**، 270/1.
(4) السمهودي، **وفاء الوفاء**، 454/2.
(5) انظر: **الأثر والدلالات الإعلامية لرسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والقادة**، لأحمد العقيلي، (مطابع خزام، الرياض، السعودية، 1414هـ- 1993).
(6) خطاب، **الرسول القائد**، ص116.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القدرة على شحذ فعالية الترابط والتآلف الاجتماعي لقاعدة الدعوة: ونقصد بالترابط والتـآلف الاجتماعي هنا[1]: قوة الانسجام والتكامل الاجتماعي بين أفراد المجتمع ومجموعاته البشرية المختلفة، وعمق الاندماج الذي يطبع علاقات التفاعل والتكيف الاجتماعي، ويسمها بالمحبة والأخـوة الحميميـة المذهبة للتحاسد والتشاحن والتباغض والتنافر[2]، والمقوية لدواعي التلاحم والتناصر والتماسك والقوة والمتانة في نسيج المجتمع الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي...

وقد أثبتت الخبرة التاريخية، مدى الأهمية الكبيرة التي يحتلها الترابط والتآلف الاجتماعي في حركة التدافع والتداول والتجديد، التي تحكم الصيرورة الاستخلافية وتهيمن عليها، حيث لوحظ أن فعالية الآداء التسخيري والاستخلافي مرتبطة إلى حدّ بعيد بمدى التماسك والتآلف الاجتماعي في المجتمع[3]، وهو ما نبه إليه القرآن في مواطن ومواقف كثيرة، في تحليله وتفسيره للظاهرة الاستخلافية وتأطيره لها، عبر مفاهيم الأخوة ،والتآلف ،والاعتصام، والقوة، والتعاون، وذمه لنواقضها، كالفرقة،والتنازع، والاختلاف المرَضي، والأنانية... وقد يكفي هنا التذكير بقوله تعالى: **[وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا]**[4]. وقوله تعالى: **[وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ]**[5]، وقوله سبحانه: **[لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]**[6].

فالترابط والتآلف والتماسك الاجتماعي، شرط أساس لفعالية التدافع والتداول الحضاري، وامتلاك قدرات التجدد والتجديد لضمان إطراد هذا التداول؛ لأن ذلك يدخل في نطاق سنن التسخير والاستخلاف الماضية في الحياة، لذلك وجدنا الرسول ﷺ يوليه عناية فائقة، حتى غدا مكونا جوهريا من مكونات منهجه في الدعوة والبناء والمواجهة، ومن ثم عاملا أساسا من عوامل تحقيق أصالة التغيير وفعاليته واطراد حيويته، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية:

---

(1) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص38-42.
(2) ابن خلدون، **المقدمة**، ص147.
(3) الألوسي، **روح المعاني**، 13/10.
(4) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 103.
(5) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 46.
(6) **القرآن الكريم**، سورة الانفال: 63.

النموذج التطبيقي الأول: ونراه في نظام المؤاخاة الفذ الذي أقامه بعد الهجـرة، **للحـم وحـدة الدولة والمجتمع**[1]، ومواجهة مناورات القوى المضادة في الداخل والخارج، وتجاوز تحديات الصراع التاريخي في المدينة وفي المنطقة بكاملها بين قبائلها وبطونها، وتحقيـق التكامـل الاجتمـاعي، بـين المهاجرين والأنصار، لتخفيف متاعب المهاجرين في المعاش والإيواء والتكيف[2] النفسي والاجتماعي عامة.

وقد حقق هذا التآخي أهدافه التربوية والاجتماعية والسياسية بكفاءة كبيرة؛ لأنه حوّل المجتمـع فعلا إلى كيان منسجم ومتكامل[3] بصورة نادرة الوجود، عبّر عنها القرآن في آية التأليف الـسابقة[4]، وأحسّ بها المهاجرون بقوة في قولهم للرسول ﷺ: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحـسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا من كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقـد خـشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال: «**لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم**»[5].

النموذج التطبيقي الثـاني: ونرى صورا كثيرة له في ميثاق الدولة الذي وضـعه ﷺ لـضبط العلاقات بين المسلمين فيما بينهم وبين بقية الفئات الاجتماعية الأخرى بالمدينة وخارجها. حيث يلحـظ مدى التأكيد على مفاهيم: الأمة، والتعاقل، والتكافل، والتناصر، ونبذ التظـالم، ومقاومـة الانحـراف والإحداث، والعدل... إلى غير ذلك من القيم الاجتماعية التي تصب كلها في مجـرى شـحذ فعاليـة الترابط والتآلف الاجتماعي[6].

والمتتبع لتفاعلات الحياة الاجتماعية والسياسية بالمدينة، يلحظ تجليات هذه القيم فـي الواقـع العملي فعلا إذ لم تبق مجرد نصوص وتوجيهات، بل تجسدت في علاقات المجتمع الداخلية والخارجية، وأعطت لحركة الدعوة والبناء والمواجهة فعالية كبيرة، مكنت الدولة والمجتمع من تجاوز الكثير مـن التحديات التي كانت تضغط عليهما، وتهدد وجودهما؛ لأن هـذه القـيم المحـددة، صـارت تـشريعا مقنناًملزما للناس جميعا، حرصوا على الانضباط به والانسجام معه، لواقعيته من جهة، ولسهر الرسول ﷺ على تطبيقه من جهة أخرى.

النموذج التطبيقي الثالث: ونجده مثلا في حرصه ﷺ على بث مفاهيم التآخي والتآلف والتكامل والانسجام داخل المجتمع، في خطبه وأحاديثه مع الناس، ومحاولات تنظيمـه للعلاقـات الاجتماعيـة،

---

(1) عرجون محمد الصادق، **محمد رسول الله**-ﷺ- ،(دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، 1405هـ- 1985م)، 75/3 وما بعدها .

(2) السّهيلي ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، **الروض الآنف**، (دار الفكر، بيروت، د.ت)، 296/4.

(3) ضياء العمري، **المجتمع المدني**، ص71.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 63.

(5) أخرجه الترمذي في السنن، 653/4؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 322/1.

(6) العمري، **المجتمع المدني**، 107 وما بعدها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وضبطه لآداب السلوك، كما يلحظ ذلك مثلا في تأكيده على الجماعة والجمعة[1]، وبناء المساجد[2]، وسنّ الزكوات، والتكافل[3]، وإفشاء السلام[4]، وصلة الإرحام، والتسامح وإصلاح ذات البين[5]. والتشنيع بالتعصب وأخلاق الجاهلية... وهي قيم تلحم وحدة المجتمع فعلا، وتشحذ ترابطه وتآلفه، وترقي أداءه الاجتماعي في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد .

وهو ما نجد صداه في التحول النفسي والفكري والسلوكي والاجتماعي الذي أخذ يحدث في المجتمع تدريجيا، كما عبرت عنه مظاهر الإيثار والتضامن، والولاء للدعوة والدولة والمجتمع، على حساب الولاءات التقليدية الضيقة للذات والقبيلة، وهو تحول خطير ستكون له آثاره الحاسمة في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، كما تجلى في بدر، وفي تعبّىء المجتمع لمواجهة التحدي بكل تبعاته الثقيلة عن وعي وقناعة عبّرت عنه حصيلة الشورى التي عقدها عليه الصلاة والسلام بالمناسبة، وجاء فيه قول سعد بن معاذ المعبّر عن هذا التحول العميق: " فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد"[6].

تأسيس سلطة مرجعية للمجتمع: ونقصد بالسلطة المرجعية هنا القوة المادية والمعنوية الوازعة التي يرى الجميع ضرورة الخضوع لها وامتثال ما يصدر عنها من تشريعات وتوجيهات في تنظيم علاقات الناس، وضبط حركة التفاعل الاجتماعي والسياسي في المجتمع وبين المجتمع والقوى الاجتماعية والسياسية الأخرى،ضماناً لفعالية أدائه الحضاري.

وإذا كان الترابط والتآلف الاجتماعي من مقومات الفعالية الاجتماعية وشروط النجاح في عملية التدافع والتداول والتجديد، فإن وجود السلطة المرجعية المنظِّمة للعلاقات، والمنسِّقة لعمليات التفاعل الاجتماعي، والموجِّهة لحركة المجتمع نحو أهدافها الكبرى، في الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، يعدُّ من مقومات تحقيق هذا التآلف والانسجام الاجتماعي؛ لأن السلطة المرجعية بالمفهوم السابق، إخراج للموقف الإنساني من دوائر الذاتية والآنية والحق على حساب الواجب واللاموضوعية،إلى نطاق الغيرية والمصلحة العامة،والواجب والحق معًا، والموضوعية، وبالتالي تلافي الصدام الاجتماعي، وتوجيه فعالية المجتمع نحو الانسجام والتكامل.

والرسول ﷺ كان على وعي عميق بأهمية وحيوية هذه القاعدة في فعالية الأداء الاجتماعي للدعوة والدولة والمجتمع فعمل منذ البداية على تجاوز مرحلة التعدد التناقضي للسلطات المرجعية في المجتمع المدني، إلى تأسيس سلطة مرجعية[7] موضوعية؛ فكرية وروحية وسياسية، تعبّئ إمكانات المجتمع، وتخطط حركته ،وتشحذ قواه المادية والبشرية والمعنوية لخدمة حركة الدعوة والبناء والمواجهة، ووهو ما حققه عليه الصلاة والسلام تدريجيا، كما يتضح لنا من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ويتمثل في محاولته تعويد المجتمع على تقنين علاقاته أولا، ثم احترام هذه القوانين ثانيا، والحرص على تعميق الوعي بإلزاميتها ثالثاً،واعتبار ذلك من أهم مقاييس

---

(1) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 312/1.
(2) السمهودي، **وفاء الوفاء**، 323/1.
(3) ابن كثير، **السيرة النبوية**، 379/2.
(4) ابن عبد البر، **الدرر في المغازي والسير**، ص85.
(5) ابن كثير، **المرجع السابق**، 294/2.
(6) ابن هشام، **السيرة**، 267/2.
(7) حسين مؤنس، **دستور أمة الإسلام**، (دار الرشيد، القاهرة، 1413هـ ،1993م)، ص38-103.

النضج الإيماني الاجتماعي والسياسي وهو ما نرى العناية به مبكرا عندما بدأ -ﷺ- يفكر في مكان لبناء الدولة، ودخل في مواثيق وبيعات مع الأنصار[1]، ثم تعمّق هذا بعد الهجرة، حيث بادر عليه الصلاة والسلام إلى كتابة مواثيق دستورية تنظم العلاقات الاجتماعية والسياسية في المجتمع ،كما مرّ سابقا، وتلزم الجميع وتأخذهم بالتربية الاجتماعية والسياسية، حتى تتأسس ثقافتهم الاستخلافية،ويستقيم وعيهم الانضباطي، ومن يتتبع مفاهيم الطاعة، والاستجابة، والأمانة، والعهد، والظلم، والخيانة، والإعراض، والنفاق..وغيرها، ويلحظ مدى كثافة حضورها في القرآن والسنة، يدرك فعلاًمدى العناية التي منحت لتأسيس سلطة مرجعية للمجتمع، وتعميق وعيه بدورها الحيوي في فعالية أدائه الاجتماعي.

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه مثلا في ظاهرة التأمير التي دأب ﷺ على تربية المجتمع كله عليها، فكان يؤمّر أمراء على السرايا باستمرار، كما يؤمّر على المدينة حينما يخرج منها، ويدعو الناس إلى الأخذ بهذا المبدأ في السفر وغيره، تعويداً لهم على الانضباط والنظام واحترام القانون، وتعميقاً لوعيهم بذلك، تجاوبا مع القيم التي ما فتئ القرآن يؤصلها بشأن ضرورة **السلطة المرجعية للمجتمع**[2]، ويهيئ الناس للتجاوب معها. بل ينبغي أن نستحضر في هذا المجال دور الصلاة، والصيام، والزكاة، ونظام الجهاد، ونظام الأسرة... ففي كل هذه القيم والأنظمة الروحية والاجتماعية والسياسية أبعاد تربوية عميقة، تصب في تأسيس الوعي الانضباطي، واحترام السلطة المرجعية في كل مستويات الحياة الاجتماعية والسياسية.

النموذج التطبيقي الثالث: ونلحظه في النص صراحة في أول ميثاق للمجتمع المدني الجديد، على دور **السلطة المرجعية** في بعدها التشريعي القانوني، وفي بعدها التنظيمي أو القيادي، كما يتضح ذلك من التأكيد على أن "ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ"[3]. وهو تأكيد للسلطة المرجعية للنبي ﷺ من الناحية السياسية، ولمرجعية الوحي من الناحية التشريعية القانونية[4]، وبذلك بدأ إشكال تعدد السلطة في المجتمع يأخذ طريقه إلى الحسم،وبالتالي ضمان أقوى دعامة لحماية الدعوة والدولة والمجتمع، وتعبئة إمكاناتها جميعا لتفعيل وتأصيل عملية البلاغ والبناء والمواجهة.

هذه نماذج عن الجهد الكبير المركز الذي بذله رسول الله -ﷺ- لمنح المجتمع الإسلامي الوليد **سلطة مرجعية؛** ثقافية وسياسية ،تسير به نحو الإنسجام والتكامل وانشحاذ الفعالية التسخيرية والاستخلافية ،علىطريق استيعاب تحديات المرحلة وإنجاز أهدافها.

تعميق الوعي بفرادة وأخقية المنظومة المنهاجية والاجتماعية للدعوة:ونقصد هنا بالمنظومة المنهاجية والاجتماعية: النموذج المعرفي المعياري، الذي جاءت به الدعوة الإسلامية«الدورة الوجودية للإنسان»، وعملت على تجسيده في نظام اجتماعي معيش، بديل عن النموذج المعرفي والاجتماعي التقليدي المعيش.

ولا شك أن قوة النموذج المعرفي والاجتماعي البديل، تشكل شرطا جوهريا في نجاح عملية

---

(1) ابن حبان أبو حاتم بن أحمد البستي، **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**، (مؤسسة الكتاب الثقافية،بيروت، 1407هـ-1987م)، ص118.

(2) محمد رشيد، **تفسير المنار**، 9/625-631.

(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، 2/149.

(4) عبد العزيز السيد سالم، **تاريخ الدولة العربية**، (دار النهضة العربية، بيروت، 1406هـ 1986م)، ص354.

التغيير والتحول الحضاري باستمرار، إذ كلما تجلت للناس **أبعاد الفرادة والتميز والصلاحية**[1] في النموذج المنافس للنماذج المعرفية والاجتماعية التقليدية السائدة ، كلما تعززت لدى الناس دوافع الاهتمام به، وقويت رغبتهم في التعرف عليه، واشتد حرصهم على الاستفادة منه[2]. ولذلك تحتاج الدعوات والحركات التغييرية الكبرى، لتجاوز سلطان الإلف والعادة، والارتباط النفسي والعاطفي والسلوكي والاجتماعي بالمواريث الحضارية الذاتية التقليدية* ، إلى قوة إقناعية كبرى، فيها نصيب من الإعجاز الذي يفرض نفسه على الناس، ويدفع بهم إلى التفكير الجدي والموازنات الموضوعية بين الأوضاع الحضارية القائمة، والخيارات الحضارية البديلة.

والرسول ﷺ كان على وعي دقيق وعميق بهذه القاعدة، فاستثمرها في الدعوة والبناء والمواجهة، وكان لها دور هام في عملية تحصين قاعدة الدعوة ، وشحذ روح الاعتزاز والاستعلاء الحضاري المتوازن لديها من جهة، وفي تغيير الأوضاع لصالح الدعوة الإسلامية بصورة تدريجية مطردة من جهة أخرى. وقد اتخذ تحقيق تأسيس الوعي بفرادة وأحقية مناحي المنظومة المنهجية والاجتماعية للدعوة الإسلامية وأساليب متعددة. نشير هنا إلى نماذج عن ذلك على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: نراه في التركيز على إبراز **الأبعاد الإنسانية العميقة** في المضمون المعرفي والنموذج الاجتماعي للدعوة الإسلامية، كما يتضح ذلك من آيات كثيرة، تحدثت عن الإسلام كرحمة للعالمين، وخاطبت الناس أجمعين بهدايته[3]، وتجاوزت المقاييس اللاإنسانية** التي ظل الوعي البشري الوضعي بالخصوص مشدودًا إليها ومؤطرا بها، وانقلبت عليها بالنقد وتبيان ضعفها وقصورها وخطورة استمراريتها[4]، وراحت تؤسس بدلها نموذجا معرفيا واجتماعيا مغايرا، تتحقق في ظله ومن خلاله إنسانية الإنسان بكل أبعادها.

وتكفي هنا الإشارة إلى بعض المواقف النبوية المجسّدة للتوجهات الإنسانية للدعوة. فقد ذكر عبد الله بن سلام أنه كان أول ما سمعه منه ﷺ في بداية دخوله المدينة، وكان ذلك سببا في اكتشافه لأبعاد الفرادة والأحقية في الإسلام فأسلم[5]، قوله –ﷺ- :«**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام ،وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[6]. وفي انتصاره ببدر حرص على دفن موتى خصومه[7]، ورفض رأي عمر بن الخطاب في قلع ثنيتي سهيل بن عمر[8] حتى لا يقوم خطيبا ضد الدعوة والدولة والمجتمع، وأكد على التوصية بالأسرى خيرًا[9]، وسرح بعضهم إشفاقا على

---

(1) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص 102.
(2) ابن خلدون، **المقدمة**، ص137.
* نقصد بالذاتية هنا الخصوصيات الثقافية الحضارية.
(3) البقاعي، **نظم الدرر**، 237/10.
** كالعرق واللون، والموطن، والطبقة الاجتماعية.
(4) أبو حيان الأندلسي، **النهر المادّ من البحر المحيط**، تحقيق: عمر الأسعد ، (دار الجليل، بيروت 1416هـ- 1995م)، 255/2.
(5) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 331/1.
(6) الحاكم، **المستدرك**، 13/3.
(7) ابن كثير، **السيرة**، 449/2.
(8) ابن سيد الناس، **المرجع السابق**، 412/1.
(9) ابن كثير، **السيرة**، 475/2.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ظروفهم الاجتماعية الصعبة[1].. ولا شك أن كل هذه المواقف كانت تبرز الطبيعة الإنسانية المتفوقة للنموذج الاجتماعي الإسلامي البديل، وكانت تفعل فعلها الاستقطابي في نفوس الناس تدريجيا، كما كانت تعزز قناعات قاعدة الدعوة بفرادة وأحقية ما هم عليه، فتزداد فعاليتهم الرسالية تأصّلا وانشحاذا.

النموذج التطبيقي الثاني: ونلمس أبعاده في حرصه ﷺ على إبراز **ذاتية الدعوة**، وتأكيد **تميز واستقلالية نموذجها الاجتماعي**، تعميقا لوعي قاعدة الدعوة بفرادة وتفوق وأحقية نموذجها المعرفي والاجتماعي، ومن ثم صوابية ومصداقية امتيازها، تحصينا لها من ضغوطات الواقع الثقافي والاجتماعي التقليدي القائم الذي كانت القوى المضادة تأخذه أحيانا مقياسا للمقارنة والمفاضلة للتهوين من شأن الدعوة ونموذجها الاجتماعي، فكان لا بد من التأكيد على إبراز ذاتية الدعوة، وتميز نموذجها الاجتماعي وتفوقه، استنقاذاً لقاعدة الدعوة من هذا التذبذب والاضطراب الذي يحدثه الجدل الثقافي المحتدم.

ويمكن أن نذكر هنا من مظاهر العناية بإبراز ذاتية الدعوة وتميز نموذجها الاجتماعي وإستقلالتية وتفوقه، بالإضافة إلى ما سبق، تغيير القبلة، وسن الآذان بصورته وشخصيته المعرفية والروحية والمنهجية أو التنظيمية الفريدة[2]، وسن الأعياد بمضمونها ومظهرها الإنساني الاجتماعي الروحي المتميز[3]، وبناءالمسجد بأبعاده الروحية والاجتماعية والسياسية والثقافية المتميزة كذلك[4]، وفكرة تقنين الحياة، ومظاهر التماسك والترابط والتلاحم الاجتماعي الفريدة، التي ظهرت بالمؤاخاة خاصة... فكل هذه المظاهر الثقافية والاجتماعية والسياسية، عملت على إبراز ذاتية وفرادة النموذج المنهاجي والاجتماعي للدعوة، الأمر الذي وفرّ لحركة الدعوة والبناء والمواجهة سندا عمليا هامًا، أعانها على المزيد من الأصالة والفعالية واطراد الحيوية.

النموذج التطبيقي الثالث: ونراه بكثافة في مواصلة الوحي إبراز مظاهر الفرادة والتميز والأحقية في المنظومة المنهاجية خاصة –كإطار مرجعي موجه ومؤطر للنموذج الاجتماعي– من خلال تأكيد كون الإسلام فطرة الله وصبغته[5]، وكونه بالتالي خلاصة الوعي الرسالي الذي جاءت به الرسالات جميعا[6]، ومن ثم فهو السبيل الوحيد لانسجام النشاط البشري مع سنن التسخير والاستخلاف[7]. والالتفات بعدذلك إلى تنبيه قاعدة الدعوة إلى ما هي عليه من الخيرية شحذاً لروح الاعتزاز والاستعلاء بالحق لديها[8]، وتحذيرا لها من الرضى بالدونية، والنكوص من قمم الوعي والرشادة إلى سفوح أو مستنقعات الذاتية والهوى[9] والمواريث الجاهلية المزرية بإنسانية الإنسان، التي

---

(1) ابن كثير، **المرجع نفسه**، 485/2؛ ابن سيد الناس، **المرجع نفسه**، 412/1.
(2) ابن كثير، **المرجع نفسه**، 334/2.
(3) ابن الأثير علي بن محمد بن محمد الجزري، **الكامل في التاريخ**،(دار صادر، بيروت، 1399هـ- 1979م)، 115/2.
(4) مؤنس حسين، **المساجد**، (سلسلة عالم المعرفة، رقم37، الكويت، 1401هـ- 1981م)، ص31 وما بعدها.
(5) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 289/2؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 273/2.
(6) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 727/1، 299/2.
(7) محمد رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 631/9.
(8) البقاعي، **نظم الدرر**، 207/2.
(9) البقاعي، **المرجع نفسه**، 140/2؛ ابن عاشور، **المرجع السابق**، 693/1.

يفيض الوحي في تتبع مظاهرها و تحليل وتفسير أسبابها، في عروض استقرائية لتجارب تاريخية كثيرة[1]، وخاصة تجربة بني إسرائيل الاستخلافية[2].

وبهذا الاستيعاب الشمولي المتكامل لتأكيد فرادة المنظومة المنهاجية للدعوة، وإبراز تميز نموذجها الاجتماعي وتفوقه، كان عليه الصلاة والسلام يحصّن قاعدة الدعوة، ويشحذ ألقها الروحي والفكري، وفعاليتها السلوكية، ويضع المنظومة المنهاجية التقليدية ونماذجها الاجتماعية على معك التآكل والتفكك والاضمحلال مع مرور الوقت، وقد جاءت واقعة بدركساحة ومحك اختبار حقيقي ظهر فيه جلياً مدى القمة التي ارتقى إليها وعي قاعدة الدعوة فيما يتعلق بإحساسها العميق بفرادة وأحقية المنظومة المنهاجية للإسلام ، ودور ذلك فيما أنجزته في بدر من مكاسب ذات أهمية بالغة في حاضر المواجهة الحضارية ومستقبلها ،حينما تجاوزت الصفوة البدرية عتبات القيم الثقافية التقليدية في الولاءات الذاتية والعائلية والقبلية...واستعلت عليها، والتحمت بالإسلام بصورة رائعةتبعث على الدهشة والإكبار.

شحذ الوعي السنني لقاعدة الدعوة:ونقصد بالوعي السنني هنا: تعميق إدراك قاعدة الدعوة بخضوع عملية التسخير والاستخلاف إلى سنن مطردة في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وتأسيس وعيها بهذه السنن، وبكيفية استثمارها في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وتحويل ذلك كله إلى **ثقافة مهيمنة على الفكر والسلوك ومناهج الإنجاز** في حياة المسلمين الخاصة والعامة على السواء.

ويعد هذا الوعي من أعظم ما جاءت به الدعوة الإسلامية[3]، وأهم ما حققته في الحياة البشرية، لما لهذا الوعي من علاقة شرطية جذرية بعملية التسخير والاستخلاف، ومن ثم بقدرة الإنسان على الاستثمار الشمولي الفعال والمتوازن **لميزانيته التسخيرية** العظيمة في الحياة، والاستمتاع الخصب بها،وهو يستجيب عبر هذه الثقافة السننية لتحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

وكما سبق أن رأينا في الباب الأول ، فإن القدرة التسخيرية والاستخلافية للإنسان ،ترتبط باستمرار بنوعية وحجم علاقته بالسنن الإلهية المطردة ، أي بمدى شمولية وتكامل استيعابه الاستثماري المتوازن لهذه السنن في ترقية حياته المعرفية والروحية والسلوكية والعمرانية.

وكما رأينا في الباب الأول كذلك[4]، فإن **الوعي السنني** الذي حرصت الدعوة الإسلامية على تأسيسه، تمحور حول كليات **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من جهة، وكليات **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** من جهة أخرى. وجاءت قواعد كثيرة تعمق الوعي بهذه الكليات في القرآن المكي والمدني على حدّ سواء. وسنذكر هنا نماذج من السنن التي ركز عليها الوحي في هذه المرحلة والمراحل التالية من مسيرة بناء الدولة والمجتمع، وتهيئة الأساس المعرفي والمنهجي والبشري والمادي للحضارة الإسلامية الكبرى ،لنرى فعلاً مدى العناية المكثفة للوحي بتأسيس **الوعي السنني** لدىقاعدة الدعوة ،والدور الحيوي الحاسم لذلك ، فيما أنجزته الدعوة من تحولات شاملة وعميقة في المجتمع العربي أولاً، ثم في المجتمعات الإنسانية عامة بعد ذلك.

النموذج التطبيقي الأول: وهو **قانون الابتلاء**، الذي أكد عليه الوحي والتطبيق الميداني عبر

---

(1) عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ص97.

(2) ينظر هنا في الدراسة التحليلية الهامة لمحمد أديب صالح ، **اليهود في القرآن والسنة**،(دار الهدى، الرياض، السعودية، 1993م).

(3) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 4/139–220.

(4) الفصلان الثاني والثالث خاصة.

السنة النبوية كثيرا في المرحلة المكية، وتواصل التأكيد عليه في مرحلة بناء الدولة والمجتمع. ويظهر ذلك على سبيل المثال من تنبيه القرآن المبكر في هذه المرحلة إلى **سنة الابتلاء** وتوطين قاعدة الدعوة عليها، كما في قوله تعالى:**[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ]**(1)، فالابتلاء قانون الاستخلاف والتمكين كما نُبِّه إلى ذلك ببشارة الصابرين(2)، باعتبار الصبر إحدى أهم مستلزمات استثمار قانون الابتلاء والانتفاع به.

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في التأكيد على **قانون الشكر** ونبذ الغرور، لما يؤدي إليه من فقدان التوازن، وإضعاف انشحاذ فعالية الفرد والمجتمع، والاستهانة بالتحديات، وفقدان القدرة على التقدير الموضوعي لها، مما يؤدي إلى عواقب وخيمة بعد ذلك، بخلاف الشكر فإنه يحقق توازن الموقف، ويضاعف انشحاذ فعالية الفرد والمجتمع لحماية المكاسب وطلب المزيد منها.

ولهذا نجد القرآن كثيرالتذكير للمسلمين بنعم الله عليهم(3)، وكثير التحذير لهم من البطر والرياء والاستكبار(4)، ودائم الدعوة لهم إلى الشكر والتحسيس لهم باستمرار، بالحاجة إلى عون الله وتأييده(5)، الذي لا يتحقق إلا بالوعي **بقانوني الابتلاء والشكر** ونبذ الغرور الذي دأبﷺ كذلك على مواجهته، وتأسيس موضوعية النظر والتقدير لدى قاعدة الدعوة، في مواقفها من نفسها ومن الآخرين، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال من مبادرته عليه الصلاة والسلام إلى تصحيح موقف أحد الصحابة حينما أحس بالزهو عقب انتصار بدر، فأبدى استهانته بمقاتلي قريش؛ ووصفهم بالضعف والخور فقال له ﷺ: **«أي ابن أخي: أولئك الملأ»**(6)،تنبيها للمسلمين إلى موضوعية النظرة وحسن التقدير للأمور،والأخذ بسنن الصبر والشكر في جميع الحالات التي يكون عليها المسلم، حتى يحافظ على توازنه الفكري والنفسي والسلوكي، ويضمن من ثم ديمومة فعاليته في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

النموذج التطبيقي الثالث: ونجمل(*) فيه مجموعة من السنن الهامة التي ركز عليها الوحي في هذه المرحلة، كسنة **التدافع الاجتماعي** التي تطبع الحياة البشرية وتهيمن عليها باستمرار(7). كما قال تعالى: **[وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ]**(8).

وسنة **الوراثة للإمامة الحضارية**، التي لا تتحقق إلا بنفس الشروط التي تحققت بها لمن سبق(9). كما قال سبحانه: **[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ**

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة البقرة:155،154.

(2) الرازي، **التفسير الكبير** 139/4.

(3) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 231/6؛ رشيد رضا، **المنار**، 20/10.

(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 33/10.

(5) ابن عطية، **المرجع السابق**، 230/6؛ رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 608/9- 621- 634.

(6) البيهقي، **دلائل النبوة**، 147/3.

(*)يراجع هنا تفسيرا **المنار والظلال** ،فقد وردت فيهما مادة معرفية مكثفة بهذا الشأن، في تعرضهما لسورتي البقرة والأنفال بالشرح.

(7) رشيد رضا، المرجع نفسه، 491/2-496.

(8)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 249.

(9) البقاعي، **نظم الدرر**، 151/2؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 244/2-243؛ ابن عاشور، **المرجع نفسه**، 703/1-707.

وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ][1]. وسنة ارتباط عمق التغيير الاجتماعي وشموليته واطراد حيويته بنوعية وحجم **تغيير المحتوى الداخلي** للفرد والمجتمع[2]، فيما يخص الوعي الكوني والتسخيري والاستخلافي كما قال سبحانه: [ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] [3]. **وسنة تدارك الفتن** قبل استفحال أمرها[4]، وتأثيرها السلبي على **الإرادة الحضارية للمجتمع**، كما قال تعالى:**[وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ]**[5]. وسنة تأثير الذنوب السلبي على النفوس والأخلاق والعلائق الاجتماعية، وتمهيدها لانحطاط المجتمعات، باعتبار الذنوب كالأمراض العضوية تماما في إفساد توازن النفس والمجتمع[6]، وإن اختلفت وتائر عملها وتأثيرها بالنسبة للأفراد والمجتمعات والأمم والحضارات كما سبق بيان ذلك.كما نبه على ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: **[كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ]**[7]. وسنة **خطر الظلم على التوازن الاجتماعي**، وكونه مؤذن بخراب العمران وفوات وراثة الجنة[8]. كما قال تعالى:**[وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً]** [9].

وبالإضافة إلى كل ما سبق من السنن، فقد ركز الوحي كذلك على تأسيس الوعي **بسنة الفعالية الاستثنائية**، التي يبلغ فيها مستوى الأداء مداه، من خلال الاستثمار الأمثل لسنن الآفاق والأنفس والهداية، فتتوفر لحركة الدعوة والبناء والمواجهة بذلك إمكانية استثمار **سنن التأييد** التي تضاعف فعالية الأداء وتبارك الجهد بصورة استثنائية عند الضرورة[10]، كما حدث على سبيل المثال في بدر، ونبه إليه القرآن قبل ذلك في مثل قوله تعالى: **[كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ]**[11].

فالوحي من خلال تأكيده المكثف والمتواصل على مثل هذه السنن التي ذكرنا منها عينات هنا على سبيل المثال، والتي كان الرسول -ﷺ- يرعى عملية تحويلها إلى **ثقافة فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية** لدى قاعدة الدعوة، وفرّ لحركة البلاغ والبناء والمواجهة أقوى شروط الاقتدار التسخيري، الذي يعزز موقف الدعوة والدولة والمجتمع ويقوي موقعها في حركة التدافع الحضاري المحتدم بين النموذجين المعرفي والاجتماعي لكل من الدعوة والمجتمع التقليدي.

تحرير الدعوة وقاعدتها من عقدة الممنونية: أي من شعور من يقدم لهما بعض الخدمات

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 123.

(2) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 45/10.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 54.

(4) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 373/7.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 25.

(6) ابن القيم، **الداء والدواء**، أو **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، تحقيق: عماد الدين الصبابطي، (دار الحديث، القاهرة، ط2 ،1416هـ- 1996)، ص78؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**، 46/10.

(7)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 53.

(8) ابن خلدون، **المقدمة**، 741/2؛ رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 456/1، 135/10.

(9)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 25.

(10) دروزة،محمد عزة، **التفسير الحديث**، (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1381هـ- 1962م)، 55/8؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 309/3.

(11) **القرآن الكريم**، سورة البقرة، 249.

بالمن عليهما، ومحاولة أخذ موقع اجتماعي على حسابهما، أوالعمل على ابتزازهما.. فقد حرص عليه الصلاة والسلام على تحرير الدعوة وقاعدتها من أية ضغوط أو ارتهانات اجتماعية، سواء جاءت من بعض المسلمين أنفسهم أو من القوى الاجتماعية الأخرى.

ولا يخفى مدى خطورة وقوع الدعوة وقيادتها وقاعدتها تحت وطأة الشعور بالممنونية، إذ ربما أدى ذلك إلى عقدة الشعور بالنقص ، وضعف روح الإعتزاز والإحساس بالكرامة والاستقلالية والحرية ..وهي كلها عوامل تحد من فعالية الأداء الاجتماعي لقاعدة الدعوة، وقد تؤثر فيها لذلك على أصالة الدعوة ذاتها ، وهو ما كان -ﷺ- على وعي تام به ،فعمل على حماية الدعوة منها ،والمحافظة على التوازن النفسي والسلوكي لقاعدة الدعوة كما يتضح لنا ذلك من النماذج التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الأول: ونراه على سبيل المثال في تقنين التكافل الاجتماعي بين المهاجرين والإنصار عبر المؤاخاة[1] ، والارتقاء به إلى مستوى الواجبات التي تجعل المانح أو الباذل يحس بأنه يؤدي واجباً مفروضاً عليه شرعاً،يثاب عليه من الله تعالى ، ويعاقب على التقصير فيه، كما تشعر الآخذ بأنه يأخذ حقاً مفروضاً له شرعاً ،وبذلك يتحرر الجميع من الحرج ،ومن الشعور بالممنونية أو الهوان.

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في تشريع الصدقات،واعتبار ما يقدم من مال أو خدمات أو تضحيات قرضا لله، يبطل أجره بالمن والأذى[2] ، فيأخذه المحتاج إليه بعزة نفس وإحساس بالكرامة ،لأنه يعلم أن ذلك أمر مشروع من الله تعالى ،وحق من حقوقه سبحانه، التي وضعها لصيانة حقوق المحتاج، وحفظ كرامته، وتأهيله بها للاستقلال بشؤونه مستقبلاً.

النموذج التطبيقي الثالث: ونراه في استحداث سوق خاصة بالمسلمين لا سلطان لليهود عليها[3] ، حتى يجردهم من نفوذ المحتكرين، ويقيهم من مساوماتهم ويبتعد بهم عن الابتزاز الذي يفقدهم توازنهم ، وفي ذلك كله حفظ لكرامة قاعدة الدعوة ، وتعزيز لشعورها بالعزة ، وتدعيم لتوازنها النفسي والفكري والسلوكي ، الذي يشحذ فعاليتهالخدمة الدعوة والدولةوالمجتمع بكامل طاقتها التسخيرية.

تحرير الدعوة من العواطف والخصوصيات الذاتية:والارتقاء بعلاقة الصفوة والمجتمع بالدعوة والدولة،إلى مستوى رفيع من التجرد والموضوعية والانضباط بمصلحتهما العامة، والابتعاد عن التحكم فيها بوعي أو بدون وعي قدر الإمكان، وجعلها -أي الدعوة والدولة-مخدومةلا خادمة،وعدم ربطها التعسفي بالأحوال الذوقية والعاطفية أو الخصوصيات الذاتية للأفراد والجماعات، محافظة على أصالتها وحريتها وتوازن موقفها. الذي به تتوازن حركة البلاغ والبناء والمواجهة وتطّرد فعاليتها.

وقد أثبتت الخبرة الإنسانية الطويلة ، بأن ارتقاء وعي الصفوة خاصة وقاعدة المجتمع عامة إلى مستوى التجاوب الواعي مع مصلحة الدعوة والدولة والمجتمع، والابتعاد عن الذاتية والأنانيةفي العلاقة بها، من أقوى شروط فعالية وأصالة أدائها الاجتماعي، في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد[4] وهو ما كان عليه الصلاة والسلام يعمل بلا هوادة على ترسيخه لدى قاعدة الدعوة، كما نرى ذلك على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية:

---

(1) ابن حجر، **فتح الباري**، 317/7.

(2) أبو زهرة، **خاتم النبيين**، 663/2-670.

(3) السمهودي نور الدين علي بن أحمد، **وفاء الوفاء بأحوال المصطفى**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط4، 1404هـ 1984م)، ص747.

(4)ابن خلدون، **المقدمة**، ص146-147؛ تويبني، **مختصر دراسة للتاريخ**، 181/3،149.

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه على سبيل المثال من امتناعه عليه الصلاة والسلام عن أكل طعام فيه بصل قدم له في بيت أبي أيوب الأنصاري بعد الهجرة، وأمر غيره بالأكل[1]، تنبيهاً لقاعدة الدعوة، أن الأمور الذوقية أو الخاصة، وإن صدرت من ذوي الشأن، لا ينبغي لها أن تأخذ طابع الإلزام والتعميم بالنسبة للآخرين،بل يجب التنبيه عليها تحريراًللناس والدعوة منها ،ما دامت لا تدخل في نطاق القيم العامة، ذات النفس السنني العمومي المطرد.

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في حرصه عليه السلام على عدم استعمال سلطته في إطلاق سراح زوج ابنته أبي العاص[2] وعمه العباس الذي رغب إليه بعض الأنصار أن يعفيه من الفداء، فرفض ذلك[3]، وأصر على مساواته بغيره من الأسرى، ما دام قادراً على فداء نفسه، وقال لهم :«والله لا تذرون منه درهماً» [4]. وفي ذلك تحرير للدعوة من العواطف والخصوصيات ،وتعليم لقاعدة الدعوة كيف ترتقي بوعيها وعلاقاتها مع الدعوة إلى مستوى الواجبات التي يجب أن تكون فوق الرغائب والذاتيات .

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من موقف أبي حذيفة الذي استثقل أمر رسول الله ﷺ بعدم قتل بني هاشم ورجال سماهم يوم بدر، ثم تبينت له موضوعية الموقف النبوي بعد أن أوضح له عليه الصلاة والسلام أن أهله –أهل أبي حذيفة– خرجوا جادين في قتال المسلمين غير مكرهين على ذلك، بينما خرج من سماهم عليه الصلاة والسلام مكرهين [5]. زيادة على ما في موقفه ﷺ من سياسية بعيدة النظر، مبنية على تشجيع قاعدة المجتمع عامة على تقديم الخدمة للدعوة، والوفاء لكل من قدم هذه الخدمات ورد الجميل له، تأليفا له على الإسلام، أو على الأقل تجميداً لدوره ضد الدعوة والدولة والمجتمع.

فكل هذه المواقف وغيرها كثير [6]، تبين كيف كانت الموضوعية وتجريد الدعوة من العواطف والخصوصيات الذاتية، معلما بارزاً من معالم منهج الدعوة والبناء والمواجهة في حركته ﷺ، ولا يخفى أثر ذلك في أصالة وفعالية الجهد، وحماية منجزات البناء، وتربية قاعدة الدعوة على الانضباط الصارم بالواجبات ، وتعميق وعيها بأن ذلك هو الشرط الأساس في استحقاق الحقوق،ووفرة العدل والأمان والحرية والكرامة في المجتمع، زيادة على كونه معياراً للنضج والخيرية، ومقدمة بين يدي التأييد والفوز برضوان الله تعالى بعد ذلك.

القدرة على احتواء التوترات:ونقصد بالتوترات هنا: مواجهة البلبلة والتناقض، وفتور الهمة، وروح التشاؤم، والاختلاف المرضى، وتحويل ذلك كله إلى وعي معرفي وسلوكي ،وتوثب روحي ، عبر تهدئة الأوضاع ونزع فتائل التوتر وامتصاص مبرراتها ، وسحب أوراق الضغط على الدعوة من أيدي الخصوم، وتعريتهم أمام قاعدة المجتمع.

النموذج التطبيقي الأول: كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في سرعة إبطال مفعول تحريش اليهود والمنافقين بين الأنصار باستثمار تاريخ الصراع بينهم، فقد بادر عليه الصلاة والسلام إلى

---

(1)أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الأشربة، باب إباحة أكل الثوم (**شرح النووي** 9/14).
(2)ابن هشام، **السيرة**، 314/2.
(3) البيهقي، **الدلائل**، 142/3.
(4) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المغازي، (**فتح الباري** 373/7).
(5) البيهقي، **المرجع نفسه**، 141/3.
(6) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 302/1– 313– 316.

استيعاب الموقف، وتحويله إلى دروس تطبيقية في نقد قيم المجتمع التقليدي، وتعميق وعي قاعدة الدعوة بعظمة وامتياز القيم الجديدة التي تحملها الدعوة، وكشف جانب من مناهج الصراع الفكري الموجه ضد الدعوة والدولة والمجتمع، وتعرية بعض القوى الاجتماعية والسياسية التي تقف وراءه، وقطع الطريق عليها.

النموذج التطبيقي الثاني: وفي مواجهته لآثار تحويل القبلة[1]، التي حاولت القوى المضادة استثمارها لبلبلة قاعدة الدعوة وضرب توازنها النفسي والفكري والسلوكي، فقد حول -ﷺ- ذلك إلى مادة تربوية وتعبوية هامة عزز بها وعي قاعدة الدعوة بتفوق المنظومة المنهاجية لدعوتهم، وتخلف المنظومات المنهاجية التقليدية المناوئة لها، كما عزز وعيهم بأساليب الصراع الفكري التي تعتمدها القوى المضادة في التشويش على قاعدة الدعوة، وتبديد طاقتها، وفي التأثير على الرأي العام وصرفه عن الدعوة.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من ضغط أوضاع التعبئة القصوى لقاعدة الدعوة على كثير من الناس، الذين أصبحوا يتساءلون: هل يأت علينا زمان نبيت فيه مطمئنين من غيرخوف و سلاح[2]، وكيف واجهه -ﷺ- ببث الأمل، وتعميق الوعي بسنن التسخير، الذي يعطي الاطمئنان الآخذ بها، بأنه منصور وممكّن وظاهر لا محالة، وإن قضى نحبه قبل ذلك، نال التمكين الأخروي الخالد. و من سرعة امتصاصه لقلق بعض المسلمين الشديد[3] وخوفهم في أول مواجهة حاسمة بينهم وبين قريش ببدر وعن طريق التعبئة الروحية من جهة، والتعبئة التنظيمية من جهة أخرى، التي منحت القلة المسلمة فعالية إنجازية قصوى ، تضاءلت أمامها وانهارت القوى الإمكانية الضخمة لخصومهم في ساعات.

فالقلق والتوتر والتناقضات الداخلية... تتحول بسرعة إلى وعي راشد بسنن التسخير والاستخلاف، وإلى سلوك فعال يعزز توازن شخصية الفرد المسلم، ويرقي مستوى أدائه الروحي والاجتماعي.، وإلى إجراءات تنظيمية تعزز ذلك وتعمقه، وتحمي حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

القدرة على استثمار تناقضات القوى المضادة: ونعني بها هنا إرباك موقف القوى المضادة للدعوة، وتجريدها من الموقع الفاعل في عملية المواجهة، وجعلها باستمرار في وضعية الدفاع والانسحاب اللاهث وراء ردود الأفعال، التي غالبا ما تتسم بالعاطفية وعدم النضج واللافعالية. وتكشف نواقص القوى المضادة وضعفها لقاعدة المجتمع، فتزداد مع مرور الوقت ارتياباً في أمرها، وانفصالا عنها، وانفتاحاً على الدعوة واقتراباً منها.

النموذج التطبيقي الأول: وهو ما نلحظه على سبيل المثال في إسلام عبد الله بن سلام، وكيف استُثمر لإرباك موقف اليهود وكشف تناقضهم الفاضح، عبر انقلابهم في لحظة واحدة من الاعتزاز بمرجعيته الفكرية والسياسية لهم، إلى البراءة منه والتهوين من شأنه[4]،وما يترتب عن ذلك من اهتزازات في موقف الرأي العام منهم.

النموذج التطبيقي الثاني: نلحظه كذلك في سياسة الهجرة وتفريغ المجتمع القرشي من قواه

---

(1) السيوطي، **الدر المنثور**، 442/1 وما بعدها.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 6/3.
(3) القرطبي، **أحكام القرآن**، 351/7.
(4) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنهار ،باب كيف آخى النبي بين أصحابه. **(فتح الباري** 319/7)

البشرية، وخلخلة كيانه الاجتماعي[1]، وجعل قيادته السياسية تتصرف تحت الضغط باستمرار،فلا يعرف موقفها توازناً أبداً، فقد ألح-ﷺ- على المسلمين بالهجرة، واعتبر ذلك فرضاً وجهاداً ومقياساً للنضج الإيماني، والولاء للدعوة والدولة والمجتمع،فاجتهد الناس في الهجرة من مكة خاصة، مخلفين وراءهم جدلاً سياسياً وثقافياًمتزايداً في المجتمع، وقلقاً متفاقماً على مستقبله، كان له صداه في ارتباك الموقف السياسي لقريش باستمرار، لعل أخطر مظهر له هو صدمة بدر، التي عمقت ذلك الارتباك رغم الانتصار الذي حققه بأحد بعد ذلك.

النموذج التطبيقي الثالث: ونلحظه أيضا في استثمار الصراع الثقافي بين اليهود والنصارى في سحب الثقة منهما معًا، عبر كشف الزيف الذي ينطوي عليه موقف كل منهما، وتقديم البديل المرجعي الصحيح في القضايا العقدية والتاريخية التي يثار حولها الجدل بينهما[2]، ويتكيء عليها كل منهما في تعزيز موقفه، وتدعيم موقعه في معترك التدافع من أجل تأكيد الشرعية، والاستحواذ على قاعدة المجتمع، والاستئثار بالمزيد من الامتيازات المعنوية والمادية.

ومواقف استثمار تناقضات القوى المضادة كثيرة[3] في هذه المرحلة والمراحل التالية من حركة الدعوة والبناء والمواجهة، تبين لنا فعلا بعدًا آخر من أبعاد المنهج في الحركة النبوية، الذي كان له دور هام في حماية الدعوة والدولة والمجتمع، بفعل ما كان يؤثر به سلبا على فعالية الجهد المضاد للدعوة آنيا ومستقبليا.

القدرة على الرعاية المكثفة لقاعدة الدعوة: ونقصد بها حرصه عليه السلام الشديد على إشعار قاعدة الدعوة بأنها في صميم اهتماماته اليومية،وتعميق التواصل الروحي بينها وبينه ، لما لذلك من أثر كبير في انشحاذ فعاليتها الاجتماعية في خدمة الدعوة والدولة والمجتمع، والجد في حماية منجزاتهاوالارتفاع إلى مستوى التفاعل الموضوعي الرفيع مع المصالح العليا لحركة التغيير والبناء والمواجهة ، عندما تدرك -أي قاعدة الدعوة-أن مصلحتها هي قطب الرحى في كل ما يدور من صراع.

النموذج التطبيقي الأول: ونلحظ هذه الرعاية المنتجة لهذه الآثار، في الإحساس بآلام قاعدة الدعوة، والتجاوب العميق مع همومها ومشكلاتها، والحرص على مساعدتها في تجاوز ذلك، ما أمكنه إلى ذلك من سبيل عليه الصلاة والسلام، كما يتجلى ذلك على سبيل المثال، في دعائه للمهاجرين الذين وجدوا صعوبة في التكيف مع جو المدينة[3]، حيث لا ينبغي أن ينظر هنا إلى الدعاء نظرة تقليدية محجوبة عن الآثارالنفسية والاجتماعية بهذا الفعل النبوي ، وهو يستثمر سنن التأييد في التخفيف عن قاعدة الدعوة ، ويشحذ روح المكابدة لديها، وقد أحس الصحابة بأثر هذه الرعاية فتجاوبوا معها، وازداد جلدهم، حتى تجاوزوا ما كانوا يجدون من المتاعب، وصارت المدينة حيهم ومسكنهم بعد ذلك.

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في اقتسامه الدائم لطعامه مع أهل الصفة، وجلوسه معهم مطولا[4]، وتفقده إياهم، ووصايته بهم خيراً، وحرصه على استثمار وقتهم في التعليم والتربية والعمل،

---

(1) الرازي، **التفسير الكبير**، 3/4 وما بعدها، دروزة، **التفسير الحديث**، 7/ 224 وما بعدها.

(2)ابن هشام، **السيرة**، 197/2 وما بعدها.

(3) الديار بكري حسين بن محمد، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس.** (مؤسسة شعبان للنشر، تونس، د.ت) 340/1؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**، 316/2.

[3] ابن كثير، **السيرة**، 315/2.

[4] الحاكم، **المستدرك** 15/3 وما بعدها.

والحدب عليهم، ورفض أي مساس بكرامتهم، أو إساءة لهم،

النموذج التطبيقي الثالث: ونلمسه في خدمته لأصحابه بنفسه [5]، ومزاحه معهم وتكنيتهم بأحب الأسماء إليهم [1]، وشكر من يقدمون خدمات للدعوة ، وإكبار جهودهم، والتنويه بها.

ولا شك أن هذه الرعاية المكثفة تشكل عاملا هاما في التحام قاعدة الدعوة وقيادتها، وشحذ روح المكابدة والمصابرة التي تعين على تجاوز الصعوبات المرحلية للدعوة والدولة والمجتمع، وتساعد على استثمار إمكاناتها بفعالية في عملية البلاغ والبناء والمواجهة.

المحافظة على أولوية الاستيعاب في حركة الدعوة والبناء والمواجهة: أي إبقاء منطق الانفتاح على قاعدة المجتمع العريضة، بكل قواها الاجتماعية، وتياراتها الفكرية، وفعالياتها السياسية، ومحاولة استقطابها واحتوائها تدريجيا، هو الموجِّه والمؤطِّر الرئيس لحركة الدعوة والبناء والمواجهة باستمرار، حتى في أقصى مراحل ومستويات التدافع، انسجاما مع روح الرسالة وأهدافها الإنسانية، وكونها رحمة للعالمين .فأولوية الاستيعاب ظلت هي المحور الكلي الذي تدور عليه حركته ﷺ، كما نلحظ ذلك في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: نلحظه في الحوار المكثف المستمر مع كل القوى الاجتماعية[1]، وخاصة تلك التي لها نفوذ معنوي أو سياسي على قاعدة المجتمع، كعلماء اليهود وأحبارهم، وقيادات القوى الثقافية، حيث يلحظ من يتأمل في سورة البقرة التي نزل جلها في هذه المرحلة، كثافة المادة الحوارية السجالية مع هذه القوى، والتي كان الوحي يستهدف من ورائها استيعاب هذه القوى أو تحييدها وتجميد دورها في حركة التدافع، أو تقويض نفوذها إذا تعذر ذلك كله،

النموذج التطبيقي الثاني: ونلمسه في فتح آفاق الاستدراك للمخطئين[2] في حق الدعوة، والاقتراب منهم، والحرص على تأليفهم، وتحسيسهم بالاهتمام والاحترام، وبكون الدعوة لا تسلبهم امتيازاتهم الاجتماعية بل تهذبها وترقيها، كما فعل –ﷺ– مع ابن أبي ، حين وقف أمام بابه غلام يأبه به ،ورده[3] ظناً منه بأن ذلك يسيء إلى النبي –ﷺ– ، في الوقت الذي شكل عامل عزل لابن أبي اجتماعياً، وتقليصاً لدوره.

النموذج التطبيقي الثالث: ونراه في الحرص على إرساء ثقافة التعايش، التي جسدتها المواثيق على المستوى التنظيمي [4] ، وجسدتها التوجيهات القرآنية والممارسات النبوية على المستوى المبدئي ، عبر إظهار التسامح[5] وترغيب خصوم الدعوة في إعادة تقييم الموقف منها بموضوعية، كما يتضح ذلك مثلا من قوله تعالى:**[قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ]**[6]. وقوله سبحانه وتعالى مرغبا لأسرى بدر في التقييم الموضوعي للموقف بعد الصدمة المزلزلة:**[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي**

---

[5] البلاذري، **أنساب الأشراف**، 272/1.

[1] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: بشار عواد معروف،(مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ–1996م) ،299/1.

(1) يراجع هنا تفسير سورة البقرة في **تفسير الطبري، والمنار، والتحرير والتنوير.**

(2) العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، 206/1.

(3)الديار بكري ، **تاريخ الخميس**، 340/1؛ عرجون، **محمد رسول الله**، 601/2.

(4)ابن هشام، **السيرة**، 147/2.

(5)ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 80/10.

(6)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ][1].

القدرة على تجميد وتحييد قاعدة المجتمع: عند عدم القدرة على استيعابها السريع، فيكون من مصلحة حركة التدافع والمواجهة، تجميد وتحييد ما أمكن من القوى الاجتماعية المناهضة للدعوة، أو التي يمكن أن تناهضها مستقبلا، إضعافا للقوى المضادة، وتقليصاً لجبهات المواجهة، وإتاحة لفرصة التفكير الموضوعي في مجريات الأحداث لبقية القوى المراقبة للأوضاع... وذلك كله يصب في مصلحة الدعوة في نهاية المطاف، أي في أولوية الاستيعاب.

النموذج التطبيقي الأول: وأمثلة تطبيق هذه القاعدة كثيرة في هذه المرحلة والمراحل التالية، نذكر منها الموادعات التي عقدها ﷺ مع بعض القبائل كبني ضمرة[2] وبني مدلج[3]، وجاء التأكيد فيها على التعاون المشترك وعدم مدّ يد العون إلى قريش وحلفائها.**النموذج التطبيقي الثاني:** و نراه في مفعول صحيفة المدينة[4] التي جمّد بها ﷺوالقوى اليهودية والنفاقية وحيدها،ولو مؤقتا عن الصراع ومحاولة مد يد العون لقريش، أو مساعدتها بأي نوع من أنواع المساعدة، وهو ما أتاح للدعوة في هذه المرحلة الحساسة بعض الاستقرار لمجابهة مهام تنظيم قاعدة الدولة، وتأمين حاجات استقرار المهاجرين، وتحقيق تكيفهم الاجتماعي بسرعة، للتفرغ لأعباء الدعوةوالبناء والمواجهة.

النموذج التطبيقي الثالث: ونلحظ هذه السياسة كذلك بصورة جلية في الأبعاد الإعلامية والوقائية للسرايا العديدة[5]، التي أدت دوراً هاما في إشعار القبائل المحيطة، بقوة الدعوة والدولة والمجتمع، فظلت ملتزمة موقف الحياد بصفة عامة. وهو ما أتاح له ﷺ فرصة تجاوز هشاشة الوضع الانتقالي بالمدينة، وبناء القدرات الذاتية للدولة و المجتمع تدريجيا.

ونشير في خاتمة هذه العينات من قواعد المنهج التي اعتمدها ﷺ في الدعوة والبناء والمواجهة، إلىعناوين العديد من القواعد الأخرى التي كان لها تأثير على المنهج في هذه المرحلة والمراحل التالية،ولم يسعفنا الحيز المكاني لهذا الفصل لاستيعابها، كاستثماره عليه السلام **قاعدة الصدمات المرجعية**[6] بالنسبة لخصوم الدعوة، **والصدمات التمحيصية** بالنسبة لقاعدتي الدعوة والمجتمع[7]. وقاعدة **المرونة الحركية المنضبطة**[8] لضمان أصالة وفعالية الأداء في الوقت نفسه وقاعدة **تقويض مصداقية المرجعية المعرفية والفكرية للمجتمع التقليدي**[9]. وقاعدة **تغيير المنعكسات**

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 71.

(2)خليفة بن خياط العصفوري، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق: سهيل زكار، (منشورات وزارة الثقافة؛ سوريا، 1969م)، 15/1- 16.

(3) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 318/1- 356-357.

(4) عون الشريف، **نشأة الدولة الإسلامية**، ص27.

(5) بريك محمد بريك ضياء العمري، **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة**، (دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، 1417هـ-1996م)، ص50.

(6) البلاذري، **أنساب الأشراف**، 143/1، رشيد رضا، **تفسير المنار**، 50/10-83- 86-93.

(7) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 22/2؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 15/8- 74.

(8) ابن عبد البر، **الدرر**، ص154؛ ابن سيد، **عيون الأثر**، 387/1؛ العسقلاني، **المواهب اللدنية**، 309/1.

(9) القاسمي، **محاسن التاويل**، 165/2-167-173؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**،190/1-361؛ دروزة، **التفسير الحديث**،181/7.

الشرطيةالموروثة من الثقافة التقليدية[1]، وقاعدة **الوعي الاستباقي أو الاستشرافي** التوقعي الدقيق[2]، وقاعدة **التبين والتثبت من الأمور** قبل اتخاذ الموقف منها[3]، وقاعدة **استثمار المعلوماتية** والعناية الشديدة بها[4]. وقاعدة **استيعاب رشد الخبرة الإنسانية** دون عقدة استكبار أو إحساس بالدونية[5]. وقاعدة تأسيس **الوعي بالواقع الموضوعي وقوى التدافع الفاعلة فيه والمنفعلة به**[6]. وقاعدة **استثمار الوعي التاريخي** في الدعوة والبناء والمواجهة وتعميق وعي قاعدتي الدعوة والمجتمع به[7]، وقاعدة **تأصيل الوعي النقدي البرهاني**[8] لدى قاعدة الدعوة، واستثماره في الجدل الثقافي وفي الحكم على الأمور وبناء المواقف منها.

فكل هذه القواعد كان لها حضور وتأثير عميق في منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، كما يتجلى ذلك من نصوص القرآن ومن تطبيقات الرسول ﷺ وهو يبلغ الدعوة ويتمثلها، ويبني الدولة والمجتمع، ويواجه التحديات الداخلية والخارجية التي كانت تعترض طريقه.

ويبقى الآن أن نعرف مدى أصالة وفعالية هذه القواعد في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، باعتبار الأمور بمقاصدها ونتائجها المطابقة لذلك.

منجزات الدعوة في هذه المرحلة:يتعلق هذا المحور من الفصل لمحاولة تقييم منجزات الأداء النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة، على ضوء:

أهداف المرحلة وتحدياتها من جهة..

وموقع منجزات هذه المرحلة من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع، وتعميق تأسيس الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوةمن جهة أخرى.

ولا يخفى مدى أهمية دلالة منجزات عمل ما على نجاحه من ناحية، وعلى أصالة وفعالية منهج التغيير والبناء والمواجهة في هذا العمل من ناحية أخرى. فالمنجزات المتناغمة مع الأهداف والمستجيبة للتحديات، محك هام في عملية تقييم جهود التغيير والبناء، والحكم على مدى نجاعة المناهج المعتمدة، ومن ثم مصداقية المشروع كله بعد ذلك، وأحقيته بالتالي في الاتباع والسيادة.

ففقه المراجعة والتقويم منهج قرآني صميم، يلحظ **في المنطق السنني** الذي جاء الوحي يؤسس الوعي به، عبر تأكيده على ارتباط النتائج بالمقدمات[9]، وتأصيله لفقه المصالح والمآلات[10]، ودعوته المكثفة إلى دراسة العواقب[11]، واهتمامه المركز بالفقه التاريخي أو الحضاري المقارن في هذا

---

(1) ابن سيد الناس، **عيون الأثر** 1/327- 330-414؛ عبد الحليم أبو شقه، **تحرير المرأة**، (دار القلم، الكويت؛1413هـ-1994).

(2) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 2/2- 6- 7- 11-34- 37؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 10/ 52.

(3) البلاذري، **أنساب الأشراف**، 1/279.

(4) خليفة بن خياط، **تاريخ ابن خياط**، 1/23؛ الذهبي، السيرة، 1/299-302؛ ابن سيد، **عيون الأثر**، 1/383- 387-408.

(5) البيهقي، **الدلائل**، 3/110؛ ابن حجر، **فتح الباري**، 7/287؛ ابن عاشور، **المرجع نفسه**، 1/459- 739.

(6) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 2/47؛ دروزة، **التفسير الحديث**، 7/178- 181- 193-196.

(7) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 1/37؛ دروزة، **التفسير الحديث**، 7/160-162-183.

(8) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 1/450؛ الرازي، **التفسير الكبير**، 5/4.

(9) القاسمي، **محاسن التأويل**، 17/230.

(10) الشاطبي، **الموافقات** 4/140.

(11) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 10/109؛ ابن عاشور، **التحرير و التنوير**، 14/151.

المجال، وتنويهه المستمر بقيم المحاسبة والنقد[1]، والتوبة[2]، وتخطيط الجهد... باعتبارها قيما عملية مؤسِّسة للوعي والفقه التقييمي، الذي يجعل حركة البناء في حالة تجدد أصيل وفعال ومطرد،هادف ومخطط ومراقب.

منجزات الدعوة على مستوى مواجهة تحديات الوضع الانتقالي للدعوة:على هذا المستوى نجح الرسول ﷺ في تسوية الكثير من المشكلات التي كانت تواجه الدعوة والدولة والمجتمع.

فقد تمكن من **ضمان أمن قيادة الدعوة وقاعدتها معًا**[3]، ولم تُسجل طيلة هذه المرحلة إلا خسائر طفيفة في الأنفس في معركة بدر بالخصوص. وهذا دون شك مكسب استراتيجي كبير في الظروف الهشة التي كانت تجتازها الدعوة والدولة والمجتمع بالمدينة، وسط تحديات داخلية وخارجية كبيرة.

تسوية مشكلة **تكيف المهاجرين واندماجهم في المجتمع المدني الجديد** بسرعة، وتوجيه طاقاتهم[4]، نحو الدعوة والبناء والمواجهة، فقد تمكن عليه الصلاة والسلام من إدماج المهاجرين في المجتمع، وتأليف وحدة اجتماعية متماسكة بينهم وبين الأنصار، بلغت مستويات رفيعة ونموذجية من الترابط والتكامل والانسجام الاجتماعي الفريد[5]، الذي أعطى للدعوة والدولة والمجتمع قوة ومنعة ذاتية كبيرة من ناحية، وقدم صورة حية مؤثرة عن نموذج المجتمع الذي يبشر به الإسلام ويسعى لبنائه من ناحية أخرى.

تحقيق مستوى هام من **الاستقرار الاجتماعي والسياسي بالمدينة**، وضبط العلاقات والأوضاع بها تدريجيا، وبناء سلطة مرجعية مركزيةللمجتمع المدني الجديد،على طريق تحويله إلى مجتمع إسلامي نموذجي بعد أن ظل فترة تتنازعه مراكز قوى ومراجع عديدة متصارعة. وهو إنجاز كبير جدًّا للدعوة والدولة والمجتمع، سيكون له أثر بالغ وحاسم في حركة الدعوة والبناء والمواجهة في كل مراحلها بعد ذلك.

ويلحق بما سبق، تمكنه من **تجميد وتحييد القوىالداخلية المضادة للدعوة والدولة والمجتمع** مرحليا، ممثلة في اليهود ذوي النفوذ الاجتماعي الكبير بالمدينة[6]، والمنافقين ذوي النفوذ الاجتماعي والسياسي الهام كذلك، باعتبارهم أو عدد هام منهم على الأقل من ذوي المكانة في المجتمع اليثربي قبلا[7]. وهو ما منح الدعوة والدولة والمجتمع فرصة ثمينة في هذه المرحلة الحساسة، لاستجماع بعض شروط القوة الذاتية وتجاوز مراحل الخطر المحدق بها من كل جانب.

منجزات الدعوة على مستوى ضمان استمرارية حركة الدعوة والبناء:على هذا المستوى نجح كذلك ﷺ في تحقيق التوازن الفعال في أبعاد حركته، فلم يهيمن جانب المواجهة الذي كانت الظروف تضغط عليه، على جانبي الدعوة والبناء، أو أي من هذين على الموقف، بل استطاع عليه الصلاة والسلام أن يعطي لكل بعد في حركته الثلاثية ما كان يستحقه من الاهتمام، فجاء السير شاملا متكاملا،

---

(1) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، 400/4.
(2) الغزالي، **المرجع نفسه**، 2/4.
(3) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص.(**شرح النووي**،182/15)
(4) عبد الله إدريس، **مجتمع المدينة في عصر الرسول**-ﷺ-، ص103.
(5) ابن كثير، **التفسير**، 342/3.
(6) عبد العزيز بن إدريس، **المجتمع المدني في عهد الرسول** -ﷺ-، ص44.
(7) بيضون، **الرسول والأنصار**، ص75.

متسما بالأصالة والفعالية والاطراد.

فتواصلت في هذه المرحلة عملية التشريع و**بناء المنظومة القانونية أو التشريعية للدعوة والدولة والمجتمع**، وتجاوز المشكلات المختلفة التي كان يطرحها الفراغ القانوني، والتحكم تدريجيا في العلاقات الاجتماعية، وتخليص المجتمع من عوامل التوتر والصراع والاهتلاك. زيادة على ما تؤديه عملية التشريع من دور هام في **بلورة ملامح نموذج المجتمع الإسلامي الجديد**، الذي يأخذ المجتمع التقليدي في الذبول والاضمحلال أمام إشعاعه القوي وتفوقه البيّن.

ففي هذه المرحلة تم تشريع الجهاد وبناء الوعي به[1]. كما تم تشريع قسمة الغنائم[2]، وتحويل القبلة، وسن الآذان، وزكاة الفطر، وصلاة العيد وسننه وآدابه، وفرض الصيام وفقهه[3]، والعناية المكثفة بالتضامن الاجتماعي، وزيادة الصلاة الرباعية ركعتين[4]، كما تم التأكيد على سلطة القانون، ومرجعية الكتاب والسنة في ذلك* ،وتشريع الشورى للتعليم والتربية والبناء والوقاية ...ووضعها موضع التطبيق الجدي في إدارة شؤون الدولة والمجتمع.

كما **تواصلت عملية البلاغ والحوار والتعليم والتربية** بكل حيوية، داخل المجتمع المدني وخارجه، عبر حركة السرايا التي كانت لها آثار إعلامية كبيرة، والجدل الثقافي المكثف الذي كان يديره القرآن حول المجتمعات التقليدية ومرجعياتها العقدية والمعرفية، ومنظوماتها السلوكية والاجتماعية والسياسية، والمجتمع الإسلامي البديل ومرجعيته العقدية والمعرفية، ونموذجه الاجتماعي المتميز، مستهدفا بذلك زلزلة ثقة قاعدة المجتمع التقليدي في مواريثها المعرفية والثقافية والاجتماعية.. المناقضة للوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي الحق، وفك ارتباطهم بالمجتمع التقليدي، وفسح المجال أمامها نحو المجتمع الإسلامي الجديد من جهة، وتربية قاعدة الدعوة وتأسيس وعيها العقدي والتسخيري والاستخلافي، وإحكامه من جهة أخرى.

وقد آتت عملية البلاغ والحوار والتربية ثمارها فعلا، كما يدل على ذلك تزايد عدد الداخلين في الإسلام، والداخلين معه في اتفاقات حسن الجوار والتعاون المشترك، والمهتمين بمسيرة الدعوة وآفاق المواجهة بينها وبين القوى المضادة لها، وتعمّق وعي قاعدة الدعوة العقدي والتسخيري والاستخلافي، وانشحاذ فعاليتها الروحية والسلوكية والاجتماعية، من خلال تجاوبها العميق مع آفاق الدعوة، ومسؤوليات بناء الدولة والمجتمع، واضطلاعها بواجباتها في الدعوة والبناء والمواجهة بصورة نموذجية فذة في التاريخ، عبر عنها التلاحم الاجتماعي في مجتمع المدينة، والاستعلاء بالإسلام على كل المواريث التقليدية وفك الارتباط بها، والولاء العجيب للدعوة والدولة والمجتمع، والمساهمة بفعالية قصوى في بنائها والتمكين لها بالغالي والنفيس.

وقد جاءت الهجرة بتبعاتها وابتلاءاتها، ومواجهة قريش ببدر بابتلاءاتها وتحدياتها كذلك كمحك قياسي على مستوى نجاح حركة البناء في هذه المرحلة، حيث ظهر الوعي العميق بالإسلام لدى قاعدة

---

(1) جميل عائد علي الجبوري، **الجهاد في سبيل الله وتحرير الإنسان**، (مطابع الرشيد، المدينة المنورة، ط2، 1414هـ-1994م) 59/1.

(2) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 400/2.

(3) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 276/2.

(4)أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب مناقب الأنصار، باب التاريخ.(**فتح الباري**، 314/7).

* انظر النصوص القرآنية والحديثية الكثيرة ، التي أكدت على طاعة الله ورسوله وأولي الأمر في هذه المرحلة من الدعوة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدعوة، وظهر تبعا لذلك الوعي التسخيري والاستخلافي الذي أخذت ملامحه تتجسد في الفكر والسلوك، والعلاقات، والقدرات الانجازية.
وبجانب تواصل عملية التشريع والبلاغ والحوار والتربية بكل فعالية واطراد، تواصلت كذلك عملية البناء الاجتماعي والسياسي للدولة والمجتمع، فكان المسجد كمؤسسة روحية واجتماعية وسياسية وتربوية، وكان نظام السرايا والنقباء... كمؤسسات للتدريب القيادي والعسكري، وشحذ الفعالية التسخيرية والاستخلافية لقاعدة الدعوة، وكانت قيم التكافل والشورى والأفراح... وغيرها من الأحكام تتحول بدورها تدريجيا إلى مؤسسات لتنظيم وتأطير الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي الجديد.

وبذلك كله أخذ نموذج المجتمع الإسلامي يستكمل ملامحه المتميزة، ويؤثر تدريجيا على محيطه، ويتحول مع مرور الزمن إلى مركز استقطاب وقوة استيعاب فعالة، تساهم بحيوية متزايدة في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، في الوقت الذي أخذ فيه وضع المجتمع اليقليدي يتعقد ويتدهور تدريجياً.

منجزات الدعوة على مستوى تطويق وتفكيك القوى المضادة: وكما نجح ﷺ على المستويين السابقين، وحقق فيهما نتائج ومنجزات هامة، نجح كذلك على مستوى تطويق القوى المضادة للدعوة والدولة والمجتمع **وتفكيك فعاليتها الاجتماعية والسياسية**، وإضعاف موقفها مع مرور الوقت.

فقد استطاع ﷺ أن يوجّه ضربات محكمة **لمضغة الصراع ومحوره** –قريش- عبر تواصل حركة الهجرة وتفريغ المجتمع القرشي من جزء هام من قواه البشرية ذات الشأن[1]، وإحداث **ارتباك متزايد المضاعفات** في داخله، من خلال ما أحدثه ذلك من جدل وفرز وإعادة تمحور لقواه الاجتماعية[2]، وخاصة مع تزايد ضغط حركة السرايا التعرضية على حياته الاقتصادية[3]، والضربة الموجعة التي هزّت هيبته ببدر، وأضعفت موقفه أمام القوة الإسلامية الناشئة، وأمام الرأي العام بالمنطقة وخارجها، حيث بلغت أصداء الهزيمة الحبشة[4].

كما استطاع عليه الصلاة والسلام أن يحيّد أطرافاً عديدة من قوى المواجهة الأخرى المرتبطة بمضغة الصراع ومحوره من القبائل المحيطة بمكة والمدينة، سواء عن طريق الموادعات، أو عن طريق المفعول الإعلامي لحركة السرايا التعرضية والاستعلامية والدعوية، التي كانت نشطة جدًّا بدءا من النصف الثاني من هذه المرحلة[5]، وقد امتد هذا التجميد والتحييد ليشمل اليهود والمنافقين بالمدينة كما لاحظنا ذلك سابقا، قبل أن تبدأ عمليات تأديب اليهود وشل فعاليتهم في الصراع في المراحل التالية، بعد أن تمكنت الدعوة والدولة والمجتمع من بعض القوة والنفوذ وتجاوز عتبات الخطر.

وينبغي أن نسجل هنا، أن أقوى مظاهر تطويق القوى المضادة وتتكيك فعاليتها الاجتماعية والسياسية وأخطرها ، تفكيك مرجعيتها العقدية والمعرفية، وتطويقها في نفوس أتباعها، عبر الجدل

---

(1) عبد العزيز بن عبد الله، **مجتمع المدينة في عهد الرسول صلي لله عليه وسلم**، (جامعة الملك سعود، السعودية، 1412ه)، ص37.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 30/3.
(3) بريك، **السرايا والبعوث النبوية**، ص78 وما بعدها.
(4) ابن كثير، **السيرة**، 476/2.
(5) ابن سعد محمد، **الطبقات الكبرى**، (دار صادر، بيروت، د.ت) 6/2.

الثقافي المركز الذي كان القرآن يؤطره عقديا ومعرفيا ومنهجيا، ويـضرب بـه أسـس ومرتكـزات المرجعيات التقليدية، التي أخذ تماسكها يضعف وينهار تدريجيا، أمام منطق الوعي العقـدي الجديـد، ومنطق سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ومنطق سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التـي كان القرآن **يحلل ويفسر حركة التاريخ والواقع المستقبل والمصيرعلى ضوئها**،ويعيد صياغة الـوعي الإنساني بها ، كشرط جوهري للإنسجام والفعالية الاستخلافية.

إن كل هذه النتائج ، تبين فعلاً بأن الدعوة استطاعت أن تحقق مكاسب ومنجزات هامة في هذه المرحلة ، من خلال نجاحها في مواجهة التحديات الاجتماعية والسياسية التي طرحها الوضع الانتقالى الحساس بعد الهجرة ، وضمان استمرارية حركة البلاغ والبناء والمواجهة ، وقطع خطوات معتبرة في خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة للدعوة والدولة والمجتمع.

موقع منجزات هذه المرحلة من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع:

وعندما نتأمل منجزات هذه المرحلة في ضوء الآفاق الحضارية الكبرى للدعوة الإسـلامية؛في الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي ، المجسد في حركة الدعوة والدولة والمجتمع..فإننا نجد بـأن لبنات هامة قد وضعت على هذا الطريق الطويل ، وأن حركة التغيير تسير نحو أهدافها الكبرى بثبات

فعلى مستوى بناء القاعدة القيادية للدعوة والدولة والمجتمع:باعتبارها –أي هـذه القاعـدة القيادية –الشرط الجوهري الأساس في العملية التغييرية برمتها، فقد تمكنت الدعوة من تعزيز العنايـة بها تجميعاً وتعبئة وتربية وتأهيلاً وحماية، وبذلك أخذ الإطار البشري الكمي والنوعي المطلوب لفعالية أداء الدعوة والدولة والمجتمع ، يتأسس بسرعة ويأخذ دوره في حركة البلاغ والبناء والمواجهة.

وعلى مستوى تأسيس البنى القاعديـة للدولـة والمجتمـع: الثقافيـة منهـا والاجتماعيـة والسياسية.. وضعت لبنات هامة على هذا الطريق. لعل أبرزها منح المجتمع سلطة مرجعية روحيـة وثقافية وسياسية، تسير به نحو الإنسجام والتكامل والفعالية.كما منح تبعاً لذلك منظومة تشريعية نامية، أخذت تبرز ملامح النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد. وتعطيه قوة متزايدة فـي معتـرك التـدافع المحتدم مع النموذج الاجتماعي التقليدي ومرجعيته المعرفية أو الثقافية .

وعلى مستوى تأمين حركة الدعوة والبناء والمواجهة :باعتبارها شرطاً لازماً لنجاح حركـة التغيير على المستويين السابقين فقد نجحت الدعوة كذلك في تحقيق الاستمرارية، ولم تتعطل مشاريعها التربوية والاجتماعية والسياسية ،كما رأينا، وهو ما يدل فعلاً بأن حركة التغيير وإعادة البنـاء تـسير بثبات واطراد نحو أهدافها الكبرى. انتهى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني
مرحلة تأمين قاعدة الدولة

الإطار الزماني والمكاني للمرحلة:

الإطار الزماني: يمتد الإطار الزماني لهذه المرحلة عبر ثلاثة عشر شهرًا، يبدأ من نهاية أحداث بدر في النصف الثاني من رمضان من السنة الثانية للهجرة [1] , حتى نهاية أحداث غزوة أحد في النصف الثاني من شوال من السنة الثالثة للهجرة[2].

وقد اعتبرنا أحدًا معلماً لهذه المرحلة وبداية المرحلة الثالثة في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، للآثار العميقة التي أحدثتها هذه المواجهة داخليا وخارجيا، والنتائج التي نجمت عنها في الميدان، وكان لها صدى في خطط الدعوة وجوانب من مفردات منهجها بعد ذلك، و إن كانت الاستراتيجية العامة للدعوة لم تتأثر بذلك، بل ظلّت كما هي تؤطر حركة الدعوة والبناء والمواجهة وتوجِّهها.

فالفترة بين بدر وأحد تميَّزت عن الفترة السابقة لها، كما تميزت عن الفترات اللاحقة؛ لأن الدعوة كانت تتقدم والدولة تتطور، والمجتمع يتغير، وكان ذلك مرافقا طبعا بتحديات داخلية وخارجية، تلقي بظلالها على كل مرحلة، وتؤثر في أهدافها المرحلية، ومفردات منهج الدعوة والبناء والمواجهة فيها، ولكن ذلك كله ضمن الاستراتيجية العامة للدعوة في تأسيس وتعميق الوعي العقدي والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي وتعميم حركة البلاغ ، وتجسيد هذا الوعي الثلاثي في دولة وفي مجتمع وحضارة بعد ذلك.

الإطار المكاني: ما يزال الإطار المكاني للدعوة والدولة والمجتمع مقتصرا على المدينة ومحيطها القريب، مع أن حركة السرايا في المرحلة السابقة وهذه المرحلة وصلت بالقرب من مكة، أي إلى بحران [3] ، كما وصلت إلى بني سليم شمالا وغطفان[4] وغيرها من المناطق، وكانت أغلب هذه السرايا تمكث فترات طويلة وصلت مُدة بعضها قرابة شهرين، وبعضها الآخر إلى شهر كامل [5]، وبعضها إلى خمسة عشر يوما [6]، وبعضها إلى عشرة أيام [7] ،كانت تُمارس خلال ذلك، الدعوة والاتصال والحوار وكبح جماح كل من تسول له نفسه الجراءة على الدعوة والدولة والمجتمع.

مع كل هذه الحركة في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة، فإن الإطار المكاني الذي كانت تحت سلطان الدعوة الفعلي هو المدينة ومحيطها، إلا أنه يلحظ هنا أمر مهم جدًّا، وهو أن المجتمع المدني أخذ فعلا ينتظم ويندمج في إطار الدولة، عن طريق **تعمق حركة الاستيعاب الدعوي والتربوي،**

---

(2) خليفة بن خياط، **تاريخ ابن خياط**، ص27.
(3) ابن هشام، **السيرة النبوية**، 50/3؛ ابن كثير، **السيرة النبوية**، 4/3.
(4) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 49/3؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**،454/1– 455.
(5) ابن سيد الناس، **المرجع نفسه**، 49/3–50؛ البيهقي، **دلائل النبوة**، 168/3.
(6) ابن سعد، **الطبقات**، 31/2.
(7) ابن سعد، **المرجع نفسه**، 36/2.

وصياغة مظاهر الحياة الاجتماعية صياغة جديدة من ناحية، والشروع في إخلاء المدينة ومحيطها من القوى والعناصر المهدّدة للدعوة والدولة والمجتمع، والخارجة عن القوانين الجارية والمناهضة لها، كبني قينقاع[1] وبعض الشخصيات التي تمت إزاحتها[2] كذلك، بعد فشل محاولات حملها على احترام مواثيق التعايش من جهة أخرى. وأخذت فئات كثيرة بعد بدر تساير المتغيرات الجديدة ، بإظهار إسلامها أو ولائها الظاهري للدعوة والدولة والمجتمع كما فعل المنافقون[3]، بقيادة ابن أبي بن سلول[4].

ولا شك أن هذا كله، كان يخدم تحرير وتمحيص إطار مكاني فعلي مستقل للدعوة والدولة والمجتمع، يتم فيه بناء النموذج الاجتماعي للدعوة، وتوفير شروط حمايته وتطويره وتأصيله، وتفعيل آدائه في الدعوة والبناء والمواجهة باستمرار ، عبر تعمق النضج العقدي لقاعدة الدعوة ، وتعمق تحكمها في سنن التسخير والاستخلاف.

أهداف الدعوة في هذه الرحلة:

ليس هناك تغير كبير في أهداف الدعوة بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية. حيث يلحظ بصفة عامة، كيف استمر الاهتمام بتنظيم وتأمين قاعدة الدولة والمجتمع، وضمان استمرارية عملية البلاغ والبناء والحماية، بصورة أكثر تركيزا، بعد أن توفرت بعض شروط الاستقرار، وتجاوز العديد من مشكلات المرحلة الانتقالية السابقة من جهة، وبعد الواقع الجديد الذي فرضه اهتزاز هيبة قريش عقب بدر، سواء في **بيضة الدعوة والدولة والمجتمع** ذاتها، أو لدى الأجنحة المختلفة للقوى المضادة، التي أصيبت بذهول مما جرى لمضغة المواجهة ومحورها –قريش– من جهة أخرى.

ومن هذا المنطلق ، يمكن تحديد المحاور الكبرى لأهداف وأولويات الدعوة في هذه المرحلة في النقاط التالية:

مواصلة إنجاز البرنامج التربوي الضخم للدعوة.

استثمار مكاسب المرحلة السابقة ومواجهة الأوضاع الجديدة التي تمخّضت عن هزيمة القوى المضادة.

مواصلة إنجاز خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة.

تعميق تلاحم المجتمع وتآلفه، وتأمين وجوده.

مواصلة إنجاز البرنامج التربوي للدعوة: وهو الهدف المحوري الذي ظلت العناية به مركزة في كل مراحل الدعوة. فقد تواصل في هذه المرحلة، **الاهتمام المكثف بالاستيعاب المعرفي والتربوي لقاعدة الدعوة،** لاستدراك النقص الحاصل في عملية الإعداد العلمي والتربوي لها في الفترة المكية، التي كانت فيها هذه القاعدة مضطهدة من جهة، وموزعة في مناطق كثيرة من جهة ثانية ، زيادة على أن هناك التحاقا مستمرا من قاعدة المجتمع التقليدي بالدعوة من جهة ثالثة.

وهذا الوضع كان يلح على العناية المكثفة بالاستيعاب المعرفي والتربوي، لتوحيد الرؤية، وإعادة صياغة المفاهيم، وتنظيم السلوك، والارتقاء بمستوى الأداء الاجتماعي لقاعدة الدعوة في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، **حماية للدعوة والدولة والمجتمع الجديد** من الانحراف، الذي يسببه ضعف الوعي المعرفي بحقيقة الدعوة وطبيعتها وخصائصها ومقوماتها وأبعاد التميز والفرادة والامتياز فيها، وضعف التمثّل الفكري والروحي السلوكي والاجتماعي لذلك كله.

([1]) ابن سعد، **نفسه**، 28/2.
([2]) ابن هشام، **السيرة النبوية**، 54/3–62 .
([3]) البيهقي، **دلائل النبوة**، 117/3.
([4]) أخرجه البخاري في **الصحيح**،كتاب التفسير، باب ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب... **(فتح الباري**، 79/8).

فالرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يعي جيدا أهمية الاستيعاب المعرفي والتربوي، في **بناء صفوة رسالية ممتازة** ، تضطلع معه وبعده بحركة الدعوة والبناء والمواجهة، تبليغا للإسلام، وتجسيداً لنموذجه الاجتماعي في الحياة، وحماية له من التشويه والانحراف، أو التهميش، ولذلك أعطى الأمر عناية قصوى، وركّز جهوده على **شحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية** لقاعدة الدعوة، وكان يتابع بنفسه هذه التربية، ويستثمر من اجلها كل ما يتاح له من إمكانات وفرص، ولا يدع مناسبة، داخل المسجد، أو في الطريق، أو في البيوت، أو في المآتم، أو في الأفراح، أو في السرايا والغزوات[1] ... إلا ويشحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكيّة لأتباعه، ويحرص على الارتقاء بأدائهم الاجتماعي إلى أمثل مستويات الأصالة والفعالية والاطراد.

استثمار مكاسب المرحلة السَّابقة ومواجهة مضاعفات صدمة بدر: فالدعوة حققت مكاسب داخلية وخارجية هامة في المرحلة السابقة، لعل أبرزها ما أصيبت به هيبة القوى المضادة من اهتزاز كبير بهزيمة قريش، وهو ما رفع الروح المعنوية لقاعدة الدعوة والدولة، وجعلها في وضع نفسي ممتاز، بعد أن ظلت طيلة مرحلة ما بعد الهجرة تعيش الخوف والتعبئة القصوى المستمرة، التي جعلت بعض الصحابة يتساءلون: هل يأتي علينا زمن نبيت ونسافر فيه بدون سلاح[2] ؟.

إن ما حققته المرحلة السابقة من مكاسب معرفية ومعنوية وسياسية واجتماعية كان في حاجة إلى حماية واستثمار [3] لتعزيز حركة الدعوة والدولة والمجتمع، وتأصيل وتفعيل عملية البلاغ والبناء ووقايتها من المعوقات الداخلية والخارجية، خاصة وأن هزيمة القوى المضادة ببدر، دفعتها إلى ردود أفعال حادة ضد الدعوة والدولة والمجتمع[4]، الأمر الذي يحتاج فعلا إلى تقدير دقيق ومتوازن للموقف، وقدرة على استثمار معطياته وفرصة بفعالية متوازنة.

والرسول صلّى الله عليه وسلّم كان على وعي تام بأهمية ما حققته المرحلة السابقة من مكاسب ثمينة للدعوة والدولة والمجتمع، كما كان على وعي أعمق بالظروف الصعبة التي أوجدتها الضربة القاسية التي تلقتها مضغة القوى المضادة ومحورها ببدر، فعمل على استثمار ما تحقق من مكاسب، وعلى حماية ذلك، بمواجهة التحديات الجديدة، التي فرضت على الدعوة والدولة والمجتمع، داخليا وخارجيا كما سنرى ذلك لاحقاً.

مواصلة إنجاز خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة: ولم تغفل الدعوة في هذه المرحلة كذلك على مواصلة تطويق وتفكيك القوى المضادة، بل حرصت على ضمان استمرار عملية التطويق والتفكيك، المعرفي والسياسي والاجتماعي لمضغة المواجهة والقوى الدائرة في فلكها، والمرتبطة بها، وعدم إعطائها الفرصة لأخذ نفسها واستجماع قواها، وتنسيق مواقفها.

فقد عملت الدعوة في هذه المرحلة على مواصلة إحكام الحصار السياسي الاجتماعي والاقتصادي على قريش[5]، وحرمانها من الاستفادة من مجالها الحيوي التقليدي، الذي تمثّله القبائل المختلفة المحيطة بمكة والمدينة. كما عمل عليه الصلاة والسلام على حرمانها من استثمار القوى

([1]) أخرجه أبو داود في **السنن**، كتاب الأدب، باب في العصبية، 332/4.
([2]) البيهقي، **الدلائل**، 6/3.
([3]) ضياء العمري، **السيرة النبوية**، 374/2.
([4]) أحمد إبراهيم الشريف، **الدولة الإسلامية الأولى**، ص135.
([5]) ابن هشام، **السيرة**، 50/3– 53.

اليهودية والنفاقية بالمدينة نفسها، رغم حرص كل من هذه القوى على تنسيق مواقفها، وتعبئة حركتها[1] ضد الدعوة والدولة والمجتمع، بل عمل على الاستفراد بكل قوة على حدة[2]، ومواصلة تحجيم دورها في حركة المواجهة بالاستيعاب أو الاستثمار أو التحييد أو المواجهة أخيرًا.

وكما سبق التنبيه إلى ذلك ، فإن خطة التطويق والتفكيك، كانت شاملة، استهدفت **التطويق السياسي والتفكيك الاجتماعي والثقافي** في الوقت نفسه، ضمانا لفعالية الإنجاز. فتركز الجهد النبوي على الحصار الاقتصادي[3] ، وضرب الهيبة السياسية للقوى المضادة[4]، وتفويض المرتكزات الثقافية للمجتمع التقليدي[5] الذي تدافع عنه، سواء تعلق ذلك بالرؤية العقدية، أو المنظومة المعرفية، أو مناهج التفكير، أو قيم السلوك... التي لا تنسجم مع الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي الحق، الذي جاءت به الدعوة الإسلامية.

ولا يخفى هنا، مدى الأهمية القصوى التي تكتسيها شمولية خطة التطويق والتفكيك للفعالية الاجتماعية والسياسية للقوى المضادة، في فعالية وسرعة تحقيق المطلوب وهو ما يدل على أصالة المنهج النبوي، وكيف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحرك على ضوء وعي عميق وشامل بسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من ناحية، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية أخرى. فلم تستوعبه -بالتالي- الحركة الجزئية الضاغطة، وتمكّن من الإفلات من مضاعفاتها السلبية، ليظل موقفه منضبطا بالتوازن والتكامل باستمرار، ومن ثم بالأصالة والفعالية والاطراد.

تعميق تلاحم المجتمع تآلفه وتأمين وجوده وبنفس الحرص الذي منحه للوقاية الخارجية ، عمل عليه الصلاة والسلام على تعميق تلاحم المجتمع وتآلفه، وتفكيك توتراته الاجتماعية والسياسية المتوارثة، وتخليته من كل **المورّثات الثقافية السلبية** ، المناقضة للوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي الأصيل ، واستبدالها بمورّثات ثقافية جديدة، متناغمة مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، ومنسجمة مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وقادرة على الإفادة القصوى منها في ضمان أصالة وفعالية واطرادية حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

فلحمُ وحدة المجتمع، وتعميق تآلفه الاجتماعي، والارتقاء بمستوى انسجامه الفكري والثقافي والسياسي، وتأمين وجوده داخليا وخارجيا، ظل يشكل عمق ومحور اهتمامات الدعوة باستمرار، ليقينه عليه الصلاة والسلام، أن فعالية حركة الدعوة والبناء والمواجهة، التي تتوقف عليها عملية استمرارية وشمول البلاغ، وبناء الدولة والمجتمع... مرتبطة بمدى تحقق هذا التلاحم والتآلف الاجتماعي[6] أولا، واستمرارية ذلك وتعمقه وتأصله مع مرور الزمن ثانيا.

فالدعوة كانت تستهدف بناء أمة[7] مؤتلفه تتناسق جهودها، وتتكامل طاقاتها، في عملية البلاغ للإسلام والبناء لنموذجه الاجتماعي، والمواجهة للتحديات الداخلية والخارجية التي تعيق ذلك. كما

([1]) ابن هشام، **السيرة**، 55/3.
([2]) عون الشريف، **نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ**، ص41.
([3]) ابن كثير، **السيرة**، 8/3.
([4]) ابن سعد، **الطبقات**، 28/2-34-36.
([5]) أنظركثافة إعادة النقدية التقديمية الواردة في سورة الأنفال على سبيل المثال، وأنها جاءت عقب بدر تقيِّم المرحلة السابقة وستستشرف اللاحقة ، وقد مرّ في سورة البقرة حديث طويل ومركّز عن المجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية.
([6]) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص56.
([7]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 173/4؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 37/4.

نبهت إلى ذلك آيات كثيرة يقنع بعضها بالاختلاف والتنازع[1]﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾[2] وبعضها الآخر بالهوى والأنانية والتمحور حول القيم الصغيرة [3]، قال تعالى:﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ... ﴾[4]. ونوه غيرها بالقيم الكبرى ذات الأبعاد الإنسانية والروحية العامة، كما قال تعالى:﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ ﴾[5] وجسدت الحركة النبوية ذلك في عملية البناء، كما تجلى ذلك في المرحلة السابقة عبر المؤاخاة، ومظاهر التلاحم الاجتماعي المختلفة، وتواصل في هذه المرحلة والمراحل التالية من مسيرة الدعوة.

فالدعوة في هذه المرحلة، سيتمحور اهتمامها حول محاولة إنجاز ما أمكن من البرنامج التربوي الضخم للدعوة، شحذاً للفعالية المعرفية والروحية والسلوكية والتسخيرية والاستخلافية لقاعدة الدعوة ومحاولة استثمار مكاسب المرحلة السابقة، المعنوية والسياسية والاجتماعية، ومواجهة ردود الأفعال الحادة التي أفرزتها الضربة الموجعة للقوى المضادة ببدر ومحاولة الاستمرار في عملية تطويق وتفكيك القوى المضادة، سياسيا واجتماعيا وثقافيا، باستيعاب والاستثمار والتحييد والمواجهة وتعميق تلاحم المجتمع وتآلفه، وتأمين وجوده الثقافي والاجتماعي والسياسي، وضمان استمرارية حركة البلاغ والبناء.

التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة:

واجهت الدعوة في هذه المرحلة تحديات داخلية وخارجية عديدة، مسّت الدعوة وقيادتها، كما مست قاعدتي الدعوة والمجتمع معًا، سنحاول إجمال القول فيها فيما يلي:

تأثير الولاءات الاجتماعية القديمة على قاعدة الدعوة: بالرغم من الاندماج الاجتماعي الهام، الذي أنجزته الدعوة في المرحلة السابقة، والبناء المفاهيمي الذي حققته لدى قاعدة الدعوة على مستوى الوعي العقدي بالخصوص، فإن الولاء الاجتماعي لفئات من قاعدة الدعوة، مازال موزعا وغير ممحّض للدعوة، بسبب الارتباطات المتوارثة بين سكان المجتمع اليثربي المتعدد. فقد كان لبعض المسلمين علاقات وثيقة مع اليهود المتنفذين بالمدينة[6]، ومع المنافقين المتنفذين اجتماعيا كذلك[7]، الذين تظاهر كثير منهم بالإسلام، مما يزيد من ثقة هذه الفئات المسلمة بها، ويجعلها عرضة لالقاءاتها من جهة، ومصدرًا لاستقاء المعلومات عن الأوضاع الداخلية للدعوة والدولة والمجتمع من جهة أخرى،

([1]) البقاعي، **نظم الدرر**، 293/8.
([2]) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 46.
([3]) أبو سعود، **التفسير**، 99/2.
([4])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 152.
([5])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 104.
([6]) ابن الجوزي، **زاد المسير**، 21/2.
([7]) الرازي، **التفسير الكبير**، 172/8.

وقوة تعاطف مع أطروحات القوى المضادة، وقناة تمرير لها وترويج لها لدى قاعدة الدعوة من جهة ثالثة.

ولا يخفى ما لهذا التوزع لولاء قاعدة الدعوة، من مخاطر على حركة البلاغ والبناء والمواجهة، إذ يستغل خصومها ذلك في الكيد لها، وحرمانها من جزء عزيز من إمكاناتها التسخيرية، التي هي في حاجة ماسة إليها في هذه المراحل التأسيسية الصعبة والحاسمة في مسيرتها. ويلحظ من اهتمام القرآن بهذه المسألة، وتأكيده الشديد على ضرورة تحرير ولاء المسلم للدعوة والدولة والمجتمع. ونقده لبعض مظاهر الولاء الاجتماعي بين فئات من قاعدة الدعوة وبعض القوى المضادة[1]، كيف أن هناك فعلا من المسلمين من لا يزال محكوما بارتباطات ولائية مع القوى المضادة، الأمر الذي يشكل خطرا على حركة الدعوة والبناء والمواجهة، كما نلمس ذلك في قوله تعالى على سبيل المثال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾[2]. وقد ذكر على سبيل المثال في قوله تعالى تعقيبا على أحداث غزوة أحد:﴿ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[3] أن بطني بني سلمة وبني حارثة كادا يرجعان مع ابن أبي حينما انفصل عن جيش أحد[4] تأثر بالولاءات الاجتماعية القديمة، فإذا أخذنا بعين الاعتبار العلاقات التضامنية السياسية بين اليهود والمنافقين، وتصعيد القوى المضادة من وتيرة المواجهة للدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، أدركنا فعلا مدى خطورة مشكلة توزع ولاء قاعدة الدعوة، على حركة البلاغ والبناء والمواجهة.

تأثير الجدل الثقافي على قاعدة الدعوة: ومن المشكلات المؤثرة سلبا على حركة الدعوة والبناء والمواجهة، تأثير الجدل الثقافي المحتدم بين الدعوة والقوى المضادة على فئات من قاعدة الدعوة، خاصة تلك التي كانت تعاني من مؤثرات ازدواجية الولاء الاجتماعي، أو تلك التي ما يزال وعيها الرسالي منقوصا، ولم يستو بعد على سوقه فكانت تتأثر بإلقاءات القوى المضادة وتفسيراتها للأحداث، وخاصة تلك التي كانت تصدر عن المرجعية الثقافية اليهودية، لما كان لعلماء اليهود من مكانه علمية وروحية في مجتمع المدينة خاصة والمجتمع العربي عامة، كما يدل على ذلك استعانة

([1]) الطبري، **روح البيان**، 60/4.
([2])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 118 ، 119.
([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 122.
([4]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المغازي، باب " إذ همت طائفتان " **(فتح الباري**، 413/7).

الزعامة القرشية بهم في مجال إدارة الجدل الثقافي ضد الدعوة في المرحلتين المكية والمدينة[1].

ويلحظ في سورتي البقرة وآل عمران اللتان نزل الجزء الأكبر من آياتها في المرحلة السابقة وهذه المرحلة، كثافة المادة الجدالية وتنوعها، وخاصة مع مراجع بني إسرائيل المعاصرين للدعوة، مما يلحظ كذلك مدى تأثير هذا الجدل على قاعدة الدعوة، من خلال كثرة تنبيه القرآن في هذه المرحلة إلى زيف الأطروحات المضادة وتهافتها[2] تاريخيا ومعرفيا وأخلاقيا وتحذيره لقاعدة الدعوة من مخاطر الاستغفال[3] سواء بالتوجيه المباشر كما في قوله تعالى مثلا:﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[4] وقوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[5]. أو عن طريق التوجيه الإيحائي غير المباشر، الذي يتوجه فيه الخطاب للقوى المضادة، في محاولاتها تضليل قاعدة الدعوة، وبلبلة موقفها الفكري والسلوكي، كما في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[6]، وقوله سبحانه وتعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[7]. فقاعدة الدعوة باعتبارها مصب المواجهة الثقافية بين الدعوة ومراجع القوى المضادة، وبحكم تحملها مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم لأعباء الدعوة والبناء والمواجهة، كانت تعاني من مؤثرات الجدل الثقافي أحيانا، وأساليبه الملتوية، التي لم توطن نفسها بعد على مواجهتها.

ولعل في حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مطالعة بعض صحائف التوراة[8]، ما يدل على مدى معاناة قاعدة الدعوة من الجدل الثقافي المحتدم، و الذي كان يستهدف تشويش الرؤيا، وبلبلة الموقف، وهدر جزء من إمكانات التسخير لدى الدعوة والدولة والمجتمع، وحرمان حركة البلاغ والبناء والمواجهة منه.

حراجة موقف مستضعفي قاعدة الدعوة بعد صدمة بدر :

---

(1) البيهقي، **الدلائل**، 190/3.
(2) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 325/3، وما بعدها.
(3) الرازي، **التفسير الكبير** 139/8.
(31)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 69.
(5)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 100.
(6)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 71.
(7)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 99.
(8) العيني، **عمدة القارئ**، 74/25.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد اشتدت حراجة موقف المستضعفين من قاعدة الدعوة، بعد نكسة القوى المضادة ببدر، التي زادت أوضاعهم تعقدا، ونقصد هنا بالخصوص، المسلمين الذين كانوا يعيشون مستخفين بمكة، أو في القبائل الموالية لقريش، أو حتى أولئك المشركين الذين أخذ وعيهم بنضج بعد صدمة بدر، وأخذوا يفكرون بجدية في أمر الدعوة، بل وامتد الأمر إلى المهاجرين بالحبشة.

فهؤلاء جميعا أصبحوا في وضع محرج جدًّا، بسبب الموقف النفسي والسياسي المتشنج للقوى المضادة، التي أخذت تتعبأ لرد الفعل الحاسم والانتقام لكبريائها المجروح، وإعادة الاعتبار لنفسها، وهو ما يعني أن سطوتها ستطال كل من يمتُّ إلى الدعوة والدولة والمجتمع الجديد بصلة، ويقع في نطاق نفوذها، كما حدث فعلا للمستضعفين بمكة[1]، حيث تألب عليهم مشركوها، بل وامتد ذلك إلى غيرهم، كبني هاشم الذين وقعت بين بعض أفرادهم وبين رجال من ملأ قريش مصادمات[2]، وضري القرشيون على المسلمين يمنعونهم من الهجرة، ويتعقبونهم من أجل ذلك، كما فعلوا مع زينب بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رضي الله عنها، وقد خرجت للهجرة مستخفية، فلحقوا بها وروعوها، وكادوا يفتكون بها وبمرافقها[3]، وذهبت هذه الملاحقات بعيدا، عندما أو فدت قريش إلى الحبشة من يعيد المهاجرين من هناك، أو يؤلب عليهم القوى المتنفذة ويغريها بهم[4].

ولا شك أن هذا الوضع، يتعب المسلمين المستضعفين، ويؤثر سلبا على الرأي العام، ويكبت رغبته في تعديل موقفه تجاه الدعوة وقيادتها، بعد **صدمة الوعي** التي أحدثتها نكسة بدر[5]، وهو ما يعني أن القوى المضادة، حاولت بهذه الضغوط، استثمار هذه الصدمة ضد الدعوة ، وتحويل انتصارها إلى نكسة مضادة وتفويت فرصة استثمارها على المسلمين.

اضطراب موقف قاعدة الدعوة في المواجهة الثانية مع محور الصراع: ومن المشكلات الخطيرة التي واجهتها الدعوة والدولة في هذه المرحلة، اضطراب موقف قاعدة الدعوة في الواجهة الثانية مع قريش بأحد، وسفور ذلك الاضطراب عن ضربة موجعة للدعوة والدولة والمجتمع، كما يلحظ ذلك في استشهاد عدد ضخم من صفوة الرجال[6] الذين كانوا يشكلون عُمُدا حقيقية في حركة الدعوة والبناء و المواجهة، بل وكاد الموقف يطال حتى قيادة الدعوة[7]، لولا لطف الله، وتوفيقه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لاستثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد في تدارك الوضع بفعالية.

فمنذ صدمة بدر الكبرى، وفئات من قاعدة الدعوة كانت تعيش نوعًا من الزهو والإحساس بالقوة، والاستهانة بخصوم الدعوة والدولة والمجتمع، كما يلمس ذلك في التقييم غير الموضوعي لهزيمة قريش من طرف أحد الصحابة الذي قال معقبا على من جاؤوا يهنئون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **(ما الذي تهنئوننا به، فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها)**[8]، وهو

([1]) الطبري، **جامع البيان**، 146/4.
([2]) ابن هشام، **السيرة**، 30/2؛ البيهقي، **الدلائل**، 146/3.
([3]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 301/2؛ البيهقي، **المرجع نفسه**، 145/3.
([4]) ابن عبد البر، **الدرر**، ص131.
([5]) البيهقي، **المرجع نفسه**، 150/3.
([6]) البيهقي، **المرجع السابق**، 276/3.
([7]) ابن هشام، **المرجع السابق**، 84/3.
([8]) البيهقي، **المرجع نفسه**، 147/3.

ما تبلور أكثر في القياس الخاطئ على مرجعية بدر[1] من طرف عدد كبير من شباب الصحابة ووجهائهم، أثناء دراسة الموقف وتقرير خطة المواجهة بأحد، فساد الموقف حماس كبير[2]، لم يجد الرسول عليه الصلاة والسلام بُدًّا من استثماره.

وظهر هذا الإحساس بالقوة والاغترار بما كان حدث في بدر، في قول بعض الصحابة في دفاعهم عن وجهة نظر الخروج وملاقاة قريش خارج المدينة: كنا في بدر قلة فأظفرنا الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير[3]، كما يظهر بعد ذلك في استغرابهم الهزيمة[4]، وتساؤلهم: كيف يحدث لنا هذا ونحن مسلمون وهم كافرون؟!

ويضاف إلى كل هذا؛ خوف البعض وجزعهم الشديد من المواجهة، كما يلحظ ذلك في تطمين الرسول لهم بالإمداد الملائكي[5]، وفي محاولة البعض الآخر الانسحاب[6]، زيادة على ضعف الانضباط في أثناء المواجهة، وارتباك الناس بعد إشاعة مقتله صلّى الله عليه وسلّم، وانتشار الخوف من المستقبل، حتى ذهب البعض إلى التفكير في أخذ الأمان من قريش! وراح البعض الآخر يجتر الآلام ويلوم نفسه عن شهود مثل هذا الموقف[7]! وشاعت مظاهر التلاوم والارتباك الشديد[8]، الذي وضع الدعوة والدولة والمجتمع فعلا في موقف من أشد مواقف الخطر في مسيرة الدعوة.

خطر التبلور السياسي لحركة النفاق:

وهي من المشكلات الخطيرة التي أخذت تظهر في هذه المرحلة والمراحل التالية من مسيرة الدعوة، مع أن بذورها كانت موجودة في المرحلة السابقة، ولكنها في هذه المرحلة، أخذت تتبلور في حركة سياسية نشطة ضد الدعوة والدولة والمجتمع من الداخل؛ لأن رأس هذه الحركة عبد الله بن أبي بن سلوك قرر الانضواء في صفوف الدعوة بعد صدمة بدر، وقال لأشياعه إن هذا الأمر قد توجه، فبايعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فتظاهر كثير منهم بالإسلام، وراحوا يكيدون للدعوة والدولة والمجتمع من الداخل ويتآمرون ضده ويفتنون الناس، ويبدون الإمكانات التسخيرية للدعوة بذلك، ويضاعفون متاعبها مع مرور الوقت.

ومما زاد من خطورة الحركة النفاقية على حركة الدعوة والبناء والمواجهة، ارتباطها السياسي الوثيق مع الحركة اليهودية[9]، التي كانت تثيرها ضد الدعوة، وتغذيها بالأفكار والمشاريع، وتشترك معها في إدارة الصراع ضد الدعوة وقيادتها وقاعدتها، كما يتجلى ذلك في محاولات بلبلة قاعدة الدعوة، وضرب تماسكها النفسي، من خلال الإيمان والردة[10]، والاستهزاء بمظاهر الحياة الروحية للمسلمين[11]، و إثارة الشبهات حول الوحي ومواقف الدعوة والبناء والمواجهة[1]، واستغلال الأوضاع

([1]) أبو زهرة، **خاتم النبيين**، 863/2.
([2]) ابن سعد، **الطبقات**، 38/2.
([3]) البيهقي، **المرجع نفسه**، 206/3 وما بعدها.
([4]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 410/3؛ محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 225/4.
([5]) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 112/3.
([6]) البيهقي، **المرجع نفسه**، 210/3.
([7]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 122/3.
([8]) السيوطي، **الدر المنثور**، 352/2 وما بعدها.
([9]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 476/4.
([10]) الطبري، **روح البيان**، 311/3.
([11]) البقاعي، **نظم الدرر**، 115/6؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 241/6.

الاجتماعية المريحة للمنافقين واليهود في الضغط النفسي على قاعدة الدعوة التي كانت في أوضاع اجتماعية صعبة [2]، وعزو ذلك التفاوت إلى طبيعة المرجعيتين والثقافيتين لكل منهما.

كما يظهر كذلك الدور الخطير لحركتي المنافقين واليهود على مسيرة الدعوة، في تواطئهما مع القوى المضادة خارج مجتمع المدينة، وتنسيق جهودهما معها، لإدارة الصراع ضد الدعوة والدولة والمجتمع، بإمدادها بالمعلومات الدقيقة عن الأوضاع الداخلية لها، كما حدث في تسلل أبي سفيان إلى المدينة واجتماعه ببعض قيادات اليهود، والاستعانة بها في تنفيذ مشاريعه التخريبية فيها[3]، وكما حدث أيضا في ذهاب كعب بن الأشرف إلى مكة لتعزية وتعبئة قريش ضد الدعوة والدولة والمجتمع [4].

وعبر موقف ابن أبي من جلاء يهود بني قينقاع على قوة التحالف بين الحركتين، حينما أصر على منع حلفائه من الموت، واستفزّ رسول الله استفزازاً بالغاً، بوضعه يده في جيب درع رسول الله عليه الصلاة والسلام، ورفضه سحبها رغم إلحاح الرسول عليه بإرساله، بل أجابه بقوله: **(والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ...)**وكأنه كان يضغط على الأحداث المتوترة في اتجاه الانفجار[5] فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن أجابه إلى طلبه، استئلالا لفتيل الحرب الأهلية التي يمكن أن تندلع بسبب ذلك.

وفي أحد كان للحركة النفاقية دور بالغ الخطورة منذ بداية إعداد الموقف والخطة، حيث شارك ابن أبي في المشاورات وبعد دراسته لموقف قاعدة الدعوة، تبني رأي الأقلية وتعصب له، لتعميق الخلافات وتغذيتها، ثم خرج مع الجيش وفاجأ الجميع في الوقت المناسب، بالرجوع وعدم المشاركة في القتال[6]، وكان لموقفه هذا أثر بالغ السوء على قاعدة الدعوة، التي تبلبت وهمّ بعضها بالرجوع معه كما سبقت الإشارة إلى ذلك[7].

وعموما فإن تبلور الدور السياسي للمنافقين واليهود بصفة جدية في هذه المرحلة، كانت له آثار سلبية كثيرة على حركة البلاغ والبناء والمواجهة، كان بإمكانها الإساءة البالغة للدعوة والدولة والمجتمع.

الاستنفار الاجتماعي ضد الدعوة والدولة بعد صدمة بدر: فقد شكلت هزيمة بدر صدمة نفسية واجتماعية مزلزلة، ليس لمضغة الصراع ومحوره –قريش– فحسب، بل لمجمل القوى المضادة للدعوة الإسلامية، فلم تستوعب هذه القوى ما حدث، وراحت تستنفر كل قواها وطاقاتها لرد الفعل، وتصحيح الوضع من جديد بأقصى سرعة ممكنة، واستثمرت من أجل ذلك التعبئة النفسية والمادية والبشرية، كما يلمس في محاولة **اختزان الحزن وتجديده**، بمنع البكاء على قتلى المشركين، وإظهار التجلد في

([1]) ابن كثير، **التفسير**، 56/2–62.
([2]) ابن هشام، **السيرة**، 208/2، وما بعدها.
([3]) البيهقي، **الدلائل**، 165/3.
([4]) ابن هشام، **السيرة**، 54/3.
([5]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 51/3.
([6]) ابن عبد البر، **الدرر**، ص146؛ ابن كثير، **السيرة**، 25/3.
([7]) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 202/2؛ ابن كثير، **السيرة**، 44/3.

المراحل الأولى من الصدمة[1]، ثم إطلاق العنان بعد ذلك لمآتم الرثاء والحزن وتأجيج عواطف الكراهية والحقد ضد المسلمين[2].

وكما يلحظ كذلك في عملية رصد أموال القافلة التي نجت في غزوة بدر للمجهود الحربي[3]، وتجنيد ذوي المكانة والنفوذ الفكري والاجتماعي في التعبئة، كما فعل مع بعض الشعراء الذين أرسلوا إلى مختلف القبائل ، لاستنفارها ضد الدعوة والدولة والمجتمع الجديد بالمدينة[4]، وتوظيف ذوي الحاجات من أهل الخبرة في تصفية بعض وجوه الدعوة ورجالاتها الكبار، مقابل قضاء حاجاتهم، كما فعل مع وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه[5]، وتوظيف النساء في شحذ همم الرجال و استنفار بسالتهم في مواجهة المسلمين كما حدث في أحد [6]، وحشد أكبر عدد ممكن من المقاتلة والإمكانات اللازمة للقتال، وقد تحقق لهم ذلك، إذ بلغ عدد جيش قريش بأحد ثلاثة آلاف رجل، معهم مائتا فرس، وفيهم سبعمائة دارع[7]، مقابل سبعمائة مقاتل مسلم [8].

يضاف إلى هذا كله تنسيق الموقف مع فئات من اليهود والمنافقين بالمدينة، كما يلمس ذلك في موقف كعب بن الأشرف [9]، وبني قينقاع الذين أسفروا عن وجوههم في معاداة الدعوة بعد بدر ، ومناورات ابن أبي لضرب تماسك الجبهة الداخلية للدعوة والدولة والمجتمع في أحرج الظروف وأقساها، وقد تجلى ذلك في موقفه المساند لبني قينقاع والمحرض لهم [10]، وانسحابه يوم أحد بثلث الجيش[11].

فالدعوة والدولة واجهتا في هذه المرحلة خطر الاستنفار الاجتماعي العام، الذي كان يستهدف كسر شوكتهما، وإعادة الأمور إلى ما قبل صدمة بدر أو أسوء، وإعادة الاعتبار لكبرياء القوى المضادة المجروح.

ضرب القاعدة البشرية والمادية للدعوة والدولة: ومن التحديات الخطيرة التي واجهتها الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة كذلك، إصرار القوى المضادة على ضرب القاعدة البشرية والمادية للدعوة، في سياق ضياء الحرب الشاملة التي انتهجت بعد صدمة بدر، لإنهاك الدعوة والدولة ومضاعفة متاعبها الاجتماعية من جهة، وتقليص فعاليتها الانتشارية من جهة ثانية ، وإضعاف إمكان المقاومة والصمود لديها من جهة أخرى.

ويندرج في هذا السياق، العمل التخريبي الذي قام به أبو سفيان في جمع من قريش عقب بدر،

---

(1) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 302/20.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 117/3.
(3) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 64/3.
(4) ابن هشام، **المرجع السابق**، 64/3-65.
(5) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 72/3؛ السمهودي، **وفاء الوفاء**،281/1.
(6) المقريزي، **إمتاع الأسماع**، 114/8.
(7) الطبري ، **تاريخ الملوك والأمم**، 504/2.
(8) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 11/2.
(9) الذهبي، **السيرة**، 384/1.
(10) ابن عبد البر، **الدرر**، ص146.
(11) الكلاعي أبو الربيع سليمان، **الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1470هـ)، ص89.

حينما أغار على ضواحي المدينة ليلا، فقتل بعض المسلمين، وحرق أصوارا من النخل بعد أن مرّ سرا على بعض اليهود[1] . كما يندرج فيه أيضا اجتياح قريش في مسيرها إلى أحد زروع المسلمين وتسريح الظهر والكراع فيها[2]، زيادة على ما كان يقوم به اليهود في المدينة من تضييق على المسلمين في مجال التجارة والمعاش عامة، كما يدل على ذلك الاضطرار إلى اتخاذ سوق خاصة بهم[3]، وكثرة حديث القرآن عن مواقف اليهود التضييقية على المسلمين في شأن المال والانفاق والغنى والفقر[4].

وعلى مستوى ضرب القاعدة البشرية للدعوة، يلحظ كيف حرصت قريش على تصفية قيادة الدعوة ذاتها، كما تدل على ذلك محاولة عمير بن وهب اغتيال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عقب بدر بالتواطئ مع صفوان بن أمية[5]، وحرص المشركين بأخذ على قتله عليه الصلاة والسلام وتحرى ذلك غاية التحري، والتنافس فيه بين الأفراد والجماعات[6]، وقد نجا من ذلك بتوفيق ورعاية من الله، بعد أن أصيب في بدنه[7]، واجتهد في استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد في دفع الأخطار عن نفسه وعن غيره.

وتجاوز الاهتمام بتصفية قيادة الدعوة، إلى الحرص الشديد على الإثخان في قاعدة الدعوة وتقليلها قدر الإمكان، وضرب وجوهها ورؤوس القوة فيها ، كما يدل على ذلك عمل أبي سفيان السابق، وتحرش قريش بمسلمي الحبشة[8] ومكة، ومنح مكافآت لمن يقتل كبار الصحابة كحمزة رضي الله عنه وغيره[9]، وقتل كل من أمكن قتله بأحد ، بل والندم على عدم مواصلة الاستئصال قاعدة الدعوة، والتفكير الجري في العودة إلى اللاإجهاز على بقية جيش أحد والانتهاء الجدّي منه[10]، بعد الضربات الموجعة التي تلقاها.

هكذا نلحظ كيف واجهت الدعوة في هذه المرحلة تحديات داخلية وخارجية متعددة ومعقدة، كانت تضغط على حركة الدعوة والبناء، وتعمل على التأثير السلبي على فعاليتها، ومضاعفة مشكلات الدعوة والدولة والمجتمع، وهدر جزء عزيز من ميزانيتها التسخيرية، وحرمانها من الاستفادة منه في تعزيز فعالية أدائها، وتدعيم موقفها في معترك التدافع بين نموذجها الاجتماعي الجديد والنموذج الاجتماعي التقليدي القائم .

([1]) ابن هشام، **السيرة**، 48/3؛ السمهودي، **وفاء الوفاء**، 279/1.
([2]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 69/3.
([3]) السمهودي، **المرجع نفسه**، 748/2.
([4]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 208/2 وما بعدها.
([5]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 316/2.
([6]) البيهقي، **الدلائل**، 211/3.
([7]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب إذ همت طائفتان، (**فتح الباري**، 413/7).
([8]) ابن عبد البر، **الدرر**، ص131.
([9]) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب قتل حمزة رضي الله عنه(**فتح الباري**، 424/7)؛ البيهقي، **المرجع نفسه**، 242/3.
([10]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 108/3.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة:

سنحاول هنا -كما فعلنا في الفصل السابق- استخلاص أهم القواعد التي انضبط بها الجهد النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة، على مستوى المنهج، وكان لها دور فعال في مواجهة تحديات المرحلة وإنجاز أهدافها، وتحقيق أصالة هذا الجهد وفعاليته، وضمان حماية منجزاته البشرية والمادية والمعنوية.

وتركيزنا هنا على بعض قواعد المنهج، لا يعني أن القواعد السابقة لم يتم استثمارها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، بل لقد تم استثمارها في كل مراحل حركة التغيير والبناء والمواجهة، بحسب حاجة أصالة وفعالية الموقف أو الفعل الدعوي المنجز إلى أي منها، ونحن هنا تجنّبا للتكرار قدر الإمكان من جهة، وبحثا عن المزيد من قواعد المنهج في دعوته عليه الصلاة والسلام من جهة أخرى، وحرصا منا على تتبع حركة البلاغ والبناء والمواجهة في تفاعلاتها مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، واستثمارها لسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة ثالثة نركز على نماذج من هذه القواعد، التي تساعدنا في نهاية الدراسة، على استخلاص عدد هام من قواعد المنهج في دعوته عليه الصلاة والسلام، نستبين من خلالها سرّ اتسام "**الدورة الانجازية**" لفعله الدعوي ، تمثّلا وإبلاغا وبناءاً ومواجهة بالأصالة والفعالية واطراد الحيوية والتجدد، ومن ثم بالاقتدار التسخيري والاستخلافي النموذجي الذي وجد معه الفعل المضاد نفسه في حالة تجاوز مستمرة.

وعليه نشرع في محاولة استخلاص بعض أهم هذه القواعد، التي أطّرت "**الدورة الانجازية**" للفعل الدعوي النبوي في هذه المرحلة، ومنحته الأصالة والفعالية والاطراد، في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ومكنته من إنجاز أهداف المرحلة وحماية مكتسباتها بكفاءة واقتدار.

استثمار قاعدة النقد والتقويم في تأصيل حركة البناء وتفعيلها:ونقصد بالنقد والتقويم هنا رصد حركة الدعوة والبناء والمواجهة، بالفحص والمراجعة والتصويب بصفة مستمرة، ومحاولة الارتقاء بأدائها الاجتماعي إلى مستوى الفعالية النموذجية، من خلال الدلالة على نواحي الضعف والقصور فيها والتأكيد على ضرورة تجاوزها ، نواحي القوة والإيجابية فيها، والتأكيد على ضرورة تعميقها والمحافظة عليها.

ولا شك أن النقد والتقويم بهذا المعنى، ضرورة حيوية لتأصيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة وتفعيلها وتجديدها بصفة مطردة، وحمايتها من الانحرافات، ووقايتها من الضعف والفتور واهتلاك القوى ، وذلك بالرصد الموضوعي المتوازن لمسيرتها، ومستويات آدائها الاجتماعي، وتنبيه المعنيين بها، أفراد ومؤسسات، إلى ذلك، ودفعهم لأخذ التدابير اللازمة لتجاوز القصور، وتعميق الوعي بسنن الاقتدار التسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدعوة وتوطينها على ذلك باستمرار.

والدعوة الإسلامية استثمرت قاعدة النقد والتقويم، في تأصيل وتفعيل حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وحماية منجزاتها أحسن استثمار، في كل مراحل مسيرة التحول، وكان الوحي يؤدي هذه المهمة، ويقوم بعملية المراجعة والتصويب بصفة مطردة، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يمارس ذلك باستمرار، ويحوله إلى عمل تربوي يومي، يعزز به الوعي الكوني والتسخيري والاستخلافي في لدى قاعدة الدعوة، ويرتقي بمستوى آدائهاالاجتماعي يوما بعد يوم، من خلال **شحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية** لأفراد المجتمع وجماعاته.

وقد يكون من المفيد هنا، ملاحظة كثافة المادة النقدية التقويمية في القرآن والسنة عامة، وتكرر إعمال قاعدة النقد والتقويم الشامل، عقب الأحداث والتحولات الكبرى التي تمر بها حركة الدعوة والبناء والمواجهة بصفة خاصة، وهو ما نراه في هذه المرحلة، حيث استهلت الدعوة الإسلامية المرحلة الثانية في مسيرة بناء الدولة والمجتمع، **بمراجعة شاملة للمرحلة السابقة** عبر التعقيب على

أحداث بدر، الذي جاء تقييما وتقويما مركزًا لمسيرة البناء في مرحلتها الأولى، واستشرافا لآفاق البناء في المرحلة التالية، التي يكون من أولوياتها تعميق المكاسب الإيجابية وحمايتها، والعمل على تجاوز النتائج السلبية والتقليل من مضاعفاتها قدر الإمكان.

ولعل الملفت للانتباه في استثمار الدعوة الإسلامية لهذه القاعدة، في تأصيل وتفعيل حركة البناء والمواجهة، هو نقد الوحي لنواحي القصور والضعف في حياة الدعوة والدولة والمجتمع، حتى في أحرج الظروف وأشدها حساسية على مستوى التدافع والمواجهة، مما يؤكد أصالة هذه القاعدة وأهميتها الحيوية القصوى في حركة الاستخلاف عامة، وفي حماية منجزات التغيير والبناء خاصة ، لما تقوم به من دور تطهيري وتصحيحي بالغ الأهمية .

ونقدم هنا بعض النماذج لتطبيق هذه القاعدة، نأخذها من سورة "الأنفال" التي جاء فيها تقييم وتقويم للمرحلة السابقة، وتخطيط للمرحلة التالية كان له تأثير كبير على عملية الاشحاذ المعرفي والروحي والسلوكي والانجازي لقاعدة الدعوة .

النموذج التطبيقي الأول: ونراه في حديث الوحي عن الحالة النفسية لبعض المسلمين، سواء من جهة بواعثهم أو من جهة موقفهم من المواجهة، فقد كشف الوحي لهم الخوف الذي كان يعيشه البعض من لقاء العدو، والتردد الذي كان يصحب ذلك، والرغبة في الحصول على المغانم دون تضحيات، وكراهية القتال في مثل هذا الموقف، ومجادلة الرسول في ذلك[1] .

كما قال تعالى:﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥

يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾

إلى قوله تعالى

﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾[2]، بعزيمة المجاهدين وتضحياتهم من أجل المبدأ، وفي سبيل الأعم والأشمل من المصالح العامة المرتبطة به والمتوقفة عليه[3]. وفي الآية (67) جاء العتب كذلك على المسلمين لما مالت نفوسهم إلى عرض الدنيا[4] فقال تعالى[مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ

([1]) الطبري، **جامع البيان**، 183/6.
([2]) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 5، 6،7.
([3]) الطبري، **المرجع نفسه**، 188/6؛ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 225/6.
([4]) ابن عطية، **المرجع نفسه**، 376/6.

تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾](1) وقد كان لهذا التقويم النقدي أثره التوربوي المباشر في حياة المسلمين ، كما نلمس ذلك من قول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : بد فينا مشعر أصحاب بدر نزلق – يعني الأنفال – حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ....(2).

النموذج التطبيقي الثاني: وركز فيه الوحي فقط على مواجهة الغرور، والشعور بالمنّ على الدعوة(3)، من خلال تفسير ما حدث ببدر في ضوء سنن الآفاق والأنفس، والغفلة عن سنن الهداية والتأييد ، خاصة بعد أن شرع بعض المسلمين يذكر بنوع من الزهو والاحتقار لخصومهم، ما صنع كل واحد منهم(4)، فجاء التصويب وتقويم الموقف، باتجاه **شمولية التعامل مع سنن التسخير**، استثمارا لها، وتفسيرا للأحداث على ضوئها. فقال تعالى:﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾(5) وفي ذلك تربية جليلة لقاعدة الدعوة على التواضع ونبذ الغرور والحذر من أخطار الاسترخاء والاستهانة بالتحديات، والتعويل على الحول والقوة الذاتية، والذهول عن إعمال قوانين الشكر والدعاء والتوكل التي تقي الإنسان من كل ذلك ، وتصله بالله تعالى وصلاً محكماً ، تتضاعف معه فعالية الأداء بصورة نموذجية .

النموذج التطبيقي الثالث:وحذر فيه الوحي من الطاعة الشكلية والازدواجية السلوكية(6)، ومن التثاقل عن تلبية واجبات الدعوة ومسؤولياتها وأداء أماناتها(7)، ومن الخيانة لهذه الأمانات(8)التي يتوقف على الوفاء بها، تحقق الكثير من مصالح الدعوة والدولة والمجتمع، كما حذر من التنازع والاختلاف المرضي(9)، ومن أخلاق المستكبرين المناقضة لسنن الاستخلاف، وفي مقدمتها الغرور والبطر والرياء ومناهضة الحق(10).. كل ذلك في أسلوب تربوي مقارن بالغ التأثير .

ولا يخفى ما لهذه المراجعة والتقويم من تأثير فعال على شحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية، والانجازية لقاعدة الدعوة؛ لأنها كشفت الكثير من نواحي النقص في هذه المستويات جميعا، ورسمت نماذج السلوك البديلة التي ترتقي بأداء المجتمع إلى مستويات أمثل من الأصالة والفعالية

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 67.
(2) الطبري، **المرجع نفسه**، 172/9.
(3) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 293/9.
(4) ابن هشام، **السيرة**، 106/3؛ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 249/6؛ السيوطي، **الدر المنثور**، 34/4.
(5)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 17.
(6)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 20، 21.
(7)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 24، 25.
(8)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 27.
(9)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال:46.
(10)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال:48.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واطراد الحيوية وتجدّدها، عن طريق الاستثمار الشامل لسنن التسخير، في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، خاصة وأن هذه المراجعة وهذا التقويم، تما في خضم الواقع المعيش الذي كانت تحياه الدعوة والدولة والمجتمع ، أي في فهم التدافع بين الثقافتين والمجتمعين التقليدي والإسلامي ، مما يجعل وقعها كبيرا وتأثيرها في النفس والفكر والسلوك حاسمًا على اعتبار أن التربية بالأحداث أفضل وسائل التربية[1].

القدرة على حماية المكاسب وسرعة استثمارها في الدعوة والبناء والمواجهة:

يُعتبر امتلاك القدرة على حماية مكاسب الدعوة والبناء والمواجهة، وسرعة استثمارها في تعزيز مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، من سماة الاقتدار القيادي الهامة، وشروط نجاح عملية التغيير والبناء الأساسية. لأن حماية الجهد من التبديد والاهتلاك، والمحافظة على ما يتمخض عنه من مكاسب بشرية ومادية ومعنوية، وحسن توظيفها في عملية البناء والمواجهة، عامل أساس في ضمان التطور الإيجابي لحركة البناء، بدونه لا يمكن أن يتحقق هذا التطور الإيجابي لحركة البناء، ومن ثم لا يمكن أن تتم أو تتحقق أهداف التغيير، ما دام الجهد لا يحقق **شرط التراكم التكاملي** الذي تتوقف عليه عملية التغيير[2].

فإذا كانت عملية التغيير والبناء مرتبطة بتراكم الجهد وتكامله، فإن عملية التراكم التكاملي للجهد، متوقفة بدورها على حماية جهود البناء[3] وحسن استثمارها في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وذلك ليس بالأمر الهين، بل يعتبر فعلا من التحديات المستمرة التي تواجه عمليات التغيير والبناء، ولذلك ليس مستغربا أن تعد القدرة على حماية مكاسب جهود البناء وسرعة استثمارها، من سمات الاقتدار القيادي، وشروط بل ومعايير نجاح العملية التغييرية.

والدارس للحركة النبوية يلمس مدى قدرة النبي عليه الصلاة والسلام على استثمار هذه القاعدة في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، بل يلاحظ كيف كان **يتجاوز نطاق الحماية إلى مجال الاستثمار**. ويتجاوز مجال استثمار مكتسبات الدعوة والدولة والمجتمع، إلى مجال استثمار مكاسب وضعف وارتياك وقصور القوى المضادة بسرعة ودقة وفعالية نادرة، كما نرى ذلك في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال ، وهو ما كان له صداه العميق في العمليات التربوية والدعوية والجهادية :

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه على سبيل المثال من سرعة استثماره عليه الصلاة والسلام لصدمة بدر بالنسبة للقوى المضادة، ونصرها بالنسبة للمسلمين، فلم تستوعبه عليه الصلاة والسلام نشوة النصر وهزيمة خصومه المنكرة الذين ظلوا طيلة عقد ونصف من السنين يسومونه وأصحابه سوء العذاب، بل تحرك بسرعة لتعميق هزيمة خصومة، وتحسيسهم بتصميمه على كسر شوكتهم، وحرمانهم من أخذ نفسهم، سواء تعلق ذلك بقريش أو باليهود والمنافقين في المدينة.

ومن يتتبع سير الأحداث بين بدر وأحد، يلحظ كيف كان عليه الصلاة والسلام سريع الاستيعاب لحركات التعبئة المضادة للدعوة والدولة والمجتمع، كما نرى ذلك في مباغتته لبني سليم[4] ، ومطاردته لأبي سفيان في إغارته على المدينة[5] ، وتأديبه لغطفان حينما أخذت تجمع له الجموع[1] ، وملاحقته

([1]) محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 211؛ عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص202.
([2]) النووي، **شرح صحيح مسلم**، 70/6.
([3]) النسفي، **مدارك التنزيل**، 430/2؛ أبو حيان، **البحر المحيط**، 988/6.
([4]) ابن هشام، **السيرة**، 48/3.
([5]) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 446/1.

قريشاً وقطع الطريق عليها، حينما حوّلت طريق تجارتها نحو العراق [2]، وكان يمكث فترات طويلة في المناطق التي تحل بها سراياه ، وصلت أحيانا إلى شهرين، كما في غزوة بحران[3] التي استهدفت قريشا. لقد كان عليه الصلاة والسلام ، يطبق بإحكام قاعدة "اضرب على الحديد ما دام ساخناً" ولا يفلت أية فرصة أو لحظة لتعميق إرباك القوى المضادة ، وحرمانها من أية إمكانية للإساءة إلى الدعوة والدولة والمجتمع ، ما أمكنه إلى ذلك سبيل .

والنموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من سرعة تصفية وجود بني قينقاع من المدينة، بعد أن تمادوا في نقض مواثيق التعايش، وراحوا يتآمرون على الدعوة والدولة والمجتمع، ويحاولون تفريغ **صدمة بدر المرجعية** من محتواها، والتأثير السلبي على الروح المعنوية لقاعدة الدعوة ، والمبالغة في مضايقتها[4]، وهو ما وعي الرسول صلّى الله عليه وسلّم مضاعفاته السلبية الخطيرة على عملية استثمار صدمة بدر، وعلى التقليل من وقع الهزيمة على القوى المضادة، فأسرع إلى تدارك الموقف، وتفويت الفرصة على القوى المضادة حتى لا تستعيد توازنها، فأجهز على بني قينقاع بعد إقامة الحجة عليهم أمام قاعدة المجتمع[5] والرأي العام عامة.

وبإخراجهم من المدينة وكسر شوكتهم، عمق مفعول صدمة بدر، وضاعف شحنة إرباك القوى المضادة كلها، بمجتمع المدينة ذاته أو خارجه. وبذلك ضمن استمرارية شل فعاليتها، وتحييدها وتجميد بعضها مرحليا، حتى يواصل تعميق البناء الذاتي لقدرات الدعوة والدولة والمجتمع، ويجتاز بها مراحل الخطر، كما حافظ بذلك على شحنة الأمل والاعتزاز والثقة التي منحها انتصار بدر لقاعدة الدعوة، وحوله إلى فعل تربوي وخيرات تسخيرية كما رأينا في نماذج سابقة .

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من تعميق الوحي لوعي قاعدة الدعوة بأهمية وضرورة تحرير ولائها، وفك ارتباطاتها التناصرية مع القوى المضادة[6]، واعتبار ذلك من مقاييس الإيمان والنضج، وشروط الالتحام الاجتماعي، وإضعاف تماسك خصوم الدعوة والدولة والمجتمع وشل فعاليتهم في معترك التدافع الحضاري .

فقد انتهز الوحي حادث تصفية بني قينقاع ليشحذ ولاء قاعدة الدعوة لله ولرسوله وللمؤمنين، وليحرم بذلك القوى المضادة من بعض الأجواء والإمكانات التي كانت تستثمرها ضد الدعوة والدولة والمجتمع، وهو عمل في غاية الأهمية، بحيث تجاوزت الدعوة نطاق تصفية هذا الجزء الخطير من كتلة القوى المضادة، إلى مجال استثمار ذلك في بناء وعي قاعدة الدعوة وتحريرها من الضغوطات النفسية والارتهانات الاجتماعية التي كانت تعرّض ولاءها للتبديد، وتجمّد بعض طاقاتها وإمكاناتها بسبب ذلك.

وفي هذا جاء قوله تعالى:﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ

([1]) البيهقي، **الدلائل**، 168/3.
([2]) البيهقي، **المرجع نفسه**، 172/3.
([3]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 50/3.
([4]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 50/3.
([5]) أخرجه أبو داود في **السنن**، كتاب الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود، 154/3.
([6]) الزمخشري، **الكشاف**، 642/1.

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ [1]، وقد كان تأثير هذه التوجيهات مباشرا، إذ اخذ بعض من كانت له علائق باليهود يتخلى عنها، كما فعل عبادة بن الصامت الذي ذهب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأعلن براءته مما كان له من حلف مع اليهود[2] .

وهكذا باستمرار، يطّرد استثمار الرسول صلى الله عليه وسلّم لقاعدة **حماية مكاسب العمل وسرعة استثمارها**، في الدعوة والبناء، والمواجهة، مدعّماً للقدرات الذاتية للدعوة والدولة والمجتمع، ومعمّقًا لحصار القوى المضادة وشلا لفعاليتها، وتقويتا للفرص عليها، وسد لآفاق المستقبل في وجهها.

توسيع دائرة الاستيعاب والتعاطف مع الدعوة والدولة والمجتمع: ونقصد بالاستيعاب والتعاطف هنا: كسب المزيد من الأفراد والفئات الاجتماعية، وتحرير ولائها للدعوة والدولة والمجتمع، والحرص على توسيع نطاق المتعاطفين معها داخل قاعدة المجتمع، والتخفيف من روح المناهضة للدعوة، وتعميق روح المهادنة لها، والتفكير الموضوعي الجدي في أمرها، ودعم فرص وإمكانات الانفتاح عليها .

وقد سبق أن لاحظنا كيف شكل الاستيعاب، الاهتمام المحوري للدعوة باستمرار؛ لأنه هو هدفها الأساس، الذي به تحقق مقاصدها في الخلق، عندما تتمكن من إزالة الحواجز بينها وبينهم، وتحتويهم معرفيا ونفسيا وسلوكيا، وتدمجهم في نظامها الاجتماعي، وتكيف حياتهم مع قيمه ومفاهيمه بصورة تدريجية مستمرة.

فالاستيعاب هو هدف كل الحركات التغييرية، كما أنه**أحد** أهم شروط ومقاييس نجاحها، ويشكل التعاطف مدخله الأساس على المستوى الانجازي، إذ بقدر ما يتعزز ميل الناس العاطفي أو الفكري أو المصلحي... نحو الدعوة والدولة والمجتمع، بقدر ما تأخذ شروط استيعابهم في النضج تدريجيا، حتى يصلوا في نهاية المطاف إلى الاندماج فيها، لتبدأ معهم مراحل أخرى من الاستيعاب المعرفي والروحي والسلوكي والاجتماعي الأعمق، الذي يحولهم إلى مكسب جديد، يعزز موقف الدعوة وموقعها في حركة التدافع والتداول الحضاري.

والرسول صلّى الله عليه وسلّم كان على وعي عميق بأهمية تعاطف الناس مع الدعوة في حركة الاستيعاب، ومن ثم في الدعوة والبناء والمواجهة، فأعطاه حقه من العناية في مواقفه وعلاقاته، واهتم به اهتماما شديدا، كان له أثر فعال في عمليات **التحييد والتجميد والاستثمار والكسب للقوى المضادة** ، واختراق صفوفها، وتفكيك وحدتها، وإضعاف موقفها مع مرور الوقت، كما يتضح لنا ذلك من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من حرصه عليه الصلاة والسلام على الإحسان إلى أسرى بدر، كما أوصى بذلك الناس بالمدينة[3]،

([1]) **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 51.
([2]) ابن هشام، **السيرة**، 52/3؛ البيهقي، **الدلائل**، 174/3.
([3]) الكلاعي، **الاكتفاء**، 46/2.

وكما يدل عليه منُّه على عدد منهم[1]، وهو ما أكدَّه القرآن في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ ﴾[2]، تأليفا لقلوبهم، وترغيبا لهم في الإسلام، وإزالة للجفوة الموروثة من نفوسهم[3]، ويوحي جو الآيات أن هناك من مال منهم إلى الإسلام فعلا، ورغب في إطلاق سراحه على نية التفكير الجدي في إعادة تقييم الموقف، وتقرير الالتحاق بالدعوة بعد ذلك[4].

ونذكر هنا على سبيل المثال انطباع أحد الأسرى وقد تأثر كثيراً بالمعاملة الحسنة التي لقيها، من المسلمين، فقال: "كنت في رهط من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصُّوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها على**أحـــد**هم، فيردها عليَّ ما يمسها"[5]. وهو ما حدث كذلك مع عمير بن وهب الذي جاء يغتاله بعد بدر، فأحسن إليه عليه الصلاة والسلام فأسلم[6]..

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في فتح آفاق الاستدراك أمام القوى المضادة عامة، بالرغم مما بدر منها من مواقف العداء ضد الدعوة، حيث يلحظ على سبيل المثال، من يراجع القرآن وكثيراً من مواقفه صلّى الله عليه وسلّم، كيف كان الوحي في حواره وجد له مع خصوم الدعوة، يفتح الباب باستمرار أمام المخطئين لمراجعة أنفسهم، وإعادة النظر في مواقفهم، ويعدهم بالتجاوز عن أخطائهم، وإثابتهم عن تداركهم للموقف[7] كما في قوله تعالى:﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[8].

النموذج التطبيقي الثالث: ونراه في موقفه عليه الصلاة والسلام من الـــذين وقفـــوا مواقـــف مناصرة للدعوة، حيث لم ينسَ لهم ذلك الفضل ، بل عرف قدره، وأشاد بأهلـــه، وحـــرص علـــى رد الجميل لهم، رغم اختلافهم معه، وعدم اتباعهم له. كما فعل مع المعطم بن عدي وكان قد منحه جواره عقب عودته عليه الصلاة والسلام من الطائف، فتذكر له ذلك الموقف الشهم بعد بدر، وقال صـــلى الله عليه وسلم : **(لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء الشنى لتركتهم له)**[9] يعني الأســـرى.

([1]) ابن سعد، **الطبقات**، 22/2؛ ابن حبان، **السيرة النبوية**، 184/6.
([2])**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 71.
([3]) الطبري، **جامع البيان**، 48/6؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 80/10.
([4]) الطبري، **المرجع نفسه**، 48/6 وما بعدها؛ دروزة، **التفسير الحديث**، 62/8.
([5]) ابن هشام، **السيرة**، 300/2.
([6]) ابن هشام، **المرجع نفسه**،317/2.
([7]) القاسمي، **محاسن التأويل**، 55/8.
([8])**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 38.
([9]) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (**فتح الباري**، 362/7).

وقيل ذلك أوصى خيرا ببني هاشم ورجالا سماهم[1]، لما كان لهم من سوابق حميدة لصالح الدعوة.

ومن يحلل هذه المواقف يجد فيها نظرة مبدئية راسخة، قائمة على مبدأ جزاء الإحسان بالإحسان، ونظرة سياسية عميقة، تستهدف تشجيع الناس على تقديم خدمات للدعوة والدولة والمجتمع، من خلال تحسيسهم بهذا الوفاء، وهذا الاعتراف بالجميل، وهذا التقدير المعنوي الذي يفعل فعله الإيجابي في النفوس مع مرور الزمن، ويدفع أصحابها لإعادة تقييم موقفهم من الدعوة بصورة متوازنة، قد تفضي بهم سريعا إلى الانخراط في مسيرتها بحيوية وحماس كما حدث لعمير بن وهب السابق ذكره على سبيل المثال .

القدرة على استثمار الصدمات المرجعية في الدعوة والبناء والمواجهة: ونقصد بالصدمة المرجعية هنا:**أحداث** هزات نفسية وفكرية عميقة في موقف القوى المضادة من الدعوة، عبر مواقف صارمة تشرط تصرفاتهم إزاء الدعوة والدولة والمجتمع، وتؤطر مواقفهم منها بصورة جدية، ينتفي معها الاستخفاف بها، ويحل محله الخوف والحذر وقراءة حساب العواقب في التعامل معها.

وهذه القاعدة مهمة جدا في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وخاصة في مراحل التحول الأولى، حينما تكون التحديات كثيفة وعاصفة، وتكون الدعوات ما تزال تتلمس طريقها إلى التأسيس والقوة، فتحتاج في تأمين وجودها وتعزيز قدراتها الذاتية، إلى **هيبة** تحدّ من استهانة القوى المضادة بها، وتحجزها عن الجراءة عليها.

وهذه القاعدة الهامة يحتاج الانتفاع بها إلى دقة شديدة، وخاصة في مراحل ضعف الدعوات واختلال موازين القوة بينها وبين القوى المضادة لها، وكثافة التحديات التي تحيط بها، حيث يلزم حساب العواقب بدقة، في استثمار الصدمات المرجعية، حتى لا يكون لها مفعول عكسي عليها، يضاعف من استهانة القوى المضادة بها، والجراءة عليها، وتعويق مسيرتها إن لم يتم شلها تماما ، كما تحتاج قبل ذلك إلى انضباط سرعي دقيق يضع المواقف والتصرفات في إطارها المصلحي المشروع والمتوازن .

والرسول صلّى الله عليه وسلّم، استثمر هذه القاعدة بدقة وفعالية نموذجية فذة، تدل فعلا على مدى توفيقه في استثمار منظومات سنن التسخير بشمول وتكامل وتوازن، في تحقيق أصالة فعله الدعوي وفعاليته ، وضمان اطراديته كما نلمس ذلك من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من القرآن الذي أصل هذه القاعدة في تعقيبه على**أحداث** بدر، وعتابه للمسلمين حينما مالوا إلى أسر من استطاعوا من رجال قريش، ولم يثخنوا فيهم[2] . فقال تعالى:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾[3]. وقال سبحانه في موضع أخر يؤكد نفس المعنى، وهو أخذ أعداء الدعوة والدولة والمجتمع بالشدة، حتى يكونوا عبرة لغيرهم، فلا يجرؤوا على

---

(1) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 398/1.
(2) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 431/2؛ الصادق عرجون، **محمد رسول الله**،498/3.
(3)**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 67.

الاستهانة بها مستقبلاً[1]: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ ﴾[2]. أي تحدث لهم هذه **الصدمات المرجعية** ذكراً كلما همّوا بالإساءة إلى الدعوة والدولة والمجتمع، فينقبضوا عن ذلك ويعدلوا عنه[3]، وينكفئوا على أنفسهم.

وينبغي أن يلحظ هنا أن الصدمة المرجعية تحصل بالإثخان إذا كانت الحاجة إليه ملحة، وبالأسر أو بغيره[4]، كما نبه على ذلك فقه الفروع، وفقه السياسة العملي، المؤسسان على موازنات دقيقة بين المصالح والأولويات، على مستوى الدعوة والدولة والمجتمع، حاضراً ومستقبلاً.

النموذج التطبيقي الثاني: ونلمسه في موقف الرسول صلّى الله عليه وسلّم الحازم من بعض من تولوا كبر المقاومة للدعوة والتحريض على الدولة والمجتمع، في مكة أو في المدينة. فقد تمَّ قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط عقب بدر[5]. كما تم قتل كعب بن الأشرف، وأبي عفك اليهوديان[6]، والشاعر أبي عزة الذي عفا عنه ببدر لكنه خان العهد وعاد لحرب الدعوة، فقتل صبرا عقب **أحد**[7].

وقد أوقعت هذه الحوادث الرعب في نفوس اليهود خاصة، والقوى المضادة عامة، كما يدل على ذلك فزع اليهود إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكتابته عهداً بنيه وبينهم على ضرورة الانضباط الاجتماعي[8]، والانتهاء من التحرش بالدعوة والكيد للدولة والمجتمع، وبذلك أمن جانبهم بعض الوقت، وأخذ المنافقون بدورهم يظهرون ولاءهم الكلي للدعوة ولو شكلياً ، وهو ما أتاح لحركة البلاغ والبناء والمواجهة بعض الاستقرار الذي تم استثماره بفعالية في تعميق الدعوي والتربوي بالخصوص .

النموذج التطبيقي الثالث: وجسد حادث تصفية بني قينقاع قمة تطبيقه صلّى الله عليه وسلّم لقاعدة **الصدمة المرجعية** في وقاية الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، فقد تم إجلاؤهم عن آخرهم من المدينة، بعد أن نجوا من الموت[9]، وكان في إنهاء وجودهم من قاعدة الدولة درساً بليغاً وحاسماً لبقية فئات القوى المضادة التي أيقنت بجدية قيادة الدعوة في تأديب كل من يجرأ على مناوأتها، ويخرج على قواعد الانضباط الاجتماعي .

وبهذا الاستثمار الدقيق لقاعدة الصدمة المرجعية استطاع عليه الصلاة والسلام أن يعزز هيبة

---

(1) ابن عطية، **المحرر**، 348/6،

(2) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 57،58 .

(3) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 419/2.

(4) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 84/10.

(5) البلاذري، **أنساب الأشراف**، 449/1-143.

(6) ابن عبد البر، **الدرر**، ص142؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 448/2.

(7) ابن هشام، **السيرة**، 110/3.

(8) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، (**فتح الباري**، 390/7).

(9) ابن حبان، **السيرة**، ص209.

الدعوة والدولة والمجتمع، ويؤمن وجودها، ويتيح الفرصة لحركة الدعوة والبناء والمواجهة لاستثمار منجزات المرحلة السابقة، ويعمق التفاعلات الإيجابية لصدمة بدر، لتفعل فعلها في النفوس، وتهيئ الناس لإعادة تقييم الموقف من الدعوة ولو بعد حين.

استثمار المرونة الحركية المنضبطة في الدعوة والبناء والمواجهة: ونقصد بالمرونة الحركية المنضبطة هنا: القدرة على سرعة التكيف المتوازن مع الأحداث، ودقة الموازنة بين الأولويات والمصالح والمفاسد، وفعالية استثمار الفرص والإمكانات المتاحة، لضمان أصالة الجهد وفعاليته واطراديته باستمرار.

وتبدو لنا الأهمية الحيوية لهذه القاعدة، عندما ندرك ما يتسم به الواقع الإنساني باستمرار، من تعقيد وتداخل، وتناقض وتغير وتجدد من جهة، وما تمرّ به حركة الدعوة والبناء والمواجهة، من ظروف وأحوال وأوضاع، وملابسات وتحديات من جهة أخرى، حيث يصعب ضمان أصالة الفعل الدعوي وفعاليته وديمومته، ومن ثم تحقيق أهداف الدعوة والدولة والمجتمع، بدون القدرة الفائقة على **استثمار قاعدة المرونة الحركية المنضبطة**، في البلاغ والبناء والمواجهة، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع المواقف والظروف والوسائل الاستثنائية، وإعمال الرخص والتوفيقات الدقيقة، بين المصالح في ذاتها ، وبينها وبين المفاسد، وبين المفاسد في ذاتها، جلباً لأعظم المصالح ودرءاً لأعظم المفاسد .

فحركة التغيير والبناء لا تتم في فراغ، بل تتم في إطار **سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** المهيمنة على الضرورة الاستخلافية باستمرار ، أي أن الدعوة إذا لم تكن لديها القدرة على سرعة **التكيف المتوازن**، فإن قوى التدافع والتداول الأخرى، ستأخذ منها الفرص وتحرمهما من روح المبادرة، وتفرض عليها منطق الدفاع وسياسة ردود الأفعال التي تفقدها التوازن، في الأهداف والمنهج والوسائل. ولا يخفى هنا أن امتلاك القدرة على سرعة التكيف المتوازن مع الأحداث، يحتاج إلى فقه الأولويات والموازنات، وفقه المبادرة وسرعة الإنجاز ودقته أي إلى المرونة الحركية المنضبطة، باعتبار عملية انشداد مستمر للأصول والثوابت ، واستجابة مرنة للتحديات المحيطة ، واستثمار فعال للإمكانات والفرص المتاحة .

والمتأمل في الفعل الدعوي النبوي، يلحظ مدى دقة وفعالية استثماره عليه الصلاة والسلام لهذه القاعدة، في عملية البلاغ والبناء والمواجهة، وأثر ذلك في أصالة وفعالية جهده الدعوي على هذه المستويات جميعاً، كما نلمس ذلك من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من موقفه صلّى الله عليه وسلّم من بعض قيادات القوى المضادة، التي كانت تكيد للدعوة والدولة والمجتمع، ككعب بن الأشرف وغيره ممن سبق الحديث عنهم في سياق القاعدة السابقة، فقد رغب عليه الصلاة والسلام من بعض الصحابة أن يكفوه شرهم، وأذن لهم أن يترخصوا في حدود ما يمكّنهم من إنجاز مهماتهم عند الضرورة أو الحاجة، كما نلمس مثلاً في قوله لمحمد بن سلمة حينما قال له بعد أن انتدبه لتصفية كعب بن الأشرف: **(ائذن لي أن أقول شيئا)** فقال له: **(قل)**[1].

وقد لجأ عليه الصلاة والسلام إلى هذا، بعد موازنات دقيقة للموقف، في أبعاده الشرعية، وفي تأثيراته الإيجابية والسلبية على حركة الدعوة والدولة والمجتمع، حاضرا ومستقبلا، أفضت به إلى تحمل أخفّ الضررين وهو إنهاء وجود فئة ظالمة، لم تنفع فيها وسائل المهادنة والترغيب والاستعطاف والتحييد، من أجل تأمين الدعوة والدولة والمجتمع، وتجنيب فئات عديدة من قاعدة

([1]) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف.

المجتمع والقوى المضادة عامة، فتنتهم والتغرير بهم، ودفعهم إلى المصير المجهول.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من استباحته عليه الصلاة والسلام شق حائط**أحد** المنافقين وهو في طريقه إلى**أحد**، رغم اعتراض صاحبه، وحثه التراب في وجه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأكثر له من القول[1] وبعد هزيمة المسلمين بأحد واضطراب أمرهم، وشيوع خبر موته صلّى الله عليه وسلّم، استثمر ذلك في التخفيف من طلب المشركين له، وأمر صحابيا بالسكوت وكتمان الأمر، لما عبر رضي الله عنه عن فرحه بحياة رسول الله، وصاح معلناً ذلك[2]. وأجاز مشية التبختر والاختيال في مواطن إغاضة الكفار وخصوم الدعوة، كما فعل مع أبي دجانة في**أحد**، حينما أخذ يتبختر بين الصفوف لاستفزاز المشركين وإفقادهم توازنهم النفسي، فقال عليه الصلاة والسلام: **(إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)**[3].

هكذا كان عليه الصلاة و السلام يستثمر بفعالية، **قاعدة المرونة الحركية المنضبطة**، في استيعاب التحديات، وتحقيق أصالة الأداء وفعاليته، دون أن يتهاون في الانضباط بموجهات الشرع ومقاصده، أو أن يتجاوز حدود الترخص الضرورية لإنجاز الواجبات، كما يلحظ في منعه الصحابة من قتل المنافق الذي حث التراب في وجهه وأغلظ له القول[4]، وفي تعقيبه التربوي التقييدي على مشية أبي دجانة[5]، وضعاً للأمور في أنصبتها الصحيحة ، من قيم الدعوة وموازينها وأهدافها وأولوياتها.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من المنافقين الذين كان دورهم التَعويقي للدعوة، والتآمري على الدولة، معروفا لديه ولدى قاعدة الدعوة، ولكنه لم يقدم عليه الصلاة والسلام على تصفيتهم، كما فعل مع يهود بني قينقاع، بل صبر عليهم، وفضل أسلوب محاصرتهم اجتماعيا، وتأليب الرأي العام عليهم، لعلمه بالآثار السلبية المعقدة لأسلوب التصفية، لكون ظاهرهم الإسلام، ولكون أكثرهم من وجهاء القوم بالمدينة، ولا يزال الكثير من المسلمين على علاقات اجتماعية متشابكة معهم[6]، فكان الأنسب هو جعل قاعدة المجتمع تتولى أمرهم، وتحاصر وجودهم، في إطار الوعي المفاهيمي والسياسي الذي كانت الدعوة تؤسسه وتؤصله في المجتمع عبر قاعدة الدعوة التي ما فتئ موقعها يتعزز ونفوذها يتعاظم في المجتمع.

ومن يتتبع آثار هذه السياسة المرنة، يلحظ مدى نجاحها فعلا، في تقويض نفوذ المنافقين تدريجيا، ووقاية الدعوة والدولة والمجتمع من هزات إجتماعية وسياسية هي في غنى عنها، كما يدل على ذلك ما لحق مركز المنافقين من اهتزاز، من جراء مواقفهم المتخاذلة بأحد[7]، ومن وقفتهم مع بني قينقاع[8].

وبهذه المقدرة الفائقة، في استثمار **قاعدة المرونة الحركية المنضبطة** في الدعوة والبناء والمواجهة، ضمن عليه الصلاة والسلام لحركته أصالتها وفعاليتها واطراد حيويتها، كما أسس عبر ذلك

([1]) ابن هشام، **السيرة**، 23/2؛ ابن عبد البر، **الدرر**، ص146.
([2]) الطبري، **التاريخ**، 518/2.
([3]) ابن هشام ، **المرجع نفسه**، 66/2؛ الذهبي، **السيرة**، 396/1.
([4]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 69/3.
([5]) البيهقي، **الدلائل**، 215/3.
([6]) ابن عبد البر، **الدرر**، 146/.
([7]) ابن هشام، **المرجع السابق**، 111/3.
([8]) البيهقي، **الدلائل**، 174/3.

وعي قاعدة الدعوة بهذه القاعدة التسخيرية الهامة ، ونمّى لديها جانبا هاما من الفكر والسلوك القيادي الذي يؤهلها للاضطلاع بمهامها الرسالية بكفاءة واقتدار.

تعميق التآلف الاجتماعي وتأصيل الوعي بسننه: لما لقوة شبكة العلاقات الاجتماعية وتماسكها من أهمية أساسية في إنجاز مهام الدعوة والبناء والمواجهة، وتمكين الدولة والمجتمع من الصمود في وجه التحديات.وهو ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم على وعي عميق به فصيّره أولوية محورية في حركته عليه الصلاة والسلام، وقاعدة من قواعد البناء الأساسية على مستوى المنهج في الوقت نفسه، كما يتضح لنا ذلك من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من تعميق الوعي بمفهوم الأخوة، وتحويله إلى تآخي[1] عملي في واقع الحياة، كما تم في المرحلة السابقة، وتواصل الاهتمام الشديد به على المستوى النظري والتطبيقي معًا في هذه المرحلة والمراحل التالية، ونذكر هنا على سبيل المثال دفن عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد يوم **أحد**، بتوجيه منه صلى الله عليه وسلم، لأنهما كما قال: «**كانا متصافيين في الدنيا**»[2]. تنبيها منه إلى الأهمية الكبرى للتآخي الصادق، في لحم وحدة المجتمع، وشحذ فعاليته الاجتماعية في الدعوة والبناء والمواجهة، وتهييجا لنفوس المسلمين تجاه هذه القيمة الاجتماعية العظيمة في قصة الاستخلاف باعتبارها سنة أساسية من سننه .

النموذج التطبيقي الثاني: ونستمده من تأكيد القرآن على تلاحم المجتمع، وإبرازه لأهمية التماسك الاجتماعي، وتحذيره من عوامل وآثار الفرقة والتفكك الاجتماعي، ودعوته إلى العناية بمقومات التلاحم والتآلف، وكشفه عن بعض السنن العامة المتصلة بذلك، كضرورة الوعي بقيمة الخيرية التي تضمنتها الدعوة[3]،وأهمية التوثب الروحي في مواجهة الضعف الذاتي[4]، ودور الوعي التاريخي في التحصين النفسي والاجتماعي[5]،ومكانة الآليات التنظيمية في ذلك كله[6]،كما يتضح ذلك في آيات عديدة وردت في "سورة آل عمران"، نكتفي منها بقوله تعالى[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**][7].

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى تجسيدًا حيّا له في وصف القرآن لحرص الرسول عليه الصلاة والسلام على تآلف قاعدة الدعوة، وإشارته إلىأحدى أهم سنن هذا التآلف وهي الرحمة بالجماعة واللين لها وعدم إعناتها، والترفق في تربيتها، كما فعل عليه الصلاة والسلام في**أحد** حينما نزل على رأي الأغلبية الذي أفضت إليه الشورى، رغم مخالفته لوجهة نظره في تقدير الموقف[8]

---

(1) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص174.
(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد (**فتح الباري**، 433/7).
(3) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 18/4.
(4) الرازي، **التفسير**، 140/8.
(5) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 32/4.
(6) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 26/4.
(7) الآيات من : 102-105.
(8) البيهقي، **الدلائل**، 226/3.

ورغم مل آل إليه الأمر بعد ذلك من صدمة كبيرة وفي هذا قال تعالى: **[فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ]**(1).

وبهذا الحرص على **تأسيس وتمثل ثقافة التآلف والترابط الاجتماعي**، ومواجهة ثقافة الفرقة والتنازع، ضمنت الدعوة تنوع الآراء، ووحدة الموقف و الصف، وتماسك المجتمع، ومن ثم فعالية الأداء الاجتماعي على مستوى الدعوة والبناء والمواجهة، ولم تؤثر فيها كثافة التحديات الداخلية والخارجية، لما منحها التآلف الاجتماعي من قدرة على امتصاص الضربات واستيعاب الصدمات .

تحرير قاعدة الدعوة من الاستلاب الاجتماعي:

ونقصد بالاستلاب الاجتماعي هنا: تأثير الأوضاع الثقافية والاجتماعية التقليدية، على ولاء وحيوية اندفاع قاعدة الدعوة، وطبع سلوكها بنوع من الإزدواجية والتذبذب والتردد، الذي يصعّب عملية التربية وإعادة التكييف الاجتماعي، ويضعف وتيرة التفاعل مع حركة الدعوة والبناء والمواجهة، بل وربما أدلف بالبعض أحيانا إلى مشارف السلوك النفاقي المعيق لأصالة وفعالية الأداء الاجتماعي والسياسي للدعوة والدولة والمجتمع.

ولا تخفى خطورة هذا الاستلاب الاجتماعي لقاعدة الدعوة أو فئات منها، على حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المراحل الحساسة، التي تحتاج فيها الدعوة إلى تكتيل طاقاتها، وشحذ فعالية آدائها بصورة نموذجية، تمكنها من مواجهة أعباء البناء وتحديات التحول الاجتماعي. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام على وعي دقيق وعميق بهذه المشكلة، فحرص على استثمار "**الميزانية التسخيرية**" لقاعدة الدعوة بفعالية متناهية، عبر تحريرها من عقدة الاستلاب للأوضاع الثقافية والاجتماعية التقليدية، وتعميق التحامها بحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وانحيازها التام للأوضاع الثقافية والاجتماعية الجديدة، واندماجها المصيري النهائي فيها.

وقد اتخذ تحرير قاعدة الدعوة من مؤثرات الاستلاب الاجتماعي، مناحي وأشكالا عديدة، نقتصر على ثلاثة نماذج تطبيقية منها وهي على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول: ويمكن تلمس بعض ملامحه في حرص الوحي على تعميق وتأسيس وتأصيل وعي قاعدة الدعوة **بفرادة وأحقية المنظومة المنهاجية للإسلام**، إذ يلحظ المتتبع لما نزل في **سورتي البقرة وآل عمران** بالخصوص، تأكيدًا كبيرا على نواحي الفرادة والتميز والامتياز في الإسلام، عبر إبراز حقيقة كون هذا الإسلام وحياً إليهما صادراً عن علم محيط "**بالدورة الوجودية للإنسان**"، وتقدير دقيق لما يصلح لهذا الإنسان وما يصلحه، كما تدل على ذلك كثرة الحديث عن أسماء الله وصفاته، وبيان كون الكتاب منزلاً منه سبحانه وتعالى:﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 159.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وبالإضافة إلى هذا التأكيد على فرادة الإسلام من حيث مصدره، ركز الوحي كذلك على أن جميع من سبق من الملل المؤمنة كانت على الإسلام، وأن أولى الناس بالأنبياء جميعا هم المسلمون المتبعون لخط النبوة والإسلام لله تعالى[2]، ونبه بعد جواز مكثف مع أهل الكتاب، وتزييف لأطروحاتهم، إلى أن :﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾[3]، ﴿وإنوَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[4].

وانطلق من هذا كله ليعمق إحساس قاعدة الدعوة بما حيز لها من الفضل والاختصاص بالرحمة بإتباعها الإسلام[5]، ويشعرها أنها بذلك كانت خير أمة أخرجت للناس[6]، وبالتالي فهي الأمة المرجع والنموذج ،كما سبق تأكيد ذلك في المرحلة السابقة في مثل قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا ﴾[7]. وبهذه العناية بتعميق وعي قاعدة الدعوة بفرادة وتميز وامتياز المنظومة المنهاجية للدعوة. حرر الإسلام أتباعه فكريا ونفسيا ومن ثم اجتماعيا من الاستلاب من الأوضاع التقليدية، حتى وإن ظلت هناك بعض العلائق والارتباطات الضاغطة مستمرة؛ لأن ذلك أمر انتقالي آيل إلى التقلص واضمحلال الأثر تدريجيا، مع تواصل عملية تعميق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدولة .

النموذج التطبيقي الثاني : وبالإضافة إلى عناية الوحي بتعميق وعي قاعدة الدعوة بفرادة وأحقية المنظومة المنهاجية للدعوة الإسلامية، اعتنى كذلك بتعميق وعيها بأغوار الصراع الفكري وآلياته، وبواعثه النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية، وخلفيات القوى المديرة له ومقاصدها، وأكثر من سوق الأمثلة على حرص القوى المضادة على تضليل قاعدة الدعوة وبلبلة موقفها بأساليب ماكرة، كالإيمان والردة[8]، والاستهزاء بقيم الدعوة الفكرية والعملية[9]، وتشويه الحقائق للتلبيس على الناس[10]، وهز قناعاتهم، وإرباك مواقفهم، وهدر طاقاتهم، وشل فاعليتهم.

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 1-6.
([2]) اللغوي، **معالم التأويل**، 313/1؛ الشوكاني، **فتح القدير**، 443/1.
([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 19.
([4])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 84
([5]) البقاعي، **نظم الدرر**، 16/6.
([6]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 84/4.
([7])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 143.
([8]) الطبري، **روح البيان**، 311/3.
([9]) السيوطي، **الدر المنثور**، 107/3.
([10]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 343/3؛ سيد قطب، **الظلال**، 612/1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولم يكتف الوحي بالتنبيه إلى مخاطر الصراع الفكري وتحذير قاعدة الدعوة من الغفلة عن تأثيراته السلبية، بل دأب على تربية الحس النقدي التحليلي لديها، وتدريبها على كشف الزيف والمكر في مواقف وتصرفات وأفعال القرى المضادة[1]، كما نلحظ ذلك في دعوة القرآن إلى تجنب استعمال الكلمات التي تستغل للإساءة للدعوة:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [2].

النموذج التطبيقي الثالث: كما ركز الوحي كذلك على بعد آخر في تحقيق عملية تحرير قاعدة الدعوة من الاستلاب الاجتماعي للأوضاع التقليدية الضاغطة، وهو العمل على **محاصرة وتقويض مستقبل المجتمع التقليدي** ، من خلال تشريح وضعه العقدي والنفسي والسلوكي، وعرضه على محك سنن التسخير والاستخلاف، مقارنا بنموذج المجتمع الإسلامي البديل ليظهر تخلفه واهتلاكه، وعدم قابليته للبقاء والاستمرارية[3].في ظل وجود المنافس الحضاري الصحيح .

وفي هذا السياق يدخل حديث القرآن بالخصوص عن شخصية المنافق والكافر والمشرك والمغضوب عليه والضال... وتشريحه للعلاقات النفسية والاجتماعية القائمة في المحيط الذاتي والاجتماعي لكل من هذه النماذج البشرية[4]، المنتمية إلى نماذج الحياة التقليدية، التي استنفذت أغراضها، وحان أوان ترك مكانها لنماذج : المسلم، والمؤمن، والرباني، والتقي...

وبهذا التركيز على هذه المحاور الثلاثة، تمكنت الدعوة الإسلامية فعلا من تحرير قاعدتها البشرية من الاستلاب الاجتماعي للأوضاع التقليدية، ومنحها المبررات النفسية والفكرية والاجتماعية التي تشحذ فعاليتها في اتجاه الالتحام بالإسلام ونموذجه الاجتماعي الجديد ، والإصرار على المضي في تصميم خيرتهما على الناس .

إطراد شحذ الفعالية الروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة : ونقصد بشحذ الفعالية الروحية والسلوكية هنا: تنمية الأشواق الروحية أو الإيمانية للإنسان، والارتقاء بعلاقته بالله تعالى إلى مستويات الإحسان، التي يعبد فيها الله تعالى كأنه يراه ويحس بوجوده الملازم لحياته، فيعكس ذلك الإحساس في علاقاته بذاته وبمحيطه الاجتماعي والطبيعي، إتقانا للعمل وتجويدا له، وحرصا على نفع الخلق به ، وتمحيض الولاء لله ولرسوله ولدينه وللمسلمين، أي للدعوة والدولة والمجتمع، وهو ما يطبع حياته بأقصى درجات الفعالية التسخرية والاستخلافية المتوازنة.

ونظرا للأهمية الحيوية الكبرى لاشحاذ الفعالية الروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة، في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وضمان إطراد حيويتها، وتحقيق أفعل شروط إبراز ذاتية المجتمع الإسلامي الجديد وتفوقه، فقد اهتم الرسول صلىالله عليه وسلم بذلك اهتماما شديدا، وركز جهده على **تنمية الأشواق الروحية لقاعدة الدعوة باستمرار**، وتكييف سلوكها مع مقتضيات الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، والارتقاء به إلى مستويات رفيعة من التناغم والانسجام مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من ناحية، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية أخرى .

([1]) الزمخشري، **الكشاف**، 516/1.
([2])**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 104.
([3]) رشيد رضا، **المرجع السابق**، 89/2-91-94-106-114؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 32/3 وما بعدها.
([4]) البقاعي، **نظم الدرر**، 96/1؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير** 260/1-286-288.

كما يتضح لنا ذلك من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول: ونراه من خلال كثافة عناية الوحي بالمادة الأولية لتوليد الطاقة الروحية لدى قاعدة الدعوة وترقية أدائها السلوكي لقاعدة الدعوة ، كما يظهر ذلك من التأكيد المستمر على مفاهيم وقيم : **الإيمان، والعمل، والنية، والتوبة، والتوكل، والرقابة، والخوف، والرجاء، والمبادرة، والإحسان، والتقوى، والإيثار، والأخوة، والمحبة، والصدق والإخلاص والصبر...** إلى غير ذلك من المفاهيم والقيم ذات الشحنات الروحية والمضامين السلوكية المكثفة والمترابطة والمتفاعلة، التي يخدم بعضها بعضا باستمراره على اعتبار أن القيم الروحية ترقي الحياة السلوكية وتهذبها، والقيم السلوكية تشحذ الحياة الروحية وترقيها كذلك.

والأمر الأساسي الملحوظ في عصر النبوة عامة، هو **سيادة الروحانية على الحياة كلها**، حيث يلمس من يدرس واقع المجتمع الإسلامي في هذه الفترة كيف، كانت مفاهيم الآخرة حاضرة بقوة في حياة الناس، الذين كانوا يعيشون اليقين بعوالم: الموت والحياة البرزخية ، القيامة ، الحساب ، الجزاء ، الجنة ، النار كأنها رأي العين، أي **جزءا أصيلاً من عالم الشهادة** ، وهو ما ينعكس على سلوكهم بالإحسان والرحمة. كما تجلى ذلك على سبيل المثال في محنة**أحد**، وكيف واجهها من ابتلوا بها في الميدان[1] وكيف واجهها المجتمع الإسلامي كله بالصبر و التجلد والاحتساب، والشوق إلى عالم الآخرة[2]، الذي كان مفتوحاً وممتد أمامهم ، يلهمهم الثبات وقوة الإرادة، والاعتزاز بخدمة الدعوة والدولة والمجتمع، والاستعلاء على كل العلائق والارتباطات والقيم التي تناقض ذلك.

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وهو يعيش قمة الروحانية والانفتاح على عوالم الغيب، وتجلى ذلك في سلوكه كله، وعلاقاته كلها، ومواقفه كلها، في الغضب والرضى، والسر والعلن، والحرب والسلم، والأخذ والعطاء، في الصلاة والمعاملات، في المسجد والسوق، في النصر والهزيمة... ففي ذلك كله كانت الروحانية تحف عمله، وتهيمن على تصرفاته، وهو ما ينعكس بقوة على قاعدة الدعوة التي كان يشرف مباشرة على تربيتها، فيسري حب الله والشوق إلى ما عنده من الفضل والكرامة، والتفاني في خدمة دينه والتمكين له في الأرض منه إليها، أي إلى قاعدة الدعوة، فتزداد روحها إشراقا، وإرادتها مضاء، وتفانيها في الالتزام والدعوة فعالية.

ويكفي تأمل مشاهد من معركة**أحد** للتأكد من قوة انشحاذ الفعالية الروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة، كما يتجلى ذلك على سبيل المثال في موقف امرأة فقدت أباها وزوجها وأخاها، فلما سمعت بذلك تجلدت وقالت: ما فعل رسول الله؟ قالوا بخير، فأصرت على رؤيته، فلما تأكدت بنفسها من سلامته قالت: "كل مصيبة بعدك جلل"[3]. تعني هينة. وأخرى مات ابنها فعزّاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «**أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة**» أي استقللت أمرها. ثم دعا عليه السلام لأهل**أحد** وأخبر الناس أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا... فقالت أم سعد بن معاذ ومن يبكي عليهم بعد هذا[4]؟!

وهو تعقيب يدل فعلا على روحانية عالية أفرزت سلوكا رفيعا، قوامه الثبات والصبر والتجلد

([1]) ابن هشام، **السيرة**، 86/3 وما بعدها.

([2]) البيهقي، **دلائل**، 280/3 وما بعدها.

([3]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 115/6؛ ابن هشام، **السيرة**، 87/3.

([4]) برهان الدين الحلبي، **السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون**، (دار المعرفة، بيروت، د.ت)، 535/2-545.

والاحتساب، والاستعداد للتضحية، والقدرة على الموازنة بين الأولويات... إلى غير ذلك من القيم المعرفية والسلوكية التي تدل فعلا على مدى نجاح المشروع التربوي الذي كانت الدعوة تنجزه في واقع المجتمع، وتعيد تشكيله على ضوئه.

النموذج التطبيقي الثالث: ونلمسه في استثمار الوعي التاريخي في شحذ الفعالية الروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة، وتحريرها من ضغط الواقع الاجتماعي التقليدي عليها، حيث يلحظ كيف أخذ هذا الجانب مداه من اهتمامات الوحي، في تحليله للتجارب التاريخية لحركة الاستخلاف في الأرض، وتفسيره لنتائجها على ضوء سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسنن الآفاق والأنفس والهداية التأييد.

وفي هذا السياق يقول تعالى تمهيدا لتقييم ما جرى بأحد وتفسيره:﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1]، وهو تأكيد على أهمية الوعي التاريخي في شحذ الفعالية الروحية والسلوكية لدى قاعدة الدعوة؛ لأن المحصلة النهائية التي يخرج بها من يدرس تجارب التاريخ البشري على ضوء الرؤية القرآنية، هي **فاعلية الإرادة الإلهية في كل شيء**، واطراد سننه في حياة البشر[2]، وكون الاقتدار التسخيري والاستخلافي مرتبطا بحجم ومستوى وغائية استثمار هذه السنن، التي يتوقف الوعي البشري الوضعي عند سنن الآفاق وبعض سنن الأنفس منها فقط ، في حين يستوعب الوعي البشري المؤمن سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد جميعا، فتكون له من ثم القوة والاقتدار والغلبة الاستخلافية والتمكين في الأرض[3].

هذا ما يستيقنه من يدرس التاريخ البشري، وهو ما استقر فعلا في ذاكرة قاعدة الدعوة، وهي تتملى دروس التاريخ ويحبره، ونفاذ سننه في الحياة، كما يعرضها عليهم الوحي، كتابا وسنة، فتزداد فعاليتهم الروحية والسلوكية انشحاذا، وانضباطهم بقيم الدعوة ومصلحة الدولة والمجتمع استحكاما يوما بعد يوم، كما يتجلى ذلك بروعة نادرة في مواقف قاعدة الدعوة بأحد، وكيف كان الرجل مبلغاً الخبر بمقتل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيقول وهو يتشحّط في دمه: "إن كان محمداً قد قتل فقد بلّغ، فقاتلوا عن دينكم!"[4] ويقول غيره وهو في الرمق الأخير من حياته* رداً على سؤال رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه: "قل له يا رسول الله إني أجد ريح الجنة". ويضيف موصياً قومه الأنصار: "لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفيكم شفر يطرف"[5]!

تعميق الوعي بأهمية الانضباط الاجتماعي وضرورته: ونقصد بالانضباط الاجتماعي هنا: الإمتثالية البصيرة إزاء كل ما تفرضه شريعة ومصلحة المجتمع من واجبات والتزامات، والوفاء التام بالمسؤوليات التي يضطلع بها الإنسان في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وعدم الإخلال بها مهما كانت التبعات، إذا كان في ذلك فائدة عامة للدعوة والدولة والمجتمع، بحسب ما تقدره السلطة المرجعية

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 137.
([2]) الدهلوي، **الفوز الكبير في أصول التفسير**، ص23 وما بعدها.
([3]) ابن كثير، **التفسير**، 119/5.
([4]) ابن كثير، **السيرة**، 78/3.
* هو سيدنا سعد بن الربيع رضي الله عنه.
([5]) الحاكم، **المستدرك**، 201/3؛ البيهقي، **الدلائل**، 285/3.

المستوعبة للموقف، في أبعاده الشرعية والسياسية والاجتماعية الآنية والمستقبلية، وليس بحسب تقدير الأفراد المعزولين عن هذه الأبعاد والآفاق جميعا، في تداخلاتها وتفاعلاتها التكاملية والتنافرية، التي تحتاج إلى موازنات وتوفيقات دقيقة، قد لا يقوى عليها النظر أو الجهد الفردي المأسور بواقعه الذاتي ومحيطه الاجتماعي المحدود بتجاربه وطموحاته الخاصة ، فالانضباط الاجتماعي ضرورة حيوية لفعالية الأداء الفردي والجماعي؛ لأنه يضمن إنجاز الأعمال بدقة، والوفاء بالتعهدات والالتزامات التي تحقق تكامل الجهود وتناغمها في تعزيز حركة الدعوة والبناء والمواجهة. بخلاف ضعف **الوعي الانضباطي** أو الإخلال به، فإنه يؤثر سلبا على مجمل الحركة الاجتماعية ولو بصورة تدريجية متراخية، للتشابك والتكامل الموجود بين مفردات وعناصر الحياة الاجتماعية، يتقوى أو يضعف بعضها بقوة أو ضعف البعض الآخر.

ومن هذا المنطلق أولت الدعوة الإسلامية عناية فائقة لهذه القيمة النفسية والفكرية والاجتماعية الهامة، التي ارتقت بها إلى مستوى **المعيار القياسي الضابط** لمدى النضج المعرفي والروحي والسلوكي والاجتماعي لدى الفرد والمجتمع، كما يلحظ ذلك في مفاهيم: التقوى، والوفاء، والصبر، والعفو، والحلم، واحترام العهود والوعود، وآداء الواجبات... والتشنيع بمفاهيم : الخيانة، وعدم احترام الوعود والعهود، والجزع، والغضب، والأثرة... التي حفل الوحي كتابا وسنة بتحليلها وتفسير السلوك البشري على ضوئها.

وفي هذه المرحلة كما في المرحلة السابقة، اهتم الرسول صلّىالله عليه وسلّم بتربية **الحس الانضباطي** لدى قاعدة الدعوة خاصة وقاعدة المجتمع عامة، لوعيه العميق بأن فعالية الأداء الدعوي مرتبطة بمستوى **الانضباط الاجتماعي** الذي تكون عليه قاعدتي الدعوة والمجتمع، فركز جهوده على بناء هذا الحس الإنضباطي، واستثماره في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، كما نلحظ ذلك في هذه النماذج التطبيقية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونرى صورا كثيرة من الاهتمام الشديد به في وضع المواثيق المقنّنة للحياة الاجتماعية[1]، وفي دأبه صلّى الله عليه وسلّم على تطبيق نظام الإمرة وتأصيل الوعي به، كما يلحظ ذلك في تأميره المستمر لأمراء على المدينة حين يخرج منها[2]، وتأمير أمراء على السرايا والسفارات الدعوية[3]، ووضع نقباء على أحياء المدينة[4]، وتأكيده الشديد والدائم على احترام النظام والتراتيب الاجتماعية المرعية وتشجيع ذلك والتنويه به

وبجانب هذا التجسيد العملي للحس الإنضباطي لدى قاعدة الدعوة خاصة والمجتمع عامة من قبله عليه الصلاة والسلام، كان القرآن يواصل إرساء القيم المتصلة بذلك... ويعزز بواعث الحرص على **الامتثالية البصيرة** لمقررات الشرع، والاستجابة للواجبات الاجتماعية، والاضطلاع بها بحماس وحيوية واندفاع عبر ما كان يغذيه في قاعدة الدعوة من معاني الروحانية، التي تجعلها لا تغفل عن الأجر المعنوي والثواب المؤجل أو المدخر، بل كثيرا ما تؤثره على الأجر المادي العاجل.

([1]) ابن هشام، **السيرة**، 147/2.

([2]) استوعب كل من الخزاعي في "**الدلالات السمعية**"؛ والكتاني في "**التراتيب الإدارية**" الحديث عن جوانب كثيرة جداً من "فقه الإنجاز" في حركته عليه الصلاة والسلام.

([3]) الخزاعي، **الدلالات السمعية، ص**332.

([4])عبد الحي الكتاني، **نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية**، (الناشر: حسن جعنا، بيروت، د.ت)، 236/1 وما بعدها.

ونكتفي هنا بقوله تعالى الجامع في هذا المجال:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[(1)].

فها هنا تأكيد على المفاهيم الكبرى للحس الإنضباطي، وتنبيه إلى الآليات العملية التي تحقق ذلك وتحافظ عليه وترتقي به على الدوام، وهي الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(2)]، والوقاية المبكرة من عوامل الاختلاف المرضي، وأسباب الفرقة الموهنة لفعالية الأداء، والمبددة لجهد الدعوة والدولة والمجتمع.

النموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من عمله ﷺ في المواجهات الكبرى مع القوى المضادة، حيث كان يركز على تربية الحسن الانضباطي لدى قاعدة الدعوة في الميدان، حيث يكون للتوجيه التربوي أهميته وفعاليته، كما نلحظ ذلك في**أحد** ، كمصب لجهد المراحل السابقة، فقد انضبط ﷺ بنتيجة الشورى رغم مخالفتها لتقديره[(3)]، وتفحصه جيشه وردّ منه من لا يقدر على الحرب من الصبيان رغم تحرقهم على المشاركة وحرصهم الشديد على ذلك[(4)]، ونظّم الجيش ووزع المهام على الناس، وأكد على الانضباط الصارم[(5)] ، كما نرى ذلك في أمره للرماة: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم هذا**»[(6)].

وقد جاءت الهزيمة بعد ذلك درسا عمليا قاسيا في تربية الحس الإنضباطي، وتعميق الوعي به، عبر تقييم القرآن للموقف[(7)]، وحركة النقد الذاتي المركزة، التي قام بها الأفراد والجماعات تقويما لأنفسهم ولغيرهم، وهو ما عزز الوعي بأهمية الانضباط الاجتماعي، وحوله إلى مكون هام من المكونات الفكرية والنفسية لشخصية المسلم.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من حرصه صلّىالله عليه وسلّم على الرعاية الصارمة لاحترام مواثيق وقيم الدولة والمجتمع، وحمل الناس على الانضباط بها، والوفاء التام بالتزاماتهم تجاهها، صيانة لأمن الدعوة والدولة والمجتمع، كما نرى ذلك في موقفه الصارم من بني قينقاع[(8)]، وبعض الأفراد الذين أخلّوا بواجباتهم إزاء المجتمع[(9)]، ونكثوا عهودهم معه، وعملوا على المساس بمصالحه، فلم يتردد عليه الصلاة والسلام، بعد استنفاذ وسائل الحوار والنصح، في كسر شوكتهم،

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 104، 105.
([2]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 26/4 وما بعدها.
([3])ابن عبد البر، **الدرر** /145.
([4]) ابن هشام، **السيرة**، 70/2؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 8/2.
([5]) السمهودي، **وفاء الوفاء**، 285/1.
([6]) أخرجه أبو داوود في **السنن**، كتاب الجهاد ، باب الكُمناء، 51/3.
([7])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 121 وما بعدها.
([8]) ابن هشام، **السيرة**، 76/2.
([9])ابن حزم، **جوامع السيرة**، 154- 174.

وضرب وجودهم بكل حزم، حسما لمادة الفساد[1]، وتعميقا للوعي الانضباطي وضرورته لدى قاعدتي الدعوة والمجتمع معًا.

فالانضباط الاجتماعي ظل هدفا ووسيلة في المنهج النبوي لضمان أصالة وفعالية الدعوة والبناء والمواجهة، تلمس رعايته بكثافة في نصوص الوحي وتطبيقات الرسول صلى الله عليه وسلم لها، الأمر الذي ترك أثرا عميقا على مستوى حماية استمرارية حركة الدعوة والبناء والمواجهة والمحافظة على منجزاتها، وتقديم صورة نموذجية عن قوة ومصداقية المجتمع الإسلامي الجديد ، بدت معه صورة المجتمع متخلفة هزيلة لا قدرة لها على المنافسة الحضارية .

الجدية السياسية في مباشرة مهام البناء والمواجهة: ونقصد بالجدية السياسية هنا: الحزم في مباشرة إنفاذ المهام بعد استفراغ الوسع للإعداد لها، والاحتراس من التردد الموهن للعزائم، المربك للموقف، أو المساعد على تفاقم الأوضاع واستعصائها على الحل بعد ذلك، حينما تتحول إلى واقع ميداني جديد، يحتاج من الدعوة والدولة والمجتمع مجهودا إضافيا جديدا، يقتطع من ميزانية مهام أخرى، قد يتأثر إنجازها سلبا، ويؤثر بدوره على غيره من المهام الأخرى، وهكذا يتسلسل إهدار أجزاء عزيزة من ميزانية التسخير ، وتتسلسل معه وتأتي النواقص والتقصيرات حتى تتحول إلى مديونية حضارية خطيرة .

فالجدية السياسية ضرورة حيوية لضمان فعالية حركة الدعوة والبناء والمواجهة، يجب الحرص الشديد عليها من قبل قيادة الدعوة، ونقل ذلك الحرص إلى قاعدتي الدعوة والمجتمع، وتحويله إلى ثقافة نفسية وفكرية وسلوكية، تعزز الانضباط الاجتماعي، وتساهم في عملية تفعيل الأداء الدعوي وحماية حركته، والمحافظة على منجزاته، عبر تعمّق **الإحساس بمسؤولية الموقف**، ومن ثم الحاجة إلى التفكير الموضوعي المتوازن في حيثياته وتفاعلات مآلاته في محيط المصلحة الذاتية، ومحيط مصلحة الدعوة والدولة والمجتمع.

والقيادة النبوية عندما ندرس مواقفها دراسة شمولية متكاملة، نجدها تتميز **بالمرونة الحركية المنضبطة** من جهة –كما سبق بيان ذلك– وتمتاز في الوقت نفسه **بالجدية السياسية** في مباشرة إنفاذ الأمور من جهة أخرى، وعدم التردد وتبديد الوقت والجهد والإمكانات، بل تحسم الموقف، ولو اقتضى الأمر استثمار **قاعدة الصدمات المرجعية**، كما مرّ الحديث عن ذلك.

ولعل هذه القدرة على الموازنة والتوازن، هو الذي طبع الجهد النبوي بالفعالية النموذجية في أصالتها؛ وتكاملها وحيويتها، كما يتضح لنا ذلك من هذه النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال، ونماذج أخرى عديدة تصب في هذا السياق ، مر الحديث عنها في مساق قواعد المنهج الأخرى :

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من حرصه عليه الصلاة والسلام المستمر على تربية قاعدة الدعوة على الجدية في الأمور الحسّاسة، والابتعاد بها عن الهزل في مواطن الجد والعزم، وتعميق وعيها بضرورة التقدير الموضوعي للأمور وعدم الاستهانة بالتحديات تحت أي مبرر من المبررات، بل الإبقاء على حالة التأهب والاستعداد والاحتياط في الموقف منها باستمرار، كما نلحظ ذلك في تعقيبه التربوي على استهانة سلمة بن سلامة رضي الله عنه، برجالات قريش عقب بدر حينما خرج المسلمون يهنئون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال لهم أي سلمة: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها. فقال عليه الصلاة والسلام: «أي **ابن أخي! أولئك**

([1]) ابن القيم، **زاد المعاد**، 441/3.

الملأ»[1]. أي أشراف القوم وسراتهم وسادتهم، بما يوحي لقاعدة الدعوة بعدم الاغترار، والتفكير الموضوعي المتوازن في أسباب النصر، الذي تكاملت فيه سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وهو ما خفي عن هذا الصحابي ففسر الموقف في منظور سنن الآفاق، وذهل عن بقية أبعاد الموقف ومكوناته الأخرى، التي يؤدي الذهول عنها إلى سوء التقدير وارتباك العمل .

النموذج التطبيقي الثاني: ونراه في موقفه الحازم عليه الصلاة والسلام من القوى المضادة بالمدينة عقب صدمة بدر، ومحاولة بعض اليهود والمنافقين المرتبطين بهم، امتصاص آثار هذه **الصدمة المرجعية الهامة**، والتهوين من انتصار المسلمين، والإخلال الجدي بالانضباط الاجتماعي للمجتمع، فحاول استيعاب الموقف في إطار مواثيق التعايش، وتقاليد المجتمع المرعية[2]، فلما لحظ إصرارهم على المضي في سياسة الإخلال بأمن الدولة والمجتمع، وتهديد مستقبل الدعوة[3]، لم يتأخر في أخذهم بالجدية السياسية المطلوبة، والحزم القيادي الصارم الذي يعزز روح الانضباط، ويركز هيبة الدعوة والدولة، ويضمن استقرار المجتمع، ويجعل كل من يريد الخروج على الدعوة والدولة والمجتمع يحسب لذلك ألف حساب.

فقد نكل عليه الصلاة والسلام ببني قينقاع وغيرهم، وأعطى بذلك درسا بليغا في **الحزم السياسي** الذي لا تردد فيه لكل الناس، وبذلك عرفوا قاعدة هامة من قواعد منهجه في الدعوة والبناء والمواجهة، وعرفت طريقها إلى ثقافة المجتمع وتقاليده التي تؤطر مواقف الناس وتوجه سلوكهم وعلاقاتهم بالدعوة والدولة والمجتمع.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من موقفه من رغبة متحمسة**أحد** في التراجع عن الخروج من المدينة، وإعادة وضع الأمر بيده صلّىالله عليه وسلّم، بعد أن أحسوا بأنهم استكرهوه على الخروج بشدة إلحاحهم عليه، وحماسهم لذلك. فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل**»[4].

وفي هذا الموقف حرص بالغ على تعليم قاعدة الدعوة، الحزم والجدية في أمور الدعوة والدولة والمجتمع، وعدم التهاون فيها، رغم استشعاره عليه الصلاة والسلام –من خلال الرؤيا التي رآها، والملابسات التي أحاطت بالموقف–[5] خطورة الخروج؛ لأنه كان على وعي عميق بأهمية تعميق الوعي بالجدية السياسية في مباشرة مهام الدولة والمجتمع[6]، والتي تبدأ من تحليل الموقف بشمول وعمق وموضوعية، واتخاذ القرار على ضوء الموازنات الدقيقة بين البدائل والخيارات المتاحة، ثم تمتد إلى التعبئة ومباشرة إنجاز المهمة، التي إذا ما شرع في تنفيذها فإنه يكون من العبث العدول عنها دون مبررات موضوعية مدروسة[7].

فهاهنا تعميق للوعي بمنهجية بناء الموقف وإنجازه، وكيف يمرّ ذلك **بدورة إنجازية** كاملة، تؤثر أبعادها ومراحلها في بعضها بعضا، سلبا وإيجابا. فقد أراد صلّى الله عليه وسلّم أن يعلّم قاعدة

([1]) البيهقي، **الدلائل**، 147/3.
([2]) أبو داود، **السنن**، كتاب الخراج والامارة..، باب كيف كان إخراج اليهود، 154/3.
([3]) ابن هشام، **السيرة**، 50/3.
([4]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 68/3؛ الحاكم، **المستدرك**، 129/2.
([5]) إبراهيم الشريف، **الدولة الإسلامية الأولى**، ص140.
([6]) ابن القيم، **زاد المعاد**، 211/3.
([7]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 206/4.

الدعوة كيف تحترم قوانين "**الدورة الانجازية**" للفعل الدعوي، وتعطي لكل بعد ومرحلة منها ما تستحقه من التحليل والموازنة والتفسير الموضوعي، حتى إذا ما انتقلت إلى المرحلة التالية للتوقع ووضع الخطط والبدائل، كان عملها قائما على أرضية صلبة. وهكذا مراحل التنفيذ والإنجاز بعد ذلك. وهو ما أخل به من تحمسوا للخروج، واستبدت بهم العاطفة، التي كان يغذيها أحيانا انتصارهم ببدر، فأراد عليه الصلاة و السلام أن يعلم الصحابة، كيف يجب أن تتكامل العناية الموضوعية المتوازنة بكل أبعاد ومراحل الدورة **الانجازية للفعل** الدعوي، وأن لا يستهينوا بأية مرحلة من هذه المراحل.

وبهذا ركز عليه الصلاة والسلام الوعي بقاعدة هامة من قواعد الدعوة والبناء والمواجهة لدى قاعدة الدعوة، وهي الجدية السياسية، التي عندما تستثمر جيداً في وقتها المناسب، تكون عاملا فعالا في حماية حركة الدعوة والبناء، والمحافظة على منجزاتها، ومن ثم في تدعيم مسيرة بناء الدولة والمجتمع.

المتابعة الدقيقة لمجريات الأمور الداخلية والخارجية: ونقصد بالمتابعة الدقيقة هنا: الحرص المستمر على الإحاطة بأوضاع الدعوة والدولة والمجتمع، والمعرفة الدقيقة بأوضاع ومواقف وتحركات القوى المضادة، وعدم الغفلة عن ذلك أبداً، واستثمار ما يستطاع من الإمكانات المتاحة والوسائل المشروعة، لتحقيق معرفة **شاملة ودقيقة ومتجددة** بمجريات الأوضاع داخليا وخارجيا.

فالمعرفة بالواقع والإحاطة بمجريات الأحداث نصف القوة والنجاح، ونصفه الآخر هو حسن استثمار هذه المعرفة في التحليل والتفسير والتوقع والتخطيط، وحشد الإمكانات، واختيار البدائل وفعالية الإنجاز. لذلك فإن من أوتي القدرة على تحصيل المعرفة الشاملة الدقيقة المتجددة عن واقعه، وواقع القوى المضادة له، فقد أوتي أهم عوامل القوة والاقتدار.

ومن يتأمل مواقف الرسول –صلى الله عليه وسلم – الدعوية، يلمس مدى أهمية إعمال هذه القاعدة في تحقيق أصالة وفعالية "**الدولة الانجازية**" لفعله الدعوي عليه الصلاة والسلام، ودور ذلك في تأمين حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وحماية منجزاتها، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الأول: ونراه في مباغتاته عليه الصلاة والسلام للقوى المضادة التي كانت تتأهب للكيد للدعوة والإجهاز على الدولة والمجتمع، كما نلحظ ذلك في سراياه إلى بني سليم وذي أمر، وبحران، والقردة[1]، وغزوة**أحد** وتصفية مجموعة من المعوِّقين[2] في هذه المرحلة.

فهذه التحركات والمواقف جميعا كانت مبنية على معلومات دقيقة كانت تصله باستمرار، فيستثمرها بدقة وفعالية، ويباغت خصومه ويربك مواقفهم، ويشتت أمرهم، ويقي الدعوة والدولة والمجتمع شرهم، كما حدث في الوقائع السابقة، التي تدخل فيها حتى غزوة**أحد**، التي وصلته تحركات قريش عنها بوقت لا بأس به[3]، فأخذ أهبته اللازمة، ولولا خطأ ساذج من الرماة، لكانت **الصدمة المرجعية الثانية** التي تختزل الصراع بين القوى المضادة والدعوة.

النموذج التطبيقي الثاني: ولما حاولت قريش عقب صدمة بدر فك الحصار الاقتصادي على تجارتها، وعزمت على تحويل طريق قوافلها نحو طريق العراق، فوجئت بسرية تطوق**أحد**ى أهم قوافلها، وتضع يدها عليها كلها بعد أن فرّ أعيان الناس منها، وقد بلغ خمس الرسول صلّى الله عليه

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 46/3 وما بعدها.
(2) ابن كثير، **السيرة**، 5/3–9؛ القسطلاني، **المواهب اللدنية**، 378/1–379–386.
(3) القسطلاني، **المواهب اللدنية**، 392/1؛ عرجون، **محمد رسول الله**، 547/3–549.

وسلّم وحده منها عشرين ألف درهم[1]. وهو ما عمق إرباك الموقف القرشي تمامًا ، وضغط عليه في اتجاه اللاتوازن باستمرار .

والذي يهمنا هنا هو هذه القدرة على المتابعة الدقيقة بمجريات الأحداث على كل الجبهات، والتحكم التام في الموقف، عبر شمول ودقة المعرفة التي كان يحرص على استجماعها عن الأوضاع الداخلية والخارجية حتى لا تفاجئه الأمور ولا تتجاوزه الأحداث. فقد كان صلّى الله عليه وسلّم دائم الحرص على المعرفة بالواقع الداخلي للدعوة والدولة والمجتمع، والواقع الخارجي للقوى المضادة بمختلف فئاتها وأماكن وجودها، وهو ما كان يساعد على فعالية الأداء على كل المستويات.

النموذج التطبيقي الثالث: وعندما داهم الخطر المدينة من خلال حشد **أحد**، أسرع صلّى الله عليه وسلّم إلى تعرف الموقف الداخلي والاستيثاق منه جيدا.

فعقد مجلس شورى أخذ فيه رأي قاعدتي الدعوة والمجتمع[2]، فلما استوثق من استعداد الناس، وتعرف ميدانيا طبيعة واتجاهات الموقف، توكل على الله ومضى لاستكمال أبعاد الموقف العملية الأخرى.

وفي هذا السياق رفض مشاركة اليهود معه، احتياطا لما قد ينجم عن وجودهم من مخاطر للدعوة والدولة[3]، وقد أكدت الأحداث الحكمة البالغة في تصرفه ذاك، لأنهم لو حضروا لانحازوا إلى القوى المضادة بعد ارتباك موقف المسلمين العسكري، ولكان لهم دور خطي، لمعرفتهم بالمسلمين. وقد روي فعلا أن الحارث بن سويد وكان منافقا، لم يرجع مع من تراجع من المنافقين واندس في صفوف المسلمين، وتمكن من قتل مسلمين ثأرًا لأبيه ولحق بقريش[4].

كما حرص صلّى الله عليه وسلّم على الاستيثاق أكثر من وضعية جيشه، فاستعرض الموقف بعد مسير قصير، رد فيه بعض من لا يطيق شدائد الحرب من الشباب الصغار[5]، ولم يجز بعض من أصر على القتال منهم إلا بعد معاينة استعداداته النفسية والجسمية[6]. والتأكد من قدراته القتالية .

وفي هذا كله تطبيق لقاعدة **المتابعة الدقيقة لمجريات الأمور**، وحرص على الاستيثاق الجيد من الأوضاع، وأخذ الأمر بالجدية التي يستحقها، استجماعا لشرط **المعرفة الدقيقة بالواقع**، الذي سترتكز عليه بقية مراحل وأبعاد "**الدورة الانجازية**" لفعله وتحكم به بعد ذلك، وهو ما كان يعيه جيدًا عليه الصلاة والسلام، ويطبقه في عمله باطراد وصرامة، الأمر الذي طبع مواقفه بأصالة وفعالية نموذجية ، لا شك أن مداه التربوي قد بلغ من وعي قاعدة الدعوة مداه .

التأهيل القيادي لقاعدة الدعوة وإشراكها في حركة البناء والمواجهة:

ونقصد بالتأهيل القيادي هنا: تدريب قاعدة الدعوة على فنون القيادة، وشحذ وعيها في اتجاه اكتساب الخبرات والمهارات الفكرية والعملية التي ترتقي بمستوى أدوات التحليل والتفسير والتخطيط والأداء لديها، إلى درجات عالية من الأصالة والفعالية والكفاءة، من خلال إشراكها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة بصورة فعلية وجدية، وتعريض مواقفها ومبادراتها وسلوكها للترشيد والتوجيه

---

(1) ابن هشام، **المرجع السابق**، 54/3؛ البيهقي، **الدلائل**، 171/3.
(2) الحاكم، **المستدرك**، 129/2؛ البيهقي، **الدلائل**، 206/3.
(3) ابن سعد، **الطبقات**، 39/2-40.
(4) ابن عبد البر، **الدرر**، ص158.
(5) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الإمارة، باب بيان سن البلوغ (**شرح النووي**، 12/13).
(6) عرجون، **محمد رسول الله** 571/3.

والتسديد، حتى تنضج خبرتها، ويتكامل وعيها القيادي ويكتمل مع مرور الزمن.

فالرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يعي جيدًا دور الكفاءة والاقتدار القيادي في فعالية الأداء الدعوي، ومن ثم في حماية حركة الدعوة وضمان أمن الدولة واستقرار المجتمع، فركز على التأهيل القيادي لقاعدة الدعوة عامة، وإعداد صفوة ذات كفايات قيادية عالية خاصة، تشكل **أساس القوة المتجددة** في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، والمجِّددة لمسيرة الدعوة والدولة والمجتمع باستمرار ، حتى تواجه تحديات ابتلاءات التدافع والتداول بأصالة وفعالية وإطراد .

ولن نتحدث هنا عن المناحي والأساليب الكثيرة التي اتخذها هذا التأهيل القيادي؛ لأنها كثيرة، ولأن كل ما سبق ذكره من قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة، يشكل بعضاً من مادة ومنهج هذا التأهيل القيادي، ولكننا سنركز فقط على أهمية إشراك قاعدة الدعوة في عمليات التخطيط لمواجهة تحديات البناء، في شحذ وعيها وقدراتها القيادية، إذ أن غرضنا تأكيد وتأصيل القاعدة، وليس استقصاء تفاصيل تجلياتها، وما يستتبع ذلك من تفريع وجزئيات كثيرة، هي موضوع الدراسات الفقهية والتربوية والسياسية والإدارية والتسييرية المتخصصة.

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من إشراكه عليه الصلاة والسلام قاعدة الدعوة في التفكير في الموقف من أسرى بدر [1] ، ليدربهم من جهة على كيفية مواجهة الأزمات، وحل المشكلات، واستثمار الإمكانات، في ضوء الموازنات الدقيقة بين مصلحة الدعوة والدولة والمجتمع، في أبعادها المبدئية والسياسية، وآفاقها الآنية والمستقبلية، ومن جهة أخرى ليشركهم في تحمل مسؤوليات البناء، ويحسّسهم بمكانتهم المتميزة في المجتمع الجديد، مطلقا بذلك حماستهم وحبهم تجاهه –أي المجتمع– ، وحرصهم على خدمته وحمايته ، والإعلاء من شأنه .

ومن يتتبع مجريات ووقائع هذه المشاركة، يلحظ كيف تشعبت الآراء وتباينت[2]؟ وكيف اجتهد كل فرد أو فريق في تبرير موقفه والدفاع عنه؟ وكيف تمت عملية استخلاص الموقف المتبنى[3]؟ وكيف عقب القرآن على ذلك وقوَّم وسدّد[4]؟ وفي ذلك كله تدريب وتأهيل قيادي عملي فعال لقاعدة الدعوة، وشحذ لقدراتها على تحليل الأمور وتفسيرها وبناء مواقفها والدفاع عنها، وسماع الرأي الآخر، وعدم الضجر من تبني الآراء المخالفة.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من إشراك قاعدة الدعوة كذلك في بناء الموقف العسكري في غزوة أحد، فقد حرص عليه الصلاة والسلام على مشاورة الناس، وأفسح المجال واسعا لوجهات النظر المختلفة، وأخذ برأي الأغلبية،[5] التي حاولت مراجعة موقفها بعد نهاية المداولات، والانطلاق في إنجاز المراحل التالية من "**الدورة الانجازية**" لفعل أحد، فرفض صلّى الله عليه وسلّم هذا التردد[6]. وبذلك عمق وعيها بأصول القيادة، وخاصة جدية التفكير وموضوعيته، والحزم في إنفاذ الأمور وعدم التردد بعد ذلك، وتركيز الجهد في عملية تعبئة إمكانات التنفيذ المعنوية والمادية، الدخول مرحلة الإنجاز الفعلي بأقوى شروط وضمانات النجاح.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في بدر (**شرح النووي**، 85/12).
(2) ابن كثير، **السيرة**، 457/2.
(3) الذهبي، **السيرة النبوية**، 353/1.
(4) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 68–69.
(5) أبو زهرة، **خاتم النبيين**، 828/2–826؛ عرجون، **محمد رسول الله**، 553/3.
(6) ابن القيم، **زاد المعاد**، 211/3.

لقد كان صلّى الله عليه وسلّم يعلّم قاعدة الدعوة بهذه المواقف التربوية العملية، كيف تعطي لكل مرحلة من "**الدورة الانجازية**" للفعل، حقها في الوقت الخاص بها[1]، وأن لا تخلط بين هذه المراحل، حتى تضمن لعملها التركيز والفعالية والأصالة. لأن أخذ كل مرحلة في "دورة الفعل" حقها من التركيز واستثمار الوقت والإمكانات الخاصة بها، في استيفاء شروطها المطلوبة، يحقق أصالة الفعل وفعاليته، وهو ما تحرص عليه الدعوة، وتربي عليه المسلمين، وخاصة الصفوة القيادية منها، وفي ذلك كله تدريب وتأهيل قيادي رفيع المستوى .

النموذج التطبيقي الثالث: ونراه في تنمية كفاءات قاعدة الدعوة، واستثمارها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، من خلال تعميق وتحسين وتطوير خبرات الأفراد، ومساعدتهم على اكتشاف عبقرياتهم وقدراتهم[2]، كما يلحظ ذلك في تدريبهم على القيادة، عبر حركة السرايا والغزوات، وتحمل المسؤوليات المختلفة بالمدينة، في حضوره وأثناء غيابه، وتشجيعه أصحابه على تحمل المسؤولية وإبراز كفاياتهم فيها[3]، مستعملا في ذلك الحوافز المعنوية والمادية[4]، التي تذكي حماستهم، وتشحذ طموحهم لتحقيق المزيد من التفوق والاقتدار والكفاءة.

وبهذا الحرص على التأهيل الفكري والعملي لقاعدة الدعوة، تمكن عليه الصلاة والسلام، من شحذ القدرات القيادية لها تدريجيا، ضامنا من خلال ذلك، أهم شروط حماية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، والمحافظة على منجزات الدعوة والدولة والمجتمع. لأن القدرة القيادية تحقق فعالية الأداء واطراده سواء على مستوى البلاغ أو البناء أو المواجهة، وهو ما يعمق مسار بناء المجتمع ، ويمكنه من كسب رهانات التدافع بينه وبين المجتمع التقليدي .

تفويض سلطة المرجعية المضللة : ونقصد بالمرجعية المضللة هنا: القيادة الفكرية والروحية والسياسية ذات السلطة والنفوذ المعنوي والمادي على قاعدة المجتمع التقليدي ورأيه العام ومراكز قواه الاجتماعية، والتي تقود حركة المواجهة ضد الدعوة والدولة والمجتمع، وتؤسس لها فكريا، وتؤصلها وتغذيها روحيا، وتؤطرها سياسيا واجتماعيا بكل الوسائل المتاحة لها، حتى تمنع تأثير الدعوة في الرأي العام، وتحول دون قيام نموذج إجتماعي منافس وبديل للنموذج الاجتماعي التقليدي الموروث، لارتباط الكثير من مصالح وامتيازات هذه المراجع والقوى الفكرية والروحية والسياسية بذلة*.

ونظرا لقوة النفوذ المعنوي والسياسي والاجتماعي الذي تمارسه هذه المراجع والقوى على المجتمع التقليدي، وتشده به إليها، وتستثمره في تعويق حركة التغيير وتبديد قواها في الجدل الهامشي والساحات الجانبية[5] التي تؤثر بعمق وشمول وسرعة في حسم عملية التدافع والتداول لصالح النموذج الاجتماعي الجديد، فقد توجهت الدعوة إلى عمق المشكلة وجذرها، ولم تستوعبها المظاهر أو الأدوات التنفيذية، الممثلة في قاعدة المجتمع، فركزت جهدها أيضا على **استيعاب المراجع الفكرية والروحية والسياسية للمجتمع التقليدي**، أو تحييدها عن ميدان المواجهة، أو تقويض سلطتها المعنوية على الرأي

([1]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 206/4.
([2]) شيت خطاب، **الرسول القائد**، /441.
([3]) ابن هشام، **السيرة**، 58/3-63-69-71.
([4]) عبد الله محمد الرشيد، **القيادة العسكرية في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم**،(دار القلم، دمشق،1410هـ-1990م) ص470.
* في ضوء تحليل القرآن وتفسيره لظاهرة مناهضة هذه المراجع للتغيير، يحتل الخوف على هذه الإمتيازات والمصالح، العامل الرئيس في حركة التدافع الحضاري.
([5]) انظر مثلا دور سحرة فرعون في هذا الإطار قبل أن تستوعبهم الدعوة المرسومة.

العام، إن تعذر عليها احتواؤها مرحليا.

وما أكثر ما تغفل حركات التغيير عن هذه المسألة، وتستغرق في مواجهة المظاهر وأدوات التنفيذ، التي تتجدد وتتنوع باستمرار. فيطول بها الطريق، وتضمحل قواها مع مرور الزمن وهو ما كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم على وعي عميق ودقيق به، فجاءت حركته شاملة متوازنة، بحيث تمكّن من ضرب المرتكزات الاجتماعية القاعدية للمجتمع التقليدي، بتأثيره على قاعدته البشرية العامة واحتواء مجموعات هامة منها، كما ضرب في الوقت نفسه مرتكزاته الفكرية والروحية والسياسية، عند ما تمكن من احتواء بعض قادة الفكر والرأي فيه ، وتحييد بعضه الآخر، وتقويض نفوذ من ظل منهم وفيا لمجتمع الإمتيازات المتوارثة وجاداً في تزييف وعيه، ولم يستطيع الإرتفاء بوعيه إلى مستوى الانسجام مع سنن التسخير والاستخلاف فحرص عليه الصلاة والسلام على تقليص سلطتهم المعنوية والسياسية والاجتماعية على قاعدة المجتمع ورأيه العام، وهو ما يبدو لنا من هذه النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: المحور الأول الذي تحرك عليه منهج تقويض **سلطة المرجعية المضللة**، وتقليص وطأتها تدريجيا على قاعدة المجتمع، وإضعاف فعالية أدائها على صعيد المواجهة والتدافع، هو **تأكيد زيف وتهافت مصادرها المعرفية**، وإسقاط حجيتها العقدية والفكرية والاجتماعية، من خلال عرضها الموضوعي على محك الوعي العقدي و التسخيري والاستخلافي، وبيان تحريف بعضها، وقصور بعضها الآخر، بفعل عوامل البيئة والزمن[1].

وقد استغرق الحديث عن هذه القضايا، وإنجاز هذا الهدف جزءاً كبيراً من القرآن في المرحلة المكية، والمرحلة المدنية. ومن يتأمل سور: **البقرة وآل عمران والأنفال...** التي نزل معظمها في هذه المرحلة والمرحلة السابقة، يلحظ كثافة المادة المعرفية الموجهة لهذا الغرض، حيث أكثر القرآن من الحديث عن تاريخ الأنبياء ومحتوى النبوات، ومواقف الناس منها، وخص بالذكر بني إسرائيل[2]، الذين كانوا يمثلون **إحدى** أهم المراجع المعرفية والروحية في المنطقة ويشاركون بقوة في إدارة حركة المواجهة للدعوة والدولة والمجتمع، فأثبت زيف **وتهافت مرجعيتهم المعرفية والروحية**، وأسقط حجيتها، وهو ما جعل بعض كبار مراجعهم يسلمون، كعبد الله بن سلام[3]، وبعضهم الآخر يسلّم بالضعف والعجز عن مواجهة الدعوة فكرياً، ولكنه غلبت عليه العادة والذاتية وسوء الطوية، فظل وفيا لماضيه وامتيازاته.

النموذج التطبيقي الثاني: والمحور الثاني لمنهج تقويض سلطة المرجعية المضللة، **هو ضرب الرمزية الكامنة في الشخصيات المجسدة لمرجعية المجتمع التقليدي** والممثلة لها في نظر الرأي العام، وذلك بتشريح واقعها الفكري والنفسي والسلوكي، وتعرية ما تعيشه من انحراف وزيف وتهافت وازدواجية فكرية ونفسية وسلوكية مشينة، لا ترقى بها إلى مستوى الرّمزية المعنوية التي تجعلها محل الثقة والتقدير والتأسي بعد ذلك.

وفي السور السابق ذكرها، حديث مركز عن المسلكيات الأخلاقية المتهافتة لعلماء ووجهاء القوى المضادة، وخواء نفوسهم، وضعف توثبهم الروحي، وتهافتهم على الدنيا والإمتيازات المرتبطة

([1]) ابن كثير، **التفسير**، 400/1، وما بعدها.
([2]) تكرر لفظ بني إسرائيل في القرآن (43) مرة.
([3]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب مناقب الأنصار، باب منافقي عبد الله بن سلام (**فتح الباري** 160/7).

لها، وعدم تورعهم عن تحريف الكتاب وكتمان الحقيقة[1] وتضليل قاعدة المجتمع، وتخريب مستقبلها ومصيرها، وطغيان الشكلية والمظهرية الجوفاء على مواقفهم العامة[2]، وربط كل هذه الإنحرافات بالميراث التاريخي لقوى الضلال المتسلسل عبر التاريخ[3]، وبيان جنايته على الإنسانية، والمسؤولية الخطيرة عن ذلك أمام الله تعالى يوم القيامة، وأمام أجيال الإنسانية المتعاقبة التي تحكمها بهم علاقة التلاعن[4]، عندما تكتشف هذا التهافت وهذا الانحراف، وهذا التضليل.

وقد يكون خير مثال عملي نذكره هنا، هو موقف الأنصار يوم **أحد** من أبي عامر الراهب[5]،**أحد** مراجعهم الفكرية والروحية الكبرى في الجاهلية، حينما تبرؤا منه ولعنوه ورموه بالفسق، عند ما حاول تأليبهم على الدعوة، بعد أن انضم إلى القوى المضادة منذ وقت مبكر من الهجرة النبوية، وحاول قيادة معارضة داخلية ضد الدعوة والدولة والمجتمع بالمدينة. فأخفق، بعد أن ضرب الرسول صلّى الله عليه وسلّم نفوذه المعنوي وتسميته بالفاسق بدل الراهب وقد أدرك انهيار مكانته الروحية والسياسية عندما قال معقباً على موقف قومه الأنصار منه يوم أحد : " **لقد أصاب قومي بعدي شر**"[6] .

النموذج التطبيقي الثالث: والمحور الثالث لمنهج ضرب سلطة المرجعية المضللة، **هو تشريح الاختلالات العميقة في النموذج الاجتماعي التقليدي**، وانعكاساتها الخطيرة على التوازن والتكامل الفكري والنفسي والاجتماعي للإنسان الممثل لها، وما ينجم عن ذلك من مضاعفات وعواقب سلبية على حركةالاستخلاف والوعي الذي يجب أن يتمخض عن ذلك باستمرار، إغناء للخبرة الإنسانية، وارتقاء بمستوى أدائها التسخيري والاستخلافي، على صعيد الأصالة والفعالية واطراد الحيوية وتجددها.

ففي الكتاب والسنة معا، نقد مركز ومكثف لمرتكزات ومظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع التقليدي، وبيان لمناقضتها لسنن التسخير والاستخلاف، بأنظمتها الطبقية، وعلاقاتها الاهتلاكية، وإهدارها لحقوق الإنسان وكرامته... وهو ما يضع المراجع الفكرية والروحية والسياسية، في وضع حرج باستمرار أمام قاعدة المجتمع، التي يزداد إحساسها بالفراغ والقلق، وتضعف ثقتها تدريجيا في هذه المراجع، ويأخذ ولاؤها لها وللمنظومة الاجتماعية التقليدية كلها في التزلزل والفتور، حتى يصل إلى درجة الانفصال، الذي يعني الإنحياز للمنظومة الاجتماعية البديلة.

وبهذه المحاور الثلاث التي تحرك عليها جهد تقويض سلطة المرجعية المضللة، تمكن عليه الصلاة والسلام من مواجهة آثار الفعل المضاد للدعوة والدولة والمجتمع، واحتوائه تدريجيا، والتقليل من مضاعفاته السلبية عليها، وتجريد القوى المضادة –مع مرور الوقت- من أعظم عوامل قوتها، وأفعل شروط اقتدارها، باستيعاب أو تحييد أو تفويض سلطة المرجعية الفكرية والروحية والسياسية للنموذج الاجتماعي التقليدي.

ونكتفي هنا بهذه العينات من قواعد المنهج، الذي كان يحكم حركة الدعوة والبناء والمواجهة،

---

(1) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 73/2.
(2) ابن عطية، **المرجع السابق**، 188/2؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 266/2.
(3) الرازي، **التفسير الكبير**، 121/2-124.
(4) الطبري، **جامع البيان**، 52/2-73.
(5) ابن هشام، **السيرة**، 71/3.
(6) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 16/2.

ويؤطر "**الدورة الانجازية**" للفعل النبوي، ويضمن له الأصالة والفعالية والاطراد، في مواجهة التحديات وإنجاز أهداف المرحلة، مع أن هناك قواعد أخرى كثيرة استثمرت في هذه المرحلة كذلك، تكتفي بالإشارة إلى عناوينها، مثل: **شحذ فعالية التزام قاعدة الدعوة** ومضاعفة وتائرها، والقدرة على المناورة وتغذية الخوف والوهن لدى القوى المضادة[1]، وتعميق **الوعي بقانون الابتلاء والمكابدة**[2]، وتعميق **الوعي بفقه الجهاد ومقامات الشهادة**[3]، **ومواجهة الالتباس في تقدير الناس**[4]، **وتعميق الوعي بخطر الذنوب على الأداء والتوازن الاجتماعي**[5]، واطراد عملية **تأسيس الوعي التاريخي لدى قاعدة الدعوة**[6]، وتعميق الوعي **بالدور الرسالي للصفوة في المجتمع**[7]، **والمعرفة بأقدار الناس ودقة استثمار كفاءاتهم**[8]... إلى غير ذلك من القواعد الهامة، التي استثمرها عليه الصلاة والسلام في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها البشرية والمادية والمعنوية من جهة ، وفي تعميق بناء الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة من جهة أخرى .

منجزات الدعوة في هذه المرحلة :

كما جرينا على ذلك في المرحلة السابقة، فإننا سنحاول تقييم منجزات الدعوة في هذه المرحلة، على ضوء الهدف المحوري لها، وهو **تأمين وجود الدولة**، الذي تمحورت جهود تحقيقه حول:

مواصلة إنجاز البرنامج التربوي للدعوة.

استثمار مكاسب المرحلة السابقة ومواجهة مضاعفات صدمة بدر.

مواصلة إنجاز خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة.

تعميق تلاحم المجتمع وتآلفه وتأمين وجوده.

فأين وصلت حركة الدعوة والبناء والمواجهة في تحقيق هذه الأهداف، وبالتالي تأمين الدعوة والدولة والمجتمع، وضمان استمرارية عملية التحول المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، عبر تعميق الوعي العقدي والتسخيري، و الاستخلافي لدى قاعدة الدولة ؟

منجزات الدعوة على مستوى مواصلة إنجاز برنامجها التربوي : على هذا المستوى، نجحت الدعوة في ضمان اطراد عملية الاستيعاب التربوي لقاعدة الدعوة، رغم التحديات الكثيرة التي كانت تعيق ذلك، فقد تمكن عليه الصلاة والسلام من خلال استثماره الدقيق لقواعد المنهج السابقة، من تحويل كل تحديات المرحلة ومعطياتها إلى مادة تربوية، **تشحذ الوعي المعرفي، والتوثب الروحي، والانضباط السلوكي، وتحسِّن القدرات الانجازية** لقاعدة الدعوة.

تؤصل **ففي مجال الوعي المعرفي:** أخذت المفاهيم العقدية تبني وتؤصل الرؤية العقدية لقاعدة الدعوة، وهو ما عزّز قدراتها الفكرية، على التحليل والنقد والتفسير الموضوعي للظاهر والحادثات البيئية، والاجتماعية والثقافية والسياسية، في ضوء الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، بعيدًا عن

---

(1) البيهقي، 207/3؛ عرجون، **محمد رسول الله**، 575/3.
(2) ابن هشام، **السيرة**، 49/3-50؛ البيهقي، **الدلائل**، 167/3-172؛ عرجون، **محمد رسول الله**، 660/3.
(3) ابن القيم، **زاد المعاد** 71/3.
(4) ابن هشام، **المرجع نفسه**،112/3؛ البيهقي، **المرجع السابق**، 303/7؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**، 150/4-158-233-312.
(5) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 95/3؛ ابن عبد البر، **الدرر**، ص152؛ البلاذري، **الأنساب**، 279/1.
(6) رشيد رضا، **المرجع السابق**، 172/4- 192.
(7) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 287/3؛ فضل الله، **من وحي القرآن**، 182/6.
(8) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 35/3-261-313.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النظرة الخرافية والتجزيئية والاتباعية الآلية البليدة، التي كانت تطبع الموقف المعرفي والمنهجي قبل ذلك.

لقد أعطى الوحي لقاعدة الدعوة منهجًا في النظر والتفكير والمعايرة، مؤسس على الوعي بسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، في تكاملها الوظيفي المحكم، الذي لا يدع أية فجوة في الموقف التفسيري للظواهر، إلا ما كان مصدره نقصا في المعطيات، أو ضعفًا في القدرات التحليلية أو فتوراً في الطاقات الروحية ، وهو ما نلحظه في محتوى المادة المعرفية التي كان يعرضها الوحي في هذه الفترة والفترات السابقة، ومنهجية عرضها، بحيث عندما نحلل محتوى ذلك كله، نجد استثمار **الوحي لمادة الكون، ولحركة التاريخ، ولمعطيات الواقع المعيش، ولحركة النبوات، ولعوالم الغيب ومعطياته**، في تحليل الظواهر وتفسيرها، وفي بناء أفعاله التربوية من جهة أخرى، التي تأتي تبعاً لذلك الشمول والتكامل مؤسِّسة ومؤصِّلة **للوعي السنني** لدى قاعدة الدعوة، ومنقِّية لمجالها الثقافي من نواقض الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي الذي ترتبط به أصالة وفعالية التدافع الحضاري، كما سبق الحديث عن محاوره في الباب الأول.

وهذا الوعي السنني الشامل المتكامل، الذي كان يتضمنه **الفعل التربوي للوحي** في بعديه النظري والتطبيقي، لا شك أنه **أحدث** تحولا معرفيا جذريا في حياة قاعدة الدعوة، وهو ما نراه فعلا في الموقف من القيم العقدية التقليدية وما ارتبط بها من أجواءٍ نفسية، وأوضاع فكرية، وأحوال سلوكية، فقد تجاوزت قاعدة الدعوة كل ذلك، واستعلت عليه، وصار بالنسبة إليها صورة لواقع تاريخي متخلف ومنحط.

وفي مجال الوعي والتوثب الروحي: تلاحمت مفاهيم أبعاد "**الدورة الوجودية للإنسان**" بكل مفرداتها ودلالاتها في حس وحياة الفرد المسلم، الذي أصبح يشعر فعلا **بتداخل الدنيا والآخرة في كيانه ونشاطه**، وصار لقيم الإخلاص ، التجرد، والرقابة، والخوف من الله والحب له، والتوكل عليه والتشوق إلى عوالم الخلود.. حضور قوي في نفسه، وتأثير كبير على مواقفه وحياته، كما يلحظ ذلك على سبيل المثال في مشاهد كثيرة بغزوة **أحد**[(1)] ، وفي مظاهر التضحية التي تميزت بها حياة الصحابة، بالمال والأهل والمكانة والنفس من أجل الإسلام، ذلك كله أثر من آثار نجاح البرنامج التربوي للدعوة الإسلامية على المستويين . الترقية المعرفية والروحية .

وفي مجال الوعي السلوكي: انعكس التحول العميق في المجالين السابقين على الحياة السلوكية لقاعدة الدعوة، باعتبار الترقي السلوكي أو الأخلاقي هدف الوعي المعرفي والتوثب الروحي، مأخذ سلوك الفرد في المجتمع الإسلامي الوليد، يصطبغ بالمنطق العملي، وروح الغيرية، والإحساس بالمسؤلية، والولاء للدعوة والدولة والمجتمع، وأخذت قيم الرحمة والتسامح، والصدق، والأمانة، والوفاء، والشكر... تتجسد في حياة الناس، وتغير واقعهم في اتجاه نضج الوعي الاستخلافي لديهم.

وفي مجال بناء القدرات الانجازية أو التسخيرية لقاعدة الدعوة: حققت التربية النبوية كذلك مستويات هامة من شحذ الوعي التسخيري، عبر حركة التدريب القيادي العملي المركز، وتأكيد قيم الانضباط، والروح الجماعية، وتخطيط الجهد، وتدعيم السلوكي الشوري، ونقل الوعي السلوكي السابق من مجاله الفردي إلى مجال العلاقات الاجتماعية العامة، واستثماره في تحقيق فعالية الأداء في حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

وبصفة عامة، فإن الفعل التربوي النبوي حقق مكاسب هامة، على طريق تأسيس وعي قاعدة

([1]) ابن كثير، **السيرة**، 39/3 وما بعدها.

الدعوة بأبعاد "**الدورة الانجازية**" للفعل الاستخلافي النموذجي، الذي تتكامل وتتوازن، ولا تتنافر أو تتجزأ فيه سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، في ضوء سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد التي تحكم الصيرورة الاستخلافية وتؤطرها باستمرار. وهو إنجاز حاسم سيعطي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة مداها، من حيث الأصالة والفعالية واطراد الحيوية وتجددها في مراحل المواجهة والتدافع التالية.

فقد تعلّمت قاعدة الدعوة كيف تستثمر **منظومات سنن التسخير الأربعة** في المرحلة السابقة، عندما واجهت تحدي القوى المضادة ببدر لتضمن لفعلها الأصالة والفعالية والاطراد، وتأكّد ما تعلمته هناك وتعمق، وتأصل الوعي به أكثر في هذه المرحلة، عبر صدمة **أحد** المضادة، التي بينت كيف يؤثر الإخلال بأي بعد من أبعاد "**الدورة الانجازية**" للفعل في فعالية الأداء ونتائجه، وبذلك أخذ وعي قاعدة الدعوة ينضج تدريجيا في اتجاه الاقتدار التسخيري والاستخلافي، وهو الهدف الأساس من العملية التربوية.

منجزات الدعوة على مستوى مكاسب المرحلة السابقة : وعلى هذا المستوى، نجحت الدعوة كذلك في استثمار مكاسب المرحلة السابقة بفعالية، وتمكنت من مواجهة المضاعفات الكثيرة التي أفرزتها صدمة بدر المرجعية، سواء على مستوى القوى المضادة، أو حتى على مستوى الجبهة الداخلية، فقد استطاع عليه الصلاة والسلام، من خلال قواعد المنهج السابقة، أن يعمق مكاسب المرحلة السابقة على الصعيدين الداخلي والخارجي ، وأن يفوت الفرصة على خصومه ، ويفي الدعوة والدولة والمجتمع من ثورتهم العارمة التي تركتها نكسة بدر في نفوسهم، كما يتضح ذلك من المعطيات التالية:

ضرب هيبة قريش خاصة والقوى المضادة عامة، والتمكن من تأخير رد فعلها فترة لا بأس بها، مما أتاح له فرصة تركيز جهود الدعوة والبناء والمواجهة، وتعزيز موقع الدولة والمجتمع وتأمين وجودهما.

كما استطاع صلّى الله عليه وسلّم أن يعزز معنويات قاعدة الدعوة، وأن يواصل تأهيلها معرفيا وتربويا وقياديا، وأن يسوي الكثير من مشكلاتها الاجتماعية الناجمة عن الهجرة واستمرارية المواجهة للدعوة والدولة والمجتمع وأن يعبئ طاقاتها بسرعة في حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

تعزيز هيبة الدعوة والدولة والمجتمع، خاصة بعد صدمتي بدر وقينقاع، ومنح فرص جديدة للدعوة، التي أخذ الناس يفكرون فيها بجدية، وصارت أكثر من أي وقت مضى موضوع نقاش وجدل خصب في كل مستويات المجتمع التقليدي، كان من آثاره إسلام بعض رجالات القوى المضادة كعمير بن وهب الذي جاء يغتال الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فقاده الحوار معه إلى الإسلام-[1].

منجزات الدعوة على مستوى إنجاز خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة: وحققت الدعوة على هذا المستوى كذلك مكاسب هامة، **شملت المجال المعرفي والنفسي والسياسي والاجتماعي، والعسكري**، الذي وإن ألقت عليه صدمةأحد المضادة بظلالها السلبية مؤقتا، إلا أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم تمكن من تجاوز ذلك واستثماره بفعالية كما سنرى في المرحلة التالية.فعلى كل هذه المستويات حققت الدعوة نتائج معتبرة، كما نلمس ذلك من خلال المعطيات التالية:

- تواصلت عملية نقد وتقويض مرتكزات المنظومة المعرفية للمجتمع التقليدي،

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 216/2.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 190/3-194.
([3]) ابن عبد البر، **الدرر**، ص141.

وومحاصرة قيمه العقدية والفكرية والثقافية، وبيان زيفها وتهافتها، وتناقضها مع فطرة الإنسان، وفطرة الوجود من حوله، والدفع بعملية النقد والمراجعة والنقض إلى أغوار التاريخ، وأعماق الواقع، وآفاق المستقبل والمصير، لإحكام الحصار على ممثلي الثقافة التقليدية، الذين أخذوا يحسون بالفراغ من حولهم يتسع، والقلق بلا حقهم، والآفاق تضيق أمامهم، كما نلحظ ذلك في استمرار التحاق فئات من قاعدة المجتمع بل ومن صفوته بحركة الدعوة والدولة الجديدة.

ويعبر عن هذا القلق، وهذه الحيرة في المجتمع القرشي على سبيل المثال، استنجاد صفوته بعلماء اليهود، ومدارسة الأمر معهم، مواجهة لمشكلة اهتزاز قيم المجتمع المعرفية والروحية والاجتماعية في أعماق نفوسهم، كما يدل على ذلك سؤالهم لكعب بن الأشرف حينما ذهب إلى مكة يعزي قريشا بعد صدمة بدر، ويحرضها على التجلد وردّ الصدمة، فقالوا له: **أديننا خير أم دين محمد؟! فلم يتردد في طمأنتهم وشدّ أزرهم، وتثبيتهم على ما هم عليه**[2].

فالدعوة حققت مكاسب هامة على مستوى تفكيك المنظومة المعرفية والثقافية للقوى المضادة، وضرب الصمود النفسي لأصحابها، خاصة بعد أن ركزت على **مضغة المواجهة الثقافية** في هذا المجال، وهم اليهود، ونقضت مرجعيتهم المعرفية، وأسقطت حجيتها، وجردت صفوتهم من السلطة المعنوية الكبيرة التي كانت تتمتع بها، بعد أن وضعت سلوكهم وأمانتهم الروحية تحت أضواء النقد والتشريح النفسي والفكري والتاريخي.

- وتواصلت في اتجاه آخر عملية تضييق الخناق على **مضغة الصراع السياسي**، فركز صلّى الله عليه وسلّم جهوده على حرمان قريش من أية فرصة لفك الحصار الاقتصادي عن نفسها، كما رأينا ذلك في ملاحقته لها عندما غيرت طريق تجارتها نحو العراق[3]. وتجاوز عليه الصلاة والسلام هذا المستوى من الحصار، إلى حرمانها من مجالها الحيوي الاقتصادي والسياسي والعسكري، بضرب وتشتيت وتحييد القبائل المختلفة ذات الصلة بها، بما في ذلك يهود قينقاع أصحاب النفوذ الكبير، والتعاطف السياسي مع قريش بعد صدمة بدر، فقد أسرع صلّى الله عليه وسلّم إلى تصفية وجودهم وإضعاف شوكتهم، وإشغالهم بأنفسهم، **وتعزيز شحنة الصدمة المرجعية** التي تثقل خطى القوى المضادة، وتشل فعاليتها لبعض الوقت، الذي تستثمره الدعوة في تعزيز موقفها، وتدعيم موقعها في حركة التدافع والتداول.

وبهذه السرعة والدقة والشمولية في مواجهة القوى المضادة، تمكن صلّى الله عليه وسلّم من حرمانها من تنسيق جهودها، ومكاملة طاقاتها ضد الدعوة والدولة والمجتمع، فأبقى كل جناح منها منشغلا بمشكلاته، كما يلحظ ذلك في تجميد وضع القبائل الموجودة بين مكة والمدينة، وفي وضع اليهود وحلفائهم من المنافقين الذين عجزوا عن مساندة قينقاع عملياً، رغم وعدهم بالتدخل في حال دخولهم في مواجهة مع الدعوة والدولة، وقصارى ما فعله ابن أبي في نهاية الموقف هو الشفاعة لهم لإنقاذهم من الموت، مع التسليم بإجلائهم وتخلية بيضة الدولة والمجتمع منهم.

ومن خلال هذه النتائج، يلحظ كيف أن خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة، وإعادة استيعابها بعد ذلك، تسير في طريقها المرسوم، رغم التحديات الكثيفة التي كانت تواجه ذلك. ولا يخفى ما للمنهج هنا من أهمية حاسمة في فعالية الإنجاز وأصالته واطراد حيويته، كما تجلى لنا ذلك من خلال قواعده العديدة التي ذكرت عينات منها فيما سبق بينت لنا كيف كانت "**الدورة الانجازية**" للفعل النبوي تستوعب باستمرار ما تحتاجه أصالة الفعل وفعاليته وإطراديته ، من وعي عقدي وتسخيري واستخلافي.

منجزات الدعوة على مستوى تلاحم المجتمع وتأمين وجوده: التلاحم الاجتماعي هو مصب حركة الاهتمام النبوي، لوعيه صلّى الله عليه وسلّم أن قوة المجتمع الحقيقية وأصالة فعاليته الاستخلافية

تكمن في قوة وتماسك شبكة علاقاته الاجتماعية، وقد حققت الدعوة على هذا المستوى كذلك مكاسب هامة تجلت بعض مظاهرها في:

- تعمق التلاحم الاجتماعي بين فئات المجتمع المختلفة، وتذويب رواسب التنافر القديمة، حيث أخذت المفاهيم والقيم الثقافية التقليدية تذوب أمام المفاهيم والقيم الثقافية الجديدة التي راحت تمتد على حسابها، فأصبح الواقع مؤطرا بمفاهيم الإنصاري والمهاجر، والمدينة وطيبة، والمؤمن، والمسلم، والأخوة، والجهاد، والأمة، والإيثار، والطاعة، والولاء للدعوة والدولة والمجتمع.. بدل مفاهيم الأوسي والخزرجي، والقرشي، ويثرب، والحرب، والثأر، والقبيلة، والأثرة، والولاء للقوم والقبيلة.. وهو ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(1) وقوله سبحانه:﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾(2).

تعميق مظاهر الحياة الإسلامية، التي تصب في مجرى تأليف المجتمع ولحم وجوده، وإبراز ذاتيته الثقافية والحضارية المتميزة، كالأعياد على سبيل المثال.

التضييق المتواصل لدائرة التداخل الولائي أو العلائقي بين المسلمين والقوى المضادة، فقد استمر تقليص حجم الولاءات القديمة بين بعض المسلمين من جهة وجماعات المنافقين واليهود من جهة أخرى، وتركيز هذا الولاء داخل المجتمع الإسلامي، تقوية لترابطه توسيعًا لعلاقاته، ووقاية له من المؤثرات السلبية للولاءات التناصرية والتضامنية القديمة، التي كثيرا ما كانت عامل توتر واستغلال من القوى المضادة ضد الدعوة والدولة والمجتمع.

وفي هذا جاء الوصف القرآني المقرر لجانب من الواقع الذي كان يعيشه المجتمع في هذه المرحلة، والمحرك لهذا الواقع نحو المزيد من التركيز الداخلي للولاء، والتقليص المستمر لعلاقات التناصر مع القوى المضادة، فقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾(3).

تصفية مضغة الدولة من عنصر توتر خطير، وهم يهود بني قينقاع الذين كان لهم دور فعال في إذكاء التوترات الداخلية، وامتصاص وهدر جزء هام من الطاقة المعنوية لقاعدة الدعوة، من خلال الجدل الفكري والسياسي والاجتماعي العقيم، الذي كانوا يدأبون على إثارته داخل المجتمع، وشغل

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 110.
(2) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 103.
(3) **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 73، 74.

قاعدة الدعوة به.

وبضرب وجود هذا العنصر الخطير، انكشف كذلك عنصر آخر وهو القوى الثقافية التي وقفت معه، فتعرى وجودها أكثر لدى قاعدة الدعوة، مما زاد من عزلته، وساعد على تفكيك جوانب من العلاقات الولائية التي كانت بين هؤلاء وفئات من المسلمين. وبذلك ازداد تلاحم المجتمع، وتعزز تأمين وجوده الداخلي.

موقع منجزات هذه المرحلة من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع :وعندما نتأمل نتائج هذه المرحلة والمرحلة السابقة، على ضوء الآفاق الحضارية الكبرى للدعوة الإسلامية، في: الوعي العقدي، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي وتجسيد ذلك في حركة الدعوة والدولة والمجتمع.. نجد أن حركة التغيير والبناء تسير نحو أهدافها بثبات واطراد.

فعلى مستوى بناء القاعدة القيادة للدعوة والدولة والمجتمع: نلحظ، أن الأمر يسير بصورة جيدة، حيث أخذ عدد الصفوة القيادية يتزايد باستمرار بالرغم مما حدث في صدمة **أحد** المضادة، من إنقاص كبير في عددها ومستوى اقتدارها التسخيري والاستخلافي يتطور ويتحسن باطراد كبير كما يعبر عن ذلك انشحاذ وعيها المعرفي، وتوثبها الروحي، وترقيها الأخلاقي والسلوكي، وتطور خبراتها الانجازية، وانسجام ذلك كله مع أصول وثوابت الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي.

وعلى مستوى تأسيس البنى القاعدية للدولة والمجتمع: يلحظ تعمق الأسس النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية لذلك، عبر توحيد المفاهيم والرأي والمشاعر، واطراد التلاحم الاجتماعي، واستمرار عملية البناء التشريعي، والضبط القانوني والأخلاقي للعلاقات، والحقوق والواجبات، والتأكيد التدريجي السريع لسلطة القانون ورموزه التنفيذية. والتعزيز المتزايد لقدرات القوة الذاتية للدولة والمجتمع.

وعلى مستوى تأمين حركة الدعوة والبناء والمواجهة: يلحظ كذلك اطراد عملية تطويق وتفكيك المهددات الداخلية والخارجية للدعوة والدولة والمجتمع، بصورة مركزة وفعالة مع مرور الزمن، وفي ذلك كله إضعاف للقوى المضادة ودعم مستمر لفعالية أداء الدعوة والدولة والمجتمع.

وبهذا يتأكد فعلا أن حركة التغيير والبناء للنموذج الاجتماعي أو الحضاري الجديد، تسير نحو وجهتها بانتظام.

يتأكد ذلك أن هذه النجاحات المتواصلة ، ترجع بالأساس إلى المنهج النبوي ، الذي كان يلائم عمليات البلاغ والبناء والمواجهة مع ثوابت الوعي العقدي وسنن الوعي التسخيري والاستخلافي باستمرار ، فتأتي أصيلة فعالة مطردة.

الفصل الثالث

مرحلة المحافظة على هيبة الدولة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإطار الزماني والمكاني للمرحلة:

الإطار الزماني: يمتدّ الإطار الزماني لهذه المرحلة عبر سنتين، يبدأ من نهاية أحداث غزوة أحد في النصف الثاني من شوال من السنة الثالثة للهجرة[1]، إلى نهاية أحداث غزوة الأحزاب في شوال من السنة الخامسة للهجرة[2].

واعتبرنا هنا الأحزاب معلما لنهاية هذه المرحلة، وبداية المرحلة الرابعة في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع؛ لأن مرحلة ما بعد أحد شهدت بعض التحول في استراتيجية الدعوة، كما أعلن ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عقب انصراف الأحزاب بقوله: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم**»[3]، «**نحن نسير إليهم**»[4]، حيث ستبدأ مرحلة فرض الأمر الواقع على القوى المضادة، وحملها على الاعتراف بالدولة، وقبول التعايش معها، والسير قدما نحو استيعاب المنطقة كلها، وتوطيد سلطان الدولة السياسي فيها ، كما سنرى في المرحلة التالية .

فالفترة ما بين أحد والأحزاب فترة متميزة جدًّا عما سبقها أو تلاها من مراحل، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، كما سنلحظ ذلك عند حديثنا عن التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة، وهو ما سيكون له صداه على مستوى منهج الدعوة والبناء والمواجهة، الذي نركز عليه نحن في هذه الدراسة، ونبحث عن قواعده والنواظم الكلية التي تصدر عنها وتنضبط بها. وتؤدي وظيفتها من خلالها.

الإطار المكاني: ما زال الإطار المكاني للدولة لم يتحدد بعد بصورة مستقرة، رغم المكاسب الهامة التي حققتها الدعوة في المرحلتين السابقتين، وهذه المرحلة كذلك؛ لأن صدمة أحد المضادة، نشّطت بواعث الجراءة على الدعوة والدولة والمجتمع، لدى القوى المضادة عامة، وخاصة القبائل المحيطة بالمدينة، التي راحت تعدّ نفسها لأعمال الانتهاب بالمدينة، والانتقام لما لحق بعضها في المرحلتين السابقتين.

فإذا أضفنا إلى هذا تأثيرات حركة الأحزاب التي تجمعت فيها جلّ فئات القوى المضادة بعد إجلاء بني النضير، اتضح لنا أكثر كيف عرف الإطار المكاني للدولة تذبذبا مستمرا، ولم يأخذ في الاستقرار التدريجي إلاّ بعد هذه المراحل؛ لأن جهات عديدة كانت تلتزم الحياد أو كانت خائفة، تشجعت للمشاركة في هذا التحالف العسكري الذي كانت تظن بأنه سيكون عامل حسم كبير للموقف مع الدعوة والدولة، لصالح القوى المضادة ونموذجها الاجتماعي التقليدي.

على أنه ينبغي أن نلحظ هنا، أنه على الرغم من هذا التذبذب وعدم الاستقرار في الإطار المكاني حتى هذه المرحلة، إلا أن الدعوة استطاعت أن تواصل توسيع نفوذها في مضغة الدولة، وتحررها تماما من القوى المضادة، بإجلاء بني قينقاع سابقا، وبني النظير لاحقا[5]، وتصفية بني قريظة في نهاية هذه المرحلة[6]، ليستقر الوضع تماما في منطقة المدينة، وهو إنجاز استراتيجي في غاية الأهمية، سيعطي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة فعاليتها القصوى، لخلو مضغة الدولة من

---

(1) خليفة بن خياط، **تاريخ ابن خياط**، ص97.
(2) ابن كثير، **السيرة**، 250/3.
(3) ابن هشام، **السيرة**، 266/3.
(4) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق(**فتح الباري**، 467/7).
(5) ابن هشام، **السيرة**، 200/3.
(6) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (**فتح الباري** 383/7).

عوامل التنشيط والبلبلة والتشويش المستمر على حركة البناء ومحاولة وتشويهها وإعاقتها، بالحرب النفسية والتآمر ضد الدولة والمجتمع لصالح القوى المضادة الرئيسية.

أما نفوذ الدعوة وصيتها فقد استمر في التوسع والانتشار حتى بلغ تخوم الشام في غزوة دومة الجندل[1] شمالا، ومشارف مكة جنوبا، في غزوة بني المصطلق، الذين أسلم أكثرهم بعد أن أسلم رئيسهم الحارث بن أبي ضرار، عقب زواج النبي صلّىالله عليه وسلّم من ابنته جويرية رضي الله عنها[2]. وهذه كلها مقدمات تمهيدية هامة بين يدي استقرار الإطار المكاني للدولة وتحدد نطاقه الجغرافي، في المراحل التالية من حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

أهداف الدعوة في هذه المرحلة:

تمحورت أهداف الدعوة في هذه المرحلة حول المحافظة على هيبة الدعوة والدولة والمجتمع وتأمين وجودها، بعد الصدمات التي توالت في هذه المرحلة وقد اقتضى تحقيق هذا الهدف المحوري على الصعيد العملي. الحركة المتوازنة على أربعة محاور أساسية هي:

مواجهة آثار الصدمات المرجعية المضادة.

الاستمرار في إنجاز خطة تطويق القوى المضادة وتفكيكها.

تكثيف العناية بعملية الاستيعاب الدعوي والتربوي .

تركيز الاهتمام بالمسألة الاجتماعية.

مواجهة آثار الصدمات المرجعية المضادة:ونقصد بالصدمات المرجعية المضادة هنا* : ما تعرضت له الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة من ضربات قوية مزلزلة من القوى المضادة، تركت بصماتها على الوضع النفسي والاجتماعي لقاعدة الدعوة، بسبب كثرتها وتتابعها من جهة، وشدة ضراوة وخطورة ما نجم عنها من خسائر بشرية كبيرة، وما أحدثته من إرباك لقاعدة الدعوة من جهة ثانية ، وأجدته من أجواء سياسية يمكنها أن تحرك الأحداث لصالح خصوم الدعوة والدولة والمجتمع من جهة ثالثة .

فقد حدثت في هذه الفترة أربعة حوادث خطيرة شكلت على التوالي، صدمات مرجعية مضادة هي: هزيمة أحد، وفاجعتها[3] الرجيع وبئر معونة، وحصار الأحزاب، الذي جاء وصف شدة وطأته على قاعدة الدعوة في قوله تعالى:﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾[4]. لأن القوى المضادة بعد هذه الضربات التي وجهتها للدعوة والدولة والمجتمع منذ صدمة أحد، عزمت على إنهاء وجودها تماما، فعبأت قواها وطوّقت المدينة قريباً من

([1]) ابن هشام، **المرجع السابق**، 224/3.
([2]) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 307/3.
* راجع مفهوم الصدمة المرجعية في الفصل السابق.
([3]) ابن هشام، **السيرة**، 178/3–193.
([4]) **القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 10، 11.

شهر[1]، كانت بلاء مبينا للمؤمنين[2]، كما نقل ذلك القرآن آنفاً، في وصفه للموقف النفسي لقاعدة الدعوة، وهي تواجه تراكمات هذه الصدمات المتتالية.

فهذه الصدمات المرجعية المضادة التي استثمرتها القوى المضادة على المستوى السياسي واستغلتها في تكثيف الحرب النفسية ضد الدعوة والدولة والمجتمع، كان لا بد من مواجهة آثارها النفسية والاجتماعية والسياسية الخطيرة، وهو ما شكل فعلا أحدى أهم الأولويات العاجلة في الحركة النبوية في هذه المرحلة، حيث اجتهد عليه الصلاة والسلام في امتصاص هذه الصدمات، والتخفيف من آثارها على قاعدة الدعوة، وعلى الرأي العام بصفة عامة.

الاستمرار في إنجاز خطة تطويق القوى المضادة وتفكيكها: وهو هدف حيوي هام جدًّا، وخاصة في هذه المرحلة، التي حاولت فيها القوى المضادة إستعادة زمام المبادرة، وتجاوز الصدمات المرجعية التي تعرضت لها في بدر، ومع بني قينقاع، وفي حركة إنهاء وجود العديد من مصادر الفتنة والتعويق، التي كانت تعزّز النشاط الفكري والنفسي والسياسي المضاد للدعوة والدولة والمجتمع، وتغذي روح الجراءة عليها.

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام على وعي عميق بأهمية تواصل الضغط على القوى المضادة لإضعاف موقعها في عملية المواجهة الثقافية والسياسية والعسكرية ، لذلك لم يغفل اللحظة عن إنجاز خطة تطويق القوى المضادة وتفكيك وجودها، وإعادة استيعابها تدريجيا، بل ظل ذلك يشكل أولوية هامة من أولويات حركة الدعوة والبناء والمواجهة، لم تنل منها كثافة التحديات التي واجهتها الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، فقد استطاعت حركة المواجهة، أن تحافظ على توازن أبعادها، وتتحرك بقوة على كل المستويات؛ الفكرية والنفسية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، ولم تتح الفرصة للقوى المضادة لأخذ نفسها وتجديد قواها على أي مستوى من هذه المستويات التي كانت تدور حولها المواجهة بين النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد، والنموذج الاجتماعي التقليدي، الذي كان في حالة دفاع وانسحاب وانحسار مستمر على كل الجبهات.

لقد كان وعيه عليه الصلاة والسلام عميقا بأهمية هذه الأولوية في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، فحرص على استثمار مبدأ أو قاعدة الهجوم كوسيلة فعالة للدفاع والوقاية، فكانت استراتيجيته قائمة على **تعميق إرباك القوى المضادة**، وأخذ زمان المبادرة منها، وفرض الأمر الواقع عليها، وجعلها في موقع رد الفعل باستمرار، وتفريغ مبادراتها من طبيعتها ومحتواها الهجومي، وتحويلها إلى مبادرات دفاعية قليلة الجدوى.

تكثيف العناية بالاستيعاب الدعوي والتربوي: ونقصد بالاستيعاب الدعوي والتربوي هنا: استمرار العناية القصوى بحركة البلاغ والحوار الاستقطابي بالنسبة للقوى المضادة عامة، وتركيز الجهد على العمل التربوي التثقيفي المكثف، بالنسبة لقاعدة الدعوة خاصة، شحذا لوعيها المعرفي، وتوثبها الروحي، وانسجامها السلوكي، واقتدارها الانجازي أو التسخيري و الاستخلافي.

ولا يخفى ما للعناية بهذا الاستيعاب الدعوي والتربوي من أهمية بالغة، في تأصيل وتفعيل حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وضمان لاطراد تطور الدعوة والدولة والمجتمع، في اتجاه تعميق انحسار النموذج الاجتماعي التقليدي وامتداد النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد، وتكامل أبعاد أصالته وفعاليته، إذ بقدر ما تنجح الدعوة في استقطاب أو تجميد فعالية فئات من القوى المضادة، وتتمكن من الارتقاء بالوعي المعرفي والروحي والسلوكي والانجازي لقاعدة الدعوة، بقدر ما يتآكل

([1]) ابن كثير، **السيرة**، 250/3.

([2]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 23/12.

ويضعف النموذج التقليدي، ويقوى ويظهر النموذج الاجتماعي على حسابه.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان على دراية تامة بالدور الحيوي الحاسم لعملية الاستيعاب الدعوي والتربوي، في تحقيق أهداف الدعوة، فأولاها عناية مكثفة، ولم ينشغل عنها لحظة في أية مرحلة من مراحل الدعوة، بل يلحظ الدارس لسير تطور حركة البلاغ والبناء والمواجهة، كيف كانت هذه العناية تزداد مع مرور الزمن، كثافة وتركيزا وشمولا وتوازنا، رغم كثافة التحديات الداخلية والخارجية وتلاحقها في هذه المرحلة بالذات، والتي -أي التحديات- كانت تتحول بسرعة إلى مادة دعوية وتربوية فعالة، كما نوهنا بذلك مرارا.

ويكفي دلالة على محورية الأولوية الدعوية والتربوية هنا، أنه عليه الصلاة والسلام، لم تثنه الصدمتان الخطيرتان اللتان ذهب ضحيتهما قرابة الثمانين رجلا[1] من خيرة القاعدة القيادية للدعوة في شهر وأحد[2]، بل واصل العناية المركزة بحركة الاستيعاب الدعوي والتربوي، ليقينه أن ذلك هو هدف الدعوة وجوهر غايتها، أن تستوعب المجتمع التقليدي وتقدم النموذج المنهاجي والبشري والاجتماعي البديل عنه. ولا شك أن ذلك شأن الاستيعاب الدعوي والتربوي بالدرجة الأولى.

تركيز الاهتمام بالمسألة الاجتماعية: ونقصد بالمسألة الاجتماعية هنا* : تنظيم العلاقات الاجتماعية، وتأطير حركة تفاعلها، في اتجاه المزيد من الانسجام والتكامل والتوازن والفعالية، وإبراز شخصية النموذج الاجتماعي الإسلامي المستقلة، من خلال طبيعة ومحتوى هذه العلاقات، وآفاقها الاستخلافية، المتسقة مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

فالدعوة بدون المحتوى الاجتماعي، تظل فعاليتها محدودة، وأصالتها منقوصة، واطرادية حيويتها غير مضمونة، خاصة في مرحلة التحول الاجتماعي وانتقال حركة الدعوة والبناء والمواجهة من مرحلة الدعوة إلى الدولة والمجتمع، أي من الحالة الفردية إلى الحالة الاجتماعية التي تأخذ فيها قيم الدعوة ومفاهيمها العقدية والفكرية والسياسية والاجتماعية.. طريقها إلى التمثّل والتجسيد الاجتماعي العام، بعد أن كانت تعيش داخل الفرد آمالا وتواترا، والتزاما ذاتيا، لا يلتحم بالواقع الحياتي العام للمجتمع، في تدافعه وتداوله وتجدّده.

والملاحظ في حركة تطور الدعوة والدولة والمجتمع منذ بداية الهجرة، هو استمرار التطور الصاعد للعناية بالتحول الاجتماعي، وقد بلغت هذه العناية درجة كبيرة في هذه المرحلة، بعد أن اتسع مجال العلاقات، وأخذت مضغة الدولة والمجتمع تستكمل تحررها تماما، من قوى اللاتجانس، التي كان لها تأثير كبير في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية قبل إنهاء الوجود اليهودي من المدينة، وتجريد الحركة النفاقية بذلك من أقوى مؤيداتها الفكرية والمعنوية ومنشطاتها السياسية[3].

فالدعوة في هذه المرحلة، تركز اهتمامها كثيرا على تنظيم العلاقات الاجتماعية، وتأطير حركة تفاعلها، إبرازا لذاتية المجتمع، ومواجهة العوامل هدر فعاليته الاجتماعية، وحماية لها، واستثماراً لإمكاناته وطاقاتها التسخيرية، في تعزيز وتأصيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وتدعيم مكانة النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد في معترك التدافع الحضاري المحتدم بينه وبين النموذج الاجتماعي التقليدي القائم.

([1])البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع (**فتح الباري**، 7/437-445).

([2])العمري، **السيرة**، 2/401.

* راجع مفهوم التلاحم الاجتماعي في الفصل السابق.

([3]) عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص371.

ففي هذه المرحلة تكثفت العناية بالعلاقات الأسرية، والعلاقات العامة، إجتماعية وسياسية واقتصادية. واتخذت هذه العناية أبعاد شمولية متوازنة، كعادة الإسلام دائماً في تناوله لشؤون الحياة ، مستوعبة بذلك الضبط الأخلاقي والقانوني من جهة ، وتسوية الأوضاع الانتقالية المعاشية لقاعدة الدعوة، وتجاوز الاختلالات الاجتماعية التي كانت تسود المجتمع التقليدي، في الموقف من التفاوت الاجتماعي، وتوزيع الثروة، وموقع المرأة، والعلاقات الزوجية، ومظاهر السلوك الاجتماعي.. من جهة ثالثة .

هذه بصفة عامة هي الأولويات العامة التي تمحو حولها اهتمام الدعوة في هذه المرحلة محافظة على هيبة الدولة واستقرار المجتمع ، واستكمال لعملية تغيير الواقع التقليدي ، وبناء الواقع الاجتماعي الجديد.

التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة:

تعتبر هذه المرحلة من أدق مراحل الدعوة وأخطرها، من حيث كثافة وخطورة التحديات التي واجهت الدعوة والدولة والمجتمع، وخاصة على المستوى الخارجي.

إذ يلحظ الدارس لتحولات هذه المرحلة كيف ركزت القوى المضادة جهودها، ونسقت مواقفها بصورة لم يسبق لها مثيل في حركة التدافع،واستطاعت أن تلحق بالدعوة والدولة والمجتمع أضراراً كبيرةً، كما لم تخل الساحة الداخلية من تهديدات كثيرة لاستقرار الأوضاع ومن مشاغبات خطيرة، استهدفت إهدار فعالية قاعدة الدعوة، وإنهاك **الميزانية التسخيرية** للدولة والمجتمع بصفة عامة.

ويمكن الإشارة إلى أهم هذه التحديات التي واجهت الدعوة والدولة المجتمع في هذه المرحلة، من خلال المشكلات التالية:

الاستنزاف الخطير للقاعدة القيادية للدعوة:

إذا كانت القاعدة القيادية للدعوة، هي رأسمال الدولة والمجتمع، وأهم الإنجازات الاستراتيجية لحركة البلاغ والبناء والمواجهة طيلة ما يقرب من ثمانية عشر عاما من الجهد المركزة فإن الدارس لتطور أحداث هذه المرحلة من **أحد إلى الأحزاب**، يرى أن الدعوة تلقت ضربات موجعة، وتعرضت لاستنزاف خطير جدا على مستوى قاعدتها القيادية، التي فقدت منها في أحد **70 قياديا**[(1)]، فيهم عدد معتبر من القيادات التاريخية للدعوة، ذات الوزن الكبير. كما فقدت بعد ذلك بفترة قصيرة **10 آخرين** من خيرة الصحابة الذين بعثهم عليه الصلاة والسلام في مهمة دعوية وتربوية واستعلامية إلى عَضَل والقارَة[(2)]، فغدر بهم وتمت تصفيتهم. وهو ما حدث لبعثة أخرى ذهبت إلى نجد بطلب من أبي براء أحد وجهاء الناس هناك، وكان عدد أفرادها **70 رجلاً** من خيرة الصحابة[(3)]، عرفوا بالقراء، فأحيط بهم وتمّت تصفيتهم كذلك، ليبلغ عدد من فقدتهم الدعوة من خيرة رجال قاعدتها القيادية **150قياديا**.

ولا يخفى ما لهذا الاستنزاف من آثار، خطيرة على حركة الدعوة والبناء والمواجهة في مرحلة حرجة جدّا، تحتاج فيها الدعوة إلى استثمار كل طاقاتها بفعالية، وخاصة كفاءاتها البشرية، لمواجهة تحديات البناء الداخلي، والدفاع عن مكتسباته المعنوية والمادية والبشرية، والخروج من هذه المرحلة الحاسمة بأقل الخسائر والتكاليف، لمواجهة أعباء المراحل التالية التي ستحتاج فيها حركة البلاغ والبناء

([1])البخاري في كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد (**فتح الباري**، 433/7).

([2]) البيهقي، **الدلائل**، 3/338-344.

([3]) البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع وبئر معونة (**فتح الباري**، 445/7).

والمواجهة، إلى الكفاءات القيادية المقتدرة على مواجهة تحديات الاستيعاب التعليمي والتربوي والاجتماعي والسياسي للرأي العام، الذي سينفتح على الدعوة عقب انكسار القوى المضادّة، وتلاشى آمالها في النيل من الدعوة والدولة والمجتمع، بعد نكسة الأحزاب، وخيبة آمال الرأي العام، الذي سينتبه على واقع جديد، أخذت فيه موازين القوى تميل لصالح النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد، فيأخذ في الانفتاح التدريجي على الدعوة.

ولا شك أن هذا الانفتاح يحتاج استثماره ووقاية الدعوة والدولة والمجتمع من آثاره السلبية إلى كفاءات قيادية كثيرة تدير عملية الحوار والجدل الثقافي الخصب، وتتولى مع الرسول عليه الصلاة والسلام مهمة التعليم والتربية والتأطير الاجتماعي والسياسي لقاعدة الدعوة التي تشهد وتائر توسعها سرعة متزايدة، وهو ما يجعل أي استنزاف للكفاءات القيادية يضر بعملية الاستيعاب والوقاية مباشرة، ويلقى بمسؤوليات جسيمة على قيادة الدعوة ويضاعف من متاعبها.

تزايد حرص القوى المضادة على تصفية قيادة الدعوة: وواجهت الدعوة في هذه المرحلة كذلك حرصا متزايدا من القوى المضادة على تصفية قيادة الدعوة، وقد شهد هذا الجرص تضاعفا كبيرا منذ بدر، بحيث توالت محاولات اغتياله عليه الصلاة والسلام، كما تلاحظ ذلك في محاولة عمير بن وهب عقب صدمة بدر مباشرة، حيث تواطأ مع صفوان بن أمية، وجاء إلى المدينة لينجز عمله فكشف أمره وأسلم[(1)].

وفي أحد تركز همّ الكثير من قيادات القوى المضادة على قتله عليه الصلاة والسلام، وراح القوم يفتشون عنه لما اختلط أمر المسلمين واضطرب موقفهم العسكري، ويتبعون أثره، حتى قتل ابن قمئة مصعب بن عمير رضي الله عنه، ظنا منه أنه رسول اللهﷺ[(2)]، وأشاع ذلك في الناس، فخفت مطالبتهم له عليه الصلاة والسلام، بسبب الفرح الغامر الذي عمهم[(3)].

وعقب أحد تمت ثلاث محاولات أخرى لاغتياله عليه الصلاة والسلام، أحداهما بتدبير من أبي سفيان، والأخرى من بني النضير[(4)]، والثالثة في غزوة ذات الرقاع من غورث بن الحارث[(5)]، نجا منها جميعا بتسخير الله **سنن التأييد** له، وحمايته مما يخرج عن طاقته التدبيرية المؤطرة بسنن الآفاق والأنفس والهداية، التي كان عليه الصلاة والسلام يستوفى الأخذ بها ما أمكنه إلى ذلك سبيل .

فهذه السلسلة من المحاولات تكشف لنا الأخطار التي كانت تنطوي عليها هذه المرحلة، فيما يتعلق بقيادة الدعوة، وحرص القوى المضادة على إنهاء وجودها، أو على الأقل جعلها تعيش في حال من عدم الاستقرار، الذي يمسّ قاعدة الدعوة كلها، ويستأثر بجانب من جهدها وقد لاحظنا في أحد كيف فدى عدد كبير من خيرة رجال الدعوة والدولة رسول الله ﷺ بأنفسهم لما أحدقت به الأخطار، وأحاط به المشركون وصمموا على قتله. وفي جانب آخر، لاحظنا كذلك كيف أثر خبر مقتله عليه الصلاة والسلام تأثيرا بالغ الخطورة على قاعدة الدعوة، التي انهارت معنويات فئات عديدة منها، وأظلم المستقبل في وجهها، وانخرطت في تفكير سلبي قاتم[(6)]، وصفه القرآن بالانقلابي، في قوله تعالى تعقيبا

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 317/2.

(2) ابن اسحاق المطلبي، **كتاب السير والمغازي**، تحقيق: سهيل زكار، (دار الفكر، دمشق، 1398هـ- 1978)، ص329.

(3) البيهقي، **الدلائل**، 3/ 333-334.

(4) ابن هشام، **السيرة**، 199/3.

(5) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع،(**فتح الباري**، 491/7).

(6)البيهقي، **الدلائل**، 213/3.

على الموقف:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1].

التأثير السلبي للصدمات المرجعية المضادة: وبالإضافة إلى ما سبق من التحديات، التي واجهت الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة تحديا آخر قاسيا، وهو **توالي الصدمات المرجعية المضادة** أو المعاكسة، فقد وقعت في هذه المرحلة أربع صدمات كبرى، كان لها وقع سلبي خطير على قاعدة الدعوة بالخصوص وعلى الرأي العام عامة.

وتمثلت الصدمة المرجعية الأولى في **صدمة أحد المضادة،** التي زلزلت الروح المعنوية لقاعدة الدعوة، بسبب ما حدث فيها من خسائر بشرية فادحة* ، وما أرجفت به القوى المضادة، وحاولت أن تلقيه من تساؤلات وشكوك حول مصداقية الدعوة برمتها[2]، وما تركه ذلك كله من حيرة واضطراب فكري ونفسي لدى قاعدة الدعوة، التي صدمت بذلك، وراحت تتساءل كيف يحدث هذا؟ وكيف ينتصر الكافرون على المؤمنين، ويقتلون منهم هذا العدد الكبير من صفوة الصفوة[3]؟ والقوى المضادة تغذي هذه الحيرة وتنفخ فيها، وتحاول الامتداد بها من المجال السياسي والاجتماعي، إلى المجال النفسي والفكري، أي إلى الثوابت والمبادئ، لتضرب صمود قاعدة الدعوة وتوازنها النفسي والفكري[4]، كما توحي بذلك آيات التحذير والتطمين في آل عمران، كقوله تعالى على سبيل المثال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[5].

وتمثلت الصدمة الثانية في تصفية قرابة الثمانين من خيرة رجال الدعوة والدولة والمجتمع، في حادثي الرجيع وبئر معونة، بطريقة روعيت فيها تقنيات الحرب النفسية، لمضاعفة شحنات الصدمة المرجعية الأولى، سواء على مستوى قاعدة الدعوة أو الرأي العام المراقب للأحداث بصفة عامة، كما نلحظ ذلك في قتل أغلب أفراد البعثتين وبيع اثنين منهم لقريش –هما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة رضي الله عنهما– لتنكّل بهما في جوّ إعلامي دعائي بالغ الإثارة والإرهاب[6]، وجزّ ناصية آخر –هو

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 144.

* الوصف هنا لا يمس مقام الشهادة والشهيد، بل يتعلق بالآثار السلبية التي لحقت بالدعوة والدولة والمجتمع، أما الشهيد فقد أدى واجبه، وفاز بمقام الشهادة عن جدارة.

([2])الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 157/6.

([3])البغوي، **معالم التنزيل**، 369/1.

([4])ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 365/3.

([5])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 149، 150.

([6])ابن هشام، **السيرة**، 180/3؛ البخاري، **الصحيح**، كتاب الجهاد، باب هل يستأسر الرجل (**فتح الباري**، 191/6).

عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه- وإطلاقه[1]، مبالغة في الحرب النفسية والتأثير على معنويات قاعدة الدعوة والرأي العام، وقد وجد رسول الله على أهل بئر معونة والرجيع وجداً شديداً ما وجده على أحد، حتى إنه لبث شهرا يدعو على الذين قتلوهم[2].

وتمثلت الصدمة الرابعة في حصار القوى المضادة لبيضة الدعوة والدولة والمجتمع وعزمها على إنهاء وجودها، كما تدل على ذلك التعبئة العسكرية والسياسية والنفسية التي لم تحدث من قبل ولا من بعد في معسكر القوى المضادة وقد كان لهذا الحدث العسكري والسياسي صداه الخطير ووقعه الصعب على نفوس المسلمين الذين عاشوا أصعب فترات حياتهم فيه[3]، كما نرى ذلك من وصف القرآن لحالتهم النفسية في (سورة الأحزاب)، التي نذكر منها قوله تعالى:﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[4]. فهذه الصدمات المرجعية المضادة، كان لها تأثير سلبي مزدوج مسّ معنويات قاعدة الدعوة وسمعة الدولة والمجتمع، كما مس معنويات الرأي العام الذي تجاوب بعضه أو أكثره مع مشاريع القوى المضادة، وانخرط في إنجاز خططها لمواجهة الدعوة والدولة والمجتمع، كما تدل على ذلك التعبئة الواسعة التي حققتها حركة الأحزاب، وظل الباقي لائذا بالحياد وترقب آفاق المواجهة، وتثاقلت بذلك وتائر حركة الاستيعاب، وحاولت القوى المضادة جاهدة استرداد زمام المبادرة وأحداث تعديل في موازين القوى لصالحها، بعد أن رفعت هذه الصدمات المرجعية المضادة معنوياتها، ومركزت ثقتها في نفسها من جديد، وهو أمر في غاية الأهمية والخطورة إذا استثمر جيدا ضد الدعوة والدولة والمجتمع .

زعزعة استقرار المجتمع وضرب هيبة الدعوة والدولة:وهو هدف التقت فيه جهود القوى المضادة في الداخل والخارج، فقد كان الجميع يسعى لزعزعة أمن واستقرار المجتمع، وتعميق محاولات النيل من هيبة الدولة، وسمعة الدعوة لدى الرأي العام، وضرب الروح المعنوية والتلاحم الاجتماعي لقاعدة الدعوة، باستغلال الصدمات المرجعية المضادة لإرباك الأوضاع، ومضاعفة هموم قيادة الدعوة، واستنزاف جهودها في مواجهة التحرشات والاستفزازات، وإشغالها عن مهام الدعوة والبناء والمواجهة الأساسية.

فبجانب خطورة التحديات السابقة، عانت الدعوة في هذه المرحلة، من محاولات ضرب استقرار المجتمع، والمس بهيبة الدولة وسمعة الدعوة، والعودة بها إلى مرحلة ما قبل بدر، والتغطية على تميز النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد، والتشويش عليه، وصرف الأنظار عنه، بعد أن أخذ تأثيره يخترق الواقع الاجتماعي التقليدي، ويحدث تغييرات جذرية في بنيته الثقافية، وكيانه الاجتماعي والسياسي تدريجيا.

ففي هذه المرحلة التي أعقبت صدمة أحد المضادة، والمعززة بثلاث صدمات أخرى متعاقبة –

---

(1)ابن كثير، **السيرة**، 143/3.
(2)البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، **(فتح الباري**، 445/7)؛ البيهقي، **الدلائل**، 353/3.
(3)الحاكم، **المستدرك** 31/3.
(4)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 10-11.

كما رأينا سابقا- تجرأت القوى المضادة على الدعوة والدولة والمجتمع، وراحت القبائل المختلفة تعد نفسها للانقضاض على المدينة ومحاولة انتهابها، ظنا منها أن المسلمين قد تضعضع أمرهم، وضعف موقفهم، وكانت أول محاولة في هذا الاتجاه، هي تفكير قريش الجدي في العودة للإجهاز على المسلمين عقب أحد مباشرة، بعد أن ندموا على توقفهم عن الاستمرار في مطاردة الرسول وأصحابه والإثخان فيهم. كما يدل على ذلك قول أبي سفيان لجيش قريش: "لا محمدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم"[1].

وتحرك بنو أسد[2]، واللحيانيون[3]، وغطفان[4]، وجموع قبائل دومة الجندل بأفواه الشام[5]، وبنو المصطلق[6]... لتجميع قواهم ومهاجمة المدينة، وتعقُّب بعثات وسرايا الدعوة والاستطلاع والوقاية، التي كان عليه الصلاة والسلام يوالي تسييرها في إطار حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

وتحرك اليهود بالمدينة، فحاول بنو النضير اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام[7]، وبعدهم انضمت قريظة للأحزاب لضرب المسلمين من الخلف[8]، في موقف من أشد وأقسى مواقف البلاء الذي مرت به الدعوة والدولة والمجتمع، وتناسَقَ جهد اليهود مع حركة النفاق في إذكاء الفتن الداخلية، واستغلال كل فرصة أو وضع أو ثغرة... لإشاعة البلبلة، والإساءة إلى سمعة الدعوة وقيادتها وقاعدتها، كما يلحظ ذلك في قضية الإفك التي استثمرت لضرب سمعة القيادة والقدوة التي تكمن في المحيط الأسري[9]، وتوهين العلاقات التلاحمية بين أفرادها وأسر قاعدة الدعوة، كما يلحظ كذلك في تواصي المنافقين بعدم الإنفاق على أصحاب رسول الله ﷺ، ومحاصرتهم والتضييق عليهم إجتماعيا ومعيشيا[10]، والتحريش بينهم كما في استغلال حادث كسع مهاجري لإنصاري بغزوة بني المصطلق، وتحويله إلى مشروع فتنة كبيرة[11]، تضعضع التلاحم الاجتماعي الذي بنته الدعوة بجهد جهيد.

هذه بصفة عامة مجمل التحديات الأساسية التي واجهتها الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، وهي تحديات كبيرة وخطيرة، لشمولها وتكاملها واستمراريتها، ومشاركة قوى عديدة فيها، وإلقائها بثقلها الفكري والسياسي والعسكري في مواجهة الدعوة ونموذجها الاجتماعي الوليد، الذي ما يزال في حاجة إلى وقت واستقرار وإمكانات تسخيرية كبيرة لتثبيت وجوده، ووقاية نفسه من هذه التحديات الكثيفة المتلاحقة فكيف واجهت الدعوة كل هذه التحديات ، واستطاعت أن تنجز أهدافها بثبات .

---

(1) الهيثمي، **مجمع الزوائد** 121/6؛ ابن كثير، **السيرة**، 97/3-101.
(2) ابن هشام، **السيرة**، 221/2.
(3) البيهقي، **الدلائل**، 41/4.
(4) البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، (**فتح الباري**، 481/7)؛ البيهقي، **الدلائل**، 371/3.
(5) ابن هشام، **المرجع السابق**، 224/3؛ ابن سعد، **الطبقات**، 62/2.
(6) البخاري، في **الصحيح**، كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا، 202/5؛ البيهقي، **الدلائل**، 45/4.
(7) ابن هشام، **المرجع السابق**، 119/3.
(8) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 232/3.
(9) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2495/4.
(10) الطبري، **جامع البيان**، 111/14؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 224/18.
(11) البخاري، كتاب التفسير، باب إذا جاءك المنافقون (**فتح الباري** 512/8).
* راجع مفهوم المراجعة والتقييم في الفصل السابق.

منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة:

الملاحظة الهامة التي ينبغي التأكيد عليها باستمرار، في دراسة منهج التغيير في الحركة النبوية هي اطراد استثمار الدعوة الإسلامية **لقاعدة المراجعة والتقييم*** ، وخاصة عقب مراحل التحول الكبرى، في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ومسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، إذ يلحظ بوضوح أنه مع نهاية كل مرحلة وبداية أخرى، تتعمق عملية المراجعة والتقويم واستشراف آفاق المستقبل، بكل صراحة وموضوعية وتوازن. وهو ما نراه في هذه المرحلة التي استهلت بمراجعة وتقييم مركّز، نبّه فيه القرآن إلى بعض نواحي الضعف والقصور في الوضع الفكري والسلوكي والانجازي لقاعدة الدعوة، وأصل الوعي ببعض جوانب وأبعاد الوعي التسخيري والاستخلافي، استكمالا لبناء هذا الوعي الذي شكل محور إهتمامات الحركة الرسالية عبر التاريخ بصفة عامة، **وعمق اهتمام** الدعوة الإسلامية بصفة خاصة.

وسنحاول هنا –في إطار البحث عن قواعد المنهج النبوي في الدعوة والبناء و المواجهة – البدء بهذه القاعدة، ثم متابعة رصد وتحليل بقية القواعد التي استثمرت في مواجهة تحديات هذه المرحلة وتحقيق أهدافها. ولما كان التقييم قد انصب في جوانب كثيرة منه على تعميق مفاهيم وقيم محورية في الفقه التسخيري والاستخلافي ، فإننا سنورده تحت قاعدة عامة هي شحذ الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة ، حيث نذكر نماذج عديدة من القواعد التي تمخض عنها التقييم القرآني للمرحلة السابقة واستشراقه لآفاق الدعوة والدولة والمجتمع .. في المراحل التالية

شحذ الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة: ونقصد بالوعي التسخيري والاستخلافي هنا[1] : ترقية قدرات قاعدة الدعوة على الفهم والاستثمار الأمثل لسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى، في تحقيق أفضل ترقي معرفي وروحي وسلوكي وعمراني أو استخلافي متاح.

وهذا الوعي كما لاحظنا مراراً، هو جوهر رسالة الإسلام، ومحور اهتمام الدعوة إليه، لذلك وجدنا الوحي في مستهل هذه المرحلة، يراجع ويقيم المرحلة السابقة، لتعميق هذا الوعي لدى قاعدة الدعوة، في سياق توفير الشروط الضرورية لتحقيق أصالة الجهد وفعاليته واطراد حيويته، ومن ثم ضمان قوة وتميز ومصداقية النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد في معترك التدافع بينه وبين النموذج الاجتماعي التقليدي القائم .

وسنأخذ هنا نماذج فقط من المفاهيم والقيم التي ركز عليها تقييم الوحي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة في نهاية المرحلة السابقة، لتكون ضمن اهتمامات المرحلة الراهنة، ولتدخل في الثقافة الفكرية والسياسية والاجتماعية لقاعدة الدعوة، تعميقا لوعيها العقدي والتسخيري والاستخلافي.

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من تأكيد القرآن على **حيوية النقد الذاتي**، والارتقاء به إلى مستوى القيم الفكرية والثقافية الكلية، التي تؤطر الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع باستمرار، تصحيحا لمسيرته، وقاية لها من أي ضعف أو اختلال، وشحذًا لفعاليته الانجازية في الدعوة والبناء والمواجهة.

ومن يتأمل على سبيل المثال "سورة آل عمران"، التي نزل جزء هام منها في تقييم المرحلة السابقة، يلمس بوضوح كيف كان الوحي يمارس عملية النقد والمراجعة والتقويم والتقييم لأداء الدعوة والدولة والمجتمع، ويغرس هذه القيمة التسخيرية والاستخلافية الهامة في ثقافة المجتمع وتقاليده، كآلية

([1]) راجع الفصلين 2،3 من الباب الأول.

حيوية للتطهير الذاتي والاجتماعي، تنفي الخبث، وتقاوم الانحراف والكسل والفتور، وتجدّد الهمم والعزائم، وتكتّل الطاقات وتكامل بينها، من خلال عملية التخلية والتفريغ التي تتجزها في النفوس وفي الجو الاجتماعي المعيش باستمرار

ونذكر هنا على سبيل الإشارة، مصارحة القرآن لقاعدة الدعوة بالخوف الذي كان يعتري بعضها من تحمل المسؤوليات في ميادين البناء والمواجهة[1]، وقصور وعي بعضها الآخر وانطلاء مكر القوى المضادة عليها:﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾[2]، والرغبة في الدنيا وغير ذات الشوكة، وعدم الواقعية في تقدير التحديات، والمبالغة في الاندفاع إلى المواجهة دون حساب ذات الشوكة، والخور عند جدّ الجد[3]، وعدم الانضباط، والتنازع وعصيان الأوامر، والإخلال بانتظام سياسات العمل[4]، والتسبب في إرباك موقف القيادة، والإضرار بموقع الدعوة والدولة والمجتمع في معترك التدافع بين نموذجها الاجتماعي ونموذج المجتمع التقليدي قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[5].

لقد كان الوحي يلاحق مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، وينبه باستمرار إلى نواحي الضعف والقصور فيها، ليؤسس الوعي **بأهمية النقد الذاتي وضرورته** في تأصيل حركة البناء والمواجهة وضمان فعاليتها. وفي ذلك كله دعم للوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة.

([1]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 251/4.
([2])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 122.
([3]) الرازي، **التفسير الكبير**، 347/8.
([4]) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 183/4 وما بعدها.
([5])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 152، 153.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من تأصيل الوحي للوعي بقانون التداول الحضاري، وانتقال الغلبة والتمكّن من جماعة إنسانية إلى أخرى، بحسب حجم ومستوى وغايات استثمارها لسنن التسخير، في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، التي تتحكم في فعالية الأداء الاجتماعي، ومن ثم في حركة التدافع التي يتقرر على ضوء التداول وصداه في الزمان والمكان والأثر.

فقد استثمر الوحي صدمة أحد المضادة، وتساؤلات قاعدة الدعوة، وارتباك موقفها النفسي والفكري، ليعمّق وعيها بأحدى كليات الوعي التسخيري والاستخلافي المحورية، وهي **قانون التداول الحضاري**، الذي يمنح الوعي به فعالية كبرى لحركة الدعوة والبناء والمواجهة؛ لأنه يحرر قاعدة الدعوة من التفسير الخراف العاطفي الجزئي اللاموضوعي لصيرورة التدافع الاجتماعي الذي يطبع الحياة البشرية في كل مستوياتها، عند ما تدرك أن الأمر مرهون بالاقتدار التسخيري، الذي يمنحه حسن الاستثمار لسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، بصورة شاملة متكاملة ، وأن القوة والضعف، والهزيمة والنصر.. مرتبطة بذلك الاقتدار، ولا تؤثر فيه صفة الكفر والإيمان، عندما يصادم جهد المؤمنين بعض هذه السنن ولا يحترمها، ويوافق جهد الكافرين بعضها ولا يصادمه[1]؛ لأن السنن خلق مسخرة للبشر عامة، فمن أخذ بها، وأحسن استثمارها مُكّن بحسب ذلك وفي هذا جاء قوله تعالى:﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[2]. فمن وعي قانون التداول والسنن الموضوعية* التي تحكمه، تحرر من الخوف والوهم والوهن، وأيقن بأن الضعف والهزيمة ليسا قدرا أبديا، وتحرك للتغيير والبناء، دون أن يغتر من جهة أخرى بالتمكين والقوة، ويغفل عن الأخذ بسنن الحماية لذلك والمحافظة عليه خاصة وأن سبق في تقييم المرحلة السابقة ، تأسيس الوعي **بقانون التدافع** الذي يطبع الحياة الإنسانية بحركية دائبة ، تؤدي إلى حراك أو تداول اجتماعي مدي و جزري متواصل ، يؤدي بكل القوى الاجتماعية في كل مستويات وأطوال مراتها الاجتماعي إلى المزيد من التكيف .

وبتثبيت هذا المعنى في المنظومة المعرفية والجو الثقافي لقاعدة الدعوة، أصل الوحي وعيهــا بكلية أساسية من كليات الوعي التسخيري والاستخلافي، ومكنها من شرط جوهري من شروط الاقتدار والفعالية الانجازية.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من بيان الوحي **لدور الإرادة الإنسانية في عملية التغيير**، والمسؤولية الجذرية التي يتحملها الإنسان في هذا المجال. فقد حسم القرآن هذه القضية لما استغرب

([1]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 141/4.
([2])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 139، 140.
* الموضوعية هنا لا تعني سنن الآفاق أو بعض سنن الأنفس فقط، بل تعني بالإضافة إلى الآفاق والأنفس سنن الهداية والتأييد.

المسلمون ما حل بهم من هزيمة بأحد، وأشكل عليهم الأمر وراحوا يتساءلون: ﴿ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾[1]؟ أي من أين وكيف يحدث لنا هذا ونحن نذود عن الحق، ونحمي قيم الخيرية؟

فجاءهم التفسير الجذري، الذي يضع المسألة في إطار سنن الله الفاعلة في الحياة البشرية. فقال سبحانه:﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٦٦ ﴾[2].

فالنص يحرّر القضية تماما من رواسب الثقافة التقليدية، التي كانت تهيمن عليها التفسيرات الذاتية والخرافية والجزئية.. ويتضاءل فيها كثيرا **سلطان التفسير السنني المتكامل للظواهر الاجتماعية أو الحضارية،** وبذلك يعيد صياغة المنظومة الثقافية الإنسانية، ويؤسس الوعي بدور الإرادة الإنسانية في عملية التغيير المحكومة بالإرادة الإلهية المحيطة، التي شاء سبحانه أن تنفذ في البشر عبر سننه في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، وسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى.

وقد سبق تأكيد هذا القانون الفاعل في الحياة البشرية، في تقييم المرحلة السابقة، عندما أكد الوحي إرادة ومسؤولية الإنسان في عملية التغيير في قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣ ﴾[3]، بل وسبق حسم ذلك في المرحلة المكية بوضوح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾[4]. وبذلك تكاملت النظرية مع التطبيق في تعميق الوعي التسخيري والاستخلافي الذي تُحكم به الحياة البشرية.

وبهذا التحرير والتأصيل للقضية، وجّه الوحي الإنسان للبحث عن الضعف والاختلال والقصور في حياته، من خلال فحص طبيعة علاقته بسنن التسخير والاستخلاف الفاعلة في الوجود البشري ، وهل هي علاقة شمول وتكامل وتلاؤم أم علاقة تبغيض وتنافر وانفصام ؟، وهو ما يشحذ الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، ويمنح حركة الدعوة والبناء والمواجهة، أصالة وفعالية مطردة، عند ما يدرك المسلمون **ارتباط أصالة وفعالية واطرادية عملية التغيير، بحجم ونوع ومستوى التجديد الذي يحدث في وعيهم** تجاه سنن التسخير والاستخلاف باستمرار.

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 165.
([2])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 165، 166.
([3])**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 53.
([4])**القرآن الكريم**، سورة الرعد:11.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النموذج التطبيقي الرابع: ونأخذه من تأصيل الوحي الوعي **بكلية الشورى** وضرورة تفاعل قاعدة الدعوة مع هموم واهتمامات الدعوة والدولة والمجتمع، ومشاركتها في مواجهة أعباء البلاغ والبناء والحماية، لكون ذلك أصلا هاما من أصول التربية الفعالة من جهة، وتحقيق التلاحم الاجتماعي من جهة أخرى، وضمان سلامة السير وفعالية الأداء من جهة ثالثة[1].

فرغم ما حدث في أحد وعلاقة الشورى بذلك، أكد الوحي ضرورة الاستمرار في الأخذ بهذا الأصل العظيم في إدارة وتدبير* حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وهو ما يشعر بالأهمية الكبيرة لكلية الشورى، ودورها في شحذ الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، خاصة وأن المأمور بهذا هو الرسول نفسه، فكيف يكون الأمر بالنسبة لغيره من غير المعصومين؟.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف النفسية التي جرت فيها مشاورة قاعدة الدعوة في أمر أحد، وكيف سيطر الحماس، وضغطت **مرجعية بدر** على جزء كبير من مواقف هذه القاعدة، ومآلات المواجهة بعد ذلك، وصداها العميق في فكر ونفوس هؤلاء الذين تحمسوا للخروج من المدينة.. أدركنا الأبعاد التربوية والسياسية العميقة في تأكيد إمضاء العمل بقاعدة الشورى، في إدارة وتدبير شؤون حركة الدعوة والبناء والمواجهة؛ لأن قاعدة الدعوة سوف تأخذ أمر مشاركتها في التخطيط لعملية البناء والمواجهة بمنتهى الجدية وروح المسؤولية، ولا تستخف أبدا بعد الذي حدث بأحد برأي تعطيه، أو موقف تتخذه، بل ستجتهد في تحري الصواب والمصلحة قدر الإمكان . وفي ذلك كله ارتقاء هام بوعيها التسخيري والاستخلافي، سيكون له صداه العميق في أصالة وفعالية أدائها الاجتماعي في معترك التدافع بين النوذج الاجتماعي الإسلامي الجديد ، والنموذج الاجتماعي التقليدي .

النموذج التطبيقي الخامس: ونأخذه من توطين الوحي لقاعدة الدعوة على روح المكابدة[2]، وتهيئتها نفسيا وفكريا لاستيعاب تحديات المرحلة الصعبة، التي تكاملت فيها جهود القوى المضادة وتناسقت استراتيجية عملها لأول مرة بعد صدمة أحد المضادة، وقد كان لهذا التوطين أهميته الحيوية الكبرى، في عملية تأسيس وتعميق الوعي التسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدعوة، كهدف كلي عام من جهة، وتمكينها من مواجهة تحديات المرحلة واستيعابها بفعالية من جهة أخرى.

فالوحي وهو يستخلص دروس صدمة أحد، ويعدّ قاعدة الدعوة للمرحلة التالية، نبّه إلى سنة التدافع وما تحتاجه من **روح المكابدة الواعية** لمواجهة ابتلاءاتها، واحتواء مضاعفاتها، وتفويت الفرصة على القوى المضادة، التي ألقت بكل ثقلها الفكري والسياسي والعسكري في هذه المرحلة، لإضعاف حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وضرب كيان الدعوة والدولة والمجتمع، خاصة وأن هذه القوى استثمرت وستستثمر الصدمات المرجعية المضادة في سياسات عملها، لمضاعفة إرباك موقف الدعوة والدولة والمجتمع وتعويق إنجاز مشاريعها.

وفي توطين الوحي لقاعدة الدعوة على روح المكابدة التي تفرضها عملية التدافع، قال تعالى:﴿

۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ

([1]) ابن الأزرق، **بدائع السلك**،(طبعة محمد بن عبد الكريم،سوريا، 1977)، 294/1 وما بعدها.

* الأمر هنا يتصل بما هو تدبير وتنفيذ، ولا علاقة له بما هو وحي تأسيس تشريعي لا سلطان للرأي عليه.

([2]) الفيروزأبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق: محمد علي النجار، (المكتبة العلمية، بيروت، د.ت)، 322/4.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (186)[1]. وبهذا التوجيه يخطط الوحي للمرحلة القادمة، ويهيئ الناس لتحدياتها، ذلك "لأن الإنسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه شق ذلك عليه، أما إذا كان عالما بأنه سينزل، فإذا نزل لم يعظم وقعه عليه"[2]، وفي آخر السورة عمق الوحي وعي قاعدة الدعوة بشروط كسب رهان التدافع الحضاري[3] وهي متمحورة في عمومها حول روح **المكابدة** وطول النفس كما يدل على ذلك قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (200) ﴾[4].

النموذج التطبيقي السادس: ونراه من تعميق الوحي لوعي قاعدة الدعوة بقانون شمولية الفتنة والبلاء، عندما لا يجتهد الأفراد والمجتمع في التحسب لها، والوقاية المبكرة منها، كما يبدو ذلك في تعقيب القرآن على خطأ الرماة، الذي تعدى ضرره إلى الجماعة كلها[5]، ودخل بسببه على الدعوة والدولة والمجتمع غم واضطراب كبير. وهو ما سبق تأسيس الوعي به في تقييم المرحلة السابقة، حينما نبه القرآن إلى ضرورة اتقاء الفتنة التي لا تختص إصابتها بمن يباشر أسبابها فقط، بل تعم محيطه الاجتماعي كله[6]، فقال تعالى:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (25) ﴾[7]. وتعميق وعي قاعدة الدعوة بهذا القانون، لا شك أنه يشحذ وعيها التسخيري والاستخلافي، لأن توقي الفتن يحتاج إلى الجدية والانضباط، واستشعار روح المسؤولية، واليقظة وتعزيز القدرات التوقعية والفقه المآلي لديها.. وهي معاني وشروط يتضمنها كلها تعمق الوعي بقانون شمولية الفتنة والبلاء.

النموذج التطبيقي السابع: ونراه في تعميق الوحي للكثير من القيم الفكرية والروحية والسلوكية، التي ترسم ملامح الشخصية الإسلامية المتوازنة، وتبني معمار النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد، في تكامله وانسجامه وتوازنه، وفعالية أدائه المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، واقتداره على الاستيعاب والمواجهة والمنافسة الحضارية.

ومن يتأمل الآيات التي جاءت في التعقيب على صدمة أحد، واستخلاص دروسها التربوية والاجتماعية والسياسية، في (سورة آل عمران) وحدها، يقف على كمّ كبير من هذه القيم التي ترسم

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 186.
([2])الرازي، **التفسير الكبير**، 103/9.
([3])الرازي، **المرجع نفسه**، 126/9؛ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 475/3.
([4])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 200.
(64)رشيد رضا، **تفسير المنار**، 108/4، 118.
([6]) الطبري، **جامع البيان**، 218/6؛ الشوكاني، **فتح القدير**، 373/2.
([7])**القرآن الكريم**، سورة الأنفال: 25.

آفاق الدعوة، وتخطط حركة السير نحوها، وتحكم عملية البناء للنموذج الاجتماعي الجديد، وتؤطر سياسات مواجهة التحديات التي تعيق ذلك، ومنها على سبيل المثال فقط ما جاء في قوله تعالى:﴿ ۞
وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥
أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ
أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾[1]. ويمكن تأمل الآيات العشر الأخيرة من السورة كذلك[2]، لملاحظة مدى كثافة وتنوع وشمول القيم التي دأب الوحي على تركيز وعي قاعدة الدعوة بها، تعميقا وتأصيلا لوعيها التسخيري والاستخلافي، الذي يحتل فيه السموّ الفكري والروحي والسلوكي –الذي تمحورت حوله القيم الواردة في الآيات– مكانة محورية بارزة.

ونكتفي بهذه النماذج من تقييم القرآن للمرحلة السابقة، وتخطيطه لآفاق المرحلة التالية لها، في سياق شحذه للوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، الذي سنرى صداه العميق في أداء حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة والمراحل اللاحقة؛ لأن كل هذه القواعد والكليات ستدخل بسرعة، ضمن مفردات المنظومة المعرفية والثقافية لقاعدة الدعوة، لتؤطر رؤيتها وفكرها، وآليات تحليلها للأوضاع وتفسيرها للظواهر، وموقفها السلوكي وأداءها الاجتماعي بعد ذلك.

القدرة على استيعاب الصدمات المضادة بسرعة: نقصد بالصدمات المضادة هنا: الضربات المعاكسة التي تربك الموقف النفسي والفكري والاجتماعي عامة، للدعوة والدولة والمجتمع، وتعرض توازن حركة البلاغ والبناء والمواجهة للاختلال والتفاؤل الفعالية الانجازية، وما ينجم عن ذلك كله من مضاعفات سلبية خطيرة على حركة التدافع بين المنظومة المعرفية للدعوة ونموذجها الاجتماعي ، المنظومة المعرفة التقليدية ونموذجها الاجتماعي .

ونظرا لخطورة هذه الصدمات المضادة، فإن استيعابها واحتواء آثارها السلبية بسرعة وشمولية وعمق وتوازن، يعدّ من ضرورات حماية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، والمحافظة على منجزات الدعوة والدولة والمجتمع من جهة، ومقوما هاما من مقومات الاقتدار القيادي، الذي تعرف به كفايات الرجال، ومدى رسوخ وعيهم بسنن التسخير والاستخلاف، ونضج تمثلهم لها، واستفادتهم منها من جهة أخرى.

([1]) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 133-134-135-136.

([2]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 458/3 وما بعدها؛ الرازي، **التفسير**، 108/9 وما بعدها؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**،296/4.

ومن يتعمق في دراسة المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة، يلحظ بوضوح مدى الاقتدار الفذ الذي يتميز به الفعل النبوي في هذا المجال، فهو يتجاوز نطاق المواجهة إلى **الوقاية القبلية والاستيعاب البعدي**، عن طريق الوعي الاستشرافي المآلي المبكر، ثم عن طريق سرعة احتواء المضاعفات وإعادة الأخذ بزمام المبادرة، والانتقال إلى مراحل تجاوز ردود الأفعال، إلى **صناعة الأفعال المضادة**، ونقل الآخر إلى المواقع الدفاعية، واستثمار ذلك كله في خدمة الأهداف المعرفية والتربوية والسياسية والاجتماعية للمرحلة خاصة، وحركة الدعوة والدولة والمجتمع عامة. وهي ذروة دونها وعي عقدي وتسخيري واستخلافي، فيه الكثير من الفرادة والاستثنائية.

وتكفينا هنا بعض النماذج التطبيقية عن قدرته عليه الصلاة والسلام على استيعاب الصدمات المضادة بسرعة، ودور ذلك في حماية حركة الدعوة والبناء والمواجهة والمحافظة على منجزاتها، ثم مكانة هذه القاعدة في الوعي التسخيري والاستخلافي عامة .

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من موقفه العملي من صدمة أحد المضادة، التي ارتبك فيها الموقف العسكري والنفسي والفكري لقاعدة الدعوة ارتباكا خطيرا واختل ميزان المواجهة بين الدعوة والقوى المضادة اختلالا كبيرا، وتهيأت الأوضاع في الميدان إلى تداعيات يصعب التحكم في مآلاتها الآنية والمستقبلية، وكان هو عليه الصلاة والسلام أكثر ضررا من هذه التداعيات[1].

عندما نتأمل حيثيات الموقف، نجده عليه الصلاة والسلام –رغم أنه **كان محور الصدمة ومركزها**– لم تستوعبه هذه الصدمة، ولم تفقده توازنه القيادي، بل تجلّد لها وحافظ على توازنه، وبادر إلى احتواء الموقف بسرعة، وإعادة تجميع وتعبئة قاعدة الدعوة من حوله، وتنظيم المقاومة، **وبناء الفعل المضاد**، العسكري والنفسي والفكري، كما يلحظ ذلك في ثباته بعد اضطراب الناس وتفرقهم، وأخذ ينادي عليهم ويدعوهم إلى الالتفاف حوله[2]، والشروع في تحريض من تجمع للاستبسال في المقاومة والدفاع عنه لما أحاط به العدو وجدّ في طلبه[3]، وحرص بعد ذلك على تمويه مكانه وتعمية القوم عن رؤيته وتحديد مكانه[4]، وأسرع إلى الاحتماء بالجبل، وواصل تجميع أصحابه، والتحكم في الموقف.

وتابع بحذر شديد انصراف العدو من ميدان أحد[5]، ولم يترك الفرصة لأبي سفيان للاستعلاء على المسلمين يشركه، حين راح يقول: "أعلى هبل". مزهوا، فطلب عليه الصلاة والسلام بالردّ عليه، فتعالت أصوات المسلمين: "الله أعلى وأجل" "الله مولانا ولا مولى لكم"[6]، ثم راح عليه الصلاة والسلام يتفقد أصحابه من الشهداء، ويخفف من آلام الصدمة على المصابين وذويهم، منوِّها ببلاء أناس، ومبشرا الآخرين بالفضل والكرامة عند الله، ومطمئنا للكل بأن ما وقع لن يتكرر حتى يبيحهم الله للمسلمين[7]. شحذاً لروح المكايدة والثبات لديهم .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بهذه الخطوات في استيعاب الصدمة، بل انتقل إلى الفعل

---

(1)عرجون، **محمد رسول الله**، 3/583–587.
(2)ابن كثير، **السيرة**، 3/45.
(3)أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (**شرح النووي**، 12/147).
(4)ابن عبد البر، **الدرر**، ص150.
(5)البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الذين استجابوا لله والرسول (**فتح الباري**، 7/432).
(6)البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد، (**فتح الباري** 7/405).
(7)البيهقي، **الدلائل**، 3/215.

المضاد مباشرة، فخرج في الغد في أثر قريش[1]، حتى لا تفكر في العودة، وحتى يخفف من زهوها بما حدث، ويشعرها وبقية القوى المضادة الشامتة بالمسلمين، والمتوثبة للانقضاض على بيضهم أنه ما يزال يتحكم في زمام المبادرة[2]. وفي ذلك تمكين للدعوة والدولة والمجتمع من اخذ نفسها واستعادة توازنها بسرعة، لمواجهة مضاعفات الصدمة.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من سرعة تحركه عليه الصلاة والسلام لتطويق بذور الفتنة التي حاول المنافقون استثمارها ضد الدعوة والدولة والمجتمع في غزوة بني المصطلق، حينما انتهزوا فرصة مناوشة عادية، حدثت بين مهاجري وأنصاري، ونفخوا فيها، وراحوا يحيون العصبية الجاهلية، ويثيرون الناس ضد المهاجرين، ويدعونهم إلى محاصرتهم حتى في معاشهم، ويحرضون على إخراجهم، كما قال ذلك ابن أبي فيما سجله عنه الوحي في قوله تعالى:﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ﴾[3]. فقد بادر عليه الصلاة والسلام إلى استيعاب الموقف بسرعة، عبر تشنيعه بالفتنة، وتنفير الناس وتحذيرهم منها، واعتبارها من مخلفات ثقافة الانحطاط الجاهلي، كما يدل على ذلك قوله: «دعوها فإنها منتنة»[4]. وتجاوز مجال التوجيه في معالجة الموقف إلى مجال الإجراءات العملية واستثمار سنن الآفاق والأنفس في ذلك، فسار بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بهم فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياما[5].

وقد كان لذلك كله أثره البالغ، في شغل الناس عن الخوض في الأمر ومحاولة تطويره، وإتاحة الفرصة لكل وأحد منهم ليتأمل الموقف بعيدا عن أجواء الجدل المحموم، زيادة على الأثر النفسي الهام للنوم العميق الذي يوازن الكيان النفسي والفكري للإنسان، ويمنحه القدرة على التركيز وموضوعية النظر بعد فصله مسافة نفسية هامة عن الموقف.

([1])ابن هشام، **السيرة**، 107/3.

([2])العمري، **السيرة**، 397/2.

([3])**القرآن الكريم**، سورة المنافقون: 8.

([4])أخرجه البخاري، **الصحيح**، كتاب التفسير، باب قوله :"سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم **(فتح الباري**، 516/8).

(3)البيهقي، **الدلائل**، 56/4، 59.

النموذج التطبيقي الثالث:ونراه في معالجته للموقف الصعب الذي واجهته الدعوة والدولة والمجتمع في حصار الأحزاب للمدينة بصفة عامة، ولتفاقم الوضع النفسي والعسكري بعد خيانة قريظة وتهيئها لضرب المسلمين من الخلف[1]، ولإرجاف المنافقين وجدّهم في ضرب الروح المعنوية لقاعدة الدعوة[2]، بصفة خاصة؛ بالتشكيك في مصداقية وعود الدعوة، كما يلمس ذلك من قول معتب بن كثير: "كان محمد يعدنا أن نأكل من تنور كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط"[3].

في هذه الظروف البالغة التعقيد التي تزلزل فيها الناس وظنوا بالله الظنون[4]، تماسك عليه الصلاة والسلام وراح يعالج الموقف بكل هدوء واتزان، مستثمرا في ذلك كل ما أتيح له من سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، كما نلمس ذلك في استثماره لخبرات قاعدة الدعوة في فكرة حفر الخندق، وشحذه لمعنويات الناس وفتح آفاق المستقبل أمامهم، بوعدهم بظهور الإسلام وهيمنته على العالم، ومحاولة تفكيك وحدة الأحزاب عبر عزل غطفان عن المعركة[5]، وتشكيك كل من قريظة والأحزاب في بعضهما[6]، والتثبت من أمر خيانة قريظة، والحرص على عدم إظهار ذلك للناس إذا كان صحيحا، حتى لا يفت في أعضائها[7]، وتوظيف ذوي الشأن من أهل المدينة، ممن لهم مكانة عند بني قريظة وعلاقة بهم في إنجاز هذه المهمة، لعل ذلك يفيد في التأثير فيهم، وإن تعذر يكون عليه الصلاة والسلام قد فصم العلاقة بينهم وحقق تماسك قاعدة الدعوة، وهو ما حدث فعلا حينما رفض اليهود تجديد الموادعة وتشاتموا مع مبعوثيه عليه الصلاة والسلام[8].

وبالإضافة إلى كل هذه التدابير المندرجة في نطاق استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية استثمر عليه الصلاة والسلام **سنن التأييد**، كما في تكسير الصخرة التي اعترضت حفر الخندق[9]، وتكثير طعام جابر بن عبد الله[10]، والدعاء على الأحزاب الذي جاء فيه: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم أهزمهم وزلزلهم**»[11].ولما انكسر الأحزاب باغت عليه الصلاة والسلام بني قريظة وصفى وجودهم بسرعة، قاطعا الطريق على أية شفاعة فيهم، أو معونة لهم، خاصة من حلفائهم من المنافقين، وبذلك واجه هذه الصدمة، وتمكن من استيعابها في أبعادها القبْلية والحاضرة والمستقبلية.

وهكذا دأبه باستمرار في مواجهة الصدمات المضادة، فإنه يبادرها، ويستثمر في استيعابها كل ما يتاح له من سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ولا يترك الأمور تتفاقم، أو يعطى فرصة للقوى

([1]) البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير، (**فتح الباري**، 7/99).
([2]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 14/145.
([3]) ابن هشام، **السيرة**، 3/233.
([4]) الطبري، **جامع البيان**، 21/131.
([5]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 6/182.
([6]) ابن هشام، **المرجع السابق**، 3/240.
([7]) البيهقي، **الدلائل**، 3/403.
([8]) البيهقي، **المرجع نفسه**، 3/403.
([9]) ابن هشام، **المرجع السابق**، 3/228.
([10]) البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، (**فتح الباري**، 7/457)
([11]) البخاري، **الصحيح**، باب غزوة الخندق، (**فتح الباري**، 7/469).

المضادة لاستثمارها ضده، بل ينتزع منها الفرص انتزاعا ، ويجردها من روح المبادرة، ويعمق ارتباك موقفها باستمرار.

تعميق وعي قاعدة الدعوة بأهمية الصدمات التمحيصية: ونقصد بالصدمات التمحيصية هنا: المواقف الصعبة التي تمرّ بها الدعوة والدولة والمجتمع، وتترك بصماتها على الأوضاع النفسية والفكرية والسلوكية للناس، تجاه حركة الدعوة والبناء والمواجهة، من حيث الانسجام والتناقض معها، والثبات والتخاذل عنها.. مما يساعد على الفرز والتطهير المستمر لها من عوامل الضعف والقصور، ويعزز أصالتها وفعاليتها، ويضمن اطراد تجدد حيويتها.

فالصدمات التمحيصية ذات قيمة تربوية وسياسية بالغة الأهمية في عملية البلاغ والبناء والمواجهة، لذلك وجدنا القرآن يعرضها كسنة مطردة في مجال سنن الأنفس، تؤدي وظيفة حيوية كبيرة في حماية حركة الدعوة والدولة والمجتمع والمحافظة على منجزاتها[1]، ينبغي لقاعدة الدعوة أن تتنبه إليها -أي إلى الأبعاد التربوية والسياسية لقاعدة التمحيص- وأن لا تستوعبها مظاهرها الخارجية، وآثارها السلبية الآنية، وتفوّت فرصة الاستفادة منها في تعزيز وعيها المعرفي والاجتماعي والسياسي، الذي تنطوي عليه هذه الصدمات التمحيصية غالبا.

النموذج التطبيقي الأول: ومواضع تعميق الوعي بهذه القاعدة في القرآن والسنة كثيرة في هذه المرحلة، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى تعقيبا على صدمة أحد المضادة:﴿ **إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١** ﴾[2]، **وقوله سبحانه:** ﴿ **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ** ﴾[3]، وقوله كذلك: ﴿ **وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤** ﴾[4].

فهذه الآيات جميعا تؤكد الأبعاد التربوية والاجتماعية والسياسية لقاعدة التمحيص، التي بها تتم عملية التطهير النفسي لقاعدة الدعوة ذاتها، حينما تقف في ميادين المواجهة المختلفة، على ضعفها الروحي والمعرفي والسلوكي.. وتكتشف عمليا نواحي قصورها، فتسعى إلى تلافي ذلك[5]، استكمالا لوعيها العقدي والتسخيري والاستخلافي. كما أنها تؤدي دور المنقي لصفوف الدعوة والدولة والمجتمع من العناصر الدخيلة غير الأصيلة، سواء كانت بشرية أو ثقافية... محافظة على تماسكها وأصالتها،

---

(1) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 253/4؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 104/4.
(2) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 140، 141.
(3) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 179.
(4) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 154.
(5) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 253/4.

وحماية لها من الإضعاف والتوهين والتشويه؛ لأن عملية الصّهر والتصفية التي ينطوي عليها التمحيص العملي، تكشف كل ما هو غير أصيل من الأفكار والمفاهيم، وكل ما هو غير صادق ومدخول النيات ومستورد الغايات.

ومن يتأمل الواقع التاريخي بعد أحد يلحظ فعلا كيف أدت **قاعدة التمحيص** دورها في شحذ الوعي المعرفي والروحي والسلوكي والاجتماعي لقاعدة الدعوة من جهة، وغربلة قاعدة المجتمع وقواها الاجتماعية والسياسية التي تظاهرت بالميل إلى الإسلام بعد صدمة بدر المرجعية من جهة أخرى[1]، كما لاحظ ذلك ابن إسحاق بقوله: "كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص. اختبر الله به المؤمنين، ومحق به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه"[2].

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذ من تعقيب القرآن على حادثة الإفك، التي هزّت قاعدة الدعوة، بل وقيادتها كذلك، من خلال المسّ بعمق الحياة الاجتماعية للبيت النبوي ومعاني القدوة والثقة فيه، ومن ثم بمصداقية الدعوة والدولة والمجتمع، وأحداث بلبلة لدى الناس كاد بعض الجدل الذي صاحبها أن يتحول إلى فتنة بين الأوس والخزرج، حينما دعا رسول الله عليه الصلاة والسلام الأنصار إلى عذره من ابن أبي الذي نشط في إشاعة حادث إفك، **فتعصب له بعض الخزرج** ضد الأوس الذين أيدوا استعدادهم لتأديبه، فتثاور الحيان حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله على المنبر يحفّظهم حتى سكتوا[3].

وبعد تفاعلات الموقف في كل الإتجاهات، **وبلوغ الصدمة مداها النفسي والاجتماعي**، جاء الوحي يؤسس الوعي بالأبعاد التربوي والاجتماعية فيها، وينبّه قاعدة الدعوة إلى ضرورة تجاوز النظرة الجزئية للأمور، أوالانحباس في آفاقها الآنية الضاغطو ، إلى النظرة الشمولية إلى الجوانب الإيجابية والتخطيط لتحويل السلبيات إلى مادة أولية للتربية والمراجعة والتوجيه[4]. كما نرى ذلك جليا في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ** ﴾[5]. ومن يتتبع ما تمخضت عنه هذه الصدمة النفسية والاجتماعية من وعي معرفي واجتماعي وسياسي لدى قاعدة الدعوة، عمّق ذكاءها وتماسكها، وزود المجتمع بمجموعة هامة من القيم والأحكام الناظمة للعلاقات الاجتماعية[6]، يدرك أهمية القدرة على استثمار الصدمات التمحيصية في تأصيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وضمان فعالية أدائها الاجتماعي.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى صورا عديدة له مثلا في خروجه عليه الصلاة والسلام بالمسلمين إلى حمراء الأسد لتعقب قريش عقب صدمة أحد مباشرة[7]. وفي إجلاء بني النضير وزيادة كشف المنافقين وعزلهم[8]، وفي غزوة الأحزاب وما تمخض عنها من تعرية للقوى المترددة[1]،

([1])عرجون، **محمد رسول الله**، 19/4.
([2])ابن هشام، **السيرة النبوية**، 112/3.
([3]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب التفسير، باب لولا إذ سمعتموه ... **(فتح الباري**، 308/8).
([4])حسين فضل الله، **من وحي القرآن**، (دار الزهراء للطباعة و النشر، بيروت، ط4،1405هـ- 1985م)، 283/16.
([5])**القرآن الكريم**، سورة النور: 11.
([6])ابن العربي، **أحكام القرآن**، 358/3 وما بعدها؛ القرطبي، **الجامع**، 190/12، وما بعدها.
([7])أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب الذين استجابوا لله والرسول، **(فتح الباري**، 432/7).
([8])البخاري، في **الصحيح**، باب حديث بني النضير (فتح الباري، 382/7).

وتصفية لجيوب المؤامرة على الدعوة والدولة والمجتمع، بالقضاء على بني قريظة وإخلاء بيضة الدولة تماما من عناصر التعويق والمشاغبة[2]، وتهيئتها لتجسيد النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد.

ففي كل هذه المواطن، وما رافقها من مواقف، كان القرآن يؤسس الوعي بالأبعاد التربوية والاجتماعية والسياسية **لقاعدة التمحيص**، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستثمر ذلك في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وحماية منجزاتها من الهدر والتبديد، ويعمق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، بما كان يصاحب ذلك من نقد ومراجعة وتقويم وتوجيه مستمر، يمس مجال الرؤية العقدية، والأفكار التقليدية والبديلة، ومنظومات السلوك والعلائق الاجتماعية... كما يتضح لنا ذلك على سبيل المثال في سور: المنافقون، والحشر، والأحزاب، والنور. التي جاءت مشحونة بالمفاهيم والقيم والأحكام والتوجيهات المؤسّسة والمعمقة لأنواع ومستويات الوعي الثلاثة، التي ترتبط بها أصالة وفعالية الحركة الاستخلافية باستمرار.

تحرير قاعدة الدعوة من كابوس الإحساس بالذنب: ونقصد بكابوس الذنب هنا: ثقل الإحساس بالخطيئة، وحدّة الشعور بها، واستعظام أمرها بصورة تحدّ من روح المبادرة لدى الإنسان، وتضغط على تفكيره ومشاعره حتى يظل منكفئا على نفسه، منهكا لجزء من طاقته الفكرية والروحية في اجترار آلام أخطائه ، خاصة إذا رافق ذلك ضغط اجتماعي غير واعٍ .

ولا يخفى خطر هذا الإحساس المرضي الحادّ بالذنب والخطيئة عمومًا، على الأداء الاجتماعي للفرد والمجتمع؛ لأنه إذا تجاوز مرحلة النقد الذاتي والمحاسبة المتوازنة للنفس، تحول إلى كابوس يشلّ إرادة الإنسان تدريجيا، ويقتل فيه روح المبادرة والتميز والاستقلالية وعبقرية الإبداع، ويدفع به إلى السلبية والإمعية والغثائية، وهو ما يحرم المجتمع من جزء هام من "**ميزانيته التسخيرية**" وفعاليته الانجازية، فإذا لم تتنبه القيادة إلى مخاطر هذه الظاهرة، وتعمل باستمرار على تحرير قاعدة الدعوة من كابوس الإحساس المرضي بالذنب عبر العمل التشريعي والتربوي والاجتماعي .. فإن ضعفا متزايدا سيلازم حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

من هذا المنطلق، نلحظ اهتماما كبيرا في الكتاب والسنة بتحرير قاعدة الدعوة من الإحساس المرضي بالذنب والخطيئة، وتحويل ذلك إلى حوافز إيجابية لديها، تدفع بها إلى المزيد من الرزانة والواقعية والتوازن النفسي والفكري والسلوكي فيما تتخذه من مواقف، وتتحمله من مسؤوليات، في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وهو ما نراه في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من آثار صدمة أحد المضادة على قاعدة الدعوة، التي أحس أغلبها وخاصة الأحياء من الرماة، بثقل الأخطاء التي وقعوا فيها، سواء في مرحلة المشاورة وأخذ قرار المواجهة، أو في مرحلة إخلال بعض الرماة بالانضباط، وتسببهم في ضربة موجعة لهيبة الدعوة والدولة والمجتمع، وفقدان عدد كبير من صفوة الصفوة، وتعرض قيادة الدعوة ذاتها إلى خطر حقيقي.

إن شدة الصدمة وشمول آثارها، كان بإمكانه أن يعقد فئات كبيرة من قاعدة الدعوة، ويدفع بها إلى الانكماش، ويشلّ روح المبادرة لديها، لو لم يحرّر الوحي –كتابا وسنة– الإنسان المسلم عامة من كابوس الأخطاء، ويحوّل ذلك إلى وعي ثقافي مكين، تتجدّد عبره فعالية الإنسان وتتكامل خبرته وتكتمل، كما نرى ذلك في عفو الله تعالى عن المخطئين، ودعوته للرسول عليه الصلاة والسلام

([1])المودودي، **تفسير سورة الأحزاب**، ص40 وما بعدها.

([2])أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود (**شرح النووي**، 12/91).

للاستغفار لهم، في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [1]، وقوله سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[2]. بل وتجاوز الأمر ذلك إلى تأكيد إشراكهم في إدارة وتسيير شؤون الدعوة والدولة والمجتمع، رغم ما حدث فقال سبحانه: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[3]. ولا شك أن هذا العفو والاستغفار، وتأكيد استمرارية المشاركة.. من شأنه أن يحرر قاعدة الدعوة فعلا من كابوس الإحساس الحادّ بالذنب والخطيئة، ويعزز لديها روح الجدية والشعور بالمسؤولية، ويربّي فيها الحسّ الواقعي المتوازن في تحليل الأمور، ويطبع تفسيرها لها بالموضوعية، ومن ثم مواقفها بالحكمة والبصيرة.

النموذج التطبيقي الثاني: وناخذه من قصة أبي لبابة حينما بعثه عليه الصلاة والسلام إلى بني قريظة واستقبلته الرجال والنساء والصبيان يبكون، فرق لهم، وأشعرهم بأن مصيرهم الذبح. ثم انتبه إلى أنه أخطأ في ذلك، وعظم عليه الأمر، فربط نفسه في عمود بالمسجد، وقرر أن لا يبرح مكانه حتى يتوب الله عليه، ومكث كذلك مدة حتى تاب الله عليه وفك رسول الله صلى الله عليه وسلم قيده. ففرح بذلك الناس، وفي مقدمتهم رسول الله وزوجه أم سلمة، التي بادرت بتبشير أبي لبابة، بمجرد أن علمت الخبر منه عليه الصلاة والسلام[4].

وعمق أبو لبابة تحرره النفسي والاجتماعي، عندما همّ بالتصدق بماله كله، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «**يجزئ عنك الثلث**»[5]، فطابت نفسه، وتخلص من كابوس الإحساس بالذنب، وتحول خطؤه إلى تربية روحية عميقة، ووعي معرفي وسلوكي أعمق له ولغيره، كانت نتيجته احتفاظ قاعدة الدعوة بحيويتها وحرية مبادرتها، التي اكتسبت المزيد من التوازن، الذي يمنحها الأصالة والفعالية، وينأى بها عن العاطفة، وضيق الأفق، وقلة التقدير لمآلات الأمور.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من موقف الوحي من الذين خاضوا في حديث الإفك من الصحابة، فقد سقط في أيديهم لما أنزل الله براءة البيت النبوي، واتهم الوحي الخائضين بالكذب، واعتبر رمي المحصنات بدون بينة فسقا، وأوجب الحدّ في حق صاحبه، وحرمه من الشهادة قبل ذلك[6]، وكان لذلك كله صداه العميق في موقف عامة قاعدة الدعوة من هؤلاء النفر الذين تعقد وضعهم

([1])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 152.
([2])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 155.
([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 159.
([4]) ابن هشام، **السيرة**، 248/3.
([5]) البيهقي، **الدلائل**، 11/3-13؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 107/2.
([6]) الطبري، **جامع البيان**، 76/10؛ ابن العربي، **أحكام القرآن**، 345/3.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النفسي والاجتماعي في المجتمع، كما نلحظ ذلك في موقف أبي بكر رضي الله عنه من الجراية التي كان يصل بها مسطحا رضي الله عنه[1].

وقبل نزول براءة البيت النبوي، لاحظنا الموقف الصعب الذي مرّ به المعنيون المباشرون بالحادث و في مقدمتهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وزوجه عائشة وأهلها رضي الله عنهم جميعا. فلما نزلت **البراءة والعقوبة والتوبة**، تحرر الكل من هذا الكابوس، واستعاد استقلاليته وحريته وتوازنه، واحتفظ بكامل فعاليته، بعد أن شحذ وعي المجتمع العقدي والتسخيري والاستخلافي، عبر دروس التربية المعرفية والروحية والسلوكية المكثفة التي تلقتها قاعدة الدعوة كلها في مثل هذا الموقف الاجتماعي الصعب، كما يتجلى ذلك في استيعاب "سورة النور" له بشمول وعمق.

وبهذا الاستثمار لقاعدة تحرير الإنسان من كابوس الإحساس بالذنب والخطيئة، عبر التوبة والعقوبة والاستغفار والتسامح... تمكن عليه الصلاة والسلام من حماية "الميزانية التسخيرية" للدعوة والدولة والمجتمع من الهدر والتبديد، واحتفظ لحركة البلاغ والبناء والمواجهة بكامل أصالتها وفعاليتها، وقدرتها على ديمومة الحيوية والتجدد، من خلال حفظ التوازن النفسي والاجتماعي لقاعدة الدعوة، وتوظيف أخطائها في شحذ وعيها الفكري والسلوكي باستمرار.

تحرير الدعوة من المواقف الانفعالية والذاتية: ونقصد بالمواقف الانفعالية والذاتية هنا: الاختيارات العاطفية اللامتوازنة، والاستجابة الواعية أو اللاواعية لرغباتنا ومصالحنا الذاتية المحدودة، من غير تقدير لانعكاسات ذلك على حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ومسيرة الدعوة والدولة والمجتمع.

فالدعوة إذا خضعت لعواطف الأفراد وانفعالاتهم، ووقعت تحت رحمة الأوضاع والظروف والمصالح الخاصة للناس، على اختلاف هذه الأوضاع، وتباين هذه الظروف وتشابك المصالح المنبثقة من ذلك وتناقضها، أوشكت أن تضيع حقيقتها، ويضطرب سيرها، وتتضاءل فعاليتها. بخلاف تحريرها من ذلك كله، **وجعل مصلحتها ضابطا ومقوما لاختيارات الناس واستجاباتهم**، فإنه يحفظ أصالتها، ويحقق فعاليتها، ويضمن استمرارية حيويتها وتجددها، ومن ثم حفظ المصالح الحقيقية، غير الموهومة، لجميع الناس[2].

فالدعوة بما أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، بإخراج الناس من دواعي هواهم[3]، وحملهم على مقتضى سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، فإن تحريرها من المواقف الانفعالية والذاتية، يعد ضرورة حيوية لتحقيق مقاصدها في الخلق، وتمكين الخلق من تحقيق مقاصد وجودهم، بأصالة وفعالية واطراد. وهو ما يجعلنا نقرر، بناء على التجربة التاريخية للحركات الرسالية، **أنه بقدر ما تتحرر الدعوة من المواقف الانفعالية والذاتية، بقدر ما تعظم فعاليتها، ويعظم انتفاع الخلق بمنجزات هذه الفعالية**، وبقدر ما تؤثر هذه المواقف الانفعالية والذاتية على الدعوة وتتحكم فيها، بقدر ما تتضاءل فعاليتها ويتضاءل انتفاع الخلق بمنجزاتها تبعاً لذلك.

ومن هذا المنطلق، يلحظ مدى عناية الوحي بتأسيس الوعي بهذه الكلية لدى قاعدة الدعوة، ودور ذلك في تحقيق أصالة وفعالية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وضمان اطراد حيويتها وتجددها باستمرار، كما نلمس ذلك من دلالات النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

---

(1) الطبري، **المرجع نفسه**، 102/10.
(2) ابن عبد السلام، **قواعد الأحكام**، ص46-57.
(3) الشاطبي، **الموافقات**، 29/2-128.

النموذج التطبيقي الأول:ونأخذه من عتب القرآن على الموقف العاطفي لبعض الصحابة الذين لم يحضروا بدرا، وتحمسوا لملاقاة قريش بأحد، وتحكم ذلك الموقف العاطفي في قرار الشورى الذي كان خلاف الأولى[1]، ثم عندما جدّ الجدّ انهزموا ولم يثبت بعضهم واعتراه جزع واضطراب كبير، وفشل في التوفيق بين تمني الشهادة والتحمس لها قبل المواجهة، وبين الثبات والوفاء بحق الدعوى[2]، قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴿١٤٣﴾ ﴾[3]،وفي هذا تربية ميدانية رفيعة على ضرورة تجاوز المواقف العاطفية والانفعالية، حين التفكير في القضايا والمواقف ذات الشأن الكبير، بل وحتى ما دونها، ما دام قد ينجر عنه أثر سلبي على الدعوة والدولة والمجتمع، فحركة التدافع والتداول لا تحتمل الغرور أو الاستخفاف وقلة التقدير لمآلات الأمور في مستوياتها المختلفة، الفردية والاجتماعية، الآنية والمستقبلية، بل تحتاج باستمرار إلى موضوعية النظر، وحسن التقدير للعواقب، والارتفاع إلى مستوى التجرد من شوائب الذاتية، والحرص على الخضوع لما تمليه مصلحة الدعوة والدولة والمجتمع.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من حماسة عمر بن الخطاب إلى تصفية ابن أبي، لما بالغ في تغذية الفتنة في غزوة بني المصطلق، فقال له عليه الصلاة والسلام: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**»[4]. وهو موقف كما نرى فيه توجيه تربوي إلى ضرورة التروي في الأمور، وعدم التسرع في أخذ القرارات، والحاجة إلى إلجام العواطف والانفعالات في المواقف الحرجة، بلجام الواقعية والتوازن النفسي والفكري والسلوكي، وحساب العواقب والمآلات تجاوبا مع ما تقتضيه المصلحة العامة للدعوة والدولة والمجتمع.

وقد كان لهذا الموقف أثره الوقائي والتربوي معا، كما نلمس ذلك من قول عمر نفسه بعد أن اتضحت له حكمة الموقف النبوي: «**قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري**»[5]. وفي ذلك شحذ لوعي قاعدة الدعوة عامة في اتجاه التوازن النفسي والفكري والسلوكي، الذي يحرر الدعوة من مؤثرات الاستجابة العاطفية للأحداث، ويحافظ على أصالة وفعالية حركة البناء والمواجهة.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من موقف الوحي من حَلِف أبي بكر الصديق رضي الله عنه بأن لا ينفق على مسطح، وأن لا ينفعه بشيء أبدا، بعد مشاركته في حديث الإفك، فجاء القرآن ليعمق وعي قاعدة الدعوة بأهمية تحرير مواقفها الفكرية والسلوكية من الانفعالات والعواطف الذاتية، والارتفاع بها إلى المستوى الرسالي المطلوب، الذي تُحكم فيه التصرفات والمواقف بالمصالح العامة وتبتعد قدر الإمكان عن المصالح الذاتية الضيقة –وإن كانت مقبولة– إن تعذر الجمع بينهما، وفي هذا جاء قوله تعالى:﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ**

([1])البيهقي، **الدلائل** 208/3؛ الهيثمي، **مجمع الفوائد**، 107/6؛ ابن حجر، **فتح الباري**، 401/7.
([2])القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 232/4؛ رشيد رضا، **تفسير المنار**، 159/4.
([3])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 143.
([4])ابن هشام، **السيرة**، 303/3.
([5])ابن هشام، **المرجع نفسه**، 304/3.

وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، فاستجاب أبو بكر وغيره ممن كان شاركه الموقف من الصحابة[2]. وارتقوا بذلك إلى قمة النضج الرسالي في علاقتهم بالدعوة والدولة والمجتمع .

هكذا كان الوحي وكان التطبيق النبوي له، يصبان كلاهما في تعميق وعي قاعدة الدعوة بأهمية تحرير الدعوة من المواقف الانفعالية والذاتية، وضرورة الارتفاع بالعلاقة بها إلى مستويات رفيعة من الموضوعية والانسجام مع ما تستدعيه أولوياتها، وما يتطلبه تحقيق أصالتها وفعاليتها، وضمان اطراد حيويتها في معترك التدافع بين نموذجها الاجتماعي والنموذج الاجتماعي التقليدي.

الاستثمار الدقيق للصدمات المرجعية: ونقصد بالاستثمار الدقيق هنا: القدرة على توظيف قاعدة الصدمات المرجعية بصورة فعالة ومتوازنة، من حيث التقدير والموازنة، والتوقيت، والتنفيذ، بحيث تحقق أهدافها بدقة متناهية، وتعزز موقف حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وتعمق ضعف وارتباك موقف الحركة المضادة باستمرار ، وتهيئة الشروط النفسية والسياسية لتفتحها على الدعوة وآفاقها الحضارية الجديدة.

وتبدو الأهمية الكبيرة لدقة **استثمار الصدمات المرجعية،** في حالات ارتباك موقف الدعوة والدولة والمجتمع، واهتزاز هيبتها، وجراءة القوى المضادة عليها. كما حدث في هذه المرحلة من أحد إلى الأحزاب، حيث شجعت **الصدمات المرجعية المضادة** التي تلقتها الدعوة، مختلف القوى المناوئة لها، للاستخفاف بها، والانتقاض عليها، والمساهمة في تعميق ارتباكها وتضعضع موقفها ، وأخذ زمام المبادرة منها.

ويحتاج استثمار الصدمات المرجعية في مثل هذه الحالات الصعبة، إلى تقدير وموازنات دقيقة، بين **المصالح، في أبعادها الشرعية، والواقعية، والمآلية القريبة والبعيدة، وإلى حسن التوقيت لها، والقدرة على إنجازها والتحكم فيها،** حتى لا يفلت زمام مضاعفاتها من قيادة الدعوة، وتتحول إلى صدمات مضادة، أو مقدمات لها، تؤثر على أصالة حركة الدعوة والبناء والمواجهة وفعاليتها.

وقد استثمر الرسول عليه الصلاة والسلام هذه **الصدمات المرجعية** في هذه المرحلة كذلك، بمنتهى الدقة والتوازن، والقدرة على التحكم في مضاعفاتها، وكان لذلك أهميته الكبيرة في إرباك موقف القوى المضادة، ووقاية الدعوة والدولة والمجتمع من مخاطر كبيرة، كانت تتعرض لها حركة البلاغ والبناء والمواجهة في هذه المرحلة بالذات، كما رأينا في الحديث عن التحديات، وهذه نماذج تطبيقية عن فعلية استثماره عليه الصلاة والسلام لقاعدة الصدمات المرجعية في إعادة التوازن الداخلية والخارجي للدعوة والدولة والمجتمع:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه على سبيل المثال من تصفيته عليه الصلاة والسلام لأبي عزة الجمعي الشاعر، الذي أسر يوم بدر وعفا عنه صلى الله عليه وسلم، بعد أخذ العهد عليه بالكف عن مضادة الدعوة، فاستثمرته قريش في التعبئة لأحد بعد ذلك، ولما حاول الاعتذار وطلب العفو ثانية قال له عليه الصلاة والسلام: «**لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمدا مرتين**» وقال عليه

([1]) **القرآن الكريم**، سورة النور: 22.

([2]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، (**فتح الباري**، 496/7)؛ الطبري، **جامع البيان**، 103/10.

الصلاة والسلام في سياق تأصيل الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، كعادته في التربية بالأحداث والمواقف: «**إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين**»(1).

ولم يمهل صلى الله عليه وسلم ابن نبيح الهذلي حين انضم إلى قوى التحريض والتعبئة ضد الدعوة عقب أحد، فبعث له من صفى وجوده(2)، وقمع من وراءه من الأعراب والقوى المتحفزة للانقضاض على الدولة والمجتمع، وشل فعاليتها لبعض الوقت، استثمره في تعزيز موقفه في حركة التدافع والتداول.

النموذج التطبيقي الثاني: ونرى صورة دقيقة له في الموقف من بني النضير، لما نقضت ميثاق التعايش، وذهب بها التآمر على الدعوة والدولة والاستخفاف بهما، إلى حدّ الشروع في اغتياله صلى الله عليه وسلم(3)، وإظهار التحدي، وجرّ منافقي المدينة وراءها(4)، فيما يمكن أن يكون مقدمة لحرب أهلية، وفتنة داخلية، في ظرف دقيق جدًّا، هيمنت عليه أصداء صدمات أحد والرجيع وبئر معونة، التي أنعشت القوى المضادة، وحفزتها على الجراءة على المجتمع الإسلامي الوليد.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يعي ذلك كله، ويدرك أبعاده، فاستثمر في مواجهة الموقف، **قاعدة الصدمة المرجعية**، فأمهلهم عشراً للخروج من المدينة، ثم حاصرهم بسرعة، وأظهر الحزم الشديد معهم، بقطع النخيل والتحريق فيها(5)، ودوت المدينة بالتكبير حرصا منه عليه الصلاة والسلام على تخويف المنافقين وشل أية إرادة لديهم في مناصرة اليهود، وتمكّن في النهاية من إجلائهم من المدينة، وتخلية بيضة الدولة من أحدى أهم القوى المناوئة للدعوة، وتعزيز شحنة الصدمات المرجعية المربكة للقوى المضادة والمشلة لفعاليتها.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من تصفية وجود بني قريظة، الذي بلغت به شحنة الصدمات المرجعية مداها، للأسلوب الذي انتهجه عليه الصلاة والسلام في معالجة خيانتهم الخطيرة،التي كادت تلحق أضراراً بالغة بالدعوة والدولة والمجتمع(6) لولا لطف الله تعالى،وتوفيق رسوله لاستثمار ما أتيح له من سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد بفعالية، كان لها أثر كبير في إرباك موقف القوى المضادة، وحرمانها من فعالية استثمار إمكاناتها التسخيرية الضخمة بفعالية.

ويلحظ هنا في الموقف من بني قينقاع والنضير، الذين لم يستوعبوا الدرس، وراحوا يساهمون بقوة في تحزيب القوى المضادة وتأليبها على الدعوة والدولة والمجتمع(7)، فكان لابد من استئصال وجودهم وجعلهم عبرة عظيمة لمن خلفهم، فقتلت مقاتلتهم، وسبي نساؤهم وذراريهم، وغُنمت ممتلكاتهم.

وبهذه المواقف استطاع عليه الصلاة والسلام أن يستثمر قاعدة الصدمة المرجعية بدقة كبيرة، حققت للدعوة والدولة والمجتمع مكاسب هامة جدا في هذه المرحلة الدقيقة، لعلَّ أبرزها التخلص من أخطر قوة ضغط وتعويق بمضغة الدولة وهم اليهود، لتُصبح مهيئة تماما لتمثل وتجسيد النموذج

---

(1)ابن كثير، **السيرة**، 102/3.
(2)البيهقي، **الدلائل**، 41/4.
(3) البيهقي، **المرجع السابق**، 199/3.
(4) ابن هشام، **السيرة**، 200/3.
(5) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير،(**فتح الباري**، 383/7).
(6) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود (**شرح النووي**، 91/12).
(7) ابن هشام، **السيرة**، 225/3، البيهقي، **الدلائل**، 398/3.

الاجتماعي الإسلامي بصورة شمولية متوازنة، زيادة على إضعاف موقف القوى المضادة عامة بشكل كبير، ستظهر آثاره في المرحلة التالية، والتمكن كذلك من استعادة بل وتعزيز هيبة الدعوة والدولة والمجتمع، وشحذ الروح المعنوية بقاعدة الدعوة وتحسين أوضاعها الاجتماعية بصورة جيدة، من خلال التوزيع المتوازن للثروة التي أخذت تتجمع لدى الدولة تدريجيا، كما يلحظ ذلك من غنائم بني المصطلق والنضير وقريظة.

تغذية روح الأمل لدى قاعدة الدعوة: ونقصد بروح الأمل هنا: إبقاء ثقة قاعدة الدعوة في مستقبل أفضل في حالة تجدّد مستمر، يحافظ على توازنها النفسي والسلوكي، ويعمق ارتباطها بالدعوة والدولة والمجتمع، ويفعّل دورها في حركة البلاغ والبناء والمواجهة بصورة متزايدة ولا يخفى ما لتجدّد الأمل وانشحاذه من أهمية بالغة في شحذ قدرات المكابدة والصمود لدى الإنسان، وتغذية حوافز المثابرة والإخلاص والجدية والإتقان لديه، ليقينه أن نيل أهدافه يحتاج منه إلى ذلك، فيتفانى في تمثّل هذه القيم؛ في علاقته بالدعوة والدولة والمجتمع، ويتفاعل مع واجباته بصورة فعالة. بخلاف ضعف الأمل في المستقبل، فإنه يشلّ إرادة المكابدة والصمود لدى الإنسان، ويزرع في نفسه الوهن والفتور، وهو ما يطبع علاقته بالدعوة والدولة والمجتمع، بالرتابة وقلة الاكتراث، وينعكس على أدائه الاجتماعي في حركة البلاغ والبناء والمواجهة.

فالأمل سنة أساسية من سنن التسخير، تمنح حركة الدعوة والبناء والمواجهة حيوية متجددة، تستثمرها في تحقيق فعالية الإنجاز على كل المستويات السابقة، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم على وعي عميق بذلك، فاستثمر **قاعدة تغذية الأمل**، في تحصين قاعدة الدعوة من الفتور الذي كثرت دواعيه في هذه المرحلة، وشحذ روح المكابدة والصمود لديها، وتوظيف ذلك كله في تعزيز فعالية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، كما نلمس ذلك في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول:

ونأخذه مما جاء في القرآن، وهو يعد المسلمين بالاستخلاف والتمكين في الأرض، والاستمتاع بالأمن الشامل فيها بعد أن اشتد البلاء على قاعدة الدعوة[1] في هذه المرحلة ،وتلقيها لعدة صدمات مضادة خطيرة ،فقال تعالى:﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥** ﴾[2].

والملفت للانتباه هنا، هو هذه **النظرة السننية لقضية الأمل**، حيث تعرضه الآية في إطار سنن التسخير المطردة في الحياة، كما يلحظ ذلك في شرط التمكين والاستخلاف والأمن .. بمدى انشحاذ الفعالية الروحية والاجتماعية لحركة المجتمع، ولا يأتي هكذا دون إعمال سنن التسخير في الآفاق

([1]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 538/10؛ القرطبي، **الجامع**، 297/12.

([2])**القرآن الكريم**، سورة النور: 55 .

والأنفس والهداية والتأييد؛ لأن السنة مضت أنه سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1]، وهذه ميزة أساسية في الموقف الإسلامي عامة، من استثمار قاعدة الأمل في الدعوة والبناء والمواجهة، فهي تعرض كسنة تسخيرية أساسية، ولكن ضمن سنن تسخيرية أخرى تتكامل معها، وتؤدي وظيفتها التسخيرية والاستخلافية في إطارها. وهو ما يجعل الأمل فعلا قوة إيجابية بانية، لما يوفره من جو نفسي خصب لتتمثل المفاهيم والقيم العقدية والفكرية والروحية والسلوكية... التي تعمق الوعي التسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدعوة.

النموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من إجلاء بني النضير، وكيف استثمر في تغذية الأمل في مستقبل الدعوة والدولة والمجتمع، كما نلمس ذلك في تعقيب الرسول صلى الله عليه وسلم على محاولة النضير إغاضة المسلمين وإشعارهم أن جلاءهم لن يؤثر في موقفهم من الدعوة، وذلك بإظهارهم التجلّد، وتصنّع الفرح، بضرب الدفوف وعزف القيان.. فأدرك عليه الصلاة والسلام أبعاد موقفهم، وبادر إلى المحافظة على الشحنة المعنوية الهامة التي أعطاها الحدث لقاعدة الدعوة فقال: «**امضوا فإن هذا أول الحشر وأنا على الأثر**[2]»، مؤكدا على استمرارية تصاعد الخط البياني لحركة الدعوة، وأنها ماضية في طريق استكمال تغيير الأوضاع، وتفكيك النموذج الاجتماعي التقليدي، وبناء النموذج الاجتماعي الإسلامي البديل عنه.

وقد جاء القرآن يعزز ذلك، ويعمق أمل قاعدة الدعوة في تمكين قريب، من خلال شحذ وعيها بسنن الله الفاعلة في حركة التاريخ، وتحريرها من ضغوط الواقع القائم، وبتعليمها كيف تحلله وتفسره وتتجاوزه، على ضوء سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد النافذة في البشر، عب شمولية وتكامل استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد التي يمثل جلاء بني النضير تجسيدا عمليا حيّا لها، فقال سبحانه وتعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾[3]. أي انتبهوا جيدا إلى اطراد نفاذ سنن الله في الخلق، ولا تأسركم أو تستوعبكم مظاهر الأمور؛ لأن العبرة في الانسجام مع السنن وليس في التصادم معها، لما يؤدي إليه ذلك من اهتلاك واختلال وانهيار، وهو ما سبق تأكيده في تقييم الوحي وتقويمه للمرحلة السابقة في

([1])**القرآن الكريم**، سورة الرعد:11.

([2])ابن هشام، **السيرة**، 201/3.

([3])**القرآن الكريم**، سورة الحشر : 1،2.

قوله تعالى:﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾(1).

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من مواقف عديدة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو يواجه مع المسلمين إحدى أخطر الابتلاءات التي ابتليت بها الدعوة حتى الآن في مسيرتها، وهي تحدي الأحزاب الذي بلغت خطورته مداها، كما وصف ذلك القرآن بدقة في قوله تعالى:﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾(2). في هذه الظروف الصعبة، لم يغفل عليه الصلاة والسلام استثمار قاعدة بث الأمل، بل أفاد منها كثيرا في حفظ التوازن النفسي والسلوكي لقاعدة الدعوة،و الارتقاء بأدائها الانجازي إلى مستوى الفعالية المطلوبة، كما نلمس ذلك في إشعاره الناس وهو يفلق الصخرة التي اعترضت حفرهم للخندق، أن المستقبل للإسلام، وأن دعوته ستعم الأرض، وأن نموذجه الاجتماعي في طريقه إلى الهيمنة والظهور على النماذج الاجتماعية التقليدية في الأرض كلها ،وليس على النموذج الاجتماعي المحلي فحسب ، عندما كان يقول مع كل ضربة: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام»، «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس»، «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن(3)».

وعندما عظم البلاء بنكث قريظة العهد، قال عليه الصلاة والسلام للناس: «**إبشروا بفتح الله ونصره**»(4)، وأخذ يطمئنهم على المستقبل بقوله: «**والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة، وإني لأرجوا أن أطوف بالبيت العتيق** آمنا، **وأن يدفع الله عزّ وجلّ إليّ مفاتيح الكعبة، وليهلكن كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عزّ وجلّ**(5)». وفي نهاية المواجهة أعلن عليه الصلاة والسلام للناس أنه: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم**(6)».هكذا كان عليه الصلاة والسلام يستثمر قاعدة بثّ الأمل، في المحافظة على التوازن النفسي والسلوكي لقاعدة الدعوة، وضمان اطراد انشحاذ فعاليتها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، موظفا في ذلك سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد باستمرار .

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة آل عمران : 196،197.
(2)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب : 10،11
(3)السهيلي، **الروض الآنف**، 277/3؛ ابن حجر العسقلاني، **المطالب العالية**، 229/4.
(4)ابن هشام، **السيرة**؛ 233/3؛ البيهقي، **الدلائل**، 403/3.
(5)البيهقي، **المرجع نفسه**، 402/3-433-452.
(6)ابن هشام، **المرجع السابق**، 266/3.

بناء علاقات حميمية مع قاعدة الدعوة:ونقصد بالعلاقات الحميمية هنا: عمق الصلة بقاعدة الدعوة، والحرص المستمر على النفاذ إلى عمق العلاقات الإنسانية معها، والاستفادة منها في شحذ فعالية الترابط والالتحام بين القيادة وقاعدة الدعوة بصفة مفردة.

وهو شرط أساسي لضمان فعالية أداء حركة البلاغ والبناء والمواجهة؛ لأنه يقوي الثقة، ويزيل أسباب الاعتراض، يهيّج روح الإخلاص والصدق، والمحبة والتفاني في العمل.. بخلاف العلاقة الشكلية بقاعدة الدعوة، فإنها تضعف الثقة، وتقوي أسباب الاعتراض، وتؤثر على الإخلاص والصدق، والتفاني في العمل، مما ينعكس سلبا على فعالية الآداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يدرك ذلك تماما، باعتباره –أي تلاحم قاعدة الدعوة بقيادتها– مقصدا أصيلا للدعوة من جهة، وشرطا هاماً من شروط فعالية الأداء الاجتماعي لها من جهة أخرى، فأولاه عناية مركزة جدًّا، واستثمره بنجاح في شحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية والاجتماعية لقاعدة الدعوة، كما نرى ذلك على سبيل المثال من النماذج التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الأول:**ويمكن ذكر صور عديدة له، في علاقاته عليه الصلاة والسلام بأصحابه، كما في حواره المطول مع جابر بن عبد الله رضي الله عنه أثناء رجوعهم من غزوة ذات الرقاع، وكيف راح يحدثه عن الزواج والعلاقات الزوجية، حديثا في غاية اللطف والحميمية، كان له أبلغ الأثر في نفسه[1]. وكما حدث مع زيد بن أرقم، حينما كذّبه الناس فيما نقله إلى رسول الله عن تحريش ابن أبي على المهاجرين في غزوة بني المصطلق، فقد اغتمّ هذا الصحابي الغلام من ذلك كثيرا، وراح يسير مخفق الرأس من الهمّ، كما قال ذلك عن نفسه، فجاءه عليه الصلاة والسلام وعرك أذنه وضحك في وجهه، جبرا لخاطره، فقال زيد يصف أثر ذلك في نفسه:** «فما كان يسرني أن لي بها الخلد أو الدنيا[2]».

وكما في قوله لسلمان يوم الأحزاب: «**سلمان منّا أهل البيت**[3]». وقوله للمسلمين عامة لما رأى ما بهم من النصب والجوع وهم يكابدون حفر الخندق ومواجهة الخطر: «**اللّهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**[4]». وكما في قوله للزبير بن العوام أثناء عودته من مهمة في بني قريظة يوم الأحزاب: «**فداك أبي وأمي**»، والتي اعتز بها كثيرا، وكان يفتخر بأنه صلى الله عليه وسلم جمع له أبويه[5]. وكما في إهدائه عصا لعبد الله ابن أنيس عندما قتل ابن نبيح، وقال له: "تخصّر بهذه في الجنة"، فقرنها الأخير بسيفه طيلة حياته، وأوصى بإدراجها في كفنه بين جلده وثيابه[6].

والأمثلة على مواقفه التربوية من هذا القبيل لا تحصى، كان لها أثر كبير في بناء علاقات حميمية مع قاعدة الدعوة، واستثمار ذلك في شحذ وعيها المعرفي وتوثبها الروحي ،وترقيها السلوكي ،وهو ما يؤثر بقوة في فعالية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، والحماية للدعوة والدولة والمجتمع.

النموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من تفطنه عليه الصلاة والسلام إلى محاذير الاستئثار بالامتيازات الاجتماعية دون أصحابه، وحرصه الشديد على مشاركة الناس في سرائهم وضرائهم، وعدم خصّ نفسه بأي امتياز اجتماعي مهما كان عاديا، إلا ما كان ذا صلة بخصوصياته النبوية، كما

---

(1) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح البكر،(**شرح النووي**، 53/10).
(2) أخرجه الحاكم في **المستدرك**، 489/2.
(3) ابن عبد البر، **الدرر**، ص170.
(4) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، (**فتح الباري**، 453/7).
(5) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام، (**فتح الباري**، 99/7).
(6) البيهقي، **الدلائل**، 41/4.

نلحظ ذلك على سبيل المثال في مشاركته في حفر الخندق ونقل التراب حتى أغبّر بطنه، وواری التراب جلده، وقد شدّ على بطنه حجرا لفرط الجوع[1].

وعندما خصّه جابر بن عبد الله بطعام يوم الخندق، ودعاه إلى ذلك سرا، فضّل أن يشاركه في ذلك كل الناس رغم قلة الطعام[2]. وهكذا كان دأبه في علاقاته بقاعدة الدعوة، فأحبه الناس، وقويت ثقتهم فيه، ونشطت نفوسهم للتفاني في العمل، مما منح حركة الدعوة والبناء والمواجهة فعالية نموذجية قصوى، كما تدلّ على ذلك مثلا سرعة حفر الخندق، الذي كان طوله يبلغ خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، كل ذلك تم إنجازه في ستة أيام[3]، رغم قلة الإمكانات، وبرودة الجو، ونقص المؤن الغذائية.

النموذج التطبيقي الثالث:**ونأخذه من حرصه المستمر عليه الصلاة والسلام على مشاورة قاعدة الدعوة، وإشراكها في كل ماله صلة بالاجتهاد التنفيذي غير التشريعي، حتى تكون قراراته عليه الصلاة والسلام واضحة المبررات والدوافع لدى الجميع، فتقوى عندهم الرغبة في الامتثال لها، والاندفاع لإنجازها، كما نرى ذلك في مشاركة الناس في غزوة الأحزاب[4]، وقبل ذلك في غزوة بني النضير حينما أراد منح غنائمها للمهاجرين[5]، في إطار تجسيد سياسة التوازن الاجتماعي التي كانت الدعوة تستهدف تحقيقها في الدولة والمجتمع[6].**

بمثل هذه المواقف، كان عليه الصلاة والسلام يبني علاقات حميمة بين قاعدة الدعوة وقيادتها، ويقوي ترابطهما، ويستثمر ذلك في شحذ فعاليتها المعرفية والروحية والسلوكية، و يطور قدراتها الانجازيةمع مرور الوقت.

إطراد تأصيل واستثمار قاعدة المرونة الحركية المنضبطة:لما تحتاجه حركة الدعوة والبناء والمواجهة في أحيان كثيرة، من سرعة التصرف، والحسم في الأمور، والتكيف مع الأوضاع، محافظة على توازن وفعالية سيرها من جهة، وضمانا لأصالتها من جهة أخرى، وهو ما يستدعي الإعمال الدقيق **لقاعدة المرونة الحركية المنضبطة*** ، حتى لا تفوت الدعوة **لحظات الخصوبة** في الفرص المتاحة لها، لما في فواتها من تضييع للمصالح، واحتياج إلى مضاعفة الجهد، وحتى لا يتميع مضمونها ومنهجها كذلك. بل تظل متوازنة في أصالتها وفعاليتها معًا.

وكما رأينا في الفصل السابق، فإن اللجوء إلى استثمار هذه القاعدة الحيوية، يتم ضمن وعي عميق ودقيق بقاعدة الأولويات والقدرة على الموازنات؛ لأن الأمر هنا كثيرا ما يتعلق باستعمال الوسائل الاستثنائية، واللجوء إلى الرخص والمفضولات، التي قد يؤدي عدم الانضباط الشرعي في استثمارها، إلى تأثير سلبي على أصالة الدعوة، ومن ثم على فعاليتها ولو على المدى البعيد باعتبار الأصالة ثابتاً غائياً أو مقصدياً أساسياً يؤدي دور الموجّة والواقي في العملية التفسيرية البنائية .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان دقيقا في استثمار هذه القاعدة الهامة، للمحافظة على توازن

([1]) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق،(**فتح الباري**، 461/7).
([2]) ابن هشام، **السيرة**، 229/3.
([3]) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 87/2؛ السمهودي، **وفاء الوفاء**، 1209/4.
([4]) ابن القيم، **زاد المعاد**، 271/3.
([5]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، (**فتح الباري**، 389/7).
([6]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 3524/6.
* يراجع المفهوم في الفصل السابق.

حركة الدعوة والبناء والمواجهة، كما نلمس ذلك في الأمثلة التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من إذنه عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن أنيس بحرية التصرف في إنجازه مهمة القضاء على ابن نبيح الهذلي، لما جاهر بعدائه للدعوة والدولة والمجتمع عقب صدمة أحد المضادة. ويظهر استثمار ابن أنيس لهذه القاعدة في تمويه حقيقته على ابن نبيح، وإيهامه بأنه يشاركه موقفه المعادي للدعوة. كما يظهر كذلك في صلاته العصر إيماء وهو يمشي خوفا من فوات الفرصة عليه، وقد أقرّ عليه الصلاة والسلام ذلك كله منه[1].

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من سلوك بريده بن الحصيب رضي الله عنه لما بعثه عليه الصلاة والسلام يستطلع خبر بني المصطلق، فتظاهر لهم بأنه عون لهم على محمد وأصحابه[2]. كما نرى صورة أخرى لاستثمار هذه القاعدة في إقدامه عليه الصلاة والسلام على قطع نخيل بني النضير والتحريق فيه، ضغطا عليهم وتوهينا لإرادة المقاومة لديهم، وحملا لهم على الاستسلام[3] وهو ما جاء في القرآن يؤصل الأخذ به عند الحاجة أو الضرورة [4] كما في " سورة الحشر ".

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من إذنه عليه الصلاة والسلام لنعيم بن مسعود للتصرف في إنجاز مهمة تخذيل الأحزاب، بزرع الشك بينهم وبين قريظة، وإيهام كل طرف أن الطرف الآخر غير مخلص له[5]. وتفريق وحدتهم في نهاية المطاف في إطار قاعدة "الحرب خدعة "[6].

والمواقف من هذا القبيل كثيرة جدا في هذه المرحلة، والمراحل السابقة واللاحقة، تبين فعلا كيف كان عليه الصلاة والسلام يستثمر **قاعدة المرونة الحركية المنضبطة**، في تحقيق فعالية الدعوة والبناء والمواجهة، وضمان أصالتها، وتعميق وعي قاعدة الدعوة بذلك.

تأصيل واستثمار قاعدة التثبت والانضباط الاجتماعي: ونقصد بالتثبت والانضباط الاجتماعي هنا: توطين قاعدة الدعوة على التبيّن من الأمور، وعدم التسرع في أخذ المواقف من الأشخاص والأحداث، وتأصيل الوعي التحليلي النقدي الإستشرافي لديها، وتحويل ذلك كله إلى ثقافة اجتماعية تطبع الموقف الفكري والسلوكي للفرد والمجتمع.

فالدعوة منحت أهمية فائقة لهذه القاعدة المعرفية والاجتماعية الهامة، وحولها عليه الصلاة والسلام إلى ثقافة لدى قاعدة الدعوة، عبر التزامه العملي بها في إدارته لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وتربيته **للبصيرة النقدية** لدى الصحابة، كما نلمس ذلك من الدلالات المعرفية والتربوية والاجتماعية للنماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول: ونراه في موقفه عليه الصلاة والسلام المنضبط من حادث الإفك الخطير[7]، الذي مسّه مباشرة في أدق شيء وهو عرضه، وبيته الذي بُني بعناية فائقة ليكون نموذجاً لتمثل الدعوة، ونقل حقائقها إلى المجتمع عبره بالإبلاغ والقدوة.

فقد حرص عليه الصلاة والسلام على التروي والتثبت من الأمور، وعدم التسرع في أخذ

---

(1) أبو داود، **السنن**،كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب، 18/2؛ الهيثمي، **المجمع**، 203/6.
(2) عرجون، **محمد رسول الله**، 208/4.
(3) ابن حجر، **فتح الباري**، 331/7.
(4) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 209/4؛ القرطبي، **الجامع**، 11/12.
(5) البيهقي، **الدلائل** 447/3؛ ابن كثير، **السيرة**، 217/3.
(6) ابن حجر، **فتح الباري**، 194/6.
(7) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المغازي ،باب حديث الإفك (**فتح الباري**، 497/7).

الموقف، رغم حساسية الوضع، وشدة وطأته عليه وعلى الناس وعلى الدعوة؛ وأخذ يحقق في الأمر مع كل الأطراف ذات الصلة، بكل صبر وتوازن نفسي وسلوكي، حتى اطمأن، وراح يواجه الإشاعة ومروجيها، بأسلوب تربوي ووقائي، زاده الوحي بعد ذلك تعميقا وتأصيلا، عند ما جاء ينتقد السذاجة واللامبالاة لدى فئات من قاعدة الدعوة، ويشنع بالإمعية لدى أخرى[1]، ويعري مكر القوى المنافقة[2]، ويربي الحس النقدي لدى المجتمع، كما يتضح ذلك في الآيات الكثيرة التي استوعبت حادث الإفك، معرفيا وتربويا وتشريعا.

النموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من موقفه من نقض قريظة العهد يوم الأحزاب، وكيف حرص عليه الصلاة والسلام على التثبت الدقيق من الأمر وبعثه رجالا ثقاة ذوي صلة بقريظة[3] للتحقيق في الأمر والتحقق منه ميدانياً، بعد أن كان قد بعث قبلهم الزبير بن العوام لنفس المهمة[4]، إستيثاقا من الأمر.

ولا يخفى الأثر الوقائي المباشر لمثل هذا السلوك منه عليه الصلاة والسلام من جهة، والأثر التربوي البعيد المدى في حياة قاعدة الدعوة من جهة أخرى، خاصة عندما نستحضر أهمية التربية بالأحداث في هذا المجال، وكيف تعمل على تحقيق الانضاج المعرفي والروحي والسلوكي المركز بسرعة .

النموذج التطبيقي الثالث:ونأخذه من قصة أبي لبابة لما بعثه صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة، وأشعرهم بأن مصيرهم الذبح، وأدرك بعد ذلك خطأه، فربط نفسه بالمسجد، وتركه عليه الصلاة والسلام كذلك مدة[5]، ليعمّق لدى قاعدة الدعوة الإحساس بالمسؤولية، وروح الانضباط الاجتماعي،ويشحذ قدراتهم التحليلية والاستشرافية أو التوقعية ،لينفذوا وراء الظواهر والأحداث ،وأن لاتستوعبهم ضغوطاتها الآنية ،وتنسيهم تقدير مآلاتها على الدعوة والدولة والمجتمع ،حاضراً ومستقبلاً .

كما نرى صورة أخرى لهذه التربية العملية الرفيعة، على التثبت والانضباط الاجتماعي كذلك، في تأكيده على حذيفة بن اليمان لما بعثه يستطلع خبر الأحزاب قائلاً له : «**اذهب يا حذيفة فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تذْعَرْهم علي، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا**»[6].وقد كان لهذا التوجيه أثره التربوي المباشر، في انضباطه بالأمر رغم تمكنه من إمكانية قتل أبي سفيان، بل وهمّه بذلك لولا أنه تذكر قول رسول الله له: «**لا تذعرهم علي**»، فأمسك كما روى ذلك حذيفة في قصة طويلة[7] تبيّن فعلاً كيف أخذت قيم الانضباط الاجتماعي بمفهومه العام ترسخ في حياة الناس ،وتعطي لشبكة العلاقات الاجتماعية قوتها الالتحامية المطلوبة .

هكذا تكامل التوجيه القرآني والتطبيق النبوي في تأصيل وعي قاعدة الدعوة بالتثبت الذي يطبع سلوك المجتمع بالانضباط الاجتماعي، والاستعصاء على رواج بذور الفتن، لما يمنحه هذا الانضباط

---

(1) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 178/18.
(2) القاسمي، **محاسن التأويل**، 226/12 وما بعدها.
(3) البيهقي، **الدلائل**، 403/3.
(4) البخاري، **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام، (**فتح الباري** 99/7).
(5) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 106/2.
(6) ابن هشام، **السيرة**، 243/3؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 98/2.
(7) ابن هشام، **السيرة**، 243/3.

الاجتماعي للفرد والجماعة ، من قدرة على تحليل المواقف والأحداث، ونزوع نقدي، يـصعب معـه الانجرار وراء الموقف والأحداث بدون بيّنة، وهو مكسب كبير جدا للتربية الفكرية والـسلوكية مـن جهة، والوقاية الاجتماعية للدعوة والدولة والمجتمع من جهة أخرى.

الوقاية من الازدواجية السلوكية:ونقصد بالازدواجية السلوكية هنا: تذبذب الموقف الـسلوكي للفرد والجماعة، واتسامه بالتناقض وعدم الاتساق بين القول والعمل.

وقد بينت الخبرة الإنسانية كم يسيئ استشراء هذه الظاهرة في حياة الفرد والجماعـة، إلـى النموذج الاجتماعي الذي يمثّلانه؛ لأن هذا التذبذب في الموقف السلوكي، يميّع حقيقة النموذج ويـشوّه صورته، كما يؤدي إلى هدر خطير **لميزانيته التسخيرية**، ويطبع الحياة الاجتماعية فيـه بالمظهريـة والنفاق الاجتماعي الذي يقضي على تماسك المجتمع وقوته،ويفقده القدرة على الإشعاع والاسـتقطاب الحضاري .

ونظرا لخطورة هذه **الازدواجية السلوكية** على أصالة وفعالية حركة الدعوة والبناء والمواجهة، فقد أعطيت اهتماما كبيرا في القرآن والتطبيق النبوي معا، إبرازا لذاتية النموذج الاجتماعي الإسـلامي المتكامل، ووقاية له من التشويه وهدر الإمكانية التسخيرية،وتمكيناً له من القوة الإشعاعية الاسـتقطابية اللازمة. كما نرى ذلك في الدلالات التربوية والسلوكية والوقائية للنماذج التطبيقية التالية علـى سـبيل المثال :

النموذج التطبيقي الأول:ونأخذه من تركيز القرآن على نقد مظاهر الازدواجية السلوكية، وتحليل خلفياتها الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية، ليكشف مكر القوى النفاقية، ويضرب مركزها الاجتماعي، ثم ليساعد غيرها من خلال ذلك على ترقية التزامها وانسجامها السلوكي. كما نرى ذلك في آيات كثيرة تحدثت عن المنافقين، في سور: **البقرة، وآل عمران، والأنفال، والنور، والأحزاب، والمنافقون**... مما يجعلنا نكتفي هنا بعينة واحدة على سبيل المثال. هي قوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

النموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من نقد القرآن التقويمي لبعض مظاهر الازدواجية السلوكية لدى قاعدة الدعوة، وتعميق وعيها بمخاطر ذلك على أدائها الروحي والاجتماعي، ومن ثم على فعالية وأصالة حركة الدعوة والبناء والمواجهة، كمصب للجهد الاجتماعي العام. كما نلحظ ذلك مثلا في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن

([1])**القرآن الكريم**، سورة النور: 47-48-49-50.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1]، وهو وعيد لم يتوعد الله على زلةٍ بمثل ما توعد على هذه الازدواجية السلوكية [2]، لما لها من آثار خطيرة على فعالية الأداء الاجتماعي للدعوة والدولة والمجتمع .

النموذج التطبيقي الثالث:ونرى صورا كثيرة له، في النماذج الكثيرة التي ذكرها القرآن عن هذه الازدواجية لدى أهل الكتاب عامة، واليهود خاصة، وتحليله للبواعث والخلفيات الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية، الكامنة وراء ذلك التناقض والاضطراب السلوكي، كما فعل مع المنافقين كذلك،في سياق تطويق وتفكيك النموذج الاجتماعي التقليدي ومنظومته المعرفية والثقافية عامة .

ويكفي هنا تأمل حديث القرآن عنهم –أي أهل الكتاب والمنافقون– في سورتي: "الصف" و" الجمعة " مثلا، لملاحظة كيف استثمر القرآن الميراث التاريخي لأهل الكتاب عامة واليهود خاصة، لمواجهة ظاهرة الازدواجية السلوكية في مجتمع الدعوة من خلال ذلك. وقد يغني هنا ذكر قوله تعالى المشنّع بالموقف النفاقي لليهود:﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾[3] بهذه النظرة المتكاملة واجهت الدعوة ظاهرة الازدواجية السلوكية، واستثمرتها في شحذ الانسجام السلوكي لدى قاعدة الدعوة، وتوفير أهمّ شروط قوة الإشعاع والجاذبية في النموذج الاجتماعي الإسلامي البديل.

([1])**القرآن الكريم**، سورة الصف: 2، 3.
([2])البقاعي، **نظم الدرر**، 7/20.
([3])**القرآن الكريم**، سورة الجمعة: 5.

تعميق الوعي بضرورة استمرارية الدعوة:أي تعميق وعي قاعدة الدعوة بضرورة ضمان استمرارية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، واعتبار ذلك من **الأولويات الكلية المهيمنة**، التي يجب أن توضع في خدمتها كل إمكانات الأفراد والدولة والمجتمع في كل الظروف والحالات[1]، لارتباط مصالح الجميع، بمدى أصالة وفعالية واطرادية حركة الدعوة والبناء والمواجهة، والمحافظة على منجزاتها، وحسن استثمارها في بناء الدولة والمجتمع. كما نبّه إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2] وهو نص تأسيسي عظيم الشأن، حدد بوضوح الوظيفة الاسترتيجية الثابتة للامة، التي تحتل فيها الدعوة كحركة تأسيس للخيرية، وتمثّل ذاتي لها، ونقل مستمر لها إلى الآخرين، وجهاد حضاري دائب لتجسيد نموذجها الاجتماعي في الحياة .. مكانةً محورية يتوقف عليها ماعداها ويتقوم بها.

من هنا كانت عناية الإسلام بتعميق وعي قاعدة الدعوة بهذه الكلية، وتحسيسها، بأن وجودهـا وحياتها وقوتها ونفوذها... مرتبط باستمرارية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، في أصالتها وفعاليتهـا واطراديتها كما نلحظ ذلك في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول:وناخذه من تأكيد القرآن على عدم ربط مصير الدعوة بالأشخاص والمؤسسات، بل ربط الكل بمصير الدعوة ومصلحتها، كما نرى ذلك في نقد الوحي التقويمي لموقف بعض المسلمين في أحد عندما أفشلهم خبر موته عليه الصلاة والسلام[3]، فجاء التنبيه الحاسم إلى ان الدعوة لا تتوقف استمراريتها على أيٍّ كان من الأشخاص ،حتى ولو كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بل هي مسألة الامة كلها كل بحسبه. فقال تعالى:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[4].

النموذج التطبيقي الثاني: وقد زاد القرآن القضية تأكيدا ووضوحا، عندما لفت نظر قاعدة الدعوة إلى سنة الله في ذلك[5]، وكيف أن غياب رمز الدعوة، سواء كان شخصا أو مؤسسة، يجب أن لا يؤثر في استمراريتها؛ لأن الدعوة كحركة تأسيس وتبليغ وتجسيد للخيرية وحماية لها، لا تتوقف على حياة أو موت شخص مهما كان وزنه وموقفه، وقد أعطى مثالا بالأنبياء، حتى يضع القضية في

([1])محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، 160/4.

([2])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 104.

([3])ابن كثير، **التفسير**، 122/2.

([4]) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 144.

([5]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 160/4– 170؛ فضل الله، **من وحي القرآن**، 195/6.

إطارها وقيل المبدئي الحاسم، الذي لا يترك أي لبس أو غبش[1]فيها، فقال سبحانه:﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[2]، وقد أرشد هذا التوجيه القرآني ضمنا إلى ضرورة إيجاد كفاة كثر[3]في كل المجالات والمستويات، حتى لا يمنّ أحد بجهده على الدعوة، أو تجد نفسها مرهونة به، في حالة غيابه أو عجزه أو انحرافه .. أو ينبغي أن يرتقي وعي هذه الصفوة إلى مستوى استشعار التقصير باستمرار، في العلاقة بالدعوة، والمبادرة إلى استدراكه، كما يوحي بذلك موقف هؤلاء الربيين، الذين لم توهنهم ابتلاءات التدافع المتواصل، ولم تستوعبهم تحدياته عن استشعار المسؤولية والأشفاف من التقصير.

النموذج التطبيقي الثالث:ونأخذه من موقفه عليه الصلاة والسلام من الصدمات المضادة؛ في أحدٍ، والرجيع، وبئر معونة، والأحزاب..و كيف أنها لم تؤثر في استمرارية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، بل زادته عليه الصلاة والسلام إصرارا على المضي في ذلك بكل حيوية[4]، وتحويل ما حدث إلى وعي في فقه الأولويات، والموازنات، وفقه المكابدة والاحتساب.. **إلى غير ذلك من القيم الثقافية والاجتماعية، التي كان التوجيه التربوي يعمق الوعي بها لدى قاعدة الدعوة من خلال الأحداث.**

وقد كان لهذا الوعي أثره العميق الممتد في الأمة، حتى بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، إذ يلحظ كيف استمرت العناية بالدعوة كأولوية كلية في كل مراحل التاريخ، حتى وإن تخلت عليها السلطة السياسية أحيانا، أو حاولت استغلالها والتحكم فيها، وهو ما شكل فعلا عامل حماية كبير للدعوة والمحافظة على منجزاتها.

نكتفي بهذه العينات من قواعد المنهج التي حكمت الفعل الدعوي النبوي في البلاغ والبناء والمواجهة، مراعاة لتوازن فصول البحث، وإن بقيت هناك قواعد عديدة، كان لها حضور وتأثير فيما اتسمت به الدعوة في هذه المرحلة، من أصالة وفعالية واطراد، سنشير إلى عناوينها الكبرى، كما فعلنا في الفصلين السابقين، مع الإحالة على تطبيقاتها في مصادرها المختلفة، تعميماً للفائدة، وتعميقا للوعي بمدى الثروة الهائلة التي ينطوي عليها الفعل الدعوي النبوي في **مجال المنهج**، الذي كان وراء ما حققته الدعوة من مكاسب ونجاحات نموذجية.

---

(1) الألوسي، **روح المعاني**، 81/4.
(2) **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 146، 147.
(3) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 164/4.
(4) العمري، **السيرة**، 400/2.

استمرارية تعميق الوعي بسلطة المرجعية الفكرية والسياسية للمجتمع:وتأكيد مفهوم **سلطة الشريعة وسيادتها القانونية في المجتمع**، كما تدل على ذلك كثرة النصوص القرآنية المؤصلة لمفهوم الطاعة السياسية، والانضباط الفكري، والتحاكم إلى الله ورسوله[1]

والمحذرة من الإزدواجية[2]، والمعمقة للإحساس بأن العلاقة بالقيادة أو المرجعية عامة ليست كالعلاقة بالآخرين[3]، كما قال سبحانه:﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[4].

اطراد العمل التشريعي لمواجهة التوتر وشحذ الفعالية الاجتماعية: للدعوة والدولة والمجتمع، من خلال ملاحقة تطور حركتها، واستيعاب مشكلاتها؛ بالضبط والتقنين، تتميما لمهمة العمل التربوي والتوجيه الروحي، محافظة على تماسك المجتمع، وحماية لإمكانه التسخيري، وتمكينا له من استثماره بفعالية في تعزيز قدرات حركة البلاغ والبناء والمواجهة كما نلحظ ذلك في تنظيم العلاقات الأسرية، عبر الزواج والطلاق، والحقوق الوالدية والولدية والزوجية، وحرمات البيوت، وتحريم التبني، وفرض الحجاب... وتنظيم العلاقات الاجتماعية العامة، من خلال تحريم الخمر والميسر، والربا، وقذف المحصنات، والزنا، وسنّ الحدود المتصلة بذلك.*

اطراد التوجيه التربوي وشحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية:وتفعيل القيم العقدية والفكرية والاجتماعية للدعوة في حياة قاعدة الدعوة، من خلال حركة البلاغ والبناء والمواجهة، التي كانت أحداثها ووقائعها تتحول باستمرار، إلى دروس عملية في التربية، العقدية والفكرية والروحية والسلوكية، معمّقة معاني الرحمة والإنسانية، ونبذ الجفوة والظلم[5]، وترسيخ قيم الانضباط، والاحساس بالمسؤولية الاجتماعية، واستشعار ثقل أمانات الدعوة والدولة والمجتمع[6]، وأهمية التضحية والابتلاء في سبيل الله، ومقامات الشهادة والشهيد، ودور دمه في حياة الدعوة والدولة والمجتمع[7].

شحذ أريحية المجتمع ورساليته:من خلال إبراز القيم الخيّرة السائدة فيه، والإعلاء من شأنها، والتنويه بالأفراد والجماعات المجسِّدة لذلك، في حياتها وعلاقاتها ومواقفها، والدعاء لهم، وتبشيرهم بالجزاء الأوفى[8]، والازراء بالقيم الدونية السافلة، والتنديد بها، والتحذير منها... والتهوين من شأن الأفراد والجماعات المتلبّسة بها وأوزارها.

([1]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 161/14؛ ابن كثير، **التفسير**، 465/5.
([2]) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 407/3 وما بعدها.
([3]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 522/7.
([4]) **القرآن الكريم**، سورة النور: 63.
* وردت في سور النساء والمائدة والنور والأحزاب مادة مكثفة في هذا الإطار.
([5]) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 8/9.
([6]) الذهبي، **السيرة**، ص311.
([7]) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 112/2.
([8]) سيد قطب، **الظلال**، 3526/6.

تعميق الوعي بالتآلف الاجتماعي والتكاملية التاريخية:باعتبارهما شرطان أساسيان للتماسك الاجتماعي والفعالية التسخيرية والاستخلافية، وهو ما نلحظه في تنويه الوحي بالروح الغيرية التكافلية بين المهاجرين والأنصار، والتأكيد على ضرورة استمرارية ذلك، وجعله محور وعمق العلاقات بين الفئات والأجيال في المجتمع الإسلامي[1]. كما قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

اطراد عملية تحرير قاعدة الدعوة من الاستلاب للقوى المضادة: والوقوع تحت أسر قيم نموذجها الاجتماعي التقليدي، الذي كان يضغط بامتيازاته وإمكاناته وعلاقاته على قاعدة الدعوة، ويحاول استلابها، وإفقادها توازنها الفكري والنفسي والسلوكي، لكن الدعوة واصلت تحرير قاعدة الدعوة من هذه الضغوط، عبر عمليات **نقد وتشريح تفويضي محكم** لقيم ومرتكزات وأنظمة النموذج الاجتماعي التقليدي[3]، وتعميق وعي قاعدتي الدعوة والمجتمع عامة، بانسداد الآفاق أمامه، لما يسود مسيرته من تناقض وصدام مع سنن الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي[4]، وأن المستقبل للنموذج الاجتماعي الإسلامي، لما يسود مسيرته من تناغم وانسجام مع هذه السنن، في أبعادها ومستوياتها جميعا.

الجدية والصرامة في مواجهة التردد والخوف:لدى قاعدة الدعوة، لما لذلك من آثار خطيرة على روحها المعنوية، وإرادة الثبات والصمود لديها، وانعكاسات سيئة على حركة الدعوة والبناء والمواجهة، لذلك كان عليه الصلاة والسلام حازما حاسما في مواجهة كل ما يزرع الوهن في النفوس، ويعرّض الموقف للتسيب والتميّع واللافعالية، كما يلحظ ذلك في موقفه من تردد الناس في الخروج إلى بدر الموعد[5]، وكما في خوف المسلمين بالأحزاب[6].

شلّ الفعالية الاجتماعية للقوى المضادة:وحرمان فعلها الابتدائي أو المعاكس من تأثيراته المرجوة، من خلال عمليات * اليقظة والتحفز، وأخذ زمام المبادرة من خصومة[7]، وضرب مصادر الفتنة والتعويق عند تعذر الاستيعاب أو التحييد[8]، والقدرة على عزل خصوم الدعوة عن قاعدتهم الاجتماعية، وحرمانهم من الاستفادة منها[9]، والقدرة على تعرية ضعف مناوئي الدعوة، وإرباك

([1]) الألوسي، **روح المعاني**، 54/28؛ سيد قطب، **المرجع نفسه**، 3527/6.

([2]) **القرآن الكريم**، سورة الحشر: 10.

([3]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 271/3-276؛ 75/4.

([4]) رشيد رضا، **المرجع نفسه**، 250/4؛ فضل الله، **من وحي القرآن**، 256/6-293.

([5]) ابن سعد، **الطبقات**، 59/2.

([6]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق،(**فتح الباري**، 461/7).

* كل واحدة من هذه العمليات يشكل قاعدة مستقلة في مجال الوعي التسخيري والاستخلافي.

([7]) البيهقي، **الدلائل**، 324/3.

([8]) ابن خياط، **تاريخ ابن خياط**، 43/1؛ السهيلي، **الروض**، 251/3.

([9]) ابن هشام، **السيرة**، 232/3- 305؛ عرجون، **محمد رسول الله**، 156/4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خطاهم، وزعزعة ثقتهم في أنفسهم[1]، وضرب تماسك ووحدة هذه القوى في كل مراحلها[2].. للوصول في نهاية العلاقة بها إلى **الاستيعاب أو التحييد والتجميد**، وشلّ فعالية أدائها الاجتماعي في معترك التدافع بينهما وبين الدعوة قدر الإمكان.

تعميق الوعي بمجالات وشروط استثمار سنن التأييد:وهو الإمكان التسخيري الرابع، بعد إمكان سنن الآفاق والأنفس والهداية، فقد تعمق الوعي بمجالات وشروط استثماره، خاصة بعد الالتباسات التي حقّتْ بالقضية بعد صدمة بدر المرجعية، التي اعتقد بعض المسلمين ، إن لم يكن جلهم، أنهم منصورون في أية مواجهة مع القوى المضادة[3]، فجاءت **صدمة أحد المضادة** لتعمّق وعيهم بمجالات وشروط استثمار هذه **المنظومة السننية**، وأنها تأتي في الترتيب بعد استيفاء الأخذ بسنن الآفاق والأنفس والهداية ، لتغطية نقص غير مقدور للمسلمين، وتكمّل عجزا غير مقصود في عملهم، وهو ما نبه إليه الوحي وعمق الوعي به في قوله تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[4].

فالتوكل وتفويض الأمر لله –وهو مقدمة التمكن من استثمار سنن التأييد– أتى في مكانه من عملية استثمار سنن التسخير، بعد التماسك الداخلي، وتخطيط الموقف والحركة، والعزم على المضي في الإنجاز وعدم التردد فيه، بعد أخذ المستطاع من من الأهبة، وهي شروط ومقدمات تنتمي كلها إلى مجالات سنن الآفاق والأنفس، والهداية، التي تتحرك الطاقة والفاعلية البشرية الذاتية في نطاقها[5].

وقد جاء التجسيد العملي لذلك كله في الفعل النبوي ،الذي كان يستثمر بأصالة وفعالية واطراد ،منظومات سنن التسخير الأربعة ف بناء "**دورته الانجازية**" ، الأمر الذي كان له صداه التربوي العميق في وعي قاعدة الدعوة لدور منظومات سنن التسخير الأربعة الفاعلة في الحركة الاستخلافية، ولشروط ومجالات استثمار كل منها،وما أحدثه ذلك الوعي الجذري من تحولات حاسمة على طريق أصالة وفعالية الأداء الاجتماعي لقاعدة الدعوة ،وصدى ذلك كله في انقلاب موازين المواجهة والتدافع لصالح النموذج الاجتماعي الإسلامي بصورة مطردة .وجد المجتمع التقليدي نفسه معها في حالة تجاوز وانهيار يصعب تداركها بل يستحيل ،لتفاوت وتائرفعالية أداء كل من النموذجين بصورة كبيرة جداً،بسبب شمولية استثمار الفعل الاجتماعي الإسلامي لكل منظومات سنن التسخير ،واقتصار الفعل الاجتماعي التقليدي على استثمار مفردات محدودة من هذه السنن بصورة اهتلاكية غير تكاملية .

---

(197) ابن كثير، **السيرة** 171/3؛ عرجون، **المرجع نفسه**، 160/4.

([2]) ابن هشام، **المرجع السابق**، 215/3؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 91/2.

([3]) البيهقي، **الدلائل**، 204/3؛ ابن كثير، **السيرة**، 24/3.

([4])**القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 159.

([5]) رشيد رضا، **تفسير المنار** 205/4–207–214؛ الألوسي، **روح المعاني**، 4/ 106–109؛ سيد قطب، **الظلال**،547/1.

منجزات الدعوة في هذه المرحلة:

إذا كان الهدف المحوري لهذه المرحلة، هو تحقيق المحافظة على هيبة الدعوة والدولة والمجتمع وتأمين وجودها، وضمان استمرارية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، عبر:

مواجهة آثار الصدمات المرجعية المضادة التي تتالت في هذه المرحلة.

الاستمرار في إنجاز خطة تطويق القوى المضادة وتفكيك وجودها.

تكثيف العناية بالاستيعاب الدعوي والتربوي لقاعدتي الدعوة والمجتمع

وتركيز الاهتمام بالمسألة الاجتماعية واستكمال بناء ملامح المجتمع الإسلامي

فأين وصلت حركة البلاغ والبناء والمواجهة في تحقيق هذه الأهداف، وبالتالي المحافظة على هيبة الدعوة والدولة والمجتمع وتأمين وجودها، وضمان استمرارية عملية التحول المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، من خلال تعميق الوعي العقدي، التسخيري، و الاستخلافي لدى قاعدة الدعوة؟

منجزات الدعوة على مستوى مواجهة الصدمات المرجعية المضادة: نلحظ هنا أنه على الرغم مما لحق الدعوة من خسائر بشرية معتبرة، وأحدثته الصدمات المضادة من إرباك نفسي واجتماعي وسياسي لدى قاعدة الدعوة من جهة، وانتعاش كبير في جبهات القوى المضادة من جهة أخرى، إلا أنه عليه الصلاة والسلام استطاع، **من خلال المنهج**، الذي استثمر فيه بأصالة وفعالية واطراد، سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، أن يواجه مضاعفات هذه الصدمات، ويقلص من تأثيراتها السلبية على حركة الدعوة والبناء والمواجهة قدر الإمكان.

ويبدو نجاحه على هذا المستوى، في تمكّنه من استثمار هذه الصدمات في **التعبئة النفسية المكثفة** لقاعدة الدعوة، وشحذ توثبها واستعدادها لمواجهة الأخطار المحدقة بالدعوة والدولة والمجتمع، وتسخير إمكاناتها المادية والفكرية من أجل ذلك، كما يدل على هذا استمرار اندفاع قاعدة الدعوة وتفاعلها مع حركة البلاغ والبناء والمواجهة بصورة عجيبة، عبرت عنها المشاركة في تعزيز فعالية أعمال المقاومة وشلّ النشاط المضاد للدعوة والدولة والمجتمع عقب صدمة أحد ، رغم المتاعب الجمة التي كانت تتعرض لها.

وكما حوّل عليه الصلاة والسلام آثار هذه الصدمات المضادة، إلى طاقة تعبوية كبيرة لدى قاعدة الدعوة، وشحذ لروح المقاومة والصمود و المكابدة لديها، حوّلها كذلك إلى **إمكان تربوي،** شحذ به وعيها المعرفي و السلوكي، وقدراتها الانجازية، والتحامها الاجتماعي، الذي خفف من وقع هذه الصدمات، وساعد على الاستيعاب الإيجابي لها. وهو ما تدل عليه النتائج على مستوى الأهداف الأخرى التالية، كما دلّت عليه الكثير من النماذج التطبيقية التي سقناها في إطار تأصيل **قواعد المنهج،** التي كان عليه الصلاة والسلام يستثمرها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

لقد استطاع عليه الصلاة والسلام أن يمتصّ الآثار النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية لهذه الصدمات، وأن يستوعبها في اتجاه تعميق التماسك الداخلي، وتعبئة إمكانات الدعوة والدولة والمجتمع ضد القوى المضادة بصورة فعالة، حوّلت الصدمات المرجعية المضادة، إلى نكسات متتالية، أربكت موقف القوى المضادة ودفعت بها إلى المزيد من الاضطراب والضعف والتقهقر ،والاتجاه التدريجي نحو الاندماج في المجتمع الإسلامي الجديد .

منجزات الدعوة على مستوى إنجاز خطة تطويق القوى المضادة وتفكيكها: على هذا المستوى اطردت نجاحات الدعوة كذلك، رغم ما حققته القوى المضادة من مكاسب مرحلية مؤقتة فقد استطاع عليه الصلاة والسلام أن يواصل **إحكام الطوق على القوى المضادة وتفكيكها تدريجيا،** ولكن بصورة فعالة جدا. كما يلمس ذلك في إنهاء الوجود اليهودي من مضغة الدولة تماما، والتخلص بالتالي من إحدى أخطر أجنحة القوى المضادة وقواها الفاعلة، التي كانت تعيق سرعة انتشار الدعوة، وتجسيد

نموذجها الاجتماعي البديل.. بما كانت تشكّله من ثقل فكري واقتصادي واجتماعي وسياسي كبير في استراتيجية القوى المضادة عامة .

وبإنهاء الوجود اليهودي بالمدينة، ثم **ضرب فعالية القوى النفاقية**، التي كانت تلتقي مع اليهود في مواجهة الدعوة، ويستثمر كل منهما الآخر في ذلك. فقد تمكّن عليه الصلاة والسلام من تقليص تأثير الحركة النفاقية على الدعوة والدولة والمجتمع، وتعريتها أمام الرأي العام، وشلّ فعاليتها التي كانت تتمتع بها من قبل، كما يؤكد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر الذي تحمّس لقتل زعيم المنافقين ابن أبي سلول: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**»، فقال عمر لما لاحظ أن قوم ابن أبي كانوا هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه كلما أحدث الحدث: "قد علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري"[(1)].

أما القوى الأعرابية الأخرى، فقد تمكن عليه الصلاة والسلام من كبتها وشل نشاطها، بالمبادءة والمطاردة المستمرة، وتصفية بعض مراكز قواها[(2)]، وتحييد أخرى بالموادعات[(3)]... ودفعت هذه النجاحات المتواصلة القوى المضادة إلى عمل ارتجالي مشترك، تحكّمت في إعداده هذه الضغوط المحكمة، التي فرضتها الدعوة على خصومها، وألقت فيه القوى المضادة بكل ثقلها، ولكنه فشل في نهاية المطاف في تحقيق أهدافه، وشكّل فشله ضربة قاصمة للحركة المناوئة للدعوة ونقطة انعطاف حاسمة في حركة التدافع والمواجهة ، لأنه أصبح من غير الممكن عليها أن تتجمّع مرة أخرى بهذه الكيفية[(4)]، وسيستثمر الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الصدمة بفعالية كبيرة، لتعميق تطويقها وتفكيك وجودها كل على حدة، كما عبر عن ذلك عقب صدمة الأحزاب مباشرة بقوله: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم**»[(5)] مشيراً إلى تحول جديد في استراتيجية الدعوة[(6)]، على طريق سرعة الحسم مع القوى المضادة،وإعادة استيعابها في المجتمع الإسلامي.

منجزات الدعوة على مستوى الاستيعاب الدعوي والتربوي:كما لاحظنا في الفصلين السابقين، فإن الاستيعاب الدعوي والتربوي شكلا معا عمق اهتمام الدعوة باستمرار، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعمل على احتواء قاعدة المجتمع التقليدي عبر عملية البلاغ، واستيعاب قاعدة الدعوة عبر عملية التربية، ولم يغفل عن ذلك أبدا في أية لحظة، بل ظل في مقدمة أولويات حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

فعلى مستوى الاستيعاب الدعوي: واحتواء فئات جديدة من قاعدة المجتمع التقليدي، أو تهيئتها لذلك، حققت الدعوة نتائج، وإن كانت متواضعة، إلا انها ذات قيمة كبيرة بالنسبة للمستقبل، كما سنلحظ ذلك في المرحلة القادمة، التي ستشهد حركة استيعابية ملفتة للانتباه، من حيث الأعداد الكبيرة التي التحقت بها، وهو امر يفسّر في ضوء الجدل الثقافي الخصب، والنقاش المكثّف الذي كانت الدعوة تدأب على إدارته مع المجتمع التقليدي وفي داخله باستمرار، عبر نقد مفاهيمه العقدية والفكرية، وتشريح أوضاعه الاجتماعية والسياسية، على ضوء المفاهيم الإسلامية الجديدة ونموذجها الاجتماعي والسياسي البديل، الذي ما فتئ إشعاعه يؤثر بقوة على ما حوله، ويلقي بظلاله عليه تدريجيا.

([1]) ابن هشام، **السيرة**، 3/ 305؛ ابن كثير، **السيرة**، 301/3.
([2]) أبو داود، **السنن**،كتاب صلاة الطالب، 18/2.
([3]) ابن سعد، **الطبقات**، 63/2.
([4]) عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص219.
([5]) أخرجه البخاري، في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، **(فتح الباري**، 467/7**)**.
([6]) العمري، **السيرة**، 432/2.

فحركة **الاختراق الثقافي** ظلت متواصلة بكل فعالية، كما تدل على ذلك البعثات الدعوية التي استشهد رجالها في الرجيع وبئر معونة، وبعثات الاستطلاع والمطاردة الكثيرة، التي كان عليه الصلاة والسلام يسيّرها إلى القبائل المختلفة، والصدمات المرجعية التي كانت تحدثها ضرباته المركزة للقوى المضادة..كل ذلك أحدث استقطابا مكثفا للرأي العام حول الدعوة، التي أصبحت شغل الناس الشاغل، وذلك دون شك مقدمة الاختراق الثقافي، الذي كان يحدث مفعوله الإيجابي في النفوس والعقول، ويهيّئ الناس للتفكير الجدي الموضوعي المتوازن، الذي يقودهم مع مرور الوقت، إلى اكتشاف فرادة المنظومة المنهاجية للدعوة، والاقتناع بأحقيتها في السيادة، والإحساس المتزايد بخطورة الإبطاء في تبنّيها، والتخلف عن الاستفادة منها.

وعلى مستوى الاستيعاب التربوي: لقاعدة الدعوة، تعمّق الوعي المعرفي والتوثب الروحي، والانسجام السلوكي، وتعزّز التدريب القيادي والاقتدار التسخيري بصورة مطردة، عبّر عنها الأداء الاجتماعي لقاعدة الدعوة في هذه المرحلة الصعبة، خاصة وأن تأطيرا مكثفا قام به الوحي وأنجزه الرسول عليه الصلاة والسلام عمليا في هذا الاتجاه، كما رأينا ذلك في النماذج التطبيقية الكثيرة لقواعد المنهج التي حكمت حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة.

ونكتفي هنا بتقييم القرآن لمستوى الاستيعاب التربوي الذي حققته الدعوة حتى الآن، وهو تقييم شامل لكل أبعاد العملية التربوية: العقدية، والفكرية، والروحية والسلوكية، والانجازية، كما تدل على ذلك المفاهيم المفتاحية في هذا التقييم، وهذه الشهادة البالغة الأهمية في هذا المجال. قال تعالى:﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾** ﴾[1]. وهذا التقييم جاء تعقيبا على أداء قيادة وقاعدة الدعوة في غزوة الأحزاب، وهو كما نرى يضع أمام قاعدة الدعوة نموذجًا حيًّا للمستوى الإنساني الرفيع[2]، الذي ينبغي أن ترتقي إليه تربيتها وأداؤها الرسالي في حركة الدعوة والبناء والمواجهة. ولا يخفى الأثر البالغ لدور القدوة أو النموذج في فعالية الاستيعاب التربوي، خاصة إذا كان هذا النموذج البشري من طراز الرسل الذين تجمّعت فيهم كل شروط ومقومات الكمال الإنساني والرسالي كرسول الله عليه الصلاة والسلام، الذي تجمعت فيه من الكمالات ما تفرّق في غيره من النبيين عليهم السلام[3].

فقاعدة الدعوة هنا، شحذت فعاليتها التربوية في اتجاه تمثّل المفاهيم والقيم الرسالية التي تجسّدت في حياته عليه الصلاة والسلام، وهو يدير حركة الدعوة والبناء والمواجهة، ويحقق في ذلك

([1])**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 21، 22، 23.
([2])البقاعي، **نظم الدرر**، 323/15.
([3])ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 355/7.

أعلى مستويات الأصالة والفعالية والاطراد، بما كان يتحلى به من اليقين والثقة في الله، والرغبة فيما عنده، والإخلاص في العمل، والثبات على الحق، والاستعلاء الواثق على الباطل، واحترام سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، والحرص المستمر على مطابقة جهده في البلاغ والبناء والمواجهة مع ذلك قدر الإمكان، كما لمست ذلك قاعدة الدعوة وهي تعيش معه حركة التحول لحظة بلحظة، وتجتهد في تمثّل هذه القيم أسوة به وتوجيه وإشراف مباشر منه عليه الصلاة والسلام.

ويلحظ في التقييم القرآني -بعد تعميق الوعي بضرورة استمرا شحذ الفعالية التربوية الذاتية لقاعدة الدعوة، والارتقاء بها إلى مستويات رفيعة من الأصالة والفعالية والاطراد باستمرار- تنويهه بالمستوى العالي الذي حققه الاستيعاب التربوي فعلا على هذا الطريق، كما يدل على ذلك إبرازه لنواحي النضج العقدي والفكري والسلوكي والانجازي.. في موقف قاعدة الدعوة من تحديات الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة وما سبقها، من خلال تحليلها وتفسيرها الصحيح للموقف يوم الأحزاب، وهو ما انعكس على أدائها السلوكي والانجازي، وطبعه بالأصالة والفعالية والاطراد بعد ذلك.

فرغم ما اتسم به الوضع من تعقد بالغ الخطورة، وتزلزل الناس يومئذ[1]، إلا أن ذلك كله تم استيعابه في إطار نضج وعي قاعدة الدعوة بسنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، حيث دلّ قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[2] على تكامل النضج التربوي فعلا لدى قاعدة الدعوة مما مكّنها من تحليل الموقف وتفسيره ومواجهته في ضوء الاستثمار الشمولي الفعال لهذه السنن.

ويدل على تكامل هذا النضج التربوي، سواء على المستوى العقدي أو الفكري أو الروحي أو السلوكي أو الانجازي، هذه القدرة على استصحاب وتعدية السنن في تحليل وتفسير ومواجهة التحديات، كما نلمس ذلك على سبيل المثال في استثمار ما سبق تأسيسه من الوعي التسخيري في المراحل السابقة، وتفسير الأحداث ومواجهتها في ضوئه[3]، كقوله تعالى في سورة البقرة:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[4]، الذي ألهم قاعدة الدعوة مقاييس التحليل والتفسير السليم للوضع، واتخاذ الموقف الصحيح منه[5].

ولا شك أن هذا مستوى رفيع من النضج التربوي الذي كانت الدعوة تستهدف تحقيقه لدى

([1]) الشوكاني، **فتح القدير**، 330/4.
([2])**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب :22
([3]) البقاعي، **نظم الدرر**، 325/15.
([4]) الآية: 212
([5]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 304/21.

قاعدة الدعوة، وهو ما بلغ مستويات أرفع لدى فئات منها كما يدل على ذلك قوله تعالى بعد:﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]. أي كانوا في مستوى المسؤوليات التي تفرضها حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ووفوا بالتزاماتهم تجاه ذلك كله، ولم تؤثر فيهم جسامة التحديات وضراوتها، بل طاولوها وطالوها، بما كان لديهم من وعي عقدي مكين. ووعي تسخيري واستخلافي متجدد، مكّنهم من تجاوز عتبات الذاتية إلى قيم الموضوعية والرسالية.. في علاقتهم بالدعوة والدولة والمجتمع، وهو الهدف الأساس الذي كانت الدعوة تسعى إلى تحقيقه على مستوى قاعدة الدعوة، أي أن تهيئ للدعوة والدولة والمجتمع **قاعدة قيادية ذات مواصفات رسالية،** تضطلع بمهام بناء النموذج الاجتماعي الإسلامي البديل، بصورة أصيلة وفعالة ومطردة.

منجزات الدعوة على مستوى تركيز الاهتمام بالمسألة الاجتماعية: على هذا المستوى تحققت كذلك نتائج هامة، سواء على صعيد التشريع أو التجسيد العملي لهذه التشريعات، فقد تواصلت عملية ضبط وتنظيم الحياة الاجتماعية، في أبعادها الفردية والأسرية، والسياسية والاقتصادية، والإنسانية العامة، وأعطى الوحي للدولة والمجتمع منظومة تشريعة هامة؛ فقهية أو قانونيةو أخلاقية، تستوعب حركتهما وتستجيب لحاجاتهما الفكرية والروحية والاجتماعية، في أبعادها السابقة كلها، كما يلحظ ذلك على سبيل المثال في الأحكام والتوجيهات الأخلاقية الكثيرة، التي شملت الحياة الفردية، والحياة الأسرية، والحياة السياسية، والحياة المعيشية عامة* ، فاستوعبت العلاقات الزواجية في مراحلها ومستوياتها المختلفة، عبر تشريعات الزواج، وحقوق الزوجية، وتدابير مواجهة التوتر الأسري، وامتدت إلى مراحل فكّ رباط الزوجية، لتضع له التدابير التي تحتوي آثاره السلبية على كل أطراف العلاقات الزواجية.

ومثل ذلك نراه في الموقف من العلاقات الاجتماعية العامة، سواء تعلق الأمر بالعلاقة مع الدعوة أو الدولة أو المجتمع، ففي كل مجال من هذه المجالات، أخذ الضبط الأخلاقي، والتنظيم الاجتماعي، يستوعب حقوق وواجبات كل طرف في هذه العلاقة، فكثر الحديث عن الصدق والإحسان والشكر، والتبيّن، والطاعة، والعمل الصالح، والتوبة، والبذل الاجتماعي، والعدل القانوني والاجتماعي ،والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، والتآخي، والتشاور... والتحذير من الكذب والخيانة، والبطر، والفساد، والبخل، والفتنة، والعصيان، وازدواجية السلوك، والظلم[2] ... وأخذ ذلك كله طابعاً تشريعيا، مستوعبا لكل مستويات التدرج نحو الكمال الإنساني، بدءا من الانتهاء عن المحرمات واجتناب المكروهات، وأداء الفرائض والواجبات، والترقي في الفضائل والمكرومات، كما نبّه إلى ذلك حديث الولاية الشهير[3].

وقد أخذت هذه التشريعات طريقها إلى الحياة الاجتماعية عبر تحريم الخمر، وإنهاء التبني،

([1])**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب:23

* ينظر ما ورد في سور: النساء، النور، الأحزاب، الحشر، المنافقون، التي نزلت آيات كثيرة منها في هذه المرحلة.

([2]) ابن العربي، **احكام القرآن**، 4/90.

([3]) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الرقاق، باب التواضع،(**فتح الباري**، 11/348).

وفرض الحجاب، وتوزيع الثروة، وتطبيق الشورى في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، وإقرار حدود القذف والزنا، ورعاية الفئات الضعيفة في المجتمع، كالأيتام والفقراء والمساكين وذوي الحاجات عموما، وتطهير الجو الاجتماعي من كل عوامل التوتر، وإحاطة الأسرة بسياج من الضمانات التي تحفظ تماسكها، وروحانية الحياة فيها، لما لذلك من آثار إيجابية على الحياة الاجتماعية العامة.

وعبر هذه العناية المزدوجة[1] بالمسألة الاجتماعية، أخذ النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد، يستكمل أبعاد صورته النموذجية، ويستجمع من خلال ذلك عناصر قوته، التي ستمنح حركة البلاغ والبناء والمواجهة فعاليتها القصوى في المراحل القادمة من مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، عندما يأخذ المجتمع التقليدي في الانفتاح على المجتمع الإسلامي الجديد ، الذي سيؤثر فيه بصورة عميقة وشاملة، تستوعبه وتقيد تشكيله بسرعة.

موقع هذه المنجزات من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع:

إن كل هذه المنجزات، تؤكد أن حركة التحول التي تستهدفها الدعوة، تسير نحو أهدافها بثبات واطراد، كما يدل على ذلك تكامل جهود التغيير والبناء، سواء:

- **على مستوى بناء القاعدة القيادية:** التي أخذ تكوينها العقدي والفكري والروحي والسلوكي، واقتدارها الانجازي أو التسخيري والاستخلافي، يتعمّق ويتأصل، كما لاحظنا ذلك في أدائها الاجتماعي الفعال في هذه المرحلة، واستعصائها على التحديات الكثيفة التي واجهتها الدعوة والدولة والمجتمع فيها.

- أو **على مستوى تعمّق الأسس والبنى القاعدية للدولة والمجتمع:** الفكرية منها والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... خاصة بعد تحرير مضغة الدولة والمجتمع من القوى المناوئة، وتعمّق مسيرة التحول والتلاحم الاجتماعي، التي منحت النموذج الاجتماعي الإسلامي الوليد، قوة دفع وإشعاع ذاتية آخذة في القوة والتعاظم.

- أو **على مستوى تأمين الدعوة والدولة والمجتمع:** داخليا وخارجيا، كما يلمس ذلك في تفكيك القوى المضادة وشلّ فعاليتها الاجتماعية بصورة جدية في نهاية هذه المرحلة، عقب نكسة الأحزاب، التي ستدخل المواجهة بعدها مرحلة جديدة تتحرك فيها الأحداث لصالح الدعوة بشكل مطرد.

فالدعوة وهي تنهي مرحلة هامة من مسيرتها،وتدخل مرحلة جديدة في هذه المسيرة ،استطاعت أن تنجز أهداف المرحلة الأولى بامتياز حيث تمكنت من تحقيق تنظيم مضغة الدولة والمجتمع ،وتأمين وجودها ،والمحافظة على هيبتها بعد الصدمات المضادة الكثيرة التي تعرضت لها في السنتين الأخيرتين من مرحلتها الأولى ،وأن تهيئ جانباً هاماً من الاساس المادي والبشري والقانوني والسياسي... الذي سترتكز عليه المرحلة التالية لتنجز بقية أهداف الدعوة بفعالية أعظم.

وقد رأينا من خلال تتبعنا لبعض قواعد المنهج النبوي في اللدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، الدور الحيوي الحاسم للمنهج – المبني على وعي عقدي وتسخيري واستخلافي عميق – في كل ما تحقق من مكاسب واطرد من نجاحات. إذ مهما حلّل الإنسان من مواقف وأفعال نبوية ؛تربوية وسياسية واجتماعية ..فإنه سيصل دائما إلى نتيجة جوهرية لا وتتغير ولا تتأخر، وهي أن "الدورة الانجازية" لفعله عليه الصلاة والسلام كانت تستوفي بإستمرار، استثمار كل منظومات سنن التسخير في مواجهة تحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المنهيمنة على الصيرورة الاستخلافية، الأمر الذي

([1]) أي التشريعية والتطبيقية أو العملية معاً.

كان يمنح جهده المزيد من الاصالة والفعالية وإمكانية الاطراد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثالث
تحقيق الاعتراف بالدولة وتوطيد سلطانها

تمهيد:

إذا كانت الآفاق الحضارية للدعوة الإسلامية تتمحور باستمرار حول تأسيس وتعميق الــوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى الإنسان،وتحويل ذلك، عبر حركة الدعوة والبناء والمواجهة، إلى دولة ومجتمع وحضارة.. كما رأينا ذلك في الباب الأول.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الدعوة قد قطعت شوطا كبيرا في إنجاز الهدفين الإستراتجيين لهــا،

حيث رأينا كيف تمكّنت في السنوات الخمس الماضية أي في المرحلة الأولى من الشروع المباشر في بناء الدولة و المجتمع بعد الهجرة، عبر تنظم مضغة الدولة والمجتمع، وتأمين وجودها، والمحافظة على هيبتها ومكاسبها البشرية والمادية والمعنوية، وتفكيك جوانب كبيرة من المنظومة العقدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية...للمجتمع التقليدي، أن توجد واقعاً فكرياً ونفسياً واجتماعياً وسياسياً جديداً، ما فتئ وجوده يمتدّ ويرسخ على حساب وجود النموذج الاجتماعي التقليدي. فالدعوة نجحت خلال الفترة الخماسية الأولى، أن تحقق التوازن الإستراتيجي بينها وبين القوى المضادة لها، التي حاولت عبر حصار الأحزاب تحويل ميزان القوى لصالحها، فأخفقت في ذلك وانكسرت جهودها على صخرة تماسك الإستراتيجية النبوية، التي ستدخل مرحلة جديدة، تتمحور فيها جهود الدعوة والبناء والمواجهة حول تحقيق الاعتراف بالدولة وتوطيد سلطانها، وتفكيك المجتمع التقليدي ومنظومته الثقافية بصفة كلية. وهو ما سنراه في الباب الثالث من هذه الدراسة والذي نقسمه إلى فصلين:

نتناول في الأول مرحلة تحقيق الاعتراف بالدولة. والتي تمتد زمنياً من نهاية حصار الأحزاب وتصفية قريظة إلى فتح مكة. حيث تركزت جهود الدعوة في هذه المرحلة على استثمار نكسة الأحزاب ومكاسب المرحلة السابقة عامة، في مضاعفة جهود الانفتاح المدروس على المجتمع التقليدي وقواه الاجتماعية والسياسية المختلفة والدفع بها نحو الانفتاح على الدعوة والدولة والمجتمع، وتهيئتها نفسياً وفكرياً وسياسياً للاعتراف بالدولة الإسلامية كأمر واقع في المرحلة الأوللى واستثمار ذلك في استيعاب مضغة الصراع، وتدعيم الاعتراف بالعوة والدولة والاندماج في المجتمع الإسلامي الجديد في مرحلة لاحقة.

ونتناول في الفصل الثاني مرحلة توطيد سلطان الدولة وبسط نفوذها السياسي إلى كامل منطقة الجزيرة العربية. ويستغرق ذلك الفترة الزمنية الممتدة من فتح مكة حتى وفاته عليه الصلاة والسلام ومبايعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة بعده مباشرة، لتتواصل حركة الدعوة والبناء والمواجهة بنفس الحيوية والعنفوان لاستكمال بناء الدولة والمجتمع وفتح الطريق أمام الحضارة الإسلامية الجديدة...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول
مرحلة تحقيق الاعتراف بالدولة

الإطار الزماني والمكاني للمرحلة:

الإطار الزماني:

يمتد الإطار الزماني لهذه المرحلة قرابة ثلاث سنوات، يبدأ من نهاية حصار الأحزاب للمدينة وتصفية وجود بني قريظة منها في النصف الثاني من ذي القعدة سنة خمس للهجرة[1]، وينتهي بفتح

---

(1) ابن كثير، **السيرة**، 3/250.

مكة وخروج الرسول عليه الصلاة والسلام منها في 6شوال سنة ثمان من الهجرة[1].

ومع أنه يمكن اعتبار صلح الحديبية نهاية لمرحلة وبداية أخرى في مسيرة الدعوة حتى فتح مكة، إلا أننا رأينا -لمبررات منهجية- أن نعتبر فتح مكة نهاية لهذه المرحلة، لتلافي بعض التكرار والتحكم في حجم الرسالة، خاصة وأن غرضنا هنا هو استخلاص قواعد المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة، وليس التأريخ فقط لتطور مسار الدعوة والدولة والمجتمع، وهو ما يجعل هذا التجاوز الشكلي لمنعطف الحديبية، لا يؤثر في مضمون البحث ولا في منهجيته.

الإطار المكاني:

بفتح خيبر، وعمرة القضاء، ووصول المسلمين إلى مؤتة على تخوم الشام، وفتح مكة أخيراً،وإذعان وخضوع قبائل كثيرة بين مكة والمدينة خاصة، وشمال المدينة عامة، اتضح الإطار المكاني للدولة.

أهداف الدعوة في هذه المرحلة:

ستتمحور حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، حول هدف أساسي هو: تحقيق الاعتراف بالدولة وفتح آفاق الامتداد أمام الدعوة ونموذجها الاجتماعي. وقد اقتضى تحقيق ذلك، الحركة المتوازنة على ثلاثة محاور كبرى، شكلت معاً الأهداف العملية التي تركزت عليها اهتمامات حركة الدعوة والبناء والمواجهة وهي:

- استثمار صدمة الأحزاب المرجعية في تعميق تفكيك واحتواء القوى المضادة.
- تكثيف العناية بالاستيعاب الدعوي واختراق المجتمع التقليدي.
- تكثيف العناية بالتحول التربوي والاجتماعي.

استثمار صدمة الأحزاب في تعميق تفكيك واحتواء القوى المضادة: لقد أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام عمق وشمول الصدمة التي أصابت القوى المضادة، بانكسار تحالف الأحزاب وفشله الذريع في تحقيق أهدافه، خاصة بعد الإرباك الذي أحدثته الخلافات التي وقعت بين بعض قواه، والمصير الخطير الذي آل إليه أمر بني قريظة نتيجة لذلك، فقدّر عليه الصلاة والسلام أن القوى المضادة لن تقوى على استجماع قواها وإنجاز عمل مشترك مضاد إلا بعد فترة، بعد الجهد النفسي والسياسي والاجتماعي الذي استنفدته في تحضير عملها المشترك الأول.

كما أدرك عليه الصلاة والسلام من جهة أخرى، أن موقف الدعوة والدولة والمجتمع، أصبح أكثر قوة وتماسكا، وقدرة على استيعاب أهداف وتحديات حركة البلاغ والبناء والمواجهة بفعالية متزايدة بعد النكسة التي منيت بها القوى المضادة في المرحلة السابقة. فانطلق لإنجاز المراحل التالية من استراتيجية الدعوة[2]، كما عبر عن ذلك عقب انصراف الأحزاب بقوله: "**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**"[3].

وقد كان عليه الصلاة والسلام حريصا على استثمار هذه الصدمة النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية بسرعة، وعدم إعطاء الفرصة للقوى المضادة لأخذ نفسها، واستعادة توازنها، بل عمل على تعميق ارتباك موقفها، وإضعافه باستمرار، سواء تعلق الأمر بمضغة المواجهة وهي قريش، أو ببقية القوى الفاعلة. كيهود خيبر ومختلف القبائل الأخرى التي لم تستوعب الموقف بعد. واقتضى منه تحقيق

---

(1) ابن حجر، **فتح الباري**،621/7.

(2) عماد الدين خليل، **دارسة في السيرة**، ص223؛ العمري، **السيرة**، 432/2.

(3) ابن كثير، **السيرة**، 221/3.

ذلك كله، مواصلة إحكام الحصار على القوى المضادة، وتفكيك كل منها على حدة، عن طريق الاحتواء والتحييد والمواجهة الوقائية.

ولا نشك أن تحقيق هذا الهدف يساعد بصورة حاسمة في تحقيق الهدف المحوري للمرحلة، وهو الاعتراف بالدولة وفتح آفاق الامتداد والإشعاع أمام الدعوة ونموذجها الاجتماعي؛ لأن ذلك يزيل العوائق أمام حركة البلاغ ويخلّي بينها وبين الرأي العام، الذي ظل فترة من الزمن أسيراً للحرب النفسية، والسياسات الدعائية المكثفة التي انتهجتها قيادات القوى المضادة ضد الدعوة والدولة والمجتمع.

تكثيف عملية الاستيعاب الدعوي واختراق المجتمع التقليدي: وكما سبق أن رأينا، فإن الاستيعاب الدعوي شكّل محورا أساسيا في السياسة الخارجية للدعوة والدولة والمجتمع، وظل يحظى باهتمام متزايد، تجاوبا مع التوجهات العالمية والإنسانية للإسلام من الناحية المبدئية، واستثماراً لآلية الدعوة في تفكيك واحتواء وإعادة بناء المجتمع التقليدي من الناحية السياسية أو الإجرائية العامة.

وكما كان الرسول عليه الصلاة والسلام واعيا بأهمية استثمار صدمة الأحزاب المرجعية، في **تفكيك واحتواء القوى المضادة سياسيا**، فإنه كان على وعي أعمق بأهمية استثمارها في تحقيق الاستيعاب الدعوي **وتعميق الاختراق الثقافي للنموذج الاجتماعي التقليدي**،باعتبار ذلك هو الهدف الجوهري لحركة الدعوة من جهة والضمانة الأساسية لحماية الاختراق السياسي والمحافظة عليه من جهة أخرى.

من هذه المنطلقات، شكّل الاستيعاب الدعوي والاختراق الثقافي للمجتمع التقليدي، هدفا حيويًّا مباشرا للدعوة في هذه المرحلة كذلك، بل وتمت العناية الكبيرة به وبشروط تحقيقه، وهي توفير الاستقرار، وضمان حرية الاحتكاك بين النموذجين الاجتماعيين التقليدي والإسلامي وانفتاحهما على بعضهما، ليقينه عليه الصلاة والسلام أن ذلك سيكون لصالح الدعوة[1]، لأن قاعدة المجتمع التقليدي عامة، بل وصفوته كذلك، سيكتشفان- في ظل الحوار والجدل الثقافي الخصب المدعم بنموذجين اجتماعيين متباينين- حقيقة الإسلام وفرادة منظومته العقدية والفكرية، ويدركان أن المستقبل لنموذجها الاجتماعي. وأن المنظومة العقدية والفكرية التقليدية ونموذجها الاجتماعي آيلان للإضمحلال إن آجلا أم عاجلا.

وعندما تكتشف قاعدة المجتمع التقليدي وصفوته، حقيقة المنظومتين المنهاجيتين، وتدرك مستقبل نموذجيهما الاجتماعيين، تنهار في داخلها حوافز المقاومة، وتفقد حركة المواجهة عوامل تجدّدها وإمكانية استمراريتها[2]، ويتجه الاهتمام نحو تجاوز حواجز الانتقال والتحول إلى صفوف المجتمع الجديد، وهو ما كانت حركة الدعوة والبناء والمواجهة تهيئه، وتوفر شروطه النفسية والسياسية والاجتماعية باستمرار، كما سنرى ذلك في قواعد المنهج في هذه المرحلة.

وبإنجاز الدعوة لهذا الهدف تكون قد أنجزت أقوى وأفعل شروط تحقيق، ليس الاعتراف بالدولة فحسب، بل تمهيد سبيل احتواء المجتمع التقليدي كله، وتجنيده لخدمة الأهداف الإنسانية الكبرى للتحول الحضاري الذي تسعى الدعوة الإسلامية إلى تحقيقه في الحياة البشرية.

تكثيف العناية بالتحول التربوي والاجتماعي:لم يغفل الرسول عليه الصلاة والسلام عن العناية المركّزة بالتحول التربوي والاجتماعي في أية مرحلة من مراحل الدعوة والبناء والمواجهة، بل لوحظ

---

(1) ابن كثير، **السيرة**، 313/3.

(2) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الحج، باب استحباب الرجل في الطواف، (**شرح النووي**، 9/ 13).

تزايد وتكثف هذه العناية مع مرور الزمن، لأن هذا التحول التربوي والاجتماعي، هو مصب حركة التغيير ابتداء وانتهاء، فيه يتجسّد ويتجلّى مدى عمق وشمولية استيعاب قاعدة الدعوة للوعي العقدي التسخيري والاستخلافي، واستثماره بأصالة وفعالية واطراد، في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وبناء نموذج استخلافي متوازن، تستجيب أفكاره، ومشاريعه، ومؤسساته، ومناهج إنجازه... لطموحات الإنسان الاجتماعية، وأشواقه الروحية، وتطلعاته الفكرية، وتلبّي احتياجات عملية الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.. التي تشرط ذلك كله وتتحكم فيه بصورة حاسمة.

وقد اشتدت العناية بهذا البعد المحوري الحيوي في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، في هذه المرحلة والتي تليها بالخصوص، لأن عملية الاستيعاب الدعوي أخذت تستقطب أعداداً كبيرة من الناس الذين يحتاجون إلى تأهيل عقدي وفكري وروحي وسلوكي، وتكفل وإدماج إجتماعي، يوفر طاقاتهم لتفعيل حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وحمايتها من الاهتلاك والهدر والتمييع، وضمان اطراد أصالتها وفعاليتها وتجدّد حيويتها باستمرار.

ولم يتأخر وعي واهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام لمواكبة تحولات حركة التغيير، بل كان يتميّز باستمرار بالريادة والاستشراف وتخطيط المستقبل، فأولى عناية كبيرة لتعميق التحول التربوي والاجتماعي، عبر تكثيف الاهتمام بالإعداد المعرفي والروحي والسلوكي، والقيادي أو التسخيري لقاعدة الدعوة من ناحية، ومنح الدعوة والدولة والمجتمع منظومة تشريعية، أخلاقية وقانونية، تستوعب احتياجات كل منها وتؤطر مسيرتها، بما يحقق فعاليتها ويضمن أصالتها واطراد حيويتها من ناحية أخرى، وتجسيد ذلك كله في نظام علائقي شامل ومترابط ومحكم، ومؤسسات مرنة ومنضبطة ترعى ذلك وتحقق أهدافه من ناحية ثالثة هذه بصفة عامة أهداف الدعوة وأولوياتها الكبرى في هذه المرحلة، وهي كما نرى أهداف شاملة ومتكاملة، يؤدي تحقيقها إلى تدعيم موقف الدعوة وتعزيز موقفها في معترك التدافع بين المجتمع الإسلامي والمجتمع التقليدي.

تحديات الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة: وسنركز هنا على ثلاثة نماذج من التحديات التي واجهتها حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، وكان بإمكانها أن تؤثر بشكل كبير على أصالة الأداء وفعاليته واطراد حيويته، ومن ثم على تحقيق أهداف المرحلة خاصة والدعوة عامة، وهي:

- تحدي الآثار المعاكسة لصدمة الأحزاب المرجعية.
- تحدي استرخاء قاعدة الدعوة وتراجع فعاليتها الرسالية.
- تحدي مضاعفات انفتاح النموذجين التقليدي والإسلامي على بعضهما.

الآثار المعاكسة لصدمة الأحزاب المرجعية: كما سبق أن رأينا، فإنه رغم كون هزيمة الأحزاب وما رافقها من تصفية لآخر جيوب القوى المضادة بالمدينة، ممثلة في بني قريظة، شكّلت صدمة مرجعية ذات آثار نفسية وفكرية واجتماعية وسياسية خطيرة بالنسبة لموقف القوى المضادة ومستقبلها، إلا أن ذلك كان بإمكانه أن يتحول إلى حافز كبير يشحذ روح المقاومة والصمود والتحدي لديها، ويستنفر قواها ضد الدعوة والدولة والمجتمع مجددا وكما هو معروف، فإن الأزمة تلد الهمة، وأن البنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها، كما تستيقظ وهي تواجه الخطر، وتستجمع كل قواها لتواجهه[1].

ومن يتتبع سياقات تطور حركة المواجهة بين النموذج الاجتماعي التقليدي والنموذج

---

(1) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2425/4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاجتماعي الإسلامي الجديد يرى فعلا كيف عمّقت صدمة الأحزاب المرجعية، إحساس القوى المضادة الحادّ بالخطر، ودفعت بها إلى التفكير الجدّي في حماية مستقبلها ومصالحها المهدّدة، سواء تعلق الأمر بمضغة الصراع -قريش- أو بالقوى النفاقية، أو ببقية القبائل الأخرى التي كانت تعيش على الحياد وتنتظر نتائج المواجهة التي كانت تقدر بأنها ستكون لصالح القوى المضادة[1].

فهذه القوى جميعا، استشعرت خطورة الموقف بعد نكسة الأحزاب ومصير قريظة، وتهيأت لدى كل فئة منها دوافع وأسباب أخذ الأمر بجدية، خاصة بعد تواصل ضربات الدعوة لها من جهة، وتأثيرات مجريات غزوة مؤتة من جهة أخرى، التي شجعت القوى المضادة أو بعضها على الأقل على مواصلة المواجهة للدعوة والدولة والمجتمع، كما يدل على ذلك موقف قضاعة[2] وقريش[3] وقيس[4].

وبالعودة إلى تحليل مجمل الأعمال العسكرية -بالخصوص- التي قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة، والتي تجاوزت "ثلاثين" عملا[5]، نصل إلى نتيجة هامة في هذا الاتجاه وهي أن القوى المضادة شعرت فعلا بالخطر، وراحت تستنفر قواها ضد الدعوة، وخرج جزء كبير منها من وضعية الحياد واللامبالاة التي كان يعيشها في المراحل السابقة، ليلقي بثقله في حركة المواجهة، كما تدل على ذلك كثافة الأعمال المضادة للدعوة في هذه المرحلة، من تحليل أسباب السرايا الكثيرة التي سيّرها عليه الصلاة والسلام لمواجهة هذه التحركات المناوئة للدعوة والدولة والمجتمع.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى موقف غطفان ويهود خيبر كقوتين كبيرتين، وكيف حاولتا تنسيق جهودهما ضد الدعوة، وما كان يمكن أن يحدث من استقطاب لبقية القوى المضادة لو قدّر لحركتهما أن تنجح، وهو ما كان عليه الصلاة والسلام يدرك خطورته، كما يدل على ذلك حرصه الشديد على متابعة الأوضاع، والتحكم السريع في مجرياتها قدر الإمكان، كما سنرى في قواعد المنهج في هذه المرحلة.

ولا تخفى تأثيرات هذا التعبّأ المستمر والاستنفار الشامل للقوى المضادة، على حركة البلاغ والبناء والمواجهة، لأن ذلك يكلفها المزيد من الجهد والوقت والإمكانات، ويهدر جزءا عزيزا من **«ميزانيتها التسخيرية»** في مواجهة هذه المناوشات زيادة على أنه يحرم حركة البلاغ بالخصوص، من أجواء الأمان والاستقرار التي تحتاجها عملية التواصل والحوار والجدل الثقافي الخصب، الذي كانت الدعوة تحرص على الاستغناء به في علاقتها بالمجتمع التقليدي لتحقيق الاختراق الثقافي له، ليقينه عليه الصلاة والسلام أن خطاب العقل والروح الذي تتميز به الدعوة، لا تلائمه إلا أجواء الاستقرار التي تساعد الناس على التفكير بموضوعية في آفاق الدعوة، ومحاكمة أو على الأقل معايرة قيم وأنظمة النموذج الاجتماعي التقليدي إلى قيم وأنظمة النموذج الاجتماعي الإسلامي المنافس له.

والقوى المضادة في توثبها المستمر ضد الدعوة والدولة والمجتمع، كانت تعي هذه الحقيقة، وتدرك جيدًا خطورة تمكّن الدعوة من الانفتاح على قاعدة المجتمع التقليدي، بل وعلى صفوته كذلك، لذلك دأبت صفوتها بالخصوص على مواجهة أية إمكانية للانفتاح والتواصل والجدل الثقافي الخصب بين النموذجين الاجتماعيين التقليدي والإسلامي، كما نلاحظ ذلك على سبيل المثال في موقف قريش من المسلمين في عمرة القضاء، وكيف حرصت صفوتها السياسية، على عزل قاعدة المجتمع عن أي

---

(1) عون، **نشأة الدولة الإسلامية**، ص56.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 398/4.
(3)البيهقي، **المرجع نفسه**، 303/4.
(4) شيت خطاب، **الرسول القائد**، ص263-322.
(5) شيت خطاب، **المرجع نفسه**، ص263-322.

احتكاك بينها وبين قاعدة الدعوة، بتكثيف الإشاعة وتشويه صورة النموذج الاجتماعي الإسلامي، وبإبعاد الناس عن الاقتراب من المسلمين، والذهاب في ذلك إلى حدّ الخروج من مكة في فترة وجود الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه بها[1].

فهذا الموقف بالإضافة إلى أنه يعيق عملية البلاغ، بل ويشلّ فعاليتها، كما رأينا في المرحلة السابقة، فإنه يعمل على إبقاء بل وإذكاء روح العداوة والتوثب ضد الدعوة والدولة والمجتمع، منهكا المزيد من إمكاناتها التسخيرية، البشرية والمادية والمعنوية. لذلك كان على حركة الدعوة والبناء والمواجهة أن تحسب لهذا التحدي حسابه، وأن تواجهه بدقة متناهية. تضمن التوازن بين تعميق تفكيك القوى المضادة وشلّ فعاليتها من جهة، والحيلولة بينها وبين إمكانية استثمار إحساسها بالخطر، في الاستنفار ضد الدعوة والدولة والمجتمع من جهة أخرى. وهي معادلة دقيقة جدًّا تحتاج إلى وعي تسخيري واستخلافي شامل ومتوازن.

إسترخاء قاعدة الدعوة وتراجع فعاليتها الرسالية:ونقصد باسترخاء قاعدة الدعوة هنا: ضعف وفتور توثبها الجهادي، وتنامي الرغبة في الخلود إلى قليل من الراحة والأمان لديها، بعد طول عناء ومكابدة مسترسلة، كان لها أثر عميق في أوضاعها النفسية والاجتماعية.

فقاعدة الدعوة عاشت قرابة عقدين من الزمن في مكابدة مسترسلة، وخاصة في المراحل الأولى من الشروع الفعلي في بناء النموذج الاجتماعي الإسلامي بالمدينة، حيث تكالبت عليها القوى المضادة، وتكاملت جهودها وتوالت ضدها[2]، وهو ما أحسّ الناس بثقله الكبير مبكرا، كما نلمس ذلك من قول بعضهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام "يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن ونضع عنا السلاح"؟ وكانوا مكثوا مدة لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة**»[3].

وقد رأينا في المرحلة السابقة فصولا من هذه المكابدة، بدءًا بصدمة أحد المضادة، وما أحدثته من إرباك نفسي وفكري عميق لدى قاعدة الدعوة، ومرورًا بفاجعتي الرجيع وبئر معونة، وانتهاء بحصار الأحزاب المزلزل. فإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كانت تحتاجه مواجهة هذه الإرباكات من مضاعفة الجهد، ورفع وتائر المكابدة، واستنفار إمكانات الدعوة، أدركنا فعلا الأبعاد النفسية والاجتماعية والسياسية لهذه الشكوى، وكيف كانت قاعدة الدعوة تعيش ظروفا صعبة، كان الصراع الفكري والجدل الثقافي المضاد، والعوز الاجتماعي.. يزيدها حدّة وقساوة.

وفي القرآن كما في السنة إشارة إلى انعكاسات هذه المكابدات المسترسلة على مواقف فئات من قاعدة الدعوة، كما نلمس ذلك على سبيل المثال في هذا الموقف الذي سجّل فيه القرآن رغبتها في السلم والاستراحة، وتوفير إمكاناتها المادية[4] قال تعالى: **[فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ. إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ. إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ. هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا**

---

(1) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب الحج، باب استحباب الرجل في الطواف، (**شرح النووي**،13/9)؛ ابن كثير، **السيرة**؛ 433/3.

(2) الحاكم، **المستدرك**، 401/2.

(3) البيهقي، **الدلائل**، 7/3؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 296/19.

(4) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 130/26.

يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ] [(1)].

إذا أخذنا كل هذه المعطيات بعين الاعتبار، واستحضرنا الآفاق التي فتحتها انتصارات الأحزاب وقريظة والحديبية وعمرة القضاء وخيبر.. أمام الدعوة والدولة والمجتمع، أدركنا مدى إمكانية جنوح فئات من قاعدة الدعوة إلى الاسترخاء شيئا فشيئا، مما يؤدي في النهاية إلى تراجع فعاليتها الرسالية، وفقدان حركة البلاغ والبناء والمواجهة لجزء عزيز من «**ميزانيتها التسخيرية**».

فإحساس قاعدة الدعوة بتقلص الأخطار، وضعف شوكة القوى المضادة، يؤدي إلى تقلص روح المكابدة، وتراجع الطاقة النفسية الفاعلة في ذلك لديها، وهو ما يؤثر على اندفاعها الرسالي في عمومه، سواء تعلق الأمر بمساهمتها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، أو بفعالية استيعابها التربوي، وتمثلها الشمولي المتكامل العميق لقيم الرسالة ومفاهيمها، وهو ما لفتت إليه الآيات السابقة، وحذّرت من أخطاره، لأن الوهن والضعف والاسترخاء، إذا دبت بواعثه وأسبابه في النفس، ولم تجد مقاومة جادّة، لم يتوقف تأثيرها السلبي عند حدّ[(2)]، بل يظل يدفع بصاحبه خارج دوائر الأولويات، حتى يقذف به على هامش الواجبات الرسالية، ويعمّق تمحور اهتماماته وهمومه حول عالمه الذاتي وطموحاته الشخصية المحدودة.

وبالإضافة إلى هذه التأثيرات السلبية لخطر استرخاء قاعدة الدعوة وتراجع فعاليتها الرسالية، نشير هنا إلى تأثيره على عملية الاستيعاب الدعوي كحركة استقطاب واحتواء لقاعدة المجتمع التقليدي وإدماج لها في المجتمع الإسلامي الجديد، إذ إن هذه القاعدة عندما تلاحظ استرخاء قاعدة الدعوة، وتلمس ضعف نفسَها الرسالي، تتأثر بذلك سلبا ويسري في نفسها الوهن، مما تكون له عواقب سيئة جدّا على أصالة النموذج الاجتماعي الإسلامي وفعالية أدائه الفكري والاجتماعي والسياسي، وعلى اطراد حيوية مسيرته.

فحركة الدعوة والبناء والمواجهة، ستواجه في هذه المرحلة والتي تليها، هذا التحدي الخطير فعلا، الذي سينعكس على بقية التحديات الأخرى كذلك إن لم تتم مواجهته بشمول وعمق وتوازن، يستمدّ أصالته وفعاليته من عمق وشمولية الوعي بسنن التسخير والاستخلاف. وما أكثر ما تؤتى حركات التغيير من هذه الناحية الخفيّة، التي لا تدرك تأثيراتها الخطيرة إلا بعد استحكام أمرها، وتحولها إلى واقع فكري ونفسي وسلوكي واجتماعي، تنهدر وتتبدّد عليه أجزاء كبيرة من «**الميزانية التسخيرية**» للدعوة والدولة والمجتمع.

وقد اعتبر القرآن هذا هلاكًا للأفراد والمجتمع معا[(3)]، كما نلمس ذلك في قوله تعالى: [**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**][(4)]، تعقيبا على موقف بعض الأنصار الذين أخذت رغبة الاهتمام بشؤونهم الخاصة تراودهم، عندما لاحظوا كثرة ناصري الإسلام وإعزاز الله له، فقالوا لبعضهم بعضا سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن أموالنا قد ضاعت، وإنَّ الله قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها**»[(5)] فأنزل الله الآية كما قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه تحذر من مخاطر الاسترخاء وتراجع

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة محمد: 35- 38.

(2) ابن عابدين، **حاشية ابن عابدين**، تحقيق: هشام سمير البخاري،(دار الفكر، بيروت، 2000)، 131/26.

(3) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 147/2؛ ابن العربي، **أحكام القرآن**، 164/1.

(4)**القرآن الكريم**، سورة البقرة: 195.

(5) أخرجه الترمذي في **السنن**، كتاب التفسير، 96/11.

وتائر الفعالية الرسالية لقاعدة الدعوة.

والنص وإن لم يحدّد الإطار الزماني بدقة، إلا أن الواقع التاريخي لمسيرة الدعوة الإسلامية يدل على أن هذه الظواهر أخذت تعبر عن نفسها بعد الأحزاب، حيث أخذت الدعوة والدولة والمجتمع تمتنع تدريجياً عن تحديات القوى المضادة كما رأينا.

مضاعفات انفتاح النموذجين التقليدي والإسلامي على بعضهما: نقصد بمضاعفات الانفتاح هنا: الآثار السلبية أو الجانبية لعملية الانفتاح والاحتكاك المباشرين النموذجين الاجتماعيين التقليدي والإسلامي، عبر الحوار والجدل الثقافي الخصب، الذي يتعمق ويحتدّ بين قاعدة الدعوة من جهة وقاعدة المجتمع التقليدي وصفواته من جهة أخرى، قصد احتواء كل منهما للأخرى واستيعابها في نموذجها الاجتماعي.

فالاختراق الثقافي للمجتمع التقليدي واحتوائه، ظلّ هدفا رئيسا لحركة الدعوة والبناء والمواجهة -كما رأينا- وتكثفت العناية به في هذه المرحلة، وجعله الرسول عليه الصلاة والسلام في أول أولوياته، كما نلمس ذلك من حرصه الشديد على ايفاد البعثات الدعوية، والاهتمام بالأبعاد الإعلامية للسرايا والغزوات[1]، والعمل على تحقيق أجواء الأمن والاستقرار لحركة البلاغ[2]، كما نلمس ذلك في صلح الحديبية وعمرة القضاء ودخول مكة بدون قتال[3].

وتبدو لنا الجوانب أو الأبعاد الصعبة في عملية الانفتاح الاستيعابي على المجتمع التقليدي ونموذجه الاجتماعي، من كون هذه العملية تتمّ في اجواء نفسية وفكرية واجتماعية وسياسية مشحونة بعواطف العداء المحموم، الذي ما يزال يؤطّر موقف القوى المضادة من الدعوة ونموذجها الاجتماعي وقيادتها وقاعدتها الرسالية. كما نلمس ذلك مثلا في خروج بعض قادة قريش من مكة أيام عمرة القضاء، كراهية أن يروا المسلمين وهم يطوفون بالكعبة[4]. وقال بعضهم يوم الفتح وهو يرى بلالا يؤذن فوق الكعبة: "الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا"، وغطى آخرون وجوههم[5].

ثم إن عملية الانفتاح تتمّ -بالإضافة إلى ذلك- على ضوء خلفية فكرية وثقافية ونفسية وسياسية مشوّهة، ترسم صورة غير صحيحة عن الدعوة وقيادتها ونموذجها الاجتماعي لدى قاعدة المجتمع التقليدي، سيكون لها دون شك دور في تأطير موقفها من عملية التفاعل، كما نرى ذلك مثلا في الإشاعات التي سادت في مكة عن ضعف المسلمين وتوهين الجوع والفقر لهم، وحرص عامتهم زمن عمرة القضاء على رؤية هذه الأشباح البشرية المنهوكة[6].! والاستعلاء عليها بنموذجهم الاجتماعي.

ويضاف إلى هذين العاملين السلبيين عامل ثالث مهم، وهو معايرة واقع النموذج الاجتماعي الإسلامي بمعايير النموذج الثقافي والاجتماعي التقليدي، الذي يقيم وزنا كبيرا للمقاييس العرقية والطبقية والمادية.. وهو ما تجاوزه النموذج الاجتماعي الإسلامي في رؤيته للناس وتقديره لمكانتهم ودورهم وحقوقهم ومسؤولياتهم في المجتمع، الأمر الذي سيلقي بظلاله على الموقف النفسي للقوى

---

(1) محمد بن مخلف، **الحرب النفسية في صدر الإسلام**، (دار عالم الكتب، السعودية، ط2، 1413هـ-1992)، ص256-304.

(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية،(**فتح الباري**، 519/7)؛ الهيثمي، **مجمع الزوائد**، 144/6.

(3) عرجون، **محمد رسول الله**، 355/4.

(4) ابن كثير، **السيرة**، 433/3.

(5) البيهقي، **الدلائل**، 328/4.

(6) البيهقي، **المرجع نفسه**، 327/4.

المضادة من فئات كثيرة من قاعدة الدعوة، كانت في عداد العبيد والأراذل ومن لا وزن لهم ولا قيمة في المجتمع التقليدي، بينما تحتل اليوم في المجتمع الإسلامي مكانا مرموقا، وتضطلع بمسؤوليات جسام، في مقدمتها حمل الهداية إلى الآخرين، وإعادة استيعابهم عقديا وفكريا وسلوكيا على ضوئها.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار بعض جوانب ضعف المجتمع الإسلامي المؤقتة بالخصوص. كضعفه المادي الناتج عن مضاعفات الهجرة، والحصار الشامل الذي كانت القوى المضادة تحكم طوقه على الدعوة والدولة والمجتمع منذ وقت طويل، وبعض التوترات الاجتماعية الداخلية الناجمة عن حركة التحول الفكري والتربوي والاجتماعي، ومناورات القوى المناوئة، وخاصة القوى النفاقية، وبعض نواحي المرونة الحركية التي كان الفعل الدعوي النبوي يتسم بها لضمان التكيّف الفعال مع احتياجات حركة البلاغ والبناء من جهة، وتحديات الواقع وإكراهاته من جهة ثالثة... أدركنا فعلا الأبعاد الصعبة أو المشكلة في عملية الانفتاح الاستيعابي للدعوة على المجتمع التقليدي ونموذجه الاجتماعي، وكيف يحتاج الأمر إلى وعي واقتدار تسخيري واستخلافي مكين، يحقق أصالة وفعالية الموازنات الدقيقة والتوفيقات الصعبة بين الأولويات، والوسائل والغايات، والثوابت والمتغيرات... التي تمسّ الحاجة إليها في مثل هذه الحالات والأوضاع.

فالقوى المضادة تستصحب في علاقاتها بالدعوة ونموذجها الاجتماعي كل مواريثها الثقافية، ومواقفها السياسية، ومقاييسها الاجتماعية.. التي تؤثر على عملية الاستيعاب كهدف محوري رئيس في هذه المرحلة، فإذا لم تنجح حركة البلاغ والحوار والجدل الثقافي في **تحقيق الإبْهَار والتفوق المطلوب**، وأخفقت في ضمان أصالة وفعالية بعض موازناتها وتوفيقاتها، فإن ذلك سينعكس سلبا على العملية الدعوية والبنائية والوقائية.

فالدعوة في هذه المرحلة التي تشهد فيها أوسع حركة انفتاح لها على المجتمع التقليدي واحتكاك بقواه الاجتماعية، ونخبه الفكرية والسياسية.. في حاجة إلى إشعار هذه القوى جميعا، **بفرادة المنظومة المنهاجية للدعوة، وتفوّق نموذجها الاجتماعي**، وجدارتها –من ثم– بالتمكين والاستخلاف، وتحسيسها بعبثية التشبث بالمجتمع التقليدي، وخطورة التخلف عن الالتحاق بالدعوة. وهذا يقتضي مضاعفة إنشحاذ الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، حتى يأتي فعلها الالتزامي(1) والدعوي، أصيلا فعّالا مطرد الحيوية، أي مستوفيا لأبعاد وشروط «**دورته الانجازية**»، التي تمنحه **القدرة على التأثير والإبهار والاستقطاب.**

فضعف الأداء في هذه المرحلة، سواء على مستوى الالتزام الذاتي، أو الالتزام الاجتماعي(2)، يؤثر سلبا على حركة الاستيعاب، ويضعف تحقّق شرط الإبهار والتفوق، ويعزّز روح اللامبالاة وعدم الاكتراث لدى القوى الاجتماعية المختلفة للمجتمع التقليدي. كما أن الأخطاء في الأداء الداخلي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وفي الأداء الخارجي لها، أي في عملية الانفتاح والحوار والجدل الثقافي.. يؤثر على مصداقية الدعوة وموقف الرأي العام منها، خاصة وأنه يكون شديد الحساسية للأخطاء، وملاحظة نواحي القصور في السلوك والعلاقات، ليوظفها في إدارة الحوار والجدل الثقافي ضد الدعوة ونموذجها الاجتماعي.

فالدعوة في هذه المرحلة بالذات، كانت في حاجة إلى تصحيح الصورة المشوّهة التي رسمتها الدعاية المضادة لها ولنموذجها الاجتماعي، والحذر الشديد من الأخطاء التي قد تعمل على تدعيم

---

(1) أي سلوكها المتصل بتمثلها الذاتي لمفاهيم الدعوة وقيمها في خاصة نفسها.
(2) أي الالتزام بالواجبات الاجتماعية العامة التي تأتي الدعوة في مقدمتها.

قناعات الرأي العام السابقة، وتغطّي على نواحي الفرادة والقوة والتفوق في النموذج الاجتماعي للدعوة، وتجعله -أي الرأي العام- لا يدرك الفوارق الكبيرة بين المنظومتين المنهاجيتين ونموذجيهما الاجتماعيين، فتضعف لديه حوافز الاهتمام بالدعوة، وتشتدّ رغبته في مكايدتها.

وهناك مضاعفات أخرى كذلك لعملية الانفتاح تطرح على الدعوة مشكلات عديدة، نذكر منها على سبيل المثال:

- إقبال الناس على الدعوة والدولة والمجتمع بأغراض وخلفيات مختلفة، الأمر الذي قد يعرّض أمن الدولة والمجتمع لأخطار كبيرة. كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في فعلة عكل وعرينة الشنيعة، حينما تظاهر قوم منهم بالإسلام ثم غدروا براعي النبي عليه الصلاة والسلام فقتلوه واستاقوا ما كان معه من الذود[(1)].

ولا يبعد عن ذلك ما فعله مقيس بن صبابة الذي تظاهر بالإسلام وسكن المدينة مدة طلبا لدية أخيه، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله وفرّ مرتدًّا بعد أن أخذ الدية[(2)]. بل وامتدّ الخطر إلى رسول الله نفسه، كما تدل على ذلك محاولة فضالة بن عمير اغتياله يوم الفتح[(3)].

وقد نبهنا سابقا إلى مضاعفات بعض نواحي المرونة الحركية في المواقف النبوية الاستيعابية، كنزوله على بعض مطالب قريش في صلح الحديبية، وما أحدثه ذلك من إرباك حادّ لموقف قاعدة الدعوة، التي لم تهضم الأبعاد الاستراتيجية في موازناته السياسية عليه الصلاة والسلام[(4)]، وما كان سينجم عن ذلك من تأثيرات سلبية على المستويين الخارجي والداخلي معا، قد تفوّت تحقيق الأهداف التي توخاها عليه السلام من ذلك الصلح، وتتيح فرصة للقوى المضادة لاستثمار ذلك لإرباك في تعزيز موقفها في عملية الحوار والجدل الثقافي المحتدم لاحتواء الرأي العام[(5)].

هذه بصفة عامة أبرز التّحديات العامة التي واجهتها الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، واحتاجت مواجهتها إلى وعي عميق بسنن التسخير والاستخلاف، واستثمار شمولي متوازن ودقيق لها، لتلافي مضاعفاتها السلبية -أي التحديات- على أصالة وفعالية واطرادية حركة البلاغ والبناء والمواجهة من جهة، وعلى أهداف المرحلة من جهة أخرى، وعلى حاضر ومستقبل الدولة والمجتمع بصفة عامة.

منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة:

سنشرع أولا في الحديث عن بعض ما يتصل بقاعدة المراجعة والتقويم، التي لاحظنا اطراد العناية بها واستثمارها في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة، خاصة وأن سورتي "النور" و"الأحزاب" اللتين نزلتا في أواخر المرحلة السابقة، تضمنتا نقدًا ومراجعة وتقويما وتقييما شاملا لأداء الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، استهدف تأصيل وتفعيل أداء المرحلة التالية، ومستقبل حركة التغيير والبناء بصفة عامة.

ولما كانت الآفاق التي ارتادتها عملية النقد والمراجعة والتقويم والتقييم واسعة، والقضايا التي

---

(1) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة، (**فتح الباري**، 524/7).
(2) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 137/2.
(3) ابن هشام، **السيرة**، 59/4؛ العسقلاني، **المواهب اللدنية**، 584/1.
(4) البيهقي، **الدلائل**، 106/4.
(5) حجازي سليم عبد الله، **منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية**، (دار المنارة، السعودية، 1986)، ص185.

تمّ الاهتمام بها كثيرة، فسوف نقتصر على نماذج من ذلك، تلقي الضوء على عمق وشمولية الوعي التسخيري والاستخلافي، الذي كانت الدعوة تؤسسه لدى صفوة المجتمع الإسلامي الجديد، وتستثمره قيادتها في تأصيل وتفعيل حركة البلاغ والبناء والمواجهة.

تعميق الوعي بسلطان الشريعة في المجتمع: وتأكيد كون القانون الذي ينبثق منها الضمانة الأساسية لتوازن الحياة الإنسانية وانسجامها، وشرط فعالية أدائها، بدونه تتعرض «الميزانية التسخيرية» للأفراد والمجتمع للإهدار والتبديد، وتفوّت عليهما مصالحهما العاجلة والآجلة. ويضعف موقفهما، ويتضعضع موقعهما في حركة الابتلاء والتدافع والتداول.. التي تحكم الوجود البشري وتؤثر على وضعه الاستخلافي بصورة حاسمة.

فقد دأب الوحي على **التأكيد على سلطان الشريعة في المجتمع**، وتعميق الوعي بكون الدولة الإسلامية دولة دستورية، تخضع فيها حركة الأفراد والجماعات، وأوضاع العلاقات والمؤسسات للقانون[(1)]، سواء اتخذ هذا القانون الضابط للحياة، شكله الفقهي الدستوري المقنن، أو شكله الأخلاقي العرفي السلوكي؛ لأن غرض الدعوة في النهاية هو تحقيق الانضباط الاجتماعي المتوازن، وانسجام النشاط البشري في كل أبعاده ومستوياته، مع سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من ناحية، وسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من ناحية أخرى.

والشيء البارز والمتميز في الوعي الدستوري أو القانوني الإسلامي -كما لاحظنا ذلك في الباب الأول-[(2)] هو **القوة القداسية أو الروحية التي تنطوي عليها الأحكام الشرعية أو القانونية**، الأمر الذي يعطي عملية التنفيذ قوة إضافية تساعد على فورية الاستجابة ودقتها؛ لأن المسلم يحسّ من أعماقه، أنه ينفذ أمر الله، ويطابق حياته مع سنن الله من خلال ذلك، وتلك دون شك قمّة الموضوعية والخروج عن دواعي الهوى والذاتية، الذي جاءت الشريعة تحققه في حياة الناس[(3)].

وتحقيق هذه الموضوعية في الموقف، وخروج الإنسان عن داعية هواه في علاقته بالقوانين الناظمة للعلاقات الإنسانية تجاه الله سبحانه، وتجاه النفس والمجتمع والحياة عامة.. هو قمة الوعي الدستوري أو القانوني، ومن ثم قمّة الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، وهو ما استهدفته الدعوة في كل مراحل حركة التغيير والبناء، وتواصل التأكيد عليه في نهاية تقييم المرحلة السابقة وتخطيط معالم المرحلة التالية، التي نحن بصددها الآن، كما نرى ذلك في آيات ومواقف نبوية عديدة، قد يكفينا منها هنا قوله تعالى: **[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا]**[(4)]. وهو ما سبق التحذير منه في سورة "النور" في قوله تعالى**[فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]**[(5)].

ومضى في سورتي "**آل عمران**"[(6)] و"**النساء**"[(7)] تأسيسٌ وتأصيلٌ مباشر للوعي بسلطة القانون، من خلال مفاهيم **التحاكم إلى الله ورسوله، والعدل، والطاعة، واجتناب الطاغوت**، والتشديد على

---

(1) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 570/1، وما بعدها.
(2) الفصل الثالث.
(3) الشاطبي، **الموافقات**، 29/2-128.
(4)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 36.
(5) الآية:68
(6) الآيات: 23،26،31،32،103،132 على سبيل المثال.
(7) الآيات من: 57 إلى 65 .على سبيل المثال.

ضرورة اعتبار ذلك من مقاييس النضج الإيماني الأساسية، ومعيارا حقيقيا لاستواء الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى الفرد والمجتمع، فقال سبحانه: **[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا]**(1).

وقد بلغ تعميق الوعي القانوني مداه على المستوى التربوي والعملي، عندما امتدت المراجعة والتقييم لتستثمر بعض مواقف الرسول نفسه، في تأكيد سلطة القانون ووجوب نفاذ أمره، حتى وإن لم يتناغم ذلك مع بعض حالات الناس النفسية وظروفهم أو تقديراتهم الشخصية، كما يدل على ذلك تعقيب القرآن على موقفه عليه الصلاة والسلام من الزواج بزينب بنت جحش رضي الله عنها، إبطالا لظاهرة التبني، وتهيّبه عليه الصلاة والسلام من موقف الرأي العام(2)، فقال سبحانه: **[وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ]** (3).

والمعنى أو الأثر التربوي والقانوني واضح هنا، وهو أن أحكام الله وسننه الناظمة للحياة، الحافظة لتوازنها، والمحافظة على مصالح العباد الخاصة والعامة، العاجلة والآجلة.. يجب أن تمضي، ويمتثل لها الجميع دون استثناء؛ لأن ذلك داخل في أقدار الله وسننه المهيمنة على الحياة، التي لا تعرف التبدل ولا التأخر(4)، كما يدل على ذلك قوله تعالى:**[سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا]**(5)فلا يتنزه عنه أحد(6) أو يتهاون في امتثاله؛ لأن ذلك يؤدي حتما إلى الفتنة والتهارج، وضياع المصالح الخاصة والعامة، وهو ما يترك صداه التربوي العميق في الموقف النفسي والفكري والسلوكي لدى قاعدة الدعوة، وينضج حسّها القانوني، ويشتد انضباطها الاجتماعي، وتتمهّد لحركة البلاغ والبناء والمواجهة -عبر ذلك- أقوى شروط الأصالة وأسباب الفعالية، وعوامل الديمومة والاطراد.

تعميق الوعي بالأولويات الاجتماعية: وخطورة اختزالها في الأولويات الخاصة. ونقصد بالأولويات الاجتماعية هنا: ما يتعلق بالمصالح العامة للدعوة والدولة والمجتمع، وكيف ينبغي أو يجب أحيانا رعايتها وتقديمها على المصالح الخاصة، إن تعذّر الجمع بينهما، لما في المصالح العامة من نفع أعمّ وأشمل، ترتبط به المصالح الخاصة وتتحقق بصورة كاملة بتحققها، وتضطرب ويضعف استيفاؤها بحسب ضعف العناية بالمصالح الكلية العامة.

ويحتل الوعي بالمصالح والأولويات الاجتماعية مكانة هامة جدًّا في منظومة الوعي التسخيري والاستخلافي، لما تؤديه الروح الغيْرية من دور حيوي بارز في تحقيق فعالية الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة، من خلال ترشيد حركة التنافس الاجتماعي، وتوجيه جهود المتنافسين نحو الأهداف والأولويات الكلية ذات النفع العام، وهو ما جاء الوحي يعمّق الوعي به، ويشحذ فعالية قاعدة الدعوة نحوه، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى:**[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ**

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة النساء: 65.

(2) القرطبي، **الجامع**، 183/84؛ الألوسي، **روح المعاني**، 24/22.

(3)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 37.

(4)البقاعي، **نظم الدرر** 15/ 361؛ المودودي، **تفسير سورة الأحزاب**، ص83.

(5)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 38.

(6)ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 39/22.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ][1].

وتتجلى لنا الفعالية التربوية والاجتماعية والسياسية لهذا التوجيه، الذي استهدف تعميق وعي قاعدة الدعوة بأهمية الشأن الاجتماعي[2]، وقوة دلالته على نضمها الرسالي، وفعالية أدائها التسخيري والاستخلافي، عندما ندرك أنه جاء في سياق مراجعة وتقويم بعض مظاهر القصور والضعف والاضطراب في هذا الأداء[3]، مما يمنحه قوة تأثيرية مضاعفة، على اعتبار أن التربية بالأحداث من أفعل وسائل التأثير في السلوك الإنساني[4] عندما يحسن استثمارها وهو ما نلمسه بوضوح في هذا التوجيه القرآني الذي تجاوز مرحلة تشخيص القصور والضعف في الموقف السلوكي لقاعدة الدعوة، إلى مرحلة البناء والمساعدة لها على الارتقاء إلى مستوى الواجبات الرسالية في علاقتها بالدعوة والدولة والمجتمع. كما يتضح ذلك من التنويه بروح الانضباط التي تتمتع بها فئات من قاعدة الدعوة، وفتحه آفاق الاستدراك أمام بعض حالات الضعف، عبر الاستغفار والاستجابة لما هو ضروري من الحاجات والمصالح الفردية، التي لا تؤثر سلبا على فعالية أداء حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

تعميق الوعي بمسؤولية محيط ذوي المقامات المرجعية في المجتمع: ونقصد بمحيط ذوي المقامات المرجعية هنا: قرابة من له شأن ومكانة وتأثير في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، من نخب الدعوة والدولة والمجتمع وصفواتها القيادية ذات الوزن المرجعي لدى قاعدتي الدعوة والمجتمع معا.

فمحيط القيادة المرجعية، الأسري والاجتماعي عامة، يؤثر فيها ويؤثر على موقف الناس منها، كما يؤثر بعد ذلك على حركة البلاغ والقدوة أو التأسي. باعتبار هذا المحيط امتدادا حيويا هامّا للوعي المرجعي والقدوة العملية لذلك، بحكم العلاقة التلاحمية الوثيقة بين القيادة المرجعية ومحيطها الأسري والاجتماعي، الذي يفترض فيه أن يكون أكثر هضما واستيعابًا وتمثلا للفكرة أو الدعوة، ووعيا بها وتفاعلا معها، واقتداراً على نقل روحها وحقائقها للآخرين.

ولما كانت القضية ذات صلة وثيقة بالوعي التسخيري والاستخلافي، فقد أولاها الوحي عنايته كذلك، في سياق تعميق بنائه لوعي قاعدة الدعوة التسخيري الاستخلافي، فجاء تعقيب القرآن على بعض مواقف زوجاته عليه الصلاة والسلام فيما يتصل بالتوسعة عليهن في النفقة والتمتيع، بعد أن أخذ الوضع المالي له عليه الصلاة والسلام يتحسّن، عقب إجلاء بني النضير وبني قريظة بالخصوص[5].

لقد استثمر القرآن هذا الموقف، ليعمّق وعي قاعدة الدعوة عامة بمسؤولية ودور المحيط الأسري والاجتماعي لذوي المقامات المرجعية، في أصالة وفعالية الأداء الاجتماعي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وكيف ينبغي أن يتكامل جهد الطرفين –القيادة المرجعية ومحيطها– لمنح هذه الحركة المزيد من الأصالة والفعالية واطراد الحيوية.كما نلحظ ذلك في تخييرهن بين **الحياة الرسالية ومقاماتها المرجعية**، وبين الحياة العادية، وتعميق وعيهنّ بمسؤوليات الحياة الرسالية وتبعاتها في النفس والدعوة والمجتمع، وهو ما استوعبته آيات في سورة "الأحزاب"[6]، نذكر منها قوله تعالى: **[يَا**

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة النور: 60.
(2) البقاعي، **نظم الدرر**، 322/13؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 307/18.
(3) الطبري، **جامع البيان**، 176/15؛ السيوطي، **الدر المنثور**، 229/6.
(4) محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، 207/1.
(5) ابن عطية، **المحرر الوجيز**،371/14؛ ابن حزم، **الدرر**، ص 182.
(6) الآية :32.

نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ][1]، وقوله سبحانه:**[إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا. وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آَيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا]**[2].

ولا يخفى هنا الدور التربوي العميق لهذه المراجعة والتقويم للمحيط الأسري النبوي، وانعكاساته الحاسمة على وعي قاعدة الدعوة، تجاه هذه الكلية التسخيرية والاستخلافية الهامة، وتأثيرات ذلك على حركة البلاغ والبناء والمواجهة، خاصة وأن المحيط النبوي يشكّل مركز أو بؤرة الإشعاع والقدوة لما عداه، وهو ما سيلقي بظلاله دون شك على التزام قاعدة الدعوة، لأنها تعي جيدًا أن كل ماله صلة بالوعي التسخيري والاستخلافي يعنيها بالدرجة الأولى، فتبادر إلى الأخذ به قدر الاستطاعة، إرتقاء بأصالة وعيها الرسالي وفعالية أدائها الاجتماعي.

ارتباط الحريات بالمصالح العليا للدعوة والدولة والمجتمع: ومن كليات الوعي التسخيري والاستخلافي الأساسية، التي دأب الوحي على تعميق وعي قاعدتي الدعوة والمجتمع بها، كلية الحرية المبدعة، التي تمنح للفرد والجماعة فرص وإمكانات الحركة والانتفاع، والمشاركة في ترقية المجتمع فكريا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا وحضاريا.

وقد رأينا في الباب الأول[3]، كيف تحتل الحرية المبدعة مكانة هامة في الوعي التسخيري والاستخلافي معا، بما تؤدّيه من دور بارز في تحقيق إنسانية الإنسان، وترقية الشروط المادية والمعنوية المرتبطة بذلك، وهو ما حرصت الدعوة على تجسيده في حركة البلاغ والبناء والمواجهة بصورة متوازنة، كما نلحظ ذلك في تخليص الإنسان من كل الإكراهات والضغوط المناقضة لفطرته، سواء جاءته من ذاته أو من المحيط الطبيعي، أومن المحيط الاجتماعي. فكل ما يؤثر سلبا على إنسانية الإنسان، تقاومه الدعوة وتحرّر الإنسان منه، وتساعده على التحكم الفعّال فيه.

وفي هذا السياق العام لمفهوم الحرية المبدعة، عمل الوحي على تعميق وعي قاعدتي الدعوة والمجتمع معا بارتباط الحريات الفكرية والسياسية والاجتماعية... بالمصالح العليا للدعوة والدولة والمجتمع، وعدم انفكاكها عن ذلك أبدا، بل يرتبط كل منهما بالآخر ارتباط المقدمة بالنتيجة على الدوام، الأمر الذي يعني أن أي مساس بهذه المصالح العليا للدعوة والدولة والمجتمع، يمسّ بالضرورة الحريات الفكرية والسياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات، إن عاجلا أم آجلا.

وفي تقييم القرآن للمرحلة السابقة، واستشرافه لآفاق هذه المرحلة في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، أكدّ على ضرورة حماية هذه الحرية من كل ما يؤثر سلبا على إبداعيتها وفعاليتها، من خلال تعميق الوعي بارتباط ذلك كله بالمصالح العليا للدعوة والدولة والمجتمع على المستوى الاستراتيجي، وبمصالح حركة البلاغ والبناء والمواجهة على المستوى المرحلي أو الانجازي، كما نلمس ذلك بوضوح في انتقاده لمن يعملون على استثمار الحريات الفكرية والسياسية والاجتماعية المتاحة لهم، للإضرار بمصالح الجماعة في كل هذه المستويات، ودعوته إلى اتخاذ الاجراءات الوقائية التي تضمن للحرية إبداعيتها وفعاليتها باستمرار، ولا تخرج بها عن هذه الدائرة، فقال تعالى:**[لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا. سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ**

---

(1) الآيتان: 33-34.
(2) الآيتان: 33-34.
(3) الفصل الثالث منه.

تَبْدِيلًا][1].

وكما هو واضح من الآية الآخيرة، فإن الوحي يعتبر المحافظة على الحرية المبدعة، وما يستلزمه ذلك من وعي وإجراءات وقائية، سنة تسخيرية واستخلافية مطردة[2]، لا ينبغي الذهول عن رعايتها أبدا، لما في الغفلة عن ذلك من مخاطر كبيرة على الدعوة والدولة والمجتمع من جهة، وحركة البلاغ والبناء والمواجهة من جهة أخرى. فكل من يستغلّ حريته الفكرية والسياسية والاجتماعية في الإضرار بالمصالح العليا للدعوة والمجتمع يجب وضعه عند حدّه، حتى وإن اقتضى الأمر الذهاب في استعمال الشدة إلى نهايتها عند اللزوم، كما فعل عليه الصلاة والسلام مع اليهود بالمدينة[3]، وكما فعل مع منتهكي القيم الاجتماعية ومروجي الفساد الأخلاقي والاجتماعي[4]، وكما فعل ثالثا مع المنافقين الذين كشف الغطاء عنهم وسلّط الضوء على نفسيتهم المخرَّبة، وسلوكهم المضطرب، ومواقفهم القلقة، وأساليبهم الماكرة[5]... تحصينا للمجتمع من عوامل الضعف والاهتلاك وتراجع فعالية الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة.

تعميق الوعي بثوابت منظومة سنن التسخير: نقصد بالثوابت هنا: الكليات الأساسية الثابتة التي تحكم منظومة سنن التسخير، وتتيح إمكانية استثمارها في حركة الاستخلاف؛ ابتلاء وتدافعا وتداولا وتجديداً.. بصورة فعالة ومتوازنة، تمكّن الفرد والمجتمع من أحسن استغلال وتوظيف لميزانيتهما التسخيرية واستمتاع بنعم الله التي لا حصر لها.

وكما سبق أن رأينا في البابين الأول والثاني، فإن تأسيس وتعميق الوعي بسنن التسخير، شكّل إحدى المحاور الثلاثة الكبرى التي تمحور حولها الهمّ البشري عامة، والجهد الرسالي خاصة عبر التاريخ، وهو ما كان في صميم اهتمامات القرآن والحركة النبوية في كل مراحل عملية البلاغ والبناء والمواجهة، ولم تتخلف العناية بها لحظة من الزمن، لخطورة شأنها في الحياة البشرية، وارتباط الفعالية الاستخلافية بها ارتباطا جذريًّا مطّردًا لا يتخلف.

وسنأخذ هنا نموذجا عن هذا الاهتمام المحوري بتعميق الوعي بثوابت منظومة سنن التسخير، جاء في سياق تقييم القرآن للمرحلة السابقة واستشرافه لآفاق الدعوة في المرحلة التالية التي نحن بصددها الآن، وهو قوله تعالى: **[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا]**[6].

فهذا التوجيه المتضمن نفَسا تقويميا، نبّه إلى الثوابت الكلية التي تحقق نموذجية الفعل: دعوة، أو بناء، أو مواجهة، وتطبع **«دورته الانجازية»** بأقصى مستويات الأصالة والفعالية والاطراد، وهي **سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، التي أشير إلى بعضها كسنن الهداية والتأييد مباشرة، وإلى بعضها الآخر كسنن الآفاق والأنفس بصفة عامة، وإن كانت كثيفة الإيحاء والدلالة على المطلوب؛ لأن التحقق بتقوى الله وعدم الاستجابة لأطروحات الكافرين والمنافقين ومشاريعهم، ومقاومة إغراءاتها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 60، 61، 62.
(2) البقاعي، **نظم الدرر**، 441/15؛ الألوسي، **روح المعاني**، 91/22؛ المودودي، **تفسير سورة الأحزاب**، ص168.
(3) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**،321/1.
(4) سيد قطب، **الظلال**، 324/4.
(5) القاسمي، **محاسن التأويل**، 233/13 وما بعدها؛ المودودي، **تفسير سورة الأحزاب**، ص42 وما بعدها.
(6)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 1-3.

وضغوطاتها، والاستعلاء الموضوعي[1] عليها باستمرار، يحتاج إلى استثمار ما أمكن من سنن الآفاق والأنفس التي تحقق المستوى العملي الإجرائي من التقوى، الذي يعين على التحقق بالمستويات الروحية الأخرى في مراحل التوكل التالية بعد ذلك.

فالنص التوجيهي عميق وشامل الدلالة على ضرورة استيفاء «**الدورة الانجازية**» للفعل التغييري؛ قدوة، أو دعوة، أو بناء، أو مواجهة، لأبعاده الأربعة المتصلة بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، حتى يستوفي شروط أصالته وفعاليته ومن ثم نموذجيته، أو قوته الاقتدارية. وقد تضمّن التوجيه – على المستوى المنهجي– ترتيبا له مغزاه الكبير في **نظام عمل هذه السنن** من جهة، وشروط استثمارها في عملية التسخير والاستخلاف من جهة أخرى، حتى لا يساء فهم واستخدام هذه السنن التسخيرية بعد ذلك.

فالتوكل الذي ينتمي إلى مجال سنن التأييد، جاء متأخرا عن اتباع الوحي المنتمي إلى **مجال سنن الهداية؛** لأنه نتيجة لتلك المقدمة التي تشرط فعالية استثمار سنن التأييد، والأبعاد العملية أو الإجرائية في التقوى والاستعصاء على الاستدراج والاحتواء من قبل القوى المضادة، جاءت سابقة لذلك، لأنها تنتمي إلى مجال سنن الآفاق الأنفس، الذي يجد الإنسان نفسه باستمرار في مواجهة مباشرة معه، ثم تأتي بعد ذلك سنن الهداية لتحدد غايات الفعل وتبرز أبعاده الإنسانية الخيّرة، وتنفي عنه كل ما يناقض ذلك ويؤثر فيه سلبا، على مستوى المضمون وحركة الأداء معا، فيأتي هذا الفعل، بعد أن تستوفيّ «**دورة إنجازه**» كل أبعادها، وتستثمر كل ما أتيح لها من إمكانات وسنن تسخيرية في مجالات الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.. أصيلا فعالا مطرد الحيوية والتجدد، لا يقوى على مواجهته والصمود أمامه إلا فعل استوفت «**دورته الانجازية**» ذلك كله بصورة أفضل منه.

والدعوة –قرآنا وسنة وسيرة– بهذا التأصيل لثوابت منظومة سنن التسخير، وتأكيدها على شمولية الأخذ بها، **واستحالة الاستغناء عن أي منها بغيره**، عمّقت الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة، ومنحت بذلك حركة البلاغ والبناء والمواجهة شروط أصالتها وفعاليتها القصوى في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، الذي تخوض غماره لتقويض مرتكزات ونظم النموذج الاجتماعي التقليدي وإحلال النموذج الاجتماعي الإسلامي مكانه.

تعميق الوعي بفقه المداخل الكلية للتواصل والترابط الاجتماعي: ونقصد هنا بالمداخل الكلية للتواصل والترابط الاجتماعي: المنافذ الكبرى أو المفتاحية لتحقيق التفاعل والتكيّف والانسجام الاجتماعي، ومنح حركة البلاغ والبناء والمواجهة، فعاليتها الانجازية القصوى. ونخصّ بالذكر هنا **الكلمة أو القول** كأمّ للمداخل الكلية الكبرى التي يرتبط بها التواصل والترابط الاجتماعي، ومن ثم الفعالية الانجازية للدعوة والدولة والمجتمع بصورة مطردة.

فالكلمة[2] هي الأداة الأفعل والأشمل للتواصل والتفاعل الاجتماعي في حياة البشر، بها يتعارفون ويتحاورون ويتجادلون، ويتواصلون أو يتفاصلون في نهاية عملية الاحتكاك والتفاعل بينهم. فهي أداة التغيير والهدم والبناء في الوقت نفسه[3]. بحسب طبيعة المحتوى الذي تحمله، والكيفيات المنهجية التي تصل بها إلى الآخرين... تتحدّد سلبيتها أو إيجابيتها. إنها الجذر أو المدخل الأساس لأية عملية تفاعلية؛ تكاملية أو تنافرية، ترابطية أو تفكيكية.. فهي مادة البناء الأولية وأداته في الآن نفسه.

---

(1) الموضوعي هنا يعني استناد الاستعلاء إلى إرادة تستمد قوتها من إمكان واقعي، وليس من إمكان عاطفي رجائي فحسب.

(2) توسع مفهوم الكلمة ليستوعب الملفوفات والمقروءات والمرويات..

(3) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص 35.

ولما كانت الكلمة هي مادة وأداة الهدم والبناء، ومن ثم التغيير السلبي أو الإيجابي، فقد منحها الوحي عناية فائقة في كل مراحل الدعوة، سواء على مستوى المضمون العقدي والفكري لها، أو على مستوى منهجية استثمار ذلك في عملية الحوار والبناء والتغيير؛ في أبعاده الذاتية والاجتماعية والحضارية[1]، وعمل على تأسيس فقه شامل ومتكامل بها لدى قاعدة الدعوة، حتى يكون أداؤها في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، أصيلا وفعالا ومطردًا، يعمّق التواصل والترابط والانسجام في المجتمع الإسلامي من جهة، ويوهن ذلك في المجتمع التقليدي المناوئ[2]، ويهيئه للاستيعاب والاحتواء الحضاري من جهة أخرى.

وقد مرّ في الفترة المكية والمراحل الثلاثه السابقة من الفترة المدنية، حديث مكثف عن كليات التثبّت والتبيّن، والحذر من الظنون السيئة، ووجوب الصدق، والحلم، والتواضع، والصبر... ومجافاة الكذب، والتزام العدل، والإحسان، والصدق...، وهي كلها قيّم مؤسِّسة لفقه الكلمة، ومهيئة للشروط النفسية والفكرية والمنهجية لأصالة وفعالية استثمارها في حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

وعمّق الوحي ذلك في تقييمه للمرحلة السابقة واستشرافه لآفاق المرحلة التالية، فجاء حديث مركّز في صورة قانون مطّرد النفاذ والفاعلية، في سياق تعقيب القرآن على أحداث اجتماعية وسياسية هامة، تباينت فيها آراء ومواقف بعض الناس من قاعدتي الدعوة والمجتمع؛ كحادث الإفك، وزواجه عليه الصلاة والسلام بزوجة متبناه، وإرجاف المنافقين في المدينة ونهضتهم إلى ترويج الأكاذيب والإشاعات لإرباك الموقف النفسي والاجتماعي والسياسي للدعوة والدولة والمجتمع أثناء حصار الأحزاب للمدينة.. فاستثمر الوحي كل هذه الأجواء والظروف المواتية، واستخلص منها قواعد ذات علاقة وطيدة بفقه الكلمة، ودورها العميق والجذري في عملية التواصل والترابط الاجتماعي، والفعالية الانجازية لحركة البلاغ والبناء والمواجهة بعد ذلك، فقال تعالى: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا]**[3].

ومن يعمّق النظر في هذا التقييم التوجيهي المركّز، يلحظ أبعاده التربوية الشاملة والعميقة، وآثار ذلك على الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة. لأن التوجيه، وقد سيق في صورة **معادلة محكمة**، يجعل قاعدة الدعوة تركّز اهتمامها حول الجوانب المنهجية أو الإجرائية، التي تفضي في النهاية إلى تعميق وعيها بكليات كثيرة في فقه الكلمة والتواصل والترابط الاجتماعي؛ لأن الذي يهمّ المعني بهذا التوجيه وقد عرف ما للتقوى والكلمة المسدّدة، من دور حاسم في فعالية الفكر والسلوك والإنجاز الاجتماعي، والتأييد الرباني فيما لا يقوى الإنسان على الاستقلال به، هو معرفة:

ما هي التقوى؟ وكيف تعمل؟ وكيف نحصّلها؟

ما هو القول السديد؟ وما خصائصه ومقوماته؟ وما شروط الوصول إليه؟ وما هي كيفية التحقق السّلوكي به؟

ولا شك أن محصلة هذا الاهتمام ستعمّق وعي قاعدة الدعوة بثوابت سنن التسخير؛ في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، عندما تستيقن أن التقوى في أبعادها الروحية والفكرية والعملية، والكلمة السداد في أبعادها المعرفية والعملية، كل منهما هو محصلة عمق وتكامل منهما الوعي بهذه السنن جميعاً ؛معرفة واستثمارًا. لأن القول السديد الذي يحقق أهدافه بدقة وعمق وشمول وتوازن، هو الذي

---

(1) يعني بالحضارية هنا التفاعل التكاملي أو التنافري بين الحضارات.

(2) احترزنا هنا بشرط المناوءة لتأكيد الطبيعة الانفتاحية التعارفية والتعاونية للإسلام وعلاقته بالمجتمعات الانسانية الأخرى غير المناوئة.

(3) **القرآن الكريم**، سورة الحزاب: 70، 71.

تستجمع " **دورة إنجازه**": الحق والصدق والعدل والصواب[1]، وهي قيم كلية يحتاج التحقق بها جميعا إلى شروط روحية وفكرية وإنجازية مرتبطة كلها بنوعية الوعي بسنن التسخير السابقة، وحجم التحكم فيها على المستوى الانجازي. ولا يخفى أن تحصيل هذا الوعي وامتلاك الاقتدار التسخيري، لتحويله إلى سلوك في الفكر والحركة، يمرّ بمكابدة طويلة تترك بصماتها على عملية التحول التربوي والاجتماعي في مجتمع الدعوة مع مرور الزمن، واتسام هذه المكابدة بالاستمرارية والتكامل والرشادة، وهو ما تحقق فعلا ومنح عملية التحول التربوي والاجتماعي مداها، كما دلّ على ذلك الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي المكين لدى قاعدة الدعوة، في أدائها على مستوى التمثّل الذاتي للإسلام، و على مستوى فعالية مساهمتها في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، و على مستوى تقويض نموذج المجتمع التقليدي والتمكين للنموذج الاجتماعي الإسلامي مكانه.

ضرورة انضباط المرحلي بالاستراتيجي في حركة الدعوة: ونقصد بهذا الانضباط هنا: ضرورة ارتباط المواقف والتصرفات الآنية، أو الجزئية، أو المفضولة، أو الاستثنائية في حركة البلاغ والبناء والمواجهة بثوابت الدعوة وكلياتها، وتكيّفها الدقيق مع ظروفها، والحرص المستمر على الارتقاء بالأداء الاجتماعي لها إلى أعلى مستويات انسجامه وتناغمه مع سنن التسخير والاستخلاف، في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

وهذا الارتباط للمرحلي والجزئي والمفضول والاستثنائي أو الانتقالي... من المواقف والتصرفات، بالاستراتيجي والكلي، والأفضل والأولى والثابت، وتأطّره به... ضرورة حيوية تضمن توازن حركة البلاغ والبناء والمواجهة من ناحية، وتعطيها فعالية متجدّدة من ناحية أخرى، وتحفظ مسيرتها من الانحراف من ناحية ثالثة من خلال تلافي تحول المرحليات، والجزئيات، والمفضولات، والاستثنائيات أو الانتقاليات إلى كليات وأساسيات وأفضليات، تختزل حقيقة الدعوة وتضعف أصالة نموذجها الاجتماعي، وتقلّص من قوته الإبهارية وحيويته الاستيعابية أو الاستقطابية، أو تحوّل الكليات والأفضليات إلى عائق أو كابح في طريق فعالية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، بدعوى الأصالة والمحافظة على سلامة الدعوة والنأي بها عن أساليب الترقيع والتوفيق والتمّييع.

وما أكثر ما تؤتى حركات التغيير الاجتماعي من هذه الناحية، عندما تعجز عن تحقيق التوازن بين طرفي هذه المعادلة الحرجة، فتستحيل إلى حركة جديدة مغايرة تماما لطبيعة وحقيقة الأهداف والأصول والثوابت التي تقوم عليه، أو تشلّ فعاليتها ولا تستطيع فعل أي شيء على الصعيد العملي، بسبب هذه المثالية وهذا العجز عن مباشرة استثمار سنن التسخير والاستخلاف في تحويل المثال إلى واقع اجتماعي معيش بصورة عملية متدرجة.

والدعوة الإسلامية تجاوزت هذه العقبة الخطيرة، واستطاعت أن تضمن توازن حركة سيرها، عبر التوفيق المحكم بين بعدي الأصالة والفعالية، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في إنهاء الوحي للعمل بالاستثناء الذي كان معمولا به في مجال التوارث، لمواجهة تحديات الهجرة والتغلب على ظروف المهاجرين الانتقالية الصعبة[2] فقد جاء القرآن يعيد الأمور إلى وضعها التسخيري والاستخلافي العادي، بعد أن تغيّرت أوضاع المجتمع الإسلامي بعض الشيء وأخذت ظروف قاعدة الدعوة تتحسن اجتماعيا[3]، فقال سبحانه وتعالى**[وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ**

---

(1) البقاعي، **نظم الدرر**، 422/15؛ الألوسي، **روح المعاني**، 95/22؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 112/22.

(2) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 14/12.

(3) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 123/14.

المُؤْمِنِينَ وَالمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا][1].

فهذا التوجيه ليس مجرد تعديل لوضع استثنائي، أو تقرير لحكم شرعي فرعي بشأنه فحسب، بل هو بالإضافة إلى ذلك، أسّس الوعي بكلية تسخيرية واستخلافية هامة، وهي ضرورة انضباط المرحلي والجزئي والمفضول والاستثنائي في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، بالإستراتيجيات والكليات والأفضليات والثوابت، التي نبّه إليها الوحي بكلمة **[مَسْطُورًا]**، أي مثبتا وثابتا لا يقبل التبديل والتغيير[2]، ويجب أن يسار بحركة التغيير والبناء نحوه ويصار بها إليه باستمرار، باعتباره الإطار المرجعي الضّابط والموجّه لها.

نكتفي بهذه النماذج من مراجعة الوحي وتقويمه لأداء حركة الدعوة والبناء والمواجهة في المرحلة السابقة، لعلاقتها المباشرة بأدائها في المرحلة التالية، باعتبار المراجعة والتقييم كانت تستهدف الإرتقاء بهذا الأداء مستقبلا، وهو كما رأينا من خلال النماذج السابقة تقييم أصّل وعمّق وعي قاعدة الدعوة بكثير من أصول الوعي التسخيري والاستخلافي وقواعده المطّردة في حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، واستثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد في تحقيق أصالتها وفعاليتها وديمومة حيويتها من جهة أخرى.

وبعد هذا نشرع في دراسة نماذج أخرى من قواعد المنهج التي أطّرت «**الدورة الانجازية**» لفعله الدعوي عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة كذلك، وكان لها صداها العميق في أصالة الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة وفعاليته واطراد حيويته.

تجديد النَّفَس الرسالي لقاعدة الدعوة: ونقصد بتجديد النفس الرسالي هنا: شحذ روح المكابدة وطول النفس لدى قاعدة الدعوة، ورفع مستوى تجاوبها مع واجبات الدعوة بصفة مستمرة، ومقاومة عوامل الفتور وتراجع الروح الرسالية لديها، واستشعار ذلك كله في تعزيز فعالية الأداء الاجتماعي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة.

وقد رأينا في الباب الأول، كيف أن التجديد يعدّ مدخلا أساسيا من مداخل سنن التسخير الأربعة: الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، لارتباط المداخل الثلاثة الأخرى به ارتباطا كبيرا علىالمستوى الانجازي، إذ إن الصيرورة الابتلائية والتدافعية والتداولية أخيرا، تتوقف إلى حدّ بعيد على نوعية وحجم التجديد الذي تحققه حركة الدعوة والبناء والمواجهة في وعيها المعرفي، وتوثّبها الروحي، وانسجامها السلوكي، وقدراتها الانجازية، وكلما حدث قصور في ذلك، تراجعت تبعا له فعالية الأداء الاجتماعي لها، واهتز موقف الدعوة وموقعها في معترك الابتلاء والتدافع والتداول الذي يحكم حركة الاستخلاف في الأرض.

والدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة تتحرك على مستوى سنني شامل، فإنها لم تغفل عن استثمار هذه القاعدة في إنجاز أهدافها ومواجهة التحديات التي تعترض طريقها، خاصة في هذه المرحلة التي تشكّل منعطفا جديدا في مسيرتها، كما لاحظنا ذلك في حديثنا عن تحديات المرحلة، وكيف أن قاعدة الدعوة كانت مهيئة للاستجابة لدواعي الاسترخاء وتراجع فعاليتها الرسالية، بعد طول مكابدة من جهة، وإحساس بتقلص الإخطار على الدعوة والدولة والمجتمع من جهة أخرى، بعد صدمات الأحزاب، وقريظة، والحديبية، وعمرة القضاء، وفتح مكة... المرجعية.

لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام على وعي تام بذلك، وبحاجة حركة الدعوة والبناء

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 6.

(2)أبو حيان، **البحر المحيط**، 455/8؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 272/21.

والمواجهة إلى **التجديد المستمر للنَّفَس الرسالي لقاعدة الدعوة**، والارتقاء به إلى أعلى المستويات الممكنة، من التوثب والتفاعل مع أهداف المرحلة وتحدياتها، واحتياجات حركة التغيير والبناء فيها، فعمل على إنجاز ذلك بكل فعالية، كما يتضح لنا هذا من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من تقييمه عليه الصلاة والسلام الاستراتيجي العميق لصدمة الأحزاب، الذي حوى شحدًا مباشرا للنَّفس الرسالي لقاعدة الدعوة، ومقاومة لأي مظهر من مظاهر الفتور لديها، في وقت مبكر من نهاية المرحلة السابقة وبداية المرحلة الجديدة، وكان بذلك يستبق الأحداث ويخطّط لها، فقال عليه الصلاة والسلام تعقيبا على هزيمة الأحزاب: {الآن نغزوهم ولا يغزونا. نحن نسير إليهم}[1]، وهو ما يعني بالنسبة لقاعدة الدعوة أن واجبات جديدة تنتظرهم، وآفاق التمكين والاستخلاف والأمن والاستقرار التي وعدوا بها قبل فترة في "سورة النور"، قد انفتحت أمامهم على مصراعيها، وفي ذلك تعبئة نفسية وسياسية واجتماعية جديدة، وشحذ لروح الثبات والاستمرارية، واستنفار لروح المسؤولية والطموح في مستقبل أفضل.

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب. 1509/4.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من استنفار قاعدة الدعوة إلى بني قريظة عقب الأحزاب مباشرة، مع علمه أن الناس أصابهم جهد شديد، كما قال ذلك عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام: «**إن في أصحابي جهدًا**»، لكنه ما ليث أن أعلن فيهم: «**لايصلّيّن أحد العصر إلا في بني قريظة**»[(1)]. وبعد ذلك مباشرة كثف أعمال الوقاية والاستيعاب والتدريب القيادي، التي بلغت في هذه المرحلة أكثر من ثلاثين[(2)] عملا عسكريا وإعلاميا وسياسيا ودعويا كبيرا، وظّف في إنجازها قاعدة الدعوة توظيفا شاملاً ودقيقا، لم يتح لأي منها فرصة الاسترخاء، بل عمّق التحامها بحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وقوّى إحساسها بالمسؤولية الرسالية تجاه الدعوة والدولة والمجتمع والإنسانية عامة، وشحذ وعيها التسخيري واقتدارها الاستخلافي عبر ذلك كله، كما دلّ على هذا أداؤها الأصيل الفعال المطرد في حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى صورا كثيرة له في هذه المرحلة، أوفت باستيعابها آيات عديدة في "**سورة الفتح**"، ركّز بعضها على تصعيد الأشواق الروحية لقاعدة الدعوة وربطها بالوعود الإلهية العليا في بالجنة والمرضاة[(3)]. وبعضها الآخر على إبراز صفات الرسالية في الصحابة، والتنويه بجهادهم وثباتهم وتضحياتهم، وصدقهم وتفانيهم في العمل من أجل تقويض النموذج الاجتماعي التقليدي، وإقامة كيّان النموذج الاجتماعي الإسلامي وإسعاد البشرية به. وعني البعض الآخر بالتبشير بالنصر والتمكين القريب لهذا النموذج[(4)]. وأكّدت آيات أخرى على الأبعاد العقدية والروحية والتربوية والسياسية والاجتماعية لفكرة المبايعة والارتقاء بها إلى مستوى الميثاق الغليظ بين الله وقاعدة الدعوة[(5)]، كما يلحظ ذلك في قوله تعالى:[**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**][(6)].

ومن يتتبع الآثار النفسية والفكرية والسلوكية لهذه التوجيهات في حياة قاعدة الدعوة، يلمس مدى عمق وشمولية الأثر الذي تركته في تجديد نفسها الرسالي، ومقاومة عوامل الفتور والاسترخاء لديها، ومن ثم الفعالية الكبيرة التي منحها ذلك كله لحركة البلاغ والبناء والمواجهة. كما يدل على ذلك مستوى الأداء الاجتماعي وتأثيراته الحاسمة على عملية تفكيك القوى المضادة واحتوائها، وعلى حركة التحول التربوي والاجتماعي التي تجسدت بوضوح في النموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد.

الوعي العميق بحركة الأحداث وأهميته في فعالية الإنجاز:

ونقصد بالوعي بحركة الأحداث هنا: المتابعة الدقيقة لما يجري في الدولة والمجتمع، وفي البيئات المختلفة ذات العلاقة الآنية أو المستقبلية بالدعوة والدولة والمجتمع، والقدرة على التحليل والتفسير الصحيح للمعطيات المتاحة، وحسن الاستفادة من ذلك كله في عمليات حسن التوقع والاستثمار، التي تمنح حركة البلاغ والبناء والمواجهة فعاليتها الانجازية القصوى.

فالوعي بحركة الأحداث، الذي تمنحه المعلومات الدقيقة المتجددة عن الأوضاع الداخلية والخارجية، والقدرة على حسن تحليلها وتفسير الأحداث على ضوئها، أمر في غاية الأهمية بالنسبة

---

(1) أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المغازي، مرجع النبي من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة. 321/1.
(2) شيت خطاب، **الرسول القائد**، ص263- 322.
(3) البقاعي، **نظم الدرر**، 288/18.
(4) ابن كثير، **التفسير**، 327/6؛ الألوسي، **روح المعاني**، 85/26.
(5) الرازي، **التفسير**، 75/28؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 158/26، سيد قطب، **الظلال**، 567/5.
(6) **القرآن الكريم**، سورة الفتح: 10.

لفعالية المبادرة، وحسن التفاعل والتكيّف مع الأحداث، بدونها، أو بدون حسن الانتفاع بها، تتأثر عملية التغيير والبناء سلبا؛ لأن المبادرات حينئذ تكون عشوائية وبعيدة عن احتياجات الموقف ومتطلباته، الأمر الذي يربك خطوات البناء والمواجهة، سواء على مستوى أصالتها أو فعاليتها أو استمراريتها.

ومن يتتبع حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويستقرئ سرّ الاقتدار التسخيري والاستخلافي الذي تميّز به أداؤه الاجتماعي في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، يجد أن وعيه العميق بالأحداث وفعالية استثمارها، من بين أهم أسرار هذا الاقتدار. فقد كان عليه الصلاة والسلام شديد العناية بالمعلومات، دقيقا في التعامل معها والاستفادة منها، مستثمرا في ذلك كله ما أتيح له من وعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية، فإذا لم يف ذلك كله بالمطلوب، لجأ إلى استثمار ما أمكن من سنن التأييد، وهو ما كان يعطي لمبادراته في الدعوة والبناء المواجهة أصالة وفعالية متزايدة، كما نلحظ ذلك في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونرى صورا عديدة له في حركة السرايا الكثيفة التي سيّرها عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة، والتي كان يباغت بها خصومه، بعد أن يشرع بعضهم في التفكير في مواجهة الدعوة فيأخذه من حيث لا يحتسب، وأحيانا يباغت فئات أخرى حتى قبل أن تشرع في التفكير والإعداد الجدي لمناوءته، لتوقعه من مجمل الأحداث أنها ستنخرط في حركة المناوءة للدعوة والدولة والمجتمع فيبادر إلى الوقاية المبكرة منها.

ونذكر هنا على سبيل المثال مبادرته إلى إرباك يهود خيبر وشلّ أية محاولة منهم لأخذ زمام المبادرة ضد الدعوة والدولة والمجتمع، فصفّى عليه الصلاة والسلام زعيمين كان لهما دور كبير في تحزيب الأحزاب، وينتظر أن يتواصل نشاطهما التآمري، وهما سلام بن أبي الحقيق[1]، واليسير بن رزام الذي أمرّته خيبر بعد مقتل أبي الحقيق وشرع في تجميع غطفان وغيرها[2]ضد الدعوة والدولة والمجتمع.

وقد كان لهذا العمل الوقائي المبكر دور كبير في إرباك موقف يهود خيبر وحلفائهم فترة من الزمن، أتاحت له عليه الصلاة والسلام إنضاج الظروف النفسية والمادية والسياسية للإجهاز على خيبر واحتوائها والتخلص من خطرها نهائياً. وهو ما كان للوعي بحركة الأحداث مدخل كبير في إنجازه، إذ جاء مباشرة بعد صلح الحديبية بفترة يسيرة شهدت فيها الأوضاع تطورات كبيرة لصالح الدعوة، تمكن عليه الصلاة والسلام من استثمارها بدقة متناهية.

النموذج التطبيقي الثاني: ونرى صورة دقيقة له في مبادرته عليه الصلاة والسلام إلى استثمار صدمة الأحزاب المرجعية، وأعماله الوقائية السريعة بعدها، التي عززت هيبة الدعوة والدولة والمجتمع، وعمّقت إضعاف القوى المضادة، وقلصت احتمالات تجمّعها مرة أخرى. فقد تحرّك بناء على تقدير دقيق للموقف على الساحتين الداخلية والخارجية، إلى القيام بالعمرة إحراجا لقريش أمام الرأي العام، وفرضا للأمر الواقع عليها، وتحقق له فعلا ما أراد، وتمكّن عبر ذلك من **تحييد مضغة الصراع نهائيا**، وإحداث تحول جذري في حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من مبادرته عليه الصلاة والسلام إلى استثمار كل هذه الظروف التي تمخّضت عنها صدمة الأحزاب، وقريظة، والحديبية، وتحييد مضغة الصراع، واحتواء

---

(81) البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع، 4/1481.
(2) ابن هشام، **السيرة**، 3/ 231.

وشلّ القوى الأعرابية، وإنهاء الخطر اليهودي.. في تأكيد هيبة الدعوة والدولة وتحقيق الاعتراف بها، وكسب التأييد لها، وإعداد الرأي العام العالمي لذلك على أوسع نطاق ممكن[1]، كما دلت على ذلك حركة مكاتبة الملوك وتهيئة ظروف الأمن أمام حركة الدعوة للانطلاق بقوة للتعريف بالإسلام وتبشير الناس به، والاحتكاك المباشر بنموذجه الاجتماعي الجديد، بعيدًا عن المقاومة التقليدية المباشرة له.

وقد يلمح في التحليل السياسي لهذه المبادرة الدقيقة –أي مكاتبة الملوك – بالإضافة إلى الأبعاد السابقة، بعد آخر في غاية الأهمية، وهو قصده عليه الصلاة والسلام التأثير النفسي على القوى المضادة، وحرمانها من روح المبادرة، عندما يرى البعض في هذه المكاتبات مغامرة خطرة ستألّب القوى الأمبراطورية على الدعوة والدولة والمجتمع، بما يقوّض أركانها، وتعيش من ثم –أي هذه القوى– حالة الترقب لردّ الفعل العنيف لهذه القوى الكبرى. بينما يرى البعض الآخر في ذلك مظهرا عمليا لقوة الدعوة والدولة والمجتمع، وبداية اتساع نفوذها واستحكامه، خاصة عندما لا ترى ردّ الفعلي السلبي، بل تبلغها أنباء ردود الفعل الإيجابية العديدة[2].

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يستثمر قاعدة الوعي العميق بحركة الأحداث، في فتح الآفاق أمام حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وتعميق إرباك القوى المضادة، ومواصلة تفكيك المجتمع التقليدي وتقويض نموذجه الاجتماعي، بفضل المتابعة الدقيقة للأوضاع والقدرة على استثمار المعطيات التي تتجمّع لديه بدقة وفعالية في الدعوة والبناء والمواجهة.

القدرة على استثمار الظروف والإمكانات المتاحة: القاعدة السابقة تتعلق بأهمية المعطيات والتحليل والتفسير والتوقع في عملية التخطيط والإنجاز، أي مقدمات وشروط فعالية الإنجاز الأولية، أما قاعدة استثمار الظروف والإمكانات المتاحة فتتعلق بهذا الاستثمار ذاته لما يتاح للدعوة من فرص وإمكانات، وهما أمران هامّان جدًّا في عملية البلاغ والبناء والمواجهة.

وما أكثر ما تتاح لعمليات التغيير فرص وإمكانات هامة، ولكن لا تستثمر بصورة فعّالة، بل وقد لا ينتبه إليها أحيانا، فتضيع أمامها فرص نادرة لا تعوّض بثمن. ولعل القدرة على الوعي بهذه الظروف والإمكانات المتاحة، ودقة استثمارها، من أبرز سمات العبقرية القيادية، في مجال فعالية الإنجاز. وهو ما كان عليه الصلاة والسلام على وعي عميق به، وبلغ في الأخذ به في عمله مستويات رفيعة من الدقة، أتاحت لحركة البلاغ والبناء والمواجهة فعالية نموذجية قصوى، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الأول: ونلمسه مثلا في حرصه على عقد صلح الحديبية، وتجاوز العديد من العقبات ذات الطابع الإجرائي أو الشكلي أو الظرفي، في سبيل تحقيق الاعتراف بالدولة وإتاحة الفرصة لانفتاح الدعوة على المجتمع التقليدي، وتعميق عملية الحوار والجدل الثقافي بين منظومتيهما المعرفيتين، ونموذجيهما الاجتماعيين، واعتباره عليه الصلاة والسلام ذلك فرصة ثمينة لاختراق المجتمع التقليدي في العمق، وتخفيف حدّة المواجهة بين الدعوة ومضغة المواجهة –قريش– كما يدل على ذلك قوله في بداية الأمر: {والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتم أياها}[3]، وضغطه، أثناء الحوار والمفاوضات الشاقة، على الأحداث في اتجاه تحقيق المهادنة، كما نرى ذلك في تأكيده لمحاوريه رغبته في السلم، واستعداده إلى مُمَادَدَةِ قريش مدّة يعيد فيها كل

---

(1) عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص293.

(2) ابن هشام، السيرة، 232/3؛ البيهقي، **الدلائل**، 376/4 وما بعدها.

(3) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الشروب، باب الشروط في الجهاد والمصالحة؛ 973/2.

طرف منهما تقييم الموقف واتخاذ الوجهة الصحيحة[1]، وهو ما تحقق فعلاً رغم معارضة قاعدة الدعوة لبعض بنود المعاهدة، واغتمامها منها اغتماما شديدا[2]. وقد بيّنت الأحداث بعد قليل عمق رؤيته ودقة تقديره للموقف، وحكمته البالغة في استثمار الظروف المتاحة، عندما لاحظ الناس آثار المعاهدة العميقة والشاملة على حركة المواجهة بعد ذلك واعتبار القرآن ما حدث فتحا مبينا[3].

النموذج التطبيقي الثاني:ونأخذه من دقة استثماره لأول ظهور علني كبير للدعوة ونموذجها الاجتماعي في مكة أثناء عمرة القضاء، لتبديد الشبهات، وفتح أعين قاعدة المجتمع التقليدي بل وقيادته على جوانب الفرادة والقوة والعظمة والتفوق والإبهار.. في الدعوة ونموذجها الاجتماعي، وإزالة الحواجز النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية أمام الناس لإعادة تقييم الموقف بصفة موضوعية متوازنة.

فقد حرص عليه الصلاة والسلام على إظهار القوة والجلد والانضباط والانسجام في قاعدة الدعوة فقال للناس: «**لا يرى القوم فيكم غميزة**»، وشحذ روح التحدي لديهم قائلا: «**رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة**».

كما استغل وجوده هناك لبناء علاقات إجتماعية مع قاعدة المجتمع التقليدي من خلال زواجه بميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وإعلام قريش بذلك، ودعوتهم إلى وليمتها، وإظهار عنايته ببعض قيادات قريش كسؤاله عن خالد بن الوليد والتنويه بعبقريته، وحاجة الدعوة إلى أمثاله[4]، استلالا لسخيمة نفسه، وتأليفا لقلبه على الإسلام، وهو ما حدث فعلا فأسلم بعد قليل من ذلك.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى صورة حيّة له في انتهازه عليه الصلاة والسلام فرصة نقض قريش عهد الحديبية، بإعانتها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين، لفتح مكة[5] وتحقيق هدف إستراتيجي للدعوة كان له ما بعده في مسيرتها الظافرة.

فرغم سرعة مبادرة قريش إلى تطويق الموقف ومحاولة تدارك الخطأ، عبر سفرة أبي سفيان ومسعاه الحثيث لتأكيد العهد وزيادة مدّته، إلا أنه عليه الصلاة والسلام أصرّ على موقفه في اهتبال هذه الفرصة الثمينة، والإجهاز على مضغة الشرك والوثنية، وتمّ له ذلك فعلا بصورة حسمت المواجهة بين الإسلام والقوى المضادة له نهائيا في شبه جزيرة العرب في فترة وجيزة بعد ذلك.

ولا نريد أن نتتبع مظاهر اقتداره عليه الصلاة والسلام على استثمار الظروف والإمكانات المتاحة في هذا الحدث الكلي الحاسم، لأنها كثيرة جدًّا ومعروفة، ولأن الذي يهمنا هو تأصيل القاعدة، وتأكيد أهميتها في فعالية الإنجاز وأصالته، وإلا فإن مواقف عديدة اتخذها عليه الصلاة والسلام في إعداد هذا الحدث وإنجازه، تدخل في صميم اقتداره على استثمار هذه القاعدة الهامة في الدعوة والبناء والمواجهة، كسرعة استيعابه أبا سفيان واستعماله في التأثير على موقف قريش، وكعفوه العام على أهل مكة، وإهداره دم فئة من عتاة الكفر ورؤوس المواجهة، وسرعة تحطيم الأصنام وتحرير البيت منها... الخ.

فهذه المواقف الكلية الثلاثة، وما تخلل كلا منها من مواقف جزئية كثيرة، تدخل كلها في تأكيد

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 321/2.
(2) ابن هشام، **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.
(3) ابن كثير، **السيرة**، 437/3.
(4) البيهقي، **الدلائل**، 350/4.
(5) ابن هشام، **السيرة**، 393/2.

قدرته على استثمار الظروف والإمكانات المتاحة، في تعزيز موقف الدعوة وموقعها على حساب موقف القوى المضادة وموقعها في حركة المواجهة بينهما، وهو ما يلقي ضوء كاشفا على سرّ اتسام جهده عليه الصلاة والسلام بالأصالة والفعالية والاطراد، ومن ثم بالقدرة على حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها ويعمّق الوعي بدور الاستثمار الشمولي المتوازن لسنن التسخير والاستخلاف في ذلك كله، إذ التحليل النهائي لمظاهر هذا الاقتدار، يفضي إلى تأكيد الدور الحاسم لشمولية وتكامل استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد في ذلك.

الحرص على الاستقرار وضمان حرية الدعوة:ونقصد بالاستقرار وحرية الدعوة هنا: توفير أجواء الأمان التي تضمن للدعوة حرية الانفتاح على الآخرين والاحتكاك بهم، وإدارة الحوار والجدل الثقافي معهم، بشأن المنظومتين المعرفيتين ونموذجيهما الاجتماعيين لكل من الدعوة والمجتمع التقليدي، وأيّ منهما أحقّ بالسيادة وأقدر عليها في منطق وحقائق سنن التسخير والاستخلاف المهيمنة على الوجود الإنساني.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك جيداً أن الاستيعاب الدعوي للمجتمع التقليدي، يشكّل هدفا محوريا للدعوة وضمانةً أساسية لنجاحها، فلم يغفل عن ذلك لحظة، بل كان يعمل على تحقيق ذلك بكل قواه، ويعمّق وعي قاعدة الدعوة بالأولوية الاستراتيجية للاستيعاب الدعوي.

كما كان يدرك عليه الصلاة والسلام على المستوى المنهجي أو التسخيري أهمية الاستقرار ودور الحرية في فسح المجال أمام الانفتاح والاحتكاك، والحوار والجدل الثقافي الخصب، الذي يفضي إلى تحقيق هذا الاستيعاب الدعوي، فأولاه عناية كبيرة منذ بداية الدعوة بمكة، وكثّف هذه العناية في هذه المرحلة بالخصوص، لتوفر الكثير من الشروط الموضوعية التي تجعل الدعوة تحقق الاختراق والاحتواء الثقافي للمجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية، بسرعة وعمق وشمول، وهو ما حدث فعلا عندما تمّ بعض الاستقرار، وتوفرّت للدعوة بعض أجواء الحرية. التي انفتحت فيها قاعدة الدعوة على المجتمع التقليدي بعد الحديبية، وجادل كل منهما الآخر في منظومته المعرفية ونموذجه الاجتماعي.

وفي هذا السياق يقول الزهري في هذه المرحلة: "ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكلّم أحد في الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر"[1].

ونعطي هنا بعض النماذج التطبيقية عن حرصه عليه الصلاة والسلام الشديد على توفير أجواء الاستقرار والحرية لحركة الدعوة على سبيل المثال، ودور ذلك في تحقيق أهداف المرحلة:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من هدنة الحديبية التي قصد عليه الصلاة والسلام من ورائها، تجميد حالة المواجهة مع مضغة الصراع[2]، وتأمين أجواء الحرية للدعوة، وقد تحقق له ما أراد فعلا. وأشرنا آنفا إلى الأثر الهائل لهذه الهدنة على حركة الاستيعاب الدعوي الذي استمر بعد ذلك منحناه البياني في تصاعد مستمر.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من تجاوزه عليه الصلاة والسلام لبعض الشروط الصعبة التي وضعتها قريش في بنود صلح الحديبية، كردّ من أسلم من قريش بغير إذن وليّه، الذي يحدّ بل يوقف حركة الاستيعاب الدعوي لقريش خاصة. وردّ المسلمين عن أداء العمرة، وإملاء رغبتهم –أي

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 321/2.

(2) عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص223.

القرشيين- في تجريد المعاهدة من أية خصوصية إسلامية، كرفضهم كتابة اسم الله وقبوله عليه الصلاة والسلام بذلك، وإعادة بعض من جاء مسلما لتوه كأبي جندل رضي الله عنه وهو يستغيث في أسلوب هزّ مشاعر قاعدة الدعوة وزلزلها وأثر على موقفها السلوكي تجاه المعاهدة بصورة حادّة، تجلت في التثاقل عن الاستجابة لأمر الرسول لها بالتحلل من الإحرام[1].

رغم كل ذلك تجاوز عليه الصلاة والسلام بعض هذه التحديات الآنية، وفضل احتمالها من أجل أولوية الاستقرار وتوفير الحرية للدعوة، لإدراكه العميق أن ذلك سيغير كل هذه الأوضاع الصعبة بسرعة، حينما يتاح لقاعدة الدعوة الاحتكاك بقاعدة المجتمع التقليدي، وهو ما وقع فعلا كما نوهنا إلى ذلك سابقا.

النموذج التطبيقي الثالث: ونلمسه في حرصه عليه الصلاة والسلام على كسر الحواجز النفسية بين الدعوة وقوى المجتمع التقليدي[2]، لإدراكه العميق أن ذلك هو الشرط الأكثر أهمية في الاستقرار وتوفر الحرية للدعوة، فجاءت صدمة الحديبية، ثم تعززت بصدمة عمرة القضاء، ثم بالصدمة الكبرى وهي فتح مكة، وما رافق ذلك وتخلله من أخذ ببعض المفضولات، وضبط للنفس، ومحاولة اقتراب من القوى الاجتماعية المختلفة تألیفاً لها.

كما لا ننسى هنا درر مكاتبة الملوك والأمراء ومحاولة تهيئة بيئاتهم نفسيا وفكريا وسياسيا للتعايش مع الدعوة، والانفتاح السلمي على نموذجها الاجتماعي ومنظومته المعرفية، لأنها كانت تدخل كلها في استراتيجية تحقيق الاستقرار وضمان حرية الدعوة. وقد أشرنا إلى الأثار الإيجابية الهامة لذلك على سير حركة الدعوة والدولة والمجتمع، وكيف وفرن أجواء الاستقرار والحرية للدعوة أحسن شروط الاختراق والاحتواء الثقافي للمجتمع التقليدي.

ويلحظ باستمرار في الفعل الدعوي النبوي، مدى اطراد استثماره الشامل المتوازن لسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، سواء تعلق ذلك بحركة البلاغ، أو البناء، أو المواجهة، كما يلمس ذلك من يتتبع وقائع هذه المواقف والأحداث التي ذكرناها هنا على سبيل المثال، إذ كانت كلها مبنية على وعي عميق بهذه السنن وحسن استثمارها في إدارة عمليات التدافع، وهو ما يفسر لنا بصفة موضوعية أبعاد الأصالة والفعالية والاطراد في أدائه الفكري والسياسي والاجتماعي عليه الصلاة والسلام، ويضع بالتالي مسألة التأسي في إطارها الواقعي الصحيح المتاح، في أغلب وأعم مستوياتها.

استثمار قاعدة النموذج في الدعوة والبناء والمواجهة: ونقصد بالنموذج هنا: التجسيد العملي الحيّ لمفاهيم الدعوة وقيّمها في الفكر والسلوك والعلاقات وأنظمة الحياة الاجتماعية والسياسية... وجعل قوى المجتمع التقليدي تأخذ صورة حقيقية مشخّصة عن المنظومة المعرفية للدعوة ونموذجها الاجتماعي وآفاقها الحضارية من خلال المعاينة والمعايشة العملية للحياة في المجتمع الإسلامي الجديد.

وتبرز أهمية قاعدة النموذج في عملية التغيير، ويتأكد دورها في تحقيق فعالية أداء حركة الدعوة والبناء والمواجهة في مراحل الانفتاح والاحتكاك والحوار، والجدل الثقافي بين المجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية من جهة والمجتمع الجديد ومنظومته المعرفية من جهة أخرى بالخصوص، إذ يحتاج الحسم لأي منهما يومئذ، إلى **المؤيّد الفعال**، الذي يبدّد الشبهات، ويرفع الالتباسات، ويضع بين يدي الرأي العام المعطيات العملية الحاسمة التي تدفع به إلى الانحياز إلى النموذج الأكثر استجابة

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، 2/ 616.
(2) عون الشريف، **نشأة الدولة الإسلامية**، ص210.

لفطرته، وانسجاما مع طموحاته، وتلبيّة لحاجاته... ألا وهو **النموذج العملي**[1] في مستواه المعرفي والبشري أو الفردي والاجتماعي أو الحضاري.

فالنموذج الاجتماعي الذي تكاملت فيه هذه الأبعاد والمستويات الثلاثة؛ الفكرية والفردية والاجتماعية.. بصورة أصيلة وفعالة ومطردة، هو الذي يكسب رهان الاستيعاب، وهو ما كان عليه الصلاة والسلام على وعي عميق ودقيق به، فاجتهد وسعه في استثمار قاعدة النموذج في عملية البلاغ والبناء والمواجهة، كما نلمس ذلك من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من معاملته عليه الصلاة والسلام لثمامة بن أثال أحد وجوه اليمامة عندما أسرته إحدى سرايا المسلمين، فطلب الرسول من الصحابة حجزه والإحسان إليه، وتركه ثلاثا كان يمرّ عليه خلالها يقول له: «**أسلم يا ثمامة**»، ويسأله عن موقفه من الإسلام: «**ما عندك يا ثمامة**»؟ فيقول له: عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر عليه السؤال كلما مرّ به أو زاره، وكان يستأن به حتى يرى بنفسه ما عليه الإسلام من السمو والعظمة والفرادة، من خلال احتكاكه المباشر بنموذجه الاجتماعي في العلاقات والمعاملات، فلما كان اليوم الثالث جاءه فسأله، فردّ عليه بنفس الجواب، فقال: «أطلقوا ثمامة». فانطلق الرجل إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم رجع فأسلم، وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: يا محمد ما كان على الأرض وجه ولا دين ولا بلد أبغض إليّ من وجهك ودينك وبلدك، فقد أصبح وجهك ودينك وبلدك أحب الوجه والدين والبلد إليّ.

وخرج بعد ذلك إلى مكة فأغاظ قريشا، وذهب إلى اليمامة، فمنع قومها من الحمل إلى قريش، حتى أضرّبها العوز وأكل الناس العلهز، ولم يشفع فيهم إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام[2].

النموذج التطبيقي الثاني: ونلمسه في الصورة الرائعة التي قدّمها لقريش عن النموذج الاجتماعي للدعوة في عمرة القضاء، حينما أظهر وأصحابه الجلد والنظام والانضباط، وقال لأصحابه: «**لا يرى القوم فيكم غميزة**». مؤكدًا بذلك الصورة التي نقلها عروة بن مسعود عنهم يوم الحديبية إلى قريش بعد عودته من سفارته وذكره لهم ما شاهده من تغيّر مذهل في أفكار الناس وسلوكهم وعلاقاتهم وسمتهم.. تجاه الانسجام والتكامل والفعالية[3] وهو ما بدّد الصورة الشاحبة، بل والقاتمة التي رسمتها لهم الدعاية، وحرب الإشاعات في أذهان قاعدة المجتمع التقليدي وجعلها تراجع موقفها بصورة جذرية من الدعوة كما دلت على ذلك حركة الإقبال على الإسلام في هذه المرحلة والتي تليها.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى صورا عديدة له في فتح مكة، كأمره عليه الصلاة والسلام أصحابه باستعراض الأداة والعدّة وإظهار الانضباط والحزم أمام أبي سفيان، مما أثر فيه أبلغ الأثر وهرع يحذّر قريشا من مغبّة المقاومة[4]. وكعفوه عن الناس عفوا عامّاً رغم ما سلف منهم، وما أحدثه ذلك من هزّة نفسية وفكرية عميقة في المجتمع القرشي الذي أخذ ينقلب على نفسه، ويندمج بسرعة في حركة التغيير الجديدة وكإقراره لما لا يتعارض مع الإسلام من مواريث المجتمع التقليدي، ومحافظته

---

(1) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص 78.

(2) أخرجه البخاري، في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، 1589/4؛ البيهقي، **الدلائل**، 81/4.

(3) ابن هشام، **السيرة**، 312/2.

(4) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 389/2؛ البيهقي، **الدلائل**، 41/5-44.

على الامتيازات الاجتماعية والسياسية لبعض الأفراد والجماعات، كإبقائه مفاتيح الكعبة عند بني طلحة، مع رغبة رجال من بني هاشم قومه عليه الصلاة والسلام الاستئثار بذلك فرفض[1].

وكتطبيقه لمبدأ المساواة، وإنهاء القيم والأعراف والتقاليد المرتبطة بالفوارق الاجتماعية القائمة على التمايزات الشكلية غير الموضوعية، وأقام بدلها مقاييس جديدة قائمة على التمييز الموضوعي عبر معيار الصلاح والتقوى والإصلاح... كما يدل على ذلك أمره بلالاً العبد الحبشي الأسود بالأذان فوق الكعبة[2] إلى غير ذلك من المواقف والقرارات التي جسدت أمام الرأي العام صورة جديدة عن الحياة الإنسانية.

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يستثمر قاعدة النموذج في التعريف بحقيقة الإسلام، وعرض نموذجه الاجتماعي، ومواجهة شبهات القوى المضادة، وتحرير قاعدة المجتمع التقليدي بالخصوص من سلطان هذه الشبهات، وفتح المجال أمامها لدخول مرحلة **الاستطلاع والمقارنة**، التي تقودها مع مرور الزمن إلى اكتشاف عظمة الإسلام، والاستيقان بأحقية نموذجه الاجتماعي في السيادة، واقتداره على التفوق والغلبة في عملية التدافع والتداول والتجديد.

ويلحظ من تحليل أبعاد ومكونات "**الدورة الانجازية**" لمواقفة وأفعاله عليه الصلاة والسلام المذكورة في هذه النماذج التطبيقية السابقة، كيف كان يستثمر سنن التسخير؛ في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، في بناء هذه المواقف والمبادرات والأفعال بناء متكاملا ومتوازنا، يمنحها الأصالة والفعالية والاطراد بصفة مستمرة. فقد كان عليه الصلاة والسلام يوظّف المعطيات النفسية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والروحية والمادية... في بناء أفعاله ومبادراته التي تأتي منسجمة مع سنن التسخير متناغمة معها، الأمر الذي يعطي للنموذج الاجتماعي الإسلامي قوة تأثيرية كبرى في معترك التدافع والتداول والتجديد.

القدرة على الإدارة المتفوقة للحرب النفسسية:الحرب النفسية بعد أو جانب هام من جوانب عمليات المواجهة بين القوى الاجتماعية المتدافعة من أجل المداولة والهيمنة الحضارية، وهي لا تعرف التوقف، بل مستمرة في كل الحالات والمراحل التي تمرّ بها حركة المواجهة والتدافع؛ لأن القصد منها هو ضرب معنويات القوى المضادة ومحاولة إضعاف قدرتها على الصمود والمواجهة، والوصول معها إلى حالة الاحتواء أو التحييد وتجميد الفعالية.

ومن يمتلك القدرة على الإدارة المتفوقة للحرب النفسية، سواء في حالة استعمالها ضد القوى المضادة، أو في حالة مواجهة آثارها على المجتمع وقواه المختلفة، فإن يكون قد امتلك فعلا أقوى وسائل المبادرة والدفاع معا، واستجمع شرطا هامًّا من شروط فعالية الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة. لأن الإدارة المتفوقة للحرب النفسية تضعف فعالية التحديات الخارجية، وتقوّي فعالية الأداء الذاتي أو الداخلي للدعوة والدولة والمجتمع.

والحرب النفسية كما نوّهنا بذلك آنفا، تحتاج إلى إدارة متفوقة؛ لأنها ليست سهلة الاستعمال بل هي في غاية الصعوبة والخطورة، لما للاستعمال الخاطئ لها من آثار وعواقب وخيمة على مصداقية المستعمِل لها، وعلى فعالية الاستعمال ذاتها بالإضافة إلى ما تحتاجه من تحكم كبير في سنن التسخير والرسول عليه الصلاة والسلام استثمر قاعدة الإدارة المتفوقة للحرب النفسية بكفاءة عالية، لانضباط أدائه الاجتماعي انضباطاً شاملاً ومتكاملاً ومتوازناً بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، التي كانت

---

(1) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 411/2؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 240/2.
(2) البيهقي، **دلائل النبوة**، 79/5.

تمنح «**الدورة الانجازية**» لفعله في مجال الحرب النفسية أصالة وفعالية قصوى، كما نلحظ ذلك في النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ويمكن أن يقف الإنسان على صور كثيرة جدًّا لما في حادث صلح الحديبية[1]، من بداية إشاعة خبر العزم على أداء العمرة في القبائل، واستنفار الناس لذلك. ومرورا بالمسيرة الإعلامية الكبرى التي جابت وغطت منطقة شاسعة بين مكة والمدينة، واستغرقت شهرا ونصف الشهر[2]. إلى إغاضة قريش وهزّ كيان قواها الاجتماعية كلها بهذه المفاجأة غير المتوقعة في هذه الظروف على الأقل، إلى إدارته المتفوقة لمعركة المفاوضات المضنية، وترويضه لقريش. إلى مواجهة الحرب النفسية المضادة من خلال فسحه عليه الصلاة والسلام المجال أمام الصحابة للرّد على عروة بن مسعود وسهيل بن عمرو مبعوثي قريش اللذين حاولا التهوين من شأن تماسك قاعدة الدعوة، وشككا في مصداقية ولائها للدعوة وقيادتها عندما يجدّ الجدّ. إلى امتصاصه السريع لآثار ما بدا للصحابة لحظتها أنه انتصار سياسي كبير لقريش[3]... الخ.

النموذج التطبيقي الثاني: ونجد صورا كثيرة له كذلك في وقائع عمرة القضاء التي كانت محكًّا حقيقيا حاسما **للإدارة المتفوقة للحرب النفسية**، انهار فيه الجدار النفسي الكثيف الذي بنته الدعاية المضادة للدعوة الإسلامية منذ بدايات العهد المكي حتى الآن، كما نلحظ ذلك في النتائج الهامة لهذه الأيام الثلاثة التي قضاها المسلمون بمكة، والتي يلخّصها الانطباع الأولي لقاعدة المجتمع المكي وهي تعقّب على ما أشيع من أن محمدا وأصحابه قد أوهنتهم الحمّى، وعظّهم الفقر والحاجة، حيث قال الناس لما عاينوا ما بالمسلمين من قوة، وما هم عليه من نظام وانضباط، ومعنويات عالية، واعتزاز عجيب بدينهم، وثقة مطلقة في مستقبل نموذجهم الاجتماعي: «**هؤلاء الذين ذكرتم أن الحمى وهنتهم، هؤلاء أجلد منا**»[4]. ما يرضون بالمشي، إنهم لينقزون نقز الظباء[5].

وقد كان لهذا الموقف صداه العملي العميق، إذ سرعان ما أخذت قيادات ذات وزن سياسي كبير من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، تبادر إلى الإسلام، بعد أن تمكن عليه الصلاة والسلام من كسر الحواجز النفسية وتحرير الناس منها، بفضل قدرته الفائقة على الإدارة المتفوقة للحرب النفسية في بعديها الهجومي والوقائي معا. لأن من يتتبع وقائع عمرة القضاء يلمس قدرته عليه الصلاة والسلام على مواجهة الحرب النفسية وتحويل مفرداتها إلى حرب نفسية مضادة، عن طريق تغيير الصورة المرسومة للمسلمين، و إظهارهم في صورة نموذجية باهرة يطمح إليها كل إنسان.

وعندما نتساءل عن سرّ هذا الاقتدار ونبحث عن أسبابه، سنجده في قدرته عليه الصلاة والسلام على استثمار سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.. في بناء أفعاله الدعوية بناء متوازنا، تستلهم فيه المعطيات النفسية والاجتماعية والمادية المتاحة بصورة فعّالة، تؤثر على معنويات الرأي العام وتضعف في نفسه روح الصمود من جهة وروح المقاومة للدعوة من جهة أخرى.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى صورا عديدة له كذلك في وقائع فتح مكة، أشرنا إلى بعضها في سياق تأصيل قواعد أخرى سبقت، كحشده عليه الصلاة والسلام أكبر قوة بشرية أتيحت له

---

(1) سليم عبد الله حجازي، **منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية**، ص128 وما بعدها.
(2) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 324/2.
(3) ابن هشام، **السيرة**، 2/ 318.
(4) البيهقي، **الدلائل**، 325/4.
(5) أخرجه الإمام أحمد في **المسند**، مسند عبد الله بن العباس،(مؤسسة قرطبة، القاهرة، 1988)، 305/1.

ومحاصرة مكة بها[1]، وإضاءة ليلها عبر عشرة آلاف شعلة نار جعلت أبا سفيان يقول فزعاً: "ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا"" وكحرصه عليه الصلاة والسلام على شلّ أية بذرة لروح المقاومة في زعيم قريش أبي سفيان، من خلال إشعاره المباشر بالقوة المذهلة للمسلمين، وهو يرى كتائبهم تمرّ عليه، فقال: "ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة"، تعبيرا عن الأثر البالغ الذي أحدثته الحرب النفسية المحكمة في كيانه وموقفه.

وفي نفس السياق أظهر عليه الصلاة والسلام منتهى الحزم مع كل من يحاول المقاومة، وحرص أن يشيع ذلك في قريش، شلاً لإرادة المقاومة لديها، فقد أمر الأنصار أن يضربوا بقوة فئات جندتها قريش للمقاومة، وهو ما يخيف قريشا كثيرا، لأنها تعلم أن الأنصار لا ترحمها وستقاتلها بشراسة، خاصة وأن خبر سعد بن عبادة الذي قال في غمرة الشعور بالقوة: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة"[2]يكون قد بلغها.

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يستثمر الحرب النفسية بكفاءة فذّة، أعطت جهده فعالية قصوى في عملية البلاغ والبناء والمواجهة، مع ما كان يفرضه عليه بعد الأصالة من تقييد وانضباط مبدئي صارم في وسائله، في الوقت الذي كانت فيه القوى المضادة تستعمل في حربها النفسية ضد الدعوة ونموذجها الاجتماعي كل ما أتيح لها من وسائل مشروعة أو غير مشروعة؛ لأن الغاية عندها تبرر الوسيلة.

ويرجع سرّ كفاءته في استثمار قاعدة **الإدارة المتفوقة للحرب النفسية** -كما أكّدنا ذلك مرارا- بصورة أصيلة وفعالة ومتوازنة، إلى الاستفادة من معطيات الوعي التسخيري والاستخلافي، الذي تمنحه له شمولية وتكاملية الاستثمار لسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد؛ لأن هذه الشمولية وهذا التكامل يوفرّان **عمق الفهم ودقته**، ويساعدان بعد ذلك على **موضوعية التوّقع والاستشراف**، ومن ثم على **واقعية التخطيط**، وفعالية الدعوة والبناء والمواجهة، في إطارها المجموعي أو الكلي أو الاستراتيجي الذي لا تؤثر فيه بعض الاهتزازات أو التراجعات الآنية والجزئية.

نكتفي بهذا البسط لعيّنات من قواعد المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، مع أن هناك عينات عديدة أخرى لهذه القواعد استثمرها عليه الصلاة والسلام في تحقيق أصالة الجهد وفعاليته وضمان اطراديته، نشير إلى بعضها بصورة مجملة لا تخل بالمنهج الذي اعتمدناه في استجلاء دور المنهج في الفعل الدعوي النبوي عامة، وفي قضية حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خاصة..من ذلك مثلاً:

القدرة على استثمار المبادرة في الدعوة والبناء والمواجهة: وخاصة في حالات التوّتر وضعف استجابة قاعدة الدعوة، حيث يكون لأخذ زمام المبادرة ووضع الناس أمام الأمر الواقع بصورة عملية، دور فعال في امتصاص التوتر وشحذ فعالية الاستجابة، وتغيير مجاور الاهتمام وتركيزها حول الإنجاز ولو بصورة تدريجية، كما نرى ذلك في تطبيق قاعدة المبادرة في مواجهة تباطئ المسلمين في الاستجابة لأمره لهم بالحلق والنحر في الحديبية، من شدة اغتمامهم ببعض بنود الصلح، فلما بادر إلى الفعل أخذوا يحذون حذوه[3]، وطابت نفوسهم شيئا فشيئا.

وأخذ بقاعدة المبادرة في عقد الصلح ذاته، ولم يلتفت إلى المعارضة العاطفية لبعض الصحابة،

---

(1) ابن القيم، **زاد المعاد**، 428/3.
(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي، 1445/4؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 235/2.
(3) ابن القيم، **زاد المعاد**، 307/3.

بعد أن لاحظ قصور إدراكهم لأبعاد الموقف وآفاقه الإيجابية بالنسبة لمستقبل المواجهة، وكان في ذلك خير عظيم أدرك الناس أبعاده فيما بعد[1]، فازدادت ثقتهم في الاقتدار القيادي له عليه الصلاة والسلام.

تعميق وعي قاعدة الدعوة بفقه الموازنات: من خلال الممارسة العملية الدقيقة، وتوفيقه عليه الصلاة والسلام بين المصالح، جلبا لأحسنها، ودفعه للمفاسد ولو بتحمل أخفها لدفع أعظمها ضررا. وهو فقه دقيق له علاقة وطيدة بالفعالية الانجازية، وقد يكثر الاحتياج إليه في مراحل ضعف الدعوة وكثافة التحديات التي تواجهها، فيكون وسيلة فعالة للتخفيف منها، والمحافظة على التوازن بين أبعاد الأصالة والفعالية والاطراد في حركتها.

وقد تجلى هذا في الدروس البليغة التي تعلمتها قاعدة الدعوة عمليا من إدارته عليه الصلاة والسلام المحكمة للمعركة السياسية الدقيقة يوم الحديبية[2]، وكيف مارس فيها عليه الصلاة والسلام فقه الموازنات والتوفيقات الصعبة، بين مصالح الأفراد والدعوة والدولة والمجتمع، في أبعادها الآنية والمستقبلية، والمبدئية والمرحلية، وما كان يقف وراء ذلك الاقتدار والتوفيق الرائع، من فقه شامل وعميق بسنن التسخير والاستخلاف.

استثمار قاعدة التنويه في شحذ فعالية الالتزام والأداء: من خلال إبراز بعض محاسن الناس، وإلفات النظر إلى ما في الأفراد والجماعات من نواحي التميز والامتياز والإيجابية أو الخيرية بصفة عامة، وهو أمر يبعث الحيوية والتجدّد في النفوس، ويحفزها إلى المزيد من الالتزام وتحسين مستويات أدائها الاجتماعي.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يدرك جيدا أهمية التنوية في حفز الهمم، وشحذ فعالية الأداء الاجتماعي لدى الناس، فاستثمره أحسن استثمار في تعميق التزام قاعدة الدعوة، واستقطاب الرأي العام كما نلمس ذلك في تنويهه بالأشعريين غداة القدوم عليه عشية فتح خيبر، وما أحدثه ذلك في نفوسهم من المسرّة والإحساس بالمسؤولية[3]. وتنويهه بخالد بن الوليد وعمرو بن العاص...، وتسميته خالداً بعد ذلك سيف الله المسلول.. إلى غير ذلك من المواقف الكثيرة، التي طبق فيها قاعدة التنويه في شحذ الفعالية الروحية والسلوكية والانجازية لقاعدة الدعوة عامة.

تعميق الوعي بأهمية استثمار الخبرة الإنسانية: حرصًا على فعالية الإنجاز، وعدم الوقوف أمام الإمكانات المتاحة موقفا سلبيا، وتجاوز ذلك أحيانا إلى استثمار الوسائل الاستثنائية إن اقتضت الضرورة ذلك، وتعميق وعي قاعدة الدعوة بأن الخبرة الإنسانية العامة ميراث بشري يدخل في **الميزانية التسخيرية** للإنسان، الذي عليه أن يستفيد من هذه الخبرة في تحقيق فعالية الأداء الاجتماعي. وهو ما نرى صورا كثيرة له في ممارساته عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة، كاتخاذه خاتما لطبع رسائله لما مسّت الحاجة إليه، واستعماله المنجنيق الذي وجده بخيبر، واستفادته من خبرة يهود خيبر في المحافظة على نماء غلال الأرض، وتوليته خالداً وابن العاص رغم حداثة إسلامهما، انتفاعا بكفاءاتهما.

تعميق وعي قاعدة الدعوة بالثقافة الإمنية: سواء تعلق الأمر بأمن الدعوة أو القيادة أو المجتمع أو الأفراد... فقد كان عليه الصلاة والسلام يربي في الصحابة روح اليقظة والانضباط، ويدربهم على الاحتياط، واحترام أسرار الدعوة والدولة والمجتمع، والحرص على المحافظة عليها.

---

(1) عرجون، **محمد رسول الله**، 253/4.
(2) ابن كثير، **السيرة**، 335/3؛ البقاعي، **نظم الدرر**، 237/18.
(3) أخرجه أحمد في **المسند**، مسند أبي موسى الأشعري، 401/4.

وهو ما نلمسه مثلا في حراسة الرسول عليه الصلاة والسلام في عمرة القضاء أثناء طوافه، وكتم أخبار فتح مكة حتى عن أقرب الناس إليه، ووضع الحراس على الأنقاب حتى لا تتسرب المعلومات إلى قريش، واستثمار حادثة حاطب رضي الله عنه في تعميق هذا الوعي الأمني، وأخذه الأهبة اللازمة في كل من الحديبية[1] وعمرة القضاء[2] معا، احتياطا للطوارئ.

شحذ الوعي بأصول العلاقات الاجتماعية: لما لقوة شبكة العلاقات الاجتماعية من أهمية بالغة، في فعالية الأداء الاجتماعي[3] لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، إذ المجتمع يكون له من قوة الإنجاز والتأثير بقدر قوة وتماسك وانسجام شبكة علاقاته الاجتماعية، سواء على مستوى العلاقات الأسرية، أو العلاقات السياسية، أو العلاقات الاقتصادية، أو العلاقات الثقافية.. وهو ما دأب الوحي عامة والتجسيد النبوي له على تأكيده وتعميق وعي قاعدة الدعوة به.

فكثر التأكيد على الشكر، والتواضع، والأمانة، والوفاء، والانضباط، والصدق، والتثبت، والأخوة، والعدل، والإصلاح، والبعد عن أخلاق الضعف وتفتيت شبكة العلاقات الاجتماعية، وهو ما تكفلت به سورة الحجرات بصورة مكثفة وشاملة[4]، وورد في سورة الفتح حديث مركّز عن الازدواجية السلوكية ومخاطرها الكبرى على شبكة العلاقات الاجتماعية، في سياق تعرية القوى الانتهازية[5] والدفع بها إلى المزيد من التكامل والانسجام الذاتي والاجتماعي، أو وقاية المجتمع من مضاعفات سلوكها الانفصامي عند تعذر ذلك[6].

ويلحظ من (سورة الحجرات) كيف شحذ وعي قاعدة الدعوة في اتجاه الاندماج والتكامل والعالمية، انسجاما مع توسّع الإطار المكاني للدعوة وتدرّجها في استيعاب قبائل وشعوب وأمم وثقافات وحضارات جديدة، وإعادة صياغتها وتكييفها مع الآفاق الحضارية الجديدة للإسلام كما قال تعالى: **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]**[7].

استخلاص المواقع والمؤسسات الحيوية من القوى المضادة: وهو ما نلمسه في حرصه عليه الصلاة والسلام على افتكاك مكة المكرمة من القوى المضادة، وحرمانها من استثمار دورها الروحي والسياسي والاقتصادي ضد الدعوة، وقبل أن يصل إلى استخلاصها منها تماما وجعلها مؤسسة استراتيجية خادمة للدعوة، زاحم قريشا على استثمارها بدءًا من صلح الحديبية، كما لاحظنا ذلك مرارا في سياق قواعد عديدة، ولم يتركها تنفرد باستخدامها ضد الدعوة والدولة والمجتمع، بعد أن توفّرت له بعض شروط تحقيق هذه المزاحمة، التي سرعان ما أفضت إلى استخلاصها نهائيا من القوى المضادة.

ضمان شمولية وتوازن حركة الدعوة والبناء والمواجهة: وهو ما نلحظه بعد هدنة الحديبية، التي فتحت المجال أمام عملية الانفتاح والجدل الثقافي الواسع مع قوى المجتمع التقليدي المختلفة، واجتذبت إليها اهتمام قاعدة الدعوة بصورة واسعة ومكثفة، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام استطاع

---

(1) ينظر: **صحيح البخاري**، كتاب المغازي.
(2) ابن حجر، **فتح الباري**، 243/7.
(3) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، 125.
(115) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 214/26 وما بعدها؛ سيد قطب، **الظلال**، 421/4، وما بعدها.
(5) ابن عاشور، **المرجع نفسه**، 142/26.
(6) البقاعي، **نظم الدرر**، 301/18.
(7)**القرآن الكريم**، سورة الحجرات، 13.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أن يضمن التوازن في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، بحيث أخذ كل محور منها حقه من الاهتمام والتركيز، فرأيناه عليه الصلاة والسلام لا يغفل في غمرة هذا الانفتاح الدعوي على المجتمع التقليدي عن العناية بالبعد الوقائي، بل ظلّ في علاقاته الخارجية يتحرك على المحورين السّلمي والجهادي معا، مستوعبا لفئات من هذه القوى، ومحيّدًا لأخرى ومجمّدا لفعاليتها[1]، ومقاوماً لغيرها وكاسرا لشوكتها.

هذه بصفة عامة عينات من قواعد المنهج التي انضبط بها جهده عليه الصلاة والسلام في حركة البلاغ والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، مع بقية العديد من القواعد التي سبق الحديث عنها في المراحل الماضية من مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، فأعطته أصالة وفعالية متزايدة، كما لاحظنا ذلك مرارا في صفحات هذا الفصل، ويتأكد لنا أكثر عندما نستعرض نتائج ومنجزات الدعوة في هذه المرحلة.

منجزات الدعوة في هذه المرحلة:

إذا كان الهدف المحوري للدعوة في هذه المرحلة هو تحقيق الاعتراف بالدولة، وفتح آفاق الامتداد أمام الدعوة ونموذجها الاجتماعي، والذي اقتضى تحقيقه الحركة المتوازنة والمركّزة على ثلاثة محاور كبرى هي:

- سرعة ودقة استثمار صدمة الأحزاب وبعدها صدمة الحديبية في تفكيك واحتواء القوى المضادة للدعوة.
- وتكثيف العناية بالاستيعاب الدعوي واختراق المجتمع التقليدي ثقافيا واجتماعيا وسياسيا.
- وتكثيف العناية بتعميق التحول التربوي والاجتماعي على استكمال بناء النموذج الاجتماعي الإسلامي البديل.

إذا كان الجهد النبوي كان يستهدف في هذه المرحلة تحقيق الأهداف السابقة، فأين وصلت حركة الدعوة والبناء والمواجهة في ذلك يا ترى؟ وهو ما سنحاول إلقاء بعض الأضواء عليه في هذه الفقرة الأخيرة من الفصل بصورة مركّزة، بعد أن بسطنا القول في ذلك في قواعد المنهج وتطبيقاتها المختلفة.

منجزات الدعوة على مستوى تفكيك واحتواء القوى المضادة: لاحظنا في هذه المرحلة كيف استثمر عليه الصلاة والسلام صدمتي الأحزاب والحديبية بدقة وفعالية فذة، في تعميق تفكيك القوى المضادة وشلّ فعاليتها، والدفع بها تدريجيا نحو الاحتواء، وفق برنامج زمني متماسك ومثير للدهشة والإعجاب، في دقته وبراعته[2].

فبعد انتكاسة الأحزاب مباشرة، تحرّك عليه الصلاة والسلام لمواصلة تعميق ارتباك القوى الأعرابية المحيطة بالمدينة، بضرب إمكانها الاقتصادي، وشلّ روح المبادرة ضد الدعوة والدولة والمجتمع لديها، و العمل على احتوائها سياسيا وثقافيا عبر الموادعات، أو الاختراق الثقافي والاجتماعي، ولم يمنح لأية قوة منها فرصة أخذ نفَسها وتجميع قواها، بل كان يفاجئها ويربكها وهي بعد في مرحلة التفكير أو الإعداد، ليشلّ حركتها ويأمن جانبها، ويحدث تغييراً جذريا في استراتيجية عملها، بعد أن تجد نفسها أمام الأمر الواقع، الذي يدفع بها تدريجيا نحو إعادة تقييم موقفها من الدعوة والدولة والمجتمع بصفة موضوعية شاملة ومتوازنة، تجد نفسها معه في سير محكم نحو الإسلام ونموذجه الاجتماعي، إن عاجلا أم آجلا.

---

(1) محمد حسين هيكل، **حياة محمد**، ص381.
(2) إبراهيم بيضون، **الحجاز والدولة الإسلامية**، ص114.

ونفس السياسة انتهجها مع مضغة المواجهة -قريش- التي وجدت نفسها مشلولة تمامًا، ومحاصرة من كل جانب، ولم يبق لها إلا الاستسلام للأمر الواقع، وإعادة تقييم موقفها بصورة واقعية متوازنة، خاصة بعد شلّ فعالية القوى الأعرابية، وإحراجها -أي قريش- أمام الرأي العام العربي وانتزاع الاعتراف بالدعوة والدولة والمجتمع منها في صلح الحديبية، وكسر الحواجز النفسية تجاه الإسلام بعمرة القضاء التي مهدّت الطريق إلى فتح مكة واستسلام مضغة المواجهة، والتحاقها أخيرًا بالدعوة والدولة والمجتمع، فاسحة بذلك المجال أمام حركة استيعاب واسعة وسريعة للقوى المضادة كلها. ولم يهمل عليه الصلاة والسلام القوى اليهودية الخطيرة، رغم ما ألحقه بها من ضربات جذرية موهنة، فاستثمر تحييد قريش، وشلّ فعالية العديد من القوى الأعرابية الأخرى، في تصفية آخر مواقع ومعاقل اليهود، عبر احتواء خيبر[1] وفدك[2] وتيماء[3] ووادي القرى[4]. وأمن جانبها وتخليص الدعوة والدولة والمجتمع من خطرها الكبير.

وتحرك عليه الصلاة والسلام كذلك نحو تأمين الدعوة والدولة والمجتمع من خطر الإمارات التابعة للإمبراطورية البيزنطية، التي كانت تتحرّش ببعض من أسلم، وقد يغريها استمرار تطور نفوذ الدعوة الإسلامية بالتحرش بالدولة بعد ذلك، فكانت مواجهة مؤتة[5] التي وإن لم تحقق النصر المباشر إلا أنها أشعرت هذه القوى بحضور الدعوة وقدرتها على حماية رعاياها وحدودها[6]، وهو ما أتاح له عليه الصلاة والسلام التفرغ بعد ذلك لاستكمال إنجاز خطة تفكيك واحتواء القوى المضادة بعمق المنطقة العربية بمكة والمدينة وما يحيط بهما.

والخلاصة هنا، هي أن الدعوة استطاعت فعلا أن تستثمر بسرعة ودقة وكفاءة عالية صدمتي الأحزاب والحديبية بالخصوص، في تحقيق تفكيك كبير وحاسم لأهم أجنحة القوى المضادة، وأن تتجاوز ذلك إلى احتواء أهم هذه الأجنحة وهي قريش والقوى المرتبطة بها، وأن تفسح بذلك المجال أمام سرعة تفكيك واحتواء باقي هذه القوى بسرعة كبيرة، على أساس أن: " أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا"[7].

وبهذه النتائج الحاسمة على هذا المستوى، حققت الدعوة ليس الاعتراف السياسي العملي بالدعوة والدولة فحسب، بل حققت بالإضافة إلى ذلك الاحتواء الثقافي للقوة الضاربة في المنطقة العربية ومجالها الجغرافي الواسع، الذي أخذت قيم الإسلام ونموذجه الاجتماعي يهيمنان عليه بشكل شامل وعميق. وهو ما يرجع الفضل فيه إلى المنهج، كما رأينا ذلك في المبحث السابق، ونوّهنا به مرارا، وهو ما ينبغي الاهتمام به في قراءة الحركة النبوية، والالتفات إليه في تقدير المنجزات العظيمة التي حققتها. ذلك أنه لولا الانضباط الفذّ بقواعد المنهج، لما رأينا هذا التكامل والتوازن الرائع في الفعل الدعوي النبوي، بين أبعاد الأصالة والفعالية والاطراد، ولما تحققت هذه النتائج الكبيرة بهذه الصورة المثيرة للإعجاب.

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، 3/ 1086.
(2) ابن هشام، **السيرة**، 349/2.
(3) البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.
(4) البيهقي، **الدلائل**، 270/4.
(5) البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.
(6) عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة**، ص295؛ ضياء الدين العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، 467/2.
(7) العمري، **السيرة النبوية**، 2/ 468.

منجزات الدعوة على مستوى الاستيعاب الدعوي واختراق المجتمع التقليدي:

نبّهنا قبل قليل إلى أن منجزات الدعوة في هذه المرحلة، تجاوزت نطاق تفكيك القوى المضادة وشلّ فعاليتها، إلى نطاق احتواء هذه القوى واستيعابها دعويا، تجاوبا مع الآفاق الإنسانية للدعوة ونموذجها الاجتماعي. فقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك جيدا أن هدفه ليس هو تفكيك القوى المضادة سياسيا وإزالة الأخطار من حول الدعوة والدولة والمجتمع فحسب، بل تحقيق الاستيعاب الدعوي لهذه القوى، بالتمكّن من الانفتاح عليها ومحاورتها في شأن المجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية، والمجتمع الإسلامي ومنظومته المعرفية، وتعريفها بحقيقة ذلك كله، وترغيبها في الإسلام ونموذجه الاجتماعي وبذل أقصى الجهد في ذلك.

وكما استثمر عليه الصلاة والسلام صدمتي الأحزاب والحديبية في تفكيك القوى المضادة سياسيا، استثمرها كذلك بنفس الفعالية في الاختراق الثقافي للمجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية، واستيعابه تدريجيا بالمنظومة المعرفية للإسلام، واحتوائه في نموذجها الاجتماعي الجديد، وحقّق نجاحا باهرا في هذا المجال، كما رأينا في النماذج التطبيقية العديدة، التي قدّمناها بين يدي تأصيل بعض قواعد المنهج في هذه المرحلة.

وقد تكفينا هنا الإشارة الإحصائية البالغة الدلالة في هذا المجال إلى تطور عدد المسلمين بين الحديبية وفتح مكة وحنين. فقد كان عددهم يوم الحديبية 1400 نفر، ثم قفز العدد في عمرة القضاء بعد عام إلى 2000 نفر، خلا النساء والصبيان، ووصل في فتح مكة إلى 10000 نفر، وكان في حنين 12000 نفر، وهي غزوة وقعت عقب فتح مكة مباشرة، وإن مشى فيها بعض من لم يسلم بعد. وهو ما يدل فعلا على أن عملية الاستيعاب الدعوي حققت نتائج كبيرة في هذه المرحلة.

وحتى تأخذ هذه الدلالة الإحصائية أبعادها الحقيقية في تمكيننا من تصوّر أهمية هذا الاستيعاب الدعوي، ومكانته الكبيرة في منجزات الدعوة في هذه المرحلة، نشير إلى أن هذا الاستيعاب تجاوز لدى الغالبية الساحقة من الناس، عتبة الإنضواء القسري أو الانتهازي في صفوف الدعوة، إلى التجاوب العميق معها، والانسجام السريع مع مفاهيمها وقيّمها وحاجاتها. كما نلحظ ذلك في حياة كبار قادة القوى المضادة كخالد بن الوليد و عمرو بن العاص، وهند بنت عتبة، التي قالت بعد إسلامها لرسول الله عليه الصلاة والسلام: «**يا رسول الله: ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحبّ إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يظهروا مثل أهل خبائك**»(1)، وعكرمة بن أبي جهل الذي قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام بعد أن أسلم: أما والله يا رسول الله: لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالا في الصدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله.

فالاستيعاب الدعوي تجاوز بالكثير من الناس مرحلة الانتقال الشكلي نحو الإسلام، إلى مراحل التحول الفكري والنفسي والسلوكي... حتى قبل أن يخضعوا لعملية التربية والتحويل الفكري والنفسي والسلوكي، وهو ما يدل فعلا على أن حركة الاستيعاب الدعوي في هذه المرحلة بالخصوص، فعلت فعلها في كسر الحواجز النفسية، ودفعت بالناس إلى الاهتمام بالإسلام ومحاولة اكتشاف حقيقته حتى قبل أن يسلموا، فكان ذلك إعداداً لهم للانسجام السريع مع مفاهيمه وقيّمه وحاجاته، وهو ما ستعمّقه عملية التربية المركزة فيما بعد.

ونذكر هنا على سبيل المثال، نموذجا لحالة الخلخلة التي كانت تحدثها حركة الاستيعاب

---

(1) البخاري، **الصحيح**، كتاب المناقب، باب ذكر هند بنت عتبة، 1390/3.

الدعوي في نفوس الناس وهم بعد في وضعية الشرك، بل ورؤوسا فيه. فقد ذكر خالد بن الوليد في قصة إسلامه كيف راح يعيد تقييم موقفه من الإسلام ونموذجه الاجتماعي، بعد الاهتزازات النفسية والفكرية التي كان يتعرّض لها باستمرار، عقب كل مواجهة فكرية أو عسكرية مع الدعوة، حتى وصل إلى قناعة تامّة أنه ليس على شيء.. كما نلمس ذلك في قوله: "قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمدا سيظهر..."[(1)]. وهي حالة نفسية وفكرية ليست فردية بل عامة، تدل على فعالية الاستيعاب الدعوي وعمق أثره في المجتمع التقليدي مع مرور الوقت.

منجزات الدعوة على مستوى التحول التربوي والاجتماعي: الدعوة الإسلامية لم تكن حركة سياسية عابرة، يهمّها بالدرجة الأولى تفكيك القوى المضادة لها وشلّ فعاليتها، واستيعاب المجتمع التقليدي سياسيا فحسب، بل كانت قبل ذلك وبعده حركة حضارية تستهدف التغيير العقدي والفكري والنفسي والسلوكي والعمراني، والسير بحركة الحياة كلها نحو التكامل والانسجام، والتوازن والفعالية.. تحقيقا لإنسانية الإنسان، وتمكينا له من الاستمتاع الأمثل **«بميزانيته التسخيرية»** في عالم الشهادة، وتهيئيا له لعالم الخلود بعد ذلك.

وهذا المستوى من التغيير عزيز المنال، قلّما تجاوزت بعض حركات التغيير عتباته، لكنه في الحركة النبوية كان في عمق الاهتمام، وشكّل أولوية استراتيجية ثابتة للدعوة، كما أكّد ذلك رسول الله بقوله: «**إنما بعثت لأتم حسن الأخلاق**»[(2)]، وجسّده في واقع الحياة من خلال عمله الدؤوب على تحقيق **التحوّل التربوي والاجتماعي للمجتمع**. لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدرك أن التغيير العميق هو الهدف الجوهري لدعوته، كما أنه هو الضمان الحقيقي لأصالة التحول وفعاليته واطرادية حيويته.

وقد يكون من المفيد جدًّا -من الناحية المنهجية- هنا أن نؤكّد على هذا التميّز الفذ للمنهج النبوي في شمولية وعمق وتكامليّة نظرته إلى عملية التغيير، وقدرته عليه الصلاة والسلام على الالتزام العملي بذلك في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، في كافة مراحل عملية التحول الاجتماعي دون أن يستوعبه أي بعد من أبعاد هذا التحول، وخاصة ما كان منه ذا طابع متغير أو انتقالي ومؤقت.

وقد لاحظنا كيف كانت حركته تتّسم بالشمولية والتكامل، وتتّجه باستمرار -عبر ذلك- **نحو العمق**. أي من مواجهة التحديات وشلّ فعاليتها، إلى عملية الاستيعاب الدعوي، ثم إلى مصب ذلك كله وهو الاستيعاب التربوي والتحول الاجتماعي، من خلال تعميق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لا لأفراد المجتمع، الذي يمرّ بدوره - أي الوعي- عبر عمليات الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، التي تشكّل لبّ العملية التربوية والتغيير الاجتماعي.

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم تستوعبه عمليات المواجهة، رغم كثافتها وضراوتها، عن الاهتمام بالاختراق الثقافي والاستيعاب الدعوي للمجتمع التقليدي، كما لم يستوعبه هذا الاختراق والاستيعاب عن الاهتمام المركّز بالتحويل التربوي والاجتماعي للمجتمع، بل استطاع أن يوازن بين ذلك كله، **وأن يجعل المتغيّر والظرفيّ والجزئي في خدمة الثابت والدائم والكلي**، وهو تعميق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى أفراد المجتمع، وتحقيق أفضل مستويات التحول التربوي والاجتماعي عبر ذلك.

ورأينا في المبحثين السابقين، منجزات الدعوة على مستوى المواجهة وتفكيك القوى المضادة

---

(1) البيهقي، **الدلائل**، 349/4.

(2) أخرجه الإمام مالك في **الموطأ**، باب ما جاء في حسن الخلق،(دار إحياء التراث العربي، مصر، د.ت)، 409/2.

وشلّ فعاليتها، وعلى مستوى الاختراق الثقافي والاستيعاب الدعوي للمجتمع التقليدي، ونلقي الآن ضوءا على منجزاتها على مستوى عمق العملية التغييريّة وهو التحول التربوي والاجتماعي، الذي حققت فيه الدعوة مستويات متقدمة جدًّا، من شحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة، وتطوير قدراتها الانجازية، وتحقيق الانسجام والتكامل الاجتماعي في أبعاده الثقافية والسياسية والمعاشية.

ويكفينا هنا تقييم القرآن المركّز للمستوى الحضاري المتقدم، الذي بلغه التحول التربوي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي الوليد حتى هذه المرحلة من مسيرة الدعوة والبناء والمواجهة، وهو تقييم في غاية الشمول والدقة، استوعب بعمق أبعاد التحول التربوي. المعرفية والروحية، والسلوكية والانجازية، وكذا أبعاد التحول الاجتماعي: الانسجامية والتكاملية والجمالية... ويتعلق الأمر بقوله تعالى: [**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**] (1).

ونلمس التحول المعرفي في التقييم: من خلال تحليلنا لبقية الأبعاد التربوية والاجتماعية الأخرى؛ لأنها في الحقيقة نتائج لهذا التحول المعرفي الشامل، الذي أعاد بناء الرؤية العقدية والفكرية لقاعدة الدعوة، وزوّدها بالأدوات المنهجية اللازمة لذلك، مطابقا ذلك كله أو مكيّفا له مع منظومات الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي المهيمنة على حركة الحياة، فانعكس ذلك على الارتقاء الروحي والسلوكي والاجتماعي للمجتمع كله.

ونذكر هنا مثالا معبّرًا عن هذا التحوّل المعرفي الذي أحدثته الدعوة في حياة الناس، نأخذه من هدم عمرو بن العاص لسواع صنم هذيل. فقد ذكر رضي الله عنه أنه لمّا وصل إليه وقال لسادنه: أريد هدم الصنم. قال له: لا تقدر على ذلك. فقال له: لم؟ قال: تُمنع! فقال له: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك، وهل يسمع أو يبصر! ثم هدمه، وقال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله(2).

فعمرو بن العاص الذي خضع فترة الاستيعاب التربوي: العقدي والفكري والمنهجي، تغيّرت نظرته للأمور، واستعادت منظومته المعرفية توازنها وحيويّتها، وأصبح حكمه على مفردات الكون والحياة، وعلاقته بها، محكومة بمنطق جديد، يضع الأشياء في مواضعها الطبيعيّة، وفي مواقعها الصحيحة كمسخَّرات، بخلاف السادن الذي مازالت منظومته المعرفية محكومة برؤية عقدية وفكرية وآليات منهجية عقيمة، مناقضة لطبائع الأمور وحقائق الأشياء، فإنه غير قادر على ذلك، ومن ثم كان حتما عليه أن يُغلَب، وكان انهيار منظومته المعرفية ونموذجها الاجتماعي قدرا محتومًا، أمام تماسك المنظومة المعرفية لعمرو وقوة نموذجها الاجتماعي.

فالصورة الرائعة التي رسمها التقييم القرآني للمجتمع الإسلامي الجديد، تدل على أن تحولا معرفيا عميقا وشاملا قد حدث في الرؤية العقدية والفكرية، وفي الأدوات المنهجية لقاعدة الدعوة، مما مكّنها من امتلاك القدرة على النفاذ إلى عمق الأشياء وحقائق الأمور، ودقة الموازنة والفرز، وحسن الاختيار والتبني بعد ذلك، وهو ما يطبع تفاعلها مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، بالأصالة والفعالية والاطراد كما يلمس ذلك من التقييم القرآني السابق.

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الفتح: 29.

(2) ابن سعد، **الطبقات**،(دار صادر، بيروت،د.ت) 146/2؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 146/2.

ونلمس التحول الروحي: وانشحاذ الأشواق الإيمانية لقاعدة الدعوة في التقييم، في إشارة القرآن المباشرة إلى تمثّلها جوهر الروحانية، وهو الإخلاص والتجرد، وصدق التوّجه إلى الله، وابتغاء الفضل عنده سبحانه وتعالى، عن طريق بوابة العبودية ومدخلها المفتاح، وهو الصلاة الخاشعة، التي ترفع روحانية الإنسان إلى أقصى مستوياتها النموذجية، فيتفاعل مع سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وهو يحسّ من أعماقه أنه يرى الله وأن الله يراه، فينعكس ذلك على أدائه الاجتماعي الذي يأتي أصيلا فعالا مطّردًا.

ولسنا في حاجة هنا إلى شواهد عما ذكره القرآن عن مستوى التحول الروحي الكبير الذي حققته التربية النبوية لقاعدة الدعوة؛ لأن الأمر مستفيض. وقد تكفي هنا الإشارة العابرة إلى موقف جيش مؤتة في مواجهته لقوة تفوقه عددا وعدة أضعافا مضاعفة، فما تراجع عن إنجاز مهمّته ؛ أملا في النصر أو الشهادة، كما قال قائد السرية عبد الله بن رواحة: "يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون. الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به... فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة.. فقال الناس فقد والله صدق ابن رواحة"[1] ومضوا.

فمن يحلل الموقف ويدرس المؤثرات الفاعلة فيه، سيجدها ترجع إلى التحول المعرفي والروحي، الذي منح قاعدة الدعوة القدرات الفهمية والقدرات الإرادية الدافعة إلى الإنجاز الأصيل الفعال، وهو ما تفسّر به جلّ إن لم نقل كل المواقف والمبادرات المتوازنة لقاعدة الدعوة، وهي الغالبة في حياتها. فقد بلغ مستوى الشفافية الروحية لديها مقامات رفيعة، جعلت مراحل ما بعد عالم الشهادة في «الدورة الوجودية للإنسان» حية في نفس المؤمن، لا يفصله عنها إلا حاجز الزمن وطبائع سنن عالم الشهادة، وإلا فهو يعيش دنياه في ظل الشوق إلى أخراه والرغبة في مدخرات عالم الخلود الروحية والمادية.

ونلمس التحول السلوكي وانشحاذ القدرات الانجازية: لقاعدة الدعوة في التقييم، في إشارة القرآن إلى المستوى الرفيع الذي بلغته العلاقات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الجديد، سواء من حيث الانسجام والتكامل والتلاحم، أو من حيث البعد الجمالي الذي يطبع مظاهر الحياة فيه بصفة عامة، والذي رمز إليه بلفظي[**تَرَاهُمْ**]،و [**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ**]. قال ابن عاشور وفي تعليق "رحماء "مع ظرف بين المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه، تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعاً. قال النبيﷺ : "تجد المسلمين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذ اشتكى منه عضو اشتكى له جميع الجسد بالسهر والحمى"[2].

إن من يحلل واقع الحياة في المجتمع الإسلامي في هذه المرحلة على ضوء التقييم القرآني السابق، يجد فعلا أن الدعوة حققت منجزات كبيرة على مستوى شحذ الفعالية السلوكية، والقدرات الانجازية لقاعدة الدعوة؛ لأنه سيصل في نهاية التحليل إلى أن التراحم المبثوث في الحياة الاجتماعية، هو عنوان أو نتيجة جامعة لوعي عقدي وتسخيري واستخلافي مكين، مؤسّس على تحول معرفي وروحي وسلوكي عميق، حققته عملية التربية والبناء الاجتماعي.

فالرحمة قمّة محورية تتدفع نحوها حركة الاستخلاف في صيرورتها الارتقائية التكاملية المتوازنة؛ **لأنها تتحرك بالعلاقات الاجتماعية من قمّة أو مستوى العدل والإنصاف، إلى قمم الرحمة،**

---

(1) البيهقي، **الدلائل**، 360/4؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 2/ 166.
(2) محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، 205/26.

باعتبارها قيمة استخلافية محورية تنطوي على منتهى الرقة والإحسان[1] الممكنين في العلاقات الاجتماعية، التي تصطبغ حينها بالسماحة والإيثار والحلم والاحتساب.. وتدفع بالأداء الاجتماعي للدعوة والدولة والمجتمع إلى مستويات نموذجية رفيعة، من الأصالة والفعالية والاطراد.

ولا شك أن هذه القيمة والقمّة الاستخلافية، لا يمكن تحقيقها والتحقق بها إلا عبر وعي معرفي، وارتقاء روحي، وتكامل سلوكي مكين، يجعل الإنسان قادرا على دقة الموازنة واختيار الأولى في مواقفه وعلاقاته من ناحية، وقادرا على تجسيد اختياراته والمضي بإنفاذ مواقفه إلى نهايتها من ناحية أخرى.. وهو ما تجاوزه التقييم القرآني للتحول التربوي والاجتماعي في هذه المرحلة، وتَرَكَهُ لعملية التحليل التي تكشف عن أبعاده وشروطه وسننه بصفة عامة.

ونفس الكلام يقال عن القمّة والقيمة الاستخلافية الأخرى، التي تحكم العلاقات الخارجية للدعوة والدولة والمجتمع بالقوى الأخرى المناوئة، التي تصرّ على المواجهة وتدأب في تزييف وعي قاعدة المجتمع التقليدي وتعبئتها ضد الدعوة. فالتقييم القرآني لمستوى التحول التربوي والاجتماعي، أكّد أن قاعدة الدعوة ارتقت إلى قمة الموضوعية في علاقتها بهذه القوى، متجاوزة بذلك الخوف والمصالح الذاتية، وعلائق القربى.. وهي عتبات غالبا ما يقف عندها الوعي البشري، ويتمحور همّه واهتمامه عليها ولا يكاد يتجاوزها إلا نادرا، وهو ما يؤثر على مستوى أصالة الأداء الاجتماعي وفعاليته في عملية الصيرورة الاستخلافية. ابتلاء وتدافعا وتداولا وتجديدا.

فالدعوة حققت فعلا تحولا تربويا شاملا وعميقا، عبّرت عنه القيمتان والقمّتان الاستخلافيتان في التقييم القرآني: الرحمة في مجال العلاقات الداخلية، والشدة[2] في مجال العلاقات الخارجية، وما وراء ذلك كله من وعي عقدي تسخيري واستخلافي مكين، تحقّقت به قاعدة الدعوة، حتى تمكّنت من الارتقاء إلى هذا المستوى أو المنزل الاستخلافي النموذجي المتقدم.

---

(1) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص347.

(2) الشدة هنا ليست هي القاعدة العامة في العلاقة بالقوى المضادة في عمومها؛ لأن هناك قواعد الدعوة والجدل والتعايش... ثم تأتي بعد ذلك قاعدة الشدة لإزالة العوائق أمام اعمال القواعد السابقة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

مرحلة توطيد سلطان الدولة

الإطار الزماني والمكاني للمرحلة:

الإطار الزماني:

يمتد الإطار الزماني لهذه المرحلة قرابة عامين ونصف، من فتحه عليه الصلاة والسلام مكة في 19 رمضان سنة 8هـ وخروجه منها إلى حنين في 5 شوال سنة 8هـ[1]، إلى وفاته عليه الصلاة

(1) ابن سعد، **الطبقات**، 2/134-149.

والسلام في بداية شهر ربيع الأول سنة 11هـ[1]، ومبايعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة.

واعتبرنا فتح مكة بداية لهذه المرحلة، ووفاته عليه الصلاة والسلام ومبايعة أبي بكر[2] رضي الله عنه بالخلافة مباشرة نهاية لها، لأن الفتح كان منعطفا حقيقيا في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، لم تقع بعده أحداث ذات أهمية استراتيجية في مستواه، حتى وفاته عليه الصلاة والسلام التي شكّلت حدثا بارزاً، انتقلت فيه قيادة المجتمع الإسلامي من القيادة النبوية المعصومة إلى القيادة البشرية الراشدة، بمبايعة أبي بكر وتجاوز أول معضلة حقيقية بنجاح ملفت للإنتباه بعده عليه الصلاة والسلام، تجلى فيه بعمق ووضوح مستوى الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي الذي حققته الدعوة في المجتمع الإسلامي.

فهذه المرحلة شكّلت فترة متجانسة تقريبا، ظلت الدعوة فيها تتقدم بصورة مطردة، وتستوعب بقايا فلول المقاومة، وتعمّق حركة البناء، وتؤمّن الدعوة والدولة والمجتمع، ولم تحدث فيها هزّات ذات مفعول خطير على كيانها ومسيرتها.

الإطار المكاني:

في هذه المرحلة اتضح نهائيا المجال الجغرافي للدولة، بعد أن ظل فترة طويلة يكاد يكون محصورا في المدينة وما حولها. فقد امتدت الرقعة المكانية التي بسط عليها الإسلام نفوذه السياسي خاصة والثقافي عامة، جنوبا لتصل إلى اليمن، وشمالا لتصل إلى تخوم الدولة الرومانية على أبواب باديتي الشام والعراق، وشرقا إلى تخوم الإمبراطورية الفارسية.

أهداف الدعوة في هذه المرحلة:

إذا كان هدف الدعوة المحورية في هذه المرحلي، هو توطيد سلطان الدولة وفتح آفاق العالمية أمام الدعوة، بعد **بناء القوة السياسية والكتلة الحضارية الأم** التي تضطلع بذلك؛ تبليغا للإسلام وتمثلا له، وتجسيداً لنموذجه الاجتماعي، وحماية له ولحركة الدعوة إليه، فإن تحقيق ذلك كله مرّ عبر ثلاثة مداخل أو أولويات كبرى، شكّلت الأهداف الوسيطة التي نفَذت من خلالها الدعوة إلى توطيد سلطان الدولة، وتمهيد وسائل وشروط الامتداد والعالمية أمام الإسلام، كعقيدة وعبادة، وثقافة، وسياسة، وحضارة... وهي:

استكمال تفكيك واستيعاب آخر كتل القوى المضادة.

تعميق التحول التربوي والاجتماعي للمجتمع.

تأمين الانتقال السياسي للمجتمع وضمان استمرارية الدعوة.

استكمال تفكيك واستيعاب آخر كتل القوى المضادة: وقد رأينا في كافة مراحل الدعوة حتى الآن، أن تفكيك واستيعاب كتل القوى المضادة المختلفة، ظلّ يشكّل هدفا رئيسا للدعوة، وموجّها هاماً من موجّهات حركة البلاغ والبناء والمواجهة، لم يغفل عنه الرسول عليه الصلاة والسلام لحظة، بل ظلّ يوالي نشاطه في هذا الاتجاه بلا هوادة حتى آخر نفس في حياته[3].

وفي هذه المرحلة الأخيرة من حياته عليه الصلاة والسلام، لم يحدث أي استرخاء عن مواصلة تفكيك واحتواء هذه القوى، رغم ما حدث لها من انتكاسات عميقة، وتعرّض له نفوذها من تراجع حاسم بعد احتواء قريش مضغة المواجهة، وضرب الوجود اليهودي من جذوره، واستحكام أمر الدعوة

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 303/4؛ ابن حزم، **الدرر**، ص271.
(2) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 308/4.
(3) ابن حجر، **فتح الباري**، 759/7.

والدولة والمجتمع، وتقلص الأخطار عليها بشكل كبير. لأن هذا التفكيك والاحتواء لهما أبعاد دعوية، تفرض وجوب استمرار عملية البلاغ للإسلام والإنقاذ للبشر من شقاء الدنيا و الآخرة. وأبعاد سياسة وقائية تحمي الدعوة والدولة والمجتمع من الأخطار المحدقة بها، وتحافظ على إمكاناتها التسخيرية من الاستنزاف الذي تسبّبه ديمومة المناوشة. وأبعاد حضارية ذات صلة باستثمار الدعوة للإمكانات التسخيرية للبشر في التمكين لنموذجها الاجتماعي والحضاري من جهة ،وتمكين عامّة الناس من الانتفاع من ذلك في ترقية أنفسهم معرفيا وروحيا وسلوكيا، والاستمتاع بالرقي العمراني الشامل والمتوازن الذي تحققه الدعوة من جهة أخرى.

من هذه المنطلقات كلها، كان حرصه عليه الصلاة والسلام شديداً على تفكيك واستيعاب آخر كتل القوى المضادة في الجزيرة العربية، **وبناء النواة الصلبة للدولة الإسلامية** التي ستواصل بعده إنجاز الأهداف الحضارية للإسلام، المفتوحة على **العالمية والإنسانية والكونية**، التي تصل عالم الشهادة بعوالم الغيب في حياة الإنسان، وتشحذ وعيه **«بدورته الوجودية»**، وتزيل الإزدواجية والتناقض من حياته، فيعيش الانفتاح على ذاته، وعلى كل أبعاد ومراحل دورته الوجودية، في صلاتها الوظيفية التسخيرية المتبادلة بكل عوالم ومفردات الوجود الكوني ذات العلاقة، وتتضاعف فعاليته الاستخلافية بصورة نموذجية فذة، أبرز حديث الولاية[1]الشهير، بعض معالمها الكبرى، كما لاحظنا ذلك في الباب الأول.

وفي هذا السياق نجده عليه الصلاة والسلام يعمل بلا هوادة للحيلولة دون نشوء وتبلور محاور استقطاب جديدة للقوى المضادة بعد انهيار مضغة الاستقطاب التقليدية، قريش، وكذا القوى اليهودية، تعميقا لعملية التفكيك وإعادة الاستيعاب مرة أخرى كما سنلمس ذلك في موقفه من هوازن والقبائل المرتبطة بها، والإمارات العربية المتاخمة لحدود الإمبراطورية الرومانية والموالية لها وفي موقفه من المشركين عامة، وكيف أصرّ على احتوائهم ولم يترك لهم أي مجال للمناورة أو التّسويف، باعتبار الشرك أردأ حالات الإزدراء بإنسانية الإنسان والامتهان لكرامته[2] في حين عمل على الاحتواء السياسي لأهل الكتاب باعتبارهم قوى ثقافية واجتماعية ذات مستوى متقدم، من الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي بالنظر إلى القوى الوثنية[3]، مما يؤهلهم للتجاوب مع آفاق الدعوة، والمساهمة في دعم بناء نموذجها الاجتماعي في حالة عجزهم عن تجاوز عقدهم التاريخية والنفسية، وعدم تمكّنهم من ثمّ من الاندماج في الإسلام.

ولم يغفل عليه الصلاة والسلام عن تفكيك القوى النفاقية المتسربة في صفوف المجتمع، بل استهدفها كذلك بالتطويق والتعرية والكشف من جهة، والاحتواء الثقافي من جهة أخرى، عبر فتح آفاق الاستدراك أمامها، وتشجيعها على ذلك، وتحريضها عليه. وإن كانت عملية الاستيعاب الدعوي تعتبر ثابتاً أساسياً مطّردا من ثوابت الدعوة في علاقتها بالآخرين، كما لاحظنا ذلك في الفصل السابق ونوّهنا إليه آنفاً إذ أن ذلك يشكّل الخطوة الثانية في فلسفة التغيير التي تتدرج مع القوى المضادة: من **التفكيك والاختراق الثقافي، إلى الاستيعاب الدعوي، إلى التحويل التربوي والاجتماعي.**

والدعوة عندما تحقق هذا التفكيك والاحتواء لآخر كتل القوى المضادة المشار إليها، فإنها ستكون قد قطعت شوطا بعيد المدى على طريق توطيد سلطان الدولة، وفتح آفاق العالمية أمام الإسلام

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الرقاق، باب التواضع، (**فتح الباري**، 348/1)
(2) عماد الدين، **دراسة في السيرة**، ص267.
(3) إبراهيم الشريف، **الدولة الإسلامية الأولى**، ص150.

ونموذجه الاجتماعي، لذلك تمحور جزء من همّه عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة على إنجاز هذا الهدف الحيوي الهام.

تعميق التحول التربوي والاجتماعي:وإذا كان من معاني التوطيد الأساسية، التمهيد، والتثبيت، والإرساء، والسّد، والتقوية والرسوخ، والتّمكن[1]... فإن التفكيك السياسي والاحتواء الثقافي العام* للقوى المضادة، لن يكون ذا جدوى، ولن يشكّل إضافة حقيقية للدعوة والدولة والمجتمع، بل ربما كان عبئا ثقيلا وخطرا كبيرا عليها، إذا لم تتم عملية الاستيعاب التربوي والاجتماعي الشامل والعميق لهذه القوى، التي يجب أن تندمج بصورة كلية فعّالة في ثقافة المجتمع، وتنسجم مع نسيجه الاجتماعي، وتتفاعل مع همومه واهتماماته بشكل نهائي، **يقطعها عن أية صلة بمواريث وعواطف وذكريات النموذج الاجتماعي الجاهلي المنهار**.

فتوطيد سلطان الدولة وفتح آفاق العالمية والإنسانية والكونية أمام الدعوة ونموذجها الاجتماعي، لا يتحقق إلا بتعميق التحويل التربوي والاجتماعي لكل القوى الاجتماعية في المجتمع، وخاصة حديثة العهد بالإسلام، إذ يلزم تعميق وعيها بالمنظومة المعرفية للإسلام، وشحذ توثبها الروحي، وترقيها السلوكي، حتى تندمج بأصالة وفعالية واطراد، في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، وتساهم في تعزيزها، وحماية منجزاتها بكل حيوية وفعالية.

وكما سنرى في التحديات الخاصة بهذه المرحلة، فإنّ حركة التفكيك والاستيعاب الدعوي لقوى المجتمع التقليدي قد بلغت مداها في هذه المرحلة، إذ دخل الناس في دين الله أفواجا بعد فتح مكة[2]، واحتاج الأمر فعلا إلى **تكثيف جهود التحويل التربوي والاجتماعي**، لتلافي أخطار الاستعياب المضاد للدعوة، والانقلاب الجاهلي عليها من جهة، وتلافي أخطار استرخاء القيادة التاريخية القدوة للدعوة من جهة أخرى.

والرسول عليه الصلاة والسلام، كان على وعي تام بكل هذه الحيثيات والأبعاد والأخطار، فأولى عناية فائقة لعملية التحويل التربوي والاجتماعي لقاعدة الدعوة وشمل ذلك كل أجيالها وفئاتها، بحيث لم تغادر هذه العناية أي جيل أو فئة إلا واستوعبته، بما يعمّق وعيه المعرفي، ويشحذ توثبه الروحي، ويرقيّ سلوكه الذاتي والاجتماعي، ويدعّم قدراته الانجازية، وينمّي نفَسَه الرسالي ويجدّده، كما سنلحظ ذلك في قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة.

والمتتبع لسير تطور حركة الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة –كما في كل المراحل السابقة– يلمس بوضوح، كيف شكّل الاستيعاب التربوي والتحويل الاجتماعي لقاعدة الدعوة، اهتماما رئيساً له عليه الصلاة والسلام، جنّد له كل ما أتيح له من إمكانات وجهود، واستثمر فيه أفعل الوسائل والأساليب الممكنة، ومارسه في كل الظروف والمناسبات، بحيث يندر أن يجد الإنسان موقفا نبويا يخلوا من المعاني والأبعاد التربوية، والتأكيد على شحذ شبكة العلاقات الاجتماعية، وترقية وعي قاعدة الدعوة بالقيم والسنن الفاعلة في ذلك سلبا وإيجابا، سواء كان عليه الصلاة والسلام في سفر، أو حرب، أو مأتم، أو فرح،أوفي المسجد، أو في الطريق، أو في البيت...

لقد كانت التربية وشحذ شبكة العلاقات الاجتماعية لقاعدة الدعوة همّه الأكبر عليه الصلاة والسلام، يمارسها بأقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسمته.. ويدأب عليها، ويصابر مكابداتها. ليقينه أن

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، 461/3.

* أي الأوليّ العابر غير الراسخ، الذي كثيرا ما تحكمه العاطفة أو الرهبة أو الرغبة...

(2) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة زمن الفتح (**فتح الباري**، 616/7)

التوّطيد الحقيقي لسلطان الدولة، وفتح آفاق الامتداد والعالمية أمام الدعوة، مرتبط بنوعية وحجم التحوّل التربوي والاجتماعي الذي يحدث في فكر قاعدة الدعوة، وروحها وسلوكها وعلاقاتها.. فلم تستوعبه نجاحات الاستيعاب الدعوي المتلاحقة، وتقلص الأخطار التقليدية* المباشرة، بل رأى في ذلك كله أخطاراً جديدة لا يمكن تجاوزها إلا بالاستيعاب التربوي والتحويل الاجتماعي العميق، الذي يرتقي بالوعي المعرفي، والتوثب الروحي، والانسجام السلوكي، والقدرات الانجازية، والتلاحم الاجتماعي لقاعدة الدعوة، إلى أعلى مستويات التناغم مع سنن الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي.

تأمين الانتقال السياسي للمجتمع وضمان استمرارية الدعوة: ونقصد بالانتقال السياسي للمجتمع هنا: تحوّل قيادة المجتمع الإسلامي من القيادة النبوية المعصومة المسدّدة بالوحي، إلى القيادة البشرية الراشدة المسدّدة بالشورى، بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وغيابه المباشر عن إدارة شؤون الدعوة والدولة والمجتمع، ومواجهة تحديات البلاغ والبناء والمواجهة.

فالدعوة التي جاء بها ليست مرتبطة به كشخص، بل هي دعوة إنسانية عامة، جاءت هداية للبشر كلهم إلى قيام الساعة، ومن ثم فإن من المفروض أن لا يؤثر غيابه الشخصي عن استمرارية البلاغ لهداياتها[1]، وإقامة الحجة بها على الناس.

ويرافق استمرارية الدعوة، ضرورة استمرارية تجسيد وبناء نموذجها الاجتماعي والحضاري؛ في الفكر، والسلوك، والعلاقات، وأنظمة الحياة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية.. لأن ذلك هو هدف الدعوة الجوهري، أن يتمثّل الناس مفاهيمها وقيّمها بشمول وعمق، في حياتهم الخاصّة والعامّة[2]، باعتبار ذلك شرطا أساسيا للتوافق الذاتي والانسجام الاجتماعي والتناغم الكوني.

ويحتاج الأمران السابقان إلى ضرورة حماية حركة الدعوة والمحافظة على منجزاتها الحضارية، لأنه بدون هذه الحماية وهذه المحافظة لا معنى لأي جهد تبليغي أو حركة بنائية إعمارية، ما دامت لا توفر لهما الحماية، ولا يحافظ على منجزاتهما، في ظل منطق الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الذي يحكم الصيرورة الاستخلافية في عالم الشهادة، ولا يقيم وزنا لأي جهد أو انجاز بشري لا يوافق أو يطابق نفسه مع هذا المنطق ومستلزماته.

ولا يخفى هنا دور المؤسسة السياسية في تحقيق هذه الاستمرارية، وضمان هذه الحماية[3]، لما لهذه المؤسسة السياسية من سلطان معنوي وقانوني ومادي –تنفرد به دون غيرها من مصادر القوة والنفوذ في المجتمع[4]– يمكّنها من تعبئة إمكانات المجتمع التسخيرية واستخدامها في تحقيق استمرارية الدعوة وتطوير نموذجها الاجتماعي، وحماية ذلك كله والمحافظة على منجزاته.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان على وعي عميق بأهمية المؤسسة السياسية في ضمان استمرارية الدعوة وتطوير نموذجها الاجتماعي، وحماية منجزات كل منهما. كما كان على وعي أعمق بخطورة غياب أو ضعف هذه المؤسسة على حركة الدعوة والدولة والمجتمع*، فعمل منذ البداية على

---

* المقصود هنا المواجهات المباشرة ضد الدعوة.

(1) ابن عطية، **المحرر**، 248/3.

(2) ابن كثير، **التفسير**، 329/2.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 175.

(4) راجع الفصل الثالث من الباب الأول.

* يراجع مثلاً ما ورد من احاديث في كتاب الإمارة في كتب الصحاح .

تمكين الدعوة من مؤسسة سياسية[1] قوية، تمنحها فعالية الأداء الاجتماعي من جهة، واستقلالية القرار وحرية المبادرة من جهة ثانية، وتحميها من التحديات الداخلية والخارجية من جهة ثالثة. وهو ما دلّت عليه بوضوح نصوص الكتاب وآفاق الدعوة عامة، ونصوص السنة وممارساته العملية عليه الصلاة والسلام، كما مرّ معنا في قواعد المنهج العديدة، وخاصة منها قاعدة: «**تعزيز سلطة المرجعية الفكرية والسياسية للمجتمع**»، وما يرتبط بها من قيم وقواعد كثيرة، استوعبنا الكثير منها في الفصول السابقة، كالطاعة والانضباط، والشورى، والعدالة، والحريات، والمساواة.. التي احتلت حيّزاً واسعا من اهتمامات القرآن والسنة والسيرة معاً، لمحوريتها في الوعي الاستخلافي.

ومن هنا فإنه ليس من المعقول أن لا يهتم عليه الصلاة والسلام بمسألة تأمين الانتقال السياسي للمجتمع، من القيادة النبوية المعصومة. إلى القيادة البشرية الراشدة، وهي نقلة ليست يسيرة، بل ذات خطورة قصوى على مستقبل الدعوة والدولة والمجتمع ومصيرها، إن لم تؤمّن شروط الانتقال السياسي، وهو ما كان في صميم اهتماماته وأولوياته عليه الصلاة والسلام في كل مراحل الدعوة، وتكثفت عنايته به في هذه المرحلة بالخصوص، وشكّل هدفاً مباشرا له* .

هذه بصفة عامة مجمل الأهداف الوسيطة الكبرى، التي تمحور حولها الاهتمام النبوي في هذه المرحلة، تحقيقا للهدف المحوري للمرحلة بل وللدعوة كلها في حياته عليه الصلاة والسلام، وهو توطيد سلطان الدولة وفتح آفاق العالمية والإنسانية والكونية أمام الدعوة ونموذجها الاجتماعي،وتوفير شروط الأداء الفعّال لهما والحماية لمنجزاتهما.

التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة:

نركّز هنا على أربع تحديات أساسية واجهتها الدعوة في هذه المرحلة وهي:

بروز محاور استقطاب جديدة للقوى المضادة.

مضاعفات توسّع المجال الجغرافي والبشري للدولة.

مضاعفات استرخاء القيادة التاريخية القدوة للدعوة.

تحدي الانتقال السياسي للمجتمع بعده عليه الصلاة والسلام.

بروز محاور استقطاب جديدة للقوى المضادة: رأينا في المراحل السابقة من مسيرة الدعوة، كيف كان تفكيك القوى المضادة وإضعاف موقفها في عملية المواجهة، والحرص على إعادة استيعابها، من الاهتمامات الرئيسة له عليه الصلاة والسلام، وقد تمكن فعلاً من إنجاز الجزء الأكبر من هذا الهدف بفتح مكة واحتواء قريش. غير أن قوى أخرى أكثر عدداً وعدة، وأشدّ خطرا بدأت تبرز وتأخذ زمام المبادرة لاستقطاب القوى المضادة، وتعبئتها من جديد ضد الدعوة والدولة والمجتمع.

وتتمثل هذه القوى بالخصوص في قبائل هوازن الكثيفة العدد، المتمركزة في الطائف وما حولها، والمنتشرة عبر تهامة على ساحل البحر الأحمر حتى الحدود الشمالية لليمن[2]. والتي ادخرت كل إمكاناتها البشرية والمادية حتى هذه المرحلة من المواجهة بين الدعوة والقوى المضادة، فلما استسلمت قريش والتحقت بالدعوة والدولة والمجتمع الإسلامي الجديد، أحسّت هوازن بالخطر، فراحت تعبئ نفسها، وقرّرت أخذ زمام المبادرة واستقطاب القوى المضادة، ومهاجمة الدولة بسرعة، وهو عليه

---

(1) لا نركّز هنا على البعد الأداتي للمؤسسة لأنه متغير، بقدر ما نركّز على البعد المبدئي لأنه سنّة استخلافية مطّردة.

* قضية تأمين الانتقال السياسي للمجتمع الإسلامي في حياته عليه الصلاة والسلام، من الموضوعات الهامة التي لم تدرس بصورة علمية متوازنة.

(2) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 173/2؛ ابن القيم، **زاد المعاد**، 465/3.

الصلاة والسلام ما يزال بمكة بعد.

وظهر من الضربة المبكرة التي وجهتها قوات هوازن لجيش المسلمين بحنين، كيف أن خطر كبيرا كان يواجه الدعوة، لو قدّر لانتصار هوازن أن يكتمل، لأنه كان سيعيد تجميع القوى المضادة ويحيي روح المقاومة في قريش نفسها، كما تشير إلى ذلك مواقف بعض قادتها كأبي سفيان الذي قال معقبا على تراجع المسلمين: ((لا تنتهي هزيمتهم دون البحر))، وصرخ غيره فرحا مغتبطا: ((ألا بطل السحر اليوم))[1]. وانتهز آخر فرصة الارتباك الكبير الذي حدث في موقف المسلمين العسكري ليغتال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]،ولم يقتصر الأمر على القوة الضاربة لهوازن فحسب، بل أمتد التحدي ليشمل القوى الدولية الكبرى ممثلة في الإمبراطورية الرومانية والإمارات العربية التابعة لها، المتاخمة للحدود الشمالية للدولة الإسلامية، فقد أخذت هذه الإمارات تفكر وتعدّ نفسها للإنقضاض على الدولة الوليدة[3]. كما بدأت تظهر حركة المتنبئين[4]، واتّسع نطاق الحركة النفاقية[5] التي تلتقي مع كل هذه الحركات المناوئة للدعوة والدولة والمجتمع،وتشكل إحدى أهم وأخطر أدوات المعلوماتية لديها، ومن ثمّ أكبر أدوات التخريب الداخلي: النفسي والفكري والاجتماعي والسياسي...

إن كل هذه القوى المضادة مجتمعة، كانت مرشّحة فعلا لتكون محاور استقطاب خطيرة ضد الدعوة والدولة والمجتمع، تزيد من متاعبها، وتواصل استنزاف الإمكانات التسخيرية لها، وتؤخَر إنجاز المراحل التالية من التوجهات العالمية للدعوة، وتؤثر سلبا على عملية بناء وتطوير نموذجها الاجتماعي والحضاري، وتوسّع دائرة المتضررين منها، بسبب ما تتمخض عنه حركة المواجهة من ضحايا وتدمير للإمكانات التسخيرية للقوى المضادة، الذي سيترك آثاره النفسية العميقة ضد الدعوة وقاعدتها القيادية مستقبلا، وهو ما يجب أن تتلافاه الدعوة، وأن تعمل على التقليل من مضاعفاته قدر الإمكان.

مضاعفات توسّع المجال الجغرافي والبشري للدولة:التوسّع الجغرافي والبشري للدولة والمجتمع الإسلامي الجديد، من الأهداف الأساسية للدعوة، باعتبارها دعوة عالمية إنسانية كونية[6]، وقد قطعت أشواطا هامّة على هذا الطريق، وتسعى في هذه المرحلة إلى توسيع ذلك وتعميقه، وهو ما يطرح عليها تحديات عديدة في ضوء معطيات التحدي السابق الذي يلقي بآثاره السلبية على حركة التوسّع، ويضاعف هموم الدعوة.

فالتوسع الجغرافي للدولة، وما رافقه من توسّع سريع في حركة الاستيعاب الدعوي بعد صلح الحديبية وفتح مكة، وانكسار آخر كتل القوى المضادة عقب هزيمة حنين، طرح على الدعوة مشاكل عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

استمرار الثقافة التقليدية في تأطير وعي فئات كثيرة من الجماعات التي تمّ احتواؤها في المرحلتين الأخيرتين من حركة الدعوة[7]، ولم يتعمّق استيعابها تربويا واجتماعيا بعد. كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في رغبة أناس من طلقاء الفتح إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم ذات أنواط تقليدا للمشركين، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «**سبحان الله! كما قال قوم موسى: اجعل**

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 86/4.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 145/5.
(3) ابن سعد، **الطبقات**، 165/2.
(4) ابن هشام، **المرجع السابق**، 223/4.
(5) خليل، **دراسة في السيرة**، ص387.
(6) سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص 98.
(7) ضياء العمري، **السيرة**، 497/2.

لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من قبلكم»[1]. وكما في استصحاب أبي سفيان الأزلام معه يوم حنين.[2]

ابتلاع القيادة التاريخية القدوة للدعوة، وانغمارها وسط جموع الأجيال الجديدة الملتحقة تباعاً بالدولة والمجتمع، وهي تحتفظ تقريبا بكامل تراثها الثقافي الجاهلي، الأمر الذي يؤثر سلبا على أصالة النموذج الاجتماعي للدعوة، ويعرّضه للتشويه، ويحدّ من فعالية إشعاعه الروحي والفكري والحضاري تبعا لذلك، وهو ما نجد بعض صداه لدى الأنصار، حينما عفا صلى الله عليه وسلم عن الناس يوم الفتح الأكبر. فقال بعضهم لبعض: **((أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته))**[3] ويوم حنين حينما أعطى عليه الصلاة والسلام المؤلفة قلوبهم وترك الأنصار فوجدوا عليه حتى قال بعضهم: أما والله لقد كنت أحدّثكم أنه لو قد استقامت الأمور قد آثر عليكم.

انفساح المجال أمام حركة النفاق للامتداد، عبر الفراغ الثقافي، وضعف الوعي السياسي للأجيال الجديدة، والعمل على ضرب الدعوة من الداخل، وإشاعة ثقافة البلبلة والفتنة والتخذيل[4]، وصرف جزء من إمكانات المجتمع التسخيرية خارج مجال فعاليتها الحقيقية المطلوبة[5].

صعوبة المتابعة الدقيقة لمجريات الأحداث في مختلف أرجاء الدولة، وسهولة عمل القوى الانتهازية المضادة لاستغفال قاعدة المجتمع والتلبيس عليها، كما حدث في بعض محاولات المتنبئين في أواخر حياته عليه الصلاة والسلام، وتمهّد الطريق أمام حركة الردة بعد وفاته، الأمر الذي شكل تحدّيا خطيرا لمستقبل الدعوة والدولة والمجتمع.

وفي مثل هذه الأجواء التي تطبعها هذه الصعوبات، وتهيمن عليها هذه المشكلات، يصبح الخطر ممتدًّا إلى قيادة الدعوة والدولة ذاتها، كما نرى ذلك في محاولة اغتياله عليه الصلاة والسلام يوم حنين[6].

فالتوسّع السريع للمجال الجغرافي والبشري طرح مشكلات كثيرة على الدعوة والدولة والمجتمع، بإمكانها أن تشكل تهديدا حقيقيا لها، إذا لم يتم الوعي بها، ولم يحسم أمرها بفعالية، وهو ما يؤثر بعمق على عملية توطيد سلطان الدولة وفتح آفاق العالمية والإنسانية والكونية أمام الدعوة.

مضاعفات استرخاء القيادة التاريخية القدوة للدعوة:ونقصد بالقيادة التاريخية القدوة هنا، الأجيال الأولى للدعوة، التي تشكل قدوة مرجعية لبقية الأجيال اللاحقة. بفضل مزية السبق والصحبة الطويلة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والاستيعاب العميق لتاريخ الدعوة وحقائق الإسلام. وقد لاحظنا في المرحلة السابقة، كيف أن مجموعة من الظروف والشروط النفسية والاجتماعية والسياسية.. كانت تساعد على استرخاء القيادة التاريخية القدوة للدعوة، ونلحظ في هذه المرحلة تعزز بعض هذه الشروط، مما يهدّد فعالية الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة بالتناقص والتراجع، في ظروف دقيقة هي أحوج ما تكون فيه –أي الدعوة– إلى مضاعفة انشحاذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية للقيادة التاريخية القدوة للدعوة، لمواجهة تحديات التمكين وانفساح آفاق العالمية

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 84/4؛ ابن كثير، **التفسير**، 215/3.
(2) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 86/4؛ البيهقي، **الدلائل**،128/5.
(3) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب فتح مكة، **(شرح النووي**، 126/12)؛ الحاكم، **المستدرك**، 79/4.
(4) أبو زهرة، **خاتم النبيين**، ص 1317– 1438– 1450 .
(5) ضياء العمري، **السيرة**، 526/2.
(6) البيهقي، **الدلائل**، 128/5.

والإنسانية والكونية أمام الإسلام ونموذجه الاجتماعي.

وفي مقدمة هذه الظروف والشروط، الإحساس العام لدى قاعدة الدعوة بعد فتح مكة وتفكيك آخر كتل القوى المضادة بحنين، وشهود حركة الاستيعاب الدعوي أكبر نجاحاتها... أن الأخطار التي كانت تهدّد الدعوة والدولة والمجتمع قد تراجعت، وأن عهد الاستقرار والأمان، وإعادة بناء ما خرّبته حركة المواجهة الطويلة قد حان، وأنه لا بد من الالتفات إلى بعض حظوظ الدنيا المشروعة، التي فاتت الكثير من الأجيال التاريخية القدوة للدعوة.

وتدخل في هذا السياق العديد من المواقف التي عبّرت، ولو بطريقة لا شعورية في مراحلها المبكرة، عن حالة الاسترخاء التي كانت تقبل عليها قاعدة الدعوة عامة، بعد طول المكابدة والحرمان، وتقلص الأخطار* على الدعوة والدولة والمجتمع، كموقف حاطب رضي الله عنه الباحث عن تأمين المصالح الذاتية[1]، وكموقف بعض الأنصار المتحفظ من حرمان رسول الله لهم من غنائم حنين[2]. وموقف المخلّفين في غزوة تبوك[3]... وغيرها من المواقف التي تلحظ فيها **البذور النفسية للاسترخاء**، وتقلّص الفعالية الرسالية، واتجاه جزء من الفعالية الروحية والاجتماعية نحو المصالح الذاتية المشروعة، في ذهول وغفلة لا شعورية عن المصالح الكلية أو العامة للدعوة والدولة والمجتمع أحيانا، مما تنجم عنه أخطار كبيرة، تمسّ بمصالح الجميع، عندما يفسح المجال أمام القوى الانتهازية، والفئات المحدودة الوعي، لتضطلع بدور القدوة المؤطرة لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وينعكس وضعها الخصوصي القلق سلباً على أصالة الجهد والنموذج وفعاليتهما، وما يتركه ذلك كله من آثار سلبية خطيرة على موقف أجيال المجتمع خاصة والرأي العام عامة.

ويبدو المظهر الآخر للاسترخاء الخطير، في الإعجاب بالكثرة، والاغترار بالقوة، والذهول من ثمّ عن الاستثمار الأمثل لسنن التسخير والاستخلاف، في الدعوة والبناء والمواجهة، وهو ما يؤثر سلبا على أصالة الجهد وفعاليته واطراديته. كما نلحظ ذلك مثلا بصورة واضحة في غزوة حنين، حينما أعجب الناس بكثرتهم، وانعكس ذلك على استعدادهم، واسترخاء فعاليتهم الانجازية، حتى إذا ما وقفوا أمام التحدي وجها لوجه، اضطرب موقفهم، وتعرّض وجودهم للخطر الحقيقي[4].

ومن هنا فإنه لا تخفى المضاعفات الخطيرة لاسترخاء القيادة التاريخية القدوة للدعوة، على حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ومن ثمّ على مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، خاصة في هذه المرحلة التي شهدت استيعابا دعويا واسعا لأجيال جديدة، ما يزال وعيها وسلوكها واهتمامها وطموحها مؤطراً بثقافة ومشكلات المجتمع التقليدي، ولا يبعد أن تصبّ الإسلام في ذلك، وتوظّف الدعوة والدولة والمجتمع في خدمة طموحاتها المحدودة، في غياب القيادة القدوة، التي تعمّق وعيها الرسالي، وتمنحها القدوة العملية الحيّة، التي تشحذ التزامها وتكيّف وعيها واهتماماتها وطموحها.. مع الآفاق الإنسانية والعالمية والكونية للدعوة ونموذجها الاجتماعي، وتستثمر شرّتها واندهاشها وانبهارها في ذلك، تناغما مع المبدأ التربوي الهام: ((اضرب على الحديد ما دام ساخنا))[5].

---

* الأخطار التقليدية المنظورة المختلفة شكلا عن أخطار وتحديات مراحل التمكين.

(1) البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الفتح وما بعث به حاطب (**فتح الباري**، 592/7)

(2) مسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة من يخاف على إيمانهم (**شرح النووي**، 157/7)

(3) عرجون، **محمد رسول الله**، 446/4 وما بعدها.

(4) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 255/2.

(5) محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، 208/1.

تحدي الانتقال السياسي واستمرارية الدعوة: ولا جدال بأن الانتقال السياسي للمجتمع، من القيادة النبوية المعصومة إلى القيادة البشرية الراشدة، وضمان استمرارية الدعوة ونموذجها الاجتماعي، والمحافظة على أصالتهما وفعاليتهما، من أخطر التحديات التي واجهتها الدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة الأخيرة من قيادته عليه الصلاة والسلام، كما تدل على ذلك التحديات السابقة التي تلقي بظلالها جميعا على هذا التحدي الأخير.

فبالإضافة إلى ما لوحظ في التاريخ الإنساني عامة، من اضطراب وتراجعات تصاحب عمليات الانتقال السياسي غالبا[1]، بسبب صراع الأفراد والأسر والكتل الاجتماعية والسياسية على النفوذ والاستئثار بالإمتيازات المادية والمعنوية، فإن تحديات عديدة كانت تحفّ بالدعوة والدولة والمجتمع في هذه المرحلة، تجعل عملية الانتقال السياسي، ومن ثم استمرارية الدعوة ونموذجها الاجتماعي، ليست يسيرة، بل صعبة ومرشّحة لمتاعب جمّة، قد تؤثر بعمق على مستقبلهما ما إن لم تتدارك بسرعة وحزم وحكمة، ولم تراع في ذلك كله ثوابت الخبرة التسخيرية والاستخلافية، في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

فالدعوة في هذه المرحلة -كما رأينا آنفا- توسّع مجالها الجغرافي والبشري كثيرا، وأخذت تتهيأ فيها بعض الشروط النفسية والاجتماعية والسياسية لاسترخاء القيادة التاريخية القدوة، وبدأت الأجيال الجديدة المستوعَبة حديثا تغلب عدديا على الأجيال التاريخية، وهي ما تزال تعاني -أي الأجيال الجديدة- من تلبّسات مكثفة وعميقة بثقافة المجتمع التقليدي ومواريثه التاريخية؛ في صراع الأفراد والأسر، والبطون والقبائل، والأعراف والمصالح، والاتجاهات...

وبجانب هذه المشكلات كانت الدعوة تعاني من انسياب الحركة النفاقية في المجتمع وتطلعاتها المدروسة إلى مواقع حسّاسة في الدعوة والدولة، كما تدل على ذلك لقاءاتهم السرية المستمرة[2]، ومحاولتهم إقامة مؤسسات ضرارية للدعوة والدولة والمجتمع[3]، بل والتخطيط الجدّي لضرب رأس القيادة السياسية والروحية للدولة والمجتمع، كما حدث في محاولة اغتياله عليه الصلاة والسلام أثناء عودته من تبوك، بطريقة غاية في المكر والدهاء والتمويه[4].

ولم يغب أمر الدولة الإسلامية الناشئة عن القوى الدولية المتاخمة لها، بل كانت تتابع مسيرتها، وتطور الأحداث فيها عن كثب، كما تدل على ذلك قصة كعب بن مالك حين تخلّف عن غزوة تبوك، وتعرّض مع رفيقين له للحصار الاجتماعي بالمدينة، فحاول ملك غسان استثماره ضد الدعوة والدولة والمجتمع، وكتب له يعده بالحظوة عنده إن هو أقبل عليه[5].

يضاف إلى هذا كله آثار صدمة وفاته عليه الصلاة والسلام على تزلزل واضطراب موقف القيادة التاريخية القدوة للدعوة، وانشغالها باستيعاب الصدمة التي أفقدتها توازنها النفسي والفكري بعض الوقت[6]، كان بالإمكان استثماره من قبل القوى الانتهازية لإرباك الموقف تماماً، وتعقيد عملية الانتقال السياسي للمجتمع، وهو الجو الذي أحسنت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفه بدقة، عندما

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 189؛ مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص16-13 .

(2) ابن هشام، **السيرة**، 160/4.

(3) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 4 /174.

(4) البيهقي، **الدلائل**، 256/5 وما بعدها.

(5) البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، **(فتح الباري**، 718/7)

(6) ابن سعد، **الطبقات**، 191/2؛ البيهقي، **الدلائل**، 201/7-234.

قالت: «**لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة الشاتية لفقد نبيهم عليه الصلاة والسلام**»[1].

هذه المعطيات جميعا، معزّزة بمنطق المحاور، وحداثة الخبرة التسخيرية والاستخلافية لقاعدة الدعوة في المجال السياسي، كما دلّت عليه مبادرة بعض الأنصار إلى تدارك الفراغ السياسي الذي تركته وفاته عليه الصلاة والسلام بمعزل عن بقية القيادة التاريخية القدوة للدعوة، وقواها الضاربة ممثلة في المهاجرين[2] ... كان بإمكانها أن تعقّد فعلا عملية الانتقال السياسي للمجتمع، وتؤثر بعمق على وحدته، ومن ثم على استمرارية الدعوة ونموذجها الاجتماعي.

هذه بصفة عامة، مجمل التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة، والرسول عليه الصلاة والسلام يسابق الزمن لتحقيق أهدافها الثلاثة، وتتويج حياته الرسالية بتوطيد سلطان الدولة، ومنح الدعوة القوة السياسية والاجتماعية اللازمة، التي تحقق آفاقها العالمية والإنسانية والكونية بعده.

قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة:

نشرع الآن في استعراض بعض قواعد المنهج الأساسية، التي استثمرها النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، بالإضافة إلى العديد من القواعد الأخرى التي سبق الحديث عنها في الفصول السابقة.

وسنبدأ كما دأبنا على ذلك في هذه الدراسة، بإثبات بعض القواعد التي جاءت في سياق التقييم لأوضاع الدعوة والدولة والمجتمع عامة، وأداء حركة البلاغ والبناء والمواجهة خاصة في المرحلة السابقة، والتي تدخل في استشراف آفاق المرحلة التالية، وهو ما لاحظنا إطراده في كل مراحل الدعوة.

ونستخلص هذه القواعد من المواقف القرآنية والممارسات النبوية، في خضم حركة الفتح الأكبر، الذي توّج جهود حركة الدعوة والبناء والمواجهة في المرحلة السابقة، وكان مجالا خصبا لتقييم مسيرة الدعوة واستخلاص دروسها، على طريق المزيد من الأصالة والفعالية والاطراد، في جهود البلاغ والبناء والمواجهة في المرحلة التالية، من خلال تجديد وتعميق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة.

تعميق الوعي بقانون الشكر: على اعتبار أن الشكر، من كليات الوعي التسخيري والاستخلافي الأساسية الكبرى في المنظور الإسلامي لحركة الاستخلاف وتفسيره لصيرورتها، كما سبق أن أصّلنا ذلك في الباب الأول[3]، وأكّدنا علاقته المباشرة بسنن التأييد خاصة، إذ يعتبر مدخلا أساسيا من مداخلها الكبرى، ومقوما جوهريا من مقومات الترقي العمراني قبل ذلك.

والدعوة في هذه المرحلة، تحتاج إلى تأكيد وتعميق الوعي بهذا القانون الذي يدفع بالحياة الاستخلافية إلى مستويات راقية من الأصالة والفعالية والاطراد، بعد أن حققت مكاسب هامة، وتحوّلت إلى دولة ومجتمع، ونموذج اجتماعي وحضاري كامل، أخذ يشقّ طريقه إلى العالمية والإنسانية والكونية بثبات، ويطرح تحديات جديدة على قاعدة الدعوة، لعل أخطرها الاسترخاء، والانحياز التدريجي إلى منطق الحقوق، والإنسياق وراء روح الاستهلاك، على حساب منطق الواجبات[4] وروح

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 316/4؛ ابن كثير، **السيرة**، 554/4.

(2) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 310/4.

(3) الفصلان الأول والثاني.

(4) مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، ص76.

المبادرة والإبداع والإيثار. وهو ما يعرّض فعالية الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة إلى الاسترخاء والفتور والتراجع، ويؤثر بالتالي على موقف الدعوة وموقعها في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

وللمحافظة على اندفاع حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ووقايتها من الآفات السابقة، جاء التأكيد في «سورة النصر» على الوعي **بقانون الشكر** في قوله تعالى:**[فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا]** (1)، الذي وجّه فيه الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، ليكون الأمر أبلغ وأشدّ وقعاً بالنسبة لغيره، ممن هم دونه في انشحاذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية. لأنه إذا كان قد طلب منه أن يحمد الله –والحمد لبّ الشكر–(2)وهو الذي منح كل حياته للدعوة؛ تمثّلا لها، ودعوة إليها، وعملا من أجل تجسيد نموذجها الاجتماعي في الحياة، وكان يقول لمن يشفق عليه من شدّة المكابدة: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»(3)! فكيف يكون الحال بالنسبة لغيره؟

لا شك أن ذلك سيهيّج الرغبة في حمد الله وشكره لدى قاعدة الدعوة، ويعمّق وعيها بقانون الشكر، وأنه شرط أساس لدوام النعم، وحماية منجزات الأعمال، ومعيار لقياس درجة النضج الاستخلافي لدى الأفراد والمجتمع، ويركّز فيها أخلاق التواضع، والحلم، والسماحة، والإيثار، وينأى بها عن أخلاق الكبر والبطر والغرور والأثرة... لأن ذلك كله من لوازم الشكر وآثاره في الوقت نفسه. وهو ما نجد صداه العميق فعلا في حياة الصحابة وهم يأخذون أنفسهم بالتأسي برسول الله عليه الصلاة والسلام، بصورة غير متوازنة أحيانا، كما نلحظ ذلك في النّفر الذين سألوا عن عبادته وتقالوها، وقرروا أخذ أنفسهم بالمزيد من المجاهدات، حتى صحّح عليه الصلاة والسلام نظرتهم إلى كيفية الشكر لله تعالى(4)، وأنه في حاجة إلى وعي متوازن بسنن التسخير: في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، حتى لا يؤثّر ذلك سلبا على توازن فعالية الأداء السلوكي والاجتماعي عامة.

تعميق الوعي بقانون التوبة:ومن كليات الوعي التسخيري والاستخلافي، التي عمّق التقييم القرآني وعي قاعدة الدعوة بها، «**كلية التوبة**»(5)، كقانون يحكم عملية التجديد النفسي أو الذاتي، كمرحلة قاعدة في التغيير، تشرط بقية مراحله التالية، وتمنح لفعالية الأداء السلوكي والاجتماعي أساسه النفسي أو الروحي الضروري، الذي يلقي بظلاله أو أنواره على مراحل التحليل، والتفسير، والتوقع، والتخطيط، والتنفيذ... في «الدورة الانجازية» للفعل التغييري.

فالتوبة كعملية مراجعة نقدية مستمرة للنفس، وتصحيح دائب لعلاقات الإنسان بالله، والذات، والمحيط البشري والكوني، وإعادة بناء للتوازن النفسي والسلوكي والاجتماعي، تشكّل في المنظور الإسلامي لحركة الاستخلاف، وتفسيره لصيرورتها، وتأطيره لها، قانونا تسخيريًّا مطّرداً، ترتبط به أصالة الأداء السلوكي والاجتماعي وفعاليته إلى حدّ كبير، لما يرتكز عليه من قيم نفسية أساسية –كالإخلاص، والتجرد، والصدق، والشجاعة– بانية للإرادة اللاّزمة لذلك وشاحذة لها باستمرار.

ونظرا لهذا الدور الحيوي الكبير، الذي تؤدّيه التوبة في الاستدراك والتجديد النفسي المستمر، فقد توالى الاهتمام الشديد بها في كل مراحل الدعوة*، واتخذ أبعاداً أشدّ تركيزاً ودلالة في هذه المرحلة

---

(1) الآية: 3.

(2) ابن القيم، **مدارج السالكين**، 256/2؛ البقاعي، **نظم الدرر**، 317/22.

(3) البخاري في كتاب التهجد ،باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل، **(فتح الباري**، 19/3)

(4) مسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح، **(شرح النووي**، 174/9)

(5) ابن القيم، **مدارج السالكين**، 199/1 وما بعدها.

المتميزة، التي حققت فيها الدعوة منجزات حاسمة على طريق التمكين والظهور الحضاري.. لمواجهة مضاعفات الاسترخاء لدى القيادة التاريخية القدوة للدعوة خاصة، ونزعات البطر والاستكبار والأثرة والتكاثر... لدى قاعدة المجتمع بصفة عامة، لضمان استمرارية التجدّد والاندفاع في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع، نحو العالمية والإنسانية والكونية، بنفس الأصالة والفعالية والتوازن.

وقد جاء تكثيف الوعي بهذا القانون في نفس السورة التي جاء فيها تركيز الوعي بقانون الشكر، فقال تعالى: [**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**][1]، ملفتا انتباه المجتمع، من خلال توجيه الأمر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالاستغفار والتوبة، إلى عدم اعتبار هذا التتويج الذي حدث بفتح مكة، وإقبال الناس على الإسلام، وانهيار آخر كتل المقاومة الشركية، هو نهاية المطاف، بل الأمر يحتاج إلى وقفة مع الذات للمراجعة والتقويم والاستدراك، والمضي في طريق استكمال إنجاز المراحل التالية من عمليات التغيير والبناء التي لا نهاية لها.

فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاستغفار والتوبة، بعد هذا الجهاد الطويل الدؤوب المكلل بالنجاح، له دلالة تربوية عميقة بالنسبة لقاعدة الدعوة كلها، التي وعت ثقل المسؤولية، واستوعبت التوجيه جيدا، خاصة وهي تراقب الرسول عليه الصلاة والسلام، وتشاهد استجابته العملية للأمر، وإكثاره من الاستغفار والجدّ في النهوض بمهام الدعوة[2]؛ تمثلا وإبلاغا وبناء لنموذجها الاجتماعي، وهو الذي غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه[3]. لا شك أن هذا سيحدث هزة نفسية قوية لدى قاعدة الدعوة، ويدفع بها إلى اعتبار ما تحقق لها من المكاسب أمانة ثقيلة، يجب **التأهب المستمر لرعايتها وشكر الله عليها**، والاستعانة به على ذلك كله، وهو ما ينأى بها فعلا عن البطر والاستكبار، والغفلة عن أداء الواجبات، ويشحذ عوامل الإخلاص والتجرد والصدق والتفاني والمراقبة والمحاسبة والأوبة لديها، ويدفع بمستويات أدائها الاجتماعي إلى ذرى الفعالية والإحسان والرحانية الحضارية.

تعميق الوعي بقانون الإخلاص: وهو من كليات الاستخلاف الكبرى[4] التي تواصل تعميق الوعي بها، وجاء التأكيد عليها في التقييم القرآني للمرحلة السابقة واستشرافه لآفاق الدعوة في المرحلة التالية، كما نلحظ ذلك في تعقيب الوحي على خطأ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وحرصه على إيجاد يدٍ له عند المشركين يحمي بها قرابته كما قال[5].

لقد استثمر القرآن هذا الموقف المهتز، وضغط عليه في اتجاه تعميق وعي قاعدة الدعوة بالكثير من المفاهيم والقيم العقدية والتسخيرية والاستخلافية، التي يأتي الإخلاص في مقدمتها، باعتباره الأساس النفسي المتين لفعالية الإنجاز، وشرط القبول له عند الله تعالى[6]، واستحقاق الاستفادة من سنن التأييد، إذا استكمل بقية الشروط الخاصة بسنن الآفاق والأنفس والهداية، قدر الاستطاعة ومن غير تفريط.

ونظراً لأهمية الإخلاص وتجريد القصد لله تعالى في فعالية الإنجاز من جهة، واستحقاق التأييد

---

* تكرر ذكر التوبة بمشتقاتها المختلفة أكثر من 80 مرة في القرآن الكريم وحده.

(1) **القرآن الكريم**، سورة النصر: 3.

(2) صحيح البخاري، كتاب التفسير،سورة إذا جاء نصر الله، (**فتح الباري**، 605/8)

(3) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 463/4؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 228/20.

(4) ابن القيم، **مدارج السالكين**، 96/2 وما بعدها.

(5) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح وما بعث به حاطب، (**فتح الباري**، 592/7).

(6) القاسمي، **محاسن التأويل**، 119/16.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والمباركة من جهة أخرى، فقد نبّه القرآن قاعدة الدعوة إلى خطورة الغفلة عن النية والقصد في الأعمال، والحاجة المستمرة إلى الإخلاص وتجريد النيات والمقاصد لله تعالى، والحذر من شوائب ابتغاء غير مرضاته تعالى بها، لأن ذلك يؤثر على فعاليتها من ناحية، وعلى مصداقيتها الشرعية أو العبادية من ناحية أخرى.

كما نلحظ ذلك في تحذير القرآن من موادّة أعداء الدعوة والدولة والمجتمع، وإشراكهم في اقتطاع جزء من فعالية المسلم وحرمان الدعوة منها، مع تنافي ذلك مع الإيمان ومقتضياته، قال تعالى: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ]**إلى قوله تعالى: **[إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي]** (1).

ولا شك أن الجهاد حتى يكون في سبيل الله، وينال به المسلم مرضاة الله التي تضع بين يديه إمكانية كبيرة لاستثمار سنن التأييد بالخصوص بعد ذلك لا شك أنّ كل ذلك يحتاج إلى الإخلاص وتجريد النيات والقصود لله تعالى قدر الإمكان، وهو ما أكد عليه التقييم النبوي للمرحلة كذلك في قوله بعد فتح مكة ،وانتهاء الحاجة إلى الهجرة :"**لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا** " (2).

وبهذه العناية بكلية الإخلاص، عمّق الإسلام وعي قاعدة الدعوة بإحدى أهم الأصول والأسس النفسية أو الروحية لفعالية الإنجاز لدى المسلم، وأحد الشروط الهامة لمواجهة مخاطر الاسترخاء، وضمان أصالة الجهد، وشحذ روح الاندفاع نحو الخيرية في قاعدة الدعوة بصورة مستمرة، لأن الإخلاص الذي يتمحور حول سبيل الله ومرضاة الله، لا حدود لأثاره القوية على النفس والسلوك، بما يُضفيه على الأعمال من الروحانية التي تحرّر الإنسان من أسر الشيئية، والآنية، والذاتية.. وتربّي فيه علو الهمّة ،وروح الاحتساب لله تعالى ،وما يستتبع الصبر وقوة الإرادة، والقدرة على التمييز والموازنة، والإيثارية..

واستحكام أمر هذه القيم النفسية والسلوكية لدى قاعدة الدعوة، يعمّق التحول التربوي الاجتماعي، ويؤكد بروز وتميز شخصية النموذج الاجتماعي للدعوة والدولة، ويطوّر مستوى فعالية أدائهما في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، ويمهّد سبيل الظهور والتمكين الحضاري أمامهما.

تعميق الوعي بمكانة ومسؤولية القيادة التاريخية للدعوة: ومن المعاني الهامة التي أكّد عليها التقييم القرآني للمرحلة، واستخلصها من حادثة حاطب رضي الله عنه ،تعميق الوعي بمكانة ومسؤولية **القيادة التاريخية القدوة للدعوة،** باعتبارها ضمانة أساسية للمحافظة على أصالة حركة الدعوة والبناء والمواجهة، بحكم غنى تجربتها، وعمق وعيها بحقائق الإسلام وتاريخ حركة المواجهة والبناء، ورسوخ تمثّلها لقيم الدعوة، ومكانتها الخاصة في نفوس الأجيال اللاحقة .

كل هذه الاعتبارات تؤكد المكانة المتميزة للقيادة التاريخية القدوة للدعوة، ومن ثم مسؤوليتها الخاصة في حماية الدعوة والدولة والمجتمع والمحافظة على منجزاتها، وضمان استمرارية حركة البلاغ والبناء والمواجهة. وهو ما نلمسالتنبيه إليه في حادثة حاطب ،من خلال حفظ مكانته والتنويه بسابقته وبدريته(3) ، حتى يتأكد الدور البارز للقيادة التاريخية ومكانتها الخاصة لدى أجيال الدعوة الجديدة، فتأخذ منها الوعي والسلوك، وتعرف لها قدرها وأولويتها فيما يتعلق بكل ما استراتيجي و كلي

---

(1) **القرآن الكريم**، سورة الممتحنة:1.
(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا هجرة بعد الفتح، (**فتح الباري**، 219/6)
(3) ابن القيم، **زاد المعاد**، 299/3– 424.

ومصيري في مسيرة الدعوة والدولة والمجتمع .

فقوله عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه بعد تغيّضه من حاطب واتامه بالنفاق والخيانة :"**إنه قد شهد بدراً ،وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال :اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**"(1) تعميق الوعي بالمعاني السابقة ومحافظة على مكانة وقدوة القيادة التاريخية للدعوة(2) . وهو ما نبّه إليه القرآن كذلك في مثل قوله تعالى:[**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**]3 .

ولا يخفى ما للمحافظة على مكانة القيادة التاريخية للدعوة من أهمية كبيرة في مواجهة تحديات الانتقال السياسي للمجتمع بعد ذلك، وتفعيل عملية التحول التربوي والاجتماعي بالنسبة للأجيال اللاحقة، التي ستأخذ عن الأجيال السابقة بدون عقدة، وتحترم مرجعيتها الفكرية والسياسية الأمر الذي يحفظ توازن حركة الدعوة والدولة والمجتمع، ويحقق أصالتها وفعاليتها، ويضمن إطراديتها.

وهذه المحافظة على مكانة القيادة التاريخية للدعوة لدى أجيال المجتمع، لا شك أنه قصد بها من جهة أخرى تعزيز شحذ شعورها –أي القيادة التاريخية القدوة للدعوة– بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقها تجاه الدعوة والدولة والمجتمع، فتأخذ نفسها بالجدّ حتى تكون في مستوى **القدوة والمرجعية المتألقة** باستمرار، وهو ما يوحي به قول إبراهيم عليه السلام وأتباعه الذين ذكرهم الله تعالى كنموذج للقدوة المرجعية المحرَّرة الولاء، في سياق تعقيب القرآن على اضطراب موقف حاطب رضي الله عنه: [**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**](4)، فرغم نموذجية وفذاذة موقفهم، لم يغتروا ولم يستكثروا ذلك على الدعوة، ولم يمنّوا به على أحد، وحرصوا على استدراك ما يكون قد فاتهم من الأولويات، ورغبوا إلى الله تعالى أن لا ينزل بقدوتهم ومرجعيتهم إلى مستويات مفضولة أو مرجوحة، تؤثر سلباً على حركة الاستيعاب الدعوي(5)، وهو ما يلقي بظلاله على إحساس القيادة التاريخية للدعوة خاصة، بثقل المسؤولية التي تتحملها تجاه الدعوة والدولة والمجتمع.

وتعمّق هذا الوعي لدى القيادة التاريخية للدعوة، يحميها من الاسترخاء الروحي والسلوكي والاجتماعي، ويشحذ اندفاعها الدعوي والتزامها الرسالي، ويغني خبرتها التسخيرية والاستخلافية، وهو ما ينعكس إيجاباً على سرعة تفكيك القوى المضادةوإعادة استيعابها، ومواجهة تحديات الاستيعاب التربوي لأجيال المجتمع بفعالية وأصالة واطراد، وتسهيل عملية الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان استمرارية الدعوة وتطوير نموذجها الاجتماعي في اتجاه العالمية والإنسانية والكونية.

تعميق وعي قاعدة الدعوة بفقه الموازنات: ونقصد بفقه الموازنات هنا القدرة على دقة وشمولية التمييز والاختيار بين الأولويات والبدائل المتاحة، تحقيقاً لأعظم مصالح الدعوة والدولة والمجتمع، ودفعاً لأعظم المفاسد والأفكار المهددة لها: في أصالتها وفعاليتها وديمومتها، وهو –أي فقه الموازنات– من الموضوعات الأساسية التي تواصل الاهتمام بها في كل مراحل الدعوة، لما له من علاقة عميقة بفقه التسخير والاستخلاف الذي ترتكز عليه فعالية الاستجابة لتحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على حركة الصيرورة الاستخلافية في عالم الشهادة .

---

(1) البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، (**فتح الباري**، 592/7).

(2) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 291/14.

(3) **القرآن الكريم**، سورة الحديد : 10.

(4)**القرآن الكريم**، سورة الممتحنة: 5.

(5) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 148/28.

فالحياة بطبيعة تنوّعها وتعقّدها، وتجدد حاجات الناس فيها، تحتاج باستمرار إلى وعي عميق بفقه الموازنات، لاختيار أولى المواقف وأرجحها، وأكفلها بتحقيق أعظم المصالح ودفع أعظم المفاسد، ضماناً لفعالية الأداء الاجتماعي ومحافظة على أصالته واطراد حيويته، وهو ما يرتقي به –أي فقه الموازنات– إلى قمة الوعي التسخيري والاستخلافي الذي يجب أن يعتنى به في تأسيس الثقافة القيادية لقاعدة الدعوة[(1)]، لأنه بدونه تضطرب الاختيارات، وتفوت المصالح الحقيقية على الدعوة والدولة والمجتمع، ويرتبك موقف حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وتتضاءل أصالة وفعالية إنجازها .

والرسول عليه الصلاة والسلام استثمر هذه القاعدة بكثافة كبيرة في تحقيق فعالية الإنجاز وأصالته من جهة، وفي بناء الثقافة القيادية لقاعدة الدعوة من جهة أخرى، وهو ما نراه بوضوح على سبيل المثال في تعامله عليه الصلاة والسلام مع موقف حاطب رضي الله عنه وردود الفعل المضادة له، التي ذهبت إلى حد تخوينه اتهامه بالنفاق وطلب إنزال العقوبة الرادعة به، كما فعل ذلك عمر رضي الله عنه[(2)] .

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام استثمر هذه الحادثة في تعميق **الوعي بفقه الموازنات**، من خلال تحليله وتقييمه الشامل للموقف، في ضوء العوامل المتعددة التي أحاطت به، المآلات التي يمكن أن تتمخض عن النظرة الأحادية له، كما في موقف عمر رضي الله عنه، الذي دمعت عيناه بعد أن أدرك أغوار الموقف النبوي ودقة موازنته بين أبعاده جميعاً، فجاء فعله متوازناً محققاً لأعظم المصالح ودافعاً لأعظم المفاسد .

فالرسول عليه الصلاة والسلام راعى سابقة الرجل، كونه من القيادة التاريخية القدوة للدعوة، كما راعى نيّته ومقصده، والظروف المحيطة بالموقف كله، وما يمكن أن ينجم عن اهتزاز ثقة الأجيال الجديدة في القيادة المرجعية للدعوة والدولة والمجتمع، وجاء الوحي[(3)] بعد ذلك كله يعمّق وعي قاعدة الدعوة بفقه الموازنات، عندما أضاف إلى الأبعاد السابقة، ضرورة اعتبار المصالح العامة للدعوة والدولة والمجتمع في المواقف المتّخذة، وتحكيمها في المصالح الخاصة، أو الآنية، أو الجزئية ... في حالة تعذر الجمع بينها.

ولا تخفى أهمية تعميق مثل هذا الوعي لدى قاعدة الدعوة عامة، وقيادتها التاريخية القدوة خاصة، في ضمان أصالة الأداء الاجتماعي وفعاليته، والسير قدماً في مواجهة تحديات المرحلة وتحقيق أهدافها، بما يوفره من قدرة على التحليل والتفسير الموضوعي الموازن للأحداث، ومن ثم التقييم الواقعي لها، ودقة التعامل معها، بما يخدم المصالح الكلية للدعوة والدولة والمجتمع، وهو ما نرى صداه في مواجهة المجتمع الإسلامي الوليد لمشكلة انتقاله السياسي بعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

تعميق الوعي بالأبعاد الإنسانية في النموذج الاجتماعي للدعوة: لما ذلك من أهمية كبيرة في سرعة احتواء المجتمع التقليدي وقواه الاجتماعية المختلفة، وفتح آفاق الامتداد أمام حركة الدعوة ونموذجها الاجتماعي، وقد أكّدت الخبرة التاريخية أهمية التجسيد العملي لقيم نموذج اجتماعي ما في قوة أو ضعف استقطابه الاجتماعي[(4)]، وخاصة ما يتعلق منها بأبعاده عمقه الإنساني، كالمساواة والعدالة والسماحة والتراحم...

---

(1) الشاطبي، **الموافقات**، 71/4.
(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (**فتح الباري**، 592/7)
(3)**القرآن الكريم**، سورة الممتحنة: 1.
(4) الزمخشري، **الكشاف**، 370/3؛ ابن خلدون، **المقدمة**، ص137.

فالإنسان وإن كان محكوماً في مستوى من مستويات وعيه وحياته بالماديات والمظهريات المباشرة، إلا أنه ينجذب باستمرار، عبر ذلك، إلى المعاني والأبعاد الإنسانية في الحياة ومظاهرها، تجاوباً مع فطرته النزّاعة إلى الحق والخير والجمال، وهو ما دأب عليه الصلاة والسلام على تعميق وعي الناس به، تقويضاً لعلاقتهم بالنموذج الاجتماعي التقليدي، وإحكاماً لصلتهم بالنموذج الاجتماعي البديل الذي تمثله الدعوة .

ونذكر هنا على سبيل المثال خطبته في فتح مكة، التي تضمنت الإشارة إلى الآفاق الإنسانية الكبرى للدعوة[1]، وعفوه عن الناس كتجسيد عملي لذلك، عاش الرأي العام عبره سماحة الإسلام ورحمته، وأحسوا بنواحي فرادة نموذجه الاجتماعي فنشطت نفوسهم إلى الدخول فيه.

كما نذكر تجسيده عليه الصلاة والسلام لقيم المساواة والعدالة في مواقف رائعة أيام الفتح الأكبر، أفصحت للناس بوضوح وقوة عن الآفاق الإنسانية للدعوة، الأمر الذي اجتذبهم إليها وإلى نموذجها الاجتماعي، ووطّد علاقتهم بهما، كما يدل على ذلك اضطلاع عبد حبشي –بلال– بمهمة الآذان في مكة، رفضه عليه الصلاة والسلام الحازم وساطة أسامة بن زيد رضي الله عنه في تخفيف عقوبة المرأة المخزومية التي سرقت أيام الفتح، وقال بعد أن تلون وجهه: « **... والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** »[2] بعد أن ذكر الناس بمظالم المجتمع التقليدي، ونبّه إلى مخاطر الظلم الاجتماعي على حياة المجتمعات، وكيف أنه سبب كبير من أسباب هلاكها وذهاب ريحها[3].

وحرص عليه الصلاة والسلام على تحرير الناس من الخوف الذي زرعته فيهم الثقافة التقليدية ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية المستبدة، وتكثيف إحساسهم بالعزّة والكرامة الإنسانية، التي تجدّد شعورهم بالحياة، وتفجّر فعاليتهم في تعزيز **الخيرية** والاستمتاع بها، كما نلحظ ذلك في قوله لرجل جاء ليبايعه، فأخذته الرعدة وتملكه الخوف: « **هوّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة في قريش كانت تأكل القدّيد** »[4].

إن كل هذه المواقف تدخل في تعميق وعي قاعدة الدعوة والأجيال الجديدة، وقاعدة المجتمع التقليدي، بالأبعاد الإنسانية في النموذج الاجتماعي للدعوة، تكثيفاً وتركيزاً لقوته الاستقطابية، التي تضاعف من قدرته على الاستيعاب الدعوي والتربوي والاجتماعي.

شحذ الذاكرة التاريخية لمواجهة الاسترخاء: أي تجديد وتعميق وعي قاعدة الدعوة عامة والقيادة التاريخية منها خاصة، بتاريخ الدعوة القريب والبعيد* والحرص على جعله حيّاً في ذاكرتها، حتى يلهمها الثبات، ويحسّسها بالنقلة الإنسانية النوعية التي حدثت في حياتها، ويحدّ شعورها تجاه أي فتور أو استرخاء يؤثر على موقفها الفكري والنفسي والاجتماعي والسياسي، تجاه النموذج الاجتماعي التقليدي وثقافته المتخلفة.

لقد حرصت الدعوة على الدفع المستمر بولاء المجتمع عامة وقيادته التاريخية القدوة خاصة، إلى مداه الرسالي، الذي يرتفع فوق الذاتية وكل الهموم والاهتمامات التي تدور حول ذلك، ولا ترتقي

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 54/4.
(2) البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة زمن الفتح، (**فتح الباري**، 619/7)
(3) ابن خلدون، **المقدمة**، ص262.
(4) الحاكم، **المستدرك**، 466/2.
* المقصود بالبعيد هنا: التاريخ الرسالي للنبوات عامة .

إلى قمم **الموضوعية والاحتسابية** في العلاقة بالدعوة والدولة والمجتمع، واستثمرت في ذلك –من بين ما استثمرت– **الوعي التاريخي**–، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في تعقيب القرآن التقييمي الاستشرافي على حادثة حاطب رضي الله عنه، حيث ذكر قاعدة الدعوة عامة، بطبيعة وموقف القوى المضادة من الإسلام ونموذجه الاجتماعي، وكيف اتّسم ذلك بالعداوة الشديدة، ومناهضة الحق والخيرية، وتعريض دعائها إلى التضييق ومصادرة حريتهم، وإخراجهم ومطاردتهم والحرص البالغ على استعمال كل وسيلة متاحة للتأثير على حركة الدعوة، وتحقيق إعادة احتواء الاستيعاب المضاد مرة أخرى .

قال تعالى: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ]**[1]، إلى قوله تعالى:**[إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ]**[2] .

وفي السورة نفسها تجاوز القرآن استثمار تاريخ الدعوة القريب إلى استثمار تاريخ الرسالات البعيد –كما يدل على ذلك التذكير بموقف إبراهيم والذين معه من قومهم عامة وأقرب الناس إليهم خاصة[3] – في شحذ الوعي التاريخي لقاعدة الدعوة، وتجديد ذاكرتها لمواجهة الاسترخاء وتراجع الروح الرسالية وتناقص الفعالية الانجازية لديها، عندما تغفل عن مفعول سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي استوعبت الآيتان السابقتان الإشارة إليها، والتذكير بخطورة الذهول عن فعلها في الحياة.

ولا شك أن انشحاذ الذاكرة التاريخية لقاعدة الدعوة، يحافظ على توازنها النفسي والسلوكي، ويضمن استمرارية اندفاعها الرسالي، ويعمّق وعيها التسخيري والاستخلافي، ويمنح حركة البلاغ والبناء والمواجهة، أصالة وفعالية متزايدة، تؤثر بقوة على سرعة تفكيك واحتواء آخر كتل القوى المضاة، وتدفع بعملية الاستيعاب التربوي والاجتماعي إلى مستوياتها الأشمل والأعمق باستمرار.

نكتفي بهذه العينات من قواعد المنهج، التي جاءت في سياق التقييم للمرحلة السابقة واستشراف آفاق المرحلة التالية، ونشرع في ذكر عينات أخرى تمّ استثمارها في مواجهة تحديات هذه المرحلة وإنجاز أهدافها في الدعوة والبناء والمواجهة.

القدرة على توقيت إنجاز الأعمال: وهي من قواعد التسخير الهامة، لما تمنحه لعملية الإنجاز من فعالية، لأن التوقيت المناسب يعني: القدرة على حسن اختيار أنسب الظروف والشروط الموضوعية المساعدة على أصالة وفعالية الإنجاز سواء تعلق الأمر بالموقف على مستوى الدعوة أو على مستوى الآخر. أي بمواجهة مهام وتحديات البناء الداخلي أو التدافع الخارجي .

والرسول عليه الصلاة والسلام استثمر هذه القاعدة في عمله بفعالية مطّردة، الأمر الذي ساعد كثيراً على ضمان فعالية الإنجاز، سواء تعلق الأمر بحركة البلاغ، أو البناء، أو المواجهة، فعلى كل مستوى من هذه المستويات، كان فعله عليه الصلاة والسلام يتمّ في أنسب الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية، وبأهم الشروط الموضوعية المتاحة والممكنة. وهو ما نلمسه على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية :

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من استثماره عليه الصلاة والسلام للظروف النفسية

---

(1)**القرآن الكريم**، سورة الممتحنة: 1.
(2)**القرآن الكريم**، سورة الممتحنة: 2.
(3)الرازي، **التفسير**، 260/29.

والاجتماعية والسياسية التي أوجدها فتح مكة، لتفكيك واحتواء آخر كتل القوى المضادة ذات الاعتبار والثقل الاستراتيجي في حركة المواجهة، وهي هوازن، التي راحت تجمّع جموعها وتعبّئ نفسها لأخذ زمام المبادرة في زعامة المواجهة بعد احتواء الدعوة لقريش .

فبمجرد أن علم الرسول عليه الصلاة والسلام –وهو ما يزال بمكة– بتحركات هوازن وثقيف، تحرّك بسرعة إلى التأكد من الأمر والتعرف بدقة على حجم الاستعداد (1)، فلما تجمّعت لديه المعطيات، أدرك أن الفرصة قد حانت للإطاحة بآخر القوى المضادة، التي حرصت بدورها على أن تجعل من هذه نقطة تحول فاصلة في حركة المواجهة (2)، كما تدلّ على ذلك التعبئة العامة لإمكاناتها البشرية والمادية جميعاً (3)، وهو ما استغله عليه الصلاة والسلام ولم يفلته، ورغم ما حدث في بداية المواجهة من اضطراب خطير في الموقف العسكري لصالح هوازن، وقد تمخّض الأمر في النهاية عن انكسار تام للقوى المضادة وإعادة احتوالها (4) في حركة الدعوة ونموذجها الاجتماعي الجديد.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من تبليغ بيان البراءة من المشركين، وإحكام الحصار على بقايا فلول القوى المضادة، والدفع بها إلى تعميق التفكير الجدي في مستقبلها، والتحرّر من كابوس الاستصحاب البليد للموقف الأبائي التقليدي المتهافت، من الدعوة ونموذجها الاجتماعي .

فقد اختار عليه الصلاة والسلام أنسب ظرف، وأحسن مكان، وأفعل طريقة، لتبليغ ذلك البيان، وإحداث **الصدمة النفسية والفكرية والاجتماعية والسياسية** المطلوبة به، فكان ذلك في موسم الحج سنة تسع، وفي مكة، وعن طريق علي رضي الله عنه، الذي لحق بوفد الحج مبعوثاً خاصاً من قبله عليه الصلاة والسلام لإبلاغ البراءة إلى جموع الحجيج بمكة (5)، في جوّ نفسي بالغ الأهمية بالنسبة للآثار الفكرية والسياسية للبراءة.

وقد بينت الأحداث بعد عام فقط، الأثر الحاسم لهذه البراءة، كما تدل على ذلك جموع الحجيج التي شهدت حجة الوداع(6)، لأن الموقف فتح حواراً ذاتياً واجتماعياً شاملاً وعميقاً حول النموذجين التقليدي والإسلامي ومنظومتيهما المعرفيتين، وانتهى بسرعة لصالح الإسلام ونموذجه الاجتماعي.

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من عدم حجّه عليه الصلاة والسلام في السنة التاسعة، وتبليغه البراءة من الشرك بنفسه، لأن الظروف النفسية والاجتماعية ... لم تتهيأ بعد بصورة كاملة، تجعل الحج خالصاً لتعميق التحول المعرفي والروحي والسلوكي. فقد كان هناك من العرب من ما يزال على العادات القديمة في شعائر الحج(7)، ويحتاج إلى تهيئة نفسية، وهو ما أنجزه عليه الصلاة والسلام عبر بيان براءة الذي أتى ثماره بسرعة، كما تدل على ذلك حركة الوفود الكثيفة التي أمّت المدينة عقب ذلك مباشرة تبايع على الإسلام وتنضوي في نموذجه الاجتماعي الجديد (8).

فلما نضجت الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية للتغيير، جمع عليه الصلاة والسلام

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 82/4.
(2) ضياء العمري، **السيرة**، 494/2.
(3) ابن سعد، **الطبقات**، 149/2.
(4) ابن هشام، **السيرة**، 133/4.
(5) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب التفسير، باب فسيحوا في الأرض، (**فتح الباري**، 168/8).
(6) البيهقي، **الدلائل**، 432/5؛ أحمد بن زيني دحلان، **السيرة النبوية**، 12/3.
(7) ابن كثير، **السيرة**، 69/4.
(8) ابن سعد، **الطبقات**، 222/1 وما بعدها؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 312/2 وما بعدها.

عشرات الألوف من المسلمين في حجة الوداع سنة عشر[1]، في **نفير تربوي** بلغ مداه من حيث فعالية المردود المعرفي والروحي والسلوكي كما سنرى ذلك لاحقاً.

وبهذه القدرة على استثمار قاعدة **توقيت إنجاز الأعمال**، تمكن عليه الصلاة والسلام من ضمان فعالية الإنجاز في حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وبالتالي التغلب على تحديات المرحلة، وتحقيق أهدافها بكفاءة عالية، كما دلّت على ذلك النماذج التطبيقية السابقة على سبيل المثال.

سرعة مواجهة الالتباس واحتواء آثاره: ونقصد بالالتباس هنا: اختلاط الأمور على الناس وخفاء حكمتها عليهم، فيما يتعلق ببعض مواقف وقرارات القيادة المرجعية للدعوة، مما يضعف حالة التجاوب لدى قاعدة الدعوة، ويؤثر سالباً على مردودية الأداء الاجتماعي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة.

ولا شك أن التباس الأمور على الناس، يشكل إحدى العوامل السلبية المشلة لحيوية الاندفاع وفعالية الإنجاز، بما يُحدثه من بلبلة نفسية واجتماعية، ويوفره من أجواء مواتية لنشاط الحرب النفسية المضادة، للتشكيك في مصداقية مواقف وقرارات القيادة، ومحاولة زعزعة ثقة قاعدة الدعوة فيها، وهو ما يؤدي إلى مضاعفة هموم الدعوة ومشكلاتها، ويصرف جزءاً من "**ميزانيتها التسخيرية**" على هامش حركة البلاغ والبناء والمواجهة.

ولهذا فإن مواجهة الالتباس واحتواء آثاره السلبية، يعدّ من قواعد التسخير والاستخلاف الهامة، التي تعطي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة فعاليتها المطلوبة في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وهو ما نجد صداه الكبير في منهجه عليه الصلاة والسلا في التغيير والبناء، ونلمس آثاره بوضوح في مواجهة استرخاء قاعدة الدعوة، وتعميق التحول التربوي والاجتماعي في المجتمع، وتسريع عملية تفكيك القوى المضادة وإعادة استيعابها، وتأمين الانتقال السياسي للمجتمع بعده عبر ذلك كله.

لقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً باستمرار على تحرير الناس من الالتباس والانحباس النفسي المشلّ لروح الاندفاع وفعالية الإنجاز، من خلال استهدافه الوضوح معهم، وتعميق الثقة المتبادلة بينه وبينهم، كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من موقفه من وجد الأنصار عليه في غنائم حنين حتى كثرت منهم القالة[2]، فلما بلغه الأمر أسرع إلى جمعهم وتوضيح الموقف لهم، في حوار صريح ومؤثر بينه وبينهم، تبكى منه القوم حتى اخضلت لحاهم، وكان مما جاء فيه: "... أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ... "[3].

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يحرص باستمرار على مواجهة الالتباس واحتواء آثاره بسرعة ووضوح[4]، ما أمكنه ذلك، ويعمل على تحرير قاعدة الدعوة من الكوابح النفسية المشلة لروح الاندفاع وفعالية الإنجاز، ولا يتّكل على مجرد سلطته المرجعية لديهم، معلى ثقتهم فيه، بل يعمل دائماً على

(1) ابن سعد، **الطبقات**، 172/2.
(2) ابن هشام، **السيرة**، 141/4.
(3) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 142/4.
(4) عرجون، **محمد رسول الله**، 398/4.

تقوية ذلك ودعمه كلما وجد إلى ذلك سبيلا .

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من موقفه من رجلين مرا به ليلاً وهو معتكف بالمسجد، فرأيا معه امرأة، فولّيا مسرعين، فناداهما، وأوضح لهما الأمر قائلاً: « إنما هي صفية بني حيي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله وكبّر عليهما، فقال صلى الله عليه وسلم: « إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً »(1).

لقد كان عليه الصلاة والسلام عميق الوعي بمخاطر الالتباس النفسية والفكرية والسلوكية، فلا يترك الأمر يتفاعل، بل يبادر إلى حفظ طاقة المسلم وتوجيهها في الخير، دون الاعتماد على مجرد الثقة فيه(2). وهو ما يعمّق وعي قاعدة الدعوة بفقه التسخير والاستخلاف، ويشحذ تلاحمها الاجتماعي وفعاليتها الانجازية.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى صورة أخرى لتطبيقه عليه الصلاة والسلام لقاعدة **مواجهة الالتباس واحتواء آثاره**، في موقفه من اعتراض بعض الناس على عليّ رضي الله عنه حينما بعث إلى اليمن، بسبب صرامته في المحافظة على النظام والانضباط، وراحوا يتكلّمون فيه حتى بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فبادر إلى احتواء آثار بذور البغض والكراهية وقال لبريدة رضي الله عنه: « **أتبغض عليا ؟** » فقال: نعم فقال صلى الله عليه وسلم: «**لا تبغضه**»(3). ثم قام في الناس بعد ذلك خطيباً فقال: « **يا أيها الناس ! لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يشكى** »(4)

وعندما أمّر أسامة بن زيد على جيش فيه وجهاء الصحابة(5) وتحدث بعض الناس في ذلك، وحاولوا التهوين من شأن قدرات أسامة القيادية. تدخل عليه الصلاة والسلام لرفع الالتباس واحتواء آثاره، مع أنّه كان في مرض موته يعاني آلاماً شداداً وقال للناس بعد تذكيرهم بما قيل في إمارة أبيه من قبل: « فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقا لها...(6) ».

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يستثمر قاعدة مواجهة الالتباس واحتواء آثاره، للإبقاء على روح الاندفاع لدى قاعدة الدعوة، ودعم تماسك شبكة العلاقات الاجتماعية، وتعميق التحول التربوي والاجتماعي للمجتمع، عبر استغلال توتّراته النفسية والاجتماعية في تأصيل قيم التثبت، والاحتساب، والانضباط، والأخوة، والسلامة النفسية وعدم التباغض ... وهو ما يركز الوعي التسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدعوة، ويمنحها القدرة على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، وفي مقدمتها تحقيق الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان استمرارية الدعوة، ومن خلال النماذج التطبيقية لكل قواعد المنهج السابقة، يلحظ مدى شمول وعمق استثمار الرسول عليه الصلاة والسلام لسنن التسخير

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**،كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف، (**فتح** الباري، 326/4)

(2) عمار طالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، 270/2.

(3) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب المغازي، باب بعث علي ... إلى اليمن، (**فتح الباري**، 664/7).

(4) ابن هشام، **السيرة**، 250/4.

(5) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة و ابنه أسامة، (**شرح النووي**، 195/15).

(6) ابن هشام، **السيرة**، 253/4.

في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، الأمر الذي منح جهده أصالة وفعالية متزايدة.

طمأنة القوى المتنفذة على مكانتها الاجتماعية: ونقصدبالقوى المتنفذة هنا، محاور الاستقطاب الفكري والاجتماعي والسياسي المؤثرة في اتجاهات ومواقف المجتمع التقليدي.

وقد لاحظنا في حركة المواجهة بين الدعوة ونموذجها الاجتماعي من جهة، والمجتمع التقليدي ومنظومته المعرفية من جهة أخرى، أنه من بين أقوى عوامل المناهضة للدعوة خوف القوى المتنفذة التي يسميها القرآن بالملأ[(1)] على نفوذها الاجتماعي والسياسي من الاهتزاز*، وهو ما يحملها على المواجهة المستميتة للتغيير والحرص على تجنيد بقية القوى الاجتماعية الأخرى من أجل مناهضة ذلك واحتوائه .

والمتتبع للمنهج النبوي في التعامل مع هذه الظاهرة الخطيرة، يرى كيف استثمر عليه الصلاة والسلام قاعدة **طمأنة القوى المتنفذة على مكانتها الاجتماعية**، في تفكيك مخاوفها واحتوائها تدريجياً، وخاصة في مراحل تضاؤل الأخطار الخارجية على الدعوة والدولة والمجتمع، وهو ما رأينا صوراً عديدة له في المرحلة السابقة، ونرى نماذج تطبيقية أخرى كثيرة له في هذه المرحلة بالخصوص، حيث أحكم التطويق الثقافي والسياسي والعسكري للقوى المضادة، واحتاج الأمر كثيراً إلى تجاوز مرحلة الاستيعاب العسكري والسياسي، إلى الاستيعاب الدعوي والتربوي والاجتماعي، تحقيقاً لأهداف المرحلة في إنهاء بؤر التوتر والخطر، وتأمين الانتقال السياسي للمجتمع بصفة خاصة وإفساح المجال للامتداد الحضاري للنموذج الاجتماعي الإسلامي الجديد .

النموذج التطبيقي الأول: نراه في إعطائه عليه الصلاة والسلام للمؤلفة قلوبهم أموالاً كثيرة يوم حنين، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألفهم ويتألف بهم أقوامهم[(2)]، حتى قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت كريم في الحرب وفي السلم[(3)] . وقال صفوان بن أمية :"والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني، حتى إنه لأحب الناس إليّ"[(4)]. وشاع في الناس يومئذ: أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحمت عليه الناس[(5)]، وقد أخذت بهذه المعاملة، واستيقنت أن الدخول في الإسلام لا يزيد مكانتها الاجتماعية إلا تأكداً وتألقاً وتوازناً[(6)].

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من استيعابه لمالك بن عوف النضري قائد هوازن بحنين، وكيف سأل عنه الناس، وطلب منهم أن يخبروه :"أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله **وأعطيته مائة من الإبل**"، فأثر فيه ذلك وأتى مسلماً فأعطاه وأكرمه واستعمله على قومه، فأبلى في سبيل الله بلاءً حسناً[(7)]، بعد أن كان حامل راية أقوى وأخطر قوة مضادة للدعوة بعد قريش.

النموذج التطبيقي الثالث: ويمكن أن نذكر هنا العديد من الأمثلة التي طبق فيها عليه الصلاة

---

(1) عبد الكريم زيدان، **أصول الدعوة**،(مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1414هـ- 1993)، ص370.
* وهي ظاهرة عامة في كل الحركات الرسالية تقريباً.
(2) ابن هشام، **السيرة**، 135/4.
(3) الواقدي، **المغازي**، 945/3.
(4) أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الفضائل، باب سخاؤه ﷺ، **(شرح النووي**، 79/15).
(5)الهيثمي، **المجمع**، 277/6.
(6) أبو زهرة، **خاتم النبيين**، 1401/2.
(7)ابن كثير، **المرجع السابق**، 683/3.

والسلام قاعدة **طمأنة القوى المتنفذة على وضعها الاجتماعي**، كما يتضح ذلك على سبيل المثال في تأميره الكثير من رجال القبائل على أقوامهم بعد إسلامهم، واحتفائه الكبير بوجهاء الأقوام عندما يأتون إليه، كما فعل مع عدي بن حاتم[(1)]، وجرير بن عبد الله البجلي[(2)]، والأشج رئيس وفد عبد القيس[(3)]، ووائل بن حجر[(4)] ... وغيرهم كثير ممن أكرم وفادتهم، وأشاد بهم، وعزّز مواقعهم الاجتماعية، بعد أن تغيّرت نظرتهم للنفوذ والسلطة والسمعة، واندرجت طموحاتهم في آفاق الدعوة .

بهذا الاستثمار الدقيق لقاعدة طمأنة القوى المتنفذة خاصة، وقاعدة المجتمع التقليدي على مكانتها الاجتماعية، كان عليه الصلاة والسلام يستلّ سخائم النفوس، ويغيّر القناعات المتوارثة، ويبدّد، المخاوف، ويدفع بالناس من سفوح أو عتبات الذاتية، والأنانية، الدنيوية ... إلى قمم الموضوعية، والغيرية، والعالمية، والإنسانية، والكونية، حيث تتوازن حياتهم، وتتكامل خبرتهم ووعيهم التسخيري والاستخلافي، وتعظم فعالية إنجازهم في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، كما دلت على ذلك حركة المدّ الحضاري الإسلامي بعد مرحلة النبوة .

مواجهة مؤسسات ثقافة الفتنة والتضليل: ونقصد هنا: الأطر الفكرية والاجتماعية والسياسية المنتجة والمروّجة لأفكار ومشاريع المضَارّة للدعوة ونموذجها الاجتماعي، والمعيقة لحركة البلاغ والبناء والمواجهة، بسبب ما تشيعه من التشويش الفكري، والبلبلة النفسية، والاضطراب السياسي والاجتماعي في المجتمع، بقصد الإساءة إليه، وتبديد "**ميزانيته التسخيرية**" ،والتأثير على فعاليته الاجتماعية في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد .

ولا يخفى الدور التعويقي لمثل هذه المؤسسات الفكرية والاجتماعية والسياسية، في حالة الجهل بها، أو الغفلة عنها، أو التساهل في أمرها، لأنها ستتشكل مع مرور الوقت بؤر توتّر سلبي أو مرضي في المجتمع، قد تعرّضه للاهتلاك الذاتي، وتؤثر على فعالية أدائه الاجتماعي، وتقود تدريجياً إلى فقدان أصالته وتميّع ذاتيته، وضياع دوره في معترك التدافع الحضاري

والرسول عليه الصلاة والسلام مع عدم مناهضته للتعدد والتنوع الثقافي، ورعايته لذلك[(5)]، كان علي وعي عميق بخطورة الأبعاد والمستويات السلبية أو المرضية في هذا التعدد التنوع، فلم يغفل عنها لحظة، بل ظل يقظاً لها عاملاً على تفكيك مؤسساتها، وإعادة احتوائها، في ضوء الثقافة العالمية الإنسانية الكونية التي جاءت بها الدعوة الإسلامية .

وقد لاحظنا في المراحل السابقة كيف أن موقفه من القوى المضادة عموماً اتسم بالمرونة والشمولية، حيث كان عليه الصلاة والسلام يستهدف باستمرار استيعابها ،فإن تعذّر ذلك فضّل التعايش، فإن تعذر الأمر عمل على تحييدها، فإن لم يمكن ذلك كله دفع أخطارها بالمواجهة، ورأينا في المبحث السابق كيف كان الاستيعاب هو محور استراتيجيته عليه الصلاة والسلام باستمرار، ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولما كانت هناك مستويات من التدافع لا ينفع فيها أو معها إلا المواجهة، فقد جدّ عليه الصلاة والسلام في **تفكيك مؤسسات ثقافة الفتنة والتضليل** بدون هوادة، تحصيناً للمجتمع من البلبلة الفكرية والنفسية، والاضطراب السياسي والاجتماعي، في مرحلة دقيقة يحتاج فيها إلى تأمين انتقاله السياسي

---

(1) ابن هشام، **المرجع نفسه**، 227/4؛ البيهقي، **الدلائل**، 341/5.
(2) البيهقي، **الدلائل**، 347/5.
(3) البخاري، في **الصحيح**، كتاب المغازي، وفد عبد القيس، (**فتح الباري**، 686/7)
(4) الهيثمي، **المرجع السابق**، 373/9.
(5) ابن هشام، **السيرة**، 160/4.

من القيادة النبوية إلى القيادة الراشدية، والنماذج التطبيقية التالية، تبين لنا عمق النظرة لمؤسسات الفتنة والتضليل، وشمولية المواجهة لها والتقليص من أخطارها على الدعوة والدولة والمجتمع قدر الإمكان.

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من هدمه عليه الصلاة والسلام لمسجد الضرار (1)، وتحريقه لبيت سويلم اليهودي (2)، الذي كان يجتمع فيه المنافقون وفلول القوى المضادة لتخطيط وتنسيق جهود الفتنة والتضليل والتخذيل، وهو نفس الدور الذي أريد للمسجد أن يؤديه بصورة أكثر تركيزاً وشمولاً، كما نبّه على ذلك القرآن في قوله تعالى:**[وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ]**(3).

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من هدمه عليه الصلاة والسلام لكل بيوت ورموز الثقافة العقدية التقليدية، وعدم تساهله في ذلك. كما نلحظ ذلك في تطهير الكعبة من الأصنام تماماً، وبعث سرايا لهدم كل رموز الشرك عقب الفتح مباشرة(4)، ورفضه طلب ثقيف بتأجيل هدم اللات حتى يستوعب الناس الصدمة(5)، استفضاعه حنين بعض مسلمة الفتح إلى الثقافة العقدية التقليدية، كما نرى ذلك في ردّه على من طلب منه يوم حنين أن يجعل لهم ذات أنواط، فقال عليه الصلاة والسلام: « **الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون** » واستلّ من ذلك عليه الصلاة والسلام قانوناً عاماً في مخاطر التقليد على تميّع المجتمع واستلابه الحضاري، فقال: « **إنها لسنن، لتركبن من كان قبلكم** » (6) لتفكيك بقايا المركبات الثقافية ؛العقدية والفكرية والنفسية في نفوس الأجيال الجديدة، والدفع بها إلى الالتحام مع الثقافة السننية الجديدة التي جاءت بها الدعوة.

النموذج التطبيقي الثالث: ولم يتوقف تفكيك الدعوة لمؤسسات ثقافة الفتنة والتضليل، عند أشكالها ومظاهرها المادية المجسّدة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إلى محتواها المعرفي والنفسي والسلوكي، السياسي والاجتماعي، لأن ذلك هو جذر المشكلة ومنبعها الذي لا تحلّ بدون تغييره، وهو ما نلحظه في الحملة المركّزة الشاملة على **النفاق كمؤسسة فكرية ونفسية وسلوكية** قبل أن تكون مؤسسة سياسية أو اجتماعية، فقد قاد القرآن حملة مكثفة على المنافقين والثقافة النفقية، ذهبت بعيداً في استكشاف وكشف أغوار الظاهرة، وضرب وجودها من أعماقه، ووضع حقيقتها أمام المنافقين أنفسهم أولاً ثم أمام الرأي العام في المجتمع كله، دفعها بالجميع إلى المزيد من الحذر والابتعاد عن هذا **المنبع الخطير لثقافة** الفتنة والتضليل والتعويق ...

وقد جاءت هذه الحملة المركّزة ضد ثقافة الفتنة والتضليل في سورة التوبة (7)، التي استوعبت الحديث النقدي التقويمي عن **الظاهرة النفاقية، والظاهرة الأعرابية، والظاهرة الشركية**، وظواهر الفتور والسلبية التي ظهرت أو يمكن أن تظهر في المجتمع بعد توسّعه السريع... وقاية له من

---

(1) ابن هشام، **السيرة**، 174/4.

(2) ابن سعد، **الطبقات**، 165/2؛ البيهقي، **الدلائل**، 224/5 –281.

(3)**القرآن الكريم**، سورة التوبة : 108.

(4)ابن سعد، **المرجع السابق**، 145/2–146.

(5)ابن هشام، **المرجع السابق**، 185/4.

(6)البيهقي، **الدلائل**، 130/5.

(7) أنظر تحاليل هامة في: **تفسير المنار** لمحمد رشيد رضا، و**الظلال** لسيد قطب، و**من وحي القرآن** لحسن فضل الله .

* في مراحل التحييد أو التعايش أو المواجهة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاستيعاب الثقافي المضاد، وتعميقاً لتحوّله التربوي والاجتماعي، وتهيئة له للانتقال السياسي المتوازن، الذي يضمن استمرارية الدعوة واطراد بناء نموذجها الاجتماعي، ويحقق طموحاتها في العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية.

وبهذه الشمولية وهذا **العمق في التعامل مع القوى المضادة**، تمكنت الدعوة من تحقيق استيعاب سياسي وثقافي معتبر لهذه القوى الاجتماعية المختلفة، وهو ما ستدفع به الدعوة عبر آليات تسخيرية أخرى، نحو آفاق أكثر عمقا وشمولا وتوازنا، وخاصة من خلال استثمار النفير الثقافي والاجتماعي بشكل منهجي مكثف.

استثمار النفير الثقافي في الاستيعاب التربوي:

ونقصد بالنفير الثقافي هنا: تكثيف العناية بشحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة، بصورة مركزة وسريعة ومطردة، تعمّق وعيها العقدي والتسخيري والاستخلافي، وتوسّع دائرة الصفوة **الرسالية** التي تحتاجها عملية تأمين الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان استمرارية الدعوة والتمكين لنموذجها الاجتماعي.

ولقد أشرنا مراراً إلى أن الاستيعاب التربوي والاجتماعي هو الهدف البعيد الذي تحقق من خلاله الدعوة عمق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى المجتمع، وما يسبق ذلك كله من عمليات الاستيعاب الدعوي والسياسي* وما هو إلا مقدمات بين يدي التحول التربوي والاجتماعي المطلوب، رغم ما يبذل من جهد مُضنٍ في الاستيعاب الدعوي والسياسي، الذي كثيراً ما يستغرق جهود التغيير، ويقف بها عند عتبات الأهداف الجوهرية له لا يتعداها إلى تحقيق التحويل التربوي والاجتماعي الشامل والعميق للمجتمع، عبر المزيد من الترقية المعرفية والروحية والسلوكية لأفراده، والترقية العمرانية أو الحضارية لأنظمته ومؤسساته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدفاعية ...

وحركة التغيير ما لم تعط **الأولوية للاستيعاب التربوي والاجتماعي** في كافة مراحل مسيرتها، لإغنها ما تلبث أن تجد نفسها وقد تحوّل مسارها[1]، وخفت وهجها، وفقدت القدرة على المواكبة، ناهيك عن المنافسة والريادة. وهو ما كان عليه الصلاة والسلام على إدراك عميق له، فلم يغفل لحظة عن تعميق التحول التربوي والاجتماعي للمجتمع، وكثف جهوده في هذا الاتجاه في المرحلة الأخيرة من حياته، بعد الانقلاب الكبير الذي حصل على مستوى الاستيعاب الدعوي للمجتمع التقليدي برمته، واستثمر في هذا **قاعدة النفير الثقافي** إلى أقصى حدّ متاح ومطاق، لمواجهة تحديات توسّع المجال الجغرافي والبشري للدولة، وتأمين عملية الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان استمرارية اندفاع حركة الدعوة تجاه العالمية والإنسانية والكونية بأصالة وفعالية واطراد، كما يتضح لنا من النماذج التطبيقية التالية على سبيل المثال:

النموذج التطبيقي الأول: ونأخذه من قوله تعالى في سورة التوبة: **[فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ]**[2]. وكلمة النفير في الآية ذات دلالة عميقة في هذا المجال، لأنها ترتقي بشحذ العناية بالوعي المعرفي: العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى الأمة، إلى مستوى النفير الجهادي الذي توضع في خدمته كل إمكانات الأفراد

---

(1) مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص14.
(2) الآية: 122.

والمجتمع والدولة لدفع الخطر.

فالدعوة شحذت فعالية المجتمع كله في اتجاه النفير الثقافي، كمدخل ضروري لعملية التحول التربوي والاجتماعي المكين، من خلال التأكيد على **دور ومسؤولية الصفوة الفكرية** ذات التأهيل المعرفي والروحي والسلوكي الرفيع، في الاضطلاع بتخطيط تربية المجتمع وتثقيفه، وحماية اندفاعه الحضاري من عوامل الاسترخاء والفتور والتراجع، كما توحي بذلك دلالات الكلمتين المفتاحيتين في الآية: **[وَلِيُنْذِرُوا]**و **[لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ]**.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من التحذير النبوي الشديد، لمن يتهاون في المساهمة في شحذ الفعالية المعرفية للمجتمع، من أفراد الصفوة وأفراد المجتمع على السواء، إذ الجميع معني **بالنفير الثقافي،** لتحقيق التحول التربوي والاجتماعي المطلوب. وهو ما نلمسه بقوة في قوله عليه الصلاة والسلام في إحدى خطبه العامة: « **ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلّمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم، ويأمرونهم وينهونهم ليتعلّمنّ قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتّعظون، أو لأعالجنهم العقوبة ...** » [(1)].

وتتبّع تحرضه على العلم والتعلم، وتحذير من ترك ذلك يطول[(2)]، قد يكفي دلالة عليه هذا التوجيه البالغ الأهمية في هذا المجال، الذي يدل فعلاً على مدى الاستنفار العام الذي أعلن في المجتمع في هذه الفترة، لشحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة عامة وصفوتها القيادية خاصة.

النموذج التطبيقي الثالث: ونرى عيّنات كثيرة جداً في حركة الوفود التر أمّت المدينة في السنة التاسعة من الهجرة[(3)]، حيث تفرغ عليه الصلاة والسلام، ليس لمجرد استقبالهم وأخذ البيعة منهم فقط، ولكن لشحذ فعاليتهم المعرفية والروحية والسلوكية كذلك، من خلال احتكاكهم المباشر به وبالصفوة القيادية للدعوة، ومعايشتهم مظاهر وحقيقة التحول الفكري والنفسي والسلوكي والاجتماعي الذي حدث في حياة الناس، وكان عليه الصلاة والسلام يبقي هذه الوفود فترات زمنية قد تصل إلى شهر، ويكلّف بهم من يكثّف تكوينهم، خاصة وأن أكثرهم من وجوه القبائل[(4)].

وبجانب هذا التركيز في المدينة على شحذ الفعالية المعرفية للوافدين الجدد وللصفوة القيادية للدعوة، كان عليه الصلاة والسلام يوالي إرسال البعثات الدعوية إلى مختلف الجهات في الجزيرة العربية، التي كان يحرص على جعلها مضغة الدعوة والدولة والمجتمع في حركة المدّ الدعوي والحضاري للإسلام بعده عليه الصلاة والسلام، كما نرى ذلك على سبيل المثال في تركه معاذاً وعتاب بن أسيد في مكة لتعليم الناس عقب الفتح[(5)]، وبعث عباد بن بشر إلى بني المصطلق في نفس المهمة[(6)]، وبعث معاذاً وأبا موسى الأشعري إلى اليمن[(7)]، وعمرو بن حزم إلى نجران[(8)] ... إلى غير ذلك من البعثات الدعوية العلمية التي تدخل في تكثيف النفير الثقافي وتعميم مفاهيم الدعوة وقيمها وتعميق وعي

---

(1) الهيثمي، **مجمع الزوائد،** 402/1.

(2) أنظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين،** 4/1.

(3) ابن هشام، **السيرة،** 205/4؛ عرجون، **محمد رسول الله،** 488/4 وما بعدها.

(4) ابن سعد، **الطبقات،** 225/1 وما بعدها.

(5) الحاكم، **المستدرك،** 595/3 .

(6) الهيثمي، **المرجع السابق،** 110/7.

(7) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، **(فتح الباري،** 657/7).

(8) ابن خياط، **تاريخ ابن خياط،** 209/2.

قاعدة الدعوة بها، معرفة والتزاماً، لتحقيق وحدة التصوّر والشعور والسلوك، ومنح حركة الدعوة والبناء والمواجهة أصالتها وفعاليتها الانجازية النموذجية القصوى، في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

استثمار النفير الاجتماعي في الاستيعاب التربوي: ونقصد هنا بالنفير الاجتماعي: تكثيف التعبئة والتجنيد الاجتماعي للمجتمع، من أجل شحذ فعاليته المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية، بصورة مركّزة وسريعة، تعمّق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدعوة عامة وصفوتها القيادية خاصة .

وكما سبق أن رأينا، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يضاعف جهوده من أجل تحقيق أشمل وأعمق استيعاب تربوي واجتماعي لقاعدة الدعوة، بعد توسّعها السريع، وتراجع الأخطار الخارجية على الدعوة والدولة والمجتمع مؤقتاً، تحسّباً لمخاطر الاسترخاء، والاستيعاب الثقافي المضاد، وعسر الانتقال السياسي للمجتمع ... وتأثير ذلك كله على استمرارية الدعوة والتمكين لنموذجها الاجتماعي، خاصة وأنه عليه الصلاة والسلام كان يدرك أن أجله قد اقترب[(1)]، وأنه لن يستقبل من أمره ما استدبر ليعمّق عملية التحول التربوي والاجتماعي لعشرات الآلاف من أجيال الدعوة الجديدة.

من أجل ذلك كله، كانت الحاجة ماسّة إلى استثمار **قاعدة النفير الاجتماعي** في إنجاز النفير الثقافي و تحقيق التحول التربوي والاجتماعي، عبر تذويب الثقافة التقليدية وقيمها الشركية و القبلية والذاتية...وصهر المجتمع كله في بوتقة ثقافية جديدة، قائمة على **قيم التوحيد و العالمية والإنسانية والكونية،** وهو ما حاوله الرسول عليه الصلاة والسلام وحقق فيه نجاحاً كبيراً من خلال استثماره الفعال لقاعدة النفير الاجتماعي كجهد إضافي مضاعف يساعد على تكثيف وتركيز عملية التحول المعرفي والروحي والسلوكي لدى قاعدة الدعوة ويعمق الإنصهار الاجتماعي للمجتمع عبر ذلك و يشحذ فعاليته الحضارية بصورة نموذجية.

فالنفير الاجتماعي باعتباره عملية تكثيف للتعبئة والتجنيد الاجتماعي الشامل للمجتمع يوفر أحسن الظروف النفسية والشروط الاجتماعية لتحقيق النفير الثقافي وإنجاز أهدافه التربوية الشاملة* لأنه يعتمد على التربية الميدانية أو التطبيقية المكثفة القائمة على المعايشة والمشاركة الفعلية أو العيش المباشر للفعل التربوي في أدق واكف الظروف النفسية المساعدة على التركيز والإستيعاب والتمثل والنضج المعرفي والروحي والسلوكي والرسالي أو الحضاري.

والمتتبع لسيرته عليه الصلاة والسلام يلمس بوضوح كيف استثمر **قاعدة النفير الاجتماعي** في دعم عملية التحول التربوي والاجتماعي وتسريع إنضاج وعي قاعدة الدعوة بها العقدي والتسخيري والاستخلافي و تأهيلها للإضطلاع بالمهام العالمية و الانسانية للإسلام كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في النماذج التطبيقية التالية:

النموذج التطبيقي الاول: ونأخذه من حرصه عليه الصلاة والسلام على تعبئة اكبر عدد ممكن من الناس في غزوة حنين ،التي شهدها تجمع ضخم من البشر ،فيهم ألفان من مسلمة الفتح بل ومن المشركين الذين خرجوا ركباناً ومشاة رجالاً ونساءً ينظرون ويرجون الغنائم بل وفيهم من كان يتربص الدوائر بالمسلمين[(2)] .

---

(1) الطبري، **جامع البيان**، 334/15؛ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 229/20.
* المعرفية والسلوكية والانجازية.
(2) ابن سعد، **الطبقات** 150/2؛ ابن هشام، **السيرة**، 87/4.

وكان عليه الصلاة و السلام وهو يعدّ لفتح مكة حرص على استنفار خلق كثير، لتكثير سواد الجيش من جهة، ولصهر الأعداد الكبيرة التي أسلمت بعد صلح الحديبية من جهة ثانية. كما يدل على ذلك إرساله إلى أهل البوادي ومن حولهم يطلب منهم حضور رمضان في المدينة[1]، وتمكّن فعلاً من حشد عشرة آلاف نفر دخلت مكة، ثم شاركت مع من ضم من مسلمة الفتح ومشركيها في غزوة حنين، التي كانت محكاً حقيقياً قاسياً للاستيعاب التربوي والاجتماعي، بفعل ما حدث فيها من هزة نفسية شديدة، محصت النفوس، وعمقت الانقلاب المعرفي والروحي والسلوكي والاجتماعي لدى قاعدة الدعوة، ودفعت بالمشركين إلى الإسلام والالتحام بالدعوة ونموذجها الاجتماعي، خاصة بعد استثماره عليه الصلاة والسلام بفعالية لقاعدة طمأنة ذوي النفوذ على مكانتهم الاجتماعية، وتأليف قلوبهم على الإسلام، بما أعطاهم من أموال، وأكرمهم به من معاملة إنسانية راقية[2]، وأسنده إليهم من مهام سياسية واجتماعية عمقت اندماجهم في الحياة الإسلامية الجديدة.

النموذج التطبيقي الثاني: ونأخذه من وقائع غزوة تبوك، والظروف النفسية والاجتماعية والسياسية التي جرت فيها وكيف ارتقت بذلك كله إلى مستوى **المصهره** الحقيقية لقاعدة الدعوة التي توسعت في هذه المرحلة توسعاً كبيراً جداً، كما يدل على ذلك العدد البشري الضخم الذي شارك فيها، وأوصله بعض الكتاب إلى سبعين ألف نفر[3].

لقد جاء هذا الحدث المتميز ليوفر للدعوة أحسن الظروف النفسية والشروط الاجتماعية، لصهر المجتمع في بوتقة الإسلام ونموذجه الاجتماعي الجديد بمنطلقاته التوحيدية، وآفاقه العالمية والإنسانية والكونية، بعد احتواء آخر كتل القوى المضادة، وبيان براءة الذي حاصر فلول الشرك ودفع بها إلى الانضواء تحت لواء الدعوة والدولة والمجتمع وبعد تقاطر الوفود على عاصمة الدولة تقدم البيعة والولاء والطاعة، والتجند لخدمة الدعوة ونموذجها الاجتماعي فكان ذلك كله مدعاة إلى استثمار قاعدة **النفير الاجتماعي** في مواجهة الاسترخاء والاستيعاب الثقافي المضاد، وتيسير عملية الانتقال السياسي للمجتمع، وتوطيد سلطان الدولة، وضمان استمرارية الدعوة ونموذجها الاجتماعي، ومن يراجع وقائع هذا الحدث، ويتأمل ما جاء في "سورة التوبة" من تقييم نقدي تقويمي شامل ودقيق لمسيرة الدعوة، ومراجعة صريحة لنواحي الضعف والقوة فيها، وكشف دقيق لقوى البلبلة والتخذيل والفتنة[4]، والآثار النفسية والفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية ... لذلك كله، يتأكد فعلاً من الأهمية الكبيرة لقاعدة النفير الاجتماعي في الصهر التربوي والاجتماعي للمجتمع، عندما يحسن استثمارها جيداً فقد خرج هذا المجتمع من هذا النفير أوعى وأنضج وأقوى ما يكون انصهاراً وتجدداً وحيوية[5]، وتخلصاً من ثقافة الفتنة والتضليل، وتخففاً من عوامل الاسترخاء وتراجع الفعالية الاجتماعية.

لقد كانت تجربة تبوك وقبلها حنين، مجالاً خصباً لتعميق الوعي لسنن التسخير في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد بصورة عملية مركزة، وتأكيد كون أصالة الانجاز وفعاليته وقدرته على الاطراد مرتبطة على الدوام بشمولية وتكامل استثمار حركة البلاغ والبناء والمواجهة لهذه السنن في الوفاء لمقتضيات وتحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تهيمن على الصيرورة الاستخلافية

---

(1) الواقدي، **المغازي**، 799/2 ؛ الصالحي، **سبل الهدى والرشاد**، 320/5.
(2) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 257/2.
(3) عرجون، **محمد رسول الله**، 465/4.
(4) وهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، 95/10.
(5) عرجون، **محمد رسول الله**، 429/4-460-462.

وتحكم تفاعلاتها قوة وضعفاً كما نلحظ ذلك في حرصه عليه الصلاة والسلام الشديد على الإعداد المادي والأخذ بالأسباب، في تحليل الأوضاع وتقدير الموقف والتخطيط للأعمال والحرص على فعالية الانجاز، ثم الانتقال إلى الدعاء والتوكل والشكر للاستفادة من سنن التأييد في تجاوز بعض الظروف والتحديات الاستثنائية الخطيرة[(1)].

النموذج التطبيقي الثالث: ونأخذه من حجة الوداع في أواخر السنة العاشرة للهجرة، فقد عليه الصلاة والسلام أن يحشد لهذا الحدث الروحي والاجتماعي والسياسي الخطير، أكبر عدد ممكن من المسلمين، من كل الأجيال، والفئات، والأعمار، والمستويات، وأخذ نسائه كلهن معه[(2)]، وسار بعشرات الآلاف[(3)] في رحلة تربوية فريدة بلغت فيها الروحانية أوج إشراقها، وهو ما ينعكس على فعالية الاستيعاب التربوي الشامل، لأن الإنسان في مثل هذه الأجواء النفسية والعقلية البالغة التركيز، تكون قابليته للتفاعل الإيجابي مع التوجيه كبيرة وشديدة.

فقد استثمر عليه الصلاة والسلام ما وفره هذا **النفير الاجتماعي** من أجواء نفسية واجتماعية في تعميق الاستيعاب التربوي والاجتماعي لقاعدة الدعوة كما تدل على ذلك كثرة التوجيهات العقدية والفكرية والروحية السلوكية والاجتماعية والسياسية ... التي حفلت بها هذه الرحلة عامة، وكثفها عليه الصلاة والسلام في خطبتيه بعرفة[(4)] وبمنى يوم النحر [(5)] بصفة خاصة، واللتين ركز فيهما:

على كليات الحقوق الآدمية، وعلى نقض كل ما له علاقة بالمنظومة المعرفية الجاهلية ونموذجها الاجتماعي. وعلى إعادة الاعتبار للمرأة وتفعيل دورها في حركة التغيير والبناء الاجتماعي. وعلى اقيم التي تُلحم شبكة العلاقات الاجتماعية، وترتقي بمستوى الانصهار والتكامل الاجتماعي للمجتمع إلى مستوياته الرفيعة. وعلى المسؤولية الاستراتيجية للفرد والمجتمع تجاه استمرارية الدعوة، وإنجاز أهدافها في العالمية والإنسانية والكونية، وأخطار الغفلة على ذلك. وعلى دور **الوعي الاشراعي*** –أو الدستوري– في حفظ الحقوق، وترقية الحياة، وتحقيق التوازن الاجتماعي، ووقاية الدعوة والدولة والمجتمع ... من أخطار الذاتية والهوى والاستبداد[(6)]...

وعندما نتتبّع الآثار التربوية والاجتماعية لاستثماره عليه الصلاة والسلام لقاعدة **النفير الاجتماعي،** في هذه الأحداث الثلاثة فقط، سنجدها شاملة وعميقة، كما ستدلّ على ذلك حركة استيعاب مضاعفات الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان استمرارية الدعوة وتحقيق أهدافها في العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية بعد ذلك. لأنه استطاع عليه الصلاة والسلام من خلال ذلك، أن يوسّع قاعدة الصفوة القيادية للدعوة، وأن يمنح الدولة والمجتمع رأياً عامّاً راشداً، شكّل العمق الاستراتيجي لاستيعاب الصدمات، وضمان اطراد أصالة وفعالية وتكاملية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وأن يضع بين يدي الجميع، أي الصفوة القيادية وقاعدة الدعوة عامة، منظومة معرفية شاملة ومتكاملة، في

---

(1) القسطلاني، **المواهب اللدنية**، 604/1-631.

(2) ابن هشام، **السيرة**، 248/4؛ أورد ذلك البخاري في **الصحيح**، كتاب الحج، باب التمتع والقران، (**فتح الباري**، 492/3).

(3) فاق عددهم ألف مائة نفر، (دحلان، **السيرة النبوية**، 12/3).

(4)مسلم في **الصحيح**، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، (**شرح النووي**، 183/8).

(5) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، (**فتح الباري**، 711/7).

* من التشريع: سنّاً واتباعاً أو تطبيقاً.

(6) ابن هشام، **السيرة**، 251/4؛ ابن ماجه، **السنن**، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر، 181/2،(بخدمة الألباني).

الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، تتيح لها القدرة على التحليل والتفسير المتوازن للظواهر والأحداث، وحسن التفاعل مع مقتضيات وتحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي تنتظم ذلك كله وتتحكم فيه.

وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى في هذه الفترة(1):[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا](2). باعتبار الدين يمثل محور ارتكاز منظومة سنن التسخير وجوهر الوعي الاستخلافي، بما يؤسسه من رؤية شاملة ومتكاملة ومتوازنة عن "**الدورة الوجودية للإنسان**"، في بدايتها، وصيرورتها الاستخلافية، ومصيرها المآلي بعد ذلك كله.

نكتفي بهذه العينات من قواعد المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمدافعة أو المواجهة، حرصاً على عدم الإطالة، ولأن فيما ذكرناه كفاية في إبراز دور المنهج في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في هذه المرحلة. ونشير في الختام باختصار إلى عناوين بعض القواعد الهامة التي استثمرها عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة كذلك، وكان لها دور هام في تحقيق أصالة الجهد وفعاليته وتكامليتها وضمان اطراد حيويته .

تعميق إحساس المجتمع بنعمة الهداية: إذ أن من أخطر عوامل الفتور، وتعرّض المجتمع للاضطراب وتراجع الفعالية الحضارية، أن يضعف الإحساس بنعمة الهداية لدى المجتمع، وأن يذهل الناس عن فضل الإسلام عليهم، ولا يشعروا بالنقلة التي أحدثها في حياتهم، وينزلق بعضهم تدريجياً نحو المنّ على الله وعلى دينه، أو كفّ اليد عن البذل في سبيل الله، والشحّ على نصرة الحق، وهو ما واجهته الدعوة بكل حسم، لأنه يدخل في تحدي الاسترخاء الذي يضعف فعالية حركة البلاغ والبناء والمواجهة، ويهدر إمكانات المجتمع التسخيرية في الأولويات الذاتية والجزئية والآنية، على حساب الأولويات الاجتماعية والكلية والاستراتيجية للدعوة والدولة والمجتمع.

لقد كان تعميق الإحساس بنعمة الهداية وثمراتها الاجتماعية الشاملة أولوية مستمرة في الوعي التربوي والاجتماعي الذي كانت الدعوة تدأب على غرسه في المجتمع، تجديداً لحيويته واندفاعه الحضاري على الدوام. كما نلحظ ذلك على سبيل المثال في مواجهة ظاهرة المنّ والإدلال على الدعوة، في قوله تعالى، تصحيحاً وتوجيهاً لموقف وفد بني أسد لمّا حاولوا إظهار فضلهم على الدعوة: **[يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ]**(3)

وقال عليه الصلاة والسلام لوفد بَلِيّ لما أسلموا: « **الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات منكم على غير الإسلام فهو في النار**» (4). وقد مضى تنويه القرآن والسنة معاً بفضل السابقة في الدين، والثبات على الحق، شحذاً للإحساس بنعمة الهداية واستثمار لقانون الشكر في استدامها وطلب المزيد من بركاتها، ودفعاً بروح الاحتساب إلى مداه الرسالي في المجتمع.

تعميق الوعي بأولوية الاستيعاب في استراتيجية الدعوة: أي الاستيعاب الدعوي والاجتماعي للناس، فقد حرص عليه الصلاة والسلام على تعميق وعي قاعدة الدعوة بذلك، وتحسيسها بأن هداية فرد واحد وإخراجه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام خير من الدنيا وما فيها، تهييئاً للشروط

---

(1) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 102/6.
(2) **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 4.
(3) **القرآن الكريم**، سورة الحجرات: 17.
(4) ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 335/2.

الفكرية والنفسية والسياسية والاجتماعية ... لتجسيد الآفاق العالمية والإنسانية والكونية للدعوة ونموذجها الاجتماعي.

ونرى أمثلة كثيرة عن ذلك في حنين حين حرص عليه الصلاة والسلام على تأليف قلوب الناس على الإسلام، وهو ما لم يستوعبه بعض الأنصار إلا بعد توفي الموقف لهم[1]. ورفضه الدعاء على أهل الطائف كما رغب في ذلك بعض الصحابة لما عظتهم مكابدات محاولات فتح المدينة، فضّل الدعاء لهم قائلاً:«**اللهم ! اهد ثقيفاً وإت بهم**» [2]. تعليماً لقاعدة الدعوة كيف ترتفع من سفوح الذاتية إلى قمم الموضوعية والرسالية في العلاقة بمصلحة الدعوة والدولة والمجتمع. ولما بلغه خبر إسلام همدا خرّ عليه الصلاة والسلام ساجداً وقال: «**السلام على همدان والسلام على همدان**»[3].

وجاء في القرآن الدعوة المباشرة إلى منح الأولوية لعملية الاستيعاب الدعوي في قوله تعالى في هذه المرحلة: [**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**][4].

والملفت للانتباه هنا، هو أن التوجيه جاء استثناء من حالة الحصار التي أعلنت في هذه الفترة على الشرك وقواه الاجتماعية والسياسية، تنويهاً بشأن الاستيعاب الدعوي وتأكيداً عليه، وتعميقاً للوعي به، بل وتأميناً للناس من أجله[5].

تهيئة قاعدة الدعوة لحوار وتدافع الحضارات: وتحريرها من رهبة القوى الاستكبارية المعاصرة لها، وخاصة وأن فئات كثيرة دخلت بعد الفتح وهوازن، وكان الكثير منها يختزن في داخله ثقافة الاستبداد، ونفسية المقهور والخائف من سلطان القوى الإمبراطورية الاستكبارية ونفوذها الأسطوري، الذي سيشكل عائقاً نفسياً واجتماعياً خطيراً في طريق الامتداد العالمي للدعوة ونموذجها الاجتماعي .

ومن أجل تحرير قاعدة الدعوة من هذه الثقافة وهذه النفسية، جاءت الحركة المدروسة نحو تبوك على تخوم الحدود الشمالية للإمبراطورية البيزنطية[6]. ثم الحركة نحو البلقاء والداروم بأرض فلسطين حيث الحاميات الرومية[7]، وكان في الحملة عدد كبير من كل أجيال الدعوة، تحريراً لها من هيبة القوى الاستكبارية الدولة الكبرى، وتهيئة لها معارك حوار وتدافع الحضارات الذي بدأ الدخول فيه فعلاً، بعد توطيد سلطان الدولة وتعبئة إمكاناتها البشرية والمادية والمعنوية في نهاية هذه المرحلة.

العناية بالتأهيل القيادي لقاعدة الدعوة: باعتبار الوعي القيادي، النظري والعملي، ضرورة حيوية مستمرة للمحافظة على أصالة وفعالية الأداء الاجتماعي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، وقد كثف عليه الصلاة والسلام العناية بالثقافة القيادية والتأهيل القيادي لقاعد الدعوة في هذه المرحلة بالخصوص، لمواجهة تحديات توسع المجال الجغرافي والبشري للدولة والمجتمع، وضمان أصالة

---

(1) البيهقي، **الدلائل**، 180/5.
(2) سيد الناس، **المرجع نفسه**، 271/2؛ الذهبي، **المغازي**، 596.
(3) البيهقي، **الدلائل**، 396/5؛ ابن كثير، **السيرة**، 203/4.
(4)**القرآن الكريم**، سورة التوبة: 6.
(5) الطبري، **جامع البيان**، 79/9.
(6) عرجون، **محمد رسول الله**، 480،485/4.
(7) ابن هشام، **السيرة**، 291/4.

وفعالية الإنجاز. وكانت العناية شاملة، وأخذ منها الشباب حظّه كما يظهر ذلك في تولية عتاب ومعاذ إمارة مكة بعد الفتح[1]، وبعث علي ومعاذ إلى اليمن[2]، وتأمير أسامة وهو لم يتجاوز السادسة عشر على جيش ضخم ضمّ عدداً كبيراً من جلّة الصحابة[3]، وأمر عثمان بن أبي العاص على ثقيف رغم حداثة سنه، وأعطاه توجيهات في غاية الأهمية، تعينه على أداء مهمته وتشحذ وعيه القيادي، كما كان يفعل باستمرار مع من يدفع بهم إلى مجالات القيادة، ويكثر من توصيتهم بالأمانة، والعدل والصدق، والتعفف، وروح المبادرة، والانضباط السلوكي عامة[4].

تعميق الوعي بالثقافة الوقائية: باعتبار الوقاية من الضعف، وذبول الحيوية الفكرية والروحية والسلوكية، وتراجع فعالية الأداء الاجتماعي... من الفصول أو المحاور الكبرى في الوعي التسخيري والاستخلافي، الذي جاءت الدعوة لتؤسسه وتؤصله في حياة الناس، عبر مفاهيم: التقوى، والعواقب، والمراقبة، والمحاسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحذر ...

ومن يتتبّع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام عن الفتن[5]، يلحظ شمول وعمق عناية الإسلام بالثقافة الوقائية والوعي الوقائي، لأنها في حقيقتها تدخل في استراتيجية استباق الأحداث، ومقاومة الضعف والاختلال قبل حدوثهما، وهو أمر في عمي الوعي التسخيري والاستخلافي، وهو ما قصده عليه الصلاة والسلام من الحديث المكثف عن الفتن خاصة وعوامل الضعف والوهن عامة، في كل مراحل الدعوة وهذه المرحلة بصفة أخص، لتأمين عملية الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان حيوية اندفاعه الحضاري نحو آفاق العالمية والإنسانية والكونية ...

وقد ظل عليه الصلاة والسلام يعمق وعي قاعدة الدعوة بهذه الثقافة الوقائية حتى آخر رمق في حياته، كما نبّه في مرض موته إلى **خطورة عبادة الشخصية**، من خلال تحذير الناس من اتخاذ قبره وثناً يعبد[6]، وأكثر الحديث عن الفتن[7]، وحذر من الاختلاف التنازعي، والتنافس المرضي على الدنيا ... وفي ذلك كله تأصيل للوعي بالثقافة الوقائية التي تؤمّن المجتمع من الضعف، وتحافظ على ذاتيته الحضارية، وتوازن فعالية أدائه الاجتماعي في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

هذه بضفة عامة عينات من قواعد المنهج التي استثمرها النبي عليه الصلاة والسلام في الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة، واستطاع من خلالها أن يضمن بجهده المزيد من الأصالة والفعالية والاطراد، وأن ينجز عبرها أهداف المرحلة كما سنرى ذلك لاحقاً في تقييم منجزات الدعوة في هذه المرحلة.

منجزات الدعوة في هذه المرحلة: نحاول الآن تقييم منجزات الدعوة في هذه المرحلة الأخيرة من مسيرة الدعوة في حياته عليه الصلاة والسلام، على ضوء الهدف المحوري للمرحلة، المتمثل في توطيد سلطان الدولة وفتح آفاق العالمية والإنسانية والكونية أمام الدعوة، وعلى ضوء الأهداف الوسيطة التي تمّت عبرها عملية تحقيق هذا التوطيد وبناء القوة الأساسية والكتلة الحضارية الأم، التي

---

(1) ابن هشام، **المرجع السابق**، 83/4.
(2) الذهبي، **المغازي**، 691،713؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، 369/2.
(3) البخاري، **الصحيح**، باب فضل زيد بن حارثة مولى النبي، 758/7.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، **(فتح الباري**، 418/3**)**؛ أبو زهرة، **خاتم النبيين**، 1416/2– 1479.
(5) البيهقي، **الدلائل**، 319/6 وما بعدها .
(6) الإمام مالك، **الموطأ، باب جامع الصلاة**، 253/1.
(7) ابن هشام، **السيرة**، 251/4.

تضمن استمرارية اندفاع حركة البلاغ والبناء والمواجهة نحو أهدافها العالمية والإنسانية والكونية.

منجزات الدعوة على مستوى تفكيك واحتواء آخر كتل القوى المضادة: والنتائج العملية، تبين أن الدعوة استطاعت أن تحقق مكاسب حاسمة، على مستوى تفكيك واحتواء آخر كتل القوى المضادة سواء فيما يتعلق:

بالتفكيك والاستيعاب الثقافي.

أو بالتفكيك والاستيعاب السياسي.

أو بالتفكيك والاستيعاب الدعوي.

فعلى كل مستوى من هذه المستويات نجحت الدعوة في تجاوز التحديات التي كانت تعترضها، وتحقيق نتائج ذات قيمة استراتيجية كبيرة، كما يتضح لنا ذلك مما يلي:

فعلى مستوى التفكيك والاستيعاب الثقافي: استطاعت حركة البلاغ والبناء والمواجهة أن تحقق الاختراق الثقافي للنموذج الاجتماعي التقليدي، ومنظومته المعرفية، من خلال إضعاف قناعات الرأي العام الجاهلي فيها، وتعميق تشكيكه في جدوى ومصداقية استمرار الارتباط بهما وبذل المزيد من التضحيات من أجلهما، ما دامت حركة التدافع الفكري والسياسي والعسكري، قد أبانت بما لا يدع مجالاً للشك ضعف الاداء الاجتماعي المستند عليهما بصفة مطردة، في الوقت الذي تطّرد فيه فعالية الأداء الاجتماعية المستند على النموذج الاجتماعي الإسلامي ومنظومته المعرفية.

لقد كانت هذه القناعة، وإن تفاوتت درجاتها لدى أفراد الرأي العام، وكتله، من أهم وأخطر المكاسب التي حققتها الدعوة في عملية تفكيك واستيعاب القوى المضادة؛ لأنها وقرت الأساس أو الشرط النفسي والفكري لباقي مراحل الاستيعاب الأخرى، التي جاءت سريعة وغير متوقعة بالنسبة للتحليل والتفسير الذي يهمل هذا البعد في حركة التدافع بين النموذجين الاجتماعيين ومنظومتيهما المعرفيتين. ولا يخفى أن بذور الضعف وجذوره الحقيقية هي التي تصيب قناعات الإنسان وإرادته، وهو ما أنجزته الدعوة، ولم تهمل العناية به في كل مراحل الموجهة.

وعلى مستوى التفكيك والاستيعاب السياسي: استطاعت الدعوة كذلك، بالارتكاز على العامل النفسي والثقافي السابق، وعلى فعالية الأداء السياسي والعسكري المباشر، أن تحقق مكاسب حاسمة في تفكيك آخر كتل القوى المضادة، وإنهاء وجودها السياسي والعسكري التقليدي في المنطقة، واستيعاب الجميع في إطار الدولة الإسلامية ونموذجها الاجتماعي الجديد.

لقد تواكب الاختراق الثقافي والاستيعاب السياسي آخر كتل القوى المضادة في حركته ﷺ، وخدم كل منهما الآخر بصورة فعالة، حرمت المجتمع التقليدي وقواه المختلفة من أية فرصة أو إمكانية لإيقاف التآكل والانهيار الذي وصل بسرعة إلى نهايته في هذه المرحلة، رغم محاولات الاستدراك اليائسة التي تمت عبر حركة النفاق، أو حركة التنبؤ والردة فيما بعد، لأن **الفعل الثقافي الإسلامي المضاد،** كان يعمق ضعف العلاقة النفسية والفكرية بالنموذج الاجتماعي التقليدي ومنظومته المعرفية باستمرار، **والفعل السياسي** كان يحوّل ذلك الضعف عملياً إلى يأس وإحباط متّصل، وصدمات مجددة للوعي في اتجاه الالتحام بالدعوة ونموذجها الاجتماعي، من خلال الاحتواء المستمر لطاقات المجتمع وإمكاناته البشرية والمادية والجغرافية أو الترابية.

ففي هذه المرحلة امتد النفوذ السياسي للدعوة، ليستوعب الجزيرة العربية كلها، ويخضعها لسلطان الدولة الإسلامية الوليدة، وتجاوز ذلك إلى تأمين الحدود الشمالية لها من أخطار الإمبراطورية الرومانية، كما رأينا ذلك في حركة تبوك الكبرى، التي عمقت قناعات باقي القوى المضادة بأن ظهور الإسلام وهيمنة نموذجه الاجتماعي غداً حقيقة واقعة لا يمكن القفز عليها، وهو ما سرّع عملية الاستيعاب السياسي كما تدل على ذلك حركة الوفود الكثيفة عقب تبوك.

وعلى مستوى الاستيعاب الدعوي: نجد الدعوة حققت نتائج كبيرة كذلك، ولم يتوقف عمله ﷺ عند مجرد تحقيق الاختراق الثقافي والاستيعاب السياسي، بل تجاوز ذلك إلى المرحلة الطبيعية الثالثة وهي الاستيعاب الدعوي، بدعوة هذه القوى جميعاً إلى الإسلام لله تعالى، عن وعي وقناعة ورضى، وليس مجرد الخضوع السياسي الظاهري.

ورغم ما قد تلقته حركة الردة من ظلال سلبية عابرة هنا، فإن ذلك لا يؤثر في الحقيقة العامة، وهي نجاح الدعوة في استيعاب عشرات الآلاف من الناس الجدد، وتحسين علاقتهم بالإسلام، في منظومته المعرفية، وفي نموذجه الاجتماعي... وتحول الأغلبية الساحقة منهم إلى قوة ثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية ضاربة، كما دلّت على ذلك بوضوح عملية احتواء حركة الردة أولاً، ثم سرعة وفعالية الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة بعد ذلك ثانياً. ولعل في العدد الكبير الذي شهد حجّة الوداع معه ﷺ، والذي تجاوز المائة ألف مسلم[1]، ما يدل فعلاً على نجاح عملية الاستيعاب الدعوي، كمصبّ أساسي تمهيدي لعلاقة الدعوة ونموذجها الاجتماعي بالمجتمع التقليدي وقواه المختلفة.

والجدير بالتنويه هنا على صعيد **المنهج**، هو هذه القدرة الفذّة على تحقيق شمولية وتكامل أبعاد الاختراق الثقافي، والاحتواء السياسي، والاستيعاب الدعوي في فعله ﷺ المتّصل بالعلاقة التدافعية بين الدعوة والمجتمع التقليدي، وهو سرّ اتّسام هذا الفعل بالأصالة والفعالية والاطراد. وقد نبّهنا مراراً خلال هذه الدراسة، إلى دور **المنهج** في هذا الاقتدار، باعتبار أداة التحليل والتفسير والتوقع التخطيط والتنفيذ والمتابعة... أي أداة البلاغ والبناء والمواجهة. فالفعل النبوي كان فعلاً منهجياً دقيقاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

والدعوة الإسلامية بهذه الشمولية في تفكيك واستيعاب القوى المضادة، وهذه النتائج الحاسمة التي حققتها، وفرت أول شرط مهم في **توطيد سلطان الدولة وتأمين وجود المجتمع**، وفتح الطريق أمام الامتداد العالمي للإسلام ونموذجه الاجتماعي، بعد أن أزاحت أمامهما جزءاً أساسياً من قوى الاعتراض والمواجهة، ونجحت في إدماجها في المجتمع، وتعبئة إمكاناتها البشرية والمادية لتعزيز فعالية حركة البلاغ والبناء والمواجهة.

منجزات الدعوة على مستوى تعميق التحول التربوي والاجتماعي: وعلى هذا المستوى حققت الدعوة كذلك نتائج هامة، واستثمر ﷺ المكاسب السابقة في الدفع بعملية التحول التربوي والاجتماعي إلى مستويات متقدمة من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي، **والتلاحم الاجتماعي كمصبّ محوري أساس لحركة التغيير الحضاري** باستمرار.

وقد نبهنا مراراً إلى أن الحركة النبوية لم تقف عند مقدمات التغيير ومظاهره الخارجية، بل تجاوزت ذلك إلى عمق التغيير التربوي وهو التحول الثقافي والاجتماعي، الذي ينفذ إلى صميم المنظومة المعرفية، وإلى العالم الروحي، وإلى منظومة القيم الثقافية، وإلى أنساق العلاقات الاجتماعية، وإلى كل أنظمة الحياة الإنسانية بصفة عامة... فيحدث فيها التغيير والتعديل المتوازن، الذي يجعلها أقرب ما تكون تناغماً وانسجاماً مع حقائق وثوابت الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، المنتظمة لحركة الوجود البشري في كل أبعادها ومراحلها ومستوياتها.

فالحركة النبوية لم تستوعبها العمليات الضخمة المرهقة المتصلة بالتفكيك والاختراق الثقافي، أو التفكيك والاستيعاب السياسي، أو إعادة الاستيعاب الدعوي للمجتمع التقليدي وقواه الاجتماعية المختلفة، بل اعتبرت ذلك كله مقدمات ضرورية بين يدي **الهدف الجوهري الدائم للدعوة، وهو تعميق**

---

(1) البيهقي، **الدلائل**، 432/5؛ دحلان، **السيرة النبوية**، 12/3.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التحول الفكري والتربوي والاجتماعي، الذي ظلّ يشكل **الأولوية الأم لحركة التغيير في كل مراحلها.**

ومن هذا المنطلق فإن النتائج جاءت متناغمة مع هذه العناية المركزة والمستمرة، والتي تكثفت في هذه المرحلة بالخصوص لاستكمال بناء النموذج الاجتماعي للدعوة، وتوطيد سلطان الدولة، وتامين عملية انتقالها السياسي، وفسح المجال أمام الامتداد العالمي للدعوة ؛ كما نلحظ ذلك في القضايا الكثيرة التي ركزت عليها "سورة التوبة"، وفي المنهج النقدي التقويمي الذي تناولته به، وكيف صب ذلك كله في عمق عملية التحول التربوي والاجتماعي في نهاية المطاف.

فعلى مستوى التحول المعرفي: الذي يشكل حجر الأساس في التحول التربوي والاجتماعي عامة، حققت حركة البناء نتائج كبيرة، تظهر في **الوعي المتكامل** الذي تكوّن لدى قاعدة الدعوة عن "**الدورة الوجودية للإنسان**" فأصبح المسلم يمتلك تصوراً شاملاً ودقيقاً عن الاسئلة الوجودية الكبرى: من أين ؟ وكيف؟ وإلى أين؟ وهو ما حرّره من الخرافة، وعرّفه بطبيعته وحقيقته ومكانته في الكون، وعلاقته ببقية عناصره ومفرداته الأخرى .

وامتلاك قاعدة الدعوة لهذه الرؤية الشمولية المتوازنة، عن "**الدورة الوجودية للإنسان**"، منحها الإطار المعرفي والمنهجي للتحليل والتفسير الشمولي المتوازن لحركة الصيرورة الاستخلافية، وحررها من أسر التجزيئية والخرافية، وطبع موقفها التسخيري والاستخلافي بالأصالة والفعالية والاطراد، عندما وسّع وعيها ليستوعب **منظومات سنن التسخير الأربعة**، بصورة شمولية متكاملة، ولا ينحبس في بعضها، أو في جوانب من إحداها، كما كان الحال في ظل المنظومة الثقافية التقليدية ؛ وهو ما لا يساعد طبعاً على سلامة التحليل ومن ثم على صحة التفسير، وبالتالي على دقة ومصداقية التوقع، وفعالية السلوك بعد ذلك.

لقد استطاعت الدعوة الإسلامية، عبر تأكيدها على **الوعي بمنظومات سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، وسلطان كل منها على حدة، وسلطانها مجتمعة على حياة الإنسان، أن تعمق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى قاعدة الدعوة، وأن تدفع بعملية التحول التربوي والاجتماعي إلى مداها الأقصى، كما دلت على ذلك أصالة وفعالية الأداء الاجتماعي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة. ذلك لأن كل ما يغير الفكر ويؤثر على العواطف والمشاعر الإنسانية بشمول وعمق يغير السلوك ويؤثر بقوة على الأداء الاجتماعي للفرد والمجتمع.

وعلى مستوى التحول الروحي: الذي يشكل حجر الأساس الثاني في التحول التربوي والاجتماعي عامة، حققت حركة البناء نتائج هامة كذلك، تظهر في أخذ مفاهيم وقيم: الإخلاص، والمراقبة، والمحاسبة، والتوبة، والتقوى، والشكر، والدعاء، والتوكل، والشوق إلى الجنة والرضوان الإلهي... وغيرها من المفاهيم والقيم الروحية مكانتها الراسخة في حياة المسلم، الذي تكاملت في حسّه عبر ذلك أبعاد الدورة الوجودية لحياته، واستيقن قيمة النِّسب القائمة بين كل مرحلة من مراحل الدورة، ودور كل منها في **صيرورته الوجودية**، فارتقت علاقته بالله تعالى **إلى قمم الإحسان**، الذي **جعله** في وضع نفسي وروحي يعبد فيه الله كأنه يراه وأنه سبحانه وتعالى يراه ويشرف على رعاية حركته الاستخلافية في كل تفاصيلها ودقائقها.

والدعوة الإسلامية بنجاحها في ترقية الوعي المعرفي وشحذ التوثب الروحي لقاعدة الدعوة، وقرت أقوى دعامتين للتحول التربوي والاجتماعي، وهما **قوة الفهم وقوة الشعور أو الإرادة،** كأساسين شرطيِّين للاقتدار التسخيري والاستخلافي، وهو ما نراه فعلاً في أصالة وفعالية الأداء الاجتماعي لحركة الدعوة والبناء والمواجهة التي استطاعت –من خلال الدعامتين السابقتين– أن تستثمر كل منظومات سنن التسخير في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد .. بشمولية وتكاملية وتوازن، في الاستجابة لتحديات واحتياجات عمليات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على حركة

الاستخلاف، في مدّها وجزرها، وتكاملها واهتلاكها.

وعلى مستوى التحول السلوكي: نجحت الدعوة من خلال التحولين المعرفي والروحي في إحداث تحول عميق وشامل في سلوك قاعدة الدعوة، على طريق التوافق النفسي أو الذاتي، والتكامل والانسجام الاجتماعي، فاتسعت آفاق الناس، وتغيرت محاور اهتماماتهم؛ وأخذت قيم الصدق، والتواضع، والرحمة، والتسامح، والاحتساب، والإيثار، والأخوة، والروح الغيرية، والأمانة، والعدل، والمساواة، والحرية، والإحسان، والمنافسة الشريفة... طريقها إلى حياة الناس الخاصة والعامة، لتطبع سلوكهم الذاتي والاجتماعي بالمزيد من الأصالة والفعالية واطراد الحيوية.

ويكفي هنا شهادة على مستوى الترقي السلوكي والوعي الاستخلافي الذي حققته عملية التحول التربوي والاجتماعي لدى قاعدة الدعوة، ما ذكره القرآن في التنويه بأجيال الدعوة[1] في آخر مراحل حياته ﷺ، ولفت الانتباه إلى القمة التي ارتقى إليها وعي الاجيال التاريخية القدوة ومن التحم بها وأخذ من أجيال الدعوة اللاحقة[2] بالخصوص فقال تعالى:**[وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ]**[3]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه في نفس السياق: "من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفا، وأقومهم هديا، وأحسنهم حالاً؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه. فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم ؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم" [4].

ومن يدرس حياة الصحابة وتأثيرهم العميق في أجيال الأمة اللاحقة خاصة وأجيال الإنسانية عامة[5]، يدرك فعلاً قمة الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي التي ارتقوا إليها، والتحول التربوي والاجتماعي الشامل والعميق الذي حدث في حياتهم، ودفع بها إلى تلك القمة من التوفق النفسي أو الذاتي والانسجام الاجتماعي... والتأثير بالتالي في حركة التاريخ بصورة متواصلة، حتى في فترات ضعف الأمة وتراجع فعاليتها الحضارية، حيث تشكل أجيال الصحابة مصادر إلهام وشحذ لإرادة النهوض وتجديد الطموح والحيوية الحضارية لديها باستمرار[6]، لما كانوا عليه فعلاً من عمق وشمول الوعي بالإسلام، وعمق شمول التمثّل السلوكي له، والالتحام الفذ بالدعوة إليه والتمكين لنموذجه الاجتماعي في الأرض.

وعلى مستوى بناء القدرات الانجازية: أو تطوير وتحسين الخبرة التسخيرية لقاعدة الدعوة، نجحت الدعوة كذلك في شحذ **الفعالية الانجازية** لأجيال المجتمع، عبر تعميق وعيها بمنظومات سنن التسخير الأربعة، وتمكينها بالتالي من شمولية الاستثمار "**لميزانية التسخير**" الاستخلافية من جهة، والتربية العملية المركزة التي تلقتها أجيال الدعوة من خلال إشراكها المباشر في الاضطلاع بأعباء حركة البلاغ والبناء والمواجهة من جهة أخرى.

---

(1) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، 12/7؛ القاسمي، **محاسن التأويل**، 302/8.
(2) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 570/2؛ ابن كثير، **التفسير**، 444/3.
(3)**القرآن الكريم**، سورة التوبة:101.
(4) ابن القيم، **أعلام الموقعين**، 139/4.
(5) أنظر: **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لابن الأثير؛ و**الاستيعاب في معرفة الأصحاب** لابن عبد البر؛ **حياة الصحابة** للكندهلوي.
(6) العمري، **السيرة**، 676/2.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن أسلوب **النفير الاجتماعي العام** الذي اعتمده ﷺ في الدعوة والبناء والمواجهة، عمل على شحذ القدرات الانجازية، وإنضاج الوعي التسخيري لدى قاعدة الدعوة بسرعة، كما يدل على ذلك مستوى الأداء الاجتماعي لحركة البلاغ والبناء والمواجهة، سواء في حياته ﷺ أو في مسيرة الدعوة بعده، حيث يلحظ كيف استوعبت أجيال المجتمع الإسلامي بفعالية خبرة المجتمعات الإنسانية الأخرى، وطورت خيرتها التسخيرية وحسّنت أداءها الاستخلافي بصورة مطردة، كفلت لها أصالة وفعالية الإدارة لعمليات التدافع والتداول والتجديد، والظهور على القوى والكتل الحضارية المناوئة أو المنافسة في زمن قياسي.

والدعوة الإسلامية بهذه المكاسب على كل هذه المستويات **المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية** أو التسخيرية، حققت فعلاً تحولاً تربوياً عميقاً لدى قاعدة الدعوة، كان له صداه القوي الممتد على مستوى التحول الاجتماعي للمجتمع؛ ذلك لأن كل تحول تربوي عميق وشامل هو باستمرار تحول اجتماعي، لما تتركه التربية من آثار عميقة في العلاقات الاجتماعية، وفي مستويات الأداء الاجتماعي الثقافية والسياسية والاقتصادية... كما نبه إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:**[إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ]**[1] لأن كل ما يغير النفس أو المحتوى الداخلي للإنسان عامة يغير السلوك[2]، وكل ما يغير السلوك يغير العلاقات الاجتماعية والأداء الاجتماعي ويحسن الفعالية الحضارية للمجتمع[3].

وكما سبق أن لاحظنا في تقييم منجزات الدعوة على مستوى تفكيك واستيعاب القوى المضادة، فإن من الجدير التنويه به هنا على صعيد المنهج هو القدرة الفذة على شمولية وتكامل أبعاد العملية التربوية ؛ المعرفية والروحية والسلوكية والانجازية في الفعل التربوي النبوي، الأمر الذي يسميه بالأصالة والفعالية والاطراد باستمرار، ويجعله يؤثر بعمق وشمول على العلاقات الاجتماعية، والأداء الاجتماعي، والفعالية الاجتماعية لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

ولا شك أن الدعوة الإسلامية بهذا الشمول والتكامل، في تفكيك واستيعاب القوى المضادة، وفي تعميق التحول التربوي والاجتماعي للمجتمع باستمرار، نجحت أيما نجاح في توطيد سلطان الدولة، وتأمين وجود المجتمع، وفتح آفاق العالمية والإنسانية والكونية، أمام الإسلام ونموذجه الاجتماعي، بعد أن قضت على المهددات الخارجية لهما واحتوتهما لصالحهما من جهة، وتجاوزت ذلك إلى عمق عملي التغيير وهو تعزيز عملية التحول التربوي والاجتماعي، التي تؤصل النموذج الاجتماعي للدعوة وتمنحه قوة التأثير والإشعاع والفعالية... في معترك التدافع والتداول الحضارية من جهة أخرى.

منجزات الدعوة على مستوى تأمين الانتقال السياسي واستمرارية الدعوة: وعلى هذا المستوى حققت الدعوة أيضاً نجاحاً كبيراً، إذ تمكن ﷺ -من خلال المكاسب السابقة- من **تأمين الانتقال السياسي للمجتمع** من القيادة النبوية المعصومة إلى القيادة البشرية الراشدة، وضمان استمرارية الدعوة وتحقيق أهدافها في العالمية والإنسانية والكونية.

فعلى مستوى تأمين الانتقال السياسي للمجتمع: يلحظ كيف تمكنت القيادة التاريخية القدوة من تحقيق النقلة السياسة للمجتمع بصورة عادية وسريعة، تجلى فيها عمق الوعي التسخيري والاستخلافي

---

(1)**القرآن الكريم**، الرعد: 12.
(2) مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص73.
(3) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 37/10 وما بعدها.

لقاعدة الدعوة عموماً والقيادة التاريخية منها خصوصاً، كما يظهر ذلك في النقاش السياسي الخصب الذي دار في سقيفة بني ساعدة، وتمخض بسرعة عن تعيين القيادة السياسية للمجتمع، وتجاوز الفراغ الذي أحدثه وفاته ﷺ، ومواجهة التحديات التي نجمت عن ذلك.

لقد تمكنت القيادة التاريخية القدوة للدعوة من استيعاب المبادرة المتسرعة من بعض الأنصار[1]، وحسم الموقف لصالح المشروعية المؤسسة على **الشورى والكفاءة والصلاحية**، واستثمار الوعي الشرعي والتاريخي والسياسي والاجتماعي في تحليل الوضع، وتوجيه النقاش، وبلورة الرؤية، وبناء القرار، وحسم الموقف في ضوء ثوابت الوعي العقدي وموجهات الوعي التسخيري والاستخلافي الذي بنته الدعوة لدى أجيال المجتمع الإسلامي خلال ثلاث وعشرين سنة من التحويل التربوي الشامل والمركز، والإعداد القيادي العملي المكثف...

فتعيين أبي بكر ﷺ على رأس المؤسسة السياسية بعد رسول الله ﷺ، كان خلاصة موفقة جداً للتحول الابق، تجلى فيها فعلاً عمق الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة عامة، سواء من تولى منها احتواء الموقف وأخذ مبادرة ملء الفراغ السياسي بسرعة تجنباً لمضاعفاته الخطيرة[2]، أو من تجاوب مع ذلك بسرعة كذلك بالمبايعة وتجاوز مرحلة الصدمة والاندهاش إلى تحمل المسؤوليات والوفاء بالواجبات المطلوبة، وهم بقية أفراد **المجتمع*** الذين كانوا يتمتعون بنفس الحس السياسي والوعي التسخيري والاستخلافي الذي كان عند أصحاب المبادرة، كما يدل على ذلك –على سبيل المثال– قول سعيد بن زيد ﷺ جواباً لمن سأله عن متى تمّت تولية أبي بكر فقال: **يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة**[3].

إن هذا الوعي الاستخلافي الذي بلغته قاعدة الدعوة بفضل التحول التربوي والاجتماعي الذي أحدثه العمل النبوي، هو الذي ساعد على تجاوز مشكلة الانتقال السياسي بصورة عادية، وجنّب المجتمع متاعب عديدةكان بإمكانها تعويق مسيرته وتعريض وجوده لمخاطر كبرى.

وعلى مستوى ضمان استمرارية الدعوة: يلحظ أيضاً كيف تحقق هذا الاستمرار بصورة رائعة، عبر تواصل حركة البلاغ، وامتداد نفوذ النموذج الاجتماعي للدعوة بسرعة ملفتة للانتباه ومثيرة للدهشة، كما دلّت على ذلك حركة احتواء الردّة، وانسياح الفتوحات الإسلامية في كل الاتجاهات، وتمكّنوا من نقل هداية الإسلام إلى أصقاع واسعة من العالم القديم، واستيعاب سريع لحضاراته المختلفة.

موقع هذه المنجزات من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع: إن المنجزات السابقة على مستوى

تفكيك واحتواء آخر كتل القوى المضادة للدعوة والدولة والمجتمع، وتعميق التحول التربوي والاجتماعي لقاعدة الدولة، وتأمين الانتقال السياسي للمجتمع، وضمان استمرارية الدعوة، وفتح آفاق العالمية أمام نموذجها الاجتماعي. تؤكد أن الدعوة نجحت فعلاً في تحقيق هدفها المحوري المباشر في حياته ﷺ، وهو **بناء القوة السياسية والكتلة الحضارية الأم** التي تضطلع بالمهمة الخالدة للإسلام في

---

(1) ابن حزم، **الفصل**، 150/4.

(2) ابن كثير، **السيرة**، 489/4.

* هناك من ضخم بعض حالات الامتعاض الفردية ونفخ فيها ليشوّش على النضج السياسي الذي كان لدى عموم قاعدة الدعوة.

(3) الطبري، **تاريخ الملوك**، 207/3.

الحياة بعد ذلك، وهي بناء وعي الإنسان بدورته الوجودية، وما تحتاج إليه مهمته في الأرض من وعي عقدي وتسخيري واستخلافي شامل ومتكامل ومتجدد، تقوم عليه النماذج الحضارية التي تقدمها الأمم والأجيال في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، الذي يهيمن على الحياة البشرية في الأرض.

فالدعوة من الناحية النظرية أو الفكرية: نجحت في بناء وعي قاعدة الدعوة بدورتها الوجودية، ومنحتها وعياً عقدياً وتسخيرياً واستخلافياً شاملاً ومتكاملاً، من خلال إعادة بناء موقفها من منظومات سنن التسخير؛ في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، ووضع كل منها في مكانه الصحيح، وتحديد شروط استثماره والانتفاع الأصيل الفعال المطرد به.

ومن الناحية السياسية: نجحت في بناء نواة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وهيأت بذلك كله **النواة الصلبة أو الكتلة الحضارية الأم** للحضارة الإسلامية العالمية الإنسانية الكونية، التي ستدخل ميدان المنافسة والتدافع، وتظهر على ما عداها من النماذج الحضارية بسرعة، وتمتد هيمنتها زمناً طويلاً.

والخلاصة التي ننتهي إليها بعد هذا الرصد لحركة الدعوة والبناء والمواجهة، في كل مراحل الدعوة، هي أن الرسول ﷺ استطاع أن يحقق أهداف الدعوة، وأن يضع الأساس المكين للدولة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية، من خلال جهد منهجي محكم، اتسم بالأصالة والفعالية والاطراد، كما دلّت على ذلك قواعد المنهج العديدة التي حاولنا استخلاصها في هذه الرسالة، واكّدته المنجزات الفكرية والاجتماعية والسياسية الميدانية للدعوة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نـتائج الدراسة
وآفـاق الإفـادة منـها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآن وقد وفقنا الله تعالى للوصول إلى نهاية هذه الدراسة، آن لنا أن نختمها بأهم ما تمخّضت عنه من نتائج على المستوى المعرفي العام، وعلى مستوى المنهج النبوي، وعلى مستوى آفاق التجديد الحضاري للأمة، باعتباره مصبّ كل جهد معرفي أو اجتماعي أو سياسي... ينهض به الأفراد والجماعات والدول والمجتمعات في الأمة. وقد نبّه علماؤنا إلى هذه القضية الحيوية، عندما أكّدوا أصالة المنطق العملي، وكون العلم ليس مقصودا لذاته بل هو وسيلة إلى العمل وللترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني المطّرد.

نتائج الدراسة على المستوى المعرفي العام

باعتبار البعد المعرفي دوما، أساس المرجعية الموجهة، ومحرّك العملية التغييرية، ومؤطّر البعد المنهجي أو الإجرائي التسخيري فيها، ومؤشر أصالته وفعاليته.

وقد تمخضت الدراسة على هذا المستوى على النتائج المعرفية الحيوية التالية:

1. التأكيد على محورية الوعي بـ" **الدورة الوجودية الكبرى** " للإنسان، في الحياة البشرية. فقد خلصت الدراسة إلى أن هذا الوعي يعتبر أم **الاشكاليات** الوجودية الكبرى على الإطلاق. لذلك تمحور حوله الاهتمام البشري، وشكل البؤرة المقاصدية الأولى للرسالات السماوية على مرّ التاريخ. فأصالة وفطرية أو هجانة واضطراب هذا الوعي، تشكل أساس القوة أو الضعف، والنجاح أو الإخفاق في الجهد الاستخلافي البشري على الدوام، كما يدل على ذلك ارتباط طبيعة وحجم ونوعية الفعّالية الحضارية لهذا الجهد الاستخلافي البشري به، باستمرار.

فعندما يتسم هذا الوعي بالأصالة والفطرية والمعقولية، ينتج **فعّالية تسخيرية بنائية تكاملية مطردة،** تدفع بالجهد الاستخلافي البشري نحو آفاق **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية،** المحققة للسعادة البشرية العاجلة والآجلة. وعندما يتسم هذا الوعي بالهجانة واللامعقولية والارتباك، فإنه يفرز **فعّالية تسخيرية تنافرية اهتلاكية هدمية منهكة،** تدفع بالجهد الاستخلافي البشري نحو متاهات الذاتية والأنانية والشركية، والفسوقية الاجتماعية، والصدامية الكونية، التي تسلب الجهد الاستخلافي البشري روحه الإنسانية، وعمقه الأخلاقي، وتطبعه بالضنكية والشقوة.

والإسلام في نظرته الشاملة المتكاملة للحياة البشرية، أعطى عناية مركزة لتأسيس الوعي بأبعاد هذه الإشكالية الوجودية الكبرى، وتقديم رؤية كلية متكاملة عن شروط تجاوز هذه الإشكالية، وتحقيق الخلافة البشرية المطلوبة في الأرض، كما بينت ذلك هذه الدراسة.

2. التأكيد على أن الوعي بـ" **الدورة الوجودية الكبرى** " للإنسان، يقتضي الإجابة العلمية الموضوعية الشاملة، عن الأسئلة الوجودية أو الفطرية الكبرى، التي تسكن الضمير الإنساني؛

والمتصلة بمأتى أو منشأ الإنسان والحياة والكون ؟ وبطبيعة الإنسان وهويته الكونية ؟ وبغاية الوجود الإنساني ورسالته في الحياة ؟ وبالإمكانات التي وضعت تحت تصرف الإنسان لإنجاز مهمته في الحياة ؟ وبمصير هذا الوجود البشري بعد الموت ؟ وبالقوة أو السلطة الكونية العظمى التي تقف وراء ذلك كله، وتدير الوجود الكوني كله ؟

فالحياة البشرية، في حاجة ماسة إلى ثلاثة أنواع أساسية من الوعي المعرفي العلمي الذي يمنحها معنى وقيمة وقوة وأمانا, وهي: **الوعي العقدي الكوني، والوعي التسخيري، والوعي الاستخلافي.** وهو ما يؤكد جل العلماء على الحاجة إليه، بل وعلى ضرورته، وإن اختلفت وجهات نظرهم في محتوى ذلك وكيفيته([1]).

وهذا الوعي تسميه جمهرة علماء الاجتماع أو العلوم الإنسانية وفلسفة العلوم عامة، بالإطار المفهومي العام المحدد لنظرية كلية عن الإنسان، ويعتبر كثير منهم إن لم نقل جلهم، بأن غياب هذه النظرية الكلية عن الإنسان، يشكّل علة العلل في العلوم كلها، وفي مقدمتها العلوم الإنسانية، ويرى بعضهم أن سبب " الانحرافات التي تظهر في مختلف النظريات " يرجع إلى غياب هذا الإطار المفهومي الكلي، أو هذه النظرية الكلية عن الإنسان والكون والحياة([2]).

والإسلام قدّم أجوبته الشاملة والمتكاملة حول كل هذه الأسئلة الوجودية الفطرية الكبرى، ووضع بين يدي البشر نظريته أو رؤيته الكلية المتوازنة، التي تخرج الإنسان من دوامة الفراغات الكونية التي يعيش فيها، وتركّز اهتمامه وجهده وفاعليته حول مهمته الاستخلافية في الأرض، كما بيّنت ذلك هذه الدراسة.

3. التأكيد على محورية الوعي بكليات سنن **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، في الاهتمام البشري والرسالي والإسلامي. باعتبار هذه الكليات السننية مؤطرات ونواظم رئيسة مطّردة لحركة الصيرورة الاستخلافية البشرية في الأرض؛ في انسجام فعّاليتها مع قيّم **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**، أو انفصامها وتصادمها معها، وانزلاقها في متاهات الشرك والضلال والفسوق.

وفي هذا السياق يشكل الابتلاء سنة مركزية كونية ناظمة للوجود البشري كله، وموجهة لحركة **التدافع والتداول والتجديد**، ومحدِّدة لطبيعة وهوية صيروراتها الثقافية والاجتماعية والحضارية. وعليه فإن حركة الاستخلاف البشري في الأرض، تتوقف على مدى أصالة وانضباط أو هجانة وارتباك الوعي البشري بهذه السنة الكونية المركزية التي شاء الله أن يحكم بها حركة الحياة .

فكلما تأطرت الصيرورة الاستخلافية البشرية؛ في تدافعها وتداولها وتجدّدها، **بمنطق أو فقه الابتلاء**، كلما تحركت فعاليتها التسخيرية باتجاه البنائية والتكاملية والاطرادية، وصبّت في مجرى العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية. والعكس صحيح كذلك، إذ كلما انفلتت حركة الصيرورة التدافعية والتداولية والتجديدية من جاذبية واستقطاب **منطق الابتلاء**، كلما اتجهت فعّاليتها الاستخلافية نحو التنافرية والصراعية والاهتلاكية والهدمية، وصبّت في مجرى الذاتية والأنانية والفسوقية والانفصامية الكونية.

والإسلام غطى أو استوعب كل هذه الأبعاد، في نظريته أو رؤيته الكلية للمحركات والنواظم السننية الكلية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، واعتبر **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، سنن كلية حاكمة للحياة البشرية بشكل مطرد لا يتخلف، كما بيّنت ذلك هذه الدراسة نظريا وتطبيقيا.

([1]) ألكسيس كاريل، **الإنسان ذلك المجهول**، ص 16 ، 38 ، 43.

([2]) مادلين غراويتز، **مناهج العلوم الاجتماعية، ص** 95 ، 96 ، 171.

4. التأكيد على ارتباط النتائج والمآلات الثقافية والاجتماعية والحضارية، لحركة الصيرورة الاستخلافية البشرية في الأرض، بحركة " **التدافع والتجديد** ". حيث أن حركة المداولة الاجتماعية والحضارية البشرية، ترتبط على الدوام بمدى أصالة وفعّالية وتكاملية واطّرادية **حركة التدافع**، التي ترتبط بدورها بمدى أصالة وفعّالية وتكاملية واطّرادية **حركة التجديد**، التي تحدث في عملية الفهم والوعي، وفي عملية الالتزام أو القدوة، وفي حركة الدعوة والبناء والمواجهة الوقائية باستمرار.

فحركة التغيير والإصلاح والتجديد الحضاري، تكسب رهانات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على الحياة البشرية، وتتغلب على تحدياتها الداخلية والخارجية المتلاحقة، بقدر ما تتكامل أبعاد الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد في عملية تجديد:

- **الفهم والوعي**: باعتباره أساس ومنطلق أي عمل يراد له النجاح. وكل عمل لا يقوده فهم ووعي لا يمكنه أن يحقق مقاصده الاستخلافية بأي حال من الأحوال.
- **الالتزام والقدوة**: باعتبار ذلك تجسيدا ذاتيا صحيحا للفهم والوعي، يؤثر بعمق على بقية مراحل الإنجاز الأخرى التالية. وما لم ينجح المجدد أو المصلح أو الداعية، في تجديد التزامه وتمثُّله السلوكي الذاتي، وإعطائه القدوة من نفسه للآخرين، فإنه يصعب عليه أن يؤثر فيهم أو ينجح في تجديد حياتهم على طريق **العبودية والخيرية والعالمية والإنسانية والكونية**.
- **حركة الدعوة**: باعتبارها عملية تبليغ وتعريف منهجي بالفكرة والمشروع، ونقلٍ لحقائقه العقدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والحضارية للآخرين، بغية إقناعهم بها، وترغيبهم فيها، واجتذابهم إليها، واستيعابهم فيها.
- **حركة البناء الاجتماعي والحضاري**: باعتبارها عملية تحويل منهجي متدرج لمضمون الدعوة العقدي والفكري، إلى واقع ثقافي وسياسي واجتماعي متكامل، يجسّد النموذج الحضاري الإنساني الكوني للإسلام في واقع الحياة الإنسانية.
- **حركة المواجهة أو المدافعة الوقائية**: باعتبارها عملية حمايةٍ مبكرة أو مرافقةٍ أو استدراكية، لكل العمليات أو المراحل السابقة من بناء " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل التغييري، حتى لا تأثر فيها سلبا، التحديات الداخلية والخارجية التي تفرزها صيرورات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

فالتجديد الأصيل الفعال التكاملي المطرد، لكل هذه الأبعاد والمراحل في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الثقافي أو السلوكي أو الاجتماعي، هو الذي يمنح حركة التغيير الحضاري قوتها وكفاءتها التدافعية والتداولية النموذجية المطلوبة باستمرار. وأي قصور أو ضعف في تجديد أي بعد أو مرحلة من المراحل والأبعاد السابقة، المشكلة أو المؤسسة " **للدورة الإنجازية الكلية** " للفعل التغييري، سيكون له تأثيره السلبي الخطير على أصالة وفعالية هذه الدورة، ومن ثم على قوة وفعالية وكفاءة حركة المدافعة والمداولة الثقافية والاجتماعية والحضارية للمجتمع والأمة.

والإسلام استوعب كل أبعاد هذه النظرية الكلية في فلسفة التاريخ والحضارة، واعتبر " **التدافع والتجديد** " قانونا كليا ناظما لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، ومحركا أساسيا لصيروراتها التاريخية، نحو التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتكامل الحضاري، والتناغم الكوني، أو نحو الانفصام الذاتي، والتنافر الاجتماعي، والصراع الحضاري، والتصادم الكوني، كما بينت ذلك هذه الدراسة.

5. التأكيد على ارتباط أصالة وفعّالية وتكاملية واطّرادية حركة " **التدافع والتجديد** " بمدى **شمولية وعمق وتوازنية واستمرارية** التجديد الذي يحدث في المنظومات المعرفية والروحية

والسلوكية والإنجازية، للفرد والمجتمع باستمرار.

فتكامل أبعاد الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد، في حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، مرهون بمدى استجماع "**الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل التغييري، لمقاييس **الشمولية والعمق والتوازن والاستمرارية**.

فالفعل الإنساني يكون أصيلا وفعّالا ومتكاملا ومطردا، بقدر ما تستجمع " **دورته الإنجازية الكلية** "؛ بشمول وعمق وتوازن واستمرارية، من وعي معرفي، وتوثب روحي، وجمالية سلوكية، وكفاءة إنجازية، وقدرة متجددة على التواصل والانسجام الاجتماعي. ويفتقد هذا الفعل الإنساني أصالته وفعّاليته وتكامليته واطّراد حيويته، بقدر ما يضعف فيه الاهتمام بأي بعد من هذه الأبعاد الخمسة، ويُغفل فيه عن أي مقياس من المقاييس الأربعة السابقة، المتعلقة بالشمولية والعمق والتوازن والاستمرارية .

6. التأكيد على ارتباط كل ما سبق بمدى شمولية وتكامل الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الإنساني، على اعتبار أن الفعل الإنساني المؤثر في الصيرورة الاستخلافية البشرية، مؤطّر باستمرار بهذه الثلاثية الخالدة: **فقه العقيدة، وفقه التغيير، وفقه الاستخلاف،** التي تمنح الإنسان رؤية متوازنة عن " **دورته الوجودية الكبرى** " وتحدّد موقعه في الكون، ورسالته في الحياة، وتبني وعيه "**بميزانيته التسخيرية الكونية** " الكبرى، وبفقه استثمارها في تحقيق أرقى مستويات خلافته في الأرض .

فالصيرورة الاستخلافية تتسم بالأصالة والفعّالية والاطّراد، بقدر ما يتكامل وعي الإنسان العقدي والتسخيري والاستخلافي، في " **الدورة الإنجازية الكلية** " لفعله في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، وتتضاءل أبعاد الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد في الصيرورة الاستخلافية، بقدر ما يضطرب وعي الإنسان العقدي والتسخيري والاستخلافي، ويتنافر استثماره له ولا يتكامل.

ونظرا للأهمية الحيوية الحاسمة للوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي في أصالة الصيرورة الاستخلافية وفعّاليتها وتكامليتها واطّراد حيويتها، فقد شكّلت محاور اهتمام أساسية للحركات الرسالية عامة، والدعوة الإسلامية التي قادها النبي محمد عليه الصلاة والسلام خاصة، كما بينت هذه الدراسة في قسميها النظري والتطبيقي معا.

7. التأكيد على ارتباط الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي، بمدى شمولية وتكامل وعي الإنسان **بمنظومات سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد؛** معرفة واستثمارا. باعتبارها تشكل المنافذ والمصادر الكلية للمعرفة والوعي، وإمكانات التسخير والاستخلاف الأساسية، التي تمنح الجهد الإنساني أصالته وفعّاليته وتكامليته واطراديته النموذجية القصوى، في معتركات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على حياته .

وطبيعي أن تتضاءل وتضطرب أصالة وفعّالية وتكاملية واطرادية الصيرورة الاستخلافية البشرية، بقدر تضاؤل الوعي بمنظومات سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، واضطراب العلاقة التسخيرية بها، واتسامها باللاعلمية والتجزيئية والتنافرية واللاتكاملية. ومن هنا فإن الصيرورة الاستخلافية البشرية، ترتبط دوما بمدى شمولية وتكامل الوعي الاستثماري بمنظومات سنن التسخير الأربعة السابقة، وتتضاءل أصالتها وفعّاليتها تبعاً لضعف وقصور وعي الإنسان بأي منظومة من هذه المنظومات، واضطراب علاقته التسخيرية بها، فتكون له من القوة والغلبة والدولة والتمكين في الأرض، أو الضعف والاستضعاف والتبعية، بحسب حجم وكيفية استثماره لمنظومات سنن التسخير المذكورة.

8. التأكيد على أن أصالة وفعالية وتكاملية واطرادية حركة " **التدافع والتجديد** " الحضاري،

ترتبط جذريا بمدى **التجديد** الذي يحدث في وعي الفرد والمجتمع، بمنظومات سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، التي تشكل مجتمعة " **الميزانية التسخيرية الكونية** " الكبرى للخلافة البشرية في الأرض. وهذا ما أسس له القرآن في مثل قوله تعالى:[**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**] {الرعد:11}. فالتغيير الحضاري الصاعد أو المتقهقر، يرتبط دوما بطبيعة وحجم التجديد الذي يحدث في العلاقة الفهمية والتسخيرية بسنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد** .

9. التأكيد على ارتباط الوعي المعرفي والاستثماري لهذه المنظومات السننية الكونية الأربعة **بالمنهج**، في بعديه المعرفي الثقافي والإجرائي الفني. على اعتبار أن المنهج بنية نسقية معرفية وإجرائية منتظمة؛ لضبط الاستفادة العلمية من معطيات الملاحظة والاستقراء، والتحليل والتفسير، والتوقع والتخطيط، والتنفيذ والمتابعة، والتقويم والمعايرة... أي أنه نظام متكامل في المعرفة والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

فكل مرحلة من مراحل " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل التغييري، المشار إليها آنفاً، لا يمكنها أن تستوفي شروطها، وأن تتم بنجاح، وأن تمهّد للمرحلة التالية لها، وتكون نقطة ارتكاز صلبة بالنسبة لها، إلا من خلال منهج علمي محكم، تُواجه به مشكلات كل مرحلة من هذه المراحل، ويتم بواسطته التنسيق والمكاملة بين هذه المراحل، لإنجاز الفعل وفق أعلى مقاييس الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد.

فالمنهج هو روح المعرفة وقوامها، وشرط أصالة وفعّالية استثمار هذه المعرفة، في تحقيق سلامة وصحة الفهم، وأناقة الالتزام والقدوة، وفعالية الدعوة والبناء والمواجهة، كما يتجلى لنا ذلك من كون:

- الفعل الحضاري كمصب لحركة التدافع والتداول والتجديد، هو باستمرار محصلة **فعل ثقافي** أصيل وفعل ومتكامل ومطرد.
- والفعل الثقافي كمصب للخبرة الاجتماعية والحضارية للأمة، هو باستمرار محصلة **فعل تربوي**، أصيل وفعال ومتكامل ومطرد.
- والفعل التربوي كمصب لحركة التكييف والتكيّف الاجتماعي، هو باستمرار محصلة **فعل منهجي** أصيل وفعال ومتكامل ومطرد.
- والفعل المنهجي كمصب لتنظيم وتنسيق الجهد التربوي والثقافي والحضاري، هو باستمرار محصلة **وعي سنني شمولي متكامل**، يحرر الإنسان من مقولات الصدفة والعبثية والفوضى، والقدرية السلبية المعطلة، ويخلّصه من الخرافة والتسيّب والكلّية.. ويطبع موقفه الفكري والسلوكي بالانضباط والدّقة، والنظام والجمالية، والتناسق والانسجام، والتكامل والتوازن.. أي بالأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّرادية.

فالمنهج يلازم كل مراحل " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الحضاري أو الثقافي أو التربوي أو المنهجي الإجرائي، ويشكل روح هذا الفعل، وسر قوته التسخيرية الضاربة، فإذا افتقد الفعل الإنساني المنهج، يكون قد افتقد روحه وسر قوته الضاربة، وسُلبت منه أصالته وفاعليته التسخيرية. وهو ما نلمس العناية الشديدة به في الإسلام؛ قرآنا وسنة وسيرة، كما اتضح لنا ذلك من خلال هذه الدراسة، التي أثبتت لنا خضوع الفعل النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة لمنهج صارم مطرد.

هذه بصفة عامة هي النتائج الأساسية التي تمخضت عنها هذه الدراسة – في قسميها النظري والتطبيقي– على المستوى المعرفي العام، وهي في رأينا نتائج في غاية الأهمية، بالنسبة:

- لفهم طبيعة الإسلام الشاملة، ووعي حقيقته ومقاصده الكلية، ودوره في الحياة البشرية من

جهة .

- وفهم حقيقة الحياة والسنن الفاعلة في صيروراتها الاستخلافية، وهي تتحرك في اتجاهها **التكاملي العبادي العالمي الإنساني الكوني** التصاعدي، أو في اتجاهها **الشركي أو الفسوقي التنافري الذاتي الأناني الانفصامي** المتقهقر من جهة أخرى.
- وفهم طبيعة البنية النسقية السننية للمنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، وامتلاك القدرة على الاستيحاء الموضوعي له في تحقيق أصالة وفعّالية وتكاملية واطرادية الأداء الاجتماعي لحركة التغيير والبناء والتجديد الحضاري من جهة ثالثة .
- وفي كون حركة الحياة يحكمها قانون: " **التدافع والتجديد** "، الذي كان له صداه العميق في منهج النبي محمد عليه الصلاة والسلام في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، حيث تحرك عليه الصلاة والسلام لبناء الدولة والمجتمع، والمحافظة على منجزاتهما، على ضوء مقتضيات هذا القانون الكلي في الاستخلاف البشري، فأتاه الله ما شاء من التوفيق والنجاح الباهرين، كما سنشير إلى ذلك لاحقا .

ولعل الوصول إلى هذه النتيجة المعرفية، المتعلقة باستخلاص ما تعتبره الدراسة نظرية إسلامية كلية في فلسفة التاريخ والحضارة، وهي نظرية " **التدافع والتجديد** "، هي أهم إنجاز علمي أو معرفي لهذه الدراسة برمتها، والتي سيكون لها دون شك، تأثيرها العميق في نهضة المجتمع والأمة والإنسانية، إذا ما تم استيعابها معرفيا وتربويا، وعرفت طريقها بعد ذلك إلى تخطيط وإدارة وتوجيه حركة التغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري في المجتمع والأمة.

فوعي الأبعاد والمعطيات والآليات السننية المتكاملة، التي تختزنها هذه النظرية، وتشترطها للاستفادة منها في الحياة العملية، سيغير كثيرا في الوعي والفهم أولا، وفي الإرادة والعزيمة ثانيا، وفي مناهج وطرائق العمل والإنجاز ثالثا، وفي شروط الحماية والوقائية والاستمرارية رابعا. وهي الأبعاد والمراحل الكبرى الأساسية في أية " **دورة إنجازية كلية** " للتغيير الثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والتجديد الحضاري الناجح.

نتائج الدراسة

على مستوى إنجاز أهداف المرحلة

ونقصد به هنا إنجازه عليه الصلاة والسلام لأهداف الدعوة في هذه المرحلة الحيوية الحاسمة من مسيرتها، وهي بناء الدولة والمجتمع، والسير بهما قدما نحو العالمية والإنسانية والكونية، باعتبار ذلك النجاح مؤشراً مرجعياً على أصالة وفعالية المنهج في بعديه المعرفي والإجرائي معا.

وتمخضت الدراسة على هذا المستوى على النتائج الهامة التالية:

1. تمكن الرسول عليه الصلاة والسلام من **التفكيك السياسي والاختراق الثقافي** للمجتمع التقليدي، وإعادة استيعابه دعويّاً وفكريا وتربوياً واجتماعياً، في زمن قياسي لا يتناسب مع شمول وكثافة التحديات من جهة، وضآلة الإمكانات التسخيرية المتاحة للدعوة من جهة أخرى، وشمول وعمق التحولات العقدية والفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية.. التي أحدثتها الدعوة من جهة ثالثة.

ففي ظرف عشر سنوات من الجهد المنهجي المركز المطرد، تمكن عليه الصلاة والسلام من

أن يغير موازين القوى الثقافية والاجتماعية والسياسية في منطقة واسعة من الجزيرة العربية، وأن ينشئ للدعوة بيضتها أو مضغتها وقاعدتها الصلبة، التي سترتكز عليها في إنجاز المراحل التالية من ميلاد الأمة والحضارة الإسلامية الكبرى.

2. استطاع الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة، أن يحافظ على اطّراد حركة البلاغ والبناء والمواجهة، وأن يحمي منجزاتها الفكرية والسياسية والاجتماعية والبشرية، ويدعم موقف الدعوة، ويعزز موقعها في معتركات التدافع بين المنظومتين المعرفيّتين التقليدية والإسلامية ونموذجيهما الثقافيين والاجتماعيين، وأن يحقق عبر ذلك كله، **التراكم البنائي التكاملي المتوازن**، الذي كانت تحتاجه عملية التغيير والبناء والتحول الحضاري المطلوب.

فبالرغم من التحديات الداخلية والخارجية الصعبة التي كانت الدعوة تتحرك في إطارها، وتحت ضغوطاتها، فإن ذلك كله، لم يؤثر سلبا على استمراريتها، ولا على حماية منجزاتها البشرية والمادية والثقافية والمعنوية، بل ظلت تحقق المزيد من المكاسب على حساب الوضع القائم، الذي ما لبث أن وجد نفسه في حالة انحسار وانهيار كلي في نهاية المطاف بعد فتح مكة، وكسر شوكة هوازن.

3. تمكّن عليه الصلاة والسلام من **بناء قاعدة قيادية اجتماعية عريضة، ذات مواصفات رسالية نموذجية؛** في وعيها المعرفي، وتوثبها الروحي، وانسجامها السلوكي، وانشحاذ فعّاليتها الإنجازية في حركة القدوة والدعوة والبناء والمواجهة .

وكانت هذه النتيجة من أهم المكاسب والمنجزات الحضارية التي حققتها الدعوة في هذه المرحلة، لما للعنصر البشري النوعي من أهمية حيوية حاسمة في عملية التغيير والبناء والتحول الحضاري، كما دلّت على ذلك مسيرة المجتمع الإسلامي في مرحلة التأسيس، وما تلاها من مراحل، كان لجيل الصحابة فيها دور مركزي حاسم في تاريخ الحضارة الإسلامية والإنسانية، بما ارتقى إليه وعيه العقدي والتسخيري والاستخلافي، من قمم قياسية ذات أنفاس أو وتائر حضارية، تستعصي على احتواء معادلة الزمان والمكان ذات السلطان الاحتوائي التجاوزي على الفعل البشري. فتأثير هذا الجيل في بقية أجيال الأمة، ظل ممتدا بكل عنفوان، بلا انقطاع. فقد أصبح هذا الجيل ملهما مرجعيا على مر التاريخ.

4. تمكّنه عليه الصلاة والسلام من **بناء دولة ومجتمع** وتهيئة مقومات **الكتلة الحضارية الأم** للحضارة الإسلامية العالمية الإنسانية الكونية القادمة، بعد أن استطاع أن يخترق المجتمع التقليدي ثقافيا، وأن يفككّه سياسيا، ويتجاوز ذلك إلى إعادة بنائه وفق المنظور العقدي القيَّمي الجديد للدعوة الإسلامية، مانحاً بذلك الدعوة السند العملي القوي الذي نقلها من عالم المثال إلى عالم الواقع، ومن الحالة الفكرية السلوكية الفردية، إلى الحالة الثقافية الاجتماعية، وأعطاها **قوة التأثير والاستقطاب القصوى**، بتحوّلها إلى نموذج ثقافي واجتماعي وحضاري بديل.

5. وقد يكون من المفيد هنا، التأكيد على أهمية البعدين الاجتماعي والسياسي للدعوة الإسلامية، باعتبارهما الهدف الأساس للبعدين العقدي والثقافي عامة، كما يتجلى ذلك من الدلالات الوظيفية الفكرية والنفسية والروحية والتربوية والسلوكية أو العملية عامة... لمضامين العقيدة من ناحية، ومن العمل النبوي الذي لم يقتصر على مجرّد إبلاغ الدعوة للناس، وشرح حقيقتها لهم، ومحاولة إقناعهم بذلك، بل تجاوز ذلك إلى التمثّل السلوكي الذاتي لقيم الدعوة، والعمل المنهجي الجاد على تحويلها إلى واقع ثقافي واجتماعي وسياسي منسجم، عبر الفعل الدعوي والتربوي والاجتماعي والجهادي من ناحية أخرى.

فالبعدان الاجتماعي والسياسي أصيلان في الاهتمامات المركزية أو الجوهرية للدعوة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإسلامية، وإن احتلت الاهتمامات العقدية والفكرية مكانة بارزة في البنية المعرفية والمنهجية للدعوة، انسجاما مع دورهما الحيوي المحوري المطّرد في تأصيل وتفعيل وحماية حركة التغيير والبناء والتجديد الحضاري، التي يشكل البعدان الاجتماعي والسياسي **مصبّها الرئيسي، ومحكّها المعياري** الذي يقاس به مدى عمق ونضج الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي لدى الفرد والجماعة.

ومن خلال هذه النتائج الهامة، يتبين لنا كيف نجح عليه الصلاة والسلام في تحقيق أهداف المرحلة المدنية خاصة، وأهداف الدعوة عامة، عبر:

- المحافظة على أصالة محتواها العقدي والفكري والتشريعي والأخلاقي، طيلة عملية التبليغ الدعوي والتربوي التي استغرقت ثلاثة وعشرين سنة، بحيث ظلت نقية صافية متكاملة، كما جاء ذلك في القرآن في أواخر ما نزل منه([1]): **[اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا]** {المائدة:3}. وهو ما أكده قول رسول الله عليه الصلاة والسلام في آخر حياته: **(قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)**([2]). وجاء في القرآن كذلك:**[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ]** {الحجر:9}. وحفظ مرجعية الدعوة من أي تغيير أو تحريف أو نقص، أعظم مكاسب الدعوة على الإطلاق، وهي ميزة ينفرد بها القرآن بين جميع الكتب السماوية السابقة عليه .
- وضمان اطّراد فعّالية أدائها التبليغي والتربوي والاجتماعي والجهادي، بحيث ظلت مستمرة ومتكيفة مع كل الظروف والتحديات التي واجهتها، حتى تكللت بالنجاح الكبير وهو: **بناء الدولة والمجتمع**، اللذان يكفلان لها الحماية الكاملة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .
- وحماية منجزاتها البشرية والمادية والسياسية، وتحقيق التراكمية البنائية المطردة، التي توّجت في آخر حياته عليه الصلاة والسلام **بتوطيد سلطان الدولة** وإرساء **أسس ودعائم ميلاد المجتمع** الإسلامي الجديد، وتهيئة المقومات الموضوعية **للكتلة** أو **المضغة الحضارية الأم**، التي ستأخذ أبعادها العالمية والإنسانية والكونية بسرعة ملفتة للانتباه بعد ذلك، بفضل ما توفر لها من مقومات وشروط النجاح المرجعية.

نتائج الدراسة على مستوى المنهج

أي المنهج النبوي في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، الذي أنجز به عليه الصلاة والسلام أهداف الدعوة في هذه المرحلة خاصة، وهو مركز اهتمام هذه الدراسة في المقام الأول، من خلال قضية محورية في البناء والتجديد الحضاري عامة، وهي: **حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها**، التي انهارت على صخرتها كثير من التجارب البشرية في التغيير والبناء الحضاري عبر التاريخ، حينما عجزت عن تحقيق **التراكم الحضاري التكاملي المطرد** الفعّال، واصطبغ جهدها **بالتنافرية والاهتلاكية الذاتية المنهكة**، وحرم من **التكاملية البنائية** المستمرة، التي تحتاجها أية حركة تغييرية ذات نفس حضاري سنني متوازن .

وقد انصب جهد هذه الدراسة على محاولة تقصي ما وراء " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل

([1]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، 131/6.

([2]) أورده الألباني في **صحيح ابن ماجة**، تحت رقم41.

الدعوي والتغييري النبوي، من روح أو بنية نسقية منهجية سننية مطردة، كانت وراء بناء هذه الأفعال، وطبعها بالأصالة والفعالية والتكاملية والاطرادية، التي تُلحظ على الصورة النهائية لسائر أفعاله السلوكية والدعوية والتربوية والاجتماعية والجهادية.. عليه الصلاة والسلام، والتي كثيرا ما تقف الدراسات الوصفية عند رسم بنائها التكوين الخارجي، ولا تهتم كثيرا بما وراء ذلك البنيان الفكري أو السلوكي أو الدعوي أو الاجتماعي أو السياسي أو الجهادي المبهر، من روح وقوة منهجية سننية ناظمة له، ومؤثرة في تركيبه وبنائه وصياغته بذلك الشكل النهائي المبهر المؤثر.

فالبحث عن روح المنهج وأسرار أصالته وقوته وفاعليته الإنجازية، هدف محوري لهذه الدراسة، التي تمخضّت عن النتائج الأساسية التالية:

1. اتسام "**الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل النبوي في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، بالأصالة والفعّالية والاطّراد بصفة مستمرة، كما تدلّ على ذلك **وتيرته التراكمية البنائية النموذجية الفذة،** التي منحت أداءه الاجتماعي قدرة تسخيرية واستخلافية عالية، تجلّت في سرعة الاختراق الثقافي والتفكيك السياسي للمجتمع التقليدي، وشمولية وعمق الاستيعاب التربوي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي الجديد. وفي توطيد سلطان الدولة، ووضع الأسس أو المرتكزات الموضوعية **للكتلة أو المضغة الحضارية الأم** للحضارة الإسلامية العالمية الإنسانية الكونية الجديدة.

2. ويرجع سرّ اتسام "**الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل النبوي، في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، بالأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد، وتميّزه بوتيرة تراكمية بنائية نموذجية، إلى **انضباطه المنهجي** النموذجي المطّرد، الذي كان يمكّنه باستمرار، من الاستيفاء المتوازن لكل مقوّمات وشروط "**الدورة الإنجازية** " للفعل التغييري؛ فيأتي فعله في الدعوة والبناء والمواجهة، أصيلا فعّالا مطّردا.

فالمنهج أصيل في **الفعل النبوي**، الذي يعد باستمرار، محصّلة تفاعل متوازن النسب بين الإطار المرجعي الموجّه للجهد النبوي، والواقع الإنساني المعيش، والأهداف الاستراتيجية والمرحلية المنشودة، والإمكانات التسخيرية المتاحة، والظروف المحيطة، والمآلات المتوقعة، التي تتحكّم باستمرار في عمليات الرصد والتحليل، والتفسير، والتوقع، والتخطيط، والتنفيذ، والمتابعة، والتقويم.. التي يحتاجها إنجاز أو إنتاج أي فعل إنساني أصيل وفعّال وتكاملي ومطّرد.

فمن يحلل أبعاد ومراحل ونسقية تشكل " **الدورة الإنجازية الكلية** " لأي فعل من أفعاله الفهمية أو السلوكية أو الدعوية أو التربوية أو الاجتماعية أو الجهادية.. يلحظ مدى شمول وتوازن الاستيفاء لأبعاد الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد في هذه الأفعال جميعا، من خلال عمق وعيه عليه الصلاة والسلام بأن أصالة الفعل وفعّاليته وتكامليته واطّراديته، لا تتأتى إلا بالإدراك العميق، بأن للإطار المرجعي الموجّه سلطانه، ولأهداف الدعوة الكلية والجزئية سلطانها، وللمآلات المتوقعة سلطانها، وللإمكانات التسخيرية أو الإنجازية سلطانها، وللظروف المحيطة سلطانها، وللتأييد الرباني سلطانه.. في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل التغييري. وأن أي إخلال بمقادير ونسب وأحجام هذه الأبعاد جميعا، يؤثر بشكل سلبي حاسم، على أصالة وفعّالية وتكاملية واطّرادية الفعل التغييري، ومن ثم على الوتيرة التراكمية البنائية لحركة الدعوة والبناء والمواجهة برمتها.

ولا يخفى أن الاستيعاب الشمولي المتوازن لكل هذه الأبعاد، بالنسب والمقادير والأحجام المطلوبة في " **الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل الدعوي، له علاقة جذرية مباشرة بالمنهج، كبنية نسقية معرفية وإجرائية منتظمة؛ في الرصد، والاستقراء، والتحليل والتفسير، والتوقع، والتخطيط، والتنفيذ، والمتابعة، والتقويم.. وهي مفاصل الفعل التغييري التي نضجت في الفعل النّبوي نضجا نموذجيا، منحه المزيد من الأصالة والفعّالية والاطّراد.

3. فالمنهج إذن، باعتباره قدرة معرفية على أصالة الفهم، وقدرة منهجية على فعالية التمثُّل الذاتي، وفعالية الإنجاز الاجتماعي، وفعالية الوقاية المبكرة أو المرافقة أو الاستدراكية لكل العمليات السابقة، هو روح السنة والسيرة النبوية، ومركز الثقل الأكبر فيها، قبل أن تكون هذه السنة أو السيرة مجرد ترسانة ضخمة من المعلومات والمعارف الفقهية، والتوجيهات الأخلاقية، والأحداث التاريخية.

4. وعلى مستوى آخر، فإن **الانضباط المنهجي** الذي كان يمنح الفعل النبوي؛ في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة، أصالته وفعّاليته وتكامليته واطّراديته النموذجية باستمرار، يرتبط **بعمق الوعي بسنن التسخير**، في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، **وشمولية وتكامل استثمارها** في تلبية حاجات حركة **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد**، ومواجهة تحدياتها التي كانت الدعوة تتحرك ضمن ضغوطاتها وإكراهاتها .

فالفعل النبوي كان يستمدّ أصالته وفعّاليته وتكامليته واطّراد حيويته التغييرية، من قدرته عليه الصلاة والسلام على الاستثمار الشمولي المتكامل لمنظومات سنن التسخير الأربعة، في بناء " **دورته الإنجازية الكلية** "، التي تأتي مستوفية لكل أبعادها ومراحلها وشروطها، بنسب ومقادير متوازنة، حيث يندر أن يتخلف ذلك في أي فعل من أفعّاله الدعوية والتربوية والاجتماعية والجهادية عليه الصلاة والسلام .

فجهده عليه الصلاة والسلام في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، هو باستمرار: **محصلة استثمار تكاملي متوازن ومطرد**، لما يتيحه له الوعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، من خبرات وإمكانات تسخيرية متجدّدة، في استيفاء بناء" **الدورات الإنجازية الكلية** " لأفعاله الفهمية والسلوكية والدعوية والتربوية والاجتماعية والجهادية... بكفاءة عالية، تمنحها المزيد من الأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد، في معتركات التدافع والابتلاء والتداول والتجديد التي يتحرك في إطارها.

فما يلحظ في الفعل النبوي من أصالة وفعّالية وتكاملية واطّرادية نموذجية متجدّدة، ناتج عن معرفة سننية متجدّدة، تستوعب بشمول وعمق وتكامل منظومات الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي المهيمنة على الحياة الإنسانية وصيرورتها الاستخلافية، والتي كان النبي صلى الله عليه وسلم يستثمرها باستمرار، في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، فيأتي فعله الدعوي والتربوي والاجتماعي والجهادي... أصيلا فعّالا تكامليا مطّردَ الحيوية والتجدّد.

فكل ما يلحظ في الفعل النبوي من قدرة على الفهم العميق للظواهر والأحداث، والاستيعاب الدقيق للموقف العملي أو الإجرائي منها، وفعّالية الاستجابة الإنجازية له، وفق ضبط دقيق للأولويات، وربط محكم ومتوازن بين المكاسب السابقة، واحتياجات الواقع القائم وتحدياته، وتطلعات المستقبل ومستلزماته.

كل هذا العمق في الفهم، وهذه الدقة في ضبط أولويات الموقف العملي، والفعّالية في الإنجاز والاستيعاب لآثاره ومآلاته؛ في أبعادها التاريخية والآنية والمستقبلية، على حركة الفهم والقدوة الدعوة والبناء والمواجهة، آتٍ من هذه **الثقافة السننية** الراسخة، التي ربّت لدى النبي عليه الصلاة والسلام **الحسّ السنني**، بكل ما يعنيه من دقة، وانتظام، وتفاعل تكاملي بين الظواهر... وهو لبُّ **المنهج وجوهره**، الذي يطبع الموقف الفكري والسلوكي للإنسان بالأصالة والفعّالية والتكاملية والاطّراد، عندما يتحوّل ذلك لديه إلى وعي ثقافي نافذ في حياته، يتعدّى نطاق العلم أو المعرفة النظرية المجردة.

من هذه النتائج، يتبيّن لنا **الدور الحيوي الحاسم للمنهج**، في أصالة وفعّالية وتكاملية واطّرادية الفعل الدعوي النبوي من جهة، ودور **الثقافة السننية** المستوعبة لسنن التسخير – في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد بصورة شمولية متكاملة – في بناء هذا **الحسّ السّنني المنهجي** لدى الرسول عليه

الصلاة والسلام، وطبع أدائه في الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة بانضباط منهجي رفيع من جهة أخرى، كان له دور حاسم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وتعميق **وتيرتها التراكمية البنائية التكاملية المطردة**، التي توّجت بتقويض المجتمع التقليدي، وتأسيس المجتمع الإسلامي الجديد، وتوطيد سلطان دولته. ووضع الأساس الموضوعي المتين **للكتلة أو المضغة الحضارية الأم** للحضارة الإسلامية الوليدة، في زمن حضاري قياسي!

نتائج الدراسة

على مستوى المقاربات الاستثمارية

ونقصد بها محاولات الأمة استغلال **الخبرة النبوية** في الدعوة والبناء والمواجهة، في التمثل الذاتي للإسلام، وفي حركة تبليغ هداياته للآخرين، وتجسيد نموذجه الاجتماعي في الحياة. وتمكينه من الإمامة الحضارية للإنسانية مرة أخرى .

وقد بدت لي ملاحظات كثيرة في هذا المجال، سواء أثناء تفكيري في بلورة فكرة هذه الدراسة منذ سنوات طويلة، أو أثناء مراحل تعميق القراءة وتحرير الموضوع.. أودّ تسجيل بعضها هنا لأهميته المعرفية والمنهجية فيما سترتكز عليه التوجيهات، أو المقترحات المتصلة بآفاق الاستثمار الأمثل للخبرة النبوية في تجديد الوعي بالإسلام، وتأصيل عمليات التمثّل الذاتي له، وتفعيل جهود التجسيد لنموذجه الثقافي والاجتماعي، والتمكين الحضاري له .

وسأركّز على بعض نواحي القصور الملحوظة في دراسات السيرة النبوية بالخصوص، وذلك من زاوية ما ينبغي أن يكون، لتحقيق التكامل المعرفي المطلوب، الشارط للقراءة السننية للسيرة النبوية، لأن التراث المعرفي المتّصل بالسنّة النبوية عامة والسيرة الشريفة خاصّة، من الكثافة والتنوع بمكان – يصعب معه الحصر والإحاطة [(1)]– استوعب الخبرة النبوية من جوانبها المختلفة، بصورة يندر أن يكون لها مثيل في التراث الإنساني.

سيادة القراءة الوصفية: التأريخية التقريرية للخبرة النبوية في عموم الدراسات السابقة، التي اهتمت بالتركيب التأريخي للأحداث التي مرّت بها الدعوة الإسلامية وقيادتها النبوية، وجمهرتها البشرية. وقد كان ذلك أمرا ضروريا في بداية تسجيل تاريخ الدعوة الإسلامية وحفظ تراثها، ونقله بأمانة إلى الأجيال اللاحقة عبر التاريخ، بعد توثيق نسبته إليه عليه الصلاة والسلام، وتنقيته من كل الزوائد الدخيلة عليه.

ولكن استمرار ذلك بعد عصور التدوين، وإفساح المجال للمزيد من الشروح الوصفية التأريخية التقريرية المكررة، والاسترسال أحيانا وراء الإسرائيليات والخرافات الشعبية، لم يخدم عملية **الاستثمار السنني الوظيفي** للسيرة النبوية كثيراً، بل جمّدها وحال بينها وبين التأثير المطلوب في أجيال الأمة وخاصّة في العصور المتأخرة، كما يلحظ ذلك على سبيل المثال في مشكلة القدوة لدى هذه الأجيال، التي وإن كانت تحب الرسول عليه الصلاة والسلام، إلّا أنها تتخذ غيره قدوة، وبعض من تأسّى به تورط في الآلية والشكلية، أو الانتقائية التلفيقية المميعة، أو الذوقية الخرافية ! بسبب قصور، وأحيانا غياب، القراءة السننية المتكاملة لسيرته وسنته عليه الصلاة والسلام.

([1]) انظر على سبيل المثال: صلاح الدين المنجد، **معجم ما ألف عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.**

سيادة القراءة التجزيئية للخبـرة النبويـة: التـي حوّلهـا التقـسيم المدرسـي الأكـاديمي الاختصاصي، إلى أجزاء وتفاريق مستقلة عن بعضها؛ كما يلحظ ذلك في المفهوم اللغـوي التـاريخي للسيرة، الذي اختصر السيرة النبوية في المغازي والشمائل، والمسائل الذاتية...التي لا يدخل بعـضها في نطاق الخبرة العامة، القابلة للاستثمار الاقتدائي من غيره عليه الصلاة والسلام؛ في الوقـت الـذي ينبغي أن يستوعب مفهوم السيرة مجمل الخبرة النبوية المعرفية والمنهجية في فهم الإسـلام، والتمثـل الذاتي له، وتبليغ هداياته للآخرين، وتجسيد نموذجه الاجتماعي في واقع الحيـاة الإنـسانية، وحمايـة منجزات ذلك كله.

فالسيرة رغم أنها تعني الجانب العملي من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، المـتلاحم مـع الجانب المعرفي والمجسّد له، –إذ كان خلقه القرآن كما قيل بحق– إلا أن القراءة التجزيئية المسترسلة وراء المزيد من الجزئيات، والمتمحورة حول ذلك، والمنحبسة فيه ،والمعزولة عن بقية أبعاد الموقـف ومكوناته، أثرت كثيرا على هذه التكاملية وهذا التلاحم في الفعـل النبـوي، الـذي لا يمكـن فهمـه، واستخلاص مؤطّراته المعرفية، وآلياته المنهجية، والاستفادة منها في تحقيق عملية الاستثمار الاقتدائي الموضوعي له، إلا بهذه القراءة التكاملية.

سيادة القراءة الحرفية للخبرة النبويـة[1]: أي التعامل الآلي الظاهري مع الخبـرة النبويـة، والتوقف عند عتبات البنى الهيكلية الخارجية لأقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته عليه الصلاة والـسلام، والذهول عن ملاحظة الأبعاد الزمانية والمكانية، والمنهجيـة، والمقاصـدية.. فـي هـذه المواقـف والتصرفات النبوية، وما ينجم عن ذلك من مجافاة تحقيق التأسي الموضوعي به عليه الصلاة والسلام، و التنكّب عن شروط وأسباب أصالة وفعّالية الاستثمار لسنته في مواجهة تحـديات الـدعوة والبنـاء والمواجهة ،وما يترتب عن ذلك كله من مضاعفات سلبية خطيرة على الإسلام والـدعوة إليـه، لـدى الرأي العام المسلم وغيره.

المنافرة* **بين القرائتين الوضعية والغيبيـة:** أو الـشهودية والتأييديـة، أي النظـرة الغاليّـة المتعاكسة، إلى البعدين البشري والنبوي أو الرسالي في الخبرة النبوية. إذ غالى أقوام في تجريد النبوة والرسولية من معانيهما المعرفية؛ العقدية والروحية والأخلاقية الأصيلة، و قفزوا على ثوابت الـوحي والعصمة والإعجاز والتأييد..وحاولوا قراءة الخبرة النبوية في ضوء المفـاهيم الوضـعية للعبقريـة، والإلهام، والبطولة، والعظمة، والأسباب المادية الجزئية... وما يترتب عن ذلك من استحالة فهم حقيقة الخبرة النبوية، وإدراك سرّ القوة والعظمة فيها، والعجز عن تفسير منجزاتها، ومن ثمَّ الحرمـان مـن الاستثمار الشامل الفعّال لمعطياتها المعرفية والمنهجية في تأصيل وتفعيل حركة تجديد الأمة.

وفي قراءة معاكسة، غالى أقوام في تهميش الأبعاد البشرية السننية في الخبرة النبوية، وحاولوا تفسيرها في ضوء المفاهيم الروحية المجرّدة للوحي، والنّبوة، والعصمة، والإعجاز، والتأييد... رغـم أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحرك في إطار ثوابت سنن التسخير والاستخلاف المـؤطّرة للوجـود البشري([2])، فجاءت قراءاتهم جزئية سطحية مضطربة، عاجزة عن تفسير أسرار القوة وأبعاد العظمـة

([1]) طه جابر العلواني، في مقدمة كتاب: **كيف نتعامل مع السنّة النبوية**، للقرضاوي /12–14،(طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي الثانية).

* التنافر هنا ليس بين الوضعية والغيبية في أصل وظيفتيهما المتكاملتين، بل في القراءة التبعيضية المتلاغية، التي تطرح كلا منهما نقيضا للأخر ونافيا له وبديلا عنه !

([2]) طه جابر العلواني، **العقل وموقعه في المنهجية الإسلامية**، (إسلامية المعرفة. س2.ع6، 1417هـ–1996 م، ص9)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في الخبرة النبوية، ومن ثم العجز عن الاستفادة الاستثمارية منها، في تأصيل وتفعيل حركة الفهم والقدوة والدعوة والبناء والمواجهة.

فإذا علمنا بحجم سيادة هاتين القراءتين المتنافرتين أو المتناقضتين المتنافيتين .. للخبرة النبوية، أدركنا خطورة حجم العجز والقصور اللذين يطبعان علاقة الأمة بإحدى أعظم منابع الأصالة والفعّالية والاقتدار الاستخلافي في " **ميزانيتها التسخيرية** " خاصة وحياتها عامة.

القراءة السياسية اللاثقافية: أي استثمار الخبرة النبوية في تبرير الممارسة السياسية، والانتصار لمواقفها واتجاهاتها، وجعلها – أي الخبرة النبوية– محكومة بها وخادمة لها، وليست حاكمة لها وقيّما عليها، وهو ما لا يحقق القراءة الثقافية المطلوبة، التي تتجاوز تبرير الواقع المعيش إلى نقده ومعايرته وتقويمه ،والارتقاء به إلى **مستوى الانسجام السنني** اللازم لتحقيق أصالة وفعّالية الأداء التسخيري والاستخلافي في حركة تجديد الأمة، ومنحها الاقتدار الحضاري المطلوب، في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد.

إن الخبرة النبوية عانت كثيرا من القراءة السياسية الوظيفية الانتقائية التلفيقية، المعزولة عن أبعادها المعرفية والثقافية المقاصدية، التي تمنحها الشمول والعمق والتوازن والتكامل المطلوب؛ في الرؤية والمنهج والحركة. .لما تنتهي إليه القراءة المعرفية أو الثقافية غالبا من **وعي سنني** يحكم العلاقة التسخيرية والاستخلافية للفرد والجماعة بسنن الله المطّردة في الخلائق ؛ على خلاف القراءة السياسية الوظيفية الانتقائية التلفيقية، التي كثيراً ما تستوعبها الجزئية والآنية، والاستثنائية ،و الذرائعية المضطربة، ولا تنتهي غالباً إلا إلى تفتيت وحدة الجماعة، وتكثيف الصراعات الاجتماعية...

القراءة المعرفية اللاثقافية : أي القراءة المنحبسة في النطاق النظري التجريدي المثالي[1] التأريخي، المعزولة عن الأهداف الاجتماعية والحضارية أو الثقافية عامة للعلم والمعرفة [2]، وهي ترقية الوعي المعرفي، والتوثب الروحي، والانسجام السلوكي، وتفعيل الأداء الحضاري للفرد والمجتمع والأمة وتأصيله باستمرار ،وتحويل ذلك إلى وعي ثقافي متجدّد، يحكم انفعالات الناس واستجاباتهم التكيّفيّة في كل الظروف والأوضاع والمواقف .

والخبرة النبوية ،كما عانت من القراءة السياسية اللا ثقافية، عانت كذلك من القراءة المعرفية اللا ثقافية التي حولّتها إلى معارف نظرية جزئية متناثرة ومتنافرة، تطلب لذاتها، بعيدا عن حركة الحياة ومشكلات الأمة وطموحاتها في التجديد والإمامة الحضارية .

ولا يخفى أن القراءة المعرفية عندما تنفصل عن حركة الحياة تصاب بالجمود والمثالية أو الخيالية .. لأنها تتمحور حينئذ حول الماضي أو المستقبل، وتنفصل عن الواقع كمفصل حتمي وسيط، يجسّر العلاقة بين بعدي الحياة الأخرين، وهما الماضي والمستقبل، فتحرم من واقعية النظرة وموضوعيتها، وتجانب الصواب في كثير من التحاليل، والتفسيرات والأحكام التي تنتهي إليها .

هذه بصفة عامة بعض الملحوظات الهامة التي تمخّضت عنها هذه الدراسة، فيما يتعلق بنواحي الضعف والقصور التي تحرم جهود استثمار الخبرة النبوية في تأصيل وتفعيل حركة تجديد الأمة، من تحقيق أهدافها، والتي ينبغي مراعاتها في آفاق الموقف أو العلاقة المعرفية والثقافية بالخبرة النبوية والمرجعية القرآنية الموجهة للأمة عامة.

([1]) ابن خلدون، **المقدمة**، ص540.

([2]) الشاطبي، **الموافقات**، 1/31-41.

نتائج الدراسة على مستوى آفاق التجديد الحضاري للأمة

وهو مصب كل جهد معرفي أو اجتماعي أو سياسي... ينهض به الأفراد والجماعات والدول والمجتمعات في الأمة، كما سبق تأكيد ذلك .انسجاما مع مسلّمة المنطق العملي في الإسلام التي تجعل كل جهد لا يصب في مجرى تغيير الواقع المعيش، والارتقاء بأدائه الاجتماعي .. جهد ضائع [1]، بل خسارة للفرد والمجتمع والأمة. كما يلحظ ذلك في التحليل والتفسير التركيبي السنني اللذين قدمتهما **(سورة العصر)** لصيرورة الإستخلاف البشري [2].

من هذا المنطلق، وتأسيسا على كل ما سبق من نتائج، فإن الدراسة تمخّضت على هذا المستوى على النتائج الحيوية التالية:

دراسة الخبرة النبوية في ضوء الآفاق الكبرى للإسلام :باعتباره دعوة عالمية إنسانية كونية، تستهدف تأسيس وعي الإنسان " **بدورته الوجودية** "، وتنظيم علاقاته التسخيرية و الاستخلافية ؛ في أبعادها العالمية والإنسانية والكونية بما يحقق لها أقصى مستويات الأصالة والفعّالية، ويرفعها إلى أعلى حالات الانسجام والتوافق مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد...

فالمطلوب في دراسات السيرة خاصة وعلوم الشريعة المستوعبة لكل مناحي الحياة البشرية عامة، التأكيد المدخلي على **الوعي بالأهداف الكلية الكبرى للدعوة الإسلامية**؛ لما لذلك من أهمية بالغة في الفهم العميق لأبعاد القوة والعظمة والإعجاز... في الخبرة النبوية من جهة، وتوجيه جهود الأمة في الدعوة البناء والمواجهة نحو أهدافها وأولوياتها بدقة من جهة ثانية، وإنقاذها من التذبذب والاضطراب والاهتلاك من جهة ثالثة.

وقد لوحظ ابتسار هذا **الوعي المدخلي**، وأحيانا غيابه تماما، بشكل أثر سلباً على العلاقة التسخيرية الوظيفية بهذه العلوم أو الإمكانات المعرفية عامة، وفي مقدمتها القرآن والسنّة والسيرة ؛ كمؤطرات مرجعية مطلقة للوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي للأمة. ولا تخفى من الناحية المعرفية والمنهجية معاً، الأهمية البالغة للوعي بالأهداف والاستراتيجيات، والأولويات، في أصالة وفعّالية الإنجاز الاستخلافي.

وقد بدا لي من خلال تجربتي الطويلة في القراءة والتدريس والممارسة الحركية أو التجديدية* مدى التأثير السلبي لغياب هذا **الوعي المدخلي** في دراسات السيرة النبوية خاصة، على أصالة الوعي الرسالي لأجيال الأمة، وعلى فعّالية أدائها الحضاري، وعلى موقفها الفكري والنفسي والسلوكي من الخبرة النبوية. وهو ما يدعو إلى ضرورة العناية بهذا الوعي المدخلي في دراسات السيرة النبوية الشريفة بالخصوص حيث يجب أن تدرس السيرة في ضوء تحديد الأهداف الاستخلافية الكلية للدعوة الإسلامية، ورؤيتها الشمولية المتكاملة في التغيير والبناء، الذي تأتي وقائع الحركة النبوية تجسيداً عملياً نموذجياً له.

دراسة الخبرة النبوية في ضوء الوعي السنني الشامل :أي الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي؛ في شموله وتكامله الوظيفي أو التسخيري. باعتبار الفعل النبوي هو باستمرار – كما

([1]) مالك بن نبي ، **ميلاد مجتمع**، ص99.

([2]) ابن عطية، **المحرر**، 564/15؛ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، 531/30.

* أقصد بالتجديد هنا، محاولات المساهمة في عملية تغيير أوضاع الأمة في اتجاه الأصالة والفعّالية واطّراد الحيوية الحضارية.

رأينا – محصلة **تفاعل تكاملي متوازن** بين المنظومات السننية الفاعلة في الحياة الإنسانية، سواء تعلق ذلك بمنظومات سنن الآفاق أو الأنفس أو الهداية أو التأييد، فالفعل النبوي المعرفي والدعوي والتربوي والاجتماعي والجهادي .. لا يمكن فهم أبعاد أصالته وفعّاليته واطّراد حيويته، ومن ثم أصالة وفعّالية استثماره، إلا باستيعاب الأبعاد والمكونات والآليات التفاعلية "**لدورته الإنجازية**" أي بمحاولة التركيز على اكتشاف **بنيته التركيبية، ونظام أو نسقية تركيبها** [(1)]، وتجاوز نطاق التعامل معه كمركب أو بناء نهائي فحسب، أي كفعل معرفي ودعوي وتربوي واجتماعي وجهادي .. مكتمل الدورة أو البناء والشخصية ؛لأن ذلك لا يفيد كثيرا في تحقيق الاستثمار الاقتدائي الموضوعي الفعال لخبرته العظيمة عليه الصلاة والسلام، في فلسفة التغيير والبناء الحضاري ؛ بقدر ما يفيد اكتشاف المنهج والأنظمة السننية فيه، أي في الفعل النبوي .

ومن هنا فإن الوعي الفهمي و الاستثماري؛ الأصيل الفعّال المطرد للخبرة النبوية، مرتبط بمدى شمولية وعمق الوعي بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد ،في أية قراءة موضوعية لهذه الخبرة، ومن ثم في أية علاقة استثمارية متوازنة لها، وإن أي قصور في هذا الوعي الشمولي المتكامل، سيؤثر سلباً على أصالة وفعالية هذه القراءة وتلك العلاقة؛ ويسمها بالاضطراب والتناقض واللافعالية.

مفتاحية الخبرة النبوية في التجديد الحضاري للأمة والإنسانية : أي تعميق الوعي بمسلمة كون الخبرة النّبوية تشكل **المدخل المفتاح** لأية قومة أو نهضة تجديدية أصيلة وفعّالة ومطردة للأمة والإنسانية، كما قيل بحق: " **لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها** "، وقد صلح أول هذه الأمة بالوعي الفهمي والاستثماري للكتاب والسنة والسيرة النبوية ،في عهده عليه الصلاة والسلام، وفي كل عهد توفر فيه هذا الوعي بعد ذلك.

فالخبرة النبوية هي مفتاح الوعي الفهمي والتسخيري لسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد ،بدونها يتجزأ و يتبعثر ويضطرب الوعي الإنساني ويتناقض، وتصطبغ جهود الصيرورة الاستخلافية للأمة والإنسانية، **بالفعّالية الاهتلاكية الهدمية**، التي تنتهي بالإمعية والغثائية والضنكية، كمصبّ حتمي لكل جهد مناقض لسنن التسخير والاستخلاف .كما قال تعالى: **[فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]** {النور:63}.

فالخبرة النبوية هي النموذج المعرفي والمنهجي والاجتماعي المعيار، للأصالة والفعّالية التسخيرية والاستخلافية، ومن ثم للتوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي والحضاري، والتكامل الكوني ،الذي تترابط وتتناغم عبره كل مفردات الوجود الكوني ليحقق كل منها وظيفته الوجودية الذاتية والخارجية.

مفتاحية الخبرة النبوية وضرورة الوعي بالمنهج: لأن تحقيق الوعي الفهمي والاستثماري لهذه الخبرة التسخيرية المفتاحية العظيمة، مرتبط **بالمنهج**، الذي يحرّر العلاقة بالخبرة النبوية من النزوع التكديسي المعلوماتي أو المعرفي الذي يحكم هذه العلاقة في معظم أبعادها ومستوياتها – مع الأسف– ويرتقي بها إلى مستوى العلاقة التحليلية التركيبية البنائية الوظيفية المطلوبة ؛ أي إلى الأصالة والفعّالية وإمكان الاطراد.

فالتركيز على **المنهج** في دراسات السيرة النبوية، وتعميق الوعي به، هو الذي يحرّر السيرة

([1]) برغوث، عبد العزيز، **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، (كتاب الأمة:43، الدوحة، قطر، 1415 هـ- 1995 م) ص85.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من القراءات والعلاقات الآلية الجامدة، والانتقائية المميّعة، ويرتقي بها إلى مستوى القراءة والعلاقة الموضوعية [1]، التي تمنح عملية التأسي والاستثمار أصالتها وفعّاليتها النموذجية القصوى؛ لأنه – أي المنهج– اكتشاف مستمر للأنظمة والقوانين والأنساق المعرفية والإجرائية المنتظمة في الظواهر، وليس جمعا وتكديسا للمعلومات والمعارف المتناثرة فحسب.

فالمنهج بما هو بحث عن الأنساق والأنظمة والقوانين المفعّلة للمفردات المعرفية أو المعلوماتية والتسخيرية عامة، وكيفية عملها وتأثيرها التبادلي هو شرط تحقيق التأسي الموضوعي بالرسول عليه الصلاة والسلام، والاستثمار الأمثل لخبرته في تجديد الأمة، ومنحها الحيوية الحضارية المنسجمة مع رسالتها والتحديات التي تواجهها.

الجمع بين القراءتين الوصفية والتفسيرية: في التعاطي المعرفي مع الخبرة النبوية، لضرورة هذا الجمع في تحقيق **القراءة السننية** المطلوبة، التي تمنح أجيال الأمة **الوعي المنهجي،** الذي يحرّر علاقتها التسخيرية بالسيرة النبوية، من كل أشكال الإرتهان اللا موضوعية، المؤثرة سلبا على أصالة وفعّالية واطّراد الاستثمار للخبرة النبوية.

إن الدفع بالقراءة من **مرحلة الوصف** وتقرير الواقع كما هو بصفة موضوعية دقيقة، إلى **مرحلة التفسير** واكتشاف أنظمة التفاعل بين عناصر ومكونات " **الدورة الإنجازية** " للفعل النبوي ؛ المعرفي والدعوي والتربوي والاجتماعي والجهادي... أمر في غاية الأهمية، يجب أن تنشده وتنشدّ إليه العلاقة المعرفية للأمة بالخبرة النبوية ؛ لما لذلك من أثر بالغ الحيوية في تأصيل وتفعيل هذه العلاقة ؛ في مستوياتها النظرية والعملية أو الإنجازية على حدٍ سواء.

فالتفسير بما هو اكتشاف لطبيعة ونسقية التفاعل التبادلي المنتظمة بين عناصر ومكونات "**الدورة الإنجازية**" للفعل النبوي هو مصب المرحلتين الوصفية والتحليلية من بعده المعرفي، ومرتكز المراحل التالية من بعده التسخيري أو الإنجازي، الذي يتوقف نجاحه على موضوعية التفسير إلى حدٍّ بعيد، لأنه هو الذي يحكم عمليات التوقع والتخطيط والتنفيذ ..أي الاستثمار بعد ذلك .وهو ما يجعل العناية به في القراءات المعرفية للخبرة النبوية ،أمراً بالغ الأهمية يجب أن يمنح حقه من العناية اللازمة .

تجاوز القراءة التجزيئية التنافرية إلى القراءة التركيبية التكاملية :أو الانتقال من العلاقة الاستقرائية التفكيكية المتنافرة بالخبرة النبوية، إلى العلاقة الاستنباطية التركيبية البنائية الكلية التكاملية الموضوعية .. التي تتوق إلى تحقيق التفسير و التعميم .

ولاشكّ أن تجاوز النظرية التجزيئية للخبرة النبوية، إلى النظرية الكلية التكاملية، شرط ضروري لا غنى عنه لاكتشاف **المنهج** والوصول إلى التفسير و التعميم ؛ ومن ثم امتلاك **القدرة على التأسي** والاستثمار الأصيل الفعّال لهذه الخبرة، في دعم وتحصين جهود التجديد الحضاري للأمة .فالتركيبية والتكاملية يجب أن تكون مصب لكل القراءات الجزئية التخصصية، إذا ما أريد لها أن يكون لها معنى، وأن تأخذ موقعها الأصيل الفعال في تحقيق التفسير والاستثمار الموضوعيين للخبرة النبوية .

تجاوز القراءة الحرفية إلى القراءة المقاصدية: أو الانتقال من العلاقة المعرفية والسلوكية الآلية الصورية الوصفية التجزيئية المتنافرة... بالخبرة النبوية، إلى العلاقة التحليلية التفسيرية التنبوئية

---

[1] عالجنا هذه المسألة في كتابنا: "**المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في الفترة المكيّة** "،ط 2؛ وكتابنا: " **الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية** "(مذكرة جامعية).

المقاصدية، المنضبطة بفقه المنطلقات، وفقه الأهداف، وفقه المراحل، وفقه الإمكانات، وفقه الموازنات والأولويات، وفقه التحديات، وفقه المآلات ... وما إلى ذلك من أنواع ومستويات الفقه العقدي والتسخيري والاستخلافي، التي يحتاجها التحليل والتفسير الموضوعي "**للدورة الإنجازية** " للفعل النبوي، ومن ثم إدراك شروط ومستلزمات أصالة وفعّالية التأسي والاستثمار للخبرة النبوية .

فالقراءة المقاصدية المنضبطة، ضرورة لموضوعية الفهم، وموضوعية التأسي، ولفعّالية الاستثمار، لما تحققه من واقعية متوازنة في النظرة إلى كل أبعاد ومكونات "**الدورة الإنجازية الكلية** " للفعل النبوي.

الجمع بين القراءتين السياسية والثقافية : أي تجاوز عتبة الممكن الآني[1] الذي كثيراً ما تتمحور حوله القراءة السياسية الوضعية، إلى القراءة الثقافية المعرفية الشاملة، التي تحاول التّعمق في تحليل الفعل النبوي وتفسير أبعاد أصالته وفعاليته، باكتشاف السنن التسخيرية والاستخلافية الفاعلة فيه، والأنساق المنهجية المنتظمة فيه، التي تمّت بواسطتها عمليات إعداد وبناء " **دورته الإنجازية الكلية** "، حتى جاءت مستوفية لشروط الأصالة والفعالية، إلى حدٍّ بعيد من التناقضات الهيكلية، المضرة بالمصالح الآنية والمستقبلية للدعوة والدولة والمجتمع .

فالقراءة الثقافية، بما هي محاولة تجاوز منهجي للآني، والاستثنائي، و المفضول..من المواقف والتصرفات ،إلى المستقبلي، والسوي، والأفضل... ووضع للأمور في سياقها السنني المطلوب، يجب أن تكون باستمرار **مصبّ** العلاقة المعرفية بالخبرة النبوية، التي ارتقت في عمومها إلى مستوى **التعميم، أو القابلية الاستثمارية المطّردة؛** بسبب ما توفر فيها ولها من **عمق سنني،** نقلها من الخيْرة البشرية العادية، إلى مستوى الخيْرة المرجعية النموذجية للمعايرة والتقويم والتأسّي.[2]

فالارتقاء بالقراءة السياسية للخبرة النبوية إلى مستوى **القراءة الثقافية**، شرط ضروري لتحقيق أصالة الفهم أو العلاقة المعرفية، وفعالية الاستثمار أو العلاقة التسخيرية والاستخلافية، وأيّ قصورٍ أو تقصير في هذه القراءة الثقافية، سيكون حتماً على حساب أصالة وفعالية التأسّي الموضوعي، ومن ثم على حساب مردودية الأداء الحضاري للأمة، في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، الذي تتحرك ضمن سننه وشروطه.. عملية التجديد الحضاري للأمة.

الجمع بين القراءتين الشهودية والتأييدية: أي تجاوز العلاقة الاستقلالية التنافرية المتلاغية بين القراءتين الوضعية والغيبية للخبرة النبوية، إلى العلاقة التكاملية الالتحامية بين القراءتين الشهودية[3] والتأييدية ؛ باعتبارهما الشرط القاعدي الأساس لفهم الخبرة النبوية، وامتلاك القدرة الاستثمارية لها في تأصيل وتفعيل حركة الدعوة والبناء والمواجهة.

فالرسول عليه الصلاة والسلام كما رأينا، كان يتحرك ضمن سنن عالم الشهادة؛ الآفاقية والأنفسية، المسدّدة بسنن الهداية والتأييد، الأمر الذي يجعل أية قراءة تنافرية بين البعدين الشهودي والتأييدي أو الغيبي، لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تفسّر بموضوعية، مكونات وأبعاد الأصالة والفعالية والإطراد في الخبرة النبوية، ناهيك عن امتلاك شروط ومقومات الاستثمار الموضوعي لهذه الخبرة. وهو ما يجعل الجمع بين القراءتين الشهودية والتأييدية مدخلاً حتميّاً لأصالة الفهم وفعالية الاستثمار.

---

(1) عبد الوهاب الكيالي، **الموسوعة السياسية**، (المؤسسة العربية للدارسات والنشر، بيروت، ط2،1993)، 363/3.

(2) ابن الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، ص311؛ ابن القيم، **الطرق الحكمية**، ص12 .

(3) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص465.

الجمع بين القراءتين المعرفية والوظيفية : وتجاوز القراءة المعرفية أو النظريـــة المجــرّدة، التي تجعل المعرفة نهاية مبتغاها، إلى القراءة الوظيفية التي تجعل تغيير الواقع المعيش، والارتقاء بــه إلى مستويات نموذجية من الأصالة والفعالية والقابلية للاطراد... **مـصبّ** الـوعي المعرفــي و**بــؤرة** اهتمامه وشرط موضوعية وتوازن فعالية هذه المعرفة، اتساقاً مع المنطق العملي للإسلام مــن جهــة، وانسجاماً مع منطق الفعالية الذي تفرضه سنن الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على الحيــاة البشرية من جهة أخرى .

فالخبرة النبوية تُدرس وتُستوعب لتحقيق التأسّي الموضوعي به عليه الصلاة والــسلام؛ فــي الدعوة والبناء والمواجهة، وليس لمجرد المعرفة العارية عن العمل، التي عدّها الإســلام مــن أكبــر الأخطار والانحرافات التي تهدّد مصير المجتمعات[1] في معترك الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وتلحق بها أبلغ الخسارات في العاجل والآجــل[2] .لأن الفعاليــة التــسخيرية هــي أســاس الفعاليــة الاستخلافية، التي تقرر وتحدّد موقع المجتمع والأمة على خريطة التدافع والتداول الحضاري باستمرار ،وليس المعرفة الترفية المعزولة عن مقتضيات التدافع والتداول الحضاري، التي كثيراً ما غرقت فــي المثالية والجزئية والذاتية، واتسمت بالتنافرية ،لبعدها عن الواقع كمؤطّر ومطوّر أساس للمعرفة .

هذه بصفة عامة، مجمل النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة في هذا الموضوع الحيويّ في فلسفة التغيير والبناء الحضاري، كما حدّد الإسلام معالمها؛ في المنطلقات، والمسارات، والمناهج، والعطاءات. وهو ما فصلنا القول فيه في الباب الأول. وجسّدت الحركة النبوية ذلك في واقع الحياة بصورة فذّة، ارتقت إلى مستوى **الخبرة المرجعية النموذجية للمعايرة والتقويم والتأسّي**.. على الصعيد الإنساني كله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. كما قال تعالى: **[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا]**{المائدة:3}، وقال سبحانه: **[**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ **الخَاسِرِينَ] {آل عمران:85}**، وكما قال عليه الصلاة والسلام "تركت فيكم أمرين لن تطلبوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه "[3] .

وهو ما فصلنا القول فيه في البابين الثاني والثالث.

([1]) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 179/20.

([2]) ابن العربي، **أحكام القرآن**، 240/4.

(3) أخرجه مالك في **الموطأ**، باب النهي عن القول في القدر، 70/2 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــة

بقي بعد كل هذا، أن نؤكد خلاصة أساسية في مجال القراءة المعرفية للخبرة النبوية، والعلاقة الاستثمارية بها، فيما توصلنا إليه من نتائج في هذه الدراسة، على مستوى المنهج خاصة، وبعض قواعده التسخيرية أو الإنجازية عامة، التي رأينا العديد منها في الجانب التطبيقي من الدراسة.

فالقواعد الكثيرة التي استخلصناها من الحركة النبوية، هي قواعد تسخيرية عامة، ذات قابلية للتّعميم والاستثمار المطرد، في أي جهد تجديدي للأمة ؛ لأنها قواعد تندرج في السياق العام لسنن التسخير والاستخلاف، المهيمنة على الحياة الإنسانية.

ولكن هذه القواعد بالنسبة لنا، تعتبر مادة خام لا يمكن استثمارها والانتفاع بها، إلا **بالمنهج** الذي يحدّد كيفية الاستثمار وشروطه، ويعيد تركيب هذه المادة الخاميّة تركيباً استثمارياً جديداً، يخلصها من ملابسات جاذبية الزمان والمكان التاريخيين، ويصلها مباشرة بملابسات جاذبية الزمان والمكان المعاصرين، على ضوء ثوابت الشرع ومقاصده، وثوابت سنن الآفاق والأنفس والتأييد، واحتياجات الموقف المستهدف بالتغيير والتكييف، والظروف المحيطة به، والمآلات المتوقعة له، والإمكانات الإنجازية المتاحة فيه...

فالدورة الإنجازية الكلية للفعل أو الموقف المطلوب آنياً، هي التي تتحكم في نوعية الاستثمار وطبيعته، وحجمه، ومداه، وكيفيته .. في ضوء سلطان منطق سنن الله في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، النافذ في الحياة البشرية باطراد. فيستثمر من هذه القواعد ما يحتاجه تحقيق أصالة وفعالية وتكاملية الإنجاز في كل فعل أو موقف، تتطلبه عملية التوازن والتكيّف الآني والمرحلي والاستراتيجي، للفرد والدعوة والمجتمع والدولة والأمة.

"ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة، ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة. ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص".

فالمنهج يقتضي أن يستثمر من الخبرة النبوية بحسب ما يحتاج إليه الموقف الفكري أو الدعوي أو الاجتماعي أو السياسي الراهن؛ في أبعاده الآنية والمرحلية والاستراتيجية، الفردية والجماعية.. كما يؤكد ذلك الشاطبي في إحدى أهم وأدق خلاصات موافقاته في الشريعة بقوله:

" وضابطه – أي منهج الاستثمار – أن تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله. فإن لم يؤدي ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها إما على العموم أن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة للعموم، وإن لم يكن بمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري وفق المصلحة الشرعية والعقلية " (الموافقات، 3/137-138).

هذا هو المنهج على المستوى الاستثماري للخبرة النبوية خاصة، وأية خبرة إنسانية بصفة عامة، لكل من يحرص على تحقيق الأصالة والفعالية والتكاملية والاطراد في عمله الالتزامي أو

الدعوي أو التغييري بصفة عامة.

ونحن إذ نصل الآن إلى نهاية المطاف بعد أشد وأمتع رحلة في حياتنا، فإننا نضرع إلى الله تعالى أن يجعل عملنا هذا مساهمة مباركة صائبة في بناء وعي الأمة وتسديد حركة تجديدها الحضاري، وأن يتجاوز عما قد يكون بدر منا من قصور أو تجاوز في الفهم والتوجيه، نتوب ونبرأ إليه منه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس العامة

أولا: فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
الفاتحة		
(الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . عليهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ).	1-7	122
البقرة		
[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً]	29	152
[وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا]	30	30-134
[قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ]	32	132
[قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]	38	85
[أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ]	84	338
[وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ...وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ]	96	186
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ...عَذَابٌ أَلِيمٌ]	104	456-378
[أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]	108-109	125
[كُنْ فَيَكُونُ]	117	131
[وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...عَهْدِي الظَّالِمِينَ]	123	408-215
[رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ]	128-133	132-86
[تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ... عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ]	134	88
[قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ... وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ]	136-138	87
[وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...شَهِيدًا]	143	1-348-455-385
[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ... وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ]	154-155	12-407
[وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ...]	159	121
[وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ...وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ]	185	182
[وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ...إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ]	195	549
[فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا... وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ]	200-	147

	201	
[أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ... إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ]	214	214
[يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ...وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ].	217	395
[كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ]	249	-233 409-408
[وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ...العَالَمِينَ]	251	38
[لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... فَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ]	286	100
آل عمران		
[الم. اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ].	6-1	454
[إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ]	19	455-85
[قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]	26	119
[يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ...وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]	71	432
[وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا]	80	92
[أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ]	83	86
[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ...الخَاسِرِينَ]	84	-346 665-455
[قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ...عَمَّا تَعْمَلُونَ]	99	432
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا...يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ]	100	432
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ]	102	453
[وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا...وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]	-103 105	-348-33 -453-429-399 478-461
[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ]	110	-348-34 478
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً...عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ]	119	431
[إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ...فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ]	122	-431 494-461
[وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ...وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ]	-133 135	499
[قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ... عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ]	-137 144	-114 459-238-209

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

495	139	[وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ]
504	140-142	[إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ]
511	143	[وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ... وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ]
526-489	144	[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ]
526-490	146-167	[وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ...عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ]
152	152	[مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ]
508	152	[ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ...ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ]
-429 505-494	152-153	[وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ...وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ]
508	155	[إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ...إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ]
-271 530-508-453	159	[فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ]
-257-6 496-312	165	[قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ]
496	166	[أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ...وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ]
505-123	179	[مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ...مِنَ الطَّيِّبِ]
150	185	[أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ]
498	186	[لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ]
120	190-194	[إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ]
516	197	[لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ...وَبِئْسَ المِهَادُ]
498	200	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا...لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]
		النساء
349	59	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ...وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا]
334	63	[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ...]
554-338	65	[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا]
320	134	[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ...وَالأَقْرَبِينَ]
130	172	[فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المائدة		
[اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا]	4	-259-89 -628-346-276 665-651
[مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ...أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا]	32	287
[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ]	48	-25-1 259-86
[وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ... لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ]	-49 50	314-36
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ...القَوْمَ الظَّالِمِينَ]	51	445-338
[وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ... وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ]	72	81
[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ...وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]	165	152
الأعراف		
[وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ]	10	150
[يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ....لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]	-31 32	148
[إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ... تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ]	54	118
[لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ]	59	80
[وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا... أَفَلَا تَتَّقُونَ]	65	80
[وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ...إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]	85	87-81
[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى .... بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]	96	158-143
[إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ]	128	4
[وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ...الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا]	136	238
[الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ...أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ]	157	87
[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ... إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ]	172	73
[وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ... بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ]	173	81
[قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ... بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا]	180	163
[أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ]	185	252
الأنفال		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ...إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]	1	381
[كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ ... وَهُمْ يَنْظُرُونَ]	5	441-379
[وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ...دَابِرَ الكَافِرِينَ]	7	150
[فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ...سَمِيعٌ عَلِيمٌ]	17	441
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ]	24	442-260
[وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ...شَدِيدُ العِقَابِ]	25	-227 499-409
[فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]	26	264
[إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا]	29	312
[وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ... فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ]	-34 35	150
[قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ]	38	-416 447-442
[وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ]	46	-330 442-429-399
[كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ]	53	-409-46 496
[ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا...سَمِيعٌ عَلِيمٌ]	54	408
[فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحَرْبِ...إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ]	58	448
[وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ]	60	-234 396-245
[لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ...إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]	63	399
[مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى...عَزِيزٌ حَكِيمٌ]	67	448-441
[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ...وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]	70	446-416
[وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ...وَرِزْقٌ كَرِيمٌ]	74	479
التوبة		
[وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ...بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ]	6	630
[وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ...ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ]	101	637
[وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ]	108	621
[فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ...لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ]	122	623-3
هود		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ...فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]	6	202
[مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]	-15 16	146
[وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ...مِنَ الجَاهِلِينَ]	-64 64	215
[... ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ... عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ]	-103 108	321-196
يونس		
[وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القُرُونَ...كَيْفَ تَعْمَلُونَ]	-13 14	238
[وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]	25	31
[قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ ... فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ]	35	99
[وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ... فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]	61	182
[قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ]	101	252
يوسف		
[وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ]	106	-126-71 244-172
[قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ...وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ]	108	40
الرعد		
[وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ... المَثُلَاتُ...]	7	254
[إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ]	11	-111 -233-232-220 -638-515-496 647
[وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ... وَالآصَالِ]	15	76
ابراهيم		
[وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ... عَذَابِي لَشَدِيدٌ]	9	-219 323-269
[اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... لَظَلُومٌ كَفَّارٌ]	-32 34	-134-55 201-166-150
الحجر		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ...إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ]	19-22	202
[وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ]	99	164
النحل		
[وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]	12	251
[أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ... وَهُمْ يُخْلَقُونَ]	17-20	214-119
[لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً... أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ]:	25	187
[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ...كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ]	36	-80-77 -202-121-94 333
[وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ]	53-54	76
[إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ...لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]	90	347
[وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ...أَنْكَاثًا]	92	383-42
[ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ...وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ]	125	31
الإسراء		
[وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ]	7	43
[اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا]	14	184
[كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا]	20	-253-244 255
[وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ...مَسْئُولًا]	36	-101 296-208-128
[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ ...مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا]	70	136
[قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ ... وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]	88	98
[قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ ... مَلَكًا رَسُولًا]	95	169
الكهف		
[إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ...صَعِيدًا جُرُزًا]	8-7	301-227
[وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ...وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا]	49	194-184

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مريم		
[وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا]	31	184
[إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا]	93	128-76
طه		
[اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]	8	123
[قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى]	49	207-201
[مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى]	55	112
[وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا]	112	160
[وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا]	114	88
[قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ... وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى]	-123 124	-154-80 -260-219-168 356-333
الأنبياء		
[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ]	25	121-81
[وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ...وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ]	47	194
[لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ...كُنْتُمْ تُوعَدُونَ]	103	192
الحج		
[فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ... فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ]	-30 31	-102-72 -28-229
[وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ...إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ]	38	233
[وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ...وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا]	40	38
[تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ... حَلِيمًا غَفُورًا]	44	128
[لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ...إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ]	67	31
[وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ...هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ]	78	100
المؤمنون		
[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ]	12	135
[ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ]	14	132
[وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ...فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ]	71	94-93
[حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ...خَالِدُونَ]	-99	189-187

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	103	
النور		
[إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ...بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ]	11	506
[وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ...وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]	22	512
[وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ...بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ]	47- 50	524
[وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ]	55	173- 245-291-306- 515
[إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ...إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]	60	556
[لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ...أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]	63	527
[فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]	68	661
الفرقان		
[الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا]	2	117-254
[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ... شُكُورًا]	62	59
النمل		
[قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ...غَنِيٌّ كَرِيمٌ]	41	241
القصص		
[إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ... مِنَ المُفْسِدِينَ]	4	332
[وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ... إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ]	77	32-147- 177-311
[قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي]	78	241
[تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ...وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ]	83	236- 242-314
العنكبوت		
[وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ]	16	81
[قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ...كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]	20	114
[وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ]	64	177
[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ]	69	4-62- 269

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الروم		
[يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ]	7	204
[اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]	11	112
[بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ...لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ]	-29 30	211-88
[فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا]	30	97
[فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ...لِخَلْقِ اللهِ...]	29	88
[ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ]	41	158
[قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا ... كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ]	42	160
لقمان		
[أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ]	20	166-56
الأحزاب		
[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ...وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا]	3-1	559
[وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ...فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا]	6	564
[إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ...زِلْزَالًا شَدِيدًا]	11	-483 517-490
[وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ...إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا]	22	535
[لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ...وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا]	23	536-534
[إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا]	-33 34	557
[يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ]	33	557
[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا]	36	545
[وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ...وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ]	37	555
[سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا]	38	555
[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ... عَلِيمًا]	40	90
[لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ ...لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا]	-60 62	585
[سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا]	62	-212-46 214
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ...فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا]	-70 71	562
[إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ .... ظَلُومًا جَهُولًا]	72	137-91

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سبأ		
[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ... إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]	3	96
فاطر		
[وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ]	24	-204-80 331-260
[إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ]	28	204
[فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ...تَحْوِيلًا]	43	-167 -214-212-206 355
يس		
[مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ... وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ]	-49 50	190
[فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]	54	154-55
[الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ... بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]	65	184
[أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ .... أَفَلَا يَشْكُرُونَ]	-71 73	54
الزمر		
[أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ..مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ]	3	75-74
[فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ ... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ]	25	219
[ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا ...لَا يَعْلَمُونَ]	29	64
[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ...فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ]	65	192-191
غافر		
[أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ]	21	267-120
[وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ]	60	264
فصلت		
[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ... كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ]	53	-115 252-203
الشورى		
[فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ]	11	126
[شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ...وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ]	13	86-1
[وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ... وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ]	30	219
الزخرف		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا ... تَهْتَدُونَ]	10	54
[نَحْنُ قسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ...خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ]	30-31	321
[فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ]	53	333
[وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]	72	62
الجاثية		
[وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ...لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]	13	56-201-251
[أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ...سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ]	20	180
[وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً .... تَعْمَلُونَ]	28	55
[وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. .. وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى]	39-42	154
الأحقاف		
[يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ...مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ]	31	31
محمد		
[أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا...وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا]	10	209-254
[وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ... مَثْوًى لَهُمْ]	13	470
[فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ...وَمَثْوَاكُمْ]	19	125
[فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ...لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ]	35-38	547
الفتح		
[إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ...أَجْرًا عَظِيمًا]	10	566-
[سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا]	23	212-355
[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...وَأَجْرًا عَظِيمًا]	29	587
الحجرات		
[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ... إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]	13	158-316-321-346-581
[يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ]	17	629
ق		
[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ ... رَقِيبٌ عَتِيدٌ]	16-18	184

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذاريات		
[وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ]	56	-128-76 162
النجم		
[وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى]	30	179
القمر		
[إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ]	49	254-205
الحديد		
[وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا...وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ]	10	608
[اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ...إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ]	20	146
[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا...قَوِيٌّ عَزِيزٌ]	24	217
[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ...وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ]	25	331
[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ... وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ]	26	160
الحشر		
[سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ َ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ]	2-1	516
[وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ]	10	528
[هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ ...وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ]	24	123
الممتحنة		
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي...وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ]	1	-607 -613
[إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً...وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ]	2	613
[رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ...أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ]	5	609
[لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ... إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ]	8	347
الصف		
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ...مَا لَا تَفْعَلُونَ]	3-2	524-310
الجمعة		
[مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ...لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ]	5	525
المنافقون		
[يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ]	8	502
الطلاق		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا... لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا]	2	-205 312-272-264
الملك		
[الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ ... وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ]	2	-120-62 225-150-133
[الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ...وَهُوَ حَسِيرٌ]	4-3	-205 311-217
القلم		
[أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ]	-35 36	179
المعارج		
[وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا...جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ]	-10 14	194
نوح		
[فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ...وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا]	-10 12	282
[قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...كُبَّارًا]	-21 22	282
الجن		
[وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ... عَذَابًا صَعَدًا]	-16 17	181
الانسان		
[إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ... وَإِمَّا كَفُورًا]	3-2	225
النازعات		
[يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ...أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ]	9-6	192
[فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى]	-37 39	146
الإنفطار		
[يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ]	8-6	131
[فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ]	8	
[إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ]	-13 14	195

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطففين		
[وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ]	26	314
الانشقاق		
[يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ]	6	228–197
الأعلى		
[الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى]	3–2	201
الشمس		
[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. .. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا]	10–7	139
البلد		
[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ]	4	228–197
[وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ]	10	140
العلق		
[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ... مَا لَمْ يَعْلَمْ]	5–1	125–117
البينة		
[وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ...وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ]	5	163
الانشراح		
[فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ]	8–7	61–42
التين		
[لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ]	4	-131 142–140
العاديات		
[إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ...وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ]	8–6	141
الزلزلة		
[إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا.... وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [	8–1	-109 -184–147–130 310
العصر		
[وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ...وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]	3–1	303–281
النصر		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا]	3	127- 606-604
الناس		
[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ]	1-3	121

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: فهرس الأحاديث

الحديث	المخرج	الصفحة
(... فلا يبقى خلق في السماوات...ما شاء الله أن يكون)	البخاري	191
(اتق الله حيثما كنت... فأضف إليها حسنة تمحها)	المنذري	156
(أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل)	مسلم	383-164
(إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم)	أبـــــو داوود	340
(إذا مات الإنسان انقطع عنه...ولد صالح يدعو له)	مسلم	189
(أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا...أن يرجع إلى بطن أمه)	ح العراقي	189
(اغتنم خمسا قبل خمس...وحياتك قبل موتك)	الحاكم	57
(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا... فيمن لا يألف و لا يؤلف)	الـــــدار قطني	157
(الاحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)	البخاري	127-155-156-182- 278-311
(الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)	البخاري	193
(الحمد لله الذي هداكم للإسلام... فهو في النار)	ابن سيد الناس	629
(الدعاء هو العبادة)	الحاكم	270
(الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقّ بها)	ابن القيم	87
(اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار)	البخاري	146
(إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده...يبعثك الله يوم القيامة)	البخاري	189
(إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه...ما كانوا يكسبون ")	الترمذي	220
(إن العبد إذا أذنب ذنبا، نكتت في قلبه... ذكره الله سبحانه في القرآن)	السيوطي	267
(إن الله جميل يحب الجمال...و يبــغض البــؤس و التباؤس)	الألباني	149
(إن اللّه خلق آدم على صورته)	البخاري	137
(إن الله زوى لي الأرض... لا نبي بعدي)	الألباني	90
(إن الله يبعث على رأس كل مائة سنّة من يجدد لهذه الأمة دينها)	أبـــــو داوود	246

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها)	الهيثمي	164
(إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة)	مسلم	123
(إن يعش هذا، لم يدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم)	مسلم	186
(أنا محمّد وأنا أحمد...ليس بعده نبيّ)	مسلم	90
(أنتم أعلم بأمر دنياكم)	مسلم	87
(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)	البخاري	234
(إنه ليغان على قلبي . وإني لأستغفر الله ، في اليوم ، مائة مرة)	مسلم	268
(إنها لسنن، لتركبن من كان قبلكم)	البيهقي	599
(إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم...ما لم أنزل به سلطانا)	مسلم	73
(تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق... بيده إلى فيه)	مسلم	193
(تعرض الفتن على القلوب كالحصير...إلا ما أشرب من مراه)	مسلم	267-220
(خط النبيﷺ خطا مربعا ، وخط خطا...وإن أخطأه هذا نهشه هذا)، (بينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب)	البخاري	226
(رفع القلم عن ثلاثة...وعن الصّبي حتّى يحتلم)	أبـــــو داوود	100
(سبعة يظلهم الله يوم القيامة...لا تعلم شماله ما صنعت يمينه)	البخاري	191
(عجل هذا. ثم دعاه فقال له أو لغيره... ثم يدعو بعد بما شاء)	أبـــــو داوود	124
(على صورة الرحمن)	الألباني	137
(فلعمري لئن قلتم في إمارته...وإن كان أبوه لخليقا لها)	ابـــــن هشام	617
(قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى...قال إنكم قوم تجهلون)	ابـــــن هشام	599
(كلكم راع ومسئول عن رعيته...وكلكم مسئول عن رعيته)	البخاري	153
(لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين، في حب الدنيا، وطول الأمل)	البخاري	186-153
(لا يزيد في العمر إلا البر. ..بخطيئة يعملها)	ابـــــن ماجه	267
(لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد...ما يخاف إلا الله)	البخاري	342
(ما أصاب أحد قط هم ولا حزن...ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)	المنذري	124

(ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم... أو لأعالجنهم العقوبة)	الهيثمي	623
(ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)	البخاري	240-188-166
(تركتكم على المحجة البيضاء...)	ابن ماجه	651
(ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم...قال الله أكثر)	الهيثمي	271
(ما من مولود إلا يولد على الفطرة... من جدعاء)	مسلم	212-141
(مثل المؤمنين في توادهم... بالسهر والحمى)	مسلم	589-157
(مَثَلي ومَثَل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا... جئت ختمت الأنبياء)	مسلم	259-89
(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)	مسلم	348-339
(من سحب ثيابه لم ينظر الله إليه...ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس)	الهيثمي	149
(من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب... ولئن استعاذني لأعيذنه)	البخاري	300-265
(من كانت الدنيا همه...وأتته الدنيا وهي راغمة)	ابن ماجه	175-104
(نحن نسير إليهم)	البخاري	358
(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ)	البخاري	144
(يا أيّها الناس ! اتّقوا هذا الشّرك...و نستغفرك لما لا نعلمه)	المنذري	71
(يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل)	الهيثمي	71
(يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم... فلا يلومن إلا نفسه)	مسلم	147-109
(يا نبيّ الله كم الأنبياء...جمّا غفيرًا)	السيوطي	81
(يأتيه رجل حسن الوجه...رب لا تقم الساعة)	المنذري	190-189
(يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً...الأمر أشد من أن ينظر بعضهم لبعض)	مسلم	197
(يدني المؤمن يوم القيامة من ربه...هؤلاء الذي كذبوا على الله)	مسلم	194
(« أتبغض عليا ؟ » فقال: نعم فقالﷺ: «لا تبغضه»)	البخاري	617
(... ثم يبعث الله ملَكا فيؤمر بأربع كلما...ثم يُنفخ فيه الروح...)	البخاري	201
(... كنت سمعه الذي يسمع به...ولئن استعاذني لأعيذنه...)	البخاري	156
(إبشروا بفتح الله ونصره)	البيهقي	517

(اذهب يا حذيفة فادخل في القوم...ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا)	ابن هشام	523
(أفشوا السلام، وأطعموا الطعام...تدخلوا الجنة بسلام)	الحاكم	404
(أفلا أكون عبدا شكورا)	البخاري	605
(ألا وإن في الجسد مضغة...ألا وهي القلب)	مسلم	387-300
(السلام على همدان والسلام على همدان)	البيهقي	630
(اللهم ! اهد ثقيفاً وإت بهم)	ابن سيد الناس	630
(اللّهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة)	البخاري	518
(اللهم منزل الكتاب...اللهم أهزمهم وزلزلهم)	البخاري	504
(أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة)		458
(إن الشمس والقمر لا ينكسفان...فقوموا فصلوا)	البخاري	252
(إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين)	ابن كثير	513
(إن أموالنا قد ضاعت...فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها)	الترمذي	549
(إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا...فلا تبرحوا مكانكم هذا)	أبو داوود	461
(إنما بعثت لأتم حسن الأخلاق)	مالك	586-303-157
(إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)	ابن هشام	451
(أي ابن أخي: أولئك الملأ)	البيهقي	408
(ائذن لي أن أقول شيئا) (قل)	البخاري	450
(خلوا سبيلها فإنها مأمورة)	ابن هشام	391
(رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة)		570
(سبحان الله! كما قال قوم موسى... لتركبن سنة من قبلكم)	ابن كثير	621
(سلمان منّا أهل البيت)	ابن سيد الناس	518
(فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)	ابن هشام	511
(كانا متصافيين في الدنيا)	البخاري	452
(كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته...بقتله لقتلته)		511
(لا تزول قدما ابن آدم وماذا عمل فيما علم)	الترمذي	151

(لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم)	الترمذي	400
(لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)	البخاري	607
(لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمدا مرتين)		513
(لا يرى القوم فيكم غميزة)		574-570
(لايصلّيّن أحد العصر إلا في بني قريظة)	البخاري	566
(لن تصبروا إلا يسير... ليست فيه حديدة)	البيهقي	547
(لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم)	ابـــــن هشام	-533-517-481-358 565-542
(لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء الشنى لتركتهم له)	البخاري	447
(ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل)	الحاكم	464
(من سن في الإسلام سنة حسنة... ولا ينقص من أوزارهم شيء)	مسلم	187
(اللهم امض لأصحابي هجرتهم...خاسرين)		376
(والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)	البخاري	611
(أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم... أن يقذف في قلوبكما شيئاً)	البخاري	616
(والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة...إلا أعطيتم أياها)	البخاري	569
(والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم...ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عزّ وجلّ)		517
(والله لا تذرون منه درهماً)	البخاري	411
(يا أيها الناس ! لا تشكوا علياً... في سبيل الله من أن يشكى »	ابن هشام	617
(يجزئ عنك الثلث)	البيهقي	509
(كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)	الترمذي	268

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن

1. الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود(1272هـ) . **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**،ط2، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ بدون تاريخ.
2. ابن باديس، عبد الحميد(ت:1940 .(**تفسير ابن باديس**، إعداد توفيق محمد شاهين ومحمد صالح رمضان، ط3، دار الفكر ــ بيروت ــ 1399هـ ــ 1979م.
3. ــــــــ، وكذلك طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 2002 .
4. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير**، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، (د.م.ت) .
5. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج، **زاد المسير في علم التفسير**،حققه محمد بن عبد الرحمن عبد الله، وبسيوني زغلول، دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان،1407هـ ــ 1987م.
6. ابن عاشور، محمد الطاهر(ت: 1973.(**تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر تونس، 1984م.
7. ابن عبد السلام، عبد العزيز، **تفسير العز بن عبد السلام**، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت 1996 .
8. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت: 543هـ) ، **أحكام القرآن**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان 1996 .
9. ابن عطية، أبي محمد عبد الحق(ت: 541هـ . **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق الرحالي الفاروق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، محمد الشافعي صادق العناني، مؤسسة دار العلوم ــ الدوحة ــ قطر، 1398هـ ــ 1977م.
10. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد(ت: 751هـ. **التفسير القيم**، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1389هـ ــ 1978م.
11. ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، دار الأندلس ــ بيروت ــ لبنان،1385هـ ــ 1966م.
12. ــــــــ، **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، بيروت 1401 هـ .
13. ــــــــ، تحقيق مصطفى السيد وأخرون، مؤسسة قرطبة، الجيزة _ مصر ، سنة 2000 .
14. أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطي(ت:754هـ). **البحر المحيط في التفسير**، طبعة زهير جعيد، دار الفكر ــ بيروت ــ 1412هـ ــ 1992م.
15. أبو حيان، الأندلسي، **النهر البارد من البحر المحيط**، تحقيق عمر الأسعد، دار الجيل ــ بيروت لبنان، 1416هـ ــ 1995م.
16. أبو زهرة، محمد، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي، القاهرة (د . ت) .
17. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي(ت:901.(**تفسير أبي السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ لبنان.
18. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء(ت:516هـ .(**معالم التنزيل**، تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، ط3، دار المعرفة ــ بيروت ــ 1413هـ ــ 1992م.
19. البقاعي، برهان الدين أبي الحسين إبراهيم(ت:885)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ط2، دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة ــ 1413هـ ــ 1992م.
20. البيضاوي، أبي سعيد، **تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ــ بيروت ــ (د ت).
21. ــــــــ، كذلك طبعة دار الفكر، بيروت 1996 بتحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة.
22. الأرمي، محمد الأمين بن عبد الله الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، دار طوق النجاة، بيروت 2001 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

23. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي(ت:370هـ.(**أحكام القرآن**، تحقيق محمد الصالح قمحاوي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان،1405هـ 1985م.
24. حبنكة، عبد الرحمن حسن الميداني .**قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل** ط2، دار القلم دمشق ـ 1989م.
25. حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ط2، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة 1989
26. دراز، محمد عبد الله .**النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، دار القلم ـ الكويت ـ 1970م.
27. دروزة، محمد عزة(ت: 1984م .(**التفسير الحديث**، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ 1381هـ 1962م.
28. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين(ت:604هـ.(**التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ 1411هـ 1990م.
29. ـــــــــ، طبعة نفس الدار سنة 2000 م .
30. ـــــــــ، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 1981 .
31. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم السري(ت: 311) . **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ـ بيروت ـ 1408هـ 1988م.
32. الزحيلي، وهبة .**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر ـ بيروت دار الفكر ـ دمشق ـ 1411هـ 1991م.
33. رضا، محمد رشيد ، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، تعليق وتصحيح سمير مصطفى رباب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2002 .
34. ـــــــــ، **الوحي المحمدي**، ط8، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ 1391هـ 1971م.
35. الزمخشري، محمود بن عمر(ت:528هـ.(**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، بخدمة مصطفى حسين أحمد، ط2، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1407هـ 1987م.
36. ـــــــــ، كذلك طبعة عادل أحمد عبد الموجود وآخران، مكتبة العبيكان، الرياض – السعودية 1998 .
37. السمّين الحلبي، أحمد بن يوسف(ت:756هـ .(**الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** تحقيق.د. أحمد محمد الخراط، دار القلم ـ دمشق ـ 1406هـ 1986م.
38. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين(ت: 911هـ .(**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر ـ بيروت ـ 1403هـ 1983م.
39. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد(ت: 1250هـ .(**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير**، بخدمة هشام البخاري، خضر عكاري، المكتبة العصرية ـ بيروت ـ1417هـ 1996م.
40. ـــــــــ، كذلك طبعة دار الفكر ، بيروت .
41. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت: 310هـ.(**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر ـ بيروت ـ 1408هـ 1988م.
42. ـــــــــ، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، سنة 2000 .
43. فضل الله، محمد حسين.**من وحي القرآن**، ط2، دار الزهراء للطباعة والنشر ـ بيروت ـ 1405هـ 1985م.
44. القاسمي، محمد جمال الدين(ت:1332هـ 1914م.(**محاسن التأويل**، ط2 ، عني بنشره محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ـ بيروت ـ 1398هـ 1978م .
45. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن** تحقيق، د/ محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث ـ القاهرة ـ 1414هـ 1994م .
46. ـــــــــ، ط2، تحقيق أحد عبد العليم البردوني، دار الشعب ، القاهرة 1373 هـ .
47. ـــــــــ، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت 2006 . تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي .
48. ـــــــــ، طبعة دار عالم الكتب، الرياض 2003 ، تحقيق هشام سمير البخاري .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

49. قطب، سيد(ت:1965.(**في ظلال القرآن**، دار الشروق ــ بيروت ــ 1394هــ 1974م، ط5، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ 1386هــ 1967م.
50. الكيا الهراسي، عماد الدين بن محمد، **أحكام القــرآن** ، ط2، دار الكتــب العلميــة، بيــروت 1985.
51. المراغي، أحمد مصطفى .**تفسير المراغي**، ط3، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى الباقي الحلبي، 1383هــ 1963م.
52. المودودي، أبو الأعلى، **تفسير سورة النور**، تعريب محمد عاصم الحداد، مؤسسة الرســالة، 1398هــ 1978م.
53. المودوي، أبو الأعلى ، **تفسير سورة الأحزاب**، تعريب أحمد إدريس، دار بوسلامة للطباعــة والنشر، تونس، 1983م.
54. النسفي، عبد الله بن أحمد(ت: 710هــ.(**تفسير النسفي :مدارك التنزيــل وحقــائق التأويــل**، تحقيق الشيخ مروان محمد الشعار، دار النفائس ــ بيروت ــ لبنان، 1416هــ 1996م.
55. ـــــــــــ، كذلك طبعة دار النفائس، بيروت ، لبنان. 2005.

ثانيا: كتب السنة وشروحها

1. ابن أبي جمرة، أبو محمد عبد الله الازدي الأندلسي(ت:699هــ.(**بهجة النفوس وتحليها لمعرفة مالها وما عليها**،)**شرح مختصر صحيح بخاري**)،ط3، دار الجيل ــ بيروت ــ لبنان،1984م.
2. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني(ت:852هــ.(**فتح الباري بشرح صحيح البخــاري**، بخدمــة محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، ط2، دار الريان للتراث ــ القاهرة ــ 1409هــ 1988م.
3. ـــــــــــ، كذلك طبعة المكتبة السلفية، الطبعة الأولى، القاهرة .
4. ـــــــــــ ، **تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، السعودية 1417 هــ .
5. ابن حمزة الحسيني، الشريف إبراهيم بن محمد بن كمال الدين(ت:1120.(**البيان والتعريف فــي أسباب ورود الحديث الشريف**، تحقيق ،د.حسين عبد المجيد هاشم، المكتبة العلمية ــ بيــروت ــ 1402هــــ 1982م.
6. ابن حنبل، أحمد.**المسند**، ط2، المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ 1398هــ 1981م.
7. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم .**المستدرك على الصحيحين**، تحقيق، مصطفى عبد القــادر عطا، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1411هــ1990م.
8. الزبيدي، الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف (ت:629هــ.(**مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح**،ط6 تحقيق.إبراهيم بركة، مراجعة أحمــد راتــب عرمــوش، دار النفائس ــ بيروت ــ 1412هــ1992م.
9. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد(ت:1250هــ .(**تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحــصين مــن كلام سيد المرسلين**، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1970م.
10. مالك، بن أنس(ت:179هــ) .**الموطأ**، تحقيق، د/بشار عواد، محمود محمــد خليــل، مؤســسة الرسالة ــ بيروت ــ 1412هــ 1992م
11. الألباني، محمد ناصر الدين ، **صحييح الترغيب والترهيب**، مكتبة المعارف، الرياض- السعودية 1421 هــ).
12. ـــــــــــ، **سلسلة الأحاديث الصحيحة** (الطبعة التي اعتمدها موقع الدرر السنية).
13. المنذري، زكي الدين عبد العظيم .**مختصر صحيح مسلم**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط5، المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان، 1405هــ 1985م.
14. ـــــــــــ، **صحيح سنن ابن ماجة**، مكتب التربية العربي لدول الخليج 1407 .
15. ـــــــــــ، **صحيح سنن أبي داود**، مكتب التربية العربي لدول الخليج 1409 هــ .
16. النووي، يحي بن شرف .**صحيح مسلم بــشرح النــووي**، مؤســسة مناهــل العرفــان. مكتبــة الغزالي(دت.(

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

17. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر(ت:807هـ).(**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر– بيروت – 1412هـ 1992م.
18. ــــــــــ، كذلك طبعة مؤسسة المعارف 1406 هـ .

ثالثاً: كتب العقيدة

1. ابن تيمية، **منهاج السنة** ، تحقيق محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية .
2. ــــــــــ، **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تحقيق حسن بن علي الألمعي وغيره، دار الفضيلة، الرياض، السعودية 2004 .
3. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر(691–751هـ).(**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تحقيق مصطفى أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي للتوزيع – جدة – السعودية 1412هـ 1995م.
4. ــــــــــ، **الروح**، دار الكتب العلمية – بيروت – 1402هـ 1982م.
5. أبو العز، علي بن علي بن محمد الدمشقي(ت:722هـ.) **شرح العقيدة الطحاوية** ، تحقيق عبد الله بن محمد التركي، وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت – 1408هـ 1987م.
6. محمد أبو زهرة، **العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم**، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة (د.ت).
7. البستاني، سعيد .**الدعاء في الإسلام وأثره في العقيدة والحياة**، دار المعرفة – دمشق – 1414هـ 1994م.
8. الترابي، حسن عبد الله، **الإيمان وأثره في حياة الإنسان**، دار القلم – الكويت – 1974م.
9. حبنكة، عبد الرحمن حسن، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، ط5، دار القلم. – دمشق –1988م .
10. حوى، سعيد، **الأساس في السنة: العقيدة الإسلامية**، ط3، دار السلام، القاهرة 1996 .
11. زكريا، أبو بكر محمد، **الشرك في القديم والحديث**، مكتبة الرشاد، الرياض، السعودية 2001.
12. الأشقر، عمر سليمان، **العقيدة في الله**، ط5، مكتبة الفلاح، الكويت 1984 ..
13. الشنقيطي، محمد الأمين، **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**، طبعة الجامعة الإسلامية، السعودية .
14. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **التحف في مذاهب السلف**، مطبعة الإمام القاهرة (د. ت) .
15. ــــــــــ، **قطر الولي على حديث الولي**، تحقيق إبراهيم إبراهيم هلال، دار إحياء التراث العربي – بيروت – 1397م.
16. طعيمة، صابر، **العقيدة والفطرة في الإسلام**، دار الجيل – بيروت – 1398هـ 1978م.
17. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، السعودية .
18. القرضاوي، يوسف، **الإيمان والحياة**، ط10، مكتبة وهبة، القاهرة 1996 .
19. قطب، سيد، **خصائص التصور الإسلامي**، دار الشروق – بيروت –(د ت).
20. ــــــــــ، **مقومات التصور الإسلامي** ط4، دار الشروق، القاهرة 1993 .
21. قطب، محمد، **ركائز الإيمان**، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيلية، الرياض، السعودية 1997م .
22. حامد صادق قنيبي، **الكون والإنسان في التصور الإسلامي**، مكتبة الفلاح، الكويت 1980.
23. عبد الغني عبود، **اليوم الآخر والحياة المعاصرة**، دار الفكر العربي، القاهرة 1978.
24. محمد عبد العظيم، **الموت كيف نفهمه ونعمل له**، دار الصحابة، طنطا – مصر 1993 .
25.
26. المبارك، محمد، **نظام الإسلام العقيدة والعبادة**، دار الفكر – بيروت – 1968م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

27. ـــــــــ **نظرة الإسلام العامة إلى الوجود** ــ دون مكان النشر ــ دمشق ــ 1373هــ 1958م.

28. الميلي، محمد مبارك، **رسالة الشرك ومظاهره،** مكتبة الإيمان للطبع والنـشر والتوزيـع ــ الإسكندرية ــ مصر ــ1409هــ 1989م.

29. نعيم، محمد ياسين، **الإيمان: أركانه حقيقته نواقضه** ، دار الفلاح ــ الكويت ــ 1403هــــ ــ 1983م.

رابعاً: كتب السيرة والتراجم

1. ابن ادريس، عبد الله عبد العزيز(د.(**مجتمع المدينة في عهد الرسول،** ط2، مطابع جامعـة الملك سعود ــ الرياض ــ 1412هــ 1992م.

2. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج(ت:597.(**صفة الصفوة**،ط2، تحقيق، محمود فاخوري، د.محمد رواس قلعجي، دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت ــ 1399هــ 1979م.

3. ابن حبان، الإمام الحافظ أبي حاتم محمد ابن أحمد ابن حبان التميمي البـستي(ت:354هــــ 965م.(**السيرة النبوية وأخبار الخلفاء،** تحقيق، الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسـسة الكتـب الثقافية ــ بيروت ــ1407هــ 1987م.

4. ابن حزم، الإمام الحافظ أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد(ت:456هــ.(**جوامـع الـسيرة وخمس رسائل أخرى،** تحقيق:د.احسان عباس، د.ناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد محمد شاكر دار المعارف بمصر(د.ت.(

5. ابن سعد، محمد(ت:230هــ.(**الطبقات الكبرى،** دار صادر ــ بيروت ــ (د.ت).

6. ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد اليعمري(ت:734.(**عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**،تحقيق: د.محمد العيد الخطراوي،محي الدين مستو، مكتبة دار التراث ــ المدينة المنورة دار ابن كثير ــ دمشق ــ بيروت ــ 1413هــ 1992م.

7. ابن عبد البر، **الدرر في اختصار المغازي والـسير**، ط2، تحقيــق: شــبوقي ضــيف، دار المعارف ــ القاهرة ــ 1983م.

8. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبيد الله محمد(ت:751هــ.(**زاد المعاد في هــدي خيــر العباد** مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1402هــ 1982م.

9. ابن كثير، عمــاد الــدين أبــو الفــداء إســماعيل(ت:774هــــ.(**الــسيرة النبويــة**، ط2، تحقيق:د/مصطفى عبد لواحد، عيسى الحلبي ــ القاهرة ــ 1389هــ1973م.

10. ابن هشام، أبو عبد الله محمد .**السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا، إبــراهيم الأبيــارى. عبد الحفيظ شبلي، دار القلم ــ بيروت ــ (د ت.(

11. أبو زهرة، محمد .**خاتم النبيين**، منشورات المكتبــة العــصرية ــ صــيدا ــ بيــروت ــ 1399هــ 1979م.

12. أبو شهبة، محمد .**السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، ط5، دار القلــم ــ دمــشق ــ 1408هــ 1988م.

13. أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصفهاني(ت:430هــ.(**حلية الأولياء وطبقات الأصــفياء**. دار الفكر بيروت ــالمكتبة السلفية، (د ت.(

14. باوزير، أحمد محمد العليمي .**مرويات غزوة بدر**، مكتبــة طيبــة ــ المدينــة المنــورة ــ 1400هــ 1980م.

15. برغوث الطيب، **المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في مرحلة البنــاء العقــدي والفكري بمكة**، دار قرطبة للنشر والتوزيع 2004 .

16. البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر(ت:279هــ).**أنساب الأشراف**، تحقيق:د/محمد حميــد الله دار المعارف ــ مصرــ 1959م.

17. البوطي، محمد سعيد رمضان .**فقه السيرة**، ط8، دار الفكر للطباعــة والنــشر 1389هــــ 1970م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

18. بيضون، إبراهيم .**الرسول والأنصار إشكاليات الهجرة والمعارضة**، معهد الإنماء العربي ــ بيروت ــ1989م.
19. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين(ت:458هـ .(**دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** تحقيق: د/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1405هـ 1985م.
20. الخزاعي، بن محمد ابن السعود .**تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**، تحقيق: إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي ت بيروت ــ 1405هـ 1985م.
21. الخضر، محمد حسين(ت:1958م.(**محمد رسول الله وخاتم النبيين**، مطبعة العلم ــ دمشق 1391هـ 1971م.
22. خليل، عماد الدين .**دراسة في السيرة**،ط10، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ دار النفائس ــ بيروت ــ 1406هـ 1986م.
23. الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن .**تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ــ بيروت ــ (د ت.(
24. رضا، محمد .**محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1395هـ1975م.
25. الزايد، سميرة .**مختصر الجامع في السيرة النبوية**، المطبعة العلمية ــ دمشق ــ 1416هـ 1995م.
26. السمهودي، نور الدين علي بن أحمد(ت:911هـ.(**وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى** تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد.ط4، دار إحياء التراث العربي ،1404هـ 1984م.
27. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت:581هـ.(**الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، دار الفكر ــ بيروت ــ (د ت.(
28. شيت، محمود خطاب .**الرسول القائد**,ط5،دار الفكر ــ بيروت ــ 1394هـ 1974م.
29. الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير(ت:310هـ.(**السيرة النبوية لابن جرير الطبري**، تحقيق: جمال بدران، الدار المصرية للكتاب ــ القاهرة ــ 1414هـ 1994م.
30. عرجون، محمد الصادق إبراهيم .**محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة بحث وتحقيق**. دار القلم للطباعة والنشر ــ دمشق ــ 1405هـ 1985م.
31. العقيلي، أحمد محمد .**الأثر والدلالات الإسلامية لرسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والقادة** ــ الرياض 1993م.
32. العلي، إبراهيم، **صحيح السيرة النبوية**، دار النفائس ــ الأردن ــ 1415هـ 1995م.
33. العمري، أكرم ضياء .**السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**،ط6، مكتبة العلوم والحكم ــ المدينة المنورة ــ 1415هـ 1994م.
34. غضبان، محمد منير .**المنهج التربوي للسيرة النبوية(التربية الجهادية**(، دار الوفاء ــ المنصورة مصرــ مكتبة المنار، 1414هـ 1994م.
35. القرطبي،
36. القسطلاني، أحمد بن محمد(ت:923هـ .(**المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، تحقيق: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ 1412هـ 1991م.
37. الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي(ت:634هـ.(**الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، تحقيق: د/ مصطفى عبد الواحد، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ 1489هـ 1970م.
38. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي .**إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء و الحفدة والمتاع**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ــ 1941م.
39. هيكل، محمد حسين، **حياة محمد صلى الله عليه وسلم**، ط16، دار المعارف ،القاهرة (د ت).

خامساً: كتب التاريخ وفلسفة الحضارة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد الجزري(ت:630هـ.(**الكامل في التاريخ**، دار صادر ـ بيروت ـ 1399هـ 1979م.

2. ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة الغميري(ت:262هـ.(**كتاب تاريخ المدينة المنورة(أخبار المدينة النبوية**(،ط2،تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الأصفهاني للطباعة ـ جدة ـ السعودية ـ 1402هـ.

3. ابن منظور، محمد بن مكرم المعروف بابن منظور(ت:711.(**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق: روحية النحاس، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر ـ دمشق ـ1404هـ 1984م.

4. أبو زهرة، محمد ، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة 1987 .

5. تشايلد، جوردون .**التاريخ**، ترجمة عدلي برسوم عبد الملك، الدار المصرية للكتاب، (د ت.(

6. توينبي، آرنولد .**مختصر دراسة التاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل،ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ 1966م.

7. خليفة، بن خياط العصفري(ت:240هـ 854م.(**تاريخ خليفة بن خياط رواية تقي بن مخلد** تحقيق: سهيل زكار، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ـ دمشق ـ 1968م.

8. خليل، عماد الدين .**التفسير الإسلامي للتاريخ**، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1971

9. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(ت:797.(**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام والمغازي**، تحقيق:د/عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1407هـ 1987م.

10. سالم، السيد عبد العزيز .**تاريخ الدولة العربية**، دار النهضة العربية ـ بيروت ـ 1406هـ 1986م.

11. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن.**الأعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ** ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1979م.

12. ــــــــــــ، كذلك طبعة مكتبة المثنى، بغداد 1963 .

13. شراب، محمد محمد حسن .**المدينة المنورة فجر الإسلام والعصر الراشدي**، دار القلم ـ دمشق الدار الشامية ـ بيروت ـ 1415هـ 1994م.

14. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت:310هـ.(**تاريخ الطبري تاريخ الأمم والمماليك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان ـ بيروت ـ (د ت.(

15. طه، الهاشمي .**تاريخ الأديان وفلسفتها**، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ 1963م.

16. الصدر، محمد باقر، **فلسفتنا**، ط10، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت 1980 .

17. عاقل، نبيه .**تاريخ العرب القديم وعصر الرسول**، ط2، (د ت) ـ دمشق ـ 1972م.

18. العلي، صالح أحمد .**امتداد العرب في صدر الإسلام**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1403هـ 1983م.

19. العلي، صالح أحمد/د.**الحجاز في صدر الإسلام، دراسات في أحواله العمرانية والإدارية**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1410هـ 1990م.

20. العمري، أكرم ضياء .**عصر الخلافة الراشدة، محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين**، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ السعودية ـ 1414هـ 1994م.

21. لبون، غوستاف(ت:1932م)(د.(**فلسفة التاريخ**، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف ـ مصر ـ 1954م.

22. ميرسيا، إلياد .**تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق سورية ـ 1986م.

23. نيفين، جمعة علم الدين .**فلسفة التاريخ عند توينبي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ 1991م.

سادساً: كتب الفقه وأصوله

1. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم(ت:728هـ) ، **جموع الفتاوى**، مكتبة المعارف ـ الرباط ـ المغرب.(د ت).

2. ـــــــــــ، مجموع الفتاوى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2000 .
3. ـــــــــــ، **الفتاوى الكبرى**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1987 .
4. ابن حزم، علي بن أحمد، **الإحكام في أصول الأحكام**، دار الكتب العلمية، (بدون) .
5. ابن عابدين، محمد أمين أفندي .**مجموعة رسائل ابن عابدين**، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ (د ت.(
6. ابن عاشور، محمد الطاهر .**مقاصد الشريعة الإسلامية**، الشركة التونسية للتوزيع ــ تونس ــ 1978م.
7. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد .**إعلام الموقعين عن رب العالمين**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ــ مصر ــ1374هـ 1955م.
8. أبو يحيي، محمد حسن، **أهداف التشريع الإسلامي**، دار الفرقان ــ عمان ــ الأردن ــ 1405هـ 1985م.
9. الأشقر، محمد سليمان .**أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالاتها على الأحكام الشرعية**، ط2،مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1988م.
10. زكي، محمد عبد البر .**تقنين أصول الفقه**، مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ 1409هـ 1989
11. الشاطبي، إبراهيم ابن موسى اللخمي(ت:790 .(**الموافقات في أصول الشريعة**، حققه: عبد الله دراز، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ (د ت.(
12. ـــــــــــ، **الاعتصام**، تعليق رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت 2005.
13. العز، بن عبد السلام عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي،(ت:660.(**قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تحقيق: عبد الغني الدقر، دار الطباع ــ دمشق ــ 1413هـ 1992م.
14. القرافي، شهاب الدين بن أحمد، (ت 684) ، **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1995 .
15. الونشريسي، أحمد بن يحيي (ت:914هـ). **إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك** تحقيق: الصادق بن عبد الرحمن الفرياني، منشورات كلية الدعوة الإسلامية, طرابلس ــ ليبيا ــ 1411هـ 1991م.

سابعاً: كتب الفكر السياسي والاجتماعي

1. ابن الأزرق، أبو عبد الله . **بدائع السلك في طبائع الملك**. تحقيق: علي سامي النشار، وزارة الإعلام ــ بغداد ــ العراق ــ 1977م.
2. ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم(ت:728 .(**السياسة الشرعية**، منشورات دار الأفاق الجديدة ــ بيروت ــ 1403هـ 1983م.
3. ابن حزم ، أبو محمد بن أحمد(ت:456 .(**الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل ــ بيروت ــ 1985م ــ 1405هـ ــ 1981 م.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت:808.(**مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي،ط3،دار النهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة ــ1401هـ ــ 1981م.
5. ـــــــــ، عبد الرحمن بن محمد . **مقدمة ابن خلدون** ، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية ــ بيروت ــ لبنان ــ 1415هـ 1995م.
6. ابن الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد. **سلوك المالك في تدبير الممالك** ، تحقيق: وترجمة حامد ربيع ،دار الشعب ــ القاهرة ــ مصر ــ 1980م.
7. ابن عاشور ، محمد الطاهر . **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، ط2، الشركة التونسية للتوزيع ــ تونس ــ 1985م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

8. ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي .**تبصرة الحكام في مناهج الأقضية والأحكام** . نشر: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة ــ 1406هـ ــ 1986م.

9. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت:366.(**تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1985م.

10. ادوارد كورنيش .**المستقبلية مقدمة في فن وعلم وفهم وبناء عالم الغد**، ترجمة : محمود فلاحة، مطابع وزارة الثقافة ــ دمشق ــ 1994م.

11. إقبال، محمد .**تجديد الفكر الديني في الإسلام** ، ترجمة عباس محمود ،ط2، مطبعة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ــ 1986م.

12. إقبال، محمد .**تجديد الفكر الديني**،ترجمة عباس محمود ، طبعة جديدة منقحة ــ دار آسيا ــ بيروت ــ 1985م.

13. إمام ، عبد الفتاح إمام، **الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي**، سلسلة عالم المعرفة ــ مطابع السياسة ــ الكويت ــ 1414هـ ــ 1994م.

14. إيريك، فروم .**ثورة الأمل** ، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الآداب ــ بيروت ــ 1973م.

15. بدوي، محمد طه(د .(**أصول علم السياسة** ، ط2 ، المكتب المصري الحديث للنشر 1965م.

16. بدوي، عبد الرحمن . **اشبنجلر**، وكالة المطبوعات ــ الكويت ــ دار العلم ــ بيروت ــ 1403هـ 1982م.

17. ــــــــــ، **الزمان الوجودي**، ط 2، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1955م

18. بدوي، ثروة، **النظم السياسية**، دار النهضة العربية ــ القاهرة ــ 1986م

19. بسيوني، حسن السيد . **الدولة ونظام الحكم في الإسلام** ، عالم الكتب ــ القاهرة ــ 1405هـ ــ 1985م.

20. بسيوني، عبد الغني عبد الله . **النظم السياسية** ، مكتبة المعارف الحديثة ــ القاهرة ــ (د.ت(

21. بيتر دروكر ، **التجديد والمقاولة ممارسات ومبادئ** ، ترجمة : د/حسين عبد الفتاح، مركز الكتب الأردني 1988م.

22. بيضون، إبراهيم، **الحجاز والدولة الإسلامية** : دراسة **في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ 1403هـ ــ 1983م.

23. التومي، محمد .**المجتمع الإنساني في القرآن** ، الدار التونسية ــ تونس ــ المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر ــ 1986م.

24. التيجاني، عبد القادرحامد .**أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ــ هيرندن ــ فيرجينيا ــ و.م، الأمريكية ــ ودار البشير للنشر والتوزيع ــ عمان ــ الأردن ــ 1416هـ ــ 1995م.

25. جاك دونديبه دي فابر، **الدولة**. ترجمة أحمد حسين عباس ، مكتبة نهضة مصر ــ القاهرة ــ 1958م.

26. جان بريه .**الذكاء والقيم المعنوية في الحرب** ، تعريب المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ 1986م.

27. جورج ساباين .**تطور الفكر السياسي**، ترجمة حسن جلال العروسي ، علي إبراهيم السيد وراشد البراوي،ط2، دار المعارف القاهرة ــ 1954م.

28. خلاف، عبد الوهاب . **السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية**، دار الأنصار ــ القاهرة ــ 1397هـ ــ 1977م.

29. خليل ، محسن . **القانون الدستوري والنظم الإدارية** ،(د.م،د.ن) ــ 1987م.

30. دروزة، محمد عزة . **الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة**، البابي الحلبي ــ القاهرة 1386هـ ــ 1966م.

31. الدهلوي، ولي الله . **حجة الله البالغة**، بخدمة محمد شريف سكر ، ط2، دار إحياء العلوم ــ بيروت ــ 1413هـ ــ 1993م.

32. الراغب، الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت:500) **تفصيل الشأتين وتحصيل السعادتين: الإنسان وجوده وقيمته وغايته**. تحقيق: عبد المجيد النجار ، دار الغرب الإسلامي بيروت ــ 1988م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

33. ـــــــــــ، تُنظر كذلك: طبعة بيروت 1313 .
34. ـــــــــــ، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**. دار الكتب العلمية بيروت ــ 1400هـ ــ 1980م.
35. الرشيد، عبد الله محمد .(د.(**القيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، دار القلم. دمشق ــ 1410هـ ــ .1990م.
36. رضوان ، السيد .**مفاهيم الجماعات في الإسلام**، دار التنوير للطباعة والنشر ــ بيروت ــ 1984م.
37. زريق، برهان .**الصحيفة ميثاق الرسول : دستور دولة الإسلام في المدينة** . دار النمير ــ دمشق 1996م.
38. زيدان، عبد الكريم .**السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد** ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1413هـ ــ 1993م.
39. زين، إبراهيم محمد . **السلطة في فكر المسلمين** ، الدار السودانية للكتب ــ الخرطوم ــ 1403هـ 1983م.
40. ثائر. محمد حامد . **المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة** ، مطبعة الزهراء الحديثة ــ الموصل ــ العراق ــ 1405هـ 1984م.
41. شريعتي ، علي، **الإنسان والإسلام** ، ترجمة : د/عباس الترجمان ، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ 1412هـ ــ 1992م.
42. الشريف، أحمد إبراهيم .**الدولة الإسلامية الأولى** ، دار القلم ــ القاهرة ــ 1965م.
43. صبحي ، الصالح ، **النظم الإسلامية : نشأتها وتطورها**.ط6، دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1982م.
44. صوفي ، أبو طالب . **مبادئ تاريخ القانون (دون)**.
45. طنطاوي ، جوهري .**نظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا**، ط2، المطبعة الرحمانية 1350هـ ــ 1931م.
46. عارف، نصر محمد .**نظريات التنمية الساسية المعاصرة**، ط2، الدار العالمية للكتاب الإسلامي. الرياض ــ 1414هـ ــ 1994م.
47. عالية، سمير، **نظرية الدولة** وآدابها **في الإسلام**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ــ 1408هـ ــ 1988م.
48. عبد الجبار، محمد. **المجتمع بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني**،ط2، دار الأضواء ــ بيروت 1408هـ ــ 1987م.
49. عبد الرزاق علي .**الإسلام وأصول الحكم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ 1993م.
50. عبود، عبد الغني . **الملامح العامة للمجتمع الإسلامي** ، دار الفكر العربي ــ 1980م.
51. علم الدين، مصطفى . **المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين** ، دار النهضة العربية ــ بيروت ــ 1992م.
52. العمري، أكرم ضياء . **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي** ، مجلة العربي ، كتاب الأمة39 ، قطر ــ 1994م.
53. عودة، عبد القادر، **التشريع الجنائي في الإسلام**، دار الكاتب العربي، بيروت (د . ت) .
54. عوض ، محمد عبد السلام(د .(**الفعل الاجتماعي عند تالكوت بارسوفز**، دار المطبوعات الحديثة القاهرة ــ 1986م.
55. عون ، قاسم الشريف .**نشأة الدولة الإسلامية**،ط3،دار الجيل ــ بيروت ــ ، دار المأمون ، الخرطوم ، 1411هـ ــ 1991م.
56. غليزيرمان .**قوانين التطور الاجتماعي : طبيعتها استخدامها**، دار التقدم ــ موسكو ــ 1983م.
57. غليون ، برهان .**نقد السياسة والدولة والدين** ، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1993م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

58. الغمراوي، محمد أحمد . **في سنن الله الكونية** ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1355هـ –1936م.

59. غوستاف، لوبون .**السنن النفسية لتطور الأمم** ، ترجمة عادل زعيتر، ط2، دار المعارف – القاهرة – 1957م.

60. الفيومي، محمد إبراهيم ، **في الفكر الديني الجاهلي**، ط4، دار المعارف ، القاهرة (د . ت).

61. قطب، سيد .**الإسلام ومشكلات الحضارة**، دار الشروق – بيروت – (د.ت.(

62. ______ **الإسلام والسلام العالمي**، ط7، دار الشروق – بيروت – 1388هـ – 1978م.

63. الكواكبي، عبد الرحمن (ت:1902م .(**طبائع الاستبداد** ، ط3، دار الشروق العربي – بيروت – 1991م.

64. كورتوا، جون .**لمحات في فن القيادة** ، ترجمة: الهيثم الأيوبي،ط2، المؤسسة العربية للدراسات – بيروت – 1980م.

65. كول، ج.هـ .**النظرية الاجتماعية**،ترجمة عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1988م.

66. لؤي، صافي. **العقيدة والسياسة** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن،فيرجينيا،و.م، الأمريكية ، 1416هـ – 1996م.

67. مادلين ،غراويتز.**مناهج العلوم الاجتماعية: منطق البحث في العلوم الاجتماعية** .ترجمة: د/سام عمار، مطبعة طربين – دمشق 1993م.

68. مادلين ،غراويز.**مناهج العلوم الاجتماعية: التقنيات في خدمة العلوم الاجتماعية.** ترجمة:د/سام عمار، دار مشرق مغرب للخدمات الثقافية والطباعة – دمشق – 1996م.

69. ماكيفر، دويرت .**تكوين الدولة** ، ترجمة: حسن صعب ، دار العلم للملايين – بيروت – 1966م.

70. مؤنس، حسين (د .(**دستور أمة الإسلام :دراسة في أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين**، دار الرشيد – القاهرة 1413هـ – 1993م.

71. مالك، بن نبي (ت:1973م.(**ميلاد مجتمع**، ترجمة : عبد الصبور شاهين ،ط3، دار الفكر – دمشق 1986م.

72. ______ **شروط النهضة** ،ترجمة عبد الصبور شاهين ، عمر كامل مسقاوي، ط4، دار الفكر – دمشق – 1987م.

73. ______ **فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج** ، دار الفكر، دمشق - سورية .

74. الماوردي، أبو الحسن محمد بن علي بن حبيب (ت:450هـ.(**الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، حققه: عصام فارس الحرستاني، محمد إبراهيم الزغلي ، المكتب الإسلامي – بيروت – 1416هـ 1996م

75. مايكل، ليند. **الدولة الحافزة** ، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق – بيروت – (د.ت.(

76. محمد مهدي، شمس الدين، **في الاجتماع السياسي الإسلامي: المجتمع السياسي الإسلامي. محاولة لتأصيل فقهي وتاريخي** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – بيروت – 1412هـ – 1992م.

77. مدني، عباسي. **النوعية التربوية في المراحل التعليمية في البلاد الإسلامية**، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض – 1410هـ – 1989م.

78. المودوي، أبو الأعلى .**الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها** ، ط2، ترجمة : محمد عاصم الحداد، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – 1390هـ – 1970م.

79. النجار، عبد المجيد ، **العقل والسلوك في البنية الإسلامية**، مطبعة الجنوب، مدنين ، تونس 1980 .

80. هارولد، لاسكي .**الدولة في النظرية والتطبيق** ، ترجمة : أحمد محمد غنيم ، كامل زهير ، مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر. 1958م.

81. ياسين، عبد الجواد، **السلطة في الإسلام**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1998.

ثامناً: كتب فقه الدعوة

1. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج.، **صيد الخاطر**، تحقيق" علي الطنطاوي، ناجي الطنطاوي،ط2، دار الفكر ــ دمشق ــ 1398هـ ــ 1978م .
2. ـــــــــ، **صيد الخاطر**، ط2، دار الاشراق، الدوحة، قطر 1998 م.
3. برغوث، الطيب بن مبارك .**منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة : والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيريندن، فيرجينيا، و.م.الأمريكية.1996م.
4. برغوث، الطيب بن مبارك .**الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية** ــ مخطوط ــ
5. الديلمي، عبد الوهاب بن لطف.**معالم الدعوة في قصص القرآن**، دار المجتمع ــ جدة ــ السعودية ــ 1406هـ ــ 1986م.
6. شلبي، رؤوف.**الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغايتها**، ط3، دار القلم ــ الكويت ــ 1402هـ ــ 1982م.
7. الغزالي، محمد . **مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة**، ط5، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت 1985م.
8. غلوش، أحمد محمد .**الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها**، ط2، دار الكتاب المصري ــ القاهرة 1407هـ ــ 1987م.
9. فضل الله، محمد حسين .**خطوات على طريق الإسلام**، ط5، دار التعارف ــ بيروت ــ 1406هـ 1986م.
10. قطب، سيد .**معالم في الطريق**، دار الشروق ــ بيروت ــ (د.ت.(
11. محفوظ، علي .**هداية المرشدين**، ط9، دار الاعتصام ــ القاهرة ــ 1979م.
12. همام، محمد سعيد(د .(**قواعد الدعوة إلى الله**، دار الشهاب باتنة ــ الجزائر، 1983م.

تاسعاً: كتب الدراسات العامة

1. الإبراهيمي، محمد البشير، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي** ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997 .
2. ابن الحاج، محمد بن محمد (ت:737 .(**المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات**، بخدمة توفيق حمدان، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1415هـ ــ 1995م.
3. ابن تيمية، جامع الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، القاهرة (د . ت).
4. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبيد الله . **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ 1403هـ ــ 1983م.
5. ـــــــــ، **تهذيب مدارج السالكين**، تهذيب عبد المنعم صالح العلي العزي، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت 2000 .
6. ـــــــــ ، **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ــ 1961م.
7. ـــــــــ، كذلك طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1999 .
8. ـــــــــ، **مفتاح دار السعادة ونشور ولاية العلم والإرادة**، دار الكتب العلمية ــ بيروت. (د.ت).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

9. ـــــــــ، كذلك طبعة دار ابن عفان، السعودية 1416هـ

10. ـــــــــ، **الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، ط2، دار الحديث ــ القاهرة ــ 1416هـ ــ 1996م.

11. ـــــــــ، كذلك ط6 من نفس الكتاب، تحقيق أبي حذيفة عبد الله بن عالية، دار الكتاب العربي، بيروت 1999 .

12. أبو القاسم، محمد حاج محمد .**العالمية الإسلامية الثانية**، دار المسيرة، (د.ت.(

13. إدوارد كورنيش، **المستقبلية**، ترجمة محمود فلاحة، وزارة الثقافية ، دمشق 1994م .

14. إريك، فروم .**الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ترجمة سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب 140. ــ الكويت ــ 1409هـ ــ 1989م.

15. الأصفهاني، أبو القاسم بن الحسين بن محمد بن المفضل الراغب، ، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان 1983 .

16. الأفغاني، جمال الدين، ومحمد عبده .**العروة الوثقى**، ط3، دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ 1403هـ ــ 1983م.

17. أملي، عبد الله جوادي .**الهداية في القرآن**، دار الهادي ــ بيروت ــ 1414هـ ــ 1993م.

18. أمير، عبد العزيز(د .(**الإنسان في الإسلام**، دار الفرقان ومؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1408هـ 1984م.

19. إندريد، داس، **من أسرار الفطرة**، ترجمة: محمد أحمد الغمراوي، د/أحمد عبد السلام الكرداني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ــ 1366هـ ــ 1947م.

20. آرثر كورتل، **قاموس أساطير العالم**، ترجمة سهى الطريحي، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت .

21. باول، لوث(بروفسور .(**الإنسان مخلوق لا مصادفة**، ترجمة عمر لطفي العالم، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ــ دمشق ــ 1415هـ ــ 1994م.

22. برغوث، عبد العزيز .**المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ــ الدوحة ــ كتاب الأمة ، 1995م.

23. بدوي، عبد الرحمن، **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر .

24. بوشيه، فيكتور .**طريق السعادة**، دار الهلال ــ القاهرة ــ 1374هـ ــ 1955م.البولسي، جبرائيل فرح .**الدين وهل يكون الحاجة العظمى؟**، المطبعة البولسية ، لبنان ــ 1972م.

25. بيار داكو، **الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث**، ترجمة وجيه سعد، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت) .

26. بيتر شارب، **بنو الإنسان**، ترجمة زهير الكرمي، الكتاب رقم:67 من سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1983 .

27. التفتزاني، أبو الوفاء الغنيمي، **الإنسان والكون في الإسلام**، طبع دار الثقافة، القاهرة 1975.

28. جان ماري بيلت، **عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة**، ترجمة السيد محمد عثمان، سلسلة كتاب المعرفة رقم: 189 ، الكويت 1994 .

29. جعفر، محمد كمال(د .(**الإنسان والأديان دراسة مقارنة**، دار الثقافة ــ الدوحة ــ قطر ــ 1406هـ ــ 1985م.

30. جفري، بارندر .**المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة ــ الكويت ــ الكتاب 173 ، 1413هـ ــ 1993م.

31. جولد، سيهر اغناس .**العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة: محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، علي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري ــ القاهرة ــ 1947م.

32. جون كولر، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة الكتاب رقم:199 . 1995.

33. حافظ، الحداد .**فلسفة الابتلاء**، مكتبة العرفان/مؤسسة البلاغ ــ بيروت ــ 1414هـ ــ 1994م.

34. حبنكة، عبد الرحمن حسن .**الأخلاق الإسلامية وأسسها**، دار القلم ــ بيروت ــ دمشق ــ 1399هـ ــ 1979م.
35. ــــــــــ حبنكة، عبد الرحمن حسن الميداني، **ابتلاء الإرادة**، دار القلم، دمشق 1995 .
36. حجازي، سليم عبد الله .**منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية**، ــ دار المنارة، ــ جدة ــ السعودية ــ 1986م.
37. حوى، سعيد، **الإسلام**، ط2، دار السلام، القاهرة 1993 .
38. خان، وحيد الدين .**حكمة الدين**، ترجمة: ظفر الإسلام خان، المختار الإسلامي ــ القاهرة ــ 1973م.
39. خضر عبد العليم عبد الرحمن، **الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن**، الدار السعودية للنشر والتوزيع 1984 .
40. خليل، عماد الدين .**آفاق قرآنية**، ط2، دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1982م.
41. ــــــــــ .**حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، مطابع الدوحة الحديثة، كتاب الأمة، قطر 1983م.
42. دراز، محمد عبد الله .**الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، دار القلم ــ الكويت ــ 1970م.
43. ــــــــــ .**مدخل إلى القرآن الكريم**، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القلم ــ الكويت ــ 1414هـ ــ 1993م.
44. ــــــــــ .**نظرات في الإسلام**، دار الأرقم ــ حمص ــ سورية ــ 1972م.
45. ــــــــــ .**دستور الأخلاق في القرآن**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط2، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1412هـ ــ 1991م.
46. دوبو، رينيه .**إنسانية الإنسان**، ترجمة: نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1979م.
47. الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم (ت:1176هـ .(**الخير الكبير: الملقب بخزائن الحكمة**، مكتبة القاهرة ــ مصر ــ 1394هـ ــ 1974م.
48. ــــــــــ، **حجة الله البالغة**، تحقيق ومراجعة سيد سابق، دار الجيل، بيروت 2005 .
49. ــــــــــ، كذلك طبعة دار الكتب العلمية، ط2، بيروت – لبنان 2005 .
50. ديل كارنيجي، **دع القلق وابدأ الحياة**، ط5، ترجمة عبد المنعم الزبادي، مكتبة الخانجي 1956 .
51. دينس، لويد .**فكرة القانون**، ترجمة: سليم الصويص، سلسلة عالم المعرفة، كتاب 47، الكويت ــ 1402هـ ــ 1981م.
52. روبرت. أغروس، وجورج.ن . ستينو، **العلم في منظوره الجديد**، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، كتاب رقم:134 الكويت 1984
53. ريتشارد، شتايتباخ .**معنى الحياة والموت**، ترجمة: هدى موسى، دار الحوار للنشر والتوزيع ــ اللاذقية ــ سورية ــ 1990م.
54. زيعور، علي .**الكرامة الصوفية والأسطورة والعلم: القطاع اللاوعي في الذات العربية**، ط2، دار الأندلس ــ بيروت ــ 1984م.
55. سكينر، ب .ف . **تكنولوجيا السلوك**، ترجمة عبد القادر يوسف، سلسلة كتاب المعرفة رقم: 32 ، الكويت 1980.
56. شيتولين، أرب .**النظرية العلمية في الطبيعة والمجتمع والمعرفة**، ترجمة: هيئة تحرير دار الفارابي، مطابع الأمل ــ بيروت ــ 1981م.
57. شريف، محمد إبراهيم (د .(**هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي**، مطبعة المدينة،دار السلام ــ 1406هـ ــ 1986م.
58. الشناوي، محمد أحمد (د .(**نواميس الله في الكون**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ 1972م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

59. الصدر، محمد باقر، **التفسير والموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية**، الدار العالمية للكتاب، بيروت 1989 .
60. صعب، حسن (د .(**الإسلام والإنسان**، دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1981م.
61. طبيشان، محمد الشيخ عابد .**الإنسان في القرآن الكريم**، ط2، اربد ــ الأردن ــ 1415هــ ــ 1995م.
62. العجمي، أبو اليزيد .**الأخلاق بين العقل والنقل**، دار الثقافة العربية ــ القاهرة ــ 1409هـ ــ 1989م.
63. عز الدين، إسماعيل .**نصوص قرآنية في النفس الإنسانية**، دار النشر المغربية ــ الدار البيضاء 1976م.
64. العلواني، طه جابر، **ابن تيمية وإسلامية المعرفة**، الدار العالمية للكتاي، الرياض، السعودية 1995
65. ــــــــــ، **التوحيد والتزكية والعمران. محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة**، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2003 .
66. عميش، سمير سالم (د .(**الحتمية العلمية وخصائص التطور**، دار كتابكم ــ عمان ــ الأردن ــ 1988م.
67. عون، الشريف قاسم .**الإسلام والثورة الحضارية**، دار القلم ــ بيروت ــ 1980م.
68. غريغوار منصور مرشو، **مقدمات الاستتباع**، طبع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن 1996 .
69. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت:505هــ .(**إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت ــ (د.ت.(
70. ــــــــــ، **المنقذ من الضلال**، مركز الكتاب ــ القاهرة ــ 1991م.
71. الغزالي، محمد، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، ط4، دار القلم، دمشق 2005
72. الغمراوي، محمد أحمد .**الإسلام في عصر العلم**، ط4، دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ــ 1411هــ ــ 1991م.
73. ــــــــــ، الإسلام والاستبداد السياسي، دار القلم، دمشق- سورية 2003 .
74. فاخر، عاقل .**علم النفس**، ط8، دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1982م.
75. فؤاد، زكريا (د .(**نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان**، دار مصر للطباعة ــ القاهرة ــ 1991م.
76. فرانسيس، كريك .**طبيعة الحياة**، ترجمة: أحمد مستجير، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب: 125، الكويت ــ 1408هــ ــ 1988م.
77. فرحات، أحمد حسن (د .(**فطرة الله التي فطر الناس عليها**، دار البشير ــ عمان ــ الأردن ــ 1407هــ ــ 1987م.
78. فرحات، محمود .**الدعاء رؤية جديدة**، الدار العالمية للطباعة والنشر ــ بيروت ــ 1408هــ ــ 1988م.
79. الفندي، محمد جمال الدين (د .(**الإسلام وقوانين الوجود**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ 1982م.
80. قطب، محمد .**منهج التربية الإسلامية** ــ ج1 ــ ط12، دار الشروق ــ بيروت ــ 1989م.
81. ــــــــــ .**دراسات في النفس الإنسانية**، ط6، دار الشروق ، بيروت 1983 م .
82. ــــــــــ .**التطور والثبات في حياة البشر**، مكتبة وهبة القاهرة (د.ت(
83. ــــــــــ كذلك الطبعة التاسعة لدار الشروق، بيروت 1993 .
84. كاريل، ألكسيس .**الإنسان ذلك المجهول**، ترجمة: عادل شفيق، الدار القومية ــ القاهرة (د.ت.(
85. كاريل، ألكسيس .**الدعاء**، ترجمة: محمد كمال سليمان، دار المرشد ــ بيروت ــ 1985م.
86. الكرمي، زهير محمود .**الطبيعة الإنسانية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ــ 1995م.
87. كيت كينان، التخطيط الإداري، الدار الغربية للعلوم، بيروت – لبنان 1995 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

88. مالك، بن نبي(ت:1973 .(**تأملات**، ط5، دار الفكر ــ دمشق ــ 1412هــ ــ 1991م.
89. ـــــــــ .**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: سام بركة، أحمد شعبو. دار الفكر ــ دمشق ــ 1988م.
90. ـــــــــ .**وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين ــ دار الفكر ــ بيروت ــ 1970م.
91. ـــــــــ .**المسلم في عالم الاقتصاد**، دار الشروق ــ بيروت ــ 1972م.
92. ـــــــــ .**فكرة الأفريقية الأسيوية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دار الفكر ــ دمشق ــ 1981م.
93. ـــــــــ **بين الرشاد والتيه**، ط2، دار الفكر، دمشق 1988 .
94. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(ت:450هــ .(**أدب الدنيا والدين**، تحقيق سليمان سليم البواب، دار الحكمة ــ دمشق ــ 1994م.
95. ـــــــــ **أدب الدنيا والدين**، تحقيق ياسين محمد السواس، دار ابن كثير ، دمشق 2002 .
96. المبارك، محمد .**الإسلام والفكر العلمي**، دار الفكر ــ بيروت ــ 1398هــ ــ 1978م.
97. ـــــــــ **نحو إنسانية سعيدة**، مطبعة جامعة دمشق، 1381هــ ــ 1961م.
98. محسن، عبد الحميد .**الإسلام والتنمية**، دار المنارة ــ جدة ــ السعودية ــ 1409هــ ــ 1989م.
99. مرتضى، مطهري .**الفطرة**، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة ــ طهران ــ 1410هــ
100. مريغني، عبد الله محمد صالح .**الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم**، دار الاعتصام ــ القاهرة ــ 1983م.
101. المطرودي، عبد الرحمن بن إبراهيم، **الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم**، مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ 1410هــ ــ 1990م.
102. ميرسيا، إلياد .**الحنين إلى الأصول في منهجية الأديان وتاريخها**، ترجمة: حسن قبسي، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع ــ دمشق ــ (د.ت.(
103. ميشال طوماس وآخرون، **نظرية الثقافة**، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة الصادرة بالكويت 1997 ، الكتاب رقم:223 .
104. ميشال كليفنوت، حالة الأديان في العالم، باريس 1987 .
105. ميمون، الربيع(د .(**نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر ــ 1980م.
106. نجاتي، محمد عثمان .**القرآن وعلم النفس**، الدار المغربية للنشر ــ الدار البيضاء ، 1976م.
107. النجار، عبد المجيد .**خلافة الإنسان بين العقل والوحي**، دار الغرب الإسلامي ــ بيروت 1987م.
108. ـــــــــ، كذلك ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن 1993 .
109. نيتشه، فريدريك، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة: فليكس فارس، دار أسامة دمشق .
110. وافي علي، عبد الواحد .**المساواة في الإسلام**، دار المعارف ــ القاهرة ــ 1962م.
111. ولتر ستيس ، **الزمان والأزل: مقال في فلسفة الدين**، ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت 1967.
112. هنريك سفانسين، **النهاية قريبة: دراسة عن الكوارث الطبيعية والمجتمع**، نيوكورد، أوسلو 2006 .
113. هيجل، **موسوعة العلوم الفلسفية** ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت 1983 .

عاشراً: كتب المعاجم والمناهج

1. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا **.معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون دار الفكر ــ بيروت ــ 1399هـ 1979م.
2. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ــ بيروت ــ (د ت.(
3. أبو الفتوح، محمد حسين **.قائمة معجمية بألفاظ القرآن ودراجات تكرارها**، مكتبة لبنان ــ بيروت 1990م,
4. أنيس، إبراهيم وآخرون **.المعجم الوسيط**، ط2، القاهرة ــ (د ت.(
5. البنداق. محمد صالح، **هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن**، منشورات دار الأفاق ــ بيروت ــ 1401هـ 1981م
6. بوبر، كارل. **بؤس الايديولوجيا :نقد الأنماط، في التطور الاجتماعي، ترجمة: عبد الحميد صبري، دار الساقي ــ بيروت ــ 1992م.**
7. التهانوي، محمد علي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996 .
8. الدامغاني، الحسين بن محمد **.قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم.** تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ط5، دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1985م,
9. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر **.مختار الصحاح**، ترتيب: محمود خاطر، دار المعارف بيروت ــ (د ت.(
10. الراغب, الأصفهاني(ت:425 .(**مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق ــ الدار الشامية ــ بيروت ــ 1412هـ 1996م .
11. رضا، أحمد **.معجم متن اللغة**، مكتبة دار الحياة ــ بيروت ــ 1373هـ 1958م.
12. الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود(ت: 538هـ). **أساس البلاغة**.(بدون مكان للطبع).1399هـ 1979م.
13. زيان، محمد عمر **.البحث العلمي**: مناهجه وتقنياته، ط4، دار الشروق ــ جدة ــ السعودية.1983م.
14. صليبا، جميل (د.(**المعجم الفلسفي**، دار الكتاب البناني ــ بيروت ــ 1982م.
15. فؤاد، محمد عبد الباقي **.المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم**، ط3، دار الفكرــ بيروت ــ 1401هـ 1981م.
16. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت:817.(**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية ــ بيروت ــ (د ت).
17. **ــــــــ القاموس المحيط والقابوس الوسيط لما ذهب من كلام العرب شماميط،**
18. الكيلاني، عبد الوهاب ,**الموسوعة السياسية**،ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت 1993م.
19. مجمع اللغة العربية القاهرة **.المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون الطابع الأميرية، 1403هـ 1983م,
20. **مجموعة من الأكاديميين السوفيات .الموسوعة الفلسفية، تحت إشراف: م. روزنتال، ي، يودين، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة ــ بيروت 1980م.**
21. محمود، قاسم**.المنطق ومناهج البحث**، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ 1953م.
22. مختار عمر وآخرون، **المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته**، مؤسسة التراث ، الرياض – السعودية 2002 .
23. **مرزوق، عبد الصبور، معجم الأعلام والموضوعات في القرآن، دار الشروق ــ القاهرة ــ 1995م.**

فهرس الموضوعات

- مقدمة مدخلية للدراسة................................... 04

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.................................... 05

- الإطار المعرفي والزماني للدراسة.................................... 09

- أهداف الدراسة وآفاقها المعرفية والعملية................................ 11

- الفرضيات المؤطرة للدراسة.................................... 13

- منهـــج الدراســـة.................................... 14

- مصادر الدراسة وموقع البحث منها.................................... 15

- الصعوبات التي واجهتها الدراســـة.................................... 19

- خطة الدراسة ومبرراتها المعرفية والمنهجيـــة.................................... 20

- مدخل إلى المفاهيم المفتاحية للدراسة.................................... 24

- مفهوم الدّعوة.................................... 24

- مفهوم المنهج.................................... 29

- مفهوم المنجزات.................................... 35

- مفهوم الحماية.................................... 33

- مفهوم الدّولة.................................... 37

الباب الأول

في الآفاق الرسالية الكبرى للدعوة الإسلامية

الفصل الأول

مقدمات تأسيسية في أهمية الوعي بالدورة الوجودية للإنسان

- تمهيد.................................... 50

- إشكاليّة الاستثمار الأمثل لميزانيّة التّسخير الكونيّة.................................... 55

- الأهمّيّة المحوريّة للوعي بالدّورة الوجوديّة للكون والحياة والإنسان.................. 56

- محوريّة هذه الإشكاليّة في الاهتمام البشري.................................... 60

- محوريّة الوعي بالدّورة الوجوديّة في أولويّات الحركات الرّساليّة.................................... 67

- محوريّة الوعي بالدّورة الوجوديّة في أولويّات الدّعوة الإسلاميّة.................................... 69

- نظرة الإسلام إلى تراث النّبوات السّابقة وموقفه من الخبرات البشريّة عامّة..............70

- خاتميّة الرّسالات السّماويّة وتأكيد دور الحركة الاجتهاديّة البشريّة.................. 74
- الخصائص والمقوّمات المعياريّة الكلّية للرّؤية الوجوديّة الحق.................. 75
- آثار أصالة الرّؤية الوجوديّة على حركة الاستخلاف البشري.................. 84
- انعكاسات جزئيّة الرّؤية الوجوديّة واضطرابها على حركة الاستخلاف.................. 85

الفصل الثاني

معالم الرؤية العقدية الإسلامية

لمعضلة الوعي بالدورة الوجوديـــــة الكبرى للإنسان

- تمهيد.................. 88
- دلالات وأبعاد الوعي بالدورة الوجودية للإنسان في المنظور الإسلامي.................. 89
- تأسيس الوعي بكلية المنشأ البشري.................. 90
- دلالات وأبعاد الوعي بكلية البداية أو المنشأ البشري.................. 89
- تأسيس الوعي بكلية الطبيعة البشرية.................. 102
- دلالات وأبعاد الوعي بكلية الطبيعة البشرية.................. 103
- تأسيس الوعي بكلية الوظيفة الوجودية للإنسان.................. 113
- دلالات وأبعاد الوعي بكلية الوظيفة الوجودية للإنسان.................. 119
- تأسيس الوعي بكلية المصير البشري.................. 136
- دلالات وأبعاد الوعي بكلية المصير البشري.................. 139

الفصل الثالث

بناء الوعي الإنساني بالمنظومات الكلية لسنن التسخير

- تمهيد.................. 154
- مفاهيم مفتاحية.................. 155
- مفهوم سنن التسخير.................. 155
- مفهوم ميزانية التسخير.................. 156
- مفهوم الوعي التسخيري.................. 158
- أهمية الوعي التسخيري السنني وضرورته.................. 160
- ضوابط الوعي التسخيـــري السنني ومقوماته.................. 164
- تأسيس الوعي بنواظم الصيرورة الاستخلافية والاقتدار التسخيـــري.................. 174
- تأسيس الوعي بالكليات الناظمة للصّيرورة الاستخلافية البشرية.................. 175
- تأسيس الوعي بالكليات الناظمة للاقتدار التسخيـــري.................. 193
- كليات الاقتدار التسخيري.................. 194

الفصل الرابع

بناء الوعي الإنساني بالمنظومات الكلية لسنن الاستخلاف

- تمهيد... 214
- مفهوم الوعي الاستخلافي.. 215
- أهمية الوعي الاستخلافي.. 216
- الوعي الاستخلافي في أولويات الحركات الرسالية.................... 218
- المقومات المقاصديّة للوعي الاستخلافي................................ 221
- المقاصد الكلّية للوعي الاستخلافي................................... 221
- دوائر ومستويات تحقق الوعي الاستخلافي............................. 224
- المقومات المنهاجية للوعي الاستخلافي................................ 225
- المقومات القيْميّة الوظيفية للوعي الاستخلافـــي......................... 234
- الوعي الاستخلافي وكلّية المنطق العملي............................. 236
- الوعي الاستخلافي وكلّية الإحسان.................................. 237
- الوعي الاستخلافي وكلّية الواجبات 238
- الوعي الاستخلافي وكلّية التنافسية الاجتماعية.......................... 238
- الوعي الاستخلافي وكلّية المساواة الفعّالة.............................. 240
- الوعي الاستخلافي وكلّية الحرية المبدعة............................... 241
- الوعي الاستخلافي وكلّية التنوع المبدع............................... 243
- المقومات المؤسساتية للوعي الاستخلافي............................... 245
- محورية الوعي السياسي في الفقه الاستخلافي........................... 248
- محورية الوعي السياسي في الفكر البشري............................ 250
- محورية الوعي السياسي في الحركات الرسالية......................... 250
- محورية الوعي السياسي في المنظومة المنهاجية للإسلام................. 253
- أشكال المؤسسة السياسية وأصول الوعي السياسي
في المنظومة المنهاجية للإسلام.. 258
- الإسلام والأشكال التنظيمية.. 258
- المؤسسة السياسية ومحددات أصالة فعّاليتها الوظيفية والاجتماعية.............. 259
مستخلص النتائج التي تمخض عنها القسم النظري من الدراسة...................... 264

الباب الثاني

تنظيم قاعدة الدولة وتأمين وجودها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- موقع الدولة في أولويات الدعوة.. 266
- **موقع منجزات المرحلة المكية من استراتيجية بناء الدولة والمجتمع.................. 268**

الفصل الأول

مرحلة تنظيم قاعدة الدولة

- الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.. 274
- **أهداف الدعوة في هذه المرحلة... 275**
- مواجهة التحديات الوضع الانتقالي الجديد للدعوة بالمدينة خاصة ومكة عامة........ 275
- ضمان استمرارية حركة الدعوة والبناء والمدافعة الاجتماعية......................... 275
- الشروع في خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة.................................... 276
- **التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة................................. 277**
- مشكلة تطويق المستضعفين وتعويق حركة الهجرة.................................. 280
- المضاعفات السلبية للجدل الثقافي والحرب النفسية................................ 281
- خطر المواجهة المبكرة غير المتكافئة مع القوى المضادة 282
- **منهج الدعوة والبناء والمدافعة في هذه المرحلة................................. 285**
- محاور منهج الدعوة والبناء والمواجهة... 288
- عيّنات من قواعد منهج الدعوة والبناء والمواجهة.................................. 289
- القدرة على استثمار قاعدة المضغة في الدعوة والبناء والمواجهة.................... 289
- القدرة على استثمار قاعدة المآلات في الدعوة والبناء والمدافعة..................... 291
- القدرة على استثمار قاعدة الأولويات في الدعوة والبناء والمدافعة.................. 293
- القدرة على استثماره قاعدة حشد إمكانات الدعوة والمجتمع في البناء والمواجهة........ 296
- القدرة على شحذ فعالية الترابط والتآلف الاجتماعي لقاعدة الدعوة.................. 299
- تأسيس سلطة مرجعية للمجتمع 301
- **منجزات الدعوة في هذه المرحلة.. 314**

الفصل الثاني

مرحلة تأمين قاعدة الدولة

- الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.. 319
- **أهداف الدعوة في هذه المرحلة.. 320**
- مواصلة إنجاز البرنامج التربوي الضخم للدعوة.................................... 320

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– استثمار مكاسب المرحلة السابقة ومواجهة نتائج صدمة بدر 321
– مواصلة إنجاز خطة تطويق وتفكيك القوى المضادة.................................. 321
– تعميق تلاحم المجتمع وتآلفه، وتأمين وجوده.. 322
– التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة.................................. 323
– حراجة موقف مستضعفي قاعدة الدعوة بعد صدمة بدر.............................. 326
– خطر التبلور السياسي لحركة النفاق.. 327
– ضرب القاعدة البشرية والمادية للدعوة والدولة....................................... 329
– منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة................................. 331
– تحرير قاعدة الدعوة من الاستلاب الاجتماعي.. 343
– إطراد شحذ الفعالية الروحية والسلوكية لقاعدة الدعوة............................... 345
– تعميق الوعي بأهمية الانضباط الاجتماعي وضرورته................................ 348
– المتابعة الدقيقة لمجريات الأمور الداخلية والخارجية 352
– تفويض سلطة المرجعية المضللة.. 355
– منجزات الدعوة في هذه المرحلة... 359

الفصل الثالث

مرحلة المحافظة على هيبة الدولة

– الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.. 365
– أهداف الدعوة في هذه المرحلة... 366
– مواجهة آثار الصدمات المرجعية المضادة... 366
– تكثيف العناية بالاستيعاب الدعوي والتربوي... 367
– تركيز الاهتمام بالمسألة الاجتماعية... 368
– التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة.................................. 369
– الاستنزاف الخطير للقاعدة القيادية للدعوة... 369
– التأثير السلبي للصدمات المرجعية المضادة... 371
– زعزعة استقرار المجتمع وضرب هيبة الدعوة والدولة.............................. 372
– منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة................................. 374
– شحذ الوعي التسخيري والاستخلافي لقاعدة الدعوة................................... 374
– القدرة على استيعاب الصدمات المضادة بسرعة...................................... 380

– تعميق وعي قاعدة الدعوة بأهمية الصدمات التمحيصية........................ 384

– تحرير الدعوة من المواقف الانفعالية والذاتية........................... 388

– تأصيل واستثمار قاعدة التثبت والانضباط الاجتماعي................... 396

– الوقاية من الازدواجية السلوكية.. 399

– تعميق الوعي بضرورة استمرارية الدعوة.................................... 400

- استمرارية تعميق الوعي بسلطة المرجعية الفكرية والسياسية للمجتمع.................... 402

– اطراد التوجيه التربوي وشحذ الفعالية المعرفية والروحية والسلوكية.............. 403

– شحذ أريحية المجتمع ورساليته.. 404

– تعميق الوعي بالتآلف الاجتماعي والتكاملية التاريخية.................... 403

– اطراد عملية تحرير قاعدة الدعوة من الاستلاب للقوى المضادة............. 404

– منجزات الدعوة على مستوى إنجاز خطة تطويق القوى المضادة وتفكيكها............ 406

– منجزات الدعوة على مستوى الاستيعاب الدعوي والتربوي.................. 407

– منجزات الدعوة على مستوى تركيز الاهتمام بالمسألة الاجتماعية.............. 410

الباب الثالث

تحقيق الاعتراف بالدولة وتوطيد سلطانها

الفصل الأول

مرحلة تحقيق الاعتراف بالدولة

– الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.. 413

– أهداف الدعوة في هذه المرحلة.. 413

– تكثيف عملية الاستيعاب الدعوي واختراق المجتمع التقليدي.................. 414

– تكثيف العناية بالتحول التربوي والاجتماعي................................. 415

– تحديات الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة............................ 415

– الآثار المعاكسة لصدمة الأحزاب المرجعية.................................. 416

– إسترخاء قاعدة الدعوة وتراجع فعاليتها الرسالية............................ 417

– مضاعفات انفتاح النموذجين التقليدي والإسلامي على بعضهما................. 419

– منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة........................ 422

– تعميق الوعي بالأولويات الاجتماعية.. 424

– تعميق الوعي بمسؤولية محيط ذوي المقامات المرجعية في المجتمع............. 424

– ارتباط الحريات بالمصالح العليا للدعوة والدولة والمجتمع........................ 425
– تعميق الوعي بثوابت منظومة سنن التسخير.............................. 426
– تعميق الوعي بفقه المداخل الكلية للتواصل والترابط الاجتماعي................... 428
– ضرورة انضباط المرحلي بالاستراتيجي في حركة الدعوة.................... 429
– تجديد النَّفَس الرسالي لقاعدة الدعوة...................................... 413
– الوعي العميق بحركة الأحداث وأهميته في فعالية الإنجاز...................... 432
– القدرة على استثمار الظروف والإمكانات المتاحة............................ 434
– الحرص على الاستقرار وضمان حرية الدعوة................................ 436
– استثمار قاعدة النموذج في الدعوة والبناء والمواجهة........................... 437
– القدرة على الإدارة المتفوقة للحرب النفسية................................... 440
– القدرة على استثمار المبادرة في الدعوة والبناء والمواجهة....................... 442
– تعميق وعي قاعدة الدعوة بفقه الموازنات.................................... 442
– استثمار قاعدة التنويه في شحذ فعالية الالتزام والأداء......................... 442
– تعميق الوعي بأهمية استثمار الخبرة الإنسانية................................ 443
– تعميق وعي قاعدة الدعوة بالثقافة الأمنية...................................... 443
– شحذ الوعي بأصول العلاقات الاجتماعية..................................... 443
– استخلاص المواقع والمؤسسات الحيوية من القوى المضادة.................... 444
– ضمان شمولية وتوازن حركة الدعوة والبناء والمواجهة......................... 444
- منجزات الدعوة في هذه المرحلة... 444

الفصل الثاني

مرحلة توطين سلطان الدولة

– الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.. 452
– أهداف الدعوة في هذه المرحلة.. 452
– تعميق التحول التربوي والاجتماعي... 454
– تأمين الانتقال السياسي للمجتمع وضمان استمرارية الدعوة...................... 455
– التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة............................ 456
– مضاعفات توسّع المجال الجغرافي والبشري للدولة............................ 458
– مضاعفات استرخاء القيادة التاريخية القدوة للدعوة............................ 459

– تحدي الانتقال السياسي واستمرارية الدعوة 460

– منهج الدعوة والبناء والمواجهة في هذه المرحلة........................ 461

– طمأنة القوى المتنفذة على مكانتها الاجتماعية........................ 472

– مواجهة مؤسسات ثقافة الفتنة والتضليل........................ 474

– استثمار النفير الثقافي في الاستيعاب التربوي........................ 476

– استثمار النفير الاجتماعي في الاستيعاب التربوي........................ 477

– تعميق الوعي بأولوية الاستيعاب في استراتيجية الدعوة........................ 481

– تهيئة قاعدة الدعوة لحوار وتدافع الحضارات........................ 482

– تعميق الوعي بالثقافة الوقائية........................ 483

– منجزات الدعوة في هذه المرحلة........................ 483

– نتائج الدارسة وآفاق الإستفادة منها........................ 491

– نتائج الدراسة على المستوى المعرفي العام........................ 491

– نتائج الدراسة على مستوى إنجاز أهداف المرحلة........................ 496

– نتائج الدراسة على مستوى المنهج 498

– نتائج الدراسة على مستوى المقاربات الاستثمارية........................ 501

الخاتمة........................ 509

الفهارس العامة

- فهرس الآيات: 510
- فهرس الاحاديث........................ 526
- فهرس المصادر والمراجع........................ 531
- فهرس الموضوعات........................ 545

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Research Abstract:

The Prophetic Methodology in the Preservation of Da'wah and it's Achievements during the Period of State Building

By Tayeb Berghout

The current study attempts to shed light on a fundamental, problematic situation within the philosophy of history and civilization, and to provide an interpretation and analysis undertaken through an Islamic perspective that are both futuristic and compliant with the universal laws of creation. This critical field of study relates to a much more crucial problem concerning the thorough understanding of human viscegerancy on earth and the assuredness of the continuity of change. It also deals with the preservation of human intellectual and material achievements, in addition to their investments in strengthening the intellectual, social and civilizational spirit of change and the expansion of its historical span. The above is the fundamental objective of this dynamic field of human science, which explores the patterns and primary reasons that cause major cultural, social and civilizational transformations throughout history. This can also be seen as a central concern preoccupying the Quran, as seen in the imperative form of the following verse (**Systems have passed away before you. Do but travel in the land and see the nature of the consequence for those who did deny (the messengers)**) Chapter III: 137

There are a number of questions such as: What controls the varying degrees of civilizational depth as well as the historical endurances between a movement of change and another? What affects the varying degree in the human depth (*nafas*) either in its complementary or hostile form of change among movements? Is this degree of depth a pre-destined decree or one that occurs within the area of universal laws that has been subservient to human's power? Or is it connected to ethnic and races and specific human cultures? There also exist other major questions which may be summarized or paraphrased into the following fundamental question: What determines and monitors the course of civilizational change in such a way that it moves in the direction of a better civilization, effective complementation and the alternating roles of supremacy in history while keeping it away from insignificant, ineffective, hostile and backward movements?

This is a general epistemological framework of the essence of the problem which continues to preoccupy human attention until the day God inherits the earth and what is on it, to which the current study attempts to provide an epistemological approach to it through the Islamic universal vision and its associated historical experience embodied in the biography of the Prophet Mohammed in particular.

Here, we face the fundamental civilizational phenomenon which integrates both theory and practice. This provides us with an extremely interesting field of inquiry that is potentially subject to testing and validation; (i.e.) the checking the authenticity and effectiveness of this theory or vision, and the examination of its key points and major themes. We will also be able to check its level of objectivity and its potential to supply us with a comprehensive theory of analysis and interpretation thereby structuring the civilizational developments of human history, which is in the core interest of philosophy of history and civilization as mentioned above.

The current research enjoys significant importance as a result of its relationship with the fundamental questions of Islamic reform and renewal. Namely, why are Muslim backwards while others are advancing? This question is not new and is still been raised in different forms and styles, especially after seeing the poor achievements of reformative efforts undertaken in the Muslims worlds. Such a deplorable state leads the Muslim thinker and politician to face a crowd of major questions such as:

1. What causes the reforming efforts of the Ummah in general to be constantly cyclical with no success at building and continuity? What causes our efforts to be fragmented and

scattered without any comprehensive and connecting threads? What led to resentment and destruction instead of complementation and harmony? What led to duality instead of originality? The above has resulted in a catastrophic waste of resources and opportunities, and has even caused the increase of civilizational debt of the Ummah.

2. Why are unable to find a rational proportion between contributions from reform efforts and its socio-cultural outputs and its tangible civilizational outcome? What causes this disparity and its resulting massive imbalances?
3. What causes the idea or the Islamic worldview, and the process of its individual concretization, the movement of dawah, and the efforts of its realization at the social and civilization level, alongside the attempts of preserving intellectual, human and material achievements while leaving untouched the distortion, abuse and discontinuity in such a way that it seems almost standard and permanent?
4. Why does this imbalance occur and why do the efforts of reform lose much of its originality, effectiveness, integration and its potential for continuity and renewal despite the fact that Divine Wisdom has decreed the blessing of the believer's efforts and their protection and growth and support as shown in the following Qur'anic verse (**Lo! Allah is with those who keep their duty unto Him and those who are doers of good**) . (al-Nahl: 128).

One may ask, where is this problem in all of these major efforts and contributions happening throughout the large field of Islamic reform; taking place under the title "Return to the Quran and the Sunnah", "The end of this Ummah can only be reformed through what has reformed its earlier ones", "Goodness dictates following not innovation", "Islam is the way to might and victory", "Imitating the earlier generations of Muslims", "The victorious group", "The rescued group" and the likes of other genuine statements and introductions, derived from the Quran and the Sunnah and guided by the legacy of its civilization-superficially at the very least-throughout the philosophy of change and development required by all processes of reform.

The current research explores the very nature and constitution of the methodology inherent in the Prophetic movement. In other words, it aims at discovering the principles and foundations of the creation of the very act of Prophetic *da'wah* and change. Such an exploration however, requires an analytical, inductive act of dawah by the Prophet and a subsequent attempt to deduce its fundamental rules and patterns. This may be achieved through the use of data and material derived from *Maqasidic* sources or the functional induction of the prophets' acts, stands and attitudes in his personal exemplification of Islam and calling to it. This approach would also be attained through the development of a socio-cultural paradigm, and in facing the challenges both at the internal and external fronts.

In this research, I adopted the following methodology: I divided the research into a conceptual introduction, three chapters and nine parts, followed by a summary of results and prospects of research in the field.

The first chapter is entitled "The Missionary Prospects of the Islamic *Da'wah*". It must be noted however that the prophetic movement sought to establish an awareness of these prospects and to provide the intellectual, emotional, human and physical requirements necessary for transforming such awareness into a society followed by a state then a nation, and into a universal and cosmic humanistic civilization. This part is divided into four parts. The first is on "Founding Introductions on the Importance of Understanding the Major Cycle of Human Existence". The second is on "The Features of the Islamic belief System for the Dilemma of the Major Cycle of Human Existence". The third is on "Developing Human Awareness of the Fundamental Systems of *taskhiri* patterns" while the fourth is on "Developing Human Awareness of the fundamental systems of *'istikhlafi* patterns".

The practical section of this study deals with the methods of the Prophet Muhammad in utilizing the understanding of belief, *taskhir* and *'istikhlaf* in dawah, development, confrontation or

motion. This section includes an introduction and two parts. The first part is on "the Stage of Organizing the State and Safeguarding its Internal and External Sovereignty". It also deals with "the Stage of Organizing the Infrastructure of the State", "the Stage of Safeguarding the State's Infrastructure", and "the Stage of Reinforcing the Strength of the State". The second part deals with "Achieving the Recognition of the State and Empowering its Ability to Control" and is divided in "the Stage of Recognizing the State" and "the Stage of Empowering the State".

I also addressed the following issues at the methodological and procedural level,: the time and space framework for the dawah stage, the goals of dawah in their respective stages and challenges, the foundation of dawah methods and developments and confrontations in this stage as well as achievements and contributions in the stage and their position in general dawah strategy.

The study has led me to the following results:

1. Emphasis on the fundamental importance of understanding the "Major Cycle of Existence" of humans in the worldly life. This specific research concludes that this very understanding represents the primary and major problems of existence and its solution at the same time.
2. Emphasis on the understanding of the "Major Cycle of Existence" for humans which is found in three separate categories of epistemological and scientific understanding/awareness; namely the understanding of the cosmos and belief as well as *taskhir* and *'istikhlaf*.
3. Emphasis on the facts that trials are patterns of the universe and that reciprocation and renewal are represent the engines and organizers of laws and patterns of the human movement and *'istikhlaf* on earth.
4. Importance placed on notions of civilizational futures/ends of the *'istikhlaf* movement on earth which is consistently connected with the movements of renewal and repulsion which dominate human existence.
5. Emphasis that all of the above is associated with degrees of comprehensiveness and integrity of belief, *taskhir* and *'istihlaf* within the "Major Cycle of Performance" of human acts based on the notion that effective human action is continually structured with respect to: fiqh of Aqida, fiqh of *taskhir*, and fiqh of *'istikhlaf*. This provides mankind with a balanced vision about their very cycle of existence and helps them locate their position in the universe, and identify their mission in life.
6. Emphasis on the relationship between the understanding and awareness of belief, *taskhiri*, *'istikhlafi* and divine systems of laws and patterns of human existence.
7. Emphasis that the originality, effectiveness and steadiness of the movement of repulsion and renewal of civilization is deeply rooted in the nature and size of reform taking place in the consciousness of individuals and society due to Allah's patterns of creation.
8. Emphasis on the notions of epistemological awareness and investment of these law systems alongside the methods present in its both of its cultural and technical dimensions. Each stage of these "Major Cycles of Performance" cannot succeed or pave the way to succeeding stages with only support from a sound academic methodology. The latter helps deal with the problems of each stage; enhancing harmony and helping achieve actions according to the highest standard of originality and effectiveness.
9. The most important and interesting result of the research however, relates to what may be considered a comprehensive Islamic theory in the discipline of history and civilization. Namely, the theory of "*tadafu'* and *tajdid*". It shall have an impact on the renewal of society, nations, and humanity; provided it is properly grasped on the epistemological and educational planes and well implemented in areas of planning, guidance of cultural change, civilizational reform of society and nations.

Constantine, July 4th 2010